روبِرتو بولانيو

رجالُ التحرّي المُتَوَحِّشون

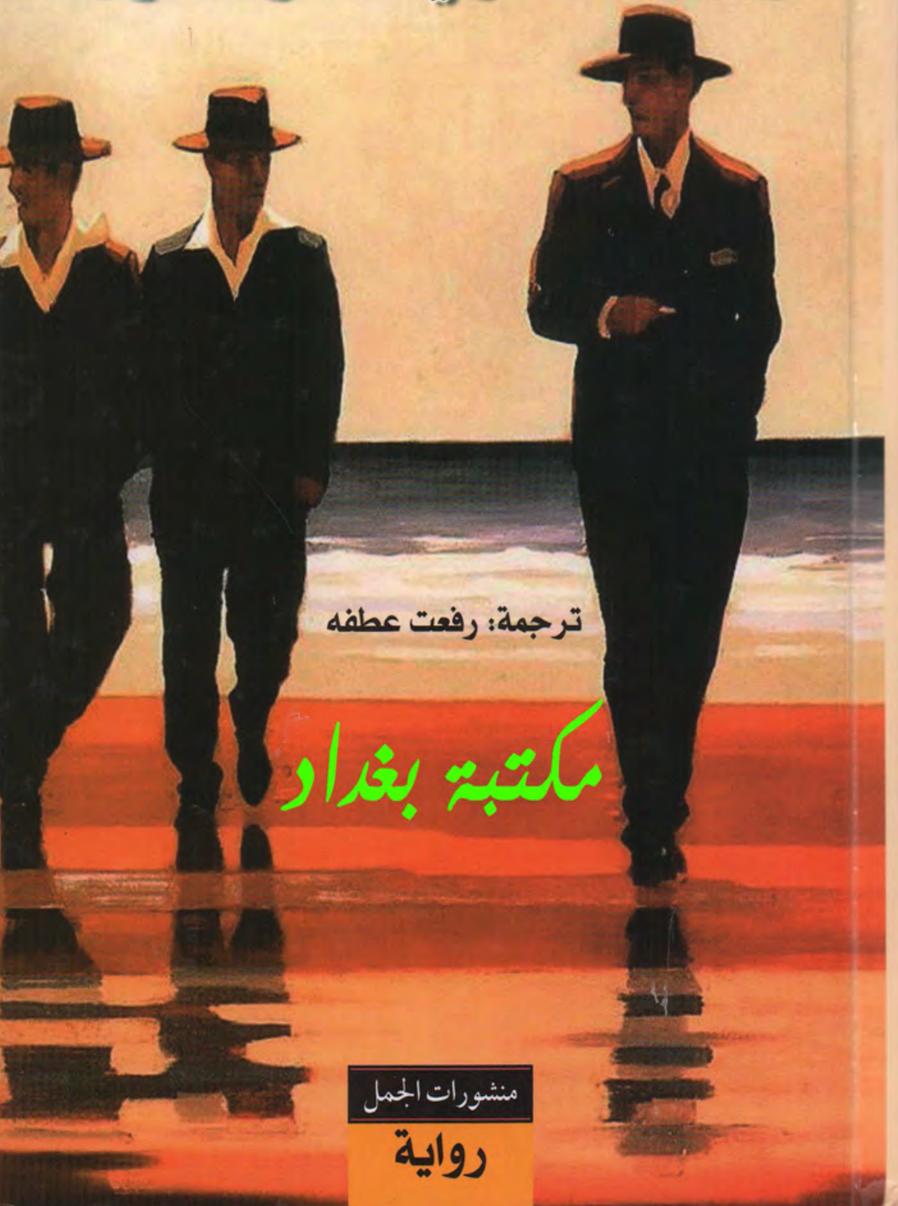

ترجمة: رفعت عطفه

مكتبة بغداد

منشورات الجمل

رواية

روبِرتو بولانيو

رجالُ التحرّي المُتَوَحِّشون

رواية

ترجمة: رفعت عطفه

منشورات الجمل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

روبِرتو بولانيو (١٩٥٣-٢٠٠٣)، وُلِدَ في تشيلي، روائيٌّ وشاعر، فرض نفسه كواحدٍ من كتّاب أمريكا اللاتينية الذين لا غنى عنهم في زماننا. نُشِرَت مجموعاته القصصية في أناغراما: **مكالمات هاتفية**، **عاهرات قاتلات والفارس الذي لا يُطاق**، وروايات: **حلبة التزلج**، **النجم البعيد**، **تميمة**، **رواية صغيرة**، **ليل تشيلي**. **أمبيريس**، **رجال التحرّي المتوحّشون** (جائزة هِرالْدِ للرواية وجائزة رومولو غايّغو). روايته الأخيرة التي ظهرت بعد موته **٢٦٦٦** تعتبر بالإجماع أعظم أعماله. كما نُشر له بعد وفاته **بين قوسين**، **سرُّ الشرّ** و**الرايخ الثالث**.

روبِرتو بولانيو: **رجالُ التحرّي المُتَوَحِّشون**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: رفعت عطفه

كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت - بغداد ٢٠١٧

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Roberto Bolaño: *Los detectives salvajes*

© 1998, Roberto Bolaño

© *Al-Kamel Verlag* 2017

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى كارولينا لوبِّتْ ولاوتارو بولانيو،
المتشابهين بشكل محظوظ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- هل تريد حضرتك خلاصَ المكسيك؟
هل تريد أن يكونُ يسوعُ مَلِكَنا؟
- لا.

مالكوم لوري

https://telegram.me/maktabatbaghdad

I

مكسيكيون ضائعون في المكسيك

(١٩٧٥)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢ تشرين الثاني

دُعيتُ وديّاً لأن أُشَكِّلَ جزءاً من الواقعيةِ الأحشائية. طبعاً قبلتُ. لم يكن هناك حفل ابتداء. هذا أفضل.

٣ تشرين الثاني

لا أعرف جيدّاً ما تقوم عليه الواقعية الأحشائية. عمري سبعة عشر عاماً، اسمي خوان غارثيّا مادِرو، وأنا في الفصل الأوّل من السنة الأولى حقوق. لم أكن أريد أن أدرس حقوقاً، بل آداباً. لكنّ عمّي أصرّ وأخيراً أذعنت. أنا يتيم. سأصبح محامياً. هذا ما قلته لعمّي وزوجة عمّي وأغلقتُ بعدها الغرفةَ على نفسي وبكيتُ طوال الليل. أو على الأقل خلال جزء كبير منه. دخلتُ بعدها كليةَ الحقوق المجيدة بإذعان ظاهري، لكنّني سجّلتُ بعد شهر في ورشة شعر خوليو ثِسَر آلامو، في كلّية الفلسفة والآداب، وبهذه الطريقة تعرّفتُ على الواقعيين الأحشائيين أو الأحشائيّين الواقعيّين، بل وحتى الأحشائيين، كما يُحبون أن يُسموا أنفسهم أحياناً. كنتُ حتى ذلك الوقت قد حضرتُ إلى الورشة أربع مرّات، ولم يحدث قط أيّ شيء، هذا مجرّد كلام، لأنّه إذا ما أمعن المرء النظرَ جيداً يجد أنّ هناك دائماً أشياءَ تحدث: كنّا نقرأ قصائدَ وكان آلامو، بحسب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مزاجِهِ، يمدحُها أو يمسح بها الأرض، يقرأ شخصٌ، ينقده آلامو، يقرأ آخر، ينقده آلامو، يعود ويقرأ آخرُ وآلامو ينقده. وكان آلامو يضجر أحياناً ويطلب منّا (نحن الذين كنّا لا نقرأ في تلك اللحظة) أن ننقدَ أيضاً، وعندها كنّا ننقدُ وآلامو يشرعُ بقراءة الصحيفة.

كان المنهج مثالياً كيلا يصبحَ أحدٌ صديقاً لأحد، أو لكي ترتكز الصداقات على المرض والحنق.

من ناحية أخرى لا أستطيع أن أقول إنّ آلامو كان ناقداً جيّداً على الرغم من أنّه كان يتحدّث دائماً عن النقد. أعتقدُ الآن أنّه كان يتكلّم لمجرد الكلام. كان يعرف ما هو الإطناب، ليس بشكل ممتاز، لكنّه يعرفه. ومع ذلك لم يكن يعرف الخماسية (التي هي في العروض الكلاسيكية، كما يعرف كلّ العالم، نظام من خمس تفعيلاتٍ) كذلك لم يكن يعرف ما هو نيكاركيو (الذي هو بيت من الشعر شبيه بالفالِسيو)، كما لم يكن يعرف ما هي الرباعية (التي هي مقطوعة من أربعة أبيات). كيف أعرف أنّه لم يكن يعرف؟ لأنّني ارتكبتُ في اليومِ الأوّل من الورشة خطأً أنّني سألته عن ذلك. لا أدري بماذا يُفكّر. الشاعر المكسيكي الوحيد الذي يعرف هذه الأشياء عن ظهر قلب هو أوكتافيو باث (عدّونا الكبير)، البقية ليس لديهم أدنى فكرة، على الأقل هذا ما قاله لي عوليس ليما بعد دقائق من انضمامي وقبولي ودّياً في صفوف الواقعية الأحشائية. توجيه هذه الأسئلة إلى آلامو كان، كما لم أتأخّر في التأكّد منه، برهاناً على قلّة كياستي. فكّرتُ في البداية أنّ الابتسامة التي خصّني بها كانت ابتسامة إعجاب. لكنّني انتبهت بعدها إلى أنّها كانت بالأحرى ابتسامة احتقار. الشعراء المكسيكيون (أفترض الشعراء بعامّة) يكرهون أنّ يُذَكّرهم أحدٌ بجهلهم. لكنّني لم أتراجع ثمّ سألتُه، بعد أن خرّب لي قصيدتين في الجلسة الثانية التي حضرتها، عمّا إذا كان

يعرف ما هو ريسبتّو[1]. اعتقد آلامو أنّني أطالبه باحترام قصائدي فأطنب في الكلام عن النقد الموضوعيّ (للتنويع)، الذي هو حقل ملغوم، على كلِّ شاعرٍ شاب أن يمرّ فيه، إلى آخره، لكنّني لم أدَعْه يتابع ثمّ وبعد أن وضّحتُ له أنّني لم أطلب في حياتي القصيرة قط احترام إبداعاتي الفقيرة، عدتُ لأصوغ له السؤال محاولاً هذه المرّة أن أهجّي الكلمة بأكبر قدر من الوضوح الممكن.

- دعك من الترهات، يا غارثيّا مادِرو - قال آلامو.

- ريسبتّو، يا معلمي العزيز، هو نوع من الشعر الغنائي، ولكي أكون أكثر دقّة شعر الحبّ، شبيه بالسترامبوتّو الذي تحتوي على ستّة أو ثمانية أبيات إحدى عشرية المقاطع، الأربعة الأولى يلتقي فيها البيت الأوّل مع الثالث في القافية والثاني مع الرابع، والأبيات التالية كلّ بيتين بقافية واحدة. مثلاً. . . . وكنتُ أستعدّ كي أعطيه مثالاً أو مثالين حين نهض بقفزة واحدة وأنهى النقاش. ما حدث بعدها كان ضبابيّاً (على الرغم من أنّ ذاكرتي جيّدة): أتذكّر ضحكة آلامو وضحكات رفاق الورشةِ الأربعة أو الخمسة، الذين كانوا بالتأكيد يحتفون بنكتة على حسابي.

لو كان آخر غيري لما عاد ليضع قدماً في الورشة، لكن وعلى الرغم من ذكرياتي المفجعة (أو من انعدام الذكريات، بالنسبة للحالة المفجعة جدّاً أو بالأحرى الاحتفاظ بهذه الذكريات) فقد مثلتُ في الأسبوع التالي هناك، دقيقاً في موعدي كما أنا دائماً؟

أعتقدُ أنّ القدرَ هو الذي جعلني أعود. كانت جلستي الخامسة

---

(١) يقع هذا الخلط بالمعنى نظراً لتشابه اللفظين الإيطالي والإسباني: rispetto و respeto لأنّ الكلمة الثانية تعني الاحترام، بينما الأولى تعني الاحترام وتعني نوعاً من الشعر كما سنرى لاحقاً،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في ورشة آلامو (لكن يمكن أن تكون الثامنة أو التاسعة، انتبهت في المرحلة الأخيرة إلى أنّ الوقت ينطوي أو يتمطّى على هواه) وكان التوتّر، التيار المتناوب مع المأساة، يُحسّ به في الجوّ دون أن يُفلِح أحدٌ في توضيح السبب. كي أبدأ أقولُ: تواجدْنا جميعاً، تلاميذ الشعر السبعة المسجلون مبدئيّاً، وهو أمر لم يحدث في الجلسات السابقة. أيضاً كنّا مُضطربين. آلامو نفسه، الهادئ جدّاً عادة، لم يكن على ما يُرام. فكّرتُ للحظة أنّ شيئاً ما يمكن أن يكون قد حدث في الجامعة، تراشق بالنيران في حرمها، لم أعلم به، إضراب مفاجئ، مقتل عميد الكليّة، اختطاف أحد أساتذة الفلسفة أو شيء من هذا القبيل. لكنّ شيئاً من هذا لم يحدث، والحقيقة أنّه لم يكن هناك مبرِّر كي يكون أحد مضطرباً. على الأقل موضوعياً لم يكن عند أحدٍ أسباب كي يكون مضطرباً. لكنَّ الشعرَ (الشعر الحقيقيّ) هو هكذا: يسمح لك أن تُحسّ به، يشي بنفسه في الجوّ، مثل الزلازل التي يستشعر بها بحسب ما يقولون، بعضُ الحيوانات، المؤهّلة خصيصاً لهذه الغاية (هذه الحيوانات هي الأفاعي، الديدان، الفئران وبعض الطيور.) ما حدث بعدها كان صدمة، لكنّه مزود بشيء، أجرؤ، مع خطر أن أكون متحذلقاً، بأن أصفه بالرائع. وصل شاعران أحشائيان واقعيان، قدّمهما آلامو إلينا مُكرهاً، على الرغم من أنّه كان لا يعرف شخصياً إلا واحداً منهما، الآخر كان يعرفه بالسمع، أو أنّ اسمه لم يكن غريباً عليه، أو أنّ أحداً كلّمه عنه، لكنّه أيضاً قدّمه لنا.

لا أدري عمّا كانا يبحثان هناك. بدا واضحاً أنّ الزيارةَ ذاتُ طبيعة عدوانيّة، وإن كانت لا تخلو من لمسة دعائية وتبشيرية. لزم الأحشائيون في البداية الصمتَ، أو الرصانة. اتخذ آلامو من جهته موقفاً دبلوماسيّاً، ساخراً قليلاً، موقفَ انتظار الأحداث، لكنّه راح شيئاً فشيئاً، أمام خجل الغريبين، يتشجّع وبعد نصف ساعة عادت

الورشة لتكون كما هي دائماً. عندها بدأت المعركة. شكّك الواقعيون الأحشائيون بالنظام النقديّ الذي كان يستخدمه آلامو، وعامل هذا بدوره الواقعيين الأحشائيين على أنّهم سرياليون من الدرجة الثالثة وماركسيون مزيّفون، مستنداً في هجومه إلى دعم خمسة من أعضاء الورشة، أي الجميع باستثنائي أنا وصبيّ نحيل جدّاً يمضي دائماً حاملاً كتاباً للويس كارول ولا يكاد يتكلّم أبداً، الموقف الذي بكلّ صراحةٍ فاجأني، ذلك أنّ الذين كانوا يساندون آلامو بكلّ ذلك الحماس، هم أنفسهم من كانوا يتلقون انتقاداته القاسية ويظهرون الآن (الأمر الذي بدا لي مفاجئاً) كأكثر المدافعين عنه وفاءً. في تلك اللحظة قرّرت أن أُدلي بحبّة رمليَ فاتهمتُ آلامو بأنّه لا يملك فكرة عما هو الريسبتو؛ اعترف الواقعيون الأحشائيون بوضوحٍ أنّهم أيضاً لا يعرفون ما هو، لكنّ ملاحظتي بدت لهم سديدة، وهذا ما عبروا عنه؛ سألني واحدٌ منهم، كم عمري، فقلت سبع عشر سنة وحاولت أن أُوضّح مرّة أخرى ما هو الريسبتّو؛ احمرَّ آلامو غضباً، واتهمني أعضاء الورشة بالحذلقة (قال أحدهم إنّني أكاديمي)؛ الواقعيون الأحشائيون دافعوا عنّي، وما إن انطلقت حتى سألتُ آلامو والورشة بعامّة عمّا إذا كانوا يتذكّرون على الأقل ما هو النيكاركيو أو الرباعية، وما من أحد عرف أن يجيبني.

لم ينته النقاش، بعكس ما كنتُ أتوقّع، إلى قتال عام. عليّ أن أعترف أنّ ذلك كان سيسرّني. ومع أنّ أحد أعضاء الورشة وعد عوليس ليما، بأنّه سيحطّم يوماً ما وجهه، في النهاية لم يحدث شيء، أعني شيئاً عنيفاً، مع أنّني انفعلت أمام التهديد (الذي أُكرّر لم يكن موجّهاً ضديّ)، مؤكّداً للمُهدِّد أنّني تحت تصرّفه في أيّ زاوية من الحرم الجامعي وفي اليوم والساعة التي يريد.

كان إغلاق السهرة مفاجئاً. تحدّى آلامو عوليس ليما أن يقرأ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعض قصائده. لم يفسح لهم هذا بأن يترجوه، وأخرج من أحدِ جيوب سترته بعضَ الأوراق المتسخة والمجعدة. يا للهول، فكَّرتُ، لقد حشرَ هذا الوغدُ نفسَهُ بنفسه في فم الذئب. أظنّ أنّني أغمضت عينيَّ بخجلٍ غريب وخالص. هناك لحظات لقراءة الشعر ولحظات للملاكمة. بالنسبة إليّ كانت تلك واحدة من اللحظات الأخيرة. أغمضت عينيّ، كما قلتُ، وسمعتُ ليما يتنحنح. سمعتُ الصمتَ (إذا كان هذا مُمكِناً، مع أنّني أشكّ بذلك)، شيء ما مزعج راح يتشكل حوله. وأخيراً سمعتُ صوتَه وهو يقرأ أفضل قصيدة سمعتها في حياتي. نهض بعدها أرتورو بِلانو وقال إنّهم يبحثون عن شعراء يريدون أن يُشاركوا في مجلّة الواقعيين الأحشائيين، التي يفكّرون في إصدارها. كان بودِّ الجميع أن يُسجلوا أسماءهم، لكنّهم شعروا بعد النقاش بأنّهم مرتبِكون قليلاً فلم يفتح أحد فمه. حين انتهت الورشة (في وقت متأخّر أكثر من المعتاد) ذهبتُ معهم حتى موقف الحافلات. كان الوقت متأخراً أكثر من اللازم. ما من حافلة تمرّ، وهكذا قرّرنا أن نأخذ معاً حافلة صغيرة حتى رِفورما، ومن هناك ذهبنا سيراً على الأقدام إلى بار في شارع بوكارِلي، حيث مكثنا حتى وقت متأخرٍ جدّاً نتكلّم عن الشعر.

بوضوح لم أخلص إلى أشياء كثيرة. اسم المجموعة هو بطريقة ما مزحة وبطريقة ما شيء جدّي تماماً. أعتقد أنّه قبلَ سنواتٍ كثيرة كان هناك مجموعة طليعية مكسيكية اسمها الواقعيون الأحشائيون، لكنّني لا أعرف ما إذا كانوا كتّاباً أم صحفيين أم ثوريين. كانوا نشيطين، أيضاً ليس واضحاً في ذهني كثيراً، في عقد العشرينيات أو الثلاثينيات. طبعاً لم أسمع أحداً قط يتكلّم عن هذه المجموعة، لكن هذا يعود إلى جهلي في المسائل الأدبية (كل كتب العالم تنتظر أن أقرأها). لقد ضاع الواقعيون الأحشائيون، بحسب أرتورو بِلانو، في

صحراء سونورا. ذكروا بعدها المدعوة ثِساريا[1] تيناخِرو أو تيناخا، لا أتذكّر، أعتقد أنّني كنتُ أجادل وقتها نادلَ البار بصوت عال حول بعض زجاجات البيرة، وتكلموا عن شعر الكونت لوترياmون، عن شيءٍ ما في الأشعار التي لها علاقة بالمدعوة تيناخِرو، أطلق ليما تأكيداً غامضاً. فبحسبه كان الواقعيون الأحشائيون الحاليون يسيرون إلى الخلف. كيف إلى الخلف؟ سألتُ.

- إلى الوراء ونحن ننظر إلى نقطة، لكننا نبتعد عنها، بخطّ مستقيم باتجاه المجهول.

قلتُ إنّ السير بهذه الطريقة يبدو لي رائعاً، على الرغم من أنّني في الحقيقة لم أفهم شيئاً. وإذا ما فكّرنا جيّداً فإنّها أسوأ طريقة في السير.

بعدها وصل شعراء آخرون، بعضهم واقعي أحشائي وآخرون لا، وصارت الضوضاء مستحيلة. فكّرتُ للحظة أنّ بِلانو وليما نسياني، مشغولين في النقاش مع كلّ شخصيّة غريبة الأطوار تقترب من طاولتنا، لكنّهما سألاني عندما بدأ الفجر يطلع عمّا إذا كنت أريد أن أنتمي إلى العصابة. لم يقولا «المجموعة» ولا «الحركة»، قالا العصابة وهذا أعجبني. طبعاً وافقت. كان شيئاً بسيطاً جدّاً. شدّ واحد منهما، بِلانو على يدي وقال لي إنّني أصبحت واحداً من أتباعه، غنينا بعدها أغنية رانتشرا. كان هذا كلّ شيء. كانت كلمات الأغنية تتكلّم عن قرى الشمال الضائعة وعن عيني امرأة. سألتهما قبل أن ابدأ بالتقيّؤ في الشارع عما إذا كانت تلكما العينان عيني ثِساريا تيناخِرو. نظر بِلانو وليما إليَّ وقالا لي إنّني لا شكّ واقعي أحشائيّ حقيقيّ، وإننا معاً سوف نغيرّ الشعر الأمريكي اللاتيني.

---

(١) Cesárea وتعني تماماً كما في العربية قيصرية (الولادة من خلال الجراحة).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أخذت في السادسة صباحاً حافلة صغيرة أخرى، هذه المرّة وحدي، أقلّتني إلى حيّ ليندابيستا، حيث أعيش. اليوم لم أذهب إلى الجامعة. أمضيتُ النهارَ كلّه مغلقاً على نفسي غرفتي أكتب قصائد.

٤ تشرين الثاني

عدت إلى بار شارع بوكارِلي، لكنّ الواقعيين الأحشائيين لم يظهروا. انغمست بينما كنتُ أنتظرُهم في القراءة والكتابة. رواد البار المعتادون، مجموعة من السكارى الصموتين، أو بالأحرى المريعين، لم يرفعوا نظرهم عنّي.

نتيجة خمس ساعات من الانتظار: أربع زجاجات بيرة، أربع كؤوس تِكيلا، طبق فطيرة سوبّس[١] تركته من منتصفه (كان شبه فاسد)، قراءة كاملة لآخر ديوانٍ لآلامو (حملته معي صراحةً كي أسخر منه مع أصدقائيَ الجدد)، سبعة نصوص مكتوبة على طريقة عوليس (النصّ الأوّل عن أطباق السوبّس التي كانت لها رائحة تابوتٍ، والثاني عن الجامعة: كان يراها مدمّرة، الثالث عن الجامعة: كنتُ أجري عارياً وسط حشد من الزومبيين، الرابع عن قمر العاصمة الفيدرالية، الخامس عن مُغنٍّ ميتٍ، السادس عن جمعية سرّية كانت تعيش في مجاري تشابولتِبِّك، والسابع عن كتاب مفقود والصداقة) أو بالأحرى على طريقة القصيدة الوحيدة التي أعرفها لعوليس ليما، والتي لم أقرأها بل سمعتُها وإحساس جسديّ وروحيّ بالتضامن.

زوج من السكارى حاولا أن يحشرا نفسيهما معي لكنّني على الرغم من صغر سنّي، إلا إنّني أملك من العريكة ما يكفي كي أواجه

(١) Sopes هي خبز ذرة مقلية يضاف إليه الجبن أو اللحم أو أشياء أخرى بحسب المنطقة.

أي شخص. نادلة (تُدعى بريخيدا، بحسب ما علمتُ، وتقول إنّها تتذكّرني من الليلة التي قضيتُها هناك مع بِلانو وليما) داعبت شعري. كانت مُداعبةً كما لو أنّها دون انتباه، بينما هي ذاهبة لتخدم طاولة أخرى. جلستْ بعدها برهة معي وألمحت إلى أنّ شَعريَ أطول من اللازم. كانت ظريفة لكنّني فضّلتُ ألا أردَّ عليها. في الثالثة صباحاً عدتُ إلى البيت. لم يظهر الواقعيون الأحشائيون. ألن أراهم ثانية؟

٥ تشرين الثاني

لا أخبار عن أصدقائي. منذ يومين لا أذهب إلى الكليّة. أيضاً لا أُفكّر بالعودة إلى ورشة آلَامو. ذهبتُ هذا المساء مرّةً أخرى إلى إنكروثيخادا بِراكروثانا (بار بوكارِلي) لكن ما من أثر للواقعيين الأحشائيين. شيء غريب: التبدلات التي يتعرض لها مكان من هذه الطبيعة بزيارته مساء أو ليلاً بل وحتى صباحاً. باستطاعة أيّ شخص أن يقول إنّها باراتٌ مختلفة. بدا البارُ هذا المساء أقذر مما هو في الواقع. شخصيات الليل المريعة لم تحضر بعد، الزبائن هم، كيف أقول ذلك، أكثر ملصاً، أكثر شفافية، وأيضاً أكثر مسالمة. ثلاثة مكتبيين من الدرجة الدنيا، ربّما كانوا موظفين، سكرانين تماماً. بائع بيضِ سلاحف كاغواما وسلّته فارغة، طالبا تحضيري، سيّد أشيب، جالس إلى طاولة يأكل إنتشيلادا[١]. النادلات أخريات أيضاً. الثلاث اليوم لم أكن أعرفهنّ على الرغم من أنّ واحدة منهنّ اقتربت منّي وقالت لي فجأة: لا بدّ أنّك الشاعر. أربكني تأكيدها، لكن، عليّ أن أعترف أيضاً سرّني.

---

(١) Enchilada نوع مما يُسمّى في بلاد الشام بالبرك أو السمبوسك المقلي، مصنوع من عجين الذرة المتبلة بالفلفل الحار ومكونات أخرى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- بلى، يا سيّدة، أنا شاعر، لكن كيف عرفت حضرتك ذلك؟

- حدّثتني بريخيدا عنك. بريخيدا، النادلة!

- وما الذي قالته لك؟ - سألتُ دون أن أجرؤ بعدُ على مخاطبتها بـ«أنتِ».

- إنّك تكتب قصائد جميلة جدّاً.

- هذا ما لا تستطيع أن تعرفه هي. لم تقرأ قط شيئاً لي - قلتُ وقد احمررت قليلاً لكنّني صرت في كلّ مرّة أكثر رضاً عن الانعطاف الذي راح يأخذه الحديث. أيضاً فكّرتُ أنّ من الممكن أن تكون بريخيدا قد قرأت بعض أبياتٍ لي: من فوق كتفي! هذا لا يُعجبني كثيراً.

سألتني النادلة (اسمها روساريو) عمّا إذا كان باستطاعتي أن أعمل معها معروفاً. كان عليّ أن أقولَ لها «بحسب»، كما علّمني (حتى الإنهاك) عمّي، لكن هكذا أنا، وقلت لها تفضّلي، ما المسألة.

- أودّ لو تكتب لي قصيدة -قالت.

- لكِ ذلك. سأكتبها لك في أيّ يوم من هذه الأيام - قلت لها مخاطباً إياها لأوّل مرّة بصيغة المخاطَب المباشر وبما أنّني تورّطتُ طلبتُ منها أن تأتيني بكأس تِكيلا آخر.

- أنا أدعوك - قالت هي -. لكنك ستكتبُ لي القصيدة الآن.

حاولت أن أوضّح لها أنّ القصيدة لا تُكتب بهذه السهولة.

- لماذا كلّ هذا الاستعجال؟

التوضيح الذي قدَّمته لي كان غامضاً إلى حدّ ما؛ يبدو أنّ المسألة تتعلّق بنذرٍ قامت به لعذراء غوادالوبّ، بشيءٍ له علاقة بصحة أحدٍ من العائلة عزيز جدّاً ومحبوب جداً اختفى وعاد ليظهر. لكن ما علاقة القصيدة بكلّ هذا؟ اعتقدتُ للحظةٍ أنّني شربت أكثر من اللازم، وأنّني منذ ساعات طويلة لم آكل وأنّ الكحولَ والجوعَ

يفصلانني عن الواقع. لكنّني فكّرتُ بعدها أنّه ليس إلى هذا الحدّ. بالضبط لأنّ إحدى مقدمات كتابة الشعر التي تُدافع عنها الواقعية الأحشائية؛ إذا لم تخنّي ذاكرتي (وإن كنتُ في الحقيقة لا أضع يدي في النار)، كان الانفصال العابر عن بعض أنواع الواقع. كائن ما كان، الصحيح هو أنّ زبائن البار كانوا يندرون في تلك الساعة ولذلك راحت النادلتان الأخريان تقتربان شيئاً فشيئاً من طاولتي وأصبحت الآن محاطاً في وضعية بريئة ظاهرياً (واقعيّاً بريئة)، لكنّها بالنسبة لأيّ مشاهد غير مطلع، شرطيّ، مثلاً، لن تبدو كذلك: طالب جالس وثلاث نساء واقفات بجانبه، واحدة منهنّ تلامس كتفه وذراعه الأيْسَرَيْن بوركها الأيمن، الأخريان ملتصقتان بحافة الطاولة (الحافة التي ستترك أثرها على تلك الأفخاذ)، يقيمون حديثاً أدبياً بريئاً، لكن مشاهدة ذلك من الباب يمكن أن تبدو أيّ شيء آخر. مثلاً: قواد في أوج حديثه مع عاهراته. مثلاً: طالب زير نساء لا يسمح بأن يُغوى.

قرّرتُ أن أقطع بالتي هي أحسن. نهضتُ كيفما استطعتُ، سدّدتُ، تركت تحية ودية لبريخيدا وذهبتُ. في الشارع أعمتني الشمسُ لثوان.

٦ تشرين الأوّل

اليوم أيضاً لم أذهب إلى الكلّية. نهضتُ باكراً، أخذتُ الحافلة باتجاه الجامعة المكسيكية الوطنية المستقلة، لكنّني نزلتُ قبلها وخصصت جزءاً كبيراً من الصباح للتصعلك في مركز المدينة. دخلتُ أوّلاً إلى مكتبة سوتانو واشتريتُ كتاباً لبيير لويس، عبرتُ بعدها شارع سوارِث، اشتريت فطيرة جامبو وذهبت لأقرأ وآكل جالساً على مقعدٍ في الشارع المشجّر. قصّة لويس وبخاصة الصور التوضيحية أحدثت عندي انتصابَ حصان. حاولتُ أن أنهض وأرحل، لكن كان من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المحال عليّ أن أسير وقضيبي على تلك الحال، دون أن ألفت نظر، ليس فقط السابلة بل والمارّة بعامة. وهكذا عدتُ لأجلس، أغلقتُ الكتاب ونظفت السترةَ والبنطلون من فتات الفطيرة. بقيت برهةً طويلة أنظرُ إلى ما بدا لي سنجاباً كان يتنقل بحذر فوق أغصان شجرة. بعد عشر دقائق (تقريباً) انتبهت إلى إنّه لم يكن سنجاباً بل جرذاً، جرذاً هائلاً! اكتشافي ملأني بالحزن. كنتُ هناك، دون أن أستطيع أن أتحرّك، على بعد عشرين متراً، جرذ باحث وجائع متشبث بالغصن، يبحث عن بيوضِ العصافير أو فتات الخبز الذي حملته الريح حتى رؤوس الأشجار (مشكوك به) أو أيّ شيءٍ كان. صعد الحزن حتى رقبتي وأصبت بالغثيان. نهضتُ قبل أن أتقيّأ ورحتُ أركض. بعد خمس دقائق من السير الحثيث اختفى الانتصاب.

كنت ليلاً في شارع كوراثون (الموازي لشارعي) أشاهد مباراة كرة قدم. الذين كانوا يلعبون أصدقاء طفولتي، وإن كان قولي بأصدقاء طفولتي قد ينطوي على مبالغة. غالبيتهم ما زالوا في التحضيري وآخرون تركوا الدراسةَ ويعملون مع آبائهم أو لا يعملون شيئاً. منذ أن دخلتُ الجامعة اتسعت الهوّةُ التي تفصل بيننا فجأةً ونحن الآنَ كما لو أنّنا من كوكبين مختلفين. طلبتُ منهم أن يسمحوا لي باللعب. الإضاءة في الشارع ليست جيدة والكرة لا تكادُ تُرى. ثمّ إن سيّاراتٍ كانت تمرّ بين الحين والآخر فنضطر للتوقّف. تلقيتُ رفستين وضربة بالكرة على وجهي. يكفي. سأقرأُ في كتاب بيير لويس قليلاً وسأطفئ بعدها النور.

٧ تشرين الثاني

في مدينة مكسيكو أربعة عشر مليون نسمة. لن أرى الواقعيين الأحشائيين بعد الآن. كما لن أعود إلى الجامعة ولا إلى ورشة

آلامو. سنرى كيف سأتدبّر أمري مع عمي وزوجته. انتهيت من قراءة كتاب لويس، أفروديت، وأنا أقرأ الآن للشعراء المكسيكيين المتوفين، زملائي المستقبليين.

٨ تشرين الثاني

اكتشفت قصيدة رائعة. لم يقولوا لي عن مؤلِّفها إفرين رِبوييّدو (١٨٧٧-١٩٢٩) شيئاً قط في دروس الأدب. أنسخها:

مصاص الدماء

تتدحرج جعداتك الداكنة والسميكة على تكويناتك الحارة
مثل نهر
فأنثرُ على موجه الأجعد، الداكن
ورودَ قبلاتي المشتعلة.
بينما أبسط الخواتم الكثيفة،
أشعر بملمس يدك الخفيف والبارد
فتسري بي قشعريرة مديدة تنفذُ إلى عظامي.
بؤبؤا عينيك الفوضويان النفوران
يبرقان
حين يسمعان
التنهيدة
التي تخرج ممزّقة أحشائي
وبينما أنا أُحتَضَر، تتظاهرين، أنتِ الظامئة،
بأنك خفّاش أسودُ وعنيد، يتغذى على دمي الملتهب.

في المرّة الأولى التي قرأتها (منذ بضع ساعاتٍ) لم أستطِع أن أتفادى أن أُغلق غرفتي بالمفتاح على نفسي وأشرع بالاستمناء وأنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أقرأها مرّةً، مرتين، ثلاث مرّات، وحتى عشراً أو خمس عشرة مرّة، متصوّراً روساريو، النادلة فوقي على أربعٍ، تطلب مني أن أكتب لها قصيدة لهذا الكائن العزيز والمتوق، أو ترجوني أن أطعنها فوقَ السرير بقضيبي الملتهب.

ما إن سكنتُ حتى ملكت الفرصة كي أُفكّر بالقصيدة.

الـ«*موج الأجعد والداكن*» ليس في تفسيره، كما أعتقد، أي شك. لا يحدث الشيء ذاته مع البيت الأوّل من الرباعية الثانية «***بينما أبسط الخواتم الكثيفة***» يمكن تماماً أن تُشير إلى موجه الأجعد والداكن، واحداً فواحداً ممدوداً أو مفكوكاً، لكن الفعل «بسط» ربّما أخفى معنى مختلفاً.

أيضاً «*الخواتم الكثيفة*» ليست واضحة تماماً. هل هي جعدات زغب العانة، جعدات شعر الخفاش، أم هي مداخل مختلفة إلى الجسد البشري؟ بكلمة واحدة، تراه يلوط بها؟ أظنّ أنّ قراءتي لبيير لويس ما زالت تدور في روحي.

٩ تشرين الثاني

قرّرتُ أن أعودَ إلى إنكروثادا بِراكروثانا، ليس لأنّني آمل أن أجد الأحشائيين الواقعيين، بل كي أرى مرّة أخرى روساريو. كتبتُ لها بعضَ الأبيات. أتحدّثُ فيها عن عينيها والأفقِ المكسيكي الذي لا نهاية له، عن الكنائسِ وسرابِ الطرق التي تقود إلى الحدود. لا أدري لماذا، أعتقد أنّ روساريو من بِراكروث أو تاباسكو، بل ويمكن أن تكون من يوكاتان. ربّما ذكرت هي ذلك. يمكن أن يكون مجرّد تصوّر منّي. ربّما ساهمَ اسم البار في البلبلة وأنّ روساريو ليست من بِراكروث ولا من يوكاتان، بل من العاصمة الفيدرالية. على كلّ حال اعتقدتُ أنّ أبياتاً تستذكرُ مناطقَ مختلفة قطرياً عن منطقتها (على

افتراض أنّها من بِراكروث، الأمر الذي صرتُ أشك به في كلّ مرّة أكثر) ستكون بالنتيجة واعدة أكثر بالنسبة لمقاصدي. سيحدث بعدها ما يجب أن يحدث.

في هذا الصباح همتُ على وجهي جِول بيّا، وأنا أُفكّر بحياتي. لا يَمْثُلُ المستقبل لامعاً جدّاً، لا سيّما إذا ما واصلت تغيّبي عن الدروس. ومع ذلك فإنّ ما يشغلني حقيقةً إنّما هي تربيتي الجنسية. لا أستطيع أن أمضي حياتي مستمنياً. (أيضاً تشغلني تربيتي الشِّعرية، لكن من الأفضل ألاّ أواجهَ أكثرَ من مشكلة واحدة في آنٍ معاً). هل لروساريو خطيب؟ وإذا كان لها، تُرى هل هو غيور وتملُّكيّ؟ هي فتية أكثر من اللازم على الزواج، لكنّني أيضاً لا أستطيع أن أستبعد هذا الاحتمال. أعتقد أنّني أعجبها، يظهر هذا واضحاً.

١٠ تشرين الثاني

وجدتُ الواقعيين الأحشائيين. روساريو من بِراكروث. أعطاني جميعُ الواقعيين الأحشائيين عناوينهم وأنا أعطيتهم عنواني. الاجتماعات تُعقَدُ في مقهى كيتو، في بوكارِلي إلى الأعلى قليلاً من بار إنكروثيخادا، وفي بيت ماريّا فونت، حيّ كوندِسا، في بيت الرسامة كاتالينا أوهارا، في حيّ كويواكان. (ماريّا فونت، كاتالينا أوهارا، هذه الأسماء تّذكّرني بشيء لا أعرفه حتى الآن).

فيما عدا ذلك كلّ شيء انتهى على ما يرام، على الرغم من أنّني أوشكتُ أن أقع في كارثة.

حدثت الأشياء على الشكل التالي: وصلتُ قُرابةَ الثامنة مساء إلى إنكروثيخادا. كان البار مليئاً والحضور لا يمكن أن يكونوا أكثر بؤساً ورعباً. بل وكان هناك أعمى في زاويةٍ يعزفُ على الأكورديون ويُغنّي. لكنّني لم أرتعب واستندتُ بمرفقي إلى طاولة العرض. لم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تكن روساريو موجودة. سألتُ عنها النادلةَ التي خدمتني وهذه عاملتني كمِزاجيّ ونزويّ ومغرور، بابتسامة، هذا صحيح، كما لو أنّني لم أبدُ لها قبيحاً جدّاً. بصراحة لم أفهم ما أرادت قولَهُ. سألتُها بعد ذلك من أين روساريو فقالت لي من بِراكروث. أيضاً سألتُها من أين هي. من العاصمة الفيدرالية، قالت. وأنتَ؟ أنا خَيّالُ سونورا، قلتُ لها بغتة ودون مناسبة. في الحقيقة لم أزرْ قط سونورا. هي ضحكت وهكذا استطعنا أن نتابع حديثنا برهة لا بأس بها، لكنّها اضطُرَّت لأن تذهب لتخدم طاولة أخرى. بالمقابل كانت بريخيدا فعلاً زارتها، وعندما هممتُ أن آخذ كأس تِكيلا ثانياً اقتربت منّي وسألتني ما الأمر. لبريخيدا وجه امرأة متجهّم، حزين ومُهان. الصورة التي كنتُ أملكها عنها مختلفة، لكنّني كنتُ في تلك المرّة سكراناً والآن لا. قلت لها مرّت سنوات كثيرة، يا بريخيدا. كنتُ أحاولُ أن أوحي بالطلاقة، بل وبالسرور أيضاً، على الرغم من أنّني لا أستطيع أن أقول إنّني كنت مسروراً. أخذت بريخيدا يدي وحملتها إلى قلبها. في البداية قفزتُ وقصدي الأوّل أن أبتعد عن طاولة العرض وربّما أن أخرج من البار راكضاً، لكنّني تحمّلتُ.

- هل تشعر به؟ - سألت.

- بماذا؟

- بقلبي، يا غبي، ألا تشعر به يخفق؟

سبرتُ برؤوس أصابعي السطح الذي كان يُقدَّم لي: بلوزة الكتان وثديي بريخيدا المؤطرين بحمالة توقعتُ أنّها أصغر بكثير من أن تستطيع احتواءهما. لكن لا أثر للخفقان.

- لا أشعر بشيء - قلتُ بابتسامة.

- قلبي، يا أبله، ألا تسمعه يخفقُ ألا تشعر بأنّه على وشك أن ينفجر؟

- اسمعي، اعذريني، أنا لا أسمع شيئاً.

- كيف ستسمع بيدك، يا ديّوث، فقط أطلب منك أن تشعر به. ألا تشعرُ أصابعُكَ بشيء؟

- الحقيقة... لا.

- يدك مثلَجة - قالت بريخيدا -. ما أجملها من أصابع، كيف يُلاحظ أنّك لم تُضطرّ للعمل أبداً.

شعرت بأنهم ينظرون إليّ يدرسونني، يخترقونني. اهتمّ سكارى طاولة العرض المريعون بحديث بريخيدا الأخير. فضّلت آنيّاً ألا أواجههم وصرّحت بأنّها تُخطئ وأنّ عليّ بالطبع أن أعمل كي أغطّي نفقات دراستي. تضغط بريخيدا الآن على يدي كما لو أنّها تقرأ خطوط قدري. شغلني هذا ولم أنشغل بالمشاهدين المحتَملين.

- لا تكن أفعى- قالت -. معي لا تحتاج لأن تكذب، أعرفُك. أنت مُدَلّل، لكنّ عندك طموحات كبيرة. وأنت محظوظ. ستصل إل المدى الذي تطمح به. وإن كنتُ أرى هنا أنّك ستضيع مرات عديدة، بسبب منك، لأنّك لا تعرف ما تريد. أنت بحاجة إلى أحدٍ يكون معك في السراء والضرّاء. هل أنا مخطئة؟

- لا. تمام. تابعي، تابعي.

- هنا لا - قالت -. هؤلاء الثقلاء النمامون لا يجب أن يعرفوا بقدرك، أليس كذلك؟

تجرّأت لأُوّل مرّة على النظر إلى جانبيَّ علانية. أربعة أو خمسة سكارى مرعبون كانوا يتابعون باهتمام كلمات بريخيدا، بل وكان هناك واحدٌ يحدِّقُ في يدي تحديقاً خارقاً، كما لو أنّ الأمر يتعلق بيده ذاتها. ابتسمتُ لهم جميعاً، لا أرغب بأن يغضبوا، مُفْهِماً إياهم أن لا علاقة لي بتلك المسألة. قرصتني بريخيدا في ظهري. كانت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عيناها مشتعلتين، كما لو أنّها على وشك أن تبدأ شجاراً أو تنفجر بالبكاء.

- هنا لا نستطيع أن نتكلّم، اتبعني.

رأيتها تُدمدم مع إحدى النادلتين، ثم أومأت لي. كان بار إنكروثيخادا بِراكروثانا مزدحماً وتعلو رؤوس الزبائن سحابة من الدخان وموسيقى أكورديون الأعمى. نظرتُ إلى ساعتي، كانت تقارب الثانية عشرة، طارَ الوقتُ، فكَّرتُ، سريعاً.

تبعتُها.

دخلنا نوعاً من القبو والغرفة الخلفية الضيقة والطويلة، حيث كانت تتكدّس صناديق القناني وأدوات تنظيف البار (المطهرات والمكانس وماء القلى، أداة مطاطية لتنظيف البلور ومجموعة من القفازات البلاستيكية. في العمق طاولة وكرسيان. أشارت بريخيدا إلى واحدة. جلستُ. كانت الطاولة مستديرة وكان سطحها مُغطى بالمحفورات والأسماء. غالبيتها مطموسة لا تُقرأ. بقيت النادلة واقفةً على بعد سنتيمترات منّي، تُراقِبني كإلهة أو طير جارح. ربّما كانت تنتظر مني أن أطلب منها أن تجلس. وهكذا فعلتُ متأثّراً بخجلها. لدهشتي جلست على ركبتيّ. كان الوضع غير مريح ومع ذلك لاحظت بعد ثوان مرعوباً أنّ طبيعتي المنفصلة عن عقلي، وعن روحي، بل وعن أسوأ رغباتي، راحت تُقسّي عضوي إلى حدٍّ أصبح من المحال إخفاؤه، لا شكّ أنّ بريخيدا شعرت بحالتي، ذلك أنّها نهضت، ثمّ وبعد أن درستني من علٍ، اقترحت علي اللعق.

- ماذا. . .؟ - قلتُ.

- اللعق. هل تريدني أن ألعقه لك؟

- نظرتُ إليها دون أن أفهم، على الرغم من أنّها، كسباح وحيد ومتعب راحت شيئاً فشيئاً تشقّ طريقها في بحر جهليَ الأسود. ردّت

هي لي النظرةَ. كانت عيناها قاسيتين ومسطحتين. وعندها ميّزةٌ كانت تميزها عن كلّ الكائنات البشرية التي عرفتها حتى ذلك الوقت: كانت تنظر دائماً (في أيّ مكان وأي حالة ومهما حدث) إلى العينين. يمكن لنظرة بريخيدا، قرّرتُ وقتها، يمكن أن تكون لا تُطاق.

- لا أعرف عمّا تتكلّمين - قلتُ.

- عن أن أمصّه لك، يا حياتي.

لم أملك الوقت كي أردّ عليها وربّما كان هذا هو الأفضل. ركعت بريخيدا على ركبتيها دون أن تتوقّف عن النظر إليّ، فتحت سحابي ووضعت قضيبي في فمها. أولاً الحشفة، التي عضّتها عدّة عضات، لم تكن على خفّتها أقل إثارة للقلق، وبعدها القضيب كاملاً دون أن تُظهر ما يدل على أنّها تختنق، وفي الوقت ذاته راحت تجوب بيدها اليمنى ما تحت بطني، معدتي وصدري وتقرصني بتواترٍ منتظم قرصات ما زال ازرقاقها باقياً. قد يكون الألمُ الذي شعرت به قد ساهم في جعل لذّتي فريدة لكنّه في الوقت ذاته منعني من أن أقذف. كانت بريخيدا ترفع من حين لآخر نظرها عن عملها، من دون أن تُفلت من أجل ذلك عضوي، وتبحث عن عينيَّ. عندها كنتُ أغمض عيني وأتلو في ذهني أبياتاً متفرّقة من قصيدة «مصاص الدماء» والتي حين راجعت الحدث بعد ذلك وجدت أنّها لم تكن أبياتاً متفرقة من قصيدة «مصاص الدماء»، بل مزيجاً شيطانيّاً من قصائد من أصل متباين، جمل تنبُّئية من جدّي، ذكريات طفولة، وجه ممثلات معبوداتٍ في مراهقتي (وجه أنخِليكا وماريّا مثلاً بالأبيض والأسود)، مناظر تدور كما لو أنّ دوّامة تجرفها. في البداية حاولتُ أن أحمي نفسي من القرص، لكن حين تأكّدت من لا جدوى جهودي فرّغتُ يدي لشعرِ بريخيدا (المصبوغ باللون الكستنائيّ الفاتح وغير النظيف جدّاً، كما استطعت أن أتبيّن) ولأذنيها، الصغيرتين والسميكتين، وإن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت قسوتهما خارقة للطبيعة كما لو أنّه ليس فيهما غرام واحد من اللحم أو الشحم، فقط غضروف وبلاستيك، لا بل معدن بالكاد مطرّيَ حيث كانت تتدلّى حلقتان من الفضّة الزائفة.

حين بدت النهاية واضحة ورحتُ أرفعُ قبضتيّ أمام ضرورة أن لا أئنّ وأهدّدُ كائناً غير مرئيّ كان يزحف على جدران القبو، فُتح البابُ فجأة (لكن من دون جلبة) وظهر رأس نادلة وخرج من شفتيها تحذير:

- مياه.

قطعتْ بريخيدا فِعْلتَها فوراً. نهضت، نظرت إلى عينيّ بتعبير الخسارة ثمّ حملتني شادّةً إيّاي من سترتي إلى بابٍ لم أنتبه إليه حتى تلك اللحظة.

- إلى اللقاء مع أخرى، يا حياتي -قالت بصوت أكثر بُحّةً من المعتاد بينما هي تدفعني إلى الجانب الآخر.

فجأة ودفعة واحدة وجدتُ نفسي في حمامات إنكروثيخادا براكروثانا، غرفة مستطيلة، طويلة، ضيقة ومعتمة.

سرتُ بضع خطوات على غير هدى، وأنا ما أزال مصعوقاً من سرعة الأحداث التي جرت توّاً. كانت تفوح منها رائحة المُطهِّرات والأرض رطبة وهناك أغمار في بعض الأماكن، والإضاءة ضعيفة جدّاً كيلا أقول معدومة. بين مغسلتين مكسورتين رأيتُ مرآةً؛ نظرت إلى نفسي من طرف عيني؛ فردّ لي الزئبق صورةً وقف لها شعرُ رأسي. بصمتٍ وفي محاولة مني لأن لا أخوضَ في الأرضية التي كان يتدفق فوقها نهرٌ نحيل، رأيته في تلك اللحظة قادماً من أحد المراحيض. عدتُ واقتربتُ من المرآة، يدفعني الفضول. فأعادت هذه لي وجهاً إسفينياً داكنَ اللّونِ الأحمر، مرصعاً بقطرات العرق. قفزت إلى الخلف فأوشكت أن أسقط. كان هناك شخص في أحد

المراحيض. شعرت به يدمدم ويلعن. لا شكّ كان سكراناً مُخيفاً. عندها ناداني أحد باسمي.

- أيّها الشاعر غارثيّا مادِرو.

رأيت خيالين بجانب المباول. كانا ملفوفين في سحابة من دخان. لوطيين، فكّرتُ، لوطيان يعرفان اسمي؟

- أيّها الشاعر غارثيّا مادِرو، اقترب، يا رجل.

على الرغم من أنّ المنطق والحكمة كانا يشيران عليّ أن أبحث عن باب الخروج وأن أذهب من إنكروثيخادا دون مزيد من المماطلة، إلاّ أنَّ ما فعلته هو أنّني خطوتُ خطوتين باتجاه الدخان. أربع عيون برّاقة تراقبني كعيونِ ذئب وسط إعصار (مجاز شعريّ، فأنا لم أرَ قط ذئاباً؛ رأيتُ أعاصيرَ، ولا تنطبق كثيراً على وشاح الدخان الذي كان يلفّ العنصرين الغريبين). سمعتهما يضحكان. هاها، هاها هاها. كانت تفوح منهما رائحة الماريجوانا. اطمأننتُ.

أيّها الشاعر غارثيّا مادِر، جهازك متدلّ.

- ماذا؟

- قضيبك... يتأرجحُ.

لمست فتحة السروال. بالفعل، لم أتمكّن بسبب السرعة والخوف من أن أخبّئ عصفوري. احمررتُ، فكّرتُ أن أشتمَ أمَّهما، لكنّني كبحت نفسي، سويت بنطلوني وتقدّمت خطوةً منهما. بَدَوَا لي معروفين وحاولت أن أتوغّل في الظلمة التي كانت تلفهما وأفكّ لغزَ وجهيهما. عبثاً فعلت.

عندها خرجت يدٌ ثمّ ذراع من بيضة الدخان التي كانت تحميهما وقدّمت لي عقب لفافة الماريجوانا.

- لا أدخّن - قلتُ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- إنّها موتا، يا شاعر غارثيّا مادِرو. قنَّب هندي غولدن أكابولكو.

رفضت برأسي

- لا أحبها - قلتُ.

أفزعتني الضجّة الصادرة عن الغرفة المجاورة. أحدٌ يرفعُ صوتَهُ. رجل. بعدها أحدٌ يصرخُ. امرأة. إنّها بريخيدا، تصوَّرتُ أنّ صاحب البار كان يضربها وأردت أن أهرع لأدافع عنها، على الرغم من أنّ بريخيدا لم تكن تهمّني كثيراً (في الحقيقة لا تهمّني إطلاقاً) عندما كنتُ على وشك أن أدور نصف دورة باتجاه القبو أمسكتني أيدي المجهولَيْن. عندها رأيتُ وجهيهما يطلعان من الدخان. كانا عوليس ليما وأرتورو بِلانو.

تنفَّستُ الصعداء، كدت أُصَفّق، قلتُ لهما إنّني بحثتُ عنهما أيّاماً طويلة، قمت بعدها بمحاولة جديدة للذهاب لمساعدة المرأة التي كانت تصرخ، لكنّهما لم يتركاني.

- لا تحشر نفسك في مشاكل، هما دائماً هكذا -قال بِلانو.

- من هما؟

- النادلة ومعلّمها.

- لكنّه يضربها - قلتُ وبالفعل صار صوت الصفعات مسموعاً بوضوح-. هذا ما لا نستطيع أن نسمح به.

- آه، يا شاعري غارثيّا مادِرو.

- لا نستطيع أن نسمح به، لكنّ الضجة تخدعنا أحياناً. اسمع منّي وثق بي - قال بِلانو.

تخيّلتُ أنّهما كانا يعرفان أشياء كثيرة عن بار إنكروثيخادا ووددت أن أوجّه إليهما بعض الأسئلة بهذا الخصوص، لكنّني لم أفعل كيلا أبدو أرعن.

عند خروجي من المغاسل جرح النور عينيّ. كلّ الناس كانوا يتكلّمون صارخين. آخرون كانوا يُغنّون متبعين لحن الأعمى، بولِرو[1]، أو هكذا بدا لي، يتحدَّث عن حبّ يائس، حبٌّ لا تستطيع السنون إخماده، لكنّها تستطيع فعلاً أن تجعله أخسّ وأقل نبالة، أفظع. كان ليما وبِلانو يحملُ كلّ منهما ثلاثة كتب ويبدوان طالبين مثلي. اقتربنا قبل أن نخرج كتفاً إلى كتف من طاولة العرض. طلبنا ثلاثَ كؤوس تِكيلا، شربناها بجرعة واحدة خرجنا بعدها إلى الشارع ونحن نضحك. عند مغادرتنا لبار إنكروثيخادا نظرتُ إلى الخلف لآخر مرّة آملاً عبثاً أن أرى بريخيدا تظهر في باب القبو، لكنّني لم أرها.

الكتب التي كان يحملها عوليس هي:

بيان كهربائي بأهداب الفساتين، لميشيل بولتو، ماتيو مساجيير، جان-جاك فاوست، جان-جاك نيغوين ذات، جيل بِرت-رامسوترينوم، إف. إم. بين شعراء آخرين من الحركة الكهربائية: نظرائنا الفرنسيين (أفترض ذلك)

دم الحرير، لميشيل بولتو

الشمال ولد مُعتماً لماتيو مساجيير.

الكتب التي كان يحملها أرتورو بِلانو هي:

البلد الذي كلّ شيءٍ فيه مُباح لصوفي بودولسكي

مائة ألف مليار قصيدة لرايموند كينو (كان هذا الأخير مُصَوَّراً، والقَطع الأفقيّ الذي تظهره النسخة المصورة إضافة إلى التلف الخاص بكتاب أُفرط في تداوله، كانا يُحوّلانه إلى نوعٍ من الزهرة الورقية المذهولة التي تشير بتلاتُها المتجعدة إلى الجهات الأربع).

---

(١) Bolero نوع من الغناء الكوبي في الأصل، منتشر في كلّ أمريكا اللاتينية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التقينا بعدها بإرنستو سان إبيفانيو، الذي كان يحمل بدوره ثلاثة كتب. طلبتُ منه أن يسمح لي بتسجيل أسمائها. كانت التالية:

اعتراف جوني الصغير لبريان باتن

الليلة مساءً، لأدريان هنري.

فوج الإطفاء المفقود لسبايك هاوكينز.

١١ تشرين الثاني

يعيشّ عوليس ليما في غرفة على سطح في شارع أناهواك، بالقرب من إنسورخنتِس. الغرفة القبيحة صغيرة، طولها ثلاثة أمتار وعرضها متران ونصف، تتكوَّمُ فيها الكتبُ في كلّ مكان. من النافذة الوحيدة الصغيرة ككوّة، تُرى الأسطح المُجاورة حيث وكما يقول عوليس ما زالوا يحتفلون بقرابين بشرية. لا يوجد في الغرفة غير فراش على الأرض، يلفه ليما نهاراً أو حين يستقبل ضيوفاً ويستخدمه كأريكة؛ أيضاً توجدُ طاولة صغيرة جدّاً تُغطي آلة كتابته سطحها بالكامل وكرسيّ وحيد. واضح أنّه لا بدّ أنَّ الزوار يجلسون على الفراش أو على الأرض أو يبقون واقفين. اليوم كنّا خمسة: ليما، بِلانو، رافائيل وخاثينتو رِكِنا، وشغل الكرسيّ باريوس ورِكِنا، بقي ليما طوال الوقت واقفاً، بل وكان يدور أحياناً في الغرفة) وأنا جلستُ على الأرض.

تكلّمنا عن الشعر. لا أحد منهم قرأ قصيدةً من قصائدي ومع ذلك فالجميع يُعاملونني، كواقعيّ أحشائيّ منهم. الرفاقية تلقائية ورائعة.

عند قرابة التاسعة ليلاً ظهر فِليبّ مولِّر، البالغ ثمانية عشرة عاماً وبالتالي كان حتى اقتحامي المجموعةَ الأفتى. خرجنا بعدها جميعاً للعشاء في مقهى صيني ومكثنا حتى الثالثة صباحاً نمشي ونتحدّث عن

الأدب. اتفقنا جميعاً أنّه يجب تغيير الشعر المكسيكي. كان وضعنا (كما بدا لي أنّني فهمتُ) غير مستديم بين إمبراطورية أوكتافيو باث وإمبراطوريّة بابلو نيرودا. أي: بين المطرقة والسندان.

سألتُهم أين أستطيع أن أشتري الكتبَ التي كانت معهم الليلةَ السابقة. لم يُفاجئني الجواب: سرقوها من المكتبة الفرنسية في ثونا روسا ومكتبة بودِليير في شارع الجنرال مارتينِثْ، بالقرب من شارع هوراثيو في منطقة بولانكو. أيضاً أردت أن أعرف شيئاً عن المؤلفين وبين الجميع (ما يقرأه واقعي أحشائيّ يقرأه الجميع على الفور) أطلعوني على حياة وعمل الكهربائيين، رايموند كينو، صوفي بودولسكي، ألان جوفروَا.

سألني فِليب مولِّر، ربّما منزعجاً قليلاً، عمّا إذا كنتُ أعرفُ الفرنسية. أجبته أن باستطاعتي أن أتدبّر أمري بواسطة القاموس. وأنت هل فعلاً تعرف الفرنسية، يا أخي؟ جاء جوابه بالنفي.

١٢ تشرين الثاني

ألتقي في مقهى كيتو بخاثينتو رِكِنا، رافائيل بارّيوس وبانتشو رودريغِثْ. رأيتهما يصلان في حدود التاسعة ليلاً فأومأت إليهما من طاولتي التي كان قد مضى علي فيها قرابة ثلاث ساعات مستثمرة جيداً في الكتابة والقراءة. قدّموا لي بانتشو رودريغِث. هو قصير كَبارّيوس، لكن له وجه طفل في الثانية عشرة من عمره، على الرغم من أنّه كان في الواقع في الثانية والعشرين . استلطف أحدنا الآخر بما يشبه القوّة. يتكلّم بانتشو دون انقطاع. وبفضله أعرف أنّه قبل وصول بِلانو ومولِّر(اللذين ظهرا في العاصمة الفيدرالية بعد انقلاب بينوتشيت وبالتالي فهما غريبان على المجموعة المحلية). كان عوليس ليما قد أصدر مجلة تتضمّن قصائد لِماريّا فونت وأنخِليكا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فونت ولاورا داميان، وباريوس وسان إيبفانيو وشخص آخر يدعى مارثِلو روبلِس (الذي لم أسمع أحداً يتكلم عنه) والأخوين رودريغِث وبانتشو وموكتِزوما. وبحسب بانتشو فإنّ أحدَ أفضل شاعرين شابين مكسيكيين هو والثاني عوليس ليما، الذي يعلن أنّه صديقه الأفضل. المجلة (عددان، كلاهما صدر في ١٩٧٤) تسمى *لي هارفي أوزوالد* ومَوَّلها ليما بالكامل. يؤكّدُ رِكِنا (الذي لم يكن قد انتسب إلى المجموعة بعد) وبارّيوس كلامَ بانتشو رودريغِث. هناك كانت بذرة الواقعية الأحشائيّة، يقولُ بارّيوس. لكنّ بانتشو رودريغِث لا يُوافقه الرأي. فلي *هارفي أوزوالد* كان يجب بحسب رأيه، أن تستمرّ، أوقفوها تماماً في أفضل لحظةٍ، حين بدأ الناسُ يعرفوننا. أيّ ناس؟ الشعراء الآخرون طبعاً، طلابُ الفلسفة والآداب، الفتيات اللواتي كنَّ يكتبن الشعر يتردَّدنَ أسبوعيّاً على الورشات المائة المتفتحة كالأزهار في العاصمة الفدرالية. باريوس ورِكِنا ليسا مع هذا الرأي، على الرغم من أنّهما يتحدّثان بتوقٍ عن المجلة.

- هل هناك شاعرات كثيرات؟

- أن تقول شاعرات(١) شيء غير مُحبّب كثيراً - قال بانتشو.

- يسمين شُعّار - قال بارّيوس.

- لكن هل هنّ كثيرات؟

- كما لم يكن من قبل في تاريخ المكسيك - قال بانتشو -. ترفع حجراً فتجد تحتها فتاة تكتب عن أشيائها.

---

(١) منذ زمن طويل وتحديداً وبوجه خاص منذ أواسط القرن المنصرم هناك ما يمكن أن نسميه خلاف حول استخدام poetisa شاعرة و poeta شاعر كتعريف لكاتبة الشعر إذ يعتبر البعض أن استخدام الأولى ينطوي على شيء من الازدراء. وهناك بالفعل كثير من الشاعرات الآن لا يقبلن بأن يطلق عليهِما الاسم الأوّل.

- وكيف استطاع ليما أن يصدر لوحده *لي هارفي أوزوالد*؟ - سألتُ.

بدا لي أنّ من الحكمة ألاّ أُصر وقتها على موضوع الشاعرات.

- آه، أيها الشاعر غارثيّا مادِرو، إنّ شخصاً مثل عوليس ليما قادرٌ على أن يفعل أيّ شيء من أجل الشعر -قال بارّيوس بشكلٍ حالم.

بعدها تكلّمنا عن اسم المجلّة، الذي بدا لي رائعاً.

- لنرَ ما إذا كنتُ قد فهمته. الشعراء، بحسب عوليس ليما، هم مثل لي هارفي أوزوالد. أهو كذلك؟

- تقريباً - قال بانتشو رودريغِثْ -. أنا اقترحتُ عليه أن يسميها أبناء زنى سور خوانا، الذي له وقع في السمع أكثر مكسيكيةً، لكنّ أخوتنا يموتون حبّاً بقصص الأمريكيين الشماليين.

- في الحقيقة كان عوليس يعتقد أنه كان هناك دار نشر بهذا الاسم، لكنّه كان مخطئاً وحين انتبه لخطئه قرّر أن يُطلق على لمجلّة هذا الاسم ذاته.

- أيّ دار نشر؟

- دار نشر بي، جي أوزوالد، باريس، التي نشرت كتاباً لماتيو مسانجيير.

- والديوث عوليس كان يُفكّر أنّ دار النشر الفرنسية تُسمى أوزوالد بسبب القتل. لكنّ هذه كانت دار نشر بي جي أوزوالد وليس إل أش أوزوالد وذات يوم انتبه وعندها قرّر أن يستولي على الاسم.

- اسم الفرنسي يجب أن يكون بيير-جاك - قال رِكِنا.

- أو بول-جاك أوزوالد.

- هل أسرته ميسورة؟ -سألتُه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- أسرة عوليس ليست ميسورة - قال رِكِنا -. في الحقيقة أسرته هي أمّه، أليس كذلك؟ أنا على الأقل لا أعرف غيرها.

- أنا أعرف كلَّ أسرته - قال بانتشو -. أنا تعرّفت على عوليس ليما قبلكم جميعاً بكثير، قبل بِلانو بكثير وأمّه هي أسرته الوحيدة. وأؤكّدُ لكم إنّه ليس عندهم إمكانية .

- وكيف استطاع أن يُمَوّل عددين من مجلة؟

- من بيع الماريجوانا - قال بانتشو. لزم الآخران الصمت، لكنّهما لم يُكذّباه.

- لا أستطيع أن أصدّق - قلتُ.

- هو كذلك. الإمكانية مصدرها الماريجوانا.

- ويحه!

- يذهب ويأتي بها من أكابولكو ثم يوزّعها بين زبائنه في العاصمة الفدرالية.

- اسكت، يا بانتشو - قال بارّيوس.

- لماذا سأسكت؟ أليس هذا الولد واقعياً أحشائيّاً تعيساً؟ إذن لماذا سأسكت؟

١٣ تشرين الثاني

اليوم تبعت ليما وبِلانو طوال اليوم. مشينا، أخذنا المترو، الحافلات، حافلة صغيرة، عدنا ومشينا ولم نتوقّف طيلة الوقت عن الكلام. كانا يتوقّفان من حين لآخر ويدخلان إلى بيوت خاصّة فأبقى في الشارع أنتظرهما. عندما سألتهما ما الذي كانا يفعلانه، قالا لي إنّهما يُعدّان بحثاً. لكن يبدو لي أنّهما يوزّعان ماريجوانا على البيوت. خلال الطريق قرأتُ لهما آخرَ القصائد التي كتبتُها، إحدى عشرة أو اثنتا عشرة قصيدة أعجبتهما.

١٤ تشرين الثاني

ذهبتُ اليوم مع بانتشو رودريغِثْ إلى بيت الأختين فونت.

كان قد مضى عليّ قرابة الأربع ساعات في مقهى كيتو، وشربت ثلاثة فناجين قهوة بالحليب وبدأ حماسي للقراءة والكتابة يضعف حين ظهر بانتشو وطلب مني أن أرافقه. قبلت بسرور.

كانت الأختان فونت تعيشان في حي كوندِسا، في بيت أنيق وجميل من طابقين وحديقة وفناء خلفيّ من شارع كوليما.

لم تكن الحديقة شيئاً خارقاً، فيها شجرتان هزيلتان وعشب سيِّئ القصّ، لكنّ الفناءَ الخلفيَّ كان شيئاً مختلفاً، أشجاره كبيرة، ونباتاته ضخمة، خضرةُ أوراقها شديدة حتى لتبدو سوداء، فيه جرن مغطى بالنباتات المتسلقة (في الجرن، لا أجرؤ على تسميته بالبحرة، لا توجد أسماك لكن توجد بالفعل غوّاصة تعمل على البطارية، تعودُ لخورخيتو فونت، الأخ الأصغر) وبيت صغير مستقل تماماً عن البيت الكبير، ربّما كان في زمن آخر مرآبَ سيارة أو إسطبلا، تسكن فيه الآن الأختان فونت.

حذّرني بانتشو قبل أن نصل:

- أب أنخِليكا مختلّ العقل قليلاً. لا تخف إذا رأيت شيئاً غريباً، افعلْ ما أفعله وكأنّك لا ترى. إذا أصبح ثقيلاً نقمعه وينتهي الأمر.

- نقمعه؟ - قلتُ دون أن أعرف جيّداً ما الذي كان يقترحه عليّ -. أنا وأنت؟ في بيته نفسه؟

- ستكون زوجته شكورة لنا مدى الدهر. الرجل مجنون تماماً. منذ قرابة السنة أمضى فترة في العصفورية. لكن لا تقُلْ هذا للأختين فونت، على الأقل لا تقُل إنّني أنا من قال لك ذلك.

- إذن الرجلُ مجنون - قلتُ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- مجنون ومُفلس. حتى وقت قصير كان عندهم سيارتان، ثلاث خادمات ويقيمون حفلات في غاية الأبّهة. لكن لا أدري أيّ أسلاك تقاطعت عند هذا الشيطان المسكين وفقد ذات يوم عقله. الآن هو مفلس.

- لكن الحفاظ على مثل هذا البيت يُكلّف مالاً.

- هو ملكهم والشيء الوحيد الذي بقي لهم.

- وماذا كان يعمل السيّد فونتْ قبل أن يُجَن؟ - سألتُ.

- كان مهندساً معمارياً، لكنّه سيِّئ جدّاً. هو من صمّم عددَي مجلة *لي هارفي أوزوالد*.

- عجيب.

عندما قرعنا الجرس خرج ليفتح لنا شخص أصلع، له شارب ومظهر المختلّ عقلياً.

- إنّه والد أنخِليكا - همس لي بانتشو.

- أتصوّر ذلك - قلتُ.

اقترب الشخص من باب الشارع بخطواتٍ كبيرة، نظر إلينا نظرةً تنفثُ كراهية مكثفة، ففرحت لأنّني على الجانب الآخر من البوّابة. فتح البابَ بعد تردّدٍ، كما لو أنّه لا يعرف ماذا يفعل، واندفع نحونا بعنف. قفزتُ قفزة إلى الخلف، لكنّ بانتشو مدّ ذراعيه وسلّم عليه بحرارة. عندها توقّف الرجلُ ومدّ يداً متردّدةً قبل أن يفسح لنا الطرق.

راح بانتشو يسير بسرعة نحو باب البيت الخلفي وأنا أتبعه. عاد والد الأختين فونت إلى البيت الكبير مكلّماً نفسه. وبينما كنّا نتوغّل في ممرّ مليء بالأزهار كان يربطُ خارجياً بين الحديقة الأمامية والحديقة الخلفية وضّح لي بانتشو أنّ أحدَ أسباب اضطراب السيّد فونت المسكين هو ابنته أنخِليكا.

- ماريّا فقدت عذريتها - قال بانتشو -، لكنّ أنخِليكا لا، وإن كانت على وشك، والعجوز يعرفُ، وهذا ما يُجنّنه.

- وكيف يعرف؟

- ألغاز الأبوّة، أعتقد. المسألة أنّه يقضي اليوم وهو يُفكّر من سيكون الفاحش الذي سيفضّ بكارة ابنته، وهذا بالنتيجة كثير بالنسبة لرجل يعيش لوحده. أنا في أعماقي أتفهمه، لو كنت مكانه لحدث معي الشيء ذاته.

- لكن هل في ذهنه أحدٌ أم يشكّ بالجميع؟

- يشكّ بالجميع، طبعاً، وإن كان هناك اثنان أو ثلاثة مستبْعَدين: المختّنان وأختها. العجوز ليس غبيّاً.

- في العام الماضي فازت أنخِليكا بجائز لاورا داميان للشعر، وهي، هل انتبهت، في السادسة عشرة من عمرها فقط.

لم أسمع في حياتي بهذه الجائزة. بحسب ما حكى لي بانتشو فيما بعد، كانت لاورا داميان شاعرة، ماتت في عام ١٩٧٢، قبل أن تُكمِل العشرين من عمرها، وأنشأ والداها الجائزة تخليداً لذكراها. جائزة لاورا داميان بحسب بانتشو، هي إحدى أكثر الجوائز تقديراً عند *الخاصّة* من الناس في العاصمة الفيدرالية. نظرت إليه كمن يقول له أيّ نوعٍ من الأغبياء أنت، لكنّ بانتشو، تماماً كما توقّعتُ، لم يعتبر أنّه المعنيّ. رفعتُ بعدها رأسي إلى السماء واعتقدت أنّني لاحظت أنّ ستارة كانت تتحرَّكُ في إحدى نوافذ الطابق الثاني. ربّما كان تياراً هوائيّاً، لكنّني لم أنقطع عن التفكير بأنّني مُراقَب حتى عبرتُ عتبةَ بيت الأختين فونت الصغير.

هناك كانت ماريّا فقط.

ماريا طويلة، سمراء، سوداء وسابلة الشعر تماماً، مستقيمة الأنف (مستقيم بالمطلق) رقيقة الشفتين. تبدو حسنة المزاج. وإن لم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يكن من الصعب التكهّن بأنّ زعلها يمكن أن يكون طويلاً ورهيباً. وجدناها واقفة وسط الغرفة تتدرّب على خطوات رقصة وتقرأ سور خوانا إينِس دِ لا كروث، وتستمع إلى أسطوانة لبيلي هوليداي وترسم بشرود لوحةً مائيّة تظهر فيها عند أسفل بركان، امرأتان، متشابكتا اليدين، محاطتان بأنهار حمم صغيرة. استقبالها بارد في البداية، كما لو أنّ وجود بانتشو يزعجها لكنّها تتحمّله احتراماً لأختها ولأنّ بيت الفناء الصغير هو لهما بالتساوي. هي لا تنظر إليّ.

وللطامة الكبرى أنّني أسمح لنفسي بإبداء ملاحظة تافهةٍ إلى حدّ ما حول سور خوانا، وهو ما يجعلها تقف مقدّماً ضدّي (ملاحظة ليست مناسبة أبداً حول الأبيات الشهيرة جدّاً: ***أيها الرجال البلهاء/ الذين تعيبون المرأة بلا حقّ/ دون أن تروا أنّكم عرضة للشيء ذاته الذي تعيبونهنّ به*** والتي حاولتُ بعدها عبثاً أن أصحّحها منشداً تلك التي تقول: توقّف، يا ظلّ خيري الفرور/ يا صورة السِّحر الأحبّ إليّ/ يا أملي الجميل الذي لأجله سعيدةً أموت/ أيّها الخيال الحلو الذي لأجله أعيش معذّبةً).

وهكذا فجأة كنّا نحن الثلاثة هناك، غارقين في صمتٍ هيوب أو كلوح، بحسب كلّ واحد منا، وماريّا فونت لا تُكلّف خاطرها بأن تنظر إلينا على الرغم من أنّني كنتُ، بين الفينة والأخرى، أنظرُ إليها، أو إلى لوحتها المائية (أو بالأحرى أتجسَّسُ عليها وعلى لوحتها المائيّة) وبانتشو رودريغث، الذي يبدو أنّه لم تكن تهمّه عدوانية ماريا أو والدها أبداً، كان ينظر إلى الكتب وهو يصفر أغنية، بحسب ما استطعتُ أن أسمع منها، لا علاقة لها بما كانت تُغنيه بيلي هوليداي، إلى أن ظهرت أخيراً أنخِليكا وعندها فهمت بانتشو (كان واحداً ممن يتطلّعون لأن يفضّوا بكارة أنخِليكا!) وفهمتُ تقريباً أبا الأختين فونت، على الرغم من أنّ عليَّ أن أعترف بصراحة أنّه ليس للعذرية

عندي أيّ أهمّية. (أنا نفسي، دون أن أذهب بعيداً، بتول. إلا إذا اعتبرتُ عملية المصّ المقطوعة التي قامت بها بريخيدا فضّاً للعذرية. لكن هل هذه هي ممارسةُ الحبّ مع امرأة؟ ألم يكن عليّ في الوقت ذاته أن أكون لعقتُ عضوها كي أعتبر أنّنا مارسنا الحبّ؟ كيلا لا يعود الرجل بتولاً عليه أن يُدخل قضيبه في فرج امرأة وليس في فمها أو مؤخّرتها أو إبطها؟ هل لكي أعتبرَ أنّني مارستُ الحبّ فعلاً عليّ أن أقذف؟ كلّ هذا معقّد).

لكن لنعد إلى ما كنتُ بصدده. ظهرت أنخِليكا وبدا واضحاً من طريقة تسليمها على بانتشو، على الأقل بالنسبة إليّ، أنّه يحظى ببعض الاحتمالات العاطفية من الشاعرة المتوجة بالغار. قُدِّمْتُ بشكل سريع جدّاً وتُركت مرّة أخرى جانباً.

نشرا ستارةً قسمت الغرفة إلى قسمين، جلسا بعدها على السرير وسمعتهما يتكلمان همساً.

اقتربتُ من ماريّا وقدّمت بضع ملاحظات حول نوعيّة لوحتها المائية. لم تكلّف خاطرها بأن تنظر إليّ. اخترت تكتيكاً آخر: تكلّمتُ عن الواقعية الأحشائية وعن عوليس ليما وأرتورو بِلانو. اعتبرتُ أيضاً (فجأة: راحت الهمسات على الجانب الآخر من الستارة تجعلني في كلّ مرة أكثر توتّراً) لوحتَها المائية التي كانت أمام عينيّ كعملٍ واقعي أحشائي. نظرت إليّ ماريا فونت لأوّل مرّة وابتسمت.

– لا يهمّني قيد أنملة الواقعيون الأحشائيون.

– لكنّني فكّرتُ أنّك تشكلين جزءاً من المجموعة، أعني الحركة.

– لا، ولا حتى لو كنتُ مجنونة... لو أنّهم على الأقل اختاروا أسماً أقلّ قرفاً. أنا نباتية. كل ما يُذكِّرُ بالأحشاء يسبّب لي الغثيان.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ما الاسم الذي كنت ستطلقينه أنت عليها؟

- آه، لا أعلم. ربّما قسم السريالية المكسيكي.

- أعتقد أنه يوجد قسم سريالي مكسيكي في كورناباكا. ثمّ إنّ ما نتطلَّعُ إليه هو أن نخلق حركة على مستوى أمريكا اللاتينية.

- مستوى أمريكا اللاتينية؟ لا تجعلني أضحك.

- حسن، على المدى البعيد هذا ما نريده، إن لم أُسئ الفهم.

- وأنت من أين خرجتَ؟

- أنا صديق ليما وبِلانو.

- وكيف لم أركَ قط هنا؟

- المسألة أنّني تعرّفت عليهما منذ وقت قصير...

- أنت ولد ورشة آلامو. أليس كذلك؟

احمررتُ خجلاً، الحقيقة لا أعرف لماذا. اعترفت أنّنا تعارفنا هناك.

- إذن هناك قسم سريالي مكسيكي في كورِناباكا - قالت ماريّا متفكّرةً -. ربّما عليّ أن أذهب لأعيش في كورِناباكا.

- قرأت ذلك في الإكثلسيور. هم كهول متفرغون للرسم. مجموعة من السياح، أعتقد.

- في كورِناباكا تعيش ليونورا كارينغتون - قالت ماريّا - ألا تقصدها؟

- لاااا! - قلتُ. ليس عندي أدنى فكرة عمّن تكون ليونورا كارينغتون.

وهنا سمعنا أنيناً. لم يكن أنين لذّة، هذا ما عرفته في اللحظة، بل أنين ألم. عندها انتبهت إلى أنه منذ برهة لم نسمع شيئاً على الجانب الآخر من الستارة.

- هل أنت بخير، يا أنخِليكا؟ - سألت ماريّا.

- طبعاً أنا بخير، اخرجي لتتنزهي قليلاً من فضلك وخذي معك هذا الشخص - ردّ صوتُ أنخِليكا فونت مخنوقاً.

رمت ماريّا ريَشَها على الأرض بحركة انزعاج وامتعاض. استطعتُ من بقع الألوان الموجودة على البلاط أن أقدّر أنّها لم تكن المرّة الأولى التي تطلب فيها منها قليلاً من الخلوة.

- تعالَ معي.

تبعتُها إلى زاوية معزولة من الفناء، بجانب جدارٍ عالٍ مغطى بالمتسلقات، حيث يوجد طاولة وخمسة كراسي معدنية.

- هل تعتقدين أنّهما...؟ - قلت وندمتُ على الفور على فضولي الذي أردته مشتركاً. من حسن الحظ أنّ ماريّا كانت منزعجة أكثر مما يسمح لها بأن تأخذني بالحسبان.

- يمارسان؟ لا، ولا بشكل من الأشكال.

بقينا صامتَيْن برهة. تدقّ ماريا على سطح الطاولة وأنا صالبتُ ساقيَّ مرّتين أو أكثر ورحت أدرسُ أزهارَ الفناء.

- حسن، ماذا تنتظر، اقرأ لي قصائدك - قالت.

قرأتُ وقرأتُ حتى نمّلت إحدى رجليّ. عندما انتهيت لم أجرؤ على سؤالها عمّا إذا أعجبتها. دعتني بعدها ماريّا لتناول فنجان قهوة في البيت الكبير.

في المطبخِ وجدنا أمّها وأباها يطبخان. بدا الاثنان سعيدين. قدّمتهما لي. لم يعد مظهر الأب مضطرباً وأظهر لطفاً كافياً معي، سألني ماذا أدرس، وما إذا كان باستطاعتي أن أوائم بين القوانين والشعر، كيف كان آلامو الطيّب (يبدو أنّهما يعرفان بعضهما أو أنّهما كانا في شبابهما صديقين). تحدّثت الأمّ عن أشياء مبهمة لا أكاد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أذكرها: أظنّ أنّها ذكرت جلسة تحضير أرواح في كويواكان، حضرتها منذ وقت قصير، وحضرتها الروح المعذّبة لمغنية رانتشِرا[1] في الأربعينيات. لا أدري ما إذا كانت تتحدّث مزاحاً أم بجدّية.

وجدنا خورخيتو بجانب التلفاز. لم تتوجّه ماريّا إليه بكلمة ولا قدّمته لي. عمره اثنا عشر عاماً، طويل الشعر، ثيابه كثياب شحّاذ. يخاطب الجميع باسم ناكو[2]. يقول لأمِّهِ انظري، يا ناكا، لن أفعل هذا، يقول لأبيه، اسمعْ يا ناكو، ولأخته يا ناكا الطيّبة أو يا ناكا الصبورة وأنا قال لي كيف حالك، يا ناكو.

ناكو على حدّ علمي هم الهنود الحضريون، الهنود المينيون، لكن ربّما أنّ خورخيتو يستخدمها بمعنى آخر.

١٥ تشرين الثاني

اليوم من جديد في بيت الأختين فونت.

جرت الأمور تماماً كما في الأمس، مع اختلاف طفيف.

التقينا أنا وبانتشو في مقهى لوتو كينتانا روو الصيني بالقرب من مستديرة إنسورخِنتِسْ[3] وانطلقنا بعد تناول عدد من فناجين القهوة بالحليب وبعض الأشياء الأكثر صلابة (أنا الذي دفع) في طريقنا إلى حي كوندِسا.

ومرّة أخرى هرع السيّد فونت عند سماعه الجرس ولم تكن حالته تختلف بشيء عن البارحة، على العكس البارحة كان يتقدّم بخطوات كبيرة على طريق الجنون. كانت عيناه تخرجان من محجريهما عندما

---

(١) رانتشِرا، أغنية شعبية فولكلورية مكسيكية واسعة الانتشار.

(٢) كلمة تنطوي على معنى التحقير تستخدم في المكسيك للإشارة إلى شخص رثّ الثياب، قليل تربية. إضافة إلى المعنى اللاحق الذي يذكره المؤلف.

(٣) المتمرِّدون.

تقبّل اليدَ المرحة لبانتشا الجسور؛ أمّا أنا فلم يبدِ ما يُشير إلى أنّه يعرفني.

في بيت الفناء الصغير كانت ماريّا وحدها: كانت ترسمُ لوحة البارحة المائية ذاتها وتُمسكُ بيدها اليسرى كتاب البارحة ذاته، لكن من الحاكي كان يُسْمَعُ صوتُ أولغا غيُّوت وليس صوت بيلي هوليداي.

كان سلامها بارداً كسابقه.

كرّر بانتشو من ناحيته روتينَ اليوم السابق وجلس على كرسيّ خيزران صغير بانتظار وصولِ أنخِليكا.

كنتُ هذه المرة حذراً من أن أُعَبِّر عن أيِّ حكمِ قيمةٍ تجاه سور خوانا، رحتُ أوّلاً أنظر إلى الكتب، ثمّ وقفت إلى جانب ماريّا، مُحافظاً على مسافة حذرة منها، لأتأمّلَ اللوحة. شهدتْ هذه تغيراتٍ جوهريّة. المرأتان في سفح البركان، اللتان كانتا، كما أتذكّر في وضعية وقورة، على الأقلّ جدّية، تتبادلان الآن القرص في الذراعين؛ واحدة منهما تضحكُ، أو تتظاهرُ بالضحك؛ والأخرى تبكي، أو تتظاهر بالبكاء، في أنهر الحمم الصغيرة (التي ما يزال لونها أحمر أو كُمَيتاً) تطفو عبوات صابون الغسالات، دمى صلعاء وسلال خيزران مليئة بالفئران، ملابس المرأتين ممزّقة أو تُظهر رقعاً؛ في السماء (أو على الأقل في القسم العلوي من اللوحة) تتشكّل عاصفة؛ في القسم السفلي نسختْ ماريّا نشرة اليوم الجوّية بالنسبة للعاصمة الفيدرالية.

كانت اللوحة مريعة.

وصلت بعدها أنخِليكا وضّاءة وعادت لتنشر بينها وبين بانتشو الستارةَ الفاصلة. بقيتُ برهةً أُفكّر بينما ماريا ترسم: لم يعد عندي أدنى شكّ بأنّ بانتشو كان يجرّني إلى بيت الأختين فونت كي أُسَلّي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ماريّا بينما هو وأنخِليكا يتفرّغان لشؤونهما. لم يبدُ لي هذا عدلاً كبيراً. قبلها، في المقهى الصيني، سألته عمّا إذا كان واقعياً أحشائيّاً. جاء جوابه غامضاً ومسهباً. تكلّم عن الطبقة العاملة، المُخدرات، عن فلورِس ماغون[1]، عن بعض الشخصيات البارزة في الثورة المكسيكية. قال بعدها إنّ قصائده ستظهر بالفعل في المجلة التي سيصدرها ليما وبِلانو قريباً. وإذا لم ينشراها فليذهبا ويناما مع أمّيهما، قال. لا أدري لماذا، لكن لديّ انطباع بأنّ الشيء الوحيد الذي يهمّ بانتشو هو أن ينام مع أنخِليكا.

- هل أنتِ بخير، يا أنخِليكا؟ - قالت ماريّا عندما بدأت آهات الألم، المنسوخة عن آهات البارحة.

- بلى، بلى، أنا بخير. هل تستطيعين أن تخرجي لتتنزّهي؟؟

- طبعاً - قالت ماريّا.

ومرّة أخرى جلسنا مذعِنَيْن بجانب الطاولة المعدنية، تحت اللبلاب. كان قلبي، دون سبب ظاهر، ممزّقاً. بدأت ماريّا تحكي لي قصصاً من طفولتها وطفولة أنخِليكا، قصصاً مضجرة بشكل مقصود، كان يُلاحظ أنّها تحكيها كي تمضي الوقتَ وأنا أتظاهر بأنّها تهمّني. المدرسة، الحالات الأولى، التحضيري، الحبّ الذي كانتا تُظهرانه للشعر، الرغبة بالسفر، بمعرفة بلدان أخرى، *لي هارفي أوزوالد*، التي نشرتا فيها، جائزة لاورا داميان التي فازت بها أنخِليكا. . . لا أدري لماذا حين وصلت إلى هذه النقطة، سكتت ماريّا لحظةً، أردتُ أن أعرف من كانت لاورا داميان. كان حدساً خالصاً. قالت ماريّا:

---

(١) فلورِس ماغون ثلاثة أخوة مكسيكيون: خِسوس (١٩٧١-١٩٣٠) وريكاردو (١٨٧٤-١٩٢٢) وإنريكِ (١٨٧٧-١٩٥٤) صحفيون وكتاب وسياسيون فوضويون.

- شاعرة ماتت في عزّ شبابها.

- أعرف هذا. في العشرين من عمرها. لكن من كانت؟ كيف لم أقرأ قط شيئاً لها؟

- هل قرأت لوتريمونت، يا غارثيّا مادِرو؟ - سألت ماريّا.

- لا.

- إذاً أمر عاديّ ألا تعرف شيئاً عن لاورا داميان.

- أعرف أنّني جاهل، اعذريني.

- لم أبغِ أن أقول هذا. فقط قصدتُ أنّك شابّ جدّاً. ثمّ إنّ الكتاب الوحيد المنشور لِلاورا «نبع ربّات الإلهام»، في طبعةٍ ليست للبيع. هو كتاب طُبع بعد موتها بتمويلٍ من والديها اللذين كانا يحبّانها كثيراً وكانا أوّل قُرّائها.

- لا بدّ أنّ عندهما مالاً كثيراً.

- لماذا تعتقد ذلك؟

- إذا كانا قادرين على أن يمنحا من جيبهما الخاص جائزةً شعرية سنوية، فهذا يعني أنّهما يملكان مالاً كثيراً.

- حسن، دون مبالغة، لم يُعطيا أنخِليكا كثيراً. في الحقيقة تكمن أهمّيةُ الجائزة في صيتها أكثر مما في قيمتها الاقتصادية. كما أنَّ صيتها ليس زائداً. خذ بالاعتبار أنّ الجائزة تُمنح فقط لمن هم دون العشرين.

- عمر لاورا حين ماتت. يا له من شيء مريع.

- ليس مريعاً، بل محزناً.

- وأنتِ ألم تذهبي إلى حفل تسليم الجائزة؟ هل الوالدان يقدّمانها شخصياً؟

- طبعاً.

- أين؟ في منزلهما؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لا، في الكلّية.
- أيّ كلّية؟
- كلّية الفلسفة والآداب. لاورا كانت تدرس هناك.
- مريع، يا له من مريع!
- أنا لا أرى هذا المريع في أيّ مكان. يبدو لي أن المريع الوحيد هو أنتَ، يا غارثيّا مادِرو.
- هل تعرفين؟ يزعجني أن تناديني يا غارثيّا مادِرو. تماماً كما لو قلت لك، يا فونت.
- الجميع ينادونَكَ هكذا، لا أرى سبباً كي أناديك بطريقة أخرى.
- حسن، سيّان عندي، احكي لي أكثر عن لاورا داميان. ألم تتقدّمي أنت قط إلى الجائزة؟
- بلى، لكنّ أنخِليكا فازت.
- ومن فاز بها قبل أنخِليكا؟
- فتاة من أغواس كاليينتِس تدرس الطب في الجامعة المكسيكية الوطنية المستقلة.
- وقبلها؟
- قبلها لم يربحها أحد، لأنّ الجائزة لم تكن موجودة. في العام القادم ربّما أتقدّم إليها وربّما لا.
- وماذا ستفعلين بالنقود؟
- بالتأكيد سأذهب بها إلى أوروبا.
مكثنا بضع ثوانٍ صامِتَيْن، ماريّا فونت تُفكّر بالبلاد المجهولة وأنا بكلّ الرجال المجهولين الذين سيمارسون معها الحب بلا رحمة. عندما انتبهتُ فزعتُ. تراني كنتُ عاشقاً لماريّا؟
- كيف ماتت لاورا داميان؟

- سمعنا جلبةً في تلالبان. كانت ابنة وحيدة، دُمِّرَ والداها، أظّن أنّ الأم فكّرت بالانتحار. لا بدّ أنَّ الموتَ في زهرة الشباب محزن.

- لا بدَّ أنّه محزن جدّاً - قلتُ - متصوّراً ماريّا فونت بين ذراعيِّ إنكليزيّ طوله متران، يكاد يكون أبرص، يدخل لساناً طويلاً ووردياً بين شفتيها الرقيقتين.

- هل تعلم من عليك أن تسأل عن لاورا داميان؟

- لا، من؟

- عوليس ليما. كان صديقها.

- عوليس ليما؟

- بلى، لم يكونا ينفصلان أبداً، درسا معاً، وكانا يذهبان إلى السينما معاً، يتبادلان الكتب، يعني، كانا صديقين ممتازين.

- لم يكن عندي أدنى فكرة - قلتُ.

سمعنا جلبةً مصدرها البيت الصغير وبقينا برهةً مشدودين.

- كم كان عمر عوليس ليما حين ماتت لاورا داميان.

تأخّرت ماريّا في الردّ عليّ.

- عوليس ليما ليس اسمه عوليس ليما - قالت بصوت أجشّ.

- هل تعنين أنَّ هذا هو اسمه الأدبي؟

أومأت ماريّا بالإيجاب برأسها ونظرتها ضائعة في الرسوم المتداخلة لشجرة اللبلاب.

- ما اسمه إذن؟

- ألفرِدو مارتينِث أو شيء من هذا القبيل. نسيتُهُ. لكن عندما تعرفتُ عليه لم يكن يُسمى عوليس ليما. لاورا داميان هي من أطلقت عليه هذا الاسم.

- عجيب، يا لها من أخبار.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- الجميع كانوا يقولون إنّه كان عاشقاً لِلاورا. لكنّني أعتقد أنّهما لم يناما معاً قط. يبدو لي أنّ لاورا ماتت عذراء.

- في العشرين من عمرها؟

- طبعاً، ولماذا لا.

- لا. واضح.

- كم هو محزن، أليس صحيحاً؟

- نعم، محزن. وكم كان عمر عوليس أو ألفرِدو مارتينِث وقتذاك؟

- أصغر منها بسنة، تسع عشرة أو ثماني عشرة سنة، أعتقد.

- مرضَ. يقولون إنّه كان على حافّة الموت. لم يعرف الأطباء ما به، فقط كانوا يعرفون أنّه كان يذهب بين أيديهم إلى الحيِّ الآخر. أنا ذهبت لزيارته في المشفى وكان يموت. لكنّه تحسن ذات يوم وهنا انتهى كلّ شيء لغزاً كما بدأ. ترك بعدها عوليس الجامعة وأسّس مجلة، تعرفها، أليس صحيحاً؟

- *لي هارفي أوزوالد*، بلى، أعرفها - كذبتُ. وعلى الفور تساءلتُ لماذا عندما كنتُ في غرفة سطح عوليس ليما لم يتركوني أرى عدداً منها، ولا حتى أن أتصفّحه فقط.

- ما أفظعه من اسم لمجلة شعرية.

- بالنسبة لي أنا يُعجبني، لا أراه سيّئاً إلى هذا الحدّ.

- سيِّئ الذوق جدّاً.

- ما الاسم الذي كان يمكن أن تعطيه لها أنت؟

- لا أعرف. ربّما القسم السريالي المكسيكي.

- مُهم.

- هل تعلم أنّ أبي هو من صمّم المجلة كلها؟

- شيء من هذا القبيل قال لي بانتشو.

- التصميم أفضل ما في المجلة. الآن جميعهم يكرهون أبي.

- جميعهم؟ جميع الواقعيين الأحشائيين؟ ولماذا سيكرهونه؟ بالعكس.

- لا، ليس الواقعيون الأحشائيون بل المهندسون المعماريون الآخرون. المسألة أنّهم لا يهضمونه والآن يُدَفِّعونه الثمن. بسبب المجلة.

- بسبب *لي هارفي أوزوالد*؟

- طبعاً، بما أنّ أبي صمّم المجلةَ في المكتب، يحمّلونه الآن مسؤولية ما يمكن أن يحدث.

- لكن ما الذي يمكن أن يحدث؟

- ألف شيء، يلاحظ أنّك لا تعرف عوليس ليما.

- لا، لا أعرفه - قلتُ -، لكنّني أكوّن فكرة.

- إنّه قنبلة موقوتة - قالت ماريّا.

انتبهتُ في تلك اللحظة إلى أنّها أعتمت وأنّنا ما عدنا نستطيع أن نرى بعضنا، فقط أن نسمع.

- انظري، يجب أن أقول لك شيئاً، منذ لحظة كذبتُ عليك. لم أملك قط المجلة بين يديّ وأموت رغبة بإلقاء نظرة عليها. هل تستطيعين أن تعيريها لي؟

- طبعاً، أستطيع أن أهديها لك، عندي عِدّة نسخ منها.

- وهل تستطيعين أن تعيريني أيضاً كتاب لوترياَمونت؟

- بلى، لكن هذا عليك أن تعيده دون تأخير، إنّه أحد شعرائي المُفضّلين.

- أعدُكِ - قلتُ.

دخلت ماريّا إلى البيت الكبير. بقيتُ وحدي في الفناء فبدا لي للحظة كذباً أنّ العاصمة الفيدرالية موجودة في الخارج. شعرتُ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعدها بأصوات في بيت الأختين فونت. فكّرتُ إنّهما أنخِليكا وبانتشو، فكّرتُ بانتشو سيخرج بعد برهةٍ إلى الفناء بحثاً عنّي، لكنّ شيئاً من هذا لم يحدث. عندما عادت ماريّا بعددين من المجلّة وأناشيد مالدورور، شعرتْ أيضاً بأنّ أضواءَ البيت الصغير مشتعلة وبقيتْ لثوانٍ مُتَحفِّزةً. فجأة وفي الوقت الذي لم أتوقّعه سألتني عمّا إذا كنت ما أزال بتولاً.

- لا، طبعاً لا - كذبتُ للمرة الثانية في ذلك اليوم.

- وهل كلّفتك مغادرتُك العذريةَ كثيراً؟

- قليلاً -قلتُ بعد أن فكّرت لحظةً بجوابي.

لاحظتُ أنّ صوتها صار مرّةً أخرى أجشّ.

- هل عندك خطيبة؟

- لا، طبعاً لا - قلتُ.

- ومع من مارست ذلك، إذن. مع عاهرة؟

- لا، مع فتاة من سونورا تعرّفت عليها العامَ الماضي - قلتُ -. فقط التقينا ثلاثةَ أيّام.

- ولم تمارسه مع أي فتاة أخرى؟

كنتُ مدفوعاً لأنّ أحكي لها عن مغامرتي مع بريخيدا، لكنّني قرّرتُ في النهاية أنّ الأفضل لي ألاّ أفعل.

- لا، لم أمارسه مع أيّ فتاة أخرى - قلتُ وشعرت بنفسي بائساً.

١٦ تشرين الثاني

هتفتُ لماريّا فونت. قلتُ لها أريد أن أراها. رجوتُها أن نلتقي... تواعدنا في مقهى كيتو. عندما تصل قرابة السابعة مساء،

يلاحقها عدّة أشخاصٍ بنظراتهم منذ أن تدخل وحتى تجلس إلى الطاولة حيث أنتظرها.

إنها فاتنة. ترتدي بلوزة أواكساكية وبنطلون جينز ضيقاً جدّاً وصندلاً جلدياً. تحمل على كتفها حقيبة بنّية غامقة، عليها رسوم أحصنة حنطية اللون على حوافها، مليئة بالكتب والأوراق.

طلبتُ منها أن تقرأ لي قصيدة.

- لا تكن ثقيلاً، يا غارثيّا مادِرو - قالت.

لا أدري لماذا أحزنني ردُّها. كان عندي، أعتقدُ، حاجة ماديّة لأن أسمع من شفتيها إحدى قصائدها. لكن ربّما لم يكن الجوّ هو الأكثر مناسبة، فمقهى كيتو مرجل من الأصوات والصياح والضحك. أعدتُ إليها كتاب لوترِيامون.

- هل قرأته؟ - سألت ماريّا.

- طبعاً - قلتُ - قضيت الليل وأنا أقرأ دون أن أنام. أيضاً قرأت لي *هارفي أوزوالد*، مجلة رائعة، كم هو محزن أنّها لم تعد تصدر. سحرتني نصوصُك.

- ولم تذهب إلى السرير حتى الآن؟

- حتى الآن لا، لكنّني أشعر بنفسي مرتاحاً، في غاية الصحو.

نظرت ماريّا فونت إلى عيني وابتسمت. اقتربت نادلة وسألتها ماذا تريد أن تتناول. لا شيء، قالت ماريّا، نحن ذاهبان. سألتها في الشارع عمّا إذا كان عندها ما تفعله، فقالت لا شيء. وإنّ الشيء الوحيد الذي يحدث هو أنّ مقهى كيتو لم يكن يروق لها. مشينا في بوكارِلي حتى رِفورما، عبرنا ودخلنا جادّة غِرِّرو.

- هذا هو حيّ العاهرات - قالت ماريّا.

- ليس عندي أدنى فكرة - قلتُ.

- لنأخذ بذراعينا، كيلا يخطئوا بي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحقيقة أنّني لم أُلاحظ في البداية أيّة علامة يتفرّد بها ذلك الشارع عن تلك الشوارع التي كنّا قد خلفناها وراءنا توّاً. كانت حركة المرور بالكثافة ذاتها وأفواج الناس التي تتحرّك على الأرصفة لا تختلف بشيء عن تلك التي كانت تتدفّق في بوكارِلي. لكنّني رحت أحسُّ (ربّما متأثّراً بتحذير ماريّا) ببعض الاختلافات. أولاً، الإضاءة. الإضاءة العامّة في بوكارِلي بيضاء، في جادة غِرِّرو كانت أقرب إلى لون العنبر. السيارات: كان نادراً أن تجد في بوكارِلي سيارة مصفوفة بجانب الرصيف، بينما كانت كثيرة في غِرِّرو، البارات والمقاهي في بوكارِلي كانت مفتوحةً ومضاءة، وفي غِرِّرو كانت تبدو، على الرغم من كثرتها، منطوية على ذاتها، دون نوافذ تُطل على الشارع. وأخيراً الموسيقى. لا وجود لها في بوكارِلي، وكلّ شيء ضجيج آلاتٍ أو أشخاص، في غِرِّرو، وكلّما توغّل فيه المرء أكثر وعلى الأخص بين زاويتي بيولِتا وماغنوليا، تصبح الموسيقى سيّدة الشارع، الموسيقى التي تصدر عن البارات والسيارات المصفوفة، الموسيقى التي تخرج من المذياعات المحمولة والتي تسقط من النوافذ المضاءة في الأبنية ذات الواجهات الداكنة.

- أحبُّ هذا الشارع، سأعيش ذات يوم هنا - قالت ماريّا.

مجموعة من العاهرات المراهقات كنّ واقفاتٍ بجانب سيارة كاديلاك قديمة مصفوفة عند حافّة الرصيف. توقّفت ماريّا وسلّمت على واحدة منهنّ:

- كيف حالكِ، يا لوبِّ، يسعدني أنّني رأيتك.

كانت لوبِّ شديدة النحول وقصيرة الشعر. بدت لي بجمال ماريّا.

- ماريّا! يا للمفاجَأة، يا أختُ، كم من الزمن - قالت ثمّ عانقتها.

استقرّت عيونُ اللواتي كنَّ يُرافِقن لوبِّ على ماريّا يسبرنها ببطء، وبقين متكئات على غطاء صندوق الكاديلاك، بينما بالكاد نظرنَ إليّ.

- ظننتُك متِّ - قالت ماريّا فجأة. قسوة تأكيدها جمّدتني. رقّة ماريّا فيها هذه الفجوات.

- حيّة كما ترين. لكن تقريباً. أليس صحيحاً يا كارمِنثيتا؟

قالت المدعوّة كارمِنثيتا «يعني» وتابعت فحصها لماريّا.

- التي نفقت هي غلوريا، تعرّفتِ عليها، أليس كذلك؟ يا للمفاجأة، يا أخت، لكن أحداً لم يكن يحبّ تلك المرأة.

- لا، لم أتعرف عليها - قالت ماريّا بابتسامة على شفتيها.

- قتلها المجرمون - قالت كارمِنثيتا.

- وهل عملوا شيئاً لأجلها؟ - سألت ماريّا.

- لا - قالت كارمنثيتا - لماذا؟ المرأة، كانت مهووسة بحكاياتها السريّة. كانت تستقبل ما هبّ ودبّ، لم يكن هناك من وسيلة.

- كم هو محزن - قالت ماريّا.

- وأنت كيف هي الجامعة معك؟ - سألت لوبِّ.

- مقبولة - قالت ماريّا.

- هل ما زال يضايقك ذلك الولد؟

ابتسمت ماريّا ونظرت إليَّ.

- صديقتي هذه راقصة - قالت لوبِّ لصديقاتها -. معهد تعارفنا في مدرسة الرقص الحديث، الموجودة في دونثِلِس.

- لا تُبالغي -قالت كارمِنثيتا.

- حقيقة، كانت لوبِّ تتردّد على مدرسة الرقص - قالت ماريّا.

- كيف صار أنّها الآن تتفرّغ لهذا العمل؟ - قالت واحدة منهن، أقصرهنّ، تكادُ تكون قزمة، ولم تكن قد تكلّمت حتى تلك اللحظة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نظرت إليها ماريّا وهزّت كتفيها.

- هل تأتين لتشربي معنا قهوة بالحليب؟ - سألتها.

نظرت لوبِّ إلى الساعة في معصمها الأيمن، ثمّ إلى صديقاتها.

- المسألة أنّني أعمل.

- برهة فقط، بعدها تعودين - قالت ماريّا.

- إلى الجحيم بالعمل، هناك نلتقي - قالت لوبِّ وراحت تمشي مع ماريّا. أنا تبعتُهما.

انعطفنا عند ماغنوليا يساراً حتى جادّة خِسوس غارثيّا. سرنا بعدها مرّة أخرى باتجاه الجنوب، حتى هِرويس ربولوثيوناريوس فِروكارّيلِروس[1] حيث دخلنا إلى مقهى.

- هل هذا الفتى هو من يمتعُك؟ - سمعتُ لوبِّ تقول لماريّا.

عادت ماريّا لتضحك.

- هو مجرَّد صديق - قالت لها ثم قالت لي -: إذا ظهر قوّاد لوبِّ هنا سيكون عليك أن تُدافع عنّا نحن الاثنتين، يا غارثيّا مادِرو.

فكّرتُ أنّها تمزح. بعدها قدّرتُ احتمالَ أنّها تتكلّم بجديّة فارتسم، صراحةً، المشهدُ في ذهني جذّاباً. لم أتصوّر في تلك اللحظة حدثاً آخر أفضلَ كي أقع موقعاً حسناً عند ماريّا. شعرت بالسعادة والليل بكامله أمامنا.

- رجلي ضخم - قالت لوبِّ -. ولا يحبّ أن أتسكّع هنا مع مجهولين-كانت المرّة الأولى التي تتكلّم ناظرةً فيها إليّ.

- لكن أنا لستُ مجهولة - قالت ماريّا.

- لا، يا أخت، أنت لا.

- هل تعرف كيف تعرَّفتُ على لوبِّ؟ - سألتْ ماريّا.

---

(١) أبطال السكك الحديدية الثوريون.

- ليس عندي أدنى فكرة - قلتُ.

- في مدرسة الرقص، كانت لوبِّ صديقة لباكو دوارتِ، الراقص الإسباني. مدير المدرسة.

- كنتُ أذهبُ لزيارته مرّةً في الأسبوع - قالت لوبِّ.

- لم أكن أعرف إطلاقاً أنّكِ كنتِ تدرسين الرقص - قلتُ.

- أنا لا أدرسُ شيئاً، فقط كنتُ أذهب لأطأَ - قالت لوبِّ.

- لا أقصدك، بل أقصد ماريّا-قلتُ.

- منذ الرابعة عشرة من عمري - قالت ماريّا -. عمر متأخّر جدّاً كي أصبح راقصة جيّدة. ماذا سنعمل.

- لكنّكِ ترقصين بشكل رائع جدّاً، يا أخت. غريب جدّاً، لكنّ الجميع هناك نصف مجانين. هل رأيتَها ترقص؟

- لا - قلتُ لها.

- لو رأيتها لتعلّقتَ بها.

قامت ماريّا بحركة نفي من رأسها. حين وصلت النادلة طلبنا ثلاثة فناجين قهوة بالحليب وطلبت لوبِّ إضافة إلى ذلك عجّة جبن من دون فاصوليا.

- لا أهضمها جيّداً - وضّحت.

- كيف حال معدتك؟ - سألتها ماريّا.

- إلى هذه الحد أو ذلك، تؤلمني أحياناً كثيراً، وأنسى أحياناً أنّها موجودة. إنّها الأعصاب. حين لا أستطيع تحمّلها أتناول بريكس وتُحَلّ المسألة. وأنت؟ أما عدت تذهبين إلى مدرسة الرقص؟

- أقل من الماضي - قالت ماريّا.

- هذه البلهاء ضبطتني في مكتب باكو دوارتِ - قالت لوبِّ.

- كدتُ أموت من الضحك - قالت ماريّا - الحقيقة أنّني لا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أعرف لماذا رحتُ أضحك. ربّما كنتُ أعشق باكو وكانت في الحقيقة نوبة هستيرية.

- أعوذ بالله، لا أعتقد، يا أخت، لم يكن هذا الحقير نموذجك.

- وماذا كنتِ تعملين مع المدعو باكو دوارتِ؟ - سألتُ.

- الحقيقة، لا شيء. تعرّفت عليه ذات مرّة في الشارع وبما أنّه لم يكن باستطاعته أن يأتي ولا أنا أستطيع أن أذهب إلى بيته، فهو متزوج من أمريكية، كنتُ أذهب لمقابلته في مدرسة الرقص. ثم إنّ هذا، كما أظنّ، ما كان يحبّ هذا الخنزير القذر: أن يُجامِعني في المكتب.

- وهل كان القوّاد يتركك تُغامرين بعيداً جدّاً عن منطقتك؟ - سألتُها.

- وأنت ما أدراك بمنطقتي، يا ولد؟ ما أدراك أنَّ عندي قوّادي أو لا.

- اسمعي، عذراً إذا كنتُ أهنتك، لكن ماريّ قالت قبل لحظة إنّ قوّادك عنيف جداً، أليس صحيحاً؟

- أنا ليس عندي قوّاد، يا ولد. ماذا تظن، هل لأنّك تتحدّث معي تستطيع أن تهينني؟

- اهدئي، يا لوبّ، لا أحد يهينك -قالت ماريّا.

- هذا الأحمق أهان رجلي - قالت لوبّ -. لو سمعكَ للوى عنقك، يا ولد، يهزمك بغمضة عين. أكيد أنت ستُحبّ قضيب رجلي.

- اسمعي، أنا لستُ لوطيّاً.

- كلّ أصدقاء ماريّا عاهرون، هذا شيء معروف.

- لوبّ، لا تحشري نفسك مع أصدقائي. عندما كانت هذه

مريضة - قالت لي ماريّا -، حملناها أنا وإرنِستو إلى المشفى كي يعالجوها. آه، كيف ينسى بعض الأشخاص المعروف.

- إرنِستو سان إيبفانيو؟ - سألتُ.

- نعم - قالت ماريّا.

- هل يدرس الرقص أيضاً؟

- كان يدرس - قالت ماريّا.

- آهِ يا إرنِستو، ما أجمل ذكرياتي معه. أتذكّر أنّه حملني وحده ووضعني بسرعة في سيارة أجرة. إرنستو عاهر - وضَحت لي لوبِّ - لكنّه قويّ

- ليس إرنِستو من وضعكِ في سيارة الأجرة، يا وغدة، بل أنا - قالت ماريّا.

- في تلك الليلة ظننتُ أنّني سأموت - قالت لوبِّ - كنت ممتازةً وفجأةً شعرت بدوخة ورحتُ أتقيّأ دماً. أسطل من الدم. في أعماقي أعتقد أنّه لم يكن يهمّني أن أموت. الشيء الوحيد الذي كنتُ أفعله هو تذكّر ابني والنذر المقطوع وعذراء غوادالوبِّ. كنتُ قد انتفخت حتى طلع القمر، وشيئاً فشيئاً، وبما أنّني لم أكن في وضع جيّد ضيَّقتني القزمةُ التي رأيتَها منذ لحظة مخدر فِلِكسو. ساعة شؤم، لا بدّ أنّ المقبرة كان يسيل لعابها وأنا مريضة جدّاً. المسألة أنّني بدأتُ أموت على مقعد في ساحة سان فِرناندو وكان أن ظهر في تلك اللحظة صديقتي وصديقها العاهر الملائكي.

- هل عندكِ ابن، يا لوبِّ؟

- ابني مات - قالت لوبِّ وهي تنظرُ إلى عيني بثبات.

- إذن كم عمرك؟

ابتسمت لي لوبِّ. كانت ابتسامتها كبيرة وجميلة.

- كم تُقدّر عمري؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فضّلتُ ألاّ أخاطر فلم أقل شيئاً. مرّت ماريّا بيدها على كتفها. تبادلتا النظر وابتسمتا أو تغامزتا، لا أدري.

- أصغر من ماريّا بسنة. ثماني عشرة.

- كلانا من برج الأسد - قالت ماريّا.

- وأنتَ ما برجك؟ - سألت لوبّ.

- لا أعرف، الحقيقة أنّه لم يشغلني هذا قط.

- إذن أنت المكسيكي الوحيد الذي لا يعرف برجه - قالت لوبّ.

- في أيّ شهر وُلِدْتَ، يا غارثيّا مادِرو؟ - سألت ماريّا.

- في كانون الثاني، في السادس من كانون الثاني.

- أنت من برج الجدي، مثل عوليس ليما.

- عوليس ليما، الشهير؟ - سألت لوبّ.

سألتها إن كانت تعرفه. خفت أن يكون عوليس ليما ممن يذهبون إلى مدرسة الرقص. رأيت نفسي في جزء من الثانية أرقص على رؤوس أصابعي في صالة رياضية فارغة! لكنّ لوبّ قالت إنّها تعرفه سماعاً. وإنّ ماريّا وإرنِستو سان إبيفانيو كثيراً ما كانا يتكلمان عنه.

بعدها راحت لوبّ تتكلّم عن ابنها الميت. كان الرضيع في الشهر الرابع عندما مات. وُلِد مريضاً وكانت لوبّ قد نذرت للعذراء أن تترك الشارع إذا شُفيَ ابنُها. وفَّت بنذرها في الأشهر الثلاثة الأولى، وبدا، بحسب قولها، أنّ الطفلَ تحسَّن، لكنّها في الشهر الرابع اضطرت لأن تعود إلى الشارع ومات الطفل. انتزعته العذراءُ منّي لأنّني حنثت بنذري. كانت لوبّ تعيش آنذاك في بناءٍ من شارع باراغواي بالقرب من ساحة سانتا كاتارينا، وتترك الطفل عند عجوز كي تعتني به ليلاً. وذات صباح عندما عدت قالوا لي إنّ ابني قد مات. هذا كلّ شيء، قالت لوبّ.

- ليس ذنبك، لا تكوني متطيّرة إلى هذا الحدّ - قالت لها ماريّا.

- كيف لا يكون ذنبي؟ من الذي حنث بوعده، من التي قالت إنّها ستتخلى عن هذه الحياة ثمّ لم تفِ؟

- إذن لماذا لم تُمِتْكِ العذراء أنتِ وأماتت الطفل؟

- العذراء لم تُمت ابني، عاقبتني بتغييبه عنّي، وحملته إلى حياة أفضل.

- آه، حسن، لا مشكلة إذا كنت تنظرين إلى المسألة بهذا الشكل، أليس صحيحاً.

- طبعاً، بهذا الشكل كلّ الأمور محلولة - قلتُ أنا -. وأنتما متى تعارفتما قبل أو بعد الطفل؟

- بعده - قالت ماريّا -، عندما كانت هذه تمضي في الحياة مثل طوربيد مجنون. أنا أعتقد أنّك كنتِ تريدين أن تموتي، يا لوبِّ.

- لولا ألبِرتو لكنتُ نفقتُ - تنهّدت لوبِّ.

- ألبِرتو خطيبُ. . .كِ، أفترضُ - قلتُ-هل تعرفينه؟ - سألتُ ماريّا وهزّت هذه رأسها بالموافقة.

- قوّادها - قالت ماريّا.

- لكنّ الذي عنده أكبر من الذي عند صديقك الصغير - قالت لوبِّ.

- لا تقصدينني أنا، صحيح؟ - سألتُها.

ضحكت ماريّا.

- تقصدك أنت، طبعاً، يا أبله - قالت.

احمررتُ ثمّ ضحكتُ. وضحكت ماريّا ولوبِّ أيضاً.

- ما حجم الذي عند ألبرتو؟ - سألتْ ماريّا.

- حجم سكينه ذاتها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- وما حجم سكينه؟ - سألت ماريّا.

- هكذا.

- لا تُبالِغي - قلتُ مع أنّه كان من الأفضل أن أكون قد غيّرتُ الحديث، كي أتفادى ما لا يُمكن تفاديه -: لا يوجد سكاكين بهذا الحجم - شعرت بأنّني تورّطت أكثر.

- آه، يا أختُ، كيف يمكنك أن تكوني آمنة بوجود هذه السكين؟ - قالت ماريّا.

- عنده السكين منذ كان في الخامسة عشرة من عمره، أهدتها إليه عاهرة من بوندوخو، امرأة ماتت.

- لكن هل قستِهِ له أنتِ بالسكين أم أنّك تتكلّمين خبط عشواء؟

- سكين بهذا الحجم تعيق - أصررتُ.

- هو يقيسه، لستُ بحاجة لأن أقيسه، فأنا ماذا يهمّني، هو يقيسه بين وقت وآخر، مرّة في اليوم، على الأقل، يقول إنّه يفعل ذلك ليتأكّد من أنّه لا يصغر.

- هل عنده خوف من أن تنحسر حمامته؟ - سألت ماريّا.

- ألبرتو لا يخاف شيئاً، هو شرس من الشرسين الحقيقيّين.

- إذن لماذا موضوع السكين؟ الحقيقة أنّني لا أفهم - قالت ماريّا -. أولم يجرح نفسه مرّة واحدة بالمصادفة.

- أحياناً، لكن عن عمد. يستخدم السكين بشكل ممتاز.

- هل تعنين أنّ قوّادك الوغد يجرح أحياناً قضيبه لأنّه يحبّ ذلك؟ - سألت ماريّا.

- أي، نعم.

- لا يمكن أن أُصدّق.

- إنّها الحقيقة. يجرحه هنا، ليس في كلّ يوم، ماذا؟ فقط عندما

يكون مُعصبّاً أو تجاوز الجرعة كثيراً. أما قياسه، بمعنى قياسه، فهو يقيسه دائماً تقريباً. يقول إنّ هذا مفيدٌ لرجولته. يقول إنّها عادة تعلّمها في المباقر.

- هذا الديوث لا بدّ أنه مريض نفسيّاً - قالت ماريّا.

- المسألة أنّك رقيقة جدّاً، يا أخت، ولا تفهمين هذه الأشياء.

أتساءل: ما السيّئ في الأمر؟ كلّ الرجال الأوغاد يقيسون دائماً قضبانهم. ديوثي يفعل ذلك حقيقةً وبالسكين. ثم إنّ السكين هي التي أهدتها إليه أول امرأة نام معها، التي كانت بالنسبة إليه أقرب لأن تكون أمّه.

- وهل حقيقة أنّه كبير إلى هذا الحدّ؟

ضحكت ماريّا ولوبّ. راحت صورة ألبِرتو تكبر وتكتسب طبيعة مهدّدة. لم أرغب بعدها بأن يظهر هناك ولا أن أدافع بكلّ قواي عن الفتاتين.

- ذات مرّة في أزكابوتزالكو، في ملهى مخصص للموضوع قاموا بمسابقة رضاعة قضبان الذكور وكانت هناك امرأة من تلك المنطقة فازتِ بها كلّها. لم يكن هناك من برغوث يستطيع أن يمتص كامل القضبان التي كانت تمصّها تلك المرأة. عندها نهض ألبِرتو عن الطاولة حيث كنّا وقال انتظروني. هناك مسألة عليّ أن أحلّها. قال له الذين كانوا على طاولتنا لقد هدرت يا ألبِرتو، يُلاحظ أنّهم كانوا يعرفونه. ذهنياً عرفت أن المرأة المسكينة كانت مهزومة. وقف ألبِرتو وسط الحلبة، أخرج قضيبه الهائل وجعله ينتصب بضربتين وأدخله في فم البطلة. كانت هذه قاسية جدّاً وقامت بجهد. وشيئاً فشيئاً بدأت تبتلع القضيب الهائل بين صيحات الدهشة. عندها أخذها ألبِرتو من أذنيها وأدخله كاملاً. لا يؤجّل، قال، وضحك الجميع. حتى أنا ضحكتُ على الرغم من أنّني أيضاً كنتُ أشعر ببعض الخجل وبعض

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الغيرة. في الثواني الأولى بدا أنّ المرأة تتحمّل، لكنّ بلعومها انسدَّ بعد ذلك وبدأت تختنق...

- اللعنة، ما أحون هذا الألبرتو - قلتُ.

- لكن تابعي حكايتك. ماذا جرى؟ - قالت ماريّا.

- لا شيء، بدأت المرأة تضرب ألبِرتو وتحاول أن تنفصل عنه، وبدأ ألبرتو يضحك ويقول هيا، يا مهرة، هيا، يا مهرة، كما لو أنّه يمتطي مهرة جموحة، تفهمني، أليس كذلك؟

- كما لو أنّه في مضمار - قلتُ.

- هذا لم يعجبني إطلاقاً وصرخت به اتركها، يا ألبِرتو، سوف تؤذيها. لكنّني أعتقد أنّه لم يسمعني. خلال ذلك راح وجه المرأة يصيرُ في كلّ مرّة أكثر امتقاعاً، واحمراراً وعيناها تجحظان جدّاً (وتغمضهما حين تقوم بعمليات المصّ) وكانت تدفع ألبِرتو من وركيه وتشدّه من جيوبه وحتى الزنار، لنقل. عبثاً، طبعاً لأنّها مع كلّ شدة ودفعة كانت تقوم بها كي تنفصل كان يشدّها ألبِرتو من أذنيها كي يمنعها من ذلك. وكان هو يملك كلّ أوراق الفوز، هذا ما لوحظ على الفور.

- ولماذا لم تعض له جهازه؟ - سألت ماريّا.

- لأنّها مسابقة بين أصدقاء. لو فعلت ذلك لقتلها ألبِرتو.

- أنت مجنونة، يا لوبِّ - قالت ماريّا.

- وأنتِ أيضاً، كلّنا مجنونات؟ أليس كذلك؟

ضحكت ماريّا ولوبِّ. وأنا أردتُ أن أعرف نهاية القصّة.

- لم يحدث شيء - قالت لوبِّ - لم تتحمل العجوز أكثر وراحت تتقيّأ.

- وألبِرتو؟

- انسحب قبل ذلك بقليل. لا؟ انتبهَ إلى ما كان سيحصل ولم

يبغ أن توسّخ له بنطلونه. هكذا قفز مثل نمر، لكن إلى الخلف، ولم يصب ولا حتى بقطرة صغيرة. الناس في المسابقة صفقّوا له بحنق.

- وأنت عاشقة لهذا الممسوس؟ - قالت ماريّا.

- عاشقةِ، بمعنى العاشقة لا أدري. أحبّه كثيراً، هذا صحيح. أنت أيضاً كنتِ ستحبينه لو كنت مكاني.

- أنا؟ ولا حتى لو كنتُ مجنونة.

- إنّه رجل شديد الرجولة. - قالت لوبِّ بنظرتها الضائعة فيما وراء النوافذ - هذه هي الحقيقة الخالصة. ويفهمني أكثر من أيّ شخص آخر.

- يستثمرك أكثر من أيّ شخص، تريدين أن تقولي - قالت ماريّا راجعة إلى الوراء وطارقة على الطاولة بيديها. قفزت الفناجين من الضربة.

- هوّني عليك، لا تنزعجي، يا أخت.

- حقيقة، هونّي عليك، هي حرّة في أن تصنع بحياتها ما تريد - قلتُ.

- لا تتدخّل أنت، يا غارثيّا مادِرو، أنت ترى هذه الأشياء من الخارج ولا تفهم شيئاً مما نتكلّم عنه.

- وأنتِ أيضاً ترينها من الخارج. غريب، أنتِ تعيشين مع والديك، أنت لستِ عاهرة، عفواً، يا لوبِّ أقول ذلك دون أن أقصد إهانتك.

- لا ، أنت لا تهينني، يا ولد - قالت لوبِّ.

- اسكت، يا غارثيّا مادِرو - قالت ماريّا.

أطعتها. لزمنا ثلاثتنا الصمت برهة. بدأتْ بعدها ماريّا تتكلّم عن الحركة النسائية وذكرت جيرترود ستين، رِمِديوس فارو، ليونورا كارّينغتون، أليس ب. توكلاس. (توكلاكِلا ، قالت لوبِّ، لكنّ ماريّا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم تعرها بالاً) أونيكا ثورن، جويس منصور وماريان مور وأخريات لا أتذكّر أسماءهنّ. نصيرات المرأة في القرن العشرين كما أفترض. كذلك ذكرت سور خوانا دِ لا كروث.

- هذه شاعرة مكسيكية - قلتُ.

- وراهبة أيضاً، هذا أعرفه - قالت لوبّ.

١٧ تشرين الثاني

ذهبتُ اليومَ إلى بيت الأختين فونت من دون بانتشو (لا أستطيع أن أبقى مُعلّقاً إلى بانتشو طوال اليوم) ومع ذلك بدأتُ أشعر عندما وصلتُ بأنّني مُضطربٌ. فكّرت أنّ والد ماريّا سيطردني رفساً، وأنّني لن أحسن التعامل معه وأنّهُ سينقضّ عليَّ. لم أجرؤ على قرع الجرس وبقيت برهةً أدور في الحيّ وأنا أُفكِّرُ بماريّا، بأنخِليكا، بلوبٍّ وبالشِّعر. . . كذلك خطر لي دون إرادة منّي أن أُفكِّر بزوجة عمّي، بعمّي، بحياتي حتى تلك الساعة. رأيت أنّها كانت سارَّة وفارغة وعرفت أنّها لن تعود بعد الآن لتكون كذلك. سُعدت عميقاً بذلك. عدتُ بعدها ماشياً بخطوات سريعة حتى بيت الأختين فونت وقرعت الجرس. أطلّ السيّد فونت من الباب وأومأ إليّ من هناك وكأنّه يقولُ لي لا تذهب، انتظر قليلاً، الآن أفتح لك. اختفى بعدها، لكنّ الباب بقي مشقوقاً. بعد برهة عاد ليظهر وعبر الحديقة وهو يُشمّر قميصَهُ وابتسامة كبيرة تعلو وجهه. الحقيقة أنّني وجدته أحسن. فتح لي الباب وقال لي أنت غارثيّا مادِرو. أليس كذلك؟ وسلّم عليّ مُصافحةً. قلتُ له كيف حالك، يا سيّد، وقال لي هو: نادِني كيم، دعك من سيّد هذه الشكليات في هذا البيت غير واردة. في البداية لم أفهم كيف يُريدني أن أُناديه وقلتُ كيم؟ (قرأت روديارد كبلينغ)، لكنّه قال لي لا، كيم تصغير لخواكين بالكتلانية.

- إذن سلام، يا كيم - قلتُ بابتسامة ارتياح بِل وفرحٍ أيضاً - أنا اسمي خوان.

- لا ، من الأفضل أن أبقى أدعوك غارثيّا مادِرو، الجميع يدعونك هكذا - قال هو.

رافقني بعدها مسافة عبر الحديقة (كان يأخذني من ذراعي) ثمّ وقبل أن يتركني قال لي إنّ ماريّا حكت له ما جرى بالأمس.

- أشكرك، يا غارثيّا مادِرو - قال - الشباب من أمثالك قليلون. هذا البلد في طريقه إلى الخراء ولا أعرف كيف سنُصلحه.

- فقط فعلت ما كان سيفعله أيّ شخص آخر - قلت دون تبصّر تقريباً.

- حتى الشباب الذين هم نظريّاً أمل التغيير يتحوّلون إلى بطالين وداعرين. ليس لهذا إصلاحٌ، هذا لا يُصلح إلا بالثورة.

- أنا متفق معك تماماً، يا كيم - قلتُ

- بحسبِ ابنتي تصرّفتَ كفارس.

هززت كتفيّ.

- هي لديها صداقات، لماذا سأحكي لك، إذا كنت ستتعرّف عليهم - قلتُ -. جزئيّاً لا يزعجني. على المرء أن يتعرّف على ناسٍ من كلّ الطبقات، أحياناً من الضروريّ أن يتبلّل المرء بالواقع. أليس كذلك؟ أظنّ أن ألفونسو ريِّسْ قال ذلك، ممكن، ليس مهمّاً. لكنّ ماريّا تتجاوز الحد، أليس كذلك؟ وأنا لا أنتقدها لهذا السبب، *فلتبتلّ* بالواقع، لكن لتبتلّ، لا أن *تُعَرّض نفسها للخطر*، أليس كذلك؟ لأنّ المرء إذا ابتلّ أكثر من اللازم يُعرض نفسه لأن يُصبح ضحيّة، لا أدري ما إذا كنت تتابعني.

- أتابِعُك - قلتُ

- إلى ضحيّة *الواقع*، خاصّة إذا كان لديها أصدقاء أو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صديقاتٍ، كيف سأقوله لك؟ جذاّبين، صحيح؟ ناس جذّابون ببراءة الجلاّدين، تتابعني، أليس كذلك، يا غارثيّا مادِرو؟

- كيف لا.

- مثلاً. لوبِّ تلك، الفتاة التي رأيتماها البارحة. أنا أيضاً أعرفُها، ماذا تظنّ، بقيت هنا، في بيتي، تأكلُ معنا وتنام، ليلة أو ليلتين، لكن المسألة أنّ هذه الفتاة عندها *مشاكل*، صحيح؟ تجذب المشاكل، إلى هذا كنتُ أُشير حين قلتُ لك ناس جذّابون.

- أفهم - قلتُ -. إنّهم مثل المغنطيس.

- بالضبط. وفي هذه الحالة ما يجذبه المغنطيس شيء سيّئ، سيّئ جدّاً، لكن وبما أن ماريّا يافعة جدّاً لا تنتبه ولا ترى الخطر، صحيح؟ وما تريده هي أن تعمل *الخير*. تعمل الخيرَ مع من يحتاجونه، دون أن تنشغل بالمخاطر التي ينطوي عليها. بكلمة واحدة، ابنتي المسكينة تريد من صديقتها، أو ممن هي من معارفها أن تتخلى عن الحياة التي هي فيها.

- أرى ما تقصده، يا سيّد، أعني يا كيم.

- هل ترى ما أقصده؟ ما الذي أقصده؟

- تقصد قوّاد لوبِّ.

- ممتاز، يا غارثيّا مادِرو، هنا لبّ المسألة. قوّاد لوبِّ. ماذا تعني لوبِّ بالنسبة له، دعنا نرَ؟ وسيلة عيشه، عمله، مكتبه، عمله. وماذا يفعل المستخدم عندما يصبح بلا عمل، هه؟ قلْ لي ماذا يفعل؟

- يغضب.

- يغضب *كثيراً جدّاً*. وممّن سيغضب؟ ممّن طرده من العمل، لا تشكّ بهذا أبداً لن يغضب من الجار، وإن كان هذا ممكناً، لكنّه سيغضب أوّلاً من الذي فصله عن العمل، طبعاً. ومن الذي يحفر الأرض تحتها كي تبقى من دون عمل؟ ابنتي. ولذلك ممّن ستغضب؟

من ابنتي؟ وبالطريق مع عائلتها أنت تعرف كيف هم هؤلاء الناس، الانتقامات عادة ما تكون مُريعة ولا تميّز. هناك ليالٍ، أُقسِم لك، أرى فيها كوابيسَ مريعة - ضحك قليلاً وهو ينظر إلى العشب، كما لو أنّه يتذكّر كوابيسه - توقف شعرَ أشجعَ الشجعان. أحلم أحياناً أنّني في مدينة، هي مكسيكو، لكنّها في الوقت ذاته ليست مكسيكو. أعني: مدينة مجهولة، لكنّني أعرفها من أحلامٍ أخرى، أنا أُضجرك، أليس صحيحاً؟

- لا، كيف يخطر لك هذا.

- كما كنتُ أقول لك، مدينة مجهولة بشكل مبهم ومعروفة بشكلٍ مشوّش. وأنا أدور في شوارع لا نهاية لها، مُحاولاً أن أعثر على فندق أو نزلٍ أُريد أن أنزل فيه. لكنّني لا أجد شيئاً. فقط أجد شقيّاً أخرس والأسوأ هو أن الليل يبدأ بالحلول وأنا أعرف أنّه عندما يحلّ الليل لن يكون لحياتي قيمة، أليس صحيحاً؟ سأصبح كمن يقول تحت رحمة قوى الطبيعة. الحلم ابن حرام - أضاف متأمّلاً.

- حسن، يا كيم، سأرى ما إذا كانت الفتاتان موجودتين.

- طبعاً - قال دون أن يترك ذراعي.

- سأمرّ وأودّعك لاحقاً - قلتُ لمجرّد أن أقولَ شيئاً.

- أعجبني ما فعلته ليلة البارحة، يا غارثيّا مادِرو. أعجبني أنّك ترعى ماريّا ولم تُثرْ أمام كلّ أولاء العاهرات.

- يا رجل، كيم، لم يكن هناك غير لوبٍّ... وصديقات صديقاتي هنّ صديقاتي - قلتُ محمرّاً حتى أذنيَّ.

- حسن اذهب لزيارة الفتاتين، أعتقد أن لديهما مدعوّاً آخر. هذه الغرفة مُزدحِمة أكثر من... - لم يعثر على المشبَّه به وضحك.

ابتعدتُ عنه بأسرع ما استطعتُ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عندما أوشكتُ أن أدخل إلىَ الفناء التفتّ وكان كيم فونت ما يزال هناك يضحك بصوتٍ منخفض وينظر إلى المغنوليا.

١٨ تشرين الثاني

عدتُ اليوم إلى بيت الأختين فونت. خرج كيم ليفتح لي وعانقني. وجدتُ ماريّا في البيت الصغير وأنخِليكا وإرنِستو سان إبيفانيو. كان الثلاثة جالسين على سرير أنخِليكا. عندما دخلت جمعوا باللاوعي أجسادهم إلى بعضها البعض، كما لو كي يمنعوا أن أرى ما كانوا يتشاركون فيه. يبدو لي أنّهم كانوا ينتظرون بانتشو. عندما انتبهوا إلى أنّني أنا لم تسترخِ وجوههم.

- عليك أن تعتادي أن تُغلقي الباب بالمفتاح - قالت أنخِليكا - وهكذا لن نقع في مثل هذا الفزع.

وجهُ أنخِليكا على العكس من وجهِ ماريّا، أبيض جدّاً لكن بدرجة لا أعرف أن أقول ما إذا كانت زيتونية أم وردية، أعتقد زيتونية بوجنتين بارزتين وجبين واسع وشفتين مكتنزتين أكثر من شفتي أختها. عندما رأيتُها، أو بالأحرى رأيتُ أنّها تنظرُ إليّ (في المرات السابقة التي تواجدت فيها هناك، عملياً لم تنظر إليَّ) شعرتُ بيد طويلة وناعمة الأصابع، لكنّها في الوقت ذاتها قويّة جدّاً تقبضُ على قلبي، صورة بالتأكيد لن تُعجب ليما ولا بِلانو، لكنّها تنطبق على ما شعرته به وقتها مثل القفاّز على اليد.

- لستُ آخر من دخل - قالت ماريّا.

- بلى كنتِ الأخيرة. - نبرة أنخِليكا كانت واثقة تكادُ تكون سلطوية، فكّرتُ للحظة أنّها تبدو الأخت الكبرى وليست الصغرى - أنزلْ مزلاجَ الباب واجلسْ حيث تستطيع - أمرتني.

فعلت ما قالوه لي. كانت ستائرُ النوافذ مسدلةً والنور الذي

يدخل أخضرَ مع خطوط صفراء. جلست على كرسيّ خشبيّ، إلى جانب الرفوف وسألتهم ما الذي كانوا ينظرون إليه. رفع إرنستو سان إبيفانيو وجهه ودرسني لثوان.

- ألستَ أنت من سجل ملاحظات عن الكتب التي كنتُ أحملها في ذلك اليوم؟

- بلى. بريان باتن، أدريان هِنري وآخر لا أتذكره الآن.

- فريق *إطفاء الحريق* لسبايك هاوكينز.

- هذا هو.

- وهل اشتريتها؟ - كانت النبرة تهكمية قليلاً.

- - ليس بعد، لكنّني منهمك بذلك.

- عليك أن تذهب إلى مكتبة متخصّصة بالأدب الإنكليزي. لن تعثر عليها في مكتبات مكسيكو العادية.

- بلى، بَلى، كلّمني عوليس عن مكتبة تذهبون أنتم إليها.

- آه، عوليس ليما - قال سان إبيفانيو مشدّداً على الياءين -. لا شكّ سيرسلك إلى مكتبة بودلير، حيث يوجد كثير من الشعر الفرنسي، لكن قليلا جدّاً من الشعر الإنكليزي... ومن نحن؟

- نحنُ، من نحن؟ - قلتُ، مباغَتاً. كانت الأختان فونت ما تزالان تتأملان وتتبادلان بعض الأشياء لم يكن باستطاعتي أن أراها. كانتا تضحكان بين الفينة والأخرى. كانت ضحكة أنخِليكا مثل نبع.

- زبائن المكتبة؟

- آه، الواقعيون الأحشائيون. طبعاً.

- لا تُضحكني. في هذه المجموعة وحده عوليس وصديقه التشيليّ يقرأان، الآخرون عصابة من الجهلة الوظيفيين. يبدو لي أنّ الشيء الوحيد الذي يفعلونه في المكتبات هو سرقة الكتب.

- لكنّهم سيقرأونها بعد ذلك، صحيح؟ - ختمتُ ملدوغاً قليلاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لا تخطئ، بعدها يهدونها لعوليس وبِلانو. هذان يقرآنها ويحكيان لهم عنها وهم يمضون متبجّحين هناك بأنّهم قرأوا كينو، مثلاً، في حين أنّهم في الحقيقة اقتصروا على سرقة كتاب لكينو، لا على قراءته.

- هل بِلانو تشيليّ؟ - قلتُ محاولاً أن أحرف الحديث نحو موضوع آخر، لأنّني بالإضافة إلى ذلك وببساطة لم أكن أعرف.

- ألم تنتبهْ؟ - سألت ماريّا دون أن ترفع نظرها عما كانت تنظر إليه.

- بلى، لاحظتُ نبرة مختلفة قليلاً عنده، لكن بدا لي أنّه ربّما كان، لا أدري، من تاماوليباس أو من يوكاتان. . .

- بدا لك يوكاتانياً؟ أيْ، يا غارثيّا مادِرو، مباركة براءتك. بدا له بِلانو يوكاتاني - قال سان إبيفانيو للأختين وضحك الثلاثة.

أنا أيضاً ضحكتُ.

- لا يبدو يوكاتاني، لكن يمكن أن يكون - قلتُ -. ثمّ إنّني لستُ متخصصاً باليوكاتانيين.

- ليس يوكاتاني. إنّه تشيليّ.

- وهل هو يعيش في مكسيكو منذ زمن طويل؟ - سألتُ لمجرّد أن أقول شيئاً.

- منذ انقلاب بينوتشيت - قالت ماريّا دون أن ترفع رأسها.

- منذ ما قبل الانقلاب بكثير - قال سان إبيفانيو -. تعرّفت عليه في عام ١٩٧١. لكن الذي حدث أنّه عاد بعدها إلى تشيلي وعندما وقع الانقلاب عاد إلى المكسيك.

- لكنّنا لم نكن وقتها نعرفك - قالت أنخِليكا.

- كنّا بِلانو وأنا صديقين جدّاً في تلك المرحلة - قال سان

إبيفانيو -. كلانا كان في الثامنة عشرة من عمره وكنّا أصغر شعراء شارع بوكارِلي.

- هل يمكن أن أعرف ما تنظرون إليه؟ - سألتُ.

- صور لي. من الممكن ألا تعجبك، لك إذا أردت تستطيع أن تراها أيضاً.

- هل أنت مصوّر؟ - سألتُ وأنا أنهض وأتجهُ إلى السرير.

- لا، أنا شاعر فقط - قال سان إبيفانيو مفسحاً لي مكاناً -. بالشعر عندي ما يفيض عني وإن كنتُ سأقوم ذات سنة من هذه السنين بارتكاب الدهمائية وأجلس لأكتب قصصاً.

- خذ - مرّرت لي أنخِليكا كومة من الصور استبعدت من قبلهما -، يجب أن تراها بحسب التسلسل الزمني.

كانت قرابة الخمسين أو الستين صورة. كلّها ملتقطة بالفلاش. وكلّها كانت ملتقطة داخل غرفة، بالتأكيد غرفة فندق، باستثناء اثنتين يظهر فيهما شارع ليلي سيّئ الإضاءة وسيارة موستانغ حمراء بداخلها بعض الأشخاص. كانت وجوه الذين في السيارة ضبابية. الصور الأخرى يظهر فيها فتى في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره، وإن كان من الممكن أن يكون عمره خمس عشرة، قصير الشعر وفتاة ربّما أكبر منه بسنتين أو ثلاث سنوات وإرنِستو سان إبيفانيو. لا شكّ كان هناك شخص رابع، الذي كان يلتقط الصور، لكنّ هذا لا يظهر أبداً. كانت الصور الأولى للفتى الأشقر، بلباسه ثم فجأة بثياب أقل. اعتباراً من الصورة الخامسة عشرة يظهر إبيفانيو والفتاة. كان سان إبيفانيو يرتدي سترة أمريكية بنفسجية. والفتاة فستانَ احتفال أنيق.

- من يكون؟ - سألتُ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- أنت اسكتْ وانظرْ إلى الصور، بعدها تسأل. - قالت أنخِليكا.

- إنّه حبّي - قال سان إبيفانيو.

- آه، وهي؟

- أخته الكبرى.

عند الصورة العشرين تقريباً يبدأ الفتى الأشقر بارتداء ملابس أخته. الفتاة التي لم تكن شديدة الشقرة وكانت بدينة قليلاً وتقوم بحركات فاحشة للمجهول الذي يصوّرهم. كان سان إبيفانيو مالكاً لزمام نفسه على الأقل في الصور الأولى، مبتسماً، لكنّه جدّيّ يجلس على كرسيّ تزلج أو على حافة السرير. ومع ذلك لم يكن كلّ هذا أكثر من سراب، إذ اعتباراً من الصورة الثلاثين أو الخامسة والثلاثين، سان إبيفانيو يتعرّى بدوره (جسمه بساقيهِ وذراعيه الطِويلة بدا نحيلاً بشكل مفرط، هيكلاً عظميّاً، أكثر بكثير مما كان في الواقع). في الصور التالية يظهر إبيفانيو وهو يُقبّل عنق المراهِق الأشقر، شفتيه، عينيه، ظهرَهُ، قضيبه، نصف المنتصب، قضيبه المنتصب (القضيب الذي فيما عدا ذلك يلفت الانتباه في فتى ذي مظهر رقيق)، دائماً تحت نظرة أخته التي كانت تظهر أحياناً بكامل جسدها وأخرى فقط ببعض منه (ذراع، يد، بعض أصابع، نصف وجه)، بل وأحياناً فقط ظلّها المنعكس على الجدار. عليّ أن أعترف أنّني لم أرَ في حياتي شيئاً مشابهاً. طبعاً لا أحد نبّهني إلى أنّ سان إبيفانيو مِثْليّ. (وحدها لوبِّ، لكنّ لوبِّ أيضاً قالت عنّي إنّني لوطي) وهكذا حاولتُ ألاّ اظهر مشاعري (التي كانت على الأقل مشوّشة) وتابعت النظر. تماماً كما خفت كانت الصور التالية تُظهر قارئَ بريان باتين يغرز عضوه في مؤخّرة المراهق الأشقر. شعرت بأنّني أحمرُّ وفجأة انتبهت إلى أنّني لا أعرف بأيّ طريقة سأنظر إلى الأختين فونت

وسان إبيفانيو حين أنتهي من تفحّص الصور. كان وجه الفتى المولوج يتلوى بحركة قدّرت أنّها حركة لذة وألم مُختلِطين (أو حركة مسرحية، لكنّني فكرّت بهذا بعد ذلك بكثير) بدا وجه إبيفانيو يُسنّ في لحظات مثل شفرة حلاقة أو مثل سكين مضاءة بكثافة. ووجه الأخت المراقِبة تمرّ في كلّ المراحل الحركية الممكنة، بدءاً من الفرح الوحشيّ وحتى أعمق حالات الحزن. في الصور الأخيرة يظهر الثلاثة في وضعيات مختلفة، مستلقين على السرير، متظاهرين بالنوم أو مبتسمين للمصوّر.

- مسكين الصبيّ، يبدو أنّه هناك بالإكراه - قلت كي أثير سان إبيفانيو.

- بالإكراه؟ الفكرة خطرت له. إنّه فاسق صغير.

- لكنّك تُحبّه من كلّ روحك - قالت أنخِليكا.

- أحبّه من كلّ روحي، لكن تفصل بيننا أشياء أكثر من اللازم.

- مثل؟ - سألت أنخِليكا.

- المال، مثلاً، أنا فقير، وهو صبيّ غنيٌّ ومُدَلّل، معتاد على الرفاهية، على السفر على ألا ينقصه شيء إطلاقاً.

- لكنّه هنا لا يبدو لا غنيّاً ولا مدلّلاً، هناك بعض الصور حقيقة مريعة - قلتُ أنا في هبّةِ صراحة.

- أسرته تملك أموالاً كثيرة - قال سان إبيفانيو

- إذن كان باستطاعتكم أن تذهبوا إلى فندق أفضل قليلاً. الإضاءة من أفلام السانتو.

- إنه ابن سفير هندوراس - قال سان إبيفانيو، رامياً إيّاي بنظرة مروّعة -. لكن لا تقل هذا لأحد - أضاف بعدها، نادماً على اعترافه بسرّه.

أعدت رزمة الصور التي خبّأها سان إبيفانيو في أحد جيوبه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على بعد سنتمترات قليلة من ذراعي الأيسر كان ذراع أنخِليكا العاري.

استجمعت شجاعة ونظرت إلى وجهها. هي أيضاً كانت تنظر إليّ. أعتقد أنّني احمررتُ قليلاً. شعرت بنفسي سعيداً. وعلى الفور خرّبتُ كلّ شيء.

- ألم يأتِ بانتشو اليوم؟ - قلت كأبلهٍ.

- حتى الآن لا - قالت أنخِليكا -. كيف وجدت الصور.

- صفيقة - قلتُ

- فقط صفيقة؟ - نهض سان إبيفانيو وجلس على الكرسيّ الخشبيّ التي كنت عليها قبل ذلك. راقبني من هناك بابتسامة من ابتساماته المسنونة.

- حسن، فيها شعر. لكن لو قلت لك فقط بدت لي شاعرية سأكذب عليك. إنّها صور غريبة. أستطيع أن أقول خلاعيّة. ليس بالمعنى المهين للكلمة، لكنّني أعتقد أنّها صور خلاعيّة.

- كلّ العالم يحاولون أن يصنّفوا الأشياء التي يفوتهم فهمها - قال سان إبيفانيو-. هل أثارتك الصور؟

- لا - قلت جازماً، على الرغم من أنّني لم أكن واثقاً من ذلك - لم تُثرني، لكنّها أيضاً لم تُثر اشمئزازي.

- إذن ليست خلاعيّة. بالنسبة لك، على الأقل يجب ألا تكون كذلك.

- لكنّها أعجبتني اعترفتُ.

- إذنْ قلْ هذا فقط: أعجبتك، لا تعرف لماذا أعجبتك، أيضاً هذا لا يهم كثيراً، نقطة.

- من المصوّر؟ - سألت ماريّا. نظر سان إبيفانيو إلى أنخِليكا وضحك.

- هذا فعلاً سرّ. جعلني أُقسمُ ألا أقول ذلك لأحد.

- لكن الفكرة كانت لِبيلّي. ماذا يهمّ من كان المصوّر؟ - قالت أنخِليكا.

هكذا إذن ابن سفير هندوراس يسمى بيلّي، ولائق به جدّاً، فكّرتُ.

وبعدها لا أدري لماذا انتابني شعور بأنَّ الصور التقطها عوليس ليما. ثمّ فكّرتُ على الفور بجنسيّة بِلانو، الجديدة بالنسبة لي. رحتُ بعدها أنظر إلى أنخِليكا، لكن دون أن يلاحظ عليّ ذلك كثيراً، خاصّة حين كانت لا تنظر إليّ ورأسها داخل كتاب شعري (أنوار الألم، ليوجين سافيتسكايا) الذي لم تكن ترفع نظرها عنه إلاّ لكي تدخل في حديث تتبادله الآن ماريّا وسان إبيفانيو حول الفن الإيروسي. عدت بعدها لأُفكّر في إمكانية أن يكون عوليس ليما هو من التقط الصور وتذكّرتُ ما سمعته في مقهى كيتو عن أنّ ليما يُتاجر بالمخدرات، وإذا كان يُتاجر بالمخدرات حقاً، وكان هذا بحكم القائم، فكّرت بأنّه يمكن أن يُتاجر بأشياء أخرى. كنتُ في هذا حين ظهر باريّوس آخذاً بذراع أمريكية شمالية ظريفة جدّاً (دائماً كانت تبتسم) تدعى باربارا باتِرسون، وشاعرة لم أكن أعرفها تُدعى سيلبيا مورِنو وعندها بدأنا جميعاً نُدخّن ماريجوانا.

بعدها بكثير، أتذكر ذلك بشكل ضبابي (وإن لم يكن بتأثير لفافة الماريجوانا، الذي بالكاد شعرت به)، عاد أحدهم ليخرج موضوع جنسية بِلانو، ربّما كنتُ أنا، لا أدري، وراح الجميع يتكلّمون سيئاً عنه، باستثناء ماريّا وأنا، اللذين في لحظة معيّة كنّا نبتعد عن المجموعة جسدياً وروحياً، بل ابتعدنا كثيراً جدّاً (ربّما بتأثير الماريجوانا) كان ما يزال باستطاعتي أن أسمع ما يقولونه. أيضاً كانوا يتكلّمون عن ليما، عن أسفاره في ولاية غِرّروا وتشيلي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بينوتشيت يحصل على ماريجوانا كان يبيعها بعد ذلك إلى روائيين ورسامين في العاصمة الفدرالية. لكن كيف كان باستطاعة ليما أن يذهب ليشتري ماريجوانا من الطرف الآخر من القارّة؟ سمعتُ ضحكات. أعتقد أنّني أنا ضحكتُ أيضاً. أظنّ أنّني ضحكتُ كثيراً. كانت عيناي مُغمضَتَيْن. هم قالوا: أرتورو يُجبر عوليس على العمل أكثر من اللازم، المخاطر الآن أكبر وبقيت العبارة محفورة في رأسي. مسكين بِلانو، فكّرتُ. أخذتني ماريّا بعدها من يدي وذهبنا من البيت كما كانت تفعل عندما يكون هناك بانتشو وكانت أنخِليكا تطردنا، الفارق فقط هو أنّ بانتشو لم يكن موجوداً ولا أحد طردنا.

أظنّ أنّني نمت بعدها.

استيقظت في الثالثة صباحاً، كنت ملقيّاً بجانب خورخيتو فونت.

نهضتُ بقفزة واحدة. أحدٌ ما خلع لي حذائي، وبنطلوني والقميص. بحثتُ عنها في الظلمة، مُحاولاً ألاّ أوقِظ خورخيتو. أول شيء عثرتُ عليه كان مزادتي وفيها كتبي وقصائدي، على الأرض، عند قدم السرير. بعيداً عنها، عثرتُ على القميص والسترة منشورين على كرسيّ. لم أعثر على الحذاء في أيّ مكان. بحثتُ عنه تحت السرير ولم أعثر إلا على حذاء تنس يعود لخورخيتو. ارتديتُ ملابسي ورحت أفكّر بإمكانية أن أشعل النور أو أن أخرج حافياً. اقتربتُ من النافذة، دون أن أتخذ أيّاً من القرارين. عندما سحبتُ الستارة انتبهتُ إلى أنّني في الطابق الثاني. تأملتُ الفناء المظلم وخلف بعض الأشجار بيت الأختين فونت، المضاء بشكل خفيف بالقمر. لم أتأخّر في الانتباه إلى أنّه ليس القمر هو الذي كان يضيء البيت الصغير بل مصباح مشتعل تحت نافذتي تماماً، إلى اليسار قليلاً، معلقاً إلى القسم الخارجي من المطبخ. كان النور ضئيلاً جدّاً. حاولت أن ألمح نافذة الأختين فونت. لم أرَ شيئاً، لا شيء

غير الأغصان والظلال. قدّرتُ لثوانٍ احتمال أن أعود إلى السرير وأنام إلى أن يطلع الفجر، لكن خطرت لي أسبابٌ عديدة كي أتراجع. أوّلاً لأنّني لم أنم قط خارج البيت دون علم عمّي وزوجته؛ ثانياً عرفتُ أنّه سيكون من المحال عليّ أن أتصالح مع النوم ثانية: عليّ أن أرى أنخِليكا، لماذا؟ نسيتُ، لكنّني شعرتُ وقتها بالحاجة الماسّة لرؤيتها، لأن أراها نائمة، لأنّ أتقوقع عند حافة سريرها مثل كلبٍ أو مثل طفلٍ (صورة مجازية رهيبة، لكنّها صحيحة). وهكذا تسللت حتى الباب وقلت في ذهني، وداعاً يا خورخيتو، شكراً تركت لي فجوة، يا أخ زوجتي! كونيادو! (اللاتينية المصدر كوغناتوس)، ومتشجعاً بهذه الكلمة خرجتُ أخيراً من الغرفة، إلى ممرّ حالك مثل أكثر الليالي حلكة، أو مثل دار سينما انطفأ فيها كلّ شيء، بما في ذلك بعض العيون ورحت أتلمّس الجدران إلى أن عثرت، بعد مشوار طويل وخانق، يستحق أن يُروى بالتفصيل (ثم إنّني أكره التفاصيل) على الدرج القاسي الذي يصل الطابق الثاني بالأوّل. وحين وصلت هناك، متخشّباً مثل تمثال من ملح (أي شديد الشحوب ويداي جامِدتان في إيماءة نصف نشِطة ونصف متردّدة)، ظهر أمامي خياران. إمّا أن أبحثَ عن الصالة والهاتف وأهتف لعمّي وزوجته اللذين ربّما أيقظا وقتذاك أكثر من شرطيّ نزيه، أو أن أبحث عن المطبخ، الذي كان بحسب ما أتذكّر على اليسار، بجانب نوع من غرفة طعام للاستخدام اليومي. وازنتُ بين ما هو لصالح كلا خطّيّ العمل وما هو ضدّه، واخترت أكثرهما صمتاً، وهو أن أغادر بيت عائلة فونت الكبير بأسرع ما يمكن. لم تكن بعيدة عن قراري صورةُ أو سلسلة صور كيم جالساً في الظلمة على أريكة لها أذنان تلفه سحابة كبريت ضاربة للحمرة. استطعت بجهد كبير أن أهدأ. كان الجميع في البيت نياماً، على العكس من بيتي، فهناك لم يكن يُسمع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شخير أحدٍ. بعد مضي بضع ثوان، ما يكفي لإقناعي بأنّه ما من خطر، على الأقل بائن، يحوم حولي، بدأت أمشي من جديد. في هذا الجناح من البيت، كان مصباح الفناء ينير بشكل خفيف طريقي ولم أتأخر في أنّني وجدتُ نفسي في المطبخ. هناك وقد خلصتُ من كلّ حذر مفرط، أغلقت الباب، أشعلتُ النور وتهاويت على كرسيّ، منهكاً كما لو أنّني جريت كيلومتراً صعوداً. فتحت البرّاد وملأتُ كأس حليب حتى حافته وصنعت شطيرة جامبو وجبن مع صلصة محار وخردل من ديجون. حين انتهيت من تناولها كنتُ ما أزال جائعاً ولذلك حضّرت شطيرة أخرى، هذه المرّة من جبن وخسّ ومخلّل خيار صغير مع نوعين أو ثلاثة أنواع من الفليفلة الحارّة. هذه الشطيرة الثانية لم تهدئ شهيتي ولذلك قرّرتُ أن أبحث عن شيء أكثر تماسكاً. في عمق البراد، وفي غلاف بلاستيكي وجدت بقايا فروج مع صلصة المول؛ وفي وعاء آخر عثرت على قليل من الأرز، بقايا طعام ذلك النهار، أعتقد، ثمّ بحثت عن خبز حقيقيّ، خبز فرنسي أبيض وليس خبز قوالب وبدأت أحضّر العشاء. للشرب اخترت مرطبَّ لولو[1] بطعم الفريز، مذاقه في الحقيقة مذاق جامايكي. أكلتُ جالساً في المطبخ، صامتاً ومتفكّراً بالمستقبل. رأيت أعاصير وعواصف، زلازل بحرية، حرائق. غسلتُ بعدها المقلاة والملعقة والشوكة والسكين، نظفتُ فتات الخبز وسحبتُ مزلاج الباب المؤدي إلى الفناء. وقبل أن أخرج أطفأتُ النور.

كان بيت الأختين الصغير مغلقاً من الداخل. ناديت وهمست باسم أنخِليكا. لا أحد ردّ عليّ. نظرتُ إلى الخلف، ظلال الفناء، الجرن الذي ينتصب مثل حيوان غضوب ثنتني عن العودة إلى غرفة

(١) علامة مرطبات.

خورخيتو. عدت وطرقت الباب بقوّة أكبر هذه المرّة. انتظرت بضع ثوان وقرّرتُ أن أغيّر تكتيكي، انتقلت بضعة أمتار نحو اليسار، وطرقتُ بأصابعي بضع طرقات على بلور النافذة البارد. ماريّا، قلتُ، أنخِليكا، ماريّا، افتحا لي، هذا أنا. مكثتُ بعدها صامتاً، بانتظار نتيجة ما، لكنّ أحداً في البيت الصغير لم يكن يتحرّك. جررت نفسي، غاضباً، وإن كان الأصح أن أقول بغضب، مذعناً مرّة أخرى نحو الباب، وتركتُ نفسي أنزلق بظهري مستنداً إليه، ضائع النظرة. خمّنت أنّني سأبقى أخيراً هناك، نائماً، بطريقة أو بأخرى عند قدمي الأختين فونت، مثل كلبٍ (كلب بلّله الليل بلا رحمة!)، تماماً كما كنتُ وددتُ أنا نفسي قبل ساعات بطريقة حمقاء وجريئة. من كلّ قلبي وودت لو أبكي. ولكي أواجه السحب السوداء التي كانت تحيق بمستقبلي القريب، خطر لي أن أراجع كلّ الكتب التي كان عليَّ أن أقرأها، كلَّ القصائد التي عليّ أن أكتبها. فكّرتُ بعدها أنّني إذا ما نمتُ هناك من المحتمل أن تعثر عليّ خادمة عائلة فونت هناك وتشرع بإيقاظي مجنّبة إيّاي خزي أن تعثر عليّ السيّدة فونت أو إحدى بنتيها أو كيم فونت شخصيّاً. على الرغم من أنّه لو عثر عليّ هذا الأخير، استنتجتُ بشيء من الأمل، من المحتمل أن يُفكّر أنّني ضحيتُ بليلة حلم لذيذ في سبيل أن أحرس ابنتيه. إذا ما أيقظوني ودعوني إلى قهوة بالحليب، خلصتُ، لا خسارة، إذا ما أيقظوني رفساً، وطردوني دون توضيحات، لن يكون هناك أيّ أمل بالنسبة إليَّ ثمّ كيف سأشرح لعمي أنّني اجتزت كلّ العاصمة الفيدرالية حافياً؟ أعتقدُ أنّ هذا الاحتمال هو الذي عاد ليوقِظني، وربّما أنّ القنوط هو الذي جعلني باللاوعي أعود لأطرقَ الباب بقذال رأسي، الصحيح هو أنّني سرعان ما سمعتُ وقع خطوات داخل البيت الصغير. بعد ثوان قليلة فُتح البابُ وسألني صوت هامس وناعس ماذا أفعل هناك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت ماريّا.

- بقيتُ من دون حذاء، إذا وجدته لي سأذهب إلى بيتي فوراً - قلتُ.

- ادخُلْ - قالت ماريّا -. لا تُحدثْ ضجة.

تبعتها ممدود اليدين مثل أعمى. فجأة تعثّرتُ بشيء. كان هذا سرير ماريّا. سمعتُها تأمرني بأن أنام، رأيتها بعد ذلك تعود أدراجها (بيت الأختين فونت حقيقةً كبير) وتغلق دونَ ضجّة البابَ، الذي كان قد بقي شبهَ مفتوح. لم أسمعها تعود. وقتها كانت العتمة مطبقة وإن كنت ميّزت بعد لحظات وأنا جالس على حافّة السرير ولست مستلقياً كما أمرتني، إطارَ النافذةِ عبر ستارة الكتّان الهائلة. بعدها شعرت بأنّ أحداً يدخل في الفراش ويتمطّى وبعدها، لا أدري بكم من الزمن، شعرتُ أنّ هذا الشخص ينهض قليلاً، ربّما متكئاً على مرفق ويشدّني نحوه. عرفتُ من النَّفَسِ أنّني على بعد مليمترات من وجهِ ماريّا، جابت أصابعها وجهي، من الذقن وحتى العينين مغلقة إياهما كما لو أنّها تدعوني للنوم، يدها، يد ناتئة العظام، نزّلت سحاب بنطلوني وبحثت عن قضيبي؛ لا أدري لماذا، ربّما بسبب التوتّر الذي كنتُ فيه، أكّدتُ أنّني لستُ نعسان. أعرفُ، قالت ماريّا، ولا أنا. بعدها كلّ شيء صار تتالي أحداث محدّدة أو أسماء أو أفعال أو فصولٍ من كتاب تشريح مُخَلّع الأوراق مثل وردة، مترابطة بشكل فوضوي فيما بينها. سبرتُ جسدَ ماريّا بصمتٍ مكبوت، وإن كان بودّي أن أصرخَ من قلبي، محتفلاً بكلّ ركنٍ، بكلّ فضاءٍ صقيل لا نهاية له أجده. بدأت ماريّا، الأقل خجلاً مني، تتأوّه وراحت مناوراتها الخجولة أو الرصينة في البداية تصبح أكثر انفتاحاً (لا أجد الآن كلمة أخرى) راحت تقودُ يدي إلى أماكن كانت لجهلٍ أو عدمِ اكتراث، لا تصلها. هكذا كان أن عرفتُ، في أقلّ من عشر دقائق، أين يقعُ بظرُ المرأة

وكيف عليّ أن أدلّكه أو أُدلِّلَهُ أو أضغط عليه، دائماً، هذا صحيح، في حدود النعومة، الحدود التي كانت ماريّا تتعداها دائماً، فقضيبي، الذي أحسنت التعامل معه في المراهنات الأولى سرعان ما راح يتعذّبُ بين يديها؛ يديها اللتين كان لهما، في بعض اللحظات في الظلمة وبين تقلبات الملاحف، فعل براثنِ الصقر أو الزلماء[1]، تشدّه شدّاً كان من القوّة بحيث أنّني خفت أن تكون تريد أن تَقتلعه من جذوره وفي لحظات أخرى كان لهما فعل الأقزام الصينيين (كانت أصابعها المهرةَ الصينيين!) تتحقّقان وتقيسان الفضاءات والقنوات الواصلة بين خصيتيَّ وقضيبي وفيما بينها. بعدها (لكن قبلها كنتُ قد أنزلتُ بنطلوني حتى ركبتيَّ) امتطيتُ فوقها وأدخلته.

- لا تفرغ في الداخل - قالت ماريّا.

- سأحاول - قلتُ.

- كيف ستُحاول يا ديوث؟ لا تفرغ في الداخل!

- نظرت إلى جانبي السرير بينما كانت ساقا ماريّا تنعقدان وتنفكان فوق ظهري (كنت أتمنى أن أستمرّ هكذا حتى أموت) في البعيد لمحتُ سريرَ أنخِليكا وثَنْيَةَ وَرِكِ أنخِليكا، مثل جزيرة مُتَأمِّلة من جزيرة أخرى. فجأة شعرتُ أنّ شفَتَي ماريّا تمتصان ثدييَ الأيسر، وكأنها تعضّ قلبي. قفزت قفزة وأولجته كلّه بدفعة واحدة، برغبة أن أُسَمِّرَها في السرير (الذي بدأت نوابضه تصرّ بشكل مرعب فتوقّفتُ) في الوقت الذي كنتُ أُقبِّل فيه شعرَها وجبينَها بأقصى الرّقة وكان ما يزال أمامي متسع من الوقت كي أُفكّر كيف لم تستيقظ أنخِليكا على الجلبة التي كنّا نُحدِثُها. لم أنتبه متى وصلتُ، طبعاً نجحتُ في سحبهِ في الوقت المناسب، فمنعكساتي كانت دائماً جيدة.

---

(١) أنثى الصقر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لم تُفرغ في الداخل؟ - قالت ماريّا.

- أقسمتُ في أذنها إنّني لم أفعل. بقينا ثوان مشغولَيْن نتنفّس. سألتُها عمّا إذا بلغت الذروة فتركني جوابها مرتبكاً:

- بلغتها مرّتين، يا غارثيّا مادِرو، ألم تنتبه؟ - سألتْ بكلّ جدّية العالم.

قلتُ لها بصراحة لا، لا، لم أنتبه لشيء.

- ما زال منتصباً - قالت ماريّا.

- يبدو ذلك - قلتُ أنا - هل أستطيع أن أُدخله مرّة أخرى؟

- حسن.

لا أعرف كم من الوقت مرّ. وقذفت مرّة أخرى في الخارج. استطعتُ هذه المرّة أن أكبت تأوهاتي.

- الآن استمنيني - قالت ماريّا.

- ألم تبلغي أيّ ذروة؟

- لا هذه المرّة لم أُدرك ولا واحدة، لكنّني استمتعتُ - أخذتْ يدي، اختارتْ السبابةَ وقادتها إلى محيط البظر -. قبّل حلمتيَّ، أيضاً تستطيع أن تعضّهما، لكن ببطء شديد في البداية - قالت. عضّهما بعدها بقوّة أكبر وخذني بيدك من رقبتي. داعب وجهي، أدخل أصابعك في فمي.

- ألا تُفضّلين أن... أمصَّ لك بظرك؟ - قلت في محاولة عبثية للعثور على كلمةٍ أكثر أناقة.

- لا، الآن لا، تكفي إصبعك، لكن قبِّلْ ثديي.

- لك نهدان لذيذان جدّاً. - كنتُ غير قادر على أن أكرّر كلمة ثديين.

تعرّيتُ دون أن أخرج من تحت الملاحف (فجأة بدأتُ أتعرَّق) وبعدها بدأتُ على الفور أُنفّذ تعليمات ماريّا. عادت آهاتها وتنهّداتها

لتنصبَه لي. هي انتبهت فداعبت بيدها قضيبي حتى لم يعد باستطاعتها أكثر.

- ما بك، يا ماريّا؟ - همستْ في أذنها خائفاً من أن أكون قد تسببتُ لها ببعض الأذى في حنجرتها (اضغطْ، همست هي، اضغط) أو أن أكون قد عضضتُ بقوّة أكبرَ حلمتَها.

- تابعْ، يا غارثيّا مادِرو - ابتسمت ماريّا في الظلمة وقبّلتني.

عندما انتهينا قالت لي إنّها وصلت أكثرَ من خمس مرّات. في الحقيقة كان يصعب عليَّ أن أستوعب الفكرة، التي كنتُ أُقَدِّر أنّها خيالية، لكن عندما أعطتني كلمتها لم يكن أمامي غير أن أصدِّقها.

- بماذا تُفكّر؟ - سألتْني ماريّا.

- بك - كذبتُ، في الحقيقة كنتُ أُفكّر بعمّي، بكليّةِ الحقوق وبالمجلةِ التي كان سيُصدرها بِلانو وليما -. وأنتِ؟

- أفكّر بالصور.

- أي صور؟

- صور إرنِستو.

- الصور الخلاعية؟

- نعم.

كنّا نرتجف بإيقاع واحد. كان وجهانا ملتصقين ببعضهما البعض. نتكلّم، نُحرّك بعضَ الكلمات، لأنّ أنفينا كانا منفصلين، لكن ومع ذلك شعرتُ من شفتيّ أنّ شفتيها تتحرّكان.

- هل تحبّين أن نمارس مرّةً أخرى؟

- بلى - قالت ماريّا.

- حسن - قلتْ دائخاً قليلاً -، إذا ندمت في اللحظة الأخيرة أخبريني.

- أندم على ماذا؟ - سألتْ ماريّا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان الجزء الداخلي من فخذيها مبلّلاً بمنييَ. شعرتُ ببرودة ولم أستطع أن أتفادى أن أتنهّد بعمق في اللحظة التي عدتُ لألج فيها.

تأوّهت ماريّا وبدأتُ أنا أتحرّك بهيجانٍ هو في كلّ مرّة أكبر.

- حاول ألا تحدثَ جلبة كبيرة، لا أريد أن تسمعنا أنخِليكا.

- حاولي أنت ألا تحدثي جلبة - قلتُ وأضفتُ -: ماذا أعطيتِ أنخِليكا كي تنام بمثل هذا العمق؟ منوّم؟

كلانا ضحك بصوت خافت، أنا فوق قذالها وهي غائصة بوجهها في الوسادة.

عندما انتهينا لم يبقَ عندي نَفَسٌ (أنيمو من اللاتينية أنيموس وهذه من اليونانية التي تعني نَفْخَة) ولا حتى كي أسأل عما إذا استمتعتْ، وكلّ ما كنتُ أتوق إليه هو أن يأخذني النومُ شيئاً فشيئاً وماريّا بين ذراعيَّ. لكنّها نهضت وأجبرتني على أن أرتدي ملابسي وأتبعها باتجاه حمّام البيت الكبير. عند خروجنا إلى الفناء انتبهت إلى أنّ الفجر يبزغ. لأوّل مرّة استطعتُ في تلك الليلة أن أرى بوضوح أكثر صورة عشيقتي. كانت ترتدي قميصَ نوم أبيض، مطرّزاً بالأحمر على كميه وكان شعرها مجموعاً بشريطة أو بقطعة من الجلد المجدول.

فكّرتُ بعد أن نشفت نفسي أن أهتف إلى بيتي، لكنّ ماريّا قالت إن عمّي وزوجته، لا شكّ نائمان وأنّ باستطاعتي أن أفعل ذلك فيما بعد.

- والآن؟ - قلتُ لها.

- الآن ننام قليلاً - قالت ماريّا مُمَرّرة ذراعها على خصري.

لكنّ الليل أو النهار كان ما يزال يُخبّئ لي مفاجأة أخيرة. في البيت الصغير، اكتشفت بارّيوس وصديقته الأمريكية الشمالية

متقوقعين في زاوية. كلاهما كان يشخر. من كلّ قلبي وددت أن أوقظهما بقبلة.

١٩ تشرين الثاني

تناولنا فطورنا معاً. كيم فونت، السيّدة فونت، ماريّا وأنخِليكا، خورخيتو فونت، باريوس، باربارة باترسون وأنا. كان الفطور مكوّناً من بيض مقلي، رقائق جامبو مقلية، خبز، مربّى المانغا، مربّى الفريز، زبدة، مهروس السلمون والقهوة. شرب خورخيتو كأس حليب. السيّدة فونت (قبّلتني على خدّي حين رأتني) صنعت عجّة سمّتها قطائف، لكنّها بشكل من الأشكال تشبهها. بقيّة الفطور حضَّرته الخادمة (التي أجهل اسمها، الأمر الذي يبدو لي لا يُغتفر)، الأطباق غسلناها أنا وباريّوس.

بعدها حين ذهب كيم إلى عمله والسيّدة فونت بدأت تُخطّط ليومِ عملها (تعمل، هذا ما قالته لي كصحفيّة في مجلة متخصّصة بالأسرة المكسيكية)، قرّرتُ أخيراً أن أهتف إلى بيتي. لم أجد غير زوجة عمّي مارتيتا، التي حين سمعتني راحت تصرخ كالمجنونة، ثمّ راحت تبكي. بعد سلسلة متواصلة من التضرعات للعذراء، والتكلم بالهاتف مع المسؤولين، وحكاياتٍ متقطعة عن الليلة «التي جعلتُ عمي يقضيها»، والتحذيرات بنبرة متواطئة أكثر مما هي بنبرة تجريمية من العقاب الواضح الذي لا شكّ سينزله بي عمّي في ذلك الصباح نفسه، استطعت أخيراً أن أتكلّم وأؤكّد لها أنّني بخير وأنّني أمضيتُ الليلة مع بعض الأصدقاء وأنّني لن أذهب إلى البيت حتى «تغيب الشمس»، لأنّني كنتُ أُفكّر أن أذهب على وجه السرعة إلى الجامعة. وعدتني زوجة عمّي أن تهتف لعمّي في عمله وحملتني على أن أقسم أنّني سأهتف، فيما تبقى من حياتي، للبيت عندما أُقرّرُ أن أمضي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الليلَ في الخارج. فكّرتُ خلال بضع ثوان بمناسبة أن أهتف بنفسي لعمّي، لكنّني قرّرت أخيراً أنّه لم يكن ضروريّاً. ارتميتُ على كرسيّ ولم أعرف ما كنتُ سأفعلهُ فالصباح وبقيّة النهار تحت تصرّفي، أي أنّني كنت أعي أنّهما كانا تحت تصرّفي وبهذا الشكل حَلا لي أنّهما مختلفان عن بقيّة الصباحات وبقّية النهارات (حيث كنتُ روحاً معذّبة، شاردةً في الجامعة أو في عذريّتها)، لكنّني ونتيجة التبدلات الأولى لم أعرف ماذا يمكنني أن أفعل، فالإمكانيات التي كانت تقدم لي كثيرة.

تسبّب لي الطعام، فأنا أكلت مثل ذئب بينما السيّدة فونت وباربارا باتِرسون تتحدّثان عن المتاحف والأُسَر المكسيكية، بنعاسٍ خفيفٍ وأيقظَ عندي في الوقت ذاته الرغبةَ بأن أعود لأُجامع ماريّا (التي تفاديت النظرَ إليها أثناء الفطور وحين نظرت حاولت أن أضبط نظرتي على مفهومِ الحبِّ الأخويّ أو الرفقة النزيهة التي افترضتُ أنّ والدها سيميّزها، وهو بالمناسبة لم يُظهر أيَّ استغرابٍ من وجودي في تلك الساعات الباكرة جالساً إلى مائدته)، لكنّ ماريّا كانت تستعد للخروج، أنخِليكا كانت تستعد للخروج، وخورخيتو فونت كان قد ذهب، باربارا باتِرسون كانت في الحمّام ووحدهما بارّيوس والخادمة يتوهان في مكتبةِ البيت الواسعة، كأنهما بقايا حادثِ غرقٍ مريع، لذلك ولكي لا أكون حجر عثرة وسعياً منّي لشيءٍ من الانسجام مع نفسي عبرتُ الفناءَ للمرّة التي لا أدري عددها ودخلتُ بيتَ الأختين، حيث كان السريران غير مرتبين بعد، وهو ما يُبيّن بوضوح أنّ الخادمة أو الوصيفة أو الأجيرة - أو الخبيرة البائسة، كما يسميها خورخيتو- هي التي تسويهما، (التفصيل الذي، وبدلَ أن يُقلّلَ من اعتباري لماريّا، زاده، وأضفى عليها بعضاً من دفءٍ ودعةٍ يليق بها) وتأملتُ مسرحَ «عملياتي الرائع» الذي كان ما يزال رطباً، على الرغم من أنّه

كان عليَّ أصلاً أن أبكي أو أصلي، فإن ما فعلته هو أنّني استلقيت على وجهي فوق أحد السريرين غير المسوّيين (سرير أنخِليكا، كما تبيّنتُ فيما بعد وليس سرير ماريّا) ونمتُ.

أيقظني بانتشو رودريغِثْ بسلسلة من الضربات (بل وبرفسة، وإن لستُ متأكّداً) على كلّ جسمي. وحده حسنُ تربيتي منعني من أن أُحَيّيه بلكمةٍ على حنكهِ. خرجتُ إلى الفناء بعد أن صبّحته بالخير وغسلت وجهي في الجرن (وهو ما يبين أنّني كنتُ ما أزال نائماً، وخلفي بانتشو يُدمدم بكلمات غير مفهومة.

- لا أحد في البيت - قال -. اضطررت لأن أقفز من فوق السياج. ماذا تفعل أنت هنا؟

قلت له إنّني قضيت الليلة هناك (وأضفت، كي أقلل من مأساويته، فخفق منخري بانتشو أخافني، أنّ باريّوس وباربارا أيضاً فعلا ذلك) وبعدها حاولنا أن ندخل إلى البيت الكبير من البابِ الخلفيّ، بابِ المطبخ، والبابِ الرئيسي، لكن الاثنين كانا مُقفلين من الداخل.

- إذا رآنا أحد من الجيران سيُخبر الشرطة - قلتُ -، وسنجدُ صعوبة كبيرة في توضيح أنّنا لم نكن نحاول السرقة.

- لا يهمّني قيد أنملة. أنا أحبُّ أن أطوف من حين لآخر في بيوت عاهراتي - قال بانتشو.

- وأكثر من ذلك - قلتُ، متجاهلاً تعليق بانتشو - بدا لي أنّني رأيتُ ستارة في البيت المجاور تتحرّك. إذا جاءت الشرطة...

- هل نمت مع أنخِليكا، أيّها الجحود؟ - سأل بانتشو فجأة متوقّفاً عن النظر إلى نوافذ بيت عائلة فونت الأمامية.

- بالطبع لا - أكّدتُ له.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لا أدري ما إذا صدّقني أم لم يُصدّقني. الأكيد هو أنّ كلانا عاد وقفزَ عن الحاجز وشرعنا بالانسحاب من حيّ كوندِسا.

بينما كنّا نمشي (بصمت، في حديقة إسبانيا وفي بارّاس، وحديقة سان مارتين، في تيوتيهواكان، التي لا يمرُّ فيها في تلك الساعات إلاّ ربات البيوت والخادمات والصعاليك)، فكّرتُ فيما قالته لي ماريّا عن الحبّ وعن الألمِ الذي ينزلُهُ الحبُّ على رأس بانتشو. حين وصلنا إلى إنسورخنتِس، كان بانتشو قد استعاد مزاجه الحسن وراح يَتَكلّم عن الأدب، نصحني بمؤلفين، كان يُحاول ألا يُفكّر بأنخِليكا. بعدها سرنا في منثانيّو، وانعطفنا في أغواسكاليينِس وعدنا لننعطف جنوباً في شارع مِدِيِّن حتى وصلنا إلى شارع تِبِخي. توقّفنا أمام بناء من خمسة طوابق، ودعاني بانتشو للغداء مع عائلته.

صعدنا في المصعد حتى آخر طابق.

هناك، وبدل أن ندخل، كما كنتُ أتوقّع، في إحدى الشقق، تسلقنا الدرج إلى السطح. استقبلتنا سماء رمادية، لكنها لألاءة، كما لو أنّ هجوماً نووياً وقع، وسط تزاحم الأصص والأزهار المضاعفة في الممرات وفي أحواض الغسيل.

كانت أسرة بانتشو تعيش في غرفتين على السطح.

- مؤقّتاً - وضّح بانتشو -، ريثما نحصل على عرض لمكانٍ قريب من هنا.

قُدِّمتُ رسمياً إلى أمّه، دونيا بانتشيتا، وأخيه موكتزوما، ابن التاسعة عشر، الشاعر الكاتولي والنقابي وأخيه الصغير، نوربِرتو، ابن الخامسة عشرة والطالب التحضيري.

كانت إحدى الغرفتين تُحَوّلُ خلال النهار إلى غرفةِ طعام وصالةِ تلفزيون وفي الليل إلى غرفة نوم لِبانتشو وموكتزوما ونوربرتو. الغرفة الأخرى كانت نوعاً من غرفة ملابس أو خزانة عملاقة، إضافة إلى

البرّاد وأدوات المطبخ (الموقد المحمول، الذي يخرجونه إلى الممر خلال النهار ويضعونه في تلك الغرفة ليلاً) والفراش الذي ترتاحُ عليه دونيا بانتشيتا.

عندما بدأنا بتناول الطعام انضمَّ إلينا شخصٌ يُدعى البَشَرَة الإلهية، ابن الثالثة والعشرين، جار في السطح، قُدِّم كشاعرٍ واقعيٍّ أحشائيّ. قبل قليل من مغادرتي (بعد ساعات كثيرة، مرّ الوقت سريعاً)، سألتهُ مرّة أخرى عن اسمهِ فقال البَشَرَة الإلهية بطبيعية وثقة (أكثر بكثير مما لو قلتُ خوان غارثّيا مادِرو) حيث وصلتُ للحظة إلى الاعتقاد بأنّ هناك حقيقةً عائلةً إلهية في جزر أنهار ومستنقعات جمهوريتنا المكسيكية.

بعد الطعام عكفتْ دونيا بانتيشتا على مشاهدة مسلسلاتها المفضّلة وبدأ نوربِرتو يدرس، وكانت الكتب منشورة على الطاولة. غسل بانتشو وموكِتزوما معاً الأطباقَ في مجلى من حيث يظهر قسم جيّد من حديقة لاس أمريكاس وإلى الخلف منها أشباح المركز الطبّي، ومشفى الأطفال، المشفى العام مُتوعّدة - كأنّها قادمة من كوكب آخر، كوكب هو فوق ذلك غير معقول.

- الجميل في العيش هنا، إذا لم تتوقّف عند الضغوط - قال بانتشو -، هو أنّك قريبٌ من كلِّ شيء، في قلب العاصمة الفيدرالية تماماً.

دعانا البَشَرَة الإلهية (طبعاً يناديه بانتشو وأخوه بل ودونيا بانتشيتا أيضاً، بَشَرَة) كي نذهب إلى غرفته، حيث يخبّئ، قال، بعض الماريجوانا من آخر حفلة قصف.

بعدها سيكون الوقتُ قد تأخّر، يا قريبي - قال موكتِزوما.

كانت غرفة البشرة الإلهية بعكس الغرفتين اللتين تشغلهما عائلة رودريغِث مثالاً على العري والتقشّف. لم أرَ ثياباً مرمية، كما لم أرَ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أدواتٍ منزليةً ولا كتباً (كان بانتشو وموكتِزوما فقيرين، لكنّني استطعت أن أرى في كثير من الأماكن الظاهرة من مسكنهما نسخاً من أعمال إفراين هورِتا، وأوغوستو مونتِرّوسو وخوليو تورّي وألفونسو رّيّس وكاتولو المذكور سابقاً مترجماً من قبل إرنِستو كاردِنال، خايمِ سابينِس، ماكس أوب وأندرِس هِنِستروسا)، فقط هناك فراش صغير وكرسيّ - لم يكن عنده طاولة-وحقيبة جلديّة من النوعية الجيّدة، يخبّئ فيها ثيابه.

كان البَشَرة الإلهية يعيش وحده، على الرغم من أنّني استنتجتُ من كلامهِ ومن كلامِ الأخوين رودريغِثْ أنه منذ زمن ليس بالطويل عاشت هناك امرأة (وابنها)، كلاهما كان مُخيفاً، حملا معهما عندما ذهبا القسمَ الأكبر من الأثاث.

بقينا برهة نُدخّن ماريجوانا وننظر إلى المشهد (الذي كما سبق وقلتُ يتكوّن أساساً من خيالات المشافي وما لا نهاية له من الأسطح الشبيهة بتلك التي كنّا فيها ومن سماء تتحرَّكُ سحبُها المنخفضة ببطء نحو الجنوب) بعدها راح بانتشو يحكي مغامرتَهُ في ذلك الصباح في بيت الأختين فونت ولقاءه بي.

استُنطِقت بهذا الخصوص، هذه المرّة من الثلاثة، ولم ينجحوا في أن ينتزعوا منّي شيئاً ما كنتُ لأقوله لِبانتشو. راحوا في لحظة يتكلّمون عن ماريّا. اعتقدتُ أنّني فهمت من كلامهم المُبَطّن أنّ ماريّا والبشرة الإلهية، كانا عشيقين. وكذلك فهمت أنّه كان ممنوعاً على هذا أن يدخل بيتَ عائلة فونت. أردتُ أن أعرفَ السبب. وضّحوا لي أنّ السيّدة فونت فاجأتهما بينما هما في حالة جماع. كانوا في البيت الكبير يقيمون حفلةً على شرف كاتبٍ إسبانيّ وصلَ توّاً إلى المكسيك وفي لحظة ما من الحفلة أرادت السيّدة فونت أن تُعَرّفه على ابنتها الكبرى، أي على ماريّا، ولم تجدها. وهكذا خرجت آخذة

بذراع الكاتبِ الإسباني بحثاً عنها. عندما وصلا إلى البيت الصغير كانت أضواؤه مُطفأة ومن عمقه سمعا ضجّة كما لو كانت صوت ضربات، ضربات موقّعة ورنّانة. لا شكّ أن السيّدة فونت لم تُفكّر بما كانا يفعلان (لو أنّها فكّرت قبل أن تُقْدِم، قال موكتِزوما، لكانت عادت بالإسبانيّ إلى الحفلة ولعادت بعدها وحدها لتتحقّق مما كان يحدث في غرفة ابنتها)، لكنّها لم تفكّر بشيء وأشعلت النور. اكتشفت مذعورة في عمق البيت الصغير ماريا بالبلوزة وحدها وقد أنزلت بنطلونها وهي تمصّ قضيب البَشرة الإلهية بينما كان هذا يربت على وركيها وفرجها.

– ربتات قويّة جدّاً – قال البشرة الإلهية –، عندما أشعلا النور نظرتُ إلى مؤخّرتها وكانت محمرّة. الحقيقة أنّني خفتُ.

– لكن لماذا كنتَ تضربها – سألتُه بحنق خائفاً من أن أحمرّ.

– لأنّها هي من طلبت ذلك منّه، يا بريئي الطيّب – قال بانتشو.

– يصعب عليّ تصديق ذلك – قلتُ.

– رأينا أشياء أكثر غرابة – قال البشرة الإلهية.

– كلّ الحقّ على فرنسية تُدعى سيمون داريوكس – قال موكتِزوما –. أعرفُ أنّ ماريّا وأنخِليكا دعتا سيمون إلى اجتماع أنصارِ المرأة وعندما خرجن كنّ يتحدّثن عن الجنس.

– ومن هي سيمون هذه؟ – سألتُ.

– صديقة لأرتورو بِلانو.

– اقتربت أنا منهنّ. كيف الحال، يا رفيقاتي، قلتُ لهنّ، والعاهرات كنّ يتكلّمن عن الماركيز دو ساد – قال موكتِزوما.

– بقيّة القصّة يمكن التكهن به. أرادت أمُّ ماريّا أن تقول شيئاً لكنّها لم تستطِع. الإسباني الذي شحب بشكل جليّ من رؤية مؤخّرة ماريّا المرفوعة والمكشوفة، أخذها من ذراعها بالطريقة التي يُطلب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فيها من المرضى العقليين وجرّها مرّة أخرى إلى الحفلة. في الصمت المفاجئ الذي ساد سريعاً في البيت الصغير سمعهما البشرة الإلهية يتحدّثان في الفناء بكلمات سريعة، كما لو أنّ الإسباني الديوث المثار كان يعرض شيئاً مهيناً على السيّدة فونت المسكينة، المستندة إلى الجرن.

لكنّه سمع بعدها وقع خطواتهما يبتعد باتجاه البيت الكبير وقالت له ماريّا أن يتابعا.

- هذا فعلاً لا أستطيع أن أُصدّقه - قلتُ.

- أقسم لك بعجوزي - قال البشرة الإلهية.

- بعد أن ضُبطتما أرادت ماريّا أن تستمرّ بممارسة الحبّ؟

- هكذا هي - قال موكتِزوما.

- وأنت ما أدراك؟ - قلتُ وأنا في كلّ مرّة أكثر حنقاً.

- أنا أيضاً ضاجعتها - قال موكتِزوما - لا يوجد في العاصمة الفيدرالية فتاة أكثر شبقاً منها، على الرغم من أنّني لم أضربها قط، هذا فعلا لا، فأنا لا أحبّ هذه الأشياء الغريبة. لكنّ هي فعلا تحب، أعلم ذلك.

- أنا لم أضربها، لكن ما يحدث هو أنّ ماريّا كانت مهووسة بالماركيز دو ساد وكانت تريد أن تجرّب هذا الذي هو الضرب بالسوط على وركيها - قال البشرة الإلهية.

- هذه خاصّة تتفرّد بها ماريا - قال بانتشو -، إنّها مخلصة جدّاً لقراءاتها.

- وبقيتما تضاجعانها؟ - سألتُ. أو همستُ أو عويتُ، لا أتذكّر، بلى أتذكّرُ أنّني مصصتُ عدّةَ مرّات وبلا انقطاع عقبَ لفافةِ الماريجوانا وأنّهم اضطرّوا لأن يكّرروا عليّ أن أمرّره لهم وأنّه ليس لي وحدي.

- نعم، بقينا نتجامع، يعني أنّها بقيت تمصّه لي وبقيت أضربها بيدي المفتوحة على مؤخّرتها، لكن بقوّة هي في كلّ مرّة أقلّ، أو برغبة في كلّ مرّة أقلّ، أظنّ أنّ ظهورَ أمّها أثّر بي، نعم أثّر بي، وبما أنّني لم أعد أرغب بمضاجعتها، وبما أنّني بردتُ فقد أردتُ فقط أن أنهض وأقوم بجولة في الحفلة، أعتقد أنّه كان هناك بعض الشعراء المشهورين، الإسباني، آنا ماريّا ديّاث والسيّد ديّاث، والدا لاورا داميان، الشاعر آلامو، الشاعر لاباركا، الشاعر بِرّوكال، الشاعر أرتِميو سانتشِث، الممثّلة التلفزيونية أمريكا لاغوس وأيضاً وكنتُ خائفاً قليلاً من أن تظهر أمُّ ماريّا هناك، لكن هذه المرّة برفقة المهندس المعماري الديوث وعندها فعلاً كنتُ سأنال حصّتي.

- هل كان والدا لاورا داميان؟ - سألتُ.

- والدا العفيفة الشهيرة بعينهما - قال البشرة الإلهية -، ومشاهير آخرون، صَدِّقْ، أنا أحبُّ أن أمعن في التفاصيل، قبلها شاهدتهما من النافذة، كنتُ قد سلّمتُ على الشاعر بِروّكال، تردّدتُ فترة على ورشته، لا أدري ما إذا كان قد تذكّرني أم لا. أيضاً أعتقدُ أنّني كنتُ جائعاً، لمجرّد أنّني كنتُ أتخيّلُ الأشياءَ التي كانوا يأكلونها في البيت الآخر صارت أسناني طواحين. لم يكن يهمّني أن أظهر هناك، طبعاً مع ماريّا، وأبدأ آكلُ ببشاعة. كنتُ أشعرُ بنفسي رخواً جدّاً، لا بدّ أنّه بسبب المصّ. لكن الحقيقة الخالصة هي أنّني لم أفكّر بالمصّ، هل تفهمني؟ لم أكن أُفكّر بشفتي ماريّا ولا بلسانها الذي كان يلفّ قضيبي، ولا بلعابها الذي كان ينزل وقتها على شعر خصيتيّ. . .

- لا تُسهب - قال بانتشو.

- لا تُبَهِّرها كثيراً - قال أخوه.

- لا تجعلها متعبة - قلتُ أنا كي لا أكون أقل منهم، على الرغم من أنّني كنتُ منهكاً جدّاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- حسن، قلتُ لها. قلت لها: يا ماريّا، لندع هذا لمناسبة أخرى أو ليلة أخرى. عامّة كنا نتضاجع هنا، في بيتي، دون حدود للزمن، على الرغم من أنّها لم تبقَ قط ليلة كاملة، دائماً كانت تذهب في الرابعة أو الخامسة صباحاً، كانت مزعجة لأنّني كنتُ دائماً أعرض عليها أن أرافقها، لم أكن لأقبلِ أن أتركها تذهب لوحدها في مثل تلك الساعات. هي كانت تقول لي، تابعْ، لا تتوقَّفْ، ما من مشكلة. وأنا كنتُ أفكّر أنّها تقول لي أن أتابع صفعها على مؤخّرتها. وأنت ماذا كنتَ ستفهم من كلامها؟ - الشيء ذاته، ردّ بانتشو -، وهكذا جدّدتُ الضرب، حسن، كنتُ أضربها بيد وأداعب بظرها وثدييها بالأخرى. الحقيقة أنّنا كلّما سارعنا بالانتهاء كان أفضل. أنا كنتُ مستعدّاً. لكنّني لم أكن أريد أن أصل قبل أن تصل هي. والعاهرة كانت تتأخّر كثيراً وهذا ما بدأ يشعلني، وكنتُ أضربها في كلّ مرّة بقوّة أكبر، على وركيها، على ساقيها وأيضاً على فرجها. هل فعلتم هذا ذات مرّة، يا أولاد؟ حسن، أنصحكم به. في البداية الصوت، صوت الصفعات، بما أنّك لا تعرف جيّداً، يجعلك تشرد، شيء كأنّه نيِّء أكثر من اللازم في طبق فيه الأشياء مطبوخة، لكن وبما أنّك تتكيّف مع ما تفعل، وتأوهاتها، تأوهات ماريّا أيضاً تتكيّف، فكلّ صفعة تحدث آهة وهذا يمضي في ازدياد، وتأتي لحظة تشعر فيها بأنّ وركيها يلتهبان وكذلك راحتا كفيك ويبدأ قضيبك يخفق كما لو أنّه قلب، تك، تاك تك. . . .

- لا تجلد نفسك، يا أخي - قال موكتِزوما.

- هذه هي الحقيقة. كان قضيبي في فمها، لكنّها لم تكن تشدّ عليه كثيراً، لا تمصّه، بل فقط تُدغدغه برأس لسانها. كان مثل مسدس في غمده. هل ترى الفرق؟ ليس مثل مسدّس في اليد، بل مثل مسدّس في غمده، في محفظة الإبط أو الكنانة، لأرى ما إذا كنتُ

أوضّح. هي أيضاً كانت تخفق، يخفق وركاها، ساقاها وشفراها وبظرها، أعرف هذا لأنّني بين ضربة وضربة، كنتُ أداعبُها أمرُّ بيدي هناك وكنتُ ألاحظ ذلك وهذا ما كان يُؤجّجني وكان عليّ أن أجهد كيلا أصل. وكانت تئنّ، لكنّها كانت تئنّ أكثر عندما أضربها، عندما كنت أضربها كانت تئنّ كثيراً (لم يكن باستطاعتي أن أرى وجهها)، لكن كلّما ضربتها كلّما صارت أقوى، أعني الأنات، كما لو أنّها كانت تمزّقُ روحها وأنا ما كنتُ أرغب به هو أن أَقْلبَها وأدخله، لكن هذا ولا حتى يخطر ببالي، لأنّها كانت ستغضب، هذا هو الجيّد عند ماريّا، الأشياء معها قويّة، لكن يجب أن تكون على طريقتها.

- وماذا حدث بعدها؟ - قلتُ.

- وصلتْ ووصلتُ لا أكثر.

- لا أكثر؟ - سأل موكتزوما.

- لا أكثر، أقسم لك. تنظفنا، حسن نظفتُ نفسي، مشّطتُ شعري قليلاً، وارتدت هي بنطلونها وخرجنا لنرى ما كان يجري في الحفلة. هناك انفصلنا، كان هذا خطأي. رحتُ أتكلّم مع المُعلِّم بِرّوكال، الذي كان يقف وحده في زاوية. انضمّ إلينا بعدها الشاعر أرْتِميو سانتشِثْ وفتاة كانت معه، امرأة في الثلاثين من عمرها تقريباً، قالت إنّها أمينة تحرير مجلة *إل غواخولوتِ* وبدأتُ هناك بالذات أسألها عما إذا كانت بحاجة إلى قصائد أو قصصٍ أو نصوصٍ فلسفيّة للمجلة فقالت لي إنّ عندها مواد لم تنشر بعد تفيض عنها، حدّثتُها عن ترجمات أخي موكتِزوما وبينما أنا أُكلّمها رحت أبحثُ بطرف عيني عن المقبلات، ذلك أنّه داخلني جوع رهيب وعندها رأيت أمَّ ماريّا تظهرُ من جديد يتبعها زوجُها وإلى الخلف قليلا منهما الشاعر الإسباني الشهير وهنا انتهى كلّ شيء: رموني رفساً في الشارع مُحَذّرين إياي من أنّ أطأ ذلك البيت بعدها أبداً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- وماريّا ألم تفعل شيئاً؟

- لا. لم تفعل شيئاً. في البداية تظاهرتُ كمن لا يفهم ماذا كان يجري، تَصَوَّرْ، كما لو أنّ الأمر لم يجرِ معي، لكن بعدها، يا أخي، لماذا الكذب، صار واضحاً أنّهم سيطردونني مثل كلب أجرب. أحزنني أنّهم فعلوا ذلك بي أمام المُعلِّم بِرّوكال، لماذا سأقول غير الحقيقة، بالتأكيد كان الوغدُ يضحكُ في داخله بينما أنا أتلوّى باتجاه الباب، أُفكر أنّه كان هناك متسع من الوقت كي أقول له فيه إنّني معجبٌ به.

- مُعجب ببِرّوكال؟ يا لك من وغد، يا بَشَرَة - قال بانتشو.

- الحقيقة أنّه أحسن التصرّف معي في البداية. قليل ما تعرفونه أنتم عن هذا. أنتم من العاصمة الفيدرالية، نشأتم هنا، أنا وصلتُ لا أعرف شيئاً ولا أملك بِزو[1] واحداً حقيراً. كان هذا منذ ثلاث سنوات وكان عمري واحداً وعشرين عاماً، كان مثل سباق الحواجز. وتصرّف معي بِرّوكال بشكل جيّد، استقبلني في ورشته، وقدّمني لناسٍ كان باستطاعتهم أن يساعدوني في الحصول على عمل، في ورشته تعرّفتُ على ماريّا. كانت حياتي مثل البولِرو - قال البشرة الإلهية فجأةً بصوتٍ حالم.

- حسن، تابع: بِرّوكال كان ينظر إليك ويضحك - قلتُ.

- لا لم يكن يضحك، لكنّني أعتقدُ أنّه كان يضحك في داخله. وأرتِميو سانتشِثْ أيضاً كان ينظرُ إليّ، لكنه كان شارداً ولم يعرف بماذا كان يتعلّق الأمر. وأمينة تحرير *ال غواخولوتِ*، أظنّ أنّها أكثرُ من أُصيب بالذعر ولم يكن ينقصها أسباب لأنّ وجه أمّ ماريّا كان من

---

(١) Peso بِسو، أو بيسو أو بيزو، بحسب مختلف الترجمات، هي عملة المكسيك النقدية.

الوجوه التي توقف شعرَ الرأس، أُقسم لكم إنّني فكّرتُ أنّها يمكن أن تكون مُسلَّحة. وأنا على الرغم من كلّ شيء كنتُ أتراجع ببطء، على الرغم من أنّها لم تكن، يا أخوتي، تنقصني الرغبة بأن أخرج راكضاً وكان ذلك لأنّني لم أفقد الأمل بأن أرى ماريّا تظهر، تشقُّ ماريّا طريقها بين المدعوّين وبين والديها وتأخذني من ذراعي أو تمرّ بيدها على كتفي، ماريّا هي المرأة الوحيدة التي أعرف أنّها لا تأخذ الرجالَ من خصرهم بل من كتفهم، وتخرجني من هناك بطريقة لائقة، أقول، أن تخرج معي من هناك.

- وظهرت؟

- ظهرت بمعنى ظهرت لا. رأيتُها، هذا صحيح. أطلّت برأسِها لثانية من بين أكتاف ورؤوس بعض الأوغاد.

- وماذا فعلتْ؟

- لا شيء، ابنة القحبة، لم تفعل شيئاً.

- ربّما لم تركَ - قال موكتِزوما.

- طبعاً رأتني. نظرت إلى عينيّ، لكن على طريقتها، تعرفون كيف هي، تنظرُ إليك أحياناً وكأنها لا تراك، أو كأنّها تخترقك بنظرتها. واختفت بعدها. هكذا قلتُ لنفسي اليومَ خسرتَ، يا صعلوك، لا تُعَقِّد الأمور، اذهبْ بهدوء. وبدأتُ أنسحب بشكلٍ لائق، وهنا انقضّت عليَّ ابنةُ العاهرة أمُّ ماريّا، وفكّرتُ أنّ أقلَّ ما ستفعله تلك العجوز هو أنّها سترفسني على خصيتيّ أو ستصفعني، تَصَوَّروا، فكّرتُ وانتهى الانسحاب النظامي، الأفضل أن أجري، لكنّ العاهرة كانت قد أصبحت فوقي وماذا تعتقدون أنّها قالت لي...

الأخوان رودريغِث لم يقولا شيئاً، بالتأكيد كانا يعرفان الجواب.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- هل شتمتك الأمّ؟ - سألتُ محرّضاً.

- قالت لي: يا للعار، يا للعار، فقط هذا، لكن عشر مرّات على الأقل وعن بعدِ أقلّ من سنتيمتر من وجهي.

- يبدو مثل الكذب أنَّ تلك الساحرة الداعرة ولدت ماريّا وأنخِليكا - قال موكتِزوما.

- أشياء أغرب من هذا نرى - قال بانتشو.

- هل ما زلت عشيقها؟ - سألتُهُ.

سمعني البشرةُ الإلهية، لكنّهُ لم يُجبني.

- كم مرّة ضاجعتها؟ - سألتُهُ.

- ما عدت أتذكّر - قال البَشَرَة الإلهية.

- ما هذه الأسئلة؟ - قال بانتشو.

- لا شيء، فقط فضول - قلتُ.

في تلك الليلة ذهبتُ متأخّراً جدّاً من بيت الأخوين رودريغِثْ (تناولت غدائي معهم وتناولت عشائي معهم ومن الممكن جدّاً أنه كان باستطاعتي أن أنامَ معهم، فكرمهم لم يكن له حدود). حين وصلتُ إلى إنسورخِنتِس، إلى موقف الحافلات، أدركتُ فجأة أنّه لم يبقَ عندي رغبة ولا قدرة على النقاش البيزنطي الطويل، الذي كان ينتظرني في البيت. وشيئاً فشيئاً راحت تمرُّ الحافلاتُ التي كان عليّ أن أستقلّها، حتى نهضتُ أخيراً عن الحافّة التي كنتُ أجلس عليها، متأمّلاً وناظراً إلى حركة المرور أو بالأحرى إلى أضواء السيارات التي كانت تُنير وجهي، وشرعتُ أسيرُ في الطريق إلى بيتِ عائلة فونت.

هتفتُ قبل أن أصل فردّ عليّ خورخيتو. قلت له أن يُنادي أخته. بعد قليل أخذت ماريّا الهاتف. كنتُ أريدُ أن أراها. سألتني أين أنا. قلت لها قريباً من بيتها، في ساحة بوبوكاتِبتل.

-انتظر ساعتين - قالت هي - وتعال بعدها. لا تقرع الجرس. اقفزْ من فوق السياج وادخلْ دون أن تُحدث ضجّة. سأكون بانتظارك.

تنهّدتُ بعمق، كدتُ أقول لها إنّني أُحبّها (لكنّني لم أقلها) بعدها أغلقتُ الهاتف. وبما أنّه لم يكن معي نقود لأدخلَ إلى أحد المقاهي، بقيتُ في الساحة ذاتها، جالساً على مقعد، أكتبُ يومياتي وأقرأ كتاب شعرٍ لتابلادا تركه لي بانتشو. بعد ساعتين تماماً نهضتُ وتوجّهت إلى شارع كوليما.

نظرتُ إلى كلا الجانبين قبل أن أقفز وأمتطي الحاجز. وطحتُ محاولاً ألا أُخرّب الأزهار التي كانت تزرعها السيّدة فونت أو الخادمة في ذلك الجانب من الحديقة. سرتُ بعدها في الظلمة في طريقي إلى البيت الصغير.

كانت ماريّا تنتظرني تحت شجرة. وقبل أن أقول لها شيئاً قبّلَتني على فمي. دخل لسانها في حنجرتي. كانت تفوح منها رائحةُ السجائر والطعام الغالي؛ بينما كانت تفوح مني رائحةُ السجائر والطعام الفقير. لكنّ كلا الطعامَيْن كان طيّباً. تبخّر على الفور كلُّ الخوف وكلُّ الحزن اللذين كنتُ أشعرُ بهما. وبدل أن نذهب إلى البيت الصغير رحنا نمارس الحبّ هناك تحت الشجرة ذاتها. ولكي لا تُسمع آهاتُ ماريّا عضّت على رقبتي. وقبل أن أصل أخرجت قضيبي (حين أخرجته قالت ماريّا أه، ربّما بقوّة زائدة) وقذفت فوق العشب والأزهار كما أظنّ. في البيت الصغير كانت أنخِليكا تنامُ بعمق، أو تتظاهرُ بالنوم بعمق، ومارسنا الحبَّ مرّةً أخرى. نهضتُ بعدها وكنتُ أشعر كما لو أنّهم يقصمون جسدي وكنتُ أعرف أنّني لو قلتُ لها إنّني كنتُ أحبّها سيزول الألمُ في الحال، لكنّني لم أقلْ شيئاً وتفحّصتُ الزوايا الأبعد لأرى ما إذا كنتُ سأكتشفُ باريّوس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وباتِرسون نائمين في إحداها، لكنّ لم يكن هناك أحد غير الأختين فونت وأنا.

بعدها رحنا نتكلّم واستيقظت أنخِليكا وأشعلنا الضوء وبقينا حتى ساعة متأخرة. تحدّثنا عن الشعر، عن لاورا داميان، عن الجائزة التي تحمل اسمها، وعن الشاعرة الميتة، عن المجلة التي كان يُفكّر عوليس ليما وسان إيبفانيو بإصدارها، عن كيف سيكون وجه هوراكان راميرِث، عن رسامٍ صديق لأنخِليكا يعيشُ في تِبيتو وعن أصدقاء ماريّا في مدرسة الرقص. وبعد الكثير من النقاش والكثير من السجائر نامت أنخِليكا وماريّا وأطفأت أنا النور ودخلتُ في الفراش ومارست الحبّ ذهنيّاً مرّة أخرى مع ماريّاً.

٢٠ تشرين الثاني

الاصطفافات السياسية: موكتِزوما رودريغِث تروتسكيّ، خاثينتو رِكِنا وأرتورو بِلانو كانا تروتسكيّين.

ماريّا فونت وأنخِليكا فونت ولاورا خاورِغي (رفيقة بِلانو السابقة) انتمَيْنَ إلى حركة جذرية مناصرة للمرأة تسمى يا مكسيكيات إلى الحربّ. هناك يُفترَض أنّهنّ تعرّفن على سيمون داريو، صديقة بِلانو والمروّجة لنوعٍ من السادية المازوخية.

أسّس إرنِستو سان إيبفانيو أوّلَ حزبٍ شيوعيٍّ مِثْليٍّ في المكسيك وأوّلَ كومونة عمالية مثلية مكسيكية.

كان عوليس ليما ولاورا داميان يُخطّطان لتأسيسِ مجموعةٍ فوضويّة: بقيت مسوّدةُ بيان التأسيس. حاول عوليس ليما قبلها في الخامسة عشرة من عمره أن يدخل فيما تبقّى من مجموعة لوثيو كابانياس لحرب العصابات.

والد كيم فونت، أيضاً كان يُدعى كيم فونت، وُلِدَ في برشلونة ومات في معركة إيبرو.

والد رافائيل بارّيوس انضوى في نقابة السكك الحديدية السرّية. مات بتشمّع الكبد.

والد ووالدة البَشَرة الإلهية وُلِدا في أواكساكا وماتا، بحسب ما يقوله البَشَرة الإلهية نفسه، جوعاً.

٢١ تشرين الثاني

حفلة في بيت كاتالينا أوهارا. في الصباح تكلّمتُ مع عمّي بالهاتف. سألني متى أُفكّرُ بالعودة. دائماً، قلتُ له. ثمّ وبعد صمتٍ حرجٍ (بالتأكيد لم يفهم جوابي، لكنّه لم يقبل أن يعترف بذلك)، سألني ما الذي حشرتُ نفسي فيه. لم أحشر نفسي في شيء، قلتُ له. أُريد أن أراك هذه الليلة في البيت كما يأمر الله، قالَ، أو لتتحمّل النتائج، يا خوان. خلفه سمعتُ زوجة عمّي، مارتيتا تبكي. طبعاً، قلتُ له. اسأله عمّا إذا كانَ يتعاطى المخدرات، قالت له زوجة عمّي، لكنّ عمّي قال لها إنّه يسمعك ثمّ سألني عما إذا كنتُ أحملُ نقوداً. معي للحافلات، قلتُ ولم أستطع بعدها الكلام.

في الحقيقة لم يبقَ معي نقود ولا حتى للحافلات. على الرغم من أنَّ الأمور شهدت بعد ذلك منعطفاً غير متوقّع.

في بيت كاتالينا أوهارا كان عوليس ليما، بِلانو، مولِّر، سان إبيفانيو، بارّيوس، باربارا باتِرسون، رِكِنا وخطيبته خوتشيتل، الأخوان رودريغِث، البَشرة الإلهية، الرسامة التي تشترك في الورشة مع كاتالينا، إضافة إلى ناس كثيرين مجهولين، لم أسمع عنهم شيئاً وظهروا واختفوا مثل نهر عَكِر.

حين حضرنا أنا وماريّا وأنخِليكا كانَ البابُ مفتوحاً ولم نرَ حين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دخلنا غير الأخوين رودريغِث اللذين كانا جالسين على الدرج المؤدّي إلى الطابق الثاني يتشاركان في لفافة ماريجوانا. سلّمنا عليهما وجلسنا بجانبهما. أظنّ أنّهما كانا ينتظراننا، صعد بعدها بانتشو وأنخِليكا وبقينا نحن لوحدنا. من الباب الخلفي كانت تصل موسيقى مشؤومة، ظاهريّاً مهدِّئة، أي بأصوات عصافير وبطٍّ وضفادعَ وريحٍ وبحرٍ بل ووقع أقدام أشخاص على أرضٍ أو على عشبٍ جاف، لكنّها في مجموعها كانت مُريعة مثل الخلفية الموسيقية في فيلم رعبٍ. وصل بعدها البَشرة الإلهيّة وقبَّل ماريّا على خدّها (نظرتُ إلى الجانب الآخر، نحو جدار مليء بلوحات حفرٍ لنساءٍ أو لأحلام نساء) وراح يتحدَّثُ معنا. رحتُ، لا أدري لماذا، ربّما خجلاً أنفصل تدريجياً عنهما، بينما هما يتكلمان (كان البَشرة الإلهيّة مواظباً على مدرسة الرقص وكان متوافقاً مع ماريّا) وأنطوي على نفسي وبدأتُ أُفكِّر في الأمور الغريبة التي عشتها في ذلك الصباح في بيت عائلة فونت.

في البداية جرى كلّ شيء بشكلٍ طبيعيّ. جلستُ إلى الطاولة لأشاركَ العائلةَ فطورَها، حيَّتني السيّدة فونت بلطف، أما خورخيتو فلم يتكرّم حتى بالنظر إليّ (كان شبه نائم) والخادمة حيّتني عندما وصلت تحيّةً تنمّ عن تعاطف؛ إلى هنا كان كلّ شيء كما يرام، كما يُرام إلى حدّ أنّني فكّرتُ أنّه ربّما كان باستطاعتي أن أبقى لأعيش في بيت ماريّا الصغير فيما تبقى من حياتي. لكن عندها ظهر كيم ومجرّد رؤيته أوقفت شعر بدني. بدا أنّه لم ينم طوال الليل، بدا أنّه خرج توّاً من قاعة تعذيب أو مقمرة جلاّدين سرّية، كان منكوشَ الشعرِ، محمرَّ العينين، لم يحلقْ ذقنَهُ (ولم يستحمّ) وكانت يداه متسختين بشيء بدا على قفاهما أنّه بقع يودٍ وعلى الأصابع بقع حبر. بالطبع لم يُسَلّم عليّ، على الرغم من أنّني صبّحته بالخير بألطف طريقة ممكنة.

تجاهلته زوجتُهُ وابنتاه. بعد بضع دقائق، أنا أيضاً تجاهلته. كان فطوره أفقرَ من فطورنا بكثير: شرب فنجانَيّ قهوة سوداء ثمّ دخّن سيجارة مجعدة أخرجها ليس من علبة بل من جيبه، وهو ينظر إلينا بطريقة فريدةٍ، كما لو أنّه يتحدّانا وفي الوقت ذاته لا يرانا. عند الانتهاء من الفطور نهض وطلب منّي أن أتبعه، لأنّه يريد أن يتكلّم معي برهة.

نظرَتُ إلى ماريّا، نظرتُ إلى أنخِليكا، لم أرَ في تعبيراتِ وجهيهما شيئاً ينصحني بألا أطيعه، فتبعته.

كانت المرّة الأولى التي أدخل فيها إلى مكتب كيم فونت ففاجأني حجم الغرفة، الأصغر بكثير من حجم بقيّة غرف البيت. هناك كانت تتكدّس بلا ترتيب ولا تبويب صورٌ ومخطّطات مُسَمّرة بدبابيس كبس على الجدران أو متناثرة على الأرض. طاولة تخطيط ومقعد كانا الأثاث الوحيد ويشغلان نصفَ المكتب. كانت تفوح منه رائحة تبغ وعرق.

- عملتُ طوالَ الليل تقريباً، لم أستطع أن أغمض عيناً - قال كيم.

- صحيح؟ - قلتُ بينما أنا أُفكّر أنّني تورّطت، وأنّ كيم بالتأكيد سمعني أصل الليلة الفائتة وأنّه رآني أنا وماريّا عبر كوّة مكتبه الوحيدة والصغيرة وأنّ ساعة التوبيخ الشديد قد حانت.

- بلى، انظر يديَّ - قال.

مدّ يديه على مستوى صدره. كانتا ترتجفان بشكل كبير.

- في مشروع جديد؟ - سألتُ بلطفٍ، بينما أنا أنظرُ إلى الأوراق المنشورة على الطاولة.

- لا - قال كيم -، بل في مجلة، في مجلّة ستصدر قريباً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لا أدري لماذا، لكنّني فكّرتُ على الفور (أو عرفتُ، كما لو أنّه هو نفسه من قاله لي) أنّه يقصد مجلة الواقعيين الأحشائيين.

- سأفعل كذا وكذا بأم جميع الذين انتقدوني، نعم، يا سيّد - قال.

اقتربتُ من الطاولة وتفحّصت التنضيد والرسوم، رافعاً ببطء الأوراقَ التي كانت تتكدّس بلا ترتيب ولا تبويب. كان مشروع المجلّة فوضى من الصور الهندسية والأسماء والأحرف المخطوطة كيفما اتفق. لم ينتبني أدنى شكّ بأنّ السيّد فونت على حافّة الانهيار العصبي.

- ما رأيك، هه؟

- مهمّ جدّاً - قلتُ.

- سوف يعرف هؤلاء الأوغاد ما هي الطليعة، أليس صحيحاً؟ هذا مع أنّه تنقصنا القصائد، أرأيت. هنا ستوضع قصائدكم.

كان الفضاء الذي أشار إليه مليئاً بالخطوط، الخطوط التي تُقلّد الكتابة وأيضاً بالرسومات، التي كانت كما يشتم أحدٌ في الرسومات الهزلية: أفاعٍ، قنابل، سكاكين، جماجم، قصبات سيقان متصالبة، انفجارات نووية صغيرة. فيما عدا هذا كانت كلّ صفحة اختصاراً للأفكار المفرطة التي كان يملكها كيم عن التصميم البياني.

- انظر، هذا طباق الدعاية.

- أفعى (ربّما كانت تبتسم، لكن الاحتمال الأكبر أنّها كانت تتلوّى من الألم) كانت تعضُّ على ذيلها بتعبير النهمة والمتألمة، عيناها مغروزتان مثل إبرتين في القارئ الافتراضي.

- لكن حتى الآن لا أحد يعرف ماذا ستُسمَّى المجلة - قلتُ.

- سيّان. الأفعى مكسيكيّة ثمّ إنّها تمثّل الاستدارة. هل قرأت نيتشه، يا غارثيّا مادِرو؟ - سألني فجأةً.

اعترفتُ، بأسىً، أنّني لم أقرأه. بعدها تأمّلتُ كلَّ صفحة من صفحات المجلّة (كانت أكثر من ستين) وبينما أنا أستعدّ لأن أذهب، سألني كيم كيف تسير علاقتي مع ابنته. قلت له جيّداً وإنّنا أنا وماريّا نتفاهم في كلّ يوم أكثر، اخترتُ بعدها أن أسكت.

- نحن الآباء نتعذّب كثيراً - قال -، خاصّة في العاصمة الفيدرالية. منذ كم من الأيام لم تنم في بيتك؟

- منذ ثلاث ليالٍ - قلتُ.

- وأمُّك أليست مشغولة؟

- تكلّمتُ معهم بالهاتف، يعرفون أنّني بخير.

نظر إليّ كيم من أعلى إلى أسفل.

مظهرك ليس جيّداً، يا فتى.

هززتُ كتفيّ. مكثنا برهة دون أن نقول شيئاً، متفكِّرين، هو يقرع بأصابعه على الطاولة وأنا أنظر إلى مخططات قديمة لبيوتٍ مثالية (من المحتمل أنّ كيم لن يراها تُنفّذ أبداً) معلّقة بدبابيس إلى الجدران.

- تعالَ معي - قال.

تبعته حتى غرفته، في الطابق الثاني، كانت أكبر من مكتبه بخمسة أضعاف.

فتح الخزانة وأخرج قميصاً رياضيّاً أخضر.

- جرّبه، لنرى كيف هو عليك.

تردّدتُ بضع لحظاتٍ، لكن تعبيرات وجه كيم كانت جازمة، كما لو أنّه ليس هناك وقت نضيّعه، تركتُ قميصي عند قدم السرير، السرير الهائل الذي من الممكن أن ينام فيه كيم وزوجته وأولاده الثلاثة، ارتديتُ القميص الأخضر، جاء مناسباً.

- أهديه إليك - قال كيم. ثمّ أدخل يده في جيبه وناولني بعض الأوراق المالية -؛ كي تدعو ماريّا إلى مرطّب.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت يده ترتجف وذراعه الممدودة ترتجف والذراع الأخرى المتدلية على جانبه ترتجف أيضاً، ويقوم بلمصات رهيبة في وجهه كانت تُجبرني على أن أُبقي نظري مشغولاً بأي مكان. شكرته، لكنّني أكّدتُ له أنّ هذه لا أستطيع أن أقبلها.

- غريب - قال كيم -، كلّ العالم يقبل نقودي، ابنتاي، ابني، زوجتي، مُستَخدَمِيَّ - استعمل الجمع، على الرغم من أنّني كنتُ وقتذاك أعرفُ تماماً أنّه ليس عنده أيّ مستخدم، إلا ربما الخادمة، لكنّه لم يكن يقصد الخادمة -، بما فيهم رؤسائي ولذلك ستبقيها لك.

- شكراً جزيلاً - قلتُ.

- خذها وضعها في جيبك، يا ولد!

أخذتُ النقودَ وخبّأتُها. كانت كثيرة، وإن لم يكن عندي رغبة لأعدّها.

- سأعيدها إليك ما إن أستطيع ذلك - قلتُ.

ارتمى كيم على ظهره فوق السرير. أحدث جسمه ضجة مطفأة، اهتزّ بعدها. تساءلت للحظة عمّا إذا لم يكن السرير مائيّاً.

- لا تهتمّ، يا فتى. نحن في هذا العالم كي يُساعد بعضنا بعضاً. أنت تساعدني بابنتي، وأنا أساعدك بشيء من الفَرْطِ لنفقاتك، لنقل شهرية إضافية، أليس صحيحاً؟

بدا صوته مُتعباً، كان على وشك أن يسقط منهكاً وينام، لكنّ عينيه بقيتا مفتوحتين تتأمّلان بعصبيّةٍ السقفَ المستعار.

- يعجبني كيف خرجت المجلة، سأُغلِقُ فم كَلّ أولئك الأوغاد - قال، لكنّ صوته كان قد صار همساً.

- خرجتْ تامّة - قلتُ.

- طبعاً، لأمر ما أنا مهندس معماريّ - قال. ثم وبعد برهة -: نحن أيضاً فنّانون، المسألة أنّنا نخفيه جيّداً. أليس صحيحاً؟

- طبعاً صحيح - قلتُ.

بدا لي أنّه يشخر. نظرتُ إلى وجهه: كانت عيناه مفتوحتين. كيم؟ قلت. لم يُجب. اقتربتُ منه ببطء شديد ولمستُ الفراش، شيء في هذا ردّ على حركتي. فقاعات بحجم تفاحة. استدرتُ وغادرتُ غرفةَ النوم.

بقية اليوم قضيته مع ماريّا وخلف ماريّا.

أمطرت مرّتين. حين انتهت من المطر في المرّة الأولى طلع قوس قزح. في المرّة الثانية لم يخرج أيّ شيء. غيوم سوداء والليل في الوادي.

كاتالينا أوهارا حمراء الشعر، عمرها خمسة وعشرون عاماً، عندها ولد، مفصولة، حلوة.

أيضاً تعرّفتُ على لاورا خاورِغي، التي كانت رفيقة لأرتورو بِلانو. ذهبتْ إلى الحفلة مع صوفيا غالبِثْ، حبِّ عوليس ليما الضائع.

كلتاهما حلوتان.

لا، لاورا أحلى بكثير.

شربتُ أكثر من اللازم. كان الواقعيون الأحشائيون يطلعون من كلّ مكان، على الرغم من أنّ أكثر من نصفهم كانوا طلاّباً جامعيين مُتَنكّرين.

ذهبت أنجِليكا وبانتشو باكراً. في لحظة معينة من الليل قالت لي ماريّا، الكارثة وشيكة.

٢٢ تشرين الثاني

استيقظتُ في بيت كاتالينا أوهارا. بينما كنت أتناول فطوري باكراً جدّاً (ماريّا لم تكن موجودة، كل من تبقى في البيت كانوا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نائمين)، مع كاتالينا وابنها الصغير دافي، الذي كان عليها أن تأخذه إلى روضة الأطفال، تذكّرتُ أنّ إرنستو سان إبيفانيو قال ليلةَ أمس عندما لم يبقَ غير القليلين، إن هناك أدباً مختلفَ الجنس[1] ومِثليّاً وثنائيّاً. الروايات بعامة كانت مختلفةَ الجنس، الشعر بالمقابل كان مثلياً بالمُطلق، القصص، أَستنتجُ، كانت ثنائية الجنس، وإن لم يقل هوَ هذا.

في بحر الشعر الهائل كان يميّز عدّة تيارات: مخنثون، مستلوطون، دعسوقات، مجنونات، لوطيون، فراشات[2] ومستحورون وخِناث. ومع ذلك فالتياران الأكبران هما تيارا المخنثين واللوطيين، والت وايتمان، مثلاً، كان شاعراً مخنّثاً، بابلو نيرودا كان شاعراً مستلوطاً، وليما بلاك كان مخنّثاً، دون أدنى شكّ، وأوكتافيو باث كان مستلوطاً، بورخِس كان خُنثيّةً، أي أنّه فجأة يمكن أن يكون مخنثاً وفجأة يمكن أن يصير لا جنسياً، روبن داريّو كان مجنونة بل وملكة ومثالاً للمجنونات.

طبعاً هذا في لغتنا؛ - وضَحَ -؛ في العالم العريض والغريب ما يزال المثال هو فيرلين الكريم.

ومجنونة، بحسب سان إبيفانيو، هو أقرب إلى العصفوريّة المزهرة والهذيانات بالجسد الحي، بينما المخنثون والمستلوطون كانوا يتنقلون دون تمييز بين الأخلاق والجمال والعكس صحيح. ثيرنودا، العزيز ثيرنودا، كان مستحوراً وفي لحظات المرارة الكبيرة شاعراً مخنّثاً، بينما غيليين وألكساندر وألبِرتي يمكن أن يُعتَبروا دعسوقات ومُخنّثين ولوطيين على التوالي. الشعراء من أمثال كارلوس

---

(١) Heterosexual أي علاقة جنسية بين ذكر وأنثى.

(٢) استخدام المؤنث للمذكر من عمل المؤلِّف.

بيِّثِر كانوا بعامة لوطيين، بينما شعراء من أمثال تابلادو ونوبو ورِناتو ولِدوك كانوا خِناثاً. عملياً الشعر المكسيكي خالٍ من الشعراء المخنثين، وإن كان من الممكن لبعض المتفائلين أن يُفكِّروا أن عندنا لوبِّث بِلاردِ أو أفراين هورْتا. بينما يكثر اللوطيون، بدءاً من المُتَنَمِّر (وإن كنتُ قد سمعتُ لثانيةٍ المافيوي) دياث ميرون وحتى هونِرو أريدخيس المشهور. علينا أن نعود إلى أمادو نِبرو (تصفير) كي نعثر على شاعر حقيقيّ، أي شاعر مخنّث، وليس على شاعرٍ خُنثيّة، مثل الشاعر الحالي مانوِل خوسِهْ أوتون البوتوسيّ المطالب به، الثقيل كما لا يوجد مثله. وبالكلام عن الثقلاء: كان مانوِل أكونيا فراشة وخوسِهْ خواكين بِسادو مُستحورَ غاباتِ اليونان، قوّادَيّ بعض الشعر الغنائي المكسيكي الدائمَين.

وماذا عن إفرِن رِبويِّدو. - سألتُ.

- مستلوط قليل الأهمّية جدّاً. فضيلته الوحيدة هي أنّه إذا لم يكن الشاعر المكسيكي الوحيد الذي نشر كتاباً في طوكيو، *قوافٍ يابانية*، ١٩٠٩، فهو الأوّل، طبعاً كان دبلوماسيّاً.

كانت البانوراما الشعرية بعد كلّ شيء وفي الأساس صراعاً (باطنيا) حصيلةَ الصراع بين شعراء مخنثين وشعراء مستلوطين، على تملُّك *الكلمة*. الشعراء الدعسوقات، بحسب سان إيبفانيو هم الشعراء المخنثون في دمهم والذين كانوا نظراً لضعفهم أو رغدِهم، يتعايشون ويَحترمون - وإن لم يكن دائماً - المقاييسَ الجمالية والحياتية للمستلوطين. في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا شكل الشعراء المستلوِطون فيلقاً، كان يقول، على العكس مما يمكن أن يُفكّر قارئ ليس دقيق الانتباه. الذي كان يحدثُ هو أنّ شاعراً مثل ليوباردي، مثلاً يعيد بطريقةٍ ما تشكيل المستلوطين من أمثال أونغارِتّي، مونتالي، كواسيمودو، ثالوث الموت.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالطريقة ذاتها يعيد باسوليني رسمَ الاستلواطيّة الإيطالية الحالية، انظرْ حالةَ سانغينتّي المسكين (لا أحشر نفسي مع بافيسي، فقد كان مجنونة حزينة، نموذجاً فريداً من نوعه، أو مع دينو مامبانا، الذي يأكل على طاولة جانبية، طاولةِ المجنونات في مراحلهم الأخيرة) ولكي لا نتكلّم عن فرنسا، عن لغة الملتهمين العظيمة، حيث يقوم مائة شاعر مخنّث بدءاً من فيللون وحتى صوفي بودولسكي المحبوبة، الذين احتضنوا ويحتضِنون وسيحتضنون بدمِ أثدائهم عشرةَ آلاف شاعر لوطي، بكل موكب خناثهم ومستحوِريهم وفراشاتهم، ومدراء مجلاتهم الأدبية وكبار مترجميهم وصغار موظفيهم وكبار دبلوماسيّيهم في مملكة الآداب (وإلا فانظر تفكير شعراء *تِل كِل* المؤسف والمنحوس، ولا نقول شيئاً عن استلواطيّة الثورة الروسية، التي إذا أردنا أن نكون صريحين، لن نجد فيها إلا مُخنّثاً واحداً، واحداً فقط؟

- من؟ - سألوه.

- ماياكوفسكي؟

- لا.

- يسنين؟

- أيضاً لا.

- باسترناك، بلوك، ماندلشتام، أخماتوفا؟

- أقل.

- قله وخلّصنا، يا إرنِستو، فقد بدأت أقضم أظافري.

- واحد فقط - قال سان إبيفانيو -، والآن أخرجك من شكوكك، لكن هذا فعلا، مخنّث السهوب والثلوج، مُخَنَّث من رأسه وحتى قدميه: خلِبْنيكوف.

كان هناك آراء لكلّ الأذواق.

- وفي أمريكا اللاتينية، كم من المخنّثين الحقيقيّين نستطيع أن نجد؟ باليخو ومارتين أَدان. نقطة ومن أوّل السطر. ماثِدونيو فِرنانْدِثْ، مثلاً؟ البقيّة مستلوطون من نوع هويدوبرو، فراشات من نوع ألفونسو كورتِس (على الرغم من أنّ هذا عنده أبيات مخنثة حقيقيّة)، لوطيون نموذج ليون دِ غريف، مستحورون مثل بابلو دِ روخا (مع هباتٍ مجنونة كانت سُتجّنن لاكان، الدعاسيق مثل لثاما ليما، قارئ غونغورا المزيّف، وإلى جانب لِثاما جميع شعراء الثورة الكوبية (ديغو، فيتيير، رِتامار المريع، غللبين الشائك، التعيسة فينا غارثيّا) باستثناء روخِليو نوغِراس، الساحر وحورية بروح مخنّث لعوب. لكن لنتابعْ. في نيكاراغوا تسود الفراشات مثل كورونِل أرتِتْشو أو مستلوطون مع ميول خُنثيّة، مثل إرنِستو كاردِنال. كذلك هم خناث المعاصرون المكسيكيون.

- لا - صاح بِلانو -، خيلبِرتو أوين لا!

- عمليّاً - تابع سان إيبيفانيو رابطَ الجأش -، موت بلا *نهاية*، إلى جانب شعر باث، النشيد الوطني الفرنسي للشعراء المستلوطين المكسيكيين العصبيين والعطشى. مزيد من الأسماء: خِلمان مستحور، بينيدِتّي مستلوط وستفالِن، مجنونة، إنريكِ ليهن، دعسوق مع شيء من التخنّث، خيروندو، فراشة، روبن بونيفاث نونيو، لوطيّ فراشة مع ميول فراشة سابينِ، لوطي مستلوط وعزيزنا الذي لا يُمس خوسِميليو بّي، مجنونة. ولنعد إلى إسبانيا، لنعُد إلى الجذور - تصفيق-: غونغورا وكيفيدو مستلوطان؛ سان خوان دِ لا ركوث وفراي لويس دِ ليون مخنّثين؟ لقد قلت كلّ شيء والآن بعض الاختلافات بين المستلوطين والمخنّثين. الأوائل يطلبون حتى في أحلامهم قضيباً بطولِ ثلاثين سنتيمتراً يفتحهم ويُخصبهم، لكن عند الحقيقة يُكَلِّفهم النومُ مع قوّادي الروح جهداً كبيراً. بالمقابل يبدو أنّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المخنّثين يعيشون ووتدٌ يحرّك أحشاءهم باستمرار وعندما ينظرون إلى أنفسهم في مرآة (الفعل الذي يُحبونه ويكرهونه من كلّ روحهم) يكتشفون بعيونهم الغائرة ذاتها هويّةَ قوّاد الموت، قوّاد المُخنّثين والمستلوطين، هي الكلمة التي تعبرُ سليمة نطاقات العدم (أو نطاق الصمت أو الآخرين) فيما عدا ذلك ومع توفّر الإرادة الطيبة لا شيء يمنع المستلوطين والمخنّثين من أن يكونوا أصدقاء جيّدين، يصيبون بعضهم بعضاً بعدوى الرقّة، يتناقدون أو يتمادحون، ينشرون لبعضهم أو يخفون عن بعضهم في بلد الآداب العنيف والمُحتَضر.

- وماذا عن ثِساريا تيناخِرو، هل هي شاعرة مخنثة أم لوطية؟ - سأل أحدهم، لم أعرف صوته.

- آه، ثِساريا تيناخِرو هي الرعب - قال سان إبيفانيو.

٢٣ تشرين الثاني

حكيتُ لماريّا أنّ أباها أعطاني نقوداً.

- هل تعتقد أنّني عاهرة؟ - قالت.

- طبعاً لا!

- إذن لا تقبل نقود هذا العجوز المجنون! - قالت.

ذهبنا هذا المساء إلى محاضرة لأوكتافيو باث. في المترو لم تتوجّه ماريّا إليّ بالكلام. رافقتنا أنخِليكا، وهناك في كابيّا ألفونسينا التقينا بإرنستو سان إبيفانيو. عند خروجنا دخلنا مطعماً في شارع بالما يقوم عليه ثمانينيون. كان اسم المطعم نخلة الحياة. فجأة شعرت بنفسي مُحاصراً. بدا لي النُدُلُ الذين سيموتون بين لحظة وأخرى، لامبالاةُ ماريّا، التي بدت كما لو أنّها تعبت منّي، ابتسامةُ سان إبيفانيو، البعيدة والساخرة بل وحتى أنخِليكا التي كانت كما هي دائماً، لي فخّاً، تلميحاً ساخراً من وجودي ذاته.

وللطامّة الكبرى أنا بحسب زعمهم، لم أفهم شيئاً من محاضرة أوكتافيو باتْ ويمكن أن يكونوا على حقّ، فأنا فقط أمعنت في يدي الشاعر اللتين كانتا توقّعان للكمات التي راح يقرأها، ربّما كانت اختلاجة اكتسبها في مراهقته.

هذا الولد خلاصة اللاثقافة - قالت ماريّا-، النموذج التقليدي لكلّية الحقوق.

فضَّلتُ ألا أردّ عليها. (على الرغم من أنّه خطر لي عدد من الأجوبة.) بم فكّرت وقتها؟ بقميصيَ النتن. بنقود كيم فونت. بالشاعرة لاورا داميان التي ماتت في غرّة شبابها. بيد أوكتافيو باث اليمنى، بإصبعيها السبّابة والوسطى، ببنصرها، بإبهامها وخنصرها التي كانت تشقّ هواء لا كابّيا كما لو أنّ حياتنا كانت تذهب معها. أيضاً فكّرتُ ببيتي وسريري.

ظهر بعدها شخصان طويلا الشعر يرتديان بنطلونين جلديّين، بدوَا موسيقيَّيْن، لكنّهما كانا طالبين في مدرسة الرقص.

غبت عن الوجود برهة طويلة.

- لماذا تكرهينني، يا ماريّا؟ ماذا فعلت لك؟ - سألتُها هامساً في أذنها.

نظرت إليّ كما لو أنّني أُكلّمها من كوكبٍ آخر. لا تكُن أحمق، قالت.

إرنِستو سان إبيفانيو سمع جوابها وابتسم لي بطريقة مُقلقة. في الحقيقة الجميع سمعوها وجميعهم ابتسموا لي كما لو أنّني كنتُ أجَنّ! أظنّ أنّني أغمضتُ عينيّ. حاولتُ أن أقحم نفسي في حديث ما. حاولتُ أن أتكلّم عن الشعراء الواقعيين الأحشائيين. الموسيقيان الافتراضيان ضحكا. في لحظة ما قبّلت ماريا واحداً منهما وربت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سان إبيفانيو على ظهري عدّة ربتات. أتذكّر أنني أمسكتُ يده في الهواء وأمسكته من مرفقه وقلتُ له وأنا أنظر إلى عينيه أن يلتزم حدّه وإنّني لست بحاجة لأيّ مواساة. أتذكّر أنّ ماريّا وأنخِليكا قرّرتا أن تذهبا مع الراقصَين. أتذكّرُ أنّني سمعتُ نفسي أصرخ في لحظة من لحظات الليل:

- كسبت مال أبيك!

لكنّني لا أتذكّر ما إذا كانت ماريّا موجودة كي تسمعني أم أنّني كنت وقتها قد أصبحت وحدي.

٢٤ تشرين الثاني

عدتُ إلى البيت. عدتُ إلى الكليّة (لكنّني لم أدخل) بودّي أن أنام مع ماريّا، بودّي أن أنام مع كاتالينا أوهارا. بودّي لو أنام مع لاورا خاورِغي. وبودّي أحياناً لو أذهب إلى الفراش مع أنخِليكا، لكنّ أنخِليكا في كلّ لحظة تمرّ هي أكثر ازرقاقاً حول عينيها، أكثر شحوباً، أكثر نحولاً، وأكثر شروداً.

٢٥ تشرين الثاني

اليوم لم أرَ غير بارّيوس وخاثينتو رِكِنا في مقهى كيتو وكان حديثنا أقرب إلى الحزن، كما لو أنّنا عشيّة شيء لا إصلاح له. حكيا لي أنّ أرتورو بِلانو قدّم محاضرةً في كاسا دِل لاغو وأنّه حين جاء دوره بالكلام نسي كلّ شيء، أعتقد أنّ المحاضرة كانت عن الشعر التشيليّ فارتجل بِلانو دردشة حول أفلام الرعب. مرّة أخرى قدّم المحاضرة عوليس ليما ولم يذهب إليها أحد. هكذا بقينا حتى أغلقوا المقهى.

٢٦ تشرين الثاني

لم أجد أحداً في مقهى كيتو ولم تكن بي رغبة بأن أجلس إلى طاولة وأبدأ أقرأ وسط الصخب المُسبب للكآبة في تلك الساعة. بقيتُ برهة أسير في بوكارِلي، هتفتُ لماريّا، لم أجدها، مررت مرّتين أمام مقهى إنكروثيخادا بِراكورثانا، في الثالثة دخلتُ وهناك، بجانب طاولة العرض كانت روساريو.

ظننتُ أنّها لن تعرفني. أنا نفسي لا أعرف نفسي أحياناً! لكنّ روساريو نظرت إليّ وابتسمت وبعد برهة، الوقت الذي استغرقتْهُ في تخديم طاولة مليئة بالسكارى المريعين، اقتربتْ من حيث كنتُ.

- هل كتبت لي شعري؟ - سألت جالسةً إلى جانبي. عينا روساريو داكنتان، أستطيع أن أقول سوداوان، وركاها عريضان.

- إلى حدّ ما - قلتُ بإحساس خفيف جدّاً بالانتصار.

- لنرَ، اقرأها لي.

- قصائدي ليست لتُنشَد، بل لتُقرَأ - قلتُ. أظنّ أنّ خوسيهْ إميليو باتشِكو أكد شيئاً مشابهاً منذ وقت قصير.

- لذلك. اقرأها لي - قالت روساريو.

- ما أريد قوله هو أنّ من الأفضل أن تقرئيها أنت.

- لا، الأفضل أنت. ربّما إذا قرأتُها أنا لا أفهمها.

- أخذتُ عشوائياً واحدة من قصائدي الجديدة وقرأتُها لها.

- لا أفهمها - قالت روساريو -، لكنّ سيّان تُشكر عليها.

بقيتُ لحظة منتظراً أن تدعوني للانتقال إلى القبو. لكنّ روساريو لم تكن بريخيدا. يُلاحظ هذا على الفور. رحتُ بعدها أفكّر بالهوّة التي تفصل بين الشاعر والقارئ. وحين أردتُ أن أنتبه كنتُ قد دخلت عميقاً في الاكتئاب. روساريو التي ذهبت لخدمة طاولات أخرى عادت إلى جانبي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- هل كتبتَ لبريخيدا أيضاً بعضَ الأبيات؟ - سألتْ ناظرةً إلى عينيَّ واحتكّت ساقاها بحافّة الطاولة.

- لا، فقط لكِ - قلتُ.

- حكوا لي ما جرى في ذلك اليوم.

- ماذا جرى في ذلك اليوم؟ - سألتُ محاولاً أن أَظهرَ بارداً، ولطيفاً أيضاً، لكن بارداً.

- المسكينة بريخيدا بكت لأجلك - قالت روساريو.

- كيف ذلك؟ هل رأيتها أنتِ؟

- جميعنا رأيناها. تمضي كالمجنونة من أجل عظامك، أيّها السيّد الشاعر. لا بدَّ أنّك تملك شيئاً خاصّاً مع النساء.

أعتقد أنّني احمررتُ خجلاً وإن شعرت في الوقت ذاته بالسعادة.

- لا شيء... خاصّ - تمتمتُ -. هل حكت لك شيئاً؟

- حكت لي أشياء كثيرة، هل تريدني أن أقولها لك؟

- حسن - قلتُ، على الرغم من أنّني في الحقيقة لم أكن واثقاً من أنّني أُريد أن أسمعَ أسرار بريخيدا. كدت أضجر في اللحظة ذاتها من هذا. الكائن البشري ناكر للجميل، قلتُ لنفسي، نَسّاء وجحود.

- لكن ليس هنا - قالت روساريو -. بعد قليل سأطلب ساعة استراحة. هل تعرف أين يقع محل بيتزا الأمريكي الشمالي. انتظرني هناك.

قلتُ لها سأفعلُ وخرجتُ من إنكروثيخادا بِراكروثانا. في الخارج كان النهار قد غامَ وريح قويّة تُجبر الناس على أن يسيروا بأسرع من المعتاد أو أن يحتموا بعتبات الدكاكين. حين مررت أمام مقهى كيتو ألقيت نظرةً ولم أرَ أحداً معروفاً. للحظة فكّرتُ أن أهتف مرّةً أخرى إلى ماريّا، لكنّني لم أفعل.

كان محلّ البيتزا مزدحماً والناس يأكلون وقوفاً القطعَ التي يقطعها لهم الأمريكي الشمالي شخصيّاً بسكين كبيرة. بقيتُ برهة أتأملّه. فكّرتُ أنّ المهنة لا بد أنّها تمنحه مالاً كثيراً، وسررتُ لأنّ الأمريكي بدا ظريفاً. كان يصنع كلَّ شيء بنفسه: يُحضِّرُ العجين، يضعُ البندورة وجبنةَ الموزارلا، ويضعُ القطعَ في الفرن، يُقطِّعها ويُسلِّمها للزبائن الذين يتكوّمون حول طاولة العرض، ويُحضّر مزيداً من البيتزا ويعودُ ليبدأ من جديد. كان يقوم بكلِّ شيء باستثناء المُحاسبة وإعادة الزائد من النقود إلى أصحابها. كان يقوم بهذا العمل فتى بحدود الخامسة عشرة من عمره، أسمر، قصير الشعر جدّاً ويستشير في كلّ لحظة الأمريكيّ الشماليَّ بصوت خافت جدّاً. كما لو أنّه لا يعرفُ الأسعار جيّداً بعدُ، أو أنّهُ ضعيفٌ في الرياضيات. بعد برهة توقّفتُ عند تفصيل آخر غريب. الأمريكي الشمالي لا ينفصل أبداً عن سكين مطبخه الكبيرة

- ها أنا ذا هنا - قالت روساريو شادّةً إيّاي من كمّي.

لم تبدُ في الشارع نفسَها التي كانت في إنكروثيخادا بِراكروثانا. في الهواء الطلق كان وجهها أقل تماسكاً وتقاسيمها أكثر شفافية، طيّارةً، كما لو أنّها تمرّ في الشارع بخطر أن تتحوّل إلى امرأة لا مرئية.

- نسير قليلاً ثم بعدها تدعو نفسك لشيء، موافق؟

شرعنا نمشي باتجاه رِفورما. أخذتني روساريو من ذراعي عندما عبرنا أوّلَ شارع ولم تتركني بعدها.

- أريد أن أكون لك مثل أمّك - قالت - لكن لا تُسئ تفسيري، أنا لستُ عاهرة مثل بريخيدا تلك. أنا أريدُ أن أُساعدك، أن أُحسن معاملتك، أريد أن أكون معك حين تصبح مشهوراً، يا حياتي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لا بدّ أنّ هذه المرأة مجنونة، فكّرتُ، لكنّني لم أقل لها شيئاً، اقتصرت على الابتسام.

٢٧ تشرين الثاني

كلّ شيء يتعقّد. وتحدث أشياء رهيبة. في الليل أستيقظُ وأنا أصرخ. أحلم بامرأة لها رأس بقرة. عيناها تنظران إليّ بثبات. في الحقيقة بحزنٍ مؤثّرٍ. وللطامة الكبرى أجريت حديثاً قصيراً مع عمّي «رجلاً لرجل». جعلني أُقسِم أنّني لا أتعاطى المُخدّرات. لا، قلتُ له، لا أتعاطى المخدرات أقسم لك. أبداً، أبداً؟ سألني عمّي. ماذا يعني هذا؟ سألتُ. كيف ماذا يعني؟ زمجر هو. هذا، ما معناه؟ كن أكثر دقّة قليلاً، أرجوك، قلتُ منكمشاً مثل محارة. هتفتُ ليلاً لماريّا. لم تكن موجودة، لكنّني تكلّمتُ برهةً مع أنخِليكا. كيف حالك، سألتني. الحقيقة أنّني لست في حال جيّد تماماً، قلتُ، في الحقيقة أنا في حال سيئ بما يكفي. هل أنت مريض؟ سألت أنخِليكا، لا، بل متوتّر. أنا أيضاً لست في حالة جيّدة جدّاً، قالت أنخِليكا، لا أكاد أنام. كان بودّي أن أسألها عن أشياء أخرى، من بتول سابق إلى بتول سابقة، لكنّني لم أفعل.

٢٨ تشرين الثاني

ما زالت تحدث أشياء رهيبة، أحلام، كوابيس، اندفاعات أتبعها وهي خارج سيطرتي تماماً. كما حين كنتُ في الخامسة عشرة من عمري. لا أتوقّف عن الاستمناء. ثلاث مرّات في اليوم، خمس مرّات في اليوم، لا شيء كان كافياً! روساريو تريد أن تتزوّجني. قلتُ لها أنا لا أومن بالزواج. حسن، ضحكت هي، زواج، بمعنى الزواج لا، ما أريد قوله هو أنّني **بحاجة** لأن أعيش معك. نعيش

معاً؟ سألتُ، في بيتٍ واحد؟ طبعاً، في بيت واحد أو غرفة واحدة، إذا لم يكن لدينا مال كي نستأجر بيتاً، بل وحتى في كهف، أنا لستُ مُتَطَلِّبةً أبداً. كان وجهها يلمع، لا أدري ما إذا كان من العرق، أم من الإيمان الخالص بما كانت تقول. المرّة الأولى التي مارسنا فيها كان في بيتها، حارة ضائعة في حيّ مِرثِدْ بالبونا، على بعد خطوات قليلة من طريق لا بيغا. كانت الغرفة مليئة ببطاقات بريد من بيراكروث وصور فنانين سينمائيين مُثَبّتة على الجدار بمسامير كبس.

- هل هي المرّة الأولى يا حبيبي؟ - سألتني روساريو.

لا أدري لماذا قلتُ نعم.

٢٩ تشرين الثاني

أتحرّك وكأنني مجروف بالأمواج. اليوم ذهبتُ إلى بيت كاتالينا أوهارا، دون أن يدعوني أحد ودون أن أُخطِرها. وجدتها مصادفة، فقد وصلت توّاً، كانت محمرّة العينين، العلامة الواضحة على أنّها كانت تبكي. لم تعرفني في البداية. سألتُها لماذا كانت تبكي. لأسباب تتعلّق بالحب، قالت. اضطُرِرْت لأن أعضّ على لساني كيلا أقول لها إنّها إذا كانت تحتاج لأحدٍ فها أنا ذا مستعد لأي شيء. شربنا كأس ويسكي، أنا بحاجةٍ إليه، قالت كاتالينا وخرجنا بعدها لتأتي بابنها من روضة الأطفال. كانت كاتالينا تقود مثل مُنتحِر ودختُ. في طريق العودة وبينما كنتُ أداعب ابنها في المقعد الخلفي سألتني عما إذا كنتُ أحبّ أن أرى لوحاتها. قلت بلى. في النهاية أتينا على نصف زجاجة ويسكي وعادت كاتالينا لتبكي بعد أن نوّمت ابنها. لا تقترب، قلتُ لنفسي، هي أمٌّ. فكّرتُ بعدها بالقبور، بالمضاجعة فوق قبر. من حسن الحظّ أنّ الرسامة التي تشاركها البيت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والمرسم وصلت بعد دقائق قليلة، ورحنا نُحَضِّر فيما بيننا نحن الثلاثة العشاء. صديقة كاتالينا المنفصلة أيضاً، لكن كان واضحاً أنّها أفضل حالاً منها. عكفت أثناء الطعام على رواية نكات؛ نكات عن رسامين. لم يحدث أن سمعت امرأة تحكي نكاتٍ بمثل تلك الروعة (للأسف لا أتذكّر أيّاً منها). بعدها لا أدري لماذا بدأتا تتحدّثان عن عوليس ليما وأرتورو بِلانو. بحسب صديقة كاتالينا كان هناك شاعر بطول مترين ووزن مائة كيلوغرام، ابن أخ إحدى موظفات الجامعة الوطنية المكسيكية المستقلة، كان يبحث عنهما كي يضربهما. هما العارفان بهذا البحث اختفيا. ومع ذلك فإنّ هذه الرواية لم تُقنِعْ كاتالينا أوهارا، فبحسبها كان صديقانا يبحثان عن أوراق ثِساريا تيناخِرو الضائعة، في أقسام الصحف ومكتبات الكتب القديمة في العاصمة الفيدرالية. خرجتُ من هناك في الثانية عشرة وحين أصبحتُ في الشارع لم أعرف إلى أين أذهب. هتفت لماريّا، مستعدّاً لأن أحكي لها كلّ قصّتي مع روساريو (وبالمناسبة ما جرى لي مع بريخيدا في القبو) وأطلب عفوها، لكنّ الهاتف رنَّ ورنّ ولا أحد ردّ على مكالمتي. عائلة فونت بكاملها اختفت. وهكذا وجّهت خطواتي نحو الجنوب، نحو غرفة سطح عوليس ليما. حين وصلتُ لم يكن هناك أحد ولذلك انتهيت بالمشي نحو مركز المدينة، مرّة أخرى نحو شارع بوكارِلي. هناك وقبل أن أذهب إلى إنكروثيخادا نظرت من نافذة مقهى أماريّو (كيتو كان مغلقاً) رأيتُ على طاولةٍ بانتشو رودريغِث. كان وحده أمام فنجان قهوة بالحليب شرب نصفه. كان أمامه كتاب، يده على الصفحات كي يتفادى إغلاقه، وكان وجهه مُنقبضاً انقباضاً يُعبّر عن ألم شديد. كان يقوم بين حين وآخر بلَمَصات تبدو من خارج النافذة مرعبة. ربّما أنّ الكتاب الذي يقرأه كان يُؤثر عليه بطريقة تمزّق القلب، أو أنّه كان يعاني من ألم أضراس. في لحظة معيّنة رفع

رأسَهُ ونظر إلى كلّ الاتجاهات وكأنّه عرف بحدسه أنّهُ مُراقب. تخفّيت. وحين عدتُ لأطّل كان بانتشو مستمرّاً بالقراءة واختفت عن وجهه تعبيرات الألم. في تلك الليلة كانت روساريو وبريخيدا تعملان في إنكروثيخادا. أولاً اقتربت منّي بريخيدا. أحسستُ بكراهية وحنق في تعبير وجهها، وأيضاً بمعاناة مَنْ صُدّوا. بصراحة أحزنتني! كلُّ العالم يُعاني! طلبتُ منها كأسَ تِكيلا وسمعت منها دون أن أتبدّل ما كان عليها أن تقوله لي. بعدها جاءت روساريو وقالت إنّها لا تحبّ أن تراني واقفاً أكتبُ مثل يتيم أمام طاولة العرض. ما من طاولة شاغرة، قلتُ لها وتابعتُ الكتابة. قصيدتي عنوانها «الجميع يُعانون». لا يهمّني أن ينظروا إليَّ.

٣٠ تشرين الثاني

البارحة ليلاً حدث شيءٌ مرَوِّع. كنتُ في بار إنكروثيخادا بِراكروثانا، مستنداً إلى طاولة العرض، أكتب يومياتي وبعض القصائد دون تمييز (أستطيع أن أقفز من نوع إلى آخر دون أيّ مشكلة)، حين بدأت روساريو وبريخيدا تشتمان كلٌّ منهما أمَّ الأخرى في عمق المحل. سرعان ما تحزّبَ السكارى المريعون لهذه أو لتلك وبدأوا يشدونهما بقوّة جعلتني أفقدُ فجأة التركيز الضروريّ للكتابة، وهكذا قرّرت أن أتبخّر بأسرع وقت ممكن من ذلك الكهف.

في الشارع هواء رطب، أجهل كم كانت الساعة، لكّنها متأخّرة، صفعني على وجهي وبينما أنا أسير رحتُ أستعيدُ إن لم يكن الإلهام (هل يوجد إلهام؟) فالاستعدادَ والرغبةَ بالكتابة. انعطفت في إل رِلوخ الصيني، ورحت أمشي باحثاً عن مقهى أتابع فيه عملي. عبرتُ حديقةَ مورِلوس، المقفرة والشبحيّة، لكن يستشعر بوجود حياة سرّية في زواياهُا، أجساد وضحكات (أو ضحكات خفيفة) تسخر من العابر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الوحيد (أو هذا ما بدا لي وقتها) عبرتُ نينيوس هِرويس[1]، عبرت ساحة باتشِكو (التي تخلّد ذكرى جدّ خوسِهْ إميليو وكانت مقفرة، لكن هذه المرّة دون أشباح ولا ضحكات) وحين كنتُ على وشك أن أمضي في رِبيّاخيخِدو باتجاه آلامِدا، طلع من زاوية، أو تجَسّدَ، كيم فونت. داخلني خوف قاتل. كان يرتدي طقماً وربطة عنق (لكن كان هناك في الطقم وربطة العنق شيء غير منسجم ولا بشكلٍ من الأشكال) وكان يجرّ فتاةً أمسكَ بها بقوة من مرفقها. كان يمضي في الاتجاه الذي كنتُ ذاهباً فيه، وإن كان على الرصيف المقابل. تأخّرتُ بضعَ ثوان في الخروج من ذهولي. لم تكن الفتاة التي يجرّها كيم أنخِليكا، كما اعتقدت دون تعقّل عندما رأيتُها، على الرغم من أنّ طولها وجسمها كانا يسهمان في التشويش.

كان واضحاً أنّ استعدادَ الفتاة للذهاب مع كيم ضئيل جدّاً، وإن لن يكن ممكناً القول بأنّها تقاوم كثيراً؟ حين وصلت إلى موازاته، كنّا نمضي في رِبيّاخيخِدو باتجاه آلامِدا، بقيتُ أنظرُ إليهما بتمعّن، كما لو كي أتأكّد من أنّ العابرَ الليلي كان كيم وليس شبحاً، وعندها رآني هذا بدوره ولم يتأخّر أكثر من ثانية في معرفتي.

- غارثيّا مادِرو! - صاح -. يا رجل، تعال إلى هنا.

اجتزتُ الشارع مُتخذاً أو مُظهراً أنّني أتخذ بعض الحذر غير المجدي (إذ لم يكن هناك في تلك اللحظة أي سيارة تدور في رِبيّاخيخِدو) ربّما كي أُؤخّر بضعَ ثوانٍ لقائي بأبي ماريّا. عندما وصلتُ إلى الرصيف الآخر رفعت الفتاةُ رأسها ونظرت إليّ. كانت

---

(١) Niños Héroes الأطفال الأبطال يُطلق هذا التعبير على ستة طلاّب ضباط قُتلوا في معركة تشابولتِبِّكْ يومي ١٢ و١٣ أيلول ١٨٤٧ خلال الحرب المكسيكية-الأمريكية الشمالية.

لوبِّ، التي تعرّفتُ عليها في حيّ غِرِّرو. لم تظهر ما يدل على أنّها عرفتني. طبعاً أوّل شيء فكّرتُ به هو أنّ كيم ولوبِّ كان يبحثان عن فندق.

- جئت، يا رجل، وكأنّك هبطت من السماء!

سلّمتُ على لوبِّ.

- ماذا حدث؟ - سألتُ هذه بابتسامة جمّدت قلبي.

- أبحث عن مأوى لهذه الآنسة - قال كيم -، لكنّني لم أجد فندقاً واحداً لائقاً في كلّ الحيّ.

- هنا يوجد فنادق كثيرة - قالت لوبِّ -. الأفضل أن تقول إنّك لا تريد أن تنفق مالاً كثيراً.

- المال لا يشكّل أيّ مشكلة. إذا كان معك، فهو معك وإذا لم يكن معك، فليس معك.

عندها لاحظتُ أنّ كيم كان متوّتراً جدّاً. كانت اليد التي يُمسك بها لوبّ ترتجف بتشنّج، كما لو أنّ ذراعَ لوبِّ كان مشحوناً بالكهرباء. كان يرفّ أهدابه بشراسة ويعضّ على شفتيه.

- هل هناك مشكلة؟ - سألتُ.

- نظر إليّ كيم ولوبِّ للحظات (كلاهما كان يبدو على وشك الانفجار) وبعدها ضحكا.

- جبل من المشاكل - قالت لوبِّ.

- هل تعرف مكاناً نستطيع أن نُخبّئ فيه هذه المُدلّلة؟ - سأل كيم

يمكن أن يكون في غاية التوتّر، لكنّه لا شكّ كان أيضاً سعيداً جدّاً.

- لا أدري - قالت لمجرد القول.

- في بيتك مُستحيل، أليس صحيحاً؟ - سأل كيم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- مستحيل بالمطلق.

- لماذا لا تتركني أحلّ مشاكلي لوحدي؟ - قالت لوبِّ.

- لأنّه ما من أحدٍ يفلتُ من تضامني! - قال كيم وهو يغمزني بعينه -. ثم لأنّني أعرف أنّك غير قادرة على فعل ذلك.

- هيّا بنا نتناول قهوة بالحليب - قلتُ - وسيخطر لنا حلّ ما.

- لم أتوقّع منك أقل من ذلك، يا غارثيا مادِرو- قال كيم -، كنتُ أعرف أنّك لن تتركني في المأزق.

- لكنّني وجدتك بمحض المصادفة! - قلتُ.

- آهٍ من المصادفات - قال كيم متنفساً ملء رئتيه، مثل عملاق شارع رِبيّاخيخِدو - أنا لا أؤمن بالمصادفات. في الحقيقة كلّ شيء مكتوب. هذا ما يسميه اليونانيون القدر.

- نظرت لوبِّ إليه وابتسمت كما لو أنّها تبتسم للمجانين. كانت ترتدي تنورة قصيرة وكنزة سوداء. بدا لي أنّ الكنزة كانت لماريّا، على الأقل كان لها رائحة ماريّا.

رحنا نسير، انعطفنا نحو اليمين من شارع فيكتوريا حتى دولورِس. هناك دخلنا مقهى صينيّاً. جلسنا أمام شخص له مظهر جثّة يقرأ الصحيفة. فتّش كيم المكان ثمّ أغلق على نفسه الحمّام لبضع دقائق، لاحقته لوبِّ بنظرها وللحظة بدت لي نظرتُها نظرةَ امرأة عاشقة. وقتها تيقّنت أنّهما ذهبا إلى الفراش أو أنّهما يُفكّران بفعل ذلك في الدقائق المقبلة.

عندما عاد كيم كان قد غسل يديه ووجهه ورشّ ماءً على شعره. وبما أنّه لم يكن يوجد في الحمّام منشفة فهو لم ينشف نفسه وراح الماء ينزل على صدغيه.

- هذه المحلات تأتيني بذكرى لحظة من أرهب لحظات حياتي - قال.

لزم بعدها الصمت. ولزمنا أنا ولوبٌ أيضاً الصمتَ برهة.

عندما كنتُ شاباً تعرّفت على أبكم، أو بالأحرى أصم وأبكم - تابع كيم بعد تَفَكُّرٍ قصير -. كان الأصمّ الأبكم يتردّدُ على مقهى الطلاب الذي كنّا نحن مجموعة من الأصدقاء من كلّية العمارة نذهب إليه دائماً. بينهم الرسام بِرِث كامارغو، أكيد تعرفان أعماله أو سمعتما به. وكنّا نجد الأصم الأبكم دائماً في المقهى يبيع أقلاماً وألعاباً وأوراقاً مطبوعة بلغة الصمّ والبكم، في النهاية أشياء غير ذات أهمّية كي يكسب بعض البِزوات الإضافية. كان شخصاً ظريفاً وكان يأتي أحياناً ليجلس إلى طاولتنا. الحقيقة المحضة، أعتقد أن بعضهم كان يعتبره، بطريقة تافهة، كلبَ المجموعة المنزليّ وأعتقد أنّ أكثر من واحد تعلّم، لمجرّدِ اللّعب، بعضَ علامات لغة الصمّ والبكم. ويمكن أن يكون الأصمّ الأبكم هو نفسه من كان يُعلّمنا إيّاها. ما عدتُ أتذكّر. ومع ذلك دخلتُ ذات ليلة إلى مقهى صيني مثل هذا لكن في حيّ باربارتِ، وبوغتّ بالأصم الأبكم. لا أعرف أيّ هراء كنت أفعل هناك، لم يكن من الأحياء التي أثابر على زيارتها، ربّما كنتُ خارجاً من بيت صديقة، الصحيح هو أنّني كنتُ متوتّراً قليلاً، لنقل إنّني كنتُ أمرّ بإحدى نوبات اكتئابي الدورية. كان الوقت متأخراً. المقهى الصيني مقفر. جلستُ إلى طاولة العرض أو إلى طاولة قريبة من الباب. في البداية فكّرت أنّني زبون المقهى الوحيد. لكنّني حين نهضتُ وذهبتُ إلى الحمّام (لأقضي حاجةً أو لأبكي على هواي!) وجدت الأصمَّ الأبكمَ في القسم الخلفيّ من المقهى، في نوعٍ من الغرفة الثانية. هو أيضاً كان وحدَه ويقرأ الصحيفة ولم يرني. ما أغرب الأشياء. عندما مررتُ لم يرني وأنا لم أحيّه. لم أشعر بنفسي قادراً على تحمّل سعادته، أظنّ. لكن عندما خرجتُ من الحمّام كان قد تغيّر بطريقةٍ ما كلُّ شيء، وقرّرت أن أسلّم عليه، هو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان ما يزال هناك وأنا قلتُ له مرحباً، وحرّكتُ طاولته قليلاً كي ينتبه إلى وجودي. عندها رفع الأصم الأبكم نظره، بدا شبهَ نائم، نظر إليّ دون أن يعرفني وقال لي مرحباً.

- يا إلهي - قلتُ ووقف شعر بدني.

- نحن على الموجة ذاتها، يا غارثيّا مادِرو - قال كيم ناظراً إليّ باستظراف -، أنا أيضاً شعرتُ بالخوف. الحقيقة، بالكاد تحكمتُ بنفسي كيلا أخرج هارباً من ذلك الصيني المجهول.

- لا أدري مما خفتَ - قالت لوبٍّ.

لم يكترث كيم بها.

- بجهد كبير تحكّمتُ بنفسي كيلا أخرج وأنا أصرخ - قال -. أوقفني يقيني بأنّ الأصم الأبكم في تلك اللحظة لم يعرفني وواجبُ أن أسدّد ثمن ما استهلكته. ومع ذلك لم أقدر على إنهاء القهوة بالحليب وحين أصبحتُ في الشارع رحتُ أركض دون أيّ خجل.

- أتصوّر ذلك - قلتُ.

- كان كمن يرى الشيطان - قال كيم.

- الرجل كان يتكلّم دون أيّ مشكلة - قلتُ.

- دون أيّ مشكلة! رفع نظره وقال لي مرحباً. بل يا إلهي كان له صوت رنّان تماماً.

- لم يكن الشيطان - قالت لوبٍّ -، وإن كان ممكناً، لا أحد يعرف، لكنّني لا أظنّ أنّه كان في هذه الحالة الشيطان.

- يا امرأة، أنا لا أؤمن بالشيطان، يا لوبٍّ، هذا أيّ كلام - قال كيم.

- أنت من تظنّ أنّه كان؟ - سألتُ.

- واشٍ. مُخبر عند الشرطة - قالت لوبٍّ بابتسامة عريضة.

- معك حقّ، صحيح - .- ولماذا كان يقترب من طاولتنا متظاهراً بأنّه أخرس - سأل كيم.

- أصمّ أبكم - قلتُ.

- لأنّكم كنتم طلاّباً - قالت لوبِّ.

نظر كيم إلى لوبِّ كما لو أنّه سيُقبّلها.

- ما أذكاكِ، يا لوبِّيتا.

- لا تسخر منّي.

- أقول هذا بجدّية، ويحك.

خرجنا من المقهى الصيني في الواحدة صباحاً ورحنا نبحث عن فندق. عثرنا عليه أخيراً عند الساعة الثانية في ريّو دِ لا لوثا. في الطريق وضّحا لي ما الذي كان يجري للوبِّ. حاول قوّادُها أن يقتلها. وعندما سألت عن السبب قالا لي: لأنّ لوبِّ ما عادت تريد أن تعمل في المساء بل أن تدرس.

- أُهنّئك، يا لوبِّ - قلتُ لها -، ما الذي ستدرسينه.

- رقص معاصر - قالت هي.

- في مدرسة الرقص، مع ماريّا؟

- هناك بالذات. عند باكو دوارتِ.

- لكن هل سجّلت، هكذا ببساطة، دون أن يجروا لك أيّ امتحان؟

نظر كيم إليّ كما لو من بعد آخر.

- لوبِّ عندها أيضاً أصدقاؤها النافذون، يا غارثيّا مادِرو، وكلّنا مستعدون لمساعدتها. لن تحتاج للمرور بأي امتحان تافه.

كان اسمُ الفندق لا مِديا لونا[١]، وبعكس ما توقّعتُ، ودّع كيم،

---

(١) Media Luna هلال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد أن فتّش الغرفةَ وتكلّمَ لثوانٍ مع عاملة الاستقبال، لوبِّ متمنياً لها ليلة سعيدةً وناصحاً إيّاها بألاّ يخطر لها أن تذهب من هناك دون إعلام. ودّعتنا لوبِّ في باب غرفتها. لا تُرافقينا، قال لها كيم. بعدها وبينما كنّا نمشي في طريقنا إلى رِفورما وضَّح لي بأنّه أعطى عاملةَ الاستقبال إكراميةً كي تقبل لوبِّ دون كثير من الأسئلة، بل وأكثر من ذلك دون كثير من الأجوبة إذا ما وقع الأمر.

- كم أنا خائف - قال لي - من أن يزور القوّاد هذه الليلة كلّ فنادق العاصمة الفيدرالية.

اقترحت عليه أنّ الشرطة قد تستطيع أن تحلّ المشكلة، أو أن تضع حدّاً لذلك الرجل.

- لا تكن أحمق، يا غارثيّا مادِرو، هذا المسمّى ألبِرتو له أصدقاء بين الشرطة، وإلا كيف تعتقد أنّه ينظّم شبكات دعارته. جميع نقاط العاصمة الفيدرالية مراقبة من الشرطة.

- كيم، يا رجل، يصعب عليّ أن أصدّق ذلك - قلتُ له -، قد يوجد رجال شرطة يأخذون حصّتهم كي يغضوا الطرف، لكن أن يكون الجميع. . .

- تجارة الدعارة في العاصمة الفيدرالية وفي كلِّ المكسيك تتحكّم بها الشرطة، افهمْ ذلك - قال كيم. ثم أضاف بعد لحظة -: نحن في هذا وحدنا.

في نينيوس هِرويس أخذ سيارة أجرة. جعلني قبل أن يصعد أعده بأن أكون في الساعة الأولى من اليوم التالي في بيته.

١ كانون الأوَّل

لم أذهب إلى بيت الأختين فونت. قضيتُ النهار كلّه وأنا أضاجع روساريو.

٢ كانون الأوّل

صادفتُ خائينتو رِكِنا يتنزّه في بوكارِلي.

ذهبنا لنشتري قطعتي بيتزا من عند الأمريكي الشمالي، وبينما نحن نأكل قال لي إنّ أرتورو قام بأوّل عملية تنظيف في الواقعية الأحشائية.

جمدتُ. سألته كم طرد منهم. خمسة، قال رِكِنا. أفترضُ أنّني لست بينهم، قلتُ. لا، أنتَ لا، قال لي رِكِنا. أراحني الخبر كثيراً. المطرودون هم بانتشو رودريغِث والبَشَرة الإلهية وثلاثة آخرون لا أعرفهم.

فكّرتُ بينما أستمرّ في السرير مع روساريو، بأن شعر الطليعة المكسيكي يشهد أول تصدعاته.

بقيت طوالَ اليوم مكتئباً، لكنّني أكتب وأقرأ مثل آلة.

٣ كانون الأوّل

عليَّ أن أعترف أنّني في السرير مع روساريو أفضل مما أنا مع ماريّا.

٤ كانون الأوّل

لكن من أُحِبّ؟ البارحة أمطرت طوالَ الليل. بدت ممراتُ الجيران شلالات نياغرا. مارستُ الحب وأنا أحصي العدد. كانت روساريو رائعة، لكنّني فضّلتُ، حُبّاً بنجاحِ التجربة، ألا ألفت انتباهها. وصلت خمس عشرة مرّة. في المرّات الأولى اضطُرِرتُ لأن أغلق لها فمها كيلا توقِظ الجيران. في الأخيرة خفتُ أن تُصاب بنوبة قلبية. كان يبدو أحياناً أنّه أُغشي عليها بين ذراعيّ وأخرى تتقوّس كما لو أنّ شبحاً يلعب بعمودها الفقري. أنا وصلتُ ثلاث

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مرّات. خرجنا بعدها إلى الممر واستحممنا بالمطر الذي كان يسقط من الممر الأعلى. شيء غريب عَرَقي حارّ وعرق روساريو بارد، أسطوريّ، حلو وحامض (عَرَقي مالح بوضوح). بالمجمل بقينا أربع ساعات نتجامع. نشّفتني روساريو بعدها ثم نشّفت نفسها، رتّبت الغرفةَ بلمح البصر (غير معقول كم هي هذه المرأة نشيطة وعمليّة) وراحت لتنام، ففي اليوم التالي عليها أن تعمل. أنا سويت وضعي على الطاولة وكتبتُ قصيدة عنونتها بـ «١٥/٣». بعدها رحتُ أقرأ وليم بوروز حتى مطلع الفجر.

٥ كانون الأوّل

اليوم جامعتُ روساريو من الثانية عشرة ليلاً وحتى الرابعة والنصف صباحاً، وعدتُ لأحصي عددها. وصلت هي عشرَ مرّات وأنا مرّتين؟ ومع ذلك فالوقت المستَغرَق في ممارسة الحبّ كان أطول من البارحة. بين قصيدة وأخرى (بينما روساريو نائمة) كنتُ أجري بعضَ الحسابات الرياضيّة. إذا كنتَ تقذفُ في أربع ساعاتٍ خمسَ عشرة مرّة، فإنّك ستقذفُ في أربع ساعات ونصف ثماني عشرةَ مرّة وليس عشراً. الشيء ذاته يفيد بالنسبة إليّ. هل من الممكن أن يبدأ الروتين يؤثّر فينا؟

ثمّ إنّ هناك ماريّا. في كلّ يوم أُفكّرُ بها. أودُّ أن أراها، أُجامعها، أتكلّمَ معها، أن أهتفَ لها، لكنّني عندما تحقّ الحقيقة لستُ قادراً على أن أخطو خطوة باتجاهها. ثم إنّني بعد ذلك عندما أنظرُ ببرودٍ إلى لقاءاتي الجنسية معها ومع روساريو، لا شكّ عليّ أن أعترف أنّني أستمتع مع روساريو أكثر. على الأقل أتعلّم أكثر!

٦ كانون الأوّل

اليوم جامعت روساريو من الثالثة وحتى الخامسة مساءً. وصلتْ هي مرّتين، وربّما ثلاث مرّات، لا أعرف، وأفضّل أن أبقي على الحساب لغزاً وأنا مرّتين. حكيتُ لها قبل أن تذهبَ إلى العمل قصة لوبِّ. بعكس ما كنتُ أتوقّعه لم تبدِ أيّ تعاطف معها ولا مع كيم ولا معي. أيضاً كلّمتها عن ألبِرتو، قوّاد لوبِّ، ولدهشتي أبدت تفهماً كافياً تجاهه، آخذة عليه فقط وحقيقة ليس بطرقة جازمة، عمله كقوّاد. عندما قلت لها إنّ ألبرتو هذا يمكن أن يكون شخصاً خطيراً جدّاً وأنّ هناك خطر أن يؤذي لوبِّ إذا عثر عليها، أجابت إنّ امرأة تترك رجلها تستحق هذا وأكثر.

- لكن أنت ليس عليك أن تنشغل، يا حياتي - قالت، هذه ليست مشاكلك، فالحمد لله أنت حبُّكَ الحقيقيّ إلى جانبك.

أحزنني تصريح روساريو. تصوّرتُ لثانيةٍ ألبِرتو، هذا الذي لا أعرفه، بقضيبهِ الضخم وسكينهِ الضخمة ونظرة ضارية في فرطوسه وفكّرتُ أنّه إذا صادفتْهُ روساريو في الشارع ستشعر بنفسها مشدودة إليه. وفكّرت أيضاً أن هذا الرجل يدخل بيني وبين ماريّا. للحظة، أقولُ، تصوّرتُ ألبِرتو وهو يقيس قضيبه بسكين المطبخ، وتخيّلتُ ألحانَ أغنية مليئة بالذكريات والتلميحات، وإن لم أكن قادراً على أن أقول ما نوعها، وأنّه يدخل من النافذة (نافذة مشؤومة!) مع هواء الليل، وكل هذا مجتمعاً سبّب لي حزناً كبيراً.

- لا تكتئب، يا حياتي - قالت روساريو.

كذلك تخيّلتُ ماريّا تُمارس الحبّ مع ألبِرتو. وألبِرتو يضربُها على وركيها. وأنخِليكا تمارس الحبّ مع بانتشو رودريغِثْ (الواقعي الأحشائيّ السابق، الحمد لله!). وماريّا تُمارس الحبّ مع البَشَرَة الإلهية. وألبِرتو يمارس الحبّ مع أنخِليكا وماريّا. وألبِرتو وهو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يمارس الحبّ مع كاتالينا أوهارا. وألبِرتو وهو يمارس الحبّ مع كيم فونت. وفي الثانيةِ اللاحقة، كما يقول الشاعر، تصوّرتُ أخيراً ألبِرتو يتقدّم فوق سجّادةٍ من أجساد مسحوقة، ملطّخة بالمني (بمني كانت كثافته ولونه يخدعان النظر، إذ أنّه بدا دماً وخراءً) نحو التلّ الذي كنتُ جامداً فوقه، مثل تمثال، على الرغم من أنّني كنتُ أريدُ أن أهرب بكلّ قواي، أن أنزل راكضاً على السفح المعاكس وأضيع في الصحراء.

٧ كانون الأوّل

اليوم ذهبتُ إلى مكتب عمّي وقلتها له:

- يا عمّي، أنا أعيش مع امرأة. لذلك لا أذهبُ لأنام في البيت. لكن لا أنت ولا زوجة عمّي عليكما أن تقلقا، لأنّني مستمرّ بالذهاب إلى الكلّية وأفكّر أن أحصل على الإجازة. فيما عدا ذلك أنا بخير. أفطر جُيّداً، آكلُ مرّتين في اليوم.

- بأيّ نقودٍ تُفكّر أن تعيش؟ هل وجدتَ عملاً أم أنّها هي التي تعيلك؟

أجبتهُ إنّني حتى الآن لا أعرف، وإنّ روساريو حالياً هي التي تدفع بالفعل نفقاتي وهي على كلّ حال زهيدة.

أرادَ أن يعرفَ من تكون المرأة التي كنتُ أعيش معها. فأخبرته، أراد أن يعرف ماذا تعملُ. فقلتُ له، ربّما مُجَمِّلاً قليلاً جوانبَ عملَ نادلة البار. أرادَ أن يعرف كم عمرها. بدءاً من هذه اللحظة، وبعكس إرادتي الأوّلية، صار كلّ شيء كذباً. قلتُ إنّ روساريو في الثامنة عشرة من عمرها في الوقت الذي كنت شبه متأكّدٍ من أنّ عمرها أكثر من اثنين وعشرين عاماً، ويمكن أن يكون خمسة وعشرين، وإن كنتُ

أحسب هذا على عجلة، فأنا لم أسألها عنه قط، لا يبدو لي لائقاً أن أعرف هذه المعلومة ما لم يكن بمبادرة منها.

- فقط أطلبُ منكَ ألا تصير وغداً - قال لي عمّي وناولني شيكاً بخمسة آلاف بِزو.

رجاني قبل أن أذهب أن أهتفَ لزوجة عمّي في تلك الليلة.

ذهبت إلى البنك لأصرف الشيك، رحت بعدها أطوف على بعض مكتبات المركز. أطللتُ على مقهى كيتو. للمرّة الأولى لم أجد أحداً. أكلتُ هناك وعدتُ إلى غرفة روساريو حيث بقيتُ أقرأ وأكتبُ حتى المساء. عدتُ في الليل ووجدتُ خاثينتو رِكِنا ميتاً من الضجر. أكّد لي أنّه باستثنائه ما من واقعي أحشائيّ يطلّ بأنفه على المقهى. الجميع يخشون أن يلتقوا هنا بأرتورو بِلانو، الخوف الذي في الحقيقة لا أساس له لأنّ التشيليّ لا يظهر منذ أيّام. بحسبِ رِكِنا (الذي هو الأكثر رصانة بين الواقعيين الأحشائيين)، بدأ بِلانو يطردُ المزيد من شعراء المجموعة. عوليس ليما يُحافظ على نفسه في بعد ثانٍ متعقّل، لكنّه كما يبدو يُؤيّد قرارات بِلانو. يُسمّي لي شاعرين لا أعرفهما وأنخِليكا فونت ولاورا خاورِغي وصوفيا غالبِثْ.

- طردَ ثلاثَ نساء! - صحتُ دون أن أستطيع تفادي ذلك.

على الحبل الرخو هناك موكتِزوما رودريغِث، كاتالينا أوهارا وهو نفسه. أنت، يا خاثينتو؟ بلانيو هذا الآن مشغول جدّاً بتحقيق الشهرة، يقول رِكِنا مذعناً. وأنا؟ لا، أنت لم يتكلّم عنك أحد حتى الآن، يقول رِكِنا بصوت متردِّد. أسألُهُ عن سببِ عمليّات الطرد هذه. لا يعرف. يتمسّك برأيه الأوّل: جنون عابر من أرتورو بِلانو. يوضِّح لي بعدها (على الرغم من *أنّني أعرف هذا من قبل*) أنّ بريتون اعتاد على ممارسة هذه الرياضة دون أيّ تروٍّ. بِلانو يعتقد أنّه بريتون، يقول رِكِنا. في الواقع أنّ كلّ أرباب أسرة الشعر المكسيكي يعتقدون أنّهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بريتون، يتنهّد. وماذا يقول المطرودون؟ لماذا لا يُشكّلون مجموعة جديدة؟ يضحكُ رِكِنا. غالبية المطرودين، يقول، لا يعرفون حتى أنّهم طردوا! وأولئك الذين يعرفون لا تهّمهم أبداً الواقعية الأحشائية، يمكن القول إنّ أرتورو عمل معهم معروفاً.

- وباتشو ألا يهمّه أبداً؟ والبشرة الإلهية، لا يهمه أبداً؟

- هذان يمكن أن يهمّهما. البقية فقط رفعَ عنهم ثقلاً. الآن صار باستطاعتهم أن يمضوا بأمان مع جيوش الشعراء الريفيين أو مع أزلام باث.

- يبدو لي أنَّ ما يفعله بِلانو ليس ديمقراطياً - قلتُ.

- بلى، الحقيقة الخالصة لنقل إنّه غير ديمقراطيّ جدّاً.

- علينا أن نذهب لنقابله ونقول له هذا - قلتُ.

- لا أحد يعرف أين هو. لقد اختفى هو وعوليس.

بقينا برهة نتأمّل ليل المكسيك من النافذة.

الناس في الخارج يسيرون بسرعة، منكمشين، ليس كما لو أنّهم ينتظرون عاصفة، بل كما لو أنّ العاصفة موجودة هنا. ومع ذلك لا يبدو أنّ أحداً خائف.

راح بعدها رِكِنا يتكلّمُ عن خوتشيتل وعن الابن الذي سيأتيهم. سألته ماذا سيّسميانه.

- فرانز - قال رِكِنا.

٨ كانون الأوّل

بما أنّه لم يكن عندي ما أعمله فقد قرّرتُ أن أبحث عن بِلانو وعوليس ليما في مكتبات العاصمة الفيدرالية. اكتشفتُ مكتبةَ الكتب القديمة بلينيوس الأصغر في بنوستيانو كارّانثا. مكتبة ليثاردي، في دونثِلِس. مكتبة الكتب القديمة رِبِكا نوديير، في زاوية شارع مِسونِس

مع بينو سوارِثْ. في بلينيو الأصغر كان العامل الوحيد فيها عجوزاً لم يتأخّر بعد أن اهتمّ باحتفالية بـ«بِدارِسٍ من مدرسة المكسيك» في أن غطَّ في النوم على كرسيّ موجودة بجانب كُدسٍ من الكتب، متجاهلاً إيّاي بتعالٍ، فسرقت منه مختارات *أسترومومِيكا* لِماركوس مانيليوس، الذي قدّم له ألفونسو رِيِّس، و*يوميات كاتب بلا اسم*، لكاتب ياباني من الحرب العالمية الثانية. في مكتبة ليثاردي أظنّ أنّني رأيتُ مونسيبايس. اقتربتُ دون أن ينتبه لأرى الكتاب الذي كان يتصفّحه، لكنّني حين وصلتُ إلى جانبه التفتَ، نظر إليّ بإمعان، أعتقدُ أنّه رسم ابتسامة واتجه ممسكاً الكتاب جيّداً ومخفياً عنوانه ليتكلّم مع أحد العاملين. مدفوعاً بموقفه سحبت كتاباً صغيراً لشاعر عربيّ يُدعى عمر بن الفارض، طبعته الجامعة ومختارات لشعراء أمريكيين شماليين شباب من سيتي لايتس. عندما ذهبت لم يكن مونتسيبايس موجوداً. كانت تقوم على مكتبة رِبِكا نودِيير، وهي امرأة عجوز تجاوزت الثمانين عاماً، عمياء تماماً، بلباس أبيض اللون ينسجم مع طقم أسنانها، مسلحة بعكاز، تُقَدّم نفسها، وقد استنفرتها فوراً الضجةُ، الأرضيةُ خشبية، التي أحدثها زائر المكتبة، أنا رِبِكا نودِيير، إلى آخره، لتسأل بدورها بعد ذلك عن اسم «محبّ الأدب»، الذي لها «شرف التعرّف عليه» وتستعلم عن نوع الأدب الذي يبحث عنه هذا. قلتُ لها يهمّني الشعر ولدهشتي قالت رِبِكا نودِيير إنّ كلّ الشعراء صعاليك، لكنّهم ليسوا سيّئين أبداً في السرير. خاصّة إذا كان ليس لديهم مال، قالت. ثمّ سألتني عن عمري. سبعة عشر عاماً؟ قلتُ لها. أيْ! أنت ما زلت صبياً، صاحت. ثمّ: ألا تُفكّر بأن تسرق كتاباً من كتبي؟ أكّدت لها أنني أُفضّل أن أموت قبل ذلك. بقينا نتحدث برهة وذهبتُ بعدها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٩ كانون الأوّل

مافيا أصحاب المكتبات المكسيكيين لا تختلف في شيء عن مافيا الأدباء المكسيكيين. المكتبات التي زرتها: مكتبة القبو، إنّها قبو في جادّة خوارِث حيث أخضعني العاملون (كثيرون وموحّدو الملابس تماماً) لمراقبة صارمة خرجتُ منها بديوانٍ لِروكِ دالتون وآخر للِثاما ليما وأخر لإنريكِ ليهن. مكتبة المكسيك التي يشرف عليها ثلاثة ساموارئيين في شارع أراندا. قرب ساحة سان خوان، من حيث سرقتُ كتاباً لأوتون، وكتاباً لأمادو نِربو (رائع!) وكتاباً رقيقاً جدّاً لإفراين هورِتا. مكتبة الباسيفيك في زاوية بوليفار مع السادس عشر من أيلول، من حيث سرقتُ مختارات لشعراء أمريكيين شماليين ترجمها ألبِرتو خيرّي وكتاباً لإرنِستو كاردِنال. في المساء بعد أن قرأتُ وكتبتُ وجامعتُ قليلاً، زرتُ مكتبة الكتب القديمة هوراسيو، في كورّيو ماجور، التي يقوم عليها توأمان، وخرجت منها برواية قدّيسة لغامبوَا، كي أهديها إلى روساريو، مع مختارات شعرية لكينيث فيرينج ترجمة وتقديم شخص يدعى الدكتور خوليو أنطونيو بيلا، حيث يتكلّم بطريقة أقرب إلى الإبهام ومليئة بعلامات الاستفهام حول رحلة قام بها الشاعر فيرينج إلى المكسيك في عقد الخمسينيات «رحلة شنيعة ومثمرة» يقول الدكتور بيلا، وكتاب عن البوذية كتبه مُغامر تِلِبيسا، ألبِرتو مونتِس، وبدل كتاب مونتِس كنتُ أُفضِّلُ السيرة الذاتية لبطل وزن الفراشة العالمي أدالْبِرتو رِدوندو، لكن أحد عوائق سرقة الكتب - على الأخص بالنسبة لمستجد مثلي - هو أنّ الاختيار خاضع للفرصة.

١٠ كانون الأوّل

مكتبة أوروثكو في رِفورما بين شارع أوكسفورد وبراغ: تسعة شعراء إسبان جددٌ جدّاً، *أجساد وخيرات* لِروبِرتو ديسنوس وتقرير

برودي، لِبورخِس. مكتبة ميلتون في زاوية ميلتون مع داروين: *ليلة مع هملت وقصائد أخرى* لِفلاديمير هولان، مختارات لماكس جاكوب ومختارات لجونار إيكيلوف. مكتبة العالم، في ريّو ناثاس: مختارات من قصائد بايرون، شيللي وكيتس، *أحمر وأسود* لِستاندل (كنتُ قد قرأته) و*الحكمة الموجزة* لليشتنبيرغ ترجمة ألفونسو رِيّس. في المساء وبينما كنتُ أُرتب كتبي في الغرفة، فكّرتُ بِريّس. ريّس يمكن أن يكون بيتي الصغير. بقراءتي له وحده أو للذين كان يُحبّهم يمكن للمرء أن يصبح سعيداً بشكل هائل. لكن هذا سهل أكثر من اللازم.

١١ كانون الأوّل

في السابق لم يكن لديّ وقت لشيء، والآن عندي وقتٌ لكلّ شيء. كنتُ أعيش راكباً حافلات ومترو، مُجبَراً على أن أجوب المدينة من شمالها إلى جنوبها مرّتين في اليوم على الأقل. الآن أتنقّل سيراً على قدميّ، أقرأ كثيراً، أمارسُ الحبّ يومياً. في غرفتنا المستأجرة بدأت تكبرُ مكتبة صغيرة ثمرة اختلاساتي وزياراتي للمكتبات. آخرها، مكتبة معركة الإبرو: صاحبها إسبانيّ عجوز يُدعى كريسبّين ثامورا. أعتقد أنّنا تواددنا. طبعاً المكتبة مُقفِرة معظم الوقت، ودون كريسبّين يُحب القراءة، لكنّه لا يكره أن يقضي ساعات بكاملها وهو يتكلّم عن أيّ شيء. أنا أيضاً أحتاج لأن أتكلّم. اعترفتُ له أنّني أزور مكتبات العاصمة الفيدرالية بانتظام بحثاً عن صديقين اختفيا، كانا يسرقان الكتب، لأنّهما لا يملكان المال (وعلى الفور أهداني دون كريسبّين نسخةً من يوريبديس، من منشورات بورّوَا وترجمة الأب غاريباي)، وأنّني مُعجب بألفونسو ريّس، ليس لأنّه كان يعرف اليونانية واللاتينية وحسب بل ولأنه يعرف الفرنسية والإنكليزية والألمانية، وأنّني ما عدتُ أذهب إلى الجامعة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان يستظرف كلّ الذي أحكيه له، باستثناء أنّني لا أدرس، فامتلاك شهادة ضروري. الشعر يحدث عنده عدم ثقة. عندما وضّحتُ له أنّني شاعر قال إنّ عدم الثقة ليست في الحقيقة الكلمة الدقيقة وإنّه تعرّف على بعضهم. أراد أن يقرأ بعض قصائدي. عندما جئته بها لاحظت أنّه ارتبك، لكنّه بعد انتهائه من القراءة لم يقل شيئاً. فقط سألني لماذا أستخدم هذا الكم من الكلمات النابية. ماذا تعني، يا دون كريسبّين؟ سألته. التجديف، البذاءات، الشتائم والسباب. آه، حسن يجب أن يكون هذا بسبب طبعي... عندما ذهبت في ذلك المساء أهداني دون كريسبّين *أوكنوس* لثِرنودا ورجاني أن أدرس ذلك الشاعر، الذي كان أيضاً يحمل في طبعِهِ ألف شيطان.

١٢ كانون الأوّل

بعد أن رافقتُ روساريو حتى أبواب بار إنكروثيخادا بِراكروثانا (كلّ النادلات، بمن فيهنّ بريخيدا يسلمن عليّ بحرارة، كما لو أنّني صرت واحداً من الجماعة أو الأسرة، جميعهنّ مقتنعات بأنّني سأصبح شخصاً مهمّاً في الأدب المكسيكي)، قادتني خطواتي دون تخطيطٍ مسبق حتى ريّو دِ لا لوثا، حتى فندق مِديا لونا حيث تنزل لوبٍّ.

في الاستقبال وهو نوع من الصندوق الكبير المغطى بورق جدران عليه أزهار ووعول دامية وأكثر شؤماً مما كنتُ أتذكّر. رجل ربع القامة، عريض المنكبين وكبير الرأس قال لي إنّه ما من أحد يُدعى لوبٍّ ينزل هناك. طلبتُ أن أرى السجلَّ. قال لي عامل الاستقبال إنّ ذلك غير ممكن، وإن السجلَّ شيء سرّي بالمطلق. تذرّعت بأنّ الأمر يتعلّق بأختي، المفصولة عن صهري وإنّني جئت بالضبط كي أعطيها نقوداً كي تسدّد أجرة الفندق. يبدو أنّ لعامل الاستقبال أختاً ظروفها مشابهة، فقد صار على الفور أكثر تفهّماً.

- هل أختك سمراء نحيلة جدّاً تسمى لوبِّ؟
- هي ذاتها.
- انتظر قليلاً كي أناديها.

بينما كان عامل الاستقبال يصعد للبحث عنها رحتُ أنظر في السجلّ. ليلة الثلاثين من تشرين الثاني دخلت امرأة تُدعى غوادالوبّ مارتينِث. أيضاً نزلت في اليوم ذاته واحدة تُدعى سوسانا ألِخاندر تورِّس، وشخص اسمه خوان أبّاريثيو وماريّا دِل مار خيمِنِثْ. فكّرتُ، تقودني غريزتي أنّ سوسانا ألِخاندرا تورّس هي لوبّ التي كنتُ أبحثُ عنها وليست غوادالوبِّ مارتينِث. قرّرتُ ألا أنتظر حتى ينزل عامل الاستقبال. صعدتُ السلمَ كلّ ثلاث درجاتٍ بقفزة واحدة إلى الطابق الثاني، الغرفة ٢٠١، حيث تنزل سوسانا ألِخاندرا تورِّس.

قرعتُ البابَ مرّةً واحدة. سمعت وقع خطوات، همهمة ومزيداً من الخطوات وأخيراً فُتح البابُ ووجدتُ نفسي وجهاً لوجهٍ مع لوبِّ.

كانت المرّة الأولى التي أراها مزيَّنة جدّاً. كانت شفتاها مطليتان بأحمر غامق، وأهدابها بالأسود، وخداها بالأرجواني. عرفتني فوراً:

- صديق ماريّا - صاحت بفرح مخفيّ.

- دعيني أدخل - قلتُ. نظرت لوبِّ إلى الخلف ثمّ فتحت لي الباب. كانت الغرفة فوضى من الثياب النسائية المبعثرة في أكثر الزوايا استثناء.

- عرفتُ على الفور أنّنا لم نكن وحدنا. كانت لوبِّ ترتدي دثار نوم أخضر وتُدخّن دون توقّف. سمعتُ جلبةً في الحمّام. نظرت إليّ لوبِّ ثم إلى باب الحمّام المشقوق قليلاً. افترضتُ أنّه زبون. لكنّني عندئذٍ رأيتُ ورقة عليها رسوم، مشروع مجلة الواقعية الأحشائية الجديدة فملأني الاكتشاف بالذعر. فكّرت بطريقة غير منطقيّة بما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يكفي، أنّ ماريّا في الحمّام، فكّرتُ أنّ أنخِليكا في الحمّام، لم أعرف كيف سأُبرّر وجودي في فندق مِديا لونا أمامهما.

- صار باستطاعتك أن تخرج، إنّه صديق ابنتك - صاحت.

فُتِح بابُ الحمّام وظهر كيم فونت بدثار حمام أبيض. كانت عيناه دامعتين وبقايا قلم أحمر شفاه على وجهه. حيّاني بلطف. كان يحمل في يدِهِ ورّاقة مشروع المجلة.

- ها أنت ترى، يا غارثيّا مادِرو، دائماً أعمل، دائماً مفتوح العينين.

سألني بعدها عمّا إذا كنتُ قد مررتُ ببيته.

- اليوم لم أذهب - قلتُ وعدتُ لأُفكِّر بماريّا وبدا لي كلّ شيءٍ متسخاً وحزيناً بشكلٍ غير مُحتَمل.

جلسنا ثلاثتنا على السرير، كيم وأنا على حافّته ولوبّ تحت الملاحف.

كان الوضع الممعن به جيّداً لا يمكن الدفاع عنه!

كان كيم يبتسمُ. لوبّ تبتسمُ وأنا أبتسم ولا أحد منّا يجرؤ أن يقولَ شيئاً. لو رآنا مجهول لظنّ أنّنا هناك كي نُمارس الحبّ. كانت الفكرة مُروِّعة. مجرّد التفكير بذلك جعلني أشعر بِوَجيفٍ في بطني. بقي كيم ولوبّ يبتسمان. ولكي أقول شيئاً تكلّمتُ عن التطهير الذي يقوم بهِ بِلانو في صفوف الواقعيّة الأحشائية.

- حانت الساعة - قال كيم -، يجب طرد الوصوليين وغير الجديرين. يجب ألا يبقى غير الأرواح النقيّة مثلك، يا غارثيّا مادِرو.

- هذا صحيح - اعترفتِ -، لكنّني أيضاً أعتقد أنّنا كلّما كثرنا كلّما كان أفضل.

- لا، العدد وهم. يا غارثيّا مادِرو.

- بالنسبة للحالة التي تشغلنا، سيّان كنّا خمسة أو خمسين. سبق

وقلتُ ذلك لأرتورو. يجب قطع الرؤوس. تقليص الدائرة الداخلية حتى تصير نقطة مجهرية.

بدا لي أنّه يهذي فلم أقل شيئاً.

- أين كنّا سنصل مع وغد مثل بانتشو رودريغِث، قلْ لي أنت؟

- لا أدري - قلتُ.

- ترى هل يبدو لكَ شاعراً جيّداً؟ هل يبدو لك نموذجاً للفنان الطليعي المكسيكي؟

لم تكن لوبِّ تفتح فمها. فقط كانت تنظرُ إلينا وتبتسم. سألتُ كيم عمّا إذا كان يعرف شيئاً عن ألبِرتو.

- نحن قليلون وسنصبح أقل - قال كيم بغموض. لم أعرف ما إذا كان يُشير إلى ألبِرتو أم إلى الواقعيين الأحشائيين.

- أيضاً طردوا أنخِليكا - قلتُ.

- ابنتي أنخِليكا؟ عجباً. هذا فعلاً خبرٌ، يا رجل، لم يكن عندي أدنى فكرة. ومتى حدث هذا؟

- لا أدري، حكاه لي خاثينتو رِكِنا - قلتُ.

- شاعرة فازت بجائزة لاورا داميان! حقيقة، هذا يحتاج إلى جرأة! لا أقول هذا لأنّها ابنتي!

- لماذا لا نخرج لنقوم بجولة؟ - قالت لوبِّ.

- اسكتي، يا لوبّيتا، فأنا أُفكّر.

- لا تَكُنْ ثقيلاً، يا خواكين، أنت لا تسكتني، لستُ ابنتك، اتفقنا؟

ضحك كيم بصمت، ضحكةَ أرنب بالكاد كدّرت عضلات وجهه.

- طبعاً لستِ ابنتي. أنتِ غير قادرة على أن تكتبي ثلاث كلمات دون خطأٍ إملائيّ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لولا قليل لاعتقدتَ أنّني جاهلة، يا وغد. طبعاً أنا قادرة.

- لا، لستِ قادرة - قال كيم وهو يقوم بجهد خارق كي يُفكّر. ارتسمت على وجهه حركة ألم ذكّرتني بتلك التي رأيتها على وجه بانتشو رودريغث في مقهى أمريّو.

- هيّا، اختبرني.

- ما كان عليهم أن يفعلوا هذا مع أنخِليكا. هؤلاء الأوغاد يلعبون بأحاسيس الغير بطريقة تُصيبني بالدوار. علينا أن نأكل شيئاً. أنا دائخ - قال كيم.

- لا تكن وقحاً وامتحنّي.

- ربّما بالغ رِكِنا، ربّما أنّ أنخِليكا طلبت انسحابها بإرادتها. بما أنّهم طردوا بانتشو...

- بانتشو، بانتشو، بانتشو. ابن العاهرة هذا لا وجود له. ليس أحداً. أنخِليكا لا يهمّها قيد شعرة أن يطردوه، أن يقتلوه أو يمنحوه جائزة. إنه من نوع ألبِرتو - يُضيف بصوت خافت وهو يشير برأسه إلى لوبِّ.

- لا تكن هكذا، يا كيم، فأنا قلت هذا لأنّهما كانا خطيبين، أليس صحيحاً؟

- ماذا تقول، يا كيم.

- لا شيء مما يهمّك.

- امتحنّي إذن، يا ولد، من تظنّني؟

- جذر - قال كيم.

- هذا سهل، أعطِني ورقةً وقلماً.

- اقتلعت ورقة من دفتري وناولتها لها مع قلم البيك.

- بكيتُ كثيراً - قال كيم بينما لوبِّ تستوي في السرير، مرفوعة الركبتين وتسند الورقة عليهما-، كثيراً ودون جدوى.

- يجب أن يُسوى كلّ شيء - قلتُ.

- هل قرأت ذات مرّة لِلاورا داميان - سألني شارد الذهن.

- لا ، أبداً.

- هي ذي، لننظر النتيجة - قالت لوبِّ وهي تُريه الورقة. قطّب كيم جبينه وقال: عاديّ - أملِ عليّ أخرى، لكن لتكن هذه المرّة صعبة.

- ضيق - قال كيم.

- ضيق؟ هذه سهلة.

- عليّ أن أتكلّم مع ابنتيَّ - قال كيم - عليّ أن أتكلّم مع زوجتي، مع زملائي، مع أصدقائي. عليّ أن أفعل شيئاً، يا غارثيّا مادِرو.

- خُذ الأمر بتروٍّ، أمامك وقت، يا كيم.

- اسمع، ولا كلمة من هذا لماريّا، مفهوم؟

- بيني وبينك، يا كيم.

- كيف هي النتيجة؟ - سألت لوبِّ

- ممتازة، يا غارثيّا مادِرو، كما يجب أن يكون. سأهديك كتاب لاورا داميان لاحقاً.

- ما رأيك، هه؟ - أرتني لوبِّ الورقة. كانت قد كتبت كلمة ضيق بشكل ممتاز.

- مستحيل أن تكون أفضل - قلتُ.

- قذرة - قال كيم.

- هل تأمرني؟

- اكتبي كلمة قذرة - قال كيم.

- يا ويلتاه، هذه فعلاً صعبة - قالت لوبِّ وبدأت تكتب على الفور.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لا شيء من هذا، إذن ولا كلمة لابنتيّ، يا غارثيّا مادِرو.

- طبعاً - قلتُ

- الآن الأفضل لك أن تذهب. سأبقى برهة أعطي دروس لغة إسبانية لهذه الأتان وبعدها سأبدأ بدوري التحرّك.

- حسن، يا كيم، إذن هناك نلتقي.

عندما نهضتُ تحرّك السرير وتمتمتْ لوبِّ بشيء، دون أن ترفعَ عينيها عن الورقة التي كانت تكتبُ عليها. رأيت زوجاً من التشطيبات. كانت تبذل جهداً.

- إذا رأيتَ أرتورو أو عوليس قُلْ لهما إنّ ما فعلاه ليس لائقاً.

- إذا رأيتُهما - قلتُ وأنا أهزّ كتفيِّ.

- ليست طريقة لكسب الأصدقاء ولا للاحتفاظ بهم

تظاهرت كما لو أنّني أضحك.

- هل أنت بحاجة لنقود، يا غارثيّا مادِرو؟

- لا، يا كيم، أبداً، شكراً.

- تعرف أنّك تستطيع أن تعتمد عليّ؟ أنا كنتُ أيضاً شابّاً وطائشاً. والآن اذهبْ ونحن سنرتدي ملابسنا بعد برهة وسنخرج لنأكل شيئاً.

- قلمي - قلتُ.

- ماذا؟ - سأل كيم.

- أنا ذاهب، أريدُ قلمي.

- اتركْها تُكمِل - قال كيم وهو ينظرُ إلى لوبِّ من فوق كتفها.

- لنر، كيف هي النتيجة - قالت لوبّ

- أخطأت بكتابتها - قال كيم - عليّ أن أجلدك بضع جلدات.

فكّرتُ بكلمةِ قذر. أعتقد أنّني أنا نفسي ما كنتُ لأعرف كتابتها

جيّداً من أوّل مرّة. نهض كيم وذهب إلى الحمّام. وحين عاد جاء معه بقلم أسودَ وذهبيّ. غمزني بعينه.

- أعيدي إليه القلم واكتبي بهذا - قال.

أعادت لوبِّ إليَّ قلمَ البيك. وداعاً قلتُ لها. لم تردّ على سلامي.

١٣ كانون الأوّل

هتفتُ لماريّا. تكلّمتُ مع الخادمة. الآنسة ماريّا غير موجودة. متى تعود؟ ليس عندي أدنى فكرة، من قبل من؟ لم أبغِ أن أعطيها اسمي وأغلقتُ. ذهبت إلى مقهى كيتو لأرى ما إذا كان سيظهر أحد هناك، لكن دون جدوى. عدتُ لأهتف لماريّا. لا أحد ردّ على الهاتف. رحتُ أسير حتى مونتِسْ حيث يعيش خاثينتو. لم يكن هناك أحد. أكلتُ عجّة في الشارع وأنهيتُ قصيدتين بدأتُهما البارحة. مكالمة جديدة إلى بيت عائلة فونت. ردَّ هذه المرّة صوت امرأة لا يمكن تحديد هويته. سألتُ عمّا إذا كانت السيّدة فونت.

-لا، لستُ هي - قال الصوت بنبرة أوقفت شعر بدني.

طبعاً لم يكن صوت ماريّا. أيضاً لم يكن صوت الخادمة، التي كلّمتُها قبل قليل. لم يبقَ غير أنخِليكا أو امرأة غريبة، ربّما كانت صديقة إحدى الأختين.

- حسن، مع من أتكلّم؟

- مع من تُريد أن تتكلّم؟ قال الصوتُ.

- مع ماريّا أو أنخِليكا - قلتُ وأنا أشعر بنفسي تافهاً وخائفاً.

- أنا أنخِليكا - قال الصوتُ -. مع من أتكلّم؟

- مع خوان - قلتُ.

- كيف حالك، يا خوان. كيف أنت؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لا يمكن أن تكون أنخِليكا، فكَّرتُ، مستحيل بالمطلق. لكنّني أيضاً فكّرتُ أنّ الجميع في ذلك البيت مجانين وأنّها بالفعل يمكن أن تكون هي.

- بخير - قلت مرتجفاً -. هل ماريّا موجودة؟

- لا - قال الصوت.

- حسن، سأعود لأهتف لها - قلتُ.

- هل تريد أن تترك لها رسالة؟

- لا! - قلتُ وأغلقتُ.

- أخذتُ حرارتي بيدي. لا بدّ أنّ بي حرارة. رغبتُ في تلك اللحظة أن أكون مع عمّيّ، في بيتي، أدرس أو أشاهد التلفزيون، لكنّني أدركتْ أن لا عودة إلى الوراء، وأنه ليس لي غير روساريو وغرفة روساريو المستأجرة.

أعتقد أنّني رحتُ أبكي دون أن أنتبه. سرتُ دون وجهةٍ في شوارع العاصمة الفيدرالية وحين أردت أن أستدلّ وجدتُ نفسي وسط شوارع مقفرة من حيٍّ أناهواك، بين شُجيرات مُحتَضَرة وجدران مقشورة. دخلت إلى مقهى في شارع تِخْكوكو وطلبتُ فنجانَ قهوة بالحليب. قدّموه لي فاتراً. لا أعرف كم بقيت هناك.

حين خرجت كان قد حلّ الليل.

هتفتُ من هاتف آخر إلى بيت الأختين فونت. ردّ صوت المرأة ذاته.

- مرحباً، يا أنخِليكا. أنا خوان غارثيّا مادِرو - قلتُ

- أهلاً - قال الصوتُ.

شعرتُ بالغثيان. في الشارع بضعة أطفال يلعبون بكرة القدم.

- رأيت أباكِ - قلتُ -. كان مع لوبِّ.

- ماذا؟

- في الفندق حيث وضعنا لوبِّ. كان أبوك هناك.

- ماذا كان يفعل هناك؟ - صوت بلا نبرات، كما لو أنّه يتكلّم مع القمر، فكّرتُ.

- كان يُرافقها - قلتُ.

- هل وضع لوبِّ جيّد؟

- مثل وردة - قلتُ -. من لا يبدو في وضع جيّد هو أبوك. يبدو لي أنّه بكى، على الرغم من أنّه تحسّن عندما وصلتُ.

- هاهه - قال الصوتُ -. ولماذا سيبكي؟

- لا أعرف - قلتُ -. ربّما ندماً. أو خجلاً. طلب منّي ألاّ أقوله لك.

- ألاّ تقول لي ماذا؟

- أنّني رأيته هناك.

- أه - قال الصوتُ.

- متى ستصل ماريّا؟ هل تعرفين أين هي؟

- في مدرسة الرقص - قال الصوت -. وأنا كنتُ ذاهبة الآن.

- إلى أين؟

- إلى الجامعة.

- إذن وداعاً.

- وداعاً - قال الصوتُ.

عدت لأسير حتى سوِّبان. عندما كنتُ أعبر رِفورما عند تمثال كواهتِموك، سمعتهم ينادونني.

- ارفع يديك، أيّها الشاعر غارثيّا مادِرو.

عندما التفتُ رأيت أرتورو بِلانو وعوليس ليما فدختُ.

عندما استيقظتُ كنتُ في غرفة روساريو، نائماً مع عوليس وأرتورو كلّ على جانب من السرير يُحاولان عبثاً أن يسقياني مغلياً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حضّراه لي توّاً. سألتهما ما الذي جرى، فقالا لي أنّه أُغمي عليّ وتقيّاتُ ورحتُ أقولُ أشياء غير مترابطة. كلّمتُهما عن مكالمتي الهاتفية مع بيت الأختين فونت. قلتُ لهما هذا ما أمرضني. في البداية لم يُصدّقاني، بعدها أصغيا بانتباه إلى رواية مُفَصّلة عن مغامراتي الأخيرة فصدّقا.

بحسبهما المشكلة تكمن في أنّها لم تكن أنخِليكا الشخص الذي تكلّمتُ معه.

- ثمّ إنّك كنتَ تعرفُ ذلك، يا غارثيّا مادِرو، لذلك مرضت - قال أرتورو - من التأثر المريع!

- ما الذي كنتُ أعرفه.

- أنّها أخرى وليست أنخِليكا - قال عوليس.

- لا، لم أكن أعرف - قلتُ.

- في لا وعيِك، نعم - قال أرتورو.

- إذن من كانت؟

ضحك أرتورو وعوليس.

- في الحقيقة الحلّ سهل جدّاً ومضحك.

- لا تُهدّدني أكثر وقل ما عندك - قلتُ.

- فكّر قليلاً - قال أرتورو -. لترَ، استخدم رأسك، هل كانت أنخِليكا؟ طبعاً لا. هل كانت ماريّا؟ أقل احتمالاً. من يبقى. الخادمة، لكنّها في الساعة التي هتفت فيها ليست في البيت ثم إنّك تكلّمت معها قبل ذلك وكنت ستعرف صوتها، أليس صحيحاً؟

- صحيح-قلتُ-. بالتأكيد ليست الخادمة.

- من بقي؟ - يسأل عوليس.

- أمّ ماريّا وخورخيتو.

- لا أظنّ أنّه كان خورخيتو، أليس كذلك؟

- لا، لا يمكن أن يكون خورخيتو - اعترفتُ.

- وهل تتصوّر ماريّا كريستينا تقوم بهذه المسرحيّة؟

- هل ماريّا كريستينا هو اسم أمّ ماريّا؟

- هذا هو اسمها - قال عوليس.

- لا، الحقيقة هي أنّها ليست هي، إذن من؟ لم يبقَ أحد.

- أحد مجنون بما يكفي كي يُقلّدَ صوت أنخِليكا - قال أرتورو ونظر إليَّ-. الشخص الوحيد في ذلك البيت القادر على أن يمزح مزحة مزعجة. تأملتهما بينما راح الجواب يتشكّل شيئاً فشيئاً في رأسي.

- فكّرْ... فكّرْ... - قال عواليس

- كيم - قلتُ.

- لا يوجد آخر - قال أرتورو.

- يا له من ابن عاهرة!

تذكّرت بعدها قصّة الأصم الأبكم التي حكاها لي كيم وفكّرتُ بالذين يسيئون معاملة الأطفال وكانوا في طفولتهم أطفالاً أسيئت معاملتهم. على الرغم من أنّني وأنا أكتبُ الآن لا أنجح في رؤية علاقة السبب-النتيجة بين الأصم الأبكم وبين تبديل كيم لشخصيته بالوضوح الذي كنت أراها به وقتذاك. خرجتُ بعدها إلى الشارع وقد صرتُ وحشاً ضارياً وأنفقت عدة قطع نقدية في مكالمات غير مجدية إلى بيت ماريّا. تكلّمتُ مع أمّها، مع الخادمة، مع خورخيتو وفي آخر ساعة من الليل مع أنخِليكا (هذه المرّة، أنخِليكا الحقيقيّة)، لكن ماريّا لم تكن موجودة أبداً، وكيم لم يبغِ أن يأخذ الهاتف في أيّ مناسبة.

رافقني بِلانو وعوليس برهة. بينما أقوم بالمكالمات الهاتفية الأولى أعطيتهما قصائدي ليقرأاها. قالا إنّها لم تكن سيّئة. عمليّة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تطهير الواقعية الأحشائية كانت مجرّد مزحة، قال عوليس. لكن هل يعلم المَطَّهرون أنّ الأمر لا يتعدى ذلك؟ طبعاً لا، لو كان كذلك لما كان لها أي ظرافة، قال أرتورو. إذا ما من أحد طُرد؟ طبعاً لا. وأنتما ماذا كنتما تفعلان خلال كلّ هذا الوقت؟ لا شيء، قال عوليس.

- هناك ابن عاهرة يريد أن يضربَنا - اعترفا فيما بعد.

- لكن أنتما اثنان وهو واحد فقط.

- لكنّنا لسنا عنيفَيْن، يا غارثيّا مادِرو - قال عوليس -. على الأقل أنا وأرتورو أيضاً الآن.

في الليل بين مكالمة ومكالمة إلى بيت الأختين فونت، التقيت مع خاثينتو رِكِنا ورافائيل بارّيوس في مقهى كيتو. حكيتُ لهما ما قاله لي بِلانو وعوليس. يبدو أنّهما يُحقّقان في أشياء لِثِساريا تيناخِرو، قالا.

١٤ كانون الأوّل

لا أحد يمنح الواقعيين الأحشائيين شيئاً. لا منح ولا فضاءات في مجلاتهم ولا حتى دعوات للذهاب لتقديم كتبهم أو إقامة أمسياتهم.

إذا كان سيمون يعني نعم ونِل تعني لا، فماذا تعني سيمونِل؟

لا أشعر اليوم بأنّني بخير.

١٥ كانون الأوّل

لا يُحبّ كريسبّين ثامورا أن يتكلّم عن الحربِ الإسبانية. سألته وقتها عن السبب الذي لأجله سمّى مكتبته باسم يستدعي للذاكرة أعمالاً عسكرية. اعترف أنّه لم يسمها هو بل المالك السابق، وهو

كولونيل من الجمهورية نال المجد في تلك المعركة. أكتشفُ في كلمات كريسبّين لمسة سخرية. أكلّمه بناء على طلبه عن الواقعية الأحشائية. بعد أن قام ببعض الملاحظات من نوع: «الواقعية لا تكون أبداً أحشائيّة»، «الأحشائيّ ينتمي إلى عالم الأحلام» إلخ. التي كانت تشوّشني أكثر من أيّ شيء آخر، يرى أنّه لم يبقَ لنا نحن الفتية الفقراء غير الطليعة الأدبيّة. أسأله إلى ما يشير بالضبط بعبارة «الفتية الفقراء». أنا تحديداً لست نموذج «الفتى الفقير». على الأقل في العاصمة الفيدرالية. لكنّني أُفكّر بعدها بالغرفة المستأجرة التي تشاركني فيها روساريو وخلافي الأوّلي يبدأ يتلاشى. المشكلة مع الأدب، كما مع الحياة، يقول دون كريسبّين هي أنّ المرء ينتهي دائماً إلى ديوث. حتى هنا كان لديّ انطباع بأنّ دون كريسبّين يتكلّم لمجرّد الكلام. عمليّاً أنا كنتُ جالساً على كرسيّ بينما هو لا يتوقّف عن الحركة يبدّل أماكن الكتب أو يزيل الغبار عن أكداس المجلات. ومع ذلك التفت دون كريسبّين ذات لحظة وسألني كم سأقبض منه مقابل أن أنام معه. رأيتُ أنّك لست زائد الوزن ولذلك تجرّأت على أن أطرح عليك هذا الاقتراح. تجمّدتُ.

- لقد أخطأت، يا دون كريسبّين - قلتُ.

- يا رجل، لا تأخذها على مأخذ السوء، أعرف أنّني عجوز لهذا أقترح عليك صفقة، لنقل تعويضاً.

- هل أنتَ مثليّ، يا دون كريسبّين؟

ما إن صغتُ السؤال حتى عرفت أنّه كان سؤالاً تافهاً فاحمررتُ خجلاً. لم أنتظر جوابه. هل ظننتني مثليّاً؟ سألته ألستَ مثليّ؟ سأل دون كريسبّين.

- أي، أيْ، أي، يا لها من ورطة، يا إلهي، اعذرني، يا رجل - قال دون كريسبّين وراح يضحك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تبخّرت رغتني بالخروج هارباً من مكتبة معركة الإبرو التي مررتُ بها في البداية. طلب دون كريسبّين مني أن أترك له الكرسيّ، لأنّ الضحكة يمكن أن تُسبّب له نوبة قلبية. حين هدأ، بين اعتذارات متجدّدة، طلب منّي أن أتفهّمه، وقال إنّه مثليّ خجول (كيلا أتكلّم عن عمري، يا خوانيتو!) وإنّه فقد كلَّ الممارسة في فنّ الارتباط الصعب إن لم نقل الغامض. عليك أن تُفكِّر، ومعك حق، أنّني حمار، قال. اعترف لي بعد ذلك أنّه منذ خمس سنوات لم ينم مع أحدٍ. ثمّ وقبل أن أغادر أهداني كتعويض عن الإزعاجات، الأعمالَ الكاملة لسوفوكليس وإسكيلوس من منشورات بورّوَا، لكنّه بدا لي من التهوّر ألاّ أقبل هديّته. الحياة خراء.

١٦ كانون الأوّل

مرضتُ حقيقةً. أجبرتني روساريو على ملازمة الفراش. وخرجتْ قبل أن تذهب إلى العمل لتستعير ترمساً من جارة لها وتركت لي نصف لتر قهوة. وأربع حبات أسبرين أيضاً. بي حرارة. بدأتُ وأنهيتُ قصيدتين.

١٧ كانون الأوّل

اليوم جاء طبيب لزيارتي. نظر إلى الغرفة، نظر إلى كتبي ثمّ أخذ ضغطي ولمسني في مناطق مختلفة من جسمي. راح بعدها يتكلّم في زاويةٍ همساً مع روساريو، محرّكاً كتفيه كي يمنح كلماته قوّة أكبر. حين ذهب سألت روساريو كيف كان أن جاءت بطبيب قبل أن تستشيرني. كم أنفقت؟ هذا لا يهمّ، يا صديقي، المهمّ هو أنت فقط.

١٨ كانون الأوّل

كنتُ أرتعش هذا المساء من الحمّى حين انفتح الباب وظهرت زوجة عمّي يتبعها عمّي تليهما روساريو. ظننتُ أنّني أهذي. ارتمت زوجة عمّي على السرير حيث غطّتني بالقبل. بقي عمّي ثابتاً، انتظر حتى فرّجت عن نفسها ليربت بعدها على كتفي. لم يتأخّر في إطلاق التهديدات والتوبيخ والنصائح. بكلمة واحدة أرادا أن أذهب معهما إلى البيت فوراً أو إلى مشفى حيث كانا يريدان أن يُخضعاني لفحوصات صارمة. رفضتُ. بعدها جاءت التهديدات وحين ذهبا ضحكتُ بصوت عالٍ وراحت روساريو تبكي كمجدلية.

١٩ كانون الأوّل

جاء لزيارتي في ساعات النهار الأولى رِكِنا وخوتشيتل ورافائيل بارّيوس وباربارا باتِرسون. سألتهم من أعطاهم عنواني فقالا عوليس وأرتورو. يعني أنّهما ظهرا، قلتُ. ظهرا وعادا ليختفيا قالت خوتشيتل. إنّهما ينهيان مختارات لشعراء مكسيكيين شباب، قال بارّيوس. ضحك رِكِنا. لم يكن صحيحاً برأيه. مؤسف: للحظة شعرتُ بنفسي مؤمَّلاً بأن تُضَمّن نصوصٌ لي في تلك المختارات. ما يفعلانه هو أنّهما يجمعان نقوداً كي يرحلا إلى أوروبا، قال رِكِنا. يجمعان؟ من خلال بيع المخدرات يمنة ويسرة، قال رِكِنا. منذ أيام رأيتهما في رِفورما مع حقيبة ظهر مليئة بالغولدِن أكابولكو[١]. لا يمكن أن أُصَدّق، قلتُ أنا، لكنّني تذكّرت أنّني في آخر يوم رأيتهما فيه كانا يحملان بالفعل حقيبة ظهر. أعطوني قليلاً، قال خاثينتو، وأخرج بعض الحشيش. قالت خوتشيتل أنّه لا يناسبني أن أدخّن في

---

(١) Golden Acapulco قنّب هندي ينتج في تلك المنطقة من المكسيك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الوضع الذي كنتُ فيه. قلت لها ألا تهتمّ فأنا أشعر بنفسي أفضل بكثير. أنتِ من يجب ألاّ تُدخِّني، قال خاثينتو، إذا كنت لا تريدين أن يأتي ابننا معتوهاً. قالت خوتشيتل إن الماريجوانا ليس فيها ما يضرّ بالجنين. لا تُدَخّني، يا خوتشيتل، قال رِكِنا. ما يؤثّر على الجنين هي الموجات السيئة، قالت خوتشيتل، الطعام السيّئ، الكحول، معاملة الأمّ السيّئة وليس الماريجوانا. لكن تَحَسُّباً لا تُدخّني، قال رِكِنا. إذا كانت تريد أن تُدخّن فلتُدخِّن، قالت باربارا باتِرسون. لا تتدخّلي، أيتها الأمريكية اللعينة، قال بارّيوس. بعد أن تلدي افعلي ما تريدين، لكن الآن تحملي الآن، قال رِكِنا. بينما نحن ندخّن راحت خوتشيتل لتجلس في زاوية من الغرفة بجانب علب كرتون حيث كانت تضع روساريو الثياب التي لا تستخدمها. أرتورو وعوليس لا يوفّران نقوداً، قالت (وإن كانا يجمعان احتياطاً صغيراً، لماذا سنُنكر ذلك) بل يضعان اللمسات الأخيرة لمسألة ستُذهل الجميع. نظرنا إليها منتظرين مزيداً من الأخبار. لكن خوتشيتل لزمت الصمت.

٢٠ كانون الأوّل

هذه الليلة جامعت روساريو ثلاث مرّات. تعافيتُ. ومع ذلك ما زلتُ أتناولُ الأدوية التي اشترتها كي أرضيها أكثر من أيّ شيء آخر.

٢١ كانون الأوّل

لا جديد. يبدو أنّ الحياة قد توقّفت. في كلّ يوم أمارس الحبّ مع روساريو. حين تذهب هي إلى العمل أكتبُ وأقرأ. أخرج ليلاً لأقومَ بجولة على بارات بوكارِلي. أمرّ أحياناً على إنكروثيخادا فأكون أوّل من تعتني به النادلاتُ. تعودُ روساريو في الرابعة صباحاً عندما

تكون نوبتها ليلاً) فنأكلُ شيئاً خفيفاً في غرفتنا، عادة ما تكون أشياء تأتي بها هي جاهزة من البار. نمارس بعدها الحبّ حتى تنام وأشرع أنا بالكتابة.

٢٢ كانون الأوّل

خرجت اليوم باكراً لأقوم بجولة. كان قصدي الأوّل أن أوجّه خطواتي إلى مكتبة معركة الإيبرو وأتحدّث حتى ساعة الغداء مع كريسبّين، لكنّني عندما وصلتُ كانت المكتبة مُغلقة. وهكذا رحتُ أسير على غير هدى مستمتعاً بشمسِ الصباح، ووصلت دون أن أكاد أنتبه إلى شارع مِسونِس، حيث مكتبة رِبِكا نوديير. على الرغم من أنّني في زيارتي الأولى استبعدتُ تلك المكتبة كهدف مهم، دخلتُ. لم يكن هناك من أحد. هواء فاسد ودبِق كان يلفّ الكتبَ والرفوف. شعرت بأصوات تأتي من الغرفة الخلفيّة لذلك استنتجت أنّ العمياء منهمكة في حلّ صفقة ما. قرّرتُ أن أنتظرَ متصفحاً الكتب القديمة. هناك كانت *إيفيجينيا القاسية* و*المخطط المنحرف* و*الصور الواقعية والمُتخيّلة*. إضافة إلى مجلّدات *الاستظراف* و*الاختلاف* لألفونسو ريّيس، ونثر متفرّق لخوليو تورّي وكتاب قصصٍ، *نساء*، لرجل يدعى إدواردو كولين الذي لم أسمع أحداً يتكلّم عنه قط، ولي-بو *وقصائد أخرى* لِتابلادو، واثنتا *عشرة قصيدة بيروقراطية* و*أغنية رجعية* لرِناتو لِدوك *الحوادث اللطيفة للعالم اللاعقلاني* لِخوان دِ لا كابادا و*الله على الأرض* و*الأيام الأرضية* لِخوسِهْ رِيبولْتاس. سرعان ما تعبتُ وجلستُ على كرسيّ خيزران. كنتُ قد جلستُ للتوّ حين سمعت صرخة. أوّل ما فكّرتُ به هو أنّهم يهاجمون رِبِكا نوديير فانطلقتُ دون تروّ نحو داخل المكتبة. خلف الباب كانت تنتظرني مفاجأة: عوليس ليما وأرتورو بِلانو يراجعان فوق طاولة كتالوجاً قديماً، وحين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

داهمتُ الغرفة رفعا رأسيهما ورأيتهما لأوّل مرّة مفاجَأَيْن حقيقةً. إلى جانبهما رِبِكا تنظر إلى السقف المستعار في وضعيّة تأمّلية أو استلهامية. لم يحدث لها شيء. كانت هي من صرخت، لكن ليس خوفاً بل دهشة.

٢٣ كانون الأوّل

اليوم لم يحدث شيء. وإذا حدث شيء فمن الأفضل السكوت عليه، فأنا لم أفهمه.

٢٤ كانون الأوّل

عيد ميلاد مشين. هتفتُ لماريّا. أخيراً استطعتُ أن أتكلّم معها! حكيتُ له موضوع لوبِّ وقالت إنّها تعرف كلّ شيء. ما الذي تعرفينه، سألتُها.

- أنّها تركت قوّادَها وتفرّغت أخيراً للدراسة في مدرسة الرقص - قالت.

- هل تعرفين أين تعيش؟

- في فندق - قالت ماريّا.

- هل تعرفين في أيّ فندق؟

- طبعاً أعرف. في لا مِديا لونا. أذهب لزيارتها كلَّ مساء، المسكينة وحيدة تماماً.

- لا، ليست وحيدة تماماً، والدك يأخذ على عاتقه مرافقتها - قلتُ

- والدي قدّيس ويتخلّى عن جلده من أجل صبية حقيرين مثلك - قالت.

أردتُ أن أعرف ماذا كانت تعني بجملة «يتخلّى عن جلده».

- لا شيء. قولي لي أيّ خراء تريدين أن تقولي!

- لا تصرخ - قالت هي.

- أريد أن أعرف أين أنا! أريدُ أن أعرف مع من أتكلّم!

- لا تصرخ - أصرّت هي.

بعدها قالت إنّ عندها ما تعمله وأغلقت.

٢٥ كانون الأوّل

قرّرتُ ألاّ أعود لأنام مع ماريّا أبداً، ومع ذلك فإن حفلات أعياد الميلاد، الحركة الصاخبة التي تُحس في الناس الذين يسيرون في شوارع المركز، خطط المسكينة روساريو (المستعدّة لأن تقضي العام الجديد في صالة احتفالات معي، طبعاً وترقص) لم تفعل شيئاً آخر غير أنّها جدّدت رغبتي بأن أرى ماريّا، أعرّيها، أشعر بساقيها مرّة أخرى على ظهري، أن أضرب (إذا هي طلبت منّي) وركيها المرفوعين والتامين.

٢٦ كانون الأوّل

- عندي لك اليوم مفاجأة، يا حلو - أعلنت روساريو ما إن وصلتُ إلى البيت.

راحت تُقبّلني قالت لي مرّات عديدة إنّها تُحبّني، ووعدت بأنّها ستبدأ قريباً بالقراءة كي تكون «بمستواي» وهو ما انتهى بإخجالي وباعترافها بأنّه ما من أحد قبلي أسعدها كلّ تلك السعادة.

يبدو أنّني أشيخ، فإفراطها بالكلام يوقف شعر بدني.

بعد نصف ساعة خرجنا ورحنا نسير باتجاه الحمامات العامّة. حمّام الكاتب الأزتيكي في شارع لورِنثو بوتوريني.

تلك كانت المفاجأة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- يجب أن نكون نظيفين جيّداً الآن والعام الجديد يقترب - قالت روساريو غامزة بعينها.

انتابتني رغبة حقيقيّة بأن أصفعها هناك وأذهب كيلا أعود لأراها في حياتي أبداً (أكادُ أنفجر).

ومع ذلك عندما عبرنا أبواب الحمامات الزجاجية المُدخَّنة فإن الجدارية أو الإفريز الذي كان يُتوّج الاستقبالَ شدَّ انتباهي بقوّة غامضة.

كان الرسامُ المجهول قد رسم هندياً مُتفكِّراً يكتبُ على وزقة أو رقٍّ. ذلك هو ولا شكّ الكاتب الأزتيكي، تنتشر خلف الكاتبِ حمّامات يستحمّ في بركها الثلاث في العمق هنود ومحتلون، مكسيكيو زمن المستعمرة، الراهب هيدالغو ومورِلوس، الإمبراطور ماكسيميليانو والإمبراطورة كارلوتا، بِنيتو خوارِث محاط بالأصدقاء والأعداء الرئيس مادِرو، كارّانثا، زاباتا، أوبرِغون، جنود بمختلف الملابس الموحّدة أو المتباينة، فلاحون، عمّال العاصمة الفيدرالية، وممثلون سينمائيون: كانتينفلاس، دولورِس دّل ريّو، بِدرو أرمِنداريث، بِدرو إنفانتِ، خورخِ نِغرِتِ، خابيير سوليس، أثِبِس مِخيّا، ماريّا فِليكس، تين-تان. رسورْتِس، كالامبرس، إيرما سِرّانا وآخرون لم أعرفهم فقد كانوا في البرك الأبعد وكان هؤلاء حقيقة صغاراً.

- بادر، لا؟

بقيت وذراعايَ على وركيَّ. مذهولاً.

جعلني صوت روساريو أرتعش.

اكتشفت، قبل أن ندخل في الممرات مع مناشفنا الصغيرة والصابون، أنّ هناك أيضاً على جانبي الجدارية سوراً من الحجارة

يحيط بالحمامات. ورأيتُ خلف الأسوار في نوعٍ من السهل أو البحر المُتجمّد حيوانات ضبابية، وربّما أشباح حيواناتٍ (أو أشباح نباتات) تترصّد الأسوار وتتضاعف في مكان يغلي وصامت في الوقت ذاته.

٢٧ كانون الأوّل

عدنا إلى الكاتب الأزتيكي. كان نجاحاً لنا. الحجوزات كانت تتكوّن من غرفة صغيرة مفروشة بالموكيت، فيها طاولة، علاقة ثياب وأريكة، وخلوة من الإسمنت حيث المرذاذ والبخار. مفتاح مرور البخار كما في فيلم نازي، على وجه الأرضية. الباب الذي يفصل بين الحجرتين سميك وعلى مستوى الرأس (وإن كان عليّ أن أنحني فأنا أطول من اللازم بالنسبة لقاعدة المعماري) تنفتح كوّة مقلقة ودائمة الغبش. هناك خدمة مطعم. أغلقنا على أنفسنا وطلبنا كوباليبرِ. اغتسلنا بالمرذاذ، ثمّ استحممنا بالبخار، ارتحنا وتنشفنا على الأريكة، عدنا واغتسلنا. مارسنا الحبّ في خلوة الحمّام وسط سحابة من البخار الذي حجب جسدينا. تجامعنا، اغتسلنا، تركنا البخار يخنقنا. فقط نرى أيدينا وركبنا وأحيانا النقرة أو حلمات الأثداء.

٢٨ كانون الأوّل

كم قصيدة كتبتُ؟

منذ أن بدأ هذا: خمساً وخمسين قصيدة.

مجموع الصفحات: ٧٦.

مجموع الأبيات: ٢٤٥٣.

صار باستطاعتي أن أعمل كتابا. أعمالي الكاملة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢٩ كانون الأوّل

هذه الليلة بينما كنتُ أنتظر روساريو عند طاولة العرض، اقتربت مني بريخيدا وأبدت ملاحظة حول مرور الزمن.

- صبّي لي كأس تِكيلا آخر - قلت لها - ووضّحي.

فاجأتُ في نظرتها شيئاً فقط أستطيع أن أسميه بكلمة نصر، وإن كان نصراً حزيناً، مذعناً، مشدوداً إلى حركات الموت أكثر مما إلى حركات الحياة.

- أقول إنّ الزمن يمرُّ - قالت بينما هي تملأ لي كأسي - وأنّك، الذي كنتَ في السابق مجهولاً تبدو الآن من العائلة.

- لا تهمّني قيد أنملة الأسرة - قلتُ لها بينما كنتُ أُفكّر اللعنة أين حشرت روساريو نفسها.

- لا أريدُ إهانتك - قالت بريخيدا - كما لا أريد أن أتشاجر معك. في هذه الأيّام أفضّل ألا أتشاجر مع أحد.

بقيت برهة أنظرُ إليها دون أن أعرف ماذا أقول لها. كان بي رغبة لأن أقول لها أنت غبية، يا بريخيدا، لكن أنا أيضاً لم يكن بي رغبة لأن أتشاجر مع أحد.

- أقول - قالت وهي تنظر إلى الخلف كي تتأكّد من أنّ روساريو غير قادمة - إنّني أنا أيضاً، كان بودّي، كيف لا، أن أعشقك، كان بودي أن أعيش معك، وأعطيك لنغطي نفقاتك، أصنع لك الطعام، أرعاك حين تمرض، لكن إذا لم يحدث، ولم يكن هناك إمكانية، فيجب أن تُقبل الأشياء كما هي، أليس صحيحاً. لكن لا بدّ كان يمكن أن يكون جميلاً.

- أنا لا أُطاق - قلتُ لها.

- أنت كما أنت، لك قضيب يساوي وزنه ذهباً.

- شكراً - قلتُ لها.

- أعرف ما أقول - قالت بريخيدا.

- وماذا تعرفين أكثر؟

- عنك؟ - الآن تبتسم بريخيدا وكان هذا، افترضت، نصراً لها.

- طبعاً عنّي - قلتُ لها بينما أنا أفرغ كأس التِكيلا.

- أنّك ستموت شاباًّ، يا خوان، وأنّك ستفْجِعُ روساريو.

٣٠ كانون الأوّل

اليوم عدتُ إلى بيتِ الأختين فونت. اليوم فجعتُ روساريو.

نهضتُ باكراً قرابة السابعة صباحاً، وخرجتُ لأمشي على غير هدى في شوارع المركز. سمعتُ قبل أن أذهب صوتَ روساريو يقول لي: انتظر قليلاً، فأنا أُعدّ لك الفطور. لم أردّ عليها. أغلقتُ الباب دون أن أحدث ضجّة وغادرتِ بيت الغرف المستأجرة.

مشيت برهة طويلة كما لو أنّني في بلد آخر، شاعراً بالاختناق والغثيان. حين وصلتُ إلى ساحة ثوكالو انفتحت أخيراً مساماتي ورحت أتصبّب عرقاً بلا حدود واختفى الغثيان.

عندها تمّكن مني جوع نهم فدخلت إلى أوّل مقهى وجدته مفتوحاً، في مادِرو، محلّ صغير يُسمى نوِبا سياريس، حيث طلبتُ فنجان قهوة بالحليب وشطيرة جامبو.

كيف لن تكون مفاجأة لي أن أجد بانتشو رودريغِث جالساً إلى طاولة العرض. كان قد تمشّط توّاً (شعره ما يزالُ مُبَلَّلاً) وكانت عيناه محمرّتين. لم يُفاجأ برؤيتي. سألته ماذا يفعل هناك بعيداً جدّاً عن حيّه في تلك الساعة الباكرة.

- قضيتُ الليل كلّه مع العاهرات - قال -، لعليّ أنسى دفعة واحدة تلك التي تعرفها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

افترضت أنّه يشير إلى أنخِليكا ورحت وأنا آخذ أول رشفات قهوتي بالحليب أُفكّر بأنخِليكا، بماريّا، بزياراتي الأولى إلى بيت الأختين فونت الصغير. شعرتُ بنفسي سعيداً. شعرتُ بالجوع. بالمقابل بدا بانتشو فاقداً للشهية. حكيت كي أُلهيه أنّني تركتُ بيت عمّي وأنّني أعيش مع امرأة في غرفة مستأجرة هربت من فيلم من الأربعينيات، لكّن بانتشو كان غير قادر على سماعي أو سماع أيّ شخصٍ آخر.

قال بعد أن دخّن سيجارتين إنّ به رغبة كي يمطّ رجليه.

- أين تريد أن تذهب؟ - قلتُ، على الرغم من أنّني كنتُ أعرفُ الجواب، ومن ناحية أخرى كنت مستعدّاً إذا لم يكن هذا هو الذي كنتُ أتوقّعه، لأن أحرّضه عنده معتمداً على أيّة حيلة.

- إلى بيت أنخِليكا - قال بانتشو.

- أنت قلتَها - قلتُ له وسارعتُ في إنهاء فطوري.

سارع بانتشو لدفع حسابي (كانت المرّة الأولى التي يفعل فيها ذلك) وخرجنا إلى الشارع. إحساس بالخفّة سكنَ أرجلَنا. فجأة بدا بانتشو أنّه لم يعد مخرّباً بالكحول ولا أنا عدت جاهلاً إلى هذا الحد ماذا أفعل بحياتي، بل على العكس جدّدنا نور الصباح، سرعان ما صار بانتشو بشوشاً وسريعاً وراح ينزلق فوق كلماته وواجهات محل أحذية في شارع مادِرو أعطتني الردّ المقنع عن صورتي الداخلية: شخص طويل، لطيف الملامح، لا أرفل ولا خجولاً بشكل مرضي، يسير بخطوات واسعة يتبع شخصاً آخر أقصر وأربعَ خلف حبٍّ حقيقيّ أو أيّاً كان.

طبعاً لم يكن عندي أدنى فكرة عمّا كان سيدبره لنا النهار.

بانتشو الذي ظهر خلال نصف الطريق مُتحمساً، لطيفاً، وحين رحنا نقترب من مستعمرة كوندِسا اختلف موقفه وبد أنّه غرق مرّة

أخرى في مخاوفه القديمة التي كانت تُثيرها عنده علاقتُهُ الغريبة (أو بالأحرى الصاخبة واللغزية) بأنخِليكا. كلّ المشكلة، اعترفَ لي وقد ساء مزاجه من جديد، تكمن في الفارق الاجتماعي الذي يفصل عائلته المتواضعة العاملة عن أنخِليكا، الراسية بثبات في برجوازية العاصمة الفيدرالية الصغيرة. ولكي أشجّعه استنبطت إن هذا لا شكّ مشكلة لبدء علاقة حبّ، لكن وبما أنّ العلاقة قد بدأت فإنّ هوّة الصراع الطبقي تضيق بشكل معتبر. وهو ما ردّ عليه بانتشو ماذا أعني بقولي العلاقة قد بدأت، السؤال الغبي الذي فضّلت ألا أجيب عليه أو أن أجيب بتورية: ترى هل هو وأنخِليكا شخصان طبيعيان، شخصان تقليديان ثابتان من البرجوازية الصغيرة والطبقة العاملة؟

- لا، طبعاً لا - قال بانتشو متفكّراً بينما سيارة الأجرة التي أخذناها عند زاوية رِفورما مع خوارِثْ راحت تقرّبنا بسرعة مدوّخة من شارع كوليما.

هذا ما أردتُ قوله، قلتُ له، بما أنّه كان هو وأنخِليكا شاعرين، ما همّ أن ينتمي أحدهما إلى طبقة اجتماعية والآخر إلى أخرى.

- كثيراً - قال بانتشو.

- لا تكنْ آليَّ التفكير يا رجل - قلتُ وأنا في كلّ مرّة أقلّ تروّياً.

أيّد السائق بطريقة مفاجئة خطابي:

- إذا كنتُ أفدتها فالحواجز لا تساوي قشرة بصلة. حين يكون الحبّ جيداً، ما عداه لا يهمّ.

- أرأيت؟

- لا - قال بانتشو -، لا أراه واضحاً جدّاً.

- أنت، ادخل إلى فتاتك بثقة ودعك من الترهات الشيوعية - قال السائق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- كيف ترهات شيوعية؟ - قال بانتشو.

- هذه، الطبقات الاجتماعية، واضح.

- هكذا إذن بالنسبة إليك لا وجود للطبقات الاجتماعية - قال بانتشو.

السائق كان الذي يتكلّم وهو ينظر إلينا بالمرآة الراجعة، التفت الآن ويده اليمنى مستندة إلى حافة المقعد الأمامي واليسرى ممسكة بثبات بالمقود. سوف نصطدم، فكّرت.

- بحسب الحالة، لا. في الحب نحن المكسيكيين جميعاً متساوون. أمام الله أيضاً - قال السائق.

- لكن ما هذه الترهات! - قال بانتشو.

بدءاً من تلك اللحظة راح بانتشو والسائق يتجادلان في الدين والسياسة فاستغللتُ ذلك كي أتأمّل المنظر الذي كان يتتالى برتابة في النافذة: واجهات شارع خوارِث وروما نورتِ كذلك رحتُ أُفكِّرُ بماريّا وبما يفصلني عنها والذي لم يكن الطبقة الاجتماعية، بل تراكم التجربة ورحتُ أُفكّر بروساريو وبغرفتنا المستأجرة وبالليالي الرائعة التي عشتها هناك، لكني مع ذلك كنت مستعدّاً لأن تبدّلني لحظة مع ماريّا، كلمةٌ من ماريّا وبابتسامة من ماريّا. أيضاً رحتُ أفكّر بعمّي وزوجته، بل وبدا لي أنّني أراهما يبتعدان في أحد تلك الشوارع التي كنّا نمرّ فيها، آخذين بذراعي بعضهما البعض، دون أن يلتفتا ليريا سيارة الأجرة التي كانت تمضي بخط منكسر خطير في شوارع أخرى، غارقة في الوحشة مثل بانتشو، كنّا أنا والسائق غارقين في مسألتنا، وعندها انتبهتُ إلى أنّ شيئاً تخرّب في علاقتي بشعراء المكسيك الجدد أو مع نساء حياتي الجديدات، لكنّني رغم التقليب والتمحيص لم أعثر على الخطأ، الهوّة التي إذا ما نظرت من فوق كتفي كانت تنفتح خلفي، هوة لم تكن من ناحية أخرى تُخيفني، هوّة

خالية من المسوخ وإن لم تكن خالية من الظلمة، من الصمت والفراغ، ثلاثة أطراف كانت تؤذيني، أذى صغيراً، هذا صحيح، دغدغة في فم المعدة! لكنّه يشبه في لحظاتٍ الخوف. وعندها وبينما أنا أمضي ووجهي ملتصق بالنافذة دخلنا شارع كوليما وسكت بانتشو والسائق، أو ربّما فقط بانتشو سكت، كما لو أنّه رحب بضياع نقاشه مع السائق، وأوجف صمتي وصمتُ بانتشو قلبي.

نزلنا على بعد أمتار بعد بيت الأختين فونت.

هنا يحدث شيء غريب - قال بانتشو بينما راح السائق يبتعد سعيداً يشتمُ أمّنا.

كانت النظرة الأولى للشارع تقدم مظهراً عادياً، لكنّني أنا حدست أيضاً بجوّ مختلف عن الذي كنت أتذكّره بحيوية. على الرصيف الآخر رأينا شخصين جالسين داخل سيارة كامارّو صفراء. راحا ينظران إلينا بثبات.

قرع بانتشو الجرس. خلال ثوان لا نهاية لها لم تحدث أدنى حركة داخل البيت. نزل أحد شاغلي سيارة الكامارو الذي كان يجلس بجانب السائق واستند بمرفقيه على سطح السيارة. بقي بانتشو ينظر إليه لبضع ثوان ثم كرّر عليّ بصوت خافت أن شيئاً غريباً يحدث هناك. كان رجل الكامارو مخيفاً. تذكّرتُ المرّات الأولى التي كنتُ فيها في بيت الأختين فونت واقفاً في الباب أتأمّل الحديقة التي انتشرت أمام عينيّ مليئة بالأسرار. كان هذا منذ زمن قصير ومع ذلك بدا لي أنّه مضى عليه عدة سنوات. كان خورخيتو من خرج ليفتح لنا.

عندما وصل إلى الباب أشار إشارةً لم نفهمها ونظر إلى حيث كانت تقف سيارة الكامارو. لم يردّ على سلامنا وحين عبرنا الباب عاد وأغلق بالمفتاح. بدت لي الحديقة مُهملة. كان مظهر البيت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مختلفاً. قادنا خورخيتو إلى الباب الرئيسي مباشرة. أتذكّر أن بانتشو نظر إليّ مستفهماً وبينما نحن نسير عاد وتفحص الشارع.

- لا تتوقّف، يا ولد - قال له خورخيتو.

في البيت كان بانتظارنا كيم فونت وزوجته.

- حانت ساعة أن تأتي، يا غارثيّا مادِرو - قال لي كيم وعانقني بقوّة. لم أتوقّع استقبالاً بمثل تلك الحرارة. كانت السيّدة فونت ترتدي دثاراً أخضر ضارباً للسواد وخفين منزليين، وتبدو مستيقظة توّاً، وإن علمت لاحقاً أنّها لم تكد تنام في تلك الليلة.

- ما الذي يحدث هنا؟ - سأل بانتشو وهو ينظر إليّ.

- تعني ما الذي لا يحدثُ - قالت السيّدة فونت مداعبة خورخيتو.

اقتربَ كيم، بعد أن عانقني من النافذة ونظر بحذر إلى الخارج.

- ليس هناك من جديد، يا أبي - قال خورخيتو.

فكّرت على الفور بشاغلَي الكامارو الصفراء وشيئاً فشيئاً رحت أكوّن فكرة عمّا كان يجري في بيت عائلة فونت.

- نحن نتناول فطورنا، أيّها الفتيان، هل تريدان أن تتناولا قهوة - قال كيم.

تبعناه إلى المطبخ. هناك على الطاولة اليومية كانت تجلس أنخِليكا وماريّا ولوبِّ! بانتشو لم يعتره تبدّل عند رؤيتها بينما كدتُ أنطُّ.

ما جرى بعدها يصعب تذكّره، خاصّة وأنّ ماريّا سلّمت عليّ، كما لو أنّنا لم نتخاصم قط، كما لو أنّ علاقتنا يمكن أن تعود لتبدأ على الفور. فقط أعرف أنّني سلّمتُ على أنخِليكا وعلى لوبِّ بطبيعية وأنّ ماريّا طبعت قبلة على خدّي. بعدها رحنا نشرب القهوة وسأل بانتشو ما الذي يحدث. كانت التوضيحات متباينة ومضطربة ووسط

هذا راحت السيّدة فونت وكيم يتشاجران. بحسب السيّدة فونت لم يحدث أن أمضوا أعياد نهاية سنة أسوأ. فكّري بالفقراء، يا كريستينا، ردّ كيم. راحت السيدة فونت تبكي وذهبت من المطبخ. خرجت أنخِليكا وراءها وهو ما أحدث حركة عند بانتشو، انتهت بعدها كما بدأت: نهض عن كرسيّه، لحق بأنخِليكا حتى الباب ثم عاد ليجلس. خلال ذلك وضعني كيم وماريّا بصورة الوضع. قوّادُ لوبٍّ عثر عليها في فندق مِديا لونا. وبعد مناوشات لم أفهم تفاصيلها تمكّنت هي وكيم من الهرب والوصول إلى شارع كوليما. هذا منذ يومين. السيّدة فونت التي انتبهت لذلك هتفت للشرطة ولم تتأخّر الدورية في الوصول. قال هؤلاء إنّه إذا أرادت عائلة فونت أن تشتكي عليها أن تذهب إلى قسم الشرطة. وحين قال لهم كيم إنّ ألبِرتو وعنصراً آخر موجودان هناك، أمام منزلهم جاء رجال الدورية ليتكلّموا مع القوّاد واستطاع خورخيتو من خلف قضبان الباب أن يرى أنّهم يَبدون أصدقاء حميمين طوال حياتهم. أو أنّ مرافق ألبِرتو أيضاً شرطيّ، بحسب ما أكّدت لوبٍّ، أو أنّ الشرطيين تلقوا رشوة شهية كما لو كي ينسوا المسألة. بدءاً من تلك اللحظة قام الحصار حول منزل عائلة فونت رسمياً. رحل رجال الدورية. عادت السيّدة فونت لتهتف إلى الشرطة. وجاءت دورية أخرى وكانت النتيجة ذاتها. نصح صديقٌ كيم بأن يتحمّلوا الحصار حتى تنتهي الأعياد. أحياناً، ودائماً بحسب خورخيتو، الوحيد الذي يملك ما يكفي من الشجاعة كي يتجسّس على الدخلاء، كانت تأتي سيّارة أخرى، أولدموبيل، تصطف خلف الكامارو وكان ألبِرتو ومرافقه بعد أن يتجادلا برهة مع المحاصِرين الجدد يغادران بصلف بل وبطريقة مخيفة، جاعلين عجلات السيارة تحدث صريراً وضاغطين على الزمور. كانا يعودان بعد ستّ ساعات فتذهب السيارة التي حلت محل سيارتهما. طبعاً كان هذا الذهاب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والإياب يحطّم معنويات سكان البيت. كانت السيّدة فونت ترفض الخروج، خوفاً من أن يخطفوها. أيضاً كيم أمام المظهر الذي كان يتخذه الوضع لم يكن يخرج، بحسب قوله بسبب مسؤوليته أمام أسرته، وإن كنتُ أظن أنّه بسبب الخوف الذي تسببوا له به. وحدهما أنخِليكا وماريّا اجتازتا عتبة الشارع، مرّة واحدة ومنفصلتين وكانت النتيجة كارثيّة. شتموا أنخِليكا وماريا التي مرّت خائفة بجانب الكامارو لمسوها وصفعوها. حين وصلنا كان خورخيتو هو الوحيد الذي يتجرّأ على الخروج ليفتح الباب.

ما إن أحطنا علماً بالسوابق حتى جاءت ردّة فعل بانتشو فورية.

كان سيخرج ليكيل لألبِرتو.

حاولنا أنا وكيم أن نثنيه، لكن لم يكن هناك ما يُفعل. وهكذا وبعد أن تكلّم ربعَ ساعةً على انفراد مع أنخِليكا وجّه خطواته نحو الشارع.

- رافقني، يا غارثيّا مادِرو - قال وأنا كغبيّ تبعته.

عندما خرجنا انخفضت عزيمة المحارب عند بانتشو بضع ديزيمات. فتحنا الباب بالمفاتيح التي أعطاها لنا خورخيتو، والتفتنا لننظر نحو البيت، بدا لي أنّ كيم كان يُراقبنا من نافذة الصالون والسيدة فونت من نافذة من الطابق الثاني. هذه المسألة عَويصة جداً، قال بانتشو. لم أعرف بماذا أجيبه، من أمره أن يفتح فمه.

- قصّتي مع أنخِليكا انتهت - قال بانتشو بينما كان يُجرّب المفاتيح، الواحدَ بعد الآخر دون أن ينجح في العثور على المطلوب.

كان في الكامارو ثلاثة شاغلين وليس اثنان كما بدا لي في ساعة الصباح الأولى. اقترب بانتشو منهم بخطوٍ ثابت وسألهم ما الذي

يريدونه. بقيت على بعد أمتار إلى الخلف وأخفى جسم بانتشو هيئة القوّاد. لا أنا استطعتُ أن أراه ولا هو استطاع أن يراني. لكنّني سمعتُ صوتَهُ الرنان كصوت مغني رانتشِرا، صوتاً صلفاً، لكنّه ليس كريهاً تماماً، كان بطريقة ما الصوتَ الذي كنت سأختاره له، صوتاً لا يُستشف منه مثقال ذرّة من التردّد، يتناقض بوحشية مع صوتِ بانتشو، الذي بدأ يتلعثم ويتكلّم بصوتٍ أعلى من اللازم ويقترب بسرعة كبيرة من الشتيمة والعدوان.

في تلك اللحظة انتبهت لأوّل مرّةٍ بعد كلِّ أحداث ذلك الصباح إلى أنّ أولئك العناصر خطيرون، وأردت أن أقول لِبانتشو أن نعود على أعقابنا إلى بيت الأختين فونت. لكنّ بانتشو كان قد دخل في تحدّي ألبِرتو.

- انزل من العربة، يا ولد - قال.

ضحك ألبِرتو. علّق تعليقاً لم أفهمه، فُتِحَ بابُ مرافقه وكان الآخر من خرج من السيارة. كان متوسّط القامة، شديد السمرة، يميل إلى البدانة.

- انصرف من هنا، يا ولد. - تأخرتُ حتى أدركتُ أنّه كان يتوجّه بكلامه إليّ.

رأيتُ بعدها أنّ بانتشو يتراجع خطوة وألبِرتو ينزل من السيارة. ما حدث بعدها كان أسرع من اللازم. اقترب ألبِرتو من بانتشو (تولّد لديّ انطباع بأنّه كان يُقبّله) وسقط بانتشو على الأرض.

- اتركه لوحده، يا ولد - قال العنصرُ الأسمرُ من الجانب الآخر وقد استند بمرفقيه على سطح السيارة. لم أبالِ به. رفعتُ بانتشو عن الأرض وعدنا إلى البيت. عندما وصلنا إلى الباب التفتّ لأنظر. كان العنصران في الكامارو الصفراء من جديد وبدا لي أنّهما كانا يضحكان.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- كالا لك، أليس كذلك؟ - قال خورخيتو وقد ظهر من بين بعض الشجيرات.

- الديوث معه مسدس - قال بانتشو -. لو دافعت عن نفسي لأطلق عليّ النار..

- هذا ما فكّرتُ به - قال خورخيتو.

أنا لم أرَ أيّ مسدّس، لكنّني فضّلت أن أسكت.

حملنا بيني وبين خورخيتو بانتشو إلى البيت، وحين كنّا نمضي في الطريق الحجري الذي يقود إلى المظلة، قال بانتشو إنّه يريد أن يذهب إلى بيت ماريّا وأنخِليكا الصغير وهكذا استدرنا في الحديقة. بقيّة اليوم كان أقرب إلى أن يكون مُخزياً.

أغلق بانتشو على نفسه مع أنخِليكا البيت الصغير. جاءت الخادمة لتقوم بأعمال التنظيف مزعجة كلّ من كان قريباً منها. كان خورخيتو يريد أن يخرج إلى بيت بعض أصدقائه، لكنّ والديه لم يتركاه. رحنا أنا وماريّا ولوبِّ نلعب بالورق في ركن الحديقة، الذي شهد أوّل أحاديثنا. توهّمت للحظة أنّنا نُكرِّرُ حركاتِ لحظةٍ تعارفنا فيها، حين كان بانتشو وأنخِليكا يغلقان على نفسيهما البيت الصغير ويأمراننا بأن نخرج، لكنّ كلّ شيء كان مختلفاً.

في ساعة الغداء وعلى طاولة المطبخ، قالت السيّدة فونت إنّها تريد الطلاق. ضحك كيم وقام بحركة كما لو أنّه يفهمنا بأنّ زوجته جُنّت. راح بانتشو يبكي.

بعدها أشعل خورخيتو التلفاز وراح يشاهد مع أنخِليكا فيلماً وثائقيّاً عن العناكب. قدّمت السيّدة فونت القهوة لمن بقي في المطبخ. أعلمت الخادمة قبل أن تُغادر أنّها لن تأتي في اليوم التالي. تكلّم كيم معها بضع ثوانٍ في الفناء وسلّمها مغلّفاً. سألت ماريّا عما

إذا كان يطلب نجدة من أحد. بالله عليك، يا ابنتي، حتى الآن لم يقطعوا عنا الهاتف. إنّها إكرامية نهاية السنة.

لا أعرف في أيّ لحظة غادر بانتشو البيت. لا أعرف في أيّ لحظة قرّرت البقاء لأقضي الليل هناك. فقط أعرف أنّ كيم أخذني بعد العشاء جانباً وشكرني على التفاتتي.

- لم أتوقّع منك أقلّ من ذلك، يا غارثيّا مادِرو - قال.

- أنا جاهز لكلّ ما تحتاجونه منّي - أجبتُ بحماقة.

- الآن سننسى كلّ المزاح الذي تمّ بيني وبينك وسنركّز على الدفاع عن القلعة - قال.

لم أفهم ما كان يعني بالمزاح، لكن نعم فهمت ما كان يشير إليه بالقلعة. فضّلتُ ألاّ أرد وأومأت بالإيجاب برأسي.

- الأفضل أن تنام الفتاتان في البيت - قال كيم -، لأسباب أمنيّة. أنت تفهمني، حين يكون الوضع في غاية الخطورة المناسب هُو تجميعُ القوّات في استحكام واحد.

كنّا متفقين على كلّ شيء وفي تلك الليلة نامت أنخِليكا في غرفة الضيوف، لوبِّ في الصالون وماريّا في غرفة خورخيتو. أنا قرّرتُ أن أنام في بيت الفناء الصغير، ربّما على أمل أن تزورني ماريّا، لكن بعد أن تمنينا ليلة سعيد لبعضنا وانفصلنا بقيتُ منتظراً برهة طويلة دون جدوى، مستلقياً على سرير ماريّا تلفني رائحتُها وبين يديّ مختارات لسور خوانا، لكنّني لم أكن قادراً على القراءة إلى أن لم أعد أستطيع أكثر وخرجتُ لأقوم بجولة في الحديقة. من شارع وادي الحجارة أو جادّة سنونورا كان يصل صوت حفلة مُخَفّت. ذهبت إلى السياج وأطللتُ: كانت الكامارو الصفراء ما تزال هناك ولم أر بداخلها أحداً. عدتُ إلى البيت، كانت نافذة الصالون مضاءة وسمعت بعد أن ألصقتُ أذني بالباب أصواتاً مُطفأة لم أستطيع تحديد صاحبها. لم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أجرؤ على قرعه. وبدل هذا درتُ ودخلتُ من باب المطبخ. في الصالون كانت تجلس على الأريكة ماريّا ولوبٌ، وفي الجوّ تعبق رائحة ماريجوانا. كانت ماريّا في قميص نوم أحمر اللون، اعتقدت في البداية أنّه فستان، على صدره تطريزات بيضاء تُمثّل بركاناً ونهرَ حمم وقرية على وشك أن تُدمّر. لوبٌ لم تكن قد ارتدت بعد منامتها، هذا إذا كانت تملكها، الأمر الذي أشكّ به، كانت ترتدي تنورة قصيرة وقميصاً أسود منكوشة الشعر، وهو ما كان يُضفي عليها مظهراً غامضاً وجذّاباً. عندما رأتاني سكتتا. كان بودي أن أسألهما عمّا كانتا تتكلّمان، لكن بدل ذلك اتخذت مكاني بجانبهما وأعلنت لهما أن سيارة ألبِرتو ما تزال في الخارج. كانتا تعرفان ذلك.

- لم يحدث قط أن أمضيتُ نهاية عام بمثل هذه الغرابة - قلتُ.

قدّمت ماريّا لنا فنجان قهوة نهضت بعدها وذهبت إلى المطبخ. تبعتُها. وبينما كانت تنتظر أن يغلي الماء عانقتها من الخلف وقلتُ لها إنّني أريد أن أنام معها. لم تُجبني. السكوت رضا، فكّرتُ وقبّلتُ عنقها ونقرتها. رائحة ماريا، الرائحة التي بدأت أفقد اعتيادها، ألهبتني إلى حدّ أنّني بدأت أرتجف. انفصلت عنها على الفور. خفتُ للحظة، وأنا مستند إلى جدار المطبخ، أن أفقد توازني وأدوخ هناك بالذات واضطررت لأن أبذل جهداً كي أستعيد حالتي الطبيعية.

- لك قلب طيّب، يا غارثيّا مادِرو - قالت بينما هي تخرج من المطبخ حاملة صينية فيها ثلاثة فناجين من الماء الساخن والنسكافيه والسكّر. تبعتُها مثل مُسرنم. كان بودي أن أعرف ما الذي كانت تعنيه بأنّ لي قلباً طيباً، لكنّها لم تعد لتُكلّمني.

سرعان ما فهمتُ أنّ وجودي هناك مزعج. فماريّا ولوبٌ عندهما أشياء كثيرة يتكلّمان عنها وكلّها بدت لي غير مفهومة. للحظة كان

يبدو أنّهما تتكلّمان عن الطقس وفي اللحظة التالية يبدو أنّهما تتكلّمان عن ألبِرتو القوّاد المشؤوم.

عندما وصلتُ إلى البيت الصغير شعرت أنّني من الإنهاك بحيث لم أشعل الضوء.

ذهبتُ إلى سرير ماريّا باللمس، مهتدياً فقط بالنور الواهن الذي كان يصل من البيت الكبير أو الفناء أو القمر، لا أعرف، وارتميت منكباً على وجهي دون أن أخلع ملابسي ونمت على الفور.

أجهل كم كانت الساعة وقتها ولا كم بقيت هكذا، فقط أعرف أنّني كنتُ بخير وأنّني حين استيقظتُ كان الظلامُ ما يزال سائداً وامرأة تُداعبني. تأخرتُ في إدراك أنّها لم تكن ماريّا. اعتقدتُ لثوان أنّني كنتُ أحلم أو أنّني لا محال ضائع في بيت الغرف المستأجرة بجانب روساريو. عانقتُها وبحثت عن وجهها في الظلمة. كانت لوبِّ وتبتسم مثل عنكبوت.

٣١ كانون الأوّل

احتفلنا بالعام الجديد كمن يقول في أسرة. طوال الليل كان يظهر أصدقاء الحياة ويختفون في البيت. ليسوا كثيرين. شاعر، رسامان، مهندس عمارة، أخت السيّدة فونت الصغرى، والد المتوفاة لاورا داميان.

أحيط ظهور هذا الأخير بحركات متطرفة وغامضة. كان كيم في منامته ولم يحلق ذقنه، جالساً في الصالون يُشاهد التلفزيون. أنا فتحتُ البابَ ودخل يسبقه إكليل ورود حمراء هائلة سلّمها لي بإيماءة خجل وانزعاج). وبينما كنتُ أحمل الأزهار إلى المطبخ وأبحث عن مزهرية أو أيّ شيء لأضعها فيه، سمعت كيم يقول له شيئاً عن بؤس الحياة اليومية. بعدها تكلّما عن الأعياد. ما عادت ما كانت، قال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كيم. بالفعل، قال والدُ لاورا داميان. لا حاجة لأنّ تقول ذلك. كل الزمن الماضي كان أفضل، قال كيم. نحن نشيخ، قال والدُ لاورا داميان. عندها قال كيم شيئاً مفاجئاً: لا أدري، كيف تتدبّر أمرك كي تستمرّ بالحياة، لو كنتُ مكانك لكنت متّ منذ زمن.

تلا ذلك صمت طويل، لا يقطعه غير الأصوات البعيدة للسيدة فونت وابنتيها، اللواتي كنّ يُحضّرن في الفناء الخلفي حلّة الحفلة، ثمّ انفجر والد لاورا داميان بالبكاء. لم أستطع تحمّل الفضول وخرجت من المطبخ محاولاً ألا أحدث جلبة، الحذر الذي لم يكن ضرورياً فكلا الرجلين كان ذاهلاً يتأمل الآخر، كيم بمظهر من استيقظ توّاً منكوش الشعر، مزرورق محجري العينين، أرمصهما، مُجعد المنامة، وخفاه على وشك أن يخرجا من قدميه، القدمين الرقيقتين، كما استطعتُ أن أُقدِّر، اللتين كانتا مختلفتين جدّاً عن قدمي عمّي، مثلا، والسيّد داميان يجلس على كرسيّ مقابل كيم بوجههِ، الذي كما يقال عادة حرفيّاً، مغطى بالدموع، على الرغم من أنّ الدموع لم تكن تشكّل غير شقين على الخدّين، شقين عميقين يبدو كأنّهما يبتلعان كامل الوجه، ويديه اللتين جمعهما. أريد أن أقابل أنخِليكا، قال. نظِّفْ مخاطَك أوّلاً، قال كيم. أخرج السيّد داميان منديلاً من جيب سترته ومرّره على عينيه وخدَّيْه ومخّط بعدها. الحياةُ قاسية، يا كيم، قال بينما هو ينهض بغتة ويتّجه كما لو أنّه نائم إلى الحمّام. عندما مرّ بجانبي لم ينظر إليّ.

أعتقد أنّني بقيتُ برهة بعدها في الفناء أُساعد السيّدة فونت على تجهيز أمور العشاء الذي كانت تُفكّر بتقديمه في تلك الليلة الأخيرة من عام ١٩٧٥. في نهاية كلّ عام أقدّم عشاء لأصدقائنا، قالت، صار تقليداً، وإن لم أكن أريد في الحقيقة أن أفعل ذلك هذا العام، فأنا لست مهيّأة للأعياد، كما ترى، لكن علينا أن نكون أقوياء. قلتُ

لها إنّ والد لاورا داميان في البيت. ألباريتو يأتي كلّ سنة، قالت السيّدة فونت، يقول إنّني أفضل طبّاخة يعرفها. ماذا سنأكل هذه الليلة، سألتُها.

آه، يا ولدي، ليس عندي فكرة، يبدو لي أنّني سأحضّر لكم قليلاً من المولِ وأذهب بعدها لأنام باكراً، فأنا لست مهيّأة للاحتفالات الكبيرة، ألا ترى ذلك؟

نظرت إليّ السيّدة فونت وراحت تضحك. يبدو لي أنّ هذه المرأة ليست صحيحة العقل. عاد بعدها ليرنّ جرس الباب بإصرار وطلبت منّي السيّدة فونت بعد ثوان من الترقّب، أن أذهب وأرى من يكون. عندما مررت في الصالون رأيتُ كيم ووالد لاورا داميان وكلّ منهما كأسه في يده، جالسين على الأريكة ذاتها يشاهدان برنامجاً آخر في التلفزيون. كان الزائر أحد الشعراء الريفيين، أظنّه كان سكراناً. سألني أين هي السيّدة فونت وتوجّه على الفور نحو الفناء الخلفي حيث كانت هذه توضح بزيناتها وأعلامها المكسيكية الورقيّة الصغيرة اللوحة الحزينة التي كان يشكّلها كيم وأبو لاورا داميان. صعدتُ إلى غرفة خورخيتو ومن هناك رأيتُ الشاعر الريفيّ الذي كان يرفع يديه إلى رأسه.

بالمقابل كانت المكالمات الهاتفية عديدة. هتفت أوّلاً امرأة تُدعى لورِنا، شاعرة واقعية أحشائيّة سابقة، كي تدعو ماريّا وأنخِليكا إلى حفلة نهاية العام. هتف بعدها شاعر وديع. ثم هتف راقص اسمه رودولفو أراد أن يتكلّم مع ماريّا، لكنّها رفضت أن تأخذ الهاتف ورجتني أن أقول له إنّها غير موجودة، الشيء الذي قمت به آليّاً، دون متعة، كما لو أنّني تخطيت الغيرة، الأمر الذي لو كان حقيقيّاً لكان رائعاً، فالغيرة لا تفيد في شيء. هتف بعدها المهندس المعماري الرئيسي في استوديو كيم المعماري. المفاجئ أنّه تكلّم معه أوّلاً ثمّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أراد بعدها أن يتكلّم مع أنخِليكا. عندما طلب مني كيم أن أنادي أنخِليكا كان في عينيه دموع بينما كانت أنخِليكا تتكلّم أو بالأحرى تصغي، قال لي إنّ الشعر هو أجمل ما يمكن أن يُفعل في هذه الأرض الملعونة. كلماته بحرفيّتها. أنا ولكي لا أناقضه وافقت (أعتقد أنّني قلت، يا لها من موجة رائعة. يا كيم، الجواب الذي كان بكلّ وضوح أحمق). بعد بقيتُ برهة في بيت الفتاتين الصغير، أتكلّم مع ماريّا ولوبِّ أو بالأحرى أستمع إليهما يتكلّمان بينما أنا أتساءل متى وكيف سينتهي حصار القوّاد.

موضوع مجامعتي في الليلة الفائتة للوبِّ ما زال كلّ شيء يلفّه الغموض، على الرغم من أنّني منذ زمن طويل لم أمض وقتاً ممتعاً مثله. في الواحدة مساء كان هناك شبه غداء: أوّلاً أكلنا أنا وخورخيتو وماريّا ولوبِّ، بعدها في الواحدة والنصف، السيّدة فونت وكيم ووالد لاورا داميان والشاعر الريفي وأنخِليكا. بينما كنتُ أغسل الأطباق سمعت الشاعر الريفيَّ يُهدِّد بالخروج لمواجهة ألبِرتو، تلاه تحذير السيّدة فونت، التي كانت تقول له: يا خوليو، لا تكُن أحمق. ذهبنا بعدها جميعاً لتناول العقبة في الصالة.

في المساء استحممتُ.

كان جسمي مليئاً بالكدمات، لكنّني لم أعرف من تسبب لي بها، روساريو أم لوبِّ، على كلّ الأحوال لم تكن ماريّا وهذا ما آلمني بشكل غريب على الرغم من أنّ الألم كان بعيداً جدّاً من أن يكون غير مُحتَمَل، كما كان حين تعرّفت عليها. في صدري، تماماً تحت الثدي الأيسر هناك كدمة بنفسجية بحجم خوخة. تحت الترقوة بضعة خدوش على شكل مخورِ زورق.

حين خرجتُ وجدتُ الجميع يتناولون القهوة في المطبخ، بعضهم جالس وبعضهم الآخر واقف. طلبت ماريّا من لوبِّ أن

تحكي قصَّة العاهرة التي خنقها ألبِرتو بقضيبه. بدوا وكأنّهم نائمون مغناطيسياً. كانوا بين حين وآخر يُقاطعون لوبِّ ويقولون، يا للبربرية، أو يا لهم من برابرة، بما في ذلك صوت أنثوي (صوت السيّدة فونت أو أنخِليكا) قال يا للضخامة، بينما كان كيم يقول لوالد لاورا داميان: ها أنت ترى أيّ عنصر نواجه.

في الرابعة مساء غادر الشاعر الريفي وبعدها بقليل ظهرت أخت السيّدة فونت. تسارعت التحضيرات للعشاء.

بين الخامسة والسادسة تزايدت المكالمات الهاتفية من أشخاص يعتذرون عن حضور العشاء، وفي السادسة والنصف قالت السيّدة فونت إنّها لا تستطيع أكثر وراحت تبكي وصعدت لتغلق على نفسها غرفتها.

في السابعة وضعت أخت السيدة فونت تُساعدها ماريّا ولوبِّ المائدة وتركت المطبخ جاهزاً لعشاء نهاية السنة. لكن كان ناقصاً بعض المكوّنات وذهبت لتبحث عنها. قبل أن تذهب جعلها كيم تمرّ على مكتبه، لثوان فقط. عندما خرجت أخت السيّدة فونت كانت تحمل في يدها مُغلّفاً، أفترض أنّه يحتوي على نقود وسمعت السيّد كيم يقول لها من مكتبه أن تضع المغلّف في حقيبتها، وإلا فإنّ هناك خطر أن يسرقه منها شاغلو الكامارو الصفراء، الأمر الذي بدا في البداية أنّ أخت السيدة فونت تجهله، لكنّها فعلتْ ذلك في اللحظة التي كانت تفتح فيها باب البيت وتغادر. ولمزيد من الأمان رافقناها أنا وخورخيتو حتى باب الشارع. بالفعل كانت الكامارو ما تزال هناك، لكنّ شاغليها لم يتحرّكوا عندما مرّت أخت السيّدة كامارو بجانبهم وضاعت في اتجاه شارع كورْناباكا.

في التاسعة جلسنا لنتناول العشاء. معظم المدعوّين اعتذروا ولم يظهر سوى سيّدة متقدّمة في العمر، أظّن أنّها ابنة عم كيم، وشخص طويل ونحيل قُدّم كمعماريّ أو معماريّ سابق، بحسب ما تكفّل هو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالتوضيح ورسامان لم يكونا ينتبهان إلى شيء. غادرت السيّدة فونت غرفتها مرتدية أفضل ملابس سهراتها ترافقها أختها، التي لم تكتف بعد عودتها بالإشراف على تحضيرات العشاء بل وخصّصت الدقائق الأخير في مساعدتها على ارتداء ملابسها. لوبِّ التي كانت كلّما اقتربت السنة من نهايتها صارت أكثر فظاظة، قالت إنه ليس من حقها أن تتناول العشاء معنا وإنّها ستتناوله في المطبخ، لكنّ ماريّا اعترضت بطريقة حاسمة وفي النهاية وبعد جدال بصراحة لم أفهمه، انتهت بالجلوس إلى المائدة الرئيسية.

كانت بداية العشاء رائعة.

نهض كيم وقال إنّه يريدنا أن نشرب نخب أحدٍ. افترضت أنّه سيكون نخب زوجته، التي ونظراً للوضع الذي كانت فيه، برهنت على تماسك غير معهود، لكنّ النخب كان نخبي! تحدّث عن عمري وقصائدي، ذكر صداقتي مع بنتيه (عندما قال هذا نظر بثبات إلى والد لاورا داميان، الذي هزّ رأسه بالموافقة) وصداقتي معه، أحاديثنا، لقاءاتنا غير المتوقّعة في شوارع العاصمة الفيدرالية وأنهى كلمته التي كانت في الحقيقة قصيرة على الرغم من أنّها بدت لي أبديّة، طالباً مني هذه المرّة مباشرة ألاّ أحكم عليه عندما أكبر وأصبح مواطنا راشداً ومسؤولاً بصرامة زائدة. عندما سكت كنتُ قد احمررتُ خجلاً. صفَّقت ماريّا وأنخِليكا ولوبِّ، والرسامان الشاردان أيضاً. دخل خورخيتو تحت الطاولة ولا يبدو أنّ أحداً لاحظ ذلك. السيّدة فونت التي نظرتُ إليها من طرف عيني، بدت محزونة مثلي.

على الرغم من البداية الصاخبة لعشاء ليلة نهاية السنة إلاّ أنّها كانت أقرب إلى الحزينة والصامتة. راحت السيّدة فونت وأختها تقدّمان الأطباق، ماريّا بالكاد ذاقت الطعام، وأنخِليكا غرقت في صمت فاتر أكثر مما هو فجّ، كيم ووالد لاورا داميان، كانا يوليان

انتباههما إلى المهندس المعماري الذي راح يوبّخ كيم بنعومة، لكنّهما كان يُحافظان بشكل عام على موقفٍ مُتحفِّظ؛ الرسامان تحادثا فقط فيما بينهما ومن حين لآخر مع والد لاورا داميان، الذي كان، كما يبدو، أيضاً يجمع أعمالاً فنّية، وماريّا ولوبِّ اللتان بدتا في بداية العشاء الأكثر استعداداً لأن تتمتعا، انتهتا بالنهوض لمساعدة النساء اللواتي كنّ يخدمن المائدة وفي النهاية اختفتا في المطبخ. هكذا ينقضي مجد العالم، قال لي كيم من الطرف الآخر من الطاولة.

عندها قرعوا الجرس فقفزنا جميعاً، أطلّت ماريّا ولوبِّ برأسيهما من المطبخ.

- ليفتح أحد - قال كيم، لكنّ أحداً لم يتحرّك من مكانه.

كنتُ أنا من نهض.

كانت الحديقة مظلمة وميّزت خلف السياج طيفين. فكّرتُ أنّهما ألبِرتو وشرطيّه. وبلا عقلانيّة شعرتُ برغبة للمشاجرة فوجهت خطواتي بحزم باتجاههما، ومع ذلك اكتشفتُ أنّ من كانا هناك هما عوليس ليما وأرتورو بِلانو. لم يقولا لماذا جاءا. لم يُفاجآ برؤيتي. تذكّرت أنّني فكّرت: ناجون!

كان هناك فائض من الطعام فجلس عوليس وأرتورو إلى المائدة وقدّمت لهما السيّدة فونت العشاء بينما البقيّة يتناولون العَقَبة أو يتحدّثون. حين انتهيا من الأكل، أخذهما كيم إلى المكتب. لم يتأخّر والد لاورا باللحاق بهم.

بعد قليل أطلّ كيم برأسه من الباب المشقوق ونادى لوبِّ. بدا وكأنّنا، نحن الذين بقينا في الصالون، في مأتم. قالت لي ماريّا أن ألحق بها إلى الفناء. تكلّمت معي وقتاً بدا لي طويلاً لكنّه لا يبدو أنّه استطال لأكثر من خمس دقائق. هذه مكيدة، قالت لي. بعدها دخلنا نحن الاثنين إلى مكتب والدها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من المفاجئ أنّ من كان يقودُ هو ألبارو داميان. كان قد جلس على كرسيّ كيم (بقي هذا واقفاً في زاوية) وراح يُوقّع عدداً من الشيكات لحاملها. كان بِلانو وليما يبتسمان. بدت لوبِّ قلقةً، لكنّها مذعنة. سألت ماريّا والدَ لاورا داميان ماذا هناك. رفع والدُ لاورا داميان نظره عن دفتر شيكاته وقال إنّه يجب حلّ قضية لوبِّ بأسرع وقت ممكن.

- سأذهبُ إلى الشمال، يا أختُ - قالت لوبِّ.

- كيف؟ - قالت ماريّا.

- هنا، مع هذين في سيارة والدك.

لم أتأخّر في أن أدركت أنّ كيم ووالد لاورا داميان أقنعا صديقيّ، أن يحملا معهما لوبِّ، أياً كان المكان الذي سيذهبان إليه ويكسرا بهذه الطريقة الحصار عن البيت.

أكثر ما فاجأني هو أن يعيرهما كيم الإيمبالا، هذا فعلاً ما لم أكن أتوقّعه.

حين خرجنا من الغرفة ذهبت لوبِّ وماريا لتعدّا الحقيبة. كانت حقيبة لوبِّ شبه فارغة، فهي بهربها من الفندق نسيت قسماً كبيراً من ثيابها.

حين دقّت الساعة الثانية عشرة في التلفزيون تعانقنا جميعاً. أنا وماريّا، وأنخِليكا، وخورخيتو، وكيم، والسيّدة فونت، وأختها، ووالد لاورا داميان، والمهندس المعماري، والرسامان، وابنة عم كيم، وأرتورو بِلانو وعوليس ليما ولوبَّ.

جاءت لحظة لا أحد كان يعرف فيها من كان يُعانق مَن أو ما إذا كانت العناقات تتكرّر.

حتى الساعة العاشرة ليلاً كان من الممكن أن يُرى على الطرف الآخر من السياج ألبِرتو وحملة مسدساته. في الحادية عشرة لم

يكونوا هناك حتى أنّ خورخيتو ملك الشجاعة كي يعتلي الحاجز ويلقي نظرة على الشارع. لقد ذهبوا. في الثانية عشرة والربع انتقلنا جميعاً بحذر إلى المرآب وبدأ الوداع، عانقت بِلانو وليما وسألتهما ما الذي سيحدث للواقعية الأحشائيّة. لم يجيباني. عانقت لوبِّ وقلت لها أن تكون حذرة. وجواباً على ذلك تلقيت قبلة على خدّي.

كانت سيارة كيم فورد إيمبالا آخر موديل، بيضاء اللون، وأراد كيم وزوجته أن يعرفا، كما لو أنّهما ندما في اللحظة الأخيرة، من الذي سيكون السائق.

- أنا - قال عوليس ليما.

بينما كان كيم يشرح لعوليس خصائص السيارة، طلب خورخيتو منّا أن نسرع فقوّاد لوبّ عاد توّاً. خلال لحظات راح الجميع يتكلّمون بصوتٍ عالٍ وقالت السيّد فونت: يا للعار أن نُضطرّ لأن نصل إلى هذا. وعندها ذهبت راضاً إلى بيت الأختين فونت الصغير أخذتُ كتبي وعدتُ. كان محرّك السيارة قد أدير والجميع يبدون كتماثيل من ملح.

رأيتُ أرتورو وعوليس في المقعدين الأماميين ولوبّ في المقعد الخلفي.

- يجب أن يذهب أحد ليفتح الباب الخارجي - قال كيم.

قدّمت نفسي لأقوم بذلك.

كنتُ على الرصيف حين رأيت أضواء الكامارو تشتعل وأضواء الإيمبالا أيضاً. بدا فيلما من الخيال العلمي. بينما كانت تخرج سيارة من البيت، اقتربت الأخرى كما لو أنّها شدّت بمغناطيس أو بالقدر المشؤوم، الذي هو نفسه بحسب اليونانيين.

سمعتُ أصواتاً، كانوا ينادونني، مرّت بجانبي سيارة كيم ورأيت طيف ألبِرتو الذي كان ينزل من الكامارو وبقفزة كان بجانب السيارة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي يذهب فيها أصدقائي. صرخ مرافقوه دون أن ينزلوا من السيارة طالبين منه أن يكسر نوافذ الإيمبالا. لماذا لا يسرع؟ فكّرتُ. بدأ قوّاد لوبِّ يرفس الأبواب. رأيتُ ماريّا تتقدّم عبر الحديقة نحوي. رأيتُ وجوهَ القتلة داخل الكامارو. كان واحد منهما يُدخّن سيجاراً. رأيتُ وجه عوليس ويديه اللتين كانتا تتحرّكان فوق تابلو قيادة سيارة كيم. رأيتُ وجه بِلانو الذي كان ينظر بلا تبدّل إلى القوّاد. كما لو أنّ الأمر لا يحدث معه. رأيتُ لوبِّ التي كانت تُغطّي وجهها في المقعد الخلفي. فكّرت أنّ زجاج الباب لن يُقاوم رفسة أخرى وبقفزة واحدة وجدت نفسي بجانب ألبّرتو. رأيتُ بعدها ألبِرتو يترنّح. كانت تفوح منه رائحة الكحول. بالتأكيد كانا أيضاً يحتفلان بنهاية السنة. رأيتُ قبضتي اليمنى (الوحيدة الحرّة ففي الأخرى كنتُ أحمل كتبي) تسقط على جسم القوّاد وفي هذه اللحظة رأيته يسقط. شعرت بأنّهم ينادونني من البيت ولم ألتفت. رفستُ الجسد الذي كان عند قدميّ ورأيت الإيمبالا تتحرّك أخيراً. رأيت القاتلين يخرجان من الكامارو ورأيتهما يتوجهان نحوي. رأيت لوبِّ تنظر إليّ من داخل السيارة وتفتح الباب. عرفت أنّني دائماً كنت أريد أن أرحل. دخلتُ وقبل أن أستطيع إغلاق الباب سرّع عوليس فجأة. سمعتُ طلقة أو شيئاً يشبه الطلقة. لقد أطلقا علينا النار، أولاد العاهرة، قالت لوبِّ. التفتّ ورأيت عبر زجاج السيارة الخلفي ظلاً وسط الشارع. في ذلك الظلّ المؤطّر بنافذة الإيمبالا المستطيلة تماماً كان يتركّز كلُّ حزن العالم. إنّها ألعاب نارية، سمعتُ بِلانو يقول، بينما سيارتنا تقفز وتترك خلفها بيت الأختين فونت، كامارو القَتَلة، شارع كوليما، وخلال ثانيتين كنّا في جادّة أواكساكا ونضيع باتجاه شمال العاصمة الفيدرالية.

II

رجال التحري المتوحشون

(١٩٧٦-١٩٩٦)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١

أماديو سالباتييرّا، شارع جمهورية فنزويلا قرب قصر التفتيش، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦.

آه، أيّها اِلفَتَيان، قلتُ لهما، ما أروع أنّكما جئتما، ادخلا وكفى كما لو أنّكما في بيتكما ذاته، وبينما كانا يتوغّلان متسربين في الممر، أو بالأحرى يتلمسان طريقهما، لأنّ الممرّ كان مظلماً والمصباح كان منصهراً ولم أُبدله (حتى الآن لم أبدّله) تقدّمتُ قافزاً من الفرح حتى المطبخ، من حيث أخرجتُ زجاجة مِثكال «المنتحرون»، مِثكال يُصنّع فقط في تشيهواهوا، محدود الإنتاج، ماذا تظن، والذي كنتُ أتلقى منه حتى عام ١٩٧٦ صندوقاً بريدياً بزجاجتين في العام. عندما عدتُ كان الفتيان في الصالون يتأمّلان لوحاتي ويتفحصان بعضَ الكتب وأنا لم أستطع تفادي أن أقول لهما كم أسعدتني تلك الزيارة. من أعطاكما عنواني، أيّها الفتيان؟ خِرمان، مانوِل، أركِلِسْ؟ وعندها نظرا إليَّ كما لو أنّهما لم يفهما وبعدها قال أحدهما لِيْستْ أرثوبيدِ، وقلت لهما، لكن اجلسا، استريحا، آه، خِرمان لِيستْ أرثوبيدِ، أخي، هو دائماً يتذكّرني، هل ما زال بتلك الضخامة والطيبة؟ وهزّ الفتيان أكتافهما وقالا بلى، طبعاً، لم يكن لينكمش، أليس صحيحاً؟ لكنّهما فقط قالا بلى وعندها قلتُ لهما هيّا بنا نتذّوق هذا المِثكال ومرّرتُ لهما كأسين وهما بقيا ينظران إلى الزجاجة كما لو أنّهما كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يخافان أن يخرج منها تنينٌ منطلقاً وأنا ضحكتُ، لكنّني لم أضحك منهما، ضحكت فرحاً خالصاً، سروراً يحدثه وجودي هناك معهما، وعندها سألني أحدهما عما إذا كان المِثكال يُسمى هكذا، تماماً كما كانت عيونهما ترى، فمرّرت لهما الزجاجةَ وأنا ما أزال أضحكُ، كنتُ أعرف أنّ الاسم سوف يصعقهما وابتعدت، لِنَقُلْ خطوتين كي أراهما بشكلٍ أفضل. باركهما الله، ما أصغرهما من شباب، بشعرهما حتى الكتفين مُحَمّلين بالكتب، يا للذكريات التي جاءاني بها وعندها سألني أحدهما عما إذا كنتُ واثقاً من أنّ هذا لا يقتل وأنا قلتُ لهما كيف سيقتل، هذا صحة خالصة، ماء الحياة، اشرباه دون ارتياب ولكي أعطيهما مثلاً ملأتُ كأسي وشربت نصفه بجرعة واحدة ثمّ سكبتُ لهما، في البداية فقط بلل الفتيان الوغدان شفاههما، لكنّه بدا لهما بعدها جيّداً وبدآ يشربان كرجلين. إيه أيّها الفتيان، كيف تجدانه؟ سألتهما فقال واحد منهما، التشيلي إنّه لم يسمع أحداً قط يتكلّم عن مِثكال يسمى «المنتحرون»، وبما أنّه بدا لي صلفاً قليلاً قلتُ في المكسيك يوجد ما يقارب المائتي علامة مِثكال على أقل تقدير، لذلك من الصعب جدّاً معرفتها كلّها وخاصّة إذا لم يكن المرء من هنا، لكن طبعاً هذا لم يكن يعرفه الفتى، وقال الآخر إنّه جيّد، وقال أنا أيضاً لم أسمعهم يذكرونه واضطُرِرتُ أنا لأن أقولَ لهما إنّهم ما عادوا يُصَنِّعون هذا المِثكال، المعمل أفلسَ، أو أُحرق، أو بيع إلى شركة باسكوال لتعبئة المرطبات، أو أنّه بدا للمالكين الجدد أنّ هذا الاسم لم يكن، لِنَقُلْ، تجارياً جداً. وبقينا برهة صامتين، هما واقفان وأنا جالس، نشرب ونتحدّث، من سيتذكر ما كنا نتحدّث به. وعندها قال واحد منهما يا سيّد سالباتييرّا، كنّا نريد أن نتحدّث معك عن ثِساريا تيناخِرو. وقال الآخر: وعن مجلة كابوركا. يا لهما من فتيين وغدين. كان عقلاهما ولساناهما متصلين

بعضهما ببعض. كان باستطاعة الواحد منهما أن يبدأ بالكلامَ ويتوقّف في منتصفِهِ والآخر يستطيع أن يتابع الجملةَ أو الفكرة ذاتها كما لو أنّه هو من بدأها. وحين ذكرا اسم ثِساريا رفعتُ نظري كما لو أنّني أراهما عبر ستارة من شاش، من شاش ساحر كي أكون أكثر دقّة، وقلتُ لهما لا تنادياني بالسيّد، أيّها الفتيان، نادياني أماديو، كما يفعل أصدقائي، وهما قالا موافقين، يا أماديو. وعادا ليذكرا اسمَ ثِساريا تيناخِرو.

بِرلا أبيلِسْ، شارع ليوناردو دافنشي، حي ميكسكوَاكْ، مكسيكو العاصمة الفدرالية كانون الثاني ١٩٧٦.

سوف أتكلّم عن عام ١٩٧٠. تعرفت عليه في عام ١٩٧٠، في معهد بوربنير التحضيري، في تاليسمان، كلانا درس هناك بعض الوقت. هو منذ عام ١٩٦٨، العام الذي وصل فيه إلى المكسيك وأنا منذ ١٩٦٩، وإن لم نتعارف حتى ١٩٧٠. لأسبابٍ ليس الآن مجال ذكرها، كلانا ترك الدراسة لبعض الوقت. هو أعتقدُ لأسبابٍ اقتصادية وأنا لأنّني شعرت برعبٍ في ضميري. لكنّني عدتُ بعدها وعادَ هو أيضاً أو أجبرَهُ والداه على العودة وعندها تعارفنا. أتحدّث عن عام ١٩٧٠ وأنا كنتُ أكبر أبناء صفّي، الأكبر سناً، كنتُ في الثامنة عشرة من عمري وعليّ أن أكون في الجامعة، وليس في التحضيري، لكنّني كنتُ هناك في معهد بوربِنير التحضيري، وذات صباح وقد تقدّمت السنةُ الدراسية ظهر هناك، تمعّنتُ فيه على الفور، لم يكن تلميذاً جديداً، كان له أصدقاء وكان أصغر منّي بسنة على الرغم من أنّه أيضاً أعادَ السنة، كان في تلك المرحلة يعيشُ في حيّ ليندابيستا، لكنّ والديه غيّرا بعد بضعة أشهر البيتَ وذهبوا ليعيشوا في حي نابولي. صرت صديقته. في الأيّام الأولى وبينما كنتُ أستجمعُ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شجاعتي كي أُكلّمه، كنتُ أراه يلعبُ بكرة القدم في الفناء، كان يسحره اللعبُ وأنا أراه من الدرج وكان يبدو لي أجمل فتى شاهدته في حياتي. في التحضيري كان الشعرُ الطويل ممنوعاً، لكنّ شعره كان طويلاً وحين كان يلعبُ بالكرة يخلع قميصه فيبقى عاري الظهر. بالنسبة لي كان يبدو مثلَ يونانيٍّ من أولئك الذين يُشَاهَدون في مجلات الأساطير اليونانية، ويبدو أيضاً في مناسبات أخرى (في الصفّ، حين كان يبدو نائماً)، قديساً كاثوليكياً. كنتُ أراقبه ولا أطلبُ أكثر. لم يكن عنده أصدقاء كثيرون. كان يعرف كثيرين، هذا صحيح، يضحكُ مع كثيرين (دائماً كان يضحك)، يمزحُ، لكن أصدقاءه كانوا أقرب إلى القليلين أو كانوا معدومين. لم يكن طالباً جيّداً. كان يضيعُ في دروس الكيمياء والفيزياء. كان هذا يثير استغرابي، لأنّهما أيضاً لم تكونا مادتين صعبَتَيْن جدّاً. يكفي قليل من الانتباه لتجاوزهما، لكن يبدو أنّه كان لا يكاد يدرسُ إطلاقاً وأنّ رأسه في الصف كان في مكان آخر. اقترب مني مرّةً، كنتُ فيها على الدرج أقرأ الكونت لوترِيامون، وسألني عمّا إذا كنتُ أعرفُ من هم أصحاب معهد بوربنير التحضيري. انتابني من الخوف ما جعلني لا أعرف بماذا أجيبه، أعتقد أنّني فتحت فمي ولم تخرج كلمة واحدة منه، تفكّك وجهي بل ومن المحتمل أنّني رحتُ أرتجف. كان هو بلا قميص، كان يحمله في يدٍ ويحمل في الأخرى كيساً فيه دفاتره، كيساً مليئاً بالغبار وينظر إليّ بابتسامة على شفتيه وأنا أنظر إلى العرق على صدره، والذي كانت ريحُ المساء أو هواؤه (فهما ليس الشيء ذاته) تجفّفه بسرعة مدوّخة. معظم الدروس كانت قد انتهت ولا أدري ماذا كنتُ أفعل على الدرج، أنتظر أحداً، صديقاً أو صديقة، على الرغم من أنّ هذا غير محتمل، فأنا أيضاً لم يكن لي أصدقاء أو صديقات كثر، ربّما بقيت فقط كي أشهدَ لعب كرة القدم. أتذكّرُ أنّ

لون السماء كان رمادياً رطباً، لامعاً وأنّ الطقس كان بارداً، أوّ أنّني أنا شعرت بالبرد. وأتذكّر أيضاً أنّ الشيء الوحيد الذي كان يُسمَع هي خطوات بعيدة، ضحكات مُخفَّتة، المدرسة مقفرة. بالتأكيد ظنَّ أنّني لم أسمعه في المرّة الأولى وعاد ليوجه إليّ السؤال ذاته. لا أعرفُ من هو المالك، قلتُ له، لا أعرف ما إذا كان للمعهد التحضيري مالك. طبعاً له مالك، قال هو، هو الأوبوس دِي. لا بدّ أن جوابي بدا له جواب الحمقاء النموذجي. طائفة كاثوليكية تتحالف مع الشيطان، قال هو ضاحكاً. وعندها فهمتُ وقلتُ له إنّ الدين لا يهمّني كثيراً وإنّني كنتُ أعرف أنَّ معهد بوربِنِير التحضيري يعود للكنيسة. لا، قال هو، المهمُّ هو إلى أيِّ قطاع من الكنيسة تعود ملكيته. إلى الأوبوس دِي. ومن هم أتباع الأوبوس دِي، سألتُهُ. عندها جلس بجانبي على الدرج وبقينا نتكلّمُ برهةً طويلة وأنا كنتُ أعاني لأنّه لا يرتدي قميصه والبرد يزداد في كلّ مرّة أكثر. أتذكّر من ذلك الحديث الأوّل ما قاله عن والدَيْه: قال إنّهما ساذجان وإنّه هو أيضاً ساذَجٌ وربّما قال أيضاً إنّهم كانوا جهلة (والديه وهو) وبسيطين، لأنّهم لم ينتبهوا حتى تلك الساعة إلى أنَّ المدرسة كانت للأوبوس. هل يعرف والداكِ من يأمر هنا؟ سألني. أمّي ماتت، قلتُ، ووالدي لا يعرف ولا يهمّه أن يعرف. أنا أيضاً لا يهمّني، أضفتُ، فقط أريدُ أن أُنهي التحضيري وأدخلَ الجامعة. وماذا ستدرسين؟ سألني، آداب، قلتُ له، عندها قال لي إنّه كاتبٌ. يا للمصادفة، قال، أنا كاتب. أو شيئاً من هذا القبيل. دون أن يعطيه أهمّية. طبعاً ظننتُ أنّه كان يسخر مني. هكذا أصبحنا صديقين. كنتُ في الثامنة عشرة وكان هو قد أتمَّ السابعة عشرة توّاً. كان يعيش في مكسيكو منذ الخامسة عشرة من عمره. دعوته مرّة إلى ركوب الحصان. كان والدي يملك أرضاً في تْلاكسكالا واشترى حصاناً. هو قال إنّه يُجيد ركوب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحصان وأنا قلتُ له سأرافق أبي هذا الأحد إلى تْلاكسْكالا، إذا أردْتَ تستطيع أن تأتي معنا. كم كانت تلك الأرض قاحلة. كان والدي قد بنى كوخاً من اللبن وكان هذا كلّ ما هو موجود، الباقي جنبات وأرض جافّة. حين.وصلنا نظر هو إلى كلّ شيء بابتسامة، كما لو أنّه كان يقول، كنتُ أتصوّر أنّنا لن نأتي إلى بيت ريفي أنيق، إلى إقطاعة، لكن هذا يتجاوز الحدّ. حتى أنا خجلتُ قليلاً من أرض أبي. لأنّه لم يكن يملك، لم يكن يملك ولا حتى سرجاً، والحصان كان يعتني به بعضُ الجيران. بقينا برهة، بينما ذهب والدي في طلب الحصان، نمشي في تلك الأرض القاحلة. أنا كنتُ أُحاول أن أكلّمه عن كتب قرأتُها، وكان دون شكّ لا يعرفها، لكنّه بالكاد كان يُصغي إليّ. كان يمشي ويُدخّن، يمشي ويُدخّن والمنظر هو دائماً ذاته. حتى سمعنا زمور سيارة أبي وجاء بعدها الرجل الذي كان يعتني بالحصان، دون أن يمتطيه. يقوده من لجامه. عندما عدنا إلى الكوخ كان أبي والرجلُ قد ذهبا في السيارة ليحلاّ بعض القضايا والحصان مربوط بانتظارنا. اركبْ أنت أوّلاً، قلتُ له. لا، قال هو (كان يُلاحظ أن رأسَهُ كان في مكان آخر)، اركبي أنتِ. فضّلتُ ألاّ أجادل. ركبتُ ورحتُ أخبّ على الفور. عندما عدتُ كان هو جالساً مستنداً بظهره إلى جدارِ الكوخ ويُدخّن. تجيدينَ ركوب الحصان، قالَ لي. نهض بعدها، اقترب من الحصان، قال إنّه ليس معتاداً على الركوب دون سرج، لكنّه امتطاه بقفزة واحدة وأنا أشرت له إلى اتجاهٍ، قلتُ له، إنّه يوجدُ هناك نهر أو بالأحرى سريرُ نهرٍ، جافٌّ الآن لكنّه عندما تمطر يمتلئ وكان جميلاً، راح بعدها يخبّ. كان يُجيد الركوب. أنا فارسةٌ جيدة. لكنّه كان بجودتي أو ربّما أفضل منّي. العَدْوُ من دون ركابٍ صعب وراح هو يعدو ملتصقاً بظهر الحصان، حتى ضاع عن ناظري. بينما كنتُ أنتظرُ رحت أعدّ أعقابَ

السجائر التي أطفأها بجانب الكوخ، انتابتني رغبة بأن أتعلّم التدخين. بعد ساعات، حين كنّا عائدين في سيارة أبي هو كان في المقعد الأمامي وأنا في المقعدِ الخلفيِّ قال لي إنَ من المحتمل أن يكون تحت تلك الأراضي هرمٌ مطمورٌ. أتذكّر أنّ والدي حَرَفَ نظرَهُ عن الطريق كي ينظر إليه. أهرامات؟ نعم، قال هو، فباطن الأرض مليء بالأهرامات. لم يُعلّق أبي. أنا، من ظُلمة المقعد الخلفي، سألته عمّا إذا كان يصدّق ذلك. هو لم يجبني. رحنا بعدها نتكلّم عن أشياء أخرى، لكنّني بقيتُ أُفكِّرُ ترى لماذا قال ما قاله عن الأهرامات. رحتُ أُفكِّرُ بالأهرامات. رحتُ أفكّرُ بأرضِ أبي الوعرة وبعدها بوقت طويل، حين لم أعد أراها، في كلّ مرّة أعود فيها إلى الأراضي القفراء، كنتُ أُفكِّر بالأهرامات المطمورة، أفكِّر في المرّة الوحيدة التي رأيتُهُ يركبُ فيها على الحصان فوق الأهرامات وأتخيّله أيضاً في الكوخ، حين بقي وحده وراح يُدخِّن.

لاورا خاورِغي، تْلالبان، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦.

قبل أن أتعرّف عليه كنتُ خطيبة ثِسار، ثِسار أماغا، وثِسار قدموه لي في ورشة شعر تورِّ التابعة لرئاسة جامعة المكسيك الوطنية المستقلة. هناك تعرّفت على ماريّا فونْت ورافائيل بارّيوس، هناك تعرّفتُ أيضاً على عوليس ليما، لا أدري، ربّما كان قد صار يُسمى عوليس ليما، لكنّنا نناديه باسمه الحقيقي، ألفردو لا أعرف بقيّة اسمه، وتعرّفتُ أيضاً على ثِسار وعشقنا بعضنا أو اعتقدنا أنّنا عشقنا بعضنا، وكلانا كان يتعاونُ مع مجلّةِ عوليس ليما. حدث هذا في نهاية عام ١٩٧٣، لا أستطيع أن أؤكّد ذلك بدقّة، كانت أياماً أمطارها كثيرة، أتذكّرُ ذلك لأنّنا دائماً كنّا نصلُ إلى الاجتماعات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مُبلَّلين. بعدها أصدرنا مجلةَ *لي هارفي أوزوالد*، يا له من اسم، كانت المساءات في مكتب الهندسة المعمارية حيث كان يعمل والد ماريّا، حلوةً، كنّا نشرب فيها نبيذاً وكانت هناك دائماً واحدة منّا تحمل شطائر، صوفيا أو ماريّا أو أنا، الفتية لم يحملوا قط معهم شيئاً، وإن كانوا في البداية نعم يحملون، لكن بعدها الذين كانوا يحملون شيئاً، أي أكثرهم تربية، راحوا يُغادرون المشروع، على الأقل ما عادوا يحضرون الاجتماعات، وبعدها ظهرَ بانتشو رودريغِثْ، وبعدها آلَ كلُّ شيء إلى الفشل، على الأقل فيما يتعلّق بي، لكنّني بقيتُ في المجلّة أو بقيت أتردّد على مجموعةِ المجلة، خاصّة لأنَّ ثِسار كان هناك، ولأجل ماريّا ولأجل صوفيا على وجه الخصوص (لم أكن يوماً صديقة، بمعنى الصديقة، لأنخِليكا)، ليس لأنّني كنتُ أُريدُ أن أنشر قصائدي، في العدد الأوّل لم يُنشر لي شيء، في العدد الثاني كانت ستظهر قصيدة لي، عنوانها *ليليث*، لكنّني لا أعرف ما الذي حدثَ في النهاية ولم تُنشر. الذي نشر قصيدة في *لي هارفي أوزوالد* فعلاً هو ثِسار، كان اسم القصيدة *لاورا وثِسار*، ما أعذبها، لكنّ عوليس بدّل عنوانها (أو أقنعه بأن يُبدّله) وسميت أخيراً لاورا ثِسار، هذه هي الأشياء التي كان يفعلها عوليس ليما.

حسن، المسألة هي أنّني تعرّفت أولاً على ثِسار، ولاورا وثِسار صارا خطيبين أو شيئاً مشابهاً. مسكين ثِسار. كان كستنائيَّ الشعر وطويلاً كفاية. يعيشُ مع جدّته (كان والداه يعيشان في ميتشواكان) ومعه كانت أولى تجاربي الجنسية الراشدة. أو بالأحرى معه كانت آخر تجاربي الجنسية المراهقة. أو ما قبل الأخيرة، إذا ما فكّرت جيّداً. كنّا نذهب إلى السينما، وفي مرّتين ذهبنا إلى المسرح في تلك المرحلة سجّلتُ في مدرسة الرقص وكان ثِسار يُرافقني أحياناً. كنّا

نكرّس بقيةَ الوقتِ للقيام بمشاوير طويلة، لنقدِ الكتب التي كنّا نقرأها معاً ونبقى معاً دون أن نفعل شيئاً. واستمرّ هذا بضعةَ أشهر، ربّما ثلاثة أو أربعة أو تسعة أشهر، ليس أكثر من تسعة أشهر، وذات يومٍ قطعتُ علاقتي به، هذا نعم أنا متأكّدة، أنا من قالت له لقد انتهى الأمرُ، على الرغم من أنّني نسيتُ الدافعَ الدقيق، وأتذكّر أنّ ثِسار تلقاهُ بشكل رائع، كان متفقاً معي، هو كان يدرسُ وقتذاك الطبَّ، سنة ثانية، وأنا كنتُ قد سجّلتُ توّاً في الفلسفة والآداب، وفي ذلك المساء لم أذهب إلى الدرس وذهبتُ إلى بيتِ ماريّا، كان عليّ أن أتكلّم مع صديقة، أعني شخصيّاً، وليس بالهاتف وحين وصلتُ إلى بيت ماريّا في كوليما وجدتُ بابَ الحديقةِ مفتوحاً وهذا ما استغربته قليلاً، فهذا الباب كان دائماً مغلقاً، نزوات من أمّ ماريّا، دخلتُ وقرعت الجرسَ، انفتح البابُ وسألني شخصٌ لم يسبق أن رأيتُهُ عمّا كُنت أبحث. كان هذا أرتورو بِلانو. كان عمره وقتذاك واحداً وعشرين عاماً، نحيلاً، طويلَ الشعر جدّاً ويضعُ نظارة، نظارة مريعة، على الرغم من أنّ ضعف بصره لم يكن شديداً بالكاد كان عنده بضع ديوبترات في كلّ عين، لكنّ سيانَ فالنظارة كانت مُريعة. فقط تبادلنا بضع كَلماتٍ، هو كان مع ماريّا وشاعرٍ يُسمى أنيبال، كان وقتها مجنوناً بماريّا، لكن حين وصلت كانا ذاهبين.

عدت ورأيته في ذلك اليوم ذاته. أمضيتُ المساء كَلَّهُ أتحدّث مع ماريّا وذهبنا بعدها إلى مركز المدينة لنشتري منديلاً، أعتقدُ، وبقينا نتحدّث (في البداية عن ثِسار ولاورا، ثمّ عن كل ما حدث وما يمكن أن يحدث) وانتهينا بتناول الكابوتشينو في مقهى كيتو، حيث تواعدت مع أنيبال. وقرابة الساعة التاسعة ظهر أرتورو. كان هذه المرّة برفقة تشيلي في السابعة عشرة من عمره، يُدعى فِليبّ مولِر، أفضل صديق له، شخص طويل جدّاً، لا يكاد يفتحُ فمه أبداً، ويتبعُ أرتورو إلى كلّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مكان. جلسا معنا، طبعاً. وصل بعدها شعراء آخرون، شعراء أكبر عمراً من أرتورو بقليل، ما من أحدٍ عضوٌ في الواقعية الأحشائية، لأسباب، من بينها أنّ الواقعية الأحشائية لم تكن موجودة بعد، شعراء كانوا أصدقاء لأرتورو قبل أن يرحل هو إلى تشيلي، مثل أنيبال، وبالتالي كانوا يعرفونه منذ أن كان في السابعة عشرة من عمره، وكانوا في الحقيقة صحفيين ومُوَظّفين، هذا النوع من الناس الحزينين الذين لا يخرجون من المركز، من مناطق معيّنة من المركز، أصحاب الحزن في المنطقة المشتركة في جادة تشابولْتِبّك، في الجنوب وفي رِفورما، في الشمال، أصحاب رواتب من صحيفة *إلْ ناثيونال*، مُدقّقون لغويون في *الإكثِلسيور*، كَتَبَة في أمانة الدولة كانوا حين يتركون وظائفهم البائسة ينتقلون إلى بوكارِلي وهناك يمدون مجساتهم أو وُرَيْقاتهم الخضراء. ومع أنّهم كانوا حزينين، كما سبق وقلتُ، إلاّ أنّنا ضحكنا في تلك الليلة كثيراً. رحنا بعدها نسير حتى موقف الحافلات، أنا وماريّا. وأنيبالْ، وفِليبِّ مولِر، وغونثالو مولِر (أخو فليبِّ الذي سيُغادر المكسيك سريعاً) وأرتورو. وجميعنا كنّا نشعر بأنفسنا سعداء جدّاً، أنا ما عدت حتى لأتذكّر ثِسار، ماريّا كانت تنظر إلى النجوم التي ظهرت بمعجزةٍ في سماء العاصمة الفيدرالية كأنّها إسقاطاتٌ ثلاثية الأبعاد، وكان خطونا نفسه خفيفاً، الجولة بطيئة جدّاً، كما لو أنّنا كنّا نتقدّم ونرجع على أعقابنا كي نُطيل اللحظةَ التي سنصل فيها حتماً إلى موقف الحافلات، كان هناك مسافة سرنا فيها جميعاً ونحن ننظر إلى السماء (النجوم التي كانت تَذْكُرُ ماريّا أسماءَها، على الرغم من أنّ أرتورو قال لي بعدها إنّه لم ينظر إلى النجوم بل إلى الأنوار المشتعلة في بعض الشقق، الشققِ الصغيرة كالعلياتِ في شارع فرساي، أو في لوثِرنا، أو في شارع لندن، وإنّه عرف في تلك اللحظة أنّ أقصى سعادته هي لو أنّه معي في إحدى

تلك الشقق ونتناول بعض التورت بالقشطة التي كان يصنعها بائعٌ جوّال في بوكارِلي. لكنّه وقتَها لم يقُل لي هذا (كنتُ سأعتبره مجنوناً)، قال لي إنّه يُحبّ أن يقرأ قصائد لي. قال لي إنّه يعبدُ النجوم، نجومَ نصف الكرة الشمالي ونجومَ نصف الكرة الجنوبي، طلب مني أن أعطيه رقم هاتفي.

أعطيته رقمَ هاتفي فهتف لي في اليوم التالي. واتفقنا على أن نلتقي، لكن ليس في المركز، قلتُ له لا أستطيع أن أخرج من بيتي في تْلالْبان، وإنّ عليَّ أن أدرس، وقال هو تمام، سأذهب لأراك، هكذا سأتعرف على تْلالْبان، وأنا قلتُ له ليس هناك ما تتعرف عليه، سيكون عليك أن تأخذ المترو ثم حافلة ثمّ حافلة أخرى وعندها لا أدري لماذا فكّرتُ أنّه سيضيع، قلتُ له أن ينتظرني في المترو، وحين ذهبتُ لأبحث عنه وجدته جالساً فوق بعضِ صناديق الفاكهة مستنداً بظهره إلى شجرة، يا إلهي، أفضل مكان يمكن للمرء أن يجده. كم أنتَ محظوظ، قلتُ له، نعم، قال لي، أنا محظوظ جدّاً. وكلّمني في ذلك المساء عن تشيلي، لا أدري ما إذا كان قد فعل ذلك لأنّه أراد أو لأنّني سألتُهُ، على الرغم من أنّه قال أشياء غير مترابطة، أيضاً تكلّم عن غواتيمالا والسلفادور، زار كلّ أمريكا اللاتينية، على الأقل كلَّ بلدان ساحل المحيط الهادي، وقبّلني وقبّلته لأول مرّة، وبعدها بقينا معاً أشهراً كثيرةً وبدأنا نعيش معاً وحدث بعدها ما حدث، أي أنّنا انفصلنا وأنا عدتُ لأعيش في بيتِ أمّي وسجّلتُ في علم الأحياء (آملةً أن أصبح ذات يوم عالمة أحياء جيّدة، آملةً أن أتخصّص في علم الأحياء الجيني) وبدأت تخطر لأرتورو أشياء غريبة. وقتها كان أن وُلِدت الواقعية الأحشائية، في البداية اعتقدنا جميعاً أنّها مزحة لكنّنا انتبهنا بعدها إلى أنّها لم تكن مزحة. وحين انتبهنا إلى أنّها لم تكن مزحة، سايرناهُ، بعضنا بسبب كسلِه، أعتقدُ، أو لأنها بدت لنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بسبب لامعقوليتها ممكنة، أو بسبب الصداقة، كي لا تخسر بغتةً أصدقاءك، سايرناه وصرنا واقعيين أحشائيّين. لكن ما من أحدٍ في أعماقه أخذها على محمل الجد أعني في أعمق أعماقه.

لكنّني وقتها كنتُ أبني صداقاتٍ جديدة في الجامعة وصرتُ في كلّ مرّة أرى أرتورو وأصدقاءه أقلَّ. أعتقد أنّ الوحيدة التي كنتُ أهتفُ لها أو التي كنتُ أخرجُ معها أحياناً كانت ماريّا. حتى صداقتي مع ماريّا بدأت تبرد. على كلّ الأحوال دائماً كنتُ بطريقةٍ أو بأخرى على اطلاع على ما كان يفعله أرتورو وكنتُ أُفكِّر: يا للحماقاتِ التي تخطر برأس هذا الرجل، كيف يمكنه أن يُصدِّق تلك الترهات، وفجأة خطر لي في ليلة لم أستطع النومَ فيها، أنّ كلّ شيء كان رسالةً لي. كانت طريقة ليقول لي لا تتركيني، انظري ما أنا قادر على فعله، ابقي معي! وعندها فهمت أنّ هذا الرجلَ في أعماق كينونته وغد. أن يخدع نفسه شيء وأن يخدعَ الآخرين شيءٌ آخر مختلف جدّاً. كلّ الواقعية الأحشائية كانت رسالةَ حبّ، التبختر المعتوه لطائرٍ أحمق تحت ضوءِ القمر، شيء دهمائي بما يكفي ولا قيمة له.

لكن ما أردت أن أقوله شيء آخر.

فابيو إرنستو لوخياكومو، تحرير مجلة لا تشيسبا، شارع الاستقلال، زاوية لويس مويا، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، آذار ١٩٧٦.

وصلتُ إلى المكسيك في تشرين الثاني ١٩٧٥، قادماً من بلدانٍ أمريكيّةٍ لاتينيةٍ أخرى، حيث عشت كيفما اتفق. كنتُ في الرابعة والعشرين من عمري وحظي بدأ يتغيّر. هكذا تجري الأمورُ في أمريكا اللاتينية، أنا أُفضّلُ ألا أبحثَ عن تفسيرات أخرى، بينما كنتُ أعيش خاملاً في بنما، علمتُ أنّني فزتُ بجائزة كاسا دِ لاس أمريكاس

للشعر. سررتُ جدّاً. لم يكن معي سنتيم واحد واستطعتُ بنقود الجائزة أن أشتري بطاقةَ طائرة إلى المكسيك وأن آكل. حسنٌ، الغريب هو أنّني لم أتقدّم في تلك السنة إلى مسابقة كاسا دِ لاس أمريكاس. هذه هي الحقيقة. كنتُ قد أرسلتُ لهم في العام السابق كتاباً والكتابُ لم يحصل ولا حتى على تنويهٍ. وفي العام الجاري فجأة أُعْلَمُ بفوزي بالجائزة وبدولارات الجائزة. عند سماع الخبر لأوّل مرة فكّرتُ أنّني أهذي. كنتُ أجوع. هذه هي الحقيقة، وحين يجوع المرءُ هناك يُصابُ بالخبل. فكّرتُ بعدها أنّ الأمر قد يتعلّق بلوخياكومو آخر، ، لكن المصادفات كثيرة، هناك لوخياكومو آخر أرجنتيني مثلي، ولوخياكومو آخر، عمره مثلي أربع وعشرون سنة، وآخر كتب مجموعة شعرية لها عنوان مجموعتي ذاته. حسن. في أمريكا اللاتينية تحدث هذه الأمورُ ومن الأفضل ألاّ يوجعَ المرءُ رأسه بحثاً عن جوابٍ منطقي، في حين أنّه لا يوجد أحياناً جواب منطقيّ. كنتُ أنا، من حسنِ الحظّ، مَنْ فاز بالجائزة، وهذا هو كل شيء، ، بعدها قال لي العاملون في كاسا دِ لاس أمريكاس إنَّ كتابَ العام السابق كان قد رُحِّلَ إلى هذا العام وأشياء من هذا القبيل.

هكذا استطعتُ أن أصل إلى المكسيك وأقمت في العاصمة الفدرالية وبعدها بقليل تلقيت مكالمة هاتفية من هذا الصبي يقول لي إنّه يريد أن يجري معي مقابلة أو شيئاً من هذا القبيل، أنا فهمت مقابلة. وطبعاً قلت له نعم، الحقيقة أنّني كنتُ أجدُ نفسي وحيداً تقريباً وضائعاً، لم أكن أعرفُ أيَّ شاعر مكسيكيّ شاب، ومقابلة أو أيّاً كانت بدتْ لي فكرة رائعة. وهكذا كان أن تقابلنا في اليومِ ذاته وحين وصلتُ إلى مكان الموعدِ وجدتُ أنّ من كان ينتظرني لم يكن شاعراً بل أربعة وما يريدونه لم يكن إجراء مقابلة، بل حديثٍ، حوارٍ على ثلاث موجات لينشروه في واحدة من أفضل المجلات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المكسيكية. كان الحوار سيدور بين مكسيكي، واحد منهم، وتشيليّ، واحد آخر منهم وأرجنتيني، أنا. الاثنان الآخران الزائدان كانا مستمعين. الموضوع: عافية الشعر الأمريكي اللاتيني الجديد. موضوع جيّد. وهكذا قلتُ لهم تماماً، متى تشاءون نبدأ، بحثنا عن مقهى هادئ إلى هذا الحد أو ذاك وذهبنا لنتكلّم.

كانوا قد جاءوا معهم بآلة التسجيلِ جاهزةً، لكن حين حانت ساعة الحقيقة حدث أن الخردة كَانت سيّئة. وعدنا لنبدأ. وهكذا بقينا قرابة النصف ساعة، تناولت خلالها فنجانَيّ قهوة بالحليب، دفعوا هم. كان يُلاحظ أنّهم لم يكونوا معتادين على هذه الأشياء، أعني على المُسجِّلة، أعني على الكلام عن الشعر أمام مسجّلة، أعني على ترتيب الأفكار وعرضها بوضوح. حسنٌ، حاولنا مرّتين أخريين لكنّنا فشلنا. قرّرنا أنَّ من الأفضل أن يكتب كلّ واحد ما يخرج معه ونجمع بعدها ما كتبه كلٌّ واحدٍ منّا. في النهاية أجرينا الحديث أنا والتشيلي، لا أدري ما جرى للمكسيكي.

كرّسنا بقيةَ المساء للتنزّه. وحدث معي شيءٌ غريب مع هؤلاء المراهقين، أو مع القهوة بالحليب التي دعوني إليها، لاحظتُ شيئاً غريباً فيهم، كما لو أنّهم كانوا هناك وفي الوقت ذاته لم يكونوا، لا أعرف كيف أوضّحُ، كانوا أوّلَ الشعراء المكسيكيين الشباب الذين تعرّفت عليهم، وربّما كان هذا ما بدا لي غريباً، لكن المسألة أنّني في الأشهر الأخيرة كنتُ قد تعرّفتُ على شعراء بيرويين شباب، على شعراء كولومبيين شباب، على شعر شباب من بنما وكوستاريكا ولم أشعر بالشيء ذاته. كنتُ خبيراً بالشعراء الشباب، وهناك كان يجري شيء غريب، كان هناك شيء ناقص، الملاحة، المشترك الرجولي بالأفكار والعواطف، الصراحة التي تسبق أي تقارب بين شعراء أمريكيين لاتينيين. وفي لحظة من المساء، أتذكره كما يتذكّر المرء

سكرةً غامضة، رحتُ أتكلّم عن كتابي ورحت أتكلّم عن قصائدي ذاتها ولا أدري لماذا حكيت لهم عن تلك القصيدة عن دانييل كوهن-بنْديت، قصيدة لم تكن أسوأ ولا أجود من القصائد الأخرى التي تشكل كتابي الفائز في كوبا، لكنّها في النهاية لم تُضمّن في الكتاب، بالتأكيد كنّا نتكلّم عن مدى عدد الصفحات، هذان (التشيلي والمكسيكي) كانا يكتبان قصائد طويلة جدّاً، هذا ما كانا يقولانه، فأنا لم أكن قد قرأتُ لهما بعدُ وكان عندهما، أظنُّ، نظريّة حول القصائد الطويلة، كانا يسميانها القصائد-الرواية، أعتقدُ أنّ الفكرة كانت لبعض الفرنسيين، لا أتذكّر بوضوحٍ وأُسهِب وأحكي لهما، بصراحة لا أعرف بمناسبة ماذا، عن موضوع قصيدة كوهن-بِنديت ويسألني واحد منهما كيف لم تُضَمّن في كتابك؟ وأبدأ أنا وأقول المسألة هي أنّ العاملين في لا كاسا دِ لاس أمريكاس قرّروا نزعها ويأتي المكسيكي ويقول لي لكنّهم استأذنوك، أفترضُ، وأنا أقول له لا، لم يستأذنوني ويأتي المكسيكي ويقول لي، نزعوها من الكتاب دون أن يقولوا لك شيئاً؟ وأنا أقول له، نعم في الحقيقة لم يكن ممكناً معرفة مكاني، والتشيلي يسألني ولماذا نزعوها؟ وأنا أحكي له ما كان موظفو لا كاسا دِ لا أمريكاس قد حكوه لي، أنّ كوهن-بنديت كان قد أدلى قبل ذلك بقليل بتصريحاتٍ ضدّ الثورة الكوبية، والتشيليُّ يقول، فقط لهذا السبب؟ وأنا أقول له، أتصوّر أنّه كذلك، على الرغم من أن القصيدة أيضاً لم تكن جيّدة جدّاً (ما أغباني! ما الذي سقاني هؤلاء العناصر حتى أستفيض بهذه الطريقة؟) طويلة نعم كانت طويلةً، لكنّها لم تكن جيّدة جدّاً والمكسيكي يقول أولاد العاهرة، لكنّه يقول ذلك بعذوبة، صدّقوني، دون ضغينة، كما لو أنّه كان يفهم في النهاية الجرعة السيّئة التي اضطُرّ الكوبيون لأن يجرعوها بسبب بتر كتابي، كما لو أنّه في أعماقه لم يزعج نفسه باحتقاري واحتقار رفاقي في هافانا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأدب ليس بريئاً، أعرفُ هذا منذ كنتُ في الخامسة عشرة. وأتذكّرُ أنّ هذا ما فكّرت به وقتذاك، لكنّني لا أتذكّر ما إذا قلته أم لم أقله. وإذا قلته لا أتذكّرُ في أيّ سياق قلته. وعندها تحوّل المشوار، (عليّ أن أُبيّن هنا أنّنا لم نعد خمسة أشخاص، بل ثلاثة فقط، المكسيكي والتشيليّ وأنا، المكسيكيان الآخران كانا قد تبخّرا في بوابات المطهر) إلى نوعٍ من المشوار خارج أسوار الجحيم.

كنا نمضي ثلاثتنا صامتين، كما لو أنّنا أصبنا بالبكم، لكنّ أجسامنا كانت تتحرّك كما لو على إيقاع شيءٍ ما، كما لو أنّ شيئاً ما يُحرّكنا في تلك الأرض المجهولة ويجعلنا نرقص، مشوار مُوَقَّع وصامت إذا ما سُمح لي بهذا التعبير، وعندها أصبت بهلوسة، لم تكن الأولى في ذلك اليوم، بالتأكيد لم تكن الأخيرة: الحديقة التي كنّا نسير فيها انفتحت على نوع من البحيرة، البحيرة انفتحت على نوع من الشلال، والشلال شكّل نهراً راح يتدفق في نوعٍ من المقبرة، كان لون كلّ شيء، البحيرة والشلال والنهر والمقبرة، أخضرَ داكناً وصامتاً. وعندها فكرتُ بواحد من اثنين: إمّا أنّني رحتُ أُصاب بالجنون، الأمر الصعب، لأنّ رأسي كان دائماً صافياً، وإمّا أنّهما خدّراني. وعندها قلتُ لهما: توقّفا، توقّفا لحظة، أشعر بأنّني مريض، عليَّ أن أرتاح، وهما قالا شيئاً لكنّني لم أسمعه، فقط رأيتهما يقتربان منّي ولاحظتُ، كنتُ أعي أنّني أنظر إلى كلّ الجهات، كما لو أنّني أبحث عن ناس، أبحثُ عن شهود، لكن لم يكن هناك أحد، كنّا نعبر غابةً، وأتذكّرُ أنّني سألتهما ما تلك الغابة، وهما قالا لي إنّها غابة تشابولْتِبِك، وبعدها حملاني إلى مقعد وبقيتُ برهة جالساً وسألني واحدٌ منهما ما الذي كان يؤلمني (كلمة يؤلم، الدقيقة والمستخدمة في مكانها الصحيح) ويجب أن أكون قد قلتُ إنّ ما يؤلمني هو كامل جسدي، كامل روحي، لكن بالمقابل قلتُ لهما

لا بدّ أنّه الارتفاع، الذي لم أتمكن من الاعتياد عليه، هو ما كان يؤثّر عليّ، ما كان يضعُ رؤى في عينيّ.

سان سِباستيان روسادو، مقهى لا راما دورادا، حيّ كويواكان، مِكسيكو العاصمة الفدرالية، نيسان ١٩٧٦.

سبق وقالها مونسيبايس: يا تلاميذَ مارينِتّي وتزارا، قصائدكم الصاخبة، المهذارة، المفتعلة خاضت معركتها على أرض التصميم الحروفي البسيط ولم تتخطّوا قط مستوى التسلية الطفولية. مونسي يتكلّم عن أتباع المدرسة الضخبيّة، لكن يمكن أن يطبق الشيءُ نفسه على الواقعيين الأحشائيين. لا أحد كان يوليهم بالاً واختاروا الشتيمة العشوائيّة. في كانون الأوّل ١٩٧٥، قبل أعياد الميلاد بقليل حدثت فاجعةُ أن التقيتُ بعددٍ منهم، هنا في لا راما دورادا، الذي لن يسمح لي صاحبه نِستور بِسكِيْرا بالكذب، كان لقاءً مزعجاً جدّاً. واحد منهم، الذي كان يقودُهم، هو عوليس ليما، والآخر كان شخصاً ضخماً وبديناً، أسمر، يُدعى موكتزوما أو كواوتهموك، الثالث كانوا ينادونه بالبشرة الإلهية. كنت جالساً هنا بالذات، أنتظرُ ألبِرتو مور وأختَهُ، وفجأة يحيط بي هؤلاء الممسوسون الثلاثة، يجلسون كلّ واحد على جانب ويقولون لي، يا لويسيتو، سنتكلّم عن الشعر أو أنّنا سنبيّنُ مستقبل الشعر المكسيكي أو شيئاً من هذا القبيل. أنا لستُ شخصاً عنيفاً لكنّني بالطبع توتّرتُ. فكّرتُ: ماذا يفعلون هنا، كيف عثروا عليّ، ما الحسابات التي جاءوا ليُصفُّوها. هذا البلد كارثة، هذا ما يجب الاعتراف به. أدب هذا البلد كارثة، هذا أيضاً يجب الاعتراف به، على كلِّ حال بقينا نتكلّم قرابةَ العشرين دقيقة (لم أكره قط إلى ذلك الحدّ عدم دقّة مواعيد ألبِرتيتو وأخته المغرورة) بل وتوصّلنا في النهاية إلى الالتقاء على عدّة نقاط. في الأعماق كنّا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مُتّفقين على تسعين بالمائة بالنسبة إلى مخاوفنا. طبعاً دافعت فيما يتعلّق بالبانوراما الأدبية وفي كلّ لحظة عمّا كان يفعله أوكتافيو باث. طبعاً كان يبدو أنّهم غير مُعجبين إلاّ بأنفسهم. من حسن الحظ. أقول: بين السيّئين، هذا هو الأقل سوءاً، كان الأسوأ أن يعلنوا أنّهم تلاميذ الشعراء الريفيين أو أتباع المسكينة روساريو كاستِيّانو، أو أزلام لخايمِ سابينِس (خايمِ عنده وحده ما يكفي، أظنُّ) أخيراً ما كنت أقوله هو أنّه كان هناكَ نقاط استطعنا أن نلتقي عليها. بعدها جاء ألبِرتو وكنتُ ما أزال حيّاً. كان هناك عدّة صيحات وعبارتان أو أكثر غير لائقتين، موقف كان نشازاً في جوّ لا راما دورادا. دون نِستور بِسكِيْرا لن يتركني أكذب، لكن لا أكثر. وحين وصل ألبِرتو، كنتُ أظنّ أنّه كان قد خرج من اللقاء راضياً. لكن تأتي خوليا مور وتسأله ملءَ فمها من هم وماذا يفكّرون أن يعملوا هذا المساء. ويأتي، الذي كانوا يُسمّونه البَشَرة الإلهية، ويقول لها، دون إبطاء ولا تكاسل، لا شيء، وإنّه إذا كان لديها أيّ فكرة عن أيّ شيء فلتقلها فهو جاهز جدّاً لأيّ شيء. وعندها تأتي خوليا، دون أن تنتبه إلى النظرات التي كنّا نرميها بها أنا وأخوها، وتقول إنّنا نستطيع أن نذهب لنرقص في بريابوس، وهو محلّ سوقيّ إلى حدّ الجنون في حي العاشر من مايو أو في تِبِّيتو، ذهبت إليه مرّة واحدة فقط وحاولت أن أنسى تلك المرّة الوحيدة بكلّ جهدي، وبما أنّنا لا أنا ولا ألبِرتو قادران على أن نقول لا لخوليا، ذهبنا إلى هناك، في سيارة ألبِرتو، أنا وعوليس في المقعد الأمامي، وخوليا والبشرة الإلهية والمدعو كواوهتِموك أو موكتِزوما في المقعد الخلفي. بصراحة كنت خائفاً من الأسوأ، فهؤلاء الناس لا يُوثَقُ بهم، حكوا لي مرّة أنّهم حصروا مونسي في سانبورنْس، في لا كاسا بوردا، لكن، حسنٌ، ذهب مونسي ليتناول فنجان قهوة معهم فاستمع إليهم، يمكن أن نقول،

وهو يتحمّل جزءاً من المسؤوليّة، كلّ العالم يعرفون أنّ الواقعيين الأحشائيين كانوا من الصخبيّين وكلّ العالم يعرف رأي مونسي بالصخبيين، لذلك في الحقيقة لا يستطيع أن يشكو مما حدث له، ثمّ ومن جهة أخرى لا أحد يعرفُ، أو قليلون هم من يعرفون، ماذا حدث، في إحدى المناسبات استهواني أن أسأله، لكنّني لم أفعل كياسةً ولأنّني لا أريدُ أن أنكأ الجراح، على كلٍّ حدث له شيءٌ في لقائه من الواقعيين الأحشائيين، كلُّ العالم وكلُّ الذين كانوا يحبّون مونسي وكلُّ الذين كانوا يكرهونه سرّاً كانوا يعرفون هذا،، على كلٍّ هناك تخمينات وتكهنات لكلّ الأذواق، هذا ما كنتُ أُفكّر به بينما سيارة ألبِرتو كانت تتنقل مثل نيزك أو مثل صرصور، بحسب مناطق السير، إلى بريابوس وخوليا مور في المقعد الخلفي لا تتوقّف عن الكلام والكلامِ والكلام مع الصعلوكَيْن الواقعيَّيْن الأحشائيين. سوف أوفّر عليكم وصف صالة الرقص المذكورة. أُقسِم بالله إنّني فكّرت أنّنا لن نخرج من هناك أحياء. فقط سأقول إنّ الأثاث والنماذج البشرية التي كانت تُزيّن داخلها يبدو كما لو أنّهم استخرجوا اعتباطياً من *إل بِرِكيّو سارنيينتو* للبثاردي، من *أهل القاع* لماريانو أثويلا، من خوسِه تريغو *لِدِل* باسو، من أسوأ روايات لا أوندا، ومن أسوأ سينما مواخير الأربعينيات (أكثر من واحدة كانت تُشبه تونغولِلِ[١]، التي بين قوسين أعتقد أنّها لم تعمل سينما في الخمسينات، لكنّها لا شكّ استحقت أن تعمل). حسن، كما كنتُ أقول دخلنا إلى بريابوس وجلسنا إلى طاولة قريبة من الحلبة، وبينما كانت خوليا ترقص التشاتشاتشا أو البولِرو أو الدانثون، فأنا لست ضليعاً بتراث

(١) Tongolele الاسم الفني ليولاندا مونتِس الراقصة والممثلة الأمريكية الشمالية المشهورة (١٩٣٢-).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الموسيقى الشعبية، رحت أنا وألبِرتو نتكلّم عن شيء (بشرفي لا أذكر عن ماذا) وجاءنا نادل بزجاجة تِكيلا أو قاتل فئران، قبلناها دون أي جدل، إلى هذا الحد بلغ قنوطنا. وفجأةً في زمن أقل من الزمن الذي يستغرقه المرء في قول «الآخر»، كنّا قد سكرنا وعوليس ليما راح يلقي قصيدة بالفرنسية، ما المناسبة، لا أدري، لكن المسألة أنّه راح يلقيها، أنا كنت أجهل أنّه يعرفُ الفرنسية، الإنكليزية ممكن، يبدو لي أنّني رأيتُ في مكان ما ترجمة له لريتشارد براوتيغان، شاعر سيّئ جدّاً أو لجون جيورنو، الله أعلمُ من يكون، ربّما اسم آخر لليما: لكن الفرنسيّة، فاجأني قليلاً، تعبير حسن، لفظ مقبول، والقصيدة، كيف سأقول، كأني سمعتها، كأني سمعتها، لكن ونتيجة أنّ السكرةَ في بدايتها وأغاني البولِرو التي لا تهدأ لم أنجح في تحديدها. فكّرت بكلاودِل، لكن لا أنا ولا أنتم نتصوّر ليما يلقي شعر كلاودِل، أليس صحيحاً؟ فكّرتُ ببودلير، فكّرت بكاتول مِنْدِس (قمت أنا بترجمة بعض نصوصه لمجلة جامعية)، فكرت في نيرفال. أخجل قليلاً من الاعتراف، لكن هذه هي الأسماء التي فكّرت بها؛ عليّ أن أقول لصالحي إنّني سرعان ما سألتُ نفسي في ضباب الكحول ما علاقة نيرفال بِمنْدِس، طبعاً وفكّرت بعدها بمالارميه. ألبِرتو الذي كان يُراهن كما يبدو على ما كنتُ أراهنُ عليه، قال: بودلير. بالطبع لم يكن بودلير. هذه كانت الأبيات. لنرى إن كنتم تحزرون[١]:

يُساوم قلبي المحزون في الكوثل،
قلبُ العريف يُخفي ما به:
يرمونه برشقاتٍ من الحِساء،
يساوم قلبي المحزن في الكوثلِ،

---

(١) القصيدة باللغة الفرنسية.

على وَقْعِ مِزاحِ الجُنْدِ المُبتذل
وهم يطلقون ضحكاتٍ شاملة،
يُساوم قلبي المحزون في الكوثل،
قلبُ العريف الذي يُخفي ما بهِ،
العريف المُنعِظُ الغُرُّ
الذي أفسد طِباعَهُ مِزاحُهم المُبتذل
نشاهدُ على الدفّةِ أفاريز لأغرارٍ مُنعِظين
أيتها الأمواجُ الهدّارةُ، خُذي قلبي واغسليه،
مُنعظاً وغُرّاً أفسدهُ مزاحهم المُبتذل!
ما العمَلُ أيُها القلبُ المسروقُ
حين ينتهون من لَوْكِهم؟
ستنطلِقُ شهقاتُ أغنياتهم الباخوسية
حين ينتهون من لَوْكِهم
ستعاني معِدتي من أوارٍ شديد،
سيكون قلبي قد ابتُلِع
ما العمل أيها القلبُ المسروقُ،
حين ينتهون من لَوْكي؟

الشعر لرامبو. مفاجأة. أعني مفاجأة نسبية، كانت المفاجأة أنّه قرأها بالفرنسية. حسن، انزعجت قليلاً لأنّني لم أحزر، أعرف أعمال رامبو جيداً لكنّني لم أستأ، نقطة لقاء أخرى، ربّما سنستطيع أن نخرج أحياء من ذلك النادي الليلي. ثم وبعد أن ألقى شعر رامبو حكى قصّة عن رامبو، وعن حربٍ، لا أعرف أيّ حرب، الحرب موضوع لا يهمّني، لكن كان هناك شيء، رابط بين رامبو، الشاعر والحرب، نكتة بذيئة، بالتأكيد، على الرغم من أنّ أذنيّ وعينيَّ وقتها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت تُسجّل نكات صغيرة وبذيئة (أُقسم أنّني سأقتل خوليتا مور إذا ما عادت وجرّتني إلى ناد شبيهٍ بِبريابو). مشاهد مجنونة حيث كان شباب أشرار ومتجهمون يرقصون مع خادمات شابات يائسات أو مع عاهراتٍ شابات يائسات في دوّامة من التناقضات، أعترفُ، إذا أمكن ذلك، أنّ هذا زاد من سكرتي. حدث بعدها شجار في مكان ما. لم أرَ شيئاً، فقط سمعتُ صرخات. عربيدان طلعا من الظلمة يجران شخصاً داميَ الوجه. أتذكّرُ أنّني قلتُ لألبِرتو إنَّ من الأفضل لنا أن نذهب، الحالة يمكن أن تسوء، لكنّ ألبِرتو كان يُصغي إلى قصّة عوليس ليما ولم يعرني اهتماماً. أتذكّر أنّني تأمّلت خوليا وهي ترقص في الحلبة مع أحد أصدقاء عوليس، بعدها أتذكّر نفسي وأنا أرقص بولِرو مع البشرة الإلهية، كما لو أنني في حلم، لكنّني مسرور، ربّما شعرت لأوّل مرّة في تلك الليلة بأنّني مسرور. وأتذكّرُ على الفور، كَمَنْ كان يستيقظ، أتذكَّرُ أنّني همست في أذن رفيقي (في الرقص) أنّ موقفنا لا شكّ سيُلهب بقية الراقصين والمشاهدين. ما تلا ذلك مشوّش. أحد ما شتمني. كنتُ، لا أدري، جاهزاً لأدخل تحت طاولة وأبقى نائماً أو لأدخل في صدر البشرة الإلهية وأبقى أيضاً نائماً. لكنّ أحداً ما شتمني وقام البشرةُ الإلهيةُ بحركة من سيتركني ويواجه من لفظ الشتيمة (لا أعرف ماذا قالوا لي، لوطي، ديوث، أجد صعوبة في الاعتياد، وإن كان علي أن أعتاد، أعرفُ) لكنّني كنتُ سكران جدّاً، وعضلاتي مرتخية جدّاً بحيث لم يستطِع أن يتركني وحدي - لو تركني لانهرت - واكتفى بردّ الشتيمة من وسط الحلبة. أغمضتُ عينيّ محاولاً أن أخرجَ من الحالة، كانت تفوح من كتفِ البشرة الإلهية رائحة عرق أو رائحة حامضة، غريبة جدّاً، لم تكن رائحة زنخة ولا حتى كريهة، بل رائحة حامضة، كما لو أنّه خرج توّاً سليماً من انفجار في معمل للمنتجات الكيميائية، وسمعته بعدها

يتكلّم، ليس مع شخص واحد بل مع عدّة أشخاص، على الأقل أكثر من اثنين وكانت الأصواتُ أصوات شجار. عندها فتحتُ عينيّ. يا إلهي، لم أرَ من كانوا يُحيطون بنا، بل رأيتُ نفسي، ذراعي على كتف البشرة الإلهية، وذراعي الأيسر حول خصره، خدّي على كتفه، ورأيتُ أو تكهّنت بالنظرات المنحرفة لقتلةٍ ممتهنين، وعندها أردتُ وأنا أقفز مذعوراً من سكرتي، أن أختفي، توسّلتُ الله أن تقتلني صاعقة، أن تبتلعني الأرض، بكلمة واحدة، رغبتُ لو أنّني لم أولد أبداً. يا له من خجل هائل. كنتُ أَحمرُّ من الخجل، وبي رغبة بالتقيُّؤ، كنتُ قد أفلتُّ البشرةَ الإلهية وكان توازني مقلقلاً، انتبهت إلى أنّني كنتُ محطَّ مزحةٍ وحشية وإهانة، دفعة واحدة. عزائي الوحيد أنّ المازحَ كان أيضاً محطَّ إهانة، كان كما لو أنني رحتُ، بعد أن هُزمت بفعل الخيانة في أرض المعركة (عن أيّ معركة؟ عن أيّ حرب كان يتحدّث عوليس ليما؟) أتوسّلُ ملائكة العدالة أو الكارثة ظهوراً، معجزةً، موجةً كبيرة تكنسنا نحن الاثنين، تكنسنا جميعاً، تضع نهاية للسخرية والظلم. لكن عندها وعبر البحيرتين المتجمّدتين اللتين هما عيناي (المجاز ليس جيّداً، الحرارة داخل بريابوس عالية جدّاً، لكنّني لا أجد شيئاً أفضل كي أقول إنّني كنتُ على وشك أن أبكي وإنّني في هذا الـ«على وشك» ندمتُ، نكصتُ، لكن على بؤبؤي بقيت طبقة سائلة مخرّبة)، رأيت صورةَ خوليا مور العجيبة متشابكة مع المدعو كواوهتِموك أو موكتِزوما أو نِتزاهواكويوتل، وبين هذا والبشرة الإلهية، اللذين واجها من قاموا بالمشكلة، بينما خوليتا تأخذني من خصري وتسألني عما إذا فعل بي هؤلاء الأشرار شيئاً وأخرجتني من الحلبة ومن النادي المريع. حين صرنا في الخارج سرتُ تقودني خوليتا حتى السيارة ورحت أبكي وسط الطريق، وحين وضعتني خوليتا في القسم الخلفي قلتُ لها لا،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رجوتُها أن نذهب لوحدنا، أن نذهب أنا وهي وألبِرتو لوحدنا وأن نترك الآخرين هنا، برفقة الشياطين الذين هم من طينتهم ذاتها، بحقّ أمّك، يا خوليتا، قلتُ لها، وهي قالت، ويحك، يا لويسيتو. خرّبتَ عليّ ليلتي، لا تكنْ ثقيلاً وهنا أتذكّرُ أنّني قلتُ أو صرختُ أو عويتُ: ما فعلوه بي أسوأ مما فعلوه بمونسي، وخوليتا سألتني أيّ شياطين فعلوا بمونسي (وسألتني أيضاً أيّ مونسي أقصدُ، قالت مونتسِ أم مونشي، لا أتذكّر) وأنا قلتُ لها مونتسيبايس، يا خوليتا، مونسيبايس، كاتب المقالات، وهي قالت أهْ، ولم تبدُ مباغَتة إطلاقاً، يا للقوّة الداخلية التي تملكها هذه المرأة، يا إلهي، فكّرتُ وعندها أعتقد أنّني تقيّأتُ ورحتُ أبكي ثم تقيّأتُ. داخل سيارة ألبِرتو! وراحت خوليتا تضحك وعند ذلك بدأ الآخرون يخرجون من بريابوس، رأيتُ ظلالهم مقطوعة بنور مصباح، وفكَّرتُ ماذا فعلتُ، ماذا فعلتُ. وبلغ بي الخجل حدّ أنّني شعرتُ بأنّني انهرتُ على المقعد وتكوّرتُ وتظاهرت بالنوم. لكنّني سمعتهم يتكلّمون، قالت خوليتا شيئاً وردَّ عليها الواقعيون الأحشائيون وفي نبرتهم شيء من السرور، لا شيء عدوانياً. دخل ألبِرتو بعدها إلى السيارة وقال، ما هذا الوسخ، ما أكره رائحته، وعندها فتحتُ عيني وبحثتُ عن عينيه في المرآة الأمامية وقلتُ له اعذرني، يا ألبِرتو، كان دون إرادة مني، أشعرُ بنفسي في وضع سيّئ جدّاً، ثمّ دخلت خوليتا إلى المقعد الأمامي بجانب السائق وقالت، يا إلهي، يا ألبِرتو، افتح النوافذ، هذه رائحة نتنة، وأنا قلتُ لها اعذريني يا خوليتا، لا تبالغي، وقالت خوليتا، يا لويسيتو يبدو كما لو أنّك ميت منذ أسبوع، وأنا ضحكتُ، ليس كثيراً، وكنتُ قد بدأتُ أشعرُ بأنّني أحسن، في عمق الشارع، تحت لافتة بريابوس المضاءة كانت تتحرّك ظلال مترنّحة، لكن ليس باتجاه سيارتنا، وعندها أنزلت خوليتا مور زجاج نافذتها وقبّلت

البشرة الإلهية وموكتزوما أو كواوهتِموك قبلة، لكنّها لم تقبل عوليس ليما، الذي بقيَ بعيداً عن السيارة ينظرُ إلى السماء وأطل بعدها البشرةُ الإلهية برأسه من النافذة وقال لي كيف تجدُ نفسك، يا لويس وأنا أظنّ أنّني حتى لم أردّ عليه، قمتُ بحركةٍ كمن يقول له بخير، أجد نفسي بخير، وبعدها حرّك ألبِرتو الدودج وخلّفنا وراءنا حيّ تِبيتو وكلّ نوافذه مفتوحة جيّداً، باتجاه أحيائنا.

ألبِرتو مور، شارع فيثاغورس، حي نارفارتِ، مِكسيكو العاصمة الفيدرالِية، نيسان ١٩٧٦.

ما يقوله لويسيتو صحيح إلى حدٍّ ما. أختي مجنونة ضائعة، بلى، لكنّها ساحرة، تزيدني سنة واحدة فقط، عمرها اثنان وعشرون عاماً، ثمّ إنّها امرأة شديدة الذكاء. على وشك أن تنهي دراستها في الطبّ، تريد أن تتخصّص بطبّ الأطفال. ليست ساذجة؛ ليكن هذا واضحاً منذ البداية.

ثانياً: أنا لم أقد مثل نيزك في شوارع العاصمة الفيدرالية، الدودج الزرقاء التي كنت أقودها في ذلك اليوم هي لأمّي وفي هذه المناسبات عادة ما أكون سائقاً حكيماً. ما يتعلّق بالقيء شيء لا يُغتفر.

ثالثاً: بريابوس موجود في تِبيتو، كمن يقول في منطقة حربٍ أو منطقة تشارليز، أو المنطقة الواقعة على الطرف الآخر من الستار الفولاذي. في النهاية وقعت بدايةُ مشاجرة، في حلبة الرقص، لكنّني لم أنتبه إلى أيّ شيء لأنّني كنتُ جالساً إلى طاولة أتحدَّث مع عوليس ليما. في حي العاشر من أيّار، لا يوجد، بحسب علمي، أيّ صالة رقص، أختي لن تتركني أكذب.

رابعاً وأخيراً: أنا لم أقل بودلير، لويس هو مَنْ قال بودلير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكاتول مِندِس، بل وقال كما أعتقد فيكتور هوغو، أنا لزمتُ الصمت، كان يذكرني برامبو، لكنّني لزمت الصمت. ليكن هذا واضحاً.

ومن ناحية أخرى لم يتصرف الواقعيون الأحشائيون بالسوء الذي كنّا نخشاه تماماً. أنا لم أكن أعرفهم إلاّ سماعاً. العاصمة الفيدرالية قرية من أربع عشرة مليون نسمة، هذا معروف. والانطباع الذي تركوه عندي جيّد نسبيّاً. أرادَ المدعو البشرة الإلهية لسذاجته أن يغري أختي. المدعو موكتزوما رودريغِث (ليس كواوهتِموك) أيضاً أراد ذلك. في لحظة معينة من الليل بدوَا مصدّقين فعلاً. كان محزناً أن ترى ذلك، وإن لم تكن اللوحة تخلو من بعض الرّقة.

أما بالنسبة إلى عوليس ليما، فيوحي بأنّه مخدّر دائماً وفرنسيّته مقبولة. ثمّ إنّه حكى قصّة فريدة بما يكفي عن قصيدة رامبو. *فالقلب المسروق* كان بحسب قوله نصّاً ذاتياً يروي رحلة رامبو من شارفييه وحتى باريس كي ينضمّ للكمونة. في الرحلة المذكورة التي قام بها سيراً على قدميه! التقى رامبو في الطريق بمجموعة من الجنود السكارى، راحوا بعد أن سخروا منه يغتصبونه. بصراحة كانت القصة بذيئة قليلاً.

لكن كان هناك ما هو أكثر من ذلك: بحسب ليما: كان بعض الجنود، أو على الأقل *العريف*، عريف *قلبي المُغطّى*، جنود الغزو الفرنسي للمكسيك. بالطبع لا أنا ولا لويسيتو سألناه إلامَ يرتكز كي يقوم بهذا التأكيد. لكن بالنسبة إليّ اهتممت بالقصّة (لويسيتو لا، هو كان أقرب إلى الاهتمام بما كان يجري، أو ما عاد يجري حولنا) ولم يبغِ أن يعرف أكثر. إذن ليما حكى لي أنّ طابورَ الكولونيل ليبرخت، الذي.كان عليه أن يحتلَّ سانتا تِرِسا، في سونورا، توقّف عن إرسال الأخبار وأنّ كولونيلاً يُدعى إيدو، قائداً في الميدان الذي كان يفيد

كمستودع لتموين القوات التي كانت تعمل في المنطقة الشمالية الغربية من المكسيك، أرسل فصيلة مؤلفة من ثلاثين خيّالاً باتجاه سانتا تِرِسا.

كانت الفصيلة بإمرة النقيب لاورنت والملازمين الأوّلين روفانش وغونثالِث، هذا الأخير مَلَكي مكسيكي. وصلت هذه الفصيلة، بحسب ليما، إلى قرية قريبة من سانتا تِرِسا تسمّى بيّابيثوسا، في اليوم الثاني من المسير، ولم يُعرف قط شيء عن طابور ليبرخت. جميعُ الرجال، باستثناء الملازم أوّل روفانش وثلاثة جنودٍ قتلوا في الحال، أُسِروا بينما كانوا يأكلون في حانة البلدة الوحيدة، بينهم العريف المستقبلي، وكان وقتذاك مُجنّداً في الثانية والعشرين من عمره. اقتيد الأسرى الذين ربطت أيديهم بحبال القنب وكُمّت أفواههم أمام من كان يقوم مقام قائد بيّابثيوسا العسكري ومجموعة من وجهاء البلدة. كان القائد خلاسياً يسمونه دون تمييز البريء أو المجنون. وكان الوجهاء فلاحين شيوخاً، غالبيتهم حفاة، نظروا إلى الفرنسيين ثم انسحبوا جماعياً إلى زاوية. بعد نصف ساعة من الشد والرخي بين المجموعتين المتمايزتين بشكل واضح، اقتيد الفرنسيون إلى زريبة مسقوفة حيث جرّدوهم من ثيابهم وأحذيتهم، وبعدها بقليل قرّرت مجموعة من الآسرين اغتصابهم وتعذيبهم بقيّةَ النهار.

في الثانية عشرة ليلاً قطعوا رأسَ النقيب لاورنت. واقتادوا الملازم أوّل ورقيبين وستة جنود إلى الشارع الرئيسي وطعنتهم أشباح كانت تمتطي جيادهم نفسها.

نجح العريف المستقبلي وجنديّان آخران في فكّ أربطتهم والهرب عبر البرية. لم يُلاحقهم أحد، لكن وحده العريف استطاعَ أن ينجح في البقاء على قيد الحياة ويحكي قصّته. بعد أسبوعين من التيه في الصحراء وصل إلى إل تاخو. قُلد وساماً وبقي في المكسيك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حتى عام ١٨٦٧، التاريخ الذي عاد فيه إلى فرنسا مع جيش بازين (أو من كان يقود الفرنسيين وقتذاك)، الذي راح ينسحب من المكسيك تاركاً الإمبراطور إلى مصيره.

كارلوس مونسيبايس، سائراً في شارع مادِرو قرب سانبورنْس، مكسيكو العاصمة الفدرالية، أيار ١٩٧٦.

لا مصيدة ولا حادث عنف ولا أيّ شيء. شابان لم يبلغا الثالثة والعشرين من عمرهما، كلاهما طويل الشعر جدّاً، أطول من شعر أيّ شاعر آخر (وأنا أستطيع أن أشهد على طول شعرهم جميعاً)، مصرّان على ألا يعترفا لِباث بأي فضيلة، بعناد صبياني، لا يعجبني، لأنّه لا يُعجبني، قادران على أن ينكرا الجليَّ في لحظة ضعف (أفترض، عقليّ) ذكّراني بخوسِه أغوستين، بغوستابو ساينث، لكن دون أن يكون لهما نبوغ روائيّينا الاستثنائيين، في الحقيقة دون أيّ شيء، لا مال كي يدفعا ثمن القهوة التي تناولناها (اضطررتُ لأن أدفع ثمنها أنا) ولا موضوعات ذات وزنٍ، ولا أصالة في طروحاتهما. اثنان ضائعان، اثنان ضالان. أمّا بالنسبة إليّ فأظنّ أنّني كنتُ كريماً بشكل مفرط (بصرف النظر عن القهوة). اقترحتُ في لحظة من اللحظات على عوليس (الآخر، لا أعرف ما اسمه، أظنُّ أنّه كان أرجنتينياً أو تشيلياً) كان يكتبُ نقداً لكتابِ باث، الذي كنّا نتكلّم عنه. إذا كان جيّداً، قلتُ له، لكنّني أكّدتُ على كلمة جيّد، أنا أنشره لك. وقال هو نعم، سيفعل، وسيحمله إليّ إلى البيت. عندها قلتُ له: لا، إلى بيتي لا، لأنّ أميّ سترتعب من رؤيتك. كانت المزحة الوحيدة التي مزحتها معهما. لكنّهما أخذاها بجدّية (ما من ابتسامة) وقالا إنّهما سيرسلانه إليّ بالبريد. ما زلت أنتظره حتى الآن.

٢

أماديو سالباتييرّا، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر التفتيش، مكسيكو العاصمة الفدرالية كانون الثاني ١٩٧٦.

قلتُ لهما، أهْ، ثِساريا تيناخِرو، أين سمعتماهما يتكلمون عنها، أيّها الفَتَيان؟ وعندها راح واحدٌ منهما يشرح لي أنّهما كانا يعدان عملاً عن الصخبيّين وأنّهما أجريا مقابلة مع خِرمان أركِلِسْ ومابْلِس أرثِ، وأنّهما قرأا كلَّ مجلاتِ وكتبِ تلك المرحلة وبين الأسماء الكثيرة، أسماء رجال تامّين وأسماء فارغة ما عادت تعني شيئاً، ولا حتى ذكرى سيّئة، وعثرا على اسم ثِساريا. وَ؟ سألتُهما. نظرا إليّ وابتسما، كلاهما في آنٍ معاً، اللعنة عليهما من فتيين، كما لو أنّهما متصلان، لا أعرف ما إذا كنتُ أوضّحُ، استغربنا، قالا، بدت المرأة الوحيدة، الإشارات كانت كثيرة، كانوا يقولون إنّها شاعرة جيّدة. شاعرة جيّدة؟ قلتُ، أين قرأتما شيئاً لها؟ لم نقرأ لها شيئاً، قالا، في أيِّ مكان وهذا شدّنا. شدّكُما، بأيّ طريقة، أيها الفتيان، هَيّا، وضّحا لي؟ كان الجميع يتكلّمون عنها بشكل ممتاز، أو بشكلٍ سيّئ جداً، ومع ذلك لا أحد ينشر لها. قرأنا مجلّة *المحرّك البشري*، التي كان يصدرها غونثالِثْ بِدرِنيو، إدارة طليعة مابْلِسْ أرثِ، مجلة سالبادور سالاثار، قال التشيليّ، وباستثناء مجلس إدارة مابْلِسْ لا تظهر في أيّ مكان آخر. ومع ذلك فإنّ خوان غرادي وإرنِستو روبيو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأدالبِرتو إسكوبار يتكلمون عنها في مقابلات مهمّة بل وبكلمات إطراء. ظنناها في البداية صخبيّة، رفيقة سفر، قال المكسيكي، لكنّ مابْلِسْ أرثِ قال لنا إنّها لم تنتمِ قط إلى حركته. وإن كان ممكناً أن تكون ذاكرة مابْلِسْ قد خانته، أضاف التشيليّ. الشيء الذي بكلّ وضوح لا نصدّقهُ، قال المكسيكي، فهو لم يتذكّرها كصخبيّة، لكنّه يتذكرها فعلاً كشاعرة، قال التشيليّ، يا لهما من فتيين ديوثين، يا لهما من فَتَيين ديوثين، متصلين. سرت قشعريرة في جسدي. على الرغم من أنّه لا يحتفظ في مكتبته الواسعة بأيّ قصيدة للمذكورة يمكن أن يُعطي مصداقية لتأكيده، قال المكسيكي. باختصار، يا سيّد سالباتييرّرا، يا أماديو، سألنا هنا وهناك، وتكلّمنا من لِيْسْتْ أرثوبيدِ، مع أرْكِلِسْ بِلا، مع هِرناندِث ميرو والنتيجة ذاتها، الجميع يتذكّرونها بوضوح كبير أو صغير، لكنّ لا أحد منهم يملك نصوصاً لها كي نُضمّنها في عملنا. وهذا العمل مما يتألف بالضبط، أيّها الفتيان، رفعت بعدها يدي ثم وقبل أن يجيباني صببتُ لهما مزيداً من مِثكال «المُنْتحرون» ثم جلستُ على حافّة الكرسي، وشعرتُ في وركيّ ذاتهما، أقسم لكم، كما لو أنّني جلستُ على حدِّ شفرة حلاقة.

بِرلا أبيلِسْ، شارع ليوناردو دافنشي، حي ميكسواك، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، أيّار عام ١٩٧٠.

وقتها لم يكن عندي أصدقاء كثر، لكنّني حين تعرفتُ عليه لم يبق عندي أيّ صديق. أنا أتكلّم عن عام ١٩٧٦ حين كان كلانا يدرس في معهد بوربنير التحضيري. في الحقيقة لوقت قصير جدّاً، وهو ما يبرهن على نسبيّة ذاكرتنا التي تُضخّم أو تُقلّصُ بلا حدود اللغةَ التي نعتقد أنّنا نعرفها، والتي في الحقيقة لا نعرفها. هذا ما كنتُ أقوله له عادة، لكنّه نادراً ما كان يسمعني. رافقتُهُ ذات مرّة إلى

بيته، حين كان ما يزال يعيش قريباً من مدرسة أخته. لم يكن في البيت أحد غيرها، وحدها أخته وبقينا نتكلّم برهةً طويلة. بعدها بوقت قصير بدّلوا إقامتهم، ذهبوا ليعيشوا في حيّ نابولي، وترك هو الدراسة للأبد. كنتُ أقولُ له: ألا تريد أن تذهب إلى الجامعة؟ هل تنكر على نفسك مزايا التربية العليا؟ وكان هو يضحكُ ويقول لي إنّه بالتأكيد سيتعلم في الجامعة الشيء ذاته الذي تعلّمه في التحضيري: لا شيء. لكن ماذا ستعمل في حياتك؟ كنتُ أقول له، بماذا تُفكّر أن تعمل؟ وكان هو يُجيبني بأنّه ليس لديه أدنَى فكرة، ثمّ إنه لا يهمّه. وذات مساء ذهبتُ لزيارته في بيته وسألتُهُ عما إذا كان يتعاطى المخدّرات. لا، لا أتعاطاها، قال لي. أبداً؟ سألته أنا. وهو: دخنتُ ماريجوانا، لكن هذا منذ زمن طويل. فقط؟ قلتُ له. فقط، كان يقولُ ثمّ يشرع بالضحك، بالضحك منّي وهذا لم يكن يزعجني، بالعكس كنتُ أحبُّ أن أراه يضحك. تعرّفَ في ذلك الوقت على مخرج سينمائي ومسرحيّ شهير، ابن بلد له. كان يُكلّمني عنه أحياناً، يقول لي كيف صادفه في باب المسرح حيث كان يُقدِّم عملاً عن هيراقليطِس أو عن آخر سابق على سقراط، إعداد حرّ عن نصوصِ هذا الفيلسوف، إعداد تسبَّب ببعض الاضطرابات في جوّ المكسيك الهادئ وقتذاك، لكن ليس بسبب ما يُقال في المسرحية، بل لأنّ جميع الممثلين كانوا يخرجون في بعض اللحظات عراة تقريباً. كنتُ ما أزالُ أدرسُ في معهد بوربنير التحضيري بين أتباع الأوبوس دِي النتنين وكنت أشغل وقتي كلّه في الدراسة والقراءة (أظنّ أنّني لم أعد بعدها لأقرأ كما في تلك المرحلة) وكانت متعتي الوحيدة، تقوم على الزيارات التي أقوم بها إلى بيته، لم تكن متواترة جدّاً، لأنّني لم أبغِ أن أصبح ثقيلةً أو غير مرغوب بي، لكنّ نعم ببعض التصميم، كنتُ أظهر في المساءات أو حين يكون قد حلّ الليلُ، وكنّا نمضي ساعتين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أو ثلاث ساعات، عامّةً ما كنّا نتكلّم فيها عن الأدب، على الرغم من أنّه هو أيضاً كان يحكي لي مغامراته مع المخرج السينمائي والمسرحي، كان يُلاحَظُ أنّه مفتونٌ به جدّاً، عملياً، الآن وأنا أُفكّر بذلك، في ذلك الوقت لم يكن يقرأ كثيراً، التي كانت تتكلّم هي أنا، أنا نعم كنتُ أقرأ كثيراً، أدباً وفلسفةً وبحوثاً سياسيّة، هو لا، هو لم يكن يذهب إلى السينما وكان أيضاً يذهب كلّ يوم، أو كلّ ثلاثة أيّام، تصوّرْ، كثيراً جدّاً، إلى بيت المخرج، ومرّة قلتُ له إنّ عليه أن يقرأ أكثر، وقال، يا للغرور، إنّه قرأ كلّ ما كان يهمّه حقيقةً، هكذا كان يتصرّف أحياناً، أعني أنّه كان يبدو أحياناً طفلاً سيّئ التربية، لكنّني كنتُ أغفرُ له كلَّ شيء، كلّ ما كان يفعله كان يبدو لي حسناً. حكى لي يوماً أنّه تشاجر مع المخرج. وأنا سألته لماذا ولم يبغِ أن يقول لي. يعني أنّه قال إنّ كان بسببِ خلافٍ في وجهات النظر الأدبية وأكثر قليلاً. ما خرجتُ به بوضوح هو أنّ المخرج كان قد قال إنّ نيرودا كان تافهاً وإنَّ نيكانور بّارّا كان شاعر اللغة الإسبانية العظيم. شيء من هذا القبيل. طبعاً بدا لي من غير المعقول أن شخصين يتشاجران لسببٍ بمثل هذه التفاهة. في البلد الذي جئت منه، قال لي هو، الناس يتشاجرون لأسباب مشابهة. حسن، قلتُ له، في المكسيك هم قادرون على أن يقتل بعضهم بعضاً لأتفه الأمور، لكن طبعاً، ليس المثقفون. آه، يا الأفكار التي كانت لي وقتها عن الثقافة. بعد قليل ذهبتُ إلى بيت المُخرج مسلحة بكُتَيِّبٍ لإمبيدوقليس. استقبلتني زوجته وبعد برهة قصيرة حضر المُخرج شخصياً إلى الصالون ورحنا نتكلّم. أول شيء سألني عنه هو كيف حصلتُ على عنوانه. قلتُ له إنّ صديقي أعطاني إيّاه. آهْ، هو، قال المُخرج وأراد على الفور أن يعرف ما كان حاله، ماذا كان يعمل، لماذا لا يذهب لزيارته. قلتُ له أول شيءٍ خطر ببالي، ثمّ رحنا

نتكلّمُ عن أشياء أخرى. منذ ذلك الوقت صار عندي شخصان أزورهما، المُخرج وهو، وفجأة انتبهتُ إلى أنّ أفقي راح يتسع ويثرى بطريقة غير محسوسة. كانت أياماً سعيدة جدّاً. ومع ذلك حكى لي المُخرجُ ذات مساء، بعد أن سألني عن صديقي مرّة أخرى، كيف كان الشجار الذي وقع بينهما. لم تكن رواية المُخرج مختلفة كثيراً عن تلك التي يمكن أن يكون قد رواها لي صديقي. الشجار وقع بسبب نيرودا وبّارّا، صلاحية شاعريّتهما، ومع ذلك كان في ما حكاه لي المُخرج (*وأنا كنتُ أعرف* أنّه كان يقول الحقيقة) عنصراً جديداً: حين تشاجر مع صديقي، بقي هذا بلا حجج في دفاعه المتطرف عن نيرودا، راح يبكي، هناك بالذات في صالون المُخرجِ ابن بلده، ودون أدنى حذر، مثل طفل في العاشرة من عمره، على الرغم من أنّه كان قد أتمّ السابعة عشرة تماماً. بحسب المُخرج الدموع هي التي فصلت بينهما، التي أبقت على صديقه بعيداً عن بيته، بالتأكيد وهو يشعر بالخجل (بحسب المُخرج) من ردّة فعله في نقاشه، الذي فيما عدا ذلك كان فيه كلّ خصائص ومُلطّفات المبتذلِ والظرفي. قولي له أن يأتي لزيارتي، قال لي المُخرج في ذلك المساء حين ذهبت من بيته. قضيت اليومين التاليين متفكّرة بما قاله لي المُخرجُ وبمزاج صديقي والدوافع التي يمكن أن تكون عنده كيلا يحكي لي كامل القصّة. عندما ذهبتُ لزيارته وجدته في السرير. كان عنده حرارة ويقرأ كتاباً عن فرسان الهيكل، لغز الكاتدرائيات القوطية، شيء من هذا القبيل، الحقيقة لا أعرف كيف كان باستطاعته أن يقرأ قاذورات بمثل هذا الحجم، على الرغم من أنّها، لكي أكون صريحةً، لم تكن المرّة الأولى التي أفاجئه بها وهو يقرأ كتباً من هذا النوع، كانت أحياناً روايات بوليسية، وأحياناً أخرى كتباً شبه علمية، في النهاية الشيء الوحيد الجيّد في هذه القراءات، هو أنّه لم يُحاول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قط أن يجعلني أقرأها، على عكس ما كان يجري له معي، فأنا التي كلّما قرأتُ كتاباً جيّداً، أُمَرّره له وأبقى أسابيع كاملة أنتظر أن يُنهيه، كي أستطيع مناقشته معه. وجدته في السرير ووجدته يقرأ كتاباً عن فرسان الهيكل وما إن دخلتُ غرفته حتى رحت أرتجف. بقينا برهة نتكلّم عن أشياء نسيتها. أو ربّما بقينا برهة صامتَيْن، أنا جالسة عند قدم السرير وهو مُتَمَدِّدُ مع كتابه، ينظر كلّ منا إلى الآخر من طرف عينه، نسمعُ صوتَ المصعد كما لو أنّنا في غرفة مظلمة أو ضائعَيْن في البرّية، ليلاً نسمع فقط جلبة الخيول، كان باستطاعتي أن أستمرّ هكذا بقيّة يومي، بقيّة حياتي. لكنّني تكلَّمتُ. حكيتُ له عن زيارتي الأخيرة إلى بيت المُخرج، نقلتُ له رسالته، رسالة أن يذهب لزيارته، وأنّه كان بانتظاره، فقال لي: إذن لِيَنْتَظِرْ جالساً، لأنّني لا أُفكّر بأن أعود. ثم عمل كما لو أنّه يعود ليقرأ كتاب فرسان الهيكل. وضّحتُ له أنّ ميزات شعر نيرودا لا تُقلّلُ من قيمة ميّزات شعر بّارّا. صعقني جوابه، قال: لا يهمّني قيد أنملة شعر نيرودا ولا شعر بّارّا. نجحت في أن أسأله لماذا إذن كلّ ذلك النقاش والشجار، ولم يجبني. عندها ارتكبتُ خطأً، اقتربت منه أكثر، جلستُ بجانبه، على السرير، أخرجتُ كتاباً من جيبي، كتابَ شاعرٍ، وقرأت له مقتطفاً منه. استمع بصمت. كان النص يتحدّث عن نرسيس وعن غابةٍ يكاد لا يكون لها حدود، مسكونة بالخِناث وعن أنّهم لا يتفاهمون إلا فيما بينهم. قلتُ: هم الشعراء. أردت أن أقول، نحن الشعراء. لكنّه نظرَ إلي كما لو أنّ وجهي خال من اللحم وكان مجرّد جمجمة، نظرَ إليّ مبتسماً، وقال لا تكوني مبتذلة، يا بِّرلا. هذا فقط. شحبتُ، نططتُ، فقط استطعتُ أن أبتعد قليلاً، حاولتُ أن أنهض، لكنّني لم أستطِع وبقي هو خلال كلّ تلك البرهة بلا حراك، ينظرُ إليَّ ويبتسم، كما لو أنّ وجهي أُسقط عنه الجلد، العضلاتُ، الشحمُ، الدمُ ولم

يبق فيه غير العظم الأصفر أو الأبيض. في البداية كنتُ غير قادرة على الكلام، قلتُ بعدها أو همستُ إنّ الوقت تأخّر وإنّ عليّ أن أذهب. نهضتُ، قلتُ له وداعاً وذهبتُ. هو لم يُكَلِّف خاطِرَهُ بأن يرفع نظره عن الكتاب. عندما عبرتُ الصالونَ الفارغ من بيته الصامتِ، وممرَّهُ الفارغ، فكّرتُ أنّني لن أعود أبداً لزيارته. بعدها بوقت قصير دخلتُ الجامعة وانعطفت حياتي تسعين درجة. بعد سنوات، التقيتُ بمحض المصادفة بأختهِ، وهي توزّع دعايةً تروتسكية في كلّية الفلسفة والآداب. اشتريتُ منها كرّاساً وذهبنا لنشرب قهوة. وقتها كنتُ قد انقطعتُ عن التردّد على المُخرج، كنتُ على وشك أن أتخرّج من الجامعة وكنتُ أكتبُ قصائدَ، لا يكادُ أحدٌ يقرأها. طبعاً سألتها عنه. عندها قدّمت لي أخته موجزاً مفصّلاً عن آخر أوضاعه. كان قد سافر إلى كلّ بلدان أمريكا اللاتينية، عاد إلى بلده، كان قد عانى من أهوال الانقلاب العسكري. فقط نجحت في أن أقول: يا له من حظّ سيّئ. نعم، قالت أختُهُ. هو كان يُفكّر أن يبقى ليعيش هناك وبعد أسابيع قليلة من وصوله خطرَ للعسكر أن يقوموا بانقلابهم، حظّ سيّئ. بقينا برهة لا نعرف ماذا نقول أكثر. تخيّلتُه ضائعاً في فضاء أبيض، في فضاءٍ بَتول، راح يتسخ شيئاً فشيئاً، يتلطّخ، خارجاً عن إرادته، بل وحتى وجهه الذي كنتُ أتذكّرُهُ راح يتشوّه، كما لو أنّ تقاسيمه راحت، كلما غاصَ أكثرَ بالحديث مع أخته، تنصهر بتلك التي كانت أخته تحكي لي عنها، براهين عن قيمة مضحكة، براهين عن ابتداء حياة الرشد المريعة، غير المجدية، البعيدة جدّاً عمّا فكّرتُ ذات مرّة أنه سيصير إليها، حتى صوت أخته التي كانت تتكلّم عن الثورة الأمريكية اللاتينية، والهزائم والانتصارات والموت ستهزّها، بدأت تتشوّه وعندها لم أستطع أن أستمرّ جالسةً ثانيةً واحدة أكثر وقلت لها إنّ عليّ أن أذهب إلى الدرس وإنّنا سنرى بعضنا في مناسبة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أخرى. أتذكَّر أنّني حلمت به بعد ليلتين أو ثلاث ليال. رأيته ضامراً، عظاماً خالصة، جالساً تحت شجرة بشعرٍ طويل وثيابٍ بالية وحذاء بالٍ، غير قادر على النهوض والسير.

البَشَرَة الإلهية في غرفةٍ على سطحٍ في شارعِ تِبِّخي، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، أيّار ١٩٧٦.

أرتورو بِلانو لم يحبّني قط. عوليس ليما، نعم. ينتبه المرء لهذه الأشياء. ماريّا فونت أحبّتني. أنخِليكا فونت لم تُحبّني قط. لكن هذا لا يهمُّ. الأخوان رودريغِث أحباني. بانتشو وموكتِزوما والصغير نوربِرتو كانوا ينتقدونني أحياناً وأحيانا كان بانتشو يقول إنّه لا يفهمني (خاصّة عندما كنتُ أنام مع رجال)، لكنّني كنتُ أعرفُ أنّهم كانوا يُحبّونني سواء بسواء. أرتورو بِلانو، لا. هو لم يُحبّني قط. فكّرتُ مرّة أنّ السبب هو إرنِستو سان إبيفانيو، فهو وأرتورو كانا صديقين، حين لم يكن قد بلغَ أيّ منهما العشرين، قبل أن يرحل أرتورو إلى تشيلي، كما كان يقول كي يصنع الثورة، وأنا كنتُ عشيقَ إرنِستو، هذا ما كانوا يقولونه وتركته. لكنّني في الحقيقة نمتُ مع إرنِستو في مناسبتين فقط وما ذنبي أنا أنّ الناس يجلدون أنفسهم. أيضاً نمتُ مع ماريّا فونت ونظر إليّ أرتورو بِلانو بعينين شريرتين. أيضاً كان من الممكن أن أنام ليلةَ بريابوس مع لويس روسادو وكان من الممكن لأرتورو بِلانو أن يطردني من المجموعة.

أنا لا أعرف، بصراحة، ما الذي كنت أُسيءُ فعله. حين حكوا لبِلانو ما جرى في بريابوس، قال إنّنا لم نكن أشراراً ولا قوّادين، لكن الشيءَ الوحيد الذي فعلتُهُ هو أنّني فتحت الطريق لشهوانيّتي. في الدفاع عن نفسي فقط استطعتُ أن أُتمتم (بنبرة مازحة، ودون أن أنظر إلى عينيه) قائلاً إنني كنتُ مسخاً من مسوخ الطبيعة. لكنّ بِلانو لم

يلتقط المزحة. برأيه أنّ كلَّ ما كنتُ أعمله، أعمله بشكلٍ سيّئ. ثمّ إنّني لستُ أنا من أخرج لويس سِباستيان روسادو للرقص. كان هو كالصوّان وفعلها معه هناك. أحبُّ لويس روسادو، كان عليّ أن أقول له ذلك، لكن من كان يجرؤ على أن يقولَ شيئاً لأندريه بريتون العالم الثالث.

كان أرتورو بِلانو يمقتني. وهذا أمر غريب، لأنّني كنتُ أحاولُ أمامَهُ أن أُتقِن عمل الأشياء لكن لا شيء كان يخرج معي مُتقناً. أنا لم يكن عندي مال ولا عمل ولا أسرة. كنتُ أعيش من اختلاساتي. ذات مرّة سرقتُ منحوتة من كاسا دِل لاغو. المدير، الديوث، هوغو غوتييرِّث بِغا قال إنّ الفاعل كان واقعيّاً أحشائيّاً. قال بِلانو مستحيل. لا بدّ أنّه احمرَّ خجلاً. لكنّه دافع عنّي، قال: مستحيل، دون أن يعلم أنّني كنتُ أنا (ماذا كان سيجري لو عرف.). بعد أيام حكاهُ له عوليس. إنّ مِنْ سرقَ التمثال هو البَشَرَة الإلهيّة، هذا ما قاله له عوليس كمن يحكي نكتة. هكذا هو عوليس لا يولي أهمّية للأشياء، بل وتبدو له ظريفة. لكنّ بِلانو تحوّل إلى حيوانٍ ضارٍ، قال كيف أمكن ذلك وموَظّفو كاسا دِل لاغو قد تعاقدوا معنا لإقامة عدّة أمسيات شعرية، وإنّه كان يشعر وقتها بأنّه مسؤولٌ عن السرقة. كما لو أنّه أمُّ كلّ الواقعيين الأحشائيين. على كلّ الأحوال لم يفعل شيئاً، نظر إليّ نظرة سوء لا أكثر.

يخطر ببالي أحياناً أن أمسح به الأرضَ. من حسن الحظّ أنّني مُسالم. ثمّ إنّهم كانوا يقولون إنّ بِلانو كان قاسياً، لكنّني أعرف أنّه لم يكن قاسياً، كان مُتحمّساً، وشجاعاً على طريقته، لكنّه لم يكن قاسياً. بانتشو قاسٍ، أخي موكتِزوما قاس. أنا قاسٍ، بِلانو فقط كان يبدو، لكنّني كنتُ أعرف أنّه لم يكن كذلك. إذن لماذا لم أَكِلْ له في تلك الليلة؟ يجب أن يكون احتراماً، على الرغم من أنّه أصغر منّي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ودائماً ينظر إلي نظرةَ سوء ويُعاملني كالفضلات، في أعماقي أعتقدُ أنّني كنتُ أحترمه وأصغي إليه وأنتظر منه في كلّ لحظة كلمةَ اعتراف ولم أرفع قط يدي على الديوث العظيم.

لاورا خاورِغي، تْلالْبان، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، أيّار ١٩٧٦.

هل رأيتَ ذات مرّة فيلماً وثائقيّاً عن تلك الطيور التي تبني حدائق، أبراجاً، مناطق نظيفة من الشجيرات حيث تمارس رقصة إغوائها؟ هل كنتَ تعلم أنّها لا تتزاوج غير تلك التي تبني أفضل حديقة، أفضل برجٍ، أفضل حلبة، والتي تُنَفِّذُ أكثرَ الرقصات إتقاناً؟ ألم تشاهد قطّ تلك الطيور المضحكة التي ترقص حتى الإعياء كي تكسب أنثاها؟

هكذا كان أرتورو بِلانو، طاووساً مغروراً وأبله. والواقعية الأحشائيّة، رقصة حبّه المنهكة الموجّهة لي. لكنّ المشكلة أنّني وقتذاك لم أعد أحبّه، يمكن إغواء فتاةٍ بقصيدة، لكن لا يمكن الإبقاء عليها بقصيدة. صهٍ، ولا حتى بحركة شاعرية.

لماذا بقيت أتردّدُ خلال بعض الوقت على أناس كان يتردّد عليهم؟ حسن، *أيضاً* كانوا أصدقائي، كانوا *ما يزالون* أصدقائي، وإن لم يتأخّروا في جعلي أتعب منهم. اسمحْ لي أن أقولَ لك شيئاً. كانت الجامعة واقعاً، كلّية علم الأحياء كانت واقعاً، أساتذتي كانوا واقعاً، رفاقي كانوا واقعاً، أعني محسوسين، كأشياء هي إلى هذا الحدّ أو ذاك واضحة، ولهم خططٌ إلى هذا الحدّ أو ذاك واضحة. هم لا. الشاعر العظيم علي تشوماثِرو (الذي أفترضُ أنه لم يكن له أيّ ذنب في أنّه يدعى هكذا) كان واقعاً، هل تفهمني؟ آثاره كانت واقعاً، بينما آثارهم لم تكن واقعية. يا للفئران المساكين، المنوَّمين

مغناطيسياً من قبل عوليس ومحمولين إلى المذبح من قبل أرتورو. سأحاول أن أُلخّص وأكون دقيقاً. المشكلة الكبرى كانت في أنّهم جميعاً تجاوزوا العشرين من أعمارهم ويتصرّفون كما لو أنّهم لم يتموا الخامسة عشر. ألا تلاحظ ذلك؟

لويس سِباستيان روسادو، حفلة في بيت آل مور، أكثر من عشرين شخصاً، حديقة بأضواء على وجهِ العشب، حي لاس لوماس، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، تموز ١٩٧٦.

بعكس كلّ الاحتمالات التي يُقدّمها المنطقُ أو ألعابُ الحظّ عدتُ لأُقابل البَشَرَة الإلهيّة. لا أعرف كيف حصل على رقم هاتفي. بحسب قوله، هتف أوّلاً إلى مكتب تحرير *لينيا دِ ساليدا* وهناك أعطوه رقم هاتف البيت. بعكس كل الاحتياطات التي كان يمليها عليّ إحساسي الفطري (لكن، يا للشياطين، هكذا نحن الشعراء، أليس كذلك؟) اتفقنا على موعدٍ في تلك الليلةِ ذاتها، في مقهى في شارع إنسورختِس سور إلى حيث كنتُ أذهبُ من حينٍ لآخر. مرّ بخاطري احتمالُ ألاّ يأتي وحدَهُ إلى الموعد، لكنّني عندما وصلت (متأخّراً نصفَ ساعة)، مستعدّاً للمغادرة على الفور إذا ما رأيته برفقة أحد، استطاعت رؤيتي للبَشَرَةِ الإلهيّة وحدَهُ يكتبُ شبهَ متكئٍ على الطاولة أن تملأ صدري الباردَ والخدرَ حتى تلك اللحظة على الفور بالحرارة.

طلبتُ فنجان قهوة، قلتُ له أن يطلبَ شيئاً. نظر هو إلى عينيَّ وابتسم خجلاً. قال إنّه لم يعد معه مال. لا همّ، قلتُ له، اطلبْ ما تشاء، أنا أدعوك. عند ذلك قال إنّه جائع ويريد بعضَ الفطائر. هنا لا يصنعون فطائر، قلتُ له، لكنّهم يستطيعون أن يأتوك بشطيرة. بدا خلال لحظة أنّه يُفكّر بالأمر ثم قال حسن، شطيرة جامبو. بالمجمل أكلَ ثلاثَ شطائر. بقينا نتحدّث حتى الثانية عشرة ليلاً. كان عليَّ أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أهتفَ إلى بعض الأشخاص، وربّما أن أُقابلَهم، لكنّني لم أهتف لأحد، أو، بلى، هتفتُ لأمّي من المقهى ذاته، كي أقول لها إنّني سأصل متأخّراً، وتجاهلت بقيةَ الالتزامات.

عمَّ تَحَدَّثنا؟ عن أشياء كثيرة. عن عائلته، عن البلدة التي هو منها، عن أيّامِهِ الأولى في العاصمة الفيدرالية، عن كم كلَّفَهُ الاعتيادُ على المدينة، عن أحلامِهِ. كان يريد أن يُصبح شاعراً، راقصاً، مغنِّياً. كان يريد أن يُنجب خمسةَ أبناء (كأصابع اليد الواحدة، قال ومدّ راحة كفّه نحو الأعلى، وكاد يُلامس وجهي بها) كان يريد أن يُجرِّبَ حظّه في منطقة تشوروبوسكو، كان يقول إنّ أوثِرانسكي جرّبه من أجل عمل مسرحيّ، كان يريد أن يرسم (حكى لي بكل أبّهة تفاصيلَ *أفكاره* حول بعض اللوحات)، أخيراً هممتُ في لحظة من دردشتنا أن أقول له إنّه ليس لديه في الواقع أدنى فكرة عمّ كان يريد حقيقةً، لكنّني فضلتُ أن أسكت.

بعدها دعاني لأذهب إلى بيته. أعيش لوحدي، قال لي، سألتُهُ مرتجفاً، أين يعيش. في روما سور، قال، في غرفة على سطح قريبة جدّاً من النجوم. أجبته: الحقيقة أنّ الوقت تأخّر أكثر من اللازم، تجاوزت الثانية عشرة وعليّ أن أنام فغداً سيصل إلى مكسيكو الروائي الفرنسي ج. م. غ. أرسيمبولدي وبعض الأصدقاء وأنا سأنظّم لهم جولةً على الأماكن المهمة في عاصمتنا الفوضوية. من هو أرسيمبولدي؟ سأل البشرةُ الإلهية، آه، حقيقةً إنّ الواقعيين الأحشائيين جهلة. إنّه أحد أفضل الروائيين الفرنسيين، قلتُ له، ومع ذلك، لا يكاد يكون مُتَرْجَماً إلى الإسبانية، أعني باستثناء رواية أو روايتين ظهرتا في الأرجنتين، على كلٍّ أنا قرأته بالفرنسية طبعاً. لم أسمع به أبداً، قال، وعاد ليلحّ على مرافقتي له إلى بيته. لماذا تريدني أن أذهب معك؟ سألتُهُ وأنا أنظر إلى عينيه. بعامة لم أكن

خجولاً. عندي شيء أقوله، قال هو، شيءٌ يهمُّكَ. كم يهّمني؟ سألتُ أنا. نظرَ إليّ كما لو أنّه لم يفهمني وقال وقد صار فجأةً عدوانيّاً: كم ماذا؟ كم معرضاً؟ لا، سارعتُ لأوضّح، كم سيهمّني ما عليك أن تقوله لي. اضطررتُ لأن ألجم نفسي كيلا أداعب شعره، كيلا أقول له يا يا صغيريَ الغبيّ، لا تتخذ موقف الدفاع إلى هذا الحدّ. إنّه شيء عن الواقعيين الأحشائيين، قال. أي، لا يهمّني أبداً، قلتُ. يؤسفني أن أقوله لك، لا تنزعج، لكن الواقعيين الأحشائيين (يا إلهي، يا له من اسم) سيّان بالنسبة إليّ. ما عليَّ أن أحكيه لك، بلى سيهمُّكَ، بالتأكيد سيهمّك. إنّهم يعدون لشيء عظيم، أنت لا تتخيّله، قال هو.

مرّت برأسي فكرةُ عملٍ إرهابيّ، أنا لا أنكرُ، رأيتُ الواقعيين الأحشائيين يُحَضّرون لاختطاف أوكتافيو باث، رأيتُهم يهاجمون بيته (مسكينة ماريّا خوسِه، يا لكارثة الخزف المكسّر) رأيتهم يخرجون بأُوكتافيو باث، مكموماً، مُقَيَّدَ القدمين واليدين، محمولاً في الهواء أو مثل بساطٍ، بل ورأيتهم يضيعون في أرباض نِتزاهوالكويوتل في سيارة كاديلاك سوداء محطّمة وأوكتافيو باث في صندوقٍ أمتعتها يرفس، لكنّني سرعان ما استعدتُ هدوئي، لا بدّ أنّها الأعصابُ، هبات الريحِ التي تجوب أحياناً إنسورخنتِس (كنّا نتكلّمُ على الرصيف) والتي عادة ما تُلَقّحُ المارّةَ وسائقي السيارات بأكثر الأفكارِ جنوناً. وهكذا عدتُ ورفضتُ دعوتَهُ وعاد هو ليُلِحّ. ما سأحكيه لكَ، قال، سيهزُّ أساساتِ الشعر المكسيكي، ربّما قال الأمريكي اللاتيني، لا، العالمي، لا، لنقل إنّه بقي في هذيانه في حدودِ اللغة الإسبانية. ما كان سيقوله لي سيزعزع الشعر في اللغة الإسبانية. يا سلام، قلتُ، هل يتعلّق الأمرُ بمخطوط ما مجهول لسور خوانا إِنِس دِ لا كروث؟ بنصٍّ تنبئي لسور خوانا حول مصير المكسيك؟ لكن لا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالطبع كان شيئاً عثر عليه الواقعيون الأحشائيون وكان الواقعيون الأحشائيون قادرين على أن يُطلوا على مكتبات القرن السابع عشر الضائعة. ما هو إذن، سألته. سأقوله لك في بيتي، قال البَشَرَةُ الإلهية، ووضع يدَهُ على كتفي، كما لو أنّه يشدّني، كما لو أنّه يخرجني مرّةً أخرى للرقص في حلبة بريابوس الفظيعة.

رحتُ أرتجف. وهو لاحظ ذلك. لماذا يجب أن يُعجبني الأكثر سوءاً؟ فكّرتُ، لماذا يجب أن يجذبني الأكثر غرابة، الأقل تربية، الأكثر قنوطاً؟ هو سؤال أوجّهِهُ لنفسي مرّتين في العام. ليس عندي جواب. قلتُ له إنّني أحمل مفاتيح مرسم صديقٍ رسام. قلتُ له أن نذهب إلى هناك، فهو قريب كفاية، كما لو كي نذهب إليه سيراً على الأقدام وفي الطريق يحكي لي كلّ ما يريده. فكّرتُ أنّه لن يقبل، لكنّه قبل. فجأة صار الليل في غاية الجمال، توقّفتِ الريحُ، وحدها النسمةُ الناعمةُ رافقتنا بينما نحن نسير. بدأ هو يتكلّم، لكن بصراحة، نسيتُ كلّ الذي قاله. في رأسي كان هناك همٌّ واحد، رغبةٌ وحيدة، ألا يكون إميليو في المرسم تلك الليلة (إميليتو لاغونا، الآن في بوسطن يدرس هندسة معمارية، تعب والداه من البوهيمية المكسيكية وأرسلاه إلى هناك: إما بوسطن وشهادة الهندسة المعمارية وإمّا أن تبدأ تعمل)، ألاّ يكون هناك أيّ من أصدقائه، ألاّ يقترب أحدٌ من المرسم، يا إلهي، في كلّ ما تبقّى من الليل. وأعطت صلواتي ثمارها. ليس فقط لم يكن هناك أحدٌ في المرسم، بل ووجدته نظيفاً أيضاً، كما لو أنّ خادمةَ عائلة لاغونا ذهبت توّاً. وقال هو، يا له من مرسم رائع، هنا فعلاً يشتهي المرء أن يرسم، وأنا لم أكن أعرف ماذا أفعل (آسف، أنا خجول جدّاً وخاصّة في مثل تلك الحالات) وبدأت أُريه لوحات إميلييو. لم يخطر ببالي شيء أفضل، رحتُ أضعها مستندةً إلى الجدار وأسمع همهمات الإعجابِ أو النقدِ خلفي (لم

أكن أعرف شيئاً عن الرسم)، بينما اللوحات لا تنتهي أبداً وأنا أفكّر، يا سلام، لقد عمل إميليو أخيراً *كفاية*، من سيقول ذلك، اللهم إلا إذا كانت اللوحات لصديق، الأمر المحتمل جدّاً، فقد استطعت أن أُقَدّر بطرفِ عيني أكثرَ من أسلوب، وخاصّة لوحات القماش الأحمر، *أسلوب بالين*، وهو أسلوب معرّف جدّاً، أخيراً، ما همّ، الحقيقةُ أنّ اللوحات لم تكن تهمّني قيد شعرة، لكنّني كنتُ عاجزاً عن المبادرة وأخيراً عندما ملأتُ كلّ جدران المرسم بلوحاتِ لاغونا التفتُ متصبباً عرقاً وسألته ما رأيه، قال هو بابتسامة ذئبٍ إنه ما كان عليّ أن أُزعج نفسي كلّ ذلك الإزعاج. حقيقةً، فكّرتُ، عملت من نفسي مسخرة وفوق ذلك غطّاني الغبار وراحت تفوح مني رائحة العرق النتنة. عندها قال لي، كما لو أنّه قرأ أفكاري، أنتَ تتصبب عرقاً، ثمّ سألني عمّا إذا كان يوجدُ في المرسم حمّام كي أستحمّ. أنت بحاجة إليه. قال. وأنا قلتُ له بخيطٍ من صوت، بلى، يوجد حمّام وإن كنت لا أعتقد أنّه يوجد ماء ساخن، وقال هو، أفضل، الماء البارد أفضل. أنا دائماً أستحمُّ بماء بارد، ففي غرفة السطح لا يوجد ماء ساخن. وتركت نفسي أنجرّ إلى الحمّام وتعرّيت وفتحتُ المرذاذَ وتركني دفقُ الماء شبهَ فاقد للوعي، انكمش لحمي إلى حدّ أنّني شعرت بكلّ عظم من عظامي، أغمضتُ عينيّ، ربّما صرخت، وعندها دخل هو إلى الحمّام وعانقني.

بقيّةُ التفاصيل أُفَضّل أن أحتفظ بها لنفسي، فأنا ما زلتُ رومانسيّاً. بعد ساعات بينما كنّا نرتاح في الظلمة سألته من أطلق عليكَ هذا الاسم المُعَبِّرَ جدّاً، الصائب جدّاً، البَشَرَة الإلهية. هو اسمي، قال. حسن، قلتُ، هو اسمك، اتفقنا، لكن من أطلقه عليك، أريد أن أعرف كلَّ شيء عنك، تلك الأشياء، الاستبدادية قليلاً التي تُقال بعد ممارسة الحبّ. وهو قال: ماريّا فونت ولزمَ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصمت، كما لو أنّ الذكريات هاجمته فجأة. بدت لي صورته الجانبية في الظلمة حزينةً جدّاً، لدنة وحزينة. سألْتُه، ربّما وأثر من سخرية في صوتي (ربّما تمكّنت الغيرة والحزن منّي أيضاً) عمّا إذا كانت ماريّا فونت هي التي فازت بجائزة لاورا داميان. لا، قال، أنخِليكا، ماريّا هي الأختُ الكبرى. وأضاف بعض الملاحظات عن أنخِليكا، ما عدتُ أتذكّرها. خرج السؤال مني، يمكن أن أقول، تلقائيّاً: هل نمتَ مع ماريّا؟ جاء جوابه (يا لصورةِ البَشَرَةِ الإلهية الجانبية من جميلة ولحزنه من كبير) ماحقاً. قال: نمتُ مع كلّ شعراءِ المكسيك. كانت لحظة أن أسكتَ أو أن أداعبَهُ، لكنّني لا سكتّ ولا داعبته، بل بقيت أوجّهُ إليه أسئلة وكان كلّ سؤال أسوأ من سابقه ومع كلِّ سؤال أغرق أكثرَ قليلاً. انفصلنا في الخامسة صباحاً. أنا أخذتُ سيّارة أجرة في إنسورختنِس وهو ضاع ماشياً نحو الشمال.

أنخِليكا فونت، شارع كوليما، حي كوندِسا، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، تموز ١٩٧٦.

كانت بضعة أيام غامضة. أنا كنتُ خطيبة بانتشو رودريغِث. فِليبِّ مولِر، صديق أرتورو بِلانو، كان عاشقاً لي. لكنّني فضّلتُ بانتشو. لماذا؟ لا أعرفُ. فقط أعرفُ أنّني فضّلتُ بانتشو. قبلها بوقت قصير كنتُ قد فزتُ بجائزة لاورا داميان للشعراءِ الشباب. أنا لم أعرف لاورا داميان. لكنّني كنتُ أعرف والديها وكثيراً من الناسِ الذين تعاملوا معها، بل وحتى كانوا أصدقاء لها. نمتُ مع بانتشو بعد حفلة دامت يومين. نمتُ معه في الليلة الأخيرة. طلبتْ مني أختي أن أكون حذرة. لكن من هي حتى تُسدي لي النصائح؟ هي كانت تنام مع البَشَرَة الإلهية، ومع موكتِزوما رودريغِثْ، أخي بانتشو الأصغر. كما نامت أيضاً مع شخصٍ يسمونه الأعرج، شاعر تجاوز الثلاثين من

عمره، كحوليّ، لكنّها على الأقل تميزت مع هذا بأنّها لم تأتِ به إلى البيت. الحقيقة أنّها كانت قد سئمت من اضطرارها لتحمّل عشاقها. لماذا لا تذهبين لتجامعيهم في حظائرهم؟ قلتُ لها ذات مرّة. لم تردّ بشيء، وراحت تبكي؟ هي أختي وأنا أُحبّها، لكنّها أيضاً هستيرية. راح بانتشو ذات مساء يتكلّم عنها. تكلَّم عنها كثيراً، إلى حدّ أنّني فكّرت أنّها أيضاً نامت معه، لكن لا، كنتُ أعرفُ كلّ عشاقها، كنتُ أسمعهم يتأوهون ليلاً على بعد أقل من ثلاثة أمتار من سريري، وكنتُ قادرة على التمييز بينهم من ضجيجهم، من طريقتهم بالقذف، مكبوتة أو صاخبة، من الكلمات التي كانوا يقولونها لأختي.

بانتشو لم ينم معها قط. بانتشو نام معي. لا أعرف لماذا، لكن كان هو من اخترتُهُ بل إنّني ضعتُ في أحلام الحبّ بضعة أيام، على الرغم من أنّني لم أحبّهُ حقيقةً قط. المرّة الأولى كانت موجعة كفايةً. لم أشعر بشيء، فقط بالألم، لكنّه لم يكن ألماً غير محتمل. مارسناه في فندق في حي غِرِّرو، فندق تتردّد عليه العاهرات، أفترضُ ذلك. قال لي بعد أن قذفَ بانتشو إنّه يريد أن يتزوّج منّي. قال لي إنّه يُحبّني. قال لي إنّه سيجعل منّي أسعد امرأة في العالم. أنا نظرت إلى وجهه وفكّرتُ لثانية لقد جُنَّ. فكّرت بعدها أنّه في الحقيقة كان خائفاً، خائفاً منّي وهذا أحزنني. لم أره قط بمثل ذلك الصغر وهذا أيضاً أحزنني. مارسناه مرّتين أكثر. ما عدتُ وقتها أشعر بالألم، لكنّني أيضاً لم أشعر باللذة. انتبه بانتشو إلى أنّ علاقتنا راحت تنطفئ بسرعةِ ماذا؟ بسرعةِ شيء ينطفئ بسرعةٍ كبيرة، أضواء معمل عند انتهاء يوم العمل أو بالأحرى أنوار بناء مكاتب، مثلاً مستعجلة للدخول في مجاهيل الليل. الصورة متكلّفة قليلاً، لكنّها الصورة التي كان سيختارها بانتشو. صورة متكلّفة مُنتصِبة بكلمتين أو ثلاث كلمات بذيئة. وأنا انتبهت إلى أنّ بانتشو انتبهَ ذات ليلة، بعد أمسيةٍ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شعرية وفي الليلةِ تلكَ قلتُ له إنّ ما بيننا بدأ ينفد. لم ينزعج. أظنّ أنّه بقي أسبوعاً يُحاول أن يعود ليحملني إلى السرير. حاول بعدها أن ينام مع أختي. لا أعرف ما إذا كان قد نجح. استيقظتُ ذات ليلة وكانت ماريّا تجامع شبحاً. كفى، قلتُ، أُريد أن أنام بهدوء، تقرئين سور خوانا كثيراً لكنّك تتصرفين كعاهرة. عندما فتحت النور رأيت أن مرافقها هو البشرة الإلهيّة. قلتُ له أن يذهب في الحال إذا كان لا يريدني أن أستدعي الشرطة. الغريب أنّ ماريّا لم تحتجّ. ارتدى البشرةُ الإلهية بنطلونه بينما هو يعتذر منّي لأنّه أيقظني. أختي ليست عاهرة، قلتُ له. أعرف أنّ موقفي كان متناقضاً إلى حدّ ما. حسن، ليس موقفي، بل كلماتي. ما همّ. حين ذهب البشرةُ الإلهيّة، دخلتُ سرير أختي وعانقتها ورحتُ أبكي. بعدها بقليل بدأت أعمل في فرقة مسرحية جامعية. كان عندي كتاب غير مطبوع أراد أبي أن يأخذه إلى بعض دور النشر، لكنّني رفضتُ. لم أشارك في نشاطات الواقعيين الأحشائيين. لم أكن أريد أن أعرف شيئاً عنهم.. حكت لي ماريّا بعدها أنّ بانتشو أيضاً لم يكن في المجموعة. لا أعرف ما إذا كانوا قد طردوه (ما إذا طرده أرتورو بِلانو) ما إذا كان قد انسحب هو، ما إذا لم تعد عنده ببساطة رغبة بشيء. مسكين بانتشو. أخوه موكتِزوما بلى استمرّ في المجموعة. أظنّ أنّني رأيتُ إحدى قصائده في مختارات. على أيّ حال ما عادا يظهران في بيتنا. يقولون إنّ أرتورو بِلانو وعوليس ليما اختفيا في الشمال، أبي وأمّي تكلّما ذات مرّة بهذا الخصوص. أمّي ضحكت، أتذكّر أنّها قالت: سيظهران. كان أبي يبدو قلقاً وماريّا كانت قلقة أيضاً. أنا لا. في ذلك الوقت الصديق الوحيد الذي كان قد تبقّى لي من تلك المجموعة هو إرنستو سان إيبفانيو.

٣

مانوِلْ مابْلِسْ أرثِ، متنزِّهاً في كالثادا دِل ثِرّو، غابة تشابّولتِبِّك، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، آب ١٩٧٦.

جاء هذا الشابُّ، أرتورو بِلانو ليُجري معي مقابلة. رأيته مرّة واحدة فقط. كان برفقته فتيان وفتاة، لا أعرف أسماءهم، لم يفتحوا فمهم تقريباً، كانت الفتاةُ أمريكية شمالية.

قلتُ له إنّني أكرهُ المسجّلة للأسباب ذاتها التي كان يكره بها بورخِس المرايا. هل كنتَ صديقاً لبورخِس؟ سألني أرتورو بِلانو بنبرة اندهاش مهينة قليلاً بالنسبة إليّ. كنّا صديقين بما يكفي، أجبته، يمكن أن أقول حميمين، في أيام شبابنا البعيدة. أرادت الأمريكية الشمالية أن تعرف لماذا كان بورخِس يكرهُ المسجلات. أظنّ لأنّه أعمى، قلتُ لها بالإنكليزية. وما علاقة العمى بالمسجلات؟ سألتْ هي. تُذَكّره بخطرِ السمع، أجبتها. سماع صوته ذاته، خطواته ذاتها، خطواتِ العَدوّ. نظرت الأمريكية الشمالية إلى عينيّ وحرّكت رأسها بالموافقة. لا أعتقد أنّها كانت تعرف بورخِس جيّداً، لا أعتقد أنّها كانت تعرف أعمالي إطلاقاً، على الرغم من أنّ جون دوس باسوس ترجمني. أيضاً أظنّ أنّها لا تعرف جون دوس باسوس كثيراً.

على كلّ، ها أنا أضيع. أين كنت؟ قلتُ لأرتورو بِلانو إنّني أُفَضِّلُ ألاّ نستخدمَ المسجلة وأنّ من الأفضل أن يترك لي لائحةً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بأسئلته. هو استجاب. أخرجَ ورقة وحرّرَ الأسئلة بينما كنتُ أُطلِع مرافقيه على غرف البيت. بعدها حين انتهى من لائحةِ الأسئلة جعلتهم يأتوننا ببعضِ المشروباتِ وبقينا نتحدّث. سبق وأجروا مقابلاتٍ مع أركِلِس بِلا وخِرمان لِيسْتْ أرثوبيدِ. هل تعتقد أنه يُمكن لأحدٍ أن يهتمّ حالياً بالصخبيّة؟ سألته. . . بالطبع، يا مُعلّم، قال هو، أو شيئاً مشابهاً. أنا أعتقدّ أنّ الصخبيّة صارت تاريخاً وكتاريخ فقط يمكن أن تهمّ مؤرّخي الأدب، قلتُ له. أنا تهمّني ولستُ مؤرّخاً، قال هو. آه، حسنٌ.

هذه الليلة قرأتُ القائمة قبل أن أنام: الأسئلة المعهودة لشاب متحمّس وجاهل. وضعت في تلك الليلة ذاتها مسوّدة تتضمنُ إجاباتي. في اليوم التالي بيّضتُ كلَّ شيء. بعد ثلاثة أيّام جاء، كما اتفقنا في طلب المقابلة. أدخلتْهُ الخادمةُ، لكنّها قالت له إنّني لم أكن موجوداً. ثمّ سلَّمَته الطردَ الذي كنتُ قد حضّرته له: الأسئلة وأجوبتي وكتابان من كتبي لم أجرؤ على كتابةِ إهداء عليهما (أظنّ أن الشباب يحتقرون هذه العواطف الزائفة). الكتابان هما *سقالات داخلية وحاضِرَة*. كنتُ على الجانب الآخر من الباب، أُصغي. قالت الخادمةُ: هذا ما تركه لك السيّد مابلِسْ. صمتٌ. يبدو أنّ أرتورو بِلانو أخذَ الطردَ ونظر إليه. يبدو أنّه تصفّحَ الكتابين. كتابان منشوران منذ زمن طويل وورقهما (ورق فاخر) دون قصّ. صمتٌ. لا بدّ أنّه تصفح المقابلةَ بسرعة. سمعته بعدها يشكر الخادمة ويذهب. إذا ما عاد لزيارتي في بيتي دون سابق إخطار سيكون عندي مبرَّر، إذا ما ظهر ذات يوم في بيتي، دون أن يعلمني مسبقاً، إذا ما عاد لزيارتي، فكّرتُ، كي يتحدّث معي، كي يسمعني أقصّ قصصي القديمة، كي يأخذ رأيي بقصائده، سيكون عندي مبرّر. كلّ الشعراء بما فيهم الطليعيون، يحتاجون لأبٍ. لكنّ هؤلاء كانوا أيتاماً بطبيعتهم. لم يعد بعدها أبداً.

باربارا باتِرسون، في غرفة من فندق لوس كلابِلِس، جادّة نينيو بِرديدو زاوية خوان دِ ديوث بِثا، مكسيكو، العاصمة الفيدرالية، أيلول ١٩٧٦.

العجوز مصاصُ بواسيرِ أمّهِ العاهرة، تبدّ لي سوءُ نيّته منذ البداية، في عينيه، عيني القرد الشاحب والمضجر، قلتُ لنفسي، هذا الديوث لن يترك فرصةَ أن يبصق فيها عليّ تفوته، ابن أمّه المومس. لكنّني غبيّة، دائماً كنتُ غبيّة وساذجة وخفضتُ حذري وحدث ما يحدثُ دائماً. بورخِس، جون دوس باسوس. تقيّؤ كما لو في غفلة يُبلّل شعرَ باربارا باتِرسون. والوغد فوق ذلك نظرَ إليَّ كما لو أنّه متأسّف، كما لو أنّه يقول هؤلاء الصبيةُ لم يأتوني بهذه الأمريكية الشمالية ذات العينين الكريهتين إلا لكي يتغوطوا عليه، ورافائيل أيضاً نظرَ إليّ ولم يتبدّل القزمُ الدبرُ، كما لو أنّني اعتدتُ على أن ينتقص أيُّ عجوز كريهٍ من احترامي، أيّ عجوز من الأدب المكسيكي، مصابٌ بإمساك الأدب المكسيكي. ثمّ يأتي العجوز العاهرُ ويقول إنّه لا يحبّ المسجلة، رغم كلّ ما كلّفني الحصول عليها من جهد، والمتملقون يقولون: حسنٌ، ما من مشكلة، نُحرّر المقابلةَ هنا بالذات، أيها السيّد، يا شاعر العصر الجليدي، بدل أن ينزلوا له بنطلونه ويدخلوا المسجلة في دبره. والعجوز يتغطرس ويُعَدِّد أصدقاءه (نصفهم شبه ميتين أو ميتون تماماً) ويتوجّه إليّ ويناديني، يا آنسة. كما لو أنّه يستطيع بهذا الشكل أن يُصلح أمر القيء، القيء الذي يسيل على بلوزتي وعلى بنطلوني الجينز الأزرق، طيّبْ لم يكن عندي قوّة ولا حتى كي أردّ عليه، حين بدأ يتكلّم بالإنكليزية، فقط، نعم أو لا أو لا أدري، حين غادرنا بيته، وهو بيتٌ، أستطيع أن أقول، كبير، ومن أين جئتَ بالمال، أيها العاهرُ اللوطي، يا مُجامع الفئران الميتة، من أين جئت بالمال لتشتري هذا البيت؟ قلتُ لرافائيل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إنّ علينا أن نتكلّم، لكن رافائيل قال إن عليه أن يستمر مع أرتورو بِلانو، وأنا قلت له، أيّها الديوث الوغدُ *أحتاج* لأن أتكلّم معك، وهو قال، فيما بعد، يا بارباريتا، فيما بعد، كما لو أنّني طفلة يغتصبها كلَّ ليلة وفي أكثر الأماكن فحشاً ولستُ امرأة أطول منه بعشرة سنتيمترات وأكبر وزناً منه بخمسة عشر كيلوغرام على الأقل (يجب أن أضع لنفسي حمية، لكن من يستطيع مع هذا الطعام المكسيكي العاهر صبراً) وعندها قلتُ له *أحتاج* لأن أتكلّم معك، الآن وقوّاد الخراء يتظاهر وكأنه يلمس بيضتيه، يبقى ينظر إليّ، ويقول لي، ما بك، يا دميتي؟ هل من مشكلة طارئة؟ ومن حسن الحظ أن بِلانو وركِنا كانا يسيران أمامنا ولم يسمعاه وخاصّة أنهما لمْ يرياني، لأنّني أفترض أنّ وجهي المعذّب كان قد تفكّك، على الأقل شعرتُ أنّه يتغيّر وأنّ في عيني تُحقن جرعات من الكراهية قاتلة، وعندها قلتُ له، اللعنة على أمّك، أيها الوغد، كيلا أقول له شيئاً أسوأ، واستدرتُ وذهبتُ. قضيتُ ذلك المساء باكيةً. من المفترض أنّني كنتُ في المكسيك كي أتبع دورة دراسية بعد التخرّج عن أعمال خوان رولفو، لكن في أمسية شعرية في كاسا دِل لاغو تعرّفت على رافائيل وعشقنا بعضنا في الحال. أو أنّ هذا ما حدث لي، لستُ متأكّدة من رافائيل. في تلك الليلة ذاتها سحبته إلى فندق لوس كلابِلِس، حيث ما زلتُ أعيش وتجامعنا حتى لم نعد نستطيع. حسن، رافائيل خمول قليلاً، لكن أنا لا، وتدبّرتُ أمري كي أُبقي عليه متماسكاً حتى انسكبت أنوارُ النهار الأولى (كما لو أنّها دائخة أو مصعوقة، ما أغربَ فجر هذه المدينة العاهرة) في نينيو بِرديدو. في اليوم التالي لم أذهب إلى الجامعة وقضيته أُناقشُ يمنةً ويسرةً جميعَ الواقعيين الأحشائيين، الذين كانوا وقتذاك صبية سليمين إلى حدّ ما، مريضين إلى حدّ ما، ولم يكونوا قد سميوا بعد بالواقعيين

الأحشائيين. نالوا إعجابي. كانوا يبدون من البيتس[1]. أعجبني عوليس ليما، بِلانو، ماريّا فونت، أعجبني أقل بقليل العاهر المغرور إرنِستو سان إبيفانيو. حسن، أعجبوني. أنا أردتُ أن أمضي وقتاً ممتعاً وكانت تسليتي معهم مضمونة. تعرّفتُ على ناس كثيرين، ناس راحوا يبتعدون شيئاً فشيئاً عن المجموعة. تعرّفت على أمريكية شماليّة، من كانساس (أنا من كاليفورنيا) الرسامة كاتالينا أوهارا، التي لم أتمكّن من التودد معها كثيراً. عاهرة مغرورة كانت تعتقد أنّها أمّ الاختراع، عاهرة يخطر لها أنّها ثوريّة فقط لأنّها كانت في تشيلي حين وقع الانقلاب. حسن، تعرّفتُ عليها بعد قليل من انفصالها عن زوجها وحين كان كلّ الشعراء يلهثون وراءها كالمجانين. حتى بِلانو وعوليس ليما اللذان كانا لا جنسيين أو أنّهما كانا يفعلانه فيما بينهما بتعقُّل، أنت تعرف، أنا ألحسك، أنت تلحسني، قليلاً فقط ونتوقّف، كانا يبدوان مجنونين براعيةِ البقر الموطوءة. وكذلك رافائيل. لكنّني أخذت رافائيل وقلت له: إذا علمتُ أنّك تنام مع هذه العاهرة سأقطع بيضتيك. وكان رافائيل يضحك ويقول كيف ستقطعين لي بيضتيّ، يا حناني، إذا كنتُ أُحبّك وحدك، لكن حتى عيناه (اللتان كانتا أفضل ما عنده: عينان عربيتان، من خيام وواحات) كان يبدو أنّهما تقولان لي العكس. أنا معك لأنّك تُعطينني لأغطّي نفقاتي، لأنّك تدفّئينني، أنا معك لأنّه ليس لديّ الآن من أكون معها أفضل منك ومن أجامعها. وأنا كنتُ أقول له: يا رافائيل، يا ديوث، يا ولد، يا ابن المومس، عندما سيختفي أصدقاؤك سأستمرُّ أنا معك، أنا أنتبهُ، عندما تبقى لوحدك وبيضتاك مشرعتان في الهواء سأكون أنا من تكون

---

(١) فرقة موسيقية أرجنتينية، أسّسها باتريثيو ودييغوا بِرِث عام ١٩٨٧، تكريماً لفرقة البيتلز، واعتبرت من أفضل فرق البيتلز في العالم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى جانبكِ وتساعدك. وليس العهرة العجائز الفاسدون في ذكرياتهم ومواعيدهم الأدبية. وأقل من ذلك معلماك الروحيان (أرتورو؟ عوليس؟ كان يسأل هو، لكنهما ليسا معلميّ الروحيين، أيتّها الأمريكية البرصاء، هما صديقاي) تماماً كما أرى الأشياء سيختفي هذان ذات يوم. ولماذا سيختفيان؟ كان يسأل هو. لا أدري، كنتُ أقول له، خجلاً، ألماً، حنقاً، عوزاً، تردّداً، قلة ثقة بالنفس، خفراً ولا أتابعُ لأنّ إسبانيّتي فقيرة. وعندها كان هو يضحك ويقول لي أنتِ ساحرة، يا باربارا، هيا جِدّي، أَنهي رسالتك عن رولفو، الآن أنا ذاهب والآن أعود، وأنا بدل أن أسمع منه أرتمي على السرير وأبكي. الجميع سيتخلون عنك، يا رافائيل، كنتُ أصرخ به من نافذة غرفتي في فندق لوس كلابِلِس بينما رافائيل كان يضيع بين الناس، إلاّيَ، يا ديوث، إلاّي.

أماديو سالباتييرّا، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر التفتيش، مكسيكو العاصمة الفدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦.

وماذا قال مانْوِلْ، وخِرمان وأركِلِس؟ سألتهما. ماذا قالوا عن ماذا؟ قال واحد منهما. عن ثِساريا، قلتُ أنا. شيء قليل. مابْلِسْ أرْثِ لا يكاد يتذكّرها، وكذلك أركِلِس بِلا. قال ليسْتْ إنّه لم يعرفها إلا بالاسم فقط، عندما كانت ثِساريا تيناخِرو في مكسيكو كان هو يعيش في بوبْلا. بحسب مابْلِسْ كانت فتاة يافعة جدّاً وصموتة جدّاً. ألم يحكِ لكما شيئاً آخر؟ لا، لا شيء أكثر. وأركِلِس؟ الشيء ذاته، لا شيء. وكيف وصلتما إليّ؟ من خلال ليسْتْ، قالا، هو قال لنا إنّك، أنتَ، يا أماديو لا بدَّ تعرف شيئاً أكثر عنها. وماذا قال لكما خِرمان عنّي. إنّك أنتَ فعلاً عرفتَها، وإنّك قبل أن تنتقل إلى الصخبيّة كنتَ تُشَكّل جزءاً من مجموعة ثِساريا، الواقعية الأحشائية. كذلك

حدّثنا عن مجلّة، مجلة أصدرتها تِساريا في تلك الأيام، قال لنا إنّ اسمها *كابوركا*، آه، من خِرمان، قلتُ أنا وسكبتُ لنفسي كأساً آخر من المنتحرون، بالسرعة التي نسير بها لن تصل الزجاجة حتى الليل. لكن اشربا بثقة ودون عجلة، أيها الفَتيان، فإذا لم تصل هذه الزجاجة حتى الليل، لكن اشربا، أيّها الفَتَيان دون عجلة، فإذا انتهت هذه الزجاجة ننزل ونشتري أخرى. طبعاً لن تكون كهذه التي نشربها الآن، فشيء أفضل من لاشيء. آخ، كم هو محزن أنّهم ما عادوا يُصنعون مِثكال «المنتحرون»، كم هو محزن أن يمرّ الوقت، أليس صحيحاً، كم هو محزن أن نموت ونشيخ وأن تبتعد عنّا الأشياء الجميلة فجأة.

خواكين فونت، شارع كوليما، حي كوندِسا، مكسيكو العاصمة الفدرالية، تشرين الأوّل ١٩٧٦.

الآن والأيام تتتالى ببرودة، ببرودة الأيام التي تتتالى، أستطيع أن أقول دون ضغينة من أي نوعٍ إنّ بِلانو كان رومانسياً، ومبتذلاً في كثيرٍ من الأحيان، صديقاً صدوقاً لأصدقائه، أفترضُ، وأثق، على الرغم من أنّ أحداً لا يعرف ما كان يُفكِّر به، ربّما ولا هو نفسه. عوليس ليما بالمقابل كان أكثرَ جذرية بكثير وأكثر دَماثة. كان يبدو أحياناً الأخ الأصغر لباتشِهْ وأخرى كائناً من الفضاء الخارجي. كانت له رائحة غْريبة. أعرفُ. أستطيعُ أن أقول ذلك، أن أؤكّدَهُ، لأنّه استحمّ في مناسبتين لا تُنسيان في بيتي. لنكن دقيقين: لم تكن رائحته سيّئة، كانت تفوح منه رائحة غريبة، كما لو أنّه خرج توّاً من مستنقع ومن صحراء في آنٍ معاً. رطوبة وجفاف على الحدّ، المرق الأوّلي والسهل القاحل والميت. في آنٍ معاً، أيها الفرسان! إنّها رائحة مُقلِقة فعلاً! على الرغم من أنّها كانت بالنسبة إليّ، ليس مجال ذكرها الآن،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تُكدّرني. أقول رائحته. كان بِلانو بحسبِ علمِ الطبائع منفتحاً وعوليس منطوياً. أي أنّني أُشبه هذا الأخير أكثر. كان بِلانو يعرف كيف يتحرّك بين أسماك القرش أفضلَ بكثير من ليما، لا مجال للشك، أفضل منّي بكثير. كان أفضلَ حضوراً، يعرف كيف يُناور، كان أكثر تهذيباً، يتظاهر بطبيعية أكثر. عوليس الطيّب كان قنبلة موقوتة، والأسوأ: الجميع كانوا، ونحن نتكلّم من الناحية الاجتماعيّة، يعرفون أو يَحدسون أنّه قنبلة موقوتة، ولا أحد، كما هو واضح ومعذور، كان يريد أن يكون قريباً منه أكثر من اللازم. آخ، يا عوليس ليما... كان يكتبُ طوال الوقت، هذا أكثر ما أتذكّره عنه، على هوامِش الكتب التي كان يختلسها وعلى أوراق متفرّقة، عادة ما كان يُضَيّعها. ولم يكتب قط قصائد، كان يكتب أبياتاً يُوَفّق في جمعها في قصائد طويلة وغريبة. كان بِلانو بعكسه، يكتب في دفاتر... ما زالا مدينين لي بالمال...

خائينتو رِكِنا، مقهى كيتو، شارع بوكارِلي، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، تشرين الثاني ١٩٧٦.

كانا يختفيان، لكن ليس لأكثر من يومين أو ثلاثة أيام أبداً. حين كانا يُسألانْ إلى أين يذهبان، يجيبان للبحث عن مؤن. هذا كلّ شيء، بالنسبة *لهذا* لم يكونا يتكلّمان كثيراً. بالطبع بعضُنا، أكثرنا قرباً منهما كنّا نعرف، إذا لم نكن نعرفُ إلى أين يذهبان، كنّا نعرف ما كانا يفعلان خلال تلك الأيّام. بالنسبة للبعض كان سيّان عندهم. بالنسبة لآخرين كان يبدو سيئّاً، يقولون إنّه سلوك رثّ. الرثاثة: مرض المثقّف الطفولي. بالنسبة لآخرين كان يبدو حسناً، لأنّ ليما وبِلانو في الأغلب كانا كريمين بالمال المكتسب بطريقة سيّئة. كنت بين هؤلاء الأخيرين. أموري لم تكن تسير على ما يرام. خوتشيتل،

رفيقتي، كانت حاملاً في شهرها الثالث. لم يكن عندي عمل. وكنّا نعيش في فندق قريب من نصب الثورة، في شارع مونتِسْ، الذي كان والدها يدفع أجرته. غرفة مع حمام ومطبخ صغير، لكنّه كان على الأقل يسمح لنا بصنع طعامنا هناك، وهو ما كان بالنتيجة أرخص بكثير من الخروج يوميّاً للأكل في الخارج. الغرفة، كانت أقرب إلى الشقة الصغيرة، كانت لوالد خوتشيتل قبل أن تحمل هذه بكثير وأعطاها لنا. أظنّ أنّه كان يستخدمها للحقن أو لشيءٍ من هذا القبيل. أعطاها لنا، لكن قبل ذلك جعلنا نعده بأن نتزوّج. قلت أنا طيّب، على الفور، حتى إنّني أعتقدُ أنّني أقسمتُ. خوتشيتل فضّلت ألاّ تقولَ شيئاً وتنظر إلى عيني والدها. عجوز مهم، هذا الرجلُ. طاعن في السن جدّاً، يمكن أن يمرّ تماماً على أنّه جدَّها، ثمّ إنه كان له مظهرِ يُثير القشعريرة. على الأقل في المرّة الأولى التي رأيته فيها. أنا شعرتُ بقشعريرة، يا إلهي! كان ضخماً وخلاسيّاً، شيء غريب لأنّ خوتشيتل قصيرة القامة، رقيقة العظام. لكنّ والدها كان ضخماً، وجلده كثير التجاعيد وشديد السمرة (في هذا بلى مثل خوتشيتل) ودائماً رأيته بطقم وربطة عنق، أحياناً في طقم أزرق وأخرى بنيٍّ. طقمان من النوعية الجيّدة. وفي مناسبات أخرى كان يرتدي، خاصّة في الليل، معطفاً فوق الطقم. عندما قدّمته لي خوتشيتل، عندما ذهبنا لنطلب منه مساعدة، نظر إليّ العجوز ثم قال لي تعالَ، أريدُ أن أُكلِّمك على انفراد. تورّطنا، فكّرتُ، لكن ماذا كنتُ سأفعل، تبعته واستعددت لتحمّل كلّ شيء. لكن الشيء الوحيد الذي قاله لي العجوز هو أن أفتح فمي. ماذا؟ سألته. افتح فمك، قال هو. وهكذا فتحتُ فمي والعجوز نظر إليّ وسألني كيف خسرت الأسنان الثلاثة الناقصة في فمي. في مشاجرة في التحضيري، قلت له. وهل عرفتك ابنتي وأنت على هذه الحال، سأل هو. بلى،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قلتُ، هكذا كنتُ عندما تعرّفَت عليَّ. يا إلهي، لا بدّ إذن أنّها تُحبّك كثيراً (كان العجوز قد تخلى عن العيش مع أسرة رفيقتي منذ أن كانت هذه في السادسة من عمرها، لكنّها كانت تذهب مع أخواتها مرّةً في الشهر لزيارته) قال بعدها: إذا تركتها قتلتُك. قال لي هذا وهو ينظر إلى عينيَّ بعينيه، عينيّ الفأر - حتى بؤبؤاه كانا يبدوان مجعّدين في ذلك الوجه-الثابتتين على عينيّ، لكنّه دون أن يرفع صوته، مثل مجرم وغد في فيلم لأورول، وهو ما من المحتمل أن يكونه في أعماقه. طبعاً أنا أقسمتُ له إنّني لن أتخلّى عنها أبداً وخاصّة الآن وهي ستصير أماً لولدي، وبهذا ختمنا حوارنا الخاص. عدنا مع خوتشيتل، أعطانا العجوز مفتاح زريبته، أكّد لنا ألاّ ننشغل بموضوع الإيجار، فهذه مسألته هو ومرّرَ لنا رزمة أوراق مالية كي نتدبّر أمرنا.

شعرنا بالراحة عندما ذهب وشعرنا بالراحة لأنّه صار عندنا سقف نعيش تحته، لكن سرعان ما اكتشفنا أن المال الذي تركه لنا العجوز لا يكاد يكفي لسدّ الرمق. أعني أنّه كانت لنا أنا وخوتشيتل مصاريفنا الاستثنائية، بعض الحاجات الإضافية التي لم يكن يُغطيها ما كان يعطيه لنا والدها. مثلاً ما كنّا ننفقه على الملابس، اعتدنا دون أيّ مُشكلة على ارتداء الملابس ذاتها دائماً، لكنّنا كنّا ننفق على السينما، على الأعمال المسرحية، على الحافلات والمترو (وإن كنّا في الحقيقة نصل إلى كلّ الأماكن تقريباً مشياً على الأقدام نظراً لأنّنا نعيش في المركز) التي كنّا نأخذها للذهاب إلى ورشات الشعر في كاسا دِل لاغو أو إلى الجامعة. لأنّ الدراسة، بمعنى الدراسة، لم نكن ندرس، لكن لم يكن هناك ورشة لا نذهبُ إليها على الأقلّ مرّة واحدة، كان كالحمى ما أصابنا تجاه الورشات، نصنع شطيرتين ونمثل هناك سعيدَين جداً، نستمع إلى قراءة

القصائد، نستمع إلى النقد وكنّا نحن ننتقد في بعض الأحيان، خوتشيتل أكثر منّي، بعدها كنّا نخرج وقد حلّ الليل وبينما كنّا نسير نحو موقف الحافلات أو المترو أو نبدأ السير حتى البيت، عندها نكون قد أكلنا الشطيرتين، مستمتعين بليل العاصمة الفيدرالية، الليل الذي بدا لي دائماً رائعاً، الليالي هناك رطبة بعامّة متلألئة، لكنّها ليست باردة، ليالٍ وُجِدت للتنزّه أو المُجامعة، ليالٍ وجدت للتحادث دون عجلة، وهو ما كنتُ أفعله مع خوتشيتل، نتحادث عن الولدِ الذي سيأتينا، عن الشعراء الذين استمعنا إليهم يلقون أشعارهم، عن الكتب التي كنّا نقرأها.

كان أن تعرّفنا بالضبط في ورشة للشعر على عوليس ليما ورافائيل بارّيوس والبَشَرَة الإلهيّة. كانت المرّة الأولى أو الثانية التي نحضر فيها وكانت المرّة الأولى التي يظهر فيها عوليس هناك، وحين انتهت الورشة صرنا أصدقاء وذهبنا معاً مشياً، ثمّ أخذنا حافلةً معاً وبينما كان البَشَرَة الإلهية يُحاول أن يغوي خوتشيتل كنتُ أنا أصغي إلى عوليس ليما وهو يصغي إليّ ورافائيل يوافق على ما كان يقوله عوليس ليما وما أقوله أنا، وكان حقيقة كما لو أنّني عثرتُ على توأم روحي، شاعر حقيقيّ، شاعر من رأسه وحتى قدميه يستطيع أن يشرح بوضوح ما كنتُ فقط أحدسُ وأرغبُ وأحلمُ به، وكانت تلك واحدة من أفضل ليالي حياتي، وحين وصلنا إلى البيت لم نستطع النوم، وبقينا أنا وخوتشيتل نتحدّثُ حتى الرابعة صباحاً. بعدها تعرّفتُ على أرتورو بِلانو، على فِليبِّ مولِر، على ماريّا فونت، على إرنِستو سان إبيفانيو وعلى البقيّة، لكن ما من أحد أدهشني كما أدهشني عوليس. طبعاً لم يكن البَشَرَة الإلهية وحده من حاول أن يأخذ رفيقتي إلى السرير، أيضاً حاول بانتشو وموكتِزوما رودريغِث ذلك قدر استطاعتهم، بل وحتى رافائيل بارّيوس. كنتُ أحياناً أقول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لِخوتشيتل: لماذا لا تقولين لهم إنّك حامل، فربّما تخمدُ همّتهم ويتركونك بسلام، لكنّها كانت تضحك وتقول إنّه لا يزعجها أن يُغازلوها. حسن، تلك مسألتك، كنتُ أقول لها، أنا غيور. لكن أتذكّر أن أرتورو بِلانو، حاول ذات ليلة أن يُراوِدَ خوتشيتل، وهذا حقيقةً أحزنني. كنتُ أعرفُ أنّها لن تذهب مع أحد إلى السرير، لكنَّ موقفَهم كان يُزعجني. كان كما لو أنّهم يُقلّلون من قيمتي بسبب مظهري الجسدي. كان كما لو أنّهم يُفكّرون: هذه الفتاة لا يمكن أن يُعجبها هذا البائس الأدرد المسكين. كما لو أنّ للأسنان علاقة بالحبّ. لكن الأمر مع أرتورو بِلانو كان مُختلفاً. خوتشيتل كان يُسلّيها أن يُغازلوها، لكن في تلك المرّة كان الأمر مختلفاً، كان أكثر من تسلية بالنسبة إليها. لم نكن قد تعرّفنا بعد على أرتورو بِلانو، كانت تلك المرّة الأولى، قبلها كنّا سمعناهم يتكلّمون كثيراً عنه، لكن لسبب أو لآخر لم يكونوا قد قدّموه لنا. وفي تلك الليلة ظهر والجميع أخذوا حافلة فارغة في تلك الساعة المتقدّمة من الليل (حافلة فقط يذهب فيها واقعيون أحشائيّون!) في طريقهم إلى حفلة طعام راقصة أو إلى عملٍ مسرحيّ أو أمسية شعرية لأحدهم، ما عدتُ أتذكّرُ وجلس بِلانو إلى جانب خوتشيتل في الحافلة وبقيا يتحدّثان طوال الطريق، وأنا انتبهتُ، أنا الذي كنت خلفهم ببضعة مقاعد، أرتجف، بجانب عوليس ليما والولد بوستامانتِ، انتبهت إلى أنّ وجه خوتشيتل كان مختلفاً، الآن نعم كانت تشعر بالراحة، ماذا أقول، كانت مسرورة لأنّ بِلانو يجلس بجانبها، مكرّساً لها وقته مائة بالمائة، بينما الآخرون، خاصّة من حاولوا من قبل أن يأخذوها إلى الفراش كانوا ينظرون إلى المشهد مواربة مثلي، دون أن يتوقّفوا عن الحديث، دون أن يتخلوا عن النظر إلى الشوارع شبه المقفرة، وباب الحافلة مغلق بإحكام كما لو أنّه باب فرن حرق الجثامين، دون أن

يتخلوا عن القيام، أقولُ، بعملٍ ما كانوا يعملونه، لكن كانت كلّ حواسهّم موضوعة على ما كان يجري في مقعدي خوتشيتلِ وأرتورو بِلانو. وصار الجوّ في لحظة محددة من الهشاشة من الارتكاز على إبرٍ، بحيث أنّني فكّرتُ بأنّ هؤلاء الأوغاد يعرفون شيئاً غريباً لا أعرفه أنا، هنا يحدث شيء، ليس طبيعياً أن تدور الحافلة الوغدة مثل شبح في شوارع العاصمة الفيدرالية، ليس طبيعياً ألا يصعد أحدٌ، ليس طبيعياً أن أبدأ أهذي دون مناسبة. لكنّني تحمّلتُ، كما أفعل دائماً وفي النهاية لم يحدث شيء. بعدها قال لي رافائيل بارّيوس، ما أوقحه، إنّ بِلانو لم يكن يعرف أنّ خوتشيتل رفيقتي. وأنا أجبته إنّه لم يحدث شيء، وأنّه لو حدث شيء فتلك هي مسألتها، خوتشيتل تعيشُ معي وليست عبدةً لي، قلتُ له. لكن الآن يأتي الجزء الغريب من المسألة: بدءاً من تلك الليلة، الليلة التي أَوْلى فيها بِلانو كلَّ ذلك الاهتمام برفيقتي (لم ينقصه سوى أن يُقبّلها على فمها) في خطّ سيرنا الليلي والموحش، لا أحد آخر حاول أن يتوادد معها. لا أحد على الإطلاق. كما لو أنّ الديوثين رأوا أنفسهم مصورين في صورة الوغدِ زعيمهم وما رأوه لم يعجبهم. شيء آخر عليّ أن أُضيفه: مغازلة بِلانو دامت دوام المسافة التي قطعتها الحافلة، أي أنّه كان شيئياً بريئاً، ويمكن أن لا يكون قد عرف أنّ الأدرد الذي كان خلفه بعدّة مقاعد هو رفيق المراهقة التي كان يتوادد معها، لكن خوتشيتل نعم كانت تعرف وموقفها عند تلقي، لنقلْ، مغازلاتِ التشيلي، كان مختلفاً مثلاً عن الطريقة التي كانت تتحمّل فيها مغازلات البَشَرة الإلهية أو بانتشو رودريغِث، أي أنّهُ كان يُلاحَظ مع هؤلاء أن خوتشيتل كانت تسر، تمرح وتضحك، لكنّ صورتها مع بِلانو، هدوء وجهها الذي أتيح لي تأمّله في تلك الليلة، كان يشفّ عن انفعالات مختلفة تماماً. وفي تلك الليلة في الفندق بدا لي أنّني لاحظتُ عند خوتشيتل تعبيراً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وتفكُّراً وشروداً أكثر من المعتاد. لكنّني لم أقل لها شيئاً. ظننت أنّني فهمت الدافع. وهكذا رحتُ أتكلّم عن أشياء أخرى: عن ابننا، عن القصائد التي كنّا سنكتبها هي وأنا، وبكلمة واحدة عن المستقبل. ولم أتكلّم عن أرتورو بِلانو ولا عن المشاكل الحقيقيّة التي كانت تنتظرنا، مثلاً العثور على عمل، امتلاك المال كي نستأجر بيتاً، استطاعتنا أن نعيل أنفسنا وابننا بأنفسنا. أنا كلّمتها، كما في كلّ ليلة، عن الشعر الإبداعي، عن الواقعية الأحشائية، الحركة الأدبية التي تأتي بالنسبة إلى روحي، إلى استعدادي لمواجهة الواقع، مثل الخاتم للإصبع.

بدءاً من تلك الليلة المشؤومة بمعنى معيّن، بدأنا نلتقي بهم يومياً تقريباً. إلى حيث كانوا يذهبون كنّا نذهب نحن. سرعان ما دعوني للمشاركة في أمسية شعرية للمجموعة، أعتقد أنّه كان بعد أسبوع. لم يكن هناك اجتماع نتخلّف عنه. وبقيت العلاقة بين بِلانو وخوتشيتل مجمّدة في إيماءة مهذّبة، لا تخلو من بعض اللغز (اللغز الذي للمفارقة لم يعكّره كبر كرش رفيقتي المتنامي)، لكنّه لم ينتقل إلى أكثر من ذلك. في الحقيقة أنّ أرتورو لم يرَ قط خوتشيتل. ما الذي جرى في تلك الليلة، في الحافلة التي كانت تقلّنا وحدنا في الشوارع الخالية، في الشوارع الصاخبة من العاصمة الفيدرالية؟ لا أعرف. ربّما شابة لم يكن قد ظهر عليها الحمل بعدُ عشقتْ لساعاتٍ مُسرنماً. وكان هذا كلّ شيء.

بقية القصّة أقرب إلى السوقية. كان عوليس وبِلانو يختفيان أحياناً من العاصمة الفيدرالية. كان هذا يبدو لبعضهم سيئاً. وكان بالنسبة لآخرين سيّان. بالنسبة لي كان يبدو لي حسناً. أقرضني عوليس في بعض المناسبات مالاً، المال الذي كان يفيض عنهما كثيراً كان ينقصني. أنا لا أعرف، ولا يهمّني أن أعرف من أين كانا

يأتيان به. بِلانو لم يقرضني قطّ مالاً. حين رحلا إلى سونورا حدستُ أنّ المجموعة في طريقها للاختفاء. به، كما لو أنّ المزحة استنْفِدَت. لم تبدُ لي فكرة سيّئة. فابني على وشك أن يولد وأنا استطعت أخيراً أن أحصل على عمل. وذات ليلة هتف لي رافائيل إلى البيت وقال لي إنّهما قد عادا، لكنّهما سيذهبان مرّةً أخرى. حسن، قلتُ، المال مالهما وليفعلا به ما يشاءان. هذه المرّة سيذهبان إلى أوروبا، قال لي رافائيل. تمام، قلتُ له، هذا ما علينا أن نفعله جميعاً. والحركة؟ سأل رافائيل. أيّ حركة؟ قلتُ أنا ناظراً إلى خوتشيتل وهي نائمة. كانت الغرفة مظلمة وكانت لافتة الفندق تومضُ عبر النافذة، مثل فيلم مجرمين أوغاد، الظلمة التي كان يقوم فيها جدّ ابني ببذاءاته. الواقعية الأحشائية، من غيرها؟ قال رافائيل. ما بها الواقعيّة الأحشائيّة؟ قلتُ أنا، ماذا سيحلّ بالمجلة التي كنّا سنصدرها، ماذا سيحّل بكلّ مشاريعنا؟ سأل رافائيل بنبرة محزنة لو لم تكن خوتشيتل نائمة لضحكت مقهقهاً. المجلة سنصدرها نحن، قلت له، المشاريع سوف تمضي قدماً بوجودهم وبعدم وجودهم، قلت له. بقي رافائيل برهة دون أن يقول شيئاً. لا نستطيع أن نضيع الطريق، تمتم. ثم عاد ليسكت. يتفكّر، أفترض. أنا أيضاً بقيتُ صامتاً. لكنّني لم أكن أتفكّر، كنتُ أعرف تماماً أين أنا وماذا أريد أن أفعل. وهكذا وكما كنت أعرف ما كنتُ أريد أن أفعل، ما كنتُ سأفعله بدءاً من تلك اللحظة، كنتُ أعرف أيضاً أنّ رافائيل سينتهي بالعثور على الطريق. ليس علينا أن نصاب بالهستيريا، قلت له حين تعبت من وجودي هناك، في الظلمة والهاتف معلق إلى أذني. لستُ هستيرياً، قال رافائيل، أظنّ أنّ علينا أن نذهب نحنُ أيضاً. أنا لن أتحرّك من مكسيكو، قلتُ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ماريا فونت، شارع كوليما، حي كوندِسا، مكسيكو العاصمة، كانون الأوّل ١٩٧٦.

اضطررنا لأن نُدْخِلَ أبي إلى مشفى المجانين (تُصَحِّحُ لي أمي وتقول، مشفى الأمراض النفسيّة، لكن هناك كلمات لا تحتاج إلى أيّ تلميع: مشفى المجانين هو مشفى المجانين) قبل عودة عوليس وأرتورو من سونورا بقليل. لا أعرفُ ما إذا سبق وقلته، لكنّهما ذهبا في سيّارة أبي. هذا العمل بحسب أمّي، الذي تُصنّفه على أنّه لصوصية بل وسرقة، كان العاملَ الذي دفع بصحّةِ والدي كي تذهب إلى الشيطان. أنا لا أتفق معها. علاقة أبي بممتلكاته، بيته، سيّارته، كتبِهِ الفنّية، حسابه المصرفي الجاري كانت دائماً، على الأقل باردة، أو على الأقل غامضة. كان يبدو وكأنّ والدي دائماً في تَعَرٍّ دائم، دائماً يُزيح أشياءَ عن كاهله بدرجة جيدة أو سيّئة، لكن بسوء حظّ (أو ببطء) إلى حدّ أنّه لا يستطيع أبداً أن يبلغ التعرّي الكامل. وهذا، بما أنّه يُسَهِّلُ فهمه، كان ينتهي، بتحطيمه. لكن لنعد إلى موضوع السيّارة. عندما عاد عوليس وأرتورو، عندما عدتُ ورأيتُهما، في مقهى كيتو وبأقل من المصادفة بقليل، بالرغم من أنّني إذا كنتُ في ذلك المكان المريع فذلك لأنّني في الحقيقة كنتُ أبحثُ عنهما، عندما عدتُ ورأيتُهما، أقولُ، كدتُ لا أعرفهما. كانا مع عنصرٍ لم أكن أعرفه، شخصٍ يرتدي الأبيضَ كاملاً وقبعة قشّ على رأسه، رأسٍ يُشبه العصا، وفي البداية ظننت أنّهما رأياني وأنّهما يتظاهران بالشرود. كانا يجلسان في زاويةِ نافذةِ بوكارِلي، بجانب المرآة واللافتة التي تقول «جداء بالفرن»، لكنّهما لم يكونا يأكلان شيئاً، كان أمامهما كأسا قهوة بالحليب كبيرين، ومن حين لآخر يأخذان رشفاتٍ بائسة، كما لو أنّهما مريضان أو ميتان من النعاس، وإن كان عنصرُ الثيابِ البيضاء يأكلُ، لكن لم يكن ما يأكله جدياً بالفرن (بالعودةِ لتكرارِ كلمة

«جدي بالفرن» يداخلني غثيان)، بل إنتشيلادا[1]، إنتشيلادا مقهى كيتو الشهيرة والرخيصة وبجانبه زجاجة بيرة. أنا ظننتُ أنّهما يتظاهران بتجاهلي، لا يمكن ألاّ لا يكونا قد رأياني. هما تغيّرا كثيراً، لكن أنا لم أتغيّر أبداً. لا يريدان أن يُسلما عليّ. عندها رحتُ أُفكّرُ بسيارة إيمبالا أبي، وفكّرت بما كانت تقوله أمّي، عنّ أنّهما سرقا تلك السيارةَ بأكبر وقاحة في العالم، بما لم يُرَ مثله قط، وأن الأفضل أن نقدم شكوى ضدّهما إلى الشرطة، وفكّرتُ بأبي، الذي حين كانوا يكلّمونه عن السيارة كان يقول أشياء غير مترابطة، بالله عليك، يا كيم، كانت تقول له أمّي، دعكَ من قول الترهات فأنا تعبة من الذهاب من جانب إلى آخر في الحافلات أو في سيارات الأجرة، فالتنقل سوف يظهر في النهاية في عين من وجهي. وحين كانت أمّي تقول ذلك كان المسكين أبي يضحك ويقول لها انتبهي ستصبحين عوراء. وأمي لم تكن ترى في هذا ظرافة، لكن أنا فعلاً كنتُ أرى: هو لم يكن يقصد أنّها ستدفع عيناً ثمناً للتنقل، بل إنّ سيارات الأجرة والحافلات النادرة التي كانت تأخذها أمّي سوف تخرج من عينها كالدموع أو القذى. روايته كما أرويها أنا ربّما ليس فيها ظرافة، لكنّ قول أبي له فجأةً، وبثقة، على الأقل لفظية، غير معهودة، فعلاً كان ظريفاً ومضحكاً. على أيٍّ حال ما كانت تُريده أمّي هو أن يُقدم شكوى لاستعادة الإيمبالا وما كنت أريده أنا هو ألا تُقدّم أيّ شكوى، فالسيارة ستعودُ تلقائيّاً (هذا أيضاً مضحك، أليس كذلك؟) فقط كان يجب الانتظار ومنح أرتورو وعوليس الوقتَ كي يُعيداها. والآن ها هما هناك مع العنصر مُرتدي للأبيض، عائدين إلى العاصمة الفيدرالية ولا يريانني أو لا يريدان أن يرياني، حيث أنّني ملكتُ فائضاً من

---

(١) Enchilada طبق مكسيكي، مصنوع من رقائق خبز محشوّة بمواد مختلفة ومغطسة بصلصة الشطّة الحارّة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الوقت كي أُراقبهما وكي أُفكّر بما عليّ أن أقوله لهما، إنّ والدي سجين في مشفى مجانين وإنَّ عليهما أن يُعيدا السيّارة، لكن ومع مرور الوقت، لا أعرف كم مكثتُ هناك، راحت الطاولات حولي تَفرغ وتعود لتُشْغَلَ، رجل الملابس البيضاء لم يرفع القبّعةَ عن رأسه قط، وبدا طَبَقُ الإنتشيلادا لا يتبدّل، كلّ شيء راح يشتبك في رأسي، كما لو أنّ الكلمات، التي كان عليّ أن أقولها لهما كانت نباتات وبدأت فجأة تجفّ وتفقد لونها وقوّتها وتموت. ولم يفدني شيئاً التفكيرُ بوالدي المحبوس في مشفى المجانين والمصاب باكتئابٍ قاتل، أو بأمّي وهي تُلَوّح بالوعيد أو بمهماز الشرطة مثل قاتلة مأجورة في الجامعة المكسيكية الوطنية المستقلة (كما كانت المسكينة أمّي بالفعل في سنوات دراستها الجامعية)، لأنّني سرعان ما رحتُ أنا أيضاً أترهلُ وأتفكّك وأُفَكّر (بالأحرى أكرّر نفسي مثل طبلة) أنّه ما من شيء له معنى وأنّ باستطاعتي أن أبقى جالسةً إلى تلك الطاولة في مقهى كيتو حتى نهاية العالم (عندما كنتُ أذهبُ إلى التحضيري كان عندنا مُعَلّم يقول إنّه يعرفُ بالضبط ما سيفعله إذا ما اندلعت الحرب العالمية الثالثة: سيعود إلى قريته، لأنّه لا شيء يحدثُ هناك أبداً، ربّما هي نكتة، لا أدري، لكنّه بطريقة ما كان على حقّ، عندما يختفي كلُّ العالم المُتَحضِّر ستبقى المكسيك، حين تتلاشى الكرة الأرضيّة أو تتفكّك، ستبقى المكسيك هي المكسيك) أو حتى ينهض عوليس وأرتورو والمجهول مرتدي الأبيض ويذهبوا. لكن شيئاً من هذا لم يحدث. رآني أرتورو ونهض، جاء إلى طاولتي وقبّلني قبلة على خدّي. سألني بعدها عما إذا كنتُ أُريد أن أذهب إلى طاولتهم، أو، وهذا أفضل بكثير، أن أنتظرهم حيث أنا. قلت له سأنتظر. حسن، قال هو وعاد إلى طاولة العنصر مرتدي الأبيض. حاولتُ ألاّ أنظر إليهم، ونجحت برهة في ذلك، لكنّني في النهاية رفعتُ نظري. كان

عوليس حانياً رأسه والشعرُ يُغطي نصف وجهه، ويبدو أنه على وشك أن يسقط نائماً. كان أرتورو ينظرُ إلى المجهول وأحياناً ينظرُ إليّ وكلا النظرتين، التي كان يخصّ بها العنصرَ المرتدي للأبيض وتلك التي كانت تبحثُ عن طاولتي كانتا ساهيتين أو شاردتين، كما لو أنّه غادر مقهى كيتو منذ زمن طويل وبقي طيفُهُ وحده هناك، بلا رحمة. بعدها (بعد كم من الزمن؟) هما نهضا وجلسا بجانبي. العنصر المرتدي للأبيض ما عاد موجوداً. كان المقهى قد أقفر. لم أسألهما عن سيارة أبي. قال لي أرتورو إنّهما سيذهبان. مرّة أخرى إلى سونورا؟ سألتهما. ضحك أرتورو. كانت ضحكتُهُ مثل بصقة. كما لو أنّه يبصق على بنطلونه ذاته. لا، قال، أبعد بكثير. شيء جيّد، قلتُ ستستطيع أن ترى ميشيل بولتو. وأجلّ نهر في العالم، قال عوليس. شيء جيّد، قلتُ. ليس سيئاً، لا، قال عوليس. وأنتَ؟ سألتُ أرتورو، أنا سأذهب بعدهم بقليل إلى إسبانيا. ومتى تفكّران بأن تعودا، سألتُ أنا. هما هزّا كتفيهما. من يدري، يا ماريّا، قالا. لم أرهما قط بمثل ذلك الجمال. أعرف أن قول ذلك ابتذال، لكنّهما لم يبدوَا لي قط بمثل ذلك الجمال والجاذبية. على الرغم من أنّهما لم يفعلا شيئاً كي يُغويا. على العكس: كانا متسخين، من يدري منذ متى لم يستحمّا، منذ متى لم يناما، كانت محاجر عيونهما مزرقة ويحتاجان لأنّ يحلقا ذقنيهما (عوليس لا لأنّه كان أمرد)، لكنّ كان بودي لو أذهب مع الاثنين إلى السرير، لأجامعهما حتى أغيب عن الوعي، ثمّ أنظر إليهما نائمين وأتابع بعدها مجامعتهما، فكّرتُ بذلك، إذا بحثنا عن فندق، إذا دخلنا في غرفة مظلمة، دون حدود للوقت، إذا عرّيتهما وإذا عرياني، فكلّ شيء سيُسَوّى، جنون أبي، السيارة المفقودة، الحزنُ والطاقة التي كنتُ أشعرُ بها والتي بدت لي للحظاتٍ خانقة. لكنّني لم أقل لهما شيئاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٤

أوكسيليو لاكوتور، كلّية الفلسفة والآداب، الجامعة الوطنية المكسيكية المستقلة، مكسيكو العاصمة الفدرالية، كانون الأوّل ١٩٧٦.

أنا أمّ الشعر المكسيكي. أنا أعرف كلَّ الشعراء وكلُّ الشعراء يعرفونني. أنا تعرّفتُ على أرتورو بِلانو عندما كان في السادسة عشرة من عمره، وكان صبيّاً خجولاً ولم يكن يعرف الشرب. أنا أرورغوائية، من مونتيفيديو، لكنّني وصلتُ ذات يوم إلى المكسيك، دون أن أعرفَ تماماً لماذا، ولا من أجل ماذا ولا كيف ولا حتى متى. أنا وصلتُ إلى مكسيكو العاصمة الفدرالية عام ١٩٦٧ أو ربّما ١٩٦٥ أو ١٩٦٢. أنا ما عدتُ أذكرُ لا التواريخَ ولا الزيارات، الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أنّني وصلتُ إلى المكسيك ولم أغادرها بعد ذلك أبداً. وصلتُ إلى مكسيكو عندما كان ليون فِليبّ حيّاً، يا له من عملاق، يا لقوّة الطبيعة، وليون فِليبّ مات في عام ١٩٦٨. جئت إلى المكسيك حين كان ما يزال بِدرو غارفياس حيّاً، يا له من رجل عظيم، كم كان حزيناً ودون بِدرو مات في عام ١٩٦٧، أي أنّني لا بدّ جئت قبل ١٩٦٧. لنقل إذن إنّني وصلتُ في عام ١٩٦٥. بشكل نهائي أعتقد أنّني وصلتُ في عام ١٩٦٥ (لكن يمكن أن أكون مخطئة) وترددتُ على ذينك الإسبانيين الكونيّين،

يومياً، ساعة بعد ساعة، بعاطفةِ شاعِرةٍ وممرّضةٍ إنكليزية وأختٍ صغرى تسهر على أخويْها الكبيرين. وهم كانا يقولان لي بتلك النبرة الإسبانيّة الخاصّة جدّاً وكأنّهما يكوّران حرفيّ الثتّا والثِ ويتركان حرف الإس يتيما وشبقاً أكثر من أيّ وقت: يا أوكسيليو، دعكِ من التنقلِ في الشقّة، يا أوكسيليو، اتركي الأوراقَ بسلام. يا امرأة، الغبارُ دائماً رافق الأدب. وأنا كنتُ أقول لهما: يا دون بِدرو، يا ليون (انظر ما أغرب الحالة، أُخاطبُ الأكثر شيخوخة واحتراماً بِ أنتَ، ومع ذلك فالأكثر يفاعةً، كان يُرهبني ولا أستطيع أن أتخلّى عن معاملته بحضرتك!)، اتركاني آخذ هذا على عاتقي، وأنتما اهتما بأموركما، تابعا كتابتكما، مطمئنَّيْن وخذا بالحسبان أنّني امرأة خفيّة. وكانا يضحكان. أو بالأحرى ليون فِليبّ كان يضحكُ، على الرغم من أنني إذا كنت أريدُ أن أكون صريحة لا أعرف ما إذا كان يضحك، أو يسعلُ أو يُجدّف، ودون بِدرو لم يكن يضحك، بِدريتو غارفياس، كم هو حزين، هو لم يكن يضحك، هو كان ينظر إليّ بعينين كأنهما لبحيرة عند الغروب، تلك البحيرات الموجودة في الجبل ولا أحد يزورها، تلك البحيرات المغرقة في حزنها ووداعتها، هي من الوداعة بحيث أنّها لا تبدو من هذا العالم، وكان يقول لي، لا تزعجي نفسَكِ، يا أَوْكسيليو، أو، شكراً، يا أَوْكسيليو، ولا يقول شيئاً آخر. يا له من رجلٍ إلهي، هكذا كان أنّني كنتُ أتردَّدُ عليهما، كما أقول، بلا خياناتٍ ولا استراحاتٍ، دون أن أُثْقِلَ عليهما بعرض قصائدي ومحاولة أن أبدو مُفيدة، لكنّني أيضاً كنت أقومُ بأشياء أخرى. أقومُ بأعمالٍ، أحاول أن أقوم بأعمالٍ. لأنّ العيشَ في العاصمة الفيدرالية سهلٌ، كما يعرفُ أو يعتقدُ أو يتصوّرُ الجميعُ، لكنّه سهل فقط إذا كان عندك بعض المال، أو منحة أو عمل وأنا لم يكن عندي شيء، الرحلة الطويلة إلى المنطقة الأكثر شفافية أفَرغتني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من أشياء كثيرة، من بينها الطاقة الضروريّة للعمل، بحسب الأشياء. وهكذا كان أنّ ما كنتُ أعمله هو الدوران في الجامعة، بدقّةٍ أكثر في كلّية الفلسفة والآداب أقوم بأعمال طوعية، نستطيع أن نقول، يوماً أساعدُ في كتابة دروس الأستاذ غارثيّا ليسكانو على الآلة الكاتبة، ويوماً آخر أُترْجِمُ نصوصاً من الفرنسية في قسم اللغة الفرنسيّة وآخر ألتصق بمجموعة كانت تعمل مسرحاً وأمضي ثماني ساعات دون مبالغةٍ، أُشاهد التدريبات، وأذهب لأبحث عن شطائر، أُشَغِّلُ أجهزة الإسقاط تجريبياً. أحياناً كنتُ أحصل على بعض الأعمال المأجورة، أستاذ يدفعُ لي من راتبه لأنّني أقومُ، لِنَقُلْ، بعملِ مساعِدةٍ له، أو رؤساء الأقسام الذين كانوا ينجحون في أن يتعاقدَ معي هؤلاء أو الكلّيةُ لخمسة عشر يوماً أو شهرٍ في وظائف وهميّةٍ لا وجود لها في معظم الأحيان، أمّا السكرتيرات، ما ألطفهنّ من فتيات، يتدبرن أمرهنّ كي يُمرّرَ لي رؤساؤهن أعمالاً صغيرة كانت تسمحُ لي بكسبِ بعض البيزوات. هذا خلال النهار. أما في الليل فقد كنتُ أعيش حياة بوهيميةً مع صديقاتي وأصدقائي، وهو ما كان بالنتيجة مُفرِحاً بل ومُناسباً، لأنّ المال وقتذاك كان يندر ولم يكن معي أحياناً ما أدفعُ به أجرةَ النزل، لكن بشكلٍ عام بلى كان معي. . أنا لا أُريد أن أُبالغ. كان معي مال كي أعيشَ في الكلّيّة، مثل نملة صغيرة أو بشكل أدق مثل زيز، من مكان إلى آخر من غرفة بائسة وصغيرة إلى غرفة بائسة وصغيرة، على معرفة بكلّ القيل والقال وكلّ الخيانات وحالات الطلاق، كلّ الخطط والمشاريع، كنتُ أتحوّل إلى خفّاش، أترك الجامعة وأتوه في العاصمة الفيدرالية مثل جنّي (أحب أن أقول مثل عفريتة، لكنّني عندها سأجانب الحقيقة) وكنتُ أشربُ وأناقش وأشاركُ في المسامرات (عرفتها جميعاً وكنتُ أنصحُ الشعراءَ الشباب، الذين منذ ذلك الوقت كانوا يعولون عليّ وإن لم يكن كثيراً

كما لاحقاً وكنتُ أعيش، بكلمة واحدة، مع زمني، زمني الذي اخترته بنفسي، والزمن الذي كان يحيط بي مرتعشاً، متبدّلاً، وافراً، سعيداً. إذا وصلتُ إلى العام ١٩٦٨ أو العام ١٩٦٨ وصلَ إليّ. أستطيعُ الآن أن أقولَ إنّني استشرفتُهُ، شعرتُ برائحته في البارات، في شباط، أو آذار ١٩٦٨، لكن قبل أن يصبح العامُ ١٩٦٨ العامَ ١٩٦٨ حقيقةً، أيْ، يضحكني تذكّره، تنتابني رغبة بالبكاء! هل أنا أبكي؟ أنا رأيتُ كلَّ شيء وفي الوقت ذاته لم أرَ شيئاً. مفهوم؟ أنا كنتُ في الكلّيّة عندما اقتحمَ الجيشُ الاستقلالَ ودخلَ حرمَ الجامعة ليقبض على الجميع أو يقتلَ الجميع. لا، في الجامعة لم يُقْتَل كثيرون. كان هذا في تْلاتِلولكو. ليبقَ هذا الاسمُ في ذاكرتنا للأبد! لكنّني كنتُ في الكلّيةِ حين دخل الجيش ورماةُ القنابل وساقوا جميع الناس. شيء لا يُصَدّق أبداً. أنا كنتُ في الحمّام، في حمامات أحد طوابق الكلّية، الرابع كما أعتقد، لا أستطيع أن أجزم. وكنتُ جالسةً في الْمرحاض مُشمّرةً التنورة، كما تقول القصيدة أو الأغنية، أقرأُ تلك القصائدَ الناعمة جدّاً لِبدرو غارفياس، الذي كان قد مضى على موته عام، دون بِدرو الحزين جدّاً على إسبانيا وعلى العالم بعامة، الكئيب والحزين جدّاً، كيف كان سيتصوّر أنّني سأقرأه في الحمام تماماً في اللحظة التي دخل فيها رماةُ القنابل الأوغاد إلى الجامعة. أنا أظنّ، اسمحوا لي بهذه الجملة الاعتراضية، أنّ الحياة مليئةٌ بالأشياء الرائعة والغامضة. وعملياً، كنتُ بفضل بِدرو غارفياس، بفضل قصائدِ بِدرو غارفياس وبفضلِ عادتي السيّئة والعتيدة بالقراءةِ في الحمام، آخرَ من علم بأنَّ رماةَ القنابل قد دخلوا وأنّ الجيشَ قد دخل، وأنّهم كانوا يسوقون كلَّ من كانوا يجدونه أمامهم. لنقل إنّني شعرت بضجّةٍ، ضجّةٍ في الروح! ولنقلْ إنّ الضجةَ راحت تزدادُ وتزدادُ وإنّني وقتها أوليت انتباهاً لما كان يجري، شعرتُ بأنّ أحداً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان يشدّ سلسلةَ المرحاضِ، شعرتُ بصفقةِ بابٍ، بخطواتٍ من الممر وبصخبٍ يتصاعد من الحدائق، من ذلك العشب المعتنى به جيداً والذي يحيط بالكلّية كما يحيط بحرٌ أخضرُ بجزيرةٍ جاهزة دائماً للتناجي والحب. وعندها انفجرت فقاعةُ شِعْرِ بِدرو غارفياس وأغلقتُ الكتابَ ونهضتُ وشددتُ سلسلة المرحاض وفتحتُ الباب، أطلقت تعليقاً بصوت عالٍ، قلت هيه، ماذا يجري في الخارج لكنّ أحداً لم يُجبني، فكلّ مستخدِمي الحمامات اختفوا، قلتُ هيه، أما من أحد؟ عارفة مسبقاً أنّ أحداً لن يجيبني، لا أعرفُ ما إذا كنتم تعرفون هذا الإحساس. غسلتُ بعدها يديَّ، نظرتُ إلى نفسي في المرآة، رأيت هيئة طويلة، نحيلةً، شقراء، مع بعض التجاعيد الزائدة في الوجه، النسخة الأنثوية عن دون كيخوتِ، كما قال لي بِدرو غارفياس في إحدى المناسبات، وخرجتُ بعدها إلى الممرّ وهناك فعلاً انتبهت في الحال إلى أنّ شيئاً كان يجري، كان الممرُّ مقفراً والصراخُ الذي يتصاعد على الأدراج من النوع الذي يخبل ويصيب بالهذيان. ماذا فعلتُ وقتذاك؟ ما يفعله أيُّ شخصٍ، أطللتُ من إحدى النوافذ ورأيتُ دباباتٍ ثمّ انتقلت إلى أخرى في عمق الممر ورأيتُ فانات راحوا يحشرون فيها الطلابَ والأساتذةَ كما في مشهدٍ من الحرب العالمية الثانية ممزوج بمشهد لماريّا فِليكس وبِدرو أرمِنداريث عن الثورة المكسيكية، نسيج داكن اللون لكن عليه هيئات صغيرة وامضة، كما يقولون إنّ بعض المجانين، أو بعض الأشخاص المصابين بنوبة ذعر يَرَوْنها. وعندها قلتُ لنفسي: ابقي هنا، يا أَوْكسيليو. لا تسمحي لهم، يا صغيرة، بأن يعتقلوك. ابقي هنا، يا أَوْكسيليو، لا تدخلي طواعية في هذا الفيلم، يا صغيرة، إذا كانوا يريدون أن يدخلوك، فليعملوا جهدهم للعثور عليك. وعندها عدتُ إلى الحمّام، انظرْ ما أغربَ الحالة، لم أعد إلى الحمّام وحسب بل

عدتُ إلى المرحاض ذاته الذي كنت فيه قبل ذلك، وعدتُ لأجلسَ على كرسيّ المرحاض، أعني: مرّة أخرى مشمّرة التنور ومنزلة سروالي الداخلي، وإن كنت من دون أيّ ضيق جسدي (يقولون إنّ المعدة تطلق لنفسها العنان في مثل هذه الحالات، لكّن هذه لم تكن حالتي) ومعي كتاب بِدرو غارفياس مفتوحاً، ومع أنّني لم أكن أريدُ القراءةَ رحتُ أقرأ، ببطء، كلمةً فكلمة، بيتاً فبيتاً، وفجأةً شعرت بضجة في الممر، ضجيج أحذية عسكريّة؟ ضجة أحذية فيها مسامير، لكن، هيه، قلتُ لنفسي، هذه مصادفة زائدة عن الحدّ، ألا ترين ذلك؟ وعندها سمعتُ صوتاً يقول شيئاً من قبيل أنّ كلَّ شيءٍ مُرَتّب، قد يكون قال شيئاً آخر وأحدٌ ما، ربّما كان الديوث نفسه الذي تكلّم، فتحَ بابَ الحمّام ودخل وأنا رفعت ساقيّ مثل راقصة رينوار، وسروالي الداخلي يقيّد ركبتيّ، النحيلتين، عالقاً بفردتَي حذاء كان لي وقتها، وخفٌّ أصفر، مريح جدّاً، وبينما كنتُ أنتظر أن يُفتّش الجنديّ المراحيض، واحداً فواحداً تهيّأتُ، إذا تطلّب الأمر، كيلا أفتح، كي أدافع عن آخر معقل مستقل من الجامعة الوطنية المكسيكية المستقلّة، أنا الشاعرة الأوروغوائية المسكينة، لكنّني أحبّ المكسيك كما لا يحبّه أحدٌ، بينما أنا أنتظرُ، أقولُ، ساد صمتٌ خاصّ، كما لو أنّ الزمن تشظّى وراح يجري في وقت واحد في اتجاهات عديدة، زمن خالص، ليس شفهياً ولا مركباً من إيماءات أو أفعال، وعندها رأيت نفسي ورأيتُ الجنديّ ينظر إلى نفسه مذهولاً في المرآة، كلانا سكن كتمثال في حمام نساء الطابق الرابع من كليّة الفلسفة والآداب، وكان هذا كلّ شيء، بعدها سمعت خطواته تبتعد، سمعت البابَ يُغلَق وساقاي المرفوعتان، كما لو أنّهما قرّرتا بنفسيهما أن تعودا إلى وضعهما القديم. يجب أن أكون قد مكثت هكذا قرابة الثلاث ساعات، أُقدِّرُ. أعرف أنّ الليل بدأ يحلّ حين خرجت من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المرحاض. كانت الحالة جديدة، أعترفُ، لكنّني كنتُ أعرف ماذا أفعل. كنتُ أعرف ما هو واجبي، وهكذا جلستُ قرب النافذة الوحيدة ونظرتُ إلى الخارج. رأيت جنديّاً ضائعاً في البعيد. رأيتُ خيالَ عربة مصفّحة، أو ظلَّ عربة مصفّحة. مثل رواق الأدب اللاتيني، مثل رواق الأدب اليوناني. أيّ، أنا أحبّ الأدب الإغريقي جدّاً، بدءاً من بينداروس وحتى جيورجوس سيفيريس. رأيتُ الريحَ تجوبُ الجامعةَ، كما لو أنّها تستمتع بآخر أضواء النهار. وعرفتُ ما عليّ أن أفعله. أنا عرفتُ. عرفتُ أنّ عليّ أن أُقاوِمَ. وهكذا جلستُ على بلاطِ حمام النساء واستغللتُ آخر أشعة النور كي أقرأ ثلاث قصائد أخرى لِبِدرو غارفياس، ثمّ أغلقتُ الكتاب وأغمضتُ عينيّ وقلتُ لنفسي، يا أُوْكسيليو، لاكوتور، يا المواطنة الأوروغوائية، الأمريكية اللاتينية، أيّتها الشاعرة الرحّالة، قاومي. هذا فقط ورحتُ بعدها أُفكِّر بماضيَّ كما أُفكِّر الآن في ماضيَّ. رحتُ أُفكِّرُ بأرتورو بِلانو، بالشاب أرتورو بِلانو، الذي تعرّفت عليه عندما كان في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره، في العام ١٩٧٠، عندما كنتُ قد أصبحت أمَّ الشعر الشاب في المكسيك وكان هو صبيّاً قاصراً، لا يعرف حتى الشربَ، لكنّه يشعر بالفخر بأنّ في بلده البعيد تشيلي يمكن أن يفوز سلفادور ألليندي بالانتخابات. أنا تعرفت عليه. تعرّفت عليه في اجتماع شعراء صاخب في بار إنكروثيخادا براكروثانا، وهو جحر مريع أو مكان قذر، حيث كانت تجتمع أحياناً مجموعة متباينة من الشباب على وعودٍ لم تكن شابةً إلى هذه الدرجة. أنا صادقته. أعتقدُ أن ذلك يعودُ إلى أنّنا كنّا الأمريكيَّيْن الجنوبيَّيْن الوحيدين بين مكسيكيين كثيرين. أنا صادقته، على الرغم من التباين في العمر، على الرغم من التباين في كلّ شيء. أنا قلتُ له من كان ت. إس. إليوت، من كان وليم كارلوس وليمز، من كان

عزرا باوند. أنا أخذته مرّة إلى بيته، مريضاً وسكراناً، أنا أخذته محتضنة إياه، متعلّقاً بكتفيّ الهزيلين، وصادقت أمّه وأباه وأخته اللطيفة جدّاً جميعهم ألطاف جدّاً. أنا أوّل شيء قلته لأمّه كان: يا سيّدة، أنا لم أنم مع ابنك. وهي قالت: طبعاً لا، يا أَوْكسيليو، لكن لا تقولي لي، يا سيّدة، فنحن بعمر واحد. عائلة تشيليين رحّالة هاجرت إلى المكسيك في عام ١٩٦٨. عامي. أنا بقيتُ ضيفةً في بيت أمّ أرتورو فتراتٍ طويلة، مرّةً شهراً، مرّةً أخرى خمسة عشر يوماً، ثم مرّة أخرى شهراً ونصف. لأنّني في ذلك الوقت كنت قد بقيت بلا نقود لأدفع أجرة نزلٍ أو غرفة سطح. كنتُ أعيش خلال النهار في الجامعة أعمل ألف شيء، وفي الليل أعيش الحياةَ البوهيمية، وأنام وكنت أبعثر ممتلكاتي القليلة في بيوت الصديقات والأصدقاء، ملابسي، كتبي، مجلاتي، صوري، أنا رِمِديوس بارو، أنا ليونورا كارّينغتون، أنا إيونيس أوديو، أنا ليليان سِرباس (أيْ، مسكينة ليليان سِرباس) وإذا لم أجنّ فلأنّني حافظت دائماً على مرحي، كنتُ أضحك من تنوراتي، من بنطلوناتي، من قصّة شعري على طريقة الأمير الشجاع، الذي راح يصير في كلّ يوم أقل شقرة وأكثر بياضاً، من عينيّ الزرقاوين، اللتين كانتا تسبران ليل العاصمة الفيدرالية، من أذنيّ الورديّتين اللتين كانتا تسمعان قصص الجامعة، الصعود والهبوط، اللا أحد في كلّ يوم، تأجيلات، تملقات، تزلفات، استحقاقات زائفة، أسرّة مرتعشة، تُفكّ ثم تعود لتُركّب من جديد فوق سماء ليلِ العاصمة الفيدرالية، تلك السماء التي كنتُ أعرفها جيّداً، تلك السماء المضطربة التي لا تُدرَكُ مثل قِدْرٍ أزتيكي، والتي كنتُ أتحرّك تحتها سعيدة، مع كلّ شعراء مكسيكو ومع أرتورو بِلانو الذي كان في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره، وراح يكبر تحت ناظري، وقرَّر في عام ١٩٧٣ أن يعودَ إلى وطنه ليقوم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالثورة. وأنا كنتُ الوحيدة، باستثناء عائلته، التي راحت لتُودّعه في محطّة الحافلات، فهو ذهب عبر البرّ، رحلة طويلة، طويلة جدّاً، محفوفة بالمخاطر، الرحلة الأولية لكلّ الفتية الأمريكيين اللاتينيين الفقراء الذين يجوبون هذه القارة اللامعقولة، وحين أطلّ أرتورو بِلانو من نافذة الحافلة كي يلوح لنا بيده مودّعاً، لم تبك أمّه وحدها، أنا أيضاً بكيتُ ونمت تلك الليلة في بيت عائلته، كي أرافق أمّه أكثر من أيّ شيء آخر، لكنّني غادرتُ في صباح اليوم التالي، على الرغم من أنّه لم يكن عندي مكان أذهب إليه، باستثناء البارات والمقاهي والحانات ذاتها دائماً، لكن ومع ذلك ذهبتُ، لا أحبُّ أن أتمادى. وحين عاد أرتورو في عام ١٩٧٤، كان قد صار آخر. كان أللّيندي قد سقط وهو أوفى بوعده، هذا ما حكته لي أخته، أرتورو أرضى ضميره، ضمير الفتى الأمريكي اللاتيني الصغير. كان قد تقدّم كمتطوّع في ١١ شباط. أقام حراسة في شارع مقفر. كان قد خرج ليلاً، رأى أشياء، ثم وبعدها بأيّام أوقفه حاجز للشرطة، لم يُعذّبوه لكنّه بقي سجيناً بضعة أيّام وخلال تلك الأيّام تصرّف كرجل. يجب أن يكون ضميره مرتاحاً. في مكسيكو كان ينتظره أصدقاؤه، ليلُ العاصمة الفيدرالية، حياةُ الشعراء. لكنّه عندما عاد ما عاد نفسه. بدأ يخرج مع آخرين، مع ناس أصغر منه، صبيةٍ في السابعة عشرة، الثامنة عشرة من أعمارهم. تعرّف على عوليس ليما (رفقة سوء، فكّرتُ عندما رأيتُهُ)، بدأ يسخر من رفاقهِ القدامى، يغفر لهم حياتهم، ينظر إلى كلّ شيءٍ كما لو أنّه دانتي وقد عاد توّاً من الجحيم، كيف أقول دانتي، كما لو أنّه فيرجيليو بعينه، فتى في غاية الحساسيّة، بدأ يُدخّن ماريجوانا، عشبة سوقية، يتناول خلاصات أُفضّل ألاّ أتصوّرها. لكنه في أعماقه، أعرف، بقي ظريفاً كما كان دائماً. وهكذا كان حين كنّا نلتقي، بمحض المُصادفة، لأنّنا ما عدنا نخرجُ

مع الأشخاص ذاتهم، كان يقول لي: كيف الحال، يا أَوْكسيليو، أو يصرخ لي النجدة، النجدة! النجدة! من رصيف جادة بوكارِلي المقابل، قافزاً مثل صبي مراهق يحمل تاكو بيد وفي أخرى قطعة بيتزا، ودائماً برفقة لاورا خوارِغي تلك، التي كانت في منتهى الجمال، لكنها بقلبٍ أسود من قلب أرملة زنجية وعوليس ليما وتشيليّ آخر، فِليبّ مولِر، بل وكنت أتشجعُ أحياناً وأنضمّ إلى مجموعته، لكنّهم كانوا يتكلّمون بالغليغلية، ومع أنّه كان يلاحظ أنّهم يُحبّونني، يلاحظ أنّهم يعرفون من أكون، لكنهم كانوا يتكلّمون بالغليغلية، وهكذا كان من الصعب متابعة منعرجات وتقلبات حديثهم، وهو ما كان يجعلني أتابع طريقي. لكن إياكم أن تظنوا أنّهم كانوا يضحكون منّي! كانوا يُصغون إليّ، لكنّني لم أكن أتكلّم الغليغليّة والصبية المساكين لم يكونوا قادرين على مغادرة تلك اللغة. الصبية المساكين المهجورون. لأنّ تلك كانت حالتهم: لا أحد كان يُريدهم. أو لا أحد كان يأخذهم على مجمل الجدّ. وكان ينتابني أحياناً انطباع بأنّهم يأخذون أنفسهم على محمل جدّ زائد. قالوا لي يوماً: أرتورو بِلانو رحل عن المكسيك. وأضافوا. نأمل هذه المرّة ألاّ يعود، وهذا ما أثار حنقي، لأنّني دائماً أحببته وأعتقد أنّني حتى شتمت الشخص الذي قاله لي (على الأقل ذهنياً) لكنّني قبلها ملكتُ من برودة الدم حدَّ أنّني سألتُ إلى أين ذهب. ولم يعرفوا كيف يجيبونني: إلى أستراليا، إلى أوروبا، إلى كندا، إلى أحد هذه الأماكن، وعندها رحتُ أفكّر به، رحتُ أُفكّر بأمّه، الكريمة وبأخته، بالأماسي التي كنا نعمل فيها إمبانادا في بيتهم، بالمرّة التي صنعتُ فيها الشُّعيرية ولكي تجفّ الشعيرية علقناها في كلّ مكان، في المطبخ، في غرفة الطعام، في غرفة المعيشة الصغيرة التي كانوا يملكونها في شارع أبراهام غونثالِث. لم يكن باستطاعتي أن أنسى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شيئاً، يقولون إنّ هذه هي مشكلتي. أنا أمّ شعراء مكسيكو. أنا الوحيدة التي صبرت في الجامعة عام ١٩٦٨، حين دخلها رماةُ القنابلِ والجيش. أنا بقيتُ وحدي في الكلّية، محبوسةً في حمّام، دون طعامٍ لأكثر من عشرة أيّام، لأكثر من خمسة عشر يوماً، ما عدتُ أتذكّر. أنا بقيت مع كتابِ لِبِدرو غارفياس وحقيبة يدي مرتدية بلوزة بيضاء وتنورة سماوية مُكَسَّرة وملكتُ الوقت كي أُفكِّر وأُفكّر. لكنّني لم أستطع وقتها أن أفكّر بأرتورو بِلانو، لأنّني لم أكن أعرفُهُ بعد. أنا قلتُ لنفسي: يا أَوْكسيليو لاكوتور، قاومي، إذا خرجت سيدخلونكِ السجن (وربّما يعيدونك إلى مونتيفيديو، لأنّ أوراقك كما هو منطقي لم تكن نظامية، يا غبيّة، يبصقون عليك، يضربونك بالعصي. أنا تهيّأتُ للمقاومة، لمقاومة الجوعِ والعزلة. أنا نمت الساعات الأولى جالسة على المرحاض، ذاته الذي كنتُ أشغله حين بدأ كلُّ شيء وكنت أعتقد أنّني محظوظة في عجزي، لكنّ النومَ جالسةً على عرشٍ مزعجٌ جدّاً وانتهيتُ قابعة على البلاط. وأنا رأيتُ أحلاماً، كوابيس، أحلاماً موسيقيّة، أحلامَ أسئلةٍ شفافة، أحلام طائراتٍ رشيقة وآمنة كانت تعبر أمريكا اللاتينية من أقصاها إلى أقصاها عبر سماء زرقاء، لألاءة وباردة. أنا استيقظتُ متخشبة وجائعةً جوعَ ألف شيطان. أنا نظرتُ من النافذة، من نافذة المغاسل القبيحة ورأيتُ صباحَ يوم جديد في قطع من حرم الجامعة كأنها قطع لعبة تركيب الصور. كرّستُ ذلك الصباح الأوّل للبكاء ولشكرِ ملائكة السماء كيلا يقطعوا الماء. لا تمرضي، يا أَوْكسيليو، قلتُ لنفسي، اشربي كلَّ الماء الذي تُريدين، لكن لا تمرضي. وتركت نفسي أسقط على الأرض، مستندةً بظهري إلى الجدار، وفتحتُ مرّة أخرى كتابَ بِدرو غارفياس. أُغمِضت عيناي. يبدو أنّني بقيت نائمة. بعدها شعرتُ بخطواتٍ واختبأت في مرحاضي (ذلك المرحاض الذي هو

الغرفة التي لم أملكها قط، ذلك المرحاض كان خندقي وقصري، قصر الدوينو، ظهوري في المكسيك). ثمّ قرأتُ بِدرو غارفياس. بعدها بقيت نائمة. بعدها رحتُ أنظرُ من الكوّة ورأيت غيوماً عالية وفكّرتُ بلوحات الدكتور أتْلْ وبالمنطقة الأكثر شفافية. ثمّ رحت أُفكّر بأشياءَ جميلة. كم من أبيات الشعر أحفظ عن ظهر قلب؟ رحتُ أُنشِدُ، أتمتمُ بالأبيات التي كنتُ أتذكرها وكان بودي أن أُسجلها، لكن على الرغم من أنّني كنتُ أحملُ قلم بيك إلا أنّني لم أكن أحمل ورقاً. بعدها فكّرت: يا غبيّة، عندك أفضلُ ورق في العالم: استعدادك. وهكذا قطعتُ ورقاً صحيّاً ورحتُ أكتبُ. بقيت بعدها نائمةً وحلمتُ، يا للضحك، مع خوانا دِ إيبابورو، حلمت بكتابها وردة *الريح*، ١٩٣٠، وكذلك بكتابها الأوّل *ألسنة الماس*، يا له من عنوان جميل، جميل جدّاً، يكادُ يكون كتابَ طليعةٍ، كتاباً فرنسياً كُتِب في العام الماضي، لكنّ خوانا دِ أمريكيا نشرته عام ١٩١٩، أي وهي في السابعة والعشرين من عمرها، لا بدّ أنّها كانت امرأة مهمّة وقتذاك، وكلّ العالم تحت تصرّفها، مستعدون لأنّ ينفذوا أوامرها بأناقة (فرسان ما عادوا موجودين، وإن كانت خوانا ما زالت موجودة)، مع كلّ أولئك الشعراء الحداثيين المستعدين لأنّ يموتوا من أجل الشعر، مع كلّ تلك النظرات، مع كلّ تلك المداهنات وكلّ ذلك الحبّ. استيقظتُ بعدها. فكّرتُ: أنا الذكرى. هذا ما فكّرتُ به. عدتُ بعدها لأنام. ثمّ استيقظتُ وبقيتُ ساعاتٍ وربّما أياماً أبكي الزمنَ الضائعَ، أبكي طفولتي في مونتيفيديو، الوجوهَ التي كانت ما تزال تُبلبلني (بل ما زالت تبلبلني أكثر من السابق) والتي أُفَضِّل ألاّ أتكلّم عنها. بعدها أضعتُ حسابَ الزمن الذي مضى عليّ حبيسة. من نافذتي الصغيرة كنتُ أرى العصافيرَ، الأشجارَ أو الأغصانَ التي كانت تتطاول من أماكن غير مرئيّة، جنباتٍ، أعشاباً، غيوماً،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جدراناً، لكنّني لا أرى ناساً ولا أسمع جلبةً وفقدتُ حساب الزمن الذي مضى عليّ حبيسة. بعدها أكلتُ ورقاً صحّياً، ربّما وأنا أتذكّر شارلوت، لكن قطعة صغيرة فقط، لم يكن عندي معدة لآكل أكثر. بعدها اكتشفتُ أنّني لم أعد جائعة. بعدها أخذتُ الورق الصحيّ الذي كتبتُ عليه وألقيت به في المرحاض وشددتُ السلسلة. صوتُ الماء جعلني أنطُّ، وعندها فكّرتُ أنّني ضائعة. فكّرتُ: أيّ عملٍ شاعريّ أن أُدمّر كتاباتي. فكّرتُ: فكّرت: إنّني على الرغم من كلّ دهائي وكلّ تضحياتي ضائعة. فكَّرتُ: ما الشاعرية في تدميري لكتاباتي. فكّرتُ: كان من الأفضل لي لو أنّني ابتلعتها، أنا الآن ضائعة. عبثية الكتابة، عبثيّة التدمير. فكّرتُ: لأنّني كتبتُ، قاومتُ. فكّرتُ: لأنّني دمّرتُ ما كتبتُهُ سيكتشفونني، سيضربونني، سيغتصبونني، سيقتلونني. فكّرتُ: كلا الفعلين، مترابطان الكتابة والتدمير، اختبائي واكتشافي. جلستُ بعدها على العرش وأغمضتُ عينيَّ. كان جسدي كلّه متشنّجاً. تحرّكتُ ببطء في الحمّام، نظرتُ إلى نفسي في المرآة، تمشّطتُ، غسلتُ وجهي. آه، كم كان وجهي مزرياً. كوجهي الآن، كَوِّنوا فكرة، سمعتُ بعدها أصواتاً. أظّنُ أنّني من زمن طويل لم أسمع شيئاً. شعرتُ مثل روبنسون حين اكتشف الأثرَ على الرمل. لكنّ أثري كان صوتاً وباباً يُغلَقُ فجأة، أثري كان انهياراً من كراتٍ حجرية أُطلقت فجأة في الممرّ. بعدها فتحتْ لوبّيتا، سكرتيرةُ الأستاذ فومبونا، البابَ وبقينا تنظر الواحدةُ منّا إلى الأخرى، فاغرَتَيّ الفم، لكن دون أن نستطيع أن ننطق بكلمة، دختُ، أنا أعتقد من التأثّر. حين عدتُ لأفتحَ عينيّ، وجدتُ نفسي في مكتب الأستاذ ريوس (ما أجمله وأشجعه كان وما يزال ريوس!) بين أصدقاء ووجوهٍ معروفة، بين ناسٍ من الجامعة وليس جنوداً، وهذا ما بدا لي رائعاً إلى حدّ أنّني رحتُ أبكي، غير قادرة على أن

أصوغ رواية متجانسة عن قصّتي، على الرغم من مطالبة ريوس، الذي بدا مستنكراً وممنوناً في آنٍ معاً لما فعلته. وهذا هو كلّ شيء، يا أصدقائي. تبعثرت الأسطورةُ في ريحِ العاصمة الفيدرالية وفي ريح الثمانية والستين وانصهرت في الموتى والباقين الأحياء والآن الجميع يعرفون أنّ امرأة بقيتْ في الجامعة حين انتُهِكتْ حرمتها في ذلك العام الجميل والمشؤوم. مرات كثيرة سمعتُ القصّةَ، يرويها آخرون. حيث كانت تلك المرأة التي بقيت خمسة عشر يوماً من دون طعام، محبوسة في حمام، إنّها طالبة طبّ أو سكرتيرة في برج رئاسة الجامعة، وليست أوروغوائية بلا أوِرق ثبوتية ولا عملٍ ولا بيتٍ ترتاح فيه. وأحياناً ليست حتى امرأة بل رجل، طالبٌ ماويّ أو أستاذٌ يعاني من مشاكلَ معوية. وحين أسمعُ هذه القصص، هذه الرواياتِ عن قصّتي، عامّةً (خاصّة إذا لم أكن سكرانة) لا أقولُ شيئاً. أمّا إذا كنتُ سكرانة فإنّني أُقَلّلُ من أهمية المسألة! هذا ليس مهمّاً، أقول لهم، هذا فولكلور جامعيّ، هذا فولكلور العاصمة الفيدرالية، وعندها ينظرون إليَّ ويقولون: يا أَوْكسيليو، أنتِ أمُّ الشعر المكسيكي. وأنا أقول لهم (إذا كنتُ سكرانة أصرخ بهم) لا، أنا لستُ أمَّ أحدٍ، لكن هذا صحيح، أعرفُهم جميعاً، أعرف جميعَ شعراء العاصمة الفيدرالية الشباب، الذين وُلِدوا هنا والذين جاءوا من المقاطعات، والذين جاء بهم الموجُ من أماكن أخرى من أمريكا اللاتينية. وأحبّهم جميعاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٥

أماديو سالباتييرّا، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر التفتيش، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الأوّل ١٩٧٦.

عندها قلتُ لهما: لنرَ، أيّها الفَتَيان، ماذا سنفعلُ إذا ما انتهى المِشكال؟ وهما قالا: ننزل ونشتري زجاجة أخرى، يا سيّد سالباتييرّا، يا أماديو، لا تقلق بهذا الشأن. وبهذه الطمأنة، بهذا الأمل، يمكن القول، شربتُ جرعة لا بأس بها، حتى فرغت الزجاجة، ما أروع المِشكال الذي كان يُصنع في هذه البلاد، بلى يا سيّد، ونهضت بعدها واقتربتُ من المكتبة، اقتربتُ من غبارِ المكتبة، منذ كم لم أنظّف قليلاً هذه الرفوفَ! لكن ليس لأنّني لا أحبُّ الكتبَ، لا تظنوّا، بل لأنّ الحياةَ توهنُ الواحدَ كثيراً، ثمّ تخدّره (تقريباً دون أن ينْتَبِهَ، يا سادة) بل وبعضنا، وهذه ليست حالتي، تنوّمُهم مغناطيسياً أو تفتحُ لهم قناةَ النصف الأيسر من الدماغ، التي هي صورة مجازية لعرضِ مشكلةِ الذاكرة، لِنَرَ ما إذا كنتُ أُوَضِّحُ. ونهض الفَتَيان أيضاً عن مقعديهما وأنا شعرتُ بتنفّسهما في نقرتي، طبعاً مجازياً، وعندها ودون أن ألتفتَ، سألتهما عمّا إذا كان خِرمان أو أركِلِس أو مانْوِل قد حكوا لهما ما الذي كنتُ أعملُ فيه، كيف كنتُ أكسب بِزواتي يوميّاً. وهما قالا لا، يا أماديو، عن هذا لم يقولوا لنا شيئاً. وعندها قلتُ لهما، أنا أكسبُ عيشي من الكتابة،

أيّها الفَتَيان، قلتُ لهما، في بلدِ العهر هذا أنا وأوكتافيو باث الوحيدان اللذان يكسبان عيشهما بهذه الطريقة. وهما بالطبع لزِما صمتاً مؤثّراً، إذا ما سُمِح لي بهذا التعبير. صمت كالصمت الذي كان الناس يقولون كان يلزَمه خيلْبِرتو أوين. وعندها قلتُ لهما، من وراء ظهريهما دائماً ومبقياً على نظري على متن كتبي: أعمل هنا قريباً، في ساحة سانتو دومينغو، أكتبُ طلباتٍ، توسلاتٍ ورسائلَ وعدتُ لأضحك وخرج غبار الكتب مطروداً بقوّة ضحكتي، وعندها استطعتُ أن أرى بشكلّ أفضل العناوينَ، المؤلفينَ، الأضابيرَ التي أحفظ فيها مواد عصري غير المنشورة وهما أيضاً ضحكا ضحكة قصيرة لامست نقرتي، آهٍ، يا لهما من فتيين رصينين، حتى استطعتُ أخيراً أن أقع على الإضبارة التي كنتُ أبحث عنها. هي ذا هنا، قلتُ، حياتي وبالمناسبة الشيءُ الوحيدُ المتبقي من حياة ثِساريا تيناخِرو. وعندها، وبدل أن يندفعا هما بنهم نحو الإضبارة ليُقلّبا أوراقها، هنا يكمن الشيء الغريب، أيّها السادة، بقيا بلا تبدّل وسألاني عمّا إذا كنتُ أكتبُ رسائلَ حبّ. رسائلَ من كلّ الأنواع، أيّها الفَتَيان، قلت لهما تاركاً الإضبارة على الأرض وعدتُ لأملأ كأسي بمِثكال «المنتحرون»، رسائل أمّهات إلى أبنائهن، رسائل أبناء إلى آبائهم، رسائل نساء إلى أزواجهنّ المسجونين، رسائل خطيبات، طبعاً هي الأفضل، نظراً لبراءتها، أقوُل، أو لحرارتها، كلّ شيء مختلط مثل صيدلية والكاتبُ يضع أحياناً شيئاً من محصوله الخاص. آه، يا لها من مهنة جميلة، قالا. بعد ثلاثين عاماً في أروقة سانتو دومينغو، لم تعد جميلة إلى هذا الحد، قلتُ أنا، بينما رحتُ أفتح الإضبارة وبدأتُ أفتّش بين الأوراق، أبحث عن النسخة الوحيدة التي كانت عندي من كابوركا، المجلّة التي أدارتها بكثيرٍ من العنايةٍ وكثيرٍ من الحماس ثِساريا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خواكين فونت، مشفى إل رِبوسو للصحة العقلية، طريق صحراء الأُسود[1]، ضواحي مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٧.

هناك أدبٌ للوقت الذي تكونُ فيه سئماً، للوقت الذي تكون فيه هادئاً. هذا هو أفضل أدب، أعتقدُ. أيضاً هناك أدب للوقت الذي تكونُ فيه حزيناً. وهناك أدب للوقت الذي تكون فيه فرحاً، هناك أدبٌ للوقتِ الذي تكون فيه نهماً للمعرفة. وهناك أدبٌ للوقت الذي تكون فيه يائساً. هذا الأخير هو الذي أراد عوليس ليما وبِلانو أن يكتباه. خطأ خطير، كما سنرى فيما يلي. لنأخذ مثلاً قارئاً متوسّطاً، شخصاً هادئاً، مثقفاً، حياته إلى هذا الحدّ أو ذاك سليمة، ناضجاً، رجلاً يشتري كتباً ومجلاتٍ أدبية. حسن تلك هي المسألة. هذا الرجل يستطيع أن يقرأ ذلك الذي يُكْتَبُ للوقت الذي تكونُ فيه هادئاً، للوقت الذي تكون فيه رائقاً، لكنّه أيضاً يستطيع أن يقرأ أيّ نوع من أنواع الأدب، بعين نقديّةٍ، دون تواطؤات طائشة أو مؤسفة، بعيداً عن العواطف. هذا ما أؤمن به. لا أريد أن أهين أحداً.

لنأخذ الآن القارئ اليائسَ، ذلك الذي يتوجّه إليه أدبُ اليائسين افتراضاً. ما الذي تريانه؟ أولاً: يتعلق الأمر بقارئ مراهقٍ، أو براشدٍ غير ناضج، جبانٍ، أعصابه توشك على أن تنفجر. هو الوغد النموذجي (عذراً عن التعبير) الذي كان ينتحر بعد أن يقرأ *آلام فارتر*. ثانياً: هو قارئ محدود. لماذا محدود؟ بسيط، لأنّه لا يستطيع أن يقرأ غير الأدب اليائس أو الأدب المكتوب لليائسين، كلاهما سيّان، يبني نموذجاً أو مسخاً غير قادر على أن يقرأ دفعة واحدة *البحث عن الزمن المفقود*، مثلاً، أو *الجبل السحري* (برأيي المتواضع نموذج

---

(١) Desierto de los Leones

الأدب الهادئ والرصين والتام)، أو، إذا كان هذا قصدنا، *البؤساء* أو *الحرب والسلم*. أظنُّ أنّني تكلّمتُ بوضوح، أليس كذلك؟ حسن، تكلّمتُ بوضوح. هكذا كلّمتهما، قلتُ لهما، حذّرتهما، جعلتهما يستنفران ضدّ الأخطاء التي كانا يواجِهانها. تماماً كمن يُكلّم حجراً. أيضاً: القراء اليائسون هم مثل مناجم الذهب في كاليفورنيا. عاجلاً أكثر مما آجلاً سينتهون! لماذا؟ شيء واضح! لا يمكن للمرء أن يعيش كلَّ حياته يائساً، فالجسد ينتهي بالإذعان والألمُ ينتهي بأن يُصبح غير محتمل، والصحو يتسرّب على شكل دفقات كبيرة وباردة. القارئ اليائس (وأكثر منه قارئ الشعر اليائس، هذا، صدقوني، لا يُحتمل) ينتهي بالتخلص من الكتب، ينتهي حكماً بالتحوّل إلى مجرّدِ يائس. أو أنّه يتعافى! وعندها، وكجزء من عملية التجدُّد، يعودُ ببطء، كما لو بين قطنٍ، كما لو تحتَ مطرٍ من الحبوب المُهدّئة، يعود، أقولُ، إلى أدبٍ مكتوبٍ لقرّاء رصينين، هادئين، بعقلٍ مركّز جيّداً. وهذا ما يسمّى (وماذا لو لم يكن هناك من أحدٍ يسمّيه هكذا، هل سأسميه أنا هكذا؟) الانتقال من المراهقة إلى عمر الرشد. وأنا لا أريد أن أقول بهذا إنه عندما يتحوّل إلى قارئ هادئ، ألاّ يقرأ كتباً مكتوبةً لليائسين. طبعاً يقرأها. خاصّةً إذا كانت جيّدة أو مقبولة، أو نصحَهُ بها صديقٌ. لكنّها في الأساس تُصيبه بالضجر؟ لكن هذا الأدب المرَّ مليء أساساً بالأسلحة البيضاء، وبالمُسُح[1] المشنوقين، لا يتمكن من التوغّل حتى القلب، كما تستطيع فعلاً أن تفعل صفحةٌ رصينة، صفحةٌ متروّية، صفحةٌ، تامّة تقنياً! أشرت لهما إلى الصفحة التامّة تقنيّاً. أعلمتهما بالمخاطِر. لا تستنفدا عِرْقاً[2]! تواضعا!

(١) جمع مسيح.

(٢) أو طبقة معدنية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ابحثا، ضيعا في البلاد المجهولة! لكن كونا مزوّدين بحبلٍ، فتاتِ خبز وحصى بيضاء! ومع ذلك أنا كنتُ مجنوناً، كنتُ مجنوناً بسبب ابنتيَّ، بسببهما، بسبب لاورا داميان، ولم يعيراني انتباهاً.

خواكين باثكِث أمارال، ماشياً في حرم جامعة الوسط الغربي الأمريكي الشمالي، شباط ١٩٧٧.

لا، لا، لا، طبعاً لا. هذا الفتى بِلانو كان شخصاً لطيفاً جدّاً، مثقّفاً جدّاً، غيرَ عدوانيّ أبداً. عندما كنتُ في مكسيكو في عام ١٩٧٥، كي أقدّم، في المجتمع، هكذا يمكن أن يُسمّى، ترجمتي لكتاب *الأناشيد* لعزرا باوند، المنشور في طبعة جميلة، في خواكينِ مورتيث، الكتاب الذي لو قدّم في أيّ بلد أوروبّي لجذب ناساً أكثر بكثير، حضر هو وأصدقاؤه إلى الحفل، ثمّ، وهذا مهم، بقوا ليتسامروا معي، بقوا ليرافقوني (أجنبيّ، مدينة مجهولة بطريقة ما، هذا دائماً عمل مشكور) وذهبنا إلى بار، ما عدتُ أذكر إلى أيّ بار، لا بدّ أنّه كان في المركز، حول الفنون الجميلة وبقينا نتحدّث عن باوند حتى ساعة متأخّرة. يعني أنّني لم أرَ وجوهاً معروفةً في التقديم، لم أرَ وجوهاً لامعة في الشعرِ المكسيكي (وإذا وُجدت، يؤسفني أن أقول ذلك، لم أعرفها) لم أرَ غيرهم، هؤلاء الشباب الحالمين والمليئين بالطاقة، أليس صحيح؟ وهذا ما يَمْتَنُّ له الأجنبيّ.

عمَّ تكلّمنا؟ عن المُعلّم، طبعاً، عن أيّام سانت إليزابيث، عن فِنولوزا ذلك العجيب وعن شعر سلالة هان وسلالة سوي، عن لوي هسيانغ، عن توغ تشونغ-شو، عن وانغ بّي، عن تاو شيين، تاو يوان-مينغ، ٣٦٥-٤٢٧)، عن شعر سلالة تانغ، هان يو (٧٦٨-٨٢٤) عن مينع هاو-جان (٦٨٩-٧٤٠) عن وانغ وي (٦٩٩-٧٥٩)، عن لي بّو (٧٠١-٧٦٢)، عن تو فو (٧١٢-٧٧٠) عن بَو تشو-إي

(٧٧٢-٨٤٦) عن سلالة مينغ، عن سلالة تشينغ، عن ماو تسي-تونغ، في النهاية، عن أشياء للمعلم باوند الذي ما من أحدٍ منّا كان في الحقيقة يعرفه، ولا حتى المُعلّم، لا؟ لأنّ الأدبَ الذي كان يعرفه حقيقةً هو الأدب الأوروبي، لكن يا له من استعراض للقوّة، يا للغرابة الرائعة، غرابة باوند حين ينكش في تلك اللغة اللغزية، لا؟ يا لإيمانه بالإنسانية. أليس صحيحاً؟ وكذلك تحدّثنا عن الشعراء البروفنساليين، ذاتهم دائماً، هذا معروف، أرنوت دانييل، بِرتران دِ بورن، خيروت دِ بورنيل، جوفريه روديل، غيليرم دِ بِرغيدا، ماركابرو، برنار دِفنتادورن، رايمبو دِ فاكِيراس، القشتالي كوسي، كريستيان دِ ترويز الهائل، وتكلّمنا أيضاً عن إيطاليي دولتس ستيل نوفو، عن أصدقاء دانتي، كمن يقول، سنو بيستويا، غويدو كافالكانتي؛ غويدو غوينيزلّي، سيّكو أنجيوليري، جياني ألفاني، ديمو فرسكوبالدي، لكنّنا تكلّمنا أكثر من كلّ شيء عن المعلّم باوند، عن باوند في إنكلترا، عن باوند في باريس، عن باوند في رابّللو، عن باوند السجين، عن باوند سانت إليزابيث، عن باوند العائد إلى إيطاليا، عن باوند على عتبة الموت. . .

وماذا جرى بعدها؟ ما يجري دائماً. طلبنا الحساب. أصرّوا على أنْ لا أساهم بأيّ مبلغ، لكنّني رفضت رفضاً قاطعاً، أنا أيضاً كنتُ شابّاً وأعرفُ أن المال في هذا العمر لا يكثر، والأسوأ إذا كان الأمر يتعلّق بشاعر، وهكذا وضعت نقودي على الطاولة، ما يكفي لتغطية كلّ المستهلكات (كنّا قرابة العشرة، الشاب بِلانو وثمانية من أصدقائه، بينهم فتيان رائعان/ للأسف أنّني نسيت اسميهما، وأنا)، لكنّهم، الآن وأنا أفكّر بذلك ربّما كان الأغرب في تلك الليلة، هو أنّهم أخذوا النقود وأعادوها إليّ وأنا عدت ووضعتها على الطاولة، وهم من جديد أعادوها إليّ وعندها قلت لهم، أيّها الفتية، عندما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أذهب لأتناول بعض الأقداح أو بعض الكوكاكولا (ها ها) مع طلابي، لا أسمح لهم أبداً أن يدفعوا، وقلتُ هذه الجملة بكثير من الحنان (أنا أعبدُ طلابي، وأعتزّ بأنّهم يعاملونني بالمثل) لكنّهم قالوا لي وقتذاك، إيّاك أن يخطر ببالك، يا معلّم، فقط هذا: إيّاك أن يخطر ببالك، يا مُعلّم، وفي هذه اللحظة وبينما أنا أفكّ رموز هذه الجملة، إذا سمح لي، متعدّدة المعاني، راقبت وجوههم، سبعة فتيان وفتاتان في غاية الجمال، وفكّرتُ: لا، هم لن يكونوا أبداً طلاّبي، لا أعرف لماذا فكّرتُ بذلك، في الواقع كانوا في غاية التهذيب، واللطف، لكنّني فكّرتُ.

عدتُ لأخبّئَ النقودَ في محفظتي ودفع واحدٌ منهم الحساب وبعدها خرجنا إلى الشارع، كانت ليلة رائعة، من دون إزعاج السيارات والحشود النهارية وسرنا برهة باتجاه فندقي، تائهين تقريباً، ربّما كنّا نبتعد، ومع تقدّمنا (لكن إلى أين؟)، راح بعضُ هؤلاء الفتية يودّعُون بعضهم بعضاً، يشدّون على يدي ويذهبون (كانوا يودّعون رفاقهم بطريقة مختلفة، أو هذا ما بدا لي) وشيئاً فشيئاً راح العدد يقلّ، بينما كنّا نستمرّ بالحديث، نتحدّث ونتحدّثُ أو، الآن أُفكّر، ربّما لم نتكلّم إلى هذا الحدّ، وأنا سأصحح وأقول كنّا نُفكّرُ ونُفكِّر، لكنّني لا أظنّ ذلك، ففي مثل تلك الساعاتِ لا أحدَ يفكّر كثيراً، فالجسد يطلب الراحة. وجاءت لحظة صرنا فيها خمسة فقط نسير فيها تائهين في شوارع مِكسيكو، ربّما في أتمِّ صمت، في صمتٍ باونديٍّ، وإن كان المعلّم أبعد ما يكون عن الصمت، أليس صحيحاً؟ كلماته هي كلمات القبيلة التي لا تكفّ عن التحقيق، عن البحث، عن روايةِ كلّ القصص. على الرغم من أنّ هذه الكلمات محاطة بالصمت، لحظة بلحظة، محتوتة بالصمت، أليس صحيحاً؟ وعندها قرّرتُ أنّ ساعة النوم قد أزفت فأوقفتُ سيارةَ أجرة وقلتُ لهم وداعاً.

ليساندرو مورالِس، شارع كومِرثيو، مقابل حديقة مورِلوس، حيّ إسكاندون، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، آذار ١٩٧٧.

كان الروائيّ الأكوادوري فارغاس باردو، الرجل الذي لا يفقهُ شيئاً من شيء، وكان يعمل كمُصحّح عندي في دار النشر، هو من قدّم لي أرتورو بِلانو المذكور. فارغاس باردو نفسه كان قد أقنعني قبل سنة أنّه قد يكون مربحاً أن تقوم الدار بتمويلِ مجلّةٍ يتعاونُ فيها أفضلُ أقلام المكسيك وأمريكا اللاتينية. وعملتُ برأيهِ وأصدرتُها. أعطوني منصب مديرِ شرف وخَصَّ فارغاس باردو واثنان من أصدقائه أنفسَهُم بهيئة التحرير.

الخطّة، على الأقل كما باعوها لي، هي أن تَدعم المجلّةُ كتبَ دار النشر. كان هذا هو الهدف الرئيسي. الهدف الثاني هو إصدارُ مجلة أدبٍ جيدة، سواء بمضمونها، الذي سيرفع من مكانة الدار، كما بالمتعاونين معها. كلّموني عن خوليو كورتاثار، عن غارثيّا ماركيز، عن كارلوس فوِنتِس، عن فارغاس ليوسا، عن الشخصيات الأولى في الأدبِ الأمريكي اللاتيني. وأنا المتروّي دائماً، كيلا أقول الشكّاك، قلت لهم يكفيني إبارغوِنغويتيا، مونتِرّوسو، خوسِهْ إميليو باتشِكو، مونسيباِيس، إلِنيتا بونياتوسكا. وهم بالطبعِ قالوا بلى، سرعان ما سيموتون رغبةً بالنشرِ في مجلتنا. أنا معكم، ليموتوا، قلتُ، لنقم بعملٍ جيّد، لكن لا تنسوا الهدف الأوّل. تقوية دارِ النشر. هم قالوا هذا لا يشكّل أيّ مشكلة، فالدار سوف تنعكس في كلّ صفحة، أو كلّ صفحتين، ثمّ إنّ المجلة لن تتأخّر في أن تعطي أُكُلَها. وأنا قلتُ: أيّها السادةُ المصير في أيديكم. في العدد الأوّل كما من السهل التأكّد، لم يظهر لا كورتاثار ولا غارثيا ماركيز ولا حتى خوسِهْ إميليو باتِشكو، لكننا حظينا بمقالة لمونسيباِيس، وهذا ما أنقذَ، بطريقة ما، المجلّةَ؛ بقية المساهمات كانت لفارغاس باردو،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مقالة لروائي أرجنتيني منفي في المكسيك، صديق لفارغاس باردو، فصلان من روايتين مهمتين ستصدران قريباً في الدار، قصة قصيرة لابنِ بلدٍ لفارغاس باردو منسيّ، وشعر، شعرٌ أكثر من اللازم. في قسم تقديم الكتب، لم يكن هناك ما آخذه عليه، الاهتمام يقع في غالبيته على مطبوعاتنا الجديدة، علاوة على أنّه يتمّ بعبارات إطراء.

أتذكّر أنّني تكلّمتُ مع فارغاس باردو، بعد أن قرأتُ المجلة وقلتُ له: يبدو لي أنّ هناك شعراً أكثر من اللازم والشعر لا يبيع. لا أنسى جوابه: كيف لا يبيع، يا دون ليساندرو، قال لي، انظر أوكتافيو باث ومجلته. حسنٌ، يا فارغاس، قلتُ له، لكن أوكتافيو هو أوكتافيو، هناك ترفٌ لا نستطيعُ نحن الآخرين أن نسمح لأنفسنا به. لم أقلْ له، صحيح، أنّني لم أقرأ مجلة أوكتافيو منذ قرون. ولم أؤكّد على كلمة «ترف»، التي نمّقتُ بها ليس العمل الشعري بل نشره المُجهِد، ففي أعماقي أنا لا أظنّ أنَّ نشرَ الشعر ترفٌ، بل حماقة جليلة. على كلّ الأحوال لم يمتد الحال إلى أكثر من ذلك، واستطاع فارغا برادو أن يُصدِر العددَيْن الثاني والثالث، ثم الرابع والخامس. أحياناً كانت تصلني أصواتٌ تقول بأنّ مجلتنا كانت تتحوّل إلى عدوانية زائدة. أعتقد أنّ الذنب في ذلك كلِّهِ هو ذنب فارغاس باردو، الذي كان يَستخدِمُها كسلاحٍ قاذف ضدّ من ازدروه حين وصل إلى المكسيك مكسيكو، كوسيلة مثالية كي يُصفي بعضَ الحسابات العالقة (ما أحقد وأصلف بعض الكتّاب!)، وللحقيقة لم يكن يهمّني كثيراً. جيّد أن تُثيرَ مجلةٌ جدلاً، هذا يعني أنّها تُباع، وأنا بدا لي معجزة أن تُباع مجلّة فيها هذا الكمّ من الشعر. كنتُ أتساءل لماذا يهتمّ الديوث فارغاس كلّ هذا الاهتمام بالشعر. مع أنّه بحسب علمي، كما أعرف، لم يكن شاعراً بل قاصّاً. إذن من أين جاء اهتمامه بالشعر؟

أعترف أنّني بقيتُ زمناً أقوم بتخمينات. وصل بي الأمر أنّني

فكّرت أنه لوطيّ، يمكن أن يكون كذلك، (بالمناسبة كان متزوّجاً من مكسيكية) لكنه يمكن أن يكون كذلك، ومع ذلك: أي نوع من اللوطي هو؟ هل هو لوطيّ أفلاطوني وغنائي، كان يكتفي، لنقل، بالمجال الأدبي الخالص، أم أنّه كان يملك نصف برتقالته أو نصف ليمونته بين الشعراء الذين ينشر لهم في المجلّة؟ لا أعرف. لكلٍّ حياتُهُ. ليس عندي شيء ضدّ اللوطيين. في كلِّ يوم، هذا صحيح، هناك المزيد منهم. في الأربعينيات بلغَ الأدبُ المكسيكيُّ ذروته فيما يتعلّق باللوطية، وأنا فكّرتُ أنّ هذا السقف لا يمكن تجاوزه. لكنّهم اليومَ أكثر من أيِّ وقت مضى. أعتقد أن الذنب في كلّ شيء هو ذنب التربية العامّة، الميول التي هي في كلّ مرّة أكثر شيوعاً في المجتمع المكسيكي للبروز، السينما، الموسيقى، وما أدراني ماذا أكثر. سلفادور نوبو نفسه قال لي ذات مرّة كم كان مندهِشاً من أخلاقِ ولغةِ بعض الشباب الذين كان يذهبون لزيارته. وسلفادور نوبو كان يعرف عمّا كان يتكلّم.

هكذا كان أن تعرّفتُ على أرتورو بِلانو، حدّثني فارغاس باردو ذات مساء عنه وقال إنّه يُعدّ كتاباً رائعاً (هذه هي الكلمة التي استخدمها)، المختارات النهائية للشعر الأمريكي اللاتيني الشاب، وإنّه كان يبحث عن ناشر. ومن يكون بِلانو هذا؟ سألتُهُ. إنّه يكتبُ تعريفاتٍ بالكتب في مجلتنا، قال فارغاس باردو. هؤلاء الشعراء، قلتُ له، وبقيت أراقب خفيةً ردَّ فعله، مثل قوّادي العاهرات اليائسين، يبحثون عن امرأة ليتاجروا بها. لكنّ فارغاس باردو استوعب تلميحي جيّداً وقال إن الكتاب ممتاز، كتاب إذا لم ننشره نحن (أه، يا لها من طريقة لاستخدام الجمع) ستنشره أيّ دار نشر. إذن مرّةً أخرى بقيتُ أنظر إليه خفيةً وقلت له: جئني به، خذ لي موعداً معه وسنرى ماذا يمكن أن نفعل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد يومين مثل أرتورو بِلانو في الدار. كان يرتدي بلوزة وبنطلونَ جينز، كانت البلوزة ممزقة في الكمين والجانب الأيسر كما لو أنّ أحداً كان يلعب بإدخال سهام أو رماح فيه. البنطلون، حسن، لو خلعه لبقي واقفاً لوحده. كان ينتعل حذاءً رياضياً، مجرّد رؤيته يُخيف. كان شعره طويلاً يصل حتى كتفيه ولا شكّ أنّه كان دائماً هزيلاً، لكنّه يبدو الآن أكثر هزالاً. كان يبدو أنّه لم ينمْ منذ أيّام، يا للكارثة من رجل. على الأقل كان يولّد انطباعاً بأنّه اغتسل في ذلك الصباح. هكذا قلتُ له: لنرّ، يا سيّد بِلانو هذه المختارات التي قمت بها. فقال هو: لقد أعطيتها لفارغاس باردو. بداية سيّئة، فكّرتُ.

أخذتُ الهاتف وقلتُ لسكرتيرتي أن يأتي فارغاس باردو إلى مكتبي. بقينا بضع ثوان دون أن يتكّلم أحدٌ منّا. اللعنة! إذا تأخّر فارغاس باردو أكثر قليلاً في الظهور سينام الشاعر الشاب بين يدي. هذا صحيح، لم يكن يبدو لوطيّاً. ولكي نقتل الوقتَ وضّحتُ له أنّ كتبَ الشعرِ، كما هو معروف، يُنشَرُ منها الكثير، لكنّ القليل منها يُباع. بلى، قال هو، يُنشَرُ منها الكثير. يا إلهي، كان يبدو زومبياً. سألت نفسي خلال لحظة عما إذا لم يكن مُخَدّراً، لكن كيف سأعرف؟ حسن، قلتُ له، وهل كلّفك جهداً كبيراً عمل مختارات الشعر الأمريكي اللاتيني؟ لا، قال هو، جميعهم أصدقاء. ما أجراه. وهكذا قلت له، لن يكون هناك مشاكل في حقوق المؤلف، أنت معك موافقات. هو ضحكَ. أعني، اسمحوا لي أن أوضّح، عوجَ فمه أو حنى وربَ شفتيه أو كشفَ عن أسنان مُصفرّة وأصدر صوتاً. أُقسم أنّ ضحكته أوقفت شعر بدني. كيف سأُوَضِّح؟ مثل ضحكة تخرج مما وراء القبر؟ مثل تلك الضحكات التي يسمعها المرءُ حين يسيرُ في ممرات مستشفى مقفر؟ شيء من هذا القبيل. وبعد، بعد الضحكة، بدا أنّنا سنعود ونغرق في الصمت، ذلك الصمت المحرج

بين شخصين تعارفا توّاً، أو بين ناشر وزومبي، بالنسبة للحالة هو الشيء ذاته، لكنّني آخر ما كنتُ أرغبُ به هو أن أرى نفسي متورّطاً مرّة أخرى بالصمت، وهكذا بقيت أتكلّم، تكلّمتُ عن بلده الأصلي، تشيلي، عن مجلّتي التي نشر فيها بعض التعريفات الأدبية، عن صعوبة التخلّص من كتب الشعر المتراكمة. وفارغاس باردو لم يظهر (تراه يتكلم بالهاتف تاركاً للسانه العنان مع شاعر آخر!) وعندئذٍ، بالضبط عندئذٍ حالفني الحظ بإلهام، أو حدسٍ. عرفت أنّ من الأفضل ألاّ أنشر هذه المختارات، عرفتُ أن من الأفضل ألاّ أنشر شيئاً لهذا الشاعر. وليذهب فارغاس باردو إلى الخراء، هو وأفكاره العبقرية. إذا كان هناك دور نشر أخرى مهتمّة فلتنشرها، أنا لا، أنا عرفتُ، في تلك الثانية من الإلهام، أنّ نشر كتاب من هذا النوع سوف يجلب لي سوء الحظّ، وأنَّ وجود هذا الشخص الجالس أمامي في مكتبي، ينظر إليّ بتلكما العينين الفارغتين، على وشك أن ينام سوف يجلب لي سوء الحظّ، وأنّ من المحتمل أنَّ سوءَ الحظّ يحوم الآن فوق سطح دار نشري مثل غراب نتن أو مثل طائرة من طائرات خطوط الطيران المكسيكية، المخصّصة كي تنفجر في البناء الذي توجد فيه مكاتبي.

فجأة ظهر فارغاس باردو يلوح بمخطوط الشعراء الأمريكيين اللاتينيين وأنا استيقظت من شرودي، لكن ببطء شديد، في البداية، لم أستطع حتى أن أسمع بوضوح ما كان يقوله فارغاس باردو، فقط سمعتُ ضحكته وصوته الضخم اللعين، السعيد بحياته، كما لو أنّ العمل لي كان أفضل ما حدث له في حياته، إجازة مدفوعة الأجر في العاصمة الفيدرالية وأتذكّر أنّني كنتُ مصعوقاً إلى حدّ أنّني نهضتُ ومددت يدي لفارغاس باردو، يا إلهي، أعطيت يدي لهذا الديوث كما لو أنه رئيسي أو المفتّش العام وأنا مجرّد موظف صغير بائس،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأتذكّر أيضاً أنّني نظرتُ إلى أرتورو بِلانو وأنّ هذا لم ينهض عن مقعده عندما وصل الإكوادوري، بل وأكثر، ليس فقط أنّه لم ينهض، بل ولم يعرنا أهمية، لم ينظر إلينا، حسن، رأيت نقرته المليئة بالشعر وفكّرت لثانية أنّ ذاك الذي أراه لم يكن إنساناً من لحم وعظم ودم في شرايينه مثلك أو مثلي، بل فزّاعة، صرة ثياب فكّت فوق جسد من تبن وبلاستيك، أو شيء من هذا القبيل. عندها سمعتُ فارغاس باردو يقول إنّ كلّ شيء جاهز، يا ليساندرو، الآن ستأتي مارتيتا إلى هنا ومعها العقد. أيّ عقد؟ تمتمتُ. عقد كتاب بِلانو، طبعاً، قال فارغاس باردو.

عندها جلستُ مرّةً أخرى وقلت، هيّا نرى، هيّا نرى، ما موضوع العقد هذا؟ المسألة أنّ بِلانو سيُغادرنا بعد غد، قال فارغاس باردو، وعلينا أن نترك هذا الموضوع محلولاً. إلى أين سيُغادرنا؟ سألتُ. إلى أوروبا، طبعاً، قال فارغاس باردو، كي يجرّبَ الشقوقَ الاسكندينافية (سوء التربية بالنسبة لفارغاس باردو مرادفة للصراحة بل وللنزاهة). إلى السويد؟ سألتُ أنا. يعني، قال فارغاس باردو، إلى السويد، إلى الدانمرك، ليعيش البرد هناك هنا. ألا نستطيع أن نُرسل إليه العقد؟ اقترحتُ. لا، يا ليساندرو، هو يذهب إلى أوروبا دون عنوان ثابت، ثمّ إنّه يريد أن يترك هذا محلولاً. والديوث فارغاس باردو غمزني بعين وقرّب وجهه من وجي (اعتقدت أنّ العاهر الكبير المُقنَّع كان سيُقبّلني!) وأنا لم أستطِع، لم أعرف كيف أقفز قفزة إلى الوراء، لكنّ الشيءَ الوحيد الذي كان يريده فارغاس باردو هو أن يهمس في أذني ببعض كلمات التواطؤ. وكان ما قاله لي هو أنّه لم يكن يتوجّب دفعُ أيّ سلفة، أن أُوقّع، أُوقّع في الساعة، كيلا يتراجع ويعطي الكتاب لمنافسينا. وكان بودي أن أقول له، لا يهمني قيد أنملة أن يعطي الكتاب لمنافسينا، يا حبّذا لو يعطيه لهم، وهكذا

سيُفلِسون قبلي، لكنّني وبدل أن أقولَ هذا ملكت القوة فقط كي أقول بخيط من صوت: هل هذا الولد مُخَدّر أم ماذا؟ وفارغاس باردو ضحك ضحكة مجلجلة وأسرّ إليّ من جديد: شيءٌ من هذا القبيل، يا ليساندرو، شيء من هذا القبيل، حسنٌ، هذه الأشياء لا يمكن أن تُعرف أبداً، لكنّ المهمّ هو الكتاب وها هو ذا هنا، لذلك يجب ألاّ نماطل أكثر بتوقيع العقد. لكنّ هل من التعقّل أن. . .؟ استطعتُ أن أُسرّ له. وعندها أبعد فارغاس باردو وجهه القبيح عن وجهي وأجابني بصوته المُعتاد الصوت الجهوري المجلجل مثلَهُ بنوع من الاستعراض النرجسيّ الذي لا يمكن تصوره، ويُعَرّف به، طبعاً، طَبعاً، قال. بعدها اقترب من الشاعر وربتَ على ظهره، كيف حالك، يا بِلانو، قال له، والشاب التشيلي نظرَ إليه ثم نظرَ إليّ فأنارت وجهه ابتسامةُ أبله. ابتسامة معتوه، ابتسامة مُستذئب، يا إله السموات. وعندها دخلت مارتيتا، سكرتيرتي، ووضعت على الطاولة نسختي العقد. وراح فارغاس باردو يبحث عن قلم، كي يُوَقّع بِلانو، هيّا وقِّعْ، توقيعاً صغيراً، لكنني لا أحمل قلماً، قال بِلانو، الريشة مصدر إلهامِ بالنسبة للشاعر، قال فارغاس باردو، كما لو أنّ كلّ الأقلامَ استجمعت واختفت من مكتبي. طبعاً كنتُ أحمل قلمين في جيب سترتي، لكنّني لم أبغ أن أخرجهما. إذا لم يكن هناك توقيع لن يكون هناك عقد، فكّرتُ. لكنّ مارتيتا بحثت بين أوراق طاولتي ووجدت واحداً. وقّعَ بِلانو. وقّعتُ أنا. والآن تتصافحان وتنتهي المسألة، قال فارغاس باردو. شدّدت على يد التشيلي. راقبتُ وجهه. كان يبتسمُ. أين سبقَ ورأيتُ هذه الابتسامة؟ نظرتُ إلى فارغاس باردو كما لو أنّني أسأله أين سبق ورأيت هذه الابتسامة اللعينة. الابتسامة العاجزة بامتياز، التي تجرّنا جميعاً إلى الجحيم. لكنّ فارغاس باردو كان يوّدع التشيليَّ. يعطيه نصائحَ لحين وجوده في أوروبا. كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اللوطيّ يتذكّر سنوات شبابه حين كان في البحرية التجارية! حتى مارتيتا كانت تضحك لنكاته! أدركت أنه لا يوجد ما أفعله. الكتاب سيُنشر. وأنا الذي كنتُ دائماً ناشراً شجاعاً قبلتُ علامة العار هذه على جبيني ذاته.

لاورا خوارِغي، تْلالبّان، مكسيكو، العاصمة الفيدراليلة، آذار ١٩٧٧.

جاء إلى بيتي قبل أن يُسافر. لا بدّ أن الساعة كانت السابعة مساء. كنتُ وحدي، كانت أمّي قد خرجت. قال لي أرتورو إنّه ذاهب وإنّه لن يعود. قلتُ له إنّني أتمنى له حظاً سعيداً، لكنّني لم أسأله ولا إلى أين كان سيذهب. أعتقدُ أنّه سألني عن دراستي، وكيف هي أموري في الجامعة، في علم الأحياء. قلتُ له رائعة. قال لي كنتُ في شمال المكسيك في سونورا، وأعتقد أيضاً في أريزونا، لكنّني في الحقيقة لا أعرف. قال هذا ثمّ ضحك، ضحكة قصيرة وجافّة، كضحكة أرنب. بلى، بدا مُخدّراً، لكنّني أعرف أنّه لا يتعاطى المخدّرات. عوليس ليما، بلى، كان هذا يتناول أيَّ شيء ثم إنّه، يا للغرابة، لا يكاد يُلاحظ عليه، والواحدة لا تستطيع أن تؤكّد متى يكون عوليس مُخَدّراً ومتى لا يكون. لكنّ أرتورو كان مختلفاً جدّاً، هو لم يكن يتعاطى المخدرات، إذا لم أكن أنا أعرف هذا فمن سيعرفه. وأنا قلتُ له، قبل أن يُتابع هو، يبدو لي رائعاً، ليس هناك شيء مثلَ السفر ومعرفة العالم، المدن المختلفة والسماوات المختلفة، وهو قال لي إنّ السماء واحدة في كلّ مكان، المدن تتغيّر لكنّ السماء ذاتها، وأنا قلتُ له إنّ هذا ليس صحيحاً، وإنّني أعتقد أنّ عنده قصيدة يتكلّم فيها عن سماوات رسمها الدكتور أتْلْ، مختلفة عن سماوات الرسم أو الكوكب أو شيء من هذا القبيل. الحقيقة أنّه

لم يعد عندي رغبة بالنقاش. تظاهرتُ في البداية أنّ خططه، نقاشاته وكلّ الذي عليه أن يقوله لي لم يكن يهمّني، لكنّني اكتشفتُ بعدها أنهّا في *الحقيقة* لم تكن تهمّني، وأنّ كلّ ما له علاقة به يسئمني جدّاً، وأنَّ ما كنتُ أُريده حقيقةً هو أن يرحل ويتركني أدرس بهدوء، ففي ذلك المساء كان عليّ أن أدرس كثيراً. وعندها قال لي هو إنّ السفر ومعرفة العالم من دوني يُحزنه، وإنّه دائماً كان يُفكّر أنّني سأذهبُ معه إلى كلّ مكان، وسمّى بلداناً مثل ليبيا وأثيوبيا وزائير ومدناً مثل برشلونة وفلورنسا وأفينيون وعندها لم أستطع إلاّ أن أسأله ما علاقة هذه البلدان بهذه المدن فقال هو: كلّ شيء على علاقة بكلّ شيء، وأنا قلتُ له إنّني عندما أُصبح عالمةَ أحياء سيكون عندي وقتٌ ومالٌ أيضاً لأرى هذه البلدان وهذه المدن، لأنّني لا أفكّر أن أدورَ حول العالم على إصبعي ولا أن أنام في أيّ مكان. وعندئذٍ قال: لا أفكّر أن أراها، أفكّر أن أعيش فيها، تماماً كما عشتُ في المكسيك. أنا قلتُ له: هذا شأنك، أتمنى لك أن تكون سعيداً، عِشْ فيها ومت فيها إذا أردتَ، أنا سأسافر حين يتوفر معي المال. عندها لن يكون لديكِ وقت، قال هو. لن ينقصني وقت، قلتُ أنا: بالعكس، سأكونُ سيّدةَ وقتي، سأعملُ بوقتي ما يحلو لي. وقال: وقتها لن تكوني شابّة. قلتُ له وأنا على وشك أن أبكي ورؤيتي له بتلك المرارة، شجعتني فصرختُ به: وأنت ما علاقتك بما أفعله بحياتي، بأسفاري أو شبابي. وعندها نظرَ هو إليّ وارتمى على المقعد كما لو أنّه انتبهَ فجأة إلى أنّهُ ميتٌ من التعب. تمتم قائلاً إنّه يُحبّني وإنّه لن يستطيع أن ينساني أبداً. نهض بعدها (بعد عشرين ثانية من الكلام كحد أقصى) وصفعني على خدّي. صوتُ الصفعة تردّد في كلّ البيت، كنّا في الطابق الأوّل، لكنّني رأيتُ كيف راح صوت يده (عندما لم تعد راحة كفّهِ على خدّي) يصعدُ الدرج ويدخل كلّ غرفةٍ من غرف الطابق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الثاني، يتدلّى من اللبلاب ويتدحرج ككرات بلور كثيرة في الحديقة. عندما خرجت من ذهولي جمعت قبضة يدي اليمنى وطبعتها على وجهه. هو بالكاد تحرّك. لكنّ ذراعه كانت سريعة بما يكفي كي يكيلني صفعة جديدة وهجمتُ عليه لكماً وخدشاً ورفساً. هو لم يفعل شيئاً كي يتفادى ضرباتي. مازوخي الخراء! صرختُ به وتابعت ضربي له وأنا أبكي بقوّة في كلّ مرّة أكبر، إلى أن لم تعد الدموع تسمح لي أن أرى غير لمعانٍ وظلال، لكن ليس الهيئة المحدّدة للكتلة التي كانت تنفجر عليها ضرباتي. جلستُ بعدها على الأرض وبقيتُ أبكي. عندما رفعتُ نظري، كان أرتورو بجانبي، وخيط صغير من دمٍ ينزل حتى شفته العليا ومن هناك إلى شدقيه ومن هناك إلى ذقنه. آذيتني، قال، هذا يؤلم. نظرتُ إليه ورمشتُ عدّة مراتٍ. هذا يؤلم، قال وتنهّد. وأنت ماذا فعلت لي؟ قلتُ أنا. عندها انحنى وأراد أن يلمس خدّي. نططت. لا تلمسني، قلتُ له. اعذريني، قال. ليتكَ تموت، قلتُ. يا ليتني أموت، قال هو، ثمّ قال: بالتأكيد سأموت. لم يكن يتكلّم معي. رحت أبكي مرّة أخرى، والشيء الوحيد الذي كنتُ قادرة على أن أقوله هو أن يذهب من بيتي، أن يختفي، ألا يعودَ ليضعَ قدميه هناك أبداً. سمعته يتنهّد وأغمضت عينيَّ. كان وجهي يضطرم لكنّني كنتُ أشعر بالإهانة أكثر مما بالألم، كان كما لو أنّني تلقيتُ الصفعتين على كبريائي، كرامتي كامرأة. عرفتُ أنّني لن أغفر له أبداً. نهض أرتورو (كان على ركبتيه بجانبي) وسمعته يتوجّه إلى الحمّام. عندما عاد كان ينشّف دم أنفه بورق صحيّ. قلتُ له أن يذهب، وإنني لا أريد أن أعود لأراه. سألني عمّا إذا كنتُ قد هدأت أكثر. معك لن أكون هادئة أبداً، قلت له. عندها استدار نصفَ استدارة رمى قطعةَ الورق الملطخة بالدم (مثل فوطة عاهرةٍ مُدمنة على المخدرات) على الأرض ومضى. بقيتُ بعدها عدة دقائق أبكي.

حاولت أن أُفكّر في كلّ الذي جرى. عندما شعرتُ بتحسّنٍ نهضتُ، ذهبتُ إلى الحمام، نظرتُ إلى نفسي في المرآة (كان خدّيَ الأيسرُ محمرّاً)، حضّرت فنجان قهوة، وضعتُ موسيقى، خرجت إلى الحديقة لأتأكّد من أنّ البابَ كان مغلقاً جيّداً، ثم ذهبتُ لأبحث عن بعض الكتب وجلستُ في الصالون. لكن لم يكن باستطاعتي أن أدرس وهكذا هتفتُ لصديقةٍ لي في الكلّية. من حسن الحظّ أنّني وجدتها. بقينا برهة نتحدّث عن أي شيء، لم أعد أتذكّر عن ماذا، عن خطيبها، أعتقدُ، وفجأة بينما كانت هي تتكلّم رأيتُ قطعة الورق الصحّي، التي استخدمها أرتورو لتنظيف الدم، رأيتها مرميّة على الأرض، مجعّدة، بيضاء مع بقع حمراء، شيئاً يكاد يكون حيّاً، فشعرت بغثيان هائل. قلتُ كيفما استطعت لصديقتي إنّ عليّ أن أتركها، إنني وحدي في البيت وإنّهم يقرعون الباب. لا تفتحي، قالت لي، يمكن أن يكون لصّاً أو مغتصباً أو ربّما الاثنين معاً. لن أفتح، قلتُ لها، فقط سأذهب لأرى من يكون. هل لبيتكم سياج؟ سألت صديقتي. سياج ضخم، قلتُ. أغلقتُ الهاتفَ بعدها وعبرتُ الصالون باتجاه المطبخ. لم أعرف ماذا أفعل هناك. ذهبت إلى حمام الطابق الأسفل، قطعتُ قطعةَ ورق صحيّ وعدتُ إلى الصالون. كانت الورقة الملطخة بالدم ما تزال هناك، لكنّني ما كنتُ لأستغرب لو وجدتها تحت كرسيّ أو تحت طاولة غرفة الطعام. غطيت بالورقة التي كانت في يدي ورقةَ أرتورو الملطخة بالدم ثم أخذتها بإصبعين، حملتها إلى المرحاض وشددت السلسلة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٦

رافائيل باريوس، مقهى كيتو، شارع بوكارِلي، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، أيار ١٩٧٧.

ماذا فعلنا، نحن الواقعيين الأحشائيين، عندما ذهب عوليس ليما وأرتورو بِلانو: مارسنا الكتابة الآلية، اللعبَ بالكلمات، *العرضَ* لشخص واحد ومن دون مشاهدين، القيودَ، الكتابة بيدين اثنتين، بثلاث أيدٍ، الكتابة الاستمنائية (نكتب باليمنى ونستمني باليسرى، أو العكس إذا كنتَ أعسر) قصائد الغزل، القصائد-الرواية، سونيتات آخرُ كلمة فيها دائماً هي ذاتها، الرسائلَ المكوّنة من ثلاث كلمات فقط، المكتوبة على الجدران («لا أستطيع أكثر»، «أنا أحبّك، يا لاورا» إلخ.)، اليوميات المفرطة في طولها، - بريد-الشعر، الشعر الإسقاطي، الشعر الحواري، الشعر المُضاد، الشعر البرازيلي المُجَسّد (المكتوب دائماً ببرتغالية القاموس)، قصائد النثر البوليسية (التي تحكي قصةً بوليسية بأقصى حدود الاقتصاد، سواء وضّحتها الجملة الأخيرة، أو لم توضّحها) الأمثال، الخرافات، مسرح اللامعقول، البوب-أرت، الهايكو، الحِكَم (في الحقيقة هي تقليد لكاتولو أو تنويع عليه، تكاد تكون جميعها لِموكتِزوما رودريغِث) الشعر-المتناثِر (رعويات الغرب)، شعر جيورجي، شعر التجربة، شعر *البيتْ*، مُنتَحَلات باري فيلي نيكول، جون كيج (بعد سنة من

الاثنين) تيد بيريغان، لأخ أنتونينس أرماند شورنير (*الألواح*)، شعر الأغاني، شعر الرسم بالكلمات، الشعر الكهربائي (بولتو، مساجير)، الشعر الدموي (ثلاثة قتلى كحدّ أدنى)، الشعر الخلاعي (متنوّع الاختلاف الجنسي، المثلية والثنائية، بمعزل عن الميول الخاصّة للشاعر) القصائد المنتحلة للعدميين الكولومبيين، قصائد ساعة صفر البيرو، القصائد الصرعية الأوروغواية، تزانتزيكو إكوادور، أكلة لحوم البشر البرازيليين، مسرح نوو العمالي... بل وأصدرنا مجلة... تحرّكنا... تَحَرَّكنا... عملنا كلَّ ما باستطاعتنا... لكنّنا لم نُفلح في شيء.

خواكين فونت، مشفى إل رِبوسو للصحة العقلية، طريق صحراء الأسود، في ضواحي مكسيكو العاصمة الفيدرالية، آذار ١٩٧٧.

أتذكّرُ أحياناً لاورا داميان، ليس كثيراً، أربع أو خمس مرّاتٍ في اليوم. ثماني أو ستّ عشرة مرّة إن جافاني النومُ، وهذا منطقيّ، فيوم من أربع وعشرين ساعة يكفي لكثير من الذكريات. لكن عادة ما أتذكّرها أربع أو خمس مرّاتٍ فقط وكلّ ذكرى، كلّ مضغوطةٍ ذكرى تدومُ دقيقتين تقريباً، وإن ليس باستطاعتي أن أقول ذلك بيقين، لأنّهم منذ وقت قصير سرقوا مني ساعتي، وقياسُ الزمن تقديراً أمرٌ خطير.

عندما كنتُ شابّاً كان لي صديقة تُدعى دولورِس. دولورِس باتشِكو. هي فعلاً كانت تستطيع أن تقيس الزمنَ بالنظر. كنتُ أريد أن أذهبَ معها إلى السرير. أريدك أن تجعليني أرى السماء، يا دولورِس، قلتُ لها ذات يوم. كم تعتقد أنّ السماء تدوم؟ سألتْ. ماذا تعنين؟ سألتُها. كم تدومُ معك الرعشة، قالتْ. ما يكفي، قلتُ. لكن كم؟ لا أعرف، كثيراً، قلتُ، يا للأسئلة التي تحبين، يا دولورِس. كم هو الكثير؟ أصرّتْ. عندها أكّدتُ لها أنّني لم أقِس قط

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رعشةً، وهي قالت لي تصوَّرْ أنّك تصل الآن رعشةً، يا كيم، أغمِضْ عينيك، وفكّرْ أنّك تصل، معكِ؟ قلتُ، يا لكَ من مُسْتَغِلّ. مع من تشاء، قالت، لكن فكّرْ به جيّداً، اتفقنا؟ العبي، قلتُ. حسنٌ، قالتْ، عندما تبدأ، ارفع يدَك. عندها أغمضتُ عينيّ، رأيتُ نفسي فوق دولورِس ورفعتُ يدي. وعندها سمعتُ صوتَها يقول: ميسيسيبي واحد، ميسيسيبي اثنان، ميسيسيبي ثلاثة، ميسيسيبي أربعة وعندها لم أستطع أن أتحمّل الضحكة، فتحت عينيّ وسألتُها ما الذي كانت تفعله. أقيسُكَ، قالت. هل وصلتَ؟ لا أعرف، قلتُ، عادة ما تكون أطول. لا تكذبْ عليَّ، يا كيم، قالتْ، في ميسيسيبي أربعة انتهت غالبية الرعشات، عُدْ وحاول وسوف ترى. وأنا أغمضتُ عينيّ وتصوّرتُ نفسي في البداية أمطتي دولورِس، لكنّني بعدها لم أتصور نفسي مع أحد، بالأحرى كنتُ في زورق نهري، في غرفة بيضاء ومعقّمة تشبه كثيراً الغرفة التي أنا فيها الآن، وعلى الجدران بدأ يقطرُ حساب دولورِس عبر مُكبّر صوت خفيّ: ميسيسيبي واحد، ميسيسيبي اثنان، كما لو أنّهم ينادونني باللاسلكي من الميناء وأنا ما عاد باستطاعتي الإجابة، على الرغم من أنّ الشيء الوحيد الذي كنتُ أريده في أعماقي هو أن أردّ، أقول لهم: هل تسمعونني؟ أنا بخير، أنا حيّ، أريدُ أن أعود. وحين فتحتُ عينيَّ قالت لي دولورِس هكذا تُقاس الرعشة، كلّ ميسيسيبي ثانية، وكلّ رعشة لا تدوم أكثر من ستّ ثوانٍ. لم يحصل أن تجامعنا أنا ودولورِس، لكنّنا كنّا صديقين جيّدين، وحين تزوّجت هي (قبل أن تنهي دراستها الجامعية) ذهبتُ إلى عرسها وحين هنّأتُها قلتُ لها، لتكن ميسيسيباتك ممتعة. الخطيب، كان يدرس هندسة عمارة أيضاً، لكنّه يتقدّمُنا بسنة أو أنّه أنهى دراسته منذ وقت قصير، سمِعَنا وفكّر أنّني أقصد رحلة شهر العسل، التي قاما بها طبعاً إلى الولايات المتحدة. زمن طويل

مضى. منذ زمن طويل لم أُفكّر بدولورِسْ، دولورِس علّمتني قياس الزمن.

الآن أقيس ذكرياتي مع لاورا داميان. أبدأ جالساً على الأرض: ميسيسيبي واحد، ميسيسيبي اثنان، ميسيسيبي ثلاثة، ميسيسيبي أربعة، ميسيسيبي خمسة، ميسيسيبي ستة، ووجه لاورا داميان، شعر لاورا داميان الطويل يقيمان في دماغي غير المسكون منذ خمسين أو مائة وخمسين ميسيسيبي، حتى لا يعود باستطاعتي أكثر وأفتح فمي ويفلت منّي الهواء فجأة، أهْ، أو أبصق على الجدران، وأعودُ لأبقى وحدي، فارغاً، وصدى كلمة ميسيسيبي يدوّي في قبّة جمجمتي، وجسد لاورا داميان المحطّم بعربة قاتلة، الذائبة مرّة أخرى، عينا لاورا مفتوحتان على سماء العاصمة الفيدرالية، لا، على سماء حيّ روما، هيبودرومو-كوندِسا، سماء خوارِث، حي كواوهتِموك، عينا لاورا داميان تضيئان، عيناها الخضراون والبنّيتان وكلّ تدرجات ألوان قرميد وحجارة كويواكان، وبعدها أتوقّف وأتنفّسُ عدّة مرّات كما لو أنّني مُهاجَم وأتمتم، اذهبي، يا لاورا داميان، اذهبي، يا لاورا داميان، وعندها يبدأ وجهها بالتلاشي وغرفتي لا تعود وجه لاورا داميان، بل غرفة في مستشفى مجانين حديث، مع كلّ وسائل الراحة الممكنة والعيون التي تتجسّس عليّ تعود لتصبح عيون مُمرّضيّ وليس عينيّ (العينان في النقرة!) لاورا داميان، وإذا لم يتلألأ قمر أيّ ساعة في معصمي فليس لأنّ لاورا، سرقتْها منّي وليس لأنّ لاورا داميان أجبرتني على أن أبتلعها، بل لأنَّ المجانين الذين يطوفون هنا، مجانين المكسيك البؤساء، الذين يَضربون أو يبكون، لكنّهم لا يعرفون شيئاً من شيء، سرقوها مني، آه من الجهلة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أماديو سالباتييرّا، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر التفتيش، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الأوّل ١٩٧٦.

عندما عثرتُ على نسختي من *كابوركا*، هدهدتُ لها بين ذراعيّ، نظرتُ إليها وأغمضتُ عينيَّ، أيّها السيّدان، لأنّ الواحد ليس من حجر. ثمّ فتحت عينيّ وتابعت البحث بين أوراقي وعثرت على ورقة مانوِل، *أكتوال العدد* ١، التي لصقَها على أسيجة بيوت بوِبْلا في عام ١٩٢١، العدد الذي يتكلّم فيه عن «الطليعة الراهنة في المكسيك»، ما أسوأ وقعها، لكن ما أروعها، أليس كذلك؟ وحيث يقول أيضاً «جنوني ليس في الميزانيات» أهْ، في الدورات التي تستطيع أن تدورها الحياة الحزينة «جنوني ليس في الميزانيات». لكن عنده أيضاً أشياء جميلة، كما حين يقول: «أدعو[1] كلّ شعراء ورسامي ونحاتي المكسيك الشباب، الذين لم يُفسدهم بعدُ ذهبُ الترفِ الحكومي الرخيص، الذين لم يُفسدهم بعد المديحُ البائس للنقد الرسمي وتصفيق جمهور منحطّ وشهواني، إلى كلّ الذين لم يذهبوا ليلحسوا أطباق حفلات طعام إنريكِ غونثالِث مارتينِث، كي يصنعوا فناً من رشحِ دمِ حيضِهم الفكريّ، أحثُّ كلّ الصادقين الكبار، الذين لم يتفكّكوا في الطفح المؤسف والسام لوسطنا القومي بِنتِنِ حاناتِ البولكي[2] وجمر المقالي، كلّ هؤلاء أحثّهم باسم الطليعة الراهنة في المكسيك، كي يأتوا ليقاتلوا إلى جانبنا في صفوف *الكشف المضيئة*...» كان مانوِل حسنَ اللسان. حسن اللسان! الآن وهناك كلمات لا أفهمها. مثلاً exito، كان يجب أن يقول أدعو، أنادي،

---

(١) الكلمة المستخدمة هنا exito لا تعني أدعو ويبدو كما يقول الكاتب في النصّ أنّه خطأ مطبعيّ أو إملائي.

(٢) Pulquería حانة يُقدم فيها مشروب بولكِ pulque الذي يستخرج من نوع من الصبار ويخمّر، درجة كحوله عاليه ولونه أبيض.

أحضُّ، بل وحتى أهدِّدُ، لنرَ، لنبحث في القاموس. لا. فقط تظهرُ كلمة éxito نجاح. أخيراً، قد توجدُ، وقد لا تُوجَدُ. بل إنّ المرء لا يعرف، قد يكون خطأً مطبعيّاً، وحيث يقول exito، يجب أن يقول exijo، أُطالب، وهو أمر مميّز جدّاً لمانوِل، أقول، لمانوِل الذي عرفتُه وقتها، أو يمكن أن تكون مفردة لاتينية، أو مصطلحاً جديداً، اعرفْ إن كُنتَ تستطيع. أو مصطلحاً مهملاً. وهذا هو ما قلته للفَتَيَيْن. قلتُ لهما: أيّها الفتيان، هكذا كان نثر مانوِلْ مابْلِسْ أرثِ، ملهباً وسريعاً، مليئاً بالكلمات التي تثير شبقنا، نثر يمكن ألاّ يعني لكما الآن شيئاً، لكنّه في عصرهِ سَحَرَ جنرالاتٍ من الثورة، رجالاً أشدّاء رأوا ناساً يُقتلون وقَتَلوا وعندما قرأوا أو سمعوا كلمات مانوِل بقوا مثل تماثيل من ملحٍ أو تماثيل من حجر، كما لو أنّهم يقولون، ما أفظع هذا، نثر يَعِدُ بِشِعْرِ سيصير كالبحر، كالبحرِ في سماء المكسيك. لكنّني أُحلّق بعيداً. كان عندي النسخة الوحيدة من *كابوركا* تحت إبطي وفي يدي اليسرى *أكتوال العدد* ١ وفي يميني كأس من مِثكال «المنتحرون»، وبينما كنتُ أشربُ أقرأ لهما مقاطع من ذلك العام البعيد ١٩٢١، وأشرح لهما، المقاطع والمِثكال، ما أروعها من طريقة رائعة للقراءة والشرب، ببطء وبين أصدقاء (الشباب دائماً كانوا أصدقائي) وحين لم يبقَ غير القليل صببتُ دورة أخيرة من «المنتحرون» وودّعت ذهنيّاً إكسيريَ القديم وقرأت القسمَ الأخير من *أكتوال*، مجلس إدارة الطليعة الذي أدهش في زمنه (وبعده، كيف لا، وبعده أيضاً) المقربين والغرباء، المبدعين ودارسي الموضوع. مجلس الإدارة كان يبدأ باسم رافائيل كانسينوس-أسِّنْسْ ورامون غومِث دِ لا سِرنا. مدهش، أليس كذلك؟ كانسينوس-أسِّنْسْ ورامون غومِث دِ لا سِرنا/ كما لو أنّه قام بين بورخِس ومانوِل تخاطر، أليس صحيحاً؟ (كتب الأرجنتيني تعريفاً بكتاب مانوِل، *سقالات داخلية*،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في عام ١٩٢٢، هل كنتُم تعرفون؟) ويتابع على الشكل التالي: رافائيل لاسّو دِ لا بِغا. غيّيرمو دِ تورِّ. خوسِهْ لويس بورخِس. كوليوتيلدِ لويسي. (من كان كليوتيلدِ لويسي؟) بيثنتِ رويث هويدوبرو. ابن بلده، قلت لواحد من الفتيين. خِراردو دييغو. إيوخِنيومونتِس، بِدرو غارفياس. لوثيّا سانتشِث ساورنيل. خ. ريباس بانِداس. إرنستو لوبِّث بّارّا. خون لارّيا. خواكين دِ لاإسكوسورا. خوسِهْ دِ ثيريا إي إسكالانتِ. ثِسار أ. كومِت. إساك دِل باندو بيّار، هكذا لا أكثر، وبحرف أ واحد، ربّما خطأ آخر. أدريانو دِل بايّه. خوان لاس. يا له من اسم. ماوريثيو باكاريسِّ. روخِليو بْونْدِيّا. بيثنتِ ريسكو. بِدرو رايدا. أنطونيو إسبينا. أدولفو سالاثار. ميغِل رومِرو مارتينِث. ثيريكياين كايتارّو أيضاً. أنطونيو م. كوبِرو. خواكين إدواردس. هذا أيضاً يبدو ابن بلد لي، قال أحد الفتيين. بِدرو إغليسيا، خواكين دِ أروكا. ليون فِليبّ. إليودورو بوتشِ. بريتو رومِرو. كورِّيا كالدِرون. أمْعِنا النظرَ، قلتُ لهما، ها نحن نبدأ فقط بالكنى، سوء طالع. فرانسيسكو فيغي. هوغو مايو. بارتولوميهْ غاليندِث. خوان رامون خيمِنِثْ. رامون دِل بالييه-إنكلان. خوسِهْ أورتِغا إي غاسِّت. لكن ماذا كان يفعل دون خوسِهْ في هذه القائمة! ألفونسو رِيّس. خوسِهْ خوان تابلادا. دييغو ريبِرا. دافيد ألفارو سيكِيْروس. ماري ودِ ثاياس. خوسِه د. فرِيّاس. فِرمين رِبْولِتاس. سيلبِسترِ رِبْولْتاس. بّي إتشِبرّيّا أتْلْ. الدكتور الهائل أتْلْ، أعتقدُ. خ. تورِّسْ-غارثيّا. رافائيل بّي بارّاداس. خ. سالبات بّابّاسيت. خوسِهْ ماريّا يِنوي. جان إبستاين. جان ريتشارد بوش. بيير برونيي. هل تعرفانه؟ مان بلانتشارد. كورنيو. فارّي. أعتقد أنّ مانول كان يتكلّم هنا سماعاً. فورنيير ريو. يا سلام. أضع يديّ في النار. مدام غي لوهِم. ويحه، مع الاعتذار. مانِ لاورنثين. هنا تبدأ الأمور

بالتحسّن. دونوثِر دِ سِغونثاك. تسوء. لكن من الفرنسي ابن العاهرة الذي كان يسخر من مانوِل؟ أم أنّه استخرجه من مجلّةٍ ما؟ هونِّجر. خيورخِسْ أوْريك. أوثنفانت. ألبِرتو غلِيْثِس، بيير رِفِردي. وأخيراً نخرج من المستنقع. خوان غريس. نيكولاس بوديون. وليام سبيث. جان بولهان. غيليرم أبولينير. ماكس جاكوب. جورج براك. سورفاج. كوريس. تريستان تزارا. فرانسيسكو بيكابيا. جورج ريبِمونت-ديساين. رينيه دونان. أرتسيبِنكو. سوبولت. بريتون. بول إلوار. مارسيل دوشامب. وهنا كنّا أنا والفتيان متفقين على أنّه كان على الأقل من الاعتباط أن يسمّي فرانسيس بيكارابيا فرانسيسكو وجيورجس براك جورج براك ولا يسمي مارسيل دِل كامبو مارثِلو، أو بول إلوار بابلو، من دون الواو، كما نعرف جيّداً جميعنا، نحن محبّي الشعر الفرنسي، هذا كيلا نتكلّم عن بريتون هذا بنبرة على الحرف ما قبل الأخير. ويستمرّ مجلس إدارة الطليعة باستعراض أبطاله وأخطائه: فرانكِل. سِمِن. إريك ساتي. إلي فور. بابلو بيكاسو. فالتر بوتارد. أرِنسبِرغ. سيلين أرنولد. فالتر باخ. بوس. الطامّة! مورغان روسل. مارك تشاغال. هِر بادِر. ماكس إرنست. كريستيان شاد. ليبتشيتز. أورتيث دِ ثاراتِ. كورِّيرا داراوخو. جاكوبسِن. سكولد. أدام فيشر. مدام أليكا. أوستروم. .فيشر. بير كروج. ألترولفسِن. دونيت. بيت موندريان. جِلين. يالتو. فيبر. وستتِر. كوكوديكا. كاندينسكي. ستِرِمبِرغ (كوم. بي. أ. موسكو) ما بين القوسين لِمانوِل، بالطبع. كما لو أنّ كلَّ الشعراء الريفيين، قال أحد الفَتَيين، كانوا يعرفون تماماً من كان البقيّة. هِر بادِر، مثلاً، أو كوريس، أو كوكوديكا هذا الذي له وقع كوكوشكا، أو ريو، أو أدام ومدام فيشر. ولماذا يكتب موسكوو وليس موسكو؟ فكّرتُ بصوتٍ عالٍ. لكن لِنُتابِعْ. بعد مندوب موسكوو لم يندر الروس. مدام

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لوناشارسكي. إهِنْبورغ تالين. كونشالوفسكي. ماخكوف. مدام إكستِر. ولِّ مونات. مارِفنا. لاريونوف. كوندياروفا. بِلوفا. سوتين. دايببلِت، دوِسبورغ. راينال. زاهْنْ. دِراين. فالتِروْوَا زور-موِكلِنْ. من تعليق، الأفضل. أو الفضلى، لأنّه لا أحد يستطيع أن يكون واثقاً من جنس زور-موِكلِنْ (في المسيك). جان كوكتو، بيير ألبِرْتْ بيروت. مِتسينجر. جان شارلوت. ماوريس رِيْنال. إف. تي. مارينِتّي. جي. بي. لوسيني. باولو بوزّي. أ. بّالازِشي، إنريكِ كافاكتسيولي. ليبِرو ألتومار. لا أدري لماذا تحونني الذاكرةُ، أيّها الفَتَيان، كأنّي به ألبِرتو سافينيو. لوثيانو فولغورِ. ما أجمله من اسم، أليس كذلك؟ كان هناك فرقة مظلّيين في الجيش الدوتشي، الذي كان يسمى هكذا، فولغور. عصابة من العهرة الذين أوجعهم الأستراليون. إ. كارديل. ج. كاريري. إف. مانسِللا فونتيني. أم دألبا. ماريو بِتودا. أرماندو مازّا. إم بوكتشوني. سي. دي. كارّا. ج. سِفِريني. باليللا براتِللا: كانجيوللو. كورّا. ماريانو، بوكتشيوني. لستُ أنا من يُكرّر، إنّه مانوِل أو عمّال طباعتِه الأخسّاء. فِسّي. سِتيمِللي. كارلي. أوكتسِهْ. ليناتي. تيتا روسا. سانت - بوينت. ديفوار. مارتيني. مورِتّي. بيرادِللو. توزي. إيفولا. أردِنغو. سارسينيو. توفولاتو. داوبلِر. دوييستبورغ. بروجليو. أوتريللاو. فابري. فاترينات. لييجِ. نورا بورخِس. سافوري. جيمّي. فان غوخ. غرونوالد. دِريان. كوكونِت. بوسّينغاوتل. ماركِت. غِرنز. فوبين. دِلاوناي. كورك. شويتنّرز. كورت شويتّرز. قال أحد الفتيين، المكسيكيّ، كما لو أنّه عثر توّاً على أخيه التوأم الضائع في جحيم آلات صفّ الأحرف. هنا فعلاً يُعقّد المُعقّد! غاللي. بوتّاي. سيوكاتّو. جيورج بِللوز. جيورجيو دِ شيريكو. موديغلياني. كانتارِلي. سوڤيتشي. كارِنا. وهنا ينتهي مجلس الإدارة، مع كلمة إلى آخره المتوعِّدة. بعد كارِنا وبعد

أن قرأتُ هذه اللائحة الطويلة، جلس الفَتَيان على ركبهما أو في وضعية ثابتة، أقسمُ إنّني لا أتذكّرُ وأقسمُ إنّه سيّان عندي، كانا في وضعية ثابتة كعسكر أو على ركبهما، كمؤمِنَيْن، وشربا آخر قطرات مِثكال «المنتحرون» على شرف كلّ تلك الأسماء المعروفة أو المجهولة، المتذكّرة أو المنسية حتى من قبل أحفادهم. نظرتُ إلى ذينك الفتيين، اللذين بَدَوَا حتى تلك اللحظة جدِّيَّيْن، هناك أمامي، ثابتين، يُحييان العلمَ أو رفاقَهما في المعركة، ورفعتُ كأسي وجرعت مِثكاليَ وشربت أيضاً نخبَ كلٍّ أمواتنا.

فِليبّ مولِر، بار ثِنتريكو، شارع تاليرز، برشلونة، أيار ١٩٧٧.

وصل أرتورو بِلانو إلى بيت أمّه في برشلونة. كانت أمّه تعيش هناك منذ قرابة السنتين. كانت مريضة، مصابة بفرط نشاط الغدد الدرقية، وفقدت من وزنها ما جعلها تبدو هيكلاً عظمياً حيّاً.

كنتُ آنذاك أعيش في بيتي أخي، في شارع خونتا دِ كومِرثيو، وهو مرجل يغلي بالتشيليين. كانت أمّ أرتورو تعيش في شارع تاليرس، هنا، حيث أعيش الآن، في هذا البيت الخالي من الحمّام ومرحاضه في الممرّ. حين وصلتُ إلى برشلونة، أحضرت لها معي كتاباً كان قد أصدره أرتورو في المكسيك. هي نظرت إليه وتمتمت بشيء، لا أدري ما هو، بشيء هاذ. لم تكن بحالة جيّدة. كان فرط نشاط الغدة الدرقية يجعلها تتحرّك باستمرار من جانب إلى آخر، أسيرة نشاط محموم، وكانت كثيراً ما تبكي. بدا كأنّ عينيها تخرجان من محجريهما. كانت ترتجف، وتأخذها أحياناً نوبة ربوٍ، لكنّها كانت تُدخّن لوحدها علبة سجائر يوميّاً. تُدخّنُ تبغاً أسودَ، مثل كارمن، أخت أرتورو الصغرى، التي كانت تعيش مع أمّها، لكنّها تمضي غالبية اليوم خارج البيت. كانت كارمن تعمل في مؤسّسة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الهاتف، تقوم بأعمال التنظيف، وتخرج مع أندلسيّ من الحزب الشيوعي. حين تعرّفتُ على كارمن في المكسيك، كانت تروتسكية، وما زالت، ومع ذلك كانت تخرج مع أندلسيّ، يبدو أنّه إن لم يكن ستالينياً على سنّ الرمح، فهو فعلاً بريجينيفياً على سنِّ الرمح، بالنسبة للأمر الذي يهمّنا يكاد يكون سيّان. بالمُحصّلة عدوّ شديد للتروتسكيين، وهكذا لا بدّ أن تكون العلاقة بينهما في غاية الاضطراب. كنت أوضِّحُ كلَّ هذا في رسائلي إلى أرتورو. كنتُ أقول له إنّ أمَّهُ ليست في صحّة جيدة، كنتُ أقول له إنّها تتحوّل إلى جلدٍ وعظم، وليس معها مال وإنَّ هذه المدينة تقتلها. كنتُ أحياناً أتغالظ (لم يكن أمامي من وسيلة أخرى) وأقولُ له إنّ عليه أن يفعل شيئاً لأجلها، أن يرسل لها مالاً أو أن يعودَ بها إلى المكسيك. كانت أجوبة أرتورو أحياناً من تلك التي لا يدري المرء إن كان سيأخذها على محمل الجدّ أو المزح. كتبَ لي مرّةً: «لتتحمّلا. سأذهب قريباً إلى هناك وسأحلّ كلّ شيء، لكن لتتحمّلا آنيّاً». ما أفظعه! كان جوابي أنّها لا تستطيع أن تنتظر، وبخاصّة أخته، التي كانت تبدو على أحسن ما يرام، على الرغم من أنّها تتشاجر كلّ يومٍ مع أمّها، وأنّ عليه أن يفعل شيئاً في الحال وإلا فإنّه سيبقى من دون أمٍّ. في ذلك التاريخ كنتُ قد أقرضتُ أمَّ أرتورو كلّ الدولارات المتبقية معي، قرابة المئتين من نفايات جائزة شعرية فزتُ بها في المكسيك عامَ ١٩٧٥، سمح لي مبلغها بشراء بطاقة للسفر إلى برشلونة. طبعاً لم أقل له هذا. وإن كنتُ أعتقد أنّ أمَّه فعلاً قالته له، فهي كانت تكتبُ له رسالة كلّ ثلاثة أيّام، من فرط نشاط الغدة الدرقية كما أعتقد. المسألة أنّ المئتي دولار خدمتها في تسديد الإيجار وأكثر قليلاً. وصلتني ذاتَ يوم رسالةٌ من خاثينتو رِكِنا يقول لي فيها بين أشياء أخرى إنَّ أرتورو لا يقرأ رسائلَ أُمّه. الوغد رِكِنا قال هذا

كشيء ظريف، لكن كانت هذه الطامّة وكتبتُ له رسالة لم يكن فيها أيّ شيء من الأدب وفيها كثير عن اقتصاد وصحة ومشاكل العائلة. وصل ردّ أرتورو سريعاً (يمكن أن يُقال عنه ما يراد، باستثناء أنّه يترك رسالة دون أن يردّ عليها) وفيها يؤكّدُ لي أنّه أرسل نقوداً لأمّه، وأنّ أفضل ما يمكن أن أفعله هو أن أُؤَمِّن لها عملاً، فمشكلة أمّه هي أنّها عملت دائماً وأن ما يُنغص عليها عيشها إنّما هو أنّها تشعر بأنّها غير مفيدة. انتابتني رغبة بأن أقول له إنَّ البطالة في برشلونة كبيرة وإنَّ أمَّهُ ليست في ظروف تسمح لها بالعمل، وإنّها إذا تقدّمت لعمل من المحتمل جدّاً أن تخيف رؤساءها، فهي قد أصبحت هزيلة، لكنّها من الهزال إلى حدّ أنّها تبدو ممن نجوا من أوشفيتز أكثر من أيّ شيء آخر، لكنّني فضّلتُ ألاّ أقولَ شيئاً وأن أمنحَهُ فرصةَ أن يتنفّس، يتنفّس وأكلّمه عن الشعر، عن ليوباردو ماريّا بانِرو، عن فِليكس دِ أثوّا، عن خيمفِرِّر، عن مارتينِث ساريون، الشاعر الذي كنّا معجبين أنا وهو به وعن كارلوس إدموندو دِ أُوري، مبدع ما بعد السريالية، والذي كنتُ وقتها قد بدأتُ أتبادل معه الرسائل.

وذات مساء ذهبت أمُّ أرتورو لتبحث عني في بيت أخي. قالت إنّ ابنها أرسل لها رسالة من أعقد الرسائل. أرتني إيّاها. كان المُغلّف يحتوي على رسالة أرتورو ورسالة-تقديم، كتبها الروائي الإكوادوري فارغاس باردو للروائي الكتلاني خوان مارسِهْ. ما كان على أمّهِ أن تفعله، بحسب ما يشرح أرتورو في رسالته، هو أن تمثلَ في بيتِ خوان مارسِهْ، بالقرب من العائلة المقدّسة وتُعطيه تقديم فارغاس باردو. كان التقديم أقرب إلى الاقتضاب. الأسطر الأولى تحية إلى مارسِهْ يذكر فيها بشكل مشوّش حدثاً يبدو احتفالياً في شارع من الشوارع المحيطة بساحة غاريبالدي. يليها تقديم مقتضب جدّاً لأرتورو وبعدها ينتقل فوراً إلى ما كان يهمّه حقيقة، وهو وضع أمِّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشاعر، والرجاء منه بأن يعمل كلَّ ما بوسعه كي يؤمّن لها عملاً. سنتعرّف على خوان مارسِهْ! قالت أمُّ أرتورو. كانت تظهر عليها السعادة والاعتزاز بما فعله ابنها. كانت لي شكوكي. كانت تُريدني أن أرافقها لزيارة مارسِهْ. إذا ذهبتُ وحدي سوف أكون متوتّرة أكثر من اللازم، ولن أعرف ما أقول له، بالمقابل أنتَ كاتب، وإذا ارتبكت تستطيع أن تخرجني من مأزقي.

لم تغوني الفكرة، لكنّني قبلتُ أن أرافقها. ذهبنا مساءً. تأنّقت أمُّ أرتورو أكثر من المعتاد، لكن وضعها كان على كلّ الأحوال مُحزناً. أخذنا المترو في ساحة كتلونيا ونزلنا في ساحة العائلة المقدّسة. أصابتها قبل أن نصل بقليل نوبةُ ربوٍ فاضطُرَّت لأنّ تستخدم جهاز الاستنشاق. فتح لنا خوان مارسِه بنفسه البابَ. حييناه ووضّحت أمُّ أرتورو له ما كانت تريده، اشتبكت عليها الأمور، تكلّمت عن «حاجات»، عن «حالات مستعجلة»، عن «الشعر الملتزم» عن «تشيلي»، عن «المرض» عن «حالات مزرية» فكّرتُ أنّها جُنَّتْ. نظر خوسِهْ مارسِهْ إلى الظرف الذي ناولته له وأدخلنا. هل تريدان أن تتناولا شيئاً؟ سأل. لا، هذا لطف منك، قالت أمّ أرتورو. لا، شكراً، قلتُ أنا. بعدها راح خوسِهْ مارسِهْ يقرأ رسالةَ فارغاس باردو، وسألنا إذا كنّا نعرفه. إنّه صديق ابني، قالت أمُّ أرتورو، وأعتقد أنّه حضر مرّة إلى بيتنا، لكن، لا، لا أعرفه. أنا أيضاً لم أكن أعرفه. شخص ظريف جدّاً، فارغاس باردو، تمتم مارسِهْ. وهل أنت تعيشين خارج تشيلي منذ زمنٍ طويل؟ سأل أمَّ أرتورو. منذ سنوات طويلة جدّاً، نعم، كثيرة إلى حدّ أنّني لا أكاد أتذكّر. راحت بعدها أمُّ أرتورو تتحدّث عن تشيلي والمكسيك وبدأ مارسِهْ يتكلّم عن المكسيك ولا أدري في أي لحظة راح الاثنان يتكلّمان رافعين الكلفةَ فيما بينهما ويضحكان، وأنا أيضاً، بالتأكيد

حكى مارسِهْ نكتةً أو شيئاً مشابهاً. مصادفةً، قالَ، أعرفُ شخصاً عنده شيء ربّما يمكن أن يهمّك. ليس عملاً، بل منحة لدراسة تربية خاصّة. تربية خاصّة؟ سألت أمُّ أرتورو. يعني، قال مارسِهْ، أظنّ أنّهم هكذا يسمونها، تتعلّق بتربية المتخلفين عقلياً أو الأطفال المصابين بمتلازمة داون. أهْ، يسعدني هذا، قالت أمُّ أرتورو. بعد برهة ذهبنا. احكي معي بالهاتف غداً، قال مارسِهْ من الباب.

لم نتوقّف خلال طريق العودة عن الضحك. بدا خوان مارسِهْ لأمِّ أرتورو فتى طيباً، رائع العينين، شخصاً ملكياً، وما أظرفه وأبسطه. منذ زمن طويل لم أرها بمثل تلك السعادة. هتفتْ في اليوم التالي وأعطاها هاتف المرأةِ التي تُعطي المنحَ. بعد أسبوع كانت أمُّ أرتورو تدرسُ كي تُصبحَ مُربيّةَ متخلّفين عقلياً ومتوحّدين، ومصابين بمتلازمة داون في مدرسة من مدارس برشلونة، حيث إلى جانب أنّها كانت تدرسُ كانت تُطبق. كانت المنحة لثلاث سنوات، قابلة للتمديد سنة بعد أخرى بحسب التصنيفات. دخلت بعدها إلى المشفى كي تُعالَجَ من فرطِ نشاط غدّتها الدرقية. ظننا في البداية أنّهم سيجرون لها عملية جراحية، لكنّها لم تكن ضروريّة. هكذا حين وصل أرتورو إلى برشلونة كانت أمُّهُ أحسنَ بكثير. لم تكن المنحة سخية كثيراً لكنّها تسمحُ لها بتمشيةِ الحال. بل وكان معها نقود لتشتري الشوكولاتة الأوروبية، الأفضل، كما يعرف كلّ العالم، بكثير من المكسيكية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٧

سيمون درايوكس، شارع دِس بتيت إكوري، باريس، تموز ١٩٧٧.

عندما وصل عوليس ليما إلى باريس، لم يكن يعرفُ غيري وغير شاعر بيروي كان منفيّاً في المكسيك. كنتُ قد رأيتهُ مرّةً واحدةً فقط في مقهى كيتو، في ليلة كنت فيها على موعدٍ مع أرتورو بِلانو تكلّمنا قليلاً نحن الثلاثة، الوقت الذي استغرقه تناولنا للقهوة بالحليب، بعدها ذهبنا أنا وأرتورو.

فعلاً عرفتُ أرتورو جيّداً، على الرغم من أنّني لم أره بعدها أبداً. وباحتمالٍ كبير تقريباً لن أعود لأراه أبداً. ماذا كنتُ أفعلُ أنا في المكسيك؟ نظريّاً كنتُ أدرسُ علمَ إناسة، لكنّني عمليّاً أسافر وأتعرّف على البلد. كذلك كنت أَحضرُ حفلاتٍ كثيرة، مدهش الوقت الحر الذي يتمتع به المكسيكيون. المال (كانت عندي منحة) طبعاً لم يكن يكفيني لكلّ ما أريدُ، وهكذا رحت أعمل لصالح مصوّرٍ، جيمي ثِتينا، الذي تعرّفت عليه في حفلةٍ في فندق، أعتقدُ أنّه باسكو دِ كيروغا، في شارع لندن، وتحسّنَ وضعيَ الاقتصاديُّ بشكل معتبَر. كان جيمي يصوّر عرياً فنّياً، هكذا كان يُسَمّيه هو، في الحقيقة كانت صوراً خلاعيّة ناعمة، عراة بالكامل ووضعيات مثيرة أو تتالي عرضِ ستريبتيز، كلّ ذلك في استوديو كان يملكه في أعلى بناء في بوكارِلي.

ما عدتُ أتذكّر كيف تعرّفت على أرتورو، ربّما عند الخروج من جلسةِ تصوير، في بناء جيمي ثِتينا، وربّما في بار، ربّما في حفلة. قد يكون في محلّ بيتزا أمريكي شماليّ، كانوا يسمونه جِري لويس. الناس في المكسيك يتعارفون في أكثر الأماكن لا معقولية. الصحيح هو أنّنا تعارفنا ووقعنا من بعضنا موقعاً حسناً، على الرغم من أنّنا تأخّرنا سنة حتى نمنا معاً.

هو كان يهمّه كلّ ما كان يأتي من فرنسا، في هذا الجانب كان ساذجاً قليلاً، كان يعتقدُ أنّني، أنا التي أدرس علم إناسة مجبرة على أن أعرف مثلاً أعمال ماكس جاكوب (كأنني سمعت باسمه، ليس أكثر) وعندما كنتُ أقول له لا، وأن ما تقرأه الشابات الفرنسيات كان شيئاً آخر (في حالتي، أجاسا كريستي)، حسن، هو ببساطة لم يكن يستطيع أن يُصدِّق وكان يُفكّر أنّني أسخرُ منه. لكنّه كان متفهّماً، أعني، كان يبدو أنّه يُفكِّر بمصطلحات الأدب طوال الوقت، لكنّه لم يكن متعصّباً، لا يزدريكَ، إذا لم تكن قد قرأت في حياتك جاك ريغو، ثمّ إنّه كان أيضاً مُعجباً بأجاثا كريستي، وكنّا نمضي أحياناً ساعات نستذكر بعضَ رواياتها، ونراجع ألغازَها (ذاكرتي سيّئة جدّاً، بينما كانت ذاكرته رائعة جدّاً)، ونعيد بناءَ عمليات القتل المستحيلة تلك.

لا أدري ما الذي شدّني إليه. أخذته مرّةً إلى شقّتي، التي كنتُ أعيش فيها مع ثلاثة طلاّبِ علم إناسة آخرين، واحد أمريكيٌّ شماليّ من كولورادو وفرنسيان، وفي النهاية، انتهينا في الرابعة صباحاً إلى الفراش. قبلها كنتُ قد نبّهته إلى إحدى خصوصياتي. قلتُ له، نصفَ جادّةٍ، ونصفَ مازحة، كنّا نضحك في حديقة الفنّ الحديث، حيت التماثيل، يا لها من تماثيل مريعة، قلتُ له: يا أرتورو، إيّاك أن تنام معي فأنا مازوخية. وكيف هذا؟ سأل هو. أحبّ أن يضربوني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عندما أُمارِسُ الحبّ. عندها توقّف أرتورو عن الضحك. هل تقولين ذلك جدّياً؟ سأل. جدّية تماماً، قلتُ له. وبأيّ طريقة تُحبّين أن يضربوكِ؟ قال. أن يضربوني، قلتُ، أحبّ أن يصفعوني على وجهي، أن يجلدوني على وركيّ، أشياء من هذا القبيل. بقوّة؟ سألَ. لا، ليس بقوّة كبيرة، قلتُ. في المكسيك لا بدّ أنّكِ لا تُجامعين كثيرين، قال بعد أن فكَّر برهةً. سألتُه لماذا يقول ذلك. من الآثار، يا آنسة ماربل[1]، قال هو، لم أرَ عندكِ كدمات قط. طبعاً أُمارِس الحبّ، رددتُ، أنا مازوخية، لكنّني لست وحشية. ضحكَ أرتورو. أعتقدُ أنّه فكّر أنّني أمزح. هكذا كان أنّه عاملني في تلك الليلة، أو بالأحرى في ذلك الفجر، عندما دخلنا في السرير بكثير من النعومة وآلمني أن أقاطعه، إذا كان يريد أن يلعقني كاملةً ويقبلني قبلات ناعمة جدّاً فليفعلْ، لكنّني بعد برهة لاحظتُ أنّه لا ينتصب معه، أمسكته وداعبته له قليلاً، لكن لا شيء، وعندها سألته هامسة عمّا إذا كان هناك ما يُقلِقُه فقال لا، إنه بخير، وتابعنا مداعباتنا برهة أخرى، لكن كان واضحاً أنّه لن ينتصبَ معه، وعندها قلتُ له يكفي، لا تُجْهِدْ نفسَكَ أكثر، لا تتعذّبْ أكثر إذا كنت لا تُريد، فأنت لا تريد، يحدث هذا عادة، وأشعلَ هو سيجارة (كان يُدخّن تلك التي تسمى بالي (ما أغربه من اسم) وراح يتحدّث عن آخرِ فيلمٍ ذهب لمشاهدته، ثمّ نهض وراح يدور عارياً في الغرفة، يُدخِّنُ وينظرُ إلى أشيائي، وبعدها جلس على الأرض، بجانب السرير وراح يتأمّل صوري، بعضها من صور جيمي ثِتينا الفنيّة، كنتُ أحتفظُ بها لا أدري لماذا، لأنّني غبيّة، دون شكّ، وأنا سألته عما إذا كانت تُثيره، وقال هو لا، لكنّها جيّدة، أنت رائعة، أنتِ جميلة جدّاً، يا سيمون، قال، ولا

---

(١) Miss Marple شخصية روائية تتكرّر في روايات أجاسا كريستي.

أدري لماذا خطر لي في تلك اللحظة أن أقولَ له أن يدخل في السرير، ويصعد فوقي وأن يصفعني صفعات خفيفة على خدّيَ أو على مؤخّرتي وهو نظر إليّ، وقال أنا غير قادر على فعل ذلك، يا سيمون، ثم صحّح وقال أيضاً أنا غير قادر على هذا، يا سيمون، لكنّني قلتُ له تعالَ، تشجّع، ادخلْ في الفراش ودخلَ، فاستدرتُ ورفعت وركيّ وقلت له، ابدأ بضربي قليلاً فقليلاً، خذْ بالاعتبار أنّ هذا لعبٌ، وضربني أوّل سوط، فغصت برأسي في الوسادة، أنا لم أقرأ ريغو، قلتُ له، ولا ماكس جاكوب، ولا الثقلاء بانيّل، وبودلير ومِندِس وكوربيير، القراءة الإلزامية، لكنّني فعلاً قرأت الماركيز دو ساد. آه، صحيح؟ سأل هو. بلى، قلتُ وأنا أداعب قضيبَهُ. راح يضربني على وركيَّ بقناعةٍ هي في كلّ مرّةٍ أكبر. ماذا قرأتِ للمركيز دو ساد؟ *الفلسفة في المخدع*، قلتُ. وجوستين؟ طبعاً، قلتُ. وجولييت؟ بالطبع. *وأيام سدوم المائة وعشرون*؟ طبعاً قرأتها. وقتها كنتُ قد ترطبتُ ورحت أتأوه وقضيب أرتورو منتصب مثل عصا، وهكذا استدرتُ وفتحت ساقيّ وقلت له أن يدخله فيَّ، لكن أن يفعل هذا فقط، ألا يتحرّك حتى أقول له. كان جميلاً شعوري به في داخلي. اصفعْني، قلتُ له، على وجهي، على خدّيَّ. أدخل أصابعكَ في فمي. هو صفعني بقوّة أكبر. ابدأْ الآنَ بالتحرّك، قلتُ له. خلال ثوان لم يكن يُسمع في الغرفة سوى تأوهاتي والضربات. بعدها هو أيضاً راح يتأوّه.

مارسنا الحبَّ حتى مطلع الفجر. حين انتهينا أشعل هو سيجارة بالي وسألني عمّا إذا قرأتُ مسرحَ مركيز دو ساد. قلتُ له لا، أوّل مرّة أسمع فيها عن أنّ ساد كتب مسرحاً. لم يكتب مسرحاً فقط، قال أرتورو، بل وكتبَ رسائلَ كثيرة موجّهة إلى أصحاب مؤسساتٍ مسرحيةٍ يُشَجِّعهم فيها على إنتاج أعماله. طبعاً لم يجرؤ أحد على أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يُخْرِجَ أيّاً منها، إذ كانوا سينتهون جميعاً إلى السجن (ضحكنا)، على الرغم من أنّ ما لا يُصدّق هو أنّ المركيز كان يُصرّ في عناده، في الرسائل كان يحسبُ حتى ما يجبُ أن يُدْفَعَ على الملابس، والمحزن أكثرَ من كلِّ ذلك هو أنّه في حساباته دقيق، هي جيّدة! من الممكن أن تنتج الأعمال فوائد. لكن هل كانت داعرة؟ سألته. لا، قال أرتورو، كانت فلسفية، مع بعض الجنس.

صرنا حبيبين لبعضِ الوقت. ثلاثة أشهر، بالضبط، ما كان قد بقي لي كي أعودَ إلى باريس. لم نمارس الحبّ في كلّ الليالي. لم نكن نلتقي في كلّ الليالي. لكنّنا مارسنا الحبَّ بكلِّ الطرق الممكنة. ربطني، جلدني، عذّبني. لم يترك قط علامةً، باستثناء المؤخّرة المحمرّة، وهو ما يَدلّ كثيراً على رقّته. لو كان لي متسع قليل من الوقتِ لكنتُ اعتدتُهُ، أي احتجتُهُ ولكان انتهى باعتيادي. لكنّنا لم نمنح أنفسنا أيَّ وقت، فقط كنّا صديقين. كنّا نتكلَّم عن ماركيز دو ساد، عن أجاثا كريستي، عن الحياةِ بعامّة. عندما تعرّفتُ عليه كان مكسيكياً كأيّ مكسيكيٍّ آخر، لكنّه في الأيّام الأخيرة كان يشعرُ وفي كلّ مرّة أكثر أنّه أجنبيّ. قلت له ذات مرّةٍ: أنتم، المكسيكيون، هكذا أو كذا وقال لي هو، أنا لستُ مكسيكياً، يا سيمون، أنا تشيلي، بشيء من الحزن، صحيح، لكن بقناعة كافية.

هكذا حين ظهر عوليس ليما في بيتي وقال لي أنا صديق أرتورو بِلانو، شعرتُ بفرح عظيم، وإنْ أخذني بعضُ الغضب حين علمت أنّ أرتورو في أوروبا ولم يُكَلِّفْ خاطِرَهُ بأن يُرسل إليَّ ولا حتى بطاقة بريدية. كنتُ قد بدأتُ أعملُ في قسم علم الإناسة في جامعة باريس- الشِّمال، عملاً أقرب إلى البيروقراطية والسأم، ووصول ذلك المكسيكي سمحَ لي على الأقل بأن أمارسَ مرّةً أخرى إسبانيّتي، التي علاها العفن قليلاً.

كان عوليس ليما يعيشُ في شارع دس أو. ذهبتُ مرّةً، مرّةً واحدةً فقط، لأبحث عنه في بيته. لم أرَ قط غرفة مستقلة أسوأ منها. لم يكن فيها غير نافذة صغيرة، لا يستطيع فتحَها وتطلُّ على منور ينار بالكهرباء، معتم وقذر. بالكاد يوجدُ مكانٌ للسرير وطاولةٍ من طاولاتِ رياض الأطفال مفكّكة تماماً. كانت ثيابُهُ ما تزال في الحقائب، إذ لم يكن يوجد خزانة ولا صندوق أو أنّها كانت متناثرة في كلّ الغرفة. حين دخلتُ انتابتني رغبةٌ بالتقيّؤ. سألته كم يَدفع إيجارها. عندما قاله لي انتبهت أنّهم ينصبون عليه عن وعيٍّ. الذي حشرك هنا خدَعَكَ، قلتُ له، هذه جحر فئران، لمدينة مليئة بالغرف الأفضل. بلى، لا أشكّ بذلك، ردَّ بأنّه لا يُفَكّر بالبقاء في باريس وأنّه لا يُريدُ أن يُضيّعَ وقتَهُ بالبحث عن مكان أفضل.

لم نكن نلتقي كثيراً، ودائماً عندما كنّا نلتقي كان بناءً على طلبٍ منه. كان أحياناً يهتفُ لي وأخرى يظهر ببساطة في بيتي ويسألني عمّا إذا كنتُ أُريد أن أخرج لنقوم بجولة، لنتناول القهوة أو نذهب إلى السينما. عامّة ما كنتُ أقول له إنّني مشغولة، أدرسُ أو عندي أعمال للقسم، لكنّني كنت أحياناً أخرى أستجيب له ونخرج لنتمشّى. كنّا ننتهي إلى بارٍ في شارعٍ لا لونا نأكلُ معكرونة ونشربُ نبيذاً ونتكلّم عن المكسيك. عادة ما كان يدفع هو، والآن وأنا أتذكّره لا يخلو الأمرُ من أنّه يبدو لي غريباً، فبحسب علمي لم يكن يعمل. كان يقرأُ كثيراً، دائماً يمضي حاملاً عدداً من الكتبِ تحت ذراعه، جميعها بالفرنسية، على الرغمِ من أنّهُ وللحقيقة كان أبعدَ ما يكونُ عن التمكّن من الفرنسية (كما سبقَ وقلت كنّا نحاول أن نتكلّم بالإسبانية). حكى لي ذات ليلة عن خططِهِ. وكانت هذه تقوم على الإقامة لبعض الوقت في باريس، ليرحل بعدها إلى «إسرائيل». عندما قالَ لي هذا ابتسمتُ بمزيج من عدم التصديق والذهول. لماذا «إسرائيل»؟ لأنّ صديقة لي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تعيش هناك. هذا كان جوابه. فقط لأجل هذا؟ قلتُ غير مصدّقة. فقط لأجل هذا.

عمليّاً ما من شيءٍ كان يقوم به ويبدو لي أنّه استجابةٌ لمشروع مُحدّد مسبقاً.

كانت طبيعته هادئة، رزينة، كانت بعيدة قليلاً لكنّها ليست باردةً، على العكس كانت أحياناً حارّة جدّاً، مختلفةً عن طبيعة أرتورو، الذي كان متحمّساً ويبدو أحياناً أنّهُ يكرهُ كلَّ العالم. عوليس لا، كان مُحْتَرِماً، يقبل الأشخاص كما هم ولا يوحي بأنّه يُحاول أن يقتحم عليك خصوصيَّتَك، الأمر الذي كان يحدث معي عادة في تعاملي مع الأمريكيين اللاتينيين.

هيبوليتو غارثِسْ، جادة مارسيل بروست، باريس، آب ١٩٧٧.

عندما ظهر صديقي عوليس ليما في باريس سُعدتُ جدّاً، هذه هي الحقيقة. حصلتُ له على غرفة جيّدة في شارع دس أُو، قريبة جدّاً من حيث كنتُ أعيش. من جادة مارسيل بروست إلى بيته ليس هناك أكثر من خطوتين صغيرتين، تأخذ اليسار باتجاهِ جادّةِ رينيه بويلسف، ثمّ تدخل في شارع شارل ديكنز، وتصبح في شارع دس أُو. هكذا كنّا، كما يقولون، الكتف على الكتف. كان عندي في غرفتي موقد صغير وكنتُ أطبخ كلّ يوم ويأتي عوليس ليأكل معي. لكنّني قلتُ له: عليك أن تُمرّر لي بعض النقود: يا بوليتو، أنا أُمرّر لك نقوداً، لا تهتمّ، يبدو لي هذا إنصافاً، فأنت تشتري الطعامَ وفوق ذلك تطبخه، كم تريد؟ وأنا قلت له إذن، أعطني مائة دولار، يا عوليس، وكفى فلا نتكلّم أكثر في الموضوع. وهو قال لي، أيّ دولارات ليس معي، فقط معي فرنكات، لكنّه أعطاني إياها. كان معه مال وكان واثقاً من نفسه.

وذات يوم قال لي: يا بوليتو، في كلِّ يوم آكل أسوأ، كيف يمكن لصحن أرزّ عاهر أن يساوي كلّ هذا المال. وضّحتُ له أنّ الأرزَّ في فرنسا غالٍ وليس كما في المكسيك أو بيرو، هنا كيلوغرام الأرزّ تساوي عيناً في الوجه، يا عوليس، قلتُ له. نظرَ إليّ هكذا، بطريقة خبيثة خاصّةٍ بالمكسيكيين، وقال لا بأس، لكن اشترِ على الأقل علبةَ صلصة بندورة فأنا سئمتُ من أكل الأرز الأبيض. طبعاً، معك حق، وسأشتري أيضاً نبيذاً نسيت شراءه بسبب العجلة، لكن عليك أن تعطيني أكثر قليلاً من المال، أعطاه لي وفي اليوم التالي حضّرتُ له طبق أرزّ مع صلصة البندورة وصببتُ له كأس نبيذ أحمر. لكن في اليوم الثاني لم يعد هناك نبيذ (شربته أنا، هذه هي الحقيقة) وانتهت صلصة البندورة بعد يومين وعاد ليأكل أرزّاً أبيض فقط. حضّرتُ بعدها معكرونة. لنرَ، لأتذكّرْ. حضّرتُ بعدها عدساً، وهو غنيّ بالحديد ومغذٍّ. وحين انتهى العدس حضّرت له حمّصاً. وعدتُ بعدها لأُحَضّر أرزّاً أبيض. وذات يوم وقف عوليس وقال لي نصف مازح. يا بوليتو، قال لي، يبدو لي أنّك تتذاكى عليّ. أطباقُكَ هي الأكثر بساطة والأغلى في باريس. لا، يا صديقي، قلتُ له، لا، يا صديقي، أنت لا تتصوّر كم هي الحياة غالية، يُلاحظ أنّك لا تذهب للقيام بالمشتريات. وهكذا كان أن أعطاني مزيداً من النقود، لكنّه لم يأتِ في اليوم التالي ليأكل. مرّت ثلاثة أيّام لم أرَ له أثراً فيها، بعدها مثلتُ في غرفته في شارع دِس أو. لم يكن موجوداً. لكن كان عليّ أن أراه، وهكذا انتظرته جالساً في الممرّ.

عند الساعة الثالثة صباحاً ظَهَرَ. وعندما رآني، في ظلمة ذلك الممر الطويل والكريه الرائحة، توقّف وبقي هناك، على بعد خمسة أمتار من المكان الذي كنتُ فيه، منفرج الساقين، كما لو أنّه ينتظر هجوماً منّي. لكن الأغربَ أنّه حين وقف، بقي صامتاً، لم يقُل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شيئاً، الويل لي، فكّرتُ، عوليس هذا غاضب منّي حقيقةً وسوف يقتلني هنا بالذات، وهكذا اخترت بحكمةٍ ألاّ أنهض، فظلٌّ على الأرض لا يشكّل أيّ خطر. أليس كذلك؟ وناديتُهُ باسمه. يا عوليس، يا صديقي، هذا أنا، بوليتو، وهو قال أهْ، يا بوليتو، أيُّ شياطين جاءت بك إلى هنا في هذه الساعة، يا بوليتو، وعندها انتبهت إلى أنّه لم يكن قد عرفني وفكّرتُ من ينتظر هذا الوغدُ؟ من ظنَّني؟ وأُقسِمُ بأمّي إنّني أحسستُ وقتها بخوف أكثر من قبل، لا أعرفُ، يبدو أنّها الساعة، هذا الممر المعتم، خيالي، خيال الشاعر الذي جمح، اللعنة، بل وشعرتُ بقشعريرة وتصوّرت شبحاً آخر خلف شبح عوليس ليما في الممر. الحقيقة أنّه انتابني خوف حتى من هبوط أدراج الطوابق الثمانية في بيت الأشباح الكبير ذاك. ومع ذلك فالشيء الوحيد الذي أردته في تلك اللحظة هو أن أخرج راكضاً من هناك. لكنّ الخوف من أن أبقى وحدي كان أقوى، اكتشفت أن إحدى ساقيّ كانت مخدّرة وقلتُ لعوليس أن يدعوني للدخول إلى غرفته. وبدا وقتها أنّه استيقظ توّاً وقال طبعاً، يا بوليتو، وفتح الباب. عندما أصبحنا في الداخل والنور مشتعل، شعرتُ بأنّ الدمَ عاد ليدور في جسمي، ولمزيد من قلّةِ حيائي أريتُهُ الكتبَ التي جئت بها معي. نظرَ عوليس إليها واحداً فواحداً، وقال لا بأس، على الرغم من أنّني أعرف أنّه كان يموت توقاً لاقتنائها. جئتُ بها كي أبيعها لك، قلتُ. كم تريد ثمنها، سألني. قلتُ رقماً دون تفكّر، لأرى ماذا يحدث. نظرَ عوليس إليّ وقال طيّب، ثمّ أدخل يده في جيبه ودفع لي وبقي ينظرُ إليّ دون أن يقولَ شيئاً. حسن، يا صديقي، قلتُ أنا، أنا ذاهب، هل أنتظرك غداً على وجبة طيّبة؟ لا، قال، لا تنتظرني. لكنّك هل تذهب ذات يوم؟ تذكّر أنّك إذا لم تأكل يمكن أن تموتَ من الجوع، قلتُ. لن أذهب أبداً، يا بوليتو، قال لي. لا

أدري ماذا حدث لي. بداخلي كنتُ ميتاً من الخوف (أموت أمام فكرة أن أخرج، أعبر الممرّ وأهبط الدرج)، لكنّني خارجيّاً رحتُ أتكلّم، اللعنة، فجأة وجدتُ نفسي أتكلّم، *أسمع نفسي كيف كنتُ أتكلّم*، كما لو أنّ صوتي ما عاد صوتي والوغد راح يهذر لوحده. قلتُ له ليس لك الحق، يا عوليس، رغم كلّ الذي أنفقتُهُ على المواد الغذائية، لو رأيت الأشياء الجيّدة التي اشتريتُها، والآن ماذا سيحلُّ بها؟ هل ستفسد؟ هل أتخم من الأكل هناك وحدي، أه، يا عوليس؟ هل سأُصاب بعسر الهضم من كثرة ما سآكل، أو بمغص كلوي؟ أجِبْني، يا عوليس، لا تتظاهر بالصمم. أشياء من هذا القبيل. وبالرغم من كلٍّ ما كنتُ أقول في داخلي اسكتْ، يا صديقي، فأنت تتمادى كوغد، وهذا قد ينتهي نهاية سيّئة، تعلَّمْ أن تعرف حدودك، يا سافل، في الخارج في تلك المنطقة المنمّلة أو المخدّرة التي هي وجهي، شفتاي، لساني الساخر، بقيت الكلماتُ، (الكلمات التي لم أكن أريد أن أتلفظ بها!!) تخرجُ، وهكذا سمعتُ كيف كنتُ أقول له: كيف حالك يا صديقي، يا عوليس، أنا الذي كنتُ أُدلّلكَ كما لو أنّك صديقي المفضّل، أخي، صديقي، أخي الصغير، تطلع عليَّ بهذا الاحتقار. إلى آخره، إلى آخره. لماذا سأتابع. فقط أستطيع أن أقول إنّني كنتُ أتكلّم وأتكلّم وعوليس واقف أمامي، في تلك الغرفة الصغيرة إلى حدّ أنّها كانت تبدو تابوتاً أكثر مما هي غرفة، لا يرفعُ نظره عني، هادئاً، دون أن يقوم بتلك الحركة التي كنتُ أنتظرها وأخافها، كما لو أنّني ساعة يقرنُني، كما لو أنّه يقول لنفسه في داخله بقي أمام الصديق دقيقتان، بقي أمامه دقيقة ونصف، بقي أمامه دقيقة، بقي أمامك خمسون ثانية يا بوليتو، ، مسكين، بقي أمامه عشر ثوان، وكنتُ كمن يرى، أُقْسِمُ، شعرَ جسمي كلّه، كما لو أنّه كان هناك، في الوقت الذي كنت فيه مفتوح العينين، عينان أخريان، لكنّهما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مغمضتان، تجوبان كلّ سنتيمتر من جلدي وتخترعان كل الشَّعر الذي عندي، عينان مغمضتان، لكنّهما تريان أكثر مما ترى عيناي المفتوحتان، أعرف أنّه لا شيء يُفهم. وعندها ما عاد باستطاعتي أن أتحمَّل أكثر وارتميت على السرير مثل عاهرة وقلتُ له: يا عوليس، أشعر بأنّني مريض، يا صديقي، حياتي كارثة، لا أعرف ماذا يحدث لي، أنا أحاول أن أُحْسِنَ عملَ الأشياء لكن كلّ شيء يأتي مخيّباً، عليّ أن أعود إلى بيرو، مدينة الخراء هذه تقتلني، ما عدتُ الذي كنتُ، وهكذا رحتُ أتكلّم، وأُطلِقُ كلَّ الذي كان في داخلي، ووجهي شبه غائص في بطانيات عوليس، التي من سيعرف من أين جاء بها، لكنّ رائحتها كانت سيّئة، ولم تكن رائحة *الغرف المستقلة* القذرة المعتادة، رائحة أخرى، رائحة كأنّها رائحة الموت، رائحة شنيعة، سرعان ما استقرّت في دماغي وجعلتني أقفز، بحق الشيطان، يا عوليس، من أين جئت بهذه البطانيات، يا صديقي، أمن مستودع الجثث؟ وعوليس باقٍ هناك، واقفاً، دون أن يتحرّك من مكانه، يستمع إليّ وعندها فكَّرتُ هذه هي الفرصة كي أذهبَ ونهضتُ ومططت يداً ولمست كتفه. كان كمن يلمس تمثالاً.

روبِرتو روساس، شارع باسي، باريس، أيلول ١٩٧٧.

كان في سقيفتنا قرابة اثنتي عشرة غرفة. ثمان منها يشغلها أمريكيون لاتينيون، تشيليٌّ، ريكارديتو بارّيينتوس، زوجان أرجنتينيان، صوفيا بّلّيغريني وميغليتو سابوتينسكي، البقيّة كنّا بيرويين وجميعنا متخاصمون فيما بيننا.

كنّا نُسمي سقيفتنا باعتزاز غير قليل، كومونة باسّي أو شعب باسي الشاب.

دائماً كنّا نتجادل وموضوعنا المفضّل، أو ربّما الموضوعان

الوحيدان هما السياسة والأدب. كانت غرفة ريكارديتو قبل ذلك مستأجرة من قبل بوليتو غارثِسْ، وهو بيروي وشاعر أيضاً، لكنّنا قرّرنا ذات يوم بعد اجتماع مستعجل، أن نوجِّهَ إليه إنذاراً. إمّا أن تذهب من هنا هذا الأسبوع ذاته، يا ابن العاهرة وإمّا أننا سنرمي بك على الأدراج، سنتغوَّط في سريرك، سوف نضع لك قاتل فئران في النبيذ أو سنعمل شيئاً أسوأ. من حسن الحظّ أنّ بوليتو استجابَ لنا، لأنّه لو لم يفعل لا أدري ما كان سيحدث.

ومع ذلك ظهر يوماً هناك، مجرجراً نفسه، كما كانت عادته، داخلاً غرفةً ثمّ أخرى، طالباً أن نقرضه نقوداً (لم يكن يعيدها أبداً)، داعياً نفسَهُ لفنجانِ قهوة هنا، وكأس متّةٍ هناك (كانت صوفيا بّليغريني تكرهه حتى الموت)، يستعيرُ كتباً، ويحكي أنّه التقى في ذلك الأسبوع بريث إتشِنيك، وخوليو رامون ريبِيْرو، وأنّه تناول فنجان قهوة مع هينوستروثا، الكذبات ذاتها التي حين تقال لأوّل مرّة يمكن أن تُصدّق، لكنّها حين تُكَرّر إلى ما لا نهاية، لا تُحدث إلاّ القرف الاشمئزاز والألم والروع، لأنّه لم يكن هناك مجال للشكّ بأنّ بوليتو كان مجنوناً. لكن من منّا كان سليماً، بمعنى السليم؟ حسن، لسنا بمرض بوليتو. حسن، لسنا بمثل سوءِ حالة بوليتو.

المسألة أنّه ظهرَ هناك ذاتَ مساء كنّا كلّنا تقريباً متواجدين فيه بالمصادفة (أعرف لأنّني سمعته يطرق على أبوابٍ أخرى، سمعتُ صوتَه، جملتَهُ «كيف حالك، يا صديقي» المميَّزة) وبعد برهة سقط ظلّه على عتبة غرفتي، كما لو أنّه لا يجرؤ على الدخول دون أن ندعوه وعندها قلتُ لهُ، ربّما بفجاجة أكثر من اللازم ماذا تريد، يا وغد، وهو ضحك ضحكةَ الوغد وقال أيْ، روبرتيتو، منذ كم لم نرَ بعضنا، أنت تماماً كما أنت دائماً، يا أخي، يسعدني، انظرْ، لقد جئتك بشاعرٍ أريدك أن تتعرف عليه، إنّه صديق حميم من الجمهورية المكسيكية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عندها فقط انتبهت إلى أنه كان إلى جانبه شخص. أسمر، له ملامح هندي قوي. شخص سائل العينين وكأنّهما ممحوتان في آن معاً وله ابتسامة طبيب، ابتسامة نادرة جدّاً في كومونة باسّي، حيث جميعنا نملك ابتسامة موسيقيين فلكلوريين أو مُحامين.

كان هذا عوليس ليما. هكذا تعرّفتُ عليه. صرنا صديقين، صديقَيّ مغامرات باريس. بالطبع لم يكن يشبه في شيء بوليتو، وإلا لما كنتُ صادقته.

لا أتذكّر كم من الوقتِ عاش في باريس. أعرف أنّنا كنّا نلتقي كثيراً، على الرغم من أنّ شخصيّتينا كانتا مختلفتين. ومع ذلك قال لي ذاتَ يوم إنّه راحل. وكيف ذلك، يا صاحبي؟ قلتُ له، لأنّ هذه المدينة بحسب علمي كانت تسحره. أعتقد أنّني لستُ بصحّة جيّدة، ابتسم. هل هو شيء خطير؟ لا، ليس شيئاً خطيراً، قال، لكنّه مزعج. حسن، قلتُ له، إذن ما من مشكلة، تعال لنتناول جرعة احتفاء بذلك. نخب المكسيك! شربتُ. لن أعود إلى المكسيك، قال هو، سأذهبُ إلى برشلونة. وكيف ذلك، يا صاحبي؟ سألتُهُ. لي صديق هناك، سأبقى لأعيش بعضَ الوقت في بيته. كان هذا كلّ ما قاله، وأنا لم أسأله أكثر. خرجنا بعدها لنأتي بمزيدٍ من النبيذ وشربناهُ قرب بورتِ بير هاكيم وكنتُ أحكي له آخر مغامراتي الغرامية، لكنّه كان قد وضع رأسه في مكان آخر، وهكذا ولكي ننوّع رحنا نتحدّث عن الشعر، الموضوع الذي يقلّ إعجابي به يوماً بعد يوم.

أتذكّر أن عوليس كان يستلطف الشعر الفرنسي الشاب. أستطيع أن أثبت ذلك. كان الشعر الفرنسي الشابّ بالنسبة لنا، نحن شعب باسي الشاب، يبدو لنا مقرفاً. إنّهم مدلّلو آبائهم أو متعاطو المخدرات. افهمْ ذلك يا عوليس وخلّصنا، اعتدتُ أن أقول له، نحن ثوريون، نحن عرفنا سجون أمريكا اللاتينية، كيف يمكننا أن

نُحبّ شعراً كالشعرِ الفرنسي؟ الديوث لم يكن يقولُ شيئاً، فقط كان يضحك. رافقته مرّة للقاء ميشيل بولتو. كان عوليس يتكلّم فرنسية مخزية، وبذلك وقع على كاهلي ثقل الحديث. تعرّفتُ بعدها على ماتيو مِساجير، جان-جاكس فوسوت، أدِلين، رفيقة بولتو.

ما من أحد منهم وقعَ في نفسي وقعاً حسناً. قلتُ لفوسوت إذا كان باستطاعته أن ينزل لي مقالاً في المجلة التي يعمل فيها، مجلة موسيقى بوب تافهة، وقال إنّ عليه أن يقرأ المقال أوّلاً. أخذته له بعد أيّام ولم يُعجبه. طلبتُ من مساجير عنوانَ شاعر فرنسي عجوز «مجد الآداب»، الذي بحسب ما كان يُقال عَرَفَ مارتين آدان في رحلة قام بها إلى ليما في عقد الأربعينات، لكنّ مِساجير لم يبغِ أن يعطيه لي مضيفاً حجة غير معقولة مثل أنّ العجوز يكره الزيارات. أنا لا أريدُ أن أطلب منه أن يقرضني نقوداً، قلتُ له، فقط أُريد أن أجري معه مُقابلة، لكنّه أيضاً لم يُبالِ. أخيراً قلتُ لبولتو إنّني سوف أُترجمه. هذا فعلاً أعجبه ولم يُبدِ أيّ اعتراض. طبعاً، قلته له مازحاً. لكنّني فكّرتُ بعدها ربّما لم تكن فكرة سيِّئة. عملياً بدأت العمل فوراً بعد بضع ليالٍ. القصيدة التي اخترتها كانت «دم الشيطان». لم يكن قد خطر لي من قبل أن أترجم شعراً قط، على الرغم من أنّني شاعر وأن من المفترض أن يترجم الشعراءُ شعراءَ آخرين. لكن أنا لا أحد ترجمني. لذلك لماذا كان عليَّ أن أُترجم غيري؟ حسن، هكذا هي الحياة. هذه المرّة فكّرتُ أنّها لم تكن فكرة سيّئة. ربّما كان الذنب ذنب عوليس، الذي بدأتْ تأثيراتُهُ تؤثّر على أكثر عاداتي رسوخاً. ربّما لأنّني فكّرتُ أنّه آن الأوان لأن أفعل شيئاً لم أفعله من قبلُ. لا أعرفُ. فقط أعرفُ أنّني قلتُ لِبولتو إنّني كنتُ أُفَكّر بترجمته وإنّني أُفكّر بنشر ترجمتي (نشر هي الكلمة المفتاح) في مجلّة بيروية لا وجود لها، اخترعتُ اسماً، مجلة بيروية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يساهم فيها وستفالن، قلتُ له، وهو أبدى موافقته، أظنّ أنّه لم يكن يملك فكرة عمّن يكون وِستفالن، فقد كان باستطاعتي أن أقول له إنها مجلة يساهم فيها هوامان بوما أو سالاثار بوندي، وشرعت بالعمل.

لا أتذكّرُ ما إذا كان قد رحل عوليس أم أنّه كان ما يزال هنا. «دم الشيطان». واجهتني مشاكل منذ البداية مع هذه القصيدة الخراء. كيف سأترجم العنوان؟ «دم الحرير» أم «دم الأطلس». بقيت أُفكّر به أكثر من أسبوع. وكان وقتها أن سقط على رأسي فجأة كلُّ رعبِ باريس، كلُّ رعب اللغة الفرنسية، الشعر الشاب، رعب ظرفنا كأجانب، ظرفنا المحزن والجبري كأمريكيين جنوبيين ضائعين في أوروبا، ضائعين في العالم، وعندها عرفت أنّني لن أستطيع أن أتابع ترجمة «دم الحرير» أو «دم الأطلس»، عرفت أنّني إذا فعلت سأنتهي بقتل بولتو في استودياه في شارع طهران وبعدها أهرب من باريس مثل يائس. أخيراً قرَّرتُ ألا أنجز العملية وحين رحل عوليس ليما (لا أتذكر متى بالضبط) توقّفتُ عن التردّد على الشعراء الفرنسيين للأبد.

سيمون داريو، شارع دِس بِتيتس إكوريس، باريس، أيلول ١٩٧٧.

لم يحصل قط على شيء يمكن أن يشبه العمل ولا من بعيد. الحقيقة أنّني لا أعرف مما كان يعيش، وصل ومعه مال، أعرف، كان في لقاءاتنا الأولى هو من يدفعُ ثمنَ القهوة بالحليب، ليكور الليمون، بعض كؤوس النبيذ، لكنّ النقود نفدت سريعاً وبحسب علمي لم يكن عنده أيّ مصدر دخل.

حكى لي مرّةً أنّه عثر على ورقةٍ مالية من فئة الخمسة آلاف فرنكاً

في الشارع. بدءاً من هذا العثور، قال صرتُ دائماً أسير وأنا أنظر إلى الأرض.

بعد وقت عاد وعثرَ على ورقة مالية أخرى ضائعة.

كان عنده بعض الأصدقاء البيرويين الذين يقدمون له أحياناً عملاً، مجموعة من الشعراء البيرويين، من الشعراء بالتأكيد لم يكن عندهم غير الاسم، العيش في باريس، كما هو معروف، يستهلك ويذيب كلّ الميول التي لا تكون من حديد، يُحاصر ويدفع للنسيان. على الأقل هذا ما يحدث عادة للكثيرين من الأمريكيين اللاتينيين الذين أعرفهم. لا أريدُ أن أقول إنّ هذه هي حال عوليس ليما، لكن نعم كانت حال أصدقائه البيرويين. كان هؤلاء يملكون نوعاً من الجمعية التعاونية للنظافة. كانوا يشمعون أرضيات مكاتب، يغسلون نوافذ، هذا النوع من الأشياء وكان عوليس يساعدهم حين يمرضُ أحدُ أعضاء التعاونية أو يغيب عن المدينة. بشكل عام، كان عملُهُ دائماً لأسبابٍ تكاد تكون دائماً صحّية، البيرويون لا يُسافرون كثيراً وإن كان بعضهم يذهب في الصيف إلى روسلون لقطف العنب. كانوا يخرجون في مجموعات من اثنين، من ثلاثة وبعضهم كان يذهب وحده، وقبل أن يذهب كان يقول إنّه ذاهب في إجازة إلى كوستا برافا. كنتُ معهم قرابة الثلاث مرّات، كائنات محزنة، أكثر من واحدٍ اقترح عليّ أن أذهب معه إلى السرير.

ما تكسبه، قلتُ ذات مرّة لعوليس، لا يكاد يكفيك كيلا تموت من الجوع، كيف تنتظر أن يصير معك مال كي تسافر إلى «إسرائيل»؟ ما زال الوقتُ مبكراً، كان يجيبني وهنا كان ينتهي النقاش حول الاقتصاد. في الحقيقة، الآن وأنا أفكّر به، من الصعب التدقيق بموضوع أحاديثنا. هكذا وكما مع أرتورو، كان هذا واضحاً جدّاً (كنّا نتحدّث عن الأدب والجنس بشكل أساسيّ) مع عوليس لم تكن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحدود دقيقة، ربّما لأنّنا كنّا نلتقي قليلاً (وإن كان هو مخلصاً لصداقتنا، على طريقته، كان وفيّاً لرقم هاتفي)، ربّما لأنّه كان يبدو هكذا، أو أنّه شخصٌ ليس عنده أيّ مطالب.

صوفيا بِلّغريني، جالسة في حدائق تروكادِرو، باريس، أيلول ١٩٧٧.

أسموه مسيح شارع دِس أو، وكان الجميع يضحكون منه، بما فيهم روبِرتو روساس، الذي كان يقول إنّه أفضل صديق له في باريس. كانوا يضحكون منه لأنّه كان غبيّاً، أساساً، هذا ما كانوا يقولونه، غبيّ متشرّد، كانوا يُوضحون، يمكن أن يترك بوليتو غارثِس يخدعُهُ ثلاثَ مرات، لكنّهم كانوا يتناسون أنّ بوليتو خدعهم أيضاً. مسيح شارع دِس إو. لا، أنا لم أذهب قط لزيارته في بيته، أعرف أنّهم كانوا يحكون عنه أشياء مريعة، وأنّه كان زريبة، وأنّه يُراكم فيه أقل الأشياء نفعاً في باريس: القمامة، المجلات، الصحف، الكتب التي كان يسرقها من المكتبات، والتي سرعان ما تكتسب رائحته وتتعفّن بعدها وتُزهر وتكتسب ألواناً مذهلةً ولم يكن هناك من أحدٍ غيري. كانوا يقولون إنّه يستطيع أن يقضي أيّاماً كاملة دون أن يذوق لقمة واحدة، وأشهراً دون أن يذهب إلى حمّام عام، لكنّني أعتقد أنّ هذا شيء زائف، لأنّني لم أره قط متسخاً بشكل مفرط. حسن، أنا لم أكن أعرفه جيّداً، لم أكن صديقته، لكنّه جاء يوماً إلى سقيفتنا في باسي وأنا كنتُ في حالة سيّئة جدّاً، كنتُ مكتئبة، ومتشاجرة مع رفيقي، لم تكن أموري تسير جيّداً، حين ظهر وجدني أبكي في غرفتي، البقيّة كانوا قد ذهبوا إلى النادي السينمائي، أو إلى واحد من اجتماعات سياسيّة كثيرة، فجميعهم كانوا ثوريين مُنَظَّمين وجاب عوليس ليما الممرَّ ولم يقرع أيَّ باب، كما لو أنّه كان يعرف مسبقاً

أنّه لن يجد أحداً، وتوجّه مباشرة إلى غرفتي، حيث كنتُ وحدي، جالسةً في السرير، أنظر إلى الجدار ودخل هو (كان نظيفاً ورائحته طيّبة) وبقي بجانبي، دون أن يقول شيئاً، فقط قال مرحبا يا صوفيا، وبقي هناك واقفاً إلى أن توقّفت عن البكاء. ولذلك عندي ذكرى طيّبة عنه.

سيمون داريو، شارع دِس بتيتس إكوريس، باريس، أيلول ١٩٧٧.

كان عوليس ليما يستحمّ في بيتي. ليس شيئاً يُثير حماسي. لا أحب أن أستخدم منشفةً استخدمها شخص آخر، خاصّة إذا لم يكن بيني وبين هذا الشخص بعض الحميميّة الجسدية، بل والعاطفية، لكنّني ومع ذلك كنتُ أتركه يستخدم حمامي وكنتُ آخذ بعدها المناشف وأضعها في الغسّالة. فيما عدا ذلك كان يُحاول أن يكون مرتّباً في شقّتي، طبعاً على طريقته، صحيح، لكنّه كان يُحاولُ وهذا هو المهم. بعد استحمامه كان يفرك أرضَ الحمّام ويُخرج الشعرَ من البالوعة، الشيء الذي يمكن أن يكون أمراً تافهاً، لكنّ هذا كان يهسترني، أكره أن أجد كتل الشعر تلك (خاصّة إذا لم تكن من شعري!) تسدّ الحوض. بعدها كان يأخذ المناشف التي استخدمها ويطويها ويتركها فوق البيديه، كي أضعها أنا في الغسّالة عندما أقدر أنّ ذلك مناسب. بل وكان يأتي معه في المرّات الأولى بصابونه، لكنّني قلت له إنّه لم يكن ضروريّاً، وإنَّ باستطاعته أن يستخدم صابوني واالشامبو، (لكن إيّاه أن يلمس إسفنجتي) بكل ثقة.

كان رسميّاً جدّاً. عامّة ما كان يهتف لي قبل يوم، سائلاً ما إذا كان يناسبني أن يأتي، إذا لم يكن عندي مدعوّون أو شيء أفعله، نتفق بعدها على ساعة فيظهر في اليوم التالي بدقّة، كنّا نتحدّث قليلاً، ثمّ يدخل الحمّام. بعدها لا أعود أراه مدّة غير محدّدة. كان يتأخّر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أحياناً أسبوعاً في العودة وأخرى أسبوعين بل وحتى ثلاثة، في هذه الفترات المتقطعة أظنّ أنّه كان يستحمّ في الحمامات العامة.

وذات مرّة في بار شارع لا لون، قال لي إنّه يُحبّ الحمامات العامّة، تلك الأماكن الذي يرتادها للاستحمام الأجانب، زنوج أفريقيا الفرانكفونية والمغاربة، وإن كان يذهب أيضاً طلاب فقراء، لفتُّ انتباهَهُ، بلى أيضاً، قال هو، لكن الأجانب بشكل أكبر. ومرّة سألني، أتذكّر ذلك، عمّا إذا كنتُ قد ذهبت ذات مرّة إلى الحمامات العامّة المكسيكية. بالطبع لا، أبداً. تلك فعلاً حمامات عامّة، قال لي، فيها ساونا، حمامات تركية، حمامات بخار. هنا أيضاً، أجبته، ما يحدث هو أنّها أغلى. في المكسيك لا، قال هو، هناك رخيصة. الحقيقة أنّني لم أُفكّر قط بالحمامات العامّة في المكسيك، لكنّك بالتأكيد لم تكن تستحمّ هناك في حمام عامّ، قلتُ له. لا، قالَ، مرّة واحدة، لكن في الحقيقة، لا.

كان شخصاً عجيباً. يكتب على هوامش الكتب. من حسن الحظّ أنّني لم أعره قط كتاباً. لماذا؟ لأنّني لا أحبّ أن يكتبوا على كتبي. وكان يفعل شيئاً يصدم أكثر من الكتابة على الهوامش. ربما لن تصدّقوني، لكنّه كان يستحم مع الكتاب. أقسم لكم. كان يقرأ في الحمّام. تقولون كيف أعرف؟ شيء سهل جدّاً. جميع كتبه مبلّلة تقريباً. في البداية فكّرتُ أنّها نتيجة المطر. كان عوليس مشّاءً، نادراً ما يأخذ المترو. كان يجوب باريس من طرفها إلى طرفها سيراً على قدميه وحين كانت تُمطر كان يتبلّل كاملاً لأنّه لم يكن يتوقّف أبداً لينتظر أن تصحو. وهكذا كانت كتبه، على الأقل تلك التي يقرأونها أكثر، مطويّة قليلاً كما لو أنّها تقسّت وكنتُ أفكّر أنّ السبب هو المطر. انتبهت ذات مرّة إلى أنّه دخل إلى الحمّام ومعه كتاب جاف وأنّه حين خرج كان الكتاب مبلّلاً. في ذلك اليوم كان فضولي أقوى

من رصانتي. اقتربتُ منه وانتزعت منه الكتاب. لم تكن دفتا الكتاب وحدهما مبلّلتين بل وأيضاً بعض الصفحات والملاحظات على الهوامش نشّ حبرها بسبب الماء، بعضها ربّما كتبه تحت الماء، وعندها قلت له، يا الله، لا أستطيع أن أُصدّق. تقرأ تحت المرذاذ، هل جُنِنت؟ وردّ هو بأنّه لا يستطيع تفادي ذلك، ثمّ أنّه يقرأ الشعر فقط، لم أفهمه في تلك اللحظة، الآن نعم أفهمه، أعني أنّه كان يقرأ فقط صفحة أو صفحتين أو ثلاثاً، وليس كتاباً كاملاً وعندها رحتُ أضحكُ في الكنبة وتلويتُ من الضحك وهو أيضاً راح يضحك، كلانا ضحكَ، الآن لا أتذكّر كم من الوقت.

ميشيل بولتو، شارع طهران، باريس، كانون الثاني ١٩٧٨.

لا أعرف كيف حصل على هاتفي، لكنّه هتفَ، ذات ليلة، ما بعد الثانية عشر، إلى البيت. كان يسأل عن ميشيل بولتو. قلتُ له: أنا ميشيل بولتو. قال: أنا عوليس ليما. صَمْتٌ. قلتُ: حسن. قال: يسعدني أنّ أجدك في البيت، آمل ألا تكون نائماً. قلتُ: لا، لستُ نائماً. صَمْت. قال هو: بودي لو أراك. سألته: الآن؟ حسن، بلى، الآن، أستطيعُ أن أذهب إلى بيتك إن شئت. قلت أنا: أين أنت؟ وفهم هو شيئاً آخر فقال: أنا مكسيكي. تذكّرتُ عندها بشكل ضبابي أنّني تلقيت مجلّة من المكسيك. اسم عوليس ليما، على كلّ الأحوال لا أتذكّر أنّني سمعت به. سألتهُ: هل استمعت ذات مرّة إلى كوِستشن مارك؟ قال: لا، لم أستمع إليهم قط. قلتُ له أعتقد أنّهم مكسيكيون. قال: كوستشن مارك؟ من يكونون؟ قلتُ: فرقة روك بالطبع. قال: هل يعزفون مُقنَّعين؟ لا، طبعاً لا يعزفون مقنَّعين. لماذا سيفعلون ذلك؟ هل في المكسيك فرق روك يخرج أعضاؤها إلى الخشبة مُقَنّعين؟ قال: أحياناً. قلتُ له وَقْعٌ مُضحك،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لكن يمكن أن يكون مهمّاً. من أين تهتف لي؟ هل من فندقك؟ قال هو: لا، بل من الشارع. سألته هل تعرف كيف تصل إلى محطّة مترو ميرومِسنيل؟ قال هو: بلى، بَلى، ما من مشكلة. قلت له: عشرون دقيقة. قال: أنا ذاهب إلى هناك وأغلق. وبينما كنتُ أرتدي السترة الأمريكية فكّرت: لكنّني لا أعرف ما هو مظهره! ما مظهر الشعراء المكسيكيين؟ لا أعرف أيّاً منهم! فقط صورة أوكتافيو باث. لكنّ هذا، حدستُ، بالتأكيد لا يُشبه أوكتافيو باث. عندها فكّرت بفرقة كوِستشن مارك، بإليوت مورفي، وبشيءٍ قاله لي إليوت حين كنتُ في نيويورك: الجمجمة المكسيكية، النوع الذي كانوا يسمونه الجمجمة المكسيكية والتي رأيتها مرّة واحدة فقط في محل من شارع فرانكلين زاوية برودوي، في تشاين تاون. الجمجمة المكسيكية كان موسيقياً لكنّني لم أرَ سوى ظلٍّ وسألت إليوت، ما الذي كان عند ذلك الشخص ويريد أن يريه لي وإليوت قال: إنّه نوع من الديدان، له عينا دودة ويتكلّم مثل الديدان. كيف تتكلّم الديدان؟ بكلمات مضاعفة، قال إليوت. حسن. كان واضحاً. ولماذا يسمونه الجمجمة المكسيكية؟ سألتُ. لكنَّ أليوت ما عاد يسمعني أو أنّه كان يتكلّم مع آخر. وهكذا افترضت أن الرجل بالإضافة لكونه هزيلاً مثل عصا مكنسة يجب أن يكون مكسيكياً، أو يجب أن يقول للعالم إنّه مكسيكي، أو أنّه يجب أن يكون قد سافر إلى المكسيك في لحظة ما من حياته. لكنّني لم أرَ وجهَهُ، فقط رأيتُ ظلَّهُ يعبر المحلّ. ظلٌّ من دون مجازات، فارغ من الصور، ظلّ كان فقط ظلّاً وهو بهذا أكثر من كافٍ. هكذا ارتديتُ السترة الأمريكيّةَ السوداء، مشّطتُ شعري وخرجتُ إلى الشارع وأنا أُفكّر بالمجهول الذي هتفَ لي وبالجمجمة المكسيكية التي لمحتُها في نيويورك. من شارع طهران وحتى محطّة مترو ميرومِسنيل، مسافة بضع دقائق سيراً بخطوات

حثيثة، لكن يجب عبور جادة هاوسمان ثم اجتياز جادة بِرسيير وجزء من شارع لا بوتي،، هذه الشوارع التي هي في مثل تلك الساعات امتحانات، كما لو أنّهم يقصفونها بدءاً من الساعة العاشرة بأشعّة إكس، وعند ذلك فكّرتُ أنّني لو تواعدتُ مع المجهول في مترو مونسيو، وهو ما كان سيجعلني أسير الطريق المعاكس، من شارع طهران إلى شارع مونسيو، ثم جادة رويسديال ثم جادة فردوسي التي تخترق حديقة مونسيو، المليئة، في تلك الساعة بتجار ومتعاطي المخدرات وباعتها الصغار والشرطة الحزينة، الشرطة القادمة من عوالم أخرى، ظلماتٍ أخرى وخطوطِ عرضٍ تسبق ظهور ساحة جمهورية الدومنيكان، المكان المناسب للقاء الجمجمة المكسيكية. لكنّ خطّ سيري كان آخر وتبعته حتى درج شارع ميرومسنيل، الذي وجدته مقفراً ونظيفاً، أعترف أنّ درج المترو لم يبدُ لي قط موحياً وصعباً على الاختراق في آن معاً، كما كان وقتذاك. مظهره كان ذاته دائماً. نقطة انعطافه، اكتشفتها في الحال، كنتُ أشكّلها أنا نفسي وبإرادتي للعثور على المجهول في ساعات حرجة، الشيء الذي بعامّة لم أكن أفعله. أيضاً بالمناسبة لم أعتد التملّص من الدعوات التي تأتي بالمصادفة. كنت هناك وكان هذا هو المهم. لكن باستثناء موظف كان يقرأ كتاباً وكان بالتأكيد ينتظر أحداً لم يكن هناك أحد على الدرج. وهكذا بدأتُ أهبط عازماً على الانتظار خمسَ دقائق لأنصرف بعدها وأنسى الحادث كلّياً. عند أوّلِ منعطف وجدتُ عجوزاً ملفوفة بالخرق والكرتون، نائمة أو متظاهرة بالنوم. بعد أمتار وأنا أنظرُ إلى العجوز كمن ينظرُ إلى أفعى، رأيتُ شخصاً طويلَ وأسودَ الشعر، ربّما انطبقت ملامحه على ملامح مكسيكي، مع أنّ جهلي في هذا الجانب كان مطبقاً. توقّفت وراقبته. كان أقصر منّي ويرتدي سترة جلديّة بالية كفاية، ويحمل تحت إبطه أربعة أو خمسة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كتب. فجأة بدا أنّه يستيقظ وغرز نظره فيَّ. لا شكّ كان هو. اقترب منّي وصافحني. شادّاً شدّاً غريبا جدّاً على يدي. كما لو أنّه بمصافحته يُدخل مزيجاً من رموز الماسونية والعصابات المكسيكية، شدّةً على اليد كانت على كلّ حال مدغدغة وغريبة بنيوياً، كما لو أنّ اليدَ التي يُصافحها، يدي خالية من الجلد أو أنّها مجّرد غمد، غمدٍ موشوم. لكن لننسَ اليد. قلت له إنّه ليل جميل واقترحتُ أن نخرج لنمشي. يبدو وكأن الوقت ما زال صيفاً، قلتُ له. هو تبعني صامتاً. نظرتُ إلى كتبه، واحد منها كان لي، *فم أثير*، وآخر لكلود بِليو والبقيّة ربّما كانت لمؤلفين مكسيكيين، لم أسمع بذكرهم قط. سألته كم من الوقت مضى عليه في باريس. زمن طويل، قال. كانت لغته الفرنسية مؤسفة. اقترحتُ عليه أن نتكلّم بالإنكليزية فقبل. كانت خطواتنا طويلة وسريعة، كما لو أنّنا نتوجّه والوقتُ ضيق إلى موعدٍ مهمّ. لستُ شخصاً يُحبّ المشي. ومع ذلك سرنا في تلك الليلة دون توقّف، بكلّ سرعة من فوبورغ سان هونوريهْ وحتى شارع بوازي دانجلاس ومن هناك إلى الشانزلزيه، حيث عدنا لننعطف نحو اليمين حتى جادة تشرشل ومن هناك انعطفنا يساراً مخلفين وراءنا ظل القصر الكبير الذي لا يُخطَأُ به، مباشرة إلى جسر ألكساندر الثالث، دون أن نخفف من سرعة خطونا، بينما كان المكسيكي يَفْرطُ، بإنكليزية وقتها لم تكن مفهومة، قصّةً جهدت في فهمها، قصّة شعراء ضائعين ومجلاتٍ ضائعة وأعمالٍ لا أحد كان يعرف عن وجودها كلمةً واحدة، وسط منظر قد يكون من كاليفورنيا، أو أريزونا أو منطقة من مناطق المكسيك الحدودية مع هاتين الولايتين، منطقة متَخَيَّلة أو واقعية، لكنّها ممحوّة بشمسٍ وفي زمن غابر، منسيّ أو أنّها على الأقل هنا في باريس وفي عقد السبعينات ما عاد لها أدنى أهمّية. قصّة خارج أسوار الحضارة، قلتُ له. قال نعم، نَعَم،

ظاهريّاً نعم، نَعم، نعم. وعندها قلتُ له: هكذا إذن لم تسمع قط بفرقة كوِستشين مارك؟ فقال لا، لم أسمع لها قط. وعندها قلتُ له إنّ عليه أن يسمعهم ذات يوم فقد كانوا رائعين، لكنّني في الواقع قلتُ هذا لأنّني لم أكن أعرف ماذا سأقول.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٨

أماديو سالباتييرّا، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر التفتيش، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦.

قلت لهما، يا فَتَيَان، انتهى مِثكال «المنتحرون»، هذا شيء لا اعتراض عليه، ولا جدل فيه، ما رأيكما أن ينزل واحد منكما ويذهب ليشتري لنا زجاجة ساوثا، وقال واحد منهما، المكسيكيّ: أنا أذهب، يا أماديو، وكان ماضياً إلى المخرج حين أوقفتُه وقلتُ له لحظة، نسيت النقود، يا رفيقي، وهو نظر إليّ وقال: إياك أن يخطر ببالك، يا أماديو، هذه نشتريها نحن، ما أظرفهما من فَتَيَيْن. أعطيته بعض التوجيهات قبل أن يذهب، هذا صحيح: قلت له أن يذهبَ عبر شارع فنزويلا حتى شارع البرازيل وهناك ينعطف نحو اليمين ويصعدُ حتى شارع هندوراس، حتى ساحة سانتا كاتارينا، حيث عليه أن ينعطف إلى اليسار حتى شارع تشيلي، وبعدها مرّة أخرى نحو اليمين ويصعد كمن يذهب إلى سوق لاغوارنيّا وهناك، على الرصيف الأيسر سيجد بار لا غِرّرِنْسِ، بجانب حانة بونْ تونو، لا يوجد مُبرّر كي يضيع وعليه أن يقول في لا غِرِّرِنسِ إنّني أنا من أرسله، الكاتب أماديو سالباتييرّا، وألا يتأخّر. تابعت بعدها تقليب الأوراق ونهض الفتى الآخرُ عن مقعده وراح يفحص مكتبتي. الحقيقة أنّني لم أكن أراه، كنتُ أسمعه، يخطو خطوة، يُخرجُ كتاباً، يعيدُهُ، أنا كنتُ

أسمعُ الصوت الذي كان يُحدثه إصبعه الذي كان يمرّ به على متن كتبي! لكنّني لم أكن أراه. كنتُ قد عدتُ لأجلس، عدتُ لأُعيد النقود إلى المحفظة وأفحص أوراقيَ الصفراء بيدين مرتجفتين، في عمر معيّن لا يمكن أن يشرب المرء بكلّ تلك السعادة، كان رأسي منحنياً وعيناي غائمتين قليلاً والفتى التشيلي يتحرّك في مكتبتي، بصمتٍ وأنا فقط أسمع صوت سبّابتِهِ أو خنصرِهِ، يا له من فتى بارِع، يجوب ظهر مجلداتي كنيزكٍ، بإصبعه، زومبي من لحم وجلد من لحم وكرتون، صوت محبّب للسمع ومناسب للنوم، وهو ما كان يجب أن يحدث، لأنّني أغمضتُ عينيّ فجأة (أو ربّما كانتا مغمضتين من قبل) ورأيتُ ساحة سانتو دومينغو، ببواباتها، شارع فنزويلا، قصر التفتيش، حانة لاس دوس إستريّاس في شارع لورِتو، مقهى الإشبيلية في خوستو سييرّا، حانة مِي أوفيثينا، في ميسيونِروس بالقرب من بّينو سوارِث، حيث لم يكونوا يسمحون بالدخول للعسكر ولا للكلاب ولا للنساء، باستثناء واحدة، الوحيدة التي كانت تدخل فعلاً؛ ورأيتُ تلك المرأة تمشي في تلك الشوارع مرّةً أخرى، في لورِنتو، في سولِداد، في كورّيو مايور، ، في مونِدا، رأيتُها تعبرُ ثوكالو، آه، يا له من حلم، امرأة في العشرين ونيّف من عمرها في عقد العشرينات تعبر ثوكالو بسرعة من يذهب متأخّراً إلى موعد عاشقين، أو كما لو أنّها تتوجّه إلى غرفتها الصغيرة في واحد من حوانيت المركز تلك، امرأة ترتدي بحشمة ثياباً رخيصة لكّنها جميلة، سوداء وزبرجدية الشعر، قويّة الظهر، ليست طويلة الساقين لكنّ بملاحةٍ لا مثيل لها، بملاحة النساء الشابات، سواء كنَّ نحيلات أو بدينات، أو حسناوات التشكيل، بضّة الساقين واثقة الخطوِ، تنتعلُ حذاء بلا كعب أو بكعب خفيف، رخيص، لكنّه جميل ومريح على الأخمص، صُنِعَ كما لو عن قصد للمشي السريع، للوصول إلى موعدٍ أو عملٍ في الوقت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المناسب، على الرغم من أنّني أعرف أنّها ليست ذاهبة إلى أيّ موعد ولا هُم ينتظرونها في أيٍّ عمل. إلى أين تتوجّه إذن؟ أم أنّها لا تتوجّه إلى أيّ مكان وهذه هي طريقتها المعتادة في المشي. الآن عبرت المرأة ثوكالو وأخذت شارعَ مونتِ دِ بييداد حتى تاكوبا، حيث الزحامُ أكبر ولا يمكن المشي بمثل تلك السرعة وتمضي في تاكوبا مُبطئة، وفجأة يُغَيِّبُها الزحام عنّي، لكّنها تعود وتظهر، هي ذي هناك تسير باتجاه ألامِدا أو يمكن أن تتوقّف قبل ذلك في البريد إذ أُمَيِّزُ الآن في يديها أوراقاً، ربّما رسائل، لكنّها لا تدخل البريدَ، تعبرُ حتى ألامِدا وتتوقّفُ، يبدو أنّها تتوقّف لتتنفّس، وتتابع بعدها سيرها بالإيقاع ذاته في الحدائق، تحت الأشجار، هكذا وكما أنّه يوجد نساء يَرَيْنَ المستقبل، أرى أنا الماضي، أرى ماضي المكسيك، وأرى ظهرَ هذه المرأة التي تبتعدُ عن حلمي وأقول لها، إلى أين تذهبين، يا ثِساريا؟ إلى أين تذهبين، يا ثِساريا تيناخِرو؟

فِليبّ مولِر، بار سنتريكو، شارع تاليرز، برشلونة، كانون الثاني ١٩٧٨.

بالنسبة إليَّ كان العامُ ١٩٧٧ عاماً بدأتُ أعيش فيه مع رفيقتي. كلانا كان قد أكمل العشرين توّاً. وجدنا شقّة في شارع تاليرز وذهبنا لنعيش هناك. أنا كنتُ أُنقِّحُ لدار نشر وهي كانت تملك منحة في مركز الدراسات حيث حصلت أمُّ أرتورو بِلانو على منحتها. عملياً أمّ أرتورو هي التي قدّمتنا. العام ١٩٧٧ هو أيضاً العام الذي سافرنا فيه إلى باريس. نزلنا في غرفة عوليس ليما. حسن، لم يكن عوليس في وضع حسن جدّاً كما يمكن أن نقول. كانت الغرفة تبدو مزبلة. أصلحنا بيني وبين رفيقتي قليلاً كلّ تلك الفوضى، مهما كنسنا وفركنا كان يبقى شيء من المحال إزالته. في الليل (كانت رفيقتي تنام في

السرير وأنا وعوليس على الأرض)، كان هناك شيء لامعٌ في السقف المستعار. سطوع ينبثق من النافذة الوحيدة - المتسخةِ إلى حدّ أنّها لا يمكن أن تتسخ أكثر - وينتشر على الجدران والسقف ما يشبِهُ موجة من الطحالب. عندما عدنا إلى برشلونة اكتشفنا أنّنا مُصابان بالجرب. الوحيدُ الذي يمكن أن يكون قد أصابنا بعدواه هو عوليس. كيف لم يُخبرنا؟ تذمّرتْ رفيقتي. ربّما لم يكن يعرفُ، قلتُ أنا. لكن عندها رحت أحشرُ رأسي في تلك الأيام من عام ١٩٧٧ في باريس ورأيتُ عوليس يحكّ نفسَهُ ويشرب النبيذ من الزجاجة مباشرة ويحكُّ، هذه الصورة أقنعتني بأنّ رفيقتي كانت على حقّ. كان يعرف ولم يقل لنا. حنقتُ عليه لفترة بسبب الجرب، لكنّنا نسيناه بعد ذلك بل وصرنا نضحك. كانت مشكلتنا هي أن نشفى. لم يكن عندنا حمام في شقّتنا وكان علينا أن نستحمّ مرّةً على الأقل في اليوم بصابون الكبريت وندهنَ بعدها أنفسنا بمرهمِ الساناتين. هكذا كان عام ١٩٧٧ إضافة إلى أنّه عام جيّد، عاماً اضطررت فيه للقيام بزياراتٍ مستمرّة إلى بيوتِ أصدقاء عندهم حمام لمدة شهر أو شهر ونصف. أحد تلك البيوت كان بيت أرتورو بِلانو، لم يكن عنده حمّام وحسب بل وحوض هائل بأرجل، يتسع براحة لثلاثة أشخاص. المسألة أنّ أرتورو لم يكن يعيشُ وحده، بل معه سبعة أو ثمانية أشخاص آخرين، نوع من الكومونة الحضرية وبدا لبعضهم من غير اللائق أن نستحمّ أنا ورفيقتي في بيتهم. حسن، على كلّ الأحوال لم نكن نستحمّ مرّاتٍ كثيرة. العام ١٩٧٧ هو العام الذي حصلَ فيه أرتورو بِلانو على عمل كحارس ليلي في مخيّم. ذهبتُ مرّة لأزوره. كانوا يسمونه الشريف وكان هذا يُضحِكُهُ. أعتقد أنّ كلينا انفصل عن الواقعية الأحشائية باتفاق مشترك. أصدرنا مجلّة في برشلونة بإمكانياتٍ قليلة جدّاً وتوزيعٍ معدوم تقريباً وكتبنا رسالة نُعلنُ فيها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

انسحابنا من الواقعيّة الأحشائية، لم نجحد بشيء، لم نشنّع برفاقنا في المكسيك، فقط قلنا إنّنا ما عدنا نشكّل جزءاً من المجموعة. في الحقيقة كنّا مشغولين جدّاً، نعمل ونحاول أن نعيش كفافنا.

ماري واتسون، سوزرلاند بالاس، لندن، أيار ١٩٧٨.

سافرتُ في صيف ١٩٧٧ إلى فرنسا مع صديقي هوغ ماركس. كنتُ وقتها أدرسُ الآداب في أكسفورد وأعيش من منحةِ الطالب الزهيدة. كان هو يقبض من التأمين الاجتماعي. لم نكن عشيقين، فقط صديقين، الحقيقة أنّ أحدَ دوافعِ خروجنا معاً من لندن في ذلك الصيف هو العلاقاتُ العاطفية التي كان يُعاني منها كلٌّ منا بمفرده ويقينُ أنَّ كلّ ذلك لا يخطر بالبال بيننا. كان قد تركني فتىً من الجامعة، واحدٌ كان دائماً محاطاً بالبنات وكنتُ أعتقد أنّني عاشقة له.

نفدت النقود منّا في باريس، لكنّ الرغبةَ بأن نتابعَ السفرَ لم تنفد، وهكذا خرجنا من المدينة كيفما استطعنا وبدأنا توجُّهَنا نحو الجنوب بالأوتوستوب. أخذتنا بالقرب من أورليانز فان فولكسفاغن. كان السائق ألمانيّاً واسمه هانز. كان مثلنا مسافراً إلى الجنوب برفقة زوجته، وهي فرنسية تُدعى مونيك، وابنِهما ابن السنوات القليلة. كان شعرُ هانز طويلاً وذقنه وفيرة، له مظهر كمظهر راسبوتين، لكنّه كان أشقرَ ودار حول العالم.

بعدها بقليل أخذنا من ليسترْ ستيف، يعمل في روضة أطفال ثم وبعد بضعة كيلومترات أخذنا جون اللندني، كان في البطالة مثل هوغ. كان الفان كبيراً ووسعنا كلّنا، ثم إنّني لاحظتُ على الفور أنّ هانز يحب أن يكون مُرافقاً، برفقةِ ناس يُكلّمهم ويستطيع أن يحكي لهم قصصه. مونيك بالمقابل، لم يلاحظ عليها أنّها كانت مرتاحةً

كثيراً برفقة كلّ أولئك الأجانب، لكنّها كانت تفعل ما يقوله لها هانز ثم إنّه كان عليها أن تعتني بالطفل.

قبل أن نصل إلى كاركاسون قال لنا هانز إنّ عنده مسألة في بلدة روسيون، وقال لنا إن كنّا نريد فإنّه يستطيع أن يؤمّن لنا جميعاً عملاً. بدا هذا لي ولِهوغ شيئاً رائعاً وقلنا له على الفور بلى. سأل سيف وجون ما هو العمل. قال لنا هانز إنّ علينا أن نقطف العنب في أراض تعود إلى عمٍّ لمونيك. وإنّه عندما ننتهي من قطاف عنب أراضي العمّ نستطيع أن نُتابع طريقنا ومعنا في جيوبنا ما يكفي من الفرنكات، لأنّ طعامنا ونومنا سيكونان مجّانين ما دمنا نعمل. عندما انتهى هانز من كلامه بدا لنا جميعاً أنّه عقد جيّد وخرجنا من الطريق الرئيسي وبدأنا نسير في سلسلة من القرى الصغرى، المحاطة جميعها بكروم العنب عبر طرق ترابية، مكان، قلتُ لهوغ، يُشبه المتاهة، مكان، وهذا ما لم أقله لأحد، لو كانت الظروف مختلفة لخفت أو تراجعت، مثلاً لو كنتُ وحدي ولم نكن نذهب مع هوغ وأيضاً مع ستيف وجون. لكن من حسن الحظّ أنّي لم أكن وحدي، كنتُ مع أصدقائي. هوغ مثل أخٍ لي. وستيف، واستلطفت ستيف منذ اللحظة الأولى. جون وهانز كانا شيئاً آخر، كان جون نوعاً من الزومبي ولم يكن يعجبني كثيراً. وهانز كان قوّة خّالصة، مجنونَ عظمة، لكن يمكن الاعتماد عليه أو هذا ما كنتُ أظنّه وقتذاك.

عندما وصلنا إلى حيث عم مونيك، وجدنا أنّ العمل لن يبدأ قبل شهر. جمعنا هانز في الفان، كانت الساعة تقارب الثانية عشرة ليلاً، ووضّحَ لنا الوضع. الأخبار ليست حسنة، قال، لكنه يملك حلّاً للطوارئ. لن ننفصل، قال، سنذهب إلى إسبانيا، لنعمل في قطفِ البرتقال. وإذا لم يُعطِ هذا نتيجةً سننتظر، لمن في إسبانيا، كلّ شيء أرخص. قلنا له إنه لا يوجد معنا نقود، ولا يكاد يبقى معنا ما يكفي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لنأكل، مستحيل التفكير بأن نتحمّل شهراً، معنا كحدّ أقصى ما يكفي لثلاثةِ أيّام إجازة. عندها قال لنا هانز، علينا ألا ننشغل من ناحية النقود، فهو يأخذُ على عاتقه النفقاتِ حتى نعمل. مقابل ماذا؟ سأل جونز، لكنّ هانز لم يُجبه، كان يتظاهر أحياناً بأنّه لا يفهم الإنكليزية. بالنسبة للبقيّة الحقيقة أنّه بدا لنا اقتراحاً نزل علينا من السماء، قلنا له: موافقون، كانت الأيّام الأولى من آب وما من أحدٍ يرغبُ بأن يعود بهذه السرعة إلى إنكلترا.

في تلك الليلة نمنا في بيتٍ لعمّ مونيك، وهو بيت غير مسكون (لم يكن في القرية أكثر من ثلاثين بيتاً ونصفها، بحسب ما قاله لنا هانز، كان له) وفي صباحِ اليوم التالي انطلقنا باتجاه الجنوب. وقبل أن نصل بِّرينيان صعدت معنا مسافرةُ أوتوستوب أخرى. كانت فتاة شقراء، بدينة قليلاً، تُدعى إريكا، من باريس، وبعد دردشة لدقائقَ قليلة قرّرت أن تشكّل جزءاً من مجموعتنا، أي أن تتابع معنا إلى بلنسية، نعمل شهراً في جنيِ البرتقال لنعود بعدها ونصعد إلى تلك القرية الضائعة في روسيّون ونقطف العنب معنا. أيضاً كانت مثلنا لا يفيضُ عنها المال ولذلك كان طعامها على حساب الألماني. بوصول إريكا، استنفدت السيارةُ قدرتها على الاستيعاب وأبلغنا هانز أنّه لن يعود ليتوقّف لأي مسافر. بقينا النهار كله نسير نحو الجنوب. كانت مجموعتنا مرحة، لكن بعد كلّ تلك الساعات من السفر، كنّا نرغب أكثر من أيّ شيء آخر بأن نستحمَّ ونتناول طعاماً ساخناً وننام تسعَ أو عشر ساعاتٍ متواصلة. الوحيد الذي حافظ على طاقته التي كانت له منذُ البداية هو هانز، الذي لم يكن يتوقّف عن الكلام ورواية القصص التي جرت معه أو مع ناسٍ يعرفهم. أسوأ مكان في الفان كان المقعد الأمامي، أي المقعد الذي بجانب هانز، وكنّا نتناوب على إشغاله. عندما جاء دوري تكلّمنا عن برلين، المدينة التي عشتُ فيها من

الثامنة عشرة وحتى التاسعة عشرة من عمري. عمليّاً كنتُ المُسافِرةَ الوحيدةَ التي صعدت وتعرف قليلاً من الألمانية وكان هانز يستغلُّ ذلك لكي يتكلّم بلغته. لكنّنا لم نتكلّم عن الأدب الألماني، الموضوع الذي كان يسحرني، بل عن السياسةِ، الشيء الذي ينتهي دائماً بإضجاري.

عندما اجتزنا الحدودَ أخذ ستيف مكاني وذهبتُ أنا إلى أحد المقاعد الخلفية من الفان، حيث كان ينام الصغيرُ أودو. ومن هناك بقيتُ أسمع ثرثرةَ هانز، عن خططه لتغيير العالم. أعتقدُ أنّه ما من مجهول تصرّف معي بمثل كرمِهِ ووقع في نفسي موقعاً سيِّئاً.

كان هانز لا يُحْتَمَل، إضافة إلى أنّه سائق سيّئ جدّاً، فقد ضعنا مرّتين. بقينا ساعات تائهين في جبل، دون أن نعرف كيف سنعود إلى الطريق الذي يقود إلى برشلونة. عندما استطعنا أخيراً الوصول إلى هذه المدينة أصرَّ على أن نذهب لنرى العائلة المقدّسة. في تلك الساعة كلّنا كنّا جائعين وليس لدينا رغبة بتأمّل كاتدرائياتٍ، مهما كانت جميلة، لكن هانز هو الذي كان يأمر وبعد أن درنا دورات لا تُحصى في المدينة، وصلنا أخيراً إلى العائلة المقدّسة. بدت لنا جميعاً جميلة (باستثناء جون، الخالي من كلّ إحساس بأي ظاهرة فنّية تقريباً)، على الرغم من أنّنا كنّا سنُفَضّل أن ندخلَ مطعماً جيّداً ونأكل شيئاً. ومع ذلك قال هانز إنّ الأكثر أماناً هو أن نأكل الفاكهة وتركنا هناك، جالسين على مقعد في الساحة، ننظر إلى العائلة المقدّسة، وذهب مع صغيره ومونيك بحثاً عن حانوت فواكه. بعد نصف ساعة من عدم ظهوره وبينما نحن نتأمّلُ غروبَ برشلونة الورديَّ قال هوغ إن الاحتمال الأكبر هو أنّهم ضاعوا. قالت إريكا إن من المحتمل أيضاً أن يكونوا قد هجرونا، أمام كنيسة، أضافت، مثل الأيتام. جون الذي كان قليلَ الكلام ولا يقول بشكل عامّ غير الترهات، قال إنّ من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المحتمل أن يكون هانز ومونيك في هذه اللحظة الرائعة يأكلان طعاماً ساخنا في مطعم جيّد. أنا وستيف لم نقل شيئاً. لكنّنا فكّرنا بكلّ تلك الاحتمالات، وأنا أعتقد أنّ الاحتمال الذي قالهً جون كان أكثر قرباً من الحقيقة.

قرابة التاسعة ليلاً حين بدأنا نيأس رأينا الفان يظهر. أعطى هانز ومونيك لكلّ منا تفاحةً وموزةً وبرتقالة وأعلمنا هانز بأنّه كان يتكلّم مع بعض أبناء البلد وبأن الأفضل برأيه، أن نُماطل حالياً بحملتنا المفترضة على بلنسية. قال، إذا لم تخنّي ذاكرتي، في ضواحي برشلونة توجدُ مخيمات سعرها مقبول كفاية. نستطيع بمبلغ يوميٍّ زهيد أن نرتاح بضعةَ أيّام، نسبح ونتشمّسُ. وكلّ كلام غير ذلك زائد، كنّا متفقين معه ورجوناه أن نسافر فوراً. أتذكّرُ، مونيك لم تفتحْ فمَها في أيّ لحظة.

سنتأخّر ثلاث ساعات في العثور على مخرجِ المدينة. حكى لنا هانز، خلال هذا الوقت، أنّه بينما كان يؤدّي الخدمةَ العسكرية في معسكرٍ قريبٍ من لونِورغ فقد السيطرة على دبابتهِ وأوشكَ رؤساؤه أن يشكلوا له مجلسَ حرب. قيادة الدبابة، قال، أصعبُ بكثير من قيادة فان، أيّها الفتية، أؤكّد لكم ذلك.

أخيراً خرجنا من المدينة ودخلنا في الطريق السريع المكونِ من أربع مسارب. كانت المخيماتُ مجمَّعة في منطقة واحدة، قال هانز، أَعلِموني حين ترونها. كان الطريق السريع مُظلماً والشيء الوحيد الذي كان يُشاهد على جانبي الطريق هي المعامل والأراضي القفراء وخلفها بعض الأبنية الضخمة جدّاً وسيّئة الإضاءة، كما لو أنّها وجدت هناك بالمصادفة وتُقَدِّم مظهرَ التدهورِ المُبكّر. ومع ذلك دخلنا بعد قليلٍ في غابةٍ ورأينا أوّلَ مخيّم.

لكن ما من واحدٍ منها أعجبَ هانز، الذي كان من سيدفعُ

وهكذا تابعنا طريقنا في الغابة حتى رأينا لافتةً، عليها نجمة زرقاء مستوحدة، بارزةً فوق أغصان الصنوبر. لا أتذكّرُ كم كانت الساعة، فقط أعرف أنّ الوقت كان متأخِّراً، وأنّ الجميعَ، بما فينا الصغير أودو، كان مستيقظاً حين كبحَ هانز السيّارة أمام الحاجز الذي يمنع المرور. رأينا بعدها شخصاً، ظلَّ شخصٍ يرفع الحاجز وهانز يخرج من السيارة ويدخلُ يتبعه الذي فتحَ لنا المدخل، إلى مكتب استقبال المُخيّم. خرج بعدها بقليل وكلّمنا من نافذة السائق. كان الخبر أنّ المُخيَّم لا يؤجّر خياماً. أجرينا على الفور بعضَ الحسابات، إريكا، ستيف وجون لم يكن معهم خيام. هوغ وأنا نعم. قرّرنا أن ننام أنا وإريكا في خيمة وستيف وجون وهوغ في أخرى، أمّا مونيك والصغير فيناامان في الفان. عاد بعدها هانز ليدخل مكتبَ الاستقبال، وقّع بعضَ الأوراق وجلس خلف مقوده. ركبَ العنصرُ الذي فتح لنا درّاجةً صغيرةً وقادنا عبر شوارع شبحيّة، محاطةٍ بالمقطورات، إلى زاوية من المخيّم. كنّا مُتعبين إلى حدّ أنّ الجميع استلقينا لننام على الفور، حتى أننا لم نغتسل.

أمضينا نهارَ اليومِ التالي على الشاطئ وذهبنا ليلاً بعد تناول العشاء لنتناول بعض المشروبات في شرفة بار المخيّم. حين وصلتُ كان هوغ وستيف يتكلّمان مع الحارس الليلي، الذي رأيناهُ في الليلة السابقة. جلستُ إلى جانب مونيك وإريكا وتفرّغت لتأمّل الجوّ. كان البار، الانعكاسُ الأمين للمخيّم، شبهَ خالٍ. ثلاث شجرات صنوبر تنبثق من بين إسمنت الشرفة وفي بعض الأماكن رفعت جذورُ الأشجار الأرضيةَ الإسمنتية كما لو أنّها سجادة. فكّرتُ للحظة: ماذا كنتُ أفعل حقيقة في ذلك المكان. لا شيء يبدو له معنى. في لحظة من الليل راح ستيف والحارس يقرأان شعراً. من أينَ أخرجَ ستيف تلك القصائد؟ في لحظة أخرى انضمَّ إلينا بعضُ الألمان دعونا لدورة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شرب، وقلّدَ واحد منهم تماماً البطّة دونالد. أتذكّرُ تقريباً أنّني رأيتُ في آخرِ الليل هانز يتناقش مع الحارس الليلي. كان هانز يتكلّم بالإسبانية ويبدو في كلّ مرّة أكثر انفعالاً. بقيتُ برهة أنظر إليهما. بدا لي في لحظة معيّنة أنّ هانز راحَ يبكي. بالمقابل بدا الحارس رصيناً، على الأقل لم يكن يُحرّك ذراعيهِ ولا يقوم بحركات مبالَغٍ بها.

في اليوم التالي، وأنا لم أتعافَ بعدُ من سكرة الليلة الفائتة، رأيتُ بينما أنا أسبح الحارسَ الليليّ. لم يكن على الشطّ أحدٌ، هو فقط؟ كان جالساً على الرمل مرتدياً ثيابه كاملة ويقرأ صحيفة. عندما خرجتُ من الماء حيّيته. هو رفع رأسه وردّ لي التحيّة. كان شاحباً جدّاً وكان شَعرُهُ منكوشاً، كما لو أنّه استيقظ لتوّه. في تلك الليلة وليس عندنا ما نفعله، عدنا لنجتمع في بار المُخيّم. راح جون يختار أغاني من صندوق الموسيقى. إريكا وستيف جلسا وحدهما إلى طاولة منفردة. ألمانُ الليلة الماضية كانوا قد غادروا ولم يكن في الشرفة غيرنا. بعدها جاء الحارس. في الرابعة صباحاً لم يبق غيري أنا والحارس وهوغ. بعدها ذهب هوغ وذهبنا أنا والحارس لننام معاً. كان المحرس الذي يقضي فيه الحارسُ ليلَهُ من الصغر، بحيث أنّ شخصاً ليس بطفلٍ أو قزمٍ لا يستطيع أن يبقى ممدّدا في داخله. حاولنا أن نُمارس الحبَّ راكعين على ركبنا، لكنّه كان مزعجاً أكثر من اللازم. بعدها حاولنا أن نمارسه جالسين على كرسيّ. أخيراً انتهينا إلى الضحك دون أن نتجامع. عندما طلع الفجر رافقني حتى خيمتي وذهب بعدها. سألتُه أين يعيش. في برشلونة، قال. يجب أن نذهب معاً إلى برشلونة، قلتُ له.

وصل الحارس في اليوم التالي باكراً جدّاً إلى المخيّم، قبل أن تبدأ مناوبته بكثير وبقينا معاً على الشطّ وغادرنا ماشيين إلى كاستيدِفِلز. عدنا ليلاً لنجتمع جميعاً في شرفة البار على الرغم من أنّ

البارَ أغلق في تلك الليلة باكراً، ربّما قبل العاشرة. بدونا لاجئي حرب. كان هانز قد خرج بالفان ليشتري خبزاً ومونيك أعدّت بعد ذلك شطائرَ نقانق للجميع. اشترينا البيرةَ من البار قبل أن يُغلق. جمعنا هانز جميعاً حول طاولته، وقال إنّنا سنغادر خلال يومين أو ثلاثة إلى بلنسية. أفعل ما باستطاعتي للمجموعة، قال هانز. هذا المخيّم يُحتَضَر، أضاف وهو ينظر إلى الحارس في عينيه. في تلك الليلة لم يكن هناك صندوق موسيقى، لذلك أحضر هانز ومونيك مذياعاً ومسجلة وبقينا برهة نسمع موسيقييهم المُفَضَّلين. عاد بعدها هانز والحارس ليشتبكا في نقاش. كانا يتكلّمان بالإسبانية، لكنّ هانز كان يُترجم لي من حين لآخر كلماته ويضيف تعليقات حول فهم الحارس للعالم. بدا لي الحديث مضجراً فتركتهما لوحدهما. ومع ذلك عدتُ عندما كنتُ أرقص مع هوغ لأنظرَ إليهما وكان هانز كما في الليلة الماضية، على وشك البكاء.

عمَّ تعتقدين أنّهما يتكلّمان؟ سألني هوغ. عن ترّهات، دون شكّ، قلتُ أنا. هذان الاثنان يكرهان بعضهما بعضاً، قال هوغ. لا يكادان يعرف الواحد منهما الآخر، قلتُ أنا، لكنّني بقيت بعد ذلك أُفكّر فيما قاله لي هوغ وخلصتُ إلى أنّه كان على حقّ.

في صباح اليوم التالي جاء الحارس قبل الساعة التاسعة ليبحث عنّي في خيمتي وتوجّهنا في القطار من كاستِيدِفلِز إلى سيتجِسْ. أمضينا النهارَ كلّه في المدينة. قلتُ له، بينما كنّا نأكل شطائرَ جبنٍ على الشاطئ إنّني كتبتُ في العام الماضي رسالة إلى غراهام غرين. بدا أنّه دهِش. لماذا لغراهام غرين؟ سألني. يعجبني غراهام غرين، قلتُ. ما كنتُ لأصدّق ذلك أبداً، قال هو، هناك الكثير مما ما زال عليّ أن أتعلّمه. ألا يُعجبكَ غراهام غرين؟ سألتُهَ. لم أقرأ كتباً كثيرةً له، قال. ماذا قلتِ له في الرسالة؟ حكيت له فيها عن حياتي وعن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أكسفورد، قلتُ له. لم أقرأ رواياتٍ كثيرةً، قال الحارسُ، لكنّني نعم قرأت شعراً كثيراً. سألني بعدها عمّا إذا ردّ غراهام غرين على رسالتي. نعم، قلتُ له، كتبَ لي ردّاً قصيراً لكنّه لطيف جدّاً. هنا في سيتجِسْ، قال الحارسُ، يعيش روائيّ من بلدي، جئتُ مرّةً لزيارته. أيّ روائي؟ سألتُهُ، على الرغم من أنّه كان باستطاعتي أن أوَفِّرَ على نفسي السؤالَ، لأنّني بالكاد قرأتُ لأحد الروائيين الأمريكيين اللاتينيين، قال الحارس اسماً نسيتُهُ وبعدها قال إنّ روائيَّهُ، مثله مثل غراهام غرين. أظهر لطفاً كبيراً معه. وأنت لماذا جئت لزيارته؟ سألته. لا أدري وعملياً لم أكد أفتح فمي خلال وجودي معه، قالَ. قضيتَ الوقتَ كلَّهُ دون أن تقولَ شيئاً؟ سألته. لم آتِ وحدي، قال الحارسُ، بل جئت مع صديق، هو تكلَّم. لكن أنت ألم تقلْ شيئاً لروائيِّكَ، ألم تسأله أيّ سؤال؟ لا، قال الحارسُ، الرجل كان يبدو مكتئباً ومريضاً قليلاً ولم أبغِ إزعاجه. لا أستطيع أن أصدِّق أنّكَ لم تسأله شيئاً، قلتُ. هو وجّه إليَّ سؤالاً، قال الحارسُ وهو ينظرُ إليَّ بفضول. ما السؤالُ؟ سألته. سألني عمّا إذا كنتُ قد رأيتُ فيلماً صنعوه في المكسيك، قائماً على رواية له، وبالتالي لم يكن يعرف إلى أيّ حدٍّ كان الفيلم مخلصاً للنص، قال الحارسُ. وماذا قلتَ له؟ سألتُهُ. لم أقل له إنّني لم اقرأ الرواية. قال الحارسُ. لكنّك فعلاً قلت له إنّك رأيتَ الفيلم، قلتُ. وأنتِ ماذا تظنين؟ سأل الحارسُ. وعندها تصوّرته جالساً أمام روائي له وجه غراهام غرين وفكّرت أنّه بقي صامتاً. لم تقله له، قلتُ. بلى قلتُهُ له، قال الحارس.

بعد يومين رفعنا الخيمتين وذهبنا إلى بلنسية. عندما ودّعتُ الحارسَ فكّرتُ أنّها ستكون المرّة الأخيرة التي سأراه فيها. بينما نحن مسافرون، وحين جاء دوري بالجلوس بجانبِ هانز ومحادثته، سألتُهُ عن الدافع لنقاشاته مع الحارس. لم يقع منك وقعاً حسناً،

قلتُ له، لماذا؟ بقي هانز صامتاً برهةً، وهو أمر غير معهود عنده، مُفَكّراً بالجواب الذي سيعطيه لي. بعدها قال لي فقط إنّه لا يعرف.

مكثنا أسبوعاً في بلنسية، ندورُ من مكان إلى آخر، ننامُ في الفان، نبحثُ عن عمل في بيارات البرتقال، لكنّنا لم نعثرْ على شيء. مرضَ الصغيرُ أودو وأخذناه إلى المستشفى. فقط كان قد أصيب ببردية وارتفعت حرارته قليلاً، الأمر الذي كانت الظروف التي كنّا نعيشها تُفاقمه. ولذلك ساء مزاجُ مونيك ورأيتُها لأوّل مرّة منزعجة من هانز. تكلّمنا ذات ليلة حول أن نترك الفان ليتابع هانز وعائلته وحدهم وبسلام، لكنّ هذا قال إنّه لا يستطيع أن يسمح لنا أن نتابع وحدنا ونحن تفهّمنا أنّه كان على حقّ. المشكلة كما هي دائماً كانت النقود.

عندما عدنا إلى كاستِلدِفِلدز كانت تمطر قُرَباً وكان المخيّم غارقاً. كانت الثانية عشرة ليلاً. عرف الحارس الفان وخرج ليستقبلنا. كنتُ جالسة في أحد المقاعدِ الخلفيّة ورأيتُ كيف كان ينظر باحثاً عنّي، سأل بعدها هانز، أين هي ماري. قال بعدها إنّنا إذا أردنا أن ننصب الخيمتين فمن المُحتَمَل جدّاً أن يغرقهما الماء وهكذا قادنا إلى نوع من الكوخ المبنيّ من الخشب واللبن على الجانب الآخر من المُخيّم، كوخ مبني بشكل فوضويّ فيه كحدّ أدنى ثماني غرف. وقضينا الليلةَ هناك. ذهب هانز ومونيك كي يقتصِدَ بالفان إلى الشاطئ. كان الكوخ خالياً من النور الكهربائي وراح الحارسُ يبحث عن شموع في غرفة تفيد كمستودعِ موادٍّ احتياطية للإصلاح. فلم يعثر عليها واضطررنا لأن نستضيء بالقداحات. ظهر الحارس في صباح اليوم التالي في الكوخ ومعه رجل أبيض، مجعّد الشعر، يقارب الخمسين من العمر، سلّم علينا وراح يتكلّم مع الحارس. قال لنا بعدها إنّه مالكُ المخيّم وإنّه سيسمح لنا أن نبقى في المخيّم أسبوعاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مجّاناً. في المساء ظهر الفان تقوده مونيك، تحمل في أحد مقاعده الخلفية أودو. قلنا لها نحن بخير وأن يأتوا معنا، فهو مجانيّ ويوجدُ فائض من المكان للجميع، لكنّ مونيك قالت لنا إنّ هانز تكلّم بالهاتف مع عمّها في جنوب فرنسا وأنّ من الأفضل لنا جميعاً أن نتوجّه فوراً إلى هناك. سألناها أين هانز، فقالت لنا عنده بعض المسائل التي عليه أن يحلّها في برشلونة.

بقينا ليلة أخرى في المخيّم. في الصباح ظهرَ هانز وقال لنا إنّ كلّ شيء محلول، وإنَّ الوقتَ المتبقي للبدء بقطاف العنب نستطيع أن نمضيه في أحدِ بيوت عمّ مونيكا دون أن نعمل شيئاً، نتحمّص تحت الشمس. بعدها أخذَنَا أنا وهوغ وستيف وقال لنا إنّه لا يريد جون في المجموعة. هذا الشخص فاسد، قال. لدهشتي أعطاه هوغ وستيف الحقّ. أنا قلت سيّان بالنسبة لي أن يستمرَّ جون معنا أو أن ينفصل عنّا. لكن من سيقوله له؟ نقوله له جميعنا، قال هانز، كما يجب أن يكون. بدا لي ذلك الطامّة وقرّرتُ ألا أشارك. قبل أن يذهبوا أبلغتُهم أنّني أريد أن أبقى بضعة أيام في برشلونة، في بيت الحارس وأنّني سأجتمع بهم بعد أسبوع في القرية.

لم يُبْدِ هانز أيَّ اعتراض، لكنّه قال لي قبل أن يذهب أن أكون على حذرٍ خاص، فهذا الشخص حشرة سيّئة. قلت: الحارس؟ بأيّ معنى؟ بكلّ المعاني، قال. في صباح اليوم التالي ذهبتُ إلى برشلونة. كان الحارس يعيش في شقّةٍ ضخمة في غران بيّا، برفقة أمّهِ وصديقِ أمّه، الذي يصغرها بحدود العشرين سنة. كان البيت مسكوناً في أطرافهِ فقط. في الداخل وفي غرفة تُطِلّ على الفناءات كانت تعيش الأمّ وعشيقها، وفي الخارج كان يعيش الحارسُ في غرفة تُطلّ على لا غران بيّا. في الوسط كان هناك على الأقل سبع غرف فارغة، حيث يُتنبّأ بين الغبار ونسيج اِلعناكب بحضورِ سكانه القدماء. قضى

جون ليلتين في واحدة من تلك الغرف. سألني الحارس لماذا لم يذهب جون مع البقيّة، وحين أخبرته، بقي متفكّراً وفي صباح اليوم التالي ظهر معه في البيت.

بعدها أخذ جون القطار إلى إنكلترا وبدأ الحارسُ يعملُ في نهايات الأسابيع فقط ولذلك كان كلّ الوقت تحت تصرفنا. كانت أيّاماً لطيفة جدّاً. كنّا نستيقظ متأخّرَيْن، نتناول طعام إفطارنا في بارات الحيّ، أنا أتناول فنجانَ شاي والحارسُ فنجانَ قهوةٍ بالحليب أو كاراخيّو[1]، نتفرّغ بعدها للتصعلك في المدينة حتى يجبرنا التعبُ على العودة إلى البيت. طبعاً كان هناك بعض المُنَغِّصات، أوّلها أنّني لم أكن أحبُّ أن ينفق الحارس نقودَهُ عليّ. ذات مساء، بينما كنّا في مكتبة، سألته ما الكتاب الذي كان يُريدُهُ واشتريته له. كانت الهديّة الوحيدة التي قدّمتُها له. اختار مختارات لشاعر إسباني يدعى دِ أوري، هذا الاسم فعلاً أتذكّره.

بعد عشرة أيّام غادرتُ برشلونة وذهبَ الحارس معي ليتركني في المحطّة. أعطيتُهُ عنواني في لندن وعنوانَ القرية في روسيون حيث سأبقى أعمل لعلّه يتشجع ويذهب. عندما تودّعنا كنتُ شبهَ واثقة من أنّنا لن نلتقي بعدها أبداً.

كانت رحلتي وحدي في القطار لأوّلِ مرّةٍ، منذ زمن طويل، لطيفةً بشكل خاص. كنتُ أشعر بنفسي مرتاحةً داخلَ جسدي. ملكت وقتاً كي أفكّر بحياتي، بمشاريعي، بما كنتُ أُريدُ وبما لم أكن أُريد. أدركتُ، أستطيع أن أقولَ بطريقة تلقائية، أنّ الوحدة ما عادت شيئاً يشغلني. في بِربيميان أخذتُ الحافلة التي تركتني عند مفترق طرق ومن هناك ذهبتُ سيراً على قدميّ حتى بلانيزيس، حيث كان ينتظرني

---

(١) قهوة مع الكونياك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رفاق سفري باعتزاز. وصلتُ قبل قليلٍ من اختفاءِ الشمس وساهم منظرُ التلال المليئة بالكرمة، بلونها البنّي الضارب للخضرة القويّةِ جدّاً في تهدئة روحي. عندما وصلتُ إلى بلانيزيس لم تكن الوجوه التي لاقتني مريحة جدّاً. في تلك الليلة وضعني هوغ بصورة كلِّ الذي جرى في غيابي. هانز، تشاجر، دون أن يُعرف الدافعُ، مع إريكا وما عاد أحدٌ منهما يُوَجِّهُ الكلمة للآخر. تكلّم ستيف وإريكا عن احتمال أن يُغادرا، لكن ستيف تشاجر بدوره بعد ذلك مع إريكا وسقطت خططُ الهرب في النسيان. وللطامّة عادَ الطفل أودو ليمرضَ وبسببه وصل الأمر بين هانز ومونيك حدّ التشابك بالأيدي تقريباً. بحسب هوغ أرادت مونيك أن تأخذ ابنها إلى مستشفى في بِربينيان وهانز اعترض بذريعة أنّهم في المستشفيات يتسببون بالأمراض أكثر مما يشفونها. في صباح اليوم التالي كانت عينا مونيك منتفختين من كثرة البكاء أو ربّما من الضربات التي كالها لها هانز. على كلّ الأحوال شُفي أودو تلقائيّاً أو بفضل الأعشاب التي سقاها له أبوه. أما بالنسبة لهوغ نفسه، فقد صرّح بأنّه يقضي معظم وقته سكراناً، ذلك لأنّ النبيذ كان متوفراً ومجّاناً.

لم ألحظ في تلك الليلة أثناءَ العشاء أيَّ أعراضِ توتّرٍ مقلقة عند رفاقي، وفي اليوم التالي، كما لو أنّهم فقط كانوا ينتظرونني أنا وحدي، بدأ قطافُ العنب. معظمنا عملَ في قطف العناقيد. هانز وهوغ عملا كحَمّالين. كانت مونيك تقود السيارة التي تحمل العنب إلى مخمرةٍ تعاونيّةٍ في قرية أخرى مجاورة. كان يعمل معنا، إضافة إلى مجموعة هانز ثلاثة إسبانيين وفتاتان فرنسيّتان لم أتأخّر في مصادقتهما.

كان العملُ مضنياً وربّما كانت فضيلته الوحيدة هي أنّه بعد انتهاء يوم العمل لا تبقى عند أحد رغبة بالمشاجرة مع أحد. على كلّ

الأحوال لم يكن يخلو الأمر من دوافع للتصادم. قلنا أنا وهوغ وستيف لهانز ذات مساء، إنّنا بحاجة إلى عاملين آخرين على الأقل. كان هانز متفقاً معنا، لكنّه قال إنّ ذلك مُستحيل. وعندما سألناهُ لماذا هو مستحيل، أجابنا بأنّه التزم مع عمّ مونيك على القطاف بأحد عشر عاملاً، ولا واحد زيادة.

اعتدنا في الأماسي بعد انتهاء العمل، أن نذهب إلى النهر لنستحمّ. كانت المياهُ باردةً، لكنّ النهر كان عميقاً بما يكفي للسباحة وبهذه الطريقة ندخل في الدفء. بعدها كنّا نفرك أنفسنا بالصابون، نغسل شعرنا ونعود لنتناول عشاءنا. كان الإسبان الثلاثة ينزلون في بيتٍ آخر، ويمارسون حياتهم بمعزل عن الآخرين، وإن كنّا ندعوهم أحياناً ليأكلوا معنا. كانت الفتاتان الفرنسيتان تعيشان في القرية المجاورة (حيث التعاونية)، وتذهبان كلَّ مساء على دراجة نارية كلٌّ منهما إلى مسكنها. واحدة كانت تُدعى ماري-جوسّت والأخرى ماري-فرانس.

في ليلة شربنا فيها جميعنا أكثر من اللازم، حكى لنا هانز أنّه عاش في كومونة دنمركية، الكومونة الأكبر والأفضل تنظيماً في العالم. لا أعرف كم من الزمن تكلّم. كان أحياناً يُثار ويضربُ على الطاولة أو ينهض وكناّ ونحن جالسون نراه ينمو، يمتطّ بطريقة مفرطة مثل عفريت، عفريتٍ رُبطنا إليه لكرمِهِ ولحاجتنا للنقود. وذات ليلة بينما الجميعُ نيام سمعته يتكلّم مع مونيك. كانت غرفة هانز ومونيك فوق غرفتي تماماً ولا شكّ أنّهما لم يُغلقا النافذةَ في تلك الليلة. كائناً ما كان فأنا سمعتهُما يتكلّمان بالفرنسية وهانز يقول إنّه لا يستطيع أن يتفاداه، فقط هذا، لا يستطيع أن يتفاداه، ومونيك تقول له بلى، بلى، وأنّ عليه أن يبذل جهده. ما تبقى لم أفهمه.

عندما كنّا على وشك أن ننهي عملنا ذاتَ مساء في بلانيزيس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ظهرَ الحارسُ فبلغت الفرحةُ التي أحدثتها رؤيتي له حدَّ أنّني قلتُ له إنّني أحبّهُ وأن يكون حذراً. لا أدري لماذا قلت له هذا، لكنّني عندما رأيته يظهر، ماشياً في الشارعِ الرئيسي للقرية، انتابني إحساس بأنّ خطراً أكيداً يترصّدنا جميعاً.

بشكل مباغت قال لي إنّه هو أيضاً يُحبّني ويودُّ أن يعيش معي. كانت تبدو عليه السعادةُ والتعب، وصل إلى القرية بالأوتوستوب بعد أن طاف كلّ المنطقة تقريباً، لكنّه سعيد. في ذلك المساء، أتذكّر ذلك، ذهبنا جميعنا للاستحمام في النهر، جميعنا باستثناء هانز ومونيك وحين تعرّينا وألقينا بأنفسنا في الماء بقي الحارسُ على الضفّة بثيابه كاملة، عملياً بثياب *زائدة عن الحد*، كما لو أنّه مقرورٌ على الرغم من الحرارة الموجودة. بعدها حدث شيء، لم يكن له ظاهريّاً أيّ أهمّية، لكنّني أحسستُ فيه بيدِ أحدٍ، يدِ المصادفةِ أو يد الله. بينما كنّا نسبح ظهر على الجسر ثلاثةُ عمّال موسميين وراحوا ينظرون إلينا، أنا وإريكا، برهة طويلة، كانوا رجلين كبيرين في السن ومراهِقاً. ربّما الجدّ والأبُ والابن، بثياب عمل مهملة وفي النهاية قال واحد منهم شيئاً بالإسبانية وردّ عليهم الحارسُ، رأيتُ وجوهَ العمال تنظر إلى الأسفل ووجهَ الحارس ينظر إلى الأعلى (إلى سماء شديدة الزرقة)، ثمّ وبعد الكلمات الأولى جاءت كلمات أخرى، تكلّموا جميعاً، المياومون الثلاثة والحارسُ، بدتْ في البداية أسئلةً وأجوبةً وبعدها فقط كما لو أنّهم يُبدون ملاحظات تافهة، مجرّد حديثٍ يدور بين ثلاثة أشخاص موجودين فوق جسر وصعلوكٍ موجودٍ في الأسفل، وكلّ ذلك جرى بينما كنّا أنا وستيف وإريكا وهوغ نستحمّ ونسبحُ من جانبٍ لآخر كالإوزّ أو البطّ، في البداية غريبين عن الحديث بالإسبانية، لكنّنا كنّا في جزء منه هدفاً له، وبخاصّة أنا وإريكا، كنّا دافعاً للمتعة البصرية والانتظار. لكن فجأة غادر العمال

الميامومون (دون أن ينتظروا خروجنا من الماء) وقالوا وداعاً، هذه الكلمة التي بالطبع أفهمها بالإسبانية، والحارس أيضاً قال وداعاً وهنا انتهى كلّ شيء.

في الليل وأثناء العشاء، سكر الجميعُ. وأنا أيضاً سكرتُ، لكن ليس إلى الحدِّ الذي بلغه الآخرون. أتذكّر أن هوغ كان يصرخ: ديونيسوس، ديونيسوس، أتذكّر أنّ إريكا، التي كانت تجلسُ إلى جانبي على الطاولة الطويلة، أخذتني من ذقني وقبّلتني على فمي.

كنتُ واثقةً من أنّ شيئاً مشؤوماً سيحدث.

قلتُ للحارس أن نذهب إلى السرير. لم يعرني أهمية. كان يتكلّم بلغته الإنكليزية السيّئة جدّاً، المخلوطة بكلمات فرنسية، عن صديق اختفى في روسيّون. طريقة رائعة، قال هوغ، للبحث عن صديقك، بالشرب مع مجهولين. أنتم لستم مجهولين، قال الحارسُ. راح بعدها هوغ وإريكا وستيف والحارسُ يُغنّون أغنية أظنُّها لفرقةِ رولينغ ستونز. بعدها ظهر اثنان من الإسبان الذين كانوا يعملون معنا، لا أعرف من ذهب للبحث عنهم. وأنا كنتُ أفكِّرُ طوالَ الوقت: شيء ما مشؤوم على وشكِ أن يحدث، شيء مشؤوم سيحدث، لكنّني لم أكن أعرف ما يمكن أن يكون، ولا ما يمكن أن أفعل لتفاديه، باستثناء حمل الحارسِ إلى غرفتي وممارسةِ الحبِّ أو إقناعه بأن ينام.

بعدها خرج هانز من غرفتهِ (كان قد انسحب هو ومونيك باكراً، ما إن انتهيا من تناول عشائهما تقريباً) وطلبَ ألا نُحدث كلَّ تلك الضجة. أعتقد أن المشهدَ تكرَّر مراتٍ عديدةً. كان هانز يفتحُ البابَ وينظر إلينا واحداً فواحداً ويقول لنا: إنّ الوقت تأخّرَ وإنّ الضجةَ التي نحدثها لا تدعه ينام وإنّ علينا أن نعمل غداً. وأتذكّر أنّه ما من أحدٍ أولاه أدنى مبالاة، عندما كان يظهر كانوا يقولون بلى، بلى يا هانز، الآن نسكت، لكن ما إن كان يُغلق البابَ خلفه حتى يعود

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصياحُ والضحكات فوراً. وعندها فتح هانز الباب وقد غطى عريه بالسروال الداخلي الأبيض فقط وشعره الأشقر منكوش وقال إنّ الحالة انتهت مرّة وإلى الأبد، وإننا سنرحل من هناك على الفور، كلّ إلى غرفته. ونهض الحارس وقال له: انظر، يا هانز، كفاك حماقة، أو شيئاً من هذا القبيل. أتذكّرُ أنّ هوغ وستيف ضحكا، لا أدري من وجه هانز الممتقع أم من التركيب السيّئ للجملة في الإنكليزية. وتوقّف هانز لحظة، مرتبكاً وبعد هذه اللحظة زمجر: كيف تجرؤ؟ فقط هذا وارتمى فوق الحارس، لم تكن الأمتار التي كانت تفصله عن هذا قليلة، كلّنا ملكنا الفرصة كي نرى بكلّ تفصيل فاخر، عملاقاً شبهَ-عارٍ عبرَ الغرفةَ راكضاً تقريباً باتجاه صديقي المسكين.

لكن حدث وقتها ما لم يكن أحدٌ يتوقّعه. الحارسُ لم يتحرّك من مكانِهِ، حافظَ على هدوئه، بينما كتلة اللحم تنتقل في الغرفة مستعدّة لأنّ تصطدم به، وحين صار على بعد سنتيمترات منه ظهرت سكين في يده اليمنى (في يد الحارس اليمنى الرقيقة، المختلفة جدّاً عن يدٍ قاطعة) وارتفعت السكين حتى صارت تماماً تحت ذقن هانز، بالكاد دخلتْ في آخر غببٍ عنده، فتوقّف متخشباً وقال: ما هذا؟ ما هذه المزحة؟ بالألمانية وأطلقت إريكا صرخة وانشقّ البابُ، الباب الذي كانت خلفه مونيك وأودو الصغير وأطلّ منه رأس مونيك، ربّما عارية، أطلّت باحتشام. وعندها بدأ الحارس يسير بالاتجاه المعاكس تماماً للاتجاه الذي جاء منه هانز مندفعاً، والسكين رأيتها بوضوح فقد كنتُ على مسافة أقلّ من متر، دخلت في ذقنه وهانز بدأ يتراجع، وعلى الرغم من أنّه بدا لي أنّهما كانا يجوبان كلّ الغرفة حتى الباب الذي كانت تختبئ مونيك خلفه، في الحقيقة أنّهما لم يخطوَا غيرَ ثلاث خطواتٍ وربّما خطوتين ثم توقّفا وأنزل الحارِسُ السكين وأدار له ظهره.

بحسب هوغ، كان من الممكن أن تكون تلك هي اللحظة كي يرتمي فيها هانز فوق الحارس ويُخضعه، لكنّ الصحيح هو أنّ هانز بقي جامداً ولم ينتبه حتى إلى أنّ ستيف كان يقترب منه ويقدّم له كأساً من النبيذ، على الرغم من أنّه شربه، لكنّه شربه كمن يشرب الهواء.

عندها التفت الحارس وشتم هانز. قال له نازيّ، قال له ماذا تريد أن تفعل لي، يا نازيّ؟ وهانز نظر إليه في عينيه وتمتم بشيء وأغلق قبضته، وهنا فكّرنا جميعاً بأنّه سينقضّ على الحارس، وأنّ شيئاً الآن لن يوقفه، لكنّه تمالك نفسه، قالت مونيك شيئاً وهانز التفت إليها وردّ عليها، اقترب هوغ من الحارس وجرّه إلى كرسيّ، ومن المحتمل أنّه صبّ له مزيداً من النبيذ.

التالي الذي أتذكّره هو أنّنا خرجنا جميعاً من البيت، ورحنا نسير في شوارع بلانيزيس نبحث عن القمر. كنّا ننظرُ إلى السماء: غيوم سوداء كبيرة كانت تُخفيها. لكنّ الريح كانت تدفع الغيومَ نحو الشرق وكان القمر يعودُ ويظهرُ (عندها كنّا نصرخ) ويعود بعدها ليختفي. فكّرتُ في لحظة أنّنا نبدو أشباحاً. قلتُ للحارسِ أن نعود إلى البيت. أريدُ أن أنام، لكنّه لم يُعِرني بالاً.

كان الحارس يتحدّث عن مُختفٍ ويضحك ويمزحُ مِزاحاتٍ لا أحد يفهمها. عندما تركنا وراءنا آخر بيوت القرية، فكّرتُ أنّ ساعة العودة قد حانت وأنّني إن لم أعد فلن أكون في اليوم التالي قادرة على أن أنهض. اقتربتُ من الحارس وقبّلته قبلة. قبلة ليلةٍ سعيدة.

عندما عدتُ إلى البيت كانت كلّ الأضواء مطفأة والصمت مطبقاً. اقتربت من نافذة وفتحتها. لا شيء كان يُسمع. صعدتُ بعدها إلى غرفتي، تعرّيت ودخلت في سريري.

حين استيقظتُ كان الحارس نائماً بجانبي. قلتُ له وداعاً وذهبت لأعمل مع الآخرين. هو لم يجبني، كان كالميت. في الغرفة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت تطفو رائحة قيء. عدنا عند منتصف النهار وكان الحارس قد ذهب، على سريري وجدتُ ملاحظة يعتذر فيها عن موقفه في الليلة الفائتة ويطلبُ فيها أن أذهب لزيارته في برشلونة متى شئتُ، وأنّه سيكون بانتظاري.

في ذلك الصباح ذاته حكى لي هوغ ما جرى في الليلة السابقة. بحسب هوغ عندما ذهبتُ جُنّ الحارس. كانوا بجانب النهر والحارس يقول إنّ أحداً يناديه، صوت، على الجانب الآخر من النهر. وعلى الرغم من كلّ ما قاله له هوغ من أنّه لا يوجد أحد وأنّ الشيء الوحيد الذي يُسمع، وبشكل واهنٍ جدّاً، هو خرير الماء، يستمر الحارس مصرّاً على أنّ شخصاً هناك في الأسفل على الجانب الآخر من النهر ينتظره. ظننَتُهُ يمزح، قال هوغ، لكن ما إن غفلتُ حتى راح يركض نازلاً التلّ في الظلمة الأكثر ادلهماماً نحو ما كان يعتقد أنّه النهر، عابراً جنباتٍ وعليقاً، أعمى تماماً. بحسب هوغ من تلك المجموعة الأولية لم يبق غيره والإسبانيان، اللذان دعوناهما لحفلتنا. وحين ضاع الحارس وهو يجري نازلاً التلّ، خرج الثلاثة خلفه، لكن ببطءٍ أكبر بكثير، فالظلمة كانت من الهول والنزلة من الانحدار بحيث أنّ أي زلة قدم كانت ستعني سقوطاً وعظاماً مكسورة، وهكذا لم يتأخّر الحارس في الاختفاء عن نظرهم.

بحسب هوغ، أنّه فكّرَ بأنّ هدفَ الحارس هو أن يغوص في النهر. لكن الاحتمال الأكبر، قال هوغ، هو أن يصطدم بحجرٍ من الحجارة التي تكثر في تلك الجهة، أو أن يتعثّر بجذعِ شجرةٍ ساقط، أو أن ينتهي عالقاً بين بعض الجنبات. عندما وصلوا إلى الأسفل وجدوا الحارسَ جالساً على العشب، بانتظارهم. وهنا يأتي ما هو أكثر غرابة، قال هوغ، إذ أنّني عندما اقتربت من خلفه استدار بسرعة كبيرة وفي أقل من ثانية وجدت نفسي على الأرض والحارسُ فوقي

ويداه تضغطان على حنجرتي. وبحسب هوغ، كان كلّ شيء من السرعة بحيث أنه لم يمنحه وقتاً كي يخاف، لكنّ الصحيح هو أنّ الحارسَ كان يخنقه، والإسبانيان ابتعدا ولم يكن باستطاعتهما أن يرياه ولا أن يسمعاه، ثمّ إنّه لم يكن ويدا الحارس حول عنقه (يدان مختلفتان عن الأيدي التي كانت لنا وقتها أنا وهوغ، ومليئتان بالجراح) يخرجُ من حنجرته أيّ صوت، لم يكن قادراً ولا حتى على أن يصيح النجدة. كان قد أصيب بالخرس.

كان من الممكن أن يكون قد قتلني، قال هوغ، لكنّ الحارس سرعان ما انتبه لما كان يفعله فأفلته، اعتذر منه، استطاع هوغ أن يرى وجهَهُ (كان القمر قد خرج مرّةً أخرى) وانتبه إلى أنّه كان، هذه كلمات هوغ، مُغطّى بالدموع. وهنا يأتي أكثر ما في قصّة هوغ من إدهاش، إذ عندما أفلتَهُ الحارسُ وطلب منه الصفحَ، راح هو أيضاً يبكي، بحسب ما يقول، لأنّه سرعان ما تذكّر الفتاةَ التي هجرته، الإسكتلندية، وراح يُفكّر أنّه ما مِنْ أحدٍ كان ينتظرُهُ في إنكلترا، (باستثناء والدَيه) فجأة أدرك شيئاً لم يستطع أن يوضّحه لي، أو وضّحه بطريقة سيِّئة.

وصل بعدها الإسبانيان، كانا يُدخنان لفافة ماريجوانا وسألاهما لماذا يبكيان فراح هوغ والحارس يضحكان، والإسبانيان أيضاً، يا لهما من فتيين سليمين وحكيمين، قال هوغ، فَهِمَا كلَّ شيء دون أن يقولا لهما شيئاً ومَرّرا لهما اللفافةَ وعاد أربعتهم معاً.

والآن، كيف تشعر بنفسك؟ سألتُ هوغ. أشعر أنّني في وضع ممتاز وعندي رغبة بأن ينتهي قطاف العنب ونعود إلى البيت، قال هوغ. وما رأيك بالحارس؟ سألتُهُ. لا أعرف، قال هوغ، هذه مسألتُكِ، أنت من عليك أن تُفكّري بهذا.

عندما انتهى العملُ بعد أسبوع، عدتُ مع هوغ إلى إنكلترا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت فكرتي الأصلية أن أسافر مرّةً أخرى إلى برشلونة، لكن عندما انتهى قطافُ العنب كنتُ متعبةً جدّاً، ومريضةً جدّاً وقرَّرتُ أنَّ من الأفضل لي أن أذهب إلى لندن، إلى بيت أبويَّ وربّما أن أقوم بزيارة الطبيب.

قضيتُ أسبوعين في بيت والدَيَّ، أسبوعين فارغين، دون أن أرى أيَّ صديق. قال الطبيب إنّني كنت «مستنفَدة جسديّاً»، ووصف لي فيتامينات، وأرسلني إلى طبيب العيون. طبيب العيون قال إنّني بحاجة لنظارة. بعدها بوقت قصير سافرتُ إلى رود، أكسفورد، وكتبتُ بضعَ رسائل إلى الحارس. شرحتُ له كلَّ شيء، كيف كنتُ أشعر بنفسي، ما قاله لي الطبيبُ، وكيف إنّني أضعُ الآن نظارة، وأُفكّرُ، ما إن أحصل على نقود، أن أسافر إلى برشلونة كي أراه، وإنّني أحبُّه. يبدو أنّني أرسلتُ له ستَّ أو سبع رسائل في فترة وجيزة نسبياً. تعرَّفتُ بعد أن عادت وبدأت الدروس على شخصٍ آخر وما عدتُ أُفكِّر به.

ألان ليبِرت، بار شيز رول، بورت فِندرِس، فرنسا، كانون الأوّل ١٩٧٨.

كنتُ أعيش في تلكَ الأيّام كما لو أنّني في الحرب الشعبية ضدّ فرانكو. كان لي كهفي وكنتُ أقرأ صحيفة *ليبراسيون* في بار راؤول. لم أكن وحدي. كان هناك آخرون مثلي وكنّا لا نكادُ نصاب بالسأم أبداً. في الليل نتكلّمُ بالسياسة ونلعب البيليارد. أو نتذكّر الموسمَ السياحيّ الذي انتهى قبل قليل. نتذكّر حماقاتِ الآخرين وننفجر بالضحك في شرفة بار راؤول، ونحن ننظرُ إلى المراكب الشراعية أو النجوم، النجوم واضحة جدّاً تُعلن عن وصول الأشهر السيّئة، أشهرِ العمل القاسي والبرد. بعدها نمضي سكارى كلٌّ في اتجاه، أو اثنين

اثنَيْن. أنا إلى كهفي في الضواحي في ناحية صخور البورّادو، ليس عندي أدنى فكرة لماذا أسموه هكذا ولم أزعج نفسي بالسؤال عن ذلك، في المرحلة الأخيرة ألاحظ عندي نزعة مقلقة لقبول الأشياء كما هي. كما كنتُ أقولُ، كنتُ أعود كلَّ ليلة إلى كهفي، وحدي، أمشي كما لو أنّني نائم وحين كنتُ أصل وأُشعِلُ شمعةً، خشية أن أكون قد أخطأت، ففي البورّادو هناك أكثر من عشرة كهوف، نصفها مشغول، لكنّني لم أخطئ به قط. أدخل بعدها في كيسِ نومي الكندي القويّ والحامي من الخارج وأشرعُ بالتفكير بالحياة، بالأشياء التي تحدث على بعد شبر من أنفك والتي تَفهمُها أحياناً وأحياناً أخرى، غالباً، لا تفهمها وعندها يحملني هذا التفكير إلى آخر، وهذا الآخر إلى آخر وبعدها أكون قد نمتُ دون أن أنتبه، محلّقاً أو زاحفاً، ما همّ.

كان البورّادور يبدو في الصباحات مدينةً مهجعاً. خاصّة في الصيف. كلّ الكهوف مشغولة، بعضها بأكثر من أربعة أشخاص، وعند قرابة العاشرة يبدأ الجميع بالخروج ليقول صباح الخير، يا جوليت، صباح الخير، يا بييروت، وإذا ما بقيتَ أنتَ نائماً في كهفك ملفوفاً بكيسكَ تستطيع أن تسمعهم يمدحون البحرَ، نورَ البحر وبعدها تسمع ضجة كما لو أنّها ضجّة قدور، كما لو أن هناك من يغلي ماءً على موقد غاز مُخيّم، بل وتستطيع أن تسمع ضجيج القداحاتِ التي تُعطي النار وعلبة سجائر الغولواز التي تنتقل من يدٍ إلى يد، وتستطيع أن تسمع الآه آه والأوه أوه وأيضاً، يا سلام وبالطبع لا يخلو الأمر أبداً من وجود الأحمق الذي يتكلّم عن الطقس، على الرغم من أنّني في الحقيقة، وفوق كلّ شيء، كنتُ أسمع صخبَ البحر، صخبَ الأمواج التي كانت تتحطّم على صخور البورّادو. بعدها وكلّما اقتربت نهاية الصيف، فرغت الكهوفُ ولا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يبقى هناك غير خمسة ثمّ أربعة ثمّ ثلاثة، القرصان ومحمود وأنا. وفي ذلك الوقت كنتُ قد حصلتُ أنا والقرصان على عمل في *إيسوبل*، وقال لنا صاحبها إنّ باستطاعتنا أن نأخذ معنا صرر ثيابنا وأن نُقيم فوراً في غرفة الملاحين، الاقتراح الذي لاقى ترحيباً، لكنّنا لم نبغِ أن نطبّقه فوراً ففي الكهوفِ نملك حميمية ثمّ إنّها فضاءٌ مناسب، بينما في أسفل السفينة كان كمن ينام في ناووس واعتدنا أنا والقرصان على الراحة في الحياة وعلى الهواء الطلق.

بدأنا في أواسطِ أيلول نخرج إلى خليج الأُسود[١] وكانت أمورنا تسير بشكل عادي وأحياناً أخرى في غاية السوء، إذا تكلّمنا عن النقود يعني أنّ الأيّام العادية بالكاد تكفينا كي ندفع ثمن طعامنا وأقداحنا وفي الأيام السيّئة كان على راؤول أن يُقرضنا حتى ثمن عيدانِ الأسنان. العاصفة الأكثر إقلاقاً جاءت حين قال ربُّ العمل في أعالي البحر إنّ الذنب ربّما كان حظّ القرصان السيّئ. قالها هكذا، كم يقول إنّها تُمطِرُ، أو أنّه جائع. وعندها قال له بقيّةُ الصيادين أنّه إذا كان الأمرُ كذلك، فلماذا لا نرمي به هناك في البحر ونقول بعدها في الميناء إنّه سقط من سكرة فظيعة أخذته؟ جميعنا بقينا، نصف مازحين ونصف جدّيين، نتكلّم عن هذا برهة طويلة، من حسن الحظّ أنّ القرصانَ كان من السكر بحيث أنّه لم ينتبه لما كنّا نقوله نحن البقيّة. أيضاً جاء في تلك الأيّام لزيارتي في الكهف رجال الدرك القوادون. كان عندي محاكمة عالقة في بلدة قريبة من أَلْبي لأنّني سرقتُ من سوق كبيرة. كان قد حدث هذا قبل سنتين ومجموع المسروقات الكلّي كان رغيفَ خبز، قطعةَ جبن وعلبةَ تونا. لكنّ يدَ العدالة طويلةٌ. كنت في كلِّ ليلة أسكر مع أصدقائي في بار راؤول.

---

(١) Golfo de los Leones

وكنتُ أنزل جام غضبي على الشرطة (على الرغم من أنّه كان هناك دركيّ كنتُ أعرفه بالنظرِ يتناول الباستيس)، وعلى المجتمع ونظام العدالة الذي لا يتركك بسلام وتقرأ مقالات مجلة الأزمنة الصعبة بصوت عالٍ. كان يجلس إلى طاولتي صيادون محترفون وهواة وفتية شبان مثلي، من المدينة، الحيوانات التي انقضت على بورت فيندِرس في الصيف وبقيت راسية هناك حتى إشعارٍ آخر. وذات ليلة راحت فتاةٌ تُدعى مرغريت، كنّا جميعاً نريد أن ننام معها، تقرأ قصيدة لروبِرت ديسنوس، وأنا لم أكن أعرف أيّ شيطانٍ كان، لكنّ آخرين على طاولتي كانوا يعرفونه، ثمّ إنّ القصيدة كانت جيّدة وتدخلُ قلبك. كنّا في الشرفة، وفي الشوارع لا يُرى ولا حتى قطّ بائس، ومع ذلك كانت أضواء البيوت تتلألأ خلف نوافذ البلدة ونحن لا نسمعُ غير أصواتنا، وصوتَ سيّارة بعيدة من حين لآخر تمضي في الشارع المؤدّي إلى المحطّة وكنّا وحدنا أو هكذا كنّا نظنّ لأنّنا لم نرَ (على الأقل أنا لم أرَ) أنّ على الطاولة الأبعد من الشرفة كان هناك عنصر آخر. وحدث بعد أن قرأت مرغريت قصيدة دينوس، ذلك الفاصل من الصمت، الذي يمكن أن يدوم ثانية أو ثانيتين أو الحياةَ كلّها، لأنّ هناك ما يُرضي كلّ الأذواق في هذه الأرض التي لا عدالة ولا حرّية فيها، حين نهض العنصر الذي كان على الضفة الأخرى من الشرفة واقترب منّا وطلب من مرغريت أن تقرأَ قصيدةً أخرى. ثمّ طلب منّا إذنا كي يجلس إلى طاولتنا، وحين قلنا له على الرحب والسعة وما من مشكلة، ذهب بحثاً عن قهوته بالحليب على طاولته، وخرج بعدها من الظلمة (لأنّ راؤول يوفّر في الاستهلاك الكهربائي كثيراً جدّاً) وجلس بجانبنا ثمّ راح يشرب نبيذاً مثلنا ودعانا لبعض الدورات، على الرغم من أنّه ليس له مظهر من معه كثير من النقود، لكن وبما أنّ مجموعتنا كانت في أوج الأزمة قبلنا، ماذا نستطيع غير ذلك!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قرابة الساعة الرابعة صباحاً قلنا ليلة سعيدة. سلكنا أنا والقرصان الطريق باتجاه البورّادو. في البداية عندما كنّا خارجين من بورت فيندرِس كنّا نسير بخطوات حثيثة ونُغنّي، بعدها عندما لم يعد الطريق يستحق هذا الاسم وصار درباً ينشقّ بين الصخور باتجاه الكهوف صرنا نسير بسرعة النملة، لأنّنا كنّا في غاية السكر، كنّا نعرفُ أنّ أيَّ خطوة ناقصةٍ هنا في الظلمة والبحر ينفجر هناك في الأسفل، يمكن أن تكون قاتلة. الضجّة في ذلك الدرب لم تكن نادرة ليلاً، لكن تلك التي أتحدّث عنها كانت أقرب إلى الصمت ولم نسمع لبرهة غير وقعِ خطواتنا، والأمواجِ الوديعة على الصخور. ومع ذلك، سمعتُ فجأة نوعاً آخر من الضجة، ولا أدري لماذا فكّرتُ بأنّ أحداً يتبعنا. توقّفتُ والتفتُّ، أسبرُ الظلمةَ، لكنّني لم أرَ شيئاً. أيضاً توقّف القرصانُ على بعدِ أمتارٍ أمامي وراح يصغي مُتَحَفّزاً. لم نقل شيئاً، بل ولم نتحرّك وانتظرنا. من بعيدٍ جدّاً وصلتنا ضجةُ سيّارة وضحكةٌ مكبوتة، كما لو أنّ السائق قد جُنّ؟ ومع ذلك فالضجة التي كنتُ قد سمعتها وكانت ضجة خطوات لم نسمعها بعد ذلك. لا بدّ أنّه كان شبحاً، سمعتُ القرصانَ يقولُ وتابعنا معاً سيرنا. في تلك الأيّام لم يكن يعيشُ في الكهوف غيرنا أنا وهو، فمحمود جاء في طلبه ابنُ عمّه أو عمُّهُ كي يُساعده في التحضير لقطاف العنب في قرية من مونتبلير، دخّنا أنا والقرصان قبل أن ننام سيجارةً أمام البحر. بعدها تبادلنا ليلة سعيدة وتجرجر كلّ منا إلى كهفه. بقيتُ برهة أفكّر بأموري، برحلتي إلى ألبي، بالعاصفة السيئة التي مرت بها إيسوبِل، بمرغريت وبقصائد ديسنوس، بالخبر عن عصابة بادر-ماينهوف، الذي قرأته في ذلك الصباح في *ليبراسيون*. عندما بدأت عيناي تُغمَضان، عدتُ لأسمع الضجةَ السابقة ذاتها، الخطواتِ التي تقترب، الشبح الذي يُحدث تلك الخطوات والذي يراقب أفواهَ

الكهوف المظلمة. لم يكن القرصانُ، هذا بلى انتبهتُ إليه، أنا أعرف مشية القرصان، ولم يكن هو. لكنّني كنتُ متعباً أكثر من اللازم كي أخرج من كيس نومي أو ربّما أنّني كنتُ نائماً وبقيت أسمع الخطوات، المسألة أنّني فكرتُ إنّه كائناً من كان من يصدرها فهو لا يُشكّل أيّ خطر بالنسبة إليّ، أيّ خطر بالنسبة للقرصان، وإنّه إذا أراد شِجاراً سيكون له ذلك، لكن لكي يحدث ذلك سيكون عليه أن يدخل إلى كهفينا مباشرةً وأنا كنتُ أعرفُ أنّ الغريب لن يدخل، كنتُ أعرفُ أنّ الغريب كان فقط يبحث عن كهف خالٍ كي ينام هو أيضاً.

وجدته في صباح اليوم التالي على حجرٍ مسطح مثل كرسيّ، ينظرُ إلى البحر ويدخّنُ سيجارة. كان مجهولُ شرفة شيز راوؤل، وحين رآني أخرجُ من كهفي نهض وصافحني. لا أحبّ أن يلمسني مجهولون حين لا أكون قد غسلتُ وجهي بعد. وهكذا بقيتُ أنظرُ إليه وحاولتُ أن أفهم ما كان يقوله، لكنّني فقط فهمتُ كلمات متفرّقة، مثل «راحة» «كابوس» «فتاة». رحتُ بعدها أسير باتجاه بستان مدام فرانسينِت، حيث يوجد بئر وبقي هو هناك يُدخّن سيجارته. وعندما عدتُ كان ما يزال يُدخّن (كان الرجل يُدخّن مثل ممسوس) وحين رآني نهضَ مرّة أخرى وقال لي: يا ألان، أدعوك لتناول الإفطار. أنا لم أتذكّر أنّني قلتُ له اسمي. حين خرجنا من البورّادو، سألته كيف وصل إلى الكهوف ومن قال له إنّ في البورّادو يوجد كهوف، يُمكن النوم فيها. هو قال إنّها مرغريت، سمّاها قارئة ديسنوس، قال عندما ذهبنا أنا والقرصان وبقي هو مع مرغريت وفرانسوَا وإنّه سألهما عن مكان يستطيع أن يقضي فيه تلك الليلة، وإنّ مرغريت قالت له في الضواحي توجدُ كهوف غير مشغولة، حيث نعيش أنا والقرصان. ما تبقى كان بسيطاً. راح يركض وأدركنا، اختار بعدها كهفاً فتح كيس نومه وانتهى الأمر. حين سألته كيف استطاع أن يهتدي بين الصخور،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حيث الطريق سيّئ جدّاً ولا يستحقّ حتى أن يُسمى كذلك، قال إنّه لم يكن صعباً وإنّنا كنّا نسير أمامه وإنّ ما فعله هو تعقّبُ خطواتنا.

تناولنا فطورنا قهوةً بالحليب وكرواسان في ذلك الصباح في مقهى راؤول، وقال لي المجهول إنّه يّدعى أرتورو بِلانو وإنّه كان يبحثُ عن صديق. وأنا سألتُهُ أيّ صديق كان ذاك، ولماذا كان يبحث عنه، تحديداً في بورت فيندرِس. أخرج هو آخر فرنكات معه من جيبه، طلب كوبي كونياك واسترسل بالكلام. قال إنّ صديقَهُ يعيش في بيتِ صديقٍ آخر، قال إنّ صديقَهُ كان ينتظرُ عملاً، لا يتذكّر ما هو، قال إنّ صديقَ صديقِهِ طردَهُ من بيتِهِ وإنّه حين علم بذلك جاء يبحث عنه. أين يعيشُ صديقُك؟ سألتُهُ. ليس عنده بيت، قال. وأين تعيشُ أنتَ، سألتُهُ. في كهف، قال هو، لكنّه قال ذلك مبتسماً كما لو أنّه يسخر منّي. في النهاية حدث أنّه كان يعيش في بيت أستاذ في جامعة بيربينيان في كولير، القريبة من هنا، تُرى كولير من البورّادو. وعندها سألتهُ كيف علم هو بأنّ صديقه صارَ في الشارع. فقال لي هو: صديق صديقي قاله لي. وأنا سألته: نفسه الذي طرده؟ وهو قال لي: نفسه. وأنا سألته: يعني أنّه يطرده أوّلاً ويقوله لك ثانياً؟ قال لي: المسألة أنّه خاف. وأنا سألته: ومِمَّ خاف هذا الصديق السيّئ؟ وهو قال لي: من أن ينتحر صديقي. وأنا سألتُهُ: أي أنّ صديقَ صديقِكَ كان أيضاً يشكّ بأنّ صديقك يمكن أن ينتحر، ويطرده؟ وهو قال لي: هو كذلك، لم يكن باستطاعته أن يُوَضِّحَ بشكل أفضل. وعندها ضحكنا أنا وهو نصف سكرانين وحين ذهب، بحقيبة ظهره الصغيرة على كتفه ليتابع بالأوتوستوب تجوالَهُ في قرى المنطقة، حسنٌ، كنّا قد أصبحنا صديقين إلى حدٍ جيّد. أكلنا معاً (انضمّ إلينا القرصان بعدها بقليل) وأنا حكيتُ له عن الظلم الذي كان يرتكبُهُ قضاة ألبي بحقي، وحيث كنّا نعمل وعند هبوط المساء غادر هو ولم

أرَهُ إلا بعد أسبوع. ولم يكن قد عثر على صديقه، لكنّني أعتقد أنّه لم يعدْ وقتها حتى ليُفكِّر بذلك. اشترينا زجاجة نبيذ ورحنا نطوف في الميناء، وهنا قال لي إنّه عمل منذ سنة في تفريغِ باخرة. تلك المرّة لم يبقَ غيرَ ساعات قليلة. بدا أنّه أفضل ثياباً من المرّة الماضية. سألني كيف هي محاكمتي في ألبي. أيضاً سألني عن القرصان والكهوف. كان يريد أن يعرف ما إذا كنّا ما نزال نعيش هناك. قلت له لا، وإنّنا انتقلنا إلى السفينة، ليس بسببِ البرد الذي بدأ يُلاحظُ بقدر ما كان بسبب المسألة الاقتصادية، لم يكن في جيوبنا فرنك واحد وفي الباخرة نستطيع على الأقل أن نأكل طعاماً ساخناً. غادر بعد قليل. كان الرجل، بحسب القرصان، قد عشقني. هل أنت مجنون، قلتُ له. إذن لماذا يأتي إلى بورت فيندرِس؟ ما الذي أضاعه هنا.

عاد ليظهر في أواسط تشرين الأوّل. كنتُ مستلقياً على سريري الفردي أتأمّلُ الذّبابات حين سمعتُ في الخارج من ينطق باسمي. عندما خرجتُ إلى سطح السفينة رأيته جالساً على إحدى ركائز الميناء. كيف الحال، يا لِبرتْ، قال لي. نزلتُ لأسلّم عليه وأشعلنا بعض السجائر. كان صباحاً بارداً، مع بعض الضباب ولا تُرى نسمةٌ واحدة في المحيط. كلّ الناس، استنتجتُ، موجودون في بار راؤول. في البعيد كان يُسمع صوت ثيران باخرةٍ، كانت تفرغ حمولتَها. هيا بنا نذهب لنتناول إفطارنا، قال لي. حسن، هيّا بنا نتناول إفطارنا، قلتُ أنا. لكن ما من أحدٍ منّا تحرّك. رأينا شخصاً قادماً من عمق رصيف الميناء. ابتسم بِلانو، عجيب، إنّه عوليس ليما. بقينا ساكنَيْن، ننتظره حتى وصل إلى حيث كنّا. كان عوليس ليما شخصاً أقصرَ من بِلانو، يحمل، مثل بِلانو، حقيبةَ صغيرة متدلّية من كتفه. ما إن التقيا حتى راحا يتكلّمان بالإسبانية، على الرغم من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أنّ سلامهما، الطريقة التي سلّم بها أحدهما على الآخر كانت عرضيّة، دون حماس. قلتُ لهما إنّني ذاهب إلى بار راؤول. قال بِلانو، حسن، سنذهبُ نحن لاحقاً إلى هناك وتركتهما هناك يتحدّثان.

كان بحارةُ *إيسوبِل* جميعهم في البار كالِحي الوجوه، ولم يكن الوضع يسمح بأقل من ذلك، على الرغم من أنّني أقولُ، إذا ساءت أمورك وحزنت فقط يمكن أن تسوء أكثر. هكذا دخلتُ، نظرتُ في الزبائن، قلتُ نكتة بصوتٍ عالٍ أو سخرتُ منهم وطلبتُ بعدها قهوةً بالحليب ورحتُ أقرأ ليبراسيون اليوم السابق، التي كان يشتريها فرانسوَا واعتاد أن يتركها في البار. كنتُ أقرأ مقالاً عن يويويّي زائير، حين دخل بِلانو وصديقه وجاءا مباشرة إلى طاولتي. طلبا أربعة كرواسانات، أكلها المختفي عوليس ليما. ثمّ طلبا ثلاث شطائر جامبو وجبن ودعواني إلى واحدة منها. أتذكّر أنّ صوتَ ليما كان غريباً. كان يتكلَّم الفرنسيةَ أفضل من صديقه. لا أعرفُ عمّا تكلّمنا، ربّما عن اليويويين في زائير، فقط أتذكّر أنّ بِلانو سألني عمّا إذا كان باستطاعتي أن أوفّرَ عملاً لليما. كان باستطاعتي أن أضحكَ من كلّ قلبي. كلّ الذين نحن هنا، قلتُ له، نبحث عن عمل. لا، قال بِلانو، أقصد عملاً في الباخرة. في إيسوبِل؟ لكن بحارة *إيسوبِل* يبحثون عن عمل! قلتُ له. بالضبط في هذه الظروف لا بدّ أنّه يوجد شاغر. بالفعل اثنان من صيادي *إيسوبِل* عثرا على عمل كبنائين في بيربينيان، وهو شيء يمكن أن يبقي عليهما مشغولين أسبوعاً على الأقل. هو أمر يمكن استشارة ربّ العمل به.، قلتُ له. يا لِبرت، قال بِلانو، بالتأكيد أنت تستطيع أن تحصل على عمل لصديقي. لكن لا يوجد مال، قلتُ. لكنّ بالتأكيد يوجدُ سرير فردي، قال بِلانو. المشكلة أنّ صديقك لا أظنّه يعرف بأمور الصيد أو البواخر، قلتُ

أنا. طبعاً يعرف، قال بِلانو. هيه، يا عوليس، أليس صحيحاً أنّك تعرف؟ خراء، قال ليما. بقيتُ أنظر إليهما، لأنّه كان واضحاً أنّ هذا لا يمكن أن يكون حقيقة، كان يكفي أن أرى وجهيهما، لكنّني فكّرت بعدها، من أنا حتى أكون متأكّدة من مهن الناس، فأنا لم أتواجد في أمريكا أبداً، ما أدراني كيف هم الصيّادون في تلك الجهات.

ذهبتُ في ذلك الصباح ذاته لأتكلّم مع ربّ العمل، وقلتُ له إن عندي بحاراً جديداً فأجابني ربُّ العمل، حسن، يا ليبِرت، لينزل في سرير أميدو، لكن لأسبوعٍ واحدٍ فقط. وحين عدتُ إلى بار راؤول، كان على طاولةِ بِلانو وليما زجاجة نبيذ، جاء بعدها راؤول بثلاثة أطباق حساء سمك، حساءٍ متواضع كفاية، لكنّ بِلانو وليما تناولاه مطريين عليه كما لو كان جديراً بتمثيل المطبخ الفرنسي، وأنا لم أعرف ما إذا كانا يسخران من راؤول أم أنّهما كان قالا ذلك بجدّيّة، أظنّهما قالاه بجدّيةٍ وبعدها أكلنا سلطة مع سمكٍ مسلوق، وردّدا التهنئات ذاتها، قالا، سلطة فاخرة، أو سلطة بروفنسالية أصلية، في الوقت الذي كان يبدو للعيان أنّ تلك لم تكن سلطة روسينية بمعنى السلطة. لكنّ راؤول كان سعيداً ثمّ إنّهما كانا زبونين يدفعان نقداً، وهكذا ماذا يمكن أن يطلب أكثر من ذلك؟ ظهر بعدها فرانسوا ومرغريت ودعوناهما للجلوس معنا وبِلانو أصرّ على أن نأكل جميعاً عَقَبَةً، وطلبَ بعدها زجاجةَ شمبانيا، لكنَّ راؤول لم يكن عنده شمبانيا واضطرّ لأن يكتفي بزجاجة نبيذ أخرى، وبسمكتين من أسماك *إيسوبِل* كانتا على طاولة عرض البار، وقدّمتُ لهما ليما، قلتُ لهما: هذا سيعمل معنا، هو بحّار مكسيكي، نعم، يا سيّد، قال بِلانو، سلّم هولنديُّ بحيرة باتزكوارو التائه والبحارةُ على ليما وصافحوه، على الرغم من أنّ شيئاً ما في يدِ ليما بدا لهم غريباً، طبعاً لم تكن يده يدَ صيّادٍ، هذا ما يُلاحَظ على الفور، لكن لا بدّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أنّهما فكّرا، مثلي، من يعرف كيف هم صيّادو ذلك البلد النائي، صيّاد أرواح لا كاسا دِل لاغو في تشابّولْتِبّك، قال بِلانو وهكذا تابعنا، إذا لم تخنّي الذاكرةُ حتى السادسة مساءً. دفعَ بِلانو بعدها الحسابَ، قال لنا وداعاً ومضى إلى كولير.

نامَ ليما في تلك الليلة معنا في *إيسوبِل*. اليوم التالي كان يوماً سيّئاً، أصبح غائماً وقضينا الصباح وجزءاً من المساء في إعدادِ بكرات صيدِ الباخرة. كان من نصيب ليما تنظيفُ قبوِ الباخرة. كانت الرائحة هناك في الأسفل من السوء، نتن سمك زنخ، بحيث أنّها تصرع أكثر الناس قوّة، وكنّا جميعاً نتهرّب من ذلك العمل، لكنّ المكسيكيّ لم يتراجع. أعتقد أنّ ربَّ العمل فعل ذلك كي يختبره. قال له نظِّف القاع. أنا قلتُ له: تظاهر بأنك نظّفته واصعد بعد دقيقتين. لكنّ ليما نزل وبقي هناك أكثر من ساعة. عند الغداء حضّرَ القرصانُ مطبوخَ السمك وليما لم يرغب بأن يأكل. كُلْ، كُلْ، قال له القرصان، لكنّ ليما قال إنّه غير جائع. ارتاح قليلاً، منعزلاً عنّا، كما لو أنّه كان خائفاً من أن يتقيّأ إذا رآنا نأكل وبعدها عاد ونزل إلى قاع السفينة. في الثالثة من صباح اليوم التالي انطلقنا إلى البحر. كفتْ بضع ساعات حتى عرفنا جميعاً أنّ ليما لم يعمل في السفن ولا مرّة واحدة في حياته. على الأقل نأمل ألاّ يسقط من حافّة السفينة قال ربُّ العملِ. كان الآخرون ينظرون إلى ليما، الذي كان يرغب، لكنّه لا يعرف أيّ شيء، وينظرون إلى القرصان، الذي سكر، والشيء الوحيد الذي يستطيعون فعله هو أن يهزّوا بأكتافهم، دون أن يتذمّروا، وإن كانوا يحسدون في تلك اللحظة الرفيقين اللذين نجحا في الحصول على عملٍ بنّائين في بِربينيان. . . أتذكّر أنّ النهارَ كان أقرب إلى الغائم وهناك تهديد بالمطر في الجنوب الشرقي، لكنّ الريح تغيّرت بعدها وابتعدت الغيوم. عند الساعة الثانية عشرة سحبنا

الشباك ولم يكن فيها غير البؤس. في ساعة الطعام كنّا جميعاً بمزاج كلب. أتذكّر أنّ ليما سألني منذ متى والأمور هكذا وأنّني أجبته منذ شهر على الأقل. اقترح القرصانُ مازحاً أن نضرم النار بالسفينة وربُّ العملِ قال له إذا عدت وقلتَ شيئاً مثل هذا سوف أحطِّم وجهك. بعدها وجّهنا السفينة باتجاه الشمالِ الشرقي وعدنا في المساء لنرمي الشباك في مكان لم نعمل فيه من قبل أبداً. كنّا نعملُ، أتذكّر ذلك، بلا رغبة، باستثناءِ القرصان، الذي كان في تلك الساعات من النهار سكراناً تماماً ويقول أشياء غير مترابطة، في غرفة القيادة، كان يتكلّم عن مسدّس كان قد أخفاه، أو كان يبقى ينظر برهةً طويلة إلى نصلِ سكين المطبخ ويبحث بعدها بنظره عن ربّ العملِ ويقول إنّ لكلّ رجلٍ حدّاً، وأشياء من هذا القبيل.

عندما بدأت تُظلم انتبهنا إلى أنّ الشباكَ كانت مليئة. سحبناها وفي القعر كان هناك سمك أكثر من كلّ الأيام السابقة. فجأة رحنا جميعنا نعملُ مثل شياطين. تابعنا نحو الشمال الشرقي وعدنا لنرمي الشباك ومن جديد سحبناها طافحةً بالسمك. حتى القرصان بدأ يعمل بهمّة. هكذا بقينا طوال الليل وطوالَ الصباح، دون أن ننام، مُلاحقين فوج السمك نحو الجانب الشرقي من الخليج. في السادسة من مساء اليوم التالي كان قبوُ السفينة طافحاً، كما لم نره من قبل، على الرغم من أنّ ربَّ العملِ كان يؤكّد أنّه رأى قبل عشر سنوات صيداً يكاد يكون معتبراً مثل هذا. حين عدنا إلى بورت فيندرِس قليلون هم من صدّقوا ما حدث معنا. أنزلنا السمك، ونمنا قليلاً وعدنا لنخرج. هذه المرّة لم نستطع أن نعثر على الفوج الكبير، لكنّ الصيد كان ممتازاً. يمكن القولُ إنّنا عشنا في ذينك الأسبوعين في البحر أكثر مما في الميناء. بعدها عاد كلُّ شيء كما كان من قبل، لكنّنا كنّا نعرف أنّنا أصبحنا أغنياء، فدخلنا كان يقوم على نسبة من الصيد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عندها قال المكسيكيُّ إنّه صارَ في وضع جيّد، وصار عنده نقود كافية كي يعمل ما كان عليه أن يعمله وإنّه سيتركنا. سألناه أنا والقرصان ما الذي كان عليه أن يعمله. أن أسافر، قال لنا، أستطيع أن أشتري بما كسبتُهُ بطاقة طائرة إلى «إسرائيل» بالتأكيد تنتظرك هناك امرأة، قال له القرصان. تقريباً، قال المكسيكي. رافقتُهُ بعدها كي يُكلّم ربَّ العملِ، الذي لم يكن قد حصل على المال بعد، تتأخّر البرادات في الدفع، خاصّة وأنّ الأمر يتعلّق بحمولة بهذا الحجم، واضطرّ ليما لأن يبقى معنا بضعة أيّام أخرى. لكنّه لم يبغِ النوم في إسوبِل. بقي بضعةَ أيّامٍ في الخارج. عندما عدتُ ورأيته قال لي إنّه كان في باريس. قامَ بالرحلة ذهاباً وإياباً بالأوتوستوب. في تلك الليلة دعوناه أنا والقرصان ليأكل في بار راؤول، ذهب بعدها لينام في السفينة، على الرغم من أنّه كان يعرف أنّنا سنخرجُ من بورت فيندرِس في الرابعة صباحاً باتجاه خليج لوس ليونِس لنبحث من جديد عن ذلك الفوج الهائل. بقينا يومين في البحر، والصيد كان عاديّاً.

فضَّل ليما، بدءاً من تلك اللحظة، أن ينامَ فيما تبقى له من وقت حتى يقبض حصته، في كهوف البورّادو. رافقناه أنا والقرصان ذات مساء وأشرنا له إلى أفضل الكهوف، حيث كان البئر وأيّ الطرق عليه أن يسلك ليلاً كي يتفادى أن يهوي، يعني، بعض الأسرار كي يجعل حياته سعيدة في الهواء الطلق. عندما لم نكن في البحر كنّا نلتقي في بار راؤول. صادق ليما مرغريت وفرانسوَا وألمانيّاً يقارب الخامسة والأربعين من عمره، رودولف، كان يعملُ، في بورت فيندرِس وضواحيها، أيَّ عمل وكان يؤكّد أنّه كان في العاشرة من عمره جنديّاً في الورماخت وإنّه حصل على صليب حديديّ. وحين كنّا نُظْهِرُ نحن البقيّة عدم تصديقنا، كان يُخرج الميدالية ويريها لمن يريد أن يراها: صليب حديدي صدئ ومسودّ. بعدها كان يبصق عليه ويشتمُ

بالألمانية والفرنسية. كان يضع الميدالية على بعد ثلاثين سنتمتراً من وجهه ويُكلّمها كما لو أنّها قزم ويعضّها ثم كان ينزلها ويبصق عليها باحتقار أو حنقٍ. قلتُ له ذات ليلة: إذا كنتَ تكره هذه الميدالية العاهرة إلى هذا الحدّ فلماذا لا ترمي بها لمرّةٍ واحدة عاهرة في البحر العاهر وتنتهي؟ عندها لزم رودولف الصمت كما لو أنّه خجل وخبّأ الصليب الحديديَّ في جيبه.

وذات صباح تلقينا أخيراً أجرتنا وفي ذلك الصباح ذاته ظهر بِلانو مرّة أخرى واحتفلنا بالرحلةِ التي كان سيقوم بها ليما إلى «إسرائيل». عند منتصف الليل رافقناهما أنا والقرصان حتى المحطّة. كان ليما سيأخذ القطار إلى باريس عند الثانية ليلاً وفي باريس سيأخذ أول طائرة في طريقها إلى تل أبيب. في المحطّة أُقسم لكم لم يكن هناك من أحد. جلسنا على مقعد في الخارج وبعدها بقليل أخذ النوم القرصان. حسن، قال بِلانو، يبدو لي أنّ هذه هي المرّة الأخيرة التي نلتقي فيها. كان قد مضى علينا برهة طويلة صامتين فأجفلني صوتُهُ. فكّرتُ أنّه كان يتوجّه بالكلام إليّ، لكن عندما ردّ عليه ليما بالإسبانيّة عرفت أنّه لم يكن يتكلّم معي. تابعا هما ثرثرتهما برهةً. جاء بعدها القطار، القطار الذي كان قادماً من سيربير، فنهض ليما وقال لنا وداعاً. شكراً لأنّك علّمتني السفر بالسفينة، يا ليبِرت، هذا ما قاله لي. لم يبغِ أن نوقِظ القرصان. رافقه بِلانو حتى باب القطار. رأيت كيف كانا يتصافحان، سار القطار بعدها. نام بِلانو تلك الليلة في البورّادو وذهبنا أنا والقرصان إلى *إيسوبِل*. في اليوم التالي لم يكن بِلانو في بورت فيندرِس.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٩

أماديو سالباتييرّا، شارع جمهورية فنزيلا، قرب قصر التفتيش، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦.

فجأة شعرتُ بأنَّ أحداً يُكلّمني. يقول: يا سيّد سالباتييرّا، يا أماديو، هل أنت بخير؟ فتحتُ عينيَّ وهناك كان الفَتَيان، واحد منهما يحملُ زجاجة ساوثا في يده وأنا قلتُ لهما: لا شيء، أيّها الفتيان، فقط غفوت قليلاً، في عمري يتمكّن مِنّا النومُ في أقل اللحظات مناسبة ولامعقولية، ولا يتمكّن منّا عندما يجب عليه أن يتمكّن مِنّا، أي في الثانية عشرة ليلاً وفي أسرّتنا، عندها يختفي النعاسُ الديوث أو يتغافل فنأرق نحن الشيوخ. لكن بالنسبة إليّ أنا لا يزعجني الأرقُ لأنّني بهذا الشكل أقضي الساعات في القراءة بل ومن حين لآخر يكون لديّ وقت كي أراجع أوراقي. السيّئ في الأمر هو أنّني أبقى نائماً في أيّ مكان، بما في ذلك العمل، وتسوء السمعة. لا تقلق، يا أماديو، قال الفتيان، إذا أردت أن تأخذ غفوة، خذها ولا حرج، نحن نستطيع أن نأتي في يومٍ آخر. لا، أيّها الفتيان، أنا الآن في وضع جيّد، قلتُ لهما، لنرَ ما بها التِكيلا؟ وعند ذلك فتح أحدهما الزجاجةَ وصبَّ سلافةَ الآلهةِ في الكؤوس، ذاتها التي شربنا بها المِشكال قبل ذلك، وهو ما يُعتبر بالنسبة للبعض علامة إهمال وبالنسبة لآخرين ملذة ألفِ شيطان إذ ولأنّ الزجاج

مطلي بالمِثكال، فإنّ التِكيلا تصبح أفضل مذاقاً كما لو أنّنا نُلبسُ امرأةً عاريةً معطفاً جلديّاً. إذن صحّة! قلتُ. صحّة، قالا. أخرجتُ بعدها المجلّةَ التي كانت ما تزال تحتَ إبطي ومرَّرتُها أمام عيونهما. آه، يا لهما من فَتَيَيْن، كلاهما قام بحركة من سيأخذها، لكنّهما لم يستطيعا. هذا هو أوّل وآخر عددٍ من *كابوركا*، قلتُ لهما، المجلّة التي أصدرتها ثِسارِيا، الجهاز الرسمي، كمن يقول، للواقعية الأحشائيّة. طبعاً معظم المنشورات ليست للمجموعة. هو ذا هنا مانوِل، خِرمان، أركِلِس ليس موجوداً، سالفادور غايّاردو موجود، انتبها: سالفادور نوبو موجود، لِثكانو موجود، إنكارناثيون غوثمان أرّدوندو موجودة، خادمكم موجود، يلينا الأجانبُ: تريستان تزارا، أندريه بريتون وفيليبّ سوبولت، ماذا؟ يا له من ثلاثيّ. وعندها فعلاً تركتهما ينتزعان منّي مجلّةَ ثِساريا، كم راقت لي رؤيتهما وهما يُدخلان رأسيهما في تلك الأوراق القديمة على الرغم من أنّ أول شيء ذهب إليه الكوسموبوليتيُّون هي الترجمات، قصائد تزارا وبريتون وسوبولت، المترجمة على التوالي من قبل بابليتو لِثكانو، ثِساريا تيناخِرو وثِساريا وخادمكم. إذا لم تخنّي ذاكرتي كانت القصائد هي: «المستنقع الأبيض»، «الليلة البيضاء» و«الفجر والمدينة» التي أصرّت ثِساريا تيناخِرو على ترجمتها بـ«المدينة البيضاء»، لكنّني رفضتُ. تقولون لماذا؟ لأنّه لا، يا سادة، فالفجر والمدينة شيء والمدينة البيضاء اللون شيء آخر مختلف جدّاً، وأنا لا أقبل هذا، مهما كبر ودّي لِثِساريا، في تلك الأزمنة، لم يكن كبيراً بما يكفي، هذا صحيح، لكنّه كان كبيراً بالرغم من كلِّ شيء. طبعاً لغتنا الفرنسية جميعاً، ربّما باستثناء بابليتو، كانت مُثبطة، وعمليّاً حتى ولو كلّفكم تصديق ذلك، نسيتها كلّياً، ومع ذلك كنّا نُترجِم، ثِساريا بطريقة وحشيّة إذا سُمِحَ لي بالمجاز، معيدة خلق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القصيدة تماماً كما كانت تشعر بها هي وقتذاك، وأنا أتابع حرفيّاً سواء الروح التي لا يمكن الإمساك بها كما الكلمة في الأصل. طبعاً كنّا نُخطِئ، كانت القصائد تخرج معنا مثل قِدر، وفوق ذلك، لا تظنّ، كانت لنا أفكارنا، وآراؤنا. مثلاً، أنا وقصيدة سوبولت، الحقيقة الخالصة: كان سوبولت بالنسبة إليّ شاعرَ القرنِ الفرنسي العظيم، الذي كان سيصل مكانة أبعد، تمعّنوا جيّداً، هذا مع أنّني لم أسمعهم يتكلّمون عنه منذ زمن سحيق، على الرغم من أنّه ما يزال حيّاً كما يبدو. بالمقابل لم أكن أعرف عن إيلوار شيئاً، وتصوّر المكانة إلى أين وصل، لم تنقصه سوى جائزة نوبل، أليس كذلك؟ هل أعطوا أراغون نوبل؟ لا، أتصوّر أنّهم لم يمنحوها له. لكنّهم منحوها كما أعتقد لِشار، لكنّ هذا لا يبدو أنّه كان يكتب الشعر وقتذاك. وسان جان بِرس هل منحوه جائزةَ نوبل؟ ليس لي رأي في هذا. من المؤكّد أنّهم لم يمنحوها لِتريستان تزارا. يا لمفارقات الحياة. راح الفَتَيان بعدها يقرأآن لي لِمانوِل، لِلِيْسْت، لسالفادور نوفو (سَحَرَهما!)، (لا، لي، من الأفضل ألا تقرأا، يا للأسف، يا لضياع الوقت) إنكارناثيون، بابليتو، (من كانت إنكارناثيون غوثمان هذه؟ سألاني. من كان بابليتو لِثكانو هذا، الذي كان يُترجم لِتزارا ويكتب مثل مارينِتّي وكما يُقال كان يتقن الفرنسية مثل صاحب منحة في أليانثا؟ وكان هذا بالنسبة إلي كما لو أنّهما قرناني مرّة أخرى، كما لو أنّ الليل توقّف، وراح ينظر إليّ عبر شقّ النافذة ويقول: يا سيّد سالباتيبرّا، يا أماديو، أذنت لك، اخرج إلى الحلبة وأنشدْ حتى يبحّ صوتُك، أي أنّه كان كما لو أنّ نعاسي انتهى، والتِكيلا، التي شربتها توّاً التقت في أحشائي، في كبدي الذي من سبجٍ، مع مِثكال «المنتحرون» وينحني تحية له، كما يجب أن يكون، فما زال هناك طبقات. وهكذا صببنا دورةً أخرى وبعدها رحتُ أحكي لهما أشياء

عن بابليتو لِثانو وعن إنكارناثيون غوثمان. لم تعجبهما قصيدتا إنكارناثيون، كانا صريحين جدّاً معي، لم يكن باستطاعتهما أن تنهضا ولا حتى على عكّازتين، يا للعجب، إنه شيء يقارب كثيراً ما كنتُ أُفكّرُ وأؤمن به. هو أنّ المسكينة إنكارناثيون ظهرت في *كابوركا*، ليس لجدارتها بقدر ما لِسبب ضعف شاعرة أخرى، أليس صحيحاً؟ بسبب ضعف ثِساريا تيناخِرو، التي من يدري ما الذي رأته في إنكارناثيون أو إلى أيّ مدى وصلت الالتزامات التي حصلت عليها منها أو من نفسها. الأمر الطبيعيّ في الحياة الثقافية المكسيكية، النشر للأصدقاء. وإنكارناثيون يمكن ألا تكون شاعرة جيّدة (مثلي أنا نفسي)، بل ويمكن ألا تكن شاعرة، جيّدة ولا سيّئة (مثلي أنا نفسي، آخ)، لكنّها فعلاً كانت صديقة جيّدة لِثِساريا. وثِساريا، كانت قادرة على أن تنزع الخبز أو العجّة من فمها من أجل أصدقائها! هكذا كان أن كلّمتُهما عن إنكارناثيون غوثمان، قلت لهما إنّها وُلِدت في العاصمة الفيدرالية عام ١٩٠٣، تقريباً، بحسب تقديراتي وإنّها تعرّفت على ثِساريا عند خروجها من السينما، لا تضحكا، هذه حقيقة، لا أعرف الفيلم، لكنه لا بدّ كان حزيناً، ربّما كان فيلماً لشابلن، المسألة أنّ الاثنتين كانتا تبكيان عند خروجهما وتبادلتا النظرات وراحتا تضحكان، ثِساريا تضحك ضحكةً مدوّية بمرحها الخاصّ الذي كان ينفجر أحياناً، كانت تكفيها شرارة، نظرة وبوووم! فجأة تروح تتقلّب من الضحك، وإنكارناثيون، حسن، أعتقد أنّ إنكارناثيون ضحكت برصانة أكثر. كانت ثِساريا تعيشُ في تلك المرحلة في منطقةٍ موجودة في شارع لاس كروثِس وإنكارناثيون تعيش مع عمّة لها (كانت المسكينة يتيمة الأبِ والأم) في شارع لاس دِليثياس، كما أعتقد. كلاهما كانتا تعملان طوال النهار. ثِساريا في مكتبِ سيّدي الجنرال دييغو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كارباخال، وهو جنرال صديق للصخّبيين وإن كان لا يعرفُ شيئاً عن الأدب، هذه هي الحقيقة، وإنكارناثيون كعاملة في حانوت للملابس في نينيو بِرديدو. من يدري لماذا أصبحتا صديقتين، ماذا رأت الواحدة منهما في الأخرى؟ لم تكن ثِساريا تملك شيئاً في هذا العالم، لكنّك إذا نظرتَ إليها لثانية واحدة ترى أنّها كانت امرأة تعرف ما تريد. كانت إنكارناثيون بعكسها، حلوة جدّاً، هذا نعم، شديدة العناية بنفسها، مهندمة دائماً (ثِساريا كانت تلبسُ أوّلَ شيء يقع في طريقها، وكانت تمضي أحياناً حتى بالمنديل المكسيكي[1])، لكنّها غير واثقة من نفسها وهشّة مثل تمثال من خزف صغير في مشاجرة بين سكرانين. كان صوتها، كيف سأقول؟ كالصفير، صوتاً ناحلاً، بلا قوّة، لكنّها اعتادت أن ترفعه كي يسمعها الآخرون، معتادة المسكينة منذ صغرها على عدم الثقة بمعيار صوتها، الصوت الزاعق، وبكلمة واحدة الصوت المزعج جدّاً وأنا عدت وسمعته بعد سنوات كثيرة، بالضبط في دار للسينما وهي تشاهدُ، ونحن نشاهد فيلمَ صورٍ متحرّكة قصيراً، حيث كانت قطّةٌ أو كلبة، أو يمكن أن تكون فأرة صغيرة، تعرفان كم هم الأمريكيون مهرة في الرسوم المتحرّكة، تتكلّم مثل إنكارناثيون غوثمان. أعتقد أنّها لو كانت خرساء لكان عشقها أكثر من واحدٍ، لكن بذلك الصوت كان ذلك محالاً. ثم إنّها فيما عدا ذلك كانت غير ذات ألمعيّة. ثِساريا هي التي جاءت بها ذات يوم عندما كنّا جميعاً صَخَبيين أو مناصرين للصّخبيّة. في البداية نالت الإعجاب. أقولُ، خلال بقائها صامتة.

---

(١) Rebozo قطعة من قماش ملون طولها بحدود المتر والنص للنساء في المكسيك، كانت تحمل فيه الأمهات أولادهنّ فيه على ظهورهنّ أو صدورهنّ.

ربّما غازلها غوثمان أكثر من مرّة، وربّما أنا نفسي فعلت ذلك. لكنّها حافظت على موقف متحفّظ أو خجول. ولا تتعامل إلا مع ثِساريا. ومع ذلك راحت مع الوقت تنمو، تزداد ثقة بنفسها، وبدأت ذات ليلة تدلي برأيها، تنقدُ وتقترحُ. ولم يبقَ أمام مانوِل غير أن يضعها في مكانها. قال لها، يا إنكارناثيون، لكنّك لا تعرفين شيئاً عن الشعر، أليس من الأفضل لك أن تسكتي؟ وهنا وقعت الواقعة. إنكارناثيون التي ربّما كانت تجسيداً للبراءة، لم تتوقّع مواجهة بهذا الشكل، وبلغت من الشحوب ما جعلنا نفكّر أنّها ستسقط في مكانها مغشياً عليها. ثِساريا، التي حين كانت تتكلّم إنكارناثيون تقف عادةً في البعد الثاني، كما لو أنّها غير موجودة، نهضت من مقعدها وقالت لمانوِل إنّ هذه ليست طريقة للكلام مع امرأة. لكن ألم تسمعي الفظائع التي قالتها؟ قال مانوِل. سمعتُها، قالت ثِساريا، التي مهما بدت متجاهلة إلاّ أنّها في الحقيقة لم تكن تُضَيِّع حركة واحدة من حركات صديقتها ومدلَّلَتِها، وما زلتُ أرى أنّ ما قلتَهُ يتطلّب اعتذاراً. حسن، أعتذر، قال مانوِل، لكنّني من الآن فصاعداً لن أفتح فمي. كان أركِلِس وخِرمان متفقين معه. ،خَلَصُوا إلى أنّ من لا يعرف عليهِ ألّا يَتَكَلّم. هذه قلّة احترام، قالت ثِساريا، أن تحرمَ شخصاً من حقّه بالكلام. في الاجتماع الثاني، لم تأتِ إنكارناثيون ولا ثِساريا. كانت الاجتماعات غير رسمية، وما من أحد شعر، على الأقل ظاهرياً، بغيابهما. فقط عندما انتهى الاجتماع ورحنا أنا وبابليتو لِثكانو نسير في شوارع المركز ننشد أشعارَ الرجعيّ تابلادو انتبهتُ إلى أنّها لم تكن موجودة وانتبهتُ أيضاً إلى قلّة ما أعرفه أنا عن ثِساريا تيناخِرو.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خواكين فونت، طريق صحراء الأسود[1]، في ضواحي مكسيكو العاصمة الفيدرالية، آذار ١٩٧٩.

جاءني يوماً مجهولٌ لزيارتي. هذا ما أتذكّره من العام ١٩٧٨. لم تكن الزيارات كثيرة، فقط كانت تأتي ابنتي وسيّدة وفتاة أخرى تقول إنّها ابنتي أيضاً، وكانت جميلة جمالاً قلّ نظيره. المجهول لم يكن قد جاء من قبل قط. استقبلتُهُ في الحديقة، وأنا أنظر إلى الشمال، على الرغم من أنّ جميع المجانين ينظرون إلى الجنوب أو الغرب، كنتُ أنظرُ إلى الشمال وهكذا استقبلتُهُ. قال المجهولُ صباح الخير، يا كيم، كيف حالك اليوم. وأنا أجبته مثل البارحة ومثل أوّلِ البارحة. سألته عمّا إذا أرسله مكتبي، مكتب الهندسة المعمارية، فوجهه وآدابه لم تكن غريبة جدّاً عنّي. عندها ضحك المجهولُ وقال، كيف يمكن يا رجل ألّا تتذكّرني، ألا تُبالِغ؟ وأنا أيضاً ضحكتُ، كي أكسب ثقة، وقلتُ ولا بشكل من الأشكال، وإنّ سؤالي كان صريحاً، مثل أيّ سؤال. وعندها قال المجهولُ أنا داميان، ألبارو داميان، صديقُكَ. ثمّ قال: يا رجل، نحن نعرفُ بعضنا منذ سنواتٍ كثيرة، كيف يمكن ذلك. وأنا كي أُهدّئه أو كيلا أُحزنه قلت له بلى، الآن تذكّرت. وهو ابتسم (على الرغم من أنّني لم أحسّ بالفرح في عينيه) وقال هذا أفضل، يا كيم، كما لو أنّ أطبائي وممرِّضيَّ أعاروه أصواتهم وقلقهم. وعندما ذهب، أعتقد أنّني نسيتُهُ، إذ عاد بعد شهرٍ وقال لي كنتُ قبل ذلك هنا، مشفى المجانين هذا ليس غريباً عليّ، المباول موجودة هناك، وهذه الحديقة متجهة نحو الشمال. وفي الشهر التالي قال لي: أنا أزورك منذ أكثر من سنتين، يا رجل، لنرَ ما إذا كنتَ تُفعِّلُ ذاكرتك قليلاً. وهكذا قمتُ بجهد وفي المرّة التالية التي عاد فيها، قلتُ له كيف حالك يا

(١) Camino del Desierto de los Leones

سيّد ألبارو داميان، وهو ابتسم، لكنّ عينيه بقيتا حزينتين، كما لو أنّه ينظر إلى كلّ شيء انطلاقاً من ألمٍ كبير جدّاً.

خاثينتو رِكِنا، مقهى كيتو، شارع بوكارِلي، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، آذار ١٩٧٩.

كان غريباً فعلاً. أعرفُ أنّها كانت مصادفة محضة، لكنّها أحياناً تبعث على التفكير. عندما قلت هذا لرافائيل قال لي إنّها من تهيّؤاتي. قلتُ له: هل انتبهتَ إلى أنّه صار يوجدُ الآن، بعد أن لم يعد عوليس وأرتورو يعيشان في المكسيك، شعراءُ أكثر؟ كيف صار هناك شعراء أكثر؟ سألَ رافائيل. شعراء من أعمارنا، قلتُ أنا، شعراء وُلِدوا في ١٩٥٤، ١٩٥٥، ١٩٥٦. وأنتَ كيف تعرف ذلك؟ سألني رافائيل. حسنٌ، قلت له، أنا أتحرّكُ، أقرأُ مجلاتٍ، أذهبُ إلى أماسي شعرية، أقرأ مُلحقاتٍ، بل وأحياناً أسمعها في الإذاعة. وأنتَ كيف يَتَوَفّر لديك الوقتُ لتعمل كلّ هذه الأشياء وعندك ابن صغير؟ سأل رافائيل. فرانز يسحرُهُ سماعُ الإذاعة، قلتُ. أُشعلُ المذياع فيأخذه النوم. هل هم يقرأون الآن في الإذاعة قصائد؟ استغرب رافائيل. بلى، قلتُ له. في الإذاعة وفي المجلات. إنّه مثل انفجار. في كلّ يومٍ تظهر دارُ نشر جديدة تنشر لشعراء جدد. وكلّ هذا تماماً بعدما رحل عوليس. غريب، أليس كذلك؟ لا أرى فيه أيّ غرابة، قال رافائيل. انفجار مفاجئ وغير مُبرَّر، ازدهارُ المدارسِ المائة، قلتُ، وبالمصادفة كلُّ ذلك يحدث عندما لم يعد عوليس موجوداً. ألا تبدو لك أكثر من مصادفة؟ غالبيتُهم شعراءُ سيّئون جدّاً، قال رافائيل، وشاة بُاث، إفرائين، خوسِميليو، الشعراء الريفيون، قمامة خالصة. لا أُنكِرُ ذلك، قلتُ، ولا أؤكّده، العدد هو الذي يُقلقني، ظهر الكثيرون وفجأة. حتى أنّ هناك واحداً يُعِدّ مختارات لكلّ شعراء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المكسيك. بلى، قال رافائيل، أعرفُ هذا. (أنا كنتُ أعرف أنّه كان يعرف). ولن يضمنها قصائد لي. وكيف عرفتَ ذلك؟ سألتُهُ. أكّدَهُ لي صديقٌ، قال رافائيل، لا أريدُ أيّ تَعَامل من أيّ نوعٍ مع الواقعيين الأحشائيين. عندها قلتُ له، إنّ هذا ليس صحيحاً تماماً، فإذا كان صحيحاً أنّ الديوث الذي كان يُعِدُّ المختارات قد استبعدَ عوليس ليما، فإنه لم يحدث الشيء ذاته مع ماريّا وأنخِليكا فونت ولا مع إرنِستو سان إبيفانيو ولا معي. مِنّا، بلى يُريدُ قصائد. لم يردّ رافائيل، كنّا نمشي في ميسترِيوس، ورافائيلِ نظر إلى الأفق، سحائب دخان، ضباب مساءِ العاصمة الفيدرالية. وأنتم هل ستظهرون في المختارات؟ سأل رافائيل، بعد برهة طويلة. ماريّا وأنخِليكا، لا أعرف، فأنا منذ زمن طويل لم أرهما. أرنستو بالتأكيد، وأنا بالتأكيد لا. وكيف أنّك. . . ؟ قال رافائيل، لكنّني لم أدَعْه يُكمل سؤاله. لأنّني أنا واقعيّ أحشائيّ، قلتُ له، وإذا لم يُدخِل هذا الديوثُ عوليس في المختارات، عليه ألا يعتمد عليّ.

لويس سِباستيان روسادو، استوديو في ظلمة، حي كويواكان، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، آذار ١٩٧٩.

بلى، إنّ الظاهرة مثيرة للفضول، لكن ولأسبابٍ غريبة عن تلك التي يستعرضها خاثينتو رِكِنا بمسحَةٍ من سذاجة. في المكسيك وُجِد بالفعل انفجارٌ سكّاني من الشعراء. وضح هذا بدءاً من كانون الثاني ١٩٧٧. أو من كانون الثاني ١٩٧٦. الدقة الزمنية مُحالة. من بين الأسباب المختلفة التي ساهمت في ذلك، أوضحُها هو تطوّرٌ اقتصاديٌ مستديم إلى هذا الحدّ أو ذاك (منذ ١٩٦٠ وحتى الآن)، ترسُّخُ الطبقات الوسطى ووجودُ جامعة هي في كلّ مرّة أفضلُ تنظيماً، بخاصّة في فرعها الإنساني.

لنرَ عن قرب هذه المجموعة الجديدة من الشعراء، الذين أنا على الأقل من ناحية العمرِ مُضَمَّن بينهم. غالبيتهم جامعيون. نسبة كبيرة منهم ينشرون أشعارهم الأولى وحتى كتبهم الأولى في مجلات ودور نشر تابعة للجامعة أو لوزارة التربية. نسبة كبيرة منهم، كذلك، يُتقنون، إلى جانب الإسبانية، لغةً أخرى عادةً ما تكون الإنكليزية وبنسبة أقلّ الفرنسية ويترجمون شعراءَ من هاتين اللغتين، ولا يخلو الأمرُ من مترجمين مبتدئين عن الإيطالية والبرتغالية والألمانية. بعضهم، يضم إلى نزعته الشعرية عمله كناشر هاوٍ، وهو ما يعزّز كثيراً ظهورَ مبادراتٍ قيّمة من هذه الطبيعة. ربّما لم يحدث قط أن وُجِدَ في المكسيك كما يحدث الآن كلُّ هذا الكم من الشعراء الشباب. هل يعني هذا أنّ الشعراء الذين تقلُّ أعمارُهم عن الثلاثين عاماً، مثلاً، هم أفضل من أولئك الذين كانوا في مثل هذا العمر في عقد الستينات؟ هل من الممكن العثور بين الشعراءِ الأكثف حداثة على من يُعادلون بِثِرّا، خوسِهْ إميليو باتشِكو، هومِرو أريدخيس؟ هذا ما يزال حتى الآن قيد البحث.

ومع ذلك فإنّ مبادرةَ إسماعيل هومبِرتو ثاركو، تبدو لي تامّة. كانت قد حانت ساعة عمل مختارات للشعر المكسيكي الشابّ بالصرامة تلك التي أعدَّ بها مونتسيبايس مختاراته الخالدة في جوانب كثيرة، شعر *القرن العشرين المكسيكي*! أو مثل المختارات النموذجيّة التي وضعها أوكتافيو باث، علي تشوماثِرو وهومِرو أريدخيس، شعر في حركة! عليَّ أن أعترف أنّني شعرتُ بنفسي مسروراً حين هتف لي إسماعيل هومبِرتو ثاركو إلى البيت وقال لي: يا لويس سِباستيان، عليك أن تُساعدني قليلاً. أنا، طبعاً بمساعدة وبدون مساعدة كنتُ مُضَمّناً في مختاراته، لنقل طبعاً (ما كنتُ أجهله هو بكم من القصائد سأشارك)، وكذلك أصدقائي، عرفتُ، وهكذا فإنّ زيارتي إلى بيت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ثاركو كانت بدايةً زيارةَ مساعدٍ فقط، فلربما فاته تفصيلٌ ما، وهو ما يعني في هذه الحالة المحدّدة مجلةً ما أو كتاباً ينشر في المناطق، اسمان أو أكثر لا يستطيع جهد ثاركو أن يسمح له بترف تجاهلها.

لكن شاء القدرُ أن أعرف خلال الفترة الفاصلة بين مكالمة إسماعيل هومبِرتو وزيارتي، ثلاثة أيام أو أقل، عددَ الشعراء الذي كان يُفكّرُ المختارُ بتضمينهم، عدد مفرط بكلّ وضوح، ديمقراطيّ، لكنّه يخلو من الواقعية، فريد كمشروع، لكنّه متواضع كبوتقة للشعر. وأغواني الشيطان، أدخلَ أفكاراً في رأسي في تلك الأيام الفاصلة ما بين مكالمة ثاركو ولقائنا، كما لو أنّ الانتظارَ (لكن أيّ انتظار، يا إلهي؟) كان الصحراءَ وزيارتي اللحظةَ التي يفتح فيها المرء عينيه ويرى مُخلِّصَهُ. وكانت تلك الأيام الثلاثة مثل عاصفة من الشكوك. (أو الشكوك المؤكّدة. لكنّها عاصفة، هذا ما أحسستُ به بوضوح، كانت تُعذّبني وتجعلني أشكّ (أو أشكّ مع التأكيد) لكنّها أيضاً كانت تجعلني أستمتع، كما لو أنّ اللهب يُحدِث عندي ألماً ولذّة في آنٍ معاً.

كانت فكرتي، أو وسواسي هو التالي: أن أقترح على ثاركو أن يُضمّنَ البَشَرَة الإلهيةَ في المختارات. لصالحي كان العددُ وضدّي كان كلّ ما عداه. بدا لي الخوفُ من هذه المبادرة في البداية، أعترِفُ، أقربَ لأن يموت المرء من الضحك. تماماً خفتُ من نفسي. بعدها بدا لي كما لو كي يموت المرء حزناً. بعدها حين استطعتُ أن أنظر إليها وأروزُها أخيراً بشيء من البرودة (طبعاً على الرغم من أن هذا مجرّد كلام) بدت لي محترمة وحزينة وخفتُ جدّيّاً على سلامتي العقلية. ملكتُ، هذا صحيح، الحصافةَ أو الدهاء بأن لا أُعلن عن هدفي لصاحب العلاقة الرئيسيّ، أيّ للبشرة الإلهية، الذي كنتُ ألتقي به ثلاثَ مرّاتٍ في الشهر، مرّتين في الشهر وفي بعض المناسبات مرّةً واحدة أو لا ألتقي به أبداً، فغيابه كان يطول

عادة وظهوره يأتي مفاجئاً. تبعت علاقتُنا، منذ أن التقينا في استوديو إميليو لاغونا، مساراً غير منتظم، فأحياناً كان صاعداً (خاصّة بالنسبة إليّ) وأخرى لا وجود له.

اعتدنا أن نلتقي في شقّة كانت لعائلتي في شارع نابولي وكانت فارغة، على الرغم من أنّ النهج المتبع للقاءاتنا كان أكثر تعقيداً بكثير. كان البشرةُ الإلهية يهتف لي إلى بيت والديَّ وبما أنّني كنتُ لا أكاد أتواجدُ أبداً هناك كان يترك لي رسالة باسم إستِفانو. أقسمُ إنّني لست من اقترح عليه هذا الاسمَ. بحسب قوله كان تكريماً لستيفان مارلارميهْ، المؤلف الذي عرفته سماعاً فقط (مثل كلّ شيء، من ناحية أخرى)، لكن، من يدري لماذا يحدث هذا الربط الذهني، ويعتبر كواحد من أرواحي الراعية. بكلمة واحدة: الاسم الذي كان يترك رسائله به كان نوعاً من التكريم لما كان يعتقد أنّه الأغلى بالنسبة إليّ. أي أنّ الاسم الزائف كان ينطوي على جاذبية، رغبة، حاجة (لا أجرؤ على تسميتها بالحبّ) صادقة تجاهي، وهو ما أدركتُ مع مرور الأشهرِ وبعد تأملاتٍ لا تُحصى، أنّه يملؤني بالفرح.

كنّا بعد رسائله نلتقي عادةً في ساحة إنسورخِنتِسْ، في مدخل حانوت مخصّص للغذائيات النباتية. بعدها كنّا نضيع في المدينة، في مقاهي وحاناتِ المنطقة الشمالية، في محيط لا بيّا، حيث لم أكن أعرف أحداً وحيث لم يكن عند البشرة الإلهية أيّ غضاضة في أن يُقدِّمَ لي أصدقاء وصديقات كانوا يظهرون في أقلّ الأماكن توقّعاً، وكانت مظاهرهم تتحدّث عن مكسيك السجون أكثر مما عن مكسيك الآخر المُختلِف، وإن كان الآخر المُختلف، كما حاولوا أن يُفسروه، قابلاً لأن يُرى في أيّ مكانٍ آخر. (مثل الروح القدس، قال البشرة الإلهية، يعني النبيل الفطري) وحين كان يحلّ الليل كنّا ننزل في أحطّ النزلِ أو الفنادق، لكن بشيء من البهاء (لا أريدُ أن أظهر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رومانسياً، لكن أقول: بشيء من الأمل) الموجود في بوندوخيتو أو في محيط تالسيمان. كانت علاقتنا طيفية. لا أريد أن أتكلّم عن الحب، وأرفضُ أن أتكلّم عن الرغبة. كنّا نشترك في أشياء قليلة: بعض الأفلام، بعض التماثيل الصغيرة من صناعة المهنِ اليدوية الشعبية، متعته في روايةِ الحكايات اليائسة ومتعتي في سماعها.

كان أحياناً لا مناصَ يهديني بعضَ المجلات التي كان يُصدرها الواقعيّون الأحشائيون. ما من واحدة رأيت له فيها قصيدة. عمليّاً حين خطر لي أن أُكَلِّم ثاركو عن شعرِ البشرة الإلهية لم أكن أحمل غير قصيدتين له، كلتاهما غير منشورتين. واحدة كانت نسخة سيّئة لقصيدة سيّئة لِجِنسبِرغ. والأخرى قصيدة نثرية غريبة، ما كان ليرفضها تُورّي، يتكلّم فيها بشكل غامض عن فنادق ومعارك، وأنا كنتُ أعتقد أنّها مستلهمة منّي.

بالكاد استطعت في الليلة السابقة على موعدي مع ثاركو أن أنام، شعرتُ بنفسي مثل جولييت مكسيكية، محصورة في معركة صماء بين مُونتيغيو وكابوليتو. كانت علاقتي مع البشرة الإلهيّة سرّية، على الأقل إلى الحدِّ الذي كان باستطاعتي السيطرة عليه. لا أعني أنّهم في دائرة الأصدقاء كانوا يجهلون مِثْلِيَّتي، التي كنت أمارسها بحذر لكن من دون إخفاء. ما كانوا فعلاً يجهلونه هو أنّني أتفاهم مع واقعيٍّ أحشائيّ، وإن كان أقلهم جميعاً نموذجية، لكنّه في النهاية واقعيّ أحشائي. كيف سيستقبل ألبِرتيتو مور اقتراحي تضمين البشرة الإلهية في المختارات. ماذا كان سيُفكّر بِبّين مورادو؟ هل سيظنّ أدولفيتو أولمو أنّني جُننت؟ وإسماعيل هومبِرتو نفسه، البارد جدّاً والساخر جدّاً، الماورائي ظاهرياً، ألن يرى في اقتراحي خيانة؟

هكذا عندما مثلتُ في بيت إسماعيل هومبِرتو ثاركو وأريته تينك القصيدتين اللتين كنتُ أحملهما ككنزين، كنتُ داخلياً جاهزاً كي

أكون هدفاً لأكثر الأسئلة مكراً، كما حدث، فإسماعيل هومبِرتو ليس غبيّاً وانتبه على الفور إلى أنّ مُحميَّ كان خارج القانون، كما يُقال عادةً. من حسن الحظّ (إسماعيل هومبِرتو ليس غبياً، لكنّه أيضاً ليس إلهاً) أنّه لم يربط بينه وبين الواقعيين الأحشائيين.

صارعتُ بشدّة من أجل قصيدة البشَرَة الإلهيّة النثريّة. قلتُ بما أنّ المختارات لم تكن ولا بشكل من الأشكال صارمة في موضوع عدد الشعراء، فما همّ أن يُضاف إليها نصٌّ لصديق. أظهر صاحبُ المختارات عدم مرونة. كان يُفكّر أن ينشر لأكثر من مئتي شاعر شاب، غالبيّتهم بقصيدة واحدة، لكن ليس للبشرة الإلهيّة.

سألني في لحظة من لحظات نقاشنا عن اسم مَحميَّ، لا أعرف، قلتُ، مُسْتَنْفَداً وخجِلاً.

عندما عدتُ والتقيتُ بالبشرة الإلهية، حكيت له في لحظة ضعف، عن جهودي العبثية من أجل تضمين نصٍّ له في كتاب ثاركو المنتظر. رأيت في طريقته بالنظر إليَّ نوعاً من الامتنان. سألني بعدها عمّا إذا كانت مختارات إسماعيل هومبِرتو تتضمّن بانتشو وموكتِزوما رودريغِث. لا، قلتُ، أعتقد لا. وخاثينتو رِكِنا؟ ورافائيل بارّيوس؟ أيضاً لا. قلتُ. وماريّا وأنجِليكا فونتْ؟ أيضاً لا وإرنِستو سان إبيفانيو؟ نفيتُ بحركة من رأسي. على الرغم من أنّني لم أكن أعرف، فهذا الاسم لا أتذكّره أبداً. وعوليس ليما؟ تمعّنت جيداً في عينيه الداكنتين وقلت لا. إذن من الأفضل ألا أظهر أنا أيضاً فيها، قال هو.

أنخِليكا فونت، شارع كوليما، حي كوندِسا، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، نيسان ١٩٧٩.

في نهاية العام ١٩٧٧ أدخلوا إرنِستو سان إبيفانيو إلى أحد المشافي كي يفتحوا له رأسه ويقصوا انتفاخاً في شريان من الدماغ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومع ذلك اضطروا بعد أسبوع لأنّ يعودوا ويفتحوه له، إذ يبدو أنّهم نسوا شيئاً داخل رأسه. كان أملُ الأطباء في العملية الثانية بحدوده الدنيا. إذا لم يجروا له العملية قد يموت، وإذا أجروها له قد يموت، لكنّ احتمال الموت أقل قليلاً. هذا ما فهمته وكنتُ الشخصَ الوحيد الذي لازمه طوال الوقت. أنا وأمّه، على الرغم من أنّ أمّه لا تُحْسَبُ، فزياراتها اليومية للمشفى حوّلتها إلى امرأة لامرئية: عندما كانت تظهر كانت سكينتها من الكبر بحيث أنّها حتى حين تدخلُ إلى الغرفة وتجلسُ بجانب السرير، تبدو في الحقيقة كأنها لم تعبر العتبة، أو لا تنتهي من عبور العتبة أبداً، هيئة مصغرة مؤطّرة بفراغ الباب الأبيض.

أيضاً جاءت أختي ماريّا في مناسبتين. وخوانيتو دابيلا، الملقّب بِجوني، آخر حبّ لإرنستو. البقية كانوا أخوة، أعماماً، أشخاصاً لم أكن أعرفهم وكانت تربطهم، جميعاً، بصديقي روابط قرابة غريبة.

لم يأتِ أيُّ كاتبٍ، أيُّ شاعرٍ، أيُّ عاشقٍ سابق.

استغرقت العمليةُ الثانية أكثرَ من خمسِ ساعات. أخذني النوم في غرفة الانتظار وحلمت بلاورا داميان. جاءت لاورا تبحث عن إرنِستو وخرجا بعدها ليتنزها في غابة كينا. أنا لا أعرف ما إذا كانت توجد غابات الكينا، أعني أنّني لم أكن يوماً في غابة كينا، لكنّ غابةَ حلمي كانت مريعة. كانت أوراقها فضّية وحين كانت تُلامس ذراعيَّ تُخَلّفُ علامةً داكنةً ودبقةً. كانت الأرضُ بيضاءَ مثل أرض غابات الصنوبر المؤبّرة على الرغم من أنّ الغابة التي كنتُ فيها كانت غابة كينا. كانت جذوعُ الأشجار كلّها دون استثناء متفسّخة ونتنها لا يُحتمل.

حين استيقظتُ في قاعة الانتظار لم يكن هناك أحدٌ فرحتُ أبكي. كيف يمكن أن يكون إرنِستو سان إيبفانيو في حالة احتضار

وحده في مشفى في العاصمة الفيدرالية؟ كيف يمكن أن أكونَ الشخصَ الوحيد الموجود هناك، أنتظر أن يقول لي أحدٌ ما إذا كان قد مات أو نجا من عمليّة جراحية مريعة؟ أظنّ أنّني عدتُ ونمتُ بعد أن بكيتُ، حين استيقظتُ كانت أمّ إرنِستو بجانبي تتمتم بشيء غير مفهوم. تأخّرتُ حتى فهمتُ أنّها فقط كانت تُصَلّي. بعدها جاءت ممرِّضةٌ وقالت إنّ كلّ الأمور سارت بشكل جيّد. حقَّقت العملية، وضّحتْ، نجاحاً باهراً.

بعد أيّام خرّجوا إرنستو وذهب إلى بيته. لم يحدث أن كنتُ قط هناك، فنحن دائماً كنّا نلتقي في بيتي، أو في بيوتِ أصدقاء آخرين. لكنّني منذ ذلك الوقت بدأتُ أزوره في بيته.

في الأيّام الأولى لم يكن حتى ليتكلّم. كان ينظر ويرمشُ بأجفانه، لكنّه لا يتكلّم. كما كان يبدو أنّه لا يسمعُ. ومع ذلك نصحنا الطبيبُ بأن نُكَلِّمَهُ، أن نُعامِلَهُ كما لو أنّ شيئاً لم يحدث. وهذا ما فعلته. بحثت في اليوم الأوّل في رفٍّ كتبه عن كتابٍ يحبه، له صبغة علمية وبدأت أقرأه له بصوتٍ عالٍ. كان الكتاب هو *المقبرة البحرية* لفاليري ولم أتلقّ منه إيّ إيماءة تدلّ على أنّه عرفه. كنتُ أقرأ وكان ينظر إلى السقف أو الجدران أو إلى وجهي، وروحه لم تكن هناك. قرأتُ له بعد ذلك مختاراتٍ من قصائد سالفادور نوبو وحدثَ الشيءُ ذاته... دخلتُ أمّه إلى الغرفة ولمست كتفي. لا تتعبي نفسك، يا آنسة، قالت.

ومع ذلك راحَ يميّزُ شيئاً فشيئاً الأصوات، الأجسام. وذات مساء ميّزني. أنخِليكا، قالَ وابتسمَ. لم أرَ قط ابتسامة أفظع ولا أكثر شجناً وتشويهاً. رحتُ أبكي. لكنّه لم ينتبِهِ إلى أنّني كنتُ أبكي وتابع ابتسامه. بدا جمجمة. لم يكن الشعرُ، الذي كان ينمو ببطء مثيرٍ للأعصاب، قد أخفى جراحَ العملية الجراحية بعدُ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعدها بقليل بدأ يتكّلمُ. كان صوتُهُ خيطاً حادّاً جدّاً، كأنه صوت ناي، راح يُصبحُ بالتدريج أكثر رخامة لكنّه ليس أقل حِدّةً، على كلّ الأحوال لم يكن صوت إرنِستو، كنتُ واثقة من هذا، كان يبدو صوتَ مراهِقٍ متخلّفٍ عقلياً، مراهقٍ مُحتَضَرٍ وجاهل. كانت مفرداته محدودة. ويجد صعوبة في تسمية بعض الأشياء.

وصلتُ ذات مساء إلى بيته فاستقبلتني أمّه في الباب وحملتني إلى غرفته أسيرةَ اضطرابٍ عزوتُهُ في البداية إلى تردٍّ في صحةِ صديقي. لكنّ انفعال الأمّ كان من السعادة. لقد شُفيَ، قالت لي. لم أفهم ما أرادت قولَهُ، ظننتُ أنّها تعني الصوت أو أنّ إرنِستو صار يُفكّر الآن بوضوحٍ أكبر. ممَّ شُفيَ؟ سألتُ محاولة أن أفْلتَ ذراعيّ منها. تأخّرتْ في أن تقولَ لي ما أرادت، لكنّه لم يبقَ أمامها من وسيلة أخرى. إرنستو ما عاد مِثْلِياً، يا آنسة، قالت. سألتُ: إرنستو ما عاد ماذا. وهنا دخلَ أبوه إلى الغرفة ثم وبعد أن سألنا ماذا كنّا نفعل محشورتين هناك، أعلن أنّ ابنه قد شُفي من المثلية. لم يقل ذلك بهذه الكلمات وأنا فضّلتُ ألّا أردّ ولا أسأل وخرجتُ على الفور من تلك الغرفة المريعة. ومع ذلك وقبل أن أدخل في غرفة إرنِستو سمعتُ الأمَّ تقول: ربّ ضارّة نافعة.

طبعاً بقي إرنِستو مِثلياً وإن كان لا يتذكّر أحياناً على ما تقوم. لقد تحوّل الجنسُ عنده إلى شيء بعيد، يعرفُ أنّه حلو أو مثير، لكنّه بعيد. كلّمني خوانيتو دابيلا ذاتَ يوم بالهاتف وقال لي إنّه ذاهب ليعملَ في الشمال وطلب مني أن أسلّم له على إرنستو لأنّ قلبه لا يُطاوعه كي يقول له وداعاً. منذ تلك اللحظة لم يبقَ هناك عشاق في حياته. غيّره صوته قليلاً، ليس بما يكفي: ما عاد يتكلّم، بل يزعق، يئنّ، ويولول وفي هذه الحالات كان الجميع، باستثنائي أنا وأمّه، بمن فيهم الأب والجيران الذين كانوا يقومون بزياراتِ واجبٍ لا

تنتهي، يهربون من جانبه وهو ما كان في العمق يشكل راحة بالنسبة إليه، ما جعلني أفكّر أنّه يفعل ذلك قصداً كي يُبعِدَ عنه ذلك الكمّ الهائل من المجاملة المريعة.

أنا بدوري ومع مرورِ الأشهر، بدأتُ أباعد ما بين زياراتي له. إذا كنتُ أذهبُ عند خروجه من المشفى يوميّاً إلى بيته، فإنّ هذه الزيارات راحت تصبحُ أقل تكراراً بعد أن بدأ يتكلّم ويمشي في الممرّ. ومع ذلك كنتُ أهتفُ له كلَّ ليلة من حيث أكون. كنّا نتبادلُ أحاديثَ مجنونةً كفايةً، كنتُ أنا من تتكلّم أحياناً بلا توقّف، من تحكي قَصصاً حقيقيّةً، لكنّها في العمق لا تكاد تعلق في ذهني، عن الحياة المكسيكية الخانقة (طريقة لنسيان أنّنا كنّا نعيش في المكسيك) التي بدأتُ وقتذاك أتعرّفُ عليها، عن الحفلات التي كنتُ أحضرها والمخدراتِ التي أتناولها، عن الرجال الذين كنتُ أنام معهم، ومرّاتٍ أخرى كان هو من يتكلّم، من كان يقرأ لي عبر الهاتف قصاصاتِ الأخبار التي قصّها في ذلك اليوم (الهواية الجديدة، ربّما باقتراحِ من المُعالِجين الذين كانوا يُعالِجونه، من يدري)، يتكلّم عن الطعامَ الذي أَكَلَهُ، الناسِ الذين زاروه، عن شيء ما قالته له أمّه، وكان يتركه إلى النهاية. قلتُ له ذات مساء إنّ إسماعيل هومبِرتو ثاركو اختار قصيدةً من قصائده لمختاراته التي صدرت توّاً. أيّ قصيدة؟ سأل ذلك الصوتُ، صوتُ العصفورِ وشفرةِ الجيليت التي كانت تمزّق روحي. كان الكتاب بجانبي. قلتُ له ذلك. وهذه القصيدة هل أنا من كتبها؟ سألَ. ظننتُ، لا أعرف لماذا، ربّما من نبرة صوته، الأكثر حِدّة من المعهود، أنّه كان يمزحُ، فمزاحه عادة ما يكون هكذا، بريئاً، يكاد يكون محالاً تمييزه عن بقيّة كلامه، لكنّه لم يكن يمزح. هذا الأسبوع انتزعت وقتاً من حيث لا يوجد وقتٌ وذهبت لرؤيته. حملني صديقي، صديقٌ جديد إلى بيته، لكنّني لم أبغ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن يدخل معي، انتظِرني هنا، قلتُ له، فهذا الحيّ خطير، وحين نعودُ يمكن أن نجد أنفسنا بلا سيّارة. بدا له غريباً، لكنّه لم يقل شيئاً، في حينها كنتُ قد اكتسبتُ في الدوائر التي أتحرّك فيها شهرةً مُستَحَقّة بأنّني غريبة المزاج. ثمّ إنّني كنتُ على حقّ، فحيّ إرنستو كان قد تدهورت سمعتُهُ في الآونة الأخيرة. كما لو أنّ عواقب عمليته صارت تُشَفّ في الشوارع، في الناس العاطلين عن العمل، في لصوص الدرجة الثالثة، الذين عادة ما يتمشون في السابعة مساءً مثل زومبيين (أو كسعاة بلا رسائلَ أو برسائل عصية على الترجمة) مستعدين آلياً ليستعجلوا مساءً آخرَ في العاصمة الفيدرالية.

طبعاً لم يعر إرنستو الكتابَ أهميّة. بحث عن قصيدته، قال، أهْ، لا أدري ما إذا تعرّف فجأة عليها أم أنّه غاص فجأة في الغرابة، ثمّ راح يحكي لي الأشياء ذاتها التي كان يحكيها لي بالهاتف.

عندما عدتُ وجدتُ صديقي يُدخّن سيجارة خارج السيّارة. سألته عمّا إذا حدث شيء خلال غيابي. لا شيء، قالَ، هذا المكان أهدأ من مقبرة. لكنّهُ لا يبدو أنّه كان هادئاً إلى هذا الحد، لأنّ شعره كان منكوشاً ويديه ترتجفان.

لم أرَ بعدها إرنِستو.

هتف لي ذات ليلة وقرأ لي قصيدة لِريتشارد بِلفِر. وذات ليلة هتفتُ له من لوس أنجلوس وقلتُ له إنّني أنام مع المخرج المسرحي فرانسيسكو سِغورا، المُلقّب بيبخا سِغورا (العجوز الواثقة)، الذي كان يكبرني بعشرين سنة على الأقلّ، يا له من أمر مثير، قال إرنِستو. لا بدّ أنّ العجوز ذكّية جدّاً. إنّه موهوب، وليس ذكيّاً، قلتُ. ما الفارق؟ سأل هو. مكثت مُفَكّرة بالجواب ومكث هو ينتظره ومكثنا ثوانٍ دون أن يقول أحدنا شيئاً. بودّي لو أكون معكَ، قلتُ له قبلَ أن أُودّعه. وأنا أيضاً، قال صوتُهُ، صوت العصفورِ من بُعْدٍ آخر. بعد

أيّامٍ قليلة هتفت لي أمّه وقالت لي إنّه مات. مات ميتة مريحةً، قالت، بينمًا كان يتشمّسُ جالساً على كرسيّ في البيت. بقي نائماً مثل ملاك صغير. في أيّ ساعة توفّي؟ سألتُ، قرابة الخامسة، بعد الغداء.

كنتُ الوحيدة من بين أصدقائه القدامى، التي ذهبتْ إلى جنازته ومواراته في مقبرة من مقابر المنطقة الشمالية المتعدّدة الألوان. لم أرَ شاعراً واحداً، عشيقاً واحداً سابقاً، مديرَ مجلّة من المجلات الأدبية. أقرباء كثيرون وأصدقاء العائلة، وربّما جميع الجيران. قبل أن نخرج من المقبرة اقترب منّي مراهقان وحاولا أن يأخذاني إلى مكان آخر. فكّرتُ أنهما سيغتصبانني. أخرجت من جيبي سكيّناً آلية وقلتُ لهما سأقتلكما، يا ابني العاهرة. ولّى العنصران الأدبار وأنا لاحقتهما برهة في شارعين أو ثلاثة من شوارع المقبرة. وحين توقّفتُ أخيراً ظهر موكب جنازةٍ أخرى. خبّأتُ السكين في جيبي وبقيتُ أنظر كيف كانوا يرفعون التابوت إلى الفجوة برصانة وجدّية. أظّنه كان طفلاً. لكنّني لا أستطيع أن أؤكّد ذلك. خرجتُ بعدها من المقبرة وذهبتُ لأتناول بعض الأكواب مع صديق في بار من بارات المركز.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٠

نورمان بولزمان، جالساً على مقعد في حديقة إديث وولفسون، تل أبيب، تشرين الأوّل ١٩٧٩.

دائماً كنتُ حساساً تجاه ألم الآخرين، دائماً حاولتُ أن أتضامن مع ألم الآخرين. أنا يهوديّ، يهوديّ مكسيكي، وأعرفُ تاريخ شعبي. أعتقد أنّني بهذا أوضّحَ كلّ شيء. لا أحاول أن أُبرّر لنفسي. فقط أريدُ أن أحكي قصة وربّما أن أفهم نوابضها الخفيّة، تلك التي لم أرها في لحظتها وتُثقِل عليّ الآن. ومع ذلك فقصّتي لن تكون منسجمة كل الانسجام الذي أريده. ودوري فيها سيتذبذب، مثل ذرة غبار، بين الضياء والظلام، بين الضحكات والدموع، تماماً مثل مسلسل تلفزيوني مكسيكي أو مثل ميلودراما يديشية.

كلّ شيء بدأ في شباط الماضي، في مساء رماديّ، رقيق ككفن، من تلك المساءات التي تهزّ سماء تل أبيب أحياناً. أحدٌ قرع جرس بيتنا في شقتنا في شارع هاشومير. حين فتحتُ ظهر أمامي الشاعر عوليس ليما، رئيس المجموعة التي سمّت نفسها بالواقعية الأحشائية. لا أستطيع أن أقول إنّني أعرفه، في الحقيقة رأيته مرّة واحدة فقط، لكنّ كلاوديا عادةً ما كانت تحكي لي قصصاً عنه وقرأ دانييل لي مرّةً بعضَ قصائدِهِ. ومع ذلك فالأدب ليس نقطة قوّتي،

وربّما لم أعرف قط أن أقدّر قيمة أشعاره. على كلّ حال لم يبدُ الرجلُ الذي كان أمامي شاعراً، بل أقرب إلى الشحاذ.

لم نبدأ بدايةً جيدة، أعترفُ بهذا. كانت كلاوديا ودانييل في الجامعة وكان عليّ أن أدرس، وهكذا أدخلته، دعوتُهُ إلى فنجان شاي وبعدها أغلقتُ غرفتي على نفسي. للحظة بدا أنّ كلّ شيء كان يعود إلى طبيعته، غصتُ في فلاسفة مدرسة ماربورغ (ناتورب، كوهين، كاسيرِر، لانجي) وبعض شروح سالومون ميمون، الماحقة بشكلّ غير مباشر لهؤلاء). لكن ذهني صار بعد برهة، يمكن أن تكون عشرين دقيقة ويمكن أن تكون ساعتين، صفحةً بيضاء وفي وسط هذا البياض راح يرتسم وجهُ عوليس ليما، وجه الواصل الجديد، وعلى الرغم من أنّ كلَّ شيءٍ في ذهني كان أبيض، لم أستطِع أن أُميِّز تقاسيم وجهه بدقّة حتى مضت برهة طويلة (لكن كم؟ لا أعرف) كما لو أنّ وجهَ عوليس وبدل أن تتضح ملامحه، مع بياض الخارج غبش.

عندما خرجتُ وجدته نائماً متمدداً على الأريكة. بقيتُ أنظر إليه برهة. عدتُ بعدها لأدخل إلى غرفتي وحاولت أن أركّز على دروسي. مُحال. كان عليّ أن أخرج، لكن بدا لي من غير اللائق أن أتركه لوحده. فكّرتُ بإيقاظه، فكّرتُ أنّه ربما كان عليّ أن أُقلّدَه وأنام أيضاً، لكنّني خفتُ أو خجلتُ، لا أستطيع أن أُحَدّد. أخيراً أخذتُ كتاباً من مكتبتي، كتاباً لناتورب، *الدين في حدود الإنسانية* وجلست على أريكة مقابله.

بحدود الساعة العاشرة وصلت كلاوديا ودانييل. كانت ساقاي منملتين ويؤلمني كامل جسدي، والأسوأ أنّني لم أفهم شيئاً من كلّ ما قرأته، لكنّني حين رأيتهما يظهران في الباب ملكت من القوّة ما استطعت به أن أرسمَ بإصبعي علامةَ صمت، لا أعرف لماذا، لكن ربّما لأنّني لا أريد لعوليس ليما أن يستيقظ قبل أن أتكلم مع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كلاوديا، وربّما لأنّني اعتدتُ سماعَ إيقاع تنفّسه، تنفس النائم المنتظم. ومع ذلك كان كلُّ شيءٍ غير مُجدٍ، فكلاوديا بعد بضع ثوان من التردّد اكتشفت عوليس في الكرسيّ وأوّل شيء قالته، اللعنة، أو غريب، أو كاميرا، أو عجيب، فكلاوديا على الرغم من أنّها وُلِدت في الأرجنتين ووصلت إلى المكسيك في السابعة عشرة من عمرها، كانت تشعر في أعماقها دائماً أنّها مكسيكيّة جدّاً، أو هذا ما تقوله، من يعرف. استيقظ عوليس بقفزة واحدة وكانت كلاوديا أوّلَ من رأى وهي تبتسم له على بعد أقل من نصف متر، ورأى بعدها دانييل وكان دانييل يبتسم له أيضاً، يا للمفاجأة.

خرجنا في تلك الليلة لنتناول العشاء على شرفه في الخارج. أنا قلتُ في البداية إنّني في الحقيقة لا أستطيع، وإنّ عليّ أن أنتهي من مدرستي، مدرسة ماربورغ، لكنّ كلاوديا لم تتركني، إيّاك، يا نورمان، دعكِ. كان العشاء على الرغم من مخاوفي لطيفاً. راحَ عوليس يحكي لنا مغامراته وضحكنا جميعاً، أو بالأحرى راح يحكي لكلاوديا مغامراته، لكن بطريقة كانت ساحرة بحيثُ أنّنا، على الرغم من حزنٍ ما كان يحكيه أساساً، ضحكنا كلّنا، وهو أفضل ما يمكن أن يفعله المرء في مثل هذه الحالات. عدنا بعدها مشياً إلى البيت عبر شارع أرلوزوروف، متنفّسين ملء رئاتنا، أنا ودانييل في الأمام وكلاوديا وعوليس خلفنا، يتكلّمان كما لو أنّهما من جديد في العاصمة الفيدرالية وتحت تصرّفهما كلّ وقت العالم. وحين قال لي دانييل ألاّ أسير بتلك السرعة، وماذا كنتُ أريد من سرعة خطواتي، بدّلتُ الموضوع فوراً، سألته ماذا فعلَ، حكيت له أوّلَ شيء خطر ببالي عن المجنون سالومون ميمون، كلّ ذلك كي أطيل قليلاً اللحظة التي كانت تقترب والتي كنتُ أخافها. برغبة حقيقيّة كان بإمكاني أن أهربَ تلك الليلة، يا حبّذا لو فعلتُ.

عندما وصلنا إلى الشقّة كان لدينا متسعٌ من الوقت كي نشربَ الشاي. بعدها نظر دانييل إلينا، نحن الثلاثة، وقال إنّه ذاهب لينام. عندما سمعتُ بابه يُغلَق قلتُ الشيء ذاته ودخلتُ إلى غرفتي. مستلقياً على السرير والنور مُطفَأ، سمعتُ كلاوديا تتكلّم مع عوليس برهة. بعدها فُتِح البابُ ودخلت كلاوديا وسألتني إن لم يكن عندي دروس في اليوم التالي وراحت تتعرّى. سألتُها أين عوليس ليما. قالت نائم على الأريكة. سألتها ماذا قالت له. لم أقل له شيئاً، ردَّتْ. عندها تعرّيت أنا أيضاً ودخلت في الفراش وأغمضتُ عينيّ بقوّة.

ساد خلال أسبوعين نظامٌ جديد في بيتنا. على الأقل هذا ما كنتُ أُحسُّ به، وقد غيّرتني في أعماقي تفاصيلُ صغيرة، ربّما كانت تحدث معي قبلها دون أن أشعر بها.

كلاوديا التي حاولت في الأيّام الأولى أن تتجاهل الوضعَ الجديد، أيضاً قَبِلَتْ أخيراً بالأحداث وقالت إنّها تشعر بنفسها مخنوقة. بعد يومين من وجوده معنا، صباحاً بينما كانت كلاوديا تغسلُ أسنانها، قال لها عوليس إنّه يُحبّها. كان جواب كلاوديا إنها كانت تعرف ذلك. جئتُ إلى هنا من أجلك، قال لها عوليس. كان جواب كلاوديا إنّه كان باستطاعته أن يكتب لها رسالة. وجد عوليس ذلك الجواب محفّزاً جدّاً فكتب لها قصيدة قرأها لكلاوديا ساعة الغداء. حين كنتُ أنهضُ بحذر عن الطاولة، إذ لم أكن أُريد أن أسمعَ شيئاً، كانت كلاوديا تطلب منّي أن أبقى وتوسّلت إلى دانييل بالشيء ذاته. كانت القصيدة أقرب إلى المقتطفات حول مدينة متوسّطية، تل أبيب، كما أعتقد، وحول صعلوك أو شاعر شحّاذ، بدت لي جميلة وهكذا قلتُ له. شاركني دانييل رأيي. مكثتْ كلاوديا صامتةً بضع دقائق، تعلوها ملامح التفَكُّر، قالت بعدها بالفعل جميلة، ويا ليتها تستطيع أن تكتبَ قصائد بهذا الجمال. فكّرتُ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

للحظة أنّ كلّ شيء يتساوق، وأنّنا جميعاً سنكون بسلام وقدّمتُ نفسي كمُتَطوّع كي أذهبَ لآتي بزجاجة نبيذ. لكنّ كلاوديا قالت إنّ عليها أن تكون غداً باكراً جدّاً في الجامعة، وبعد عشر دقائق أغلقتْ غرفتَنا على نفسها. تحدّثنا أنا وعوليس ودانييل برهة، شربنا فنجانَ شايٍ آخر وذهب بعدها كلّ منا إلى غرفته. عند الثالثة نهضت لأذهب إلى الحمّام وعندما مررت على رؤوس أصابعي بالصالون سمعت عوليس يبكي. لا أظنّ أنّه انتبه إلى أنّني كنتُ هناك، كان مستلقياً منكباً على وجهه، وأظنّه كان، من حيث كنتُ، مجرّدَ كتلةٍ فوق الكنبة، كتلة مغطاة ببطانية ومعطفٍ قديم، عجينة من لحم، ظلّ يهتزّ بشكل مُشجٍ.

لم أقل ذلك لكلاوديا. عملياً، بدأتُ في تلك الأيّام، أخفي عنها، لأوّل مرّةٍ، أشياءَ، أنتحل منها أجزاء من القصّة، أكذبُ عليها. بالنسبة إلى حياتنا اليومية كطلاب، لم تتغيّر هذه عند كلاوديا قيد أنملة، على الأقل هي أظهرت دائماً استعدادها لأن لا تبرهن لنا العكس. في الأيام الأولى لوجوده في تل أبيب، كان الرفيق المعتاد لعوليس هو دانييل، لكن هذا اضطرَّ بعد أسبوعين أو ثلاثة لأن يعود ليتقيد بنظام الجامعة خوفاً من أن يُخاطر بامتحاناته. وشيئاً فشيئاً صرتُ الوحيد المتبقي تحت تصرف عوليس. لكنّني كنتُ مشغولاً بالكانطية الجديدة وبمدرسة ماربورغ، بسالومون ميمون، وكان رأسي يدور لأنّني في كلّ ليلة أخرج فيها لأبول كنتُ أجدُ عوليس يبكي في الظلمة، ولم يكن هذا هو الأسوأ، الأسوأ هو أنّني كنتُ أُفكّر في بعض الليالي: الليلةَ سأراهُ يبكي، أي أنّني سأرى وجهه، لأنّني حتى ذلك الوقت كنتُ أسمعه فقط. ومن سيؤكّد لي أنّ ما كنتُ أسمعهُ هو انتحاب وليس تأّوهَ أحدٍ في عملية استمناء، مثلاً، وحين كنتُ أُفكّرُ بأنّني سأرى وجهه، كنتُ أتصوّره ينتصبُ في الظلمة، وجهاً غارقاً بالبكاء، وجهاً ملموساً بنور القمر الذي كان يتسرّب عبر نوافذ

الصالون. وكان هذا الوجه يُعبّر عن حزن هو من الشدّة ما يجعلني أشعرُ منذ اللحظة التي أجلسُ فيها على السرير، في الظلمة وأنا أشعر بكلاوديا بجانبي، تتنفّس تنفساً فيه بعض شخير، بثقلٍ كأنّه صخرة تضغطُ على قلبي وأشعر أيضاً بالرغبةِ بالبكاء. وكنتُ أبقى أحياناً برهة طويلةً جالساً في السرير، أتحمّلُ الرغبةَ بالذهابِ إلى الحمّام، كلّ ذلك خوفاً من أن يظهر وجهه فعلاً في الظلمة وأستطيع أن أراه.

هذا كيلا أتكلّم عن الجنس، عن حياتي الجنسية، التي منذ أن عبر باب شقّتنا ذهبت أدراج الرياح.

ببساطة لم يكن باستطاعتي أن أمارسه. يعني بلى أستطيع، لكنّني لم أكن أريدُ. المرّة الأولى التي حاولنا فيها ذلك، أعتقد أنّه حدث في الليلة الثالثة، سألتني كلاوديا ما بي. قلت لها ليس بي شيء. سألتها: لماذا تسألينني؟ لأنّك أكثر صمتاً من ميت، قالت هي. وهكذا كان أنّني كنتُ أشعر بنفسي، ليس كميت، لكن فعلاً كزائر غير إرادي إلى عالم الأموات. كان عليّ أن أبقى صامتاً. ألا أتأوّه، ألا أطلق صيحات، ألا أتنهّد، أن أصل الرعشةَ بأقصى حذرٍ. حتى تأوهات كلاوديا، التي كانت في السابق تثيرني جدّاً صارت في تلك الأيّام أصواتاً لا تُحتَمل، وصيّرتني أهوجَ وإن حرصتُ دائماً على عدم إظهار ذلك، أصواتاً مهينة لطبلتي أذنيَّ كنتُ أحاوِل أن أسكتها مغلقاً فمها بيدي أو بشفتيَّ. بكلمة واحدة. ممارسة الحبّ تحوّلت إلى عذابٍ حاولتُ في التجربة الثالثة أو الرابعة بكلّ الوسائل أن أتفاداه أو أُرجِئه. دائماً كنت آخر من ينام. كنتُ أبقى مع عوليس (الذي لم يُظهر قط أنّه نعسان) وكنّا نتحدّث عن أيّ شيء. كنتُ أطلبُ منه أن يقرأ لي ما كتبهُ في ذلك اليوم، دون أن يهمّني أن يكون قصائد حيث يُحَس بحنقٍ بالحبّ الذي كان يشعر به تجاه كلاوديا. كنتُ أُعجب بها على كلّ الأحوال. طبعاً كنتُ أُعجب أكثرَ بالأخرى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي تتحدّث عن الأشياء الجديدة التي كان يراها كلَّ يومٍ حين يبقى وحده ويخرج ليتمشى هائماً على وجهه في تل أبيب، في جيفعات روكاش، في هار شالوم، في شوارع ميناء يافا القديمة، في الحرم الجامعي أو في حديقة يركون العامة أو تلك التي كانت تُذكّره بمكسيكو العاصمة الفيدرالية، البعيدة، أو تلك التي كانت أو بدت لي استكشافات رسمية. أيّ شيء باستثناء قصائده لكلاوديا. لكن ليس بسببي ولا لأنّها كانت تجرحني أو تجرحها، بل لأنّني كنت أحاولُ تفادي ألمه، عناده الذي لبغل، تفاهته العميقة. قلته له ذات ليلة، قلت له: يا عوليس، لماذا تفعل هذا؟ وتظاهر بأنه لا يسمعني، نظر إليّ من طرفِ عينه (بطريقة ذكّرتني، وسطَ ألفِ برقٍ أو أكثر، بنظرة كلبٍ كان لي في طفولتي، حين كنتُ أعيش في حي بولانكو، والذي ضحى به والداي لأنّه فجأة صار يعضّ الناس) ثم تابع بعدها الكلام، كما لو أنّني لم أقل شيئاً.

في تلك الليلة حين ذهبتُ إلى السرير مارستُ الحبّ مع كلاوديا النائمة، وتأوّهتُ أو صرختُ حين أدركتُ في النهاية حالة من الإثارة مناسبة، وهو ما لم يكن سهلاً.

ثمّ إنّه كان هناك موضوع المال. كنّا أنا وكلاوديا ودانييل نتلقى مخصصاتٍ شهريةً. بالنسبة لدانييل بالكاد كانت تلك المخصصات تكفيه كي يعيش. بالنسبة لكلاوديا كانت مخصصاتها أكثر سخاءً، مخصصاتي كانت تماماً في الوسط بين الاثنين. إذا عملنا صندوقاً مشتركاً كان باستطاعتنا أن ندفع أجرة الشقة والدراسة والطعام وأن نخرج إلى السينما أو المسرح أو نشتري كتباً بالإسبانية من مكتبة ثِربانتِس في شارع زامنهوف. ومع ذلك أثّرَ وصول عوليس على كلّ شيء، فبعد أسبوعٍ من وصوله لم يبقَ معه شيء من النقود ونحن، كما يقول علماء الاجتماع، صار عندنا بين ليلة وضحاها فمٌ جديد

يجب أن نُطعمه. ومع ذلك لم يكن هناك من ناحيتي مشاكل، كنتُ مستعدّاً لأن أتنازل عن بعض الرفاهية. من جهة دانييل، أيضاً لم يكن هناك مشاكل، على الرغم من أنّه استمرَّ على الإيقاع الذي كان عليه سابقاً تماماً. كلاوديا هي من كانت ستقول كلمتَها فقد تمرّدت على الحالة الجديدة. في البداية أحاطت بالمشكلة ببرودة وبشعور عمليّ. وذات ليلة قالت لعوليس إنّ عليه أن يبحث عن عملٍ أو أن يطلب أن يرسلوا إليه نقوداً من المكسيك، أتذكّر أن عوليس بقي ينظر إليها بابتسامة نصف مواربة ثمّ قال لها إنّه سيبحث عن عمل. سألته كلاوديا في الليلة التالية عمّا إذا وجدَ عملاً. حتى الآن لا، قال عوليس. لكن هل خرجت إلى الشارع وبحثت؟ سألتْهُ كلاوديا. كان عوليس يغسلُ الأطباق ولم يلتفت عندما قال لها نعم، إنّه خرجَ وبحثَ، لكنّ الحظَّ لم يحالفه. كنتُ أنا جالساً على رأسِ الطاولة واستطعتُ أن أرى وجهه جانبياً وبدا لي أنّه كان يبتسم. اللعنة، فكّرتُ إنّه يبتسم، يبتسم بسعادة خالصة. كما لو أنّ كلاوديا كانت زوجته، زوجة متطلّبة، امرأة يهمُّها أن يعملَ زوجُها، وهذا ما كان يعجبه. قلتُ لكلاوديا في تلك الليلة أن تتركه بسلام، فيكفيه أنّه يمرّ في وضع سيّئ كي تزيد عليه بموضوع العمل. ثمّ في ماذا تريدينه أن يجد عملاً في تل أبيب، عامل بناء؟ حمالاً في السوق؟ غاسل أطباق. وأنت ماذا تعرف؟ قالت لي كلاوديا.

طبعاً تكرَّرت القصّةُ في الليلة التالية والتي تلتها وكانت كلاوديا تتصرّف في كلّ مرّة بطريقة مستبدة، تُحاصره، تخزه، تُضَيِّقُ عليه الخناق، وعوليس يجيب دائماً بالطريقة ذاتها، هادئاً، مذعناً، سعيداً، بلى، بلى في كلّ مرّة كنّا نذهب فيها إلى الجامعة كان هو يخرجُ ويبحث عن عمل، يدور هنا وهناك، لكن دون أن يعثر على شيء، طبعاً على الرغم من أنّه كان يعودُ ويُحاول. وكنا نصل إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحالة القصوى بأنّ كلاوديا كانت تنشر بعد العشاء الصحيفة على الطاولة وتبحث عن عروض العمل وتُسجّلها على ورقة وتدلّ عوليس إلى حيث عليه أن يذهب، وأيّ حافلة عليه أن يأخذَ أو في أيٍّ شوارع يدخل كي يقصّر الطريق، لأنّ عوليس لم يكن يملك دائماً نقوداً للحافلة وكانت كلاوديا تقول إنّه ليس من الضروري إعطاؤها له، لأنّه يُحِبّ المشي وعندما كنّا نقول أنا ودانييل: لكن كيف سيذهب سيراً على قدميه حتى هاأرغازيم، مثلاً، حتى شارع يوره، أو حتى بتاح تكفا أو روش هاعايم، حيث يحتاجون لبنّائين، هي كانت تحكي لنا أمامه، وحينها كان ينظر إليها ويبتسم مثل زوج مضروب، لكنّه في النهاية زوج، تحكي عن مغامراته في العاصمة الفيدرالية، حيث اعتاد أن يذهب ماشياً وفي الليل، من جامعة المكسيك الوطنية المستقلة وحتى ثيوداد ساتِليتِ، كمن يقول تقريباً، تقريباً من أقصى «إسرائيل» إلى أقصاها. وكانت الحالةُ تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. كان عوليس قد أصبح بلا نقود وليس عنده عمل ووصلت كلاوديا مشتعلة غضباً قائلة إنّ صديقتها رأت عوليس نائماً في تل أبيب الشمالية، في محطة القطارات، أو يتسوّل في جادة هامِلِش جوج أو في غان ماير، وعندها قالت كلاوديا إنّ هذا غير مقبول، مع شيء من التشديد على كلمة غير مقبول، كما لو أنّ التسوّل في العاصمة الفيدرالية كان مسموحاً، لكنّه غير مسموح في تل أبيب، والأسوأ من كلّ ذلك هو أنّها قالت ذلك لنا أنا ودانييل، لكن كان عوليس إلى جانبنا، جالساً في مكانه من الطاولة، يسمع كما لو أنّه رجلٌ غير مرئيّ وأكّدت كلاوديا عندئذٍ أنّ عوليس كان يخدعنا، وأنّه لم يبحث عن عمل إطلاقاً وتعالوا لنرى ماذا نفعل.

في تلك الليلة أغلق دانييل على نفسه غرفته أبكرَ من المعتاد وبعد دقائق قليلة تبعتُ مثلَهُ، لكنّني لم أذهب إلى غرفتي (الغرفة التي

كنتُ أشارك فيها كلاوديا) بل خرجتُ إلى الشارع، لأسير على غير هدى، ولكي أتنفّس بحرّية، بعيداً عن تلك الحقودة التي كنتُ عاشقاً لها. عندما عدتُ قرابة الثانية عشرة ليلاً، كان أوّل شيء سمعته عندما فتحتُ البابَ موسيقى، أغنية لكات ستيفنز كانت كلاوديا تحبها كثيراً ثم أصواتاً. شيء في هذا جعلني أتوقّف ولا أتابع إلى الصالون. كان صوت كلاوديا ثم صوت عوليس. لكن لم تكن أصواتهما العادية، أصوات كلِّ يوم، على الأقل ليس صوت كلاوديا اليوميّ. لم أتأخّر في الانتباه إلى أنّهما كانا يقرأان قصائد. يستمعان إلى موسيقى كات ستيفنز ويقرأان بعض القصائد القصيرة، الجافّة والحزينة، الوضاءة والغامضة، البطيئة والسريعة كالبرق، قصائد تتحدّث عن قطٍّ كان يصعدُ ساقي بودلير وعن قطٍّ، ربّما كان ذاته يصعد ساقي مريض في مشفى أمراض عقلية! (عرفت بعدها أنّها قصائد لريتشارد بروتيغان ترجمة عوليس.) حين دخلتُ إلى الصالون رفعَ عوليس رأسَهُ وابتسم. جلستُ بجوارهما دون أن أقول شيئاً، لففتُ سيجارة ورجوتهما أن يُتابِعا. حين نمنا سألتُ كلاوديا ما الذي جرى. عوليس أحياناً يُفقدني صوابي، هذا هو كلّ شيء، قالت.

بعد أسبوع غادر عوليس تل أبيب. عند وداعه ذرفت كلاوديا بعضَ الدموع ثم أغلقت على نفسها الحمامَ برهةً طويلة. وذات ليلة لم يكن قد مضى على ذهابه ثلاث ليالٍ هتف لنا من كيبوتز والتِر كولِم. ابن عمّ لدانييل، مكسيكي مثلنا، كان يعيش هناك واحتضنه سكانُ الكيبوتز. قال لنا إنّه يعمل في معمل للزيت. كيف تمضي وقتك؟ سألته كلاوديا. ليس جيّداً، قال عوليس، العمل مضجر. بعد وقت قصير هتف لنا ابن عمّ دانييل وقال لنا إنّ عوليس قد طُرِد. لماذا؟ لأنّه لا يعمل. كاد يشبّ حريق عندنا بسببه، قال ابنُ عمّ دانييل. وأين هو الآن؟ سأل دانييل، لكنّ ابن عمّه لم يكن عنده أدنى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فكرة، عملياً لهذا السبب هتف لنا، كي يعرف أين هو، وكي يقبض منه مائةَ دولار استدانها له من الجمعية التعاونية. بقينا بضعةَ أيّام ننتظرُ في كلّ ليلة وصوله، لكن عوليس لم يظهر. ما وصلَ فعلاً كانت رسالة من القدس. أُقسم بوالديّ أو بأي شيء أنّ الرسالة كانت غير مقروءة إطلاقاً. مجرّد وصولها يؤكّد لنا دون أدنى شكّ جودةَ خدمة البريد «الإسرائيلي». كانت موجّهة إلى كلاوديا، لكنّ رقم شقتنا لم يكن صحيحاً واسم الشارع فيه ثلاثة أخطاء إملائيّة. كلّ شيء كان قياسياً. هذا خارج المغلّف. في داخله كانت الأشياء أسوأ، فالرسالة سبق وقلت كان من المحال قراءتها، على الرغم من أنّها مكتوبة بالإسبانية، أو على الأقل هذا هو الاستنتاج الذي توصّلنا إليه أنا ودانييل. لكن كان من الممكن تماماً أن تكون مكتوبة بالآرامية. عن هذه، عن الآرامية أتذكّرُ شيئاً غريباً. كلاوديا بعد النظرِ إلى الرسالة لم تُبدِ أيّ فضول لمعرفة ماذا كانت تقول، في تلك الليلة وبينما كنّا أنا ودانييل نُحاول أن نفكَّ رموز الرسالة حكت لنا قصّة حكاها لها عوليس منذ زمن طويل حين كانا في العاصمة الفيدرالية. بحسب عوليس، كانت كلاوديا تقولُ، حكايةُ يسوع تلك المشهورة، حكاية الأغنياء والجمل وخرم الإبرة، يمكن أن تكون نتيجة غلطة كتابية. في الإغريقية، قالت كلاوديا إنّ عوليس قال (لكن منذ متى يعرفُ عوليس اليونانية) توجد كلمة كاوندوس، جمل، لكن حرف النون (إتا) كان يقرأ تقريباً مثل إي وكلمة كاويدوس، سلك، مرسة، حبل غليظ حيث حرف الإي (إيوتا) يُقرأ إي. وهو ما كان يحمله على أن يتساءل أنَّ متى ولوقا اعتمدا على نصّ مرقص، لم يكن الخطأ أو الغلط عند هذا الأخير أو عند ناسخٍ لاحقٍ عليه مباشرة. الشيء الوحيد الذي يمكن أن يؤخذ عليه، كانت كلاوديا تُردّد، هو أنّ عوليس قال إنّ لوقا، كان عارفاً جيّداً باللغة الإغريقية،

لكنه لم يكن عارفاً بالعالم اليهودي، ويمكن أن يكون قد افترض أنّ «الجمل» يدخل أو لا يدخل في خرم الإبرة كان مثلاً عبرياً أو آرامياً. الغريب، بحسب عوليس، هو أنّه كان هناك أصل آخر محتمل للخطأ: بحسب السيّد الأستاذ بينتشاس لابّيدِ (يا له من اسم، قالت كلاوديا)، من جامعة فرانكفورت، الخبير بالعبرية والآرامية، في آراميةِ الجليل كان يوجد أمثال تستخدم الاسم جامتا، حبل السفينة، فإذا كتب أحد الأحرف الصوتية بشكل مشوَّه، كما يحدث كثيراً في المخطوطات العبرية والآرامية يكون من السهل جدّاً قراءتها جمل، جمل خاصّة إذا أخذنا بالحسبان أن الكتابةَ في الآرامية والعبرية القديمتين لا تَستخدم الحركات وأنّ هذه يجب أن تُعْرَفَ «بداهةً»، وهذا ما يقودنا، كانت تقول كلاوديا أن عوليس كان يقول، إلى مَثَلٍ أقلَّ شاعريةٍ وأكثرَ واقعية. أسهل بكثير أن يدخل حبل سفينة غليظ في خرم الإبرة من أن يدخل غنيٌّ ملكوتَ الله. وأيّ من المثلين كان هو يُفَضِّلُ؟ سألها دانييل. كلانا كان يعرف الجواب، لكنّنا انتظرنا أن تقوله كلاوديا، مَثَل الخطأ، بالطبع.

بعد أسبوع وصلتنا بطاقة بريدية من الخليل. ثمّ أخرى من إيلات. بعدها ولزمن طويل لم نعرف عنه شيئاً. في قرارة نفسي كنتُ أعرفُ أنّ عمل النادل لن يدوم كثيراً وكنتُ أعرفُ أيضاً أنّ السياحة في «إسرائيل»، بطريقة غير محددة ومن دون أيّ دولار في الجيب يمكن أن تكون أحياناً خطيرة، لكنّني لم أقل ذلك للآخرين، وإن كنتُ أفترضُ أنّ دانييل وكلاوديا يعرفان ذلك أيضاً. كنّا أحياناً نتكلّم عنه أثناء العشاء. كيف سيكون وضعه في إيلات؟ كانت كلاوديا تسأل. كم هو محظوظ أن يكون في إيلات! كان يقول دانييل. نستطيع أن نذهب في نهاية الأسبوع القادم لزيارته، كنتُ أقول. كنّا نُبدّل الحديث ضمنيّاً وعلى الفور. كنتُ وقتها أقرأ رسالةً منطقية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فلسفية لفيتجنشتاين، وكان كلّ ما أراه وما أفعله لا يفيد إلا في جعل هشاشتي واضحة. أتذكّرُ أنّني مرضتُ وأمضيتُ بضعةَ أيّام طريح الفراش وأن كلاوديا، النبيهة جدّاً، انتزعت مني الرسالة وخبّأتها في غرفة دانييل وأعطتني بدلاً عنها إحدى الروايات التي اعتادت قراءتها، *الوردة اللامحدودة* لفرنسي يُدعى ج. م. غ. أرسيمبولدي.

وذات ليلة بينما كنّا نتناول عشاءنا، رحتُ أفكّر بعوليس فذرفت بضع دمعات دون أن أنتبه. ما بك؟ سألتني كلاوديا. أجبتها إذا مرض عوليس لن يكون عنده من يعتني به، كما كانت هي ودانييل يعتنيان بي. شكرتهما بعدها وانهرتُ. عوليس قويّ مثل... خنزير برّي، قالت كلاوديا وضحك دانييل. آلمتني ملاحظة كلاوديا وتشبيهها، فسألتها عمّا إذا كانت خالية من المشاعر تجاه كلّ شيء. لم تُجبني كلاوديا، راحت تُحَضّر لي شاياً بالعسل. لقد حكمنا على عوليس بالصحراء! صحتُ. سمعتُ، بينما دانييل يقول لي ألا أبالغ، الملعقة التي كانت تمسك بها أصابع كلاوديا تطرقها وتحرّكها داخل الكأس، مذيبة السائلَ وطبقة العسل، وعندها لم أستطع أكثر، فرجوتها وتوسّلتُ إليها أن تنظر إليّ عندما أُكلِّمُها، لأنّها هي من كنتُ أكلّمُ، هيَ وليس دانييل، لأنّني أردتُ أن تكون هي من توضّح لي وتواسيني وليس دانييل. عندها لم تلتفت كلاوديا، وضعت الشاي أمامي وجلست في مكانها الدائم وقالت لي ماذا تريدني أن أقول لك، يبدو لي أنّك تهذي، كثرة الفلسفة تؤثّر على فهمك. وعندها قال دانييل شيئاً مثلَ أيْ، بلى، يا أخي في الأيام الخمسة عشر الأخيرة التهمتَ فيتجنشتاين، برغسون، كيسرلينغ (الذي بصراحة لا أعرف كيف تتحمّله)، بيكو دِ لا ميراندولا، لويس كلود هذا (كان يشير إلى لويس كلود دِ سان-مارتين، مؤلّف *(رجل الإرادة)*، للمجنون العنصري أوتو فاينينجر ولا أريد أن أعرف كم غيرها.

وروايتي لم تلمسها، ختمت كلاوديا. ارتكبتُ في تلك اللحظة خطأ وسألتُها كيف يمكن أن تكون قاسية إلى هذا الحدّ. عندما نظرت كلاوديا إليّ أدركتُ أنّني ارتكبت الخطأ، لكن الوقت كان قد تأخّر. ارتجّت الغرفة كاملة حين بدأت كلاوديا بالكلام. قالت إيّاك أن تقول هذا بعد الآن. قالت في المرّة الثانية التي تنطق بها بهذا ستكون علاقتنا قد انتهت. قالت إنّ عدم الاهتمام الزائد بمغامرات عوليس ليما ليس برهاناً على انعدام الإحساس. قالت إنّ أخاها الكبير مات في الأرجنتين، ومن المحتمل أن يكون مات تحت التعذيب على يد الشرطة أو الجيش وإنّ هذا فعلا جدّي؟ قالت إنّ أخاها الكبير ناضل في صفوف جيش الشعب الثوري وإنّه آمن بالثورة الأمريكية وهذا أمر جدّي جدّاً. قالت لو أنّها كانت هي وعائلتها في الأرجنتين حين أفلت القمعُ من عقاله لكان من المحتمل أنّهم الآن في عداد الموتى. قالت كلّ هذا وراحت بعدها تبكي. صرنا اثنين، قلتُ. لم نتعانق، كما كان بودّي أن نفعل، لكنّنا شددنا على أيدينا من تحت الطاولة واقترح دانييل بعدها أن نخرج لنقوم بجولة. لكنّ كلاوديا قالت له إنّني ما أزال مريضاً، يا أبله، هل هناك أفضل من أن نتناول فنجان شاي آخر ونذهب بعدها جميعنا إلى الفراش.

بعد شهر ظهر عوليس ليما. كان يرافقه شخصٌ عملاق، بطول مترين تقريباً يرتدي كلّ أنواع الأسمال، نمساوي تعرّف عليه في بئر السبع. أنزلناهما في الصالون مدّةَ ثلاثة أيّام. كان النمساوي ينام على الأرض وعوليس على الأريكة. كان هذا يُدعى هايميتو، لم نعرف قط كنيته وبالكاد كان ينطق بكلمة. كان يتكلّم مع عوليس بالإنكليزية، لكن فقط بالضروري، لم نعرف قط أحداً يُدعى هكذا، على الرغم من أنّ كلاوديا قالت إنّ هناك كاتباً، نمساوياً أيضاً، لكنّها لم تكن متأكّدة يدعى هايميتو فون دودِرِرْ. كان هايميتو صاحبُ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عوليس يبدو معتوهاً أو مضطرباً نفسياً. لكن الصحيح أنّهما كانا منسجمين جيّداً فيما بينهما.

حين غادرا ذهبنا لوداعهما في المطار. عوليس، الذي بدا حتى ذلك الوقت رصيناً، مالكاً لزمام نفسه، غيرَ مبالٍ، حزن فجأة، وإن كانت كلمة حزن ليست صحيحة. لنقُلْ إنّه فجأة اكفهرَّ. في الليلة السابقة على رحيله كنتُ أتكلّمُ معه وقلت له، إنّني سعيد بمعرفته. وأنا أيضاً، قال عوليس. يوم رحيله، بعد أن دخل عوليس وهايميتو إلى صالة تفتيش المسافرين ولم يعد باستطاعتنا أن نرى بعضنا البعض، راحت كلاوديا تبكي، ففكّرتُ للحظة أنّها كانت تُحبّه، طبعاً على طريقتها، لكنّني لم أتأخّر في استبعاد هذه الفكرة.

١١

أماديو سالباتييرّا، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر التفتيش، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦.

بدءاً من تلك اللحظة مرَّ زمن لم نرَ فيه ثِساريا تيناخِرو في أيٍّ من اجتماعاتنا. يبدو غريباً، بدا لنا غريباً أن نُقِرّ بذلك، لكنّنا كنّا نشتاق إليها. في كلّ مرّة كان مابْلِسْ أرثِ يزور فيها الجنرال دييغو كارباخال كان يستغلّ المناسبة كي يقول لِثِساريا متى تُفكّر أنّ فورتها ستهدأ. لكنّ ثِساريا كانت كمن يسمع المطر يهطل. رافقتُ ذاتَ مرّة مانوِلْ وتكلّمتُ معها. تكلّمنا عن السياسة والرقص، اللذين كانت ثِساريا تهواهما كثيراً، لكن ليس عن الأدب. أيّها الفَتَيان في تلك السنوات، قلتُ لهما، كان في العاصمة الفيدرالية صالاتُ رقصٍ كثيرة، في كلِّ مكان، في المركز كانت أكثرها فخامة، لكن أيضاً في الأحياء، في تاكوبايا، في حي الأوبسرباتوريو! في حي كويواكان! في تلالبان في الجنوب وفي الشمال في حيّ ليندابيستا! وكانت ثِساريا هاوية من أولاء القادرات على أن يجبن المدينةَ من طرفها إلى طرفها شريطةَ أن يحضرنَ رقصةً، على الرغم من أنّ أكثرَ ما كانت تعجبها، بحسب ما أتذكّرُ، هي صالات المركز. كانت تذهبُ وحدها. أقولُ: قبل أن تتعرّف على إنكارناثيون غوثمان. الأمر الذي لا يُنظر إليه اليومَ بعين السوء، لكنّه كان يحمل في تلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

السنوات تفسيراتٍ متباينة ومتنوعة. في إحدى المناسبات ولأسبابٍ لا أتذكّرها، ربّما هي طلبت مني ذلك، رافقتُها. كان الرقص في خيمة منصوبة في أرضٍ بور على طريق لاغونيّا. قلتُ لها قبل أن ندخل: أنا مُرافِقك، يا ثِساريا لكن لا تُجبريني على الرقص، فأنا لا أعرف وليس عندي مصلحة في تعلّمه. ضحكت ثِساريا ولم تقل لي شيئاً، يا له من إحساس، أيها الفَتَيان، يا لزحمة الانفعالات. أتذكّرُ الطاولات، الصغيرةَ والدائريةَ، المصنوعةَ من معدنٍ خفيفٍ كالألمنيوم على الرغم من أنّه كان من المحال أن تكون من الألمنيوم. كانت الحلبة مربعاً غير متساوي الأضلاع مرفوعة فوق ألواح خشبية. الأوركسترا كانت خماسية أو سداسية سيان عندهم أن يعزفوا رانتشِرا أو بولكا أو دانثون. طلبتُ زجاجتي صودا وحين عدتُ إلى طاولتنا لم تكن ثِساريا هناك. أين حشرتِ نفسك، يا ثِساريا؟ فكّرتُ. وعندها رأيتُها. أين تظنان أنّها كانت؟ بلى في الحلبة، ترقص وحدها، وهو شيءٌ اليومَ بالذات طبيعي، ليس من العالم الآخر، الحضارة تتقدّم، لكنّه وقتها كان أقل من إثارة بقليل. هكذا كان، أيّها الفتَيَان، أنني رأيتُ نفسي هناك، في معضلة كبيرة حقيقة، قلتُ لهما. وهما قالا لي، أيْ، وماذا فعلتَ، يا أماديو؟ وأنا قلت لهما، أه، أيّها الفَتَيان، ما كان يمكن أن تفعلاه أنتما لو كنتما مكاني، خرجتُ إلى الحلبة ورحتُ أرقص. وهل تعلّمتَ الرقصَ حالاً، يا أماديو؟ سألا. في الحقيقة الخالصة، بلى، كان كما لو أنّ الموسيقى كانت تنتظرني طوال حياتي، ستة وعشرون عاماً من الانتظار، كما انتظرتْ بِنيولب عوليس، أليس كذلك؟ وسرعان ما صارت كلّ الحواجز وكلّ التحفظات شيئاً من الماضي وأنا كنتُ أتحرّك وأبتسم وأنظرُ إلى ثِساريا، جميلة وكم كانت ترقص جيّداً تلك المرأة، كان يُلاحظ أنّها معتادة على ذلك، إذا ما أغمضَ

المرءُ عينيه يستطيع أن يتصوّرها ترقص في بيتها، عند الخروج من العمل، بينما هي تُعِدّ قهوتَها، قهوةَ قدرِ الفخّار، أو بينما هي تقرأ، لكن أنا لم أُغْمِض عينيّ، أيّها الفتيان، كنتُ أنظر إلى ثِساريا بعينين مفتوحتين تماماً، وكنتُ ابتسمُ لها وهي أيضاً كانت تنظرُ إليّ وتبتسمُ، كلانا كان سعيداً بالحياة، سعيداً إلى حدّ أنّ فكرةَ أن أُقبِّلها مرتّ في خاطري للحظةٍ، لكن حين حَقَّت الحقيقةُ لم أجرؤ، بالخلاصة، كنّا سعيدين في وضعنا وأنا لستُ الوغدَ الكلاسيكيَّ الجشع. كلُّ شيء يكمن في البدء، يقول المثلُ، كلّ شيء كان في أنّني بدأتُ ولم أعرف بعدها كيف أضع نهاية له، جاء وقت، بعد سنوات كثيرة، لكن هذا حدث بعدها بسنوات كثيرة، بعد أن اختفت ثِساريا وفترت حميّةُ الشباب، التي تَرَكَّزَ فيها هدفي الوحيد من الحياة على زياراتي نصف الشهرية إلى صالات رقص العاصمة الفيدرالية، أنا أتكلّمُ، أيها الفتَيان، عن المرحلة التي كنتُ فيها في الثلاثين من عمري، في الأربعين وأيضاً حين أتممت الخمسين تماماً. في البداية كنتُ أذهبُ مع زوجتي. هي لم تكن تُدرِك أنَّ الرقصَ يعجبني إلى ذلك الحد، لكنّها كانت تُرافِقني. كنّا نقضي وقتاً مُمتِعاً، بعدها عندما توفِّيَتْ صرتُ أذهبُ وحدي. وكنتُ أيضاً أقضي وقتاً ممتعاً، على الرغم من أنّ ذوقَ أو ميلَ المحلاتِ والموسيقى كان مختلفاً. طبعاً لم أكن أذهب إلى هناك كي أشربَ أو أبحثَ عن رفقة، كما كان يُفكّر ولدايَ، المجاز فرانسيسكو سالباتييرّا والأستاذ كارلوس مانوِلْ سالباتييرّا، الشابان الجيدان، اللذان أُحِبّهما من كلّ روحي وإن كنتُ لا أراهما إلاّ قليلاً، هما صارت لهما أسرة ومشاكل أكثر من اللازم، كما أعتقد، بالخلاصة، أنا فعلتُ لأجلهما كلَّ الذي كان باستطاعتي أن أفعله، أَعطيتهما شهادتين، وهذا أكثر مما فعله والداي لأجلي، الآن يُحلّقان لوحدهما. ماذا كنتُ أحكي لكما؟ إنّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولديَّ كانا يُفكّران أنّني أذهبُ إلى صالات الرقص، كي أعثر على صوتٍ صديق. في الجوهر معهما حقّ. لكنَّ الذي كان يدفعني للخروج كلَّ سبتٍ ليلاً، أظنّ، لم يكن هذا. كنتُ أذهبُ إلى الرقصِ، وبطريقة ما كنتُ أذهب من أجلِ ثِساريا، أو بالأحرى من أجلِ طيفِ ثِساريا، الذي كان ما يزالُ يرقصُ في تلك المحلات، المُحتَضَرة ظاهريّاً. هل تحبّان الرقصَ، أيّها الفَتَيان؟ سألتُهما. وهما قالا، بحسب، يا أماديو، بحسب مع من نرقص. وحيدين، بالمطلق لا. يا لهما من فتيين. ثمّ سألتهما عمّا إذا كان ما يزال هناك صالات رقص في مكسيكو، وهما قالا بلى، ليست كثيرة، على الأقل هنا لم يكونا يعرفان كثيراً منها، لكنّها موجودة. بعضها، بحسبهم، يُسمى *الحُفَر الصاخبة*، يا له من اسم غريب، والموسيقى التي يحرّكون بها الهيكلَ العظميّ كانت موسيقى حديثة. موسيقى أمريكية شمالية، تريدان أن تقولا، قلتُ لهما. وهما قالا، لا، يا أماديو، موسيقى حديثة من عمل موسيقيين مكسيكيين، فرق مكسيكية. وهنا راحا يذكران أسماءَ أوركسترات كلّ اسمٍ منها أغرب من الآخر. بلى أتذكّرُ بعضَها. أحشاء كريستِروس. أتذكّر هذا لأسبابٍ واضحة. كايفانِس دِ مارتِس، سفلة المريخ، قتلة أنخِليكا ماريّا، التقهقر العمالي، أسماء غريبة أضحكتنا وجعلتنا نتجادل، لماذا قتلة أنخِليكا ماريّا، على الرغم من أن أنخِليكا ماريّا تبدو في غاية الملاحة؟ قلتُ لهما. وهما: مليحة جدّاً، أنخِليكا ماريّا، يا أماديو، بالتأكيد هذا تكريم لها وليس عرضاً، وأنا: السفلة أليس فيلماً لِأنِل؟ وهما: لأنِل ولابن ماريّا فِليكس، يا أماديو، كم أنت متألّق. وأنا: أنا عجوز، لكنّني لستُ وغداً. إنريكِيتو ألبارِثْ فِليكس، بلى، يا سيّد، فتى كفؤ. وهما: لك ذاكرة رائعة، يا أماديو، لنشرب نخبها. وأنا: التقهقر البروليتاري؟ وهذا كيف

يؤكل؟ وهما: هم أولاد زنى فيدِل بِلاثكِثْ، يا أماديو، هم العمّال الجدد، الذين يعودون إلى عصر ما قبل الثورة الصناعية. وأنا: لا يهمّني قيد أنملة فيدّل بِلاثكِثْ، الذي أنارنا دائماً، أيّها الفتيان، هو فلورِس ماغون. وهما: بصحّتك، يا أماديو. عاش فلورِس ماغون، يا أماديو. وأنا: عاش، بينما كنتُ أشعرُ بآلام في بطني وأنا أُفكّر بالأزمنة الماضية، وبالساعة التي كانت في تلك اللحظة، أي الساعة التي يغوصُ فيها الليلُ في الليل، ليس أبداً فجأة، ليل العاصمة الفيدرالية الأبيض، الليل الذي يُبشّر بنفسه حتى التعب، ها أنا آتٍ، ها أنا آتٍ، لكنّه يتأخّرُ في المجيء، كما لو أنّه هو أيضاً، الشحاذُ، يمكث ليتأمّل الغروب، غروب مكسيكو المتميّز، غروب الطاووس، كما كانت تقولُ ثِساريا، عندما كانت ثِساريا تعيشُ هنا وكانت صديقة لنا. وكان كما لو أنّني أرى ثِساريا في المكتبِ الذي كان يملكهُ الجنرال دييغو كارباخال، جالسة إلى طاولتها، أمام آلتها الكاتبة البرّاقة، تتحدّث مع مُرافِقي الجنرال، الذين عادة ما كانوا يقضون ساعاتِ فراغهم هناك أيضاً، جالسين على الكراسي الكبيرة أو مستندين إلى البابين بينما الجنرال يرفعُ صوتَهُ في مكتبه وثِساريا، ترسلهم، كي تشغلهم فعلاً، أو لأنّها تحتاجهم، ليوصلوا رسائلَ أو ليبحثوا عن كتابٍ معيّن في مكتبة دون خوليو نودير، عن كتابٍ تحتاجه لتراجعه وتستخلص منه فكرةً أو فكرتين لخطبِ الجنرال، التي كانت بحسب مانوِل، تعدّها هي نفسها له. خطب رائعة، أيّها الفَتَيان، قلتُ لهما، خطبٌ دارت المكسيكَ وأُعيد نشرها في صحف مناطق كثيرة، في مونتِرّي، ووادي الحجارة، في بِراكروث وتامبيكو، والتي كنّا نحن نقرأها أحياناً بصوت عالٍ في اجتماعاتنا حول القهوة. وكانت ثِساريا تُعدُّها هناك وبتلك الطريقة الخاصّة: بينما هي تُدخِّن وتتكلّمُ مع حرّاس الجنرال، أو بينما هي تتحدّث مع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مانوِلْ، أو معي، تتحدّث وتكتبُ الخطبَ على الآلة الكاتبة في آن معاً، كم كانت قديرة تلك المرأة، أيّها الفَتَيان، وأنتما، هل جرّبتما أن تفعلا شيئاً مشابهاً؟ أنا بلى، وهذا مستحيل، فقط بعض الكتاب الأصليين يتمكّنون من ذلك، وبعض الصحفيين أيضاً يتكلّمون في السياسة مثلاً وفي الوقت نفسه يكتبون ملاحظة عن فنّ الحدائق أو عن بحر الشعر هِكسامترو اسبونديّ[1] (الذين كانوا، هذا بيننا، أيّها الفتيان، نادرين) وهكذا كانت تمرّ أيّامها في مكتب الجنرال، وحين كانت تنتهي من العمل، أحياناً في ساعة متقدّمة من الليل، تقولُ للجميع وداعاً، تجمعُ أشياءها وتذهبُ وحدها. وإن كان هناك من يعرضُ نفسه أحياناً ليرافقها، أحياناً الجنرال، دييغو كارباخال، بشخصِهِ، الرجل الذي لم يعرف الخوفَ، الفريدُ، الرجل الذي قال ها قد زمجرت عليّ أيّها القدر، لكنّ ثِساريا، كما لو أنّ أمامها شبح، لا تبالي، هي ذا أوراق هيئة الرقابة العامّة، يا جنرال (كانت تقول له يا جنرال، وليس يا سيّدي الجنرال كما كان يقول له الجميع)، وهنا أوراق حكومة بِراكروث وهنا رسائل خالابّا وخطابك ليومِ غدٍ وتذهبُ بعدها فلا يعود أحد ليراها حتى اليوم التالي. ألم أُكلِّمكم عن الجنرال دييغو كارباخال، أيّها الفَتَيان؟ كان راعي الفنون في زمني. يا له من رجل. كان عليكما أن ترياه. كان أقرب إلى القِصَر في قامته، ونحيلاً وفي تلك السنوات، كان يقارب الخمسين من عمره، لكنّني رأيته ذات يوم يُواجِهُ بعضَ إنكشاريي النائب مارتينِث ثامورا، وهو وحده، رأيتُ كيف كان ينظر إليهم مواجهةً، دون أن يقوم بحركة أن يخرج مُسدّسه من غمده، وسترته

(١) Hexámetro espondaico بيت شعري يوناني ولاتيني مكون من ست تفعيلات ذات مقاطع صوتية طويلة وهناك تنويعات كثيرة منه.

مفكوكة الأزرار، هذا فعلاً، ورأيتُ كيف كان الإنكشاريون ينكمشون تماماً ثمّ رأيتهم يتراجعون وهم يتمتمون، اعذرنا، سيّدي الجنرال، لا بدّ أن النائب أخطأ، يا سيّدي الجنرال. رجل كامل ومُتكامِل ليس كمثله أحد، الجنرال دييغو كارباخال، عاشق الآداب والفنون، على الرغم من أنّه لم يتعلّم القراءةَ حتى الثامنة عشرة من عمره. يا لها من حياة، حياة ذلك الرجل، أيّها الفتَيان، قلتُ لهما! لو بدأتُ أتكلّم عنه لن أتوقّف طوال الليل ولكُنّا احتجنا لمزيد من زجاجات التِكيلا، ولَكُنّا احتجْنا لصندوقٍ كامل من تِكيلا «المنتحرون» كي أستطيع أن أعطيكم صورة قريبة إلى هذا الحدّ أو ذاك عن ثقب المكسيك الأسود ذاك! عن ذلك الثقب الأسود بشكل ساطع. زبردجي، قالا هما. زبردجيّ، بلى، أيّها الفتيان، قلتُ لهما، زبرجديّ. وقال واحد منهما، سأذهبُ الآن لشراء زجاجة تِكيلا أخرى. وأنا قلتُ فيما بعد تذهب، وانتزعتُ طاقةً من الماضي ونهضتُ وجررتُ نفسي (مثل برقٍ، أو مثل فكرةِ برقٍ) في ممراتِ بيتي المعتمة حتى المطبخ وفتحتُ كلَّ الخزائن بحثاً عن زجاجة منتحرون محتملة، على الرغم من أنّني كنتُ أعرف جيّداً أنّه لم يبقَ أيّ منها، وأنا أجدّف وألعن أمّهاتِ، باحثاً بين علب الحساء، التي كان يأتيني بها ولداي، بين الخردة التي لا فائدة منها، متقبّلاً أخيراً الواقع الديوث، غارقاً في خيالاتي ومختاراً بدائل: بعض أكياس الفستق الصغيرة، علبة فلفلٍ حارّ تشيوتلس، علبة بسكويت مالح عدتُ بها بسرعةِ عابرةِ محيطاتٍ من الحرب العالمية الأولى، عابرة محيطاتٍ ضائعة في ضباب نهرٍ أو فتحةِ نهرٍ، لا أعرف، ضائعة على كلّ الأحوال، فالحقيقة أنّ خطواتي لم تَصُبّ في الصالون بل في غرفة نومي، غريب، يا أماديو، قلتُ لنفسي، أنت سكران أكثر مما تظنّ، ضائع في الضباب، بمصباح ورقيّ صغير واحد معلّق إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مدافع قيدومي، لكنّني لم أقنط وعثرت على طريقي، خطوة فخطوة، وأنا أقرعُ جرسي، باخرة في النهر، باخرة حربيّة ضائعة في فمِ نهرِ التاريخ، والحقيقة الخالصة وقتَها هي أنّني رحتُ أسيرُ كما لو أنّني أرقص تلك الرقصة، التي لا أدري ما إذا كانت ما تزال تُرقَص، آمل ألا يكون ذلك، والتي تقوم على وضع كعب القدم اليسرى على رأسِ حذاء القدم اليمنى، ومن ثمّ وفي الحابل وضع كعب القدم اليمنى على رأس القدم اليسرى، رقصة مضحكة لكنّها حظيت في مرحلة معيّنة، لا تسألاني، أيّها، ربّما خلال سنوات حكم المجاز ميغِل ألمان الست، رقصتُها مرّة ما، جميعنا ارتكبنا تجاوزات، وعندها سمعت ناطقاً رسمياً ثمّ بعض الأصوات فقلتُ لنفسي، يا أماديو لا تكن وغداً وامْضِ باتجاه الأصوات، امخرْ بقيدومِ سفينتك الصدئ والمتآكل عبابَ ظلمات هذا النهرِ وعُدْ إلى أصدقائك، وهذا ما فعلتُ وهكذا وصلت إلى الصالون، وذراعاي طافحان بالمحمصات المكسيكية بوتاناس، وفي الصالون كان الفتيان جالسين وكان واحد منهما قد اشترى زجاجتي تِكيلا. آه، كم هو مريح الوصول إلى النور، حتى ولو كان هذا شبه ظلمة باهتة، كم هو مريح الوصول إلى الضياء.

ليساندرو مورالِس، حانة لا سايتا مِخيكانا[1]، في محيط لا بيّا، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٨٠.

حين ظهر كتابُ أرتورو بِلانو أخيراً، كان قد صار مؤلِّفاً شبحاً وكنتُ أنا نفسي على وشكِ أن أبدأ لأصير ناشراً شبحاً. دائماً عرفت ذلك. هناك كتّاب رماديون، حُشريون، من الأفضل الهرب منهم، لا

(١) السهم المكسيكي.

يهم أن تؤمنَ أو لا تؤمنَ بالحظّ السيّئ، لا يهم أن تكون عقلانياً أو ماركسيّاً، فمن هؤلاء الناس يجب أن تهربَ كما تهرب من الطاعون الأسود. وأقولُ هذا وقلبي في يدي: يجب الثقة بالغريزة. كنتُ أعرف أنّني بنشر كتابِ هذا الفتى ألعبُ بالنار. احترقتُ ولا أشكو، لكن لا يضرّ أبداً أن يُفكّر المرء ببعض جوانب الكارثة، تجربة الغير يمكن دائماً أن تفيد أحداً. الآن أشربُ كثيراً، أُمضي يومي في الحانة، أصفّ السيارة بعيداً عن منزلي، وحين أصلُ إلى البيت عادةً ما أنظرُ في كلّ الاتجاهات، خشية أن يظهر جابٍ ما بغتةً؟

في الليل لا أستطيعُ أن أنام، وأستمرُّ بالشرب. عندي شكوكٌ مؤكّدة بأنّ قاتلاً مأجوراً (أو ربّما قاتلين) يتعقّبُ خطواتي. من حسن الحظّ أنّني ترمَّلتُ قبل الكارثة، وبقي لي على الأقل عزاء أنّني وفّرتُ على زوجتي المسكينة هذه الجرعةَ السيّئة، عبورَ الضباب هذا الذي ينتظر جميعَ الناشرين. ومع أنّني لا أستطيع أن أتفادى أن أسأل نفسي في بعض الليالي، لماذا يقعُ عليّ أنا، عليّ أنا بالضبط، في قرارة نفسي قبلتُ قدري. الوحدة تُحصِّنُ. قال هذا نيتشه (الذي نشرتُ مختاراتٍ من أقواله في كتاب جيبٍ عام ١٩٦٩، حين كانت ما تزال فضيحة تلاتِلوكو متأجّجة، والذي شكّل بالمناسبة نجاحاً كبيراً) أو فلورِس ماغون، الذي نشرنا له سيرة مناضل أعدّها طالب حقوق ولم يكن بيعه سيّئاً.

الوحدة تُحصّن. حقيقة قدسية. وعزاء بُلَهاء، ذلك أنّني حتى ولو أردتُ أن أكون مُرافَقاً فهذه هي الساعة التي لا أحد يقترب فيها من ظلّي. لا الديوث بارغاس باردو، الذي كان يعمل وقتها في دار نشرٍ أخرى، على الرغم من أنّ منصبه أدنى من الذي كان له عندي، ولا الأدباء الكثيرون الذين كانوا يلاطفونني آنذاك. لا أحد يريدُ أن يسير بجانب هدف متحرّك. لا أحدَ يُريد أنّ يكون إلى جانب من تفوح منه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رائحة جيفة. على الأقل أعرف الآن شيئاً كنتُ في السابق أستشعر به: كلّنا نحن الناشرين يُلاحقنا قاتلٌ مأجور. قاتل متنوّر أو قاتل أُمّيّ، مأجور لأكثر المصالح غموضاً، والتي هي أحياناً تطابق مقدّس، مصالحنا البلهاء والفارغة ذاتها.

لا أكنّ لبارغاس بادرو أيّ ضغينة. بل أفكِّرُ أحياناً به ببعض الحنين. وفي قرارة نفسي لا أُصدِّق أولئك الذين يقولون لي إنّ انهيار مؤسّستي تسبّبت به المجلّة، التي وضعتُها بكل سرور بين يدي الإكوادوريّ. أنا أعرف أنّ سوءَ طالعي جاءني من جهة أخرى. طبعاً بارغاس باردو، ببراءته المجرمة، ساهم في كارثتي، لكنّه في الأساس ليس مذنباً. يخطرُ لي أحياناً حين أشربُ أكثرَ من اللازم، أن ألعنَ أمَّهُ، أمه وأمّهات الأدباء الذين نسوني والقتلة المأجورين التي يكمنون لي في الظلمة بل وحتى المُنضِّددين الضائعين في المجدِ وفي النسيان، لكنّني أهدأُ بعدها وأبدأ أضحك. الحياةُ يجبُ أن تُعاش، ببساطة في هذا يكمن كلّ شيء. قالها لي كحوليّ محليّ، التقيتُ به في ذلك اليوم عند خروجي من بار لا مالا سِندا[1]. ليس للأدب أيّة قيمة.

خواكين فونت، مشفى الصحّة العقلية، إل رِبّوسو، طريق صحراء الأسود، في ضواحي مِكسيكو العاصمة الفيدرالية، نيسان ١٩٨٠.

منذ شهرين جاء ألبارو داميان لزيارتي وقال لي إنّ عنده ما يقوله لي. قلْ لي ما هو، قلتُ له، اجلسْ وقُلْ لي ما هو. انتهت الجائزة، قال. أيّة جائزة؟ سألتُهُ. جائزة لاورا داميان للشعراء الشباب، قال.

---

(١) طريق الشر.

لم يكن عندي أدنى فكرة عمّا كان يتكلّم، لكنّني سايرته. إلى ماذا يعود هذا، يا ألبارو، سألته، إلى ماذا يعود؟ إلى أنّ مالي نفدَ، قال هو، لقد خسرتُ كلَّ شيء.

كان بودّي أن أقول له: كلُّ الذي يأتي بسهولة يذهبُ بسهولة، فأنا دائماً معادٍ شديد للرأسمالية، لكنّني لم أقله له لأنّني رأيتُ وجهه الحزين، ولأنّ الرجل المسكين بدا متعباً.

بقينا نتكلّم برهةً طويلة. أعتقدُ أنّنا تكلّمنا عن الطقسِ والمنظرِ الجميل جدّاً الذي كان يُرى من مشفى المجانين. هو قال: يبدو أنّ اليومَ سيكون حارّاً. وأنا قلتُ له: بلى. لزمنا بعدها الصمتَ، رحتُ أنا أتنحنح وبقي هو صامتاً إلى أن قال فجأةً (هذا مَثَل): انظرْ، فراشة. وأنا أجيبه: بلى، يوجد منها كثير. ثمّ وبعد أن مكثنا هكذا برهةً، نتكلّمُ أو نقرأ الصحيفة معاً (على الرغم من أنّنا في ذلك اليوم لم نقرأ الصحيفة معاً)، قال ألبارو داميان: كان عليّ أن أقوله لك. وأنا قلتُ له: ما الذي كان عليك أن تقوله لي، يا ألبارو؟ وقال هو: إنّ جائزةَ لاورا داميان انتهت. كان بودّي أن أسأله لماذا، ولماذا كان عليه أن يقوله لي بالذات، لكنّني فكّرتُ بعدها أنّ ناساً كثيرين، خاصّة هنا، عندهم الكثير مما عليهم أن يقولوه لي، وإنّ هذا الاندفاع للتواصل شيء يفوتني بعامّة، لكنّني أتقبّله دون تحفّظات، على كلّ الأحوال، بالاستماع لا يخسر المرء شيئاً.

ثمّ ذهب ألبارو داميان وبعدها بعشرين يوماً جاءت ابنتي لزيارتي وقالت لي يا أبتِ، هذا ما لا يجب أن أقوله لك لكنّني أعتقد أنّ من الأفضل أن تعرفه. وأنا قلتُ لها: احْكي، احكي، كلّي آذانٌ صاغية. وهي قالت: ألبارو داميان أطلق رصاصة على رأسه. وأنا قلت: وكيف استطاع ألباريتو أن يرتكب مثل هذه الوحشية؟ وهي قالت: تجارته كانت تسير في غاية السوء، أفلسَ، كان قد خسر كلَّ شيءٍ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تقريباً. وأنا قلتُ: لكن كان باستطاعته أن يأتي معي إلى مشفى المجانين. وابنتي ضحكت وقالت إنّ الأشياء لم تكن بهذه السهولة. وحين ذهبتْ رحتُ أُفكِّرُ بألبارو داميان وبجائزة لاورا داميان التي انتهت وبمجانين الرِبوسو، حيث لا أحد يملك مكاناً يريح فيه رأسه وأُفكِّر بشهر نيسان، الذي كان أكثر من قاسٍ، مدمّراً وعندها عرفتُ دون أدنى شكّ أنّ كلَّ شيء سيمضي من سيّءٍ إلى أسوأ.

١٢

هايميتو كونست، نائماً في سقيفة لا ستونغاس، فيينا، أيار ١٩٨٠.

كنتُ سجيناً مع عوليس الطيّب في سجن بئر السبع، حيث يُعِدّ اليهودُ قنابلهم النووية. أنا كنتُ أعرفُ كلَّ شيء، لكنّني لا أعرفُ أيّ شيء، كنتُ أنظرُ ماذا كان باستطاعتي أن أعمل غير ذلك، كنتُ أنظرُ من بين الصخور، تحرقني الشمسُ، إلى أن راح ينال مني الجوعُ والعطشُ وعندها كنتُ أجرجر نفسي إلى مقهى الصحراء وأطلب كوكاكولا وهمبورغر من لحم العجل، على الرغم من أنّ الهمبورغر التي ليس فيها غير لحم العجل ليست جيّدة، أعرف هذا ويعرفه العالم كلّه.

تناولتُ ذات يوم خمسَ زجاجات كوكاكولا وسرعان ما شعرتُ أنّني مريض، كما لو أنّ الشمس تسرّبت إلى أعماق الكوكاكولا التي شربتها، وابتلعتها دون أن أنتبه. ارتفعت حرارتي. لم يكن باستطاعتي أن أتحمّل، لكنّني تحمّلتُ. اختبأتُ خلف صخرةٍ بنّيةٍ وانتظرتُ حتى تختفي الشمس بعدها تكوّرت وبقيت نائماً. لم تُغادرني الأحلامُ طوال الليل. كنتُ أعتقدُ أنّها كانت تلمسُني بأصابِعِها. لكن ليس للأحلام أصابع، لها قبضات، إذن لا بدَّ أن تكون عقارب. على كلّ الأحوال كانت الحروق تحرقني. حين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

استيقظتُ لم تكن الشمس قد بزغت بعدُ، بحثتُ عن العقارب قبل أن تلوذ تحت الحجارة. لم أجد أيّاً منها! سبب آخر كي أبقى مستيقظاً وأشكّ. وهذا ما فعلته. لكنّني اضطررتُ لأن أخرج لأنّني كنتُ بحاجة لأن أشربَ وآكلَ. هكذا نهضتُ، كنتُ على ركبتيَّ ووجّهت خطواتي حتى مقهى الصحراء، لكنّ النادل لم يقبل أن يُقَدّم لي شيئاً.

لماذا لا تقدّم لي ما أطلبه؟ سألته. هل نقودي غير صالحة، أليست صالحةً مثل نقود أيّ شخص آخر؟ وتظاهر كمن لم يسمعني وربّما هذا ما فكّرتُ به أنا، ولم يسمعني، ربّما بقيتُ بلا صوت من كثرة ما راقبتُ في الصحراء، بين الصخور والعقارب، والآن على الرغم من أنّني كنتُ أعتقدُ أنّني أتكلّمُ، في الحقيقة لم أكن أتكلّمُ. إذن لمن كان الصوتُ الذي كنتُ أسمعُهُ، إذا لم يكن صوتي، فكّرتُ. كيف يمكن أن أكون قد أُصِبْتُ بالخرس وأبقى أسمعني، فكّرتُ. بعدها قالوا لي أن أذهب، أحدهم بصق عندَ قدميّ. كانوا يستفزّونني. لكنّني لا أقعُ بسهولة في الاستفزازات. عندي خبرة. لم أبغِ أن أسمعَ ما كانوا يقولونه لي. إذا أنت لم تبعني لحماً سيبيعه لي عربيّ، قلتُ، وغادرتُ المقهى ببطء.

بقيتُ ساعاتٍ أبحث عن عربيّ. كان يبدو أنّ العربَ تبخّروا في الهواء. أخيراً ودون أن أنتبه، وصلتُ إلى المكان الذي خرجتُ منه تماماً، بجانبِ الحجر الأصفر. كان الوقت ليلاً والطقسُ بارداً، الحمد لله، لكنّني لم أستطع النوم، كنتُ جائعاً ولم يبقَ عندي ماء في المَطَرَة. ماذا أفعلُ؟ تساءلت. ماذا أستطيعُ أن افعلَ الآن، يا مريم العذراء؟ من بعيد كان يصلني الصوت المُخَفّت للآلات التي يصنع بها اليهودُ قنابلهم النوويّة. حين استيقظتُ كان الجوعُ لا يحتمل. كانت تلك مصانع بئر السبع السرّية، كان اليهودُ ما يزالون يعملون، لكن لم يكن باستطاعتي أن أتجسّس عليهم دون أن أضع في

فمي قطعة خبز يابس. كان هناك حروق في رقبتي وذراعيَّ. منذ ما لا أعرف من أيام لم أتغوّط. لكنّني كنتُ ما أزال قادراً على أن أمشي! كنتُ ما أزالُ قادراً على أن أقفز أو أحرّك ذراعيّ مثل مروحة! هكذا نهضتُ ونهضَ ظلّي معي (كلانا كان على ركبتيه، يُصلّي) وشرعتُ بالسير نحو مقهى الصحراء. أظنّ أنّني رحتُ أُغنّي. حين استيقظتُ كنتُ في زنزانة. أحدٌ كان قد أتى بحقيبة ظهري ورماها إلى جانب سريري الفردي. كانت تؤلمني عَيْني، يؤلمني حنكي، تخزني الحروق، أظنُّ أنّ أحداً رفسني على أحشائي، لكنّ أحشائي لم تكن تؤلمني.

ماء، قلتُ. كانت الزنزانة مظلمة. حاولتُ أن أسمع الآلات اليهوديّة، لكنّني لم أسمع شيئاً. عقرب؟ فكّرتُ. عقرب عملاق؟ فكّرتُ. يدٌ أخذتني من عنقي. شدّتني. بعدها شعرتُ بحافة مغرفة على شفتيّ ثمّ بالماء. نمتُ بعدها وحلمت بِفرانز-جوزيفس-كاي وبجسر أسْبِرْن. حين فتحتُ عينيّ رأيتُ عوليس الطيّب، على السرير المجاور. كان مستيقظاً ينظرُ إلى السقف، كان يُفكِّر. حيّيته بالإنكليزية. صباح الخير، قلتُ له. صباح الخير، أجابني. هل يُقدّمون طعاماً في هذا السجن؟ سألتُهُ. يُقدّمون طعاماً، أجابني. نهضتُ وبحثتُ عن فردتي حذائي. كنت أنتعلهما. قرّرتُ أن أدورَ في الزنزانة. قرّرتُ أن أسبر. كان السقف داكناً، ومدخناً. رطوبة، أو عفن. ربّما الاثنان معاً. كانت الجدران بيضاء. هناك وجدتُ كتابات. كان هناك رسوم على الجدار الأيسر وحروف على الأيمن. القرآن؟ رسائل؟ أخبار عن المعمل تحت الأرض. في جدار العمق توجد نافذة. خلف النافذة فناء. خلف الفناء الصحراء. في الجدار الرابع كان هناك باب، الباب كان من قضبان وخلف القضبان ممرّ. في الممرّ لم يكن يوجدُ أحد. التفتّ واقتربتُ من عوليس. اسمي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هايميتو، قلتُ، وأنا من فيينا. هو قال إنّه يُدعى عوليس ليما وكان من مدينة مكسيكو.

بعد قليل جاءونا بالإفطار. أين نحن؟ سألتُ السجّان. في المعمل؟ لكنّ السجان ترك لنا الطعام وذهب. أكلتُ بشهيّة. عوليس الطيّب أعطاني نصفَ إفطاره فأكلته أيضاً. كان باستطاعتي أن أستمرّ بالأكل طيلة الصباح. بعدها رحتُ أتعرّف على الزنزانة. رحتُ أتعرّف على النقوش على الجدران. على الرسوم. كلّ ذلك كان بلا جدوى. كانت الرسائلُ مستغلقة. أخرجتُ قلماً من حقيبة ظهري وركعتُ بجانب الجدار الأيمن. رسمتُ قزماً بقضيبٍ هائل. قضيب منتصب. بعدها رسمتُ قزماً آخر بقضيب هائل. بعدها رسمتُ ثدياً. بعدها كتبتُ: هايميتو ك. بعدها تعبتُ وعدتُ إلى سريري. كان عوليس الطيّب نائماً فحاولتُ ألاّ أُحدث ضجّةً كيلا أوقِظَهُ. استلقيتُ ورحتُ أُفكّر. فكّرتُ بالأنفاق، حيث يُصنّع اليهودُ قنابِلَهم النووية. فكّرتُ بمباراة كرة قدم. فكّرتُ بجبلٍ. كانت تثلج وكان البرد شديداً. فكّرتُ بالعقارب. فكّرت بطبقٍ مليء بالنقانق. فكّرتُ بالكنيسة الموجودة في ألبيّنغارتين، بجانب جاكينغاس. أخذني النوم. استيقظتُ. وعاد النوم ليأخذني. إلى أن سمعتُ صوتَ عوليس الطيّب فاستيقظتُ. سجّان دفعنا عبر الممرّ. خرجنا إلى الفناء. أظنّ أنَّ الشمس عرفتني في الحال. آلمتني عظامي. لكنّ ليست الحروق. وهكذا مشيت، مارستُ تمريناً. عوليس الطيّب جلس مستنداً إلى الجدار وبقي هناك، بلا حراك، بينما أنا أحرّك ذراعيّ وأرفع ركبتيّ. سمعتُ بعضَ الضحكات. بعض العرب، جالسون في زاوية على الأرض، يضحكون. لم أُوْلِهم اهتماماً. واحد، اثنان، واحد اثنان، واحد اثنان، نشّطتُ مفاصلي. عندما عدت ونظرتُ إلى تلك الزاوية في الظلّ، لم أجد العرب. ارتميتُ على الأرض. ركعتُ. وللحظةٍ

فكّرتُ أن أبقى هكذا. على ركبتيّ. لكنّني ارتميتُ بعدها على الأرض وقمت بخمس ثنيات. قمتُ بعشر ثنياتٍ. قمت بخمس عشرة ثنية. كان جسدي يؤلمني كلّه. عندما نهضتُ كان العرب جالسين حول عوليس الطيّب. سرتُ باتجاههم. ببطء. أفكّر. ربّما لا يريدون أن يؤذوه. ربّما لم يكونوا عرباً. ربّما كانوا مكسيكيين ضائعين في بئر السبع. حين رآني عوليس الطيّب، قال: لِيَسُدِ السلامُ. وأنا فهمتُ.

جلستُ بجانبه، على الأرض، ظهري مستند إلى الجدار ولثانية التقت عيناي الزرقاوان بعيون العرب الداكنة. زفرتُ! زفرتُ وأغمضتُ عينيَّ! سمعتُ عوليس الطيّب يتكلّم بالإنكليزية، لكنّني لم أفهم ما كان يقول. العرب تكلّموا بالإنكليزية، لكنّني لم أفهم ما كانوا يقولون. ضحك عوليس الطيّب. ضحك العربُ. فهمتُ الضحكات وما عدتُ أزفر. أخذني النوم. حين استيقظتُ كنتُ أنا وعوليس لوحدنا. قادنا سجّان إلى زنزانتنا.. قدموا لنا طعاماً، ومع طعامي جاءوا بحبّتي دواء. للحمّى، قالوا. لم أتناولهما. قال لي عوليس الطيّب أن أرميهما في الثقب. لكن إلى أين سينتهي هذا الثقب؟ إلى المجارير، قال عوليس الطيّب. هل أستطيع أن أثق؟ وماذا لو انتهت إلى مخزن؟ وماذا لو أنّ كلّ شيء كان ينتهي إلى طاولة هائلة ورطبة حيث يُحلّلون حتى أشياءنا التافهة الصغيرة؟ سحقت حبّتي الدواء بأصابعي ورميت بالمسحوق من النافذة. نمنا. حين استيقظتُ كان عوليس الطيّب يقرأ. سألته ما الكتاب الذي يقرأه. *قصائد مختارة* لعزرا باوند. اقرأ لي شيئاً، قلتُ له. لم أفهم شيئاً. لم ألحّ. جاءوا في طلبي واستنطقوني. فحصوا جواز سفري. وجهوا لي أسئلة. ضحكوا. حين عدتُ إلى زنزانتي. ركعتُ وقمت بثنيات، ثلاث ثنيات، تسع ثنيات، اثنتا عشرة ثنية. جلستُ بعدها على الأرض بجانب الجدار الأيمن، ورسمتُ قزماً بقضيبٍ هائل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وحين انتهيتُ رسمتُ آخر. بعدها رسمتُ الحليب الذي يخرج من أحدِ القضيبين. بعدها لم يبق عندي رغبة بالرسم ورحتُ أدرسُ النقوشَ الأخرى، من اليسار إلى اليمين ومن اليمين إلى اليسار. لا أفهم العربية. ولا عوليس الطيّب يفهمها. على كلّ الأحوال قرأتُ. عثرتُ على بعض الكلمات. كسرتُ رأسي. عادت لتؤلمني حروق رقبتي. كلمات. كلمات. أعطاني عوليس الطيّب ماءً. شعرتُ بيدٍ تحت إبطي، تشدّني إلى الأعلى. بعدها غرقتُ في النوم.

حين استيقظتُ حملنا السجان إلى الحمّام. سلّم كلّاً منا قطعة صابون وقال لنا أن نستحمّ. يبدو هذا السجان صديقاً لعوليس الطيّب. لم يكن يتكلّم معه بالإنكليزية، كان يتكلّم بالإسبانية. اليهود دائماً يُحاولون أن يخدعوك. أسفت لبقائي مستنفراً، لكنّه واجبي. لا يمكن فعل شيء ضدّ الواجب. حين كنتُ أغسل وجهي، تظاهرت بأنّني أغمض عينيّ. تظاهرتُ بأنّني سأسقط. تظاهرت بأنني أمارس تماريناً. لكنّ الشيء الوحيد الذي كنتُ أفعله هو النظر إلى قضيب عوليس الطيّب. لم يكن مختوناً. أسفت لخطئي، لعدم ثقتي. ومع ذلك لا أستطيع أن أفعل شيئاً آخر. في الليل قدّموا لنا حساءً وخضراوات مطبوخة. أعطاني عوليس الطيّب نصف حصّته. لماذا لا تُريدُ أن تأكل؟ سألتُه. إنّه لذيذ. عليك أن تتغذّى، عليك أن تمارسَ تمارين رياضية. لستُ جائعاً، قال لي، كُلْ أنتَ. حين أطفأوا الأنوار دخل القمر إلى زنزانتنا. أطللتُ من النافذة. في الصحراء، على الجانب الآخر من فناء السجن، كانت الضباع تُغنّي. مجموعة متحرّكة وداكنة. أدكن من الليل. وكانت تضحك أيضاً. شعرت بدغدغات في باطن قدميّ. لا تتحرّشوا بي، فكّرتُ.

في اليوم التالي أطلقوا سراحنا بعد الإفطار. رافق السجّانُ الذي كان يتكلّم الإسبانية عوليس الطيّب إلى موقف الحافلات التي كانت

تذهب إلى القدس. كانا يتكلّمان. كان السجّان يحكي قصصاً وعوليس الطيّب يسمع وبعدها كان هو من يحكي قصّة. اشترى السجّانُ بوظة بالليمون لعوليس وأخرى بالبرتقال لنفسه. نظر إليّ بعدها وسألني عمّا إذا كنتُ أُريد بوظة أيضاً. وهل تريد أنت أيّها الشقيّ بوظة أيضاً؟ قالَ. واحدة بالشوكولاتة، قلتُ أنا. عندما صارت قطعة البوظة في يدي بحثتُ عن نقود في جيوبي. بحثتُ باليد اليسرى في جيوب الجانب الأيسر. وبحثتُ بيدي اليمنى في جيوب الجانب الأيمن. مددت يدي ببعض منها. نظر إليها اليهوديُّ. كانت الشمس تُذيب رأسَ بوظةِ برتقالِهِ. أنا عدتُ على أعقابي. ابتعدتُ عن موقف الحافلات. ابتعدت عن شارع مقهى الصحراء. إلى الأمام قليلاً كانت صخرتي. بخطو سريع، بخطو سريع. عندما وصلتُ استندتُ إلى الصخرةِ وتنفّستُ عميقاً. بحثتُ عن خرائطي، رسومي فلم أعثر على شيء. ليس غير الحرّ والضجيج الذي كانت تُحدثه العقارب في الثقوب. وززززززززززز. تركتُ نفسي أسقط على الأرض وركعتُ. ما من غيمة واحدة في السماء. ما من عصفور. ماذا أستطيع أن أفعل غير أن أنظر؟ اختبأت بين الصخور وحاولت أن أسمع ضجيج بئر السبع، لكنّني لم أسمع غير ضجيج الهواء، هبّة غبار ساخنة أحرقت وجهي. بعدها سمعتُ صوت عوليس الطيّب يناديني، هايميتو، هايميتو، أين أنت يا هايميتو؟ وأنا عرفت أنّني لا أستطيع أن أُخفي نفسي. ولا حتى لو أردتُ. وخرجتُ من بين الصخور، بحقيبتي المتدلية من يدي، وتبعتُ عوليس الطيّب الذي كان يناديني على الطريق الذي أراده لي القدر. قرى، أراض قاحلة. القدس. في القدس أرسلتُ برقيّة إلى فيينا طالباً نقوداً. كنتُ أطالِبُ بنقودي، نقود إرثي.

تسوّلنا. على أبواب الفنادق. على الطرق السياحيّة. نمنا في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشارع. أو في بوّاباتِ الكنائس. أكلنا حساء الرهبان الأرمن، خبزَ الرهبان الفلسطينيين. أنا حكيتُ لعوليس الطيّب ما رأيتُ. خطط اليهود الشيطانية. وكان هو يقول: نَمْ، يا هايميتو. إلى أن وصلت نقودي. اشترينا بطاقتي طائرة ولم يتبقّ معنا نقود. كانت تلك كلّ نقودي. كذب. كتبتُ بطاقة بريدية من تل أبيب وطالبت بكلّ شيء. لنَعُدْ. من هناك من الأعلى رأيتُ البحرَ، مستوى البحر خادع، فكّرتُ. السرابُ الوحيدُ الحقيقيّ. الآل، قال عوليس الطيّب. في فيينا كانت تُمطر، لكنّنا لم نكن حلوى سكّر! أخذنا سيّارة أجرة حتى لانْدِسغِيريستراس. حين وصلنا وجّهت لكمة بقبضتي على قفا عنق السائق وذهبنا. أولاً في شارع جوزيفستادتِر ستراس، بخطوات حثيثة، ثم في ستروزيغاس. بعدها زيلتغاس، ثم في بياريستينغاس، ثم في ليرشينفلدر ستراس ثم في بِوباوغاس وحتى ستوكغاس، حيث بيتي. صعدنا بعدها خمسةَ طوابق سيراً على أقدامنا. بخطوات حثيثة. لكنّني لم أكن أحمل المفتاح. كنتُ قد أضعتُ مفتاح سقيفتي في صحراء النقب. هوِّن عليك، يا هايميتو، قال عوليس الطيّب. هيّا نفتّش في الجيوب. فتّشناها، جيباً جَيْباً. لا شيء. فتّشنا الحقيبة. لا شيء. الثياب التي في الحقيبة. لا شيء. مفتاحي ضاع في النقب. عندها فكّرت بالمفتاح الاحتياطي. هناك مفتاح احتياطي، قلتُ. يا للمشكلة يا للمشكلة، قال عوليس الطيّب. كان يلهث. كان مرمياً على الأرض، مستنداً بظهره إلى الجدار. كنتُ راكعاً. عندها نهضتُ وفكّرتُ بالمفتاح الاحتياطي واتجهتُ إلى النافذة في نهاية الممر. من النافذة كان يُشاهد فناء داخليّ إسمنتيّ وأسطح كيرشنغاس. فتحتُ النافذة فبلّل المطر وجهي. في الخارج وفي ثقب صغير كان المفتاح. حين أخرجتُ يدي كان على أصابعي نسيجُ عنكبوت.

عشنا في فيينا. في كلّ يوم كانت تُمطر أكثر قليلاً. في اليومين

الأوّلين لم نخرج من بيتي. أنا خرجتُ. لكن ليس كثيراً. فقط لشراءِ الخبز والقهوة. عوليس الطيّب بقي في كيس نومه، يقرأُ أو ينظرُ من النافذة. كنّا نأكل خبزاً. كان الشيء الوحيد الذي نأكله. أنا كنتُ جائعاً. في الليلة الثالثة نهض عوليس الطيّب، غسل وجهَهُ، مشّط شعره وخرجنا لنتنزّه. أمام فيغاروهاوس اقتربتُ من رجلٍ وضربتُهُ على وجهه. فتّش عوليس الطيّب جيوبه بينما أنا أُثبِّته. بعدها ذهبنا عبر غرابِن وضِعْنا في شوارع مزدحمة وصَغيرة. أراد عوليس الطيّب أن يشربَ بيرة في بار في شارع غونزاغاغاس. أنا طلبت زجاجة فانتا برتقال وهتفتُ من غرفة هاتف البار طالباً نقودي، النقود التي تعود لي شرعاً. بعدها ذهبتُ لنرى أصدقائي على جسر أسْبِرْن، لكنّنا لم نجد أحداً. عدنا إلى البيت مشياً.

في اليوم التالي اشترينا نقانق وجامبو وباتيهْ ومزيداً من الخبز. كنّا نخرج يوميّاً. نستخدم المترو. في محطّة روساوير لاند التقيتُ بأودو مولّر. كان يتناول بيرة ونظر إليّ كما لو أنّني عقرب. من هذا، قال، مشيراً إلى عوليس الطيّب. صديق، قلتُ. وأين عثرت عليه؟ سأل أودو مولّر. في بئر السبع، قلتُ. دخلنا عربة مترو حتى هايليجِنستادت ومن هناك أخذنا قطار الضواحي حتى هيرنالز. هل هو يهوديّ؟ سألني أودو مولّر. ليس يهوديّاً، ليس مختوناً، قلتُ. رحنا نسير تحت المطر. سرنا باتجاه مرآب شخص يُدعى رودي. كان أودو مولّر يتكلّم معي بالألمانية، لكنّه لا يرفع نظره عن عوليس الطيّب. وتوقّفتُ. قلتُ، بعد التفكير جيّداً، هناك بعض الأشياء علينا أن نعملها. أيّ أشياء؟ سأل أودو مولّر. أشياء، قلتُ. مشتريات. بقي القليل، قال أودو مولّر. لا، قلتُ، علينا أن نعمل. لن تكون أكثر من لحظة، قال أودو مولّر. لا! قلتُ. كان المطر يسقط على أنفي وعينيّ. لعقتُ المطرَ برأس لساني وقلتُ لا. عندئذٍ التفتُّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقلتُ لعوليس الطيّب أن يتبعني. بدأ أودو مولِّرْ يتبعنا. هيا، لم يبقَ غير القليل، تعال معي، يا هايميتو، هي لحظة فقط. لا!

في ذلك الأسبوع رهنا التلفاز وساعةَ جدارٍ، ذكرى من والدتي. كنّا نأخذ المترو في نِوباوغاس، نُبدل في ستيفانسبلاتز ونخرج في فورغارتينستراس أو دوناوينسيل. كنّا نقضي ساعات ونحن نتأمّل النهر. مستوى النهر، كانت تأتي أحياناً صناديق كرتون طافية فوق المياه. وهو ما كان يأتيني بذكريات مشؤومة. كنّا ننزل في بعض المناسبات في براتيرستيرن ونتجوّل في المحطّة. كنّا نلاحق أشخاصاً. لم نفعل قط شيئاً. شيء خطير جدّاً، كان يقول عوليس الطيّب، لا يستحق المجازفة. كنّا نجوع. وكان هناك أيّام لا نخرج فيها من البيت. كنتُ أقوم بانثناءات، عشر انثناءات، عشرون، ثلاثون انثناءة. كان عوليس الطيّب ينظرُ إليّ، دون أن يخرج من كيس نومه وبين يديه كتاب. لكنّه غالباً ما كان ينظر إلى النافذة. كانت السماء رمادية. وكان ينظرُ أحياناً باتجاه «إسرائيل». ذات ليلة بينما أنا أرسم على دفتري، سألني: ماذا كنتَ تعملُ في «إسرائيل»، يا هايميتو. قلتُه له. كنتُ أبحث، أبحثُ. كلمة «أبحثُ» بجانبِ البيتِ والفيلِ، اللذين رسمتهما. وأنت ماذا كنت تفعل يا صديقي الطيِّب عوليس؟ لا شيء، قال.

عندما توقَّفتْ عن المطر، عدنا وخرجنا. وجدنا شخصاً في محطّة ستادتبارك فتبعناه. في جوهانز، أمسك به عوليس الطيّب من ذراعه وبينما كان الرجل ينظرُ من الذي كان يثبته انهلتُ بقبضي على نقرته. كنّا نذهب أحياناً إلى مكتبِ بريد نيوباوغاس، القريب من البيت وكان عوليس الطيّب يرسل رسائله. عند العودة كنّا نمرُّ أمام مسرح رامبراند، وكان باستطاعة عوليس الطيّب أن يبقى خمس دقائق يتأمّله. كنتُ أتركه أحياناً بجانب المسرح وأذهبُ لأهتف من أحد

البارات! الجواب ذاته! لم يكونوا يريدون أن يعطوني نقودي! حين كنت أعودُ أجدُ عوليس الطيّب هناك ينظرُ إلى مسرح رامبراند. عندها كنتُ أتنفّس الصعداء ونذهب إلى البيت لنأكل. وذات مرّة صادفنا ثلاثةٌ من أصدقائي. كنّا نسير في شارع فرانز-جوزيفز-كاي باتجاه ساحة جوليوس راب وظهروا فجأة. كما لو أنّهم كانوا حتى تلك اللحظة لامرئيين. مُتَعَقِّبون وكشافون سلّموا عليّ. قالوا اسمي. وقف أمامي واحد منهم، غونتر، أقواهم. آخر على يساري. وآخر على يمين عوليس الطيّب. لم يكن باستطاعتنا أن نمشي. كان باستطاعتنا أن ندور نصف استدارة ونمضي هاربَين، لكن لم يكن باستطاعتنا أن نتقدّم. منذ زمن طويل لم نلتقِ، يا هايميتو، قال غونتر. منذ زمن طويل لم نلتقِ، قالوا جميعاً. لا! لا يوجد زمن. لكن لم يكن هناك مكان نهرب إليه.

مشينا. سرنا. ذهبنا لنرى جوليوس الشرطيّ. سألوا عمّا إذا كان عوليس الطيّب يفهم الألمانية. إذا كان يعرف السرَّ. لا يفهمُ، قلتُ، لا يعرفُ الأسرار. لكنّه ذكي، قالوا. ليس ذكيّاً، قلتُ، إنّه طيّب، فقط ينام ويقرأ ولا يمارس الرياضة. كنّا نريدُ أن نذهب. ليس هناك ما نتكلّم به. نحن مشغولان! قلتُ. كان عوليس الطيّب ينظر إليهم ويهزّ رأسه موافقاً. الآنَ أنا التمثالُ. كان عوليس الطيّب ينظرُ ويجوب غرفة جوليوس وينظر في كلّ الاتجاهات. لم يكن هادئاً. رسوم. غونتِر في كلّ مرّة أكثر عصبيّة. نحن مشغولان ونريدُ أن نذهب! قلتُ. عندها أخذ غونتِر عوليس الطيّب من كتفيه وقال له لماذا تتحرّك مثل قملة؟ اهدأ! وجوليوس قال: الفأرة مضطربة. عوليس الطيّب تنحّى جانباً وسحب جوليوس مقبضَهُ المعدنيّ. لا تلمسه، قلتُ، سأستلم ورثتي خلال أسبوع. وخبّأ غونتِر مقبضه المعدني في جيبه ودفع عوليس الطيّب إلى زاوية في الغرفة. تكلّمنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعدها عن الدعاية. أروني أوراقاً وصوراً. في إحدى الصور أظهر أنا، من الخلف. هذا أنا، قلتُ، هذه الصورة قديمة. أروني صوراً جديدة. صورة غابة، كوخ في الغابة، منحدر خفيف. أعرفُ هذا المكان، قلتُ. طبعاً تعرفه، يا هايميتو، قال جوليوس. جاءت بعدها كلمات أخرى، ثمّ أخرى ومزيد من الأوراق ومزيد من الصور. كلّها قديمة! صمت، دهاء، لم أقلْ شيئاً. بعدها ودّعناهم وذهبنا ماشيين إلى البيت. رافقنا جوليوس وبِتر برهة طويلة. لكنّنا كنّا أنا وعوليس الطيّب نمضي صامِتَيْن، داهيتين. سرنا وسرنا. دخل غونتِر وبِتر في المترو ومشينا أنا وعوليس الطيّب ومشينا. دون أن نتكلّم دخلنا قبل أن نصل إلى البيت إلى كنيسة. كنيسة أولريخكيرخ بورغاس. أنا دخلت إلى كنيسة وعوليس الطيّب تبعني، يحمي خطواتي.

حاولتُ أن أُصلّي. حاولتُ ألاّ أُفكّر بالصور. أكلنا في تلك الليلة خبزاً وعوليس الطيّب سألني عن أبي، عن أصدقائي، عن أسفاري. في اليوم التالي لم نخرج إلى الشارع. لكنّنا خرجنا في اليوم الذي تلاه لأنّ عوليس الطيّب كان يريد أن يذهب إلى البريد وفي الشارع قرّرنا ألاّ نعود إلى البيت وأن نمشي. هل أنت مضطرب، يا هايميتو؟ كان عوليس الطيّب يسأل. لا، لستُ، كنتُ أجيبه. لكن لماذا تنظر إلى الخلف كلّ برهة؟ لماذا تنظر إلى الجانبين؟ الدهاء ضروريّ دائماً، كنتُ أجيبه. لم يكن معنا نقود. وجدنا عجوزاً في حديقة إستيرهازي. كان يُطعمُ الحمام. لكنّ الحمام كان يتجاهل فتات خبزه. اقتربتُ منه من الخلف وضربته على رأسه بقبضتي. فتّش عوليس الطيّب جيوبَهُ، لكنّه لم يجد أوراقاً نقدية، بل وجد قطعاً معدنية وفتات خبز ومحفظة أخذناها. في المحفظة كانت توجد صورة. كان العجوز يُشبه أبي، قلتُ، رمينا المحفظة في صندوق بريد. بقينا بعدها يومين دون أن نخرج من

البيت، وفي النهاية لم يبقَ عندنا غير فتات الخبز. وهكذا ذهبنا لزيارة جوليوس الشرطيّ. خرجنا معه. دخلنا باراً في شارع فافوريتِنستراس وسمعنا كلماته. كنتُ أنظر إلى الطاولة، إلى سطح الطاولة وقطرات الكوكاكولا المسفوحة. كان عوليس يتكلّم بالإنكليزية مع جوليوس الشرطيّ ويحكي له أنّ الأهرامات في المكسيك أكبر وأكثر من المصرية. حين رفعت نظري عن الطاولة لمحتُ، إلى جانب باب البار، غونترِ وبيتر. رففت أجفاني فاختفيا. لكنّهما ظهرا بعد نصف ساعة أو بعد خمس دقائق على طاولتنا وجلسا معنا.

في تلك الليلة تكلّمتُ مع عوليس الطيّب وقلتُ له إنّني أعرف بيتاً في الريف، كوخاً خشبيّاً عند حافّة تلّ صنوبرٍ ناعم. قلتُ له إنّني لا أريد أن أعود وأرى أصدقائي. تكلّمنا عن «إسرائيل»، عن زنزانة بئر السبع، عن الصحراء، عن الصخور الصفراء، عن العقارب، التي كانت لا تخرج إلاّ ليلاً، عندما لا يعود بمقدور عين الإنسان أن تُميّزها. ربّما سيكون علينا أن نعود، قال عوليس الطيّب. بالتأكيد سيقتلني اليهودُ، قلتُ أنا. لن يفعلوا لك شيئاً، قال عوليس الطيّب. سيقتلني اليهودُ، قلتُ. عندها غطّى عوليس الطيّب رأسه بمنشفة متسخة، لكنّه بقي ينظر عبر النافذة وأنا بقيتُ أنظرُ إليه برهة وأفكّر كيف كان يعرفُ أنّهم لن يفعلوا لي شيئاً. ركعتُ وكتّفتُ يديّ. عشر ركعات، خمس عشرة، عشرين ركعة. إلى أن مللتُ ورحتُ أرسم.

في اليوم التالي ذهبنا إلى بار شارع فافوريتِنستراس. كان هناك جوليوس الشرطيّ وستّة من أصدقائه. أخذنا المترو في تاوبستومِنغاس وخرجنا في براتِيرستيرنْ. سمعتُ عواء. ركضنا. تصبّبنا عرقاً. في اليوم التالي كان أحد أصدقائي يُراقبُ بيتي. قلتُ ذلك لعوليس الطيّب. لكنّ هذا لم يرَ شيئاً. في الليل سرّحنا شعرنا، غسلنا وجهينا وخرجنا. في بار شارع فافوريتِنستراس حدّثنا جوليوس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشرطيّ عن الكرامة، عن التطوّر، عن المُعلّم داروين وعن المعلّم نيتشهْ. أنا ترجمتُ له كي يفهم عوليس الطيّب كلماته، على الرغم من أنّني لم أكن أفهم شيئاً. صلاة العظام، قال جوليوس. الحنين للصحة. فضيلة الخطر. صبر المنسيين. أحسنت قال عوليس الطيّب. أحسنت، قال البقيّةُ. حدود الذاكرة. نباهة النباتات. عين الطفيليات. رشاقة الأرض. فضيلة الجنديّ. دهاء العملاقِ. ثقبُ الإرادة. رائع، قال عوليس الطيّب بالألمانية. رائع. شربنا. أنا لم أبغِ بيرةً، لكنّهم وضعوا أمامي إبريقاً وقالوا لي اشربْ، يا هايميتو، لن تضرّك. شربنا وغنّينا. غنّى عوليس الطيّب بعض المقاطع بالإسبانية وراقبه أصدقائي بنظرات ذئبٍ وضحكوا. لكنّهم لم يكونوا يفهمون ما كان يُغنّيه عوليس الطيّب! ولا أنا! شربنا وغنّينا. من حين لآخر كان جوليوس الشرطيّ يقول كرامة، شرف، ذاكرة. وضعوا لي عدّة أباريق. كنتُ أراقبُ البيرة التي كانت ترتجف في الإبريق بعينٍ وأراقب بالأخرى أصدقائي. هم لم يكونوا يشربون، مقابل كلّ إبريق يشربونه كنتُ أشربُ أربعة. اشربْ، يا هايميتو، لن تضرّك، كانوا يقولون، أيضاً كانوا يسقون عوليس الطيّب، اشربْ، أيّها المكسيكيّ، كانوا يقولون، لن تَضرّك. وكنّا نُغنّي. بالاداس عن البيت في الريف، تحت التلّ الناعم. وجوليوس الشرطيّ يقول: منزل، أرض، وطن. اقترب صاحب البار ليشرب معنا. رأيتُ كيف كان يغمز غونتِر. رأيت كيف كان غونتِر يغمزه. رأيت كيف كان يتفادى النظر إلى الزاوية التي كان فيها عوليس الطيّب. اشربْ، يا هايميتو، كانوا يقولون، لن تَضرّك. وجوليوس الشرطيّ يبتسم، مبتهجاً، ويقول شكراً، شُكراً، أعرف، أعرفُ، ليس إلى هذا الحدّ، أرجوك. رائع، قاس. وعندها قال: استقامة، واجب، خيانة، عقاب. ومن جديد هنّأوه، وعندها قلّ عددُ الذين يبتسمون.

بعدها خرجنا جميعنا معاً؛ متعاضدين. مثل أصابع يدٍ فولاذية، مثل قفاز فولاذي في الريح. لكنّنا في الشارع رحنا نتفرّقُ، إلى مجموعات هي في كلّ مرّة أصغر. في كلّ مرّة أكثر انفصالاً. حتى ضاع البقيّة عن نظرنا. في مجموعتنا كان يمضي أودو وأربع أصدقاء آخرين. باتجاه بيلفيدير. في شارع كارولينينغاس ثمّ في شارع بيلفيديريغراس. وبعضنا كان يتكلّم وبعضنا الآخر كان يُفضّل ألا يتكلّمَ وينظر إلى الأرض التي كنّا ندوسها. الأيدي في الجيوب والأعناق مرفوعة. وأنا قلتُ لعوليس الطيّب: هل تعرف ما نفعله هنا؟ وعوليس الطيّب أجابني إنّه يُكَوِّن إلى هذا الحدّ أو ذاك فكرة. واجتزنا شارع برينز-إيوجِن-ستراس وأنا سألتُ عوليس الطيّب، ما نوع الفكرة تلك؟ وهو أجابني: إلى هذا الحدّ أو تلك الفكرة ذاتها التي تُكوّنها أنت. البقيّة لم يكونوا يفهمون الإنكليزية، أو إذا كان هناك أحد يفهمها كان يتظاهر أنّه لا يفهمها. حين دخلنا في الحديقة العامّة رحتُ أُصلّي. بماذا تُتَمتِم، يا هايميتو؟ سأل أودو، الذي كان يسير بجانبي. لا، لا، لا، قلتُ بينما كانت الأغصان التي كنّا نبعدها عنّا تُلامِس وجوهنا وشعرنا. نظرتُ بعدها إلى الأعلى ولم أرَ نجماً واحداً. وصلنا إلى منطقة مكشوفة: كان كلُّ شيء أخضرَ داكناً، حتى ظلال أودو وأصدقائي. توقّفنا، سيقاننا مفتوحة والأضواء تتراقص بعيدةَ، لا تُطال خلفَ الأشجار والنباتات. خرجت المقابض الأمريكية من جيوب أصدقائي. دون أن يقولوا كلمة واحدة! أو إذا قالوا شيئاً فأنا لم أفهمه. لكنّني لا أظنّ أنّهم قالوا شيئاً. توقّفنا في مكانٍ سرّيّ ولم يكن الكلام ضروريّاً! أعتقدُ أنّه حتى لم ينظر أحدنا إلى الآخر. انتابتني رغبة بأن أصرخ! لكنّني رأيتُ أنّ عوليس الطيّب راح يُخرج شيئاً من جيب سترتِهِ وانقضّ على أودو. أنا أيضاً تحرّكتُ. أمسكتُ بأحدِ أصدقائي من رقبته وضربته بقبضتي على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جبينه. ضربوني من الخلف. واحد، اثنان، واحد، اثنان. ضربني آخر من أمام. شعرت في شفتيّ بطعم معدنِ مقبضهِ الأمريكي. لكنّني استطعتُ أن أوقف أحدَ أصدقائي من كتفه وتخلّصتُ بحركة وحشية من الذي كان فوق ظهري. أظنّ أنّني كسرتُ له ضلعاً. شعرتُ بموجة حرارة. سمعتُ صرخاتِ أودو يطلبُ المساعدة. كسرتُ أنفاً. هيّا بنا، يا هايميتو، قال عوليس الطيّب. بحثتُ عنهُ ولم أره. أين أنت؟ قلتُ. هنا، يا هايميتو، هنا، اطمئنّ. توقّفت عن الضرب. في المنطقة المكشوفة كان هناك جسدان مرميان على العشب. البقية ذهبوا. كنتُ مُبلّلاً بالعرق ولا أستطيع أن أُفكِّر. ارتحْ لحظةً، يا هايميتو، قال عوليس الطيّب. ركعتُ ومددتُ ذراعيّ على شكل صليب. رأيتُ عوليس الطيّب يقترب من الساقِطين. ظننتُ للحظة أنّه سيذبحهما، كانت السكين ما تزال في يده، وفكّرتُ، حبذا لو تنفذ مشيئة الله. لكنّ عوليس الطيّب لم يرفع سلاحه على الجسدين الساقطين. فتّش جيوبهما ولمس عنقيهما وقرّب أذنه من فميهما وقال: لم نقتل أحداً، يا هايميتو، نستطيع أن نذهب. نظّفت الشفةَ المجروحة بقميص أحد أصدقائي. تمشّطتُ. نهضتُ. كنتُ أتصبّبُ عرقاً مثل خنزير! كانت ساقاي تُثقِلان عليّ مثل سيقان فيل! لكنّني ومع ذلك جريتُ وجريتُ ثمّ مشيتُ، بل وصفرتُ حتى خرجنا من الحديقة العامّة. مشينا في شارع جاكينيغاس وحتى رينفيج، ثم في شارع ماروكانِزْغاس وحتى كونزِيرتهاوس. ثمّ في ليزستراس وحتى لوثرينجيرستراس. في الأيام التالية كنّا وحدنا. لكنّنا خرجنا إلى الشارع. رأينا ذات مساء غونتِر. نظر إلينا من بعيد ثمّ ابتعد. لم نبالِ به. وذات صباح رأيتُ اثنين من أصدقائي. كانا في زاوية وحين رأيانا ذهبا. وذات مساء في شارع كارنتير ستراس، رأى عوليس الطيّب امرأة من الخلف واقترب منها. أنا أيضاً رأيتها لكنّني لم

أقترب. بقيت على مسافة عشرة أمتار، ثم ثمانية عشر متراً. ورأيتُ كيف راح عوليس الطيّب ينادي المرأة ويضع يده على كتفها وهذه كانت تلتفت وعوليس يعتذر والمرأة تتابع طريقها.

كنّا نذهب يوميّاً إلى البريد. نقوم بمشاوير تنتهي في ساحة إستيرهازي أو في شارع ستيفتسكاسيرني. كان أصدقائي يُلاحقونني أحياناً، دائماً عن بعد! وذات ليلة وجدنا رجلاً في شخارديكغاس وتبعناه. دخل إلى الحديقة. كان رجلاً عجوزاً وحسن الهندام. وقف عوليس الطيّب بجانبه وأنا ضربته بقبضتي على نقرته. فتّشنا جيوبه. هذه الليلة أكلنا في بارٍ قريبٍ من البيت. نهضتُ بعدها عن الطاولة وتكلّمت بالهاتف. ورثتي، مالي، قلتُ، ومن الجانب الآخر للخطّ قال لي أحدٌ: لا، لا، لا. في تلك الليلة تكلّمتُ مع عوليس الطيّب، لكنّني لا أتذكّر عمّا تكلمت. جاءت بعدها الشرطة وحملتنا إلى قسم شارع باندغاس. نزعوا القيود من أيدينا واستنطقونا. أسئلةٌ، أسئلة. أنا قلتُ ليس عندي ما أقوله. حين أخذوني إلى الزنزانة لم يكن عوليس الطيّب هناك. في صباح اليوم التالي جاء محامٍ. قلتُ له: يا سيدي المحامي، تبدو تمثالاً مهجوراً في غابة وهو ضحك. حين انتهى من الضحك، قال: من الآن فصاعداً انتهى المزاح، يا هايميتو. أين عزيزي عوليس الطيّب؟ سألتُه. شريكك موقوف، يا هايميتو، قال محاميَّ. هل هو وحده؟ سألتُ أنا. طبعاً، قال محاميَّ، وعندها ما عدتُ أرتجف. إذا كان عوليس الطيّب وحده لا يمكن أن يحدث له شيء.

في تلك الليلة حلمتُ بصخرة صفراء وبصخرةٍ سوداء. في اليوم التالي رأيتُ عوليس الطيّب في الفناء. تكلّمنا. سألني كيف حالي. حسن، قلتُ، أمارس تماريني، الانثناء والبطن والملاكمة مع ظلّي. لا تُلاكِمْ ظلّك، قال. وأنت كيف حالك، سألتُه. حسن، قال،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يُحسنون معاملتي، الطعام جيّد. الطعام جيّد! قلتُ. عادوا بعدها لاستجوابي. أنا لا أعرف شيئاً، قلتُ. يا هايميتو، احكِ لنا ما تعرف، قالوا هم. عندها كلّمتُهم عن أعمال اليهود، الذين كانوا يصنعون القنبلة النووية في بئر السبع، وعن العقارب التي كانت لا تخرج إلاّ ليلاً. وهم قالوا إنّهم سَيعرضون عليّ صوراً وحين رأيتُ الصورَ قلت: إنّهم ميتون، هل هي صور موتى! ولم أبغ متابعة الكلام معهم. في تلك الليلة رأيتُ عوليس الطيّب في الممرّ. قال لي مُحامِيّ: لن يحدث لك أيّ سوء، يا هايميتو، لا يمكن أن يحدث لك أيّ سوء، هذا هو القانون، سوف تذهب لتعيش في الريف. وعوليس الطيّب؟ سألتُ. هو سوف يبقى أكثر قليلاً. حتى تتضح حالته. في تلك الليلة حلمتُ بصخرةٍ بيضاء وسماءِ بئر السبع، البرّاقة ككأس من كريستال. في اليوم التالي رأيتُ عوليس الطيّب في الفناء. كان الفناء مُغطّى بسقفٍ أخضر شفاف، لكن لا أنا ولا هو بدا أنّ هذا كان يهمّنا. كلانا كان لديه ثياب جديدة. كان باستطاعتنا أن نَمُرَّ كأنّنا أخوان. قال لي: كلّ شيء حُلَّ، يا هايميتو. سيأخذك والدُك على عاتقه. وماذا عنك؟ قلتُ. أنا أعودُ إلى فرنسا، قال عوليس الطيّب. الشرطة النمساوية تدفع لي ثمن البطاقة حتى الحدود. ومتى ستعود؟ سألتُ. لن أستطيع العودة حتى عام ١٩٨٤، قال. سنة الأخ الكبير. لكن نحن ليس لنا أخوة، قلتُ. هكذا يبدو، قال هو. هل ريال الشيطان أخضر؟ سألتُ فجأة. يمكن أن يكون كذلك، يا هايميتو، أجابني، لكنّني أقول إنّه بالرغم من ذلك ليس له لون. جلس بعدها على الأرض ورحتُ أنا أمارس تماريني. جريتُ، قمت بانثناءات، ركعتُ. حين انتهيت كان عوليس الطيّب قد نهض على قدميه وراح يتكلّم مع أحد السجناء. للحظةٍ فكّرتُ أنّنا كنّا في بئر السبع، وأنّ السماء الغائمة كانت خديعة من المهندسين اليهود. لكنّني ضربتُ

على وجهي بكفي ضرباً خفيفاً وقلت لنفسي لا، نحن في فيينا وعوليس الطيّب سيُغادر غداً ولن يستطيع أن يعود لزمن طويل، وأنا ربّما سأرى أبي قريباً. حين عدتُ إلى جانبِهِ وَلّى الموقوفُ الآخرُ الأدبار. تكلّمنا. انتَبِهْ إلى نفسك، قال لي حين جاءوا في طلبه، حافظْ على لياقتك، يا هايميتو. إلى اللقاء قريباً، قال لي، ولم أرَهُ بعدها.

ماريّا فونت، شارع مونتِس، قرب نصب الثورة، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، شباط ١٩٨١.

عندما عاد عوليس إلى المكسيك، كنتُ قد جئت قبله بقليل لأعيش هنا. كنتُ متولّهة بشخص يُدرِّسُ الرياضيات في مدرسة تحضيرية. بدأتْ علاقتُنا بطريقة عاصفة، لأنّه كان متزوّجاً وكنتُ أُفكّر أنّه لن يترك زوجته أبداً، لكنّه هتفَ لي يوماً إلى بيت والديّ وقال لي إنّه يبحث عن مكانٍ نستطيع أن نذهب لنعيش فيه. لم يعد يتحمّل زوجته وكان الانفصال واضحاً. كان هو متزوّجاً وعنده ولدان ويقول إنّ زوجته تستخدم الطفلين كي تبتزّه. لم يكن الحديثُ الذي تمّ بيننا من تلك الأحاديث التي تُطَمْئِن، بل على العكس، لكن الأكيد هو أنّني بدأتُ في اليوم التالي أبحثُ عن مكانٍ، على الأقل مؤقّت، حيث نستطيع أن نعيش أنا وهو.

طبعاً كان هناك موضوع المال، كان عنده راتب، لكن عليه أن يستمرّ بدفع إيجار البيت الذي يعيش فيه ولداه، إضافة إلى مبلغ شهري لحاجاتهم المعيشية والنفقات المدرسية وغيرها، وأنا لم يكن عندي عمل وأعتمد فقط على مبلغ خصّتني به خالةٌ لي كي أُنهي دراستي في الرقص والرسم. وهكذا كان عليّ أن أمدَّ يدي إلى مُدّخراتي، أستدينَ من أمّي وألاّ أبحثَ عن أيِّ شيء مفرط في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غلائه. بعد ثلاثة أيّام قالت لي خوتشيتل إنّ هناك غرفة خالية في الفندق الذي تعيشُ فيه مع رِكِنا. انتقلتُ إليها على الفور.

كانت الغرفة كبيرة وفيها حمّام ومطبخ وتقع فوق غرفة خوتشيتل ورِكِنا تماماً.

في تلك الليلة ذاتها جاء مدرسُ الرياضيات لزياتي وبقينا نُمارس الحبّ حتى مطلع الفجر. ومع ذلك لم يظهر في اليوم التالي، هتفتُ له إلى المدرسة، ولم أستطع التواصل معه. بعد يومين عدتُ ورأيته وقبلت كلَّ التوضيحاتِ التي أراد أن يقدّمها لي. تقريباً هكذا مرَّ الأسبوع الأوّل والثاني من حياتي الجديدة في شارع مونتِس. كان مدرّس الرياضيات يظهرُ كلَّ أربعة أيّام تقريباً وكانت لقاءاتُنا لا تنتهي إلا مع الفجر وظهورِ يومِ عملٍ جديد. كان يختفي بعدها.

طبعاً لم نكن نمارسُ الحبّ فقط، أيضاً كنّا نتكلّم. كان يحكي لي عن ولدَيْه. ومرّة بينما كان يحكي لي عن ابنته الصغرى راح يبكي وقال في النهاية إنّه لا يفهم شيئاً. ما الذي يجب فهمه؟ سألتُهُ أنا. نظر إليَّ كما لو أنّني قلت حماقةً، كما لو أنّني صغيرة أكثر من اللازم كي أفهم تلك الأشياء ولم يُجبني. فيما عدا ذلك كانت حياتي هي إلى هذا الحدّ أو ذاك ذاتَها التي كانت لي في السابق. كنتُ أذهبُ إلى الدروس، حصلت على عملٍ كمُنقِّحة في دار نشر (بأجر بائس جدّاً) كنت ألتقي بأصدقائي، وأقوم بمشاوير طويلة في مكسيكو. صداقتي مع خوتشيتل نمت بمقدار كبير نظراً لظرفنا الجديد كجارتين. كنتُ أنزلُ في الأماسي، حين لا يكون مدرّسُ الرياضيات، إلى غرفتها فنبدأ نتكلّم أو نلعبُ مع الطفل. رِكِنا لم يكن يتواجد تقريباً (وإن كان فعلاً يأتي كلَّ ليلة) ونتفرّغ أنا وخوتشيتل للكلام عن أشيائنا، أشياء النساء، دون أن نَتَحَفّظ من وجودِ رجل. كان موضوع أحاديثنا الأولى، كما هو طبيعي، مُدرّس

الرياضيات وطريقته الخاصّة في فهم علاقةٍ جديدة. بحسب خوتشيتل، كان الرجل في أعماقه رعديداً يخاف أن يهجر زوجته. أنا كنت مع الرأي القائل بأنّ رقّتَهُ، رغبتَهُ بألا يُسَبّب أذى غير ضروري تؤثر في هذا أكثر بكثير من الخوف بحدِّ ذاته. في قرارة نفسي استغربت الموقِفَ الذي اتخذته خوتشيتل لصالحي وليس لصالح زوجة مدرّس الرياضيات.

كنّا نذهب أحيانا مع الطفل فرانز إلى الحديقة. دعوناهم مرّةً كان فيها مُدرّس الرياضيات موجوداً إلى العشاء، كان مدرّس الرياضيات يريدنا أن نبقى وحدنا، لكنّ خوتشيتل كانت قد طلبت منّي أن أقدّمه إليها وفكّرت أن تلك كانت فرصة لا يمكن أن يأتي أحسن منها. كان العشاء الأوّل الذي أقدّمه في ما كنتُ أرى أنّه بيتي الجديد، مع أنّ العشاء بحدّ ذاته كان بسيطاً، طبقَ سلطة كبير، أجباناً ونبيذاً. حضر رِكِنا وخوتشيتل في الموعد بدقّة عالية وظهرت صديقتي في أفضل فستان عندها. حاول مُدرّس الرياضيات، تأكدتُ، أن يكون لطيفاً، الشيء الذي شكرته عليه، لكن بالنسبة إليّ لا أدري ما إذا كان بسبب قلّة الطعام (كانت في تلك الأيام تشدّني الوجبات منخفضة الحريرات) أو وفرةِ النبيذ، المسألة أنّ العشاء كان كارثياً. حين ذهب صديقاي، عاملهما كطفيليين، قال العناصر الذين لا تُحرّكون مجتمعاً، يجعلون البلد غير قادرٍ على الإقلاع. قلتُ له أنا مثلهما، فردَّ هو بأنّ ذلك لم يكن صحيحاً، فأنا أدرس وأعمل بينما هما لا يعملان شيئاً. هما شاعران، خلصتُ. نظرَ مدرّسُ الرياضيات إليّ في عينيّ وكرَّر مرات عديدة كلمة شاعر. هما خمولان وأبوان سيّئان، مَنْ يخطر له أن يذهبَ إلى مكان غريب ليأكلَ ويترك ابنه وحده في البيت؟ في تلك الليلة بينما كنّا نُمارسُ الحبّ فكّرتُ بالصغير فرانز نائماً في الغرفة التي تحتنا بينما والداه يشربان النبيذ ويأكلان الجبن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في غرفتي وشعرتُ بنفسي فارغة وغير مسؤولة، بعدها بقليل، بيوم أو يومين، قال لي رِكِنا إنّ عوليس عاد إلى المكسيك.

ذات مساء بينما أنا أقرأ سمعت خوتشيتل تناديني طارقةً بعصا مكنسةٍ سقفَ غرفتها. أطللتُ من النافذة. عوليس موجود هنا، قالت خوتشيتل، هل تريدين أن تنزلي؟ نزلتُ. هناك كان عوليس. لم تُسبّب لي رؤيته سعادة كبيرة. كلّ ما عناه لي هو وبِلانو صار الآن بعيداً أكثر من اللازم. تحدّث عن أسفاره. أعتقد أن روايته لها كان فيها أدب زائد. بينما كان يتكلّم رحت ألعب مع الصغير فرانز. بعدها قال عوليس إنّ عليه أن يذهب ليرى الأخوين رودريغِثْ وما إذا كنّا نُريد أن نُرافقه. تبادلنا أنا وخوتشيتل النظرات. إذا كنتِ أنت تريدين أن تذهبي، فأنا أعتني بالطفل، قلتُ لها. سألني عوليس قبل أن يذهب عن أنخِليكا. هي في البيت، قلتُ له، اهتف لها. بعامّة لا أدري لماذا كان موقفي منه أقرب إلى العدوانيّة. عندما غادرا غمزتني خوتشيتل. في تلك الليلة لم يأتِ مدرّسُ الرياضيات. أطعمتُ الصغيرَ فرانز في غرفتي، نزلتُ بعدها وألبستُهُ المنامةَ ووضعته في السرير، حيث لم يتأخّر في النوم. أخذتُ كتاباً من رفوف الكتب وبقيتُ أقرأ بجانب النافذة، وأراقبُ السيارات التي كانت تمرّ بأضوائها المشتعلة في شارع مونتِسْ. كنتُ أقرأُ وأُفكِّر.

في الثانية عشرة عادَ رِكِنا. سألني ماذا كنتُ أفعل هناك وأين هي خوتشيتل؟ قلتُ له إنّها ذهبت إلى اجتماع للواقعيين الأحشائيين في بيت الأخوين رودريغِثْ. سألني رِكِنا بعد أن نظر إلى ابنه عمّا إذا كنتُ قد أكلتُ. قلت له لا. نسيتُ أن آكل. لكنّني، نعم، أطعمتُ الطفل.

فتح رِكِنا البرّادَ وأخرج قدراً صغيراً وضعه على النار. كان حساء أرزّ. سألني إذا كنتُ أريد. في الحقيقة ما لم أكن أريده هو أن أذهب

إلى غرفتي الموحشة، وهكذا قلتُ له أن يصبّ لي قليلاً. كنّا نتكلّم بصوت منخفض كيلا نوقِظَ فرانز. كيف تسير دروسك في الرقص؟ سألني. كيف تسير دروسك في الرسم؟ رِكِنا لم يتواجد في غرفتي إلاّ مرّة واحدة، ليلة العشاء، وأعجبه ما كنتُ أرسمه. كلّ شيء يسير بشكل جيّد، قلتُ له. والشعر؟ منذ زمن طويل لا أكتبُ، قلتُ له. وأنا أيضاً، قال هو. كان حساء الأرزّ كاوياً جدّاً. سألتُه عمّا إذا كانت خوتشيتل تطبخ هكذا دائماً. دائماً، قال هو، لا بدّ أنّها عادة عائليّة.

بقينا برهة ينظر الواحد منّا إلى الآخر دون أن يقول شيئاً، وننظر إلى الشارع أيضاً، سرير فرانز، الجدران سيّئة الطلاء. راح رِكِنا يتكلّم بعدها عن عوليس، عن عودته إلى المكسيك. كانت معدتي تلتهب وتبيّنت بعدها أنّ وجهي كان يلتهب أيضاً. أنا ظننتُ أنّه سيبقى في أوروبا للأبد، سمعتُهُ يقول. لا أدري لماذا رحت أُفكِّر في تلك الليلة بوالد خوتشيتل، الذي رأيته في مناسبة وحيدة، بينما كان يخرجُ من الغرفة. حين رأيته قفزت قفزة إلى الخلف، بدا لي شخصاً مشؤوماً. إنّه أبي، قالت خوتشيتل، حين رأت تعبير الذعر يعلوني. حيّاني الرجلُ بحركةٍ من رأسه ومضى. الواقعية الأحشائية ماتت، قال رِكِنا، علينا أن ننساها ونعمل شيئاً جديداً. شعبة مكسيكية من السريالية، همهمتُ. أحتاج أن أشرب شيئاً، قلتُ. رأيت رِكِنا ينهض ويفتح البرّاد، ضوء هذا، الأصفر جاب الأرض حتى قوائم سرير الصغير فرانز. رأيتُ كرة، حذاءين صغيرين جدّاً، لكنّهما أكبر من اللازم كي يكونا للطفل، رحتُ أُفكّرُ بقدَمَي خوتشيتل، الأصغر من قدميّ بكثير. هل لاحظتِ شيئاً جديداً في عوليس؟ سأل رِكِنا. شربتُ ماءً بارداً. لم ألحظْ أيَّ شيء، قلتُ. نهض رِكِنا وفتح النافذةَ كي يهوّي الغرفة من دخان السجائر. كأنه مجنون، قال رِكِنا. إنّه مهلوس. سمعتُ جلبة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مصدرها سرير الصغير فرانز. هل يتكلّم في نومه؟ سألتُ. لا، إنّها من الشارع، قال رِكِنا. أطللتُ من النافذة ونظرتُ إلى غرفتي، كان الضوء مُطْفأً. شعرتُ بعدها بيدي رِكِنا حول خصري ولم أتحرّك. هو أيضاً لم يتحرّك. بعد برهة أنزل لي بنطلوني وشعرت بعضوه بين وركيّ. لم نقل شيئاً. عندما انتهينا عدنا لنجلس إلى الطاولة وأشعلنا سيجارة. هل ستقولين هذا لِخوتشيتل؟ سأل رِكِنا. هل تريدني أن أقوله لها؟ سألتُ أنا. أفضّل ألا تقوليه، قال هو.

غادرت في الثانية صباحاً وخوتشيتل لم تكن قد عادت بعد. في اليوم التالي عندما عدتُ من دروس الرسم، جاءت خوتشيتل إلى غرفتي تبحث عنّي. رافقتُها إلى السوق. حكت لي بينما كنّا نشتري أنّ عوليس ليما وبانتشو رودريغث تشاجرا. الواقعية الأحشائية ماتت، قالت خوتشيتل، لو أنّكِ على الأقل ذهبتِ أنتِ... قلتُ لها إنّني ما عدتُ أكتبُ شعراً ولا أريد أن أعرف شيئاً عن الشعراء. عندما عدنا طلبت منّي خوتشيتل أن أدخل إلى غرفتها. لم تكن قد رتّبت السرير، وأطباق الليلة الفائتة التي أكلنا فيها أنا ورِكِنا، كانت مكدّسة دون غسيل في المجلى بجانب الأطباق التي استخدمتها خوتشيتل وفرانز ظهراً.

أيضاً لم يأتِ مدرّس الرياضيات في تلك الليلة. هتفتُ لأختي من هاتف عمومي. لم أكن أعرف ماذا أقول لها، لكنّني كنتُ بحاجة لأن أتكلّم مع أحدٍ وليس بي رغبة لأن أكون مرّةً أخرى في غرفة خوتشيتل. صِدْتُها قبل أن تخرج تماماً. كانت ذاهبة إلى المسرح. ماذا تريدين؟ سألتني. هل أنت بحاجة إلى المال. بقيت برهةً أقول ترهات، ثمّ وقبل أن أغلق الهاتف سألتُها عما إذا كانت تعرف أنَّ عوليس ليما قد عاد إلى المكسيك.لم تكن تعرف. لم يكن يهمّها. قلتُ وقالت لي وداعاً وأغلقت الهاتف. بعدها هتفتُ لمدرّس

الرياضيات. ردّت على الهاتف زوجته. من؟ قالت. لزمتُ الصمت، يا ديوثة، يا ابنة العاهرة الكبيرة، ردّي، قالت. أغلقتُ الهاتف بنعومة وعدتُ إلى البيت. بعد يومين قالت لي خوتشيتل إنّ كاتالينا أوهارا ستقيم حفلة من المحتمل أن يجتمع فيها جميع الواقعيين الأحشائيين، وفي الحفلة سينظرون فيما إذا كان من الممكن إعادة إطلاق المجموعة، إصدار مجلّة والتخطيط لنشاطات جديدة. سألتني عمّا إذا كنتُ أفكّر أن أذهب. قلتُ لها لا، لكن إذا كانت تريد هي أن تذهب فأنا أستطيعُ أن أرعى فرانز. عدتُ ومارستُ الحبَّ في تلك الليلة ثلاث مرّات مع رِكِنا، خلال وقت طويل، منذ أن نام الطفل وحتى الثالثة صباحاً تقريباً، وفكّرتُ للحظة أنّه هو من كنتُ أحبُّ وليس الوغد مدرّس الرياضيات.

حكت لي خوتشيتل في اليوم التالي كيف سار الاجتماعُ. مثل فيلم عن زومبيين، قالت. كانت الواقعية الأحشائية بالنسبة إليها منتهية، وهو ما كان يؤلمها، لأنّ القصائد التي كانت تكتبها، قالت، هي في جوهرها واقعيّة أحشائيّة. استمعتُ إليها دون أن أقول شيئاً. سألتُها بعد ذلك عن عوليس. هو الزعيم، قالت خوتشيتل، لكنّه وحده. منذ ذلكِ اليوم لم يعد هناك اجتماعات واقعية أحشائيّة وخوتشيتل لم تعد لتطلب منّي أن أعتني بابنها ليلاً. كانت علاقتي بمدرس الرياضيات ميتة، لكنّنا بقينا ننام معاً من حين لآخر، وبقيت أنا أتصل به إلى بيته بالهاتف، أظنُّ بمازوخية، أو بما هو أسوأ، لأنّني كنتُ اسأمُ. ومع ذلك تكلّمنا ذات يوم عن كلّ الذي جرى أو لم يجرِ لنا ومنذ ذلك الوقت لم نعد نلتقي. حين غادر، بدا مرتاحاً. فكّرت أن أترك غرفة شارع مونتِس وأعود إلى بيت أمّي. في النهاية قرّرتُ ألا أغادر وأن أستمر بالعيش هناك بشكلٍ دائم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٣

رافائيل باريّوس، جالساً في غرفة معيشة بيته، جاكسون ستريت، سان دييغو، كاليفورنيا، آذار ١٩٨١.

أنتم هل رأيتم *راكب الدراجة النارية السهل*؟ بلى، فيلم دينيس هوبّر، بيتر فوندا، وجاك نيكلسون. هكذا كنّا نحن تقريباً في ذلك الوقت. لكن هكذا كان على الأخص عوليس ليما وأرتورو بِلانو، قبل أن يغادرا إلى أوروبّا. كانا مثل دِنيس هوبّر وانعكاسه: ظلان مفعمان بالحيوية والسرعة. وهذا لا يعني أنّ عندي شيئاً ضدّ بيتر فوندا، لكن ما من أحد منهما كان يُشبهه. مولِّر بلى، كان يُشبه بيتر فوندا. بالمقابل هما كانا مماثلين لِدنيس هوبّر، وهذا كان مُقلقاً ومُغرياً، أقولُ، مقلقاً ومغرياً، بالنسبة لنا نحن الذين نعرفهما، لنا نحن الذين كنّا أصدقاءهما. وهذا ليس حكم قيمة على بيتر فوندا. كنتُ معجباً ببيتر فوندا. في كلّ مرّة يعرضون فيها في التلفزيون الفيلمَ الذي مثّله مع ابنة فرانك سيناترا ومع بروس ديرن، لا أضيّعه حتى ولو تطلّب منّي الأمر أن أبقى مستيقظاً حتى الرابعة صباحاً. ومع ذلك ما من أحدٍ منهما يُشبهه. على عكس ما كان يحدثُ لهما مع دِنيس هوبر. كانا كما لو أنّهما يقلّدانه عن وعيٍ. دنيس هوبّر يمشي مُكرّراً في شوارع مكسيكو، السيّد هوبّر ينتشر بتوالٍ هندسيّ من الشرق إلى الغرب، مثل سحابة سوداء مضاعفة، حتى يختفي دون أن يترك أثراً

(كان هذا حتمياً) على الجانب الآخر من المدينة، على الجانب الذي ليس فيه مخارج. وكنتُ أحياناً أنظرُ إليهما، وكنتُ، على الرغم من الودِّ الذي أشعرُ به تجاههما، أُفَكِّر: أيّ نوع من المسرح هذا؟ أي نوع من الاحتيال أو الانتحار الجماعيّ هذا؟ أدركتُ ذات ليلة، قبل السنة الجديدة ١٩٧٦ بقليل، قبل أن يُغادِرا إلى سونورا، أنّها طريقتهما في ممارسة السياسة. الطريقة التي لا أشاركهما بها ولم أكن أفهمها آنئذٍ، لا أعرف إن كانت جيدة أو سيّئة، صحيحة أو خاطئة، لكنّها كانت طريقتهما في ممارسة السياسة، في التأثير سياسيّاً في الواقع، اعذروني إذا كانت كلماتي غير واضحة، فأنا في المرحلة الأخير مشوّش قليلاً.

باربارا باتِرسون، في مطبخ بيتها، جاكسون ستريت، سان دييغو، كاليفورنيا، آذار ١٩٨١.

دنيس هوبّر؟ سياسة؟ ابن العاهرة! خراء عالق بشعر المؤخّرة. ماذا كان يعرف الوغدُ عن السياسة. كنتُ أنا من كانت تقول له: تَفَرّغ للسياسة، يا رافائيل، تفرّغ للقضايا النبيلة، ويحكَ، أنت ابن الشعب، وكان الديوث ينظرُ إليّ كما لو كنتُ خراءً، بعضَ قمامةٍ، ينظرُ إليّ من علٍ مُتخَيّلٍ ويردّ: هذه ليست شطائر، يا باربارا، لا تتسرّعي، ثم يستلقي لينام بينما كان عليّ أن أخرج للعمل ثم للدراسة، يعني أنّني كنتُ مشغولة طيلة النهار، مشغولة طيلة النهار، في الأسفل وفي الأعلى، من الجامعة إلى العمل (أنا نادلة في محل همبورغر في جادّة ريستون) وعندما كنتُ أعودُ إلى البيت أجدُ رافائيل نائماً والأطباق دون غسيل والأرض متسخة وبقايا الطعام في المطبخ (لكن ما من طعام لي، الوغد!) البيت مثير للاشمئزاز، كما لو أنّ قطيعاً من قردة المندريل مرَّ من هناك، وعندها يكون عليّ أن أبدأ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالتنظيف، بالكنس، بالطبخ وأن أخرجَ بعدها وأملأ البرّادَ بالطعام، وحين كان يستيقظ رافائيل أسأله: هل كتبتَ، يا رافائيل؟ هل بدأت بكتابة روايتك عن حياة المكسيكيين في سان دييغو؟ ورافائيل كان ينظرُ إليّ كما لو أنّه يراني في التلفزيون ويقول لي: كتبتُ قصيدةً، يا بارباريتا، وعندها أقول له مذعنة، هيّا، يا ديوث، اقرأها لي، ورافائيل يفتح علبتي بيرة، يعطيني واحدة (الديوثُ يعرف أنّ عليّ ألا أشرب بيرة) يقرأ لي بعدها القصيدةَ اللعينة، ولا بدّ أن هذا كان يحدث لأنّني في أعماقي ما أزال أحبّه وكانت القصيدة (إذا كانت جميلة) تُبكيني، دون أن أكاد أنتبه، وحين كان رافائيل ينتهي من القراءة يكون وجهي مبلّلاً ولامعاً وكان هو يقترب منّي وكان باستطاعتي أن أشمّه، الديوثُ كانت رائحته رائحة مكسيكيّ ونتعانق، بنعومة جدّاً، وبعدها، بعد نصف ساعة تقريباً نبدأ نمارس الحبَّ، وبعدها يقول لي رافائيل: ماذا سنأكل، يا بدينة؟ وأنا كنتُ أنهض دون أن أرتدي ملابسي وأدخل إلى المطبخ وأُحضّرُ له البيض بالجامبو ولحم الخنزير المقدّد، وكنتُ، بينما أنا أقليها، أُفَكّر بالأدب وبالسياسة وأتذكّر وقتَ كنّا أنا ورافائيل نعيش في المكسيك وذهبنا لمقابلة شاعر كوبي، هيا بنا نقابله، يا رافائيل، قلتُ له: أنت ابن الشعب، ولا أعتقد أنّك تريد لهذا اللوطيّ أن ينتبه إلى عبقريتك، وقال لي رافائيل؟ لكنّني واقعيٌّ أحشائيّ، يا بارباريتا، وأنا قلت له لا تكن وغداً، بيضتاك واقعيتان أحشائيّتان، لكن هل أنت لا تريد أن تنتبه إلى الواقع العاهر، يا حناني؟ وذهبنا أنا ورافائيل لنقابل شاعر الثورة الغنائيّ العظيم، وكان هناك أكره الشعراء المكسيكيين لرافائيل (أو بالأحرى أكرههم لِبِلانو وليما)، كان شيئاً غريباً، لأنّ كلينا شعر بها بالشمّ، كانت غرفة الفندق تعبقُ برائحة الشعراء الريفيين، بشعراء مَجَلّة *الدلفين البروليتاري*، برائحة زوجة هُورِتا، برائحة الستالينيين

المكسيكيين، برائحة ثوريي الخراء، الذين يقبضون كلّ خمسة عشر يوماً من الخزينة العامة، الخلاصة أنّني قلتُ لنفسي وحاولتُ أن أقوله بالتخاطر لِرافائيل: لا تبصقها الآن، لا تتورّط، وفهم ابن هافانا علينا فأحسن استقبالنا، وكان تعباً قليلاً وحزيناً قليلاً، وتكلّم رافائيل بخطوط عريضة عن الشعر المكسيكي الشاب، لكن ليس عن الشعراء الواقعيين الأحشائيين (قلتُ له قبل أن ندخل، إنّني سأقتله إن هو فعل)، حتى أنّني اخترعت ارتجالاً مشروعَ مجلّة كانت ستمولها، قلتُ، جامعةُ سان دييغو، وهذا ما لاقى اهتمام الكوبيّ، فلاقت قصائد رافائيل اهتمامه، لاقت مجلتي الوهمية العاهرة اهتمامه، وفجأة حين وصلت المقابلة إلى نهايتها، بدا الكوبيُّ في تلك اللحظة نائماً أكثر مما هو مستيقظ، سألنا بغتة عن الواقعية الأحشائيّة. لا أعرف كيف أشرحها له. غرفة الفندق العاهر؛ الصمت والمصاعد البعيدة؛ رائحة الزيارات السابقة؛ عينا الكوبيّ اللتان كانتا تغمضان من النعاس أو الملل أو الكحول؛ كلماته غير المُتَوَقَّعَة، التي بدا كأنّ من ينطق بها رجلٌ مُنوّم مغناطيسياً، مسحور، كلّ ذلك ساهم في أن أطلق صرخة صغيرة، صرخة صغيرة، ومع ذلك سُمعت كطلقة. لا بدّ أنّها الأعصاب، هذا ما قلتُهُ لهما. بعدها لزمنا ثلاثتنا الصمتَ برهةً، لا شكّ أنّ الكوبي كان يُفكّر تُرى مَنْ تكونُ هذه الأمريكية الهستيرية وأنّ رافائيل كان يُفكّر فيما إذا كان سيتكلّم أو لا يتكلّم عن المجموعة وأنا أقول لنفسي مرّةً وأخرى، يا عاهرة الخراء، دعينا نرى ما إذا كنتِ ستخيطين يوماً ما شفتيك العاهرتين. وعندها، بينما أنا أرى نفسي محبوسة في خزانة بيتي، وفمي صار قشرةً هائلة، أقرأ مرّةً وأخرى قصص *السهل يحترق*، سمعتُ رافائيل يتكلّم عن الواقعيين الأحشائيين، سمعتُ العاهر الكوبي يسأل ويسأل، سمعتُ رافائيل يقول بلى، ربّما، مرض الشيوعية الطفولي، سمعتُ الكوبيَّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يقترح بياناتٍ، مطالبَ، إعادةَ تأسيس، وضوحاً إيديولوجياً أكبر، وعندها لم أستطِع أن أتحمّل أكثر وفتحتُ فمي وقلتُ إنّ هذا قد انتهى، وإنّ رافائيل يتكلّم بصفته الشخصية، بصفته شاعر جيّد، وعندها قال لي رافائيل، اسكتي، يا باربباريتا، وأنا قلتُ له أنت لا تُسكتني، يا لحّاس، والكوبي قال آهٍ من النساء، وحاول التوسّط بخراء فحولته وبيضتيه الفاسدتين والمصابتين بالغثيان، وأنا قلتُ خراء، خراء، خراء، فقط نريد أن ننشر في كاسا دِ لا أمريكاس بصفتنا الشخصية وعندها نظر إليّ الكوبيُّ جدّياً تماماً وقال طبعاً لا كاسا دِ لاس أمريكا، دائماً تنشر بصفة شخصية، وهكذا يناسبهم، قلتُ أنا، وقال رافائيل كفاكِ إزعاجاً، يا باربباريتا، فالمعلّم سوف يُفكّر بما ليس، وأنا قلتُ ليُفَكِّر المُعلّم العاهر بما يشاء، لكنّ الماضي هو الماضي، يا رافائيل، ومستقبلك هو مستقبلك، أليس صحيحاً؟ وعندها نظرَ إليّ الكوبي بجدّية أكبر من أي وقت بعينيه كمن يقول لو كنّا في موسكو لكنتِ انتهيت إلى مشفى للأمراض النفسيّة، يا بنت، لكنّني في الوقت ذاته أحسستُ به، كما لو أنّه يُفكّر، حسن، ليس إلى هذا الحدّ، الجنون هو الجنون، هو الجنون والحزن أيضاً وفي الجوهر نحن الثلاثة أمريكيون، جميعنا أبناء كاليبان، ضائعون في الفوضى الأمريكية الكبرى، وهذا أعتقدُه، أنّني رأيتُ في عيني الرجل الجبّار بارقةَ ملاحة، بارقةَ تسامح، طرّاني، كما لو أنّه قال لا تحزني، يا باربارا، فأنا أعرف هذه الأشياء، وإلّا كم أنا أحمق، أنا ابتسمتُ ورافائيل أخرج قصائده، قرابة الخمسين ورقة، وقال له، هذه هي قصائدي، يا رفيقي، والكوبيّ أخذ القصائد، شكره وعلى الفور نهضَ هو ورافائيل، كما لو بكاميرا بطيئة، كصاعقة، كصاعقة مضاعفة، أو صاعقة وظلّها، لكن بكاميرا بطيئة، وفي هذا الجزء من الثانية فكّرتُ: كلّ شيء حسن، حبذا لو أنّ كلّ شيء حسنٌ، ورأيتُ

نفسي أستحمّ في شاطئ هافاني، ورأيتُ رافائيل بجانبي، على بعد ثلاثة أمتارٍ، يتحدث مع بعضِ الصحفيين الأمريكيين الشماليين، ناسٍ من نيويورك وسان فرانسيسكو، يتكلّمون عن **الأدب**، يتكلّمون عن **السياسة**، وعلى أبواب الفردوس.

خوسِهْ «ثوبّيلوتِ» كولينا، مقهى كيتو، جادة بوكارِلي، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، آذار ١٩٨١.

كان هذا أكثر ما اقتربَ به هؤلاء اللحّاسون من السياسة. كنتُ ذات مرّة في *إل ناثيونال* في ١٩٧٥، وكان هناك أرتورو بِلانو وعوليس ليما وفيليبّ مولِّر ينتظرون أن يستقبلهم دون خوان رِخانو. فجأة ظهرت شقراء مهضومة كفاية (أنا خبير) وتخطّت صفَّ الشعراء البؤساء الذين كانوا يتكوّمون مثل ذباب في الغرفة البائسة التي كان يعمل فيها دون خوان رِخانو. طبعاً ما من أحدٍ احتجَّ (أولاد مساكين، لكنّهم فرسان)، كيف سيحتجون، خراء، وتمضي الشقراءُ وتقتربُ من مكتبِ دون خوان وتسلّمه رزمة أوراق، بعض الترجمات، اعتقدت أنّني سمعتُ (سمعي مرهف) ودون خوان، أسكنه الله فسيح جنانه، فالرجال من أمثاله قليلون، يبتسمُ لها ملءَ شدقيْهِ ويقولُ لها كيف حالك، يا فيرونيكا (الإسباني الديوث، يُعاملنا نحن بشكل مخزٍ) ما أطيب الرياح التي جاءت بها إلى هنا، وفيرونيكا المذكورة تعطي العجوزَ الترجمات وتتكلّم معه برهةً، أو بالأحرى فيرونيكا تتكلّم ودون خوان يهزّ بالموافقة، كأنّه مُنَوّم مغناطيسياً، تأخذ الشقراء بعدها شيكَها، تُخَبّئه في جزدانها، تدورُ نصفَ دورة وتضيعُ في الممر القذر، وعندها وبينما كان يسيل لعابنا نحن البقيّة، مكث دون جيوفاني برهةً مذهولاً، متفكّراً، وأرتورو بِلانو، الذي كان وحشاً موثوقاً والأقرب إليه ذهب وقال له، ماذا يحدث، يا دون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خوان، ما الأمر؟ وينظرُ إليه دون رِخاس كأنّه خارجٌ من حلمٍ عاهر أو من كابوسٍ عاهر، ويقول له: هل تعرف من كانت تلك الفتاة؟ قالها له رِخانو بنبرة إسبانية وهو ينظر إلى عينيه، نذير شؤم، وبِلانو قال له ليس عندي أدنى فكرة، على الرغم من أنّها تبدو ظريفة، من تكون؟ ابنة حفيدة تروتسكي، قال دون رِخاس، فيرونيكا فولكوف، ابنة الحفيدة، (أو الحفيدة بما أنّكم جميعاً تجهلون، وكان بالإضافة إلى عصبيته يتكلّم بنبرة مكسيكية، يا له من عجوز مسكين، كم ساء حظّه في النهاية، لكن في النهاية يذهب ويقول له هل تعلم، يا ارتورو، من هذه الفتاة؟ وبِلانو يقول أبداً لا، على الرغم من أنها تبدو ظريفة، من تكون؟ ابنة حفيدة تروتسكي! يقول دون رِخاس، فيرونيكا فولكوف، ابنة حفيدة تروتسكي بعينها (أو حفيدته، لكن، لا، أظّنها ابنة حفيدته) ابنة حفيدة ليون دافيدوفيتش، إذن اعذروني إن أضعتَ خيط الحديث، قال بِلانو يا إلهي! وركض خلف فيرونيكا فولكوف، وخلف بِلانو خرج ليما مسرعاً والولد مولِّر بقي دقيقة كي يأخذ شيكيهما وخرج بعدها أيضاً مثل الرمح ورآهم رِخانو يخرجون ويختفون في الممرّ القذر فابتسم كما لو لداخله، وكأنّه يقول يا لهم من أولاد خبثاء جبناء، وأنا أعتقد أنّه لا بدَّ فكّر بالحربِ الأهلية الإسبانية، بأصدقائه الموتى، بسنواتِ منفاه الطويلة، أنا أعتقد أنّه لا بدّ فكّر حتى بانضوائه في الحزب الشيوعي، وإن كان هذا لا يتوافق جيداً مع ابنة حفيدة تروتسكي، لكن هكذا كان دون رِخاس، عاطفياً أساساً وشخصاً طيّباً وعاد بعدها إلى كوكب الأرض وتحرير *المجلة الثقافية المكسيكية*، الملحق الثقافي *للنائيونال*، وعاد الذين كانوا يتكدّسون في الغرفةِ سيّئةِ التهوية والذين كانوا يذبلون في الممر المعتم معه إلى الواقع الوغد وأخذنا جميعنا شيكاتنا.

ثمّ وبعد أن ناقشت مع دون جيوفاني موضوعَ نشر مقالٍ عن

صديق رسام، خرجتُ إلى الشارع أنا واثنان من الصحيفة مستعدين لأن نسكر باكراً، ورأيتهم عبر بلورِ مقهى. أعتقد أنّ المقهى كان لا إستريّا إرّانتِ[1] لا أتذكّر. كانت فيرونيكا فولكوف معهم. كانوا قد أدركوها، دعوها لتناول شيء. بقيت واقفاً أنظرُ إليهم برهة، ريثما يُقرّر رفيقاي أين سنذهب. بدوا سعداء. بِلانو وليما وموِلّر وابنة حفيدة تروتسكي. عبر زجاج النافذة رأيتُهم يضحكون، رأيتهم يتلوّون من الضحك. ربّما لن يروها مرّة أخرى أبداً. الفتاة فولكوف كانت بكل وضوح من عليَّةِ المجتمع، وهؤلاء الثلاثة مكتوب على جبينهم أن مصيرهم هو سجن لِكومبِرّي أو ألكاتراث. لا أدري ماذا أصابني. أُقسم بهذه، شعرت بنفسي ناعماً وثوبيلوتِ كولينا لم يكن يضعف أبداً هناك. كان الأوغاد يضحكون مع فيرونيكا فولكوف، لكنّهم أيضاً كانوا يضحكون مع ليون تروتسكي. لن يكونوا أبداً بعد الآن أقرب مما هم من الحزب البلشفي. ربّما لن يريدوا أبداً أن يكونوا بمثل هذا القرب. فكّرتُ بالسيّد إيفان رِخانوف وشعرت بصدري يمتلئ حزناً. لكن وفرحاً أيضاً، ويحك. ما أغرب الأشياء التي كانت تحدث في *إلـ ناثيونال* أيام القبض.

فيرونيكا فولكوف، مع صديقة وصديقين، قاعة المغادرة الدولية، مطار مكسيكو العاصمة الفيدرالية، نيسان ١٩٨١.

أخطأ السيّد خوسِهْ كوليناس عندما أكّد أنّه لن يرى بعد ذلك أبداً المواطِنَين التشيليين أرتورو بِلانو وفِليبّ موِلّر والمواطن المكسيكي، ابن بلدي عوليس ليما. وقعت الأحداثُ التي رواها ولا تقارب الحقيقة كثيراً، في عام ١٩٧٥، ربّما بعد عام عدتُ ورأيتُ الشبابَ

(١) النجم التائه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الذين سبق ذكرهم. كان ذلك، إن لم تخني ذاكرتي، في أيّار أو حزيران ١٩٧٦ في ليل صافٍ ظاهريّاً، بل وحتى لألاء، كنّا نتحرّك فيه نحن المكسيكيين والزوار الأجانب الأكثر تشوّشاً عاماً بعد عام، ببطء وحذرٍ شديدين، كنتُ أجده محفّزاً لكنّه حزين بأصرار.

القصة ليس لها كبير أهمّية، حدثتْ على أبواب سينما شارع رِفورما، يوم افتتاح فيلمٍ لا أعرف إن كان أمريكياً شمالياً أم أوروبيّاً. يمكن حتى أن يكون لمخرج مكسيكيّ.

كنتُ ذاهبةً مع بعض الأصدقاء وفجأة لا أدري كيف رأيتهم. كانوا يجلسون على الدرج يُدخّنون ويتحدّثون. هم كانوا قد رأوني، لكنّهم لم يبادروا للسلام عليّ. الحقيقة أنّهم كانوا يبدون متسوّلين، ناشزين إلى حدٍّ رهيب في الجوِّ هناك، في مدخل سينما، بين ناس حسني الهندام، ومتأنّقين، كانوا يبتعدون عنهم عندما يصعدون الدرجَ كما لو أنّهم خائفون من أن يمدَّ أحدُهُم يدَهُ ويزلقها بين أفخاذهم. على الأقل واحد منهم بدا لي أنّه كان تحت تأثير المخدرات. أعتقدُ أنّه كان بِلانو. الآخر، أعتقد أنّه كان عوليس ليما، كان يقرأ ويكتب على هوامش كتابٍ ويدندن في الوقت ذاته. الثالث (لا، لم يكن مولِّر، قطعاً، فمولِّر كان طويلاً وأشقر، وكان هذا مربوعاً، بديناً وأسمر) نظر إليّ وابتسم، كما لو أنّه فعلاً كان يعرفني. لم يبقَ أمامي غير أن أردَّ له التحية وفي غفلة من أصدقائي اقتربتُ من حيث كانوا وسلَّمت عليهم، ردّ عوليس على تحيّتي وإن لم ينهض عن الدرجة، بِلانو فعلاً نهض مثل رجلٍ آليّ، لكنّه نظرَ إليّ كما لو أنّه لا يعرفني. الثالث قال أنتِ فيرونيكا فوكوف وذكر بعضَ قصائدي المنشورة حديثاً في مجلة. كان الوحيد الذي بدا أنّ به رغبة للحديث، يا إلهي، فكّرتُ، أرجو ألا يُكَلّمني عن تروتسكي، لكنّه لم يتكلّم عن تروتسكي بل عن الشعر، قال شيئاً عن المجلّة التي كان ينشرها

صديق مشترك (صديق مشترك؟ يا للهول!) ثمّ قال أشياء أخرى لم أفهمها.

بينما أنا ذاهبة، لم أبقَ معهم أكثرَ من دقيقة، نظرَ إليّ بِلانو بانتباه أكبر وعرفني. آه، فيرونيكا فولكوف، قال وارتسمت على وجهه ابتسامة بدت لي مُحيّرة. كيف هو الشعر؟ سأل. لم أعرف بماذا أجيب على سؤال بمثلِ هذه الحماقة وهززت كتفيّ. شعرتُ بأنّ أحدَ أصدقائي يناديني. ودّعتهم. مدَّ بِلانو لي يده وأنا شددت عليها. الثالث قبّلني على خدّي. شعرتُ لثانية أنّه كان قادراً على أن يترك صديقيه على الدرج وينضمَّ إلى مجموعتي. سوف نلتقي، يا فيرونيكا، قال. عوليس ليما لم ينهض. بينما أنا أدخل السينما رأيتهم لآخر مرّة. شخص رابع كان قد وصل وراح يتكلّم معهم. أعتقدُ، لا أستطيع أن أؤكّد، أنّه كان الرسام بِرِث كامارغا. كان هذا فعلاً حسن الهندام، نظِيفاً وموقفه يشي ببعض العصبية. فيما بعد، عند خروجنا من السينما، رأيت بِرِث كامارغا أو الشخصَ الذي يُشبِهه، لكنّني لم أرَ الشعراءَ الثلاثة، ولذلك خلصتُ إلى أنّهم كانوا هناك، على الدرجات، ينتظرون ذلك الشخصَ الرابعَ وأنّهم بعد لقائهم القصير به ذهبوا.

ألفونسو بِرِث كامارغا، شارع طُليطِلة، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، حزيران ١٩٨١.

لم يكن بِلانو وليما ثوريّيْن. لم يكونا كاتبَيْن. كانا يكتبان أحياناً شعراً، لكنّني أيضاً لا أعتقد أنّهما شاعران. كانا بائعَي مُخدرات. ماريجوانا بشكل أساسي، وإن كانا يعرضان أيضاً فطوراً في حنجوراتٍ زجاجية، حنجورات صغيرة تُستخدم في الأصل لأطعمة الأطفال، وعلى الرغم من أنّها كانت تُثير الاشمئزاز من النظرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأولى، إذ تبدو غائطَ طفل جامداً يطفو في سائل أمينوزي داخل عبوة زجاجية، في النهاية اعتدنا على الفُطرِ اللعين، وكان هذا هو أكثر ما نطلبه منهم، فُطر أواكساكا، فُطر تاماوليباس، فُطر هواستِكا البِراكروثية، أو بوتوسينا أو من أيّة أماكن لعينة كانت. فُطر كي نستهلكه في حفلاتنا أو في اجتماعاتنا الصغيرة. من كنّا نحن؟ كنّا رسامين مثلي، معماريين مثل المسكين كيم فونت (عملياً كان هذا من قدّمهما إلينا دون أن تخطر بباله، على الأقل هذا ما أُفضّل أن أفترضه، العلاقةُ التي لم نتأخّر بإقامتها معهما). لأنّ هذين الولدين كانا ماهرين في التجارة. عندما تعرّفت عليهما (في بيت المسكين كيم) تكلّمنا عن الشعر والرسم. أعني الشعرَ والرسمَ المكسيكيَّين (هل هناك غيرهما؟). لكن بعد برهة قصيرة تكلّمنا عن المُخدِّرات. وانتقلنا من الكلامِ عن المخدِّرات إلى الكلامِ عن التجارة. وبعد دقائق قليلة أخرجاني إلى الحديقة وجعلاني أُجرِّبُ تحتَ ظلّ شجرةِ حور أسود الماريجوانا التي كانت معهما. رائعة، بلى يا سيّد، كما لم أذق مثلها منذ زمن طويل. وهكذا تحوّلتُ إلى زبونهما. وبالمناسبة عملتُ لهما دعايةً مجانيّة عند عدد من الأصدقاء الرسامين والمعماريين فتحوّلوا بدورهم إلى زبائن لليما وبِلانو. حسن، إذا ما نظرنا إلى المسألة من منظور معيّن، نجد أنّها شكّلت تطوّراً، كيلا أقول راحة. أفترض أنّهما كانا على الأقل *نظيفين*. ويستطيع الواحد أن يتكلّم معهما عن الفن بينما هو ينهي اتفاقاً. وكنّا نفترضّ أنّهما لن يُحاولا أن ينصبا *علينا* أو أن يوقعانا في كمين. أنتم تعرفون هذا النوع من الأفخاخ، من تلك التي ينصبها ثلاثةُ أرباعِ تجار المخدرات. وكانا إلى هذا الحدّ أو ذاك رصينين (أو هذا ما كنّا نعتقده نحن) ودقيقَيْن في مواعيدهما، ولديهما إمكانيات، يستطيع المرء أن يهتف لهما قائلاً أحتاج إلى خمسين غراماً من غولدِن أكابولكو للغد حيث

أُقيم حفلة قصفٍ مفاجئة والشيء الوحيد الذي كانا يسألانك عنه هو المكان والساعة، فلا يذكران المال، وإن لم يحدث أن شكيا أدنى شكاية من هذا. كنّا ندفعُ السعرَ الذي كانا يضعانه دون أن ننبسَ ببنت شفة، شيء يفتح الشهية على العمل مع زبائن من هذا النوع. أليس صحيحاً؟ كلُّ شيء كان كالحرير. طبعاً كنّا نختلفُ أحياناً. طبعاً الذنب كان ذنبنا. كنّا نمنحهم ثقتنا ومعروف أنّ هناك أشخاصاً من الأفضل أن تُبقيهم على مسافة منك. لكنّ مزاجَنا الديمقراطي كان يخوننا وأحياناً حين كانت تقوم حفلة أو اجتماع مملّ على وجه الخصوص مثلاً، كنّا ندخلهما، نصبُّ لهما بعضَ الأقداح، نطلبُ منهما أن يُفصِّلا لنا بدقّة المكانَ الذي تأتي منه البضاعةُ التي كنّا سنستهلكها أو سنهضمها، بالخلاصة، هكذا ببراءة ودون نيةٍ بإهانتهما، وكانا يشربان مشروباتنا الكحولية، يأكلان مقبلاتنا، لكن بطريقة، كيف أوضّحها؟ بشرودٍ، ربّما ببرودة، كما لو أنّهما موجودان لكنّهما غير موجودَيْن، أو كما لو كنّا نحن حشرات أو بقرات، يستنزفانها كلّ ليلة، ومن المناسب الحفاظ عليها حيّةً بشكل مريح، لكن دون أدنى إشارة تدلُّ على القرب، الودّية أو الحنان، وهذا ما كنّا نحسّ به أحياناً، على الرغم من أنّنا عامّة ما نكون سكرانين أم مُخَدَّرين، وكنّا أحياناً كي نُغيظهما نُجبرهما على الاستماع إلى تعليقاتنا، آرائنا، إلى ما كنّا نُفكّر به تجاههما. طبعاً لم نعتبرهما قط شاعرين حقيقيَّين وأقل من ذلك ثوريَّيْن. كانا بائعين وكفى! نحن كنّا نحترمُ أوكتافيو باث، مثلاً وهما، بعنجهية الجهلة، يحتقرانه دون لفٍّ ولا دوران. هذا شيء غير مقبول، أليس صحيحاً؟ قالا، ذات مرّة، لا أدري لماذا، شيئاً ضدّ تامايو[1]، وكانت هذه الطامّةَ، لا أدري في

(١) روفينو تامايو، رسام مكسيكي (١٩٩٩-١٩٩١).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أيّ سياق، الحقيقة أنّني لا أعرف ولا حتى أين، ربّما كنّا في بيتي، وربّما لا، لا يهمُّ، الأكيد هو أنّ أحداً تكلّم عن تامايو وعن كوِباس[1] وقام واحد منّا بتثمينِ قسوةِ خوسِه لويس، القوّة والشجاعة اللتين ترشحان من جميع وكلِّ عملٍ من أعماله، والحظّ هو أنّه كان علينا أن نكون أبناء بلدهما ومعاصريهما، عندها قام واحد منهما (كانا في زاوية، هكذا أتذكّرهما، ينتظران نقودهما) وقال إنّ قيمة كوِباس أو قسوته أو طاقته، لا أعرف، كان محض خديعة، وكان لتصريحهما فضيلة أنّه جمّدنا فجأة، جعلنا نُنمّي في داخلنا سخطاً بارداً، لا أدري ما إذا كنتُ أوضّحُ، كدنا نأكلهما أحياءً. أعني أنّ *سماعَهما* يتكلّمان كان مُضحكاً أحياناً. كانا يبدوان في الحقيقة رجلين من الفضاء الخارجي، لكن كلما زادت الثقةُ التي كانا يكسبانها، كلّما رحتَ تعرفهما أو تُصغي إليهما باهتمام أكبر، كان وضعهما أقربُ إلى التعاسة، ويُثير الاستنكار. لم يكونا شاعرين، وحقيقةً لم يكونا ثوريَّين، وأعتقد أنّهما لم يكونا ولا حتى يملكان أعضاءً جنسية. ماذا أعني بهذا؟ أنّ الجنس لا يبدو أنّه يهمّهما (فقط كان يهمّهما المالُ الذي يمكن أن يعتصرانه منّا) وكذلك الشعر والسياسة، على الرغم من أنّ ظاهرهما كان يريد أن يتكيّف مع النموذج المُستنفد للشاعر الشاب اليساري. لكن لا، الجنس بالتأكيد لم يكن يهمّهما، أنا واثق من ذلك. تقول كيف أعرف ذلك؟ من خلال صديقة، صديقةٍ معمارية أرادت أن تُمارس مع أحدهما، مع بِلانو، أعتقد. وعند ما حقّت الحقيقة لم يحدث شيء. قضبان ميتة.

---

(١) خوسِهْ لويس كوِباس رسام ونحات وكاتب مكسيكي (١٩٣١).

١٤

هوغو مونتِرو، وهو يتناول كأس بيرة في بار لا مالا سِندا[١]، شارع المُفَكّر المكسيكي، مِكسيو العاصمة الفيدرالية، أيّار ١٩٨٢.

كان هناك شاغر واحد فقلتُ لنفسي لماذا لا أُدخل صديقي الحميم عوليس ليما في المجموعة الصغيرة التي ستذهب إلى نيكاراغوا؟ حدث هذا في كانون الثاني، طريقة جيّدة لافتتاح السنة. ثمّ إنّهم قالوا لي إنّ عوليس ليما كان في وضعٍ سيّئٍ جداً، وأنا قلتُ إنّ رحلةً إلى الثورة تعيدُ المعنوياتِ لأيّ كان. هكذا جهّزتُ الأوراق دون أن أقولَ لأحدٍ شيئاً، أدخلتُ عوليس في الطائرة الذاهبة إلى ماناغوا. طبعاً لم أكن أعرف أنّني بهذا القرار أضعُ الحبلَ حول عنقي، لو عرفتُ ذلك لما تحرّك عوليس ليما من العاصمة الفيدرالية، لكنّ الواحدَ منّا هكذا، مندفع، ثمّ إنّ ما يجب أن يحدثَ يحدثُ دائماً. نحن دمى بيد القدر، أليس كذلك؟

حسن، لأَعُدْ إلى ما كنتُ بصدَدِهِ: أدخلتُ عوليس ليما في الطائرة وأنا أعتقد أنّني حَدَسْتُ قبلَ أن تُقلعَ الطائرة على ما كان يمكن لتلك الرحلة أن تجلبه لي معها. كان على رأس الوفد

---

(١) طريق السوء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المكسيكي مديري، الشاعر آلامو، الذي ما إن رأى عوليس حتى شحبَ لونُهُ وأخذني جانباً، وسألني عمّا يفعل هذا الوغد هنا، يا مونتِرو؟ إنّه ذاهب معنا إلى ماناغوا، أجبته. أفضّل ألا أذكر بقيةَ كلماتِ آلامو، لأنّني في أعماقي لستُ شخصاً سيّئاً. لكنّني فكّرتُ: إذا كنتَ لا تُحِبّ أن يُسافرَ هذا الشاعر، يا كسول، فلماذا لم تراقب بنفسك الدعوات، لماذا لم تُتْعِب أنتَ نفسك، وتهتف لكلّ الذين يجب أن يذهبوا. ومع ذلك كلّه لا أعني أنّه ما كان ليفعل. دعا آلامو شخصيّاً أكثر أصدقائه حميميّةً، وللعلم هم: عصابة الشعر الريفي. ثمّ دعا أعزَّ المتملّقين إليه، ثمّ أصحاب الأوزان الثقيلة أو أوزان الريشة، وجميعهم أبطال في فئاتهم في الأدب المكسيكي، لكن وكما يحدث دائماً، في هذا البلد لا توجد جدّية، ففي الساعة الأخيرة ألغى ديوثٌ أو اثنان أو ثلاثة سفرهم وكان عليّ أنا أن أملأ أماكنهم الفارغة، كما يقول نيرودا. عندها كان أن فكّرتُ بليما، كنتُ أعرف، لا أدري ممّن، أنّه قد عاد إلى المكسيك، وأنّه في وضع مزرٍ، وأنا من الأشخاص الذين إذا استطاعوا أن يعملوا معروفاً فإنّهم يعملونه، ماذا سأفعل، المكسيك جعلتني هكذا وما من طريقة لتغييري.

طبعاً أنا الآن من دون عمل وأحياناً حين أسكر هناك، حين تقدّم الثمالة سَحَراً من أسحار العاصمة الفيدرالية المرعبة، أُفكّر أنّني ارتكبت عملاً سيّئاً، أنّه كان باستطاعتي أن أدعو آخر، بكلمة واحدة تورّطتُ، لكن بشكلٍ عام لم أندم. كنّا هناك، كما كنتُ أحكي لكم، في الطائرة أنا وآلامو، الذي انتبه توّاً إلى أنّ عوليس ليما تسلّل بين الركاب، وأنا قلتُ له: على رُسلك، يا مُعَلّم، لن يحدث شيء، أعدُك، وعندها نظر إليَّ آلامو، كما لو أنّه يَقيسني، نظرةً من نار، إذا ما سُمِحَ لي بالتعبير، وقال: لا بأس، يا مونتِرو، هي مشكلتك، سنرى كيف ستفي بوعدك، وأنا قلتُ ستكون رايةُ المكسيك هي

الأعلى، يا مُعلّم، كن مطمئناً ومرتاحاً، لا شيء يُقلقني أبداً. وكنّا وقتذاك نطيرُ باتجاه ماناغوا في سماءٍ سوداء، مُطْبقةِ السواد وكُتّاب وفدنا كانوا يشربون، كما لو أنّهم عرفوا أو شكّوا، أو أنّ أحداً أكّد لهم أنّ الطائرة سوف تسقط، وأنا أتنقّل من جانب إلى آخر، إلى أوّل الممر وآخر الممر، أُسلّم على الحاضرين، موزّعاً بعض الأوراقِ المحتوية على بيان الكتابِ المكسيكيين، وهو منشور أعدّه آلامو والشعراء الريفيون تضامناً مع شعب نيكاراغوا الشقيق وأنا بيّضتُهُ (ونقَّحتُه، لا ضير من قول ذلك)، كي يقرأه من لا يعرفونه، وكانوا الأغلبية، ولكي يوقّع عليه الذين لم يُوقعوا وكانوا قلّة، في قسم «الموقّعون أدناه»، أي تماماً تحت توقيع آلامو والشعراء الريفيين، خماسيّ الكارثة.

وعندئذٍ وبينما أنا أجمعُ التواقيع المتبقية فكّرتُ بعوليس ليما، رأيتُ شَعرَهُ غائصاً في المقعد، بدا لي أنّه دائخ أو نائم، على كلّ الأحوال كان مغمضَ العينين ويقوم بحركات، كما لو أنّه يعاني من كابوس، فكَّرتُ، وفكّرتُ، أقولُ، هذا الصديقُ سيرفضُ أن يُوقّع، هكذا لمجرّدِ الرفض، على البيان وللحظة وبينما كانت الطائرة تهتزّ إلى هذا الجانب وذاك ويبدو أن أسوأ التخوّفات راحت تتأكّد، درستُ إمكانية ألا أطلبَ منه أن يُوَقّع، أن أتجاهلَهُ بكبرياء. باختصار أنا من أمَّن له الرحلة كمعروف من صديق، لأنّه كان في وضع سيّئٍ، أو هذا ما قالوه لي، ليس كي يتضامن مع هؤلاء أو أولئك، لكنّه خطر لي بعدها أنّ آلامو والشعراء الريفيين، سينظرون بالعدسة المكبّرة إلى «الموقعون أدناه»، وسأكونُ أنا من سيدفع ثمن عدم توقيعه. واستقرّ الشكّ، كما يقول أوذن، في ضميري. وعندها اقتربتُ من عوليس ولمست كتفه وفتح هو عينيه على الفور، كما لو أنّه رجل آليّ لعين، أيقظتُه عندما حرّكت آليةً خفيةً في لحمه، ونظر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إليّ كما لو أنّه لم يعرفني، لكنّه عرفني، لا أدري ما إذا كنت أوضّحُ (ربّما لا) وعندئذٍ جلستُ أنا في المقعد المجاور وقلتُ له انظرْ، يا عوليس، عندنا مشكلة، هنا وقّع جميع المعلمين، على بيان تضامن مع الكتاب النيكاراغوائيين والشعب النيكاراغوائيّ ولم يبقَ غير توقيعك، لكن إذا كنتَ لا تريد أن توقّع، فلا مشكلة، أعتقد أنّني سأستطيع أن أتدبّر الأمر، وعندها قال هو بصوتٍ مزّقَ قلبي: دعني أقرأه، وأنا في البداية لم أعرف إلى أيّ هراءٍ كان يُشير، وحين انتبهتُ ناولتُهُ نسخة من البيان ورأيته، كيف سأقول ذلك، هل أقول يغوص في تلك الكلمات؟ شيء من هذا القبيل، وقلتُ له: الآن أعود. يا عوليس سأقوم بجولة في الطائرة، فقد يحتاج المدير لمساعدتي، تقرأه أنت خلالها بهدوء، خذِ الوقتَ الذي تحتاجه ولا تشعر بأنّ هناك ضغطاً عليك، إذا أردتَ أن تُوَقِّع وقِّعْ وإلا فلا توقّع، وبالفعل نهضتُ وعدت إلى قيدومِ الطائرة، هل يقال قيدوم أم لا؟ حسن إلى القسم الأمامي منها، وبقِيتُ برهة أخرى أُوزّع البيان الوغدَ وأتكلّم بالمناسبة مع أبرزِ رجال الأدب المكسيكي والأمريكي اللاتيني (كان يُسافر معنا عدد من الكتاب المنفيين في المكسيك، ثلاثة أرجنتينيين، تشليّ، غواتيماليّ، وأوروغوائيان) الذين بدأوا في تلك اللحظة من الرحلة يظهرون أولى علامات التسمّم الكحولي وحين عدتُ إلى حيث عوليس وجدتُ البيان موقَّعاً، الورقة متقنة الطيّ على المقعد الفارغ ورأيت عوليس مُغمضَ العينين مرّة أخرى، شديدَ انتصاب الظهر، لكنّه مغمضُ العينين، لكن لنقل أيضاً أنّه كان كما لو أنّه يعالج معاناته (أو ما كان) بكرامة. ولم أره بعدها حتى وصلنا إلى ماناغوا.

لا أدري ماذا فعلَ في الأيّام الأولى، فقط أعرفُ أنّه لم يذهب إلى أيّ قراءةٍ، إلى أيّ لقاءٍ، إلى أيّ طاولةٍ مستديرة، كنتُ أتذكّره

أحياناً، يا للأشياء التي كان يخسرها. التاريخ الحيّ، كما يُقال عادة، الحفلة المتواصلة. أتذكّرُ أنّني ذهبتُ لأبحث عنه في غرفته في الفندق في اليوم الذي قرأ فيه إرنِستو كاردينال في الوزارة، لكنّني لم أجده، وفي الاستقبال قالوا لي إنّه لم يظهر هناك منذ ليلتين. ماذا سنفعل له، قلتُ لنفسي، لا بدّ أنّه يشربُ في مكان ما، أو أنّه مع صديق نيكاراغوائي أو أيّ شيء كان، كان عندي عمل كثير وعليّ أن أهتمّ بكلّ الوفد المكسيكيّ، ولا أستطيع أن أقضي اليوم كلّه في البحث عن عوليس ليما، فقد عملت ما يكفي بإدخالهِ في الرحلة. وهكذا تجاهلتُهُ وراحت الأيّام تمضي، كما يقول باليبخو، وأتذكّر أن آلامو اقترب منّي ذات مساء وقال لي، يا مونتِرو، في أي وكرٍ حشر نفسَهُ صديقُك، فأنا لم أره منذ وقت طويل؟ وعندها فكّرتُ: اللعنة، هذا صحيح. اختفى عوليس. بصراحة لم أنتبه تماماً في البداية للوضع الذي كان يُواجهني، لمروحةِ الاحتمالات الحيوية وغير الحيوية كثيراً، التي راحت تنفتح أمامي دفعةً واحدة بضجيجٍ أصمّ. فكّرت أنّه لا بدّ أنّه يتسكّع هناك وعلى الرغم من أنّني لم أنسَ الحالة فوراً إلا أنّني، لِنَقُلْ، رَحّلتُ المشكلةَ إلى ما بعد. لكنّ آلامو لم يُرحّلها وفي تلك الليلة خلال عشاء أخويّ بين الشعراء النيكاراغوائيين والشعراء المكسيكيين، عاد ليسأل، ويحه أين ذهب عوليس ليما. وللطامة أنّ وغداً من أولئك الذين تبناهم كاردِنال سبق ودرس في المكسيك كان يعرفه وعندما علم بوجوده في وفدنا أصرّ على مقابلته، على السلام على أبي الواقعية الأحشائية، هذا ما كان يقوله، كان ولداً نيكاراغوائياً مربوعاً ونصفَ أصلع، وجهه ليس غريباً، يمكن أن أكونَ أنا نفسي قد دبرتُ له أمسيةً شعرية في الفنون الجميلة، لا أدري، بالنسبة لي، أرى أنّه كان يتكلّم نصفَ مازح، أقول هذا خاصّة نظراً للطريقة التي كان يتكلم بها عن أبي الواقعية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأحشائية، كما لو أنّه كان يضحك، كما لو أنّه كان متردّداً هناك أمام الشعراء المكسيكيين، الذين وللحقيقة المحضة كانوا يحتفون بظرافته وهم يعرفون السبب، حتى آلامو نفسه كان يضحكُ نصفَ مسرورٍ ونصف مُتَّبِعٍ لبروتوكول الجحيم، لكنّ هذا لم يكن ينطبق على النيكاراغوائيين، فهم كانوا يضحكون بالعدوى أو التزاماً، فهناك من كلّ الأنواع، خاصة في هذا الجانب.

وحين استطعتُ أخيراً أن أزيحَ عن كاهلي هؤلاء الأفظاظ كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، وكان عليّ في اليوم التالي أن أقومَ بكلّ ما يتعلّق بالعودة إلى العاصمة الفدرالية، والحقيقة أنّني سرعان ما شعرتُ بنفسي مُتعباً وبمعدتي متقلّبة، ليست متشنّجة بالضبط، لكن تكاد، وهكذا قرّرتُ أن أختمها في بار الفندق، حيث يُقَدّمون مشروبات هي إلى هذا الحدّ أو ذاك مناسبة، وليس كما في محلات أخرى من ماناغوا، حيث يشربون سموماً خالصة وأنا لا أعرف ماذا ينتظرُ الساندينيون كي يفعلوا شيئاً بهذا الخصوص.

وفي بار الفندق وجدتُ دون بانكراثيو مونتِسول، الذي على الرغم من أنّه كان غواتيمالي، إلا أنّه جاء ضمن الوفد المكسيكي، لأسباب من بينها أنّه لم يكن هناك أيّ وفد غواتيمالي ولأنّه كان يعيش في المكسيك منذ ما لا يقل عن ثلاثين عاماً. ورآني دون بانكراثيو أشربُ بإصرار ولم يقُل لي شيئاً في البداية، لكنّه مع أوّل تبدُّل اقترب منّي وقال لي، أيّها الشاب مونتِرو أراكَ مهموماً جدّاً هذه الليلة، هل من عذابٍ غراميّ. شيئاً من هذا القبيل قال لي بانكراثيو. وأنا أجبته، يا حبذا، يا دون بانكراثيو، فقط أنا مجهد، جواب غبيّ كيفما نُظر إليه، فأنْ يكونَ المرء متعباً من المعاناة من أجل امرأة، أفضلُ بكثير، لكن هذا ما أجبته به، ولا بدّ أنَّ دون بانكراثيو لاحظَ أنّ شيئاً ما كان يحدث لي، لأنّني عادة ما أكونُ أقلَّ تشوّشاً، وهكذا

قفز عن كرسيّه[١] برشاقة أدهشتني، وقطع المسافةَ التي كانت تفصل بيننا وجلس بقفزة خفيفة على الكرسيّ بجانبي. إذن ما الذي يجري؟ سأل. ضاع منّي عضوٌ من الوفد، أجبتهُ. نظر إليّ دون بانكراثيو كما لو كنتُ بليداً وطلبَ بعدها كأسَ ويسكي اسكتلندياً مُضاعَفاً. بقينا برهة طويلة صامتين، نشرب وننظر عبر النوافذ إلى الفضاء المظلم الذي هو مدينة ماناغوا، المدينة المثالية للضياع، أقول، وأنا أعني ما أقول، مدينة لا يعرفها إلاّ سعاة بريدها وضاع فيها الوفد المكسيكي أكثر من مرّة. أظنّ أنّني بدأتُ لأوّلِ مرّة منذ زمن طويلٍ أشعر بالراحة. بعد قليل ظهرَ ولدٌ شديدُ النحول وصغيرُ الجسم، جاء مباشرة ليطلب توقيعاً من بانكراثيو. جاء معه بكتابٍ له، من منشورات مورتيث، مجعداً وتالفاً جدّاً مثل ورقة مالية. سمعتُهُ يتلعثم ويذهب بعدها. ذكر دون بانكراثيو بصوتٍ كأنّه قادم من العالم الآخر قطيعَ مُعْجَبيه؛ ثمّ فوجَ مُنْتَحِلي شِعره وأخيراً فريقَ كرة سلّة مُنْتَقِصيه. وذكر أيضاً جياكومو مورِنو-ريتزو، ابن البُندقيّة المكسيكيّ، الذي لم يكن بالطبع ضمن وفدنا، على الرغم من أنّه حين قال بانكراثيو اسمَهُ، طننتُ لبلاهتي الخالصة، أنّه كان هناك، وقد دخل توّاً في بار الفندق، الأمر غير المحتمل إطلاقاً، لأنّ وفدنا كان، على الرغم من كلّ شيء، وفداً تضامنياً ويسارياً، ومورِنو-ريتزو، كما يعرف الجميع، رجل سلام. ودون بانكراثيو ذكرَ وأشار إلى الجهود الحثيثة التي كان يقوم بها مورِنو-ريتزو كي يشبهَهُ، يشبهَ دون بانكراثيو، دون أن يُلحظ ذلك. لكنَّ نثر مورِنو-ريتزو لم يكن باستطاعته أن يتفادى تلك المسحة المتصنّعة والعنيفة في الوقت ذاته، والخاصّة جدّاً، من جهة أخرى، بالأوروبيين الذين حطّوا رحالَهم في أمريكا،

---

(١) Taburete الكرسيّ العالي المعروف الذي يُستخدم في البارات.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المستكينين إلى شجاعة مكوّنة فقط من إشاراتٍ سطحية كي يحيوا في جوّ معادٍ، بينما نثره، نثري، قال دون بانكراثيو، هو نثرُ ابنِ رِيِّسْ الشرعيّ، وإن كان من غير اللائق أن يعترف بهذا النثر، العدوّ الطبيعي للتزويرات الباردة من نوع تزويرات مورِنو-ريتزو. قال لي دون بانكراثيو بعدها: ومن هو الكاتب المكسيكي الضائع؟ أفزعني صوته. واحد يُدعى عوليس ليما، قلتُ له وأنا أشعر بقشعريرة تسري في جسمي. آهْ، قال دون بانكراثيو. ومنذ متى هو مفقود؟ ليس عندي أدنى فكرة، اعترفتُ له، يمكن أن يكون منذُ اليوم الأوّل. عاد دون بانكراثيو ليلوذَ بالصمت. وبإشارةٍ طلبَ من نادل البار أن يأتيه بكأس ويسكي اسكُتلندي آخر، على كلّ الأحوال وزارة التربية هي التي ستدفع. لا، ليس منذ اليوم الأوّل، لا، قال دون بانكراثيو، الذي هو رجل أميلُ إلى الصمتِ لكنّه شديدُ الملاحظة، تقاطعتُ معه في الفندق في اليومِ الأوّل لوجودنا وفي اليوم الثاني أيضاً، وهكذا لم يكن قد ذهب بعد، على الرغم من أنّني فعلاً لم أره في أيّ جهة أخرى. هل هو شاعر؟ طبعاً يجب أن يكون شاعراً، قال دون أن ينتظرَ جوابي. ولم تره منذ اليوم الثاني أبداً؟ سألتُهُ. منذ الليلة الثانية، قال بانكراثيو، لا، لم أره بعدها. والآن ماذا أفعلُ؟ سألتُه. ألا تستمر بالحزن دون جدوى، قال بانكراثيو، جميعُ الشعراء يضيعون مرّة ما وأبلغِ الشرطة. الشرطة الساندينية، حدّدَ. لكنّني لم أجرؤ على أن أهتفَ للشرطة. سواء منها الساندينية أو السوموزية، الشرطة هي دائماً الشرطة ولم أملك الشجاعة، سواء كان بسبب الكحول أو بسبب الليل في النوافذ، على أن ألعب لعبة من هذا العيار مع عوليس ليما.

هذا القرار الذي سيُثقِل عليّ فيما بعد، ففي صباح اليوم التالي فقد خطر لآلامو قبل أن نخرج إلى المطار، أن يجمعَ كلَّ الوفد في

قاعةٍ من قاعات الفندق للقيام بعرضٍ نهائي لوجودنا في ماناغوا، لكنّه كان في الحقيقة من أجلِ أن نشربَ آخرَ نخبٍ للشمس. وحين أكّدنا تماماً تضامننا الذي لا يتزعزع مع الشعب النيكاراغوي وتوجّهنا إلى غرفنا لنأخذَ حقائبنا، اقترب منّي آلامو برفقة أحدِ الشعراء الريفيين وسألني عمّا إذا كان قد ظهر عوليس ليما أخيراً. لم يبقَ أمامي غير أن أقول له لا، لم يظهر، ما لم يكن عوليس نائماً في غرفته في هذه اللحظة. تعال نخرج من شكوكنا فوراً، قال آلامو، ودخل في المصعد يتبعه الشاعر الريفي وأنا. وجدْنا في غرفة عوليس ليما أورِليو برادِرا، الشاعر وصاحب الأسلوب الناعم الذي اعترف لنا بما كنت أعرفه من قبل، بأنّ عوليس أقامَ هناك في اليومين الأولين، لكنّه تبخّر بعدها، ولماذا لم تُخبر هوغو بذلك؟ زمجر آلامو. كانت التوضيحات التي قدّمها مشوّشَة. راح آلامو يمسحُ شعره. قال أورِليو برادِرا إنّه لا يعرف لماذا يحمّلونه المسؤولية، هو بالتحديد، هو الذي اضطُرَّ لأنّ يتحمّل ليلةً كاملة كوابيسَ عوليس ليما عاليةَ الصوت، هذا بحسب رأيه، ظلم فاقع. جلس الشاعر الريفي على السرير الذي كان يُفترض أن ينام فيه، المسبب لذلك الاضطراب وراح يتصفح مجلةً أدبية. بعدها بقليل انتبهت إلى أنّ شاعراً ريفيّاً آخر حضر وأنَّ خلف هذا، في العتبة، دون بانكراثيو مونتِسول، المتفرّج الأخرس على المأساة التي كانت تتم بين جدران الغرفة رقم ٤٠٥. طبعاً فهمت فوراً، فأنا ما عدتُ أعمل رئيساً تنفيذيّاً للوفد المكسيكي. في الحالة الطارئة وقع هذا الدور على خوليو لاباركا، مُنَظِّر الشعراءِ الريفيين الماركسي، الذي تولّى مسؤولية الوضع بصرامة كنتُ وقتها أبعد ما أكون عن الشعور بها.

كان أوّل قرار له هو استدعاء الشرطة، دعا بعدها لاجتماعٍ طارئٍ لمن كان يُسميهم هو «الرؤوس المُفَكّرة» في الوفد. أيٍ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكتّاب الذين كانوا يكتبون من حين لآخر مقالاتِ رأيٍ، دراساتٍ قصيرة وعرضٍ لكتبٍ سياسيّة (وكان «الرؤوس المبدعون»، حيث كان الشعراءُ الريفيون وحدهم يهيمنون «*خلاصة الخلاصة*»، حيث كان يسود الشعراء الريفيون وعلى رأسهم لاباركا) ثمّ وبعد أن فحصوا بصراحة وصرامة الوضعَ الجديد الذي تسبّب به أو أحدثه الحادثُ، والحادث بحدّ ذاته، توصّلوا إلى نتيجة مفادها أنّ أفضل ما يمكن للوفدِ أن يفعله هو أن يتابعَ البرنامج الموضوع، أي أن نذهب دون مماطلة في ذلك اليوم نفسه، وأن نترك قضيّة ليما في أيدي السلطات المختصّة

عن الانعكاسات السياسية التي يمكن أن تترتّب عن فقدان شاعرٍ مكسيكيّ في نيكاراغوا قيلت أشياء حقيقةً مريعة، لكن القلقَ انخفض بعد ذلك عدّةَ درجات حين أخذوا بالاعتبار أنّ الذين كانوا يعرفون عوليس ليما قليلون جدّاً، وأنّ نصفَ الذين كانوا يعرفونه متشاجِرٌ معه. بل ونظروا في احتمال أنّ اختفاءه سيمرّ دون أن يشعر به أحد.

بعدها جاءت الشرطة وكنّا أنا وآلامو ولاباركا نتحدّثُ مع شخص كان يقول إنّه مُفتّش، عامله لاباركا على الفور بـ«الرفيق»، «رفيق» من هنا و«رفيق» من هناك، الحقيقة أنّه كان كشرطي ظريفاً ومتفهّماً، على الرغم من أنّه لم يقلْ شيئاً لم نكن قد توقعناهُ مسبقاً. سألَنا عن عاداتِ «الرفيق الكاتب». بالطبع قلنا له إنّنا نجهلُ عاداته. أراد أن يعرف ما إذا كان عنده «نزوة ما» ما أو «نقطة ضعف». قال آلامو هذا ما يمكن لأحد يعرف أبداً، فالنقابة كان أشخاصها متنوعين بتنوع البشرية، والبشرية، وهذا معروف، هي مجموع نقاط الضعف. أيّده لاباركا (بطريقته) وقال يمكن أن يكون فاسداً ويمكن ألا يكون. فاسد، بأي معنى؟ أراد المفتّش السانديني أن يعرف. هذا ما لا أستطيع أن أُحدّده بدقة، قال لاباركا، الحقيقة أنّني لا أعرفه، حتى

أنّني لم أره في الطائرة. جاء في الطائرة ذاتها التي جئنا فيها نحن، أليس كذلك؟ طبعاً، يا خوليو، قال آلامو. بعدها مرّرَ آلامو الكرةَ إليّ: أنتَ تعرفه، يا مونتِرو (كم من الجرأة كان في تلك الكلمات)، قلْ لنا كيف كان. أنا غسلتُ يديَّ على الفور. عدت لأوضَحَ القصّة كلّها، منذ البداية وحتى النهاية، أمام الضجر الظاهر على آلامو ولاباركا واهتمام المُفتِّشِ الصادقِ. حين انتهيت قال أه، غريب، يا لحياة الكتّاب. بعدها أراد أن يعرف لماذا كان هناك كتّاب لا يريدون أن يُسافروا إلى ماناغوا. لأسباب شخصية، قال لاباركا. أليس لعداوتهم لثورتنا؟ كيف يخطر لكَ هذا، ولا بشكلٍ من الأشكال، قال لاباركا. من الكتّاب الذين لم يبغوا المجيء؟ سأل المفتِّشُ. نظرَ آلامو ولاباركا كلّ إلى الآخر ثمّ نظرا إليَّ. أنا فتحت فمي وقلت الأسماء. آه، يا للعجب، قال لاباركا، إذن ماركو أنطونيو أيضاً كان مدعوّاً؟ بلى، قال آلامو، بدت لي فكرة جيدة. ولماذا لم أُستَشَر؟ سأل لاباركا. تكلّمت بذلك مع إميليو وأعطاني موافقته، قال آلامو، منزعجاً من تشكيك لاباركا بسلطته أمامي. ومن يكون ماركو أنطونيو، هذا؟ سأل المُفتِّشُ. شاعر، قال آلامو بجفاف. لكن من أيِّ نوعٍ من الشعراء؟ أراد أن يعرف المُفتِّشُ. شاعر سرياليّ، قال آلامو. سريالي من الحزب الثوري المؤسّساتي، حدّدَ لاباركا. شاعر غنائي، قلتُ أنا. هزَّ المفتِّش رأسَهُ عدّةَ مراتٍ وكأنّه يقول، فهمتُ، وإن كان واضحاً بالنسبة إلينا أنّه لم يكن يفهم شيئاً. وهل رفض هذا الشاعر الغنائي أن يتضامنَ مع ثورتنا الساندينية؟ حسن، قال لاباركا، قولك هذا بهذه الطريقة قاسٍ قليلاً. لم يستطِع المجيءَ أعتقد، قال آلامو. على الرغم من أنّ ماركو أنطونيو، معروف...، قال لاباركا وضحك لأوّل مرّة. أخرجَ آلامو علبةَ سجائره الرقيقة وقدّمها. أخذنا أنا ولاباركا واحدة لكنّ المفتّش رفضها بإيماءة وأشعل سيجارة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كوبية، هذه أقوى، قال بشيء من السخرية لم يفتنا. كان كما لو أنّه يقول: نحن الثوريين نُدَخّن تبغاً قويّاً، نحن الرجال الحقيقيّين نُدخّن تبغاً حقيقيّاً، نحن الذين نؤثر في الواقعِ بموضوعيةٍ نُدَخّنُ تبغاً حقيقيّاً. هل هو أقوى من سيجارة دِليكادو؟ سأل لاباركا. إنّه تبغ أسود، يا رفاق، تبغ حقيقيّ. ضحك آلامو خفية وقال: يبدو مثل الكذب أنّ شاعراً ضاع منّا، لكنّه في الحقيقةِ كان يريد أن يقول: وماذا تعرف أنتَ عن التبغ، أيها الديوث الوغد. التبغ الكوبي لا يساوي عندي قشرة بصلة، قال لاباركا دون أن يتبدّل تقريباً. ماذا تقول، يا رفيق؟ سأل المفتّشُ. التبغ الكوبيّ لا يساوي عندي شيئاً، إذا أُشْعِلَتْ سيجارةُ دِليكادو فلتُطفأ بقيةُ السجائر. عاد آلامو ليضحك وبدا أنَّ المُفتِّش يتردّد بين أن يمتقع أو يتبنى تعبير الارتباك. أعتقد، يا رفيقي، أنّك تقول هذا بنيّة سيّئة، قال. لا بنية سيّئة ولا بنيّة غير سيئة، أقوله تماماً كما سمعته. ليس هناك من يَسعل من الدِليكادو، قال لاباركا. آه، ما أخبثك يا خوليو، تمتم آلامو، وهو ينظر إليّ، كي لا يكتشف المُفتِّشُ الضحكةَ التي يكبتُها بشقّ النفس. وعلامَ ترتكز كي تقول هذا؟ سأل المُفتِّشُ ملفوفاً بسحابة من الدخان. لاحظتُ أنّ الوضع راح يأخذ اتجاهاً مختلفاً. رفع لاراركا يده وهزّها، كما لو أنّه يصفع المُفتِّش، على بعد سنتيمترات قليلة من أنفه: لا تنفثْ دخانَكَ في وجهي، يا رجل، قال، قليلاً من الاعتبار. هذه المرّة شحب المُفتِّش دون أن يتردّد، كما لو أنّ رائحة تبغه دوّخته. ويْحَكَ، قليلاً من الاعتبار، يا رفيق، كدتَ تصيبني على أنفي. أيّ أنف وأيّ بطيخ، قال لاباركا لِآلامو دون أن يتبدّل، إذا كنتَ لا تعرف كيف تُميّز بين رائحة سيجارة دِليكادوس ورائحة حزمةٍ أعشابٍ كوبية، فهذا يعني أنّ أنفك يخونك، يا رفيق، وهو أمر ليس له بحدٍّ ذاته أهمّية، لكن بما أنّ الأمر يتعلّق بِمُدَخِّن أو شرطيّ، فهو

على الأقل مُقلِق. المسألة أنّ الدِليكادوس أشقر، يا خوليو، قال آلامو مغشياً عليه من الضحك. ثمّ إنّ ورقه حلو، قال لاباركا، وهذا موجود فقط في بعض مناطق الصين. وفي المكسيك، يا خوليو، قال آلامو. طبعاً وفي المكسيك أيضاً، قال لاباركا. رماهما المُفتّشُ بنظرة من تلك التي تقتلُ، أطفأ بعدها سيجارته بفظاظة وقال بصوت متبّدل إنّ عليه أن يرفع تقريراً بالشخصِ المختفي وإنّ هذا الإجراء فقط يتمّ في المخفر. بدا مستعداً لأن يعتقلنا جميعاً. ماذا ننتظر، قال لاباركا، هيا بنا إلى المخفر، يا رفاق. يا مونتِرو، قال لي بينما هو يخرج، اهتفْ لوزير الثقافة من قبلي. طيّب، يا خوليو، قلتُ أنا. بدا المُفتّش متردّداً لثوانٍ. كان لاباركا وآلامو في بهو الفندق. نظر إليَّ المُفتّشُ وكأنّه يطلبُ نصيحتي. أشرتُ له بمعصمين مقيّدين، لكنّه لم يفهمني. قال، قبل أن يخرج: ستعودون خلال أقلّ من عشر دقائق. هززتُ بكتفيّ. بعد برهة وصل دون بانكراثيو مونتِسول، مرتدياً قميصاً مكسيكياً ناصعاً وبيده كيسٌ بلاستيكي من تعاونية خيغانتِ في حي تشابولتِبِّك مليء بالكتب. هل القضية في طريقها إلى الحل، يا صديقي مونتِرو؟ يا صديقي دون بانكراثيو، قلتُ أنا، القضيّة ما زالت كما كانت ليلة البارحة وما قبل البارحة، لقد أضعنا المسكين عوليس ليما، والذنب ذنبي، أنت لا تريد ذلك، ذنبي لأنّني جررتُه إلى هنا.

لم يقم دون بانكراثيو، كما هي عادته، بأيّ محاولة لمواساتي وبقينا بضعَ دقائق صامتين، هو يشربُ كأس الويسكي ما قبل الأخير ويقرأ كتاباً لفيلسوفٍ سابق على سقراط، وأنا أُخفي رأسي بين يديّ، أمصُّ الدياكيري بالقشّة وأحاولُ أن أتخيّل بصعوبةَ عوليس ليما، بلا نقودٍ ولا أصدقاء، وحيداً في ذلك البلد المزعزع، بينما نحن نسمعُ أصوات وصياحَ أعضاء وفدنا القريبة، مثل كلاب داشرة أو مثل ببغاوات جريحة. هل تعرف ما هو أسوأ شيء في الأدب؟ سأل دون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بانكراثيو. كنتُ أعرفُ، لكنّني تظاهرت بأنّني لا أعرف. ما هو؟ سألتُ. هو أنّ المرءَ ينتهي بأن يصبحَ صديق الأدباء. والصداقة على الرغم من أنّها كنز، تقضي على الحس النقدي. ذات مرّة، قال دون بانكراثيو، طرح عليّ مونتِفورتِ تولِدو هذا اللغز: شاعر يضيع في مدينة على شفا الهاوية، لم يكن الشاعر يملك نقوداً، ولا أصدقاء، ولا أحداً يلجأ إليه. إضافةً إلى أنّه لم يكن عنده نيّة ولا رغبة بأن يلجأ إلى أحد. يتيه أياماً في المدينة أو البلد، بلا طعام أو يأكلُ من الفضلات. حتى أنّه ما عاد يكتبُ. أو يكتبُ في ذهنه، أي أنّه يهذي. كلّ شيء كان يدلّ بوضوح على موتِهِ. على اختفائه التام، عدم وجوده. ومع ذلك فالشاعر المذكور لا يموت. كيف ينجو؟ إلخ. إلخ، كأنّه بورخِس، لكنّني لم أقل لهُ ذلك، فيكفيه تنغيص زملائه لعيشه، ينتحلُ من بورخس هنا أو ينتحلُ منه هناك، ينتحل بشكل جميل، أو ينتحل بخسّة، كما كان يمكن أن يقول لوبِّثْ بِلاردِ. ما فعلته هو أنّني استمعتُ إليه ثمّ قلّدته، أي، التزمتُ الصمت. جاء بعدها شخصٌ ليقول لي إنّ الفان الذي سيقلّنا إلى المطار أصبح في باب لفندق وأنا قلت: حسن، هيا بنا إلى هناك، لكنّني نظرتُ قبل ذلك إلى دون بانكراثيو، الذي كان قد نزل عن كرسيّهِ وراح ينظر إليّ بابتسامة تعلو وجهه، كما لو أنّني عثرت على حلٍّ للغز، لكنّني طبعاً لم أعثر عليه ولم أستوعبه أو أستنتج شيئاً، ثمّ إنّه لا يهمني مثقال ذرة، وهكذا قلتُ له، المشكلة التي وضعك فيها صديقُكَ، ما حلّها يا دون بانكراثيو؟ وعندها نظر إليّ بانكراثيو وقال: أيّ صديق؟ صديقُك، كائن من كان، ميغِل أنخِل أستورياس، لغز الشاعر الذي يضيع وينجو. آه، هذا، قال دون بانكراثيو، كما لو أنّه يستيقظ، الحقيقة هي أنّني لا أتذكّر، لكن لا تشغل نفسك، فالشاعر لا يموت، يغرق، لكنّه لا يموت.

ما تحبُّهُ جيّداً لا يموتُ أبداً، قال شخْص كان بجانبنا وسمِعَنا، أشقر يرتدي طقماً بسترة مغلقة وربطة عنق حمراء، إنّه شاعر ولاية سان لويس باتوسي الرسميّ، وهناك بالذات كان كما لو أنّ كلمات الأشقر كانت طلقةَ الانطلاق في السباق، في هذه الحالة: الوداع، حدثت فوضى كبيرة بين الشعراء المكسيكيين والنيكاراغوائيين وهم يتبادلون كتبهم ثمّ وفي الفان حيث لم يكن يتسع للجميع (نحن الذين كنا سنسافر والذين كانوا سيودّعوننا)، مما اضطرَّنا لأن نستدعي ثلاث سيارات أجرة تقدم دعماً لوجستياً إضافياً لنقلنا. طبعاً كنتُ الأخير في مغادرةِ الفندق. قمتُ قبل ذلك بعدة اتصالاتٍ هاتفيةٍ وتركتُ رسالة لعوليس ليما، مُفْتَرِضاً افتراضاً بعيد الاحتمال بأن يعود ويظهر هناك. أنصحه في الرسالة بأن يتوجّهَ على الفور إلى السفارة المكسيكية حيث تكفّلوا بإعادته. أيضاً هتفتُ للمخفر. تكلّمتُ هناك مع آلامو ولاباركا، اللذين أكّدا لي أنّنا سنلتقي في المطار. أخذت بعدها حقائبي استدعيتُ سيارة أجرة وذهبت.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٥

خاثينتو رِكنا، مقهى كيتو، شارع بوكارِلي، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، تموز ١٩٨٢.

أنا ذهبت إلى المطار لأُوَدّع عوليس ليما، حين ذهب إلى ماناغوا، من ناحية لأنّه لم يُصَدِّق أنّهم دعوه، ومن أخرى لأنّه لم يكن عندي ما أفعله في ذلك الصباح، وذهبتُ أيضاً لاستقباله عندما عاد إلى العاصمة الفيدرالية، كي أرى وجهه، أكثر من أيِّ شيءٍ آخر ولكي نضحك برهةً معاً، لكنّني حين لمحتُ صفَّ الكتّاب المسافرين، المزدوج والمستقيم، لم أستطعْ، على الرغم من الجهد والدفع اللذين قمت بهما، أنّ أميّز صورته المُتميّزة.

هناك كان آلامو ولاباركا، وباديّا وبايرون هِرناندِث، وعجوزنا المعروف لوخياكومو وبيّابلاتا وسالا والشاعرة كارمِن بريبتو، والشقيّ البغيض بِرث هِرناندِث والجليل مونتِسول، لكن لم يكن هو موجوداً.

أوّل شيءٍ فكّرتُ به هو أنّ عوليس بقيَ نائماً في الطائرة وأنّه لن يتأخّر في أن يظهر محروساً من مُضيفتين، سكران سكرة عمياء. على الأقل هذا ما أردت أن أُفكِّر به، ذلك لأنّني لست شخصاً يميل إلى التهويل، على الرغم من أنّه، ولكي أقولَ الحقيقةَ، انتابني منذ ذلك المشهدِ الأوّل (مجموعة المثقفين الذين كانوا عائدين مُتعبين وراضين) حدْسٌ سيّئٍ. كان هوغو مونتِرو يغلق الصفّ محملاً بعدد

من حقائب اليد، أتذكّرُ أنّني لوّحتُ له، لكنّه لم يرني، أو لم يعرفني أو تجاهلني. حين خرجَ جميعُ الكتاب رأيتُ لوخياكومو الذي بدا كارهاً لمغادرة المطار، واقتربتُ لأسلّم عليه محاولاً ألا أُظْهِرَ المخاوف التي كنتُ أشعر بها. كان يُرافقه أرجنتينيٌّ آخر، رجلٌ طويل وبدين، له ذقنُ جدي، لم أكن أعرفه. كانا يتكلّمان عن المال. على الأقل سمعتُ كلمة دولارات عدّةَ مرّات ونهاياتِ صيحات مرتعشة.

كانت نيّة لوخياكومو الأولى بعد أن سلّمتُ عليه، هو أن يتظاهر بأنّه لا يتذكّرني، لكنّه اضطرّ أخيراً لأن يقبلَ ما لا بُدّ منه. سألتُهُ عن عوليس. نظرَ إليّ مذعوراً. أيضاً كان في نظرته استنكارٌ، كما لو أنّني كنتُ أستعرضُ نفسي في المطار مفتوحَ السروال الداخليّ أو هناك جرح متقيّح في خدّي.

الأرجنتيني الآخرُ هو الذي تكلَّم. قال: يا للموقف الحرجِ الذي وضعنا فيه الوغدُ، هل هو صديقك؟ نظرتُ إليه ثمّ إلى لوخياكومو، الذي كان يبحث عن أحدٍ في قاعة الانتظار، ولم أعرف هل أضحك أم أتجهّم. قال الأرجنتينيّ الآخرُ: يجب أن يكون المرء مسؤولاً أكثر قليلاً (كان يُكلّم لوخاكومو، بينما لم يكن حتى لينظر إليّ)، أُقسِمُ لكَ لو أنّني وصلتُ لأن أكون المسؤولَ لسحقت له خصيتيه. أسحقهما له. لكن ما الذي جرى؟ تمتمتُ بأفضل ابتسامة عندي، أي بأسوئها. أين عوليس؟ قال الأرجنتينيّ الآخرُ شيئاً عن البروليتاريا الأدبيةِ الرثّة. ماذا تقول؟ سألتُه. عندها تكلّم لوخياكومو، أعتقد كي يهدِّئنا. عوليس تبخّر، قال. كيف تبخّر؟ اسأل مونتِرو عن هذا، نحن عرفنا بذلك للتوّ. تأخّرت أكثر مما يجب في فهم أنّ عوليس لم يختفِ خلال رحلة العودةِ (رأيتُهُ في خيالي ينهضُ من مقعده، يجتاز الممرَّ، يعبر بمضيفة تبتسم له، يدخلُ الحمام، يسحب المرتاج

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ويختفي)، بل في ماناغوا، خلال زيارة وفد الكتاب المكسيكيين. كان هذا كلّ شيء. في اليوم التالي ذهبتُ إلى الفنون الجميلة لأُقابل مونتِرو فقال لي إنّه بسبب عوليس سيبقى من دون عمل.

خوتشيتل غارثيّا، شارع مونتس، قرب نصب الثورة، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، تموز ١٩٨٢.

كان يجب أن نهتف لأمِّ عوليس، أقولُ أقلّ ما يمكن أن نفعلَهُ هو هذا، لكنّ خاثينتو لم يكن قلبه يقوى على أن يقولَ لها إنّ ابنها اختفى في نيكاراغوا، على الرغم من أنّني قلتُ له ليس إلى هذا الحدّ، يا خاثينتو، أنت تعرفُ عوليس، أنتَ صديقُهُ وتعرف كيف هو، لكنّ خاثينتو قال إنّه اختفى، نقطة ومن أوّل السطر، وإنّ مثله مثل أمبروس بيرس، مثل الشعراء الإنكليز القتلى في حرب إسبانيا، مثل بوشكين، مع فارق أنّ زوجتَهُ في هذه الحالة، أقول، زوجة بوشكين كانت الواقعَ، الفرنسيُّ الذي قتلَ بوشكين كان غريمَهُ، ثلج سان بطرسبرغ، كانت الفراغاتُ البيضاء التي راح عوليس يُخَلِّفُها وراءه، أقول، ضعفه، كسله، فقدانه للحسِّ العملي، وعرّابو المبارزة (أو قوّادو المبارزة، كما كان يقول خاثينتو)، الشعر المكسيكي، أو الشعر الأمريكيّ اللاتيني، الذي كان يحضر بلا رحمة، على شكل وفدٍ تضامنيٍّ، موتِ واحدٍ من أفضل الشعراء الحاليين.

هذا ما كان يقوله خاثينتو، لكنّه مع ذلك لا يُخبر أمَّ عوليس، وأنا كنتُ أقول: تعالَ لنرَ، لنفحص الوضعَ، هذه السيدّة أقل ما يهمّها أن يكون ابنُها بوشكين أو أمبروس بيرس، أنا أضعُ نفسي مكانها، أنا الأم، وإذا ما قَتَلَ ابنُ عاهرة فرانز (لا سمح الله) فأنا لن أفكِّر أن الشاعر المكسيكي (أو الأمريكيّ اللاتيني) العظيم مات، بل سأتلوّى ألماً وقنوطاً ولن أُفكّر ولا من بعيد في الأدب. هذا ما

أستطيع أن أؤكّده لك، لأنّني الأمُّ وأعرفُ سهرَ الليالي والخوفَ والحذر الذي يُسَبِّبُهُ لك طفل بائس، هكذا أستطيع أن أؤكّد لك أنّ الأفضل هو أن تهتف لها أو أن تذهب لزيارتها في مدينة ساتِليتِ وتقول لها ما نعرفه عن ابنها. وقال خاثينتو: لا بدّ أنّه صار عندها علم بذلك، سيكون قد قاله لها مونتِرو. وأنا قلتُ له: لكن كيف يمكنك أن تكون واثقاً إلى هذا الحدّ، ويلوذ خاثينتو بالصمتَ وأقول له، لكنّه لم يظهر في الصحافة، لا أحدَ قال شيئاً، كما لو أنّ عوليس لم يسافر قط إلى أمريكا الوسطى. ويقول خاثينتو: صحيح. وأنا أقول له، لا أنت ولا أنا نستطيع أن نفعل شيئاً، لا يأبهون بنا، لكن بما أن الأمر يتعلّق بأُمّه، لا شكّ سيصغون إليها، سيرسلونها إلى الخراء، قال خاثينتو، الشيء الوحيد الذي سنُحقّقه هو أنّنا سنزيدها هموماً، وأشياء تُفكّر بها، وضعُها كما هو الآن جيد، من لا يعرف لا يعاني، العيش في الجهل. قال خاثينتو بينما هو يعدُّ الطعام لفرانز ويمشي في بيتنا. من لا يعرف لا يعاني، العيش في الجهل يكادُ يكون مثل العيش في السعادة.

وعندها قلتُ له: كيف تستطيع أن تقول إنّك ماركسيّ، يا خاثينتو، كيف تستطيع أن تقولَ إنّك شاعر، إذا كنتَ تُدلي بمثل هذه التصريحات، هل تُفكّر بأن تقوم بالثورة بالأمثال؟ وأجابني خاثينتو بأنه بصراحة ما عادَ يُفكّرُ بالقيام بالثورة ولا بشكل من الأشكال، لكن لن تكون فكرة سيّئة إذا خطرت له ذات ليلة هناك، يقوم بها بالأمثال أو الوبلِرو، وقال لي أيضاً يبدو أنّ من ضاعَ في نيكاراغوا هي أنا، نظراً للضيق الذي كنتُ فيه، ومن يقول لكِ، قال، إنّ عوليس ضاعَ في نيكاراغوا، يمكن ألا يكون قد ضاع إطلاقاً، يمكن أن يكون قد قرّر البقاء بإرادته، في النهاية لا بدّ أنّ نيكاراغوا مثل الحلم الذي راودنا في ١٩٧٥، البلد الذي كنّا جميعاً نريد أن نعيش

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فيه. وعندئذ كنتُ أُفكِّر بالعام ١٩٧٥، حين لم يكن فرانز قد وُلِد بعد وكنتُ أحاول أن أتذكّر كيف كان عوليس في ذلك التاريخ وكيف كان أرتورو بِلانو، لكنّ الشيء الوحيد الذي كنتُ أنجح في تذكّره بجلاء هو وجه خاثينتو، ابتسامته، ابتسامة الملاك الأدرد، فينتابني نوع من الحنوّ عليه، من الرغبةِ بضمّه هناك بالذات هو وفرانز وأن أقولَ للاثنين إنّني أحبّهما كثيراً، لكنّني سرعان ما كنتُ أعود وأتذكّرُ أمَّ عوليس ويبدو لي أنّه ليس لأحدٍ الحق بألاّ يقول لها أين هو ابنها، فقد عانت المسكينةُ ما يكفي، وكنتُ أعود وأُلِحُّ عليه أن اهتفْ لها، اهتفْ لها يا خاثينتو، ووضِّحْ لها كلَّ الذي تعرفه، لكنّ خاثينتو كان يقول إنّه ليس من اختصاصه، وإنّه ليسَ مستعداً للتعاطي مع أخبار غامضة، وعندها قلتُ له: ابقَ برهةً مع فرانز، الآن أعودُ، وهو بقي ساكناً، ينظر إليّ دون أن يقول شيئاً، وحين أخذتُ حقيبتي وفتحتُ الباب قال لي: على الأقل حاولي ألا تُخيفيها. وأنا قلتُ له: فقط سأقولُ لها إنّ ابنها ما عاد في المكسيك.

رافائيل باريّوس، في حمام بيته، جاكسون ستريت، سان دييغو، كاليفورنيا، أيلول ١٩٨٢.

كنّا نتكاتبُ مع خاثينتو من حين لآخر. كان هو من أخبرني باختفاءِ عوليس. لكنّه لم يقُلْ لي ذلك في رسالة. هتف لي من بيت صديقه إفرِن هِرناندِثْ، مما يُستنتج أنّ المسألة، على الأقل بالنسبة إليه، كانت خطيرة. إفرِن شاعرٌ شابٌ يُريد أن يكتب شعراً كما كنّا نفعلُ نحن الواقعيين الأحشائيين. أنا لا أعرفه، ظهر عندما كنتُ قد جئتُ إلى كاليفورنيا، لكن الولد بحسب خاثينتو، لا يكتبُ سيّئاً. أَرْسِلْ لي قصائد له، قلتُ له، لكنّ خاثينتو لا يرسل غير الرسائل، لذلك لا أعرفُ ما إذا كان يكتبُ جيّداً أم سيّئاً، إذا كان يكتب شعراً

واقعياً أحشائيّاً أم لا، طبعاً أيضاً لا أعرفُ، إذا أردتُ أن أكون صريحة، ما هو الشعرُ الواقعي الأحشائيّ. شعر عوليس ليما مثلاً. يمكن أن يكون. لا أعرف. فقط أعرف أنّه ما عاد أحدٌ يعرفنا في المكسيك، وأنّ الذين يعرفوننا يسخرون منّا (نحن المثل الذي يجب ألا يُحتَذى) وربّما معهم حق. لذلك المُفرحُ دائماً (على الأقل يُشكر) هو أنْ يكون هناك شاعر شابّ يكتبُ أو يريد أن يكتبَ على طريقة الواقعيين الأحشائيين. وهذا الشاعر يُدعى إفرِن هِرنانديث وهتفَ لي خاثينتو رِكِنا من هاتفِهِ أو بالأحرى من هاتف بيتِ والديه، كي يقولَ لي إنّ عوليس ليما قد اختفى. أنا استمعتُ إلى القصّة وقلتُ له بعدها: لم يختفِ، بل قرّر البقاءَ في نيكاراغوا وهذا شيء مختلف تماماً. وقال هو: لو أنّه قرّرَ البقاء في نيكاراغوا لكان قاله لنا، أنا ذهبتُ إلى المطار لأودّعه ولم يكن عنده أيّ نيّة بعدمِ العودة. أنا قلتُ له: لا تستعجل، يا أخي، يبدو وكأنّك لا تعرفُ عوليس. وهو قال: لقد اختفى، يا رافائيل، صدّقني، لم يقُلْ شيئاً ولا حتى لأمّه، لا ترَ عينُك الخصام الذي يحدثه لأوغادِ الفنون الجميلة. وأنا قلتُ له: عجيب! وقال هو: تعتقدُ أنّ الشعراء الريفيين قتلوا ابنها. وأنا قلتُ له: عجيب. وقال هو: بلى، حين يلمسون لأمٍّ ابنَها تتحوّل إلى لبوة، على الأقل هذا ما تؤكّده خوتشيتل.

باربارا باترسون، في مطبخ بيتها، جاكسون ستريت، سان دييغو، كاليفورنيا، تشرين الأوّل ١٩٨٢.

كانت حياتنا مخزية، لكن حين علم رافائيل بأنّ عوليس ليما لم يعد من رحلته إلى نيكاراغوا صارت مخزيةً مرّتين.

لا يمكن لهذا أن يستمرّ بهذا الشكل، قلتُ له ذات يوم. لم يكن رافائيل يفعلُ شيئاً، لم يكن يعملُ، لا يكتب، لا يُساعد في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تنظيف البيت، لا يخرج للقيامِ بالمشتريات، الشيء الوحيد الذي كان يفعله هو الاستحمامُ يوميّاً (هذا صحيح، رافائيل نظيف، مثل كلّ العاهرين المكسيكيين) ويُشاهدُ التلفزيون حتى يطلع الفجر أو يخرج إلى الشارع ليتناول بيرةً أو يلعبَ بكرة القدم مع مكسيكيي الحيّ البؤساء. حين كنتُ أصلُ أجدُهُ في بابِ البيت، جالساً على الدرج أو على الأرض، بقميصٍ نادي أمريكا التي تفوح منه رائحة العرق النتنة، يشربُ بيرته ماركة تيكاتِ ويُطلقُ العنانَ للسانه مع أصدقائه، وهم مجموعة من المراهقين المصابين بقصورٍ عقليّ، ويسمّونه الشاعر (الأمر الذي لا يبدو أنّه يزعجه) والذين يبقى معهم حتى أنتهي من تحضيرِ العشاء اللعين. عندها كان رافائيل يقولُ لهم وداعاً وهم، حيّاك الله، أيّها الشاعر، إلى اللقاء غداً، أيّها الشاعر. سنتابع النقاش في يومٍ آخر، أيّها الشاعر، وعندها يدخل إلى البيت.

في الحقيقة أنا كنتُ أتلظى غضباً، ومن انزعاجي الخالص كان باستطاعتي برغبةٍ حقيقيّةٍ أن أدسّ له السمّ في بيضهِ المقلي اللعين، لكنّني كنتُ أكبحُ نفسي وأَعدُّ للعشرة وأُفكِّر إنّه يمرُّ بفترة سيّئة، المشكلة هي أنّني كنتُ أعرفُ أنّ الفترةَ السيّئة كانت تدوم أكثر من اللازم، أربع سنوات بالضبط، لكي أكون دقيقة، ومع أنّها لم تكن تخلو من لحظات طيّبة، فالحقيقةُ أنّ اللحظات السيّئة كانت أكثر بكثير من اللحظات الطيّبة وكان صبري يبلغُ حدوده القصوى. لكنّني كنتُ أتحمّلُ وأسأله كيف كان يومك (سؤال تافه) وكان هو يقول، ماذا سأقول؟ جيّد، عاديّ إلى هذا الحد أو ذاك. وأنا أسأله: بماذا تتحدّث مع الصبية؟ وكان هو يقول: أحكي لهم حكاياتٍ، أُعَلّمُهم حقائقَ الحياة. بعدها نصمتُ. التلفزيون مشتعل، كلّ منّا غارق يُفَكِّرُ ببيضه المقلي، بقطعِ الخسِّ، بشرائح البندورة، وأنا أُفَكّر عن أي

حقائق حياة يُكلِّمهم، الشقيّ البائس، البائس المنحوس، أيّ حقائق يُعلّمهم، هذا المتطفّل البائس، ثقيل الدم البائس، ثقب الخراء، الذي لولاي لكان نائماً الآن تحتَ الجسر. لكنّني لم أكن أقولُ له شيئاً، أنظرُ إليه فقط. وإن كان يبدو أنّ نظراتي كانت تُزعِجه. كان يقول لي: إلامَ تنظرين فيَّ، يا شقراء، ما الذي تُدبّرينه. وعندها كنتُ أجبر نفسي على ابتسامة وغدة، لم أكن أردّ عليه وأبدأ أرفع الأطباق.

لويس سِباستيان رَوسادو، استوديو معتم، شارع كرابيوتو، حي كويواكان، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، آذار ١٩٨٣.

هتف لي ذات يوم. كيف حصلتَ على رقمي؟ سألتُهُ. كنتُ قد انتقلت توّاً من بيتِ والديّ وكان قد مضى عليَّ زمن طويل لم أره فيه. مرّ وقتٌ فكّرتُ فيه أنّ علاقتنا كانت تقتلني وقطعتها بطريقةٍ سليمة، ما عدتُ أراه، ما عدت أذهبُ إلى مواعيدِهِ، وهو لم يتأخّر في الاختفاء والجري وراء مغامراتٍ أخرى، على الرغم من أنّ ما كنتُ أتوقُ إليه، دائماً عرفتُ ذلك، هو أن يهتف لي، أن يبحث عنّي، أن يتعذّب. لكنّ البَشَرة الإلهية لم يبحثْ عنّي وبقينا زمناً، ربّما سنةً لا يعرفُ أحدُنا عن الآخر شيئاً. وهكذا حين تلقيتُ مكالمته كانت مفاجأةً سارّة. كيف حصلت على رقمي؟ سألته. هتفتُ إلى بيتِ والديْكِ وهما أعطياه لي، قال، بقيت طوال اليوم وأنا أهتف لك، دائماً لست في البيت. تنهّدتُ. كان بودّي لو أنّ العثور عليّ كلّفه أكثر. لكنّ البَشَرةَ الإلهية كان يتكلّمُ كما لو أنّنا تقابلنا آخر مرّة في الأسبوع الماضي، وهكذا لم يكن هناك ما نفعله. بقينا نتكلّمُ

(١) المرآة المكسيكية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

برهة، سألني عن أموري، ذكر أنّه رأى قصيدة لي في إل إسبِّخو دِ مِكسيكو[1]، وقصّةً في مختاراتِ القاصّين المكسيكيين الجدد، التي ظهرت توّاً. سألتُهُ عمّا إذا أعجبته القصّة، فأنا بدأتُ في فنّ القصّ الصعبِ حديثاً وخطواتي كانت ما تزال متردّدة. قال إنّه لم يقرأها. ألقيتُ نظرة على الكتاب حين رأيتُ اسمك، لكنّني لم أقرأها، ليس معي نقود. ثمّ صمت. أنا سكتُّ وبقينا برهة صامتين نسمع الاهتزازات والضجة المخفَّتة في الهواتف العمومية للعاصمة الفيدرالية. أتذكّر أنّني كنتُ أسكتُ وأبتسمُ وأتصوّرُ وجهَ البَشَرة الإلهية، وهو يبتسمُ أيضاً واقفاً على رصيف من منطقة روسا أو رِفورما، وكيسُهُ الأسود الصغير متدلٍّ على ظهره حتى يُلامس ركبتيهِ المغمدين في بنطلون جينز بالٍ وضيّق، ابتسامتُهُ، ابتسامة الشفتين الغليظتين المرسومة بدقّة جرّاحٍ في وجهه المربّع، حيث لا يوجد ميلي غرام واحد من الدهن، مثل راهبٍ مايا شاب، وعندها لم أعد أستطيع أكثر (شعرت بالدموع تشقّ طريقها إلى عينيّ) ثم أعطيته عنواني، قبل أن يطلبَه منّي، (قلتُ له أنْ يأتي فوراً، وهو ضحك، ضحك من السعادة وقال لي إنّه سيتأخر من حيث هو أكثر من ساعتين في الوصول وأنا قلتُ له لا همّ، وإنّني خلال ذلك سأحضّر شيئاً للعشاء وإنّني بانتظاره. روائياً كانت تلك اللحظةُ لحظةَ أن أغلق الهاتف وأرقص، لكن البَشرةَ الإلهية كان ينتظرُ دائماً أن يستهلك القطعَ النقدية الموجودة في الحصالة ولم يُغلق. قال لي، يا لويس سِباستيان عندي شيءٌ مُهمّ جدّاً أحكيه لك، ستقوله لي عندما تصل، قلتُ أنا. شيء كنتُ أُريدُ أن أحكيه لكَ منذ زمن، قال. جاء صوته واهناً على غير العادة. في تلك اللحظة بدأت أشكّ بأنّ شيئاً كان يحدثُ للبشرة الإلهيّة، وأنّه لم يهتفُ لي فقط كي يراني أو لأنّهُ بحاجة إلى أن أقرضه نقوداً. ماذا بك؟ سألته، ماذا بك؟ شعرت

كيف دخلت قطعةُ النقود في فتحة حصّالة الهاتف العمومي، بصوت أوراقٍ، ريحٍ ترفعُ أوراقاً جافّة، صوت كأنّه صوت لهب يصعد جذع شجرة، صوت كصوت أسلاك تتداخل وتنفصل ثمّ تخرب في العدم. بؤسٌ شعريٌّ. هل تتذكّر شيئاً كنت أُريدُ أن أحكيه لك ثم لم أحكه؟ جاء صوتُهُ طبيعيّاً تماماً. متى؟ سمعت نفسي أسألُهُ بحماقة. منذ زمن، قال البشرة الإلهية. قلت إنّني لا أتذكّر، ثم قلتُ إنّ الأمر سيّان، وإنّه سيحكيه لي حين يأتي إلى بيتي. سأخرج لأشتري بعضَ الأشياء، أنا بانتظارك، لكنّ البشرةَ الإلهية لم يغلق. وإذا لم يغُلق هو فكيف سأغلق أنا؟ هكذا انتظرتُ وأصغيتُ بل وشجّعته على الكلام. وعندها ذكر عوليس ليما، قال إنّه ضاع في مكانٍ ما من ماناغوا (لم أستغرب، نصفُ العالم يذهبون إلى ماناغوا) لكنّه في الحقيقة لم يَضِعْ، أي أنّهم جميعاً كانوا يعتقدون (من هم جميعاً؟ وددت أن أسأله، *أصدقاؤه*، *قرّاؤه*، *النقاد*، الذين كانوا يُتابعون أعماله بدقّة متناهية؟)، إنّه ضاع، لكنّهم كانوا يعرفون أنّه لم يضع، وأنّه في الحقيقة تخفّى. ولماذا كان عوليس ليما سيتخفّى؟ سألتُ. هنا أسُّ المسألة، قال البشرةُ الإلهية، حدّثتُك عن هذا منذ زمن، هل تتذكّر؟ لا، قلتُ، خرج منّي خيطُ صوت. متى؟ منذ سنواتٍ، في المرّة الأولى التي نمنا فيها معاً، قال. شعرتُ بقشعريرة، بتقلّبٍ في معدتي، انكمشت خصيتاي. صار يصعب عليّ الكلام. كيف تُريدني أن أتذكّر؟ تمتمتُ. لهفتي للقائِهِ ازدادت. اقترحتُ عليه أن يأخذ سيارة أجرة. هو قال ليس معه نقود، أكّدتُ له أنّني سأدفع وأنّني سأكون بانتظاره في بابِ بيتي. كان البشرة الإلهية يستعدُّ ليقولَ شيئاً آخر حين انقطعت المكالمة.

فكّرتُ في أن أستحمَّ، لكنّني قرّرت أن أؤجلّه حتى يأتي. تفرّغتُ لبرهةٍ لترتيب البيتِ قليلاً، غيّرتُ بعدها القميصَ وخرجتُ إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشارع لأنتظره. تأخّرَ أكثر من نصف ساعة، والشيء الوحيد الذي فعلتُهُ خلال كلّ ذلك الوقت كان محاولة أن أتذكّرَ تلك المرّة الأولى التي مارسنا فيها الحبّ.

حين نزلَ من سيارة الأجرة بدا أكثرَ نحولاً من المرّة الأخيرة التي رأيتُهُ فيها، أكثر نحولاً وتآكلاً بكثير مما كان في ذكرياتي، لكنّهُ بقي البشرةَ الإلهيّة وسررتُ برؤيته: مددت له يدي، لكنّه لم يأخذها ارتمى عليّ وعانقني. ما تبقى كان كما تخيّلتُهُ تقريباً، كما رغبتُ. لم يكن هناك ذرّة من خيبة.

نهضنا في الثالثة صباحاً وأعددتُ عشاءً ثانياً من الأطباق الباردة، وملأتُ كأسينا ويسكي. كلانا كان جائعاً وعطشان. عندئذ وبينما كان البشرةُ الإلهية يأكلُ عاد ليتكلّم عن عوليس ليما. كانت نظريتُهُ ملفتة للانتباه بغرابتها ولا تصمد أمام أدنى امتحان. كان ليما بحسبهِ هارباً من منظمة، وهذا ما اعتقدت أنّني فهمتُهُ في البداية، تُريدُ قتله، هكذا وبوجوده في ماناغوا قرّرَ عدم العودة. كانت القصّة كيفما نظرت إليها لا تُصدّق. كلّ شيء بدأ، بحسب البشرةِ الإلهيّة، برحلةٍ قام بها ليما وصديقه بِلانو إلى الشمال، في بداية ١٩٧٦. بدأ الاثنان بعد تلك الرحلةِ يهربان، أولاً في العاصمة الفيدرالية معاً، ثمّ في أوروبا، كلّ لوحده. حين سألتُهُ لماذا ذهب مؤسِّسا الواقعية الأحشائية إلى سونورا؟ أجابني البشرةُ الإلهية بأنّهما ذهبا للبحث عن ثِساريا تيناخِرو. عاد بِلانو إلى المكسيك بعد أن عاش في أوروبا بضعَ سنوات. ربّما اعتقدَ أنّ كلَّ شيء قد نُسيَ، لكنّ القتلةَ ظهروا، بعد اجتماعٍ حاول فيه ليما أن يُعيدَ تجميعَ الواقعيين الأحشائيين، واضطرّ لأنَ يعود ليهرب. وعندما سألته لماذا سيكون هناك من يريد قتل ليما، قال البَشَرة الإلهية بأنّه لا يعرف. أنتَ لم تُسافر معه، صحيح؟ هزّ البشرةُ الإلهية بالنفي. إذن كيف تعرف كلّ هذه القصّة؟

من حكاها لك؟ ليما؟ قال البَشَرة الإلهيّة لا، وإنّ من حكاها له هي ماريّا فونت (وَضَّحَ لي من هي ماريّا فونت) وإنّ والد هذه هو من حكى لها ذلك. بعدها قال لي إنّ والدَ ماريّا فونت موجود في مشفى للأمراض العقلية. لو كنتُ في وضع طبيعي لضحكت في لحظتها، لكن عندما قال لي البشَرة الإلهيّة إنّ مَنْ نشرَ الإشاعة كَان مجنوناً شعرتُ بقشعريرة. أيضاً شعرتُ بالحزن وفكّرت أنّه كان عاشقاً.

تحدّثنا في تلك الليلة مطلع الفجر. اضطررت في الثامنة صباحاً لأن أذهبَ إلى الجامعة. تركت للبَشَرَة الإلهيّة نسخاً عن مفاتيح البيت وقلت له أن ينتظرني. في الكلّية هتفت لألبرتيتو مور وسألتُهُ عمّا إذا كان يتذكّر عوليس ليما. جاء جوابه غامضاً. كان يتذكّرُ ولا يتذكّرُ، من كان عوليس ليما؟ عاشق هائم؟ صبّحتُهُ بالخير وأغلقتُ. هتفتُ بعدها لثاركو وسألته السؤال ذاته. جاء الجوابُ هذه المرّة أكثر حسماً: مجنون، قال إسماعيل هومبِرتو. شاعر، قلتُ أنا. تقريباً، قالَ ثاركو. سافرَ في وفد من الكتّابِ المكسيكيين إلى ماناغوا وضاع، قلتُ أنا. يجب أن يكون وفد الشعراء الريفيين، قال ثاركو. ولم يَعُدْ معهم، اختفى، قلتُ أنا. هذه أشياء تحدث عادة مع هؤلاء الناس، قال ثاركو. هل هذا كلّ شيء؟ سألتُ. نعم، قال ثاركو، ليس هناك ما هو أكثر غموضاً. عندما عدتُ إلى بيتي كان البشرة الإلهية نائماً. إلى جانبه كان ديواني الأخير مفتوحاً. اقترحتُ عليه بينما كنّا نتناول العشاءَ أن يبقى ليعيش معي بضعة أيّام. هذا ما كنتُ أُفكّر بفعلِهِ، قال البشرةُ الإلهيّة، لكنّني كنتُ أُريدُ أن تقول أنت لي هذا. وصل بعدها ومعه حقيبة تحتوي كلَّ ممتلكاته: لم يكن فيها شيء، قميصان، وشاحٌ مكسيكي سرقه من أحد الموسيقيين، بعض الجوارب، مذياع يعمل على المدخرة، دفتر يكتبُ فيه نوعاً من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اليوميات وأكثر من ذلك بقليل. وهكذا أهديتُهُ زوجاً من البنطلونات القديمة، ربّما كانا ضيّقين قليلاً عليه، لكنّه سُعِدَ بهما، ثلاثة قمصان جديدة اشترتها لي أمّي قبلَ وقت قصير وذهبتُ ذات ليلة، بعد أن خرجتُ من العمل، إلى حانوت أحذية واشتريت له حذاءً.

كانت حياتنا المشتركة قصيرة لكنّها سعيدة. عشنا خمسة وثلاثين يوماً معاً، مارسنا فيها الحبّ كلَّ ليلة وتحدثنا حتى ساعةٍ متأخّرة وأكلنا في البيت طعاماً كان يُحضّره هو، وكان بعامّة طعاماً معقّداً وبسيطاً في بعض الأحيان، لكنّه دائماً شهيّاً. حكى لي ذات ليلة أنّ المرّة الأولى التي مارس فيها الحبّ كان في العاشرة من عمره. لم أبغِ أن يحكي لي المزيد، أتذكّرُ أنّني نظرتُ إلى الجانب الآخر، إلى لوحةِ حفرٍ لِبِرِث كامارغا كنتُ أُعلّقها على جدارٍ ورجوت الله أن تكون تلك المرّة الأولى مع مراهقة أو مع صبيّ أو بنت وألاّ يكونوا قد اغتصبوه. وفي ليلة أخرى أو ربّما في الليلة ذاتها حكى لي أنّه كان في الثامنة عشرة من عمره حين وصل إلى العاصمة الفيدرالية، بلا نقود ولا ملابس، بلا أصدقاء يلجأ إليهم وأنّه مرّ في وضع سيّئٍ جداً، إلى أن تركه صديقٌ صحفيّ، نام معه، ينامُ في مستودعِ ورق *إلـ ناثيونال*. وبما أنّني كنتُ هناك، قال لي، فكَّرتُ أنّ قدري هو الصحافة، وحاولَ في فترة من الزمن أن يكتب وقائعَ لا أحدَ قبلَ أن ينشرها له. عاش بعدها مع امرأة وجاءه منها ولد، وقام بما لا نهاية له من الأعمال، ما من عمل منها ثابت. عمل حتى بائعاً جوّالاً في طريق أزكابوتزالكو، لكنّه انتهى بشجارٍ بالسكاكين مع الشخص الذي كان يمدهُ بالبضاعة وتركه. وذات ليلة بينما كان يلِجُني، سألتُهُ عمّا إذا كان قد قتل أحداً ذات مرّة. لم أكن أُريدُ أن أسأله هذا السؤال، لم أكن أُريد أن أسمع جوابه، سواء أكان صادقاً أم كاذباً، عضضتُ على شفتيّ. هو قال نعم وضاعف حركتَهُ، وأنا بكيتُ حين قذفت.

خلال تلك الأيام لم يأتِ أحدٌ لزيارتي في البيت، ألغيتُ الزيارات، قلتُ لبعضهم إنّني لا أشعرُ بأنّني على ما يرام، وقلتُ لآخرين إنّني أعملُ عملاً يحتاج إلى عزلةٍ مطلقة وتركيزٍ أقصى، والحقيقة هي أنّني كتبتُ، بينما كان االبشَرَة الإلهيّة يعيش معي، بعضَ الأشياء، خمسَ أو ستّ قصائد قصيرة، ولم تكن سيّئة، لكن قد لا أنشرها أبداً، وإن كان هذا لا يُعرف أبداً. في القصص التي كان يحكيها لي عادة كان دائماً يظهر الواقعيون الأحشائيون، وعلى الرغم من أنّه كان يزُعجني في البداية أن يتحدّث عنهم، إلاّ أنّني رحتُ شيئاً فشيئاً أعتادُ وإذا صادف ولم يظهروا فيها كنتُ أنا من يسأله، عندما كنتَ في بيت كالثادا كامارونِس أين كان الأخوان رودريغِث؟ عندما كنتَ تعيشُ في فندق نينيو بِرديدو أين كان يعيش رافائيل بارّيوس؟ وعندها كان هو يرتبُ فقراتِ روايته ويُكلّمني عن تلك الأشباح، عن وُصَفائه العابرين، عن الأشباح التي كانت تُزيّن حريّتَهُ الهائلة، خذلانَهُ الهائل.

وعاد ذات ليلة ليُحَدِّثني عن ثِساريا تيناخِرو. قلتُ له ربّما كانت من اختراع ليما وبِلانو كي يُبرِّرا سفرِهما إلى سونورا. أتذكّرُ أنّنا كنّا عاريَيْن، مستلقيَيْن على السرير والنافذة مفتوحة على سماءِ كويواكان، وأنّ البَشَرةَ الإلهيّة استدارَ وعانقني، بحث قضيبي المنتصب عن خصيتيه، عن كيسِ صفنه، كان قضيبه ما يزال رخواً، وعندها قال لي البشرةُ الإلهيّة، يا أزعر (لم يُشر إليّ قط بمثل هذه الطريقة السوقية) قال لي أزعر وأمسك بي من كتفيَّ وقال لي لم يكن هكذا، ثِساريا تيناخِرو وُجِدَت، وربّما ما تزال موجودة، لزم بعد ذلك الصمت، لكنّه كان ينظرُ إليّ بعينين مفتوحتين في الظلمة بينما راح قضيبي المنتصب يطرق خفيفاً خصيته. وعندها سألته كيف علم بِلانو وليما بوجود ثِساريا تيناخِرو، سؤال جدّي تماماً، وهو قال حدث ذلك على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أثر مقابلة، كان بِلانو وليما آنذاك يملكان مالاً وراحا يُجريان مقابلات لمجلّةٍ، مجلّة متعفّنة، تدورُ في فلك الشعراء الريفيين، أو لم تكن لتتأخّر كي تدور في فلك الشعراء الريفيين، لكن وقتذاك، والآن، قال لي البَشَرَة الإلهية، لم يكن هناك من طريقة كيلا يكون المرء في إحدى المجموعتين، عن أيّ مجموعتين تتحدّث؟ همستُ أنا، بينما كان قضيبي يصعد كيسَ صفنهِ ويلمسُ برأسهِ جذرَ قضيبه الذي بدأ ينتفخ، مجموعة الشعراء الريفيين أو مجموعة أوكتافيو باثْ، وتماماً بينما كان البَشَرَة الإلهية يقول «مجموعة أوكتافيو باث»، صعدت يدُهُ من كتفي إلى قذالي، فأنا كنتُ دون شكّ في جماعة أوكتافيو باث، على الرغم من أنّ المشهد كان يحتوي على مزيد من الألوان، على أيّ حال لم يكن الواقعيون الأحشائيون في أيّ من المجموعتين، ولم يكونوا مع أتباع الحزب الثوري المؤسساتي الجديد ولا مع المختلفين، لا مع الستالينيين الجدد ولا المتأنّقين، لا مع مَن كانوا يعيشون من أموالِ الخزينة العامّة ولا من الجامعة، لا مع الذين كانوا يبيعون أنفسَهُم ولا مع من كانوا يشترون، لا مع من كانوا في التقاليد ولا مع من كانوا يُحوّلون الجهلَ إلى عجرفة، لا مع البيض ولا مع الزنوج، لا مع أنصارِ أمريكا اللاتينية ولا مع أنصارِ العالمية. لكن ما يهمّ هو أنّهما أجريا تلك المقابلة (هل كانت لمجلّة *بلورال*؟ هل كانت لمجلة بلورال بعد أن انتقلوا من هناك إلى أوكتافيو باث) وعلى الرغم من أنّني سألتُهُ كيف يمكن لهذا الثنائي أن يحتاج مالاً إذا كان يبيع مخدرات؟ الصحيح هو أنّهما كانا بحسبِ البَشَرَة الإلهية بحاجة للمال وراحا يجريان مقابلات مع بعض المسنين الذين لم يعد يذكرهم أحد، مع الصخبيين، مع مانوِل مالبِّس أرثِ، المولود عام ١٩٠٠ والمتوفّى عام ١٩٨١ وأركِلِس بِلا، المولود عام ١٨٩٩ والمتوفى ١٩٧٧، وخِرمان ليْسْتْ أرثوبيدِ، المولود عام ١٨٩٨

والذي من المحتمل أنّه مات مؤخّراً أيضاً أو ربّما لم يمت، أجهل ذلك، لكن أيضاً هذا ليس شيئاً يهمّني كثيراً، كانوا أدبيّاً مجموعة كريهة، ومثيرة للسخرية دون إرادة منها، وذكر أحدُ الصخبيين أثناءَ المقابلة ثِساريا تيناخِرو، وعندها قلتُ له سأحقّق بما جرى لِثِساريا تيناخِرو. مارسنا بعدها الحبّ، لكنّه كان كمن يُمارسه مع أحدٍ موجودٍ وغير موجود، مع أحد راح يُغادرُ ببطء شديد ولسنا قادرين على أن نحلّ لغزَ إيماءاته.

رحل البَشَرةُ الإلهيّة بعدها بقليل من بيتي. قبلها كنتُ قد تكلّمتُ مع بعض أصدقائي، ناس متفرغون لدراسة تاريخِ الأدب المكسيكي، وما من أحدٍ منهم عرف أن يُعطيني أيّ معلومة عن وجود شاعرة العشرينيات تلك. اعترف البَشَرةُ الإلهيّة ذاتَ ليلة أنه قد تكون من اختراعِ بِلانو وليما. كلاهما الآن مختفيان، قال، وما عاد هناك أحدٌ يستطيع أن يَسألهما. حاولتُ أن أُواسيه: سيظهران، قلتُ له، كلّ الذين يذهبون من المكسيك ينتهون بالعودة إليه يوماً ما. لم يبدُ مقتنعاً تماماً ورحل ذات صباح، بينما أنا في العمل، دون أن يترك أيَّ ملاحظةِ وداع. أيضاً أخذَ معه بعض النقود، ليس كثيراً، ما اعتدت أن أتركه في درج مكتبي، تحسبّاً لأيّ طارئ يحدث في غيابي، وبنطلوناً، وعدداً من القمصان ورواية لفِرناندو دِل باسو.

الشيء الوحيد الذي فعلته خلال عدّة أيّام هو التفكيرُ فيه وانتظارُ مكالمةٍ هاتفية منه لم تصل أبداً. الشخص الوحيد من محيطي الذي رآه خلال وجودهِ في بيتي هو ألبِرتيتو[1] مور، في ليلة ذهبت فيها أنا والبَشَرَة الإلهية إلى السينما وحين خرجنا صادفناه فجأة. ومع أنّ اللقاء كان قصيراً وكلماته قليلة، شكّ ألبِرتيتو على الفور بعزلتي

---

(١) تصغير لألبِرتو.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومُراوغاتي. حين علمتُ أنّ البّشّرةَ الإلهيّة لن يعود هتفتُ له وحكيت له كلّ القصّة. بدا أنّ أكثر ما كان يهّمّه هو اختفاءُ عوليس ليما في ماناغوا. تكلّمنا برهةً طويلة والنتيجة التي وصلَ إليها هي أنّ الجميعَ كان يُجنّ بطريقة بطيئة لكنّها أكيدة. ألبِرتيتو لا يُناصر القضية الساندينية، لكن أيضاً لا يمكن أن نقول إنّه مناصر للسوموزية.

١٦

أماديو سالباتييرّا، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر التفتيش، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦.

من حسن الحظّ أنّ الفَتَيَيْن لم يكونا مُستَعْجِلَيْن. وضعتُ المُقَبّلات على طاولة صغيرة، فتحنا علب الفلفل التشيبوتلي، وزّعتُ عيدان الطعام، صببنا التِكيلا ونظر كلٌّ منّا إلي عيني الآخر. عمّ كنّا نتكلّم، أيّها الفَتَيان؟ سألتُهما، فقالا عن صورة الجسدِ الكامل للجنرال دييغو كارباخال، راعي الفنون ورئيس ثِساريا تيناخِرو، بينما راحت في الخارج، في الشارع، تُسمَعُ صفّارات دوريّة شرطةٍ أوّلاً، تلتها صفارات سيّارةِ إسعاف. فكّرتُ في القتلى والجرحى، وقلتُ لنفسي إنّ هذا جنرالي، قتيلٌ وجريحٌ في آنٍ معاً، هكذا كما كانت ثِساريا غياباً وكنتُ أنا عجوزاً ثمِلاً ومتحمّساً. بعدها قلتُ لِلْفَتَيَيْن إنّ موضوع الرئيس مجرّد كلام، وإنّه لا بدّ من معرفة ثِساريا كي ينتبه المرءُ إلى أنّه لا يمكن أن يكون لها في حياتها رئيس ولا عمل من تلك الأعمال التي نسميها ثابتة. كانت ثِساريا ضاربة آلة كاتبة، قلتُ لهما، كان هذا هو عملها، وكانت سكرتيرة جيدة، لكنّ مزاجَها، ربّما نزواتِها، كانت أقوى من فضائلها، ولولا مانوِلْ الذي أمّن لها العمل مع جنرال، لوجدت المسكينةُ نفسها تتنقّل في أسوأ أنفاق العاصمة الفيدرالية. وعندها عدتُ لأسأل عما إذا كانا حقيقةً (لكن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حقيقة - بحق) لم يسمعا بالجنرال دييغو كارباخال، وهما قالا لا، يا أماديو، أبداً، ماذا كان؟ هل كان من أنصار أوبرِغون أم من أنصار كارّانثا؟ هل كان رجلاً من رجال بلوتاركو إليّاس كايِّس أم ثورياً حقيقيّاً؟ بل كان ثورياً حقيقيّاً، قلتُ لهما بأكثر أصواتِ العالم حزناً، لكنّه أيضاً كان رجلاً من رجالات أوبرِغون، لا يوجد نقاء في العالم، أيّها الفتَيان، اخرجا من الخديعة، الحياة خراء، كان جنرالي جريحاً وميتاً في آنٍ معاً وكان رجلاً شجاعاً أيضاً. وعندها رحتُ أحكي لهما عن الليلة التي حكى لنا فيها مانولْ عن مشروعِهِ، مشروعِ المدينة الطليعية، حاضرةِ الصخبيين وعن أنّنا ضحكنا ونحن نستمع إليه واعتقدنا أنّها كانت مزحة، حاضرة الصخب مدينة ممكنة، على الأقل ممكنة في دهاليز الخيال، والتي كان مانولْ يُفكّر أن يُشيدها في خالابّا، بمساعدة جنرال، قال لنا، الجنرال دييغو كارباخال سوف يُساعدنا على بنائها، وعندها سألهُ بعضنا، عجباً ومن يكون هذا الجنرال (كما سألني الفتَيان في تلك الليلة) فحكى لنا مانولْ قصّتَهُ، القصّة، أيّها الفتَيان، قلتُ لهما، التي لا تختلفُ كثيراً عن قصص الكثير من الرجال الذين قاتلوا وتميّزوا في ثورتنا، رجال دخلوا عراة في دوّامة التاريخ وخرجوا مكسوّين بألمع وأفظع الأسمال، مثل جنرالي دييغو كارباخال، الذي دخل أُمِّيّاً وخرج مقتنعاً بأنّ بيكاسو وماريِنتّي كانا نبيّي شيءٍ ما، ما هو، لم يكن يعرف جيّداً ما هو، لم يعرفْ جيداً قط ما هو، أيّها الفتَيان، لكن نحن أيضاً لا نعرف أكثر منه بكثير. ذهبنا ذات يوم لنقابله في مكتبه. حدث هذا قبل أن تنضّم ثِساريا إلى الصخبية بقليل. كان موقفُ الجنرال في البداية بارداً قليلاً، كما لو أنّه يُبقي على مسافة بيننا. لم ينهض كي يُسلّم علينا، وبينما كان مانوِل يقومُ بتقديمنا له، بالكاد فتح فمه. هذا صحيح، راح ينظر إلى كلٍّ منّا في عينيه، كان لو أنّه كان يريد أن يرى ما كان

يجولُ في أعماق عقولنا، أو في أعماق أرواحنا. أنا فكّرتُ: كيف استطاع مانوِلْ أن يصيرَ صديقاً لهذا الرجل، لأنّ الجنرال، لم يكن يختلف للوهلة الأولى عن الكثير من العسكريين الآخرين، الذين أرساهم موجُ الثورةِ في العاصمة الفيدرالية، كان يوحي بأنّه شخصٌ انطوائيّ، جدّي، متحرّز، عنيف، بالخلاصة لا شيء مما يمكن ربطه بالشِّعر، على الرغم من أنّني أعرف جيّداً أنّه وُجِدَ شعراءٌ انطوائيون ومحترزون وعنيفون جدّاً، انظُرَا ديّاث ميرون، مثلاً. ولا تجبراني على الكلام، فأنا أحياناً يراودني التفكيرُ بأنّ الشعراء والسياسيين، وخاصّة في المكسيك، شيءٌ واحد، الشيءُ ذاته، على الأقل يمكنني أن أقول إنّهم ينهلون من النبع ذاته. لكنّني كنتُ وقتها شابّاً، شابّاً أكثرَ من اللازم ومثاليّاً، بمعنى: كنتُ نقيّاً، وكانت هذه الترهات تُلامس روحي، وهكذا أستطيع أن أقول إنّ الجنرال دييغو كارباخال لم يُعجبني للوهلة الأولى. لكن حدث وقتها شيءٌ بسيط جدّاً غيَّرَ كلَّ شيء. بعد أن اختَرَقَنا بنظرتِهِ أو بعد أن تحمَّلَ بين السئِمِ والساهي كلماتِ مانوِل التمهيدية نادى الجنرال أحدَ حرّاسه، وهو هنديّ ياكيّ كان يُناديه بإكيتاتيبو (العادِل) وأمره بأن يأتي بتِكيلا وخبز وجبن. وكان هذا كلّ شيء، كان هذا العصا السحريّة التي فتح لنا بها الجنرالُ القلوب، ورواية هذا بهذه الطريقة تبدو خسّة، حتى بالنسبة إليّ تبدو لي خسّة! لكن مجرّد إزاحةِ الأوراق وقتذاك عن مكتبه وقولهِ لنا اقتربوا بثقة، كان له فضيلة أنّه هوى بكلّ تحفّظٍ أو تحاملٍ كان يمكن أن يكون عندنا تجاهه واقتربنا جميعاً، كما لا يمكن أن نفعل أقّل من ذلك، من الطاولة وبدأنا نشربُ ونأكلُ خبزاً وجبناً، وكانت هذه، بحسب ما قاله جنرالي، عادةً فرنسيّة، وكان مانوِلْ يدعمُهُ في هذا (وفي كلّ شيء)، طبعاً كانت عادة فرنسية، شيء معتاد في الأكواخِ البائسة حول شارع إل تِمبلِ، وكذلك في أكواخ محيط

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فابورغ ستريت دِنيس، وراح مانوِل وجنرالي دييغو كارباخال يتكلّمان عن باريس، وعن الخبز والجبن اللذين يؤكلان في باريس، وعن التِكيلا التي كانت تُشرَب في باريس، وعن أنّه كان يبدو مثل الحلم، كم كانوا يشربون جيداً،، كم كان يُتقن الأوغاد الباريسيون في محيط سوق البراغيث فنّ الشرب، كما لو أنّ كلَّ شيء في باريس، هذا ما فكّرتُ به، كان يحدثُ في شارع ما أو مكان ما وليس أبداً في شارع أو مكان مُحَدَّدَين، وكان هذا يعود، وهو ما عرفته لاحقاً، إلى أنّ مانوِلْ لم يكن قط لا هو ولا جنرالي في مدينة النور، على الرغم من أنّ كليهما، لا أدري لماذا، كان يَكنُّ لتلك الحاضرةِ البعيدة والساحرة، حبّاً أو ولهاً تستحقُّهُ، أظنُّ، قضايا أفضل. وبما أنّنا وصلنا إلى هذه النقطة اسمحوا لي بهذا الاستطراد: بعد سنوات، حين كانت الصداقة التي خصّني بها مانوِلْ قد اختفت منذ وقت طويل، عرفتُ بينما كنتُ أقرأ الصحيفةَ ذات صباحٍ أنّه كان يُغادر إلى أوروبا. الشاعر مانوِلْ مالبِّس أرثِ، كان يقولُ الخبرُ، يخرج من بِراكروث إلى لوهافر. لم يقلْ الخبرُ إنّ أبا الصخبيةِ ذاهبٌ إلى أوروبا، ولا إنّ الشاعر الطليعي المكسيكي الأوّل ذاهبٌ إلى القارّة العجوز، بل ببساطة: الشاعر مانوِل مالبِّس. ويمكن أنّه لم يقل حتى الشاعر، ربّما قال الخبرُ: المُجاز مالبِّس أرثِ يتوجّه إلى الميناء الفرنسي، من حيث سيتابعُ بوسائط نقل أخرى (قطار، عربات جامحة!) سفره إلى الأراضي الإيطالية، حيث سيقوم بمهام القنصل أو نائب القنصل، أو الملحق الثقافي في السفارة المكسيكية في روما. حسن. ما عادت ذاكرتي كما كانت من قبل. هناك أشياء أنساها، أعترفُ. لكن في ذلك الصباح، بينما أنا أقرأُ الخبرَ وعرفت أنّ مانوِلْ سيعرفُ باريس أخيراً، سُعِدتُ، شعرتُ بصدري يمتلئ سروراً، وإن لم يعد مانوِل يُعتبر وقتها صديقي، وإن كانت الصخبيةُ

قد ماتت، وإن كانت الحياة قد تغيّرت إلى حدٍّ أنّ معرفةَ الواحدِ منّا للآخر صارت تُكلّفه جهداً. فكّرتُ بمانوِلْ، فكّرتُ بباريس، التي لا أعرفها، لكنّني زرتها أحياناً في أحلامي، وفكّرتُ أنّ هذه الرحلة تُبرّئنا وبطريقتها الغامضة قليلاً، ليست عشوائيّة، تُنصفنا. بالطبع جنرالي دييغو كارباخال لم يخرج قط من المكسيك. قتلوه في عام ١٩٣٠، في تراشقٍ للنيران مجهولِ المصدرِ في فناء ماخور روخو إي نِغرو[١]، الذي كان يقع وقتذاك في شارع كوستاريكا على بعدِ بضع كتل من الأبنية من هنا، ويتمتع، كانوا يقولون، بحماية مباشرة من مسؤولٍ رفيع المستوى في أمانة الدولة. قُتل في المعركة جنرالي دييغو كارباخال وواحدٌ من حرّاسه وثلاثة رماةٍ من ولاية دورانغو وعاهرة مشهورة جدّاً في تلك السنين، روساريو كونترِراس، كانوا يقولون إنّها إسبانية. أنا ذهبت إلى جنازته وعند خروجي من المقبرة التقيت بِليْسْتْ أرثوبيدِ. بحسب ليْسْتْ (الذي سافر أيضاً يومها إلى أوروبا) كانوا قد أعدّوا لجنرالي مصيدةً لأسبابٍ سياسيّة، بعكس كلّ ما قالته الصحف، التي تحدثت عن مشاجرة ماخورٍ أو أسبابٍ ذات طبيعة عاطفيّة أو غرامية حيث لعبت روساريو كونترِراس دوراً بارزاً. بحسب ليْسْتْ، الذي كان يعرفُ الماخورَ شخصيّاً، كان جنرالي يُحبّ أن يُمارسَ الحبَّ في أكثر الغرفِ عزلة، غرفةٍ لم تكن كبيرة جدّاً، لكنّها تتميّز بالمقابل بأنّها في عمق البيت، بعيدة عن الضجيج، بجانبِ الفناء الداخليّ حيث كانت توجد بحرةٌ. وكان جنرالي يحبُّ بعد أن يمارسَ الحبَّ أن يخرجَ إلى الفناء ليُدخِّنَ سيجاراً ويُفكّر بِحزنِ ما بعد الجماع وبحزنِ الجسدِ اللعين، بكلِّ الكتبِ التي لم يقرأها. وبحسب ليْسْتْ اتخذَ القتلةُ مواقعَهم في الممرّ المؤدي إلى

---

(١) أحمر وأسود.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غرفِ الماخور، الرئيسية، المكان الذي كان يُسيطر على كلِّ زوايا الفناء الداخلي. وهو ما يدلّ على أنّهم كانوا يعرفون عاداتِ جنرالي. وانتظروا وانْتَظروا بينما جنرالي يُجامِعُ روساريو كونترِراس، العاهرة بالفطرة، بحسب ما فهمت، إذ لم تندر العروض التي كانت تطلب منها الانسحابَ واختارت دائماً استقلالها، شيء غريب فعلاً. ويبدو أنّ الجماع كان طويلاً ومتمهّلاً، كما لو أنّ الملائكةَ وآلهةَ الحبّ أرادت أن تستمتع روساريو وجنرالي طويلاً تماماً بآخر تجربةٍ غرامية، على الأقل هنا، في الجانب المكسيكي من كوكب الأرض. وهكذا مرّت الساعاتُ وروساريو وجنرالي عالقان فيما يُسَمّيهِ الشبابُ ومن ليسوا شباباً جدّاً، اليومَ بالوطأةِ أو المصّة أو اللفافة، العصا أو المسمار أو المِذَبّة، أو بمضغةِ علكةٍ طويلة أو غرزةٍ طويلةٍ لثلاثة أيام في الداخل، على الرغم من أنّ ما كانا يفعلانه كان لما تبقّى من الأبد. وكان القتلةُ خلال ذلك ينتظرون ويسأمون ومع ذلك فما لم يكونوا ينتظرونه هو أن يخرج جنرالي إلى الفناء والمسدّسُ على خصره أو مدخل بين البنطلونِ وكرشهِ، لقد كان حيوانَ عادة. وحين خرجَ جنرالي أخيراً كي يُدخّنَ سيجارَهُ بدأ إطلاق النار. بحسب ليْستْ، كانوا قد صادوا حارسَهُ قبلَهُ دون أيّ مشكلة، وهكذا حين بدأت الحفلةُ كانوا ثلاثة ضدّ واحدٍ ثم إنّ عاملَ المفاجأة كان لصالحهم. لكنّ جنرالي دييغو كارباخال كان رجلاً أكثر من اللازم، ثم إنّه كان يحتفظُ برودود فعل جيدة والمسألة لم تأتِ كما كانوا يريدون. الرصاصات الثلاثة الأولى أصابته لكنّه ملك من الشجاعة ما جعله يسحبُ مسدّسَهُ ويردّ على النيران. بحسب ليْسْتْ كان باستطاعته أن يتحمّلَ الهجومَ لزمن غير محدود، ذلك أنّه إذا كان القتلة محميّين في وضعية لا يمكن أن يكونَ هناك أحسن منها، فإن وضعيةَ جنرالي لم تكن أقل منها، لا هو ولا هم تجرّأوا على المبادرة. لكن

روساريو كونترِراس خرجت في هذه الأثناء مذعورة من غرفتها، مدفوعةً بالضجة فقتلتها رصاصة. البقية غامضة: من المحتمل أنّ جنرالي ركضَ لمساعدتها، وإنقاذها، ربّما عرفَ أنّها ميتة والغضب الذي شعر به كان أقوى من حكمتِهِ: انتصب وسدّد إلى حيث كان القتلةُ وتقدّمَ نحوهم وهو يُطلِقُ النار. هكذا كان يموت جنرالاتُ المكسيك القدامى، أيّها الفَتَيان، قلتُ لهما، ما رأيكما؟ وهما قالا، يا أماديو، كأنّك تحكي لنا فيلماً. وعندها عدتُ لأُفَكّر بحاضرة الضجيج، بمتاحفها وباراتها، بمسارحِها في الهواء الطلق وصحفها، بمدارسها وغرف نوم شعرائها العابرين، بتلك الغرف التي كان ينام فيها بورخِسْ وتريستا تزارا وهويدوربو وأندريه بريتون. ورأيتُ جنرالي يتحادثُ معنا مرّة أخرى. رأيتُهُ يضع خططاً، رأيتُهُ يشربُ مستنداً إلى النافذة، رأيتُهُ يستقبل ثِساريا تيناخِرو التي جاءت ومعها رسالة توصيةٍ من مانوِلْ، رأيتُهُ يقرأ كتاباً صغيراً لِتابلادو، ربّما ذلك الذي يقول فيه خوسِهْ خوان: «تحت البخار السماوي/ يهذي البلبلُ صادحاً/ لأجل النجمة الوحيدة». إنّه كما لو قلنا، أيّها الفَتَيان، قلتُ لهما، إنّني كنتُ أرى الجهودَ والأحلامَ، كلّ شيء مختلطاً في فشلٍ واحد، وإنّ هذا الفشل اسمه الفرح.

جواكين فونت، طبيب نفسي، لا فورتالِثا، تلالنِبّاتْلا، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، آذار ١٩٨٣.

الآن وأنا مُحاطٌ بمجانين فقراء، ما عاد أحدٌ يأتي لزيارتي. ومع ذلك يقول طبيبي النفسي إنّني في كلّ يوم أفضل قليلاً. اسم طبيبي النفسي خوسِهْ مانوِلْ ويبدو بالنسبة لي اسماً جميلاً. حين أقول له هذا يضحك. إنّه اسمٌ رومانسيّ جدّاً، أقولُ له، كما كي يسحرَ أيَّ فتاة. مؤسف أنّه لا يكاد يتواجدُ حين تأتي ابنتي، لأنّ الزياراتِ تتمّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يومَيّ السبت أو الأحد. وطبيبي النفسي يرتاح في هذين اليومين، باستثناء يوم سبتٍ ويوم أحدٍ واحدٍ في الشهر، يكون فيها مناوباً. لو رأيتَ ابنتي، أقولُ له، ستعشقُها. آه، يا لك من دون خواكين، يقولُ هو. لكنّني أُصرّ عليه، لو رأيتها، يا خوسِهْ مانوِلْ، لسقطتَ عند قدمَيْها كعصفورٍ جريح ولفهمتَ دفعةً واحدة كومةً من الأشياء أنت لا تفهمها الآن. مثل ماذا مثلاً؟ كان يسألني هو، بصوتٍ شارد، بصوت يُحاول أن يكون غير مبالٍ بشكلٍ مؤدّب، لكنّني أعرفُ أنّه في أعماقه مُهتمّ جدّاً. مثل ماذا، مثلاً؟ وعندها أختار أن أصمت. الصمتُ أحياناً هو الأفضل. أن أهبطَ مرّةً أخرى إلى دماميسِ العاصمةِ الفيدرالية وأصلي بصمت. أفنيةُ السجن هي الأمثلُ للصمت. مربّعة وسداسية الأضلاع، كما لو أنَّ من صمّمها هو المعلّم غارابيتو، كلّها تصبّ في الفناء الكبير، مساحته كمساحةِ ثلاثة ملاعب كرة قدم، يُتاخِم جادّة بلا اسم من حيث كانت تمرّ حافلة تْلانِبّانْتلا، مليئةً بالعمال وبالتنابل الذين ينظرون بجشع إلى المجانين الذين يهيمون على وجوههم في الفناء بلباس لا فورتالِثا الموحّد، أو شبه عراة، أو بملابس الشارع البالية التي وصلوا بها توّاً ولم يستطيعوا أن يعثروا لهم على لباس موحّد، لا أقول على قياسهم، فهنا قليلون من يرتدون لباساً موحّداً على قياسهم. هذا الفناء الكبير هو الحظار الطبيعي للصمت، على الرغم من أنّني عندما رأيتُهُ لأوّلِ مرّة فكَّرتُ أنّ ضجيج وصخب المجانين يمكن أن يكون غير محتمل هناك، وتأخّرتُ في التشَجُّعِ على المشي في هذه السهب. ومع ذلك سرعان ما فهمتُ أنّه إذا كانَ هناك من مكانٍ في لا فورتالِثا يهرب منه الصوتُ مثل أرنب مذعور، فذلك المكان هو الفناءُ الكبير المحميُّ بسياجٍ عالٍ من القضبان من الشارعِ الذي لا اسم له، حيث لا يمرّ الناس إلا محميّين ومسرعين في سياراتهم، لم يكن يُشاهد مُشاة بمعنى المشاة

تقريباً، وإن كان يحدث أحياناً أنَّ قريباً ساهياً لأحدِ المجانين أو أشخاصاً كانوا يُفضّلون عدم الدخول من الباب الرئيسي يتوقّفون عند السياج، للحظة فقط، ثمّ يُتابعون طريقهم. على الجانب الآخر من الفناء، بجانبِ الأبنية، توجد الطاولاتُ وطاولات الطعام وكراسيها الثابتة، حيث يُمضي المجانين في بعض المناسبات بعضَ اللحظات للتسلية مع عائلاتهم الذين يحضرون معهم موزاً أو تفاحاً أو برتقالاً. على كلّ الأحوال لم يكونوا يمكثون هناك طويلاً، إذ أنّ الحَرَّ في تلك المنطقة حين يكون هناك شمس، لا يُحتمل وحين تهبّ الريحُ عادةً ما يلوذ المجانين الذين لا يزورهم أحدٌ أبداً تحت إفريز تلك الجدران. حين تأتي ابنتي لزيارتي أطلبُ منها أن نبقى في قاعة الزياراتِ أو أن نخرج إلى أحد الأفنيةِ السداسية، على الرغم من أنّني أعرفُ أنّ قاعة الزيارات والأفنية الصغيرة تبدو لها مقلقة وكريهة. ومع ذلك تحدثُ في الفناء الكبير أشياءٌ أنا لا أريد لابنتي أن تراها (العلامة التي تدلُّ، بحسب طبيبيَ النفسيّ، على أنّ صحّتي في تحسّنٍ واضح) وأشياء أخرى أُفضّل أن أكون الوحيد، آنياً، من يصل إليها. على كلّ الأحوال عليَّ أن أمشي بحذر وألا أغفل. ذات يوم (منذ شهر)، حكت لي ابنتي أنّ عوليس ليما اختفى. أعرف، قلتُ لها. وكيف عرفت؟ سألت هي. آه، عجيب. قرأته في الصحيفة، قلتُ. لكنّه لم يُنشر في أيّ صحيفة! قالت هي. حسن: إذن لا بدّ أنّني حلمتُ، قلتُ. ما لم أقلْهُ هو أنّ مجنوناً في الفناء الكبير أخبرني بذلك منذ ما يقاربُ الخمسة عشر يوماً. مجنونٌ لا أعرف حتى اسمه الحقيقيّ، يناديه الجميع هنا بِتشوتشو أو تشوتشيتو (من المحتمل أن يكون اسمه خِسوس، لكنّني أفضل أن أتفادى أيّ إشارة دينية، ليست ذات صلة بالموضوع ولا تُساهم إلاّ في تعكير صمتِ الفناء الكبير)، اقترب هذا الكلب، أو الجرو منّي، شيء معتاد، فجميعنا نقترب في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفناء ونفترق، المخدّرون منّا والذين تحسّنوا بشكلٍ واضح وهمس في أذني عند مروره: اختفى عوليس. في اليوم التالي عدتُ والتقيت به، ربّما كنت أبحثُ عنه باللاشعور وقدتُ خطواتي باتجاهه، الخطوات البطيئة جدّاً، المتمهّلة جدّاً، البطيئة إلى أحدّ أنها كانت تولّد عند الذين كانوا يمرّون بسياراتهم في الجادة التي لا اسم لها، أظنُّ، انطباعاً بأنّنا لا نتحرّكُ، وكنّا نتحرَّكُ هذا لا شكّ به عندي، وحين رآني بدأت شفتاه ترتجفان، كما لو أنّهُ بمجرّد أنّه رآني نشأت عنده الحاجةُ لإبلاغي رسالته، وحين مرّ بجانبي التفتُّ لأسمع الكلمات ذاتها: اختفى عوليس. عندها فقط فهمتُ أنّ الأمرَ يتعلّقُ بعوليس ليما، الشاعر الواقعي الأحشائيّ الشابّ، الذي رأيتُهُ لآخر مرّة وراء مقودِ سيّارتي، الفورد إمبالا اللامعة، في الدقائق الأولى من عام ١٩٧٦، وأدركتُ أنّ السماء ستعود وتُغطّى بالغيوم السوداء، وبأنّ فوق غيوم المكسيك البيضاء كانت تطفو الغيوم السوداء، بثقلها الذي يفوق الخيال وهيمنتِها المرعبة، وبأنَّ عليَّ أن أحترس وأغوصَ في الخديعة والصمت.

خوتشيتل غارثيّا، شارع مونتِسْ، قرب نصب الثورة، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٨٤.

عندما انفصلنا أنا وخاثينتو قال لي أبي أن أُعلمه أنّه إذا ما تصرّفَ بعنفٍ، سيتكفّل هو بالردّ عليه وبكلِّ شيء. كان والدي ينظرُ أحياناً إلى فرانز ويقول كم هو أشقر! ويُفكّرُ (أنا واثقة من ذلك، وإن لم يقله) كيف يمكن أن يكونَ بهذا اللون في الوقت الذي كنّا جميعنا في العائلة سمراً وكذلك خاثينتو. كان والدي يعبد فرانز. يا صغيري الأشقر، كان يقول له، أين صغيري الأشقر، وفرانز أيضاً كان يُحبّه. كان يأتي عادة أيّامَ السبت أو الأحدِ كي يتنزّه مع الطفل. حين كانا يعودان كنتُ

أُحَضّر له فنجانَ قهوة قوّية بما يكفي وكان أبي يلوذ بالصمت، جالساً إلى الطاولة ينظرُ إلى فرانز أو يقرأ الصحيفةَ ثمّ يذهب.

أظنّ أنّه كان يعتقدُ أنّ فرانز ليس ابنَ خاثينتو، وهذا ما كان يُغيظني أحياناً ويضحكني أحياناً أخرى. ثمّ إنّ قطعي للعلاقة مع خاثينتو لم يكن عنيفاً إطلاقاً، وهكذا لم أُضطرّ لأن أقول لأبي أيّ شيء. ربّما حتى لو كان عنيفاً ما كنتُ لأقول له شيئاً. كان خاثينتو يأتي كلَّ خمسة عشر يوماً ليرى الطفل. أحياناً بالكاد كنّا نتبادل الكلام، كان يأخذهُ ويعودُ ليتركه ثمّ يذهب، لكنّه كان أحياناً أخرى، حين يأتي ليتركه، يبقى برهة يتكلّم معي، يسألني عن حياتي وأنا أسأله عن حياته وكان باستطاعتنا أن نبقى نتحدث حتى الثانية أو الثالثة صباحاً عن الأشياء التي حدثتْ معنا وعن الكتبِ التي قرأناها. أظنّ أنّ أبي كان يُخيف خاثينتو ولذلك لم يكن يتردّد عليّ كثيراً، كان يخافُ أن يُصادفه عندي. هو لم يكن يعرفُ في ذلك الوقت أنّ أبي كان مريضاً جدّاً، وأنّ من الصعب عليه جدّاً أن يؤذي أحداً. لكنّ شهرة أبي كانت كبيرة، ومع أنّه ما من أحدٍ كان يعرفُ معرفة صحيحة أين كان يعمل، إلا أنّ مظهره لا يدعُ مجالاً للشك، وكان يقول أنا من الشرطة السرّية، كنْ حذراً منّي، أنا شرطي مكسيكي. وإذا كان وجهه ممتقعاً فذلك لأنّه كان مريضاً، أو إذا كان يتحرّك ببطء أكثر، فقليلاً ما كان يهمّ، لأنّه كان يشكّل تهديداً إضافياً. بقي ذات ليلة ليتناول العشاء معي. وكنتُ رائقةَ المزاج جدّاً وبي رغبةٌ لأنْ آكلَ مع أبي، لأنْ أراه هو وفرانز معاً، لأن أتكلّمَ. ما عدتُ أذكرُ ماذا حَضّرْتُ له، دون شك، عشاء بسيطاً. سألته بينما نحن نأكل لماذا صار شرطيّاً. لا أدري إن كنتُ سألته بجدّية، فقط فكّرتُ أنّني لم أسأله عن هذا من قبلُ أبداً، الآن أفضل من بعد. أجابني بأنّه لا يعرف. ألم يكن بودّك أن تكون شيئاً آخر؟ سألته. أجابني بلى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ماذا، سألته، ماذا كان بودّك أن تكون؟ فلاّح، قالَ هو، وأنا ضحكتُ، لكنّه حين ذهب بقيتُ أُفكّر بهذا، فذَبُلَ فجأةً المزاجُ الرائقُ الذي كنتُ فيه.

مَنْ صِرتُ لها صديقةً حميمة في تلك الأيام هي ماريّا. كانت ماريّا ما تزالُ تعيش فوق شقّتي وعلى الرغم من أنّه كان لها عشاقها المتفرّقون (في بعض الليالي كنتُ أسمعُها كما لو أنّ السقفَ من ورق)، إلاّ أنّها كانت، منذ قطيعتها مع مدرّس الرياضيات، تعيش لوحدِها، هذا الظرف، ظرفُ عيشها لوحدها، ساهم في تغيرها عميقاً. أنا أعرفُ ما أقول، لأنّني أعيشُ وحدي منذ الثامنة عشرة من عمري. على الرغم من أنّني، إذا ما فكّرتُ جيّداً، لم أعِشْ قط وحدي، فقد عشتُ أوّلاً مع خاثينتو والآن أعيش مع الطفل. ربّما ما أردتُ قوله، هو أنها تعيش مُسْتَقلّةً، خارجَ بيت الأب. مهما يكن، فأنا وماريّا صرنا أكثر صداقة. أو صرنا صديقتين حقيقةً، إذ ربّما لم نكن كذلك من قبل وكانت صداقتنا ترتكز على أشخاص آخرين وليس علينا. حين انفصلنا أنا وخاثينتو استحوذَ عليَّ الشعرُ. رحتُ أقرأ وأكتبُ شعراً، كما لو أنّ هذا كان الأهم. سابقاً كنتُ أكتبُ، قصائدَ قصيرة، وكنت أعتقدُ أنّني أقرأُ كثيراً، لكنّني رحتُ، بعد أن ذهبَ، أقرأُ وأكتبُ بجدّية. كنتُ أنتزعُ الوقتَ، الذي لم يكن يفيض عنّي، من حيث أستطيع.

في ذلك الوقت كنتُ قد حصلتُ على عملي كعاملة صندوق في خيغانت، بفضلِ أنّ أبي تكلّم مع صديق كان له صديقٍ، هو المسؤول عن خيغانتِ في حيٍّ سان رافائيل. وكانت ماريّا تعمل كسكرتيرة في أحدِ مكاتب المعهد الوطني للفنون الجميلة. في النهار كان فرانز يذهبُ إلى المدرسة وكانت تذهب في طلبه فتاةٌ في الخامسة عشرة من عمرها، كانت تكسبُ بيزواتها بهذه الطريقة، تأخذه بعدها إلى حديقة

عامة أو إلى بيتها حتى أصل أنا من العمل. كانت ماريّا تنزل في الليل بعد العشاء إلى بيتي أو أصعد أنا إلى بيتها وأبدأُ أقرأ القصائدَ التي كتبتها في ذلك اليوم، في الخيغانتِ أو بينما أنا أُسخِّنُ العشاءَ لفرانز أو في الليلة السابقة، بينما أنا أتأمّلُ فرانز نائماً. كان التلفزيون عادة سيّئة اعتدتُها عندما كنتُ أعيش مع خاثينتو، وأنا الآن لا أفتحه إلا حين يكون هناك خبرٌ صاعق وأريد أن أعرفه، الآن ولا حتى هذا. ما كنتُ أفعله، أقولُ، هو أنّني أجلسُ إلى الطاولةِ وهي الآن بجانبِ النافذةِ، وأبدأ بالقراءة وكتابةِ القصائد حتى تُغْمَضَ عيناي من النعاس. وصل بي الأمرُ إلى حدِّ أنّني كنتُ أُنقّحُ قصائدي عشر أو خمس عشرة مرّة. حين كنتُ ألتقي بخاثينتو كنت أقرأها له وكان يُعطيني رأيَهُ فيها، لكنَّ قارئتي الحقيقيّة هي ماريّا. كنتُ في النهاية أنقل قصائدي على الآلة الكاتبة وأحفظُها في ورّاقةٍ راحت تكبرُ، يوماً بعد آخر، أمام رضاي وسعادتي، كما لو أنّها تجسيدٌ يدلُّ على أنَّ صراعي لم يكن عبثياً.

تأخّرتُ كثيراً بعد أن ذهبَ خاثينتو في الاعتياد على رجلٍ آخر، كان شغفي، بالإضافة إلى فرانز، هو الشعر. على العكس تماماً من ماريّا، التي ما عادت تكتبُ وصارت تأتي كلَّ أسبوع بعشيقٍ جديد. تعرّفت على ثلاثةٍ أو أربعة منهم. كنتُ أقولُ لها أحياناً: يا أختي، ماذا ترين في هذا الشخص، هذا لا يُناسِبُك، هذا على الأغلب سوف ينتهي بضربِكِ، لكنّ ماريّا كانت تقول إنّها تعرفُ كيف تتحكّم بالوضع والحقيقة أنّها كانت تتحكّمُ به، مع أنّني اضطررتُ في أكثر من مرّة لأن أصعدَ إلى غرفتها راكضةً، مذعورةً من الصراخ الذي كنتُ أسمعه وأقول لعشيقها أن يذهب فوراً وإلا ناديت والدي، الذي كان من الشرطة السرّية، وعندها سيعرف فعلاً ما كان ينتظره. عاهرتَيّ الشرطة الوغدات، صرخ بنا أحدُهم من وسط الشارع، أتذكّر ذلك، ورحتُ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أنا وماريّا نضحكُ مثل مجنونتين على الجانب الآخر من النافذة. لكنّ مشاكلها بشكلٍ عام لم تكن كبيرة. مشكلةُ الشِّعر شيء آخر. لماذا ما عدتِ تكتبين، يا أختي؟ سألتُها ذات مرّة فأجابتني بأنّه لا رغبة لديها، وأنّ هذا هو كلّ شيء، فقط لا رغبة لدينها.

لويس سِباستيان روسادو، استوديو مُظلم، شارع كرابيوتو، حي كويواكان، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، شباط ١٩٨٤.

هتف لي ذات صباحٍ ألبِرتيتو مور إلى العمل، وقال لي إنّه قضى ليلةَ كلاب. أوّل شيء فكّرتُ به كان حفلة ما وحشية، لكن حين سمعته يتلعثم، يتردّد انتبهتُ إلى أنّ وراء كلماته شيء أكثر. ما الذي يجري؟ قلتُ. قضيتُ ليلة مريعة، قال ألبِرتيتو، لا تستطيع ولا حتى أن تتصوّرها. فكّرتُ للحظةٍ أنّه سينفجر بالبكاء، لكنّني سرعان ما انتبهتُ، دون أن يقول لي شيئاً، إلى أنّ من كان سيبكي لا محالة هو أنا. ماذا يجري؟ سألتُ. صديقُكَ، قال ألبِرتيتو، زجَّ خوليتا في مشكلة. البشرة الإلهية؟ سألتُ أنا. نعم هو، قال ألبِرتيتو، أنا لم أكن أعلم. ماذا يجري؟ سألتُ. قضيتُ الليلَ كلّه دون نوم، خوليتا قضت الليلَ كلَّهُ بلا نوم، هتفت لي في العاشرة ليلاً، كانت الشرطة في بيتها، لم تكن يريد أن يعرف والدانا بذلك، قال ألبِرتيتو. ماذا يجري؟ سألتُ. هذا بلد خراء، قال ألبِرتيتو. لا الشرطة تعمل ولا المشافي ولا السجون ولا مستودعات الجثث ولا حفلات التأبين. هذا الشخص كان معه عنوان خوليتا، وكانت الشرطة من الوقاحة بحيث أنّها استجوبتها لأكثر من ثلاثِ ساعات. ماذا يحدث؟ سألتُ. والأسوأ من كلّ شيء، قال ألبِرتيتو، هو أنّ خوليتا أرادت أن تذهب لتراه، صارت مثل المجنونة والشرطة الأوغاد، الذين كانوا يريدون في البداية أن يوقفوها، قالوا لها إنّهم هم أنفسهم يستطيعون أن

يقلّوها مجاناً إلى مستودع الجثث، والاحتمال الأكبر هو أنّهم كانوا سيغتصبونها في زقاق مُعتم، لكنّ خوليتا كانت قد تحوّلت إلى ذئبةٍ وما عادت تشغّل عقلها، وكانت مستعدّة لأن تذهب حين وصلنا أنا والمحامي، سِرخيو غارثيّا فونِتِس، الذي أخذتُهُ معي، أظنّ أنّك تعرفه، تشدّدنا وقلنا لها إنّها لن تذهب إلى هناك وحدها. يبدو أنّ هذا أزعجَ الأوغادَ قليلاً فراحوا من جديدٍ يوجّهون إليها الأسئلة. ما كانوا يريدونه أساساً، هو اسم المُتَوفّى. عندها فكّرتُ بك، فكّرت أنّك تعرفُ اسمَهُ الحقيقيّ، لكنّني بالطبع لم أقُل شيئاً. خوليتا فكّرت بالشيء ذاته، لكنّ هذه الصغيرة وحش ضار ولم تقل إلا ما أرادت أن تقولَهُ. أعتقد أنّ الشرطة لم تذهب لرؤيتك. ماذا يجري؟ سألتُ. لكن عندما ذهب رجالْ الشرطة، لم يعد باستطاعة خوليتا أن تنام، وها نحن الثلاثة، أنا وخوليتا وغارثيّا فونِتِس المسكين، نجوبُ مخافر الشرطة ومستودعاتِ الجثث كي نتعرّف على جثّةِ صديقك. أخيراً وبفضلِ صديق لغارثيّا فونِتِس وجدناه في مخفرِ كامارونِسْ. عرفته خوليتا فوراً، على الرغم من أنّ نصفَ وجهه كان مُهشّماً. ماذا يجري؟ سألتُ. خذ الأمور بالتروّي، قال ألبِرتيتو. قال لنا صديق غارثيّا فونتِس إنّ الشرطة قتلتْهُ في تراشق بالنيران وقع في تْلالْنِبانْتلا. كانت الشرطة تتعقّبُ بعضَ تجّارِ المخدرات. كان معهم هذا العنوان: بيت عمال على طريق تْلالْنِبانْتلا، حين وصلتْ قاوم من كانوا في البيت فقتلتْهُم الشرطة جميعاً، بينهم صديقك. المشكلة أنّهم حين بدأوا بإجراءاتِ التعرف على البَشَرَة الإلهيّة لم يجدوا غير عنوان خوليتا. لم يكن له بطاقة عندهم، لا أحد كان يعرف اسمه ولا لقبه، الأثر الوحيد كان عنوان أختي. أمّا البقية فيبدو أنّهم كانوا مجرمين معروفين. ماذا يجري؟ سألتُ. وهكذا لا أحد يعرف اسمَهُ وخوليتا تُجنّ، تنفجر بالبكاء، ترفعُ الغطاء عن الجثّة وتقول يا البَشَرَة الإلهيّة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تصرخُ، يا البَشَرَة الإلهيّة في مستودع الجثث أمام كلٍّ من يريد أن يسمعها وغارثيّا فونتِسْ أمسكها من كتفيها، عانقها، أنتَ تعرف أنّ غارثيّا فونتِس دائماً كان عاشقاً قليلاً لخوليتا، وبقيتُ أمام الجثّة وجهاً لوجه، لم يكن مشهداً لطيفاً، أؤكّد لك، لم يعد في بَشَرَتِهِ أي شيء إلهيّ، على الرغم من أنّهم قتلوه قبل قليل، كان لون بشرته أقرب إلى الرمادي وكان هناك كدمات في كلّ مكان، كما لو أنّهم صفعوه وكان هناك ندبةٌ هائلة ممتدة من عنقه وحتى حقوِهِ، على الرغم من أنّ علاماتِ الاطمئنان كانت تعلو وجهه، اطمئنان الموتى الذي ليس اطمئناناً ولا أيّ شيء، بل مجرّد لحم ميتٍ بلا ذاكرة. ماذا يجري؟ سألتُ. في السابعة صباحاً ذهبنا من المخفر. سألنا شرطيّ عما إذا كنّا سنأخذُ على عاتقنا أمر الجثّة. أنا قلتُ له لا، وليفعلوا هم ما يحلو لهم. هو لم يكن أكثرَ من عاشقٍ عابرٍ لأختي، ثم أعطى غارثيّا فونتِس موظّفاً في المخفر رشوةً وتأكّد من أنّهم لن يزعجوا خوليتا بعد الآن. سألتُ خوليتا بعدها، بينما كنّا نتناول فطورنا، منذ متى كانت تلتقي بهذا الشخص وقالت لي إنّه صار يلقاها بعد أن عاشت فترةً معك. لكن كيف عثرَ عليك؟ سألتُها. يبدو أنّه أخذ رقم هاتفها من مُفَكّرتك. هي لم تكن تعلم بأنّه كان متفرّغاً لتجارة المخدرات. هي كانت تعتقدُ أنّه يعيش من الهواء، من النقود التي يُمرّرها له ناس مثلك أو مثلها. إذا ما حشر المرء نفسه مع ناس من هذا النوع سينتهي دائماً بالتلوّث، قلتُ لخوليتا، وخوليتا راحت تبكي وغارثيّا فونتِس قال لي لا تُبالغ، فكل شيء قد انتهى. ماذا يحدث؟ سألتُ. لا شيء يحدث، انتهى كلّ شيء، قال ألبِرتيتو. على كلّ الأحوال لم أستطع أن أنام، كما لم أستطع أن آخذ يومَ العطلة فنحن في الشركة غارقون في العمل حتى رقبتنا.

١٧

خاثينتو رِكِنا، مقهى كيتو، شارع بوكارِلي، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، أيلول ١٩٨٥.

بعد سنتين من اختفائه في ماناغوا، عاد عوليس ليما إلى المكسيك. ومنذ تلك اللحظة قليلون هم من رأوه، ومن رآهُ رآه دائماً بالمصادفة تقريباً. كان بالنسبة للغالبيةِ قد مات كشخصٍ وكشاعر.

أنا رأيتُهُ في مناسبتين، في الأولى التقيتُ به في مادِرو وفي الثانية ذهبتُ لأراه في بيته. كان يعيشُ في غرفة من بناء للإيجار في حي غِرِّرو، حيث كان يذهب لينام فقط، ويكسب عيشه من بيع الماريجوانا. لم يكن معه نقود كثيرة والقليل الذي كان معه يُعطيه لامرأةٍ تعيشُ معه، وهي فتاة تُدعى لولا، وعندها ابن. كانت لولا هذه تبدو شرسة متحفِّزة دائماً، كانت من الجنوب، من تشيابّا، أو ربّما من غواتيمالا، تُحبّ الرقص وتلبس على طريقة فرق موسيقى البونك، وهي دائماً في مزاج سيِّئ، لكنّ طفلها كان ظريفاً ويبدو أنّ عوليس أحبّه.

سألتُهُ ذاتَ يومٍ أين كان. قال لي إنّه جابَ نهراً يربط المكسيك بأمريكا الوسطى. هذا النهر، بحسب معرفتي، غير موجود. ومع ذلك قال لي، إنّه جاب هذا النهر وصار باستطاعته الآن أن يقول إنّه يعرف كلَّ منعطفاتِهِ وروافدِهِ. نهر من أشجار، أو نهر من رمال، نهر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من أشجار يتحوّل بين فينة وأخرى إلى نهر من رمال. سيل متواصل من الناس العاطلين عن العمل، الفقراء أو الميتين من الجوع، من المخدرات والألم. نهر من سُحُبٍ أبحر فيه اثني عشر شهراً، وجد في مجراه جزراً وقرى لا تُحصى، وإن لم تكن كلّ الجزر مأهولة، وفكّرَ أحياناً أنّه سيبقى لعيش فيها للأبد، أو أنّه سيموت.

من بين كلّ الجزر التي زارها هناك جزيرتان عجيبتان. جزيرة الماضي، قال، حيث لا يوجد أبداً غير الزمن الماضي، حيث يصاب سكانُها بالملل، وكانوا سعداء بشكل معقول، لكنّ ثقل المُتَوَهَّم في الجزيرة كان من الهول بحيث أنَّها كانت تغرق في النهر كلَّ يوم قليلاً. وجزيرة المستقبل، حيث الزمنُ الوحيد الموجود هو المستقبل وكان سكّانها حالمين وعدوانيين، عدوانيين، قال عوليس، إلى حدّ أنّ من المحتمل أن ينتهوا بأن يأكلَ بعضُهم بعضاً.

بعدها مرَّ زمنٌ طويلٌ قبل أن أعودَ وألتقي به. كنتُ أُحاولُ أن أتحرّكَ في دوائرَ أخرى، كانت لي مصالح أخرى، كان عليّ أن أبحث عن عمل، عليّ أن أُعطي بعض النقود لِخوتشيتل، وكان لي أيضاً أصدقاء آخرين.

خواكين فونت، مريض نفساني، لا فورتالِثا، تلالْنِبّانْتْلا، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، أيلول ١٩٨٥.

عدتُ يوم الزلزال لأرى لاورا داميان. كان قد مضى عليّ زمن طويل لم أرَ فيه حلماً كهذا. كنتُ أرى أشياءَ، أرى أفكاراً، وعلى الأخصّ أرى ألماً، لكنّني لم أكن أرى لاورا داميان، صورة لاورا داميان الضبابيّة، شفتَيْها بين المُخمَّنَتَيْن والمدركتين، وهي تقول إنّ كلَّ شيءٍ، على الرغم من الحقائق، حسن. سواء في المكسيك، أُخمِّنُ، أو في بيوت المكسيكيين، أو في رؤوس المكسيكيين.

الذنب ذنبُ المهدِّئات، على الرغم من أنّهم في لا فورتالِثا لا يكادون يعُطون، كي يوفروا، حبّةً أو حبّتين لكل نزيل، وهذا فقط لأكثرهم جنوناً. أي ربّما لم يكن الذنبُ ذنبَ المهدِّئات. الصحيح هو أنّني لم أرها منذ زمن طويل، وحين اهتزّت الأرضُ رأيتُها. وعندها عرفت أنّ خلف الكارثة كلّ شيء حسن. أو ربّما يصيرُ كلُّ شيء فجأةً في لحظة الكارثة حسناً، كيلا يموت. بعد أيّام جاءت ابنتي لزيارتي. أنت هل علمتَ بالزلزال؟ سألتني. طبعاً علمتُ، أجبتُ. هل مات كثيرون؟ لا ليسوا كثيرين، قالت ابنتي، لكنّ ما يكفي. هل مات أصدقاء كثيرون؟ بحسب علمي ما من أحدٍ مات، قالت ابنتي. الأصدقاء القليلون المتبقون لنا ليسوا بحاجة لأيّ زلزال في المكسيك كي يموتوا، قلتُ أنا. أُفكِّر أحياناً أنّكَ لستَ مجنوناً، قالت لي ابنتي. لستُ مجنوناً، قلتُ، أنا فقط مُشوَّش. لكنّ التشوّشَ دام عندك زمناً طويلاً، قالت ابنتي. الزمن وهم، قلتُ أنا، وفكّرتُ بناس مضى عليَّ زمن طويل لم أرَهُم، بل وبناس لم أرهم قط. لو كان باستطاعتي لأخرجتُكَ، قالت ابنتي. لا يوجد عجلة، قلتُ أنا وفكّرتُ بزلازل المكسيك التي جاءت تتقدّمُ، منذ الماضي، بِأقدام شحّاذين، مباشرة نحو أبدية أو نحو عدم المكسيك. لو كان الأمر بيدي لأخرجتُك اليوم بالذات، قالت ابنتي. لا تهتمّي، قلتُ لها، لا بدّ أنّ عندك ما يكفيكِ من مشاكلَ في حياتك. بقيتْ ابنتي تنظرُ إليّ ولم تُجبني. خلال الزلزال سقطَ مرضى لا فورتالِثا، من لم يكونوا مربوطين، عن أسرّتهم، قلتُ لها، ولم يكن هناك من يُراقب الأجنحة، فخرجَ المرضى يركضون وذهب بعضُهم إلى المدينة كي يعرفوا ما جرى لأسرهم. بقي المجانين ساعاتٍ يهيمون على هواهم. وماذا فعلوا؟ سألت ابنتي. أشياء غير ذات أهمّية، بعضهم راح يُصلّي، آخرون خرجوا إلى الأفنية، والغالبية بقوا نائمين في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أسرّتهم أو على الأرض. ما أحسن حظّهم، قالت ابنتي. وأنتِ ماذا فعلتِ؟ سألتُها مُجامَلةً. لا شيء، نزلتُ إلى شقّة صديقة لي وبقينا ثلاثتنا معاً. من؟ سألتُ. أنا وصديقتي وابنها. أولم يمت أيّ صديق؟ لا أحد، قالت ابنتي. هل أنتِ واثقة؟ واثقة جدّاً، كم نحن مختلِفان، قلتُ. لماذا؟ سألتني ابنتي؟ لأنّني أعرف، دون أن أخرج من لا فورتالِثا، أنّه لا بدّ هناك صديق مات مسحوقاً بالزلزال. لم يمت أحد، قالتْ ابنتي. سيّان، سيان، قلتُ. مكثنا برهةً صامتين نتأمّلُ مجانينَ لا فورتالِثا الذين كانوا يهيمون مثل العصافير والساروفيم والكاروبيم، بشعرٍ ملطخ بالخراء. يا للكآبة، قالت ابنتي أو هذا ما بدا لي أنّني سمعتُ. أعتقد أنّها راحت تبكي، لكنّني حاولت ألا أوليها انتباهاً ونجحتُ. هل تتذكَّرين لاورا داميان؟ سألتُها. بالكاد عرفتها، قالتْ هي، وأنتَ أيضاً بالكاد عرفتها. أنا كنتُ صديقاً جدّاً للسيّد والدها، قلتُ. مجنون قرفص وراح يتقيّأ عند باب حديديّ. أنتَ صادقتَ أبا لاورا فقط بعد أن ماتت، قالتْ ابنتي. لا، قلتُ، كنتُ صديقاً لألبارو داميان قبل أن تحدث الفاجعة. حسنٌ، قالتْ ابنتي، لن نختلف على هذا. راحت بعدها تحكي لي برهةً عن عملياتِ الإنقاذ التي كانوا يقومون بها في كلّ المدينة والتي كانت تُشارِكُ، أو شاركَت أو كان بودها أن تُشارك هي فيها (أو رأتها من بعيد)، وحكتْ لي أيضاً أنّ أمّها كان تتكلّم عن أنّها ستترك العاصمة الفيدرالية نهائيّاً. أقلقني هذا. إلى أين؟ سألتُ. إلى بوبِْلا، قالت ابنتي. كان بودي أن أسألها ماذا كانت تفكّر أن تفعل بي، لكن بينما كنتُ أُفكِّرُ بِبْوبِْلا نسيت ذلك. ذهبت ابنتي بعدها وبقيتُ وحدي مع لاورا داميان، مع لاورا ومع مجانين لا فورتالِثا، وقال لي صوتها وشفتاها الخفيّتان ألاّ أقلق، وإنّه إذا كانت زوجتي ستذهب إلى بوبِْلا ستبقى هي إلى جانبي، وإنه ما من أحد سيطردني

من مشفى المجانين وإنّها، إذا ما طردوني ذات يوم، ستأتي هي معي. آه، يا لاورا، تنهّدتُ. وبعدها سألتني لاورا، كما لو أنّها تظاهرت بعدم الفهم، كيف هو حال الشعر المكسيكي الشابّ، وعمّا إذا جاءتني ابنتي بأخبارٍ عن المسيرة الطويلة والدامية للشباب الغنائيين في العاصمة الفيدرالية. قلتُ لها، جيّد، الجميع تقريباً ينشرون، ومع الزلزال سيكون عندهم موضوع لسنين. لا تحدّثني عن الزلزال، قالت لاورا داميان، حدِّثني عن الشعر، ماذا حكت لكَ ابنتُك أيضاً. وعند ذلك شعرتُ بأنّني مُتعب، متعب بعمق فقلتُ كلُّ شيء يسير على ما يُرام، يا لاورا، كلُّ شيء يسير على ما يرام. لا تكذب عليَّ، يا كيم، قالت لاورا. أنا لا أكذبُ عليكِ، قلت، وأغمضتُ عينيَّ.

عندما فتحتهما كانت دائرة المجانين الذين يهيمون في أفنية لافورتالِثا قد ضاقت حولي. لو كان آخر غيري لراح يصرخُ مذعوراً، لراح يُصلّي عاوياً، لراح يتعرّى ويركض مثل لاعبِ كرة قدم أمريكية مجنون، ولكان ذاب أمام فيض العيون التي كانت تدور مثل كواكب خارجة عن مداراتها. لكن أنا لا. كان المجانين يدورون حولي وبقيت أنا ساكناً مثل مُفكِّر رودان ونظرتُ إليهم ثمَّ نظرتُ إلى الأرض ورأيت نملاً أحمرَ وأسودَ مشتبِكاً في معركة، ولم أقل أو أفعل شيئاً. كانت السماء شديدة الزرقة. الأرض بنية فاتحة، فيها حصى صغيرة وطين. كانت الغيوم بيضاء وتجري باتجاه الغرب. ثمّ نظرتُ إلى المجانين الذين كانوا يهيمون مثل سهامِ قَدَرٍ أكثر جنوناً فعدتُ لأغمض عينيَّ.

خوتشيتل غارثيّا، شارع مونتِس، قرب نصب الثورة، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٨٦.

الغريب كان حين أردتُ أن أنشر. كتبتُ خلال زمن طويل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وصحّحتُ وعدتُ وكتبتُ ورميتُ قصائد كثيرة في القمامة، لكن جاء يومٌ حاولتُ فيه أن أنشرَ وبدأتُ أُرسِلُ قصائدي إلى مجلاتٍ وملحقاتٍ ثقافية. حذّرتني ماريّا. لن يردّوا عليكِ، بل حتى لن يقرأوا نصوصَكِ، عليكِ أن تذهبي شخصيّاً وتطلبي منهم جواباً وجهاً لوجه. هكذا فعلتُ. لم يستقبلوني في بعض الأماكن، لكنّهم استقبلوني فعلاً في أخرى، واستطعتُ أن أتكلّم مع أمناء التحرير أو مع مسؤول القسم الأدبي. سألوني عن أشياء من حياتي، ماذا كنتُ أقرأ، ماذا نشرتُ حتى تاريخه، في أيّ ورشات كنتُ، ما الدراسات الجامعية التي حقّقتها. كنتُ بريئة: حدّثتهم عن تعاملي مع الواقعيين الأحشائيين. غالبية الناس الذين تحدّثتُ معهم لم يكن عندهم أدنى فكرة عمّن هم الواقعيون الأحشائيون، لكنّ ذكرَ المجموعة أثارَ اهتمامهم. الواقعيون الأحشائيون؟ وهؤلاء، من كانوا؟ وعندها كنتُ أوضحُ لهم إلى هذا الحدّ أو ذلك قصّةَ الواقعية الأحشائيّة، وكانوا يبتسمون، بعضهم، كان يسجلُ شيئاً، اسماً، يطلبُ مزيداً من التوضيحات، يشكرني بعدها ويقول لي إنّهم سيهتفون لي لاحقاً ويعطونني جواباً. آخرون، وهم الأقلية، كانوا يتذكّرون عوليس ليما وأرتورو بِلانو، بشكل مُشوّش، لم يكونوا يعرفون مثلاً أنّ عوليس حيٌّ وأنّ بِلانو ما عاد يعيش في العاصمة الفيدرالية، لكنّهم عرفوهما، كانوا يتذكّرون مداخلاتهما في الأمسياتِ العامة، حيث اعتاد عوليس وأرتورو أن يتعرّضا للشعراء، وكانوا يتذكّرون آراءهما المضادة لكلّ شيء، يتذكّرون علاقتهما بإفراين هورِتا، كانوا ينظرون إليّ كما لو أنّني من خارج الكوكب، ويقولون إذن هكذا كنتِ واقعية أحشائيّة؟ بعدها يقولون لي إنّهم آسفون، لكنهم لا يستطيعون أن ينشروا أيّ قصيدةٍ من قصائدي. بحسب ماريّا، التي كنتُ ألجأ إليها في كلّ مرّةٍ وأنا أكثر خيبة، كان هذا هو الشيء العادي، فالأدب

المكسيكي، وربّما كلّ آداب أمريكا اللاتينية كانت هكذا طائفة جامدة حيث كان يصعب الحصول على الغفران. لكن أنا لا أريدهم أن يغفروا لي شيئاً، كنتُ أقولُ لها. أعرف، كانت تقولُ هي، لكن إذا كنت تريدين أن ينشروا لك، فعليك ألا تذكري الواقعيين الأحشائيين أبداً.

على كلّ الأحوال لم أستِسْلِم. كنتُ قد سئمت العمل في خيغانتِ وكنتُ أعتقدُ أنَّ شِعري يستحق، إن لم يكن قليلاً من الاحترام، فقليلاً من الاهتمام. اكتشفتُ مع مرور الأيّام مجلاتٍ أخرى، ليست تلك التي كانت أحبّ أن أنشر فيها، بل أخرى، مجلات، تظهر حتماً في مدينة من سبعة عشر مليون نسمة. كان مدراؤها أو رؤساء تحريرها رجالاً أو نساءً مريعين، كائناتٍ إذا ما بقيتَ تنظر إليها برهة طويلة تنتبه إلى أنّها خرجت من بالوعات الصرف، خليطٍ من موظّفين مَنفيّين وقتلة تائبين. ومع ذلك فهؤلاء لم يسمعوا قط بالواقعية الأحشائية ولا يهمّهم إطلاقاً أن أحكي لهم القصّة. كان تصوّرهم للأدب يموت (وربّما يولد) مع باسكونثِلوس، وإن كان من الممكن التكهّن بالإعجاب الذي يشعرون به تجاه ماريانو أثوِلا، يانيِث ومارتين لويس غوثمان، المؤلفين الذين من المحتمل أنّهم كانوا يعرفونهم من خلال آخرين. واحدة من تلك المجلات كانت تسمى *تامال*، ومديرها كان شخصاً يُدعى فِرناندو لوبِّث تابّيا. هناك في القسم الثقافي، وهو صفحتان، نشرتُ أولى قصائدي ولوبِّث تابّيا سلّمني شخصيّاً الشيك الذي جعلني مَدينةً له. في تلك الليلة وبعد أن قبضته، احتفلنا ماريّا وفرانز وأنا به بالذهاب إلى السينما ثمّ بالأكل في الخارج في مطعم في المركز. كنتُ متعبة من المأكولات العاديّة وأردتُ أن أترفّه. منذ ذلك الوقت ما عدت أكتبُ قصائد، وبدأتُ أكتب وقائعَ، وقائعَ عن مدينة مكسيكو، مقالاتٍ عن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحدائق، التي صار من يعرفون بوجودها قليلين، أخباراً قصيرة عن بيوت المرحلة الاستعمارية، تحقيقات عن بعض خطوط المترو وبدأتُ أنشر كلَّ الذي كنتُ أكتبه. كان فِرناندو لوبِّث تابّيا يؤمّن لي فسحةً في أيّ قسم من المجلة، وصرت أحمل فرانز أيّامَ السبت إلى تحرير المجلة بدل أن آخذه إلى تشابولتِبِّك، وبينما كان يلعب بإحدى الآلات الكاتبة كنتُ أساعدُ العمال الثابتين القليلين في *التامال* على تحضير العدد القادم، ففي ذلك الوقت كان هناك مشاكل، كان إصدار المجلة في موعدها يُكلّف كثيراً.

تعلّمتُ التنضيدَ والتنقيحَ، بل وكنتُ أحياناً من تختارُ الصور. ثمّ إنّ الجميع كانوا يُحبون فرانز. طبعاً لم يكن باستطاعتي بما أكسبُهُ من المجلّة أن أتخلى عن العمل في خيغانتِ، ثمّ إنّ هذا كان جميلاً بالنسبة إليّ، إذ بينما كنتُ أعملُ في السوبرماركت، خاصّة حين يكون العمل ثقيلاً، أيّامَ الجمعة مساء مثلاً، أو الاثنين صباحاً، ويصير لا نهاية له، كنتُ أنعزل وأبدأ أفكّر بمقالي القادم، بالواقعة التي فكّرت بها عن الباعة الجوّالين في كويواكان، مثلاً، أو نافثي النار في لا بيّا، أو أيّ شيء وكان الوقت يمرّ سريعاً. اقترح عليّ فِرناندو لوبِّثْ تابّيا يوماً أن أكتب عن وجوهٍ سياسيين من الدرجة الثانية أو الثالثة، أصدقاء له، أفترضُ، أو أصدقاء أصدقائه، لكنّني رفضتُ. لا أستطيعُ أن أكتب إلاّ عن أشياء أشعر أنني منغمسة فيها، قلتُ له، وهو أجابني: ماذا في أشياء حي العاشر من أيّار، كي تنغمسي فيها؟ وأنا لم أعرف بماذا أجيبه، لكنّني بقيتُ ثابتة على غايتي الأولى. وذات ليلة دعاني فِرناندو لوبِّث تابّيا للعشاء. طلبت من ماريّا أن تُلقي نظرةً على فرانز وخرجنا إلى مطعم في حيّ روما الجنوبي. الحقيقة أنّني توقّعت شيئاً أفضلَ، أكثر تطوّراً، لكنّني سررتُ خلال العشاء كثيراً، على الرغم من أنّني لم آكل تقريباً. في تلك الليلة مارستُ

الحبّ مع مدير *تامال*. كان قد مضى عليّ وقت طويل لم أنم فيه مع أيّ رجل والتجربة جاءت بالنتيجة ممتعة جدّاً. عدنا ومارسناه بعد أسبوع، ثم في الأسبوع الذي تلاه. أحياناً كان منهكاً قضاءُ الليل دون نومٍ والذهابُ بعدها إلى العمل صباحاً، باكراً جدّاً، وقضاء ساعاتٍ في وضعِ لاصقات المنتجات كمن يعمل في نومه. لكن كانت بي رغبة بالعيش وكنتُ أعرف في أعمق أعماقي أنّ عليَّ أن أفعل ذلك.

وذات ليلة ظهر فِرناندو لوبّث تابّيا في شارع مونتِس. قال إنّه كان يريد أن يعرف المكان الذي أعيش فيه. قدّمته لماريّا، التي أظهرت في البداية برودة كافية، كما لو أنّها أميرة وفِرناندو المسكين فلاح أمّي. من حسن الحظّ، أنّه لم ينتبه للتلميحات غير المباشرة التي كانت تقذفه بها. بعامّة تصرّف بطريقة ساحرة. وهذا أسرّني. بعد برهة صعدت ماريّا إلى بيتها وبقيتُ لوحدي مع فرانز ولوبّث. عندها قال لي هو إنّه جاء لأنّه كان يرغب برؤيتي، ثم قال إنّه رآني وإنّه يريد أن يستمر برؤيتي. يا للحماقة، لكن أَسَرَّني أنه قال لي ذلك. ثمّ صعدتُ لأبحث عن ماريّا وذهبنا أربعتُنا إلى مطعم لنتعشى. ضحكنا كثيراً في تلك الليلة. بعد أسبوع حملتُ إلى *تومال* بعضَ قصائدِ ماريّا ونشروها لها. إذا كانت صديقتُك تكتب فقولي لها إنّ صفحات مجلّتنا تحت تصرّفها. المشكلة هي أنّ ماريّا، كما لم أتأخّر في أن أكتشف، لم تكن بالكاد تعرف كتابة النثر، على الرغم من دراساتها الجامعية وكلّ ذلك، أقول، كتابة نثرٍ دون تطلعات شعرية، حسنِ استخدام أدوات الترقيم، وصحيح نحوياً. وهكذا بقيت بضعة أيّام تُحاول أن تكتب مقالاً عن الرقص، لكن على الرغم من كلّ الجهد الذي بذلته وعلى الرغم من كلّ مساعدتي لها، كانت غير قادرة على ذلك. في النهاية كانت النتيجة قصيدةً رائعة سمّتها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«الرقص في المكسيك» ثمّ وبعد أن أعطتني إياها كي أقرأها أرشفتها إلى جانب قصائدها الأخرى ونسيتها. كانت ماريّا قويّة كشاعرة، أفضل منّي بالمُطلق، هذا كمثل، لكنّها لا تعرف كيف تكتب نثراً. كان أمراً محزناً، لكنّ إمكانية مشاركتها بطريقة متواصلة في *تامال* انتهت هناك بالذات، على الرغم من أنّني لا أظنّ أنّ هذا يهمّها كثيراً، كما لو أنّ المجلة كانت تسبّب لها القرف، كما لو أنّ المجلة ليست من مستواها، أخيراً هكذا هي ماريّا وهكذا أحبُّها.

استمرّت علاقتي بِفِرناندو لوبِّث تابّيا وقتاً أكثر قليلاً. كان هو متزوّجاً، هذا ما شككت به منذ البداية، له ولدان، الكبير في العشرين من عمره، ولم يكن مستعدّاً للانفصال عن زوجته (ولا أنا كنتُ سأسمح له بذلك). رافقتُهُ في عددٍ من المناسبات إلى حفلات عشاء عمل. كان يُقدّمني كأكثر المساهمين فعالية. وأنا حاولتُ أن أكون كذلك حقيقةً، وكان هناك أسابيع لم أكد أحافظ فيها على متوسط نوم من ثلاث ساعات يومية نتيجة العمل في خيغانتِ من جهة وفي المجلةً من جهة أخرى. لكن لم يكن يهمّني لأنّ الأمور كانت تسير جيداً، تماماً كما كنتُ أريدها، وعلى الرغم من أنّني لم أبغِ أن أعود وأنشر قصائد لي في *تامال*، إلا إنّ ما فعلته هو أنّني استوليتُ على الصفحاتِ الأدبية ورحتُ أنشر قصائد لخاثينتو وأصدقاء آخرين لم يكن عندهم مكان يقدمون فيه إبداعهم. وتعلّمتُ كثيراً. تعلّمتُ كلَّ الذي يمكن أن يتعلّمه المرءُ في تحرير مجلة في العاصمة الفيدرالية. تعلّمتُ الإخراجَ، وعقدَ الصفقات من المعلنين، التعاملَ مع عمّال الطباعة، التحدثَ مع ناس يبدون من حيث المبدأ مهمّين. طبعاً لا أحد كان يعرف أنّني أعمل في محل خيغانتِ، الجميع كانوا يعتقدون أنّني أعيشُ مما كان يدفعهُ لي فِرناندو لوبّث تابّيا، أو أنّني جامعية، أنا التي لم أدرس في جامعة قط، بل ولم أُنهِ ولا حتى التحضيري، وكان لهذا

جانبه الجميل، كان كمن يعيش في حكاية سندريلا، وعلى الرغم من أنّه كان عليّ أن أعود إلى خيغانت وأتحوّل إلى عاملة أو أمينة صندوق، فهذا لم يكن يهمّني، وكنتُ أنتزع العزم من حيث لا توجد كي أحسن العملين، العمل في *تامال*، لأنّني كنتُ أحبّه وأتعلَّمُ منه، والعمل في خيغانتِ، لأنّه كان عليّ أن أُعيل فرانز، أن أشتري له الثيابَ والأدوات المدرسية، أن أدفعَ أجرة غرفتنا في شارع مونتِس، لأنّ أبي المسكين كان يمرّ بمرحلة سيّئة وما عادَ باستطاعته أن يعطيني كي أدفعَ الإيجار، ولأنّ خاثينتو لم يكن عنده نقود ولا حتى لنفسه. بكلمةٍ واحدة كان عليّ أن أعملَ وأمضي بفرانز إلى الأمام وحدي. وهذا ما كنتُ أفعله، إضافة إلى أنّني كنتُ أكتبُ وأتعلّم.

وذات يوم قال لي فِرناندو لوبِّث تابّيا إنّه يريد أن يتكلّم معي. حين ذهبت لمقابلته قال لي إنّه يريدُني أن أذهب لأعيش معه. ظننته يمزحُ، ففِرناندو عنده هذه الهبّات أحياناً، به رغبة لأن يعيشَ مع الجميع، وفكّرت ربّما سنذهبُ في تلك الليلة إلى فندق ونمارسُ الحبّ وينسى موضوع أن يُجهِّز لي بيتاً. لكنّ الاقتراح كان هذه المرّة جدّياً. طبعاً لم يكن في نيّته أن يترك زوجته، على الأقل بغتة، بل بالتدريج، بتتالي الأمر الواقع، هذه هي كلماتُهُ. بقينا أيّاماً نتحدثّ عن هذه الإمكانية. أو بالأحرى: فِرناندو هو من كان يُكلّمني، يعرض أمامي الإيجابياتِ والسلبيات، وكنتُ أُصغي إليه وأفكّر. حين قلت له لا، بدا أنّه أصيبُ بخيبة أملٍ كبيرة، وبقي يومين متضايقاً منّي. في ذلك الوقت كنتُ قد بدأت آخذ نصوصي إلى مجلات أخرى. في غالبيتها رفضوها، لكن هناك مجلتين قبلتاها. علاقتي بِفرْناندو ساءت، لا أدري لماذا. صار ينتقد كلَّ ما أفعلُهُ، بل وصار يتبدّى حين ننام معاً عنيفاً. أحياناً كانت تأخذه الرقّة، فيأتيني بهدايا، يبكي لأيّ سببٍ وينهي لياليه منطفئاً من السكر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رؤيتي لاسمي منشوراً في مجلات أخرى كان نجاحاً. مررتُ بإحساس بالأمان وبدأت منذ تلك اللحظة أبتعد عن فِرناندو لوبِّث تابّيا وعن مجلة *تامال*. في البداية لم يكن سهلاً، لكنَّني كنتُ قد اعتدت على الصعوبات ولم أخفْ في أيّ لحظة. عثرتُ بعدها على عملٍ مُنقِّحة في صحيفة وتركت خيغانتِ. احتفلنا بتركي لعملي بعشاء حضره خاثينتو وماريّا وفرانز وأنا. في تلك الليلة وبينما نحن نأكلُ، جاء فِرناندو لوبِّث تابّيا ليراني، لكنّني لم أبغ أن أفتح له. بقي يصيح من الشارع برهةً ثمّ ذهب. نظر إليه فرانز وخاثينتو من النافذة وضحكا. كم يتشابهان. على العكس منا أنا وماريا، لم نبغِ ولا حتى أن نُطلّ وتظاهرنا (وربّما لم نتظاهر أكثر من اللازم) بأنّنا أصبنا بنوبةٍ هستيرية. الحقيقة أنّ ما فعلناه هو أنّنا نظرنا كلّ إلى وجه الأخرى وقلنا كلّ الذي كان علينا أن نقوله من دون أيّ كلام.

أتذكّر أنّ الأضواء كانت مطفأة وصيحات فِرناندو تصلُ من الشارع مُخَفَّتة، كانت صيحات قنوط، ولم نسمع بعدها شيئاً، ها هو يذهب، قال فرانز، لقد أخذوه، وأتذكّرُ أنّنا تبادلنا أنا وماريّا النظرات دون تمثيلٍ، بل بجدّية، تعبتَيْن، لكنّنا مستعدتان للاستمرار وأنّني بعد ثوان نهضتُ وأشعلتُ الضوء.

أماديو سالباتييرّا، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر التفتيش، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦.

عندها قال لي أحد الفَتَيَيْن: أين قصائد ثِساريا تيناخِرو؟ وأنا خرجتُ من مستنقعِ موتِ جنرالي دييغو كارباخال، أو من حساءِ ذكراه الفائر، الحساء الذي لا يؤكل ولا يُفهَمُ، المسلّط على مصائرنا مثل سيف ديموقليس أو مثل دعايةٍ للتِكيلا، وقلت لهما: في الصفحة الأخيرة أيّها الفَتَيان، ونظرتُ إلى وجهيهما الطريين والمشدودين

وراقبتُ أيديهما تجوبُ تلك الأوراق القديمة ثمّ عدتُ لأراقب وجهيهما وهما نظرا إليّ أيضاً وقالا، ألست تسخر منّا، يا أماديو؟ هل أنتَ بخير؟ هل تريدنا أن نُحَضِّر لك قهوة، يا أماديو؟ وأنا فكّرتُ، آه، ويحي، لا بدّ أنّني أكثرُ سكراً مما كنتُ أعتقد، ونهضتُ بخطواتٍ مُترنِّحة، اقتربتُ من مرآة الصالون ونظرتُ إلى وجهي. كنتُ ما أزال أنا نفسي. ليس أنا، الذي سواء أكان سيئاً أو حسناً، الذي اعتدته، لكن أنا نفسي. وعندها قلتُ لهما، أيّها الفَتَيان، ما أنا بحاجة إليه ليس قهوة بل أكثر قليلاً من التِكيلا، وحين جاءاني بكأسي وملآه وشربتُه استطعتُ أن أنفصل عن وغدِ زئبقِ المرآة، الذي كنتُ أستندُ إليه، أريدُ أن أقول: استطعت أن أفصل يديّ عن سطحِ تلك المرآة القديمة (بالمناسبة ليس قبل أن أرى كيف بقيت آثار أصابعي معلّمةً على سطحها، مثل عشرة وجوهٍ منمنمةٍ تقول شيئاً لي بصوتٍ واحد منعتني سرعتها المدهشة عن فهم أيّ شيء). وحين عدتُ إلى كرسيَّ عدتُ وسألتُهما، ما رأيهما الآن وأمامهما قصيدة حقيقيّة لِثساريا تناخِرو ذاتها، دون أيٍّ لسان وسيط بينهم، وحدها القصيدة، وهما نظرا إليّ ثم غاصا مرّةً أخرى، وهما يمسكان معاً بالمجلة، في مستنقعِ العشرينات، بتلك العين المغمضةِ والمليئةِ بالغبار وقالا، عجباً، يا أماديو، هل هذا هو الشيء الوحيدُ الذي عندك لها؟ هل هذه هي قصيدتها الوحيدة المنشورة؟ وأنا قلتُ لهما، أو ربّما فقط همستُ: بلى، أيّها الفَتَيان، لا يوجد أكثر. وأضفتُ، كما لو كي أقيسَ ما كانا يشعران به حقيقة: شيء مخيّب، أليس صحيحاً؟ لكنّني أعتقدُ أنّهما حتى لم يسمعاني، كانا متلاصقي الرأسين وينظران إلى القصيدة، بدأ أحدهما، التشيليُّ، مُتفكِّراً، بينما رفيقه، المكسيكيُّ يبتسم، كان من المستحيل تخييبُ آمال هذين الفتَيَيْن، فكّرتُ، ثم تخليت عن النظر إليهما وعن الكلام ومططت عظامي في الكرسيّ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

طْراقْ، طراقْ، وحين سمعا الصوت رفع أحدُهما نظرَهُ ونظر إليَّ كما لو كي يتأكّد من أنّني لم أتفكّك، ثم عاد إلى ثِساريا وأنا تثاءبتُ أو تنهّدتُ ومرّت للحظةٍ أمام عينيّ، لكن بعيدة جدّاً، صورُ ثِساريا وأصدقائها، وهم يسيرون في جادّة من القسم الشمالي من العاصمة الفيدرالية، ورأيت نفسي بين أصدقائها، يا للغرابة، ثمّ عدّتُ لأتثاءب، وعندها كسر أحدُ الفَتَيَيْن الصمتَ وقال بصوتٍ جليٍّ وحسنِ الإيقاعِ إنّ القصيدة مهمّة وأيّده الآخر على الفور وقال إنّها لم تكن مهمّة وحسب بل إنّه رآها حين كان صبيّاً. كيف؟ سألتُ أنا. في الحلم، قال الفتى، لم أكنْ قد بلغتُ السابعة من عمري بعدُ وكنتُ محموماً. قصيدة ثِساريا تيناخِرو؟ رأيتَها حين كنتَ في السابعة من عمرّك؟ وفهمتَها؟ وكنتَ تعرفُ ما كانت تعني؟ لأنّه لا بد أن تعني شيئاً، أليس كذلك؟ ونظر إليّ الفَتَيَان وقالا لا، يا أماديو، القصيدة ليس بالضرورة أن تعني شيئاً آخر غير أنّها كانت قصيدة، وإن لم تكن هذه ولا حتى هذا. وهكذا قلتُ لهما اتركاني أراها ومددتُ يدي كمن يطلبُ صدقة، وهما وضعا عددَ *كابوركا* الوحيد الباقي في العالم بين أصابعي المنمّلة. ورأيتُ القصيدةَ التي كنتُ قد رأيتها مرّاتٍ كثيرة:

صهيون

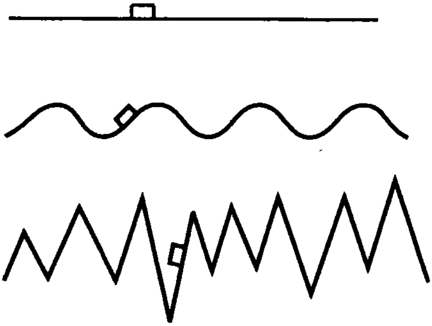

وسألت الفتيين، وقلتُ لهما، أيها الفتيان، ما الذي خلصتما إليه من هذه القصيدة؟ قلتُ لهما، أيّها الفتيان، لي أكثر من أربعين سنة وأنا أنظرُ إليها ولم أفهم شيئاً من شيء. هذه هي الحقيقة. لماذا سأكذبُ عليكما. وهما قالا: هي مزحةٌ، يا أماديو، القصيدة مزحةٌ تُخفي شيئاً في غاية الجدّية. لكن ماذا تعني؟ سألتُ. دعنا نُفكّرُ قليلاً، يا أماديو، قالا. طبعاً أدَعُكما، هذا أقلُّ ما يجب، قلتُ. دعنا نُفكّر قليلاً ونرى ما إذا كنّا نُخفّف عنكَ ثقلَ المجهولِ، يا أماديو. طبعاً أحبّ أن تُخفّفوا عنّي، قلتُ. نهض بعدها واحدٌ منهما وذهبَ إلى الحمّام ونهض الآخرُ وذهب إلى المطبخ وأنا بدأت أغفو، بينما هما يطوفان مثل بطرس في جحيم بيتي، أعني جحيمِ الذكرياتِ التي صار إليها بيتي، وأنا تركتُهما يفعلان ذلك ورحتُ أغفو، لأنّ الوقتَ كان قد تأخّر جدّاً وما شربناه كان كثيراً، وإن كنتُ أسمعهما من حين لآخر يمشيان، كما لو أنّهما يمارسان تمارين رياضية كي يذهبا بالتنميل عن عظامهما، وكنتُ أسمعهما من حين لآخر يتكلّمان، يسأل أحدهما عن أشياء لا أدري ما هي، فيرد عليه الآخر، بعضها في غاية الجدّية، أعتقد، فبين السؤال والجواب كانت تسود فترة صمت كبيرة، وأشياء أخرى ليست إلى هذا الحد من الجدّية إذ كانا يضحكان، آه، يا للفَتَيَيْن، كنتُ أُفكّر، يا لها من سهرة في غاية الأهميّة، كان قد مرّ زمن لم أشرب ولم أتحدّث فيه كما تحدّثت، ولم أتذكّر كما تذكّرتُ ولم أُسَرَّ كما سُرِرْتُ. حين عدتُ وفتحت عينيَّ كان الفتيان قد أشعلا النور وكان أمامي فنجان قهوة يتصاعد بخارها. اشربها، قالا. حاضِر، قلتُ أنا. أتذكّرُ أنّني بينما كنتُ أتناولُ القهوة عادَ الفتيان ليجلسا أمامي، وكانا يُعلّقان على بقيةِ النصوص المنشورة في *كابوركا*. حسن، قلت لهما، ما اللغز؟ عندها نظر إليّ الفتيان وقالا: لا يوجد لغز، يا أماديو.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٨

خواكين فُونْتْ، شارع كوليما، حي كوندِسا، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، آب ١٩٨٧.

الحريّة مثل العدد الأوّلي. عندما عدتُ إلى البيت كان كلُّ شيء قد تغيّر. زوجتي ما عادت تعيش هناك، وفي غرفتي تنامُ ابنتي أنخِليكا، مع رفيقها، المخرج المسرحيّ الأكبر سنّاً مني بقليل، ابني الأصغر على العكس كان قد سطا على بيت الحديقة الصغير، الذي يتقاسمه مع فتاة ذات ملامح هندية. سواء هو أو أنخِليكا كانا يعملان طوال النهار، وإن لم يكونا يكسبان كثيراً. ابنتي ماريّا كانت تعيش في فندق قريب من نصب الثورة ولا تكاد ترى أخويها. زوجتي كما يبدو عادت وتزوّجت. المخرج المسرحي كان بالنتيجة شخصاً معتبراً كفاية، كان في السابق رفيقَ مغامرات بييخا سِغورا، أو تلميذها، لا أستطيع أن أؤكّد بدقة، ولم يكن ذا مالٍ ولا ذا حظّ كثير، لكنّه كان يأمل أن يُخْرِجَ ذاتَ يومٍ مسرحيةً تنقله إلى الشهرة والثروة. كان يُحب في الليل، بينما نحن نتعشى، أن يتكلّم عن هذا. رفيقة ابني كانت بعكسِهِ، لا تكاد تنطق بكلمة. استظرفتُها.

في الليلة الأولى نمتُ في الصالون. وضعتُ بطانيةً على الأريكة، استلقيتُ وأغمضت عينيّ. الضجيج، ذات الضجيج الذي كان دائماً. لكنّني أخطأتُ، هناك شيء كان يجعله مختلفاً، على

الرغم من أنّني لم أعرف في البداية أن أستدلّ عليه. لكهما كانا مختلفين ولا يتركانني أنام، هكذا كنتُ أمضي الليالي جالساً على الأريكة والتلفزيون مشتعل وعيناي شبه مغمضتين. بعدها انتقلتُ إلى غرفة ابني القديمة وهذا ما رفع من معنوياتي. أعتقدُ لأنّ الغرفة كانت ما تزال تحتفظُ ببعض جو المراهقة الرغيدة والسعيدة. لا أعرف. على أيّ حال، بعد ثلاثة أيّام اكتسبت الغرفةُ رائحتي إلى الأبد، أي رائحة عجوزٍ تفوحُ منه رائحةُ الجنون، وعاد كلُّ شيء ليصير كما كان. كنتُ أكتئب ولا أعرف ماذا أفعل. كنتُ أمكث ساكناً وأترك الساعاتِ تمرّ في ذلك البيت الفارغ إلى أن يعودَ أحدُ ابنيَّ من العمل ونتبادل بعض الكلمات. كانوا يهتفون أحياناً فأردُّ. آلو؟ من يتكلّم؟ لا أحد كان يعرفني ولا أنا كنتُ أعرف أحداً.

بعد أسبوع من عودتي بدأتُ أقوم ببعض المشاوير في الحيّ. الأولى كانت قصيرة، دورة حول الكتلة العمرانية وينتهي الأمر. ومع ذلك وشيئاً فشيئاً بدأتُ أتشجّعُ وراحت مشاويري، المتردّدة في البداية، تحملني أبعد. كان الحيُّ قد تغيّر. هجموا عليَّ مرّتين، في الأولى كانوا بعض الأطفال المُسَلّحين بسكاكين مطبخ. الثانية كانوا أشخاصاً بالغين انهالوا عليّ بالضرب عندما لم يجدوا في جيوبي نقوداً. لكنّني ما عدتُ أشعرُ بالألم ولم يهمّني. هذا هو أحد الأشياء التي تعلّمتها من لا فورتالِثا. في الليل وضعت لولا، رفيقة ابني، مرثيولات على الجروح ونصحتني بألاّ أذهب إلى حيث عليَّ ألا أذهب. أنا قلتُ لها لا يهمّني أن يضربوني من حين لآخر. أتحبُّ ذلك؟ سألت هي. لا أحب، قلتُ، إذا كانوا سيضربونني كلّ يوم لا أحب.

وذات ليلة قال المخرجُ المسرحيُّ إنّهم في المعهد الوطني للفنون الجميلة سيعطونه منحة. احتفلنا بذلك. خرج ابني ورفيقته ليشتريا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

زجاجةَ تِكيلا وأعدَّت ابنتي والمخرجُ طعاماً احتفاء بذلك، على الرغم من أنّه ما من واحد منهما كان يعرف الطهي. لا أتذكّر ماذا طبخا. طعام. أنا أكلتُ كلّ شيء. لكنّه لم يكن طيّباً. من كانت تتقن هذه الأشياء هي زوجتي، لكنّها الآن تعيش في مكانٍ آخر وليست مستعدة لمثل هذا النوع من العشاءِ المرتجل. أنا جلستُ إلى الطاولة وبدأتُ أرتجف. أتذكّر أنّ ابنتي نظرت إليّ وسألتني ما إذا كنتُ أشعر بنفسي مريضاً. أنا فقط أشعرُ بالبرد، قلتُ لها، وكانت حقيقة، فمع مرور السنين تحوّلت إلى شخصٍ مقرور. إنّ كأساً من التكِيلا سيُساعدني، لكنّني لا أستطيع أن أشرب تِكيلا ولا أيّ نوع من الكحول، وهكذا ارتجفتُ من البرد وأكلتُ وسمعتُ ما كانوا يقولونه. كانوا يتكلمون عن مستقبل أفضل. كانوا يتكلّمون عن ترّهاتٍ، لكنّهم في الحقيقة كانوا يتكلّمون عن مستقبل أفضل، ومع أنّ هذا المستقبل لم يكن يتضمّن ابني ولا رفيقته ولا أنا، إلاّ أنّنا كنّا نبتسم ونتكلّم ونضعُ خططاً.

بعد أسبوع أُغلق القِسْمُ الذي كان سيُعطيه المنحةَ بسبب تقليص الموازنة وبقي المخرج بلا شيء.

أدركتُ أنّ ساعةَ أن أبدأ بالتحرّك قد حانت. بدأتُ أتحرّك. هتفتُ إلى بعضِ أصدقائي القدامى. في البداية لم يكن هناك من يتذكّرني. أين كنتَ؟ كانوا يسألونني. من أين خرجت؟ ماذا عن حياتك؟ وكنت أقول لهم إنّني وصلتُ توّاً من الخارج، قمتُ بجولةٍ في المتوسّط، عشتُ في إيطاليا وفي اسطنبول. كنتُ أتأمّلُ أبنيةً في القاهرة، العمارة الواعدة. واعدة؟ بلى، بالجحيم. مثل أبنية تْلاتِلولْكو، لكن ليس لها كلّ هذه المساحات الخضراء، مثل مدينة ساتِليتِ، لكن من دون مياه للشرب. مثل نِتزاهوالْكويوتل. يجب أن يقتلونا نحن المعماريين جميعاً. كنتُ في تونس وفي مراكش. في

مرسيليا. في البندقيّة. في فلورنسا. في نابولي. سعيد، أنتَ، يا كيم، لكن لماذا عدتَ؟ المكسيك ماضية إلى الجحيم لا محالة. أعتقدُ أنّك على اطلاع. بلى على اطلاع، كنتُ أقولُ لهم، لم تندر الأخبار، كان أولادي يُرسلون إليّ الصحف المكسيكية إلى الفنادق التي كنتُ أعيش فيها. لكنّ المكسيك وطني وكنتُ أشتاق إليه. ما من مكان الأمور فيه بمثل جودتها هنا. لا تسخر مني، يا كيم، أنت لا تقول هذا بجدّية. بجدّية تامّة. بجدّية تامّة؟ في بعضِ الصباحات، بينما أنا أتناولُ فطوري كنتُ أتأمّل البحرَ المتوسّطَ وتلك الزوارق الشرعية المغرم بها الأوروبيون، كنتُ أحياناً أنفجر بالبكاء وأنا أفكّر بمدينة مكسيكو، بفطورِ مدينة مكسيكو، وكنتُ أعرفُ أنّ علي آجلاً أو عاجلاً أن أعودَ، وكان أحدهم يقول: اسمع، لكن ألم تدخل أنتَ مشفى الأمراض النفسيّة؟ وأنا كنتُ أقول بلى، كان هذا منذُ سنوات كثيرة، تماماً عند خروجي من مشفى الأمراض النفسيّة غادرتُ إلى الخارج. إنّها وصفة طبية. وعادةً ما كان أصدقائي يضحكون من هذا المخرج أو من غيره، فأنا كنتُ أُزيّن القصّةَ دائماً بأماليحَ مختلفة ويقولون، أه، يا لك من كيم، وعندها كنتُ أستغلُ المناسبةَ وأسألهم عما إذا كانوا يعرفون غرفةً أستأجرها لي، عن عملٍ في مكتب عمارة ما، أو أيّ شيء كان، عملٍ مؤقّت كي أبدأ أعتاد على فكرة أنّ عليّ أن أبحثَ عن عملٍ ثابت، وكانوا هم قد اعتادوا على أن يجيبوني بأن مسألة العمل سيّئة جدّاً وأنّ مكاتب العمارة تُغلق الواحدُ بعد الآخر، وأنّ أندرِس دِل تورو فرَّ إلى ميامي ورِفوخيو أورتيث دِ مونتِسينو فتح ورشته في هيوستن، هكذا صار باستطاعتي أن أُكوّن فكرة، كانوا يقولون، وأنا كنتُ أكوّن فكرةً، وأكثرَ من فكرةٍ، لكنّني بقيتُ أتصل بهم وأخرجهم عن طورهم وأحكي لهم عن مغامراتي في الجزء السعيد من العالم.

من كثرة ما ألححتُ حصلتُ على عملِ رسّامِ هندسيٍّ في مكتبِ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مهندسٍ معماري لم أكن أعرفه. كان شابّا بدأ توّاً وحين عرف أنّني لم أكن رسّاماً بل مهندساً معمارياً ودّني. حين كنّا نُغلق المحلّ البائس ليلاً، كنّا نذهب إلى بار في أمبلياثيون بوبوكاتِبتْل، باتجاه شارع كابرِرا. كان اسم البار إل دِستينو[1] وكنّا نمكثُ هناك، نتكلّمُ عن الهندسةِ المعمارية والسياسةِ (كان الفتى تروتسكيّاً) والأسفارِ والنساء. كان يُدعى خوان أرِناس. له شريك كنت لا أراه تقريباً، شخص بدين في الأربعين من عمره كان أيضاً معمارياً، لكنّه يبدو أقرب إلى العميل السرّي، وقليلاً ما كان يظهرُ في المكتب. وهكذا كان المكتب مكوّناً أساساً منّي ومن خوان أرِناس، وبما أنّه لم يكن لدينا ما نعملهُ تقريباً ونحبُّ الكلام، كنّا نقضي قسماً لا بأس به من النهار بالكلام. وفي الليل كان يوصلني إلى بيتي وبينما نحن نعبر كابوس العاصمة الفيدرالية، الكابوس المنهك، كنتُ أُفكّرُ أحياناً أنَّ خوان أرِناس نسخةٌ سعيدةٌ عنّي.

دعوته يوماً للغداء. كان يومَ أحد. لم يكن في البيت أحد، فحضّرتُ له حساء وعجّةً فرنسية. أكلنا في المطبخ، كان الجوّ هناك لطيفاً، نُصغي إلى العصافير التي كانت تأتي لتأكل في الحديقة وأنظر إلى خوان أرِناس، الذي كان فتى بسيطاً ويأكل بشهيّة. هو كان يعيش لوحده. لم يكن من العاصمة الفيدرالية بل من ثيوداد مادِرو، وكان يشعرُ أحياناً بأنّه ضائع في مدينةٍ بذلك الحجم. بعدها جاءت ابنتي مع رفيقها ووجدنا أنفسنا نشاهدُ التلفزيون ونلعبُ بالورق. أعتقدُ أنّ ابنتي أَعجبت خوان أرِناس منذُ اللحظة الأولى ومنذ تلك اللحظة صارت تتكرّر زياراته. كنتُ أحياناً أبدأ أحلمُ وأرانا نعيش جميعاً في بيتي في شارع كوليما، ابنتيّ، ابني، المخرج المسرحيّ، لولا وخوان

---

(١) القدر.

أرِناس. زوجتي لا، لم أكن أراها تعيش معنا. لكنّ الأشياءَ لا تأتي أبداً كما يراها المرء ويعيشها في الأحلام وجاء يومٌ أغلقَ فيه خوان أرِناس وشريكُهُ المكتبَ وغادرا دون أن يقولا إلى أين.

اضطررت مرّة أخرى لأن أهتفَ إلى أصدقائي القدامى وأطلبَ معروفهم. كانت التجربة قد علّمتني أنّ البحث عن مكتبِ رسم هندسي أفضلُ من البحث عن مكتب هندسةٍ معمارية، وهكذا لم أتأخر في أنّني رأيتُ نفسي أعمل بقسوة. كان هذه المرّة مكتباً في كويواكان. دعاني رؤسائي ذات ليلة إلى حفلة. الخَيار كان أن أذهبَ مشياً حتى أقربِ موقفِ مترو وأعودَ إلى البيت حيث من المحتمل ألا أجدَ أحداً، وهكذا قبلتُ وذهبتُ. كانت الحفلةُ في بيت قريبٍ نسبيّا من بيتي. بدا البيتُ للحظات مألوفاً إليّ. فكّرتُ أنّني كنتُ هناك من قبل، لكنّني انتبهتُ بعدها إلى أنّ ذلك لم يحدث وأنّ ما يحدثُ هو أنّ كلّ البيوت في مرحلةٍ محدّدة تتشابهُ كما تتشابه قطرةُ ماء مع أخرى وعندها اطمأننتُ وذهبتُ مباشرة إلى المطبخ لأبحث عن شيء آكله، لأنّني لم أذق لقمة منذ الفطور. لا أعرف ماذا جرى لي، لكنّني شعرت فجأة بجوع شديد، وهو أمر ليس معتاداً كثيراً عندي. بكثيرٍ من الجوعِ وكثيرٍ من الرغبة بالبكاء وبكثير من الفرح.

عندها وصلت طائراً إلى المطبخ وفي المطبخ وجدتُ رجلين وامرأة، يتكلّمون بحماس عن ميتٍ. وأخذت شطيرةَ جامبو وأكلتُها ثمّ تناولتُ رشفتي كوكاكولا كي أمرّر الشطيرة في حنجرتي. كان الخبزُ كأنّه جاف. لكنّه كان لذيذاً وهكذا أخذتُ شطيرةً أخرى، شطيرةَ جبن، وأكلتُها، لكن هذه المرّة ليس بسرعة، بل بتؤدة، ماضغاً إياها بوعيٍ وأنا أبتسم تماماً كما اعتدتُ أن أبتسم قبل سنوات كثيرة. والثلاثيّ الذي كان يتكلّم، الرجلان والمرأة، نظروا إلي ورأوني أبتسمُ فابتسموا لي، وعندها اقتربتُ منهم أكثر قليلاً وسمعتُ ما كانوا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يقولون: كانوا يتكلّمون عن جثّةٍ وجنازة، يتكلّمون عن صديقٍ لي، مهندسٍ معماريّ مات، وعندها بدا لي أنّ من المناسب أن أقول لهم إنّني كنتُ أعرفه. كان هذا كلّ شيء. كانوا يتكلّمون عن ميتٍ كنتُ أعرفه، ثمّ راحوا يتكلّمون عن أشياء أخرى، أعتقد لأنّني لم أبقَ هناك بل خرجتُ إلى الحديقة، حديقة وردٍ وأشجارٍ تنّوب، واقتربتُ من السياج الحديدي ورحت أنظر إلى حركة المرور. عندها رأيت سيارتي الإيمبالا القديمة موديل ٧٤ تمرّ وقد استنفدتها السنون، وبُعج رفرافُها وأبوابها وتقشّرَ دهانها، بطيئة جدّاً، بدورة العجلة، كما لو أنّها تبحثُ عني في شوارع ليلِ العاصمة الفيدرالية وكان التأثر الذي أحدثته عندي من الشدّةِ بحيث أنّني رحتُ أرتجفُ ممسكاً بكلتا يديَّ بقضبان السياج كيلا أسقط، ولم أسقط، صحيح، لكن سقطت نظّارتي، انزلقتْ نظارتي عن أنفي نازلةً حتى الجنبة أو النبتة أو برعمِ الورد، لا أعرف، فقط سمعتُ الصوتَ وعرفت أنّها لم تنكسر، وعندها فكّرت أنّني إذا ما انحنيتُ لآخذها ستكون الإيمبالا عندما أنهض قد اختفت، لكنّني إذا لم أفعل لن أستطيع أن أرى من الذي كان يقود تلك السيارة الشبح، سيارتي التي ضاعت في آخر ساعات ١٩٧٥، في أوّل ساعات ١٩٧٦. وإذا لم أرَ من كان يقودها، ماذا سيفيدني أنّني رأيتها؟ وعندها خطر لي شيءٌ أكثر إدهاشاً. فكّرتُ: سقطت نظارتي. فكّرتُ: حتى لحظة مضت لم أكن أعرفُ أنّني أستخدم نظارة. فكّرتُ: الآن أُدرك التغيرات. وهذا، معرفة أنّني كنتُ في لحظتها أعرف أنّني أحتاجُ إلى النظارة كي أرى، جعلني أخافُ فانحنيتُ وعثرت على نظارتي (يا للاختلاف بين أن تكون موضوعة على عينيَّ وألا تكون!) وانتصبتُ والإيمبالا كانت ما تزال هناك، وأستنتج من ذلك أنّني تصرّفتُ بسرعة لا يملكها إلا بعض المجانين، ورأيت الإيمبالا وبنظارتي، تلك النظارة التي لم أكن حتى تلك اللحظة أعرف

أنّني أملكها، سوف أخترقُ الظلمة، وبحثتُ عن صورة السائق، بين الخائفِ والمُتَلَهّف، لكنّني افترضتُ أن وراءَ مقود سيارتي الإيمبالا الضائعة سوف أرى ثِساريا تيناخِرو، الشاعرة الضائعة تقودها، التي كانت تشقّ طريقها منذ الزمن المفقود كي تعيد إليَّ أحبّ سيارة إلي في حياتي كلّها، وأكثرها معنى وأقلّ سيّارة تمتعتُ بها. عملياً لم يكن أحد يقود الإيمبالا الشبح! هذا ما اعتقدته. لكنّني فكّرتُ بعدها أنّ السيارات لا تسير لوحدها، وأنّ من المحتمل أنّ من يقود تلك الإيمبالا المضعضعة ابنُ بلد لي مربوعُ القامة وعاثرُ الحظ ومنقبضُ النفس بشكل خطير، وعدتُ إلى الحفلة وعبء هائل على كاهلي.

ومع ذلك عندما قطعت نصفَ الطريق، خطرت لي فكرة فعدتُ، لكنّ الإمبالا لم تعد في الشارع رأيتها ولم أرها، هي الآن موجودة، هي الآن غير موجودة، صار الشارع أحجيةً من ظلمةٍ تنقصُها بضعُ قطعٍ، ومن الغريب أنّني كنت أنا نفسي إحدى القطع الناقصة. كانت الإمبالا قد ذهبت. وأنا، الذي بطريقةٍ ما لم أستطع أن أفهم، ذهبتُ أيضاً. عادت الإمبالا إلى عقلي. وأنا عدتُ إلى عقلي.

عندها عرفت، بتواضعٍ وارتباك وفي هبّةٍ مكسيكية مطلقة، أنّنا محكومون بالقدر، وأنّنا سوف نختنق جميعاً في تلك العاصفة، وعرفت أنّهم وحدَهم الأكثر دهاء، بالتأكيد لستُ منهم، سوف يبقون عائمين لزمنٍ أكثر قليلاً.

أندرِسْ راميرث، بار إل كورْنو دِ أورو[1]، شارع أبِنير، برشلونة، كانون الأوّل ١٩٨٨.

كانت حياتي محكومة بالفشل، يا بِلانو، هكذا كما تسمع. خرجتُ من تشيلي في يومٍ بعيدٍ من عام ١٩٧٥، ولمزيد من

---

(١) القرن الذهبيّ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المعلومات في الخامس من آذار، في الثامنة ليلاً مختبئاً في قعرِ سفينة الشحن *نابولي* أي كمُسافرٍ غيرِ شرعيّ ودون أن أعرفَ أين ستكونُ نهاية مطافي. لن أُضجرك بحوادثِ رحلتي المفجعة إلى هذا الحدّ أو ذاك، فقط سأقولُ لكَ إنّني كنتُ أصغرَ مما أنا الآن بثلاث عشرة سنة وإنّهم في حيّي في سانتياغو (لا ثيستِرنا، لمزيد من العلامات) كانوا يعرفونني باللقب الودّي ميكي ماوس، كذكرى لذلك الحيوان الصغير الذي كان يأخذ حقّهُ بيده، والذي طالما أسعدنا في كثيرٍ من مساءاتِ الطفولة. بكلمة واحدة، خادم كان مهيّأ، على الأقل جسدياً، كما يُقال عادة، كي يتحمّل كلَّ مشقّات رحلة من ذلك العيار. لنترك جانباً الجوعَ والخوفَ والدوخةَ، الأشكال الضبابية مرّةً والمريعة مرة أخرى، التي كان يتجلّى لي بها مصيري المقلقل. لم يخلُ الأمرُ من شخص مُحسِنٍ ينزل إلى قاع السفينة ويناولني قطعةَ خبز، زجاجةَ نبيذ، طبقَ معكرونة على الطريقة البولونيزية. من جهة أخرى كان لدي متسع من الوقت كي أفكّر على هواي، الأمر الذي كان في حياتي السابقة محظوراً عليّ تقريباً، ففي المدينة الحديثة، كما يعرف الجميع، القريدس الذي ينام يجرفُهُ التيار. وبهذه الطريقة استطعتُ أن أراجِع طفولتي، فعندما يكون المرء محبوساً في قاع سفينة، الأفضل له أن يتصرّف متبعاً نظاماً ما، حتى قناة بنما تقريباً ومن هناك وما بعدها، أي كل الوقت الذي استغرقه عبورُ الأطلسي (أي، أي، بعيد جدّاً عن وطني الحبيب، بل وعن قارّتي الأمريكية، التي لم أكن أعرفها، لكن سيّان فقد شعرتُ بها وقتذاك حميمةً)، رحتُ أُشرِّحُ شبابي ووصلت إلى النتيجة والغاية الراسخة بأنّ كلّ شيء يجب أن يتغيّر، وإنْ لم يخطر لي وقتها بأي طريقة سأفعلُ ذلك وفي أيّ اتجاه سوف أوجّهُ خطواتي. في أعماقي، اسمح لي أن أقول ذلك، كانت طريقة مثل أي طريقة أخرى لقتل الوقت ولعدم التنكيل بجسمي أو

إضعافه، جسمي الذي صار بذاته منهكاً بعد كلّ تلك الأيّام من تلك العتمة الرطبة والطنانة، التي لا أتمناها حتى لألدّ أعدائي. ومع ذلك، وصلنا ذات صباحٍ إلى ميناء لشبونة فغيّرتْ أفكاري هدفَها جوهريّاً. اندفاعي الأوّل، كما هو منطقيّ، أن أنزل في اليوم الأوّل، لكن وكما وضّح لي أحدُ البحّارة الإيطاليين الذين كانوا يطعمونني من حين لآخر، لم يكن فرنُ الحدود البرّية والبحرية البرتغالية لإنتاج السمبوسك. وهكذا اضطررتُ لأن أتحمّل واكتفيتُ خلال اليومين اللذين بَدَوَا لي أسبوعين بسماع الأصوات التي كانت تصلُ من عنابر السفينة، المفتوحة مثل فم سمكة قرش، مختبئاً داخل برميلٍ فارغ، وأنا مع كلِّ لحظةٍ تمرّ أكثر مرضاً وقلقاً، أعاني من الحمّى الثلاثية التي لا أدري لها سبباً، إلى أن أقلعنا أخيراً ذاتَ ليلة وخلّفنا وراءنا العاصمةَ البرتغالية المُتْعِبَة التي كنتُ أتخيّلها في أحلامي المحمومة كمدينةٍ سوداء، ناسُها يرتدون السواد وبيوتها مصنوعة من الكاوبا أو المرمر الأسود أو الحجر الأسود، ربّما لأنّني فكَّرتُ في غفوتي المحمومة ذات مرّة بإيوسبيو، بالنمر الأسود لتلك المجموعة الذي لعب دوراً مهمّاً في كأس العالم في إنكلترا ١٩٦٦، الذي عاملونا فيه نحن التشيليين بكثير من الظلم.

وعدنا لنُبحر ودرنا حولَ شبه الجزيرة الإيبيرية، وأنا ما أزال مريضاً، إلى حدّ أنّ إيطاليين أخرجاني ذات ليلة إلى السطح كي أشمَّ الهواء ورأيتُ أنواراً في البعيد وسألتُ ماذا كانت تلك، إلى أي عالم (هذا العالم الذي كان يعاملني بكلّ تلك القسوة) تنتمي تلك الأنوار، وقال لي الإيطاليان كمن يقول منقاراً أو تفاحة، إلى أفريقيا، وعندها بدأتُ أرتجفُ أكثر من ذي قبل بكثير، الحمى الثلاثية كانت تبدو أقرب إلى نوبةِ صرع، لكنّها فقط كانت حمى ثلاثية، وعندها سمعتُ الإيطالِيَّيْن يتركانني جالساً على السطح ويتنحيان جانباً، كمن يذهب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليدخّن بعيداً عن مريض، وكان إيطاليّ يقول لآخر: إذا ما مات بين أيدينا فالأفضل أن نلقي به في البحر، والإيطاليّ الآخر يجيبه: حسنٌ، حسن، لكنّه لن يموت. ومع أنّني لم أكن أعرف الإيطالية إلاّ أنّني سمعتُ هذا بوضوح، في النهاية اللغتان لاتينيتان، كما قد يقول أكاديمي في اللغة. أنا أعرفُ أنّكَ مررت بمراحل مشابهة، يا بِلانو، لذلك لن أطيلَ عليك. الخوف أو الرغبة بالحياة، غريزة البقاء جعلتني أستمدّ قوّة من حيث لا توجد، وقلتُ للإيطالِيَّيْن، أنا بخير، لن أموت، ما الميناء القادم؟ جررتُ نفسي بعدها إلى القاع وانزويتُ في زاويتي ونمتُ.

عندما وصلنا إلى برشلونة، كنتُ قد بدأتُ أشعرُ بنفسي أفضل. في الليلة الثانية للرسوِّ غادرتُ السفينةَ بحذرٍ وخرجتُ من الميناء ماشياً مثل عاملٍ في مناوبةٍ ليلية. كُنتُ أحملُ ثيابي التي أرتديها وعشرة دولارات جئت بها من سانتياغو وخبّأتُها في أحدِ الجوربين. في الحياة لحظاتٌ رائعة كثيرة، ومتفاوتة جدّاً، لكنّني لن أنسى أبداً رامبلاس برشلونة وشوارعَها المتاخمة التي انفتحت لي في تلك الليلة مثل ذراعي مِنْجَمٍ لم أره من قبل قط، ومع ذلك عرفتُ أنّه منجم حياتي. لم أتأخّر، أُقسِمُ لك، أكثر من ثلاث ساعات في العثور على عملٍ، فالتشيليُّ، إذا كان قويّ الذراعين، وليس ضعيفاً يستطيعُ أن يعيش في أيِّ مكان، قال لي أبي حين ذهبتُ لأُوَدّعه. كان بودّي أن أضربَ العجوز بقبضتي على وجهه وأُعيده إلى المكان الذي خرج منه، لكن هذه قصّة أخرى، وليس هنا مكان لأن يُثير المرء أعصابه. الصحيح هو أنّني بدأتُ في تلك الليلةِ الخالدة أعملُ في غسلِ الأطباق في محلٍّ يُسمّى لا تيّا خواكينا، في شارع أسكوديِّرز، في الوقت الذي لم يَزُلْ عني الإحساسُ بالاهتزازات التي تحدثها عابراتُ المحيطات الطويلة، وعند الساعة الخامسة صباحاً خرجتُ من البارِ

متعباً، لكنّني راضٍ وتوجّهتُ إلى نزل كونتشي، الذي كان كاسمٍ لطيفاً، نصحني به نُدُلُ لا تيّا خواكينا، شاب مُرسيّ كان ينزل أيضاً في تلك الغرفة البائسة.

بقيتُ يومين في نزل كونتشي، من حيث اضطررتُ لأنّ أخرجَ رفساً نظراً لإصراري على عدم إعطائهم أوراقي للتسجيل في سجل الشرطة، وأسبوعاً في لا تيّا خواكينا، تماماً الوقت الذي احتاجه غاسلُ الصحون كي يتعافى من زكام غادِر. في الأيام التالية عرفت نُزُلاً أخرى، في شارع هوسبيتال، في شارع بينتور فورتوني، في شارع بوكِريّا، إلى أن وقعتُ على نزلٍ في خونتا دِ كومِرثيو[1]، نزلِ أمِليا، ما أحلاه وأجمله من اسمٍ، حيث لن يطلبوا أوراقي، شريطة أن أتقاسم غرفتي مع اثنين آخرينَ وأن أختبئ دون احتجاج في خزانة ثيابٍ بعمقين في كلّ مرّة تظهر فيها الشرطة.

أسابيعي الأولى في أوروبا، كما يسهل التكهّن، مرّت بالبحث عن عملٍ وفي العمل، فقد كان عليّ أن أدفع أجرة الغرفة أسبوعيّاً، ثمّ إنّ شهيّتي التي كانت خفيفة أو نائمة خلال العبورِ البحري، استيقظت على اليابسة وهي أشدُّ نهماً مما كنتُ أتذكّر. لكن بينما كنتُ أمشي من مكان إلى آخر، لنقلْ، من النزل إلى العمل أو من المطعم إلى النزل، بدأ يحدثُ لي شيء لم يحدث من قبل أبداً. لم أتأخر في الانتباه إلى ذلك، لأنّني دائماً كنتُ، دون تواضع زائف، على الأقلّ يقظاً وأمعنُ التفكيرَ فيما يحدث لي. ثمّ إنّ المسألة كانت بسيطة تماماً، وإن كان، لن أُنكِر ذلك، أقلقتني في البداية. باختصار: كنتُ أمشي، لنقُلْ، في لاس رامبلاس، سعيداً بالحياة، بانشغالاتِ بالٍ طبيعيةٍ لرجلٍ طبيعيّ، وفجأةً راحت الأرقامُ تتراقصُ

---

(١) الغرفة التجارية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في رأسي. أوّلاً الواحد، هذا افتراض، ثمّ الصفرُ، بعده الواحدُ، ثمّ مرّة أخرى الواحدُ، وهكذا دواليك. بداية فكّرتُ أنّ الذنب هو ذنب الزمن الذي قضيته محبوساً في جوفِ الباخرة نابولي. لكنّني في الحقيقة كنتُ أشعر بنفسي مرتاحاً، آكلُ جيّداً، بطني طبيعيّ، أنامُ ساعاتيَ الستّ أو السبع مثل ببغاء، لم يكن يؤلمني رأسي إطلاقاً، لذلك لا يمكن أن يكون هذا هو السبب. ثمَّ فكَّرتُ في تغيّرِ المشهدِ، الذي كان في حالتي، تغيُّر البلد، القارّة، الجوّ، العادات، كلّ شيء. عزوته بعدها، كما لا يمكن أن يغيب عن الذهن، إلى الأعصاب، في عائلتي هناك بعضُ حالات الجنون بل وحتى *الهذيان الارتعاشي*، لا أحد كامل. لكن ما من واحد من هذه التفسيرات كان يُقنعني، ورحتُ شيئاً فشيئاً أتأقلمُ، أعتادُ الأرقامَ، التي فيما عدا ذلك، انظر كم هي غريبة الطبيعة، كانت لا ترد إلى ذهني إلا حين أمشي، أي حين لا أكون مشغولاً، وليس أبداً في ساعات العمل، ولا حين آكلُ أو أدخلُ في سرير غرفتي، التي نشترك فيها ثلاثة. على كلّ الأحوال لم أملك الوقتَ كي أُفكّر بعمق بالمسألة، لأنّ الحلَّ لم يتأخر في الوصول ووصل فجأة. ذات مساء أعطاني رفيقٌ في المطبخِ استمارةَ يانصيبِ كرةِ قدم، فاضت عنه. لا أعرفُ لماذا، لم أبغِ أن أملأها هناك وأخذتُها إلى النزل. في تلك الليلة، حين كنتُ عائداً عبر لاس رامبلاس شبهِ المقفرة، بدأتْ الأرقامُ وعلى الفور ربطتُها بالاستمارة. دخلتُ باراً من بارات لاس رامبلاس سانتا مونيكا، وطلبتُ فنجانَ قهوةٍ وقلمَ رصاص. لكنّ الأرقامَ توقّفت. صار عقلي صفحةً بيضاء! حين خرجتُ عادت لتبدأ: كنتُ أرى كشكاً مفتوحاً، صفر، أرى شجرة، واحد، كنتُ أرى سكرانين، اثنان، وهكذا حتى أتممت الحقولَ الأربعة عشر. لكن في الشارع لم يكن معي قلم كي أُسجّلها، وهكذا وبدلَ أن أتّجِهَ إلى نزلي نزلتُ إلى أسفل لاس

رامبلاس ثمّ عدتُ وصعدتُ كما لو أنّني استيقظتُ توّاً وأمامي الليل كلّه للاسترخاء! صاحب كشكٍ قربَ سوق سان خوسِهْ باعني قلماً ناشفاً، حين توقّفتُ لشرائهِ انقطعت الأرقام وشعرت أنّني على حافّة الهاوية. عدتُ بعدها لأمشي صاعداً لاس رامبلاس وكان رأسي فارغاً. في مثل تلك اللحظات يعاني المرءُ، أستطيعُ أن أؤكّد ذلك بمعرفة السبب. فجأة، عادت الأرقامُ فأخرجتُ استمارتي وبدأتُ أسجّلها. الصفر كان الإكس، ولاستخلاص ذلك لم يكن ضروريّاً أن أكون عبقريّاً، الواحد كان الواحد، الاثنان، الذي فيما عدا ذلك كان يظهر أو يومِض في رأسي، كان الاثنين. سهل، أليس صحيحاً؟ حين وصلتُ إلى مترو ساحة كتلونيا كنتُ قد انتهيتُ من تعبئةِ استمارة اليانصيب. عندها أغواني الشيطانُ وعدتُ لأنزل، مثل مُسَرْنم، أو مجنون، ببطء مرّةً أخرى باتجاه رامبلا سانتا مونيكا، واستمارة اليانصيب على بعد سنتيمترات قليلة من وجهي، أتأكّد مما إذا كانت الأرقام التي ما زالت تظهر تنطبق على التي سجّلتها على ورقة حظّي. إطلاقاً! رأيت كمن يرى الليلَ، الصفر، الواحد والاثنين، لكنّ التسلسلَ كان مُختلفاً، الأرقام كانت تتتالى بسرعة أكبر، بل عند مستوى الليثيو ظهرَ رقمٌ لم أرَهُ حتى تلك اللحظة، الثلاثة، لم أُقَلّب بالأمر أكثر وذهبتُ لأنام. في تلك الليلة وبينما كنتُ أخلعُ ملابسي في الغرفة المظلمة وأنا أسمع زوجَ الخمولَين، اللذين كانا كرفيقين لي، يشخران، فكّرت أنّني أُجَنُّ واستظرفتُ ذلك إلى حد أنّني اضطُرِرتُ لأن أجلسَ على السرير وأُغلِقَ فمي كيلا أضحك مِلْء صوتي.

في اليوم التالي أودعتُ استمارة يا نصيب كرة القدم وبعد ثلاثة أيّام كنتُ واحداً من تسعةٍ من الذين أصابوا بالأرقام الأربعة عشر. أوّل شيء فكّرتُ به، هذا لا يعرفه إلاّ من يعيشه، هو أنّهم لن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يعطوني النقودَ لأنّني موجود بشكلٍ غير شرعيّ في إسبانيا. وهكذا ذهبتُ في اليوم ذاته لأرى محامياً وحكيتُ له كلَّ شيء، السيّد مارتينِثْ، هكذا كان يُسمى الحقوقي، وكان من لورا دِل ريّو، هنّأني بحظيّ السعيد ثم راح يُطمئنني. في إسبانيا، قال، ابن الأمريكات ليس أبداً أجنبياً، على الرغم من أنّ دخولي بالفعل كان غير نظامي وهو ما يجب أنّ يُسَوّى. ثمّ استدعى بالهاتف صحفيّاً من *لا بانغوارديا* ووجّه هذا لي بعض الأسئلة والتقط لي بعض الصور وفي اليوم التالي صرتُ مشهوراً. ظهرتُ في صحيفتين أو ثلاث، حسب علمي. المهاجرُ غيرُ الشرعيّ الذي ربح جائزة يا نصيب كرة القدم، قالت الصحف. احتفظتُ بقصاصات الخبر وأرسلتها إلى سانتياغو، أجروا معي مقابلتين إذاعيّتين. وخلال أسبوع سَوّيتُ وضعي وانتقلت من رجل لا يحمل أوراقاً ثبوتية إلى من يحمل إذناً بالإقامة لثلاثة أشهر، دون حقٍّ بالعمل، بينما كان مارتينِث يقوم بإجراءات لشيءٍ أفضل. وصلت الجائزة إلى ٩٥٠٠٠٠ بيزيتا، وكان هذا مبلغاً كبيراً وقتذاك، وعلى الرغم من أنّ المحامي استنزف منّي قرابةَ ٢٠٠٠٠٠، في الحقيقة كنتُ أشعر في تلك الأيّام بأنّني غنيّ، غنيٌّ ومشهورٌ، وحرٌّ أفعلُ ما أشاء. في الأيّام الأولى جالت بذهني فكرةُ أن أوضّب حقائبي وأعودَ إلى تشيلي، فبالمبلغ الذي كان معي أستطيعُ أن أبدأ تجارة في سانتياغو، لكنّني قرّرتُ في النهاية أن أحوّل ١٠٠٠٠٠ بيزيتا إلى دولارات وأرسلها إلى أمّي وأن أبقى في برشلونة، التي قدّمت لي نفسها، اعذروني على المقارنة، كزهرة. كان العام ١٩٧٥ يجري، ثمّ إنّ الأمور في وطني كانت أقرب إلى اللون البنفسجي، وهكذا وبعدَ التردّد الأوّلي قرّرتُ أن أتابع طريقي. في القنصلية وبعدَ بعض الممانعة التي استطعت أن أحلّها بالفطنة والمال، قبلوا أن يمنحوني جوازَ سفر. لم أُغيّر نزلي، لكنّني طالبت بغرفة مستقلة

أوسعَ وأفضلَ تهويةً (وأعطوها لي على الفور، ماذا تريدني أن أقول لك، لقد حوّلني القدر إلى مدلّلِ بيت أماليا)، تركتُ العملَ في جلي الأطباق وتفرّغتُ، وكلّ زمن العالم تحت تصرّفي، للبحث عن عمل يتناسب مع اهتماماتي. كنت أنامُ حتى الثانية عشرة أو الواحدة ظهراً. أذهب بعدها لأتناول غدائي في مطعم في شارع فِرناندو أو في آخرَ في شارع خواكين كُوْستا، يُديره توأمان ظريفان جدّاً وبعدها أتفرّغ للتسكع في برشلونة، من ساحة كتلونيا وحتى جادّة كولون، من البارالِلو وحتى بيّا لايِّتانا، أتناولُ القهوةَ في الشرفات، وأطباقَ الحبّارِ والنبيذَ في الحانات، أقرأُ الصحفَ الرياضيّة، مقدّراً ما الخطوة التالية التي سأخطوها، الخطوةَ التي كنتُ في قرارةِ نفسي أعرفُها، لكنّني وبسبب تربيتي المدرسيةِ التشيلية (الصعلوك والطالب الشقيّ) لم أبغِ أن أطرحَ الموضوعَ بطريقة صريحة. وفي هذه الظروف سأقول لك، إنني كنتُ أُفكّر بالأحمقِ ديكارت، وبهذا يمكنك أنّ تُكَوِّن فكرةً، بديكارت وأندرِس بِيّو، وأرتورو برات، وصانعي شريط بلادنا الطويل والضيّق. لكن لا يمكن أن توضع أبوابٌ للحقل وتخليتُ ذات مساء عن تأملاتي واعترفتُ بأنّ ما كنتُ أريدهُ في أعماقي هو أن أربحَ استمارةَ يانصيبِ كرةِ قدم أخرى، بأيّ طريقة كانت، لكن بشكل خاصّ بالطريقة التي كنتُ أَعرفها. من المفروغ منه أنّني لم أنظر إلى نفسي كمجنون، فقد كنتُ مُنتبهاً إلى أنّ ذلك الأملَ، تلك اللهفةَ، كما يمكن أن يقول لوتشو غارثيّا، كان لا عقلانياً، بل ولا عقلانياً بشكل رهيب، لننظر في الأمر، ما المحرّك أو الخلل الذي يجعل تلك الأعداد تظهر في أصفى جزء من رأسي؟ من الذي كان يُمْليها عليَّ؟ هل كنتُ أؤمنُ بالأشباح؟ هل كنتُ رجلاً جاهلاً أم متطيّراً وصل إلى هذا الجزءِ من البحر المتوسّط من تخوم العالم الثالث؟ أم يا ترى كلّ الذي كان يجري معي أو جرى معي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان اقتران المصادفةِ مع هذياناتِ رجل نصفِ مُضطرب بالتجربة التي تكاد تكون غير إنسانية لرحلة بحرية لا تجرؤ أيّ وكالة سفر على أن تقدّمها؟

كانت أيّام شكوكٍ كبيرة. ومن ناحية أخرى، أعترفُ، ما من شيءٍ كان يشغلني (شيء متناقض، لكنّه كذلك) ومع مرور الأيّام ما عدتُ أبحثُ ولا أتردّد على عروضِ العمل التي كانت تعرضها لا بانغوارديا بسخاء، ومع أنّني منذ الجائزة (بسبب الصدمة التي مررت بتجربتها، أتباهى) هجرتني الأرقامُ، بعد التفكيرِ بمخرج لائق، ظننتُ ذات مساءٍ، بينما كنتُ أطعمُ بعضَ الحمائم في باركِ دِ لا ثيودادِلا، ظننتُ أنّني عثرتُ على الحلّ. إذا لم تأتِني الأرقامُ فأنا سأذهب إلى وجارها وسأخرجها من هناك باللطف أو بالرفس.

استخدمتُ عدّةَ طرقٍ، أعتقدُ أنَّ من الأفضّل لأسبابٍ مهنيّة أن أوفّرها عليك. أنت تقول لا؟ إذن لن أوفِّرها عليك، هذا ما كان ينقصني. بدأتُ بعدِّ البيوت. كنتُ أجوب مثلاً شارع إولِفِر وشارع كادِنا وأبدأ أنظرُ وأُسجّل أرقامَ البوّابات؛ التي كانت على يميني هي الواحد والتي على يساري هي الاثنان، والصفر هو الأشخاص الذين كنت أُصادِفهم وينظرون إلى عينيَّ. لم يُعطِ نتيجة. حاولتُ أن ألعب بالكشتبان، وحدي في بارٍ في شارع برينثِسا، يسمى لا كروث دِل سور، البار لم يعد موجوداً، كان يُديره في تلك الأيّام صديقٌ أرجنتينيّ. أيضاً لم يعطِ نتيجة. في مرّاتٍ أخرى كنتُ أبقى ممدّداً على السرير وذهني صفحة بيضاء، وكنتُ أتوعّدُ في يأسي الأعدادَ مطالباً إيّاها بالعودة، لكنّني لم أكن قادراً على التفكير، على تصوّرِ الواحد، الذي كنت أعزو إليه في جنوني فضائلَ الصوف والمأوى. بعد تسعين يوماً من ربحي ليانصيب كرةِ القدم وقد صرفت أكثرَ من خمسين ألف بيزيتا، في عنجهياتٍ ومراهناتٍ عديدة فاشلة، خطرَ لي

الحلّ. عليّ أن أُبَدّل الحيَّ. هكذا ببساطة. فأرقام المدينةِ القديمة استُنفِدَت، على الأقل بالنسبة إليّ، وعليّ أن أتحرّك. بدأتُ أتسكّعُ في إنسانتشِ، وهو حي عجيب كنت أتلصص عليه من ساحة كتلونيا، دون أن أجرؤ على اجتياز الحدّ الذي يشير إليه دوارُ الجامعة، على الأقل دون أن أجرؤ على اجتياز ذلك الحد بشكل واعٍ، أيْ بفتحيَ لحواسّي على سحرِ الحيّ، الذي يعني القول بالسير دون دفاعاتٍ، وكلّيَ عيون، ومُعرّض للخطر؛ باختصار، الرجل المِجسّ.

في الأيام الأولى سرتُ فقط في شارع غراثيا، صعوداً وفي بالمِس نزولاً، لكنّني في الأيّام التالية تجرّأت على السير في الشوارع الجانبيّة، ديبّوتاثيون، كونسِخو دِ ثينتو، أراغون، بلنسية، ميورقة، بروبِنثا، روسويّون، وكورسيكا، وهي شوارع سرّها أنّها مُبهرة ودافئة في آنٍ معاً، ويمكن أن نقول أليفة. مشواري، الذي كان يتمّ أحياناً بخطوط مستقيمة وأخرى بخطوط متعرّجة لا تُحصى، ينتهي عند الوصول إلى شارع دياغونال. وبما أنّ التصوّر مشروع، فإنّني إضافة إلى ضياعي كنتُ أبدو مجنوناً، على الرغم من أنّه في برشلونة تلك الأيّام، كما في الحالية، لا شكّ كان التسامح الفضيلةَ التي يُحاول جميعُ الناس تقريباً أن يحرصوا عليها. من المفروغ منه أنّني كنتُ قد اشتريتُ ثياباً جديدةً (لأنّني كنتُ مجنوناً، لكن ليس إلى حدّ أن يُفترَضَ أنّني بثيابي التي كانت لها رائحة نزلٍ من المنطقة الخامسة، سأمرّ دون أن ألفت الانتباه) وكنتُ أرتدي في مشاويري قميصاً أبيضَ، ربطةَ عنق عليها شعارُ جامعةِ هارفارد وكنزة سماوية قبّتها على شكل سبعة وبنطلون أسودَ ببنساتٍ. الشيء الوحيد القديم كان حذائي، لأنّني في موضوع المشي دائماً فضّلتُ الراحة على الأناقة.

لم أشعر في الأيام الثلاثة الأولى بشيء. كانت الأرقامُ تزدهي بغيابها، لكنّ شيئاً في داخلي كان يرفض مغادرة المنطقة التي حدّدتها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لنفسي مجازفةً. في اليوم الرابع رفعتُ، بينما أنا أصعد شارعَ بالمِس، نظري إلى السماء ورأيتُ، على برج كنيسةٍ الكتابةَ التالية: صلِّ واعملْ. لا أستطيع أن أقول ما الذي شدّني، لكنّ الصحيح أنّني شعرتُ بشيء، انتابني إحساسٌ، عَرَفْتُ أنّني كنتُ قريباً من ذلك الشيء الذي كان يغريني ويُعذّبني، من الشيء الذي كنتُ أرغب به بإصرار مَرَضِيّ. حين تابعتُ طريقي قرأتُ على الوجه الآخر للبرج: الحياة قصيرة. إلى جانبِ الكتابةِ كانت تبرز بعضُ الرسومات التي استحضرت إلى ذهني الرياضياتِ والهندسة. كان كما لو أنّني رأيتُ وجهَ الملاك. منذ تلك اللحظة صارت تلك الكنيسةُ مركزَ مغامراتي، على الرغم من أنّني منعتُ نفسي منعاً باتّاً من الدخول إليها.

وذات صباح، تماماً كما كنتُ أنتظرُ، عادت الأعدادُ. كانت المتتاليات في البدايةِ شيطانيّة، لكنّني ما لبثت أن عثرتُ على منطقِها. كان السرّ يكمن في الانثناء. في ذلك الأسبوع ملأتُ ثلاث استمارات من يانصيب كرة القدم (مع أربع مزدوجات)[1] واشتريتُ ورقَتَيّ يا نصيب. كما يمكنكَ أن تُقدِّر. لم أكن واثقاً جدّاً من تفسيري. ربحتُ في استمارةِ يانصيبِ كرةِ قدم واحدة، ثلاث عشرة إصابة، لكن لا شيء في اليانصيب. في الأسبوع التالي عدتُ وحاولتُ، هذه المرّة فقط بيانصيب كرةِ القدم، أصبت في أربع عشرة وفزت بخمسة عشر مليوناً. آه كيف تتبدّلُ الحياة. فجأة وبضربةٍ واحدة وجدتُ نفسي أملك من المالً أكثر مما حلمتُ به في حياتي

---

(١) في يا نصيب كرة القدم (لا كينييلا) هناك جدول بالفرق المتنافسة يُخمّن مالئ الاستمارة فيها الفريق، ما إذا كان كلّ فريقين سيتعادلان أم سيربح هذا أو ذاك وينطبق هذا على كلّ الفرق المتنافسة الموجودة في الاستمارة. وهكذا يستطيع أن يملأ أربع أو خمس أو ما يشاء من الاستمارات مُبدلاً في التعادل أو الخسارة أو الربح بين الفرق.

كلّها. اشتريتُ باراً في شارع كارمن وأرسلتُ في طلب أمّي وأختي. أنا لم أذهب شخصياً لأنّ الخوف داخلني فوراً. وماذا لو سقطت الطائرةُ التي تقلّني؟ وماذا لو قتلني العسكرُ. الحقيقة أنّني لم أملك قوة ولا حتى لمغادرة نزلِ أماليا، وبقيتُ أسبوعاً دون أن أخرج، أُعامَلُ كملك، ملتصقاً بالهاتف، أتكلّم قليلاً، لأنّني خفت أن أرتكب حماقة تودي بعظامي إلى مشفى المجانين، بكلمة واحدة كنتُ مذعوراً من القوى التي كنتُ أنا نفسي أستحضِرُها. ساهم وصولُ أمّي في تهدئتي. لا يوجد مثل الأمّ لتهدئةِ النفوس! ثمّ إنّها سرعان ما صارت صديقةً لصاحبة النزل وفي أسرع من لمح البصر كان الجميع هناك يأكلون السمبوسك بالفرن والتشوكلو[1]، التي كانت تصنعه عجوزيَ لتدليلي، وبالمناسبة لتدليلِ كلّ الغرقى الذين كانوا يختبئون هناك، وهم في غالبيتهم ناسٌ طيبون، لكن هناك بعض المجرمين الحقيقيّين، ناس شرسون كانوا متفرغين لأعمالهم وكانوا ينظرون إليّ بجشع. لكنّني لم أساوم أحداً على صداقتي قط! بعدها بدأتُ أُتابع أعمالي. فقد تلا بارَ شارع كارمن مطعمٌ في شارعِ ميورقا، وهو مكان ناعم كان يذهب إليه موظفو المنطقة ليتناولوا فطورهم وغداءهم فيه، عاد عليّ بعدها بفوائد ضخمة. لم يعد باستطاعتي بعدَ وصول أهلي أن أستمرّ بالعيشِ في النزل، وهكذا اشتريتُ شقّة عند زاوية سِبولبِدا مع بيلادومات وافتتحته بحفلة على أعلى المستويات. نساءُ النزل اللواتي بكين عندما تركتُه عُدْنَ ليبكين حين ألقيتُ كلمةَ الترحيب بهنّ في بيتي الجديد. لم تستطع أمّي أن تُصدّق. كلّ هذه الثروة فجأة! كان الوضع مع أختي مختلفاً، فقد أصابها المال بخيلاء لم يكن

---

(١) التشوكلو في لغة الكيتشوا هي الذرة، التي تُصنع منها أطباق كثيرة، أساسها الذرة، تحمل هذا الاسم، بمكونات مختلفة .بحسب المناطق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عندها قط، أو أنّني على الأقل لم أعرفه عندها قط. عينتها أمينةَ صندوقٍ في مطعم شارع ميورقا، لكنّني وجدتُ نفسي بعد بضعة أشهر أمام حالة أن أختار بينها، هي التي صارت متعجرفة لا تُحتمل، وبين مجموع العاملين عندي، والأهم بينها وبين قسم لا بأس به من زبائني. وهكذا أخرجتها من هناك وفتحت لها محل حلاقة في شارع لونا، بعد دوّار سان أنطونيو. طبعاً بقيتُ خلال هذا الوقت أبحث عن الأرقام، لكنّ هذه تبخّرت ما إن وجدت نفسي مالكاً لثروتي. كان عندي مال، عندي أعمالي وكان عندي على وجه الخصوص أعمال كثيرة، ولذلك فإنّني لم أكد ألحظُ الخسارة، على الأقل لم أكد ألحظها في ألقِ الأشهرِ الأولى. بعدها، عندما راحت تستقرُّ حالتي النفسية وذهبتِ السكرةُ وعدتُ إلى شوارع المنطقة الخامسة، حيث كان الناسُ يمرضون ويموتون، بدأتُ أُفكّر مرّة أخرى فيها، حتى أنّني توصّلتُ إلى استنتاجات أكثر غرابة وأكثر زوغاناً، كي أُفسّر لنفسي المعجزة التي كنتُ صانعها وجزءً منها. لكن أيضاً إطالة التفكير في ذلك ليست حسنة. أعترفُ، وصل بي الأمر ذاتَ ليلة أنّني خفت من نفسي، لذلك يمكنك أن تتصوّر ما تشاء ولن تُخطئ.

من بين المخاوف الكثيرة التي نشأت على حافّة تلك التأمّلات، كان الخوف من أن أخسرَ، أخسر مقامراً، كلَّ الذي ربحته وأسستُهُ بعرقِ جبيني. لكنّني كنتُ أخاف أكثر بكثير من أن أُطلّ على طبيعة مصيري. وكتشيليٍّ صالح كانت الرغبةُ بالتقدّم تنخر عظامي، لكنّني كميكي ماوس، الذي كنتُه في أعماقي وما زلتُ، كانت البصيرة تكبحني، صوتٌ ناحل يقول لي: لا تختبِر القدرَ، ويحكَ، اقتنعْ بما تملك. حلمتُ ذات ليلة بكنيسةِ شارع بالمِس ورأيتُ، لكنّني ظننتُ هذه المرّة أنّني فهمتُ، رسالتَها المقتضبة: *الحياة قصيرة، صلِّ واعملْ.* فالزمن الذي يمنحونه لنا على الأرض ليس طويلاً جدّاً،

يجب أن نُصلّي ونعمل، فلا تستنْفِدْ بصيرتَكَ بيانصيبِ كرة القدم. كان هذا كلّ شيء. استيقظتُ على يقين أنّني تعلّمتُ الدرس! بعدها مات فرانكو، وجاءت المرحلة الانتقالية، ثمَّ الديمقراطية، بدأ هذا البلد يتغيّر بسرعة جديرة بأن تُشاهد ولا تُصدّق ما تراه عيناك. ما أجملَ العيش في الديمقراطية. طلبتُ الجنسيةَ الإسبانيّةَ وحصلتُ عليها، سافرتُ إلى الخارج، إلى باريس، إلى لندن، إلى روما. دائماً بالقطار. هل زرتَ أنتَ لندن؟ عبور القنال شيء مزعج. أيّ قنال وأيّ هراء، أسوأ، أفترضُ، من خليج الآلام[1]. استيقظت ذات صباح في أثينا وبلَّلتْ رؤيتي للبارتينون عينَيَّ بالدموع. لا شيء مثلَ السفر لتوسيع الثقافة. لكن أيضاً لصقل الحساسية. عرفتُ «إسرائيل»، مصر، تونس ومراكش. وفي نهاية أسفاري عدتُ بقناعة واحدة: لسنا شيئاً. جاءت ذات يوم طبّاخة جديدة إلى باري في شارع ميورقا. كانت يافعة بشكل غير معهود بالنسبة للعمل ولم تكن مؤهّلة بما يكفي، لكنّني قَبِلتُها على الفور. كان اسمها روسا وتزوّجتُ منها دون أن أكاد أنتبه. أردت أن أُسمّي ابني الأوّل كاوبوليكان، لكنّه سُمي في النهاية جوردي. المولود الثاني كان طفلة وأسميناها مونتسِرّات. حين أُفكّرُ بولديّ تنتابني رغبة بالبكاء من السعادة، يا للنساء!: أمّي، التي كانت تخاف أن أتزوّج انتهت إلى أن صارت مثل الظفر على اللحم مع روسيتا. كانت حياتي، كمن يقول، على الطريق الصحيح تماماً. كم صارت باخرة *نابولي* والأيام الأولى في برشلونة بعيدةً، هذا كيلا أتكلّم عن شبابي المنحرف في لاثيستِرنا! كان عندي عائلة وطفلان كنتُ أعشقهما وزوجة تُساعِدني

---

(١) غولفو دِ بِناس، خليج في تشيلي على المحيط الهادي كثير وشديد العواصف.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في كلّ شيء (سحبتُها من مطبخ مطعمي عنْد أوّل فرصة. طيّبةٌ الكزبرة لكن ليس كثيراً) صحة ومال، في النهاية، لم يكن ينقصني شيء، ومع ذلك كنتُ في بعضِ الليالي حين أخلو بنفسي في عملي، أجري حسابات، يرافقني فقط نادل موثوق أو غاسل الأطباق، الذي لم أكن أراه، لكنّني أسمعه يعملُ منهمكاً في المطبخ أمام كومةِ أطباقه المتسخة، كان يُراوِدني بعضٌ من أغرب الأفكار، أفكار، كيف أقولها، تشيلية جدّاً، وعندها كنتُ أشعرُ بأنّ شيئاً ينقصني فأبدأ أُفكِّرُ، ماذا يمكن أن يكون؟ ثمّ وبعد تفكيرٍ كثير وتقليبٍ للمسألة أصل دائماً إلى الاستنتاج ذاته: تنقصني الأرقامُ، تنقصني ومضةُ الأرقام داخل عينيَّ، وهي كمن يقول تنقصني غايةٌ، أو الغايةُ. أو ما هو ذاته، على الأقل من منظوري، ما كان ينقصني هو فهم الظاهرة التي أطلقتْ ثروتي، الأرقام التي لم تُنِرْ منذ زمنٍ رأسي، وقبول ذلك الواقع كرجل. عندها كان أن رأيتُ حلماً وعندما رحتُ أقرأ بلا حدود، دونما أدنى رحمة بنفسي ولا بعينيّ، مثل نَهِمٍ، كلَّ أنواع الكتب، بدءاً من السِّيَرِ التاريخية، المفضلة لديّ، وحتى كتب السحرِ أو قصائد نيرودا. كان الحلم في غاية البساطة، في الحقيقة كان بضع كلماتٍ أكثر مما هو حلم، كلمات كنتُ أسمعها في نومي ولم يكن صوتي من يُمليها. هذه هي الكلمات: *هي تضع آلاف البيوض*. ما رأيك؟ يمكن أن أكونَ قد حلمتُ بالنمل أو النحل. لكنّني أعرف أنّها لم تكن نملاً ولا نحلاً، من تضع آلاف البيوض إذن؟ لا أعرف. فقط أعرف أنّها في لحظةِ وضعِ البيوضِ كانت وحدَها وأنّ المكان الذي وضعتْها فيه، اعذرني إنْ كنتُ متحذلقاً قليلاً، كان مثل كهف أفلاطون، ذلك المكان الشبيه بالجحيم أو السماء، حيث لا تُشاهَدُ غير الأشباح، في المرحلة الأخيرة أخذتني نوبة قراءة الفلاسفة اليونانيين، هي تضع آلاف البيوض، كان الصوت يقول وأنا كنتُ

أعرف أنّه كما لو أنّه يقول هي تضع ملايين البيوض. وعندها فهمتُ أنّ حظّي كان هناك، معشّشاً في واحدة من تلك البيوض المهجورة (لكنّها مهجورة مع كلّ الأمل) في كهف أفلاطون. وهناك بالذات فهمتُ أنّني لن أفهم أبداً طبيعةَ حظي، المال الذي هبط عليّ من السماء. ، لكنّني قاومت كتشيليّ صالحِ الجهلَ، ورحتُ أقرأُ وأقرأ، لا يهمّني أن أقضي الليل في القراءة، كنتُ أخرجُ باكراً لأفتح باراتي، كنتُ أعمل بلا كللٍ، غارقاً في النشاط الحقيقيّ الذي يُستنشق في صباحاتِ ومساءاتِ برشلونة، هذا النشاط الذي يبدو أحياناً فاسداً وأُغلق باراتي وأُجري حساباتي وأبدأ بعد الحسابات بالقراءة وكثيراً ما كنتُ أمكث نائماً على كرسيٍّ (كما يفعل من ناحية أخرى، جميع التشيليين) وأستيقظُ فجراً، حين تكون سماءُ برشلونة زرقاءَ، شبهَ أرجوانية، أو شبهَ بنفسجيّة تفتح الشهيّةَ على الغناء والبكاء بمجرّد رؤيتها، وأنا بعد أن أرى السماء أُتابع القراءة، دون أن أمنحَ نفسي راحةً، كما لو أنّني سأموت ولا أريد أن أفعلَ ذلك قبل أن أَفهمَ ما كان يجري من حولي وفوق رأسي وتحت قدميَّ.

بكلمة واحدة تصبَّبتُ دماً، على الرغم من أنّني في الحقيقة لم انتبه إلى شيء. بعدها بوقتٍ قصير، تعرّفت عليك، يا بِلانو، ومنحتُكَ عملاً. غاسلَ الأطباق مرضَ فاضطُرِرتُ لأن أتعاقد مع بديل. لا أتذكّر من الذي أرسلكَ إليّ، بالتأكيد تشيليٌّ آخر. كان ذلك في المرحلةِ التي كنتُ أبقى فيها في المطعم حتى ساعة متأخّرة، كما لو أنّني أُراجع دفاتر حساباتي، لكنّني كنتُ في الحقيقة أصيدُ زبابات[1] دون أن أتحرّك من كرسيَّ. ذهبتُ ذات ليلة لأُسَلّم عليك، هل تتذكّر؟ وأذهلني كم كنت مُهذّباً. كان يُلاحظ أنّك قرأتَ كثيراً وسافرتَ كثيراً

---

(١) ويسمى أيضاً الفأر السام.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأنّكَ لم تكن تمرّ في فترة حسنة. وقعنا من أنفسنا وقعاً حسناً، وكما هي الأمور، لم أتأخّر أربعاً وعشرين ساعة حتى كنتُ معك صريحاً، كما لم أكن مع أحدٍ خلال كلّ تلك السنوات. حدّثتُكَ عن يانصيبِ كرة القدم (كان هذا صوت *الشعب*)، لكنّني أيضاً حكيتُ لك عن موضوع الأرقام التي كانت تسحرني في داخلي، سرّيَ الأفضل حفظاً. أيضاً دعوتك إلى بيتي، مع عائلتي، وقدّمتُ لك عملاً ثابتاً في أحد باراتي. قبلتَ الدعوةَ (حضّرَتْ أمّي سمبوسكاً بالفرن)، لكنّكَ لم تبغِ أن تسمعَ أنّكَ تعملُ عندي. كنتَ تقول إنّك لا تستطيع أن تتصوّر نفسك تعملُ في بارٍ زمناً طويلاً، معروف، التعامل مع الجمهور عادة ما يكون غير مُحبّب ويحرقُ كثيراً. على كلّ الأحوال، وعلى الرغم من الفظاظة التي تُوَلّدها العلاقة بين ربِّ العملِ والعاملِ صرنا صديقين. على الرغم من أنّك لم تنتبه فإنّ تلك المرحلة كانت حاسمة بالنسبة إليّ. لم أقترب قط من الأرقام كما في تلك المرحلة، أعني بطريقة واعية، كنت أنا من يذهب إلى لقائها ولا أتركها هي تأتي إلى لقائي. أنت كنتَ تغسلُ الصحون في كورنو دِ أورو، يا بِلانو، وأنا أجلسُ إلى إحدى الطاولات القريبة من المخرج، أنشرُ دفاتر الحسابات والروايات وأُغمِض عينيَّ. أعتقدُ أنّ معرفتي بأنّك موجودٌ هناك كان يجعلني أكثرَ جسارة. قد يكون كلّ ذلك ترهات. هل سمعت ذات مرّة عن نظريّة جزيرة باسكوَا؟ تقول هذه النظريّة إنّ تشيلي هي جزيرة باسكوَا الحقيقيّة، أنت تعرف من الشرق تحدُّنا سلسلةُ جبال الأنديز ومن الشمال صحراء أتاكاما، ومن الجنوب أنتارتيدا، ومن الغرب المحيط الهادي. ولدنا في جزيرةِ باسكوَا وتماثيل موايس هي نحن أنفسنا، التشيليون، الذين ننظر مرتبكين إلى الجهات الأربعة. وذات ليلة بينما كنتَ أنتَ تغسل الأطباق، يا بِلانو، فكّرتُ أنّني ما أزالُ في سفينة الشحن *نابولي*. أنتَ يجب أن

تتذكّرَ تلك الليلة، أنا كنتُ أُفكّر بأنّني أموت في بطنِ *نابولي* المُنخفض، منسيّاً من البحّارة، الذين يعرفون بوجودي هناك، منسيّاً من الجميع، وأنّني في هذياني الأخير كنتُ أحلمُ أنّني كنتُ أصلُ إلى برشلونة وأنّني أمتطي صهوةَ الأرقام البرّاقة، وأنّني أكسب مالاً، ما يكفي كي أُحضِرَ عائلتي، وأسمح لنفسي ببعض الرفاهية، وكان حلمي يتضمّن زوجتي، روسا، وولديّ وباراتي، ثمّ فكّرتُ أنّني إذا كنتُ أحلمُ بمثل تلك الكثافة فلأنّني ولا شكّ كنتُ سأموت، لأنّني كنتُ أموتُ في قاع سفينة *نابولي*، وسط اَلهواء الفاسد والروائحَ المثيرة للغثيان، وعندها قلتُ لنفسي افتحْ عينيك، يا أندرِسْ، افتحْ عينيك، يا ميكي ماوس، لكنّني قلتُ هذا لنفسي بصوتٍ آخر، بصوتٍ بصراحةٍ أخافني، ولم أستطعْ أن افتحَ عينيّ، لكنّني بأذنيَّ، بأذنَيِّ ميكي ماوس سمعتُكَ، يا بِلانو، تغسل الأطباق في مطبخِ باري، وعندها قلتُ لنفسي ويحكَ، يا أندرِس، لا تستطيعُ أن تُجنَّ الآنَ، إذا كنتَ تحلمُ فتابِعْ حلمَكَ فقط، ويحكَ، وإذا لم تكنْ تحلمُ فافتحْ عينيكَ ولا تَخفْ. وعندها فتحتُ عينيّ وكنتُ في بار كورنو دِ أورو وكانت الأرقامُ تصطدم بالجدران مثل إشعاعاتٍ، كما لو أنّ القنبلة الذرّية سقطت أخيراً فوق برشلونة، حشدٌ لا نهاية له من الأرقام، لو عرفتُ به لبقيت برهة أخرى مغمضَ العينين، لكنّني فتحتُ عينيَّ، يا بِلانو، ونهضت عن الكرسيّ وذهبتُ إلى المطبخ، حيث كنتَ أنتَ تعملُ وحين رأيتُك، انتابتني رغبة بأن أحكي لك كلَّ القصّة، هل تتذكّر؟ كنتُ شبهَ مرتعشٍ وأتصببُ عرقاً مثل خنزير، لا أحد كان سيصدق أنّ رأسي كان يعملُ في تلك اللحظة أفضلَ من أيِّ وقتٍ مضى، أفضلَ من الآن، ربّما لهذا السبب لم أقلْ لك شيئاً، عرضتُ عليك عملاً أفضلَ، حضّرتُ لك كأسَ كوباليبرِ وأتيتُ لك بها، طلبتُ رأيكَ ببعض الكتب، لكنّني لم أحكِ لك ما جري لي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بدءاً من تلك الليلة عرفتُ أنّني ببعضِ الحظّ أستطيعُ أن أربحَ مرّةً أخرى جائزةَ يانصيبِ كرةِ القدم، لكنّني لم أعد للعب. هي تضع آلاف البيوض، كان يقول صوتُ حُلمي وتدحرجت إحدى البيوض إلى حيث كنتُ. أنا لم أكن أريدُ مزيداً من يانصيبِ كرة القدم. فأعمالي تسير بشكل جيّد. الآن أنت تريد أن ترحلَ وأحبُّ أن تحملَ معك انطباعاً جيّداً عنّي، ربّما كان انطباعاً كئيباً قليلاً، لكنّه جيّد. حضّرت لك حسابكَ وأضفتُ إليه شهرَ إجازة مدفوعة، ربّما شهرين. لا تقلْ شيئاً، انتهى الأمر. قلتَ لي مرّة إنّني لا أملك صبراً كثيراً، لكنّني أظنّ أنّ هذا ليس صحيحاً.

أبِل رومِرو، مقهى الألزاسي، شارع فوجيرارد، قرب حديقة لوكسمبورغ، باريس، أيلول ١٩٨٩.

حدث ذلك في مقهى فيكتور، في شارع سانت سوفير ذات حادي عشر من أيلول ١٩٨٣. كنّا مجموعةً من التشيليين المازوخيين مجتمعين كي نتذكّر التاريخَ المشؤوم. كنّا عشرين أو ثلاثين وتبعثرنا داخل المحلّ وفي الشرفة. فجأةً راح واحد، لا أتذكّر من، يتكلّمُ عن الشرّ، عن الجريمة التي غطّتنا بجناحِها الأسود الهائل. أرجوك! جناحها الأسود الهائل! واضح أنّنا نحن التشيليين لا نتعلّم أبداً! بعدها، كما هو مُتَوقّع، أُفْلِتَ النقاشُ من عقاله وطار حتى فتاتُ الخبزِ من طاولةٍ إلى أخرى. لا بدّ أنّ صديقاً مشتركاً قدّمنا وسْطَ تلك المعمعة، أو ربّما قدّمَ الواحدُ منا نفسَهُ للآخر، وهو كأنّه خمّن أنّه يعرفني. هل أنتَ كاتب؟ سألني. لا، قلتُ له، أنا كنتُ شرطيّاً في مرحلة الأكرش هورمازابال، وأعملُ الآن في تعاونية، أنظِّفُ أرضياتِ المكاتبِ ونوافذها. لا بدّ أنّه عمل خطير، قال لي. بالنسبة لمن يُعانون من دوارٍ، أجبتُهُ، بالنسبة للآخرين هو أقربُ للعمل

المُمِلّ. انضممنا بعدها إلى الحديث العام؛ الحديثِ عن الشرّ، عن الخبثِ، كما سبقَ وقلتُ لك. الصديق بِلانو قدّمَ ملاحظتين أو ثلاثاً، صائبة. أنا لم أفتح فمي. شربنا نبيذاً كثيراً في تلك الليلة، وحين ذهبنا، دون أن نعلم كيف، وجدتُ نفسي أسيرُ إلى جانبك مسافةَ عدّةِ شوارع فرعية. عندها قلتُ لكَ ما كان يدورُ في رأسي. يا بِلانو، قلت لك، لبُّ المسألة هو معرفة ما إذا كان الشرّ (أو الجنحة أو الجريمة، أو كما يحلو لك أن تُسميها) هو عرضيّ أم سببيّ. إذا كان سببيّاً، نستطيع أن نناضل ضدّه، تصعب هزيمته، لكن هناك احتمال، يشبه إلى هذا الحدّ أو ذاك ملاكِمَين من ذات الوزن. إذا كان عرضيّاً، على العكس، فنحن في مشكلة. فليأخذنا الله مْعْتَرِفين. وهذا يختصر كلّ شيء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٩

أماديو سالباتييرّا، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر التفتيش، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦.

كيف لا يوجد لغز؟ سألتُ. لا يوجد لغز، يا أماديو، قالا هما. بعدها سألاني: ماذا تعني القصيدةُ بالنسبة إليك؟ لا شيء. قلتُ، لا تعني شيئاً. ولماذا تقول إنّها قصيدة؟ لأنّ ثِساريا كانت تقول ذلك، تذكّرتُ. لهذا لا أكثر ولا أقل، لأنّ كلمة ثِساريا كانت عندي. لو أنّ تلك المرأة قالت لي إنّ قطعةً من غائطها ملفوفة في كيس مشترياتٍ هي قصيدة لكنتُ صدّقتها، قلتُ. يا لك من عصريّ! قال التشيليّ، ثمّ ذكرَ شخصاً يُدعى مانزوني. ألِسّانرو مانزوني؟ سألتُ أنا متذكّراً ترجمة لرِميخيو لوبّث بايٍّ، *الخطيبان*، والمنشورة في المكسيك عام ١٩٣٠ على وجه التقريب، لستُ متأكّداً. ألِسّاندرو مانزوني؟ لكنّهما قالا: بييرو مانزوني! الفنان الفقير، الذي كان يُعلّب خراءه ذاته. أه، يا للعجب. الفنّ الآن مجنون، أيّها الفتَيان، قلتُ لهما، وهما قالا: دائماً كان مجنوناً. رأيتُ في تلك اللحظة ظلالَ جرادٍ على جدران الصالون، ظلالاً تنزلُ من السقف المستعار ويبدو أنّها تريدُ أن تنزلق على ورق الجدار حتى المطبخ، لكنّها كانت في النهاية تغوص في الأرض، وهكذا فركتُ عينيَّ وقلت لهما، هيا لنرّ ما إذا كنتما ستشرحان لي القصيدة كلّها وننتهي، فأنا منذ خمسين سنة، رقم

مدوّر، أحلم بها. والفَتَيان فركا أيديهما في إثارة خالصة، يا للملاكين، واقتربا من مقعدي. لنبدأ بالعنوان، قال أحدهما، ماذا تعتقد أنّه يعني؟ صهيون، جبل صهيون في القدس، قلتُ دون تردّدٍ، وكذلك المدينة السويسرية زيون وفي الألمانية سيتين في إقليم فاليه. حسن، يا أماديو، قالا، يُلاحَظُ أنّك فكّرتَ بها، ومع أيّ احتمال أنت؟ مع جبل صهيون، صحيح؟ يبدو لي ذلك، قلتُ. طبعاً، قالا. الآن سننظر إلى المقطع الأول من القصيدة، ماذا عندنا؟ خطّ مستقيم وفوقه مستطيل، قلتُ. حسن، قال التشيلي، انسَ المستطيل، اعتبر أنّه غير موجود. انظر فقط الخطَّ المستقيم. ماذا ترى؟

خطّاً مستقيماً، قلتُ، ماذا أستطيع أن أرى أكثر من ذلك، أيها الفتيان؟ وبماذا يوحي إليك الخطّ المستقيم، يا أماديو؟ بالأفق، قلتُ. أفق طاولة، قلتُ. هدوء؟ قال أحدهما. بلى، هدوء، سكينة. حسن: أفق وسكينة. لنرَ الآن المقطع الثاني من القصيدة:

ماذا ترى، يا أماديو؟ خطّاً متماوجاً، ماذا أستطيع أن أرى غير ذلك؟ حسن، يا أماديو، قالا، الآن ترى خطّاً متماوِجاً وقبلها كنتَ ترى خطّاً مستقيماً يوحي لك بالسكينة والآن ترى خطّاً متماوجاً. هل ما زال يوحي لك بالسكينة؟ لا، قلتُ مُدركاً فجأة ما يذهبان إليه، إلى أين يريدان أن يقوداني. بماذا يوحي إليك الخطّ المتماوج؟ بأفق من تلال؟ بالبحر، بالأمواج؟ باستشعار بأنّ السكينةَ ستضطربُ؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بحركة، بقطعٍ؟ أفق من تلال، قلتُ. ربّما أمواج. لنرَ الآن المقطع الثالث من القصيدة.

لدينا خطّ منكسّر، يا أماديو، يمكن أن يكون أشياء كثيرة. أسنان سمكة قرش، أيّها الفَتَيان؟ أفق من جبال؟ سلسلة جبال سيرّا ماذْرِ الغربية؟ حسن، أيّها الفَتَيان، هيّا. وعندها قال واحد منهما: عندما كنتُ صغيراً، لم أكن أتجاوز السادسة، اعتدتُ أن أحلمَ بهذه الخطوط الثلاثة، المستقيم، المتماوج والمنكسر، في تلك المرحلة كنتُ أنام، لا أعلم لماذا، تحت الدرج، أو على الأقل في غرفة منخفضة السقف جدّاً بجانب الدرج. من المحتمل أنّه لم يكن بيتي، ربّما كنّا هناك مؤقّتاً، ربّما كان بيت جدّي. وفي كلّ ليلة كان يظهرُ بعد أن أغفو الخطُّ المستقيم. إلى هنا كان كلّ شيء يسير على ما يرام. ثمّ إنّ الحلم كان ممتعاً. لكن شيئاً فشيئاً راحَ المشهدُ يتغيّر والخطُّ المستقيم يتحوّل إلى خطٍّ مُتماوِج. وعندها كنتُ أبدأ أدوخ وأشعرُ بنفسي في كلّ مرّة أكثر سخونةً وأفقدُ الإحساسَ بالأشياء، بالاستقرار، والشيء الوحيد الذي كنتُ أرغبُ به هو العودة إلى الخطّ المستقيم. ومع ذلك تسع من عشر مرّاتٍ كان يلي الخطّ المتماوج الخطُّ المنكسر، وحين كنتُ أصلُ إلى هناك أشبه ما كنتُ أشعر به داخل جسدي هو أنّهم كانوا يشقونني، ليس من الخارج بل من داخلي، شقّاً يبدأ في البطن، لكن سرعان ما كنتُ أحسّ به أيضاً في رأسي وفي حنجرتي ولا يمكن الهرب من ألمه إلا بالاستيقاظ، على الرغم من أنَّ الاستيقاظ لم يكن سهلاً. يا له من شيء غريب، أليس كذلك؟ قلتُ أنا. بلى، قالا هما، شيء غريب. حقيقة شيء غريب،

قلتُ أنا. كنتُ أبولُ أحياناً في فراشي، قال واحد منهما. قلتُ أنا. غريبْ، غريب. هل فهمتَ؟ سألا هما. في الحقيقة الخالصة لا، أيّها الفَتَيان، قلتُ أنا. القصيدة مزحة، قالا هما، سهلة الفهم جدّاً، يا أماديو، انظر: أضِفْ لكلّ مستطيل في كلّ قَطعٍ شراعاً هكذا:

ماذا صار عندنا الآن؟ سفينة؟ سألتُ، بالضبط، يا أماديو، سفينة. والعنوان صهيون يُخبّئ في الحقيقة إبحاراً. وهذا كلّ شيء، يا أماديو، بسيط جدّاً، ليس هناك لغز أكثر، قال الفَتَيان وكان بودي أن أقول لهما إنّهما أزاحا ثقلاً عن كاهلي، هذا ما كان بودّي أن أقوله لهما، أو أنّ صهيون يمكن أن يخبئ وراءه سيمون، وهو تأكيد في لغة الكالو، مطلق من الماضي، لكنّ الشيء الوحيد الذي فعلته هو أنّني قلت، أه، يا للعجب وبحثت عن زجاجة التِكيلا وصببتُ كأساً، وأخرى. هذا كلّ ما بقي من تِساريا، فكّرتُ، سفينة في بحرٍ هادئ، سفينة في بحرٍ مُتماوِج، وسفينةٌ في بحرٍ عاصف. للحظة، أؤكّد لكم، كان رأسي مثل بحر هائج ولم أسمع ما كان يقوله لي الفتيان، وإن التقطّتْ بعضَ الجملِ، بعض الكلمات المتفرّقة، المتوقّعة، أعتقد: سفينة كِتزالكواتل، الحمّى الليلية لطفلٍ أو طفلة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصورة الشعاعية لدماغ القبطان أهاب، الصورة الشعاعية لدماغ الحوت، الصورة الشعاعية لسطح البحر الذي هو بالنسبة لأسماك القرش باب الجحيم الفسيح، السفينة بلا شراع، التي يمكن أيضاً أن تكون تابوتاً، طباقاً، طباقَ المستطيل، المستطيل-الوعي، مستطيل أينشتاين المستحيل (في عالم لا تخطر فيه المستطيلات على بال)، صفحة لأنطونيو ريِّس، دمار الشعر. وعندها ملأتُ، بعد أن شربتُ كأس التِكيلا، كأسي مرّةً أخرى وملأت كأسيهما وقلت لهما، لِنشرب نخبَ ثِساريا، ورأيتُ عيونهما، كم كان الوغدان سعيدين وشربنا نحن الثلاثة النخبَ بينما كانت العاصفةُ تتقاذفُ سفينتَنا الصغيرة.

إديت أوستِر، جالسة على مقعد في شارع ألامِدا، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، أيّار ١٩٩٠.

في مكسيكو، في العاصمة الفيدرالية رأيتُهُ مرّةً واحدةً فقط في مدخل قاعة ماريّا موريّو للفن، في منطقة روسا، في الساعة الحادية عشرة صباحاً. كنتُ قد خرجتُ إلى الرصيف لأدخّنَ سيجارة وكان هو ماراً من هناك وحيّاني. اجتاز الشارعَ وقال لي مرحباً، أنا أرتورو بِلانو، كلاوديا كلّمتني عنكِ. أعرف من أنتَ، قلتُ له. كنتُ وقتذاك في السابعة عشرة من عمري وأحبُّ قراءةَ الشعر، لكنّني لم أكن قد قرأت له شيئاً. لم يدخل إلى القاعة. لم يكن حسنَ المظهر. بدا وكأنّه قضى الليلَ ساهراً، لكنّه كان وسيماً. أعني بدا لي في تلك اللحظة وسيماً. ومع ذلك لم يُعجبني. لم يكن نموذجي. لماذا جاء ليُسلم عليّ؟ فكّرتُ. لماذا عبر الشارعَ وتوقّفَ في باب القاعة؟ فكّرتُ في الداخل لم يكن يوجد أحدٌ، ودعوته للدخول، لكنّه قال إنّه مرتاحٌ هناك في الخارج. كلانا كان تحت الشمس وواقفاً، أنا في

يدي سيجارة وهو ينظرُ إليَّ من مسافة أقل من مترٍ، كما لو أنّه ملفوفٌ بسحابة من غبار. لا أعرفُ عمّا تكلّمنا. أعتقدُ أنّه دعاني لتناولِ فنجان قهوةٍ في مطعمٍ قريب، وأنا قلتُ له لا أستطيع أن أترك القاعةَ وليس فيها أحد. سألني عمّا إذا كان يعجبني عملي. إنّه مؤقّت، قلتُ له، سأتركُهُ في الأسبوع القادم. ثمّ إنّهم يدفعون بشكل سيّئ. هل تبيعين لوحاتٍ كثيرة؟ سألَ. حتى الآن ولا لوحة، أجبتُهُ، ثمّ قال لي وداعاً وقلتُ له وداعاً وذهب. لا أظنّ أنّني أعجبته، على الرغم من أنّه قال لي فيما بعد إنّني أعجبتُهُ منذ اللحظة الأولى. في تلك المرحلة كنتُ بدينةً أو كنتُ أعتقد أنّني بدينة، وبدأت أعصابي تتلف. كنتُ أبكي ليلاً وكانت لي إرادة من حديد. أيضاً كانت لي حياتان أو حياةٌ تبدو حياتين. فقد كنتُ من جهة طالبةَ فلسفة وأقومُ بأعمالٍ متفرّقة، مثل عملي في قاعة ماريّا موريّو، وكنتُ من ناحيةٍ أخرى منتسبة إلى حزبٍ تروتسكيّ كان ما يزال سرّياً، كنتُ أعتبره مناسباً لمصالحي، على الرغم من أنّني لم أكن أعرف ما هي مصالحي. في مساءٍ كنّا نوزّع فيه دعايةً على السيارات المتوقّفة في اختناقِ سيرٍ، التقيتُ فجأة بسيارةِ أمّي الكريسلير. المسكينة كادت تموت من المباغتة. وأنا ناولتها، بأعصابٍ متوتّرة جدّاً، ورقة منسوخة وقلتُ له اقرئها وأدرتُ له ظهري، مع أنّني استطعتُ، بينما كنتُ أبتعد، أن أسمعها يقول لي سنتكلّم في البيت. في البيت دائماً كنّا نتكلّم. حوارات لا نهاية لها تنتهي بنصائح طبّية، سينمائيّة، أدبيّة، اقتصاديّة وسياسيّة. مرّت بضع سنوات حتى عدتُ ورأيت أرتورو بِلانو. المرّة الأولى كانت في عام ١٩٧٦، الثانية هل كانت في عام ١٩٧٨ أم في ١٩٨٠؟ الأرقام ليست نقطة قوّتي. حدث هذا في برشلونة، هذا ما لا ينساه أحد، كنتُ قد ذهبتُ لأعيش هناك مع رفيقي، مع خطيبي، مع صديقي، مع الرسام أبراهام منصور. كنت قد عشتُ قبل ذلك في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إيطاليا، في لندن، في تل أبيت. هتف لي يوماً أبراهام من العاصمة الفيدرالية وقال لي إنّه يُحبّني، وإنّه سيذهبُ لعيشَ في برشلونة وُيريدني أن أعيش معه. كنتُ وقتها في روما ولم أكن في وضعٍ جيّد، قلتُ له موافقة. اتفقنا على موعدٍ رومانسي في مطارِ باريس ومن هناك سافرنا في القطار إلى برشلونة. كان أبراهم حاصلاً على منحةٍ أو شيءٍ من هذا القبيل، من المحتمل أنّ والديه قرّرا أنّ فترةً في أوروبا لن تضرّه ومَوّلاه. لستُ متأكّدة من شيء، وجه أبراهام يضيع منّي وسط سحابة من البخار هي في كلّ مرّة أكبر. كانت أمور أبراهام تسير بشكل جيّد، في الحقيقة كانت أموره دائماً تسيرُ بشكل جيّد. كان من عمري تماماً ووُلدَ في الشهرِ ذاته والسنةِ ذاتها، لكن بينما كنتُ أنا أمضي من جهةٍ إلى أخرى دون أن أعرف ماذا أفعل، كانت الأمور بالنسبة إليه واضحة وعنده قدرة كبيرة على العمل، الطاقة البيكاسوية، كان يقولُ، وإن كان لا يشعر أحياناً بنفسهِ مرتاحاً، ويمرض ويعاني، إلاّ أنّهُ كان دائماً قادراً على أن يرسمَ خمسَ ساعاتٍ متواصلة، ثماني ساعاتٍ متواصلة، كلَّ يوم بما في ذلك يومَيّ السبت والأحد. معه مارستُ الحبَّ لأوّل مرّة. كلانا كان في السادسة عشرة من عمره. تزعزعت بعدها علاقتنا، قطعناها عدّة مرّاتٍ، هو لم يؤيّد قط انتمائي السياسيّ، لا أعني أنّه كان يمينيّاً، بل لم يكن يهمُّهُ الالتزام، ربّما لم يكن لديه وقتٌ لذلك، أنا كان لي عدد من العشّاق وهو بدأ يخرج مع فتاة اسمها نورا كاسترو بيلِنفِلْد وحين بدا أنّهما سيعيشان معاً انفصلا، أنا أُدخِلتُ المشفى مرّتين، تغيّر جسمي. هكذا أخذتُ القطار إلى باريس وانتظرتُ أبراهام في المطار. بعد عشر ساعات انتبهت إلى أنّه لن يأتي وخرجتُ من المطار باكية، على الرغم من أنّني لم أعِ تماماً أنّني كنتُ أبكي إلا فيما بعد. نزلتُ في تلك الليلة في فندقٍ رخيصٍ في مونتبارناس

وبقيتُ أُفَكِّرُ ساعاتٍ فيما كانت حياتي حتى تلك اللحظة وحين لم يعد جسمي يستطيع أكثرَ ابتعدتُ عن التفكيرِ وارتميتُ على السرير أتأمّل السقفَ، بعدها أغمضتُ عينيّ وحاولتُ أن أنام، لكنّني لم أستطع أن أنام، هكذا بقيت عدّة أيام دون أن أستطيع أن أنام، محبوسة في الفندق، لا أخرج إلا في الصباحات، دون أن أذوقَ طعاماً تقريباً، دون أن أغتسلَ تقريباً، وبي كتام مع آلامٍ شديدةٍ في الرأس، بكلمةٍ واحدة دون رغبة بأن أعيش.

إلى أن أخذني النوم. عندها حلمتُ أنّني مسافرة إلى برشلونة وبأنّ السَّفرةَ كانت، بطريقة غامضة وفعّالة، كما لو أنّني أعودُ لأبدأ حياتي من الصفر. حين استيقظتُ دفعتُ الحسابَ وأخذتُ أوّل قطار إلى إسبانيا. عشتُ الأيّام الأولى في نزلٍ في رمبلا كابوتشنوس. كنتُ سعيدة. اشتريتُ كناريّاً، أصيصَيّ خبّازى وعدداً من الكتب. لكنّني كنتُ بحاجةٍ للمالِ فاضُطرِرتُ لأنّ أهتف لأمّي. حين تكلّمتُ معها علمتُ أنّ أبراهام كان يبحثُ عنّي مثل مجنونٍ في كلّ باريس وأنّ عائلتي كانت تعتبرني مفقودة. سألتني أمّي عمّا إذا كنتُ قد جُننت. حتى الآن لا، قلتُ لها وضحكتُ، لا أعرف لماذا بدا لي جوابي ظريفاً، ليس لأنّ أمي سألتني عمّا إذا كنتُ قد جُننتُ. حدّثتُها بعد ذلك عن انتظاري الطويل في المطار. لا أحد تركك تنتظرين يا بنيّتي، قالت أمّي، المسألة أنّكِ أخطأت بالتاريخ. استغربتُ أن تقول لي أمّي هذا. كان له وقعُ روايةِ أبراهام منصور العامّة. قولي لي أينَ أنتِ فأبراهام سيذهبُ الآن ليبحث عنك، قالت أمّي. أعطيتها عنواني، قلت لها أن تُرسل لي حوالةً وأغلقتُ الهاتف.

بعد يومين حضر أبراهام إلى نزلي. كان لقاؤنا بارداً. اعتقدتُ أنّه وصل توّاً من باريس، لكنّه كان في الحقيقة مقيماً في برشلونة منذ الأيام التي مضت عليّ فيها. أكلنا في مطعم من الحيّ القوطيّ أخذني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعدها إلى بيته، على بعد شوارع قليلة. قرب ساحة سانت جاومِ، شقّة صاحبة قاعة الفن الكتلانية المكسيكية صوفيا ترومبّادول، التي يستطيع أن يشغلها أبراهام كلّ الوقت الذي يريده فترومبادول ما عادت تزورُ برشلونة تقريباً. في اليوم التالي ذهبنا لنأتي بأشيائي من النزل وأقمتُ هناك. ومع ذلك بقيت علاقتي بأبراهام منصور باردة، من دون استياء من الانتظار في باريس، الذي ربّما تسبب به شرودي، لكنّها بقيت علاقة مُتحفِّظَة، كما لو أنّني قبلتُ أن أكون زوجته وأشاركه السرير والزيارات إلى المعارض والمتاحف، والعشاءات مع الأصدقاء البرشلونيّين، لكن ليس أكثر من ذلك. هكذا مضت عدّة شهور. وذات يومٍ ظهر في برشلونة دانيال غروسمان. هو كان يعرف أين يعيش أرتورو بِلانو وكان يذهب لزيارته يوميّاً تقريباً. رافقته ذات مساء. تكلّمنا. في اليوم التالي عدتُ إلى بيته، لكنّني ذهبت هذه المرّة وحدي. خرجنا لنأكل في مطعم رخيص، هو دعاني وبقينا نتكلّم ساعاتٍ. أظنّ أنّني حكيت له كلَّ حياتي. هو أيضاً تكلّم وحكى لي أشياء نسيتُها، على كلّ الأحوال من تكلّمت أكثر هي أنا.

منذ ذلك الوقت بدأنا نلتقي مرّتين على الأقل في الأسبوع. دعوته مرّة إلى بيتي، هذا إذا كان باستطاعتي أن أعتبر شقّة ترومبادول البرشلونية بيتي، وقبل أن يذهب بقليل ظهر أبراهام. لاحظتُ أنّ أبراهام كان غيوراً. حيّانا وقبّلني على جبيني، أغلقَ بعدها على نفسه مرسمَهُ، كما لو أنّه بهذا العمل كان يُعطي درساً لأرتورو. حين ذهب دخلتُ إلى المرسم وسألته ما به. لم يُجبني، لكنّنا مارسنا في تلك الليلة الحبّ بعنفٍ غير معهود. اعتقدتُ أنّه سيكون مختلفاً لمرّة واحدة. أخيراً لم أشعر بشيء، كانت علاقتي مع أبراهام، فهمت ذلك فجأة، قد وصلتْ إلى نهايتها. قرّرتُ العودةَ إلى المكسيك، قرّرت أن أدرسَ سينما، أن أعودَ إلى الجامعة، تكلّمتُ مع أمّي وهذه

أرسلت إليّ في اليوم التالي بطاقةَ السفر إلى العاصمة الفيدرالية. حين قلتُ لأرتورو إنّني ذاهبة لاحظتُ حزناً في عينيه. فكّرتُ: إنّه الشخص الوحيد الذي سيشعر بأنّني ما عدت هنا. وذات مرّة، لكنّ هذا حدث قبل أن أُقرِّر أن أترك أبراهام، حكيت له أنّني كنتُ أرقص. فكّرَ أنّني كنتُ راقصة كابريه أو أنّني أمارس التعرّي. استملحتُ الحالة كثيراً، لا، قلتُ له، يا منى عيني لو أنّني أرقص في كابريه، أنا راقصة رقص حديث. في الحقيقة لم أتصوّر نفسي قط أرقص في كابريه، أقدّمُ دوراً مؤسفاً وأعيش بين ناس غامضين وفي أماكن معتمة، لكن عندما اختلط الأمر على أرتورو وقال ذلك، بقيت أُفكّر بهذه الإمكانية لأوّل مرّة في حياتي وبدت لي الآفاقُ (المُتَخيّلةُ) لحياةِ راقصةٍ محترفةٍ جذّابةً، بل وجذّابة بشكل مؤلم، وإن كففت بعدها عن التفكير بهذا، فالحياة بحدّ ذاتها كانت معقّدة بما يكفي. بقيتُ أسبوعين أكثر في برشلونة وقابلتُهُ كلَّ يومٍ تقريباً. كنّا نتكلّم كثيراً، دائماً عنّي تقريباً. كلّمته عن والديَّ، عن انفصالِهِما، عن جدّي، ملك الثياب الداخلية المكسيكية، عن أمّي التي ورثت إمبراطوريته، عن أبي الذي كان قد درسَ الطبَّ والذي كنتُ أعبدُهُ، كلّمته عن مشاكلي مع وزنيَ الزائد عندما كنتُ مراهقة (هو لم يكن يستطيع أن يُصدّق فقد كنتُ وقتها ناحلة جدّاً)، عن عضويتي في الحزب التروتسكي، عن الأخلّاء الذين كانوا ليّ، عن جلساتِ تحليلي النفسيّ.

ذهبنا ذات صباح إلى ميدانٍ لترويضِ الخيل في كاستِلدِفِلْز كان صاحبه صديقاً لأرتورو ترك لنا حصانين يوماً كاملاً دون أن يتقاضى شيئاً. سبق وتعلّمتُ ركوبَ الخيل في نادٍ للفروسيّة في العاصمة الفيدرالية وهو تعلّمه وحده عندما كان صغيراً في جنوبِ تشيلي، قطعنا الأمتار الأولى بالمشي السريع، قلتُ له بعدها أن نجري. كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الطريق مستقيماً وضيقاً يصعدُ بعدها تلاً محاطاً بالصنوبر ثمَّ يهبطُ حتى مجرى نهر جافّ وفيما وراء النهرِ كان هناك نَفَقٌ وخلفَ النفقِ البحرُ. قَمَصْنا. في البداية حافظ على حصانه ملاصقاً لحصاني، لكن لا أدري ماذا جرى لي بعد ذلك فانصهرتُ بالحصان ورحتُ أعدو به بسرعة كبيرة وتركت أرتورو ورائي. لم يكن يهمّني أن أموتَ في تلك اللحظة. كنتُ أعرفُ، كنتُ واعيةً إلى أنّني لم أحكِ له أشياءَ كثيرة ربّما كنتُ بحاجةٍ لأن أحكيها له أو أنّه كان عليّ أن أحكيها له، وفكّرتُ أنّني إذا متُ ممتطية الحصان أو إذا رماني هذا أو رماني غصنٌ من غابة الصنوبر بعنف، فإنّ أرتورو سيعرف كلَّ الذي لم أحكِه له وسيفهمُهُ دون أن يحتاجَ إلى أن يسمعَهُ من شفتيَّ. لكنّني حين خلَّفتُ غابةَ الصنوبر ورائي، حين كنتُ أهبطُ نحو مجرى النهر الجاف، تحوّلت رغبتي بالموت إلى فرح، فرحِ أنّني ممتطية حصاناً وأخبُّ، فرحِ أنّني أتلقى الريح على خدّيّ، بل وشعرتُ بعد قليل بخوفٍ من أن أسقطَ فالمنحدر كان أقسى مما ظننتُ، وعندها لم أعد أريدُ أن أموت، كان ذلك لعباً وأنا لا أريدُ أن أموت، على الأقل في تلك اللحظة، وبدأتُ أخفّف من سرعتي. عندها حدث شيء مفاجئ. رأيتُ أرتورو يمرّ بجانبي مثل سهم ورأيتهُ ينظرُ إليّ دون أن يتوقّفَ ويبتسمُ ابتسامةً شبيهةً بابتسامةِ قطّ شيشاير، على الرغم من أنّه فقد في حياته العشوائية بعضَ أضراسه، لكن سيّان، فابتسامتُهُ بقيت هناك بينما هو وجواده يتابعان اندفاعهما السريع نحو مجرى النهر الجافّ، بسرعة جعلتني أُفكّرُ أن كليهما، الفارس والحصان سوف يتدحرجان فوق الحجارة المغطاة بالغبار وأنّني حين أترجّلُ وأعبرُ سحابةَ الغبارِ التي أثارتها السقطةُ سوف أجد الحصان وقد كُسِرَتْ ساقُهُ وبجانبه أرتورو محطّمَ الرأس، ميتاً، مفتوحَ العينين، وعندئذٍ خفتُ وعدتُ لأحثّ حصاني وهبطتُ باتجاه النهر، لكنّ سحابةَ الغبار لم تسمح لي

في البداية بأن أرى شيئاً، وحين اختفت في سريرِ النهر لم يكن هناك لا حصان ولا فارس، لا شيء، فقط ضجيج السياراتِ التي كانت تمرّ على الطريق السريع، المخفي في البعيد خلف الأشجار، والشمس تغلي فوق حجارة المجرى الجافّةِ، وكان كلّ شيء كالسحر، فجأة وإذا بي مع أرتورو، فجأة وإذا بي مرّةً أخرى وحدي، وعندها فعلاً شعرتُ بالخوف إلى حدٍّ أنّني لم أجرؤ على النزول، ولم أقلْ شيئاً، فقط رحت أنظرُ إلى كلّ الجهات ولم أرَ له أثراً، كما لو أنَّ الأرضَ أو الهواءَ ابتلعه، وحين أوشكتُ على البكاء رأيته، في مدخل النفق، بين الظلال، مثل روحٍ خبيثةٍ، ينظرُ إليَّ دون أن يقول شيئاً، وهمزتُ الحصان باتجاهه وقلتُ له، ويحك، لقد أخفتني خوفاً مريعاً، يا أرتورو، وهو نظرَ إليّ بطريقة حزينة جدّاً وإن ضحك بعدها كي يُداري، عندها عرفتُ، فقط عندها، أنّه عشقني.

في الليلة السابقة على مغادرتي ذهبت لأراه. تكلّمنا عن السفر، سألني عمّا إذا كنتُ واثقة مما أفعل. قلتُ له لا، لكنّ البطاقة موجودة ولم يعد بمقدوري تفاديه. سألني من سيحملني إلى المطار. قلتُ له أبراهام وصديقة أخرى. قال لي لا تذهبي. ما من أحدٍ طلب منّي قط ألا أذهب، كما طلبه هو. سألته إذا كان يريد أن يمارس معي الحبّ (قلتُ: إذا كنتَ تريد أن تُجامعني) فليفعل الآنَ. كلّ شيء كان محزناً. إذا كان ما تريده هو المجامعة فلنتجامع الآن. الآن؟ استغربَ هو. الآن فوراً، قلتُ أنا وخلعت قميصي وتعرّيتُ دون أن أنتظره ليقول نعم أو لا. ولم نمارس الحبّ (أو ربّما عدم ممارسة الحب كان طريقتنا في ممارسة الحبّ) لأنّه لم ينتصب معه، بالمقابل تعانقنا فعلاً وجابت يداه ساقيَّ من أعلى إلى أسفل، يداه داعبتا عضوي، معدتي، ثدييّ، وحين سألتُهُ ما به قال: ما بي شيء، يا إديث، وأنا اعتقدت أنّني لم أكن أعجبه، وأنّ الذنب ذنبي،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وعندئذٍ قال لي هو لا، الذنب ليس ذنبك، بل ذنبي، لا ينتصبُ معي، أو ربّما قال لا ينهضُ معي أو شيئاً من هذا القبيل. قال بعدها لا تهتمّي. وأنا قلتُ: إذا كنتَ أنتَ لا تهتمّ، أنا لا أهتمّ. وقال هو: أنا لا أهتمّ. وعندها قلتُ له لا أهتمُّ. وقلت له منذ سنةٍ تقريباً لم يأتني الحيض، وإنّ عندي مشاكلَ طبّية، وتعرّضتُ لاعتداءين جنسيين، وإنّني خائفةٌ وحانقة، وسأعمل فيلماً، وعندي مشاريع، وبينما كان يُصغي إليّ راح يُداعب جسدي وينظر إليّ وفجأة بدا لي أنّ كلّ ما كنتُ أقوله له تافهٌ وانتابتني رغبة بأن أنام معه، على فراشِ المرميّ على أرض ذلك البيتِ الصغير. وكان الأمر يتعلق بأنّ أُفكِّرَ بذلك وأنام، نوماً عميقاً وممتعاً، دون فزع، وحين استيقظتُ كان نور النهار يدخل من نافذة البيت الوحيدة ويُسمَعُ ضجيج بعيد، مذياع عاملٍ يستعدُّ للذهاب إلى عمله وكان أرتورو إلى جانبي نائماً، منكمشاً قليلاً، مُغطّى بالبطانيات حتى أضلاعه وبقيتُ برهة أتأمّله وأفكّرُ كيف ستكون حياتي لو عشت معه، لكنّني قرَّرتُ بعدها أنّ عليّ أن أكونَ عمليّةً وألا أتركَ الأحلام تحملني ونهضتُ بكثير من الحذر وذهبتُ.

كانت عودتي إلى المكسيك مشؤومة. في البداية عشتُ في بيتِ أمّي، استأجرتُ بعدها بيتاً صغيراً في كويواكان وبدأتُ آخذ بعض الدرس في الجامعة. وذات يوم رحتُ أفكّر بأرتورو وقرّرتُ أن أهتف له. شعرتُ بينما كنتُ أديرُ القرصَ بأنّني أختنقُ واعتقدت أنّني سأموت. قال لي صوتٌ إنّ أرتورو لا يدخل إلى العمل حتى التاسعة ليلاً بتوقيت إسبانيا. حين أغلقتُ الهاتفَ كانت نيّتي الأولى أن أدخل في الفراش وأنام، لكنّني في اللحظة ذاتها انتبهتُ إلى أنّني لن أستطيعَ أن أنام، وهكذا رحتُ أقرأُ، أكنسُ البيتَ، أنظّفُ المطبخَ، أكتبُ رسالةً، أتذكّرُ أشياءَ لا معنى لها حتى دقت الساعةُ الثانية عشرة ليلاً

وعدتُ لأهتف. كان أرتورو من ردّ على الهاتف هذه المرّة. بقينا نتكلّم قرابة الخمس عشرة دقيقة، بدءاً من تلك اللحظة صرنا نتهاتف مرّةً في الأسبوع. كنتُ أنا أحياناً من يهتفُ له إلى عمله وأحياناً أخرى هو من يهتف لي إلى البيت؟ قلتُ له ذاتَ يوم أنْ يأتي ليعيشَ معي في المكسيك. قال لي إنّه لا يستطيع أن يدخلَ إلى المكسيك، وإنّ المكسيكّ لا تمنحه تأشيرة دخول. قلتُ له أن يطير إلى غواتيمالا وسنتزوّج هناك، وعندها يستطيعُ أن يدخل دون أيّ مشكلة. بقينا أيّاماً كثيرةً نتحدّث عن هذه الإمكانية. هو كان يعرف غواتيمالا وأنا لا. حلمتُ في بعض الليالي بغواتيمالا. جاءت أمّي ذاتَ مساء لتراني وارتكبتُ خطأ أنّني حكيتُ لها ذلك. حكيتُ لها أحلامي بغواتيمالا ومحادثاتي الهاتفيّة مع أرتورو. كلُّ شيء تعقّدَ دونما ضرورة. ذكّرتني أمّي بمشاكلي الصحّيّة، من المحتمل أنّها راحت تبكي، وإن كنت لا أظنّ، على الأقل لا أتذكّر أنّني رأيتُ دموعها على وجهها. وفي مساءٍ آخرَ جاءت أُمي وأبي ورجواني أن أذهبَ لاستشارة طبيبٍ مشهور. لم يكن أمامي غير أن أقبل، فهما من كانا يُعطياني النقود. من حسن الحظّ أنّه لم يكن هناك أيّ مشكلة مع الطبيب، كلّ مشاكل إديث تمّ تجاوزُها، قال لهما. على كلّ الأحوال ذهبتُ في الأيّام التالية إلى عيادةِ طبيبين آخرَيْن مشهورَيْن ولم تكن تشخيصاتهما مريحة جدّاً. سألني أصدقائي عمّا بي. قلتُ لواحدٍ منهم فقط إنّني عاشقة وإنّ حبيبي في أوروبا. وإنّه لا يستطيع أن يجتمع بي في المكسيك. كلّمتُهُ عن غواتيمالا. قال لي صديقي إنّ الأسهلَ لي أن أعودَ إلى برشلونة. لم يخطر لي هذا حتى تلكَ اللحظة، وحين فكّرتُ به شعرتُ بنفسي بلهاء. لماذا لا أعودُ إلى برشلونة؟ حاولتُ أن أحلَّ مشاكلي مع والديّ. حصلتُ على المالِ لشراء بطاقة السفر. تكلّمتُ مع أرتورو وقلت له إنّني ذاهبة إلى هناك. حين وصلتُ كان هو في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المطار. لا أدري لماذا كنتُ آمل في أعماقي ألا يكون هناك أحد. أو أن يكون هناك أشخاصٌ أكثر وليس فقط أرتورو، بعضُ أصدقائه، بعضُ صديقاته. هكذا بدأت حياتي الجديدة في برشلونة.

وذات مساء بينما كنتُ نائمة، شعرتُ بصوتِ امرأةٍ. عرَفْتُ فوراً أنّها عشيقة قديمة لأرتورو. كنتُ أسمّيها سانتا تِرِسا، كانت امرأة أكبر سنّاً منّي، يجبُ أن تكون في الثامنة والعشرين من عمرها وكانت تُحكى عنها دائماً أشياءٌ رائعة. سمعتُ بعدها صوتَ أرتورو، خافتاً جدّاً، يقول لها إنّني نائمة. بقيا دقائقَ يُتمتمان. سألها بعدها أرتورو سؤالاً فقالت له عشيقتُهُ السابقة بلى. بعدها بكثير فهمتُ أنّ أرتورو سألها عمّا إذا كانت تُريد أن تراني نائمةً. قالت سانتا تِرِسا بلى. تظاهرتُ بالنوم. سُحِبَت الستارةُ التي تفصل غرفة النوم الوحيدة عن الصالون ودخلَ أرتورو وسانتا تِرِسا في الظلمة. لم أبغِ أن أفتحَ عينيّ. بعدها سألتُ أرتورو من كان في البيت. لفظ اسمَ سانتا تِرِسا وأراني بعضَ الأزهار التي جاءتني بها هذه. إذا كنتما تُحبّان بعضكما إلى هذا الحدّ، فكّرتُ، فعليكما أن تكونا معاً. لكنّني كنتُ أعرف في أعماقي أنّ أرتورو وسانتا تِرِسا لن يعودا ليعشيا معاً أبداً؟ قليلةٌ هي الأشياء التي كنتُ أعرفها، لكنّ هذا كنتُ أعرفه بيقين. كنتُ أعرف بيقين تامّ أنّه كان يُحبّني. لم تكن حياتنا المشتركة في الأيّامِ الأولى سهلة. لا هو كان معتاداً على أن يشاطره أحدٌ بيتَهُ الصغيرَ ولا أنا كنتُ معتادة على أن أعيشَ بطريقة مُقلقة إلى ذلك الحدّ. لكنّنا كنّا نتكلّم وهذا ما كان يُنقذنا كلّ يوم. كنّا نتكلّم حتى الإنهاك، منذُ أن نستيقظ وحتى ننام. أيضاً كنّا نمارس الحبّ. في الأيام الأولى بشكل سيّئ جدّاً، بطريقة متعثرة جدّاً، لكن مع كلّ يوم كان يمرّ كنا نمارسُهُ بشكلٍ أفضل. على كلّ الأحوال لم أكن أحبّ أن يُجهد نفسَهُ إلى ذلك الحد كي أصل إلى الرعشة. فقط أريدكَ أن

تقضي وقتاً ممتعاً، كنتُ أقول له، إذا كنتَ تحبُّ أن تقذف فاقذفْ، لا تكبح نفسك لأجلي. عندها ببساط لم يكن يقذف (أعتقد كي يُعاكسني) ونستطيع أن نمضي ليلة كاملة ونحن نتجامع، وكان هو يقول إنّه يحبُّ أن يكون كذلك، دون أن يقذف. لكن بعد أيام صارت تؤلمه خصيتاه بشكل مريع وكان يُضطر لأن يقذف حتى ولو لم أستطع أنا ذلك.

مشكلة أخرى، هي الرائحةُ عندي، رائحةُ فرجي، رائحةُ سائلي. كان في تلك المرحلة قويّاً جدّاً. دائماً كنتُ أخجل منه. رائحةٌ سرعان ما تُهَيْمِنُ على كلِّ زوايا الغرفة التي أمارس فيها. وكان بيت أرتورو من الصغير وممارستنا للحبّ من الكثرة بحيثُ أنّ رائحتي لم تكن تبقى مقصورة على جوّ الغرفة بل كانت تعبر إلى الصالون، المفصول عن غرفة النوم بستارة وإلى المطبخ، الغرفةِ التي كانت من الصغر بحيث أنّه لم يكن لها باب. والأسوأ من ذلك أنّ البيت كان في وسط برشلونة، في الجزء القديم وأنّ أصدقاء أرتورو يظهرون هناك عادة يوميّاً، دون أن يُعلِموا، كانوا في غالبيتهم تشيليين وإن كان هناك مكسيكيون أيضاً. بينهم دانيال. وأنا لا أعرفُ ما إذا كنتُ أخجل أكثر من أن ينتبه إلى الرائحة التشيليون، الذين كنتُ لا أكاد أعرفهم أم أن ينتبه المكسيكيون، الذين كانوا بطريقة ما أصدقاءنا المشتركين. على كلِّ الأحوال كنتُ أكرهُ رائحتي. سألتُ أرتورو ذاتَ ليلة عمّا إذا كان قد ضاجع امرأةً تصدرُ عنها رائحة بهذه الطريقة. قال لا. رحتُ أبكي. أضافَ أرتورو إنّه أيضاً لم ينمْ مع أخرى أحبّها إلى ذلك الحدّ. لم أُصدّقه. قلتُ له إنّه كان يقضي، دون شكٍّ، وقتاً طيّباً مع سانتا تِرِسا. قال بلى، إنّه جنسيّا كان يقضي معها وقتاً أفضلَ، لكنّه يُحبّني أكثر. ثمّ قال، إنّه أيضاً كان يحبّ سانتا تِرِسا كثيراً، لكن بطريقة أخرى. هي تُحبّك كثيراً، قال. أثارت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المبالغةُ بالحبّ عندي رغبة بالتقيّؤ. حملتُهُ على أن يَعِدَني ألا نفتح الباب إذا ما جاء أحد من أصدقائه ما دامت الرائحة لم تذهب من البيت. أجابْ إنّه مستعدّ أن لايرى أحداً أبداً غيري. بالطبع اعتقدتُ أنّه كان يمزح. بعدها لا أعرف ماذا جرى.

بدأتُ أشعرُ بأنَّني لستُ على ما يرام. كنّا نعيش مما كان يكسبُهُ هو، فأنا منعتُ أمّي منعاً باتّاً من أن تُرسل لي مالاً. لم أكن أريدُ ذلك المال. بحثتُ عن عملٍ في برشلونة وأخيراً انتهيت إلى أنّني رحتُ أُعطي دروساً عبريةً خاصّة. كتلانيون غريبو الأطوار جدّاً كانوا يَدرسون القَبالة أو التوراة، من حيث كانوا يستخلصون استنتاجات هرطقية، وبالنسبة إلي كانوا فقط يساهمون في جعلِ شعرِ جسدي يقف حين كانوا يفسّرونها لي ونحن نشربُ فنجانَ قهوةٍ في بارٍ أو فنجانَ شايٍ في بيوتهم، بعد انتهاء الدرس. في الليل كنتُ أُحدِّثُ أرتورو عن طلاّبي. حكى لي أرتورو مرّةً أنّ عوليس ليما عنده روايةٌ خاصّةٌ حول أمثال يسوع، تستندُ لا أعرف إلى أي خطأٍ أو سوءِ تفسير للعبرية، لكنّه لم يعرف كيف يُفسّرها لي جيّداً أو أنّني أنا نسيته، أو الاحتمال الأكبر هو أنّني عندما حكاها لي لم أُولِهِ انتباهاً كبيراً. أظنّ أنّ الصداقة بين أرتورو وعوليس في تلك المرحلة كانت قد انطفأت. رأيتُ عوليس ثلاثَ مرّات في المكسيك والأخيرة حين قلتُ له إنّني عائدة إلى برشلونة لأعيشَ مع أرتورو، وقال لي ألاّ أفعل، وإنّه إذا ذهبتُ سيشتاق إليّ كثيراً. في البدايةِ لم أفهم ماذا كان يعني، لكنّني فهمت بعدها أنّه عشقني أو شيئاً من هذا القبيل فانتابتني نوبة من الضحك، أمامه، لكنَّ أرتورو صديقُك! قلتُ له، وبعدها رحت أبكي، وحين رفعتُ وجهي ورأيتُ عوليس انتبهت إلى أنّه هو أيضاً كان يبكي، لا، يبكي لا، بل كان يُرغِم نفسه على البكاء، يرغِم دموعَهُ وأنّ بعضَها أطلَّ من عينيه. ماذا سأفعل وحدي؟ قال. كان في

المشهد كلّه شيء خيالي. حين حكيتُ هذا لأرتورو، ضحكَ وقال إنّه لا يستطيعُ أن يُصَدّق وتعرّض بعدها لصديقه على أنّه ابن عاهرة. لم نتكلّم بعدها عن الموضوع، لكنّني في تلك الإقامة الثانية في برشلونة كنتُ أتذكّرُ أحياناً عوليس ودموعَهُ وأنّه، بحسب قوله، كان سيبقى وحده في المكسيك.

وذات ليلة حضّرتُ صلصة شطّة حمراء وأكلنا أنا وأرتورو والنوافذ مفتوحة، لأنّ الجوَّ كان حارّاً جدّاً وفجأةً وصلتنا من الشارعِ جلبةٌ كبيرة، كما لو أنّ المدينة كلّها خرجت لتحتجّ على شيء، على الرغم من أنّهم لم يكونوا في الحقيقةِ يحتجّونَ على شيء، فقط كانوا يحتفلون بفوزِ فريق كرة القدم. كنتُ قد حضّرت المائدة وأوليتُ الصلصةَ اهتمامي، لكنّ الضجةَ في الشارع كانت كبيرة إلى حدٍّ أنّه لم يكن باستطاعتي أن أسمع ما كنّا نقوله. مما أجبرنا على إغلاق النافذة. كان الجوّ حارّاً والفرّوجُ مع الصلصة حارّاً جدّاً. كان أرتورو يتصبّب عرقاً وأنا أتصبّب عرقاً وفجأةً انفجر كلُّ شيء مرّةً أخرى ورحت أبكي. الغريب هو أنّه حين حاول أرتورو أن يُعانقني سحقتني موجةٌ من الحنق وبدأتُ أشتمه. كان بودّي أن أضربه، ولكنّني سرعان ما فوجئتُ بأنّني كنتُ أضربُ نفسي. كنتُ أقول: أنا، أَنا، أَنَا، وأضربُ على صدري بإبهامي إلى أن أمسك أرتورو بيدي. بعدها قال لي إنّه خاف على إصبعي من أن تنكسر أو أن أُؤذي صدري أو الاثنين معاً. هدأتُ أخيراً وخرجنا إلى الشارع، كنتُ بحاجة للهواء كي أتنفّس، لكن في تلك الليلة كان هناك ملايين الأشخاص في الشوارع، والرمبلاس كانت محتلّة، رأينا في الزوايا حاويات قمامة كبيرة تمنع المرور وفي أخرى فتية يجهدون محاولين أن يقلبوا سيارات. رأينا أعلاماً، ناساً يضحكون بصوتٍ عالٍ وينظرون إليَّ كغريبة لأنّني كنتُ أسيرُ جدّية جدّاً، أشقُّ طريقي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بمرفقيّ، أبحث عن الهواء الذي أتلهف إليه، الهواء الذي كان ينقصني وكان يختفي كما لو أنّ برشلونة كلّها تحوّلت إلى حريق عظيم، حريق داكن مليء بالأشباحِ والصراخِ وأغاني كرة القدم. سمعنا بعدها وَلْوَلَةَ صفاراتِ سيارات الشرطة؛ مزيداً من الصراخ، مزيداً من أصوات زجاجٍ يتكسّر. بدأنا نركض. أظنُّ أنّ كلَّ شيء انتهى هناك بيني وبين أرتورو. في الليل كنّا عادة نكتبُ. هو كان يكتب رواية، وأنا يومياتي وشعراً وسيناريو سينمائي. كنّا نكتبُ وجهاً لوجه ونشربُ عدداً من فناجين الشاي. لم نكن نكتبُ للنشر بل كي نعرف أنفسنا أو كي نرى إلى أين نحن قادرون أن نصل. وحين كنّا لا نكتبُ نتكلّم دون توقّف، عن حياته، عن حياتي، وخاصّة عن حياتي، وإن كان أرتورو يحكي لي أحياناً قَصصاً عن أصدقاء ماتوا في حروب عصاباتِ أمريكا اللاتينية، بعضهم كنتُ أعرفه بالاسم، وبعضهم الآخر كانوا في المكسيك عابرين حين كنتُ أناضل مع التروتسكيين، لكنّ الغالبيةَ منهم كانت المرّة الأولى التي أسمع بذكرهم. وبقينا نمارس الحبّ وإن رحتُ في كلّ ليلة أبتعدُ أكثر قليلاً، لاإراديّاً، دون أن أتقصّد ذلك، دون أن أعرف إلى أين كنتُ ماضية. كما حدث لي مع أبراهام تقريباً، مع فارق أنّ الحالةَ الآن أسوأ قليلاً، فأنا الآن لا أملك شيئاً.

وذات ليلة بينما كان أرتورو يمارس معي الحبّ، قلت له ذلك. قلتُ له إنّني أُجَنّ، وإنّ الأعراض تتكرّر. بقيتُ برهة طويلة أتكلّم. فاجأني ردّه (كانت المرة الأخيرة التي يُفاجئني فيها)، قال إذا أنا جُنِنْت فهو أيضاً سيُجَنّ، وإنّه لا يهمُّهُ أن يُجَنّ إلى جانبي. هل تُحبّ أن تلعب مع الشيطان؟ سألتُهُ. ليس الشيطان من ألعب معه، قال هو. بحثتُ عن عينيه في الظلمةُ وسألته عمّا إذا كان يتكلّم بجدّية. طبعاً أتكلّم بجدّية، قالَ لي ولصق جسده بجسدي. كان حلمي في تلك

الليلة ممتعاً. في صباح اليوم التالي كنتُ أعرفُ أنّ عليّ أن أتركه وأنّني كلّما أسرعتُ كان أفضل، وعند منتصف النهار هتفتُ لأمّي من مركز الهاتف. في تلك السنوات لم يكن أرتورو ولا أصدقاؤه يدفعون المكالماتِ الدولية التي كانوا يقومون بها عادة. لم أعرف قط ما الطريقة التي كانوا يتبعونها. فقط عرفتُ أنّها كانت أكثر من واحدة وأنّ النصب على مؤسسةِ الهاتف كان بالتأكيد بآلاف الملايين من البيزيتات. كانوا يصلون إلى هاتف ويمدون سلكَيْن وينتهي الأمر، يصبح عندهم خطّ، كان الأرجنتينيون الأفضل، دون أدنى شكّ، يليهم التشيليون، لم أعرف مكسيكيّاً واحداً يحتال على هاتف، وهذا ربّما يعودُ إلى أنّنا لسنا مؤهّلين للعالم الحديث أو ربّما أنّنا نحنُ المكسيكيين القليلينَ الذين كنّا نعيشُ في برشلونة كنّا نملك المالَ الكافي كيلا نحتاج لخرق القانون. كانت الهواتف المخترقة تُميَّز بسهولة من الصفوف التي تتشكّل حولها، وخاصّة في الليل. كان يجتمع في تلك الصفوف أفضلُ وأسوأُ من في أمريكا اللاتينية. المحاربون القدماء والمغتصبون، السجناء السياسيون السابقون وتجار الحلي الرخيصة القساة. حين كنتُ أرى تلك الصفوف، عند عودتي من السينما، أمام غرفة الهاتف الموجودة في ساحة رامايِّراس، مثلاً، كنتُ أرتجفُ، أتجمّدُ ويجوبُ جسمي بردٌ معدني مثل مقبضِ أمان الحافلة، من رقبتي وحتى كعبيّ. مراهقون، نساء شابّات يحملن أطفالهنّ على صدورهنّ، سيدات وسادة طاعنون في السن، بماذا كانوا يُفكّرون هناك في الساعة الثانية عشرة ليلاً أو الواحدة صباحاً بينما هم ينتظرون أن يُنهي مجهولٌ كلامه، ولا يستطيعون أن يَسمعوا حديثَهُ لكنّهم بلى كانوا يتكهّنون به، لأنّ الذي كان يتكلّم بالهاتف يؤشّر أو يبكي أو يبقى صامتاً برهةً طويلة، يؤكّد أو يُنكر برأسه فقط، ماذا كان ينتظر أولئك الناس في الصفّ، أن يأتي دورهم بسرعة، ألاّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تظهر الشرطة؟ هذا فقط؟ على كلِّ حال ابتعدتُ عن هذا أيضاً. هتفتُ لأمّي وطلبت منها مالاً.

ذات مساء قلتُ لأرتورو إنّني راحلة، وإنّه ما عاد باستطاعتنا أن نستمرّ بالعيش معاً. هو سألني لماذا. قلتُ له إنّني ما عدتُ أتحمَّلُهُ. ماذا فعلتُ لك؟ سألني. لا شيء، أنا من تفعل أشياء رهيبة، قلتُ، أحتاجُ لأن أكون وحدي. في النهاية انتهينا بأن راح الواحدُ منّا يصرخ في وجه الآخر. انتقلتُ إلى بيت دانيال. كان أرتورو يأتي أحياناً ليراني وكنّا نتحدّث، لكن مع كلّ يوم كان يمرّ كانت رؤيتي له تصير أكثر إيلاماً. حين أرسلت لي أمّي المال، أخذتُ الطائرة إلى روما وذهبتُ. رُبَّما عليّ، وقد وصلنا إلى هذه النقطة، أن أتكلّمَ عن قطةِ الصغيرة. قبل أن نعيش معاً، كانت قد تركت صديقةٌ أو عشيقةٌ سابقة لأرتورو، حين بَدَّلَت مسكنها فجأة، ستّ قُطيطات ولدتها قطتُها. تركت له القُطيطات وذهبت مع قطّتها. عاش أرتورو فترة مع القُطيطات التي كانت صغيرة جدّاً. بعدها، حين أدرك أنّ صديقته، أو عشيقته السابقة لن تعود أبداً، بدأ يبحثُ عن أصحابٍ لها. الغالبية أخذها أصدقاؤه، باستثناء قُطيّطة رماديّة لا أحدَ كان يريدُها فاحتفظتُ بها لي نكايةً بأبراهام، الذي كان يخافُ أن تخدش القطيّطة قماش أثاثه. أسميتُها زيّا، ذكرى لقُطَيّطة أخرى رأيتُها ذات مساء في روما. حين رحلتُ إلى المكسيك، ذهبت زيّا معي. وحين عدتُ إلى برشلونة إلى بيت أرتورو رافقتني زيّا. أعتقدُ أنّ السفر بالطائرة يسحرها. حين ذهبتُ لأعيش مؤقّتاً في بيتِ دانيال غروسمان طبعاً أخذتُ معي زيّا. وحين أخذت الطائرة في طريقي إلى روما، كانت القطّةُ التي ستعرف أخيراً روما، المدينة التي كانت منها على الأقل اسمياً في سلّةٍ من القش في حضني.

كانت حياتي في روما كارثية. كلُّ شيء كان سيّئاً والأسوأ، على

الأقل هذا ما قالوه لي فيما بعد، هو أنّني لم أرضَ أن أطلبَ مساعدةً من أحد. لم يكن معي غير زيّا ولا يشغلني غير زيّا وطعامها. هذا صحيح، قرأتُ كثيراً. على الرغم من أنّني حين أُريدُ أن أتذكّرَ قراءاتي يعترضني جدارٌ متحرّكٌ وساخن. ربّما قرأتُ دانتي بالإيطالية. وربّما غادّا. لا أدري، عرفت الاثنين بالإسبانية. الشخصُ الوحيد الذي كان يعرف شيئاً عن مكاني، غير الإشاراتِ الغامضة، هو دانيال. تلقيتُ منه بعض الرسائل. قال لي في واحدة منها إنّ أرتورو مُدَمَّرٌ بسبب رحيلي وإنّه في كلّ مرّة يراه يسأله عنّي. لا تُعطِه عنواني، قلتُ له، فهو قادر على أن يأتي إلى روما ليبحث عنّي. لن أعطيه له، قال لي دانيال في رسالته التالية. عرفتُ من خلاله أيضاً أنّ أُمّي وأبي كانا قلقين وأنّ مكالماتهما الهاتفية إلى برشلونة كانت كثيرة. لا تُعطِهما عنواني، قلتُ لدانيال، ووعدني بأن يكون لي ذلك. كانت رسائلُهُ طويلة، ورسائلي قصيرة. دائماً بطاقات بريدية تقريباً. كانت إقامتي في روما قصيرة. كنتُ أعمل في محلٍّ أحذيةٍ وأعيشُ في نزلٍ في فيا ديلا لوتشي في حي تراستيفيري. كنتُ حين أعودُ في الليل أُخرجُ زيّا كي أنزهها، عامّةً ما كنّا نذهب إلى حديقة، خلف كنيسةَ سان إيجيديو، وبينما كانت القطّة تدخلُ بين النباتات كنتُ أفتح كتاباً وأحاول أن أقرأ. كنتُ أقرأ دانتي، أعتقدُ، أو جويدو كافالكانتي، أو سيكو أنجيوليري أو سينو دا بيستويا، لأنّني لا أتذكّر من قراءاتي غير ستارةٍ ساخنة أو ربّما فقط فاترةٍ كانت تتحرّك مع نسيم روما الخفيف عند الليل ونباتاتٍ وأشجارٍ ووقعِ خطى. تعرّفتُ ذاتَ ليلةٍ على الشيطان. لا أتذكّر أكثر من ذلك. تعرّفت على الشيطان وعرفتُ أنّني سأموت. رآني صاحبُ محلّ الأحذية أصلُ وكدماتٍ على رقبتي وبقي يُراقبني أسبوعاً. أراد بعدها أن يُمارس الحبَّ معي وأنا رفضتُ. وضاعتْ زِيّا ذات يوم في الحديقة، ليست

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحديقة الموجودة خلف سان إيجيديو، بل أخرى، في شارع غاريبالدي، بلا أشجار، ولا أنوار، ببساطة ابتعدت زِيّا أكثر من اللازم وابتلعها الظلام.

بقيتُ حتى الساعة السابعة صباحاً أبحثُ عنها، إلى أن طلعت الشمس وبدأ الناس يتحرّكون ببطء نحو أماكن عملهم. في ذلك اليوم لم أبغِ الذهابَ إلى حانوت الأحذية. استلقيتُ، تغطيتُ جيّداً وشرعت بالنوم. عندما استيقظتُ عدتُ إلى الشوارع لأبحث عن قطّتي. لم أعثر عليها. وذات ليلة حلمت بأرتورو. كلانا كان فوق أعلى بناءِ مكاتب، بناء من تلك الأبنية المُشادة من الزجاج والفولاذ فقط، كان الوقت ليلاً، أنا لم أكن أُفكّر بأن أرمي نفسي، لكنّ أرتورو كان ينظرُ إليّ ويقول إذا أنت رميتِ نفسك فأنا أيضاً سأرمي نفسي. كنتُ أريدُ أن أقولَ له: يا أحمق، لكن لم يبقَ عندي قوّة ولا حتى كي أشتمه.

وذات يوم فُتِحَ بابُ غرفتي ورأيتُ أمّي وأخي الأصغر، الذي كان جندياً في التساحال ويعيشُ طوال العام تقريباً في «إسرائيل»، يدخلان. نقلاني على الفور إلى مستشفى في روما، وبعد يومين رأيتُ نفسي أطير في طائرة إلى المكسيك. بحسب ما عرفت فيما بعد، كانت أُمّي قد سافرت إلى برشلونة وانتزعت بينها وبين أخي عنواني في روما من دانيال، الذي رفض في البداية أن يعطيه لهما.

في المكسيك أُدخِلت مشفىً خاصّاً في كورِناباكا، ولم يتأخر الأطباء في أن يقولوا لأمّي إنّني إذا لم أساهم من جهتي بشيء فالنهاية حتميّة. كنت أزنُ وقتها أربعين كيلوغراماً ولا أكاد أستطيع أن أنام. بعدها عدتُ وأخذت طائرةً وأُدخلت في مشفى في لوس أنجلوس. هناك تعرَّفتُ على طبيبٍ يُدعى كالب، رحتُ شيئاً فشيئاً أصبحُ صديقته. كنتُ أزن خمسة وثلاثين كيلوغراماً وكنتُ في

المساءات أشاهد التلفزيون وأشياء قليلة أخرى. أُمّي نزلت في فندق في لوس أنجلوس، في المركز، في الشارع ٦، وكانت تذهبُ كلّ يوم لرؤيتي. بعد شهر ارتفع وزني مرّة أخرى إلى أربعين كيلوغراماً. سعِدَتْ أُمّي كثيراً وقرّرت العودةَ إلى العاصمة الفيدرالية، لتتولّى شؤونَ أعمالها. استغللنا أنا والدكتور كالب الوقتَ الذي لم تكن فيه أمّي، كي نبدأ صداقة. كنّا نتحدّثُ عن الطعام وعن المهدِّئات وأنواعٍ أخرى من المخدرات. عن الكتب لم نتكلّم كثيراً، لأنّ الدكتور كالبَ لم يكن يقرأ إلا الكتب الأكثر رواجاً. تكلّمنا عن السينما. كان قد شاهد أفلاماً أكثر منّي بكثير، وكانت تسحرُهُ سينما الخمسينات. كنتُ في المساءات أشعل التلفاز وأبحثُ عن فيلمٍ كي أناقشَهُ معه، لكنّ الدواء الذي كنتُ أتناوله كان يجعلني أنام في منتصف الفيلم. عندما كنتُ أقول هذا لكالب عادة ما كان يحكي لي القسم الذي لم أره، على الرغم من أنّني كقاعدة عامّة حين كنتُ أحكيه له أكون قد نسيتُ فعلاً الجزء الذي شاهدته. الذكرى التي أملكها عن تلك الأفلام غريبة، صور ومواقف مُغرْبَلة بالبساطة لكنّها مغربلة في الوقت ذاته بنظرة طبيبي المتحمّسة. كانت أميّ تظهر عادةً في نهاية الأسبوع. تصلُ ليلةَ الجمعة وتعود ليلةَ الأحد إلى العاصمة الفيدرالية. قالت لي مرّة إنّها تُفكّرُ بأن تستقرّ نهائياً في لوس أنجلوس. ليس في المدينة ذاتها، بل في مكان جيّد من ضواحيها مثل كورونا دِيل مار أو لاغونا بيتش. وماذا سيحلّ بالمعمل؟ سألتُها. ما كان جدّي ليحبّ أن تبيعيه. المكسيك ذاهبة إلى الهاوية، قالت لي أمّي، عاجلاً أو آجلاً علينا أن نبيعه. كانت تظهر أحياناً مع صديق لي دعته هي، لأنّه كان من المناسب لصحتي، بحسب الأطباء، بما فيهم كالب، أن أرى «رفاقي القدامى». ظهرت ذات سبت مع غرِتا، صديقة لي من التحضيري لم أرها منذ ذلك الوقت، وذات سبتٍ آخرَ ظهرت مع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فتى، لم أكن حتى لأتذكّره. من عليها أن تأتي بأصدقاء، قلتُ لها ذات ليلة، وتُحاول أن تمضي وقتاً ممتعاً هي أنتِ. عندما كنتُ أقولُ هذه الأشياء لأميّ كانت تضحك، كما لو أنّها لا تصدّق كلماتي، أو كانت تشرع بالبكاء. ألا تخرجين مع أحد؟ أليس عندك خطيب؟ سألتُها. اعترفت بأنّها تخرج مع شخص في العاصمة الفيدرالية، مُطَلّق مثلها، أو أرمل، لم أقم بجهد كبير كي أستخلص منها شيئاً وضحاً. أعتقدُ أنّ هذا لم يكن يهمّني في أعماقي. في نهاية الأربعةِ أشهرٍ وصل وزني إلى ثمانية وأربعين كيلوغراماً وبدأت أميّ تقومُ بالتحضيرات لنقلي إلى مشفى مكسيكي. قبل يوم من سفري ودّعني الدكتور كالب. أعطيتُهُ رقم هاتفي ورجوته أن يتصل بي ذات مرّة. وعندما طلبتُ منه هاتفه تذرّع لا أدري بأيِّ تغييرٍ في إقامته كيلا يُعطيه لي. لم أصدّقه، لكنّني أيضاً لم أواجِهْهُ بذلك.

عدنا إلى العاصمة الفيدرالية. أدخلوني هذه المرّة إلى مشفى في حي بونوس أيرِس. كانت غرفتي واسعة وحسنة الإضاءة فيها نافذة تطلّ على حديقة عامّة وتلفزيون فيه أكثر من مائة قناة. كنتُ أجلسُ في الصباحات في الحديقة وأقرأ روايات. وفي المساء أُغلق على نفسي الغرفةَ وأنام. جاء دانيال، الذي كان قد وصل توّاً من برشلونة، يوماً لزيارتي. لم يكن سيمكث وقتاً طويلاً في مكسيكو، ما إن علم بأنّني في المشفى حتى قرّر أن يأتي لزيارتي. سألته كيف يجدني. قال جيدة وإن كنتِ شديدة النحول. ضحكنا نحن الاثنين. في تلك الفترة لم يكن يؤلمني أن أضحك، وهذه علامة جيّدة. سألتُه قبل أن يذهب عن أرتورو. قال لي دانيال إنّه ما عاد يعيشُ في برشلونة، هذا ما كان يظنّه، على كلِّ الأحوال كان قد مضى عليهما زمن لا يلتقيان فيه. بعد شهر صار وزني خمسين كيلوغراماً وغادرتُ المشفى.

ومع ذلك فالتغيّر في حياتي كان قليلاً. كنتُ أعيش في بيت أمّي ولا أخرجُ إلى الشارع، ليس لأنّني لا أستطيع، بل لأنّني لا أريدُ. أهدتني أمّي سيارتَها القديمة، مرسيدس، لكنّني في المرّة الوحيدة التي قدتها فيها كدت أصطدم. كان أيُّ شيء يُبكيني: بيتٌ أراه من بعيد، اختناقٌ في السير، الناسُ المحاصرون في سياراتهم، قراءة الصحف اليومية. تلقيتُ ذات ليلة مكالمةً هاتفية من أبراهام من باريس حيث كان يُشارِك في معرضٍ جماعي لفنانين مكسيكيين شباب. أراد أن يتكلّم عن حالتي الصحيّة، لكنّني لم أسمح له. انتهى بالكلام عن رسومِهِ، عن تطوّرهِ ونجاحاتهِ. عندما تودّعنا انتبهتُ إلى أنّني نجحتُ في ألا أذرف دمعةً واحدة. بعد وقتٍ قليل وبالتصادف مع قرار أمّي بالذهابِ للعيش في لوس أنجلوس، عاد وزني ليهبط. وذات يوم أخذنا الطائرةَ دون أن نكون قد بِعنا المعمل، وأقمنا في لاغونا بيتش. قضيتُ الأسبوعين الأوّلين في مشفايَ القديم في لوس أنجلوس، خاضعة لفحوصات طبيّة عامّة مُضنية اجتمعتُ بعدها مع أمّي في بيت صغير في شارع لينكولن في لاغونا بيتش. سبق لأمي أن كانت هناك من قبل، لكن أن تكون هناك عبوراً شيء والحياة اليومية شيء آخر مختلف جدّا. بقينا فترة نخرج السيارة ونذهب باكراً جدّاً لنبحث عن مكانٍ آخر يعجبنا. ذهبنا إلى دانا بوينت، وسان كليمينت، سان أونوفر وانتهينا إلى بلدةٍ قريبةٍ من غابة كليفيلاند الوطنية، تُدعى سيلفرادو، كما في الفيلم، حيث استأجرنا بيتاً من طابقين وحديقة وحيث اشترينا كلباً بوليسياً سمتْهُ أمّي هوغو، باسم صديقها الذي تركته توّاً في مكسيكو.

عشنا سنتين هناك. باعت خلالها أمي معملَ جدّي الرئيسيّ وأنا أُخضعتُ لمراجعاتٍ طبيةٍ دورية صارت في كلّ مرّة أكثر روتينية. كانت أمّي تُسافرُ مرّةً في الشهر إلى العاصمة الفيدرالية. وعادة ما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت تأتيني عند العودة برواياتٍ، الرواياتِ المكسيكية التي كانت تعرف أنّني أحبّها، الرواياتِ القديمة ذاتها والجديدة التي كان ينشرها خوسِهْ أغوستين أو غوستابو ساينث أو ناسٌ أكثر شباباً منهما. لكنّني انتبهت ذات يومٍ إلى أنّني لا أستطيعُ أن أقرأها وراحت الكتبُ الإسبانية تُركن شيّئاً فشيئاً في الزاوية. بعد وقت قصير ظهرت أمّي دون سابق إعلان مع صديق، مهندس كنيته كابرِرا، كان يعمل في شركة تبني أبنية في وادي الحجارة. كان المهندس أرمل وعنده ولدان، يكبرانني قليلاً، كانا يعيشان في الولايات المتحدة في الشاطئ الغربي. كانت علاقته بأمّي وديعةً، فيها ما يدلّ على أنّها دائمة. رحنا ذات ليلة أنا وأمي نحكي عن الجنس. قلتُ لها إنّ حياتي الجنسية منتهية، وبعد نقاش طويل راحت أمّي تبكي وعانقتني وقالت لي إنّني ابنتها وإنّها لن تتخلى عني أبداً. فيما عدا ذلك نادراً ما كنّا نتناقش. كانت حياتنا تقتصر على القراءةِ، مشاهدةِ التلفزيون (لم نكن نذهب إلى السينما أبداً)، وعلى الخروج الأسبوعي إلى لوس أنجِلوس، حيث كنّا نزورُ معارضَ أو نذهبُ إلى كونشرتوات. لم يكن لنا في سيلفِرادو أصدقاء، باستثناء زوجين يهوديين ثمانيَّيْن تعرّفتْ عليهما أمّي، أو على الأقل هذا ما قالته لي، في السوبر ماركت واللذين كنّا نلتقي بهما كلّ ثلاثة أو أربعة أيّام لبضع دقائق فقط ودائماً في بيتهما. كانت زيارتهما، بحسب أمّي، واجِباً، فالعجوزان قد يتعرّضا لحادث، أو قد يموتُ أحدُهما فجأة ولا يعرف الآخر ماذا يفعل، الأمر الذي كنتُ أشكّ به، ذلك أن العجوزين كانا في معسكر اعتقال ألمانيّ خلال الحرب العالمية الثانية والموت ليس شيئاً غريباً عليهما. لكنّ أمّي كانت تشعر بالسعادة في مساعدتهما، ولم أبغِ أن أعاكسها. كان اسم هذين الزوجين شفارتز وكان يناديانا بالمكسيكيّتَيْن.

ذهبتُ لزيارتهما في نهاية أسبوع كانت فيه أمّي في العاصمة الفيدرالية. كانت المرّة الأولى التي أذهب فيها وحدي، وبقيتُ، بعكس ما توقّعتُهُ، برهةً طويلةً في بيتهما، وكان الحديث الذي تبادلناه لطيفاً كفاية. أنا شربتُ ليمونادا وصبَّ العجوزان لنفسهيما كأسَيّ ويسكي متعلّلين بأنّ هذا أفضل دواء لهما في عمرهما. تكلّمنا عن أوروبا، التي كانا يعرفانها جيّداً وعن المكسيك التي كانا فيها في مناسبتين، ومع ذلك فالفكرة التي كانت لديهما عن المكسيك لم يكن من الممكن أن تكون أكثر خطأً أو سطحية. أتذكّرُ أنّهما نظرا إليّ بعد حديثٍ طويل وقالا إنّني، لا شكّ مكسيكية. بالطبع أنا مكسيكية، قلتُ لهم. على كلّ الأحوال كانا ظريفين جدّاً وصارت زياراتي إليهما تتكرّر. كانا حين يشعران بأنّهما ليسا على ما يرام يهتفان لي، ويطلبان منّي أن أقومَ لهما بالمشتريات من السوبر ماركت وأن أحمل لهما الثيابَ إلى المصبغة أو أن أذهبَ إلى محل الصحف وأشتري لهما صحيفة. كانا يطلبان منّي أحياناً *لوس أنجلوس بوست* وأخرى صحيفة سيلفرادو المحلية، وهي صحيفة من أربع صفحات خالية من أيّ أهمّية. كانا يُحبّان موسيقى براهمز، الذي كانا يعتبرانه حالماً وذكيّاً في آن معاً، وكانا في مناسباتٍ نادرة جدّاً يُشاهدان التلفزيون. بعكس ما كان يحدث معي، لم أكن أسمعُ موسيقى تقريباً وكان التلفزيون دائماً مشتعلاً.

حين كان قد مضى علينا أكثر من سنة هناك تُوفّي السيّد سفارتز فرافقتُ أنا وأمّي السيّدة سفارتز في الجنازة إلى المقبرة اليهودية في لوس أنجلوس. أصررنا على أن تأتي معناً في سيارتنا، لكنّ السيّدة سفارتز رفضت ومضت في ذلك الصباح في سيارة ليموزين مُسْتَأجَرة خلف السيارة الجنائزية، وحيدة، أو على الأقل هذا ما اعتقدناه أنا وأمّي. حين وصلنا إلى المقبرة نزل من الليموزين شخص في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأربعين من عمره، حليق الرأس، يرتدي الأسود كاملاً، ساعد السيدةَ سفارتز على النزول كما لو أنّها عروسه. وعند العودة تكرّر المشهدُ ذاته: صعدت السيدة سفارتز إلى السيّارة، دخل بعدها الشخص الأصلع وانطلقا تتبعهما عن قربٍ أمّي في سيارة نيسان البيضاء. حين وصلنا إلى سيلفرادو توقّفت سيارة الليموزين أمام بيت الزوجين سفارتز، ساعد الأصلعُ السيّدةَ سفارتز على الخروج، ركبَ بعدها الليموزين وذهب على الفور. بقيت السيّدة سفارتز وحيدة على الرصيف المقفر. من حسن الحظّ أنّنا تبعناها، قالت أمّي. صففنا السيارة وذهبنا إلى جانبها. كانت السيّدة سفارتز كأنّها غائبة، بنظرتها الضائعة في نهاية الشارع حيث اختفت سيارو الليموزين. أدخلناها إلى البيت وحضّرت لنا أمّي شاياً. تركتنا السيّدة سفارتز نتصرّف حتى تلك اللحظة، لكنّها ما إن ذاقت الرشفة الأولى من الشاي حتى أبعدت الفنجان وطلبت كأس ويسكي. نظرت أمّي إليّ. كان في عينيها علامة نصر. سألتْ بعدها أين الويسكي وصبَّت لها كأساً. بماء أم بدون ماء؟ بدونه، يا عزيزتي، قالت السيّدة سفارتز. بالثلج أم بدون الثلج؟ سمعتُ صوتَ أمّي من المطبخ. بدونه، كرّرت السيّدة سفارتز. منذ تلك اللحظة تعزّزت علاقتي بها أكثر. حين كانت تذهبُ أمّي إلى المكسيك كنتُ أُمضي اليومَ في بيت السيّدة سفارتز، بل وكنتُ أبقى لأنام هناك. على الرغم من أنّ السيّدة سفارتز لم تعتد أن تأكلَ ليلاً، كانت تُحضّرُ سلطات وشرائح لحم على المشوى وتُجبرني على أكلها. كانت تجلس بجانبي، وكأس الويسكي قريب منها وتحكي لي قصصاً عن شبابها في أوروبا حين كان الطعامُ، كانت تقول، حاجةً وترفاً. أيضاً كنّا نسمعُ أسطوانات ونُعَلّقُ على الأخبار المحلّية. تعرّفتُ خلال السنة الطويلة والممتعة بعد ترمّل السيّدة سفارتز على رجلٍ في سيلفرادو، عامل تمديدات

صحّية ونمتُ معه. لم تكن تجربة جيّدة. كان عامل التمديدات الصحيّة يُدعى جون ويريد أن يخرج معي مرّة أخرى. قلتُ له لا، يكفي مرّة واحدة. لم يُقنعه رفضي وراح يهتف لي يوميّاً. وذات يوم أخذت أمّي الهاتف وبقيا برهة يتبادلان الشتائم. بعد أسبوع قرّرنا أنا وأمّي أن نذهب لنمضي إجازة في المكسيك. نزلنا على شاطئٍ، ثم انتقلنا إلى العاصمة الفيدرالية. لا أدري لماذا خطر لأمّي أنّني بحاجة لأن أرى أبراهام. وذات ليلة تلقيت اتصالاً منه واتفقنا على أن نلتقي في اليوم التالي. كان أبراهام وقتها قد ترك أوروبا نهائيّاً ويُقيم في العاصمة الفيدرالية حيث يملك مرسماً ويبدو أنّ أموره كانت تسير بشكل جيّد. كان المرسم في كويواكان، قريباً جدّاً من شقّتهِ، وأراد منّي بعد العشاء أن أرى آخر لوحاته. لا أستطيع أن أقول إن هي أعجبتني أم لا، ربّما تركتني غير آبهة، كانت لوحات بقياسات كبيرة شبيهة جدّاً بأعمال رسّام كتلانيّ، كان أبراهام مُعجباً به أو أعجب به حين كان يعيش في برشلونة، لكنّه فعلاً مررّها بغرباله: فحيث كانت تُسيطر في السابق ألوانُ المغرة والألوانُ الترابية، حلّت الآن الألوانُ الصفراء والحمراء والزرقاء. أراني أيضاً سلسلة من الرسومات وهذه أعجبتني أكثر قليلاً. تحدّثنا بعدها عن المال، هو تكلّم عن المال، عن عدم استقرار البيزو، وعن احتمال أن يذهب ليعيش في كاليفورنيا، وعن الأصدقاء الذين ما عدنا رأيناهم.

بغتة ودون مناسبة، سألني عن أرتورو بِلانو. فاجأني، لأنّ أبراهام لم يكن يوجّه أبداً أسئلةً مباشرة. قلت له إنّني لا أعرفُ عنه شيئاً. أنا بلى أعرفُ، قالَ، هل تريدين أن أقوله لك؟ في البداية فكّرت أن أقولَ له لا، لكنّني قلت له بعدها أن يتكلّم، وإنّني أريدُ أن أعرف. رأيتُه ذات ليلةٍ في الحيِّ الصيني، قال، لم يعرفني في البداية. كان معه امرأة كريهة شقراء. بدا راضياً. سلّمتُ عليه، كنّا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في حانة صغيرة، على الطاولة ذاتها تقريباً (هنا ضحك أبراهام) وكان من الحماقة أن أتظاهرَ بأنّني لم أره. تأخّر قليلاً في تذكّر من أكون. اقترب بعدها منّي، كاد يلصقُ وجهَهُ بوجهي، انتبهت إلى أنّه كان سكراناً، وربّما أنا أيضاً، وسألني عنكِ. وماذا قلتَ له؟ قلتُ له إنّك تعيشين في الولايات المتحدة وأنّك بخير. وهو ماذا قال هو؟ حسن، قال إنّني أزحتُ عنه ثقلاً أو شيئاً من هذا القبيل، وإنّه كان يُفَكّرُ بأنّك ميتة. وكان هذا كلّ شيء. عاد للشقراء وذهبتُ بعدها بقليل أنا وأصدقائي من هناك.

عدنا بعد خمسة عشر يوماً إلى سيلفِرادو. التقيتُ ذات مساء بجون وقلت له إنّه إذا عاد وأزعجني باتصالاته الهاتفية سأقتله. اعتذرَ جون وقال إنّه عشقني، لكنّه ما عاد يعشقني وإنّه لن يهتف لي ثانية. كنتُ وقتها أزن خمسين كيلوغراماً، لا أنحلُ ولا أسمنُ وكانت أمّي سعيدةً. كانت علاقتُها بالمهندس قد استقرّت، بل وصارا يتحدّثان عن الزواج، وإن لم تكن نبرة أمّي أبداً جدّية تماماً. كانت قد فتحتْ مع صديقة لها حانوتَ مصنوعاتٍ يدوية مكسيكية في لاغونا بيتش ولم يكن العمل يعود عليها بمال كثير، كما لم يعدْ عليها بخسائرَ مفرطة، والحياة الاجتماعية التي كان العمل يوفّرها لها هي تماماً نوع الحياة التي كانت أمّي ترغب بها. بعد سنة من وفاة السيّد سفارتز مرضت السيدة سفارتز واضطُرَّتْ لأن تدخل أحدَ مشافي لوس أنجِلوس. ذهبتُ في اليوم التالي لزيارتها فوجدتها نائمة، كان المشفى في المركز، في ويلشير بوليفارد، قريباً من دوغلاس ماكارثر. كانت أمّي مضطرة لأن تذهب وأنا أردت أن أنتظر حتى تستيقظ. كانت المشكلة في السيّارة، إذ إذا ذهبت أمّي ولم أذهب أنا، من سيحملني ويعود بي إلى سيلفرادو. بعد نقاش طويل في الممر قالت أمّي إنّها ستأتي في طلبي ما بين التاسعة والعاشرة، وإذا ما حدث طارئ وأخّرها ستهتف

لي إلى المشفى. جعلتني قبل أن تُغادر أعدها بألاّ أتحرّك من هناك. لا أدري ما الزمن الذي قضيتُه في غرفة السيّدة سفارتز. أكلتُ في مطعمِ المشفى وأقمتُ حديثاً مع ممرّضة. كانت الممرّضة تُدعى روساريو ألبارِثْ وكانت قد وُلِدت في العاصمة الفيدرالية. سألتُها كيف تبدو لها الحياةُ في لوس أنجلوس، فقالت هذا يتعلّق بكلِّ يوم، فأحياناً يمكن أن تكون ممتازة وأخرى سيّئة جدّاً، لكن بالعمل القاسي تستطيع أن تتدبّر أمرها. سألتها كم من الزمن مضى عليها دون أن تذهب إلى المكسيك. أكثر من اللازم، قالت، ليس عندي مال للحنين. اشتريت بعدها صحيفة وصعدت إلى غرفة السيّدة سفارتز. جلستُ بجانب النافذة وبحثت في الصحيفة عن المتاحفِ وإعلاناتِ السينما. كان هناك فيلم في شارع ألبارادو، رغبتُ فجأة بمشاهدته. كان قد مضى عليَّ زمنٌ طويل لم أذهب فيه إلى السينما، ولم يكن شارعُ ألبارادو بعيداً عن المشفى. ومع ذلك حين وصلتُ إلى كوّة التذاكر تبخّرت الرغبةُ وتابعتُ طريقي. الجميعُ يقولون إنّ لوس أنجِلوس ليست مدينة للمشاة. سرت في بيكو بوليفارد حتى شارع بلنسية ثمّ انعطفتُ نحو اليسار وسرتُ في شارع بلنسية عائدةً إلى ويلشير بوليفارد، بالإجمال قضيتُ ساعتين في التجوُّل، دون أن أُجهد نفسي، أتوقّف أمام أبنية لم يكن لها ظاهريّاً أيّ أهمّية أو أنظر إلى تدفق السيارات بانتباه. في العاشرة ليلاً عادت أمّي من لاغونا بيتش وغادْرنا. المرّة الثانية التي ذهبت فيها لزيارتها لم تعرفني السيّدة سفارتز. سألتُ المُمَرِّضة عمّا إذا زارها أحد. قالت لي إنّ سيّدة متقدّمة في العمر قليلاً جاءت لزيارتها صباحاً وإنّها ذهبت قبل وصولي بقليل. هذه المرّة ذهبتُ في سيارة النيسان، فأمّي والمهندس، اللذان وصلا توّاً، ذهبا في سيارته إلى لاغونا بيتش. بحسب الممرّضة التي تكلّمتُ معها لم يبقَ للسيدة سفارتز من العمر كثيراً. أكلتُ في المشفى وبقيت جالسة في الغرفة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أفكّر، حتى السابعة مساءً. ركبتُ بعدها في النيسان وذهبتُ لأقوم بجولة في لوس أنجِلوس. كان في صندوق أوراق السيارة خريطة درستها بالتفصيل قبل أن أشعل المُحرِّك. انطلقت بعدها وخرجت من المشفى. أعرفُ أنّني مررت أمام بناء مجلس المدينة والمركز الموسيقي ودوروثي كاندلِر بافيليون. ثم أخذت اتجاهَ إيكو بارك، وغرقت بين السيارات التي كانت تدور في سونسيت بوليفارد. لا أدري كم من الوقت بقيت أقود السيارة، فقط أعرف أنّني لم أنزل في لحظة من اللحظات من النيسان وأنّني في بيفرلي هيلز خرجت من الشارع ١٠١ وضعتُ في الشوارعِ الثانوية حتى أو في سانتا مونيكا. هناك سلكتُ الشارع ١٠ أو سانتا مونيكا فريواي. وعدتُ إلى المركز، أخذتُ بعدها الشارع ١١ ومررت في ويلشير بوليفارد، وإن لم أستطع أن أخرج إلا لاحقاً عند مستوى الشارع الثالث. حين عدتُ إلى المشفى كانت الساعة العاشرة وكانت السيّد سفارتز قد توفّيت. كنتُ سأسألُ عمّا إذا كانت وحدها حين تُوفِّيَت، لكنّني قرّرتُ بعدها ألاّ أسأل. جثمانها لم يكن هناك. جلستُ بجانبِ النافذة وبقيتُ برهةً أتنفّسُ وأستعيدُ نفسي من سفري إلى سانتا مونيكا. دخلتْ مُمَرِّضة وسألتني عمّا إذا كنتُ قريبة السيّدة سفارتز وماذا كنتُ أفعل هناك. قلتُ لها إنّني صديقة لها وإنّني فقط كنتُ أحاول أن أهدِّئ نفسي، لا أكثر. سألتني عمّا إذا كنتُ قد هدأت. قلت لها بلى. نهضتُ بعدها وذهبت. وصلتُ إلى سيلفِرادو في الثالثة صباحاً.

يعد شهر تزوّجت أُمّي من المهندس. تمّ العرس في لاغونا بيتش وحضر ابنا المهندس وأحدُ أخويَّ وأصدقاء كسبتهم أمّي في كاليفورنيا. عاشا فترة في سيلفِرادو، باعت بعدها أُمّي حانوتَ لاغونا بيتش وذهبا ليعيشا في وادي الحجارة. بقيتُ فترة لا أريدُ أن أتحرّك من سيلفِرادو. يبدو البيتُ الآن من دون أُمّي أكبرَ وأهدأَ وأرطبَ

بكثير من قبل. بقي بيتُ السيّدة سفارتز خالياً فترةً. كنتُ آخذُ في المساءات سيارةَ النيسان وأذهبُ إلى بارٍ من البلدة وأتناولُ قهوةً أو ويسكي وأقرأُ بعض الروايات القديمة التي نسيتُ موضوعَها. تعرّفتُ في البار على شخصٍ كان يعمل في بارك فورستال ومارسنا الحبّ. كان يُدعى بيرّي ويعرفُ بعضَ الكلماتِ الإسبانية. وذات ليلة قال لي بيرّي إنّ لعضوي رائحة خاصّة. لم أردّ عليه فظنّ أنّني شعرت بالإهانة. هل أهنتُكِ؟ سأل، إذا كنتُ قد أهنتُكِ فاعذريني. لكنّني كنتُ أُفكّرُ بأشياء أخرى، بوجوهٍ أخرى (إذا كان بالإمكان التفكير بوجوهٍ أخرى) ولم أشعرْ بالإهانة. ومع ذلك كنتُ في أغلبِ الوقت وحدي. أستلمُ من البنك كلَّ شهر شيكاً من أُمّي وكانت أيامي تمضي في ترتيبِ البيت، في الكنس، المسح، في الذهابِ إلى السوبر ماركت، في الطبخِ وغسل الأطباق والعنايةِ بالحديقة. لم أكن أتصل بأحدٍ بالهاتفِ ولا أتلقى غير اتصالاتِ أُمّي، اتصالات من أبي أو من أحدِ أخويّ مرّةً في الأسبوع. وكنتُ حين أرغبُ أذهبُ في المساءات إلى بارٍ وحين لا أرغبُ أبقى في البيت أقرأُ بجانب النافذة، بطريقةٍ أستطيع فيها، إذا ما رفعتُ نظري، أن أرى بيت سفارتز الخالي.
وذات مساءٍ توقّفت سيّارةٌ أمامَهَ ونزلَ منها شخصٌ يرتدي سترةً أمريكية وربطةَ عنق. كان الرجلُ يحمل مفاتيحَ. دخلَ وعاد ليخرج بعد عشر دقائق. لم يبدُ قريباً للزوجين سفارتز. بعد أيّام قليلة عادَ وزارَ البيتَ امرأتان ورجل. عندما غادرا تركتْ إحدى المرأتين لافتة تُعلِنُ بأنّ ذلك البيت للبيع. مرّت بعدها أيّامٌ كثيرة قبل أن يأتي أحد لزيارته، لكنّني سمعتُ ذات ظهيرة، بينما كنتُ مشغولة بالحديقة، صياحَ أطفالٍ ورأيت زوجين ثلاثينيَّيْن يدخلان إلى البيت تتقدّمهم إحدى المرأتين اللتين كانتا هناك من قبل. عرفتُ على الفورْ أنّهما سيبقيان في البيت وفكّرتُ، هناك بالذات، بالحديقةِ، دون أن أخلعَ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القفّازين، وأنا واقفة مثل تمثال من ملح، أنّ ساعةَ مُغادرتي قد أزفت أيضاً. في تلك الليلة استمعتُ إلى ديبوسي وفكّرتُ بالمكسيك ثمّ فكّرتُ، لا أدري لماذا، بقطّتي زِيّا وانتهيتُ بالاتصال بأمّي والقولِ لها أن تؤمّنَ لي عملاً في العاصمة الفيدرالية، أيَّ عمل، وإنّني لن أتأخرَ بالرحيل. بعد أسبوع ظهرت أُمّي وزوجُها المتألّق في سيلفِرادو ثمّ وبعد يومين، وكان يوم أحدٍ ليلاً، طرتُ إلى العاصمة الفيدرالية. أوّل عملٍ مارستُهُ كان في قاعة للفنون في لا ثونا روسا. لم يكونوا يدفعون كثيراً لكنّ العملَ أيضاً لم يكن مُضنياً. بدأتُ بعدها أعملُ في قسم من دار نشرِ صندوق الثقافة الاقتصادية، في قسمِ الفلسفة باللغة الإنكليزية، واستقرّت حياتي في العمل.

فِليبّ مولّر، جالساً على مقعدٍ في ساحة مارتورِل، برشلونة، تشرين الأوّل ١٩٩١.

أنا واثقٌ من أنّ هذه القصّة حكاها لي أرتورو بِلانو، لأنّه كان الوحيد بيننا الذي يقرأُ كتبَ الخيال العلمي بمتعة، إنّها، بحسبِ ما قاله لي، قصّةُ تيودور ستورجيون، وإن كان من الممكن أن تكون لمؤلّفٍ آخر، أو ربّما لأرتورو نفسه، بالنسبة لي لم يكن اسم تيودور ستورجيون يعني شيئاً.

كانت القصّة، قصة حبّ، تتطرّق لفتاة ثرية بشكل هائلٍ وذكّية جداً عشقت ذات يوم سعيدٍ حدائقياً عندها أو أبنَ حدائقيّ عندها، أو شابّاً صعلوكاً سينتهي مصادفةً بالعمل في إحدى ممتلكاتها ويتحوّل إلى حدائقيّ عندها. كانت الفتاةُ، بالإضافة إلى أنّها ثرية وذكية، مُتَصَلّبة ومزاجيّة قليلاً، فهي عند أيّ فرصة تُتاحُ لها تأخذ الفتى إلى سريرها، ثمّ ودون أن تعرف كيف، تعشقه بجنون. الصعلوك، الذي لم يكن ولا حتى من بعيدٍ بذكائها، ولم يدرس، كان بالمقابل ذا نقاءٍ

ملائكي، عشقها أيضاً، ليس من دون أن تظهر، كما هو طبيعي، بعضُ التعقيدات. في المرحلة الأولى من القصّة يعيشان في بيتها الكبير الفاخر، حيث يتفرّغان للنظر في كتب الفن، لتناول المأكولات اللذيذة، لمشاهدة الأفلام القديمة، وأكثر من ذلك كلّه لممارسة الحبّ طوال النهار. يقيمان بعدها في بيت حدائقيٍّ البيتِ الكبير، ثمّ في عوّامةٍ (يمكن أن يكون في إحدى العوّاماتِ لتي تُبحِرُ في أنهار فرنسا، كما في فيلم جان فيغو) ثم يهيمان في جغرافية الولايات المتحدة الشاسعة، راكبين على دراجة هارليز حقيقيّة، كانت أحد أحلام الصعلوك المؤجّلة.

تستمرّ أعمال الفتاة التجارية، بينما هي تعيشُ حبَّها، في التضاعف وبما أنّ المالَ يجرّ المالَ فإن ثروتها تزداد في كلِّ يومٍ يمرُّ. بالطبع الصعلوك الذي لم يكن يعرف كثيراً، كان عنده من الدماثة ما يكفي كي يُقنعها بأن تُخَصّص جزءاً من ثروتها للأعمال الاجتماعية أو الإحسان (الشيء الذي قامت به الفتاة دائماً من خلال مُحامين وشبكة من المؤسّسات متعدّدة الألوان، لكنّها لا تقول له ذلك، كي يعتقد أنّها تفعل ذلك بمبادرةٍ منه) بعدها ينسى كلَّ شيء، لأنّ الصعلوكَ لا يكاد يملكُ فكرة تقريبية عن حجم المال الذي يتحرّك مثل ظلٍّ خلف حبيبته. في النهايةِ وخلال زمن، أشهرٍ، ربّما سنةٍ أو سنتين صارت الفتاة المليونيرة وحبيبها سعيدَين بما يفوق الوصف. لكن ذات يوم (أو ذات مساء) يقعُ الصعلوكُ مريضاً وعلى الرغم من أنّ أفضلَ أطبّاء العالم يأتون لمداواته، لا يمكن عمل شيء، فجسمه متأثّر بطفولة عاثرة، ومراهقة مليئة بالحرمان، حياة مضطربة لم يكد الوقتُ القليل الذي قضاه برفقةِ الفتاةِ يُخَفّف منها أو يُلطِّفها. على الرغم من جهود العلم فإنّ السرطان في مراحله الأخير يُنهي حياته.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بدا خلال بضعة أيّام أنّ الفتاة تُجنّ. تُسافر على امتداد الكوكب، عندها عشّاق، تنغمسُ في قصص سوداء. لكنّها تنتهي بالعودة إلى البيت، وحين تبدو مستنفَدة أكثر من أيّ وقتٍ مضى، تُقرّر أن تشرع بمشروعٍ كان بطريقة ما قد بدأ يتبرعم في ذهنها قبل قليل من وفاةِ الصعلوك. يُقيمُ فريق علميٌّ في بيتها الكبير. وفي زمن قياسيّ يتحوّلُ في قسمهِ الداخلي إلى مخبرٍ مُتقدّم مضاعف والقسم الخارجي - الحدائق وبيت الحدائقيّ-إلى نسخةٍ عن جنّة عدن. ويرتفع حولَ العقارِ جدارٌ عال جدّاً لحمايته من نظرة الغرباء. عندها تبدأ الأعمال. بعد وقتٍ قصير يزرعُ العلماء في مبيض عاهرة، ستُكافأ بسخاءٍ، خليةً جذعيةً من الصعلوك. بعد تسعة أشهر تنجبُ العاهرةُ طفلاً وتُسَلِّمُهُ إلى الفتاة وتختفي.

تعتني الفتاةُ وجيشٌ من المختصّين بالطفل خمسَ سنوات. بعد هذا الزمن يزرعُ العلماءُ في مبيضِ الفتاة خليةً جذعيّةً منها ذاتها. بعد تسعة أشهر صار عند الفتاة طفلة. يُفَكّك مخبرُ البيتِ الكبير، يختفي العلماءُ ويحلّ محلّهم المربون، الفنانون-المربون، الذين سيُراقبون عن مسافةٍ معيّنة نموَّ الطفلين، بحسب خطّة وُضِعَت مسبقاً. حين تُقلِعُ كلّ هذه الأمور تختفي الفتاةُ، وتعودُ لتسافر، تعودُ إلى حفلاتِ عليّةِ المجتمع، تدخلُ بقوّةٍ في مغامراتٍ خطيرة، عندها عشاق، يلمع اسمُها مثل اسمِ نجمةٍ. لكنّها تعودُ كلَّ فترة معينة مُحاطَةً بسرّية كبيرة إلى بيتها الكبير، تراقبُ نموَّ الطفلين دون أن يرياها، الصعلوك المستنسخُ صورة طبق الأصل عن ذاك، النقاء ذاته، البراءة ذاتها التي عشقتها هي. مع فارق أنّ كلَّ حاجاتهِ الآن مغطاة وطفولته تنسابُ سعيدةً في اللعب والمعلمون يثقفونه في كلّ ما هو ضروريّ. الطفلة المستنسخة نسخة طبق الأصل عنها نفسها والمربّون يكرّرون مرّةً وأخرى النجاحاتِ والأخطاءَ، حركاتِ الماضي ذاتها.

طبعاً نادراً ما تتركُ الفتاةُ الطفلين يريانها، على الرغم من أنَّ الصعلوك المُستَنْسَخَ، الذي لا يكلُّ من اللعب أبداً وله طبيعة خجولة، يلمحُها خلفَ ستائر الطوابقِ العليا من البيت الكبير ويركض بحثاً عنها ودائماً دون جدوى.

تمرّ السنون والطفلان يكبران، في كلّ يوم هما أكثر التصاقاً. وتصابُ المليونيرة ذات يومٍ لسبب ما، بفيروسٍ قاتل، سرطان، وبعد مقاومة شكليةٍ خالصة، تستسلم وتتهيّأ كي تموت. ما زالت شابّة، عمرها اثنان وأربعون عاماً. ووريثاها الوحيدان هما الطفلان المُستنْسَخان وتترك كلّ شيء مجهّزاً كي يصلا إلى جزء من الثروة الهائلة في اللحظة التي يعقدان فيها قرانهما. تموتُ بعدها فيبكيها محاموها وعلماؤها بمرارة.

تنتهي القصّة باجتماع موظفيها، بعد قراءةِ وصيتها. بعضهم، الأكثر براءة، الأبعدُ عن الدائرة الداخلية للمليونيرة، يطرحون الأسئلة التي يَفترِض ستورغيون أنّ من الممكن أن يطرحها قرّاؤه. وماذا لو أنّ النسختين لم تقبلا أن تتزوّجا؟ وماذا لو أنَّ الفتى أو الفتاة يُحبّان بعضهما بعضاً، كما يبدو أنه لا اعتراض عليه، لكنّ هذا الحبَّ لا يتخطّى حصراً حدودَ الحب الأخوي. هل يجب أن تُدَمّر حياتهما؟ هل يجب أن يُجبرا على أن يعيشا معاً كمحكومين مؤبَّدين؟

تنبق نقاشات وجدالاتٌ. تُطرحُ جوانب معنوية وأخلاقيّة. ومع ذلك سرعان ما يأخذ أكبر محام وأكبر عالم سنّاً على عاتقهما مسألة إزالة الشكوك. إذا لم يتّفِق الفتيان على الزواج، إذا لم يعشق الواحدُ منهما الآخر، سيُمنحان المال الذي يخصّهما ويكونا حرَّيْن في أن يفعلا ما يشاءان. بمعزلٍ عن العلاقة التي يمكن أن تتطوّر بينهما، فإنّ العلماء سوف يزرعان في جسمِ متبرّعةٍ، خلال سنةٍ، خليةً جذْعِيّةً جديدة من الصعلوك، ثمَّ وبعد خمس سنوات، سيُكرّران العملية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بخليّة جذعيّة من المليونيرة. وحين يبلغ المستنسخان الجديدان ثلاثاً وعشرين سنة وثماني عشرة سنة، مهما كانت العلاقةُ الشخصية بينهما، أي إذا تحابّا كأخوين أو كحبيبينِ، سيعودُ العلماء أو أخلافُ العلماءِ ليزرعوا خليتين جذعِيَّتَيْن وهكذا حتى نهاية الزمان أو حتى تُستنفَدَ ثروةُ المليونيرة.

في هذه النقطة تنهي الحكايةُ. على الشفق يرتسمُ وجها المليونيرةِ والصعلوكِ، تليهما النجومُ ثمَّ المُطلق. مفجعة قليلاً، أليس صحيحاً؟ سامية قليلاً ومفجعة قليلاً. كما في كلّ حبٍّ مجنون، أليس صحيحاً؟ إذا ما أضاف الواحدُ مزيداً من المُطلقِ إلى المُطلقِ فالنتيجة هي المُطلق. إذا ما جمعَ المرء ما هو سام مع ما هو مُفجِع فالنتيجة هي الفجيعة. أليس صحيحاً؟

٢٠

خوسِهْ لِندويرو، تِيرمِه دي ترايانو، روما، تشرين الأول ١٩٩٢.

كنتُ محامياً فريداً. يمكن أن يُقال عنّي سواء بسواء: *إئتمنتَ الذئبَ على الغنم*[١]، أو يجب *أن نجدّفَ الماءَ بمجداف ونجدف بآخر رملَ الضفة*[٢]. ومع ذلك أُفَضّلُ التمسك بقول كاتولوس: *لا تقاتل اثنين معاً*[٣]. سيأتي يوم يُعْتَرَفُ فيه بفضائلي.

في تلك المرحلة كنتُ أسافر وأقومُ بتجارب. ممارسة المحاماة أو الخبرة القانونية كانت تُقَدِّمُ لي دخلاً كافياً كي أتفرّغ مطوّلاً لفنِّ الشعر النبيل. *أوندِ هابيا كوايريت نِمو، سِدْ أوبورْتِتْ هابِرِ*[٤] والتي تعني لا أحد يسأل من أين لك ما تملك، لكن من الضروري أن تملك. إنّه أمرٌ جوهري إذا ما أرادَ المرء أن يتفرّغ لأكثر نزعاته سرّية: الشعراء يُفْتنون أمام مشهدِ المال.

لكن لنَعُد إلى تجاربي: كانت هذه التجارب تقومُ، لِنَقُلْ، في

---

(١) Lupo ovem commisti

(٢) Alter remus aquas, alter tibi radat harenas

(٣) Noli pugnare duobus

(٤) Unde habeas quaerit nemo, sed oportet habere. وجدت أن من الأفضل أن أنقل الجملة إلى العربية باللفظ اللاتيني حين يترجمها الكاتبُ إلى الأسبانية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الاندفاعِ الأوّلِ على السفرِ والمراقبة، وإن سهل عليّ أن أُدرك سريعاً أنَّ ما كَنتُ أريدُهُ في لاوعيي هو الحصول على خريطةٍ مثالية لإسبانيا. هوك إرات إنْ فوتيس[١]، *كان هذا من أولويات رغباتي*، كما يقول هوارسيو الخالد. طبعاً كنتُ أصدر مجلّة. كنتُ، إذا ما سُمِحَ لي أن أقول، الراعيَ والناشرَ والمديرَ والشاعرَ النجمَ. إنْ بِّتريس، هِربيس فيس إستْ، سِد ماكيسما فِربيس: للحجارةِ والأعشابِ فضائل، لكنّ فضائلَ الكلمات أكثر بكثير.

ثمّ إنّ منشوراتي كانت تُخفّضُ الضرائبَ، وهو ما كان يجعلها محتملة. لماذا سأتثاقل، فتفاصيل الشعر زائدة، كان هذا شعاري، إلى جانب *باولو مايورا كاناموس*[٢]: *لنُنْشِدَ، يا بولس أشياء أسمى قليلاً* كما كان يقول فيرجيليو. يجبُ الذهاب مباشرة إلى اللبِّ، إلى النواة، إلى الجوهر. كان لي مجلّةٌ ومكتبٌ قانوني، قنّاصو دعاوى وحقوقيون غير جَدّيين، يتمتعون بشهرة غير مُستَحَقّة، وكنتُ خلال الصيفِ أسافرُ. كانت الحياة تبتسم لي. ومع ذلك قلتُ لنفسي ذات يومٍ، يا خوسِه، لقد كنت في كلِّ بقاع العالم، *فلتبدأ حياةً جديدة*[٣]، حانت ساعة أن تجوب طرقَ إسبانيا، وإن لم تكن دانتي، حانت ساعة أن تجوب طرق إسبانيا هذه المضروبة والمعذّبة جدّاً، ومع ذلك ما زالت مجهولة جدّاً.

أنا رجل عملي. قولاً وفعلاً: اشتريتُ بيتاً مقطوراً وانطلقتُ. يكفي *أنّني أعيش*[٤]. جبت الأندلسَ. ما أجمل غرناطة، ما أظرف إشبيلية، ما أشدّ صرامة قرطبة. لكن عليّ أن أتعمّقَ، أن أذهبَ إلى

---

(١) Hoc erat in votis

(٢) Paulo maiora cantamus

(٣) Incipit vita nova

(٤) Vive valeque

الينابيع، كدكتور في القوانينِ وعلمِ الجريمة عليّ ألا أرتاحَ حتى أعثر على الطريق الدقيق، *الحقوق هي فنّ الصالح والعادل، الحرّية هي القدرة على فعلِ ما يسمح به القانون*[١]. جذر الظهور. كان صيفاً تعليمياً. كنتُ أُكرّر لنفسي: نِسيت فوكس رِفِرتي[٢]، *الكلمة ما إن تُطلقها حتى لا يعود بمقدورك أن تسحبها* لهوراسيو العذب. كمحام يمكن لهذا التأكيد أن تحتوي على جرأة. لكن ليس كشاعر. من تلك الرحلة الأولى عدت متحمّساً ومرتبكاً قليلاً.

لم أتأخر بالانفصال عن زوجتي. دون مآسٍ ودون أن أتسبّب بأذى لأحد، ومن حسن الحظّ أن بناتنا كنَّ قد كبرن ويملكن من البصيرة ما يكفي كي يتفهّمنني، خاصة الكبرى. خذي البيت وشاليه توسّا، قلتُ لها، وبلا كلام أكثر. قبلت زوجتي بشكل مفاجئ. ما تبقى وضعناه في أيدي بعض المُحامين الذين كانت هي تثق بهم. *لِغوم أمونِسْ سِرفي سوموس، إوت ليبِري إسِّ بوسيّموس* أي *ليس هناك أمام الجلسات العامّة ما هو أقوى من القانون: في القضايا الخاصّة الشاهد هو الأقوى*[٣]. على الرغم من أنّني لا أعرف لماذا أقولُ هذا. ما علاقة الشاهد بالطلاق. كوابيسي تخونني. على كلِّ حالٍ جميعنا مرتهنون بالقانون بهدف أن نكون أحراراً. هذا يعني أنّنا جميعاً عبيدٌ أمام القانون كي نكون أحراراً، وهذا هو المثل الأعلى.

فجأة فارت قوايَ وشعرتُ بنفسي أستعيدُ شبابي، تركتُ التدخينَ، صرتُ أخرج صباحاً لأجري، شاركتُ بعزيمة في ثلاثة

---

(١) Ius est ars boni et aequi, libertas est potestas faciendi id quod facere iure licet.

(٢) Nescit vox missa reverti

(٣) In publicis nihil est lege gravius: in privatis firmissimum est testamentum.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مؤتمرات حول التشريع، عُقِد اثنان منهما في عاصمتين أوروبيّتين قديمتين. مجلتي لم تَنْهَر بل على العكس، فقد تعاضد الشعراء الذين كانوا يشربون من رافدي في إظهار تعاطفهم. *الصداقات الحقيقيّة خالدة*[١]، فكّرتُ مع الحكيم سيشرون. قرّرتُ بعدها بإفراطٍ بالثقةِ واضحٍ أن أنشرَ ديواناً بأشعاري. كانت الطبعة غاليةً والكتابات النقديّة (أربع) جاءت غير سارّة باستثناء واحدة. عزوتُ كلّ شيء لإسبانيا ولتفاؤلي ولقوانين الحسدِ القاسية. *الحسد مثل دخان الصاعقة*[٢].

حين جاء الصيفُ أخذتُ بيتي المقطور وقرّرتُ أن أتفرّغ للتجوال في أرض أجدادي، أي في غاليثيا المعتمة والبسيطة. انطلقتُ بمزاجٍ رائق في الرابعة صباحاً وأنا أُنشد بين أسناني سونيتات للخالد والمزعج كيفيدو. ما إن أصبحتُ في غاليثيا حتى رحتُ أجوبُ لاس ريّاس وأتذوّق خمورَها وأتحدَّثُ مع بحّارتها، إذ أنّ *الطبيعة مدهشة ولاسيما أشياؤها الصغيرة*[٣]. توجّهتُ بعدها نحو الجبال، نحو أرضِ الساحرات الشريرات، مُحَصَّنَ الروحِ منفتحَ الحواس. كنتُ أنام في المخيمات، فقد نبّهني رقيبٌ في الحرس المدني إلى أنّ المبيتَ خطيرٌ على أطرافِ الطرقِ الفرعيةِ أو الريفيةِ التي تشهدُ حركةَ ناسٍ مجرمين، وغجرٍ، ومُنشدين وعربيدين يذهبون من مرقصٍ إلى مرقص في دروب الليل الضبابية، خاصّة في الصيف. *من يحبّ المخاطرة يَمُت فيها*[٤]. فيما عدا ذلك لم تكن المخيماتُ سيّئة ولم

---

(١) Verae amicitiae sempieternae sunt

(٢) Invidia ceu fulmine summa vaporant

(٣) Natura maxime miranda in minimis

(٤) Qui amat periculum in illo peribit

أتأخر في حسابِ غزارة العواطف والوله الذي يمكن أن ألقاه وأراقبه بل وأفهرسه في تلك الأحواز وعيني على الخريطة.

وبهذه الطريقة وأنا في أحدِ هذه الأماكن، حدث ما أتصوّرُ الآنَ أنّه الجزء المركزي من قصّتي. أو على الأقل الجزءُ الوحيدُ الذي أحتفظُ بهِ كما هو من كلّ قصّتي الحزينة والعبثية. *ما من فانٍ سعيد*[١]، يقول بلينيوس. ويقول أيضاً: *سعادة الإنسان التي هي نقطة قوته ليست شرطاً إنسانياً*[٢]، لكن عليّ أن أذهب إلى اللب، كنتُ في مكانٍ جبلي مليء بالأدغالِ والنباتاتِ من كلّ الأنواع. وكنتُ أقرأُ وأُسَجِّلُ ملاحظات وأراكمُ معرفة. الحياة الخَلِيّةُ من دون أدبٍ موتٌ وقبرٌ للإنسان حيّاً[٣]. على الرغم من أنّني قد أُبالغ. بكلمة واحدة (ولنكن صريحين) كنتُ أسأم حتى الموت.

وذات مساء بينما أنا أتنزّهُ في منطقةٍ لا بدّ أنّها مهمّةٌ بالنسبة إلى عالمِ مستحاثاتٍ، حدثت الفاجعةُ التي سأرويها الآن. رأيت مجموعةً من المَخَيّمين ينزلون من الجبل. لم يكن الأمر يحتاج إلى كثيرٍ من الفهم كي يدركَ المرءُ بعد أن يرى وجوهَهُم المكفهرة أنَّ شيئاً سيّئاً قد حدث. أوقفتُهم بإيماءة وجعلتهم يقدمون لي التقرير. الذي حدث هو أنّ حفيدَ أحدِهم سقطَ في بئرٍ أو هوّةٍ أو فالِقٍ في الجبل. تجربتي كمُحام جنائي قالت لي إنّ عليّ أن أتصرّفَ على الفور، *الأفعال أقوى من الأقوال*[٤]. وهكذا بينما كان نصفُ المجموعة يتابع طريقَهُ إلى المُعَسْكَر تسلّقنا أنا والبقيّةُ التلَّ الوعر ووصلنا إلى حيث حدثت الفاجعة، حسب قولهم.

---

(١) Mortalium nemo est felix

(٢) Felicitas cui praecipua fuerit homini, non est humani iudici

(٣) Otium sine litteris mors est et homini vivi sepultura

(٤) facta, non verba

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان الفالق عميقاً لا يُسْبَرُ غورُهُ. قال أحد المُخَيّمين إنّ اسمَهُ فمُ الشيطان. وأكّد آخر أنّ أبناء المنطقة يؤكّدون أنّ الشيطانَ أو أحدَ تجسُّداتِهِ الأرضية كان يسكن هناك. سألتُ عن اسم الطفل المختفي فأجابني أحد المُخيّمين: إليفاث. كان الوضع بحدّ ذاته غريباً، لكنّه تحوّل بعد الجوابِ صراحةً إلى متوعّد، إذ ليس في كلّ يوم يبتلع فالقٌ طفلاً بهذا الاسم الفريد. إذن إليفاث؟ قلتُ أو همستُ. هذا هو اسمه، قال الذي تكلّم؟ كان البقيّةُ مَكتبيّين وموظّفين جهلة من لوغو، نظروا إليّ ولم يقولوا شيئاً. أنا رجلُ فكرٍ وتأمّل، لكنّني أيضاً رجلُ فِعلٍ. *أن لا تتقدّم يعني أنّك تتأخّر*[١]. تذكّرتُ. اقتربتُ من فتحة الفالق وصرختُ باسم الطفل. ولم يكن الجواب الذي تلقيته غير الصدى المشؤوم. صرخة، صرختي، أعادتها إليّ أعماقُ الأرض وقد تحوَّلت إلى صفعةٍ بظهر الكف داميةٍ. قشعريرة جابت نخاعي الشوكيّ، لكنّني أظنّ أنّني ضحكتُ كي أُخفيها، قلتُ لرفاقي، لا شكَّ أنّ ذلك كان عميقاً، اقترحتُ إمكانية أن نربط جميع زنانيرنا ونُشكلَ منها حبلاً أولياً كي يهبط أحدُنا، أكثرُنا نحولاً بالطبع، ويسبرَ الأمتارَ الأولى من الهوّة. تحادثنا. دخّنا. ما من أحدٍ دعم اقتراحي. بعد برهةٍ ظهر الذين تابعوا طريقَهم إلى المعسكر مع التعزيزات الأولى والمواد الضرورية للهبوط. *الإنسان الجديُّ الكدود هو إنسانٌ جاهز لكلّ شيء*[٢]، فكّرتُ.

ربطنا فتىً من كاستروبِردِ بأفضل ما استطعنا وبينما كان يُمْسِكُ بالحبل خمسةُ رجال قولاً وفعلاً بدأ الفتى المزوّدُ بمصباحٍ كهربائي بالهبوط. وسرعان ما غابَ من نظرنا. وكنا نحن نناديه بأعلى صوتنا

---

(١) Non progredi est regredi

(٢) Homo fervidus et diligens ad omnia est paratus

ماذا ترى؟ ومن الأعماق كان يصلنا جوابه في كلّ مرّة أكثر وهناً: لا شيء! *الصبر يهزم كلّ شيء*[١]، لفتُ الانتباه وعدنا لنصرّ. ولأنّنا لا نرى، لم نكن نرى ولا حتى نور المصباح، على الرغم من أنّ جدرانَ أقرب الكهوفِ من السطح كانت تلمع بشكل متفرق بدفق قصير من النور، كما لو أنّ الفتى يُسَلِّطُ النور فوق رأسه ليُقَدِّر كم متراً هبط. عندها بينما كنّا نتحدث عن النور، كان أن سمعنا عواءً خارقاً فأطللنا جميعاً على الهوّة. ماذا جرى؟ صرخنا. عاد العواء ليتكرَّر؟ ماذا جرى؟ ماذا رأيت، هل عثرت عليه؟ وما من أحدٍ ردّ علينا من القاع. بضع نساء رحن يُصَلّين. لم أعرف ما إذا كنتُ سأُصابُ بالذعر أم أتعمّق في الظاهر. *العالم مليء بالبلهاء*،[٢] أشارَ سيشرون. طلب أحدُ أقرباءِ السابرِ منّا أن نرفعه. الخمسة الذين كان يُمسكون بالحبل لم يَقْدِروا على فعل ذلك فاضطررنا لمساعدتهم. الصرخة الصادرة من القاع تكرّرت عدّة مرّات، نجحنا في إخراجه إلى السطح.

كان الفتى حيّاً وباستثناء بعض الكمدات في الذراعين والتمزّق في البنطلون لا يبدو أنّه مجروح. ولمزيد من الطمأنينة لمستِ النساءُ ساقيه. لم يكن عنده أيّ عظم مكسور. ماذا رأيت؟ سألهُ قريبُهُ. لم يبغِ الفتى أن يُجيب ورفع يديه إلى وجهه. في تلك اللحظة كان عليّ أن أفرض سلطتي وأتدخّل، لكنّ وضعي كمُتِفَرّج أبقى عليّ، كيف سأقول ذلك، مسحوراً أمامَ مسرح الظلال والإيماءات غير المجدية. كرَّر آخرون، مع اختلافات خفيفة، السؤالَ. تذكّرتُ ربّما بصوتٍ عالٍ أنّ *الظروف لا تصنع الرجل الضعيف لكنّها تُبيّن ماهيته*[٣]. كان

---

(١) Patientia vincit omnia

(٢) Stultorum plena sunt omnia

(٣) occasiones namque hominem fragilem non faciunt

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفتى الضخمُ، دون شكّ، ذا جبلة ضعيفة. سقوه رشفة كونياك. لم يُبدِ مقاومة وشربها كما لو أنّ حياته تذهب معها. ماذا رأيتَ؟ كرّرت المجموعة. عندها تكلّم الفتى ولم يسمعه غير قريبِهِ، الذي عاد وسأله السؤالَ ذاته، كما لو أنّه لم يُصدّق ما سمعته أذناه. أجاب الفتى: رأيتُ الشيطان.

بدءاً من تلك اللحظة سيطر الهرجُ والمرج على مجموعة الإنقاذ. بعدد *الرؤوس تكون المعاني*[١]. قال بعضهم إنّهم هتفوا للحرس المدني من المخيّم وإنّ أفضلَ ما يُمكنُ فعله هو الانتظار. بعضهم سأل عن الطفل، وعما إذا رآهُ الفتى في لحظة ما من لحظاتِ هبوطه، أو عمّا إذا كان قد سمعه وجاء الجواب بالنفي. الغالبية راحوا يستقصون عن طبيعة الشيطان، وعما إذا رآه بكاملِ جسمه، أم رأى وجهَهُ فقط، كيف كان، ما لونه، إلخ. تطير الشائعات، قلتُ لنفسي وتأمّلتُ المنظر. عندها ظهرت مجموعة أخرى قادمة من المخيّم ومعها الحارس ومجموعة النساء اللواتي كانت بينهنّ أمّ المُختفي، التي تأخّرت حتى سمعت بالحادث، أعلنت لمن أراد أن يسمعها، أنّها كانت تُشاهد مسابقةً في التلفزيون. مَنْ تحت؟ سأل الحارسُ. وبصمت أشاروا إلى الفتى الذي كان ما يزال يرتاح على العشب. اقتربت الأمُّ في تلك اللحظة خائرةً من فم الكهف وصاحت باسمِ ابنها. لا أحد ردّ عليها. عادت وصاحت. عندها عوى الكهف وكانَ كما لو أنّه ردّ عليها.

بعضهم وَهُنَ. غالبيتهم ابتعدوا عن البئر، خائفين من أن تخرج فجأة يدٌ من ضبابٍ كي تأخذهم إلى الأعماق. لم يخلُ الأمرُ ممن قال إنّ ذئباً كان يعيش هناك، أو كلباً برّياً. وفي هذه الأثناء كان

---

(١) Quot capita, tot sententiae

الليل قد حلَّ وراحت مصابيحُ غازِ المخيم ومصابيحُ المدخراتِ تتنافس في رقصةٍ مريعة. مركزها المغناطيسي هو الجرح المفتوح في الجبل. كان الناسُ يبكون أو يتكلمون بالغاليسية، التي أنساني إياها اقتلاعي منها، مُشيرين بإيماءاتٍ مرتعشة إلى فم الهوّة. هنا لا يمكن أن نقول *السماء تُغطي من لا غطاء له*[١]. لم يظهر رجال الحرس المدني. فُرِضَ قرارٌ وإن كان الارتباك كلياً. عندها رأيتُ الحارس يربط الحبل إلى خصره فأدركتُ أنّه يستعدُّ للهبوط. أعترف: بدا لي موقفِهِ جديراً بالإطراء فاقتربتُ منه لأهنّئه. خوسِه لِندويْرو، محام وشاعر، قلتُ له بينما أنا أشدّ على إحدى يديه بفيضِ مشاعري. هو نظرَ إليَّ وابتسم كما لو أنّنا نعرف بعضنا بعضاً من قبل. بعدها راح، في جوٍّ من الترقّب العام، يهبطُ في ذلك البئر الشنيع.

إذا أردت أن أكون صريحاً تجمّعنا أنا وكثيرون ممن كانوا هناك وخفنا من الأسوأ. هبط حارسُ المخيَّمِ حتى انتهى الحبل. وهنا فكّرنا جميعاً أنّه سيعودُ ويصعدُ وبدا لي لثانيةٍ أنّه كان يشدّ من الأسفل ونحن نشدّ من الأعلى وتوقّف البحثُ في سلسلةٍ خسيسة من الارتباكات والصرخات. حاولتُ أن أفرض السلام، أن أساهمَ *بحبَّةِ ملح*[٢]. لو لم أكن أملكُ خبرة المحاكم الرومانية لَرَماني أولئك الناس الهائجون على رأسي في البئر. أخيراً فرضتُ نفسي عليهم. ليس بقليلٍ من الجهد استطعنا أن نتواصل مع الحارس ونفسّر صيحاته. كان يطلب منّا أن نفلتَ الحبل، وهكذا فعلنا. تجمّد قلبُ أكثر من واحدٍ منّا وهو يرى قطعة الحبل التي كانت ما تزال ظاهرة تختفي في الهوّة مثل ذيل فأر بين شِدْقَي أفعى. قلنا لا بُدّ أنّ الحارسَ يعرف ما يفعل.

---

(١) caelo tegitur qui non habet urnam

(٢) addito salis grano

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بغتةً صار الليلُ أكثرَ ليلاً والثقبُ الأسودُ، إذا جاز لنا أن نقول ذلك، صار أكثر سواداً والذين كانوا قبل دقائق مأخوذين بنفاد صبرهم ويتمشون قليلاً حوله توقّفوا عن فعل ذلك لأنّ احتمالَ أن يتعثّروا وتبتلعهم الهوّة تجسّدت كما تتجسّد الخطايا أحياناً. ومن حين إلى آخر كانت تفلتُ من الداخل عواءات هي في كلِّ مرّة أكثر اختناقاً، كما لو أنّ الشيطان ينسحب بفريستيه اللتين قبض عليهما توّاً إلى أعماق الأرض. في مجموعتنا على السطح، لا حاجة للقول، كانت تدورُ بلا توقُّفٍ أكثرُ الفرضيات جرأة. *الحياة قصيرة والفنّ طويل والفرصة فرورة والتجربة مشوّشة والحكم صعب*[1]. كان هناك من لا يتوقّف عن النظر إلى الساعة، كما لو أنّ الزمنَ يلعب في هذه المغامرة دوراً حاسماً. كان هناك من يُدخّنون في حلقة، ومن يرعون قريباتِ الطفل المفقود، المصابات بالإغماء. كان هناك من يلعنون الحرس المدني على تأخّره. فجأة وبينما كنتُ أنظرُ إلى النجوم، فكّرتُ أنّ كلّ ذلك يُشبه قصّةً قصيرة لدون بِّيّو باروحا، قرأتُها في سنواتِ دراستي للحقوق في جامعة سلمنكا. تسمى القصّة *الهوّة*، وفيها راع صغير ابتلعته أحشاء الجبل. ينزل صبيّ، مربوط جيّداً بحثاً عنه لكنّ عواءَ الشيطانِ ثناهُ فعاد ليصعد من دون الطفل، الذي لم يرَه، لكنّ أنينه، أنين الجريح مسموعٌ بوضوح من الخارج. تنتهي القصّة بمشهدِ عجزٍ مُطلق، حيث يغلبُ الخوفُ الحبَّ أو الواجبَ، بل والروابطَ الأسرية: ما من أحدٍ من مجموعة الإنقاذ المكوّنة، حقيقةً، من رعاةٍ باسكيين أفظاظ ومُتَطيّرين، يجرؤ على الهبوط بعد القصة المتلعثمة التي يحكيها ابنُ العم، والذي يقول، لا أتذكّره

---

(١) Vita brevis, ars longa, occasio praeceps, experimentum periculosum, iudicium dificile

بيقين، إنّه رأى الشيطانَ أو شعرَ به، أو حدسَ به أو سمعه. *إنّه دائماً مسلح في ذاته بالغضب*[1]. في المشهد الأخير، يعود الرعاة إلى بيوتهم بمن فيهم جدُّ الطفلِ الخائف، ويسمعون طوالَ الليل، ليلِ الريحِ أنيناً يخرجُ من الهوّة. هذه هي قصّة دون بيّو. قصّة شباب، أظنُّ، حيث أنّ نثره الرفيع لم يكن قد فرد بعدُ جناحيه، لكنّها رغم كلّ شيء قصّة جيّدة. هذا ما فكَّرتُ به بينما تطفو العواطفُ الإنسانية خلفي وعيناي تعدّان النجوم: إنّ القصّةَ التي كنتُ أعيشها كانت مماثلة لقصة باروخا وإنّ إسبانيا كانت ما تزال إسبانيا التي لم تُرْدَم هوّاتها حيث ما يزال الأطفالُ مُتَهَوّرين ويسقطون فيها والناسُ يُدَخّنون ويدوخون بطريقةٍ مفرطة إلى حدٍّ ما وحيث الحرس المدنيّ لا يظهر أبداً

وعندها سمعنا صرخةً، وليس عواء غير واضح اللفظ، بل كلمات، شيئاً مثل آه، يا أوغاد، وإن لم يخلُ الأمرُ من مُتَوَهِّم قال إنّ الأمر يتعلّق بالشيطان، الذي لم يشبع بعدُ ويريد أن يأخذ واحداً آخر، أطللنا نحن البقيّة من حافّة الهاوية ورأينا نورَ مصباحِ الحارس، حزمة شبيهة بحباحبٍ ضائعٍ في ضمير بوليفيموس، وسألنا النورَ عما إذا كان بخير، والصوتُ الذي كان خلف النورِ قال مُمْتاز، سوف أشدّ منكم الحبل وسمعنا صخباً لا يكاد يُحَسُّ على جدران البئر، ثمّ وبعد عدّة محاولاتٍ فاشلة قال الصوتُ ارموا لي حبلاً آخرَ، ثم وبعد قليل رفعنا الطفلَ المُختفي الذي رُبِطَ من خصره وإبطيه، احتفلنا بظهوره غير المتوقّع بالبكاءِ والضحكات وحين فككنا الطفلَ رمينا الحبلَ وصعد الحارسُ وكانت بقية تلك الليلة، أتذكّر الآن وأنا لا أنتظر شيئاً، احتفالاً متواصلاً. *آه كم من السعادة تُطلق الظلمات في*

---

(١) In se semper armatus Furor

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عقولنا[١]، حفلة غاليسيين في الحبل، فالمُخَيِّمون كانوا موظّفين أو مكتبيين غاليسيين وأنا أيضاً كنتُ ابنَ تلك الأرض والحارسُ الذي كانوا ينادونه بالتشيليّ، تلك كانت جنسيته، أيضاً كان ينحدّر من غاليسيين بواسل وكنيته بِلانو، هكذاِ كان يقول.

في اليومين الآخرين اللذين مكثتُهما هناك أجريت محادثات طويلة معه واستطعتُ على وجه الخصوص أن أجعله يُشاركني قلقي ومغامراتي الأدبية. بعدها عدتُ إلى برشلونة ولم أعرف شيئاً عن شخصهِ إلى أن ظهر بعد سنتين في مكتبي. كان، كما يحدث دائماً في مثل هذه الحالات، في عوزٍ مالي وليس عنده عمل، وهكذا وبعد أن نظرتُ إليه طويلاً وفكّرتُ في داخلي بفائدةِ أن أطردَهُ إلى الشارع، *وداعاً وإلى الأبد*[٢]، أو أمدَّ له يدَ المساعَدة، ملتُ إلى هذا الخيار الأخير وقلتُ له أستطيعُ أن أؤمّن لك كتابةَ بعض استعراضات الكتب في مجلة مدرسة المحامين، التي كنتُ أُنسّق صفحاتها الأدبية، هذا مؤقّتاً، بعدها سنرى. ثمَّ أهديتُهُ كتابيَ الشعري الأخير ونبّهته إلى أنّ استعراضه للكتب يجب أن يقتصِر على المجال الشعري، فاستعراض القصص يتولاها صديقي خاوم جوسِب، المتخصّص بالطلاق والغلماني منذ زمن طويل، معروف في البارات البائسة الملحقة بِلاس رامبلاس من قبل عصاباتِ اللوطيين مثل القزم المعذّب، إشارة إلى قصرِ قامته، وضعفهِ أمام القوّادين ذوي الطبيعة العنيفة والغضوبة.

لا أظنّ أنّني أُخطئ إذا ما قلتُ إنّني لاحظتُ في وجههِ بعضَ الخيبة، ربّما تعود إلى أنّه كان يأمل أن ينشر في مجلتي الأدبية،

---

(١) O quantum caliginis mentibus nostris obicit magna felicitas

(٢) supremum vale

الأمر الذي كان من المحالِ عليّ أن أقدمه له وقتذاك، ذلك أن لائحةَ المساهمين النوعية كانت عالية جدّاً. فالزمن لا يجري عبثاً وأشهر ما في الأدب البرشلوني يمرّ بمجلّتي، خلاصةُ خلاصةِ الشعر، ولم يكن الأمرُ يتعلّق أن تصير لطيفاً بين ليلة وضحاها مراعاةً ليومين صيفيَّيْن من الصداقة وتبادل الآراء النزوية إلى هذه الحدّ أو ذاك. من *يُرِد أن يصل عالياً فليتعلّم أن يخدم*[1].

هكذا بدأتُ، أستطيعُ القول، المرحلةُ الثانيةُ من علاقتي مع أرتورو بِلانو. كنتُ ألتقي به مرّةً في الشهر، في مكتبي، حيث كنتُ، في الوقت الذي أصرّف فيه أكثر المسائل تبايناً، أهتمُّ بواجباتي الأدبية وحيث كان يحضرُ عادةً، تلك كانت أزمنة أخرى، أرقُّ الكتابِ والشعراء وأكثرهم شهرة من برشلونة ومن أجزاء أخرى من إسبانيا بل ومن أمريكا اللاتينية، الذين بمرورهم بمدينتنا يأتون لِيُسَلّموا عليّ. أتذكّر أنّ بِلانو صادف مرّةً أحدَ المُساهمين في المجلّة وأحدَ المدعوّين من قبلي، ولم تكن نتائجُ ذينك اللقاءين مُرضيةً إلى الحدِّ الذي كنتُ أرغب به. لكن ونظراً لأنّني كنتُ غارقاً في العملِ والمتعةِ لم أحرص على لفت انتباهه، كما لم أَصِخ السمعَ للهمهمة التي كانت تُوفّرها تلك اللقاءات. همهمة خلفيّةٍ شبيهة بصخب قافلة سيارات، وحشدِ دراجاتٍ نارية، وحركة مواقف سيارات المستشفيات، همهمة تقول لي انتبهْ، يا خوسّه، عِشْ الحياةَ، اعتنِ بجسدك، الوقتُ قصيرٌ، والمجدُ فرور، لكنّني لجهلي لم أفك رمزها أو اعتقدت أنّها لم تكن موجّهة إلي، بل إليه، تلك الهمهمة، همهمة الكارثة الجليّة، همهمة الأشياء الضائعة في ضخامة برشلونة، تلك الرسالة التي لم تكن تخصّني، بيت من الشعر لم يكن له أيّ علاقة بي

(١) Discat servire glorians ad alta venire

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وله علاقة به، في الوقت الذي كان في الحقيقة مكتوباً حصرياً لي. *الثروة تسيطر على كلّ ما هو بشريّ*[١].

في ما عدا ذلك كانت لقاءات بِلانو مع المُساهمين في مجلّتي لا تخلو من بعض السحر. في إحدى المناسبات أرادَ أحدُ فتياني، الذي تركَ بعدها الكتابةَ وتفرّغ للسياسةِ بنجاح كافٍ، أن يضربه. بالمناسبة لم يكن فتايَ يتكلّم بجدّية، مع أنّ هذا في الواقع شيء لا يُعرف أبداً، لكن الصحيح هو أنّ بِلانو تجاهل الأمر: أظنّ أنّهُ سأل عمّا إذا كان المساهم يعرف كاراتيه أو شيئاً من هذا القبيل (كان حاصلاً على حزام أسود) ثم تظاهر بالشقيقة وتفادى القتال. في مناسبات مثل هذه كنتُ أضحك كثيراً. كنتُ أقول له: تعال، يا بِلانو، حافظ على أفكارك، دافعْ عنها، واجِهْ أشهرَ مشاهير الأدب، *من دون غش*[٢]، وكان هو يقول لي إنّ رأسَهُ يؤلمه، ويضحكُ ويطلبُ مني أن أدفعَ له تعويضَ مساهماته الشهري في مجلة المحامين ويرحل طاوياً ذيله بين ساقيه.

كان عليّ أن أرتابَ من ذلك الذيل بين الساقين، *دون عدوانية ولا محاباة*[٣]. كان عليّ أن أُفكّر، ما معنى ذلك الذيل بين ساقيّ حارسِ مُخيّم كاستروبِردِ السابق.

لكنّني لم أفعل وتابعتُ عيشي. *الخطأ إنساني والعناد شيطاني*[٤]. وصلتُ ذات يومٍ إلى بيتِ ابنتي الكبرى فشعرت بضجة. بالطبع أحملُ مفتاح البيت، الذي كان، عملياً حتى قبل طلاقي

---

(١) Fortuna rerum humanum domina

(٢) sine dolo

(٣) sine ira et studio

(٤) Errare humanum est, perseverare autem diabolicum

بقليل، البيتَ الذي كنّا نعيش فيه أربعتنا، أنا وزوجتي وابنتاي. اشتريتُ بعد طلاقنا برجاً في ساريا، واشترت زوجتي ملحقاً في ساحة مولينا، إلى حيث ذهبت لتعيش مع ابنتي الصغرى، وأنا قرَّرت أن أهدي شقّتنا القديمة لابنتي الكبرى، الشاعرة مثلي، والمساهمة الأساسية في مجلّتي. كنتُ، كما قلتُ، أحملُ مفتاحاً، على الرغم من أنّ زياراتي لم تكن كثيرة، في أغلب الأحيان كنتُ أذهبُ كي آخذ كتاباً أو لأنّ اجتماعات مجلس التحرير كان يُعقد هناك. هكذا دخلتُ وشعرت بضجّة. وبلباقة، كما يجب على أبٍ ورجلٍ حديث، أطللتُ على الصالون ولم أرَ أحداً. كانت الضجة تأتي من عمق الممرّ، *ألن تغضب؟ لا تكن فضولياً*[1]، ردّدت مرّتين. ومع ذلك تابعتُ تسللي في منزلي القديم. مررتُ بغرفة ابنتي، أطللتُ، لم يكن هناك من أحد. تابعتُ طريقي على رؤوس أصابعي. على الرغم من أنّ الصباحَ كان مُتَقَدّماً إلاّ أن البيتَ كان في شبه ظلمة. لم أُشعل النور. اكتشفت الضجة، كان مصدرها الغرفة التي كانت في السابق لي، غرفة بقيت كما تركتها أنا وزوجتي. شققتُ البابَ ورأيت ابنتي الكبرى بين ذراعي بِلانو، ما كان يفعله هذا معها بدا لي، على الأقل من مباغتةِ النظرةِ الأولى، أنّه لا يمكن أن يُحكى. كان يجرّها على سريريَ الواسع من جانب إلى آخر، يركب فوقها، يُقَلِّبُها. كلّ ذلك بين سلسلة مريعة من الأنين والزمجرة والنهيق والهديل والصخب الماجن، أوقفتَ شعر بدني. *ألف طريقة لفعل ذلك*[2]، تَذَكَّرتُ مع أوفيد، لكن هذا بدا لي الطامّة الكبرى. ومع ذلك لم أعبر العتبة. بقيتُ بلا حراك، صامتاً، مسحوراً، كما لو أنّني رجعت فجأة إلى

---

(١) Non vis esse iracundus? Ne fueris curiosus.

(٢) Mille modi veneris.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مخيّم كاستروبِردِ والحارس الغاليسي الجديد غاص مرّة أخرى في تلك الهوّة وأنا والموظفون الذين في إجازة كنّا مرّة أخرى في فم الجحيم. عظيم *أن تعرف متى تتكلّم ومتى تصمت*[١]. لم أقل شيئاً. لزمتُ الصمتَ وذهبت كما جئت. ومع ذلك لم أستطِع أن أبتعدَ كثيراً عن بيتي القديم، عن بيت ابنتي، وقادتني خطواتي إلى مقهى مجاور حوّله أحدٌ، لا شكّ مالكه الجديد، إلى محلٍّ أكثر حداثة بكثير، بطاولات وكراس من البلاستيك البرّاق، حيث بقيتُ بعد أن طلبتُ قهوة بالحليب، أدرسُ الوضع. كانت صور ابنتي وهي تتصرّف مثل كلبةٍ تتواردُ إلى رأسي أمواجاً، وكانت كلُّ موجة تتركني مُبلّلاً بالعرق، كما لو أنّني محموم ولذلك طلبتُ، بعد أن شربتُ القهوةَ، كأسَ كونياك، لأرى ما إذا كنتُ سأنجح إذا تناولتُ شيئاً أقوى في أن أُهَدِّئَ نفسي وأنتهي. أخيراً ومع الكأس الثالثة نجحتُ. *بعد النبيذ يولدُ الكلامُ وبعد المطر ينتشُ العشب*[٢].

ومع ذلك فما وُلِدَ فيَّ ليست الكلمات ولا الشعر، ولا حتى بيت شعر واحدٍ يتيم وفقير، بل رغبةٌ هائلة بالانتقام، إرادة الثأر، العزيمة التي لا تلين لِجعلِ جوليان سوريل[٣] ذاك يدفع غالياً ثمنَ وقاحته وسفهه. *الكأس الأولى للعطش، الثانية للفرح، الثالثة للذة والرابعة للجنون*[٤]. الكأس الرابع يُحدث جنوناً، قال أبوليوس، وهذا ما كان ينقصني. عرفت ذلك في تلك اللحظة بوضوح يهزّ اليومَ مشاعري.

---

(١) Magna res est vocis et silentii tempora nosse

(٢) Post vinum verba, post imbrem nascitur herba

(٣) بطل رواية الأحمر والأسود لستندل.

(٤) Prima cratera ad sitim pertinet, secunda ad hilaritatem, tertia ad voluptatem, quarta ad insaniam

كانت النادلةُ، وهي فتاة صغيرة بعمر ابنتي، تنظر إليّ من الطرف الآخر من طاولة العرض. إلى جانبها كانت هناك امرأة متفرّغة لإجراء إحصاءات، تتناول مرطباً. كلاهما كانتا تتكلمان بحماس وإن كانت النادلة تحرفُ من حين لآخرَ نظرَها باتجاهي. رفعتُ يدي وطلبتُ كأس كونياك رابعة. لا أعتقدُ أنّني أُبالِغ إذا ما قلتُ إنّني التقطت في النادلة إيماءة شفقة.

قرّرت أن أسحق أرتورو بِلانو كما يُسْحَقُ الصرصور. بقيت أسبوعين أَحضرُ إلى بيتي القديم، بيت ابنتي في ساعات متفرّقة. باغتهما في أربع مناسبات، ومن جديد في وضع حميم. في مناسبتين منها كانا في غرفة نومي، في واحدة في غرفة نوم ابنتي وفي أخرى في الحمّام الرئيسي. في هذه الأخيرة لم يتسنّ لي أن أتجسّس عليهما، وإن تسنّى لي فعلاً أن أسمعهما، لكن في المرّات الثلاث الأخرى استطعتُ أن أرى بأمّ عيني الأعمال الرهيبة التي كانا يستسلمان لها بحمية وانقياد وفجور. *الحبُّ والسعال لا يمكن إخفاؤهما*[١]. لكن هل كان حبّاً ذاك الذي كان يشعر به ذينك الشابان تجاه بعضهما؟ سألتُ نفسي أكثر من مرّة، خاصّة حين كنتُ أُغادِر بيتي حذراً ومحموماً بعد تلك الأعمال فائقة الوصف التي كان هناك قوّة غامضة تجبرني على حضورها. هل كان حبّاً ما كان يشعر به بِلانو تجاه ابنتي؟ هل كان حبّاً ما كانت تشعر به ابنتي تجاه ذلك الغشّاش جوليين سورِل؟ من لا يغار لا يحبّ[٢]، قلت لنفسي أو همستُ لنفسي حين فكّرتُ - في لحظة تجلّي- أنّ موقفي، كان موقف المحبّ الغيور أكثر مما هو موقفُ الأبِ الصارم. ومع ذلك

(١) Amor tussique non caelatur

(٢) Qui non zelat, non amat

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم أكن محبّاً غيوراً. ما الذي كنتُ أشعر به إذن؟ حبيبان، حبيبان. عاشقان، مجنونان، *قال* بلاوتوس.

قرّرت كإجراء وقائي، أن أختبرهما، أمنحهما بطريقتي فرصةً أخيرة. كانت ابنتي، تماماً كما توقّعت، عاشقة للتشيلي. هل أنت متأكّدة؟ سألتُها. طبعاً أنا متأكّدة، أجابتني. وماذا تفكّران أن تفعلا؟ لا شيء، يا أبي، قالت ابنتي، التي لا تشبهني في هذه الأمور أبداً، بل على العكس خرجت بذرائعية أمّها. *ما أقوى العادة المُتَعَلَّمَة في الطفولة*(١). بعدها بوقتٍ قصير قابلتُ بِلانو. جاء إلى مكتبي، كما في كلّ شهر ليُسلِّمني ويقبض مكافأة مقالته في مجلة مجمع المحامين. حسن، يا بِلانو، قلتُ له حين صار أمامي، جالساً على كرسيّ أخفض من كرسيّ، مسحوقاً تحت ثقل شهاداتي وتحت الثقل الذهبي لصوري مع كبار الشعراء التي كانت تُزَيّن بأطرُهِا الفضيةِ طاولة البلوط القوية، التي يبلغ طولها ثلاثة أمتار وعرضها متراً ونصف المتر. أعتقدُ أنّ الساعة حانت، قلتُ له، كي تقفز قفزتَكَ. نظرَ إليّ دون أن يَفهم. القفزة النوعيّة، قلتُ. بعد لحظة لزمنا فيها الصمت وضّحتُ له كلماتي. كنتُ أريدُ (هذه إرادتي، قلتُ) أن تنتقل من مستعرضٍ للكتب في مجلةِ المجمع إلى مساهمٍ معتاد في مجلتي. أظنّ أنّ تعليقه الوحيد كان «يا سلام» وكان أقربَ للانطفاء. كما ستفهم، وضّحتُ له، هذه مسؤولية كبيرة أتحمَّلُها، فالمجلّة في كلّ يوم تزداد احتراماً، يشارك فيها شعراء بارزون من إسبانيا وأمريكا اللاتينية، أفترضُ أنّك تقرأها ولم يفتك أنّنا نشرنا في المرحلة الأخيرة لِبِبِّ دِ ديوس، إرنِستينا بوسكارّاوْنْس، مانولو غارثيديبغو

---

(١) Adeo in teneris consuescere multum est يمكن ترجمته بـ: العلم في الصغر كالنقش في الحجر.

هيخارِس، كيلا نتكلّم عن الشباب المتفوّقين الذين يُشكلون فريق المساهمين المعتادين عندنا: غابرييل كاتالونيا، الذي عنده جميع الأعداد كي يصبح قريباً شاعر اللغتين العظيم الذي نأمل به جميعاً. رافائيل لوغرونيو، الشاعر اليافع لكنّه ذو قوّة تُدهش، إسماعيل سبيّا، دقيق وأنيق، إثكييل بالنثيا، قادر على أن يؤلّف السونيتات الحديثة الحانقةَ حنقَ إسبانيا الحالية، أسلوبه، أسلوب القلب الملتهب والذكاء البارد، دون أن ننسى، طبعاً مجالِدَي النّقْدِ الشعري، بني الخِثيراس، الذي يكاد لا يعرف الرحمة أبداً، وتوني مِليّا، الأستاذ في جامعة أوتونوما والخبير في شعر الخمسينات. جميعهم، رجال، ختمتُ، لي الشرف بأن أرأسهم فقدر أسمائهم أن تلمع بأحرف من برونز في أدب هذا البلد الذي يحتضنك، الوطنِ الأمّ، كما تقولون أنتم، والذين ستعمل برفقتهم.

لزمتُ بعدها الصمتَ وبقينا برهة يُراقب الواحدُ منّا الآخر؛ أنا راقبتُهُ، باحثاً في وجههِ عن أيِّ علامة تشي بما كان يدور في رأسه وبِلانو يعكفُ على استعراض صوري، أشيائي الفنّية، شهاداتي، لوحاتي، مجموعة قيودِ الأيدي والأرجل (معظمها سابقة على ١٩٤٠، المجموعة التي كانت تُثيرُ اهتماماً مشوباً بالرعب عند زبائني، وبعضَ المزاحات والنكات السوقيّة عند زملائي في الحقوق والإعجابَ والدهشةَ عند الشعراء الذين كانوا يزورونني)، ظهورَ الكتب القليلةِ والمختارةِ الموجودة في مكتبي، ومعظمها من الطبعة الأولى لشعراء رومانسيين إسبانيين من القرن التاسع عشر. كانت نظرتُهُ تتنقّل، كما أقول، بين ممتلكاتي مثل فأر، فأرٍ صغير وفي غاية العصبيّة. بماذا يُفكّر؟، باغتُّهُ. عندها نظرَ إليَّ ففهمتُ فجأةً أنّ اقتراحي وقع في كيس مثقوب. سألني بِلانو كم أُفكّر أن أدفع له. نظرتُ إليه ولم أجبْهُ. كان المُتَسِلِّقُ يُفَكّر بجيبه. نظر إليَّ وانتظر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جوابي. وأنا نظرتُ إليه بوجهٍ خالٍ من أيّ تعبير. يتمتم سائلاً عمّا إذا كان ذات المبلغ الذي يتلقاه من مجلة المحامين. تنهّدتُ. *بالمال تُشترى العدالة*[١]. كانت نظرتُهُ، لا شكّ عندي، نظرةَ فأر خائف. لا أدفعُ، قلتُ له، فقط أدفع للكبيرِ، للكبيرِ من الأسماء، لممثلي المؤسسات الكبرى. أنت الآن فقط سأكلّفك باستعراضِ بعض الكتب. عندها حرّك رأسَهُ، كما لو أنّه يقرأ: *أيّها، أيّها المواطنون، أيّها الموطنون، المال أوّلاً والفضيلة ثانياً*[٢]. بعدها قال إنّه سيُفكِّرُ بالأمر وذهب. حين أغلق البابَ وضعتُ رأسي بين يديَّ وبقيتُ برهة أُفكِّرُ. في أعماقي لم أكُنْ أُريدُ أن أُلحقَ به ضرراً.

كان كما النعاس، كما الحلم، كان كعثوري من جديدٍ على طبيعة العملاق الحقيقيّة عندي. حين استيقظتُ سرت باتجاهِ بيت ابنتي مستعدّاً لأن أجري معها حديثَ أبٍ وابنته طويلاً. ربّما كان قد مضى عليَّ زمنٌ طويل لم أتكلّمْ معها ولم أسمعْ فيه مخاوفَها، وهمومَها، وشكوكها. تكفي عقوبة صغيرة من *الأب على خطيئة عظيمة من الابن*[٣]. ذهبنا في تلك الليلة للعشاء في مطعم جيّدٍ في شارع بروفانس وعلى الرغم من أنّنا لم نتكلّم إلا عن الأدب، كان تصرّفُ العملاق الذي في داخلي كما كنتُ أتوقّع: أنيقاً ومرحاً ومتفهّماً، ومفعماً بالمشاريع، مُغرماً بالحياة. في اليوم التالي زرتُ ابنتي الصغرى وأخذتها في السيارة حتى لا فلورِستا، إلى بيت صديقة. قاد العملاق السيّارةَ بأناة وتكلّم بمزاجٍ رائق. عندما ودّعنا بعضنا قبّلتني ابنتي على خدّي.

---

(١) Emere oportet, quem tibi oboedire velis

(٢) O cives, cives, quaerenda pecunia primum est, virtus post nummos

(٣) Pro peccato magno paulum supplicii satis est patri.

كانت البداية فقط، لكنّني كنتُ قد بدأت أشعر في داخلي بالعبّارة الملتهبة التي هي دماغي، التأثيرات المُخفّفة لموقفي الجديد *الإنسان يموت مرّات كثيرة حين يخسر أحد أبناء أسرته*[١]. كنتُ أحبّ ابنتَيَّ، وأعرف أنّني كنتُ على وشك أن أخسرهما. ربّما، فكَّرتُ، كانتا وحدهما أكثر من اللازم ومع أمّهما أكثر من اللازم، أمّهما المستكينة أو بالأحرى الميالة لهجران الجسد والآن من الضروري أن يظهر نفسه العملاق ويبرهن لهما أنّه حيّ ويُفكّر بهما، فقط هذا، شيء في غاية السهولة كان يغيظني (أو ربّما يُحزنني) أنّني لم أقم به من قبل. فيما عدا ذلك لم يُساهم وصولُ العملاق فقط في تحسين العلاقة مع ابنتيَّ، فقد لاحظتُ أن التعامل اليومي مع زبائن المكتب شهد تغيراً ملحوظاً: العملاق لم يكن يخاف شيئاً، كان مقداماً، وتخطر له تلقائياً أقل الحيل توقّعاً، يستطيع أن يمرّ دون أيّ خوف في أكثر الطرق والمنعطفات القانونية مغمضَ العينين ودون أي ظلّ للتردّد. ولا نقول شيئاً عن معاملة الأدباء. هناك كان العملاق، انتبهتُ بمتعة حقيقيّة، رفيعاً وجليلاً، جبلاً من الأصوات والشتائم، من التأكيد والنفي المتواصلين، نبع الحياة.

تخلّيت عن التجسّس على ابنتي وعشيقها التعيس. *أكرهُ، فإن لم أستطعُ، أحبّبت*[٢]. ومع ذلك فقد وقع كلّ ثقل سلطتي على بِلانو. استعدتُ السلامَ. كانت أفضل مرحلة في حياتي.

أُفكِّرُ الآن بالقصائد التي كان باستطاعتي أن أكون قد كتبتُها ولم أكتبْها وتنتابني رغبة بالضحك والبكاء في آنٍ معاً. لكنّني لم أُفكّر وقتها بالقصائد التي كان باستطاعتي أن أكتبها: كنتُ أكتبُها، كنتُ

---

(١) Homo totiens moritur quotiens emittit suos

(٢) Odero, si potero. Si non, invitus amabo

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أظنّ أنّني أكتبها. في تلك المرحلة نشرتُ كتاباً، نجحت في أن تنشره لي إحدى أفضل دور النشر سمعةً في ذلك الوقت. طبعاً تحمّلت كُلَّ النفقات، هم فقط طبعوا الكتاب ووزَّعوه. *كلّما كانت النقود التي يخبئها المرء في صندوقه أكثرَ، كلّما زادت ثقته بنفسه أكثر*[١]. لم يكن يهمّ المالُ العملاقَ، بالعكس كان يجعله يدور، يوزّعه، ويمارس سيادته عليه، تماماً كما يتوجب على العملاق أن يفعل، دون خوف ولا حياء.

طبعاً عن المال عندي ذكرياتٌ لا تُمحى. ذكرياتٌ تلمع مثل سكران تحت المطر، أو مثل مريضٍ تحت المطر. أعرفُ أنَّه مرَّ زمنٌ كان فيه مالي الموضوعَ المتكرِّرَ للمزاح والتنكيت. *الفضة أرخص من الذهب، الفضائل ذهب*[٢]. أعرف أنّه مرَّ زمنٌ، وقت انطلاق مجلتي، كان فيه الشبّابُ المساهمين يضحكون من مصدر رأسمالي. تدفعُ للشعراء، قيلَ، من الذهبِ الذي يمدُّكَ به مموِّلوكَ الفُحَشاء، أصحابُ البنوك المُختلِسون، تجارُ المُخدّرات، قتلةُ النساء والأطفال، الذين يغسلون الأموال، السياسيون الفاسدون. لكنّني لم أكن أُزعِجُ نفسي بالردّ على الأباطيل. *تزداد الشائعات عندما تُنكرها*[٣]. يجب أن يكون هناك من يُدافِعُ عن القتلة، يجب أن يكون هناك من يُدافع عن الفُحَشاء، عمن يريدون أن يُطَلِّقوا ولا يرغبون بأن تستحوذَ الزوجةُ على كلّ رأسمالهم، يجب أن يكون هناك من يُدافع عنهم. ومكتبي كان يُدافِع عنهم جميعاً وكان العملاق يمتصهم جميعاً

---

(١) Quantum quisque sua nummorum servat in arca, tantum habet et fidei.

(٢) Vilius argentum est auro, virtutibus aurum

(٣) Plus augmentantur rumores, quando negantur

ويتقاضى منهم السعرَ الدقيق. هذه هي الديمقراطية، يا بُلَهاء، كنتُ أقولُ لهم، تعلَّموا. هي للصالح والطالح. ولم أشترِ بالمالِ المُكتسَبِ يختاً بل أسّستُ مجلّةً أدبيّة. على الرغم من أنّني كنتُ أعرفُ أنَّ هذا المالَ كان يحرقُ ضمائرَ بعضِ الشعراء الشبانِ جدّاً في برشلونة ومدريد، كنتُ في أوقات فراغي أقتربُ منهم، لكن من الخلفِ وبصمتٍ وألمسُ ظهورهم برؤوسِ أصابعي، التي كانت تظهر جمالاً تامّاً (وليس كما هي الآن حيث أنزفُ حتى من أظافري: كنتُ أهمس في آذانهم: نون إولِتْ.[١] *لا رائحة لها*. النقود المكتسبة من مباول برشلونة ومدريد لا رائحة لها، النقود المكتسبة من مراحيض سرقسطة لا رائحة لها. النقود المكتسبة من مجارير بيلباو لا رائحة لها. وإذا كان لها رائحة فهي رائحة المال فقط. فقط لها رائحة ما يحلمُ العملاقُ بعملهِ بالمال. عندها فهِمَ الشعراءُ الشبابُ جدّاً ووافقوا، ربّما دون أن ينتبهوا جيّداً لكلِّ ما أردتُ أن أقوله لهم، للدرسِ المريع والأبديّ الذي كنتُ أتطلّع لإدخالهِ في رؤوسهم الفارغة. وإذا كان هناك أحد لم يفهم، وهو أمر أشكّ به، فإنّه حين رأى نصوصَهُ منشورةً، حين شمّ الصفحاتِ المطبوعةَ توّاً، حين رأى اسمَهُ على غلافِ المجلة، أو في الفهرسِ، فإنّه شمّ رائحة المال الحقيقيّة: رائحة جهدِ ورهافةِ العملاق وعندها انتهى المِزاح ونضجَ الجميع وتبعوني.

جميعهم، باستثناء أرتورو بِلانو، وهذا لم يتبعني لسببٍ بسيطٍ هو أنّه لم يُدْعَ. *الإله المنتقم يلاحق العظماء*[٢]. وجميع الذين تبعوني بدأوا عملاً في عالم الآداب أو رسّخوا عملاً كانوا قد بدأوه،

---

(١) Non olet

(٢) Sequitur superbos ultor a tergo dues

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لكنّهم كانوا فقط في مرحلة اللعثمة، باستثناء أرتورو بِلانو، الذي غاص في العالم الذي كان كلُّ شيء فيه يُصدِرُ رائحة، حيث لكلِّ شيء رائحةُ الخراء والبولِ والتفسخ والبؤسِ والمرض، في عالمٍ الرائحةُ فيه خانقة ومخدّرة وحيث أنّ الشيءَ الوحيد الذي ليس له رائحة هو جسدُ ابنتي. وأنا لم أُحرّك ساكناً كي أقطع تلك العلاقة الشاذة، لكنّني بقيتُ متيقّظاً. وهكذا علمتُ ذاتَ يومٍ، لا تسألوني كيف، لأنّني نسيتُ، أنّه حتى ابنتي، ابنتي الكبرى الجميلة، بدأت تفوحُ منها رائحةُ التعيسِ، حارسِ مخيمِ كاستروبِردِ السابق. بدأ فمُ ابنتي يصدر رائحةً. رائحة راحت تتعشّق في جدران البيت الذي كان يسكن فيه وقتها التعيسُ، حارسُ مخيم كاستروبِردِ السابق. وابنتي، التي لا أسمحُ لأحدٍ أن يُشكِّكَ بعاداتها الصحية، كانت تغسل فمَها كلّ ساعة، عندما تستيقظ، عندَ الظهيرة، بعدَ الغداء، في الرابعة مساء، في السابعة، بعد العشاء، قبل أن تتوجّه إلى السرير، لكن لم يكن هناك من طريقة لاجتثاثِ، لاستئصالِ الرائحة أو للتمويه عليها، الرائحة التي كان الحارسُ السابق ينفثُها أو يبعثها مثل حيوان في زريبة، ومع أنّ ابنتي كانت تمضمض فمها بين غسل بالفرشاة وآخر بالليستِرين، إلاّ أنَّ الرائحة كانت تبقى، تختفي آنيّاً كي تعود وتظهر في اللحظة غير المتوقّعة، في الرابعة صباحاً، في سريرِ الحارس، حين كان هذا يستدير في نومه نحو ابنتي ويبدأ يمتطيها، رائحة لا تُحتمل، كانت تلغّم صبرَها وحشمتَها، رائحة المال، رائحة الشِّعر، بل وربّما رائحة الحبّ أيضاً.

مسكينة ابنتي. إنّها أضراسُ العقل، كانت تقولُ. مسكينة ابنتي. إنّه آخر ضرسِ عقلٍ ينبت لي. لذلك لفمي رائحة، كانت تتذرَّعُ أمام نفورِ حارسِ مخيمِ كاستروبِردِ السابق الذي راح يزدادُ في كلّ مرّة أكثر. ضرس العقل! *الطبيعة لا تقول أبداً شيئاً يناقض ما تقوله*

الحكمة[1]. دعوتُها ذات ليل للعشاء. أنتِ وحدكِ، قلتُ لها، على الرغم من أنها لم تعد وقتها تلتقي مع بِلانو تقريباً، لكنّني أكّدتُ، أنتِ وحدك، يا بُنيّتي. تحدّثنا حتى الثالثة صباحاً. أنا تكلّمتُ عن الطريق الذي كان يُنَظِّفُهُ العملاقُ، الطريق الذي كان يقود إلى الأدبِ الحقيقيّ، هي تكلّمت عن ضرس عقلها، عن الكلمات الجديدة التي راح يضعها هذا الضرسُ النابتُ على لسانها. أعلنت لي ابنتي بعدها بوقتٍ قليل وفي اجتماع أدبي، دون أن تكاد تعطي كلامها أهمّية وكشيء عابر، أعلنت لي ابنتي أنّها قطعت علاقتها مع بِلانو، وأنّها، بعد التفكير مليّاً، لا تنظر بعين الرضا إلى ساهمةِ هذا في الهيئة العظيمة لاستعراض الكتب في المجلّة. *ليس بالعمر بل بالفطنة تُكْتَسَبُ الحكمة*[2].

قلبٌ بريء! كان بودي أن أقول لها في تلك اللحظة إنّ بِلانو لم يُشَكّل قطّ جزءاً من فريق كتابِ استعراض الكتب في المجلة، وهو أمر واضحٌ، إذ يكفي مراجعة الأعداد العشرة الأخيرة من المجلة. لكنّني لم أقل لها شيئاً. عانقها العملاقُ وغفر لها. تابعت الحياةُ مجراها. الليلُ يُلاحق النهارَ والنهارُ يُلاحق الليل. كان جوليان سوريل قد مات.

عدتُ في تلك المرحلة، بعد أشهر من خروج بِلانو من حياتنا تماماً، لأسمعَ في حلم العواءَ الذي خرج ذات مرّة من فمِ البئر في مخيّم كاسترووبردِ. *كانَ دائماً مسلحاً بالغضب*[3]، كما كان يقول سينيكا. استيقظتُ مرتجفاً. كانت الساعة الرابعة صباحاً، أتذكّرُ

---

(١) Numquam aliud natura, aliud sapientia dixit

(٢) Non aetate verum ingenio apiscitur sapientia

(٣) In se semper armatus Furor

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذلك، وبدل أن أعودَ إلى السرير رحتُ أبحث في مكتبتي عن قصّة بيّو باروخا *الهوّة*، دون أن أعرف جيّداً لماذا. قرأتها مرَّتيْن، إلى أن طلع الفجرُ، القراءة الأولى بطيئة ومشوّشة بضبابِ النعاس، الثانية بسرعة كبيرة وكنتُ أعود خلالها إلى بعض المقاطع التي بدت لي معبّرة بشكل كبير ولا أتمكّن من فهمها. حاولتُ والدموع في عينيّ أن أقرأها للمرّة الثالثة، لكنّ النعاس هزم العملاقَ وبقيتُ نائماً على كرسيّ المكتبة

حين استيقظتُ في التاسعة صباحاً، كانت عظامي، كلّها، تؤلمني وصغرتُ ثلاثين سنتيمتراً على الأقل. استحممتُ، أخذتُ كتابَ دون بيّو وذهبتُ إلى مكتبي. هناك، *الحياة لا تهدي الفانينَ شيئاً من دون جهدٍ كبير*[1]، أمرتُ بعد أن أنهيتُ بعضَ القضايا المستعجلة، بألا يزعجني أحدٌ وغصتُ من جديد في قسوة *الهوّة*. حين انتهيتُ أغمضتُ عينيّ وفكّرتُ بخوفِ الرجال. لماذا لم ينزل أحدٌ لإنقاذ الطفل؟ تساءلتُ. لماذا جدُّهُ نفسُهُ خاف؟ تساءلتُ. ويحهم، إذا كانوا قد اعتبروه بحكم الميت، لماذا لم ينزل أحد ليبحث عن جسده الصغير؟ تساءلتُ. أغلقتُ بعدها الكتابَ ورحت أدورُ في المكتب مثل أسدٍ في قفص، إلى أن لم يعد بمقدوري أكثر وارتميت على الأريكة، انكمشتُ بكلّ ما استطعت وتركتُ دموعي، دموع المحامي تنهمرُ، دموعَ الشاعر ودموعَ العملاق، كلّها معاً، مختلطةً في حُمَم ملتهبة أبعد ما تكون عن أن تُريحني كانت تدفعُني نحو فم البئر، نحوَ الفالقِ المفتوح، الفالِقِ الذي على الرغم من الدموع (التي غَشَت الأشياءَ على مكتبي) كنتُ أراه بوضوحٍ هو في كلّ مرّة أكبرُ وكنتُ أرى فيه، لا أدري لماذا، فأنا لم أكن رائق المزاج، فماً أدردَ، فماً بأسنان،

---

(١) nil sine magno vita labore dedit mortalibus

وابتسامةً حجرية، فرجَ شابةٍ مفتوح، عيناً تُراقب من قاع الأرض، عيناً بريئة (بطريقة ما غامضة) إذ كنتُ أعرفُ أنّ العينَ ما دامت تراقبُ تعتقد أنّها غير مراقبة وهي حالة عبثية جدّاً إذ لا مناص من أنّ العمالقة أو العمالقة السابقين، من أمثالي، كانوا يُراقبونها بينما هي تُراقِبُ. لا أعلمُ كم بقيتُ على هذه الحال. نهضتُ بعدها، دخلتُ إلى الحمّام لأغسلَ وجهي وقلتُ لسكرتيرتي أن تُلغي كل مسائلِ ذلك اليوم.

عشتُ الأسابيع التالية كما في حلم. كنتُ أُحسنُ عملَ كلّ شيء، كما كانت عادتي، لكنّني لم أكن داخلَ جلدي بل خارجه، عمرك يفضَحُهُ وجهُكَ[1]، أنظرُ إلى أنفسي وأُشفق عليها، أنقدُ ذاتي بشكل لاذع، أسخرُ من بروتوكولي المضحك، من آدابي ومن بعضِ الجمل الفارغة، التي كنتُ أعرف أنّها لن تقودني إلى مكان.

لم أتأخّر في فهم أنّ كلّ طموحاتي كانت عبثية، سواء تلك التي كانت تدورُ في متاهة ذهبِ القوانين، أو تلك التي رميتُ بها لتتدحرج في جرفِ هوةِ الأدب. *للدموع أحياناً ثِقلُ الصوت*[2]. عرفتُ ما عرفه أرتورو منذ اليوم الأوّل الذي رآني فيه: كنتُ شاعراً رديئاً جدّاً.

في الحبِّ على الأقل ما أزال أعمل، أي أنّه ما يزال ينتصب، لكنّ رغباتي سقطت على رأسها: لم أكن أحبّ أن أرى نفسي أنكح، لم أكن أحبّ أن أرى نفسي أتحرّك فوق الجسدِ الأعزل للمرأة التي كنتُ إذاكَ أخرج معها (المسكينة التعيسة البريئة!) والتي لم أتأخر في خسارتي لها. رحتُ شيئاً فشيئاً أُفَضِّلُ المجهولات، فتياتٍ ألتقطهنَّ من طاولات عرضِ البارات والمراقصِ، المفتوحةِ طوال الليل والتي على الأقل يمكنني أن أخلطَ بينها وبين استعراضي

---

(١) facies tua computat annos

(٢) Interdum lacrimae pondera vocis habent

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفاحش لقوّتي القديمة كعملاق. بعضهنّ، ويؤسفني أن أقول ذلك، كان من الممكن أن يكنّ بناتي. هذا البرهان قمتُ به في مناسباتٍ ليست قليلة في *المكان ذاته*، وهو ما كان يملؤني ارتباكاً ورغبةً بالخروج إلى الحديقة عاوياً وقافزاً، وهو ما لم أقمْ به احتراماً للجيران. على كلٍّ حال *الحبُّ يكره الجبناء*[1]، كنتُ أضاجعُ نساءً وأُسعدُهُنّ (الهدايا التي كنتُ أسرف بها مع الشاعرات الشابات بدأت أعطيها للشابات المنحرفات) وكانت سعادتهنّ تؤخّرُ ساعةَ شقائي، وهي ساعة بقائي نائماً وحالماً، أو حالماً بأنّني أحلم، بالأصوات التي كانت تفلتُ من فمِ الفالق في غاليسيا التي كانت كلها مثل خَطْمِ وحشٍ ضارٍ، مثل فم أخضرَ هائل، ينفتح بإفراط تحت سماء ملتهبة لعالم أحرقتْهُ ورمّدَتْهُ الحربُ العالمية الثالثة التي لم تقع قط، التي لم تقع على الأقل بينما كنتُ حيّاً والذئب أحياناً كان أبتر في غاليسيا، لكنّه كان في مرّات أخرى محاطاً بمناظر بلد الباسك، أستورياس، أراغون، بل وحتى الأندلس، وأنا في الحلم، أتذكّرُ، أنّني كنتُ ألوذُ عادة ببرشلونة، المدينة المُتَحَضّرة، لكن حتى في برشلونة كان الذئب يعوي ويشقّ حنكيْهِ والسماءُ تتمزّقُ وكان كلّ شيء محتوماً.

من الذي كان يعذّبه؟

كرّرتُ هذا السؤال على نفسي أكثر من مرّة.

من الذي كان يجعل الذئبَ يعوي كلَّ ليلة أو كلَّ صباح حين كنتُ أسقطُ منهكاً على سريري أو كراسٍ كبيرة مجهولة؟

كثيراً ما تحدثُ الأشياء بأسرع مما نتوقّع[2]، قلتُ لنفسي.

---

(١) amor odit inertes

(٢) Insperata accidunt magis saepe quam quae spes

فكّرت أنّني كنتُ العملاق.

حاولت لزمنٍ أن أنامَ دون أن أنام. أُغمض عيناً واحدة فقط، وأدخل في زواريبِ الحلم. لكنّني فقط كنتُ أصلُ بعد جهود كثيرة إلى فتحة الهوّة، *لا أحد يريد أن يهبط إلى ذاته*[١]، وهناك كنتُ أتوقّفُ وأسمعُ: شخيري، شخيرَ النائم القلق، الضجيج البعيد الذي كانت تأتي به الريح من الشارع. الوشوشةَ الخرساء التي كانت تأتي من الماضي، كلماتِ المُخَيِّمين المرعوبين الخالية من المعنى، وقعَ خطوات الذين كانوا يدورون حول الهوّة دون أن يعرفوا ماذا يفعلون، الأصوات التي كانت تُبَشِّر بوصول التعزيزات القادمة من المخيّم، بكاءَ الأمّ (التي كانت أحياناً هي أمّي ذاتها!) كلمات ابنتي غير المفهومة، دوي الصخور التي كانت تنفلقُ وتهوي مثل شفراتِ مفاصلَ صغيرةٍ.حين كان الحارس يهبط ليبحث عن الطفل.

قرّرتُ ذات يوم أن أبحثَ عن بِلانو من أجلي، من أجل صحّتي. يبدو أنَّ عقدً الثمانينات الذي كان كارثيّاً بالنسبة لقارّته، قد ابتلعه دون أن يترك منه أثراً. كان يظهرُ من حين لآخر في تحرير مجلتي شعراءُ يمكن أن يعرفوا بسبب العمر أو الجنسية أين كان يعيشُ، ماذا كان يفعلُ، لكنّ الحقيقة أنّه كان كلّما مرّ الزمن كلما راح اسمه ينمحي أكثر. *ليس هناك ما هو أسرع من السنين*[٢]. حين تكلمتُ بهذا مع ابنتي حصلت على عنوانٍ في أمبوردان وعلى نظرةِ عتاب. كان العنوان يعود إلى بيت لا يعيش فيه أحد منذ زمن طويل. وفي ليلة كانت ليلةَ قنوط على وجه الخصوص هتفتُ إلى مخيّم كاسترووبِردِ. كان قد أغلق.

---

(١) nemo in sese tentat descendere

(٢) Nihil est annis velocius

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد زمن ظننتُ أنّني سأعتادُ على العيش مع العملاق المخبول ومع العواء الذي كان يخرج من الهوّة ليلة بعد أخرى. بحثتُ عن السلام، وإذا لم يكن عن السلام فعن التسليةِ في الحياة الاجتماعية (التي كانت لي، وهجرتها بسبب الفتيات المنحرفات إلى حدّ ما)، في انتشار مجلتي، في تكريم رسمي، ضنّتْ به عليَّ حكومة كتلونيا دائماً لأنّني مُهاجر غاليسي. يا بلدي الجحود، أنت لا تضمّ ولا حتى عظامي[1]. بحثت عن السلام في التعامل مع الشعراء، في اعترافِ أقراني بي. لم أعثر عليه. بالأحرى عثرتُ على الخواء والرفض. وجدتُ نساءً من جصٍّ يردن أن يُعامَلْن بقفازات من حرير (وجميعهنّ تجاوزن عتبة الخمسين)، وجدتُ موظفين خارجين من معسكر كاسترووبِردِ ينظرون إليّ كما هم، غاليسيين خائفين من القدر المحتوم ولا يثيرون عندي غير المزيدِ من الرغبة بالبكاء، وجدتُ مجلاتٍ جديدةً تخرج مُنافِسة ويُهدّد وجودُها مجلّتي بشكل دائم. بحثت عن السلام وما وجدته.

في ذلك الوقت أظنّ أنّه كان بمقدوري أن أروي حكاية دون بيّو عن ظهر قلب، *بديلُ الورقِ زائل*[2]، وكنت ما أزال لا أفهم شيئاً. ظاهرياً كانت حياتي تجري في حقول التفاهة ذاتها، لكنّني كنت قد أصبحتُ أعرف أنّني أسير في أرض الخراب.

أخيراً أُصِبتُ بمرضٍ قاتل وتركتُ أعمالي. حاولتُ في جهدٍ لاحقٍ لاستعادةِ هويتي الضائعة أن يمنحوني جائزة مدينة برشلونة، من *يستهن بالسمعة يستهن بالفضائل*[3]. الذين كانوا يعلمون بوضعي

(١) Ingrata patria ne ossa quidem mea habes

(٢) periturae parcere chartae

(٣) Contemptu famae contemni virtutes

الصحيّ ظنّوا أنّني أحاولُ أن أحصلَ على نوع من الاعتراف اللاحق على موتي حاربوني بفظاظة. كنتُ فقط أحاولُ أن أموتَ وأنا نفسي وليس أُذْناً على حافّة هاوية. الكتلانيون فقط يفهمون ما يلائمهم.

كتبتُ وصيتي. وزّعتُ أملاكي، التي لم تكن كثيرة كما كنتُ أظنُّ، على نساء أسرتي وفتاتين منحرفتين كنتُ قد وَدَدْتُهما. لا أريد حتى أن أتصوّر وجهَ ابنتيَّ حين ستعلمان أنّهما ستتقاسمان أموالي مع زهرتين من الشارع. عادة ما يُشرب *السمّ في كأسٍ من ذهب*[1]. جلستُ بعدها في مكتبي في الظلمة ورأيتُ اللحمَ الضعيف والدماغَ القويّ يمرّان كما في لوحة بانورامية، مثل زوجٍ وزوجةٍ يكرهان بعضهما بعضاً، وكذلك رأيتُ اللحمَ القويَّ والدماغَ الضعيف، زوجين مثاليين آخرين يمرّان، ورأيتهما يتنزهان في حديقة عامّة كحديقة لاثيودادِلا (وإن كانت في بعض الحالات أقرب إلى أن تكون جيانيكولو عند مستوى بياتزالي جيوسب غاريبالدي)، منهكين ولا يكلّان، يسيران بخطوٍ مريضين بالسرطان، مريضين بالبروستاتا، حَسَنَيّ الثياب، تعلوهما هالةُ شيءٍ من الكرامة المخيفة، واللحم قويّ والدماغ الضعيف يذهبان مباشرة من اليمين إلى اليسار واللحم الضعيف والدماغ القوي يمضيان من اليسار إلى اليمين وفي كلّ مرّة يتقاطعون فيها يُحَيون بعضهم بعضاً، لكنّهم لا يتوقفون، لا أدري أدباً أم لأنّهم لا يعرفون بعضهم بعضاً، أو يعرفونه سطحياً من مشاوير سابقة وأنا كنتُ أُفكّر، بالله عليكم تكلّموا، تحاوروا ففي الحوارِ مفتاحُ كلِّ باب، *من فيضِ القلبِ ينطقُ الفم*[2]، لكنّهما، الدماغُ الضعيف والدماغ القوي فقط كانا يحنيان رأسيهما، وهما، اللحم

---

(١) Venenum in auro bibitur

(٢) ex abundantia cordis os loquitur

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الضعيف واللحم القويّ، ربّما كانا يحنيان أهدابهما (الأهداب لا تنحني قال لي توني مِليّا ذاتَ يومٍ، كَمْ كان مخطئاً، طبعاً تنحني، بل إنَّ الأهدابَ تركع أيضاً)، فخورين مثل كلبَيْن، اللحم الضعيف واللحم القوي، مطبوخين على موقدِ القَدَر، هذا إذا ما سُمِحَ لي بهذا التعبير، الخالي من المعنى، لكنّه الحلوُ ككلبةٍ ضائعةٍ في سفح جبل.

دخلتُ بعدها مشفىً في برشلونة، ثمّ مشفى في نيويورك، بعدها وفي ليلةٍ صعد كلُّ سوءِ مزاجي الغاليسي حتى جلدةِ شعرِ رأسي ونزعتُ القثطراتِ وارتديتُ ملابسي وسافرتُ إلى روما حيث دخلت المشفى البريطاني الذي يعمل فيه صديقي الدكتور كلاوديو باليرمو ريتزي، الشاعر في أوقات فراغه، التي هي قليلة، حيث قرّروا، بعد أن أخضعوني إلى ما لا يُحصى من الاختبارات وسوءِ المعاملة (التي سبق وخضعت لها في برشلونة ونيويورك) أنَّهُ لم يبقَ لي على يد الحياة سوى أيام قليلة. *من حفر حفرة لأخيه وقع فيها*[١].

وها أنا ذا هنا، لا رغبة بي بالعودة إلى برشلونة، لكن أيضاً لا أجرؤُ على مغادرة المشفى نهائيّاً، على الرغم من أنّني أرتدي ملابسي في كلِّ ليلة وأخرجُ لأتنزّهَ تحت ضوء قمرِ روما، هذا القمر الذي عَرَفْتُهُ وأُعجبتُ به في مراحل بعيدة من حياتي، التي ظننتُها، أنا الغرير، سعيدةً ولا تُمْحى، واليوم فقط أستطيعُ أن أستحضرها متشنجاً من عدم التصديق. وتقودني خطواتي دون خطأ عبر فيّا كلاوديا حتى كولوسيوم ثم عبر فيالي دوموس أوريا وحتى فيّا ميزيناتي أنعطفُ بعدها يساراً بعد فيا بوتّا، عبر طريق حمّامات تراجان وها أنا ذا في الجحيم. *حتى الآثار هلكت*[٢]. وعندها أبدأ أسمعُ العواء الذي يخرج كهبّاتِ ريحٍ من فم الهوّة، وأُقسم إنّني أحاولُ أن أفهمَ هذه

---

(١) Qui fodit foveam, incidet in eam

(٢) Etiam periere ruinae

اللغة، لكنّني مهما أبذلُ من جهدٍ لا أستطيع. قصصتُ ذات يوم هذا على كلاوديو. قلتُ له، يا ماتاسانوس، أَخرجُ في كلّ ليلة لأتنزّهَ وبي هلوسات. ماذا ترى؟ سأل الشاعرُ-الطبيب[1]. لا أرى شيئاً، إنّها هلوسات سمعية. وماذا تسمع؟ سأل النبيل الصقلي المزعوم، وقد ظهرت عليه الراحة. عواء، قلتُ. حسن، ليس في هذا أيّ خطورة، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار حالتك، حساسيتك، يمكننا حتى أن نقول إنها طبيعية. يا لها من مواساة شجاعة.

على أيّ حال أنا لا أحكي لكلاوديو فائقِ الوصفِ كلَّ الذي يحدث. *الجهلُ يَبثُّ الشجاعة والمعرفة الخوفَ*[2]. مثلاً: لم أقُلْ له إنّ أسرتي تجهل حالتي الصحية. مثلا: لم أقُلْ له إنّني منعتهم منعاً باتاً من أن يأتوا لزيارتي. مثلا: إنّني أعلم علمَ اليقين أنّني لن أموت في المشفى البريطاني، بل سأموت في أيّ ليلة من تلك الليالي وسط حديقة تراجان مختبئاً تحت بعض الشجيرات. هل سأكون أنا؟ هل ستكون إرادتي هي التي ستجرّني إلى مخبئي النباتي اللاحق، أم آخرون، أوغاد روميون، قوادون روميون، مرضى نفسيون روميون من سيخبئون جسمي، جسم جريمتهم، تحت عُليقٍ ملتهب؟ على كلّ الأحوال، أعرف أنّني سأموت في الحمامات أو الحديقة. أعرفُ أنّ العملاقَ أو ظلَّ العملاق سوف ينكمش بينما العواء يخرج تحت ضغط دوموس أوريا وينتشر في كلّ روما، سحابةً سوداءَ وعنيفة، وأعرفُ أنّ العملاقَ سوف يقول أو يهمسُ: أنقذوا الطفل، وأعرف أنّ أحداً لن يسمع رجاءه.

إلى هنا يصل الشعرُ، هذا الداهية الشرير الذي رافقَ الخيانةَ

---

(١) El poeta-galeno الشاعر-جالينوس

(٢) Imperitia confidentiam, eruditia timorem creat

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سنواتٍ كثيرة. هناك *رائحة زيت*[١]. قد يكون من المناسب الآن أن أحكي نكتتين أو ثلاثاً، لكن لا تخطر لي الآن إلاّ واحدة، هكذا، فجأةً واحدة فقط ولخيبة الغاليسيين الكبرى. لا أدري ما إذا كنتم تعرفونها. يمضي شخصٌ ويشرع بالمشي في غابة. أنا مثلاً أمشي الآن في غابةٍ، مثل حديقة تراجان أو مثل حمّامات تراجان، لكن بطريقة حيوانية ودون كثير تخريب كبير. ويمضي هذا الشخص، وأمضي أنا سائراً في الغابة وأجد خمسمائة ألف غاليسي يسيرون ويبكون. وعندها أتوقّف (عملاقاً لطيفاً، عملاقاً فضوليّاً لآخر مرّة) وأسألهم لماذا يبكون. يتوقّف أحد الغاليسيين، ويقول لي: لأنّنا وحدنا ضِعنا.

---

(١) Olet lucernam

٢١

دانيال غروسمان، جالساً على مقعد في ألامِدا، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، شباط ١٩٩٣.

كان قد مضى عليّ زمن طويل لم أره فيه وعندما عدتُ إلى المكسيك، كان أوّل شيءٍ فعلتُهُ هو السؤالُ عنه، عن نورمان بولزمان، أين هو، وماذا كان يعمل. قال لي والداه إنّه كان يُدرّسُ في الجامعة الوطنية المكسيكية المستقلة وإنّه يمضي وقتاً طويلاً في بيتٍ استأجره بالقربِ من بورِتو أنْخِل، بيت ليس فيه هاتفٌ حيث كان ينزوي ليكتب ويُفَكّر. هتفتُ بعدها إلى أصدقاء آخرين. طرحتُ أسئلةً. خرجتُ لأتعشى. هكذا عرفتُ أنّ كلَّ شيء انتهى مع كلاوديا وأنّ نورمان يعيش الآن وحدَهُ. وذات يوم رأيتُ كلاوديا في بيت رسّام تعرّفنا عليه أنا وكلاوديا ونورمان عندما لم يكن أيّ منّا قد بلغَ العشرين من عمره. لم يكن الرسام في تلك المرحلة يبلغ ولا حتى السابعة عشرة من عمره، أُقَدّر، وكنّا كلّنا نقولُ إنّه سيُصبح رساماً جيداً حقيقةً. كان العشاء لذيذاً، طعاماً مكسيكياً جدّاً أفترض أنه كان على شرفي، أنا العائد إلى المكسيك بعد غيابٍ طويلٍ إلى حدٍّ ما، خرجنا بعدها أنا وكلاوديا إلى الشرفة ومكثنا ننتقدُ مضيفنا، كانت كلاوديا جذّابة، تضحكُ من الرسام، هل تتذكّر، قالت لي، أنّ هذا الرفيقَ كان يَعَدُ بأنّه سيصبح أفضلَ من بالين؟ إنّه الآن أسوأ من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كويباس. لا أدري ما إذا كانت تقول ذلك بجدّية، فكلاوديا لم يعجبها قط كوِيباس، لكنّها كثيراً ما كانت تلتقي بالرسام وبأبراهام منصور، كان أبراهام قد صار اسماً في عالم الفنِّ المكسيكي، وأعماله كانت تُباع في الولايات المتحدة، على كلّ حالٍ حقيقةً لم يعد حقيقةً ذلك الشابَّ، الذي كان يَعِدُ كثيراً، والذي كنّا أنا وكلاوديا ونورمان قد تعرّفنا عليه في العاصمة الفيدرالية في السبعينات وكان الرسام بلطفٍ أصغر منّا بسنتين أو ثلاث سنوات، في هذا العمر فارق السنوات القليلة يُحْسَبُ حسابه، وكنّا نراه كتجسيدٍ للفنان أو لإرادة الفنان. على كلّ الأحوال ما عادت كلاوديا تراه كذلك. ولا أنا. أعني: لا ننتظر منه شيئاً. كان فقط يهودياً-مكسيكياً قصيراً أقربَ إلى البدانةِ وعنده أصدقاء كثر ومال كثير. مثلي، دون أن أذهب بعيداً: يهوديّ-مكسيكيّ طويل ونحيل وبلا عمل، ومثل كلاوديا، يهودية-أرجنتينية-مكسيكية جميلة جدّاً، تُديرُ العلاقات العامّة في إحدى أهمِّ صالات الفنِ في العاصمة الفيدرالية. جميعنا بعيونٍ مفتوحة، محبوسون في ممرٍّ صغيرٍ مظلم، ننتظر بلا حراك. لكن دعونا من المبالغة في التشديد.

في تلك الليلة، على الأقل أنا لم أبالغ في التشديد ولم أنتقد أحداً ولم أسخر من الرسام، الذي دعاني بلطفٍ شديد إلى العشاء، وإن كان كي يتباهى، كي يتكلّم عن معارضَ في دالاس أو سان دييغو، المدينتين اللتين تكادان تكونان، كما يحكون لي جزءاً من الجمهورية. ذهبتُ بعدها مع كلاوديا ومرافق كلاوديا، وهو مجاز أكبر منها بما يقارب عشر سنوات وربما خمس عشرة سنة، شخص مُطَلّق وعنده أبناء جامعيون، مدير فرع لشركة ألمانية في المكسيك، مشغول بكلّ شيء، ولم أعد أتذكّر ولا حتى اسم التصغير الذي كانت تُناديه به كلاوديا من حين لآخر، بعدها بوقت قصير أنهيا علاقتهما،

هكذا كانت كلاوديا، هكذا هي، ما من خطيبٍ يدوم معها أكثرَ من سنة. الحقيقة أنّنا لم نستطع أن نتكلّم كثيراً، أن نستفيضَ، أن نطرحَ الأسئلةَ التي كان علينا أن نطرحها. أتذكّرُ من تلك الليلة العشاءَ، الذي تناولته بشهيّة، لوحاتِ الرسام وبعضَ أصدقاءِ الرسام المنتشرين في صالة بيتهِ الواسعة أكثر من اللازم، وجهَ كلاوديا وهي تبتسمُ، شوارعَ العاصمة الفيدرالية الليلية وخطَّ سيرنا الأطول مما كنت أتوقّع إلى بيت أبويَّ حيث كنتُ أقيم إلى أن ينجلي وضعي.

بعدها بوقت قصير غادرتُ إلى بورتو أنخِل. قمتُ بالرحلةِ في حافلة، من العاصمة الفيدرالية وحتى أواكساكا، ومن أواكساكا أخذتُ خطَّ سيرٍ آخر حتى بورتو أنخِل، وعندما وصلتُ أخيراً كنتُ متعباً وجسمي يؤلمني وما من رغبةٍ بي إلا لأن أرتمي على سريرٍ وأنام. كان بيت نورمان في الضواحي، في حيّ يُسمى لا لوما، شاليه من طابقين، الأوّل من الإسمنت والثاني من الخشب، بسطحٍ متماوجٍ وحديقة صغيرة برّية حيث كانت تكثر المجنونة (الجهنّمية). طبعاً لم يكن نورمان ينتظرني، ومع ذلك تملكني عندما التقينا إحساسٌ بأنّه الشخصُ الوحيدُ الذي كان يُسعد بعودتي. راحَ الإحساسُ بالغرابة الذي لم يغادرني منذ وطئتُ أرضَ مطار العاصمة الفيدرالية، يتلاشى بشكلٍ غير ملحوظ كلّما توغّلتِ الحافلةُ أكثر في طرق أواكساكا وأنا كنتُ أستسلم ليقين أنّني من جديدٍ في المكسيك وأنّ الأشياءَ يمكن أن تتغيّر، وإنْ كنتُ لا أعرف في أعماقي ما إذا كانت التغيُّرات، إذا قامت، ستكون نحو الأحسن أم نحو الأسوأ، كما يكاد يحدث دائماً مع التغيُّرات، كما يكادُ يحدث دائماً في المكسيك. ومع ذلك كان استقبال نورمان رائعاً وتفرّغنا خلال الأيام الخمسة للسباحةِ في الشاطئ، للقراءةِ في ظلّ الرواق في سريرين معلّقين إلى مسامير راحت تتداعى شيئاً فشيئاً حتى ارتطمت مؤخرتانا بالأرض، ونشربُ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بيرةً ونقوم بمشاوير طويلة في منطقة لا لوما، حيث تكثرُ المنحدراتُ وبجانبِ الشاطئ عند حدِّ الغابة بيوت الصيادين الصغيرة المغلقة، التي يستطيع لصّ، مثلاً، أن يدخلها بطريقةِ الرفسةِ المستعجلة للجدار، الرفسة التي كنّا لا نشك بأنّها ستفتح فجوةً أو تهوي بكامل البناء.

أحدثت هشاشةُ تلك الأكواخ عندي، هذا ما أفكّر به الآن وليس في ذلك الوقت، في أكثر من مناسبة، إحساساً غريباً، ليس إحساساً بزعزعةٍ ولا بفقرٍ، بل بحنوٍّ عاصف ومَصير، بالتأكيد لا أعرف أن أُعَبّرَ عنه. كان نورمان يُسمّي ذلك المكان بـ«المنتجع»، على الرغم من أنّني لم أرَ خلال وجودي هناك أحداً يسبح في ذلك الشاطئ من تلك المنطقة من بورِتو أنخِل الأقرب إلى الوعورة. كنّا نقضي بقيّةَ اليوم بالحديث وخاصّة عن السياسة ووضع البلد، الذي كنا نراه من منظورَيْن مختلفين، لكنّه كان يبدو لكلينا خطيراً، بعدها كان نورمان يُغلِقُ على نفسه مرسَمَهُ ويُحَضّر دراسةً عن نيتشه، يُفَكّر أن ينشرها في *مجلة مدرسة المكسيك*(١). حين أُفكِّر بذلك من المنظور الحالي أظنّ أنّنا لم نتكلّم كثيراً. أي: لم نتكلّم عن نفسينا كثيراً. قد أكون تكلّمتُ عن نفسي ذات ليلة. بالتأكيد حكيتُ له عن كلّ مغامراتي في «إسرائيل» وأوروبا، لكن الكلام بمعنى الكلام لم نفعل.

في اليوم السادس من جودي هناك، وكان يوم أحدٍ صباحاً عدنا إلى العاصمة الفيدرالية. كان على نورمان أن يُعطي دروساً في الجامعة وعليَّ أن أبحثَ عن عمل. خرجنا من بورِتو أنخِل في سيارة نورمان الرينو البيضاء التي لم يكن يستخدمها إلا عندما يأتي إلى أواكساكا، إذ إنّه كان يُفَضّل أن يتحرّكَ في العاصمة الفيدرالية

---

(١) Revista del Colegio de México

مستخدماً النقلَ العام. في البداية تحدّثنا، كما أعتقد، عن الشيء ذاته الذي تحدّثنا عنه في تلك الأيام الستة، عن *علمِ أنسابِ الأخلاق* (*جينيالوجيا الأخلاق*) لنيتشه حيث كان نورمان يجد في كلِّ قراءةٍ جديدةٍ مزيداً من نقاطِ الارتباط (وكان هذا يثقل عليه) بين الفيلسوفِ والنازيةِ التي ستسود ألمانيا بعده بزمن قصير، عن الطقسِ، عن فصولِ السنة التي كنتُ أرى أنّني سأشتاق إليها وأنّ نورمان لن يتأخرَ في أن ينساها، عن الناس الذين خلّفتُهم ورائي، لكنّني أفكّر بأن أُرسلَ إليهم من حين لآخر بعضَ البطاقات البريدية. لا أعرفُ في أيّ لحظة بدأ يتكلّم عن كلاوديا. فقط أعرفُ أنّني عرفتُه بطريقة ما، فأنا منذ تلك اللحظة سكتُّ فوراً ورحتُ أستمع إليه. قال إنّ العلاقةَ انتهت بعد قليل من بدئهِ العمل في الجامعة، وهو ما كنتُ أعرفه من قبل، وإنّ قطعَ العلاقة لم يكن مؤلماً، كما فكّر كثيرون. أنت تعرفُ كيف هي، قال، وأنا قلتُ له نعم، أعرفُ. بعدها قال إنّ علاقاته بالنساء بردت منذ تلك اللحظة. ضحِكَ بعدها. أتذكّر ضحكتَهُ بوضوح تام. لم تكن تُرى في الطريق أيُّ سيارة، فقط أشجارٌ وجبالٌ وسماءٌ وتُسمَعُ ضجة الرينو تزيح الريح. قال إنّه كان يُضاجعُ نساءً، إي أنّه كان ما يزال يحبُّ أن يُضاجع نساءً، لكنّه بطريقة ما لم يكن يتمكن من فهم أنّ مشاكلَهُ في هذا الجانب التي كانت في كلّ مرّة أكثر. ما نوع المشاكل؟ سألته. مشاكل، مشاكِل، قال نورمان. لا ينتصبُ معك؟ قلتُ. ضحك نورمان. هل هذه هي المشكلة، لا تُثار؟ سألتُه. هذه أعراضٌ، قال، وليست مشاكل. لقد أجبتني، قلتُ له، لا ينتصب معك. عاد نورمان ليضحك. كانت نافذةُ السيارة مُنْزَلة من جهته والهواء يعبث بشعره. كان جلده قد صار برونزياً جدّاً. يبدو سعيداً. ضحكنا نحن الاثنين، أحياناً لا أُثار، قال، لكن ما هذه الكلمة، لا أثار؟ لا أحياناً لا يقسو، لكنّ هذه مجرّد أعراض، وأحياناً ليست ولا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حتى أعراضاً. أحياناً هي مجرّد مزحة، قال. سألتُهُ عمّا إذا لم يجد خلال ذلك الوقت أحداً، السؤال الذي كان جوابه يبدو واضحاً ونورمان قال بلى، إنّه وجد بطريقة ما، بلى وجد أحداً، لكنّ سواء هو أو هي، مدرسةُ فلسفة مُطلّقة وعندها ولدان لا أدري لماذا تصوّرتُها قبيحة، على كلّ الأحوال هي أقل جمالاً من كلاوديا، كانا يُفضلان الانتظار، ألّا يستبقا الأحداث، علاقة في البرّاد.

بعدها تحدّثَ عن الأطفال، عن الأطفال بشكل عام وعن أطفال بورتو أنخِل بشكلٍ خاص، سألني ما رأيي بأطفال بورتو أنخِل والحقيقة أنّه لم يكن عندي أيّ رأي بأطفال تلك البلدة التي كنّا نخلّفها وراءنا. المسألة أنّني لم أنتبه إليهم! وعندها نظر إليّ نورمان وقال: في كلّ مرّة أُفكّر بهم أتوازن. تماماً، أتوازن. وأنا فكّرتُ: الأفضل أن ينظرَ إلى الطريق وليس إليّ، وفكّرتُ أيضاً: شيء ما يحدث. لكنّني لم أقل شيئاً. لم أقل له: قُدْ بِحذر، لم أقل له ما بكَ، يا نورمان؟ رحتُ بدلَ ذلك أنظرُ إلى المنظر، إلى الأشجار والغيوم، الجبال والتلال الناعمة، الاستوائية، بينما راح نورمان الآن يتكلّمُ عن شيءٍ آخر، عن حلمٍ رأتْهُ كلاوديا، متى؟ منذ وقت قصير، هتفت له ذاتَ فجرٍ وحكتهُ له، صديقان جيّدان دون شك. وهل تعلم ماذا كان ذلك الحلم؟ سألني. ما بك، يا أخي، سألتُ أنا، هل تُريدني أن أُفَسّره لك؟ حلم بالألوان ومعركة في الخلفية، معركة تبتعدُ وبابتعادها تجرُّ وراءها كلّ التفسيرات. لكنّ نورمان قال: حلمتْ بالأولاد الذين لم ننجبهم. غير معقول، قلتُ. كان هذا هو معنى الحلم. هل كانت المعركة التي تبتعد، بحسبك أنت، هم الأطفال الذين لم تنجباهما؟ إلى هذه الحدِّ أو ذاك، قال نورمان. تلك الأشباح التي كانت تقاتل. والألوان؟ ما يتبقى، قال نورمان، التجريد اللعين لما يتبقى.

وعندها فكّرتُ بالرسام وبلوحاته التجريدية ولا أعرف لماذا خطر لي أن أقول لنورمان (الذي كلمته به بالتأكيد عندما كنّا في بورِتو أنخِل) إنّ اللعين أبراهام منصور كان يُصارع في حلباتٍ من النسقِ الثاني، ربّما كي أبدّل الموضوع، ربّما لأنّه الشيءُ الوحيدُ الذي كان عليَّ أن أقوله له في تلك اللحظة، التي كائناً ما كان ما سأقولُهُ لا يهمّ كثيراً، فنورمان هو الذي كان يحملُ عصا قائدِ الأوركسترا ولا شيء مما قد أضيفه سيُغَيّر شيئاً في تلك الحقيقة التي لا تقبل الجدل، والرينو منطلقة بسرعةِ أكثر من مائة وعشرين كيلومتراً في الطريق المقفرة. هل رأيتَ لوحاته؟ سأل نورمان. بعضها، قلتُ. وكيف بدت لك؟ سأل نورمان كما لو أنّ كلَّ الذي قلناه في بورِتو أنخِل قد نُسِيَ. جيدة، قلتُ. وكيف بدت لكلاوديا؟ لم تُعطني رأيَها، قلتُ. بقينا هكذا برهة. راح نورمان يتكلّم عن الرسمِ المكسيكي، عن حالةِ الطرق، عن الشرطة الجامعية، عن تفسيرِ الأحلام، عن أطفالِ بورِتو أنخِل، عن نيتشه، وأنا كنتُ أتدخّلُ من حين متباعد إلى آخرَ بكلمة من مقطع واحد، بسؤالٍ لا يفيد إلا لتوضيح مفاهيمَ وإن كانت المفاهيم عند ذلك المستوى لا تهمُّني قيدَ شعرة وأنّ الشيء الوحيد الذي كنتُ أريده هو أن أصلَ بأسرعِ وقتٍ إلى العاصمة الفيدرالية وألا أعودَ لأطأ أرضَ ولاية أواكساكا في حياتي كلّها.

عندها قال نورمان: عوليس ليما. هل تتذكّر عوليس ليما؟ طبعاً كنتُ أتذكّره، كيف لي أن أنساه. وقال نورمان: في المرحلة الأخيرة فَكّرتُ به، كما لو أنّ عوليس كان يُشَكِّلُ جزءاً من يومياته أو أنه يُشكِّلُ جزءاً من حياته، في الوقت الذي كنت أعلمُ علمَ اليقين بأنّه لا يكادُ يكون فصلاً منها، وعلى الأصحّ فصلا مزعجاً. وبعدها نظرَ نورمان إليّ كما لو أنّه ينتظرُ غمزةً أو كلمةَ مجامَلةٍ، لكنّني فقط قلتُ له انتبهْ إلى الطريق، انظرْ كيف تقود، فالرينو كانت قد انحرفت نحو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اليمين ولامست طرفَ الطريق، مع أنّ هذا لا يبدو أنّه كان يشغل نورمان، إذ بضربةٍ واحدة من يدهِ على المقود أعادها إلى المنتصف، إلى الطريق الصحيح. ونظر إليّ من جديد وأنا قلتُ: ماذا؟ عوليس ليما، بلى، الأيام التي قضاها معنا في تل أبيب، ونورمان: ألم تلاحظ شيئاً غريباً، شيئاً خارجاً عن المألوف عنده؟ طبيعيّ جداً، يا نورمان. وعندها قلتُ: كلّ شيء طبيعيّ! لأنّ عوليس كان هكذا، وهكذا كنّا نريد، سرّاً، أن يكون، ليس هو، ليس نورمان، الذي لم يكن صديقه وكانت معرفته به في معظمها سماعيّة، من القصص التي كان يحكيها بعضُنا لبعض، نحن المراهقين، عن عوليس، لكننا أنا وكلاوديا فعلاً نعرفه، لأنّنا كنّا ما نزال نعتقد في ذلك الوقت أنّنا سنصبحُ كتّاباً وسَنُقَدّم كلَّ ما عندنا كي ننتسب إلى تلك المجموعة المشجية، إلى الواقعيين الأحشائيين، الشبابُ نَصْبٌ.

وعندها قال نورمان: المسألة لا تتعلّق بالواقعيين الأحشائيين، أنت لم تفهم شيئاً، يا أبله. وأنا قلتُ له: ما المسألة إذن؟ ونورمان ولحسن حظّي ما عاد ينظر إليّ وركّزَ برهةً على الطريق، وقال بعدها: المسألة هي الحياة، ما خسرناه دون أن ننتبه وما نستطيع أن نستعيده. وما الذي نستطيع أن نستعيده؟ سألتُ. ما خسرناه، نستطيع أن نستعيده كما هو، قال نورمان. كان من السهل عليّ أن أدحضه وبدلاً من ذلك أنزلتُ بدوري زجاجَ النافذة وتركتُ الهواءَ الفاتر يخرّب شعري، كانت الأشجارُ تمرُّ بسرعة مذهلة. ما الذي نستطيع أن نستعيده؟ فكّرتُ دون أن يهمّني أنَّ السرعةَ كانت في كلّ مرّة أكبر وأنّ الطريقَ ما عاد يقدم مسافات طويلة من الاستقامة، ربّما لأنّ نورمان دائماً يقودُ بثقة وكان قادراً على الكلام، والمراقبة والبحث عن السجائر في صندوق الأوراق، وإشعالها بل والنظر من حين إلى آخر إلى الأمام دون أن يرفع قدمه عن دواسة السرعة. نستطيع أن نعود

لندخل في اللعبة في اللحظة التي نريد، سمعته يقول. هل تتذكّر الأيّام التي قضاها عوليس معنا في تل أبيب؟ طبعاً أتذكّرُ، قلتُ. هل تعلم ماذا ذهبَ يفعلُ في تل أبيب؟ طبعاً أعرف، اللعين عوليس كان عاشقاً لكلاوديا، قلتُ. كان عاشقاً لكلاوديا بجنون، صحّح لي نورمان، بجنون إلى حد أنّه لم يكن يعرف ما كان في متناول يده. لم يكن ينتبه لأي شيء، قلتُ، الحقيقة لا أدري كيف لم ينتحر. أنتَ مُخطئ، قال نورمان (في الحقيقة هذا ما قاله نورمان صارخاً) أنت مُخطئ، مُخْطِئ، حتى ولو أراد ما كان باستطاعته أن يموت. حسن، هو ذهب من أجل كلاوديا، قلتُ أنا، هو ذهبَ للبحث عن كلاوديا، ولم يوفّق أبداً.

بلى، هو ذهب من أجل كلاوديا، قال نورمان ضاحكاً. يا لَكلاوديا، كم كانت جميلة. هل تتذكّر؟ طبعاً أتذكّرُ، قلتُ، وهل تتذكّر أين نام عوليس فترةَ وجودهِ في بيتنا؟ على الأريكة، قلتُ. على الأريكة العاهرة! قال نورمان. أقنوم الحبّ الرومانسي. عتبته. الأرض المحايدة. وتمتم بعدها، لكن بشكل منخفض إلى حدٍّ أنّني اضطررت، بين ضجّة الرينو التي كانت تتقدّم مثل سهم على الطريق وضجة الريح التي كانت تصعدُ ذراعي وحتى جانبي الأيمن، لأن أبذلَ جهداً هائلاً كي أفهم كلماته: في بعض الليالي، قال، كان يبكي. ماذا؟ سألتُ أنا. في بعض الليالي، حين كنتُ أنهضُ كي أذهب إلى الحمّام كنتُ أسمعه يُجهِش. عوليس؟ بلى، أنت لم تسمعه أبداً؟ لا، قلتُ، أنا أنام فوراً. كم أنت محظوظ، قال نورمان، على الرغم من أنّ الطريقة التي قالها بها كانت كأنّه يقول ما أسوأَ حظّك، يا أخي. ولماذا كان يبكي؟ سألتُهُ، أنا فقط كنتُ أذهبُ إلى الحمّام وعند مروري بالصالون كنتُ أسمعه، لا أكثر، ربّما لم يكن يبكي. ربّما كان يستمني وكان الأنين الذي أسمعُهُ نتيجةَ اللذة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هل تفهمني؟ بلى إلى هذا الحدِّ أو ذاك، قلتُ. لكن أيضاً يمكن أنّه لم يكن يستمني، قال نورمان. وأنّه لم يكن يبكي. إذن ماذا؟ ربّما كان نائماً، قال نورمان، والأنين كان يُحدثه حلمُ عوليس. كان يبكي في أحلامه؟ ألم يحدث هذا معك أبداً؟ سأل نورمان. الحقيقة، لا، قلتُ. أنا في الليالي الأولى انتابني خوفٌ، قال نورمان، خوفٌ من أن أبقى هناك، واقفاً في الصالون، في شبهِ الظلمة وأنا أصغي إليه. لكنّني بقيتُ مرّةً وفهمتُ كلَّ شيء، دفعةً واحدة. ما الذي كان عليكَ أن تفهمه؟ سألتُ. كلّ شيء، الأهم في كلّ شيء، قال نورمان، ثمّ ضحك. هل هو ما كان يحلِم به عوليس ليما؟ لا، لا، قال نورمان والرينو نطّت نطّةً إلى الأمام.

آه، كيف هي الأشياء: ذكّرتني النطةُ بالعملاق اِلنمساويّ، الذي ظهر مع عوليس بعد شهرٍ، وقلتُ لنورمان: هل تتذكّر ذلك الصبيّ النمساويّ صديق عوليس؟ وضحك نورمان وقال لي طبعاً، كيف لا، لكنّ الأمرَ لا يتعلّق بهذا، حين عاد عوليس إلى تل أبيب لم يكن ذاته، كان ذاته لكنّه لم يكن ذاته، لم يعد يجهش في الليل، لم يعد يبكي، كنتُ أراقبه جيّداً وانتبهتُ، أو أنّ الوغد عوليس لم يعد يسمح لنفسه بذلك الترف، أو ما أدراني. وبعدها قال نورمان: كان هذا في الأيّامِ الأولى، حين كان وحده وينام على الكرسيّ الكبير. حدث هذا وقتها وليس فيما بعد. طَبعاً، طبعاً، قلتُ أنا. قبل أن يظهر مع النمساوي بكثير. ألم يقلْ شيئاً أبداً؟ شيئاً عن ماذا؟ قال نورمان. اللعنة، لا شيء أبداً، قلتُ أنا. عندها ضحك نورمان مرّة أخرى وقال: كان عوليس يَبكي لأنّه كان يعرف أنّه ما من شيء انتهى، لأنّه كان يعرف أنّ عليه أن يعودَ إلى «إسرائيل» مرّة أخرى. العود الأبدي! خراء على العودِ الأبدي! الآن وهنا! لكن كلاوديا لم تعد تعيش في «إسرائيل»، قلتُ. المكان الذي تعيش فيه كلاوديا هو «إسرائيل»،

قال نورمان، في أيّ مكان لعين، سمِّهِ المكسيك، «إسرائيل»، فرنسا، الولايات المتحدة، كوكب الأرض. دعني أرى ما إذا كنتُ أفهمُ، قلتُ، هل عوليس كان يعرفُ أنّ العلاقةَ بينك وبين كلاوديا ستنقطع؟ وأنّه يستطيع بالتالي أن يحاول من جديد؟ أنتَ لم تفهم شيئاً! قال نورمان. ليس لي أيّ علاقة بهذه المسألة، ليس لِكلاوديا أيّ علاقة. حتى القوّاد عوليس لم يكن له أحياناً أي علاقة. وحده النشيج له بعض العلاقة. لا، قلتُ، لا أفهم عليك.

وعندها نظر إليَّ نورمان ورأيتُ في وجهه، أُقْسِمُ، الوجهَ ذاته الذي كان له في السادسة عشرة أو الخامسة عشرة حين تعارفنا في التحضيري، أكثر نحولاً، له وجه طائر، وشعر أطول بكثير وبريق عينين أشدّ وابتسامة تجعلك تُحبّه فوراً، ابتسامة تقول لك الآن نحن هنا، الآن لم نعد هنا. وكان في هذه اللحظة أن صعدت فوقنا الحافلةُ وناورَ نورمان كي يَتفادى ذلك وخرجنا طائرين. نورمان خرجَ طائراً وأنا خرجتُ طائراً ودخلنا جميعاً حيث دخلنا.

حين استيقظتُ كنتُ في مشفى في بوِبلا ووالداي أو ظلا والديَّ كانا يتحرّكان على جدران الغرفة. بعدها جاءت كلاوديا وطبعت قبلةً على جبيني وأمضت، بحسب ما يقولون لي، ساعاتٍ كثيرة بجانب سريري. بعد أيامٍ قليلة قالوا لي إنّ نورمان مات. بعد شهر ونصف استطعتُ الخروجَ من المشفى وأقمتُ في بيت والديَّ. من حين لآخر كان يأتي لزيارتي أقرباءٌ لم أكن أعرفهم وأصدقاءٌ نسيتهم. لم تكن الحالة مزعجة، لكنّني قرّرتُ أن أذهبَ لأعيش وحدي. استأجرتُ بيتاً صغيراً في حي أنزورِس، فيه حمام ومطبخ وغرفة وحيدة وبدأت شيئاً فشيئاً أمشي مشاوير طويلة في العاصمة الفيدرالية. كنتُ أعرج وأحياناً أضيع، لكنّ تلكَ المشاوير كانت تفيدني. رحتُ ذاتَ صباح أبحث عن عمل. لم أكن بحاجةٍ إليه، فوالداي أكّدا لي أنّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

باستطاعتي أن أعتمدَ على مساعدتهما حتى أشعرَ بنفسي قويّاً بما يكفي. ذهبتُ إلى الجامعة وتكلّمتُ مع رفيقين لنورمان. بدا أنّهما مستغربين من ظهوري هناك، قالا بعدها إنّ نورمان كان واحداً من أكثر الأشخاص الذين عرفاهما نزاهة. كلاهما كان مدرِّسَ فلسفة ومن خطّ كواوهتِموك كاردِناس. سألتهما ما الذي كان يُفَكِّر به نورمان تجاه كاردِناس. كان معه، قالا، بطريقته، مثلنا جميعاً، لكنّه كان معه. الحقيقة عرفتُ وقتها أنّ ما كنتُ أبحثُ عنه لم تكن حزبيته السياسية بل شيئاً آخر، شيئاً لم أكن أنجحُ بصياغته لنفسي بوضوح. تناولتُ العشاءَ مع كلاوديا في مناسبتين. أردتُ أن أتحدّثَ عن نورمان، أردتُ أن أحكي لِكلاوديا عمّا تكلّمنا عنهُ أنا ونورمان في أثناء عودتنا من بورتو أنخل، لكنّ كلاوديا قالت إنّ الكلام عن ذلك يُحزنها. وقالت ثمّ إنّ الشيءَ الوحيدَ الذي كنتَ تفعله عندما كنتَ في المشفى هو أنّك رحتَ تُرَدّد آخر حديثٍ لك مع نورمان. وما الذي قلتُهُ؟ ما يقوله جميعُ الذين يهذون، قالت كلاوديا، كنتَ أحياناً تُهلوسُ بجُمْلَتَيْن مُتعلِّقَتَيْن بالمشهد وأحياناً أخرى كنتَ تغيّرُ الموضوع بسرعة كان من المحال متابعتك فيها.

بالرغم من كلّ إصراري لم أستطع أن أحصل منها على شيء واضح. وذات ليلة بينما كنتُ نائماً ظهر لي نورمان وقال لي أن أَطْمَئِنّ، فهو بخير. فكّرتُ، لا أدري في الحلم أم عندما استيقظتُ صارخاً، أنّ نورمان يبدو أنّه في سماء المكسيك وليس في سماء اليهود، بل وأقل من ذلك في سماء الفلسفة أو في سماء الماركسيين. لكن ماذا كانت سماء المكسيك؟ الفرح المتبنى أو ما هو وراء الفرح، الإيماءات الفارغة أو ما يختبئ (كي يبقى حياً) خلفَ الإيماءاتِ الفارغة. بدأتُ بعدها بوقتٍ قصيرٍ أعملُ في وكالة للدعاية. وذات ليلة حاولتُ وأنا سكران أن أهتفَ لأرتورو بِلانو في برشلونة. قالوا

لي في الرقم الذي كان معي إنّه لا أحد يعيش هناك بهذا الاسم. تكلّمتُ مع مولِّر، صديقه، وقال لي هذا إنّ أرتورو يعيشُ في إيطاليا. ماذا يفعل في إيطاليا؟ سألتُ. لا أعرفُ، قال مولِّر. أفترضُ أنّه يعملُ. حين أَغلقتُ الهاتف بدأتُ أبحثُ عن عوليس ليما في العاصمة الفيدرالية. عرفت أنّ عليّ أن أعثرَ عليه وأسألَهُ ماذا كان يريد نورمان أن يقول في حديثه الأخير. لكنّ البحثَ عن أحدٍ في العاصمة الفيدرالية عملٌ شاقّ.

بقيت أشهراً أذهبُ من مكان إلى آخر. سافرتُ في المترو، وفي الحافلاتِ المكتظّة. هتفتُ لأناسٍ لا أعرفهم ولا يهمّني أن أعرفهم، سطوا عليَّ ثلاثَ مرّات، في البداية لم يكن هناك من يريد أن يعرفَ شيئاً من شيءٍ، أو لا أحد كان يريدُ أن يعرف شيئاً عن عوليس ليما. بحسبِ بعضِهِم صار كحولياً ومدمنَ مخدراتٍ، عنصراً عنيفاً يهربُ منه أقربُ أصدقائه. بحسب آخرين تزوّجَ وتفرّغَ لأسرته كلّيّاً. بعضهم كان يقول إنّ زوجتهُ تتحدّر من يابانيين أو إنّها الوريثة الوحيدة لبعض الصينيين الذين كانت لديهم سلسلة من المقاهي الصينية في العاصمة الفيدرالية. كلُّ شيء كان مبهماً ومؤسِفاً.

وذات يوم، قدّموا لي في حفلةٍ المرأةَ التي عاش معها عوليس ليما فترةً، ليست الصينية، بل السابقة عليها.

كانت نحيلةً وقاسيةَ النظرة. مكثنا برهةً نتكلّم، واقفَيْن في زاوية، بينما أصدقاؤها ينشقون الكوكايين. قالت إنّ عندها ابن، لكنّ هذا الابن صار رجلاً. ومع ذلك كان عوليس كأب بالنسبة إليه.

كأب لابنك؟ شيء من هذا القبيل قالت هي. كأبٍ بالنسبة لابني وكأبٍ بالنسبة لي. نظرتُ إليها باهتمام، خائفاً من أن تكون ساخرة. كان كلُّ شيء فيها باستثناء عينيها يَشفّ عن استضعافٍ.

بعدها تكلّمتْ عن المخدرات، أظنُّ أنّه كان الموضوع الوحيد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجدير بأن يُبحث، وسألتُها عما إذا كان عوليس يتعاطى المخدرات. في البداية لا، قالت، فقط كان يبيعُها، لكنّه معي بدأ يتعاطاها. سألتُها عمّا إذا كان يكتبُ. لم تسمعني أو ربّما لم تبغِ أن تجيبني. سألتُها أين يمكنُ أن أعثرَ على عوليس. لم يكن لديها أدنى فكرة. ربّما هو ميت، قالت.

في تلك اللحظة فقط انتبهت إلى أنّ المرأةَ مريضة، ربّما مريضة جدّاً ولم أعرف ماذا أقول لها أكثر، فقط كانت بي رغبةٌ لأنّ أتركها ورائي وأنساها. ومع ذلك بقيتُ بجانبها (أو قريباً منها، فحضورها لفترات طويلة كان لا يُطاق) إلى أن انتهت الحفلةُ مع الفجر. وحتى بعد ذلك خرجنا معاً وسرنا مسافة باتجاه أقرب مترو. ركبنا في تاكوبايا. كان كلُّ ركّاب المترو في تلك الساعة يبدون مرضى. هي ذهبت في اتجاه وأنا في آخر.

أماديو سالباتييرّا، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر التفتيش مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦.

بقينا برهة صامِتين. بدا الفَتَيان مُتْعَبَيْن وأنا كنتُ متعباً. وماذا حدث لِإنكارناثيون غوثمان؟ سألَ واحدٌ منهما فجأةً. كان آخرُ سؤال أتوقّعُ سماعه ومع ذلك كان السؤال الوحيد الذي يسمح لي بالاستمرار. تمهلتُ في الردِّ عليه. أو ربّما أجبتُهُ أوّلاً بالتخاطر، الشيء المعتاد عند الشيوخ السكرانين، ثمَّ فتحتُ شدقيَّ وقلتُ له: لا شيء، أيّها الفَتَيان، قلت لهما، لم يحدث شيء، كما لم حدث لبابليتو لِثكانو ولا لي وإذا ما استعجلتماني ولا حتى لِمانولْ. وضعتنا الحياةُ جميعاً في أماكننا أو في المكان الذي يناسبها وبعدها نَسِيَتْنا، كما يجب أن يحدث. إنكارناثيون تزوّجت. كانت أحلى من أن تبقى لترتدي ثوب الراهبات. كانت بالنسبة إلينا مفاجَأة أنّنا رأيناها تظهر

ذات مساء في المقهى حيث كنّا نجتمعُ وتدعونا جميعاً إلى عرسها. ربّما كانت الدعوة مزحة وفي داخلها جاءت لتتباهى لا أكثر. بالطبع هنّأناها، يا لها من مفاجأة سارّة، وبعدها لم نذهب إلى العرس، وإن كان من الممكن أنّ أحداً ما منّا قد ذهب فعلاً. تسألان كيف أثّر عرسُ إنكارناثيون غوثمان أرِّدوندو على ثِساريا؟ طبعاً بشكلٍ سيّئ، أعتقدُ، على الرغم من أنّه لم يكن من الممكن لأحدٍ أن يعرفَ إلى أي حدٍّ كان السيّئ سيّئاً بالنسبة إلى ثِساريا، أو ما إذا كان أسوأ بكثير، لكن ما من أحد عرفَ، هذا لا شكّ فيه. لكن في تلك الأيّام، راح كلُّ شيء ينزلق إلى الهاوية دون أن ننتبه. أو ربّما كانت كلمة هاوية قويّة أكثر من اللازم. في تلك المرحلة كنّا جميعاً ننزلق إلى الأسفل. وما من أحدٍ كان سيُحاول النهوض مرّة أخرى، ربّما مانولْ، على طريقتهِ، لكن لا أحدَ غيره. اللعنة عليها من حياةٍ عاهرة، أليس صحيحاً أيّها الفتَيان؟ قلتُ لهما. هكذا تبدو، يا أماديو. عندها فكّرتُ ببابليتو لِثكانو، الذي سيتزوج بعدها بقليل وحضرُتُ فعلاً عرسَهُ المدني وفكّرتُ بالوليمة التي أعدّها والد خطيبةِ بابليتو، كان عرساً فخماً في بيت كبير هناك على طريق أركوس دِ بِلِن لم يعد موجوداً، يبدو لي في شارع دِليثياس، مع فرقة مارياتشي وخطبٍ قبلَ وبعدَ الوليمة ورأيتُ من جديد بابليتو لِثكانو، بجبينه اللامع من العرق، يقرأُ قصيدةً خصَّ بها خطيبتَهُ وعائلةَ خطيبته، التي صارت منذ تلك اللحظة بمثابة عائلته ذاتها ونظر قبل أن يقرأ القصيدةَ إليّ ونظر إلى ثِساريا، التي كانت بجانبي وغمزنا، كما لو أنّه يقول لا تغتمّا، يا صديقايَ، فأنتما ستبقيان دائماً أسرتي السريّةَ الحقيقيّةَ، أقولُ، وإن كان من المحتمل ألاّ يكون تفسيري صحيحاً. بعد بضعة أيّام من زواج بابليتو رحلتْ ثِساريا للأبد عن العاصمة الفيدرالية. تقابلنا بالمصادفة ذات مساء عند الخروج من السينما، وهذا مصادفة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أليس صحيحاً، أيّها الفتيان؟ كنتُ قد ذهبتُ وحدي وثِساريا أيضاً وبينما كنّا نمشي رحنا نعلّق على الفيلم . أيّ فيلم؟ لا أتذكرُهُ، أيها الفتيان، كان بودّي لو أنّه كان لتشارلي شابلن، لكنّني الحقيقة لا أتذكّره. لكن بلى أتذّكرُ أنّه أعجبنا، هذا صحيح، وأتذكّرُ أيضاً أنَّ السينما كانت أمام شارع ألامِدا وبدأنا أنا وثِساريا نمشي في ألامِدا، ثمّ باتجاه المركزِ وأتذكّر أنّني في لحظة ما سألتُها أوّلاً عن حياتها وأنّها قالت لي إنّها ستذهبُ من العاصمة الفيدرالية ثمّ علّقنا على عرسِ بابليتو وأنّ إنكارناثيون غوثمان ظهرت لتلمع خلال الحديث. حضرت ثِساريا عرسها. سألتُها لمجرّد أن أقول شيئاً، كيف كان العرس وهي قالت لي كان جميلاً ومؤثّراً، هاتان هما كلمتاها، وكئيباً مثل كلّ الأعراس، أضفتُ. لا، قالت لي ثِساريا، وهكذا حكيته للفَتَيَيْن، الأعراس ليست كئيبة، يا أماديو، قالت لي، بل مبهجة. الحقيقة أنّه لم يكن يهمّني أن أتكلّم عن إنكارناثيون غوثمان بل عن ثِساريا. ماذا سيحلّ بمجلّتِكِ؟ سألتُها. ماذا سيحلّ بالواقعيةِ الأحشائيّة. هي ضحكت عندما سألتُها هذا. أتذكّرُ ضحكتَها، أيّها الفَتَيان، قلتُ لهما، كان الليل يهبط على العاصمة الفيدرالية وثِساريا تضحكُ مثل شبحٍ، مثل المرأةِ اللامرئية التي كانت على وشك أن تصيرها، ضحكةً أوهنت روحي، ضحكة كانت تدفعني لأن أخرج هارباً من جانبها وفي الوقت ذاته تمنحني يقيناً بأنّه ما من مكانٍ أستطيع أن أهرب إليه، عندها خطرَ لي أن أسألها إلى أين ستذهب. لن تقوله لي، فكّرتُ، هكذا هي ثِساريا، لن تقبل أن أعرف. لكنّها قالته لي: إلى سونورا، بلدها وقالته لي بالطبيعية ذاتها التي يقول لك بها آخرون الساعةَ أو صباحَ الخير. لكن لماذا يا ثِساريا؟ سألتُها، ألا تلاحظين أنّكِ إذا ذهبتِ الآنَ ستُطيحين بكلّ مسيرتك الأدبية؟ هل عندك فكرةٌ عن نوعِ القفر الثقافي الذي تشكّله سونورا؟ ماذا ستفعلين

هناك؟ أسئلة من هذا النوع. أسئلة يطرحُها المرءُ، أيّها الفَتَيان، حين لا يعرف حقيقةً ماذا سيقول. وثِساريا نظرت إليَّ بينما نحن نمشي وقالت إنّه لم يبقَ لها شيء هنا. هل جُنِنْتِ؟ قلتُ لها. هل تبدّلتِ، يا ثِساريا. هنا عندك عمل، عندك أصدقاء، مانوِلْ يُقدِّرُك وأنا أُقدِّرُك، خِرمان وأركِلِس يقدرانك، لن يعرف الجنرال ماذا سيفعل من دونك. أنت صَخَبِيّة[1] جسماً وروحاً. أنتِ ستُساعدينا على تشييدِ مدينة الصخب، يا ثِساريا، قلتُ لها. وعندها ابتسمت هي، كما لو أنّني أحكي لها نكتةً رائعة، لكنّها كانت تعرفها، وقالت إنّها تركت العملَ منذ أسبوع، ثمّ إنّها لم تكن قط صَخَبِيَّة بل واقعية أحشائيّة. وأنا أيضاً قلتُ أو صرخت، كلّنا نحن المكسيكيين واقعيون أحشائيّون أكثر من صخبِيِّين، لكن ما همّ، الصخبيّة والواقعيَة الأحشائية هما مجرّد قناعين كي نصل إلى حيث نريدُ حقيقةً أن نصل. وإلى أين نريدُ أن نصل؟ سألتْ هي. إلى الحداثة، يا ثِساريا، قلتُ لها، إلى الحداثة اللعينة. وعندئذٍ، فقط عندئذٍ، سألتُها عما إذا كان حقيقةً أنّها تركت عملها مع جنرالي. وهي قالت بالطبع حقيقة. وماذا قال هو؟ سألتُ. تحوّل إلى حيوانٍ ضار، ضحكتْ ثِساريا. و؟ لا شيء، لا يصدّق أنّني أتكلم بجدّية، لكنّه إذا كان يُفكّر أنّني سأعود فلينتظرني جالساً وإلا فإنّه سيتعب.

يا له من رجلٍ مسكين، قلتُ أنا. ضحكت ثِساريا. هل لكِ أقرباء في سونورا؟ سألتُها. لا، أظنّ لا، قالت هي. وماذا ستفعلين إذن؟ سألتُ. سأبحثُ عن عملٍ، وعن مكانٍ أعيش فيه، قالت ثِساريا. وهل هذا كلُّ شيء؟ سألتُها. هل هذا هو كلّ المستقبل الذي

---

(١) Estridenista, estridentismo نسبة إلى حركة فنية ظهرت في خالابّا، المكسيك عام ١٩٢١ ويمكن تسميتها بالصخبية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ينتظرك، يا ثِساريا، يا بُنَيَّتي؟ قلتُ، وإن كان من المحتمل أنّني لم أقلْ يا بُنيّتي، قد أكون فكّرتُ فقط. وثِساريا نظرت إليَّ نظرةً قصيرة، كما لو من طرف عينها وقالت إنّ هذا هو المستقبل المشترك لكلِّ الفانين، البحث عن مكان يعيشون فيه ومكان يعملون فيه. في أعماقك أنت رجعي، يا أماديو، قالتْ لي (لكنّها قالته لي بظرافة). وهكذا تابعنا برهة أكثر. كما لو أنّنا نتناقش، لكن دون أن نتناقش. كما لو أنّنا نتعاتبُ على أشياء، لكن دون أن نتعاتب على شيء. وفجأةً حاولتُ أن أتصوّر ثِساريا في سونورا، كان هذا قبل أن نصل إلى الشارع حيث كنّا سنفترق للأبد، حاولتُ أن أتصوّرها في سونورا ولم أستطيع. رأيتُ الصحراء أو ما كنتُ أتخيّلُ وقتها أنّه الصحراء، لم أكن قط هناك، ومع مرور السنين رأيتُها في بعض الأفلام، أو في التلفزيون، لكنّني لم أكن هناك قط، أيّها الفَتَيان، قلتُ لهما، أعفاني الله منها، وفي الصحراء رأيتُ نقطةً تتحرّكُ على شريط لا نهاية له والنقطة كانت ثِساريا والشريط كان الطريق الذي يقودُ إلى مدينة أو إلى بلدةٍ لا اسم لها، وعندها هبطتُ مثل نسرٍ أمريكي حزين، وجلستُ أو أجلستُ مخيِّلَتي الموجوعةَ على صخرةٍ ورأيتُ ثِساريا تمشي، لكنّها لم تعد وقتها ثِساريا نفسها التي كنتُ أعرفها بل امرأة مختلفة، هندية بدينة وترتدي السواد تحت شمس صحراء سونورا، وقلتُ لها أو حاولتُ أن أقولَ لها وداعاً، يا ثِساريا تيناخِرو، يا أمَّ الواقعيين الأحشائيّين، لكن لم يخرج مني غيرُ صفيرٍ محزن، سلامات قلبية، يا صديقتي ثِساريا، حاولتُ أن أقول لها، سلامات لكِ من بابليتو لِثكانو ومانوِلْ مابْلِس أرثِ، سلامات من أركِلِس بِلا ومن ليْسْتْ أرثوبيدِ البارد، سلامات من إنكارناثيون غوثمان ومن جنرالي دييغو كارباخال، لكن لم يخرج معي غير غرغرة، كما لو أنّني أُعاني من نوبة قلبية، لنَدِقّ على الخشبِ، أو نوبة ربوٍ، ثمّ عدتُ

لأرى ثِساريا تمشي بجانبي، واثقةَ الخطوِ، شجاعةً وجريئة كما كانت. وقلتُ لها، يا ثِساريا، فكّري بالمسألة جيّداً لا تتصرّفي بغباوة وجنون، قيسي خطواتك. وهي ضحكت وقالت لي: يا أماديو، أنا أعرفُ ما أفعل، ورحنا بعدها نتكلّم عن السياسة، التي كانت موضوعاً تُحِبّه ثِساريا، وإن في كلّ مرّةٍ أقل، كما لو أنّهما هي والسياسة جُنّا معاً، كان عندها أفكارٌ غريبة بهذا الخصوص، كانت تقول، مثلاً، إنّ الثورة المكسيكية ستصل في القرن الثاني والعشرين، حماقة لا تستطيعُ أن تواسي أحداً، أليس صحيحاً؟ وتكلّمنا أيضاً عن الأدب، عن الشعر، عن آخر ما حدث في العاصمة الفيدرالية، عن ثرثراتِ الصالونات الأدبية، عن الأشياء التي كان يكتبها سلفادور نوبو وقصصِ بعضِ مصارعي الثيران وبعضِ الساسةِ وعن بعض مغني الأوبرا، موضوعاتٍ ضِمناً لا يتعمّق فيها أحد، لا يمكن أن يتعمق فيها أحدٌ. بعدها توقّفت ثِساريا كما لو أنّها تذكّرت فجأةً شيئاً مهمّاً جداً وكانت قد نسيته، بقيت ساكنة، نظرت إلى الأرض، إلى مارّةِ تلك الساعة، لكن دون أن تراهم، قاطبةً حاجبيها، أيّها الفَتَيان، قلتُ لهما، ثم نظرتْ إليَّ، في البداية دون أن تراني ثم وهي تراني، وابتسمتْ وقالتْ لي، وداعاً، يا أماديو. وكانت هذه هي المرّة الأخيرة التي رأيتها فيها حيّةً. رصينة جدّاً. وهناك انتهى كلّ شيء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢٢

سوزان بويغ، شارع جوسيب تارادِيّاس، كالِيّا دِ مار، كتلونيا، حزيران ١٩٩٤.

هتف لي. كان قد مضى زمن طويل لم أتكلم فيه معه. قال لي عليكِ أن تذهبَ إلى الشاطئ، يوم كذا وساعة كذا. ماذا تقول؟ سألتُهُ. عليكِ أن تذهبي، عليك أن تذهبي، قال هو. هل جُننت؟ هل أنت سكران؟ سألتُهُ أنا. أرجوكِ، أنا بانتظارك، قال هو، وعاد وقال لي اسمَ الشاطئ واليومَ والساعةَ التي ينتظرني فيها. ألا تستطيع أن تأتي إلى بيتي؟ سألتُهُ أنا. هنا نستطيع أن نتكلم بهدوء إذا كان هذا ما تُريده. لا أريد أن أتكلّم، قال، ما عدتُ أريدُ أن أتكلّم، انتهى كلُّ شيء، لا جدوى من الكلام، قال. انتابتني رغبة بأن أغلق الهاتف، لكنّني لم أفعل. كنتُ قد انتهيت توّاً من تناول عشائي وأشاهد فيلماً، كان فيلماً فرنسيّاً، لا أتذكّرُ اسمَهُ ولا اسمَ مخرجه ولا الممثلين، فقط أتذكّرُ أنّه كان يدور حول مُغَنّيةٍ، فتاةٍ هستيرية قليلاً، أظنُّ، وشخص بائسٍ، عشقتْهُ هي بشكل غامض. كما يحدثُ دائماً كان حجمُ الصوت منخفضاً جدّاً وبينما كنتُ أتكلّم معه لم أكن أرفعُ نظري عن التلفزيون: غرف، نوافذ، وجوه أشخاص لم أكن أعرف جيّداً ماذا كانوا يعملون في ذلك الفيلم، الطاولة كنت قد رفعتُ عنها أدوات الطعام، وكان على الكنبة كتاب، رواية كنتُ أُفكّر بقراءتها في

تلك الليلة ذاتها، حين أتعبُ من الفيلم وأذهبُ إلى السرير. هل ستأتين؟ سأل هو. لماذا؟ سألتُ أنا، لكنّني في الحقيقة كنتُ أُفَكّر بشيء آخر، بتَعَنُّتِ المغنية، بدموعِها التي كانت تسيل بجموح وبكراهية، على الرغم من أنّني لا أدري ما إذا كان من الممكن أن أقول هذه الكلمة الأخيرة، من الصعب البكاء بكراهية، من الصعبِ أن تبدأ تبكي مثل مجدليةٍ من كثرة ما تكرهُ أحداً. كي تريني، قال. للمرّة الأخيرةِ، للمرّة الأخيرة، أصرّ. هل ما زلت هناك؟ سألتُ. فكَّرتُ للحظةٍ أنّه أغلق الهاتف، لن تكون المرّة الأولى، بالتأكيد كان يكلّمني من هاتف عمومي، استطعتُ أن أتصوّره دون أيّ مشكلة، هاتفاً في باسيو ماريتيمو[1] في بلدته التي لا تبعد عن بلدتي إلا عشرين دقيقة في القطار وخمس عشرة دقيقة في السيارة الخاصّة، لا أدري لماذا رحتُ أُفكّر في تلك الليلة بالمسافات، لكن لم يكن باستطاعتي أن أُغلقَ الهاتف، كنتُ أشعر بضجيج السيارات، ربّما لم أغلق نوافذي جيّداً وما كنتُ أسمعُهُ مصدره شارعي ذاته. هل أنتَ على الخطّ؟ سألتُ. نعم، قال هو، هل ستأتين؟ ما أثقلك! لماذا تريدني أن أذهب إذا كنّا لن نتكلّم؟ لماذا تريدني أن أذهب إذا لم يكن عندنا ما نقوله؟ الحقيقة أنّني لا أعرف، قال هو. لا بدَّ أنّني أُجنّ. أنا أيضاً كنتُ أفكّر بالشيء ذاته، لكنّني لم أقله له. هل رأيتَ ابنك؟ بلى، قالَ. كيف حاله؟ ممتاز، قالَ، جميل جدّاً وهو في كلّ يوم أكبر. وزوجتكَ السابقةَ؟ ممتازة، قال. لماذا لا تعود إليها؟ لا تسألي أسئلة حمقاء، قالَ. أعني كصديق، قلتُ، كي تعتني بكَ قليلاً. يبدو أنّه استظرفَ الفكرة الأخيرة، سمعتُهُ يضحك، قال بعدها إنّ زوجته (لم يقل زوجته السابقة، قال زوجته) بخير، وفي وضع

---

(١) الكورنيش البحري.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ممتاز، وإنّه لن يكون هو من يُخَرِّب عليها عيشها. أنتَ أنعمُ من اللازم، قلتُ. ليست هي من مزّقت قلبي، قال. كم هو متحذلق، يا له من عاطفي! القصّة، طبعاً، كنتُ أعرفها عن ظهر قلب.

كان قد حكاها لي في الليلة الثالثة، بينما كان يتوسّل إليَّ كي أحقنه بجرعةِ نولوتيل، في الشريان، تماماً قال «الشريان» لم يَقُل الوريد، الذي يعني الشيء ذاته، لكنّه مختلف، طبعاً من المفروغ منه أنّني كنتُ أحقنه إيّاها، هيا إلى النوم الآن، لكنّنا دائماً كنّا نتكلّم، وفي كلِّ ليلة أكثرَ قليلاً، إلى أن حكى لي القصّة كاملةً. بدتْ لي وقتذاك قصةً حزينة، ليست القصّة بحدّ ذاتها بل الطريقة التي كان يحكيها بها. لا أتذكّر الآن كم من الزمن بقي في المشفى، ربّما عشرة أو اثني عشر يوماً، أتذكّرُ أنّه لم يحدث بيننا شيء، ربّما كان الواحد منّا ينظر أحياناً إلى الآخر بتركيز أكثرَ من المعتاد بين مريضٍ ومُمَرّضة، لا أكثر، كنتُ قد قطعت علاقتي (لا أجرؤ على تسميتها بالخطبة) مع طبيبٍ داخلي، لنقل إنّ الجوَّ كان ملائماً، لكن لم يحدث شيء. بعد خمسة عشر يوماً من تخريجه، وخلال مناوبتي، دخلتُ غرفة ووجدتُهُ هناك مرّة أخرى. فكّرتُ أنّه كان مُهلْوِساً! اقتربتُ من السرير دون أن أُحدِث ضجّةً ورحتُ أنظرُ إليه، كان هو. بحثتُ عن سجّله المرضي: كان مصاباً بالتهاب البنكرياس، وإن لم يضعوا له خرطوم التغذية الأنفية. عندما عدتُ إلى الغرفة (كان رفيقك يموتُ بالتهاب الكبد، كان يحتاج إلى رعاية مستمرّة) هو فتح عينيه وحياني. كيف الحال، يا سوزان، قال. ومدّ لي يدَه. لا أدري لماذا لم أكتفِ بمصافحته وانحنيت وطبعتُ قبلةً على خدّه. في صباح اليوم التالي مات رفيقُهُ وحين عدتُ كانت الغرفة له وحده. في تلك الليلة مارسنا الحبّ. هو كان ما يزالُ ضعيفاً، يتغذى بالمصلِ فقط وكان ما يزال البنكرياس يؤلمُهُ، لكنّنا مارسناه مع أنّني رحتُ أفكّر بعدها بأنّه

كان تهوّراً منّي، تهوّراً يتاخم حدود الجريمَة، الحقيقة أنّني لم أشعر قط قبلها بمثل تلك السعادة في المشفى، ربّما فقط حين حصلت على الشاغر، لكنّها كانت سعادة من نوع آخر، لا تُقارَن بالتي شعرتُ بها حين مارستُ الحبَّ معه. بالطبع كنت أعرفُ (هو نفسه حكاه لي في المرّة الأولى التي دخل فيها المشفى) أنّه كان متزوّجاً وعنده ولد، وإن لم أعرف قط أنّ زوجته كانت تزوره في المشفى. لكنّه حكى لي بخاصة القصّةَ الأخرى، التي «فطرت قلبَهُ»، قصّة سوقية فيما عدا ذلك، على الرغم من أنّه لم يكن ينتبه إلى شيء.

أيُّ امرأةٍ أخرى (أكثر تجربةً وأكثر عمليةً منّي) كانت ستعرف أنّ ما بيننا ما كان ليدومَ كثيراً، على أبعد تقدير الوقت الذي سيمكثُهُ في المشفى، لكّني رسمتُ لنفسي أوهاماً ولم آخذ بالاعتبار أيّاً من العوائق التي كانت أمامنا. في المرّة الأولى (والوحيدة) التي أذهبُ فيها إلى سريرِ شخصٍ مُسِنّ إلى ذلك الحد (سبعة عشر عاماً) ولم يهمّني، بالعكس أعجبني. كان في السرير رقيقاً، ناعماً وأحياناً حيواناً جدّاً، لا أخجل من قول هذا. على الرغم من أنّه مع مرور الأيّام وتلاشي المشفى من ذاكرته، بدأ الشرود يصبحُ أكثر حضوراً والزياراتُ التي كان يقوم بها إليّ راحت تتباعد في كلّ مرّة أكثر. هو كان يعيش، كما سبق وقلتُ، في بلدةٍ على الشاطئ شبيهةٍ ببلدتي، على بعد عشرين دقيقة في القطار وخمس عشرة دقيقة في السيارة الخاصّة، ولا يذهب حتى صباح اليوم التالي وكنتُ أنا من تتابع أحياناً طريقَها، بدل أن أتوقف في بلدتي، حتى بلدته، وكان هذا كمن يحشرُ نفسه في فم الذئب، لأنّه، لم يكن يُحبّ الزيارات، هو لم يقله لي قط، لكنّني كنتُ أعرف. كان يعيشُ في بناءٍ في مركز البلدة، ملتصقٍ بدار سينما البلدة وهكذا إذا كان الفيلمُ فيلمَ رعبٍ والموسيقى التصويرية قويّة جدّاً، كان باستطاعتي أن أسمعَ من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المطبخِ الصرخات أو العلاماتِ الأعلى، وأعرف إلى هذا الحدِّ أو ذاك، خاصّة إذا كنتُ قد رأيتُ الفيلم من قبل، في أي قسم منه كانوا، وما إذا عثروا أو لم يعثروا على القاتل، وكم بقي حتى ينتهي.

بعد آخر عَرْضٍ، كان البيتُ يغرق في صمتٍ عميق، كما لو أنَّ البيتَ سقط فجأةً في بئرِ منجم، مع فارق أنّ في البئر بعضَ السائل، بعضاً مما في باطنِ الأرض، لأنّني كنتُ أبدأُ بعدَها أتخيّلُ الأسماكَ، أسماكَ الأعماق البحرية، المُسطّحةَ والعمياء. ثمّ إنّ كلَّ ما في البيت كان كارثياً: الأرضية متسخة، الصالون مشغول بطاولة هائلة ومليئة بالأوراق ولا يوجد مكانٌ لأكثر من كرسيين. كان الحمّام مريعاً (هل مغاسلُ جميعِ الرجال العزّاب لها الوضع ذاته؟ آمل ألا يكون كذلك). لم يكن عنده غسّالة والملاحف[1] أبعد ما تكون عن أن تُشتهى وكذلك المناشف، منشفة المطبخ، ثيابه، يعني كلّ شيء، خراب، هذا مع أنّني قلتُ لهُ، حين بدأنا نخرج سويّة، هذا إذا كان قد حدث هذا فعلاً، أن يأتي بالثيابِ المتسخة إلى بيتي وأنا أضعها في الغسّالة، فعندي غسالة ممتازة، لكنّه كان كما لو أنّه يسمع سقوطَ المطر، كان يقول إنّه كان يغسل بيديه، صعدنا مرّة إلى السطح، في البناء فقط كانت تعيشُ صاحبةُ البيت في الطابق الأوّل وهو في الثاني ولا أحد يعيش في الثالث، على الرغم من أنّني في إحدى الليالي بينما كان يمارسُ معي الحبَّ (أو بينما كان ينكحني، هذا الأخير أكثر تطابقاً مع الواقع) سمعتُ ضجة، كما لو أنّ أحداً في الطابق الثالث كان يُحرّك كرسيّاً أو يُحرّكُ سريراً، كما لو أنّ أحداً يمشي من الباب

---

(١) في منطقة المشرق العربي تستخدم كلمة ملحفة وملاحف لغطاء السرير الرقيق ولا تستخدم كلمة ملاءة.

إلى الشباك، أو كما لو أنّ أحداً ينهض عن السرير، أو كما لو أنّ أحداً يذهبُ إلى النافذة التي لا يفتحها، بالتأكيد كانت الريح، البيوتُ القديمة فيها ضجيج خاص، تطقطق في ليالي الشتاء، يعني صعدنا إلى السطح وأراني المغسل، وكان مغسلاً إسمنتياً مقشراً، كما لو أنّ أحداً، مستأجِراً سابقاً، انهال عليه ذات مساء يائس بالمطرقة، وقال لي إنّه يغسل هناك بيديه، طبعاً لم يكن يحتاج لغسالة، ورحنا بعدها نتأمّلُ المشهد الواسع لأسطح البلدة، في أسطح بيوت القسم القديم من البلدة، يوجد دائماً شيء غامض وجميل، البحر، النوارس، برج الكنيسة، كل شيء بني، أصفر كأنّه من تراب بَرّاق أو رملٍ برّاق. فتحت بعدها، كما كان محتماً، عيني وانتبهتُ إلى أنّ ذلك لم يكن له معنى. لا تستطيعين أن تحبَّي من لا يُحبّك، لا تستطيعين أن تحافظي على علاقة فقط من أجل الجنس. قلتُ له إنّ علاقتنا قد انتهت وهو لم يعترض أبداً، كما لو أنّه كان يعرف ذلك منذ اللحظة الأولى. لكنّنا بقينا صديقَيْن ومن حين إلى آخر كنتُ أركبُ سيارتي في تلك الليالي حين كنتُ أشعرُ بنفسي وحيدة أو مُنْقَبِضَةَ الصدرِ وأذهبُ لأبحث عنه. كنّا نتعشى سويّة، ثمّ نُمارس الحب، لكنّني ما عدتُ أنام في بيته. تعرّفت بعدها على شخص آخر، غير جدّي أبداً، حتى هذا لم يعد يحدث.

تجادلنا مرّة. السبب؟ نسيته؟ لم تكن مسألة غيرة، هذه بلى أتذكّرها، هو لم يكن غيوراً إطلاقاً. بقينا عدّة أيّام لم يهتف لي فيها، لم أذهب أنا لزيارته. كتبتُ له رسالة، قلتُ له فيها إنّ عليه أن يعتني بنفسه، وإنّ صحته ضعيفة (كانت القناة الجامعة عنده متصلبة، ومؤشرات تحليل الكبد في السماء، التهاب بنكرياس قرحي وكان قد نجا تواً من نشاط الغدة الدرقية المفرط وكانت أضراسه تؤلمُهُ من حين لآخر!) عليّه أن يُسيّر حياته، فهو ما زال شابّاً، أن ينسى تلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي «حطّمت قلبه»، أن يشتري غسّالة. بقيت مساءً بكاملهِ أكتبها، ومزّقتها بعد ذلك ورحتُ أبكي، إلى أن تلقيت مكالمته الأخيرة.

هل تريد أن تراني لكن دون أن نتكلّم؟ سألته. هو كذلك، قال هو، هو كذلك، لن نتكلّم، فقط أريد أن أعرف أنّكِ قريبة، لكنّنا أيضاً لن نرى بعضنا. هل جُننتِ؟ لا، لا، لا، قال هو. شيء بسيط جدّا، لكنّه لا، لم يكن بسيطاً جدّاً. ما كان يُريدُهُ بالمختصر المفيد هو أن أراه أنا. وأنت ألن تراني؟ سألته. لا، أنا ليس عندي أدنى إمكانية لأن أراكِ، درستُ المكانَ جيّداً، أنتِ عليك أن تصفّي السيارة في منعطف محطّةِ المحروقات، وعليك أن تصفّيها على حافّةِ الطريق ومن هناك تستطيعين أن تريني، وليس هناك حاجة حتى لأن تخرجي من السيارة. هل تُفكّر بالانتحار، يا أرتورو؟ سألتُه. سمعته كما لو أنّه كان يضحك. لا شيء من الانتحار، على الأقل الآن، قال بالكادِ بخيطٍ من صوت. معي بطاقة إلى أفريقيا، سأسافرُ خلال أيام قليلة. إلى أفريقيا؟ إلى أيِّ جزءٍ من أفريقيا؟ سألتُه. إلى تنزانيا، قال هو، لقد أخذت كُلّ لقاحات العالم. هل ستذهبين؟ سألني. لا أفهم شيئاً، قلتُ، لا أرى لذلك أيّ معنى. بل له! قال هو. لكن ليس بالنسبة إليّ، يا وغد، قلتُ. بالنسبة إليّ له معنى. قالَ هو. وماذا عليَّ أن أفعل؟ سألتُ. فقط أن تصفّي سيّارتَكِ عند أوّلِ منعطفٍ بعد محطّةِ المحروقات وتنتظري؟ كم من الوقت؟ لا أعرفُ، خمس دقائق، قال هو، إذا وصلتِ في الساعةِ التي قلتُها لك، فقط خمس دقائق. وماذا بعد ذلك؟ سألتُ أنا. بعدها تنتظرين عشرَ دقائق ثمّ تذهبين؛ وهذا كلّ شيء. وماذا عن أفريقيا؟ سألتُه. أفريقيا تأتي لاحقاً، قال هو (صوته هو ذاته الذي كان له دائماً، فيه أثر تهكُّم، لكنّه لم يكن ولا بشكل من الأشكال صوتَ مجنون)، إنّه المستقبل. المستقبل؟ يا له من مستقبل. وماذا تفكرّ أن تعمل هناك؟ سألتُه. كان

جوابه كما هو دائماً، مُبهماً، أعتقدُ أنّه قال: أشياء، أعمال، ما أفعله دائماً شيء من هذا القبيل. عندما أغلقتُ الهاتف، لم أعرف ما إذا كانت دعوتُهُ هي التي سبّبت لي مزيداً من الإرباك أم إعلانه بأنّه سيرحل عن إسبانيا.

اتبعتُ يومَ الموعد تعليماتِهِ حرفيّاً. كنت أسيطرُ من أعلى الطريقِ والسيارة مصفوفة على حافّته، على كاملِ الشرمِ، وهو شاطئ صغير يجمع في الصيف عراةَ المنطقة المحيطة به. على يساري كانت توجد سلسلة من التلال وبعض الجروفِ من حيث كانت يُطلُّ من حين لآخر شاليه، إلى يميني السكّة الحديدية، ومنطقة رملٍ وجنبات، يليها الشاطئ خلف وهدةٍ. كان اليوم رماديّاً وحين وصلتُ لم أرَ أحداً. في أقصى الشرم بار لوس كالامارس فليثِسْ، وهو بناء متهالك من الخشب المطليّ بالأزرق، ما من روح تُرى. على الطرف الآخر بعضُ الصخور تُخفي بعضَ الشروم الأخرى الأصغر، الأبعد عن النظرات العامة، ذلك أنّها كانت تجمع في الصيف معظم العراة. وصلتُ قبل نصفِ ساعة من الساعة المحدّدة. لم أبغِ النزول من السيارة، لكنّني بعد انتظار عشر دقائق وتدخين سيجارتين، صار الجوّ هناك في الداخل خانقاً. بينما أنا أفتح الباب كي أخرج اصطفت سيارةٌ أمام بار لوس كالامارِس فِليثِسْ. راقبتُها باهتمام: نزل من داخلها رجل، شخص طويل وسابل الشعر، شابٌّ احتمالاً ودار بعد أن نظر في كلّ الاتجاهات (باستثناء المنطقة التي كنتُ فيها) حول البارِ واختفى عن ناظري. لا أدري لماذا رحتُ أزدادُ في كلّ مرّة عصبيةً. عدتُ إلى داخلِ السيارة وأغلقتُ الأبواب وأنزلتُ الأمان. فكّرتُ جديّاً بالذهاب حين اصطفت سيّارة أخرى في مدخل لوس كالامارِس فِليثِس. نزل منها رجلٌ وامرأة. رفعَ الرجل يديه إلى فمه وأطلق صرخة أو صفرةً، لا أعرف لأنّ حافلة مرّت بجانبي في تلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اللحظة ولم أستطع أن أسمع شيئاً. انتظر الرجلُ والمرأةُ لحظةً، تقدّما بعدها نحو الشاطئ عبر دربٍ ترابي. بعد برهة، خرجَ من الجانب المخفيّ من لوس كالامارِس فِليثِس الرجلُ الأوّلُ واتجهَ نحوهما. بالطبع كانوا يعرفون بعضهم بعضاً، فقد تصافحوا والمرأةُ قبّلته. ثمّ وبإيماءة بدت لي مفرطة في بطئها أشارت يدُ الرجلِ الثاني إلى نقطةٍ على الشاطئ. تقدّمَ رجلان خرجا من بين الصخور باتجاهِ البار، ماشيَيْن عبر الرمل، تماماً على الحافّة التي كانت تختفي عندها الأمواج. على الرغم من أنّهما كانا بعيدين، عرفت بينهما أرتورو. خرجتُ من السيارة بكلّ سرعة، لا أعرف لماذا، ربّما فكّرت بالنزول إلى الشاطئ، على الرغم من أنّني سرعان ما انتبهتُ إلى أنّني كي أصل إلى هناك كان عليّ أن أدور دورة هائلة وأعبر نفقاً للمشاة، وإلى أنّ من المحتمل أن يكون الجميعُ قد ذهبوا حين أصلُ. وهكذا بقيتُ بلا حراكٍ بجانبِ السيارة ونظرتُ. وقف أرتورو ومرافقُهُ وسطَ الشاطئ. رجلا السيارتين تقدّما باتجاههما، جلست المرأةُ على الرمل وانتظرت. حين التقى الرجال الأربعة وضع مرافقُ أرتورو حزمةً على الأرض، فتحها وفردها. نهض بعدها وتراجع. اقترب أوّل الرجلين من الحزمة أخذ منها شيئاً وتراجع بدوره. اقترب بعدها أرتورو من الحزمة، أخذ بدوره شيئاً وفعل ما فعله الذي سبقه. كان أرتورو والرجل الأوّل يمسكان بأيديهما شيئاً طويلاً. اقترب الرجل الثاني من الأوّل وقال له شيئاً. وافق الأوّلُ هازاً رأسه وانسحب الثاني، لكنه بدا مرتبكاً قليلاً، لأنّه فعل ذلك باتجاه البحر فبلّلت موجة حذاءه، وهو ما جعل الثاني يقفز، كما لو أنّ سمكةَ بيرانيا عضّته وانسحبَ بسرعة في الاتجاه المعاكس. لم يُكلّف الرجلُ الأوّل خاطره بأن ينظر إليه: كان يتحدّث ظاهرياً بألفة مع أرتورو وكان هذا يُحرّك قدمه اليسرى، كما لو أنّه كان، خلال استماعه، يرسمُ برأسِ

حذائه شيئاً، وجهاً، بعضَ الأرقام عليِ الرمل الرطب. تراجع مرافقُ أرتورو بضعةَ أمتار إلى الخلف باتجاه الصخور. نهضت المرأةُ واقتربت من الرجل الثاني، الذي كان جالساً على الرمل ينظف حذاءه. في وسط الشاطئ بقي أرتورو والرجل الأوّل فقط. عندئذ رفعا ما كانا يمسكان بهما وطرقاهما الواحد بالآخر. بدتا لي من النظرة الأولى عصَيَيْن فضحكتُ، فقد أدركتُ أنّ ما كان يُريدني أرتورو أن أراه كان هذا، تَهريجاً، تهريجاً غريباً، لكنّه تهريج تماماً. لكن بعدها شقت ريبةٌ طريقَها إلى رأسي. وماذا لو لم تكونا عصيين، وماذا لو كانا سيفين؟

غييم بّينيا، شارع غاسبار بوخول، أندراتكس، مَيورقة، حزيران ١٩٩٤.

تعارفنا في عام ١٩٧٧. مضى زمنٌ طويل، حدثت أشياء كثيرة. كنتُ وقتها أشتري صحيفتين كلَّ صباح وعدداً من المجلات. كنتُ اقرأ كلَّ شيء، كنت متابِعاً لِكلّ شيء. كنّا نلتقي كثيراً، دائماً في بيتي. أعتقد أنّني ذهبتُ مرّةً واحدةً فقط إلى بيته. كنّا نخرجُ لنأكل. أنا من كان يدفعُ. مضى على ذلك وقت طويل. برشلونة تغيّرت. المعماريون البرشلونيون لم يتغيّروا، لكنّ برشلونة، بلى تَغَيّرت. كنتُ أرسمُ كلَّ يوم، ليس كما الآن، كلَّ يوم، لكن كان هناك حفلاتٌ كثيرة، اجتماعاتٌ زائدة عن الحد، أصدقاء زائدون عن الحدّ، كانت الحياة شائقة. في تلك السنوات كان عندي مجلة وأحبُّها. أقمتُ معرضاً في باريس، معرضاً في نيويورك، معرضاً في فيينا ومعرضاً في لندن. كان أرتورو يختفي لفترات. كان يحبُّ مجلتي. كنتُ أهديهِ أعداداً سابقة وكذلك أهديته رسماً. أهديته إيّاه مؤطّراً، لأنّني كنتُ أعلمُ أنّه ليس عندَهُ نقود كي يؤطّر أيّ شيء. أيُّ رسم؟ رسمٌ إجمالي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

للوحة لم أرسمها قط: *آنسات أفينيون الأخريات*. تعرّفتُ على تجار أعمالٍ فنيّة مهتمّين بأعمالي. في تلك المرحلة لم أكن مهتمّاً كثيراً بأعمالي. في تلك السنوات زوّرتُ ثلاثَ لوحات لبيكابيا. تامّة. بعتُ اثنتين واحتفظت بواحدة. في التزوير رأيتُ نوراً خافتاً جدّاً، لكنّه في النهاية نور. بالنقود التي كسبتها اشتريتُ لوحةَ حفرٍ لكاندينسكي ومجموعةً من *الفنّ الفقير*(١)، من المحتمل أيضاً أنّها مُزَيّفة. كنتُ أحياناً آخذ الطائرةَ وأذهب إلى ميورقة لأزورَ والديَّ، في أندراتكس. وأمشي مشاوير طويلة في الريف. كنتُ أحياناً أمكثُ وأتأمل أبي، الذي كان يرسم أيضاً، حين كان يذهبُ إلى الريف ومعه قطعُ قماشه ومنصّة الرسم فتمرّ في ذهني أفكارٌ غريبة. أفكارٌ تبدو أسماكاً ميتةً أو على وشك أن تموت في الأعماق البحرية. لكنّني كنتُ أُفَكّرُ بعدها بأشياء أخرى. في تلك المرحلة كان عندي مرسمٌ في بالما. كنتُ أنقّل لوحات. أحملها من بيت والديّ إلى المرسم ومن المرسم إلى بيت والديّ. بعدها كنتُ أسأم وآخذ الطائرة عائداً إلى برشلونة. كان أرتورو يذهبُ إلى بيتي ليستحمّ. لم يكن في بيته حمام، طبعاً، وكان يأتي إلى بيتي في مولينِر بجانب ساحة كاردونا.

كنّا نتكلم، ولا نتجادل أبداً. أُريه لوحاتي فيقول مُذهلة، تَسحرني، جُمَلٌ من هذا النوع دائماً بدت لي خانقة. أعرف أنّه كان يقولها من قلبه، لكن ومع ذلك كانت تخنقني، يبقى بعدها صامتاً،

---

(١) Arte povera الفن الفقير هي مدرسة فنية ظهرت في ستينيات القرن العشرين وانطلقت من إيطاليا على يد جيرمانو تسلانت (١٩٤٠). تعتمد المواد المستهلكة مثل جذوع الأشجار وأكياس القنّب والدهون وأوراق الخشب والحجارة والصخور إلخ...

يُدخّن وأنا أُحَضّر شاياً أو قهوةً أو أُخرِجُ زجاجةَ ويسكي. لا أعرف، لا أعرفُ، كنتُ أفكِّرُ، قد أكون أعمل عملاً جيّداً، ربّما كنتُ على الطريق الصحيح. الفنون التطبيقية في الجوهر غير مفهومة. أو أنّها مفهومة إلى حدٍّ أنّ أحداً وأنا أولهم، لا يقبل القراءةَ الأوضح. كان أرتورو في ذلك الوقت ينامُ عرضياً مع صديقتي. أي أنّه كان يعرف أنّها صديقتي، كيف لن يعرف إذا كنتُ أنا من قدّمَها له، ما لم يكن يعرفه هو أنّها كانت *صديقتي الحميمة*. كان ينام معها من حين لآخر، لِنَقُلْ مرّةً في الشهر. كنتُ أستظرف ذلك. في بعض الجوانب يمكن أن يصل حدَّ أن يكون ساذجاً جدّاً. كانت صديقتي تعيش في شارع دِنيا، على بعد خطوات قليلة من بيتي، وكان معي مفتاح بيتها وكنتُ أَمْثُلُ أحياناً هناك في الثامنة صباحاً، لأبحث عن شيءٍ لأجل درسٍ لي، نسيتُه هناك وأجدُ أرتورو في السرير أو يُحَضّر الفطورَ وكان ينظر إليّ كما لو أنّه يتساءل هل هي صديقته أو *صديقته الحميمة*؟ كنتُ أستظرفه. صباح الخير، يا أرتورو، أقولُ لهُ وكان عليّ أحياناً أن أقوم بجهد كيلا أضحك. أنا أيضاً كنتُ أنام مع صديقة أخرى، لكنّني كنتُ أنامُ مع هذه أكثر بكثير مما كانت تنام صديقتي مع أرتورو. رُبَّما. الحياةُ مليئة بالمشاكل، على الرغم من أنّ الحياةَ في برشلونة كانت في تلك السنوات رائعة وكنّا نُسَمّي المشاكلَ مفاجآت.

جاءت بعدها الخيبةُ، كنتُ أُدرّس في الجامعة ولم أكن مرتاحاً. لم أكن أُريدُ أن أوضّح بواسطة أعمالي طروحاتي النظرية. كنتُ أُعطي دروساً وألتقي برفاقي في مجموعتين واضحتَي التباين: مجموعة النصابين (العاديين والأوغاد)، ومجموعة من كان عندهم خلفَ الطاولة عملاً فنّياً يسير بشكل حسن أو سيّئ إلى جانب عملهِ التدريسي. وفجأة انتبهتُ إلى أنّني لا أريدُ أن أكونَ في أيٍّ من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المجموعتين واستقلتُ. رحت أُعطي دروساً في معهد. يا للراحة. هل كنتُ كمن خُفّضت رتبتُهُ من ملازم إلى رقيب؟ ربّما. ربّما إلى عريف. على الرغم من أنّني لم أكن أشعر بنفسي ملازماً ولا رقيباً ولا عريفاً، بل حفّارَ آبارٍ أو عاملَ تنظيفِ بالوعاتٍ، عامل طريق ضائعاً أو مهمّشاً عن سربِهِ. طبعاً، وعلى الرغم من أنّ الانتقال في الذكرى من حالة إلى أخرى يكتسبُ ألوان الحتميّ والمفاجئ الفجّة والحشيّة، إلاّ أنّ إيقاعَ هذه الأحداث كان أكثر اعتدالاً بكثير. تعرّفتُ على مليونير كان يشتري أعمالي. ماتت مجلّتي من سوء التغذية وانعدام الرغبة. شرعتُ بمجلاتٍ أخرى. أقمتُ معارض. لكن كلّ هذا ما عاد له وجود الآن: بل هو يقينُ كلامي أكثر مما هو يقين حياتيّ. الصحيح هو أنّه جاء يوم انتهى فيه كلُّ هذا وبقيت وحدي مع لوحة بيكارابيا المزورة كخريطة وحيدة، كمقبضٍ شرعيّ وحيد. يستطيع عاطل عن العمل أن يواجهني بأنّني على الرغم من أنّني ملكتُ كلَّ شيء، إلا أنّني لم أكن قادراً على أن أكون سعيداً. كان باستطاعتي أن أواجِهَ القاتلَ بفعلهِ وهذا يستطيع أن يواجه المنتحرَ بحركتهِ الأخيرة اليائسة أو الغامضة. الصحيح هو أنّه جاء يومٌ انتهى فيه كلّ شيء ورحت أنظرُ حولي. توقّفتُ عن شراءِ ذلك الكم من المجلاّت والصحف. توقّفتُ عن إقامةِ المعارض. بدأتُ أعطي دروساً في الرسم في المعهد بتواضعٍ وجدّيةٍ بل وبشيء من روح الدعابةِ (على الرغم من أنّني لا أتبجح بذلك). كان أرتورو قد اختفى منذ زمن طويل من حيواتنا.

أجهلُ دوافعَ اختفائه. انزعجَ ذات يوم من صديقتي لأنّه عرف أنّها صديقتي الحميمة أو ربّما نام مع صديقتي الأخرى وهذه قالت له يا غبيّ، ألم تنتبه إلى أنَّ صديقة غيّيم هي *صديقته الحميمة*؟ أو شيئاً من هذا القبيل، الأحاديث في السرير تتراوح بين اللغز والشفافية. لا

أدري، أيضاً لا يهمّ. فقط أعرفُ أنّه رحل وبقيتُ وقتاً طويلاً لا أراه. أنا، صحيح لم أُرِدْ أن يحدث ذلك. أحاولُ أن أحتفظ بأصدقائي. أحاول أن أكون لطيفاً واجتماعياً، أحاول ألّا أنتقل من الكوميديا إلى المأساة، فهذا ما تتكفّل به الحياة. بالخلاصة اختفى أرتورو ذاتَ يوم. مرّت السنون ولم أره بعدها. إلى أن قالت لي صديقتي ذات يوم: احزرْ من هتف لي هذه الليلة. كان بودّي أن أقول لها: أرتورو بِلاّنو، كان ظريفاً أن أحزرَ من أوّلِ مرّة، لكنّني قلتُ اسماً آخر، استسلمتُ بعدها. ومع ذلك حين قالتْ هي أرتورو سُعدتُ. كم من السنوات مرّت لم نره فيها؟ كثيرة، كثيرة إلى حدّ أنّ من الأفضل ألا نعدّها، ألا نتذكرها، على الرغم من أنّني كنتُ أنا أتذكرها سنةً بسنة. هكذا ظهر أرتورو في بيت صديقتي وهذه هتفت لي وخرجتُ أنا من بيتي وذهبت لأراه. ذهبت بخطوٍ سريع، ذهبت راكضاً. لا أدري لماذا رحتُ أركض، لكنَّ الأكيدَ هو أنّني فعلتُ. كانت الساعة تُقاربُ الحاديةَ عشرة ليلاً وكان الطقسُ بارداً وحين وصلتُ رأيتُ شخصاً تجاوزَ الأربعين من عمره، مثلي، وشعرتُ بنفسي بينما أنا أتقدّم منه، مثل *العاري يهبط درجاً*[(١)]، على الرغم من أنّني أعتقد أنّني لم أكن أهبط أيَّ درج.

التقينا بعدها عدّةَ مرّاتٍ. ظهر ذات يومٍ في مرسمي. كنتُ جالساً أتأمّلُ لوحةً صغيرةً جدّاً موضوعة بجانب أخرى يتجاوز حجمها الثلاثة أمتار طولاً ومترين عرضاً. نظر أرتورو إلى اللوحة الصغيرة واللوحة الكبيرة وسألني ماذا كانتا تمثلان. ماذا تعتقد أنت؟ سألتُ أنا. مستودع عظام، قال هو. وبالفعل كان مستودع عظام. كنتُ وقتذاك نادراً ما أرسم ولا أعرض شيئاً. أولئك الذين كانوا

(١) لوحة للفنان الفرنسي الشهير مارسيل دو شامب (١٨٨٧-١٩٦٨).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مُلازِمين معي، صاروا الآن نقباء، وعقداء بل ووصل واحدٌ منهم إلى رتبة لواء أو ماريشال، عزيزي ميغِليتو. آخرون ماتوا بالسيدا أو بالجرعات الزائدة أو بتليّف الكبد، أو ببساطة اعتُبِروا مفقودين. كنتُ ما أزال حافر آبار، أعرف أنّ هذا الوضع يفتح المجالَ لتفسيرات مختلفة، أغلبُها يقود إلى حقلٍ كلّ شيء فيه غامِض وحالتي لم يكن فيها أدنى غموض. كنتُ أشعرُ بنفسي في وضع جيّد إلى حدٍّ معقول، كنتُ أبحثُ، أنْظرُ، أنظرُ إلى نفسي أنظرُ، أقرأ، أعيشُ مرتاحَ البال. أُنتجُ قليلاً. ربّما كان هذا مهمّاً. كان أرتورو بعكسي، ينتج كثيراً. ربّما التقيتُ به وأنا أخرج من المصبغة. كنتُ ذاهباً إلى بيتي. ماذا تفعل؟ سألني. ها أنتَ ترى، أجبته، أخرج مع ثيابي النظيفة. أوليس عندك غسّالة في البيت؟ سألني. تعطّلت منذ خمس سنوات تقريباً، قلت له. خرج أرتورو في ذلك المساء إلى المنور وراح ينظر إلى غسّالتي. أنا حضّرتُ شاياً (وقتها كنتُ لا أكاد أشرب شيئاً) وبقيتُ أنظر إليه بينما هو ينظر إلى الغسّالة. للحظةٍ فكّرتُ أنّه سيُصلحها. ولو فعل ما كان ليبدو لي شيئاً عجيباً، لكن فعلاً كنتُ سأُسَرّ. في النهاية بقيت الغسّالة ميتة كما كانت دائماً. حكيتُ له مرّة أخرى عن حادثٍ جرى معي. أعتقد أنّني حكيتُهُ له لأنّني انتبهت إلى أنّه كان ينظر خلسةً إلى نُدُبي. وقع الحادث في ميورقة. حادث سيارة. كنتُ على وشك أن أفقدَ ذراعيَّ وفكّي. في بقية جسمي بالكاد كان هناك بضعة خدوش. حادث غريب، أليس صحيحاً؟ غريب جدّاً، قال أرتورو. هو أيضاً حكى لي أنّه دخل المشفى في ستّ مناسبات خلال سنتين. في أيّ بلد؟ سألتُهُ. هنا، في بايٍّ هِبرون[١] وقبلها في جوسي ترِوتا في خيرونا. ولماذا لم تُخبرنا؟ كنّا ذهبنا وزرناك. حسن، ليس

(١) وادي الخليل.

له أهميّة. سألني مرّة عمّا إذا لم أشعر بنفسي مكتئباً. لا، قلتُ له، أشعر أحياناً بنفسي مثل *العاري يهبط درجاً*، وهو إحساس لطيف إذا كنتَ في اجتماعٍ مع أصدقاء، وليس لطيفاً إلى هذا الحدّ إذا كنتَ تسير في جادّة غراثيا، مثلاً، لكنّني بشكل عام أشعر بنفسي مرتاحاً.

جاء ذات يوم قبل أن يختفي آخر مرّة إلى بيتي وقال لي: سوف يُوَجّهون لي نقداً سيئاً. حضّرت له الزهورات ولزمتُ الصمت، وهو ما يجب أن نفعل، أعتقد، عندما يكون علينا أن نسمع قصّة، حزينة كانت أم سعيدة. هو أيضاً لزم الصمت وبقينا برهة هكذا، هو ينظرُ إلى زهوراته أو إلى شرائح، الليمون التي كانت تطفو فوق الزهورات وأنا أُدَخّن سيجارة دوكادوس، أظنّ أنّني واحد من قلّة من أبناء جيلي الذين ما يزالون يُدخّنون دوكادوس، حتى أرتورو يُدخّن الآن تبغاً أشقرَ خفيفاً فوق العادة. بعد برهة، قلتُ، كي أقول شيئاً: هل ستبقى لتنام في برشلونة؟ وهو نفى برأسه، حين كان يبقى لينام في برشلونة كان ينام في بيت صديقتي (في غرفتين منفصلتين، وإن كان هذا التدقيق يُعَكِّرُ كلّ شيء) وليس في بيتي، كنّا نتعشّى معاً، هذا صحيح، وكنّا نخرج أحياناً نحن الثلاثة لنقوم بجولةٍ في سيّارة صديقتي. في النهاية سألته عمّا إذا كان سيبقى لينام وهو قال إنّه لا يستطيع، وإن عليه أن يعود إلى البلدة حيث يسكن، بلدة ساحلية على بعد أكثر من ساعة بقليل في القطار. وعندها عدنا مرّةً أخرى لنلزم الصمتَ، ورحتُ أنا أُفكِّر بما كان قد قاله عن نقد سيّئ، وبالرغم من كلّ ما فَكَّرتُ به لم أفهم شيئاً، لذلك توقّفت عن التفكير، ورحت أنتظرُ، وهو ما يفعله بعكس كلِّ تَوَقُّعٍ *العاري الذي يهبط درجاً*، وفي هذا بالضبط يكمن نقده الغريب.

بقيتُ برهة كان الشيء الوحيد الذي سمعتُهُ فيها هو الضجيج التي كان يُحدثه أرتورو عند شربه للزهزرات، أصوات مُطفئة مصدرها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشارع، المصعد الذي صعدَ ونزل مرّتين. وفجأةً حين لم أعد أُفكّر ولا أسمع شيئاً، سمعته يُرَدّدُ أنّ ناقداً سوف ينقده نقداً لاذعاً. ليس لهذا أهميّة زائدة، قلتُ له، إنّها من أدوات المهنة. بلى لها أهميّة، قال هو. أنتَ لم يهمّك هذا قطّ، قلتُ. الآن يهمّني، يبدو أنّني أتبرجز، قال هو. وضّحَ لي بعدها أنّ كتابَيهِ ما قبل الأخير والأخير كان فيهما تشابهات تدخل مجال ألعاب فكِّ الرموز المستحيلة. كنتُ قد قرأتُ كتابَهُ ما قبل الأخير وأعجبني ولم يكن عندي أدنى فكرة عن موضوع كتابه الأخير، لذلك لم أستطيع أن أقول له شيئاً بهذا الخصوص. فقط أن أسأله: ما نوع التشابهات. ألعاب، يا غييم، ألعاب. *العاري* اللعين *الذي يهبط* درجاً، تزويراتك اللعينة للوحات بكابيا، ألعاب. لكن أين المشكلة؟ سألتُ. المشكلة، قالَ، هي أنّ الناقد، شخص يُدعى إنياكي إتشابارْنِ، سمكة قرش. هل هو ناقد سيّئ؟ سألتُ. لا، إنّه ناقدٌ جيّد، قالَ، على الأقل ليس ناقداً سيّئاً، لكنّه سمكة قرش لعينة. وكيف تعرف أنّه سيكتبُ عن كتابكَ الأخير، إذا كان لم يصدر بعد وليس في المكتبات؟ لأنّه منذ أيام بينما كنتُ في دار النشر، هتفَ لرئيسةِ قسم الصحافة وطلب منها روايتي السابقة. وماذا في الأمر؟ سألتُ. أنا كنتُ هناك، أمام رئيسةِ قسم الصحافة، وهذه قالت له أهلاً، يا إنياكي، يا للمصادفة، أرتورو بِلانو ذاته هنا، أمامي، والديوث إتشابارنِ لم يقل شيئاً. وماذا كان عليه أن يقول؟ مرحباً، على الأقل، قال أرتورو. وكيف لم يقل شيئاً؟ أنت تستخلصُ الاستنتاجَ الذي سوف يُدمّرك، قلتُ. وماذا لو دمّرك؟ سيّان! انظرْ، قال أرتورو، إتشابارنِ تشاجرَ منذ وقت قصير مع كاتون الأدبِ الإسبانيّ، هل تعرفه؟ أَوْرِليو باكا، هل تعرفه؟ لم أقرأهُ، لكن أعرف من يكون، قلتُ. كلّ شيء يعود إلى نقد قام به إتشابارْنِ حول كتابِ صديقٍ لباكا، لا أعرف ما إذا كان النقدُ مُبرَّراً أم

لا، أنا لم أقرأ الكِتاب. الشيء الوحيد الأكيدُ هو أنّ ذلك الروائي كان عنده باكا يُدافِعُ عنه. والنقد الذي خصَّ به الناقدَ كان من النوع الذي يجعلك تبكي. حسن، أنا الآن لا يوجدُ عندي أيّ مُدَاهِنٍ يُدافع عنّي، لا أحد إطلاقاً، وهكذا فإنّ باستطاعة إتشابارْنِ أن يُنَكِّلَ بي بكل هدوء. ولا حتى أَورِليو باكا يستطيع أن يُدافع عنّي، إذ أنّني في كتابي، ليس في الكتاب الذي سيصدر، بل في الكتاب ما قبل الأخير، أسخرُ منه، وإن كنتُ أشكّ بأن يكون قد قرأه. أنتَ تسخرُ من باكا؟ أضحكُ منه قليلاً، قال أرتورو، وإن كنتُ لا أظنّ أنّه سينتبه لا هو ولا أحد غيره. هذا ما يستبعد باكا كمدافعٍ عنك، اعترفتُ، بينما كنتُ أنا أيضاً أفكّرُ أنّني لم ألتقط تلك السخرية التي يبدو أنّها تشغل صديقي الآن. هذا هو الأمر، قال أرتورو. ليُنكّل إتشابارنِ، قلتُ أنا، ما همّ، فهذا كلّه ليس أكثر من ترّهات، يجب أن تكون أنتَ أوّل من يعرف ذلك. جميعنا سوف نموت، فكّر بالخلود. لكنّ المسألة هي أنّه لا بدّ أنّ إتشابارْنِ يرغب بأن ينتقم من أحدٍ ما، قال أرتورو. هل هو سيّئ إلى هذا الحد؟ سألتُ أنا. لا، لا، هو طيّبٌ جدّاً، قال أرتورو. إذن؟ ليست هذه هي المسألة، هي مسألة تمرين العضلات، قال أرتورو. عضلات الدماغ؟ سألتُ أنا. عضلات جزءٍ ما، وأنا سأكونُ أداة تمرين إتشابارْنِ لجولته الثانية أو جولته الثامنة مع باكا، قال أرتورو. فهمتُ، النزاع قديم، قلتُ أنا. وأنتَ، ما علاقتُك بكلّ هذا؟ لا شيء، أنا فقط سأكونُ مادّة للتمرين، قال أرتورو. مكثنا برهة لا نتكلّم، نُفكّرُ، بينما المصعد يهبط ويصعد والضجة التي يُحدثها كانت مثل ضجّة السنين التي لم نلتقِ فيها. سوف أتحداهُ حتى الموت، قال أرتورو أخيراً، هل تريدُ أن تكون عرّابي؟ هذا ما قاله. شعرت كما لو أنّهم يغرزون فيّ حقنة. شعرت أوّلاً بالوخزة، ثمّ بالسائلِ الذي كان يدخل ليس في شراييني بل في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عضلاتي، سائل بارد جدّاً يثير قشعريرة. بدا لي الاقتراح جنونيّاً ومجانياً. لا أحد يتحدّى أحداً على شيء لم يفعله بعد، فكّرتُ. لكنّني فكّرتُ بعدها بأنّ الحياةَ (سرابها) تتحدّانا باستمرار على أعمالٍ لم نقم بها قط، على أعمالٍ لم يخطرْ قط ببالنا أن نفعلها. كان جوابي تأكيديّاً وعلى الفور فكَّرتُ أنّ من الممكن أن يوجد في الأبديّةِ فعلاً، أو أنّه سيوجد *العاري الذي يهبط الدرج* أو ربّما *البلور العظيم*[1]. ثمّ فكّرتُ: وماذا لو كان تقريظ الكتاب جميلاً؟ وماذا لو أنّ روايةَ أرتورو أعجبت إتشابارْنِ؟ ألن يكون تحديه بالمبارزة عملاً ظالماً ومجانيّاً؟

شيئاً فشيئاً راحت تُطرَحُ في داخلي تساؤلاتٌ عديدة، لكنّني قرّرتُ أنّ اللحظة ليست لحظة أن يظهر المرءُ رصيناً. لكلٍّ شيء ساعته. الشيء الأوّل الذي تناقشنا فيه كان الأسلحة التي ستُستَخدم. أنا اقترحتُ بالوناتٍ منفوخة بالماء والصباغ الأحمر. أو معركة بالقبعات. أصّر أرتورو أن تكون بالسيوف. مبارزة حتى أوّل جرح؟ اقترحتُ، بشقّ النفس، وإن كنتُ أزعمُ أنّه ارتاح، قبل أرتورو اقتراحي. بحثنا بعدها عن السيوف.

كانت خطّتي الأولى أن نشتريها من حوانيتِ السياح تلك التي تبيع سيوفاً بدءاً من السيوف الطليطلية وحتى سيوف الساموراي، لكن صديقتي التي أحيطت علماً بنوايانا، قالت إنّ والدها، المتوفّى تركَ سيفين، وهكذا ذهبنا لنراهما والنتيجة أنّهما كانا سيفين حقيقيّين. بعد تنظيفهما عن وعي، قرّرنا استخدامهما. بحثنا بعدها عن المكان المثالي. أنا اقترحتُ لا ثيودادِلا، في الثانية عشرة ليلاً، لكنّ أرتورو

---

(١) عمل للفنان الفرنسي مارسيل دو شامب (١٨٨٧-١٩٦٨) معروف أيضاً باسم العروس المعراة من قبل عزّابها.

مالَ إلى شاطئ عراةٍ في منتصفِ الطريق بين برشلونة والبلدة التي يعيش فيها. حصلنا بعدها على هاتف إنياكي إتشابارنِ وهتفنا له. استغرق معنا وقتاً إقناعه بأنّها لم تكن مزحة. بالمجمل تكلّمَ معه أرتورو ثلاث مرّات. وفي النهاية قال إنياكي إتشابارنِ إنّه موافق وطلب أن نُعلمه باليوم والساعة. يوم المبارزة أكلنا في مطعم في سانت بول دِ مار حباراً صغيراً مقلياً وقريدساً. ذهبنا أنا وأرتورو ورفيقتي (التي رافقتنا إلى هناك، لكنّها لم ترغب بحضور المبارزة). كان الطعامُ، أعترفُ، جنائزياً وكان أرتورو قد قطع بطاقةَ سفر بالطائرة وأرانا إياها. فكّرتُ أنّها ستكون تذكرة سفر إلى تشيلي أو المكسيك وأنّ أرتورو كان بطريقة ما يودّع كتلونيا وأوروبا. لكنّ التذكرة كانت لرحلةٍ إلى دار السلام مع مخطّتين في روما والقاهرة. عندها عرفت أنّ صديقي قد جُنّ تماماً وأنّه إذا لم يقتلهُ الناقدُ إتشابارنِ بطعنةِ سيفٍ في رأسه سيأكلهُ النملُ الأسود أو النملُ الأحمر في أفريقيا.

خاوم بلانِلْز، بار سالامبو، شارع تورِّيخوس، بارثِل، حزيران ١٩٩٤.

هتف لي ذاتَ صباح صديقي وزميلي إنياكي إتشابارنِ وقال لي إنّه بحاجة إلى عرّابٍ من أجل مبارزة. كنتُ أعاني قليلاً من خُمار ولذلك لم أفهم في البداية ما كان يقولُهُ لي إنياكي، إضافة إلى أنّه لم يكن عاديّاً أن يهتف إليّ وخاصّة في مثل تلك الساعة. بعدها حين شرحَ لي الأمرَ فكّرت أنّه يسخر مني وسايرته، فهم عادة ما يسخرون منّي، وهذا ليس أمراً يزعجني، ثمّ إنّ إنياكي شخصٌ غريب الأطوار قليلاً، غريب الأطوار لكنّه جذّاب، من النوع الذي تجده النساء وسيماً جدّاً ويجده الرجال ظريفاً، ربّما مهيباً قليلاً ويعجَبون به في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سرّهم. كانت قد جرت منذ فترة مشاجرةٌ بينه وبين أَوْرِليو باكا، الروائيّ المدريدي الكبير، وبالرغم من أنّ باكا أمطره رعوداً وبروقاً، ولعناتٍ أيضاً، إلا أنّ إنياكي خرج متعادِلاً، لِنَقُلْ، من اللقاء العدواني.

الغريب كان أنّ إنياكي لم ينتقد باكا، بل صديقاً له، لذلك نستطيع أن نتصوّر ما كان سيجري لو أنّه تورّط مع الرجل المدريدي الجليل. كانت المشكلةُ، بحسب فهمي المتواضع، تكمن في أنّ باكا كان نموذج الكاتب أونامونو، المتكرّر في السنوات الأخيرة كثيراً، الذي كان يُطلق عند أوّل تغييراتٍ خطابه المسهب غير المناسب المليء بالدروس الأخلاقية، الخطاب الإسباني المثاليّ النزق، خطاب الإحساس المشترك أو الخطاب القدسيّ، وكان إنياكي الناقد النموذجي المُستَفِزّ، الناقد المُستفِز، الناقد الكاميكازي، الذي يستمتع بخلق الأعداء، وكثيراً ما كان يتورّط حتى النخاع. حتماً كان سيصطدم بأحدٍ في لحظة ما. أو أنّ باكا كان سيصطدم بإتشابارنِ، يدعوه للانضباط، ويشدّه من أذنيه، يصفعه لا رقبته، شيء من هذا القبيل. ومع ذلك فالاثنان ينتميان وسط موحلة تلك الموحَلة التي هي في كلّ يومٍ أكثر غموضاً، ونسميها اليسار.

ولذلك حين وضَّح لي إنياكي موضوعَ المبارزة، ظننتُهُ يمزح، فالغضب الذي أطلق باكا له العنان لا يمكن أن يكون قويّاً إلى حدّ يجعل المؤلفين يقتصان بأيديهما، وفوق ذلك بطريقة ميلودرامية. لكنّ إنياكي قال لي ليست هذه هي المسألة، تلعثم قليلاً، قالَ هذه مسألة أخرى وإنّه كان عليه أن يقبلَ المبارزة (إمّا أنّني أخطئ جدّاً وإمّا أنه ذكرَ *العاري الذي يهبط الدرج*، لكن ما علاقة بيكاسو بهذه المسألة؟) وأن أقولَ له إن كنتُ مستعداً أم لا لأكون عرّابَهُ في المبارزة، إذ لا وقت عنده ليضيعه فالمبارزة ستقام في ذلك المساء ذاته.

لم يبق أمامي مجال غير أن أقول له بلى، طبعاً، أين سنلتقي، وفي أيِّ ساعة، على الرغم من أنّني رحت بعد أن أغلق إنياكي الهاتف، أُفكّر أنّني ربّما وسّختُ نفسي بشيء خطير، أنا الذي أعيشُ إلى هذا الحدّ أو ذاك بشكل جيّد وأحبُّ مثل كلِّ خلق الله المزاح المتقن من حين إلى آخر، لكن دون تمادٍ، من المحتمل أنّني أتورّط في واحدة من المشاكل العويصة التي تنتهي نهاية سيّئة. وبعدها، وللطامة الكبرى رحت أفكّر وأتفكّر (هذا ما لا يجب أن يفعله المرء في مثل هذه الحالات أبداً، قطعاً أبداً) ووصلت إلى نتيجة مفادها أنّ من الغريب أن يهتف لي إنياكي، أنا الذي لستُ واحداً من أكثر أصدقائه حميميَّةً كي أصبح عرّابَهُ في مبارزة، نحن زملاء في الصحيفة ذاتها، نلتقي أحياناً في مطعم جياردينِتّو أو سالامبرو أو في بار لايي، لكنّنا لا، لسنا صديقين، بمعنى الصديقين.

وبما أنّه لم يبقَ غير بضع ساعات على المبارزة، هتفتُ إلى إنياكي، لأرى ما إذا كنت سأجده، لكن لا، يبدو أنّه هتفَ لي وخرج على الفور، لا أدري، ليكتبَ آخرَ مقالٍ له أو إلى أقرب كنيسة، وهكذا هتفتُ بعد أن حزم الأمر إلى كيما كونيسترول، على جوّالها، كانت مثل ومضة مرّت بذهني، إذا ما ذهبتُ مع امرأة لن تكون الأشياء بمثل تلك البذاءة، على الرغم من أنّني بالطبع لم أقل لكيما الحقيقة، قلتُ لها يا كيما أنا بحاجة إليك، يا وديّ، عندي أنا وإنياكي اجتماع ونريدك أن تأتي معنا، سألتني كيما في أيّ ساعة، وأنا قلتُ الآن يا قلبي، وكيما قالت لا بأس، مُرّ وخذني من الكورت إنكلِس، أو شيئاً من هذا القبيل. حين أغلقت الهاتفَ حاولت أن أتصل بصديقين أو ثلاثة آخرين، فجأة شعرت بنفسي أكثر عصبية من المعتاد، لكنّني لم أجد أحداً.

في الخامسة والنصف رأيت كيم تُدخّنُ سيجارة في زاويةِ ساحة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أوركيناونا وباو كلاريس، قمتُ بحركة خجولة إلى حدٍّ ما وبعد ثانية كانت الصحفية الحصيفة في المقعد بجانبي. بينما راحت تزمر لنا مئات السيارات ورأيتُ من خلال المرآة الأمامية طيفَ شرطيٍّ مرورٍ متوعّدٍ فضغطت على دواسة السرعة وانطلقنا باتجاه الطريق 9A1، باتجاه مارِسم. طبعاً. سألتني كيم أين خبّأت إنياكي، الذي كانت له جاذبية لا تُصدق عند النساء، يجب الاعتراف بذلك، وهكذا اضطررتُ لأن أقولَ لها إنّه ينتظرنا في بار لوس كالامارِ فليثِس، الموجود في ضواحي سانت بول دِ مار، بالقربِ من شرمٍ يتحوّلُ في الربيع والصيف إلى شاطئ للعراة. بقيّةُ الرحلة، لم تصل إلى عشرين دقيقة، سيارتي البيجو تسير بسرعة أيلٍ، قطعتُها على جمرٍ أستمعُ إلى قصص كيما دون أن أعثرَ على اللحظةِ المناسبة كي أعترفَ لها بالسبب الحقيقيّ الذي يقودنا إلى مارِسمِ.

ولطامةِ السوءِ الكبرى ضعنا في سانت بول. كان علينا، بحسب بعض أبناء المنطقة، أن نخرج كما لو أنّنا ذاهبان إلى كالِيّا، لكن على بعد مئتي متر، بعد محطةِ المحروقات، كان علينا أن ننعطف إلى اليسار كمن يذهب إلى الجبل ثم ننعطفُ مرّة أًخرى نحو اليمين، نعبر النفق، لكن أيّ نفق؟ ونخرج مرّة أخرى إلى طريق بجانب الشاطئ، حيث يرتفعُ وحيداً وموحشاً المحلُّ المعروفُ بـ لوس كالامارِس فليثِس. تناقشنا أنا وكيما نصفَ ساعة وتشاجرنا وأخيراً عثرنا على البار المذكور. وصلنا متأخِرَيْن واعتقدت للحظة أنّ إنياكي لن يكون موجوداً، لكن أوّل ما رأيتُ كانت سيارته، الساب الحمراء، في الحقيقة الشيء *الوحيد* الذي رأيته هي سيارته الساب الحمراء، المصفوفة في منطقة رملٍ وجنبات، يليها البناء الموحشُ، بار لوس كالامارِس فِليثِس بنوافذه المتسخة. صففتُ السيارة بجانب سيارة أنياكي وضغتُ على الزمور. ودون أن نقول كلمة قرّرنا أنا وكيما أن

نبقى في السيارة. بعدها بقليل رأينا إنياكي يظهرُ على الجانب الآخر من المطعم. بعكس ما كنتُ أتوقّع لم يعتب علينا لتأخُّرِنا، كما لم يبدو أنّه غضبَ عندما اكتشف كيما. سألته أين الخصم فابتسم إنياكي وهزّ كتفيه. رحنا بعدها نحن الثلاثة نسير نحو الشاطئ. حين علمت كيما بسببِ وجودنا هناك (إنياكي هو من حكاه لها، بطريقة موضوعية وواضحة، بكلماتٍ قليلة، ما كنتُ لأقدر عليها) بدت مثارة كما لم تكن قط وتيقنت للحظة أنّ كلّ شيء سينتهي بخير. ضحكنا نحن الثلاثة برهة. لم يكن يُشاهَد مخلوق على الشاطئ. لم يأتِ، سمعت كُيما تقولُ بنبرةِ انزعاجٍ خفيفة.

من طرف الشاطئ الشمالي ومن بين بعض الصخور ظهرت هيئتان. خفق قلبي. العراك الوحيد الذي وجدتُ نفسي متورّطاً فيه كان حين كنتُ في الحادية أو الثانية عشرة من عمري ومنذ ذلك الوقت تجنّبت دائماً أعمالَ العنف. ها هما هناك، قالت كيما. نظر إنياكي إليّ ثم نظر إلى البحر، عندها فقط عرفت أنّ المشهدَ لا شكّ سيكون فيه شيء مثير للسخرية حتماً، وأنَّ السخرية لم تكن سوى وجودي هناك. تابعت الهيئتان اللتان خرجتا من بين الصخور تقدمهما على ضفَّةِ الشاطئ وتوقّفا أخيراً على بعد قرابة المائة متر، الكافية كي نرى أنّ إحداهما كانت تحمل بين ذراعيها حزمة يبرز منها رأسا سيفين. الأفضل أن تبقى كيما هنا، قال إنياكي. توجّهنا بعد أن سمعنا احتجاجات واستنكارات رفيقتنا ببطء إلى لقاء ذلك الثنائي المجنون. هكذا إذن ستواصل هذه الحماقة طريقها؟ أتذكّر أنّني قلتُ له بينما كنّا نمشي على الرمل، إذن ستحصل هذه المبارزة في الواقع وليس في الخيال؟ هكذا إذن اخترتني كشاهد على هذا الجنون؟ لأنّني حدستُ في تلك اللحظة أو تكشّفَ لي أنّ إنياكي اختارني لأنّ أصدقاءه الحقيقيّين (هذا إذا كان له أصدقاء حقيقيّون، ربّما جورجي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لوفِت، ومثقف ما من هذا النوع) كانوا سيرفضون رفضاً قاطعاً أن يُشاركوا في مثل هذه الحماقة وهو كان يعرف والجميع كانوا يعرفون ذلك، باستثنائي أنا، كاتب الزاوية الأحمق وفكّرتُ أيضاً: يا إلهي، الذنب كلّه ذنب الديوث باكا، لو لم يُهاجم إنياكي، لما كان ليحدث هذا الآن، بعدها لم أستطع أن أُفكر أكثر، لأنّنا كنّا قد وصلنا إلى جانب الاثنين الآخرَيْن وسأل واحد منهما من منكما إنياكي إتشابارنِ؟ وعندها نظرت إلى وجه إنياكي بخوف مفاجئ من أن يقول إنّني أنا هو (تصوّرتُ في تلك اللحظةِ وأنا على أعصابي، إنياكي قادراً على فعل كلّ شيء)، لكنّ إنياكي ابتسم، كما لو أنّه كان في غاية السعادة، وقال إنّه هو وعندها نظر إليّ الآخرُ وقدّم نفسه، قال: أنا غيّم بينيا، العرّاب، وأنا سمعتُ نفسي أقول: مرحباً، أنا خاومِ بانِلز، العراب الثاني، وبصراحة الآن وأنا أتذكّر بي رغبة بأن أتقيّأ أو أن أرمي بنفسي على الأرض وأنفجر من الضحك، لكن ما شعرت به كان بالأحرى مغصاً في معدتي، وبرداً، لأنّ الطقس كان عمليّاً بارداً ولا يوجد غير بضعة خيوط شمسِ غروبٍ تضيء الشاطئ، ذلك الشاطئ الذي كان الناس في الصيف يتعرّون فيه تماماً، شروم صغيرة ومناطق صخرية، لا يراها غير ركّابِ قطار الساحل الذين لم يكن المشهدُ يلفتُ انتباههم، هي الديمقراطية والحضارة، لو كان هذا في غاليثيا لأوقفَ الركّابُ القطارَ ونزلوا وخصوا العراةَ، أخيراً كنتُ أُفكّر في هذه الأشياء وأنا أقولُ مرحباً، أنا خاومِ بانِلز، العرّاب الثاني.

وهنا فتح المدعو غيّم بّينيا الحزمةَ التي كان يحملها بين يديه وتعرَّ السيفان، حتى أنّني رأيتُ نوراً خافتاً على شفرتيهما، هل هما من الفولاذ؟ من البرونز؟ من الحديد؟ أنا لا أعرف شيئاً عن السيوف، لكّني بلى أعرف ما يكفي كي أُدرِكَ أنّهما لم يكونا بلاستيكيين، وعندها مددتُ يداً ولمستُ بأنامل أصابعي الشفرتين،

المعدنيتين، طبعاً، وحين سحبتُ يدي عدتُ ورأيت البريق، كان بريقاً ضعيفاً جدّاً يطلقانه كما لو أنّهما يستيقظان الآن، على الأقل هذا ما كان سيقوله أصدقاءُ إنياكي لو أنّه ملك الشجاعةَ أو النزاهةَ ليطلبَ منهم أن يرافقوه، ولو أنّ هؤلاء، وهذا ما أشكُّ به، رافقوه، تبدو لي أكثر من مصادفة، أو في كلّ الأحوال مركّزة أكثر من اللازم: الشمس التي راحت تختفي وراء الجبال وبريق السيفين، وقتها فقط استطعتُ أن أسأل (أسأل من؟لا أدري، الأكثر احتمالاً، إنياكي نفسه) عمّا إذا كان ذلك جدّياً، عمّا إذا كانت المبارزة جدّية وأن أُحذِّرَ بصوتٍ عالٍ وإن لم يكن موقّعاً بشكل جيّد، أنّني لا أريدُ مشاكل مع الشرطة، ولا بشكل من الأشكال. الباقي كان مشوّشاً. قال بّينيا شيئاً بالميورقية. طلب بعدها من إنياكي أن يختار أحدَ السيفين. أخذ هذا وقته وهو يُقدّر وزنهما، أولاً السيف الأوّل ثمّ الثاني ثم الاثنين معاً، كما لو أنّه لم يفعل طوال حياته شيئاً آخر غير أنّه يلعب لعبة الجنود. ما عاد السيفان يلمعان. الآخر، الكاتب المغبون (لكنّه مغبون ممّن؟ لماذا، إذا لم تكن الدراسة المهينة اللعينة قد ظهرت؟) انتظر حتى اختار إنياكي السيف. كانت السماءُ رمادية حليبية ويهبط من تلال وبساتين الداخل ضباب كثيف. ذكرياتي مختلطة. أعتقدُ أنّني سمعت كيما تصرخ، إنياكي، أو شيئاً مشابهاً. تراجعنا بعدها أنا وبينيا منسحبَيْن كما لو باتفاق ضمنيّ. موجة وديعة بللت فردتَي البنطلون. أتذكّر أنّني نظرت إلى حذائي وأنّني لعنتُ. كما أتذكّر الإحساس بالخنى وعدم الشرعية الذي أحدثه عندي جورباي المبلّلين والصوت الذي كانا يحدثانه عندما أتحرّك. تراجع بينيا نحو الصخور. كيما كانت قد نهضت واقتربت قليلاً من المتبارزين. ضرب هذان سيفيهما الواحد بالآخر. أتذكّرُ أنّني جلستُ على حدبةٍ في الأرض وخلعت فردتي حذائي، وأخرجت منهما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بمنديل الرمل المبلّل بتأنٍّ. رميت بعدها المنديلَ ورحت أنظر إلى خطّ الأفق، الذي كان في كلّ مرّة أكثر ظلمةً إلى أن ارتاحت يدُ كيما على كتفي ووضعتْ يدُها الأخرى في يديّ شيئاً حيّاً ورطباً وخشناً تأخّرتُ في معرفة أنّه يشبه المنديل الذي كان يعود، الذي كانوا يعيدونه إليّ كلعنة.

أتذكّر أنّني خبّأتُ المنديل في جيب من جيوب السترة الأمريكية. بعدها قالت كيما إنّ إنياكي يستعمل السيف كخبير وإنّ المبارزة كانت في كلّ لحظة لصالحه. لكن لو كنتُ أنا لما كنت لأؤكّد مثلها. بدأت المعركة متكافئة. كانت طعنات إنياكي أقرب إلى الخائفة، كان يكتفي بأن يصدم سيفه بسيف خصمه. ويتراجع، دائماً يتراجع، أنا لا أعلم ما إذا كان خوفاً أم لأنّه كان يدرس خصمه. بالمقابل كانت ضربات الآخر في كلّ مرّةٍ أكثر عزماً، ووجّه إليه في لحظة طعنةً، الأولى في كلّ المبارزة، ثبتَ السيف وقدّم الساق اليمنى والذراع اليمنى وكاد رأسُ السيف يُلامس فتحة بنطلون إنياكي. عندها بدا أنّ هذا استيقظ من الحلم اللامعقول الذي كان فيه ودخل فجأة في حلمٍ آخر حيث كان الخطر أكيداً. بدءاً من تلك اللحظة صارت خطواته أرشق بكثير، صار يتحرّك بسرعة أكبر، متراجعاً دائماً، وإن لم يكن بخطّ مستقيم بل بشكل دائريّ بحيث أنّني كنتُ أحياناً أراه من أمام وأخرى من جانبٍ وأخرى من خلفٍ. ماذا كان يفعل المشاهدون الآخرون خلال ذلك؟ كيما كانت جالسة على الرمل خلفي، وكانت تُطلق صيحات تشجيع لإنياكي. بالمقابل كان بّينيا واقفاً، بعيداً كفاية عن الدائرة التي كان يتصارع فيها المتبارزان ويبدو وجهه وجه من هو معتاد على هذا النوع من الأشياء ويشبه أيضاً وجهَ من هو نائم.

في ثانيةِ إستشراف تيقّنتُ من أنّنا جُنِنّا. لكنَّ ثانية الاستشراف

هذه سبقتها ثانية خارقة لاستشراف خارق (إذا ما سمحتم لي التعبير) فكّرتُ فيها بأنّ ذلك المشهد كان النتيجةَ المنطقيةَ لحيواتنا اللامعقولة. لم تكن عقوبةً بل طيّةً تنفتحُ فجأة كي نرى أنفسنا في إنسانيتا العامة. لم تكن برهاناً على خطيئتنا العبثية بل إطاراً لبراءتنا العجائبية وغير المجدية. ليس هذا. كنّا متوقّفين وكانا يتحرّكان ورملُ الشاطئ يتحرّكُ لكن ليس بفعلِ الريحِ بل بفعل ما كانا يفعلانه وما كنّا نفعله نحن، أي لا شيء، أي أنّنا كنّا ننظر، والطيّةُ كانت كلّ ذلك معاً. ثانية الاستشراف الخارق. لا شيء بعدها. ذاكرتي كانت دائماً متواضعة، ما يكفي كي أتدبّر أمري كصحفيّ. هاجم إنياكي خصمَهُ، وهذا هاجمَ إنياكي، انتبهت إلى أنّهما قد يبقيان هكذا ساعاتٍ، إلى أن يُثقل السيفانِ على يديْهما، أخرجتُ سيجارة، لم يكن معي نار، بحثتُ في كلّ جيوبي، نهضتُ واقتربتُ من كيما فقط كي أعرفَ أنّها توقّفت عن التدخين منذ وقت، منذ عام، منذ قرن. فكّرتُ للحظة أن أذهب وأطلبَ ناراً من بّينيا، لكنَّ هذا بدا لي إفراطاً. جلستُ بجانب كيما وتأمّلتُ المتبارزَيْن. كانا ما يزالان يتحرّكان في دوائرَ على الرغم من أنّ تنقّلهما صار في كلّ مرّة أبطأ. أيضاً بدا لي أنّهما يتكلّمان فيما بينهما، لكنّ صخبَ الموجِ كان يخنق أصواتهما. قلتُ لكيما إنّ كلّ ذلك مجتمعاً يبدو لي مسرحية دمى متحرّكة. إطلاقاً لا، أجابتني. ثمّ أضافتْ إنّه كان يبدو لها رومانسياً جدّاً. امرأة غريبة كيما هذه. ازدادت رغبتي بالتدخين. في البعيد كان بّينيا قد جلس، مثلنا على الرملِ ويخرج من بين شفتين سحابةَ دخانٍ أزرق كوبالتيّ. لم أتحمّل أكثر. نهضتُ واتجهتُ نحوه دائراً بحيث لا أكون في أيّ لحظة قريباً من حلبةِ المتبارزين. من فوق تلّ امرأةٌ تراقبنا. مستندة بجذعها إلى مقدّمة سيارة وتصنع من يديها رفرافاً. فكّرتُ أنّها تنظرُ إلى البحر، لكنّني، أدركتُ، طبعاً بعد ذلك، أنّها كانت تنظرُ إلينا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قدّم لي بّينيا قدّاحته دون أن يقولَ شيئاً. نظرتُ إلى وجهه. كان يبكي. انتابتني رغبة بأن أتكلّم، لكنّني حين رأيته فقدتُ الرغبة فجأة. وهكذا عدتُ إلى جانبِ كيما وعدتُ لأنظرَ إلى المرأة، التي كانت وحدها في أعلى التلّ ونظرتُ أيضاً إلى إنياكي وخصمه، الشيء الوحيد الذي كانا يفعلانه هو أنّهما كانا يتحرّكان ويدرسان بعضهما بعضاً أكثر مما كانا يتبارزان. حين ارتميتُ بجانب كيما أحدث جسدي صوتاً كصوت كيس مليء بالرمل. عندها رأيت سيفَ إنياكي، الذي كان يرفعه أكثرَ مما تَنصح به الحصافة أو أفلام الفرسان ورأيتُ سيف خصمه الذي كان يمتدّ حتى يصبح على بعدِ ميليمترات قليلةٍ من قلب إنياكي وأنا أعتقد، على الرغم من أنّ هذا ليس ممكناً، أنّني رأيتُ إنياكي يشحبُ وسمعت كيما تقول، يا إلهي، أو شيئاً مشابهاً، ورأيتُ بّينيا يرمي بسيجارته بعيداً باتجاه التلّ ورأيتُ أنّ على التل لم يعد يوجَد أحد، لا المرأة ولا السيارة، وعندها سحبَ الآخر رأسَ سيفه بحركة مفاجئة وإنياكي تقدّمَ وأنزلَ ضربةً من عرضِ سيفهِ على كتفه، أنا أعتقد أنّه فعلُ ذلك انتقاماً من الخوفِ الذي جعله يمرّ به، وتنفّستْ كيما الصعداء وأنا تنفّست الصعداء وأطلقتُ حلقاتٍ من الدخان في الجوّ المفرّغ من الهواء في ذلك الشاطئ المخيف وحملت الريحُ حلقات دخاني على الفور، لا وقت لشيء، وإنياكي وخصمه يهاجم أحدهما الآخر، واضربني لأضربك مثل طفلين غبيين.

٢٣

إنياكي إتشابارن، بار غياردينِتّو، شارع غراناد دِل بّنِدِس، برشلونة، تموز ١٩٩٤.

يرافق النقدُ العملَ زمناً، يتلاشى بعدها النقدُ ويبقى القرّاءُ من يرافقونه. يمكن للرحلة أن تكون طويلةً أو قصيرةً، ثمّ يموت القرّاء واحداً فواحداً ويبقى العملُ وحيداً حتى ولو راح نقد آخر وقرّاء آخرون يُرافقونه شيئاً فشيئاً في رحلته. بعدها يموت النقد مرّةً أخرى ويموتُ القرّاء مرّةً أخرى وفوق أثر مخور هذه العظام يتابع العملُ رحلتَهُ نحو الوحشة. الاقتراب منه، الإبحار في أثر مخوره علامةٌ لا تُخطئُ لموتٍ أكيد، لكنّ نقداً آخر وقرّاءً آخرين يقتربون منه بلا كللٍ ولا مللٍ والزمن والسرعة يلتهمانهم. أخيراً يُسافر العملُ حتماً وحيداً في المدى اللامحدود. ويأتي يوم يموت فيه العملُ كما تموتُ جميع الأشياء، كما ستفنى الشمسُ والأرضُ، النظامُ الشمسيّ والمجرّةُ وأكثر ذاكراتِ البشر تحصيناً. كلّ الذي يبدأ كملهاةٍ ينتهي كمأساة.

أورِليو باكا، معرض الكتاب، مدريد ١٩٩٤.

عليّ أن أعترف، ليس فقط أمامَ نفسي، ولا فقط أمامَ المرايا، ولا في ساعة موتي، التي أنتظر أن تتأخّر في المجيء، بل أمام أولادي وزوجتي، أمامَ الحياة الهادئة التي أبنيها:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١) أنّني في عصر ستالين ما كنتُ لأبدّدَ شبابي في الغولاغ وما كنتُ لأنتهي بطلقة في نقرتي.

٢) أنّني في عصر مكارثي ما كنتُ لأخسر عملي ولا لأبيع بنزيناً في محطّة محروقات.

٣) أنّني سأكون مع ذلك في عصر هتلر واحداً ممن سلكوا طريق المنفى وأنني ما كنتُ في عصر فرانكو لأكتب سونيتات للزعيم العظيم ولا للعذراء المباركة مثل كلّ الديمقراطيين في كلّ العصور. والشيء بالشيء يُذكر. شجاعتي محدودة، هذا صحيح، وبلعومي أيضاً. كلّ الذي يبدأ كملهاة ينتهي كمأساة هزلية.

بِر أوردونيوث، معرض الكتاب، مدريد ١٩٩٤.

في الماضي كان كتّاب إسبانيا (وأمريكا الإسبانية) يدخلون الحلبة العامّة لينتهكوها، ليصلحوها، ليحرقوها، ليثوِّروها، كتّاب إسبانيا (وأمريكا الإسبانية) كانوا يتحدرون بعامّة من أسرٍ ميسورة، أسرٍ مستقرّة أو تتمتّع بمكانة ما وحين كانوا يمسكون بالريشة كانوا يتململون أو يتمرّدون على تلك المكانة: فالكتابة كانت رفضاً، خروجاً، وأحياناً انتحاراً. كانت خروجاً على العائلة، اليوم كتّاب إسبانيا (وأمريكا الإسبانية) يتحدرون بأعداد هي في كلّ مرّة مفزعة من عائلات من الطبقة الدنيا، من الطبقة العماليّة، من الطبقة العمالية الرثّة، وممارستهم الأكثر شيوعاً للكتابة هي طريقة لتسلّقِ المناصبِ في الهرم الاجتماعي، طريقة للاستقرار يقظون جداً كيلا يُخالفوا شيئاً. لا أقول إنّهم ليسوا مثقفين. إنّهم مثقفون مثل سابقيهم، أو يكادون. لا أقول إنّهم ليسوا مُجدّين مثل سابقيهم. هم مجدّون أكثرَ من سابقيهم! لكنّهم أيضاً أكثر سوقية منهم بكثير ويتصرفون كرجال أعمال أو كمجرمين قتلة، ولا يتخلون عن شيء، أو فقط يتخلون عما

يمكن التخلي عنه ويحذرون كثيراً من أن يخلقوا أعداءً أو يختارون أعداءهم من أكثر الناس استضعافاً. لا ينتحرون من أجل فكرة، بل جنوناً وغيظاً. تُفتح لهم الأبواب على مصاريعها بلا ضمير. وهكذا حال الأدب يسير كما يسير.

كلّ الذي يبدأ كملهاة ينتهي حتماً كملهاة.

خوليو مارتينِث مورالِس، معرض الكتاب، مدريد، تموز ١٩٩٤.

سوف أحكي لكم شيئاً عن شرف الشعراء، الآن وأنا أتنزّهُ في معرض الكتاب. أنا شاعر. أنا كاتب. كسبتُ بعض الشهرة كناقد. ٣×٧ = ٢١ كشكاً تقريباً، لكنّها في الحقيقة أكثر من ذلك بكثير. نَظَرُنا محدود. ومع ذلك نجحتُ في أن يكون لي مكانٌ تحت شمس هذا المعرض. خلفي بقيت السياراتُ المحطّمة، حدود الكتابة، الـ ٣×٣ = ٩. كلّفني جهداً. خلفي بقيت الـ A والـ E اللتان تنزفان معلّقتين إلى شرفة أعود إليها أحياناً في الأحلام. أنا رجل مُؤَدّب. فقط أعرف السجونَ البسيطة. وكان الشِّعرُ والسِّجنُ، من ناحية أخرى دائماً قريبين. ومع ذلك فإنّ مصدر الجاذبية عندي هي الكآبة. هل أنا في سابع حلم أم أنّني سمعتُ حقيقةً الديكةَ تصيح على الطرف الآخر من المعرض؟ يمكن أن يكون هذا أو ذاك. الديكةُ تصيح في الفجر، ومع ذلك فالساعة الآن، بحسب ساعتي، هي الثانية عشرة ظهراً. أتجوّلُ في المعرض وأسلّم على الزملاء الذين يتجوّلون ساهين مثلي. ساهٍ × ساهٍ = سجناً في سماء الأدب. أتوه. أتوه. شرف الشعراء: الغناء الذي نسمعه كإدانة شاحبة. أرى وجوهَ شباب ينظرون إلى الكتب المعروضة ويبحثون عن نقودهم في عمق جيوب مظلمة كالأمل. ٧ + ١ = ٨، أقول لنفسي بينما أنا أنظر من طرف عيني إلى هؤلاء القرّاء الشباب وصورة لا شكل لها وبطيئة مثل جبل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جليدي تعلو وجوههم الغريبة والمبتسمة. جميعنا نمرّ تحت الشرفة حيث يتدلى الحرفان: A وE ويقطر دمُهُما فوقنا ويُلطخنا للأبد. لكنّ الشرفة شاحبة مثلنا، والشحوب لا يُهاجم الشحوبَ أبداً. من ناحية أخرى، وأقول هذا دفاعاً عنّي، الشرفة تهيم بدورها معنا. في خطوط عرضٍ أخرى يُسمون هذا مافيا. أرى مكتباً، أرى حاسوباً مشتعلاً، أرى ممرّاً موحشاً. شحوبطجبل جليد = ممرّاً موحشاً يشرع خوفنا بملئهِ بأناس، بأشخاصٍ يتوهون في معرضِ الممرّ باحثين ليس عن كتابٍ بل عن يقين يدعم فراغَ يقيننا. هكذا نفسّر حياتنا في لحظات القنوط الأقصى. اجتماعيون. جلادون. يقطع المبضعُ الأجسام. A وE × معرض الكتاب = أجساداً أخرى؛ خفيفة، متوهّجة، كما لو أنّ ناشر كتابي أغاظني ليلاً. الموتُ يبدو جواباً جيّداً، يمكن أن يقول بلانشو. ٣١ × ٣١ = ٩٦٢ سبباً جيّداً. البارحة ضحّينا بكاتبٍ أمريكيّ جنوبيّ شابٍّ على مذبح الأضاحي في مدينتنا. بينما كان دمه يقطر على نقشِ طموحاتنا الغائرِ فكّرتُ بكتبي وبالنسيان، وهذا ما كان له أخيراً معنى. الكاتب، قرّرنا، يجب ألا يبدو كاتباً. يجب أن يبدو مصرفيّاً، أبناً مُدلّلاً يشيخ دون ارتعاشات كثيرة، أستاذَ رياضيات، موظَّفَ سجون. أشكال أشجار متحجرة. هكذا، نتوه بشكل غريب. تشجُّرُناطشحوب الشرفة = ممرّ انتصارنا. كيف لا ينتبه الشبابُ، القرّاء مجازاً، إلى أنّنا كذّابون؟ إذ يكفي أن يُنظر إلينا. غشُّنا دُمِغ بالنارِ على أخطامنا! ومع ذلك لا ينتبهون ونحن نستطيع أن نُنْشِد بحصانة تامّة: ٨، ٥، ٩، ٨، ٤، ١٥، ٧. ونستطيع أن نتسكّع ونتبادل السلام (أنا على الأقل أُسلّمُ على كلّ الناس، على المُحلَّفين والجلاّدين، على أربابِ العملِ وعلى الطلاب)، ونستطيع أن نمدحَ اللوطيَّ لمُغايَرَتِهَ الجنسية اللامحدودة، والعاجزَ جنسياً لفحولته والديوثَ لشرفه الناصع الذي بلا دنس. ولا أحد يئنّ: لا يوجد

تمزّق. فقط صمتنا الليلي عندما نتوجّه على أربعة قوائم نحو النيران التي أشعلها لنا أحدٌ في ساعة غامضة لغاية غير مفهومة. المصادفة تقودنا حتى ولو لم نترك شيئاً للمصادفة. الكاتبُ يجب أن يبدو رقيباً، قال لنا كبارُنا وتبعنا زهرة التفكير هذهِ حتى المحصلة ما قبل الأخيرة. الكاتب يجب أن يبقى كاتبَ مقالةٍ في صحيفة. الكاتبُ يجب أن يبدو قزماً ويجب أن يبقى حيّاً. لو لم يكن علينا فوق ذلك أن نقرأ، لكان عملنا نقطة عالقة في العدم، مندالا مختصرة إلى أدنى حدود تعبيرها، صمتنا. يقيننا بأنّ لنا قدماً متبلورة على الطرف الآخر من الموت. خيالاتٌ، خيالات. أردنا في طية ما من طيات الماضي الضائعة، أن نكون أسوداً ونحن لسنا أكثر من قطط مخصيّة. قطط مخصيّة متزوجة من قطاتٍ مقطوعات الرؤوس. كلّ الذي يبدأ بملهاة ينتهي بتمرين تشفيري.

بابلو دِل بايّه، معرض الكتاب، مدريد، تموز ١٩٩٤.

سوف أحكي لكم شيئاً عن شرفِ الشعراء. مرّت مرحلة لم يكن معي فيها مال ولا كان لي الاسم الذي لي الآن: كنتُ في البطالةِ وكنتُ أُدعى بِدرو غارثيّا فِرناندِثْ. لكنّني كنت أملك فطنة وكنتُ لطيفاً. تعرّفتُ على امرأة. عرفتُ نساءً كثيرات. هذه المرأة، من الأفضل الإبقاء على اسمها مجهولاً، عشقتني. كانت تعملُ في البريد. موظفةُ بريدٍ، كنتُ أقول حين كان يسألني الأصدقاء عما تعمل زوجتي. في الحقيقة كان هذا نوعاً من التلطيف كيلا أقول إنّها كانت ساعية بريد. عشنا معاً زمناً. كانت زوجتي تخرجُ في الصباح إلى عملها فلا تعودُ حتى الخامسة مساءً. كنتُ أنهضُ عندما أسمعُ الجلبة الخفيفة التي كان يحدثها البابُ عند إغلاقه (كانت حريصة على راحتي) وأبدأ أكتبُ. كنتُ أكتبُ عن أشياء سامية. عن حدائق،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قلاعٍ ضائعة، أشياء من هذا القبيل. بعدها عندما كنتُ أتعبُ، كنتُ أقرأ بيّو باروخا، أوناموني، أنطونيو ومانوِل ماتشادو وأثورين. عند ساعة الغداء كنتُ أخرجُ إلى الشارع، إلى مطعم حيث كانوا يعرفونني. في المساء كنتُ أنقّحُ ما كتبته. حين كانت تعود من العمل كنّا عادةً نتكلّم برهةً، لكن عمّ يمكن لأديبٍ أن يتحدّث مع ساعية بريد؟ كنتُ أتكلّم عمّا كنتُ قد كتبتُ، عمّا خطّطت أن أكتبَ عنه: تعليقاً على مانوِل ماتشادو، قصيدة عن الروح القدس، دراسة كانت جملتها الأولى: أنا أيضاً تؤلمني إسبانيا. هي كانت تتكلّمُ عن الشوارعِ التي جابتها والرسائل التي وزّعتها. تتكلّم عن الطوابعِ، بعضها غريب جدّاً، والوجوهِ التي لمحتها في صباحها الطويل كموزّعة للرسائل. بعدها، حين لا يعود باستطاعتي أن أتحمّل أكثر أقول لها وداعاً وأذهبُ لأتصعلك في بارات مدريد. كنتُ أذهبُ أحياناً إلى تقديم كتبٍ. من أجل المشروباتِ المجانية والمُقبّلات أكثر من أيّ شيء آخر. كنتُ أذهبُ إلى كاسا دِ أمريكا وأستمع إلى الكتاب الأمريكيين الإسبانيين المريعين. أذهب إلى الأتِنيو وأستمع إلى الكتابِ الإسبان الراضين. بعدها كنتُ أجتمعُ بأصدقاء لي ونتكلّمُ عن أعمالنا ونذهب جميعنا معاً لنزور المعلّم. لكنّني فوق الثرثرة الأدبية كنتُ أستمرّ بسماع وقعِ الحذاء الزاحفِ لزوجتي التي كانت تجوب منطقتها مرّةً وأخرى، صامتة تجرُّ كيسها الأصفر أو عربتها الصغيرة الصفراء، فهذا يعودُ إلى حجم الرسائل التي كان عليها أن تُسلّمها، وعندها كنتُ أتشوّش، لساني، الذي كان قبل ثوانٍ بارعاً ولاذعاً يصير خرقةً فأغرق في صمتٍ فظّ غير إراديّ، عادة ما كان البقيةُ، بما فيهم مُعلّمنا، يُفسرونه، من حسن حظّي، على أنّه برهان على فطرتي التأمّلية المركزة والفلسفيّة. أحياناً حين كنتُ أعود إلى البيت في ساعة متقدّمة من الفجر، كنتُ أتوقّفُ في الحيّ الذي كانت

تعمل فيه عادة وأقلّدها، أحاكيها وأماثلها بحركات ما بين العسكرية والشبحية، في روتينها اليومي. أنتهي أخيراً بالتقيّؤ والبكاء مستنداً إلى شجرة، متسائلاً كيف أستطيع أن أعيش مع تلك المرأة. لم أجد جواباً أو لم يكن الجواب الذي أجده مقبولاً، لكنّ الأكيد هو أنّني لم أتركها. عشنا معاً زمناً طويلاً. كنتُ أقولُ أحياناً أثناء الكتابة لِأُعزّي نفسي: الأسوأُ هو لو كانت جزّارة. كنتُ أُفضِّلُ، كي أتبع الموضة أكثر من أيّ شيء، لو كانت شرطية، شرطية أفضل من ساعية بريد، ومع ذلك فالساعية أفضل من الجزّارة. بعدها كنتُ أستمرُّ، أكتبُ وأكتبُ غاضباً أو على حافّة أن يُغشى عليَّ، وأنا في كلّ مرّة أكثر سيطرة على أدوات عملي. هكذا مرّت السنون وخلال هذا الزمن كلّه، استغللتُ زوجتي. أخيراً فزتُ بجائزةِ بلديةِ مدريد *أصوات جديدة* ووجدتُ نفسي بين ليلةٍ وضحاها مالكاً لثلاثة ملايين بيزيتا وعرضاً للعمل في واحدة من أشهر صحفِ العاصمة. كتب هِرناندو غارثيّا ليون مقالاً فيه مديح كبير جدّاً بكتابي. نفدت الطبعتان الأولى والثانية في أقل من ثلاثة أشهر. ظهرتُ في برنامجَيْن تلفزيونيّين، وإن كان لدي انطباع بأنّهم في واحد منهما أخذوني كي أعمل مهرجاً. أكتب الآن روايتي الثانية. وتركتُ زوجتي. قلت لها إنّ طبيعتَيْنا متناقضتان وإنّني لا أريدُ أن أُسبب لها أذى وإنّني آمل أن تسيرَ أمورُها بخير وإنّها تعرف أنّ باستطاعتها أن تعتمد عليّ في أيّ لحظة لأيّ شيء. بعدها وضعتُ كتبي في صناديق كرتونية وثيابي في حقيبة ورحلتُ. الحبُّ يبتسم لمن يفوزون، لا أتذكرّ من الكلاسيكيّ الذي قال ذلك. لم أتأخّر في أن بدأت أعيشُ مع امرأة أخرى. استأجرتُ شّقةً في لابابييس، أنا من يَدفعُ أجرتها وأنا فيها سعيد ومنتج. زوجتي الحالية تَدْرسُ فقهَ اللغة الإنكليزية وتكتبُ الشعرَ. نتكلّم عادة عن الكتب. وتخطر لها أحياناً أفكار رائعة. أظنّ أنّنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نشكل زوجين رائعين: ينظر إلينا الناسُ ويُعَبِّرون عن إعجابهم بنا، نحن نجسد بطريقةٍ ما المستقبلَ والتفاؤلَ غير المتعارض مع الفطنة والتأمّل. ومع ذلك حين أكون في بعض الليالي في مكتبي أضع اللمساتِ الأخيرة لمقالي الأسبوعي، أراجعُ بعض صفحات روايتي، أسمع خطواتٍ في الشارع فيتولّد عندي انطباعٌ، يكاد يكون يقيناً، بأنّ الأمرَ يتعلّق بساعية البريد، التي خرجت لتوزِّع الرسائل في ساعةٍ غير مناسبة. أطلّ من الشرفة فلا أرى أحداً أو ربّما أرى السكيرَ الذي جاء دوره بالعودة إلى البيت، يضيعُ عند زاوية. لا شيء يحدث. لا يوجد أحد. ومع ذلك حين أعودُ إلى مكتبي تتكرّرُ الخطوات وعندها أعرف أن الساعية تعمل، وأنّها حتى ولو كنتُ لا أراها تجوب منطقتَها في أسوأ ساعة بالنسبة إليّ. وعندها أتركُ مقالتي الأسبوعية وأتركُ فصلَ روايتي وأحاولُ أن أكتبَ قصيدةً أو أكرّسَ بقيةَ ليلي لدفترِ يومياتي، لكنّني لا أستطيع. ضجيج حذائها الزاحفِ يُدوّي في رأسي. صوت لا يكاد يُدرَكُ وأنا أعرف كيف أطرده: أنهضُ، أسيرُ نحو غرفة النوم، أتعرّى، أدخلُ في الفراش، حيث أجد جسدَ زوجتي المُعطّر، أمارس معها الحبَّ، أحياناً بكثير من اللطف وأخرى بطريقة عنيفة، وبعدها أنامُ وأحلمُ أنّني أدخل الأكاديمية. أو لا. هذا كلام. في الحقيقةِ أحلمُ أحياناً أنّني أدخلُ الجحيم. أو لا أحلم بشيء. أو أحلمُ بأنّهم خصوني وأنّ خصيتين صغيرتين جدّاً، مثل حبّتي زيتون لا لون لهما تعودان مع مرور الزمن لتنبتا في العراءِ وأنّني أداعبهما بمزيج من الحبّ والخوف وأنّني أرعاهما بالسرّ. النهار يطردُ الأشباحَ. بالطبع، لا أتكلّمُ عن هذا مع أحد. يجبُ أن يُظهر المرء نفسه قوياً. عالَمُ الأدب أدغالٌ. أنا أدفعُ ثمن علاقتي مع ساعيةِ البريد بضعةَ كوابيس، بضعَ ظواهر سمعية. لا بأس، أقبلُ ذلك. بالتأكيد لو كنتُ أقَلَّ حساسية لما كنت لأتذكّرها. بل وتنتابني أحياناً رغبة بأن أهتف

لها، أن أتبعها في توزيعها اليوميّ وأن أراها لأوّل مرّة تعملُ. تنتابني أحياناً رغبة بأن أتواعدَ معها في بارٍ في حيّها، الذي ما عادَ حيّي، وأن أسألها عن حياتها: عمّا إذا صار عندها خطيب جديد، عمّا إذا وزّعت رسالة ما قادمة من ماليزيا أو تنزانيا، عمّا إذا كانت ما تزالُ تستلمُ هديةَ ساعي البريد في رأس السنة. لكنّني لا أفعلُ. أكتفي بسماع خطواتها، التي هي في كلّ مرّة أوهن. أكتفي بالتفكير في فساحة الكون. كلّ ما يبدأ كملهاة ينتهي كفيلم رعب.

ماركو أنطونيو بالاثيوس، معرض الكتاب، مدريد، تموز ١٩٩٤.

ها هنا شيءٌ عن شرف الشعراء. كنتُ في السابعة عشرة من عمري وبي رغبة جموحة بأن أُصبح كاتباً. أعددتُ نفسي. لكنّني لم أمكث ساكناً بينما كنتُ أُعدّ نفسي، فقد أدركتُ أنّني لو فعلت ذلك بتلك الطريقة لن أنجح أبداً. نظامٌ وبعضٌ من سحرٍ وديع، هذه هي مفاتيح الوصول إلى حيث يتطلّع المرء. نظام: أكتبُ كلَّ صباح ما لا يقلّ عن ستِّ ساعات، أُصَحّحُ في المساء وأقرأ مثل ممسوسٍ في الليل. سحرٌ، أو سحرٌ وديع: أزور الكتّابَ في بيوتِهم أو أتوجَّهُ إليهم أثناء تقديمهم لكتبِهِم وأقولُ لكلٍّ واحدٍ ما يريدُ ويتلهّفُ لأن يسمعَهُ تماماً. والتمتع بالصبر لا يُعطي دائماً نتيجة. هناك أوغاد يربتون على ظهركَ وبعدها إذا رأوكَ يتجاهلونك. هناك قوّادون قساة ووحشيون وفقراءُ نفسٍ. لكن ليس الجميع هكذا. من الضروريِّ أن تتمتع بالصبر وتبحث. أفضلُهم هم المثليُّون، لكن، حذارِ، من الضروريِّ أن تعرفَ متى تتوقّف، يجب أن تعرف بدقّة ما الذي تريدُهُ وإلا فإنك ستنتهي بأن يلجكَ مجاناً أيُّ عجوز يساريٍّ ممحون. مع النساء تحدث ثلاثة أرباع الحالة ذاتها: الكاتبات الإسبانيات اللواتي يمكن أن يمددن لك يدَ العون عادة ما يكنَّ كبيرات في السن وقبيحاتٍ والتضحية أحياناً لا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تستحق المعاناة. أفضلهم هم المختلفون جنسياً[1]، الذين دخلوا الخمسين أو صاروا على عتبةِ الشيخوخة. على أيّة حال: لا مناص من الاقتراب منهم. لا مناص من زراعةِ بستانٍ في ظلّ امتعاضاتهم وضغائنهم. طبعاً عليك أن تحفظَ أعمالهم كاملة. عليك أن تذكرَهُم مرّتين أو ثلاث مرّات في كلّ حديث! عليك أن تذكرهم بلا كللٍ ولا ملل. نصيحة: لا تنتقِدْ أبداً أصدقاءَ المُعلّم. أصدقاءُ المعلّم مقدّسون وملاحظةٌ في غيرِ مكانها يمكن أن تحرفَ اتجاهَ قدرك. نصيحة: عليك أن تكرَهَ وتمقتَ الروائيين الأجانب، خاصّة إذا كانوا أمريكيين شماليين، فرنسيين أو إنكليز. الكتّاب الإسبان يكرهون معاصريهم من اللغات الأخرى وكتابة مقالة تعريفية سلبية هي دائماً محلُّ ترحيب. عليك أن تسكت وتبقى مترصّداً، وأن تُحَدِّدَ ساعاتِ عملك. تكتبُ في الصباح وتُنقّحُ في المساء وتقرأُ في الليل وفي الساعات الميتة تمارسُ الدبلوماسية، الرياء والسحر الوديع. في السابعة عشرة من عمري أردتُ أن أكون كاتباً. في العشرين نشرتُ كتابي الأوّل. الآن أنا في الرابعة والعشرين وفي بعض المناسباتِ حين أنظرُ إلى الخلف يحلُّ في دماغي شيءٌ شبيهٌ بالدوار. جبتُ طريقاً طويلاً، نشرتُ أربعة كتبٍ وأعيشُ في رَغَدٍ من الأدب (على الرغم من أنّني، إذا كان عليّ أن أكون صريحاً، لم تكن مُتَطَلّباتي كثيرة قط كي أعيش، فقط طاولة، حاسوب وكتب). عندي زاوية أسبوعية في صحيفة يمينية في مدريد. الآن أتطاولُ على بعض السياسيين وأشتمهم وأصحّح أخطاءهم (لكن دون تمادٍ). الشباب الذين يريدون أن يصبحوا كتّاباً يرون فيَّ نموذجاً يُحتذى. بعضهم يقولون إنّني النسخة المُحسَّنة عن أورِليو باكا. لا

---

(١) هم الذين يمكن تسميتهم بالطبيعيين، لأنّهم يشتهون ويمارسون مع الجنس الآخر: ذكر مع أنثى وأنثى مع ذكر.

أعرف. (كلانا تؤلمه إسبانيا، على الرغم من أنّني أعتقد آنيّاً أنّها تؤلمه أكثر منّي.). يمكن أنّهم يقولون ذلك بصدق، لكن يمكن أيضاً أنّهم يقولونه كي أغترَّ وأرتخي. إذا كانوا يقولونه من المنطلق الأخير فلن أُسعدَهُم: فأنا ما زلتُ أعملُ بالجَلَدِ السابقِ ذاته، ما أزالُ أنتجُ، ما أزالُ أرعى صداقاتي وأُدَلّلها. لم أُتِمّ الثلاثين بعد والمستقبلُ يتفتّح مثل وردة تامّة، عطرة وفريدة. ما يبدأ كملهاة ينتهي كمسيرة نصر. أليس صحيحاً؟

هِرناندو غارثيّا ليون، معرض الكتاب، مدريد، تموز ١٩٩٤.

كلّ شيءٍ بدأ، ككلِّ شيء عظيم، بحلم. منذ زمن، منذ أقلّ من سنة زرتُ أحدَ أكثر المقاهي رسوخاً أدبياً وتحدّثتُ مع بعض كتّاب إسبانيانا الموجوعة. بين الهرج والمرج المعتادَيْن أكّدَ جميع الذين تحاورتُ معهم (والإجماع هنا لا يطوله الشك) أنّ كتابي الأخيرَ إن لم يكن أكثر الكتب رواجاً، فهوَ، بلى، أكثرُها قراءة. ممكن، لا يشغلني التسويق. ومع ذلك فخلف ستارة المديح رأيت ظلاً. كان أندادي يمدحونني، والأفتى منهم يرون فيَّ مُعَلِّماً - وكانوا يتفاخرون بذلك-لكنّني شعرتُ خلفَ ستارةِ المديح تنفّسَ، سطوعَ شيءٍ مجهول. ماذا كان؟ كنتُ أجهله. بعد شهر، بينما أنا في إحدى قاعاتِ المُغادرة في المطار، مستعداً لأن أغيبَ بضعة أيّام عن إسبانيانا الموجوعة، اقترب منّي ثلاثةٌ شبّانٍ فارعي الطول، سماويين وقالوا لي بلغةٍ واضحة إنّ كتابي الأخير غيّرَ حياتَهم. شيء غريب، وإن لم يكونوا أول من يعترضني بهذه الطريقة. تابعت رحلتي. توقّفتُ في روما. في السوق الحرّة بقي رجلٌ مهمٌّ المظهر ينظر إليّ. (كان نمساويّاً في رحلة عملٍ (لم أسأله ماذا يعمل) اسمه هِرمان كونست، وكان، هو المسحور بكتابي السابق، الذي قرأه بالإسبانية،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فبحسب علمي لم يُترجم إلى الألمانية بعد، يرغبُ بأن يحصلَ على توقيعي. أربكتني إطراءاته. عندما وصلتُ إلى نيبال سألني في الفندق فتى لا يتجاوز الخامسةَ عشرةَ من عمره عمّا إذا كنتُ أنا هِرناندو غارثيّا ليون. قلت له بلى، واستعددت لأنّ أُعطيه بقشيشاً حين أعلن أنّه مُعجَبٌ ومُتحمِّس لأعمالي، ثم وبعد قليل ودون أن أكاد أنتبه، وجدتُ نفسي أضع توقيعي على نسخة تالفة من *بين الثيران والملائكة*، ولمزيد من الدقّة على الطبعة الإسبانية الثامنة، تاريخ ١٩٨٦. من المؤسفِ أنّ حادثة وقعت، وليس هنا مجال لأن أحكيها، حرمَتْني من أن أسأل القارئ الشابَّ عن النوائبِ والمصائبِ التي جعلت كتابي يصل إلى يديه. في تلك الليلة حلمتُ بالقديس يوحنا المعمدان. اقتربَ مقطوعُ الرأسِ من سريري في الفندق وقال لي: اذهب إلى نيبال، يا هِرناندو، وستنفتح لك صفحاتُ كتابٍ رائع. لكنّني في نيبال، أجبتُهُ بنصفِ لسانِ النائم. لكنّ المعمدان كرّر: اذهبْ إلى نيبال يا هِرناندو، إلخ، إلخ. كما لو أنّ الأمر يتعلّق بوكيلي الأدبي. في صباحِ اليوم التالي نسيتُ الحلم. خلال رحلة في جبال كاتْماندو التقيتُ بغتةً بمجموعةٍ من السياحِ من إسبانيانا الطائشة. عرفوني (كنتُ وحدي، من نافل القول تأكيد ذلكَ، أتأمّلُ خلفَ صخرة) وأخضعوني لجلسةٍ من الأسئلةِ والأجوبةِ المعتادة، كما لو أنّنا في برنامج تلفزيوني. كان تعطّش أبناء بلدي للمعرفة كبيراً وحماسيّاً ولا يرتوي. وقَّعْتُ نسختين. بعد العودة إلى الفندق عدتُ في تلك الليلة لأحلمَ بالقديس يوحنا المعمدان، لكن مع فارق واحد، فارقٍ عجيب، هو أنّه جاء مرافَقاً من شبح، كائنٍ مكموم بقي على مسافة معينة منه بينما مقطوعُ الرأس يتكلّمُ. كان خطابُه في جوهرِهِ خطابَ الليلة الأخرى ذاته. يحثّني على زيارة نيبال ويعدني بأعسالِ كتابٍ رائع، جديرٍ بأكثر الأقلام مجازفة. تكرّرت هذه

الأحلامُ ليلةً بعدَ ليلة، عملياً طيلة وجودي في الشرق. عدتُ إلى مدريد. انتقلتُ، بعد أن خضعتُ من دون رغبة مني لسيلٍ من المقابلات الجدية، إلى أرِخوِلا دِ أرغاندا، القرية الجبليّة الصغيرة أو الضيعة، عازماً على أن أقوم بعمل إبداعي. عدتُ وحلمتُ بالقديس يوحنا المعمدان. يا فحلُ، يا هِرناندو، قلتُ لنفسي وسطَ الحلم: هذا تجاوزٌ للحد وحدهم من مرّنوا أعصابَهم على حالات قصوى يسمحون به لأنفسهم، وبجهدٍ عقليّ نجحتُ بالاستيقاظ فجأة. كانت الغرفةُ غارقةً في صمت الليلِ القشتاليّ الخصيب. فتحتُ النوافذ واستنشقت هواء الجبلِ النقيّ. لم أشتق للمرحلة، التي صارت بعيدة، وكنتُ أُدَخّن فيها علبتين يوميّاً، على الرغمِ من أنّني فكّرتُ في جزء من الثانية أنّه ليس سيّئاً أن أُدَخِّن سيجارة. وككل رجلٍ لا وقتَ عنده يُضيّعه كرّستُ أرقي لمراجعةِ أوراقٍ وإنهاء رسائلَ، تحضيرِ مسوداتِ مقالاتٍ ومحاضراتٍ خدم المؤلّف الناجح، وهذا ما لن يفهمه الحاقدون والحاسدون، الذين لا تتجاوز طبعةُ كتبهم الألفَ نسخة. عدتُ بعدها إلى السرير ونمتُ، كما يحدث معي عادة، في اللحظة. من سوادٍ كأنَّ ثوربران رسمه طلَعَ القديسُ يوحنّا المعمدان ونظر إلى عينيّ، وأومأ إليّ برأسه ثمّ قال: أتركُكَ، يا هِرناندو، لكنّك لن تبقى وحدك. تأمّلتُ المشهد الذي راح ينجلي شيئاً فشيئاً، كما لو أنّ نسمةً أو نَفَساً ملائكيّاً فكّكَ الضبابَ والسوادَ، وإن بقي، لِنَقُلْ، محتفظاً بِحدادِ الصباح الخاص. في العمق على بعد ثلاثة أمتار تقريباً عن سريري كان الشبحُ المحجوب ينتظر بصبرٍ بجانبِ صخرة. من أنت؟ سألتُ. جاء صوتي مرتجفاً. إنّني على وشك الانفجار بالبكاء، فكّرتُ، مندهشاً وسط الحلم وذلك الصباحِ الكئيب، ومع ذلك استطعتُ بعد أن استجمعتُ قوّتي أن أُكرّر السؤال: من أنت؟ عندها ارتعشَ الشبحُ ونفضَ عنهُ بحركةٍ دقيقةٍ (من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كامل جسده) ندى الفجرِ أو أنَّ عينيَّ، الخارجتين من مدارهما جعلتاني ببساطةٍ أحسُّ بارتعاشٍ لم يكن ارتعاشاً وبعد الارتعاش بدأ يسيرُ باتجاه سريري، قدماه اللتان بدا أنّهما لا تطآن الأرضَ مع أنّني كنتُ أسمعُ ضجيجَ الحجارة، غناءَ الحجارة المستمتعة بإحساسها بباطنَيّ قدميهِ على ظهرها، طقطقتها وخشخشتها في آن معاً، تمتمتها وحفيففها، كما لو أنّ الحجارة كَانت عشبَ الحقولِ والقدمين هواءً أو ماءً، وعندها نهضتُ بجهودٍ متواصلة من السرير وسألته مستنداً على مرفقٍ من أنت، ماذا تريد منّي، أيّها الشبحُ، ما الذي تخبّئه خلف هذا الحجاب، وتابع الشبح تقدّمَهُ في حقل الحجارة والحصى الرماديةِ حتى وصل إلى جانب السرير وعندها توقّف وتوقّفت الحجارةُ عن الغناء والهديل أو السجع. صمتٌ هائلٌ حلَّ في غرفتي وفي الوادي وفي سفوح الجبال، وأنا أغمضتُ عينيَّ وقلتُ لنفسي كنْ شُجاعاً، يا هِرناندو، فأنت رأيتَ نفسكَ في أحلام أسوأ من هذه، وعدتُ وفتحتُهما. وعندها رفع الشبحُ الخمارَ، أو ربّما لم يكن سوى منديل فظهرت أمامي مريمُ العذراء ولم يكن نورها يُعمي، كما تقول صديقتي باتريثيا فِرناندِث-غارثيّا إرّاثوريث، التي مرّت بعدّة تجارب من هذا النوع، بل نوراً لطيفاً على البؤبؤ، نوراً متناغماً مع نورِ الصباح. وقلتُ قبل أن أُصابَ بالخرس: ماذا تريدين، يا سيّدة، من خادمك الفقير؟ وهي قالت: يا هِرناندو، يا بُنيّ، أُريدُك أن تكتبَ كتاباً، بقية حديثنا لا أستطيع أن أحكيها. لكنّني كتبتُ. بدأت بالعمل مستعدّاً لأن أقضي نحبي في العمل وبعد ثلاثة أشهر كان عندي ثلاثمائة وخمسون ورقة مكتوبة وضعتها على طاولة ناشرِ كتبي. عنوانه: *العصر الجديد والسُّلّم الإيبري*. اليوم بحسب ما قالوا لي بيع أكثر من ألف نسخة. طبعاً لم أُوَقّعْها، فأنا لست سوبرمان. كلّ الذي يبدأ كملهاة لا مناص ينتهي كلغز.

بّلايو بارّندواين، معرض الكتاب، مدريد، تموز ١٩٩٤.

أوّلاً: أنا هنا، مُخدّرٌ ومضاداتُ الاكتئابِ تخرجُ من أذنيّ، أجوب هذا المعرض اللطيف ظاهرياً، حيث لهِرناندو غارثيّا ليون قرّاءٌ وقرّاء، وحيث باكا على النقيض من غارثيّا ليون، لكنّه سعيدٌ مثله وله قرّاء وقرّاء وحيث حتى صديقي القديم بِرِ أوردونييثْ له بعض القرّاء وحيث أنا نفسي، فلماذا المتابعة، لماذا سأذهب بعيداً، لي أيضاً حصّتي من القرّاء، المُتعبون والمضروبون والذين في رؤوسهم الصغيرة قنابل ليتيوم صغيرة، أنهار من الفلوكستين، بحيراتٍ من الإبّامينول، بحار ميتة من روهيّنول، آبار مسدودة من الترانكيمازين، أخوتي، الذين يمتصون من جنوني كي يغذوا جنونهم. وأنا هنا مع ممرِّضَتي، وإن كان من الممكن ألاّ تكون ممرِّضة، بل مساعدة اجتماعية، مُربّية خاصّة، بل ويمكن أن تكون حتى محامية، على كلٍّ الأحوال أنا هنا مع امرأة يبدو أنّها ممرِّضتي، على الأقل هذا ما يمكنني أن أستنتجه من السرعة التي تُقدّم لي فيها الأقراص العجيبة، القنابلَ التي تمسك بدماغي، وتمنعني من ارتكابِ عملٍ وحشيّ، امرأة تسير بجانبي فيلامس ظلُّها الهفافُ، حين أعودُ، ظلّيَ، الثقيلَ والضخم، ظلّيَ الذي يبدو أنّه يخجل من الجريان إلى جانب ظلّها، لكن إذا راقبهُ المرءُ بانتباهٍ أكبر كما أفعل أنا، بدا سعيداً تماماً بالجريان إلى جانب ظلِّها. ظلّي، ظلٌ دبٍّ يوغي الألفيةِ الثالثةِ وظلّها ظلٌّ تلميذةٍ هبّاتيّا. وعندئذ بالضبط أُريدُ أن أكون هنا، أكثرَ من أيّ شيء لأنّ ممرّضتي تحبّ أن ترى كتباً كثيرة مجتمعة وأن تسير إلى جانب أشهرِ مجنونٍ فيما يُسمى الشعر الإسباني أو فيما يسمى الأدب الإسباني. وعندها يخطر لي أن أبتسمَ بشكل غامض أو أن أدندن بشكل غامض وهي تسألني لماذا أضحكُ أو لماذا أدندن وأنا أقول لها إنّني أضحك لأنّ كلَّ هذا يبدو لي مسخرة، لأنّ هِرناندو غارثيّا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليون يبدو لي مسخرة وهو يلعب دور القديس يوحنا المعمدان أو سان إغناثيو دِ لويولا، أو المُطَوَّب إسكريفا، ولأنّ الصراع الكبير من أجل الاسمِ والصراع الكبير من أجل قارئٍ كلِّ هؤلاء الكتّابِ المتخندقين في أكواخهم الأمينتية يبدو لي مسخرة. وهي تنظر إليّ وتسألني لماذا أدندن. وأنا أقول لها إنّها قصائدي، وإنّ دندناتي قصائدُ أفكّر بها وأحاول أن أحفظها عن ظهر قلب. وعندئذ تبتسم ممرضتي وتهز رأسها سعيدة بأجوبتي، وفي هذه المناسبات حين يكون الحشد هائلاً يحرز التجمّع ملامحَ الخطر (حول كشكِ أورِليو باكا، بحسب ما تُوضّح لي ممرّضتي)، تبحثُ يدُها عن يدي، وتعثر عليها دون أيّ مشكلة ونعبرُ ببطءٍ مناطقَ الشمسِ الملتهبة والظلالِ شديدةِ البرودة ممسكَيْن بأيدي بعضنا بعضاً، ظلّها يجرُّ ظلّي، لكنَّ جسدها يجرُّ على الأخصّ جسدي. وعلى الرغم من أنّ الحقيقة هي أخرى (أبتسم كيلا أعوي، أنا أدندن كيلا أُصلي أو أجدّف)، فممرّضتي تكفيها روايتي للأشياء وتفيض عنها، والتي لا تقول كثيراً عن فضائلها كطبيبة نفسية، لكنّها فعلاً تقول كثيراً عن نزعتها لأن تحيا، أو تتمتّع بالشمس التي تسقط فوق الريتيرو، أو عن رغبتها الجامحة لأنّ تكون سعيدة. وعندئذٍ أُفَكّرُ بأشياء ليست شاعرية كثيراً، على الأقل من منظور معيّن، مثل البطالة (التي خرجت ممرّضتي منها توّاً بفضل أنّني مجنون) أو مثل الدراسات الحقوقيّة (التي استبدلتها محاميتي توّاً بقراءة الروايات الإسبانية بفضل أنّني مجنون)، وتنتصب أمام عينيّ سواء بسواء البطالةُ كما الساعاتُ الضائعة، كمنطادٍ أحمرَ وحيد يرتفع ويرتفع حتى يُبكيني... ديدالوس المتألّم على موت إيكاروس، ديدالوس محكوم، وبعدها أهبطُ مرّة أخرى إلى كوكب الأرض، إلى معرضِ الكتاب وأرسمُ ابتسامةً جانبية، لها وحدها، لكنّ ليست هي من تراني أبتسم، بل قرّائي، المُتعبون، المذبوحون، أولئك المجانين

الذين أغذّيهم بجنوني وسينتهون إلى قتلي أو قتل صبري اللامحدود، نقّادي، من يريدون أن يلتقطوا صورةً معي، لكنّهم لا يتحمّلون حضوري أكثر من ثماني ساعات، والكتّاب، مقدمو البرامج التلفزيونية، من يعبدون جنونَ بارِّندواين، بينما هم يُحرّكون بذكاء رؤوسهم، هم من يرونني، وليست هي، أبداً ليست هي، البلهاء، الحمقاء، البريئة، التي وصلت متأخّرة جدّاً، التي تهتمّ بالأدب دون أن تتصوّرَ الجحيمَ الذي يتخفّى تحت صفحاتهِ المتعفنة أو الأنيقة، التي تُحبُّ الأزهارَ دون أن تعلمَ أنّ في عمقِ المزهريات يعيش المسوخ، التي تتنزّه في معرض الكتاب وتجرّني، التي تبتسم للمُصَوّرين الذين يُصوّبون عليّ، التي تجرّ أيضاً ظلّي وظلَّها، الجاهلة، المسلوبة، المنهوبة، التي ستعيش بعدي وهي عزائي الوحيد. كلّ الذي يبدأ كملهاة ينتهي كصلاةٍ جنائزية في الفراغ.

فِليبّ مولِر، بار ثِنْتريكو، شارع تايِّرس، برشلونة، أيلول ١٩٩٥.

هذه قصّةُ مطار. رواها لي أرتورو في مطار برشلونة. هي قصّة كاتبين. في الحقيقة هي غامضة. القصص التي تُحكى في المطارات تُنسى بسرعة، ما لم تكن قصةَ حبٍّ وهذه ليست كذلك. أظنّ أنّنا عرفنا هذين الكاتبين أو على الأقل عرفهما هو. في برشلونة، في باريس، في مكسيكو؟ هذا ما لا أعرفه. واحد منهما بيروي والآخر كوبي، على الرغم من أنّني لا أستطيع أن أؤكّد ذلك مائة بالمائة.

حين حكى لي أرتورو القصّةَ لم يكن متأكّداً من جنسيتهما وحسب بل وذكر اسميْهِما. لكنّني بالكاد أوليته انتباهي. أعتقد، أو بالأحرى أستنتج أنّهما من جيلنا، أي من المولودين في العقدِ الخامس. قدراهما، بحسب أرتورو، هذا فعلاً أتذكّره بوضوح، أنّهما كانا مَثَلَين. كان البيروي ماركسياً، على الأقل كانت قراءاته

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تجري في هذا الطريق: كان يعرف غرامشي، لوكاش وألتوسير. لكنّه أيضاً قرأ هيغل وكانْتْ وبعضَ اليونانيين. الكوبيّ كان قاصّاً سعيداً لم يكن يقرأ نظريين، بل أدباءَ وشعراء، وقاصّين. كلاهما، البيروي والكوبي ولدا في حضن عائلتين فقيرتين، الأوّلُ في حضن عائلة عماليةٍ والثاني في حضن عائلةٍ فلاحيّة. كلاهما ترعرع كطفلٍ فرح، مستعدٍّ للفرح، وإرادة لأنّ يكون سعيداً. كان أرتورو يقول يبدو أنّهما كانا طفلين جميلين جدّاً. حسن: أنا أظنّ أنّ جميعَ الأطفالِ جُملاء، اكتشفا ميولهما الأدبية باكراً جدّاً: البيروي كان يكتبُ قصائدَ والكوبي يكتبُ قصصاً. كلاهما كان يؤمنُ بالثورة وبالحرّية. مثل كلّ الكتّاب الأمريكيين اللاتينيين المولودين في عقد الخمسينات تقريباً. بعدها كبرا: في المرحلة الأولى عرفَ البيروي والكوبي الألقَ، كانت نصوصهما تُنشر والنقدُ يمدحهما بالإجماع، كانوا يتحدثون عنهما كأفضل كتّاب القارّة الشباب، واحد في مجالِ الشعر والآخر في مجالِ القصِّ، ضمناً بدأ الناس ينتظرون منهما العمل الحاسم. لكن عندها حدث ما يحدثُ عادة مع أفضل كتّابِ أمريكا اللاتينية، أو أفضل الكتاب المولودين في الخمسينات: تكشّف لهما كما التجلّي، الثالوثُ المكوّن من الشبابِ والحبِّ والموت. كيف أثّر هذا التجلّي على أعمالهما؟ في البداية بطريقة لا تكادُ تكون مرئيّة: كما لو أنّ بلوراً موضعاً فوق آخر يشهد حركةً خفيفة. فقط بعض الأصدقاء انتبه. بعدها سارا بما لا مفرّ منه نحو الكارثة أو الهاوية. البيروي حصل على منحة وسافر إلى ليما. جاب أمريكا اللاتينية زمناً، لكنّه لم يتأخّر في الإبحار إلى برشلونة وبعدها إلى باريس. أرتورو، كما أعتقد، عرفَهُ في مكسيكو، لكنّ صداقته معه ترسّخت في برشلونة. في تلك الفترةِ كان كلّ شيء يدلُّ على أنّ مسيرته الأدبية سوف تكون شِهابية، ومع ذلك من يدري لماذا، لم يهتمّ الناشرون والكتّاب

الإسبان بأعماله، مع بعض الاستثناءات المعدودة. رحل بعدها إلى باريس وهناك تواصل مع طلبة بيرويين ماويين. دائماً كان البيرويّ، بحسبِ أرتورو، ماويّاً، لعوباً وغير مسؤول، ماويَّ صالوناتٍ، لكنّهم في باريس أقنعوه بطريقة أو بأخرى، لنَقُلْ، بأنّه تجسيد لمارياتِغي، المطرقة أو السندان، لا أستطيع أن أحدّدَ بدقّة، الذي كانوا سيمزّقون به نمورَ الورق الذين كانوا يرتعون على هواهم في أمريكا اللاتينية. لماذا كان بِلانو يعتقدُ أنّ صديقه البيروي يلعب؟ حسن، لا بدّ أنّه كانت له أسبابه: كان يستطيع يوماً أن يكتبَ صفحات مريعة لها طابع المنشور وفي اليوم التالي مقالاً لا يكاد يُفهم عن أوكتافيو باث، كلُّ شيء فيه تملّقٌ ومديحٌ بالشاعر المكسيكي. كي يكون ماويّاً لم يكن هذا جدّياً. لم يكن منسجماً. في الحقيقة كان البيروي دائماً، ككاتب مقال، كارثة، سواء في دوره كناطق باسم الفلاحين المحرومين أو في وجوده كمتزعّمٍ لشعر باث، ومع ذلك بقي كشاعرٍ جيّداً، مجازفاً ومجدِّداً. وذاتَ يوم، قرّر البيروي العودةَ إلى بيرو. ربّما اعتقدَ أنّ ساعة عودة مارياتِغي الجديد إلى أرض الوطن قد أزفت، وربّما أراد فقط أن يستفيد مِمّا وفّره من منحته كي يعيش في مكان أرخص ويشتغل بأعماله الجديدة بهدوء وعزيمة. لكنّ حظّه كان سيّئاً. لم يكد يضعُ قدمَهُ على أرض مطار ليما، حتى ظهر الطريق المضيء كما لو أنّه كان ينتظره كتَحَدٍّ ملموس، كقوّةٍ كانت تُهدِّد بالانتشار في كلّ البيرو. طبعاً لم يستطع البيروي أن ينسحبَ ليكتبَ في قرية في الجبال. بدءاً من تلك اللحظة صار كلُّ شيء سيّئاً. اختفى وَعْدُ الآداب الوطنية الشابُّ وظهر شخص هو في كلِّ مرّةٍ أكثر خوفاً، في كلّ مرّة أكثر جنوناً، شخصٌ يُعاني عندما يُفكّر أنّهُ استبدلَ برشلونة وباريس بليما، حيث مَنْ لم يكن يحتقر شعره كان يكرهه كرهَ الموت لأنّه إصلاحيٌّ أو كلبٌ خائن، وكان في أعين الشرطة، على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

طريقتهم، وهذا صحيح، أحدَ منظِّري حربِ عصابات الألفيّين. أي فجأة وبضربة واحدةٍ وجد البيروي نفسه عالقاً في بلدٍ يمكن أن يُقتَل فيه سواء من قبل الشرطة أو من أتباع الطريق المضيء. هؤلاء وأولئك كانوا يشعرون بأنّ الصفحات التي كتبها تهينهم. راح كلّ ما كان يفعله بدءاً من تلك اللحظة يقرّبه من دماره. باختصار: البيروي طقّت براغيه. الذي كان من قبل متحمّساً لمجموعة الأربعة والثورة الثقافية، تحوّل إلى نصير لنظريات مدام بلافاتسكي. عاد إلى حظار الكنيسة الكاثوليكية. صار نصيراً متحمّساً ليوحنا بولس الثاني وعدوّاً متطرّفاً للاهوتيةِ التحرّر. ومع ذلك فالشرطة لم تُصدِّق هذا التحوّلَ وبقي اسمُهُ ضمن أرشيفات الناسِ الخطيرين كموناً. بالمقابل بلى صدّق أصدقاؤه، الشعراء، كلماته وقاطعوه. حتى زوجته لم تتأخّر في هجره. لكنّ البيروي تمادى في جنونه وبقي في عناده. في قطبه الشمالي الأخير. طبعاً لم يكن يكسب مالاً. ذهب ليعيش في بيت والده، الذي كان يعيله. حين توفّي والده أعالته أمّه. بالطبع لم يتوقّف عن الكتابة وإنتاج كتب ضخمة ومتفاوِتة يُحَسُّ فيها أحياناً بمزاجٍ مهزوز ولامع. وصل به الأمر أحياناً أنّه كان يَتفاخر، بعد سنواتٍ، بأنه يُحافظ على نفسه طاهراً منذ ١٩٨٥. أيضاً فقد كلَّ ذرّةِ حياء ولباقةٍ وحشمةٍ عنده. صار متمادياً (أي صار بالنسبة لكتّاب أمريكا اللاتينية أكثر تمادياً من المعتاد) في مدائحه وفقد تماماً روحَ المهزأة في مدائحه الذاتية. ومع ذلك كان يكتبُ من حين لآخرَ قصائد جميلة جداً. كان أعظمَ شاعرين في أمريكا بالنسبةِ للبيروي، بحسب أرتورو، هما هُوَ ووايتمان. حالة غريبة. كانت حالة الكوبيّ مختلفة. كان الكوبيّ سعيداً ونصوصه سعيدة وجذرية. لكنّ الكوبيّ كان مثليّاً وسلطاتُ الثورة لم تكن مستعدة للتسامح مع المثليِّين، وهكذا وبعد لحظة تألّقٍ قصيرة جدّاً كتبَ فيها روايتين (قصيرتين

بدورهما) عظيمتي النوعية، لم يتأخّر في أن رأى نفسه مجروراً في خراء وجنون ما كانت تُسمي نفسها ثورة. شيئاً فشيئاً بدأوا ينتزعون منه ما كان يملكه. فقدَ العمل، توقّفوا عن النشر له، حاولوا أن يحوّلوهُ إلى واشٍ للشرطة، لاحقوه، اعترضوا مراسلاته وأخيراً حبسوه. كان هدف الثوريين ظاهرياً: أن يُشفى الكوبيّ من مثليّتِهِ ثم أن يعمل بعد أن يُشفى من أجل الوطن. كلا الهدفين مضحك. تحمّلَ الكوبيُّ. لم يكن، كأمريكي لاتيني جيّد (أو سيّئ)، يخافُ الشرطةَ ولا الفقرَ ولا عدمَ النشر. كانت مغامراته في الجزيرة لا تحصى وصمدَ دائماً، وعلى الرغم من الضغوط، حيّاً ومتيقّظاً. وذات يوم هرب. وصل إلى الولايات المتحدة. بدأت أعمالُهُ تُنشر. بدأ يعمل بمثابرة أكبرَ من قبل، إذا سمح التعبير، لكنّه هو وميامي لم يُخلقا كي يتفاهما. رحل إلى نيويورك. كان له عشّاقه، أصيب بالإيدز: وصل الحال بهم في كوبا أن قالوا لو أنّه بقي هنا ما كان ليموت. استقرّ في إسبانيا بعض الوقت. كانت أيّامُهُ الأخيرة قاسية: كان يريدُ أن ينتهي من كتابة كتابٍ وهو لا يكادُ يملك قوّة كي يضغط على لوحةِ المفاتيح. ومع ذلك أنهاه. كان يجلسُ أحياناً بجانب نافذة شقّتهِ في نيويورك ويُفكّر بما كان باستطاعته أن يكون قد عمله وبما عمله أخيراً. كانت أيامه الأخيرة أيام وحشة وألم وغضبٍ بسبب ما لم يكن يوجد مناص من فقدانه. لم يبغِ أن يُحتَضر في مشفى. حين أنهى آخر كتابٍ له انتحر. هذا ما حكاه لي أرتورو بينما نحن ننتظر الطائرة التي ستخرجه من إسبانيا إلى الأبد. حلم الثورة، كابوس ساخن. أنت وأنا تشيليان، قلتُ له، ولا ذنب لنا بشيء. نظر إليّ ولم يجبني. ضحك بعدها. قبّلني على خدّيَّ وذهب. كلّ الذي يبدأ كملهاة ينتهي كمونولوج هزليّ، لكنّنا ما عدنا نضحك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢٤

كلارا كابِثا، باركِ هوندِيدو، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، تشرين الأوّل ١٩٩٥.

كنتُ سكرتيرةَ أوكتافيو باث. أنتم لا تعرفون حجمَ العمل الذي كان عندي، ما بين أن أكتبَ رسائل، أن أعثرَ على مخطوطاتٍ لا يمكن العثور عليها، أن أهتفَ للمساهمين في المجلة، أن أحصلَ على كتب ما عادت موجودةً إلاّ في جامعة أو جامعتين من جامعات أمريكية الشمالية. بعد عامين من العمل مع دون أوكتافيو أُصِبتُ بصداع مزمن يُهاجمني نحو الساعة الحادية عشرة صباحاً ولا يزول عنّي مهما تناولتُ من الأسبرين، حتى السادسة مساءً. أكثر ما كنتُ أحبُّ على وجه الخصوص هو القيام بالأعمال المنزلية مثل إعدادِ الفطور أو مساعدة الخادمة في تحضير الغداء، هناك كنتُ أُسْعَدُ، ثمّ إنّه كان يشكّل استراحةً لعقلي المُعَذّب. عادةً ما كنتُ أصلُ إلى البيت في الساعة السابعة صباحاً، الساعة التي لا يوجد فيها اختناقات في حركة المرور وإذا وجدت فهي ليست طويلة ورهيبة كما في ساعات الذروة، وأُحَضّر القهوة، الشايَ وعصيرَ البرتقال، قِطْعَتَيّ خبزٍ مُحَمّصتَيْن، فطوراً بسيط وأذهبُ بعدها بالصينية إلى غرفة دون أوكتافيو وأقول له، استيقظْ، يا دون أوكتافيو، صار نهارٌ آخر. ومع ذلك كانت أوّل من تفتح عينيها من بين الجميع هي السيّدة ماريّا

خوسِهْ وكان استيقاظها دائماً فرحاً. كان صوتها يطلع من الظلمة ويقول لي، اتركي الفطور على الطاولة الصغيرة، يا كلارا، وأنا أقول لها صباح الخير، يا سيّدة، صرنا في يوم جديد. كنتُ أذهبُ بعدها إلى المطبخِ مرّةً أخرى وأُحَضّر فطوري، شيئاً خفيفاً كفطور السيّدين، عصيرَ برتقال، فنجانَ قهوة، قطعةَ أو قطعتَيّ خبزٍ مُحمّص مع المربى وبعدها أذهب إلى المكتبة وأبدأ بالعمل.

لا تعرفون حجم الرسائل التي كان يتلقاها دون أوكتافيو ولا كم كان من الصعبِ تصنيفها. كانوا، كما ستتصوّرون، يكتبون له من جهاتِ الأرضِ الأربعة وناسٌ من كلِّ الطبقات، بدءاً من فائزين آخرين مثله بنوبل وحتى شعراء شباب إنكليز وإيطاليون أو فرنسيون. أنا لا أقول إنّ دون أوكتافيو كان يردّ على كلّ رسائلهم، فهو كان يردّ على خمسة عشر أو عشرين بالمائة من تلك التي كان يتلقاها، لكن على كلّ الأحوال يجب تصنيف البقيّة وحفظها، من يدري لماذا، لو كان الأمر بيدي لرميتُ بها بكل سرور في سلّةِ المهملات. من ناحية أخرى كان نظامُ التصنيف بسيطاً، كنّا نوزّعها بحسب الجنسيات، وحين لا تكون الجنسية واضحة (وهذا ما كان يحدثُ عادة مع رسائل من يكتبون إليه بالإسبانية والإنكليزية والفرنسية) كنّا نوزّعها بحسب اللغة. كنتُ أحياناً وبينما أنا أعملُ في المراسلات أُفكّر بيوم عمل سكرتيرات مغنيي الموسيقى الطربية أو الشعبية أو الروك وأتساءل عما إذا كان عليهنّ أيضاً أن يُصارعن مثلي مع كلّ ذلك الكم من الرسائل. ربّما، ما هو أكيد هو أنّه لا تصلهم رسائلُ بكلّ تلك اللغات المختلفة. كان دون أوكتافيو يتلقى أحياناً رسائلَ حتى بالصينية، بهذا أقولُ لكم كلَّ شيء. في تلك الحالات كان عليّ أن أضعَ الرسائل في ملفٍّ كنّا نسميه رسائل *هامشية شاردة*، كان دون أوكتافيو يُراجعها كلَّ أسبوع. بعدها كان يقول لي، لكن هذا كان يحدث بين فترة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأخرى، يا كلاريتا، خذي السيارة واذهبي لتقابلي صديقي ناغاهيرو. تكرمْ، يا دون أوكتافيو، كنتُ أقول له، لكنّ المسألة لم تكن بمثل تلك السهولة كما كان يُصوِّرُها هو. فأوّلاً كنتُ أقضي الصباحَ مُحاولةً أن أهتف له وحين كنتُ أعثر عليه أخيراً كنتُ أقول له يا دون ناغاهيرو، عندي بعض الأشياء أريدك أن تُترجمها لي وكان هو يعطيني موعداً في يوم من ذلك الأسبوع. كنتُ أحياناً أرسلها إليه بالبريد أو مع مُراسلٍ، لكن حين تكون الأوراق مهمّةً وهذا ما كنتُ ألاحظه من وجهِ أوكتافيو، كنتُ أذهب إليه شخصيّاً فلا أتحرّكُ من جانب السيّد ناغاهيرو حتى يُعطيني على الأقل مُلَخّصاً كنتُ أُسَجِّلُهُ اختزالاً في دفتري وأبيّضه بعد ذلك وأطبعُهُ وأتركُهُ على مكتب دون أوكتافيو، على الطرف الأيسر منه، كي يُلقي عليه، إذا رأى ذلك مناسباً، نظرةً ويزيح الفضول عن كاهله.

ثمّ كانت هناك الرسائل التي كان يرسلها دون أوكتافيو. في هذه فعلاً كان العمل يخرج المرء من عقله، فهو اعتاد أن يكتب عدّة رسائل في الأسبوع، ما يقارب السبع عشرة رسالة تقريباً، إلى أماكن لا يطولها الشكُّ من العالم، وهو شيء تُصيب رؤيته عن قرب بالإغماء، فقد كنتُ أتساءلُ كيف بنى هذا الرجل كلَّ تلك الصداقات في أماكن بمثل ذلك الاختلاف بل والتناقض مثل ترييستي وسيدني وقرطبة وهلسنكي ونابولي وبوكاس دِل تورو (بنما) ليموج ونيودلهي وغلاسكو ومونتيرّي، وكان عنده للجميع كلمة مريحة أو فكرة من تلك التي كان يمكن أن يقولها بصوت عال، وكانت تجعل، كما أفترض، المُتلقّي يُفكّرُ ويُشَغّل رأسَهُ. لن أرتكب خطأً أن أكشفَ عمّا كان يقوله في رسائله، فقط سأقول إنّه كان يتكلّم كما يتكلّم في مقالاته دراساته وقصائده تقريباً: عن أشياء جميلة، عن أشياء غامضة وعن الآخر المُختلف، الذي هو شيء فكّرتُ به كثيراً، أعتقد مثل

كثيرٍ من المثقّفين المكسيكيين ولم أستطع أن أتحقّق من ماهيته. شيء آخر كنتُ أقوم به بارتياحٍ شديد هو عمل الممرّضة، فليس عبثاً أنّني اتبعتُ دورتين في الإسعافات الأوّلية. لم يكن دون أوكتافيو في ذلك الوقت في صحّة جيّدة تماماً، وكان عليه أن يتناولَ أدويةً يوميةً، وبما أنّه دائماً كان يُفكّر بأشيائه، فقد كان ينسى متى عليه أن يتناولَها وفي النهاية تختلط عليه الأمور، هل تناولتُ هذا ظهراً أم أنّني لم أتناول ذاك في الثامنة صباحاً، يعني فوضى في أقراص الأدوية، والتي أفتخر بأن أقول إنّني وضعت نهايةً لها، بل إنّني اهتممتُ بأن يتناولَ بدقّة ألمانيةٍ تلك التي كان عليه أن يتناولها حين لا أكون في البيت. لهذه الضرورة كنتُ أهتفُ من شقّتي أو من حيثُ أكون وأقول للخادمة هل تناول دون أوكتافيو دواء الساعة الثامنة؟ وكانت الخادمة تذهبُ لترى فإذا كانت الحبوب التي تركتُها له جاهزة في مغلّفٍ بلاستيكي ما تزال هناك كنتُ آمرها: خذيها إليه وليتناولها. أحياناً لم أكنْ أتكلّمُ مع الخادمة بل مع السيّدة، لكنّني أفعلُ الشيء ذاته: هل تناول دون أوكتافيو دواءه؟ وكانت السيّدة ماريّا خوسِه تضحكُ وتقول لي، آه، يا كلاريسا، هي كانت أحياناً تناديني بكلاريسا، لا أدري لماذا، في النهاية سوف تنجحين في أن تجعليني أغارُ، وحين كانت السيّدة ماريّا خوسِهْ تقولُ هذا، وبما أنّني كنتُ أحمرّ خجلاً وكنتُ أخافُ أن ترى كيف كنتُ أحمرّ خجلاً، كنتُ أقول لنفسي، كم أنتِ غبيّة، كيف ستراه إذا كنّا نتكلّم بالهاتف؟ لكنّ سيّان كنتُ أواصلُ الاتصال بالهاتف وأصرُّ على أن يتناول أدويته في ساعتها، لأنّه إن لم يفعل فلن تفيده في شيء، أليس صحيحاً؟

شيء آخر كنتُ أقومُ به هو تحضير مفكّرةِ دون أوكتافيو، المليئة بالنشاطات الاجتماعية، بالحفلات والمحاضرات، والدعوات لافتتاح معارض رسم، أعياد ميلاد، أو دكتوراه شرف، الحقيقة أنّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المسكين لو حضرَ كلَّ تلك المناسبات ما كان ليكتب سطراً واحداً، لا أقول من دراساتهِ بل ولا حتى من قصائده، وهكذا حين كنتُ أُرَتِّبُ له المفكّرة كان هو والسيّدة ماريّا خوسِهْ يفحصانها بالمجهر ويستبعدان أشياء، كنتُ أحياناً أراقبهما من زاويتي وأقول لنفسي: حسن، يا دون أوكتافيو، عاقبهم بلامبالاتك.

ثمّ جاءت مرحلة باركِ هونديدو، وهو مكان إذا أردتم رأيي ليس له أدنى أهمّية، يمكن أنها كانت له في الماضي، لكنّه تحوَّلَ اليوم إلى أدغال يرتع فيها اللصوصُ والمغتصبون ومتعاطو المخدرات والخمور والنساء سيئات السمعة.

حدث الأمرُ على الشكل التالي. ذات صباح وكنتُ قد وصلتُ توّاً إلى البيتِ ولم تكن الساعة قد بلغت الثامنة بعد، وجدتُ دون أوكتافيو مستيقظاً ينتظرُ في المطبخ. ما إن رآني حتى قال لي. ستعملين معي معروفَ أن تأخذيني في سيارتك إلى المكان كذا، يا كلاريتا. ما رأيكم؟ كما لو أنّني رفضت ذات مرّةٍ أن أعملَ شيئاً طلبه مني. هكذا قلتُ له: أنت تقول إلى أين سنذهب، يا دون أوكتافيو. لكنّهُ قام بإيماءة ولم يقل شيئاً. وخرجنا إلى الشارع. سوّى وضعيّتَهُ بجانبي في السيارة، لِنَقُلْ بالمناسبة إنّها ليست أكثر من فولكسفاكن، أي أنّها ليست مريحة جدّاً. حين رأيته جالساً هناك يعلوه الشرود حزنتُ قليلاً، لأنّني لا أملكُ سيارة أفضلَ قليلاً أقدّمها إليه، وإن لم أقل له شيئاً لأنّني فكّرتُ أيضاً أنّني إذا اعتذرتُ يمكن أن يُفسره هو أنّه نوع من اللوم لأنّه كان في نهاية المطاف هو من يدفعُ لي وإذا لم يكن معي ما أشتري به سيارة أفضل يمكن القول بأنّه هو أيضاً السبب، الأمر الذي ما كنتُ سأعاتبه به أبداً. وبالتالي لزمتُ الصمتُ، وأخفيتُ ذلك بأفضل ما استطعت وأدرتُ المحرّك. جبنا الشوارع الأولى على غير هدى. درنا بعدها في كويواكان ثم دخلنا

في إنسورخِنتِس[١]. حين ظهرت لنا بارِكِ هونديدو[٢] أمرني أن أصفّ حيث أستطيع. نزلنا بعدها واستعلم دون أوكتافيو بعد أن ألقى نظرةً على الحديقةِ التي لم تكن في تلك الساعة مزدحمةً، لكنّها أيضاً لم يكن خاليةً. لا بدّ أنّها تُذكّره بشيءٍ ما، فكّرتُ. كلّما سرنا أكثر صارت الحديقة أكثر وحشة. لاحظتُ أنّ الإهمال أو الاستهتار أو عدم وجود الإمكانيات أو أكثر اللامسؤوليات خِسّة خرّبت الحديقة إلى أقصى الحدود. ما إن توغّلنا جيداً في الحديقة حتى جلسنا على مقعدٍ وراح دون أوكتافيو يتأمّلُ رؤوسَ الأشجار أو السماءَ ثمّ يُتمتم ببعض الكلمات التي لم أفهمها. كان قد حمل معه أدويته وزجاجةَ ماء قبل أن نخرج وبما أنّ ساعة تناولها قد حانت استغللت أنّنا كنّا جالسين وأعطيتُها له. نظر إليّ دون أوكتافيو كما لو أنّني جُنِنْتُ، لكنّه تناول أقراصه دون ينبس ببنت شفة. قال لي بعدها: ابقِ أنتِ هنا، يا كلاريتا ونهضَ وراح يمشي في دربٍ من ترابٍ وإبرِ صنوبرٍ، وأنا أطعته. كان المكان مريحاً، هذا ما يجب الاعتراف به، كنتُ أرى أحياناً في دروب أخرى من الحديقة خادماتٍ يختصرن الطريقَ أو طلاباً قرّروا ألا يذهبوا إلى المدرسة في ذلك الصباح، الهواء قابل للاستنشاق، يبدو أنّ التلوّث لم يكن في ذلك اليوم كبيراً، بل أظنّ أنّني سمعت زقزقةَ عصفور. كان دون أوكتافيو خلال ذلك يمشي. راح يمشي في دوائر هي في كلّ مرّة أكبر وكان يخرج أحياناً عن الدرب ويدوس العشبَ، العشبَ المريض من كثرة ما ديس والجنائنيون لا يبدو أنّهم يعتنون به.

---

(١) المتمرّدون وتُطلق الكلمة على الجيش المكسيكي في فترة الاستقلال ومن هنا جاءت تسمية الشارع بهذا الاسم.

(٢) الحديقة الغائرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عندها كان أن رأيتُ ذلك الرجلَ. أيضاً كان يسيرُ في دوائرَ وتتبعُ خطواتُهُ الدربَ ذاته لكن بالاتجاه المُعاكس، لذلك كان سيمرُّ حكماً بدون أوكتافيو. كان بالنسبة لي نوعاً من الإنذار في صدري. نهضتُ واستنفرتُ كلّ عضلاتي لاحتمال أن يكون تدخلي ضرورياً، ليس عبثاً أنّني اتبعتُ دورة كَاراتيه وجودو قبل بضعِ سنوات عند الدكتور كين تاكيشي، الذي كان يدعى في الحقيقة خِسوس غارثيّا بِدراثا وكان عضواً في الشرطة الفيدرالية. لكنّ الأمرَ لم يحتَجْ إلى ذلك: حين عبر الرجلُ بدون أوكتافيو لم يرفع حتى رأسه. هكذا بقيتُ بلا حراكٍ ورأيتُ التالي: عندما عبر دون أوكتافيو بالرجل، توقّف وبقي مُتَفَكّراً ثم قام بحركة استئناف السير، لكنَّهُ لم يَعُدْ هذه المرّة يسيرُ على عماها أو غيرَ قلق، كما كان يفعل قبل دقائق بل صار يمشي كأنّه يُقَدّر اللحظة التي سيعودُ ويتقاطع فيها خَطّا السير، خطّ سيره وخطّ سيرِ الرجل المجهول. وحين مرّ الرجل المجهول مرّة أخرى بجانب دون أوكتافيو استدار هذا وبقي ينظر إليه بفضول حقيقيّ. أيضاً الرجل المجهول نظرَ إلى دون أوكتافيو، ويمكنني أن أقول إنّه عرفه، وهذا أمر على كلّ الأحوال ليس فيه أيّ غرابة، كلّ الناس، وحين أقول كلّ الناس أعني كلَّ الناس، يعرفونه. حين عدنا إلى البيت كانت حالة دون أوكتافيو النفسية قد تغيّرت بشكل ملحوظ، صار أكثرَ حيوية، وأكثرَ طاقة، كما لو أنّ المشوار الصباحيَّ الطويلَ قد شدَّ من عضده. أتذكّرُ أنّه قرأ خلال الرحلة بالإنكليزيةِ بعضَ أبيات الشعر الجميلة جدّاً، وأنا سألته لمن الأبيات وقال هو اسماً، لا بدأ أنّه اسمُ شاعرٍ إنكليزي، نسيته، سألني بعدها كما لو كي يُغَيِّرَ الموضوع، لماذا كنتُ متوتّرة جدّاً وأتذكّر أنّني في البداية لم أجبه، وربّما فقط صحتُ، أيْ، يا دون أوكتافيو، ثمّ وضّحتُ له أنّ باركِ هونديدو ليس مكاناً هادئاً بالضرورة، مكاناً يستطيع المرء أن يتنزّهَ فيه

ويتأمّلَ دون خوفٍ من أن يُهاجمه عديمو الرحمة. عندها نظر إليّ دون أوكتافيو وقال لي بصوت خرج كما لو من قلبِ ذئبٍ: أنا لا يهاجمني ولا حتى رئيس الجمهورية. وكان من الثقة بنفسه حين قال هذا بحيث أنّني صدّقتُهُ وفَضّلتُ ألاّ أقول شيئاً أكثر.

في اليوم التالي، حين وصلتُ إلى البيت كان دون أوكتافيو بانتظاري. خرجنا دون أن يقولَ أحدُنا للآخر شيئاً وقدتُ، كم أنا ساذجة، باتجاه كويواكان، لكن حين انتبَهَ دون أوكتافيو قال لي أن أتَّجِهَ إلى باركِ هونديدو فوراً. تكرّرت القصّةُ. تركني دون أوكتافيو جالسةً على مقعدٍ وراح يسيرُ في دوائر في مكان اليوم السابق ذاته. أعطيتُهُ قبل ذلك أدويتَهُ فتناولها دون تعليقات كثيرة. بعد قليل ظهرَ الرجلُ الذي كان أيضاً يمشي. حين رآه دون أوكتافيو لم يستطع تفادي أن ينظر إلي من بعيد وكأنّه يقول لي: ها أنتِ ترين، يا كلاريتا، أنا لا أفعل أبداً شيئاً. نظر الرجلُ المجهولُ إليّ أيضاً ثمّ إلى دون أوكتافيو ولثانيةٍ بدا لي أنّه مُتَرَدّد، وأنَّ خطواته صارت أقلّ ثقة، أكثرَ ارتباكاً. لكنّه لم يتراجع، كما خفتُ، وعاد هو ودون أوكتافيو ليسيرا وعادا ليتقاطعا وفي كلّ مرّة يتقاطعان فيها يرفعان نظرهما عن الأرضِ وينظر الواحد منهما إلى وجهِ الآخر وانتبهت إلى أنّهما كانا يسيران مستنفراً الواحدُ منهما من الآخر جدّاً لكنّهما في الدورة الثالثة كانا يسيران مُرَكّزين، وعندها ما عاد أحد منهما ينظرُ إلى الآخر. وأعتقدُ أنّ الذي حدث وقتذاك هو أنّه خطر لي أنّه ما من أحدٍ منهما تكلّم، أقول ما من أحدٍ مهما تمتم بكلماتٍ، بل بأرقام، وأنّ الاثنين كانا يعدّان لا أعرف ما إذا كان خطواتهما، وهو أكثر شيءٍ منطقيٍّ يخطرُ لي الآن، لكن بلى يحسبان شيئاً مشابهاً، أرقاماً اعتباطية، ربّما جمعاً أو طرحاً أو ضرباً أو تقسيماً. حين غادرنا كان دون أوكتافيو متعباً كفاية. كانت عيناه تلمعان، تِلْكما العينان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجميلتان اللتان له، لكن فيما عدا ذلك بدأ أنّه مارس سباقاً. أعترفُ لكم أنّني انشغلت للحظةٍ، بدا لي فيها أنّه إذا ما أصابه شيء فالذنب سيكون ذنبي. تصوّرتُ دون أوكتافيو في نوبة قلبية، تصوّرتهُ ميتاً، ثمّ تصوّرتُ كلَّ كتّاب المكسيك، الذين يحبّونه كثيراً (خاصّة الشعراء) يُحيطون بي في قاعة الانتظار في المشفى حيث اعتاد دون أوكتافيو أن يُجري فحوصاته الطبيّة العامّة، ويسألونني بنظراتٍ عدوانيةٍ واضحة، ما الذي فعلته بالفائز المكسيكي الوحيد بجائزة نوبل، وكيف حدث أن وُجِد دون أوكتافيو مرمياً في باركِ هونديدو، المكان الذي ليس فيه شيء من الشاعرية وبعيدٌ جدّاً عن مسالِكِ رئيسي في المدينة. في خيالي لم أكن أعرف ما الأجوبة التي أعطيها لهم، غير الحقيقة، التي كنتُ أعرفُ من ناحيةٍ أخرى أنّها لن تُقنعهم، فلماذا سأقولها لهم، الأفضل أن ألزم الصمت، وكنتُ في هذا وأنا أقود السيارةَ في جاداتِ العاصمة الفيدرالية وأتصوّرُ نفسي غارقة في حالات مليئة بكلمات الاتهام والتجريم، حين سمعتُ دون أوكتافيو يقولُ لي، هيّا بنا إلى الجامعة، يا كلاريتا، علي أن أقوم باستشارةِ صديق. وعلى الرغم من أنّني رأيتُ دون أوكتافيو في تلك اللحظة طبيعياً جدّاً، كما هو دائماً، وسيّدَ نفسِهِ تماماً كما هو دائماً، إلاّ أنّني في الحقيقة لم أعد أستطيع أن أنزعَ شوكةَ القلقِ من صدري، ثقلَ أكثر التوجسّاتِ سواداً. بلغ هذا أقصاه حين استدعاني دون أوكتافيو إلى مكتبتِهِ وطلَبَ منيّ أن أُعدّ له لائحةً بالشعراء المكسيكيين المولودين، لِنَقُلْ، بدءاً من عام ١٩٥٠، الطلب الذي لا يقلّ غرابة عن غيره، هذا صحيح، لكنه كان، نظراً للقصّةِ التي كنّا نُبْحِرُ فيها، مقلقاً إلى أقصى حد. لا أظنّ أنّ دون أوكتافيو انتبهَ إلى قلقي، الأمر الذي لم يكن صعباً نظراً إلى أنّ يديَّ كانتا ترتجفان ولأنّني كنتُ أشعرُ بنفسي مثلَ عصفور صغير في عاصفة. عاد بعد نصفِ ساعة واستدعاني وحين

ذهبتُ نظرَ إلى عينيّ وسألني عمّا إذا كنتُ أثق به. ما هذا السؤال، يا دون أوكتافيو، قلتُ له، ما هذه الأشياء التي تخطر لك. وكرّرَ السؤالَ، كما لو أنّه لم يسمعني. طبعاً، قلتُ له، طبعاً أثق بك كما لا أثقب بأحد آخر. عندها قال لي: ما أقولُهُ لك هنا، وما رأيتِهِ وما سترينَهُ غداً لا تقولي كلمةً واحدةً عنه لأحد. اتفقنا؟ أُقسم لك بأمّي، السلام على روحها، قلت له. عندها قام بحركة كما لو أنّه يُبعد ذباباً وقال أعرفُ ذلك الفتى. آه، صحيح؟ قلتُ أنا. وقال هو: منذ سنواتٍ كثيرة، يا كلاريتا، خطَّطت مجموعة من ممسوسي اليسار المتطرّف لاختطافي. يا إلهي، يا دون أوكتافيو، قلتُ أنا ورحتُ أرتجف مرّةً أخرى. نعم، قال هو، إنّها النوائب التي يتعرّض إليها كلّ رجل مشهور، يا كلاريتا، كفّي عن الرجَفان، اذهبي وصبّي لنفسكِ كأسَ ويسكي أو أيّ شيء، لكن اهدئي. وهل هذا الرجل من أولئك الإرهابيين؟ سألتُ أنا. يبدو لي ذلك، قال هو. ولماذا كانوا يريدون اختطافك، يا دون أوكتافيو؟ سألتُ أنا. هذا لغز، قال هو، ربّما كانوا متألمين لأنّني لا أكترثُ بهم. ممكن، قلتُ أنا، الناسُ يراكمون الكثير من الضغينة المجانية. لكن ربّما لم يكن الأمر كذلك، ربّما كانت مجرّد مزحة. يا لها من مزحة، قلتُ. الصحيحُ هو أنّهم لم يُحاولوا قط الاختطاف، قال هو، لكنّهم أعلنوه جهاراً ونهاراً وهكذا وصل إلى مسمعي. وماذا فعلتَ حين سمعت؟ سألتُ أنا. لا شيء، يا كلاريتا، ضحكتُ قليلاً، وبعدها نسيتهم للأبد، قال هو.

عدنا في صباح اليوم التالي إلى باركِ هونديدو. كنتُ قد عشتُ ليلةً سيّئة، نصفَ أرقةٍ ونصفَ مصابةٍ بنوبة عصبية لم تستطع ولا حتى قراءتي لأمادو نربو أن تُخفف منها (بين قوسين، لم أقل قط لدون أوكتافيو إنّني أقرأ لأمادو نِربو، بل لدون كارلوس بيّيثِر أو لدون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خوسِه غوروستيثا، اللذين قرأت لهما فعلاً، لكن قولوا لي بماذا تفيد قراءة شعر بِييثِر أو غوروستيثا حين يكون ما يريده المرء هو أن يرتاح، في أحسن الحالات أن ينام، الحقيقة في حالات كهذه الأفضل هو ألا يقرأ شيئاً ولا حتى لِأمادو نِربو، بل أن يُشاهد التلفزيون وكلّما كان البرنامج غبيّاً كلّما كان أفضل) وكان حول عينيّ بقعتان هائلتان مزرقتان لم يكن باستطاعة الماكياج أن يخفيهما حتى صوتي كان أجشّ قليلاً، كما لو أنّني دخّنت ليلاً علبةَ سجائر أو شربتُ أكثرَ من اللازم، أو ما شابه ذلك. لكنّ دون أوكتافيو لم ينتبه إلى شيء وصعد إلى الفولكسفاغن وانطلقنا إلى باركِ هونديدو، دون أن نقولَ شيئاً، كما لو أنّنا طيلة حياتنا نفعلُ الشيءَ ذاته، وهذا بالضبط من الأشياء التي كانت تُثير أعصابي، تلك السهولة التي يتكيّف بها الكائنُ البشري مع أيّ شيء. أي: إذا ما رحتُ أُفَكّر بوضوح، كما كان عليّ أن أفعل، وأقول لنفسي إنّنا ذهبنا إلى باركِ هونديدو مرّتين فقط، وإنّ تلك هي الثالثة، حسن كنتُ أجد صعوبة في تصديق ذلك لأنّه حقيقةً بدا لي أنّنا ذهبنا مرّاتٍ أكثر بكثير، وإذا قبلتُ أنّنا ذهبنا مرّتين فقط، ستكون النتيجة أسوأ لأنّها ستنتابني وقتها رغبة بأن أصرخ أو أفجر نفسي صادمة الفولكسفاغن بجدار، ولذلك كان عليّ أن أتحكّم بنفسي وأركّز على المِقود وألا أُفكِّر ببارِكِ هونديدو ولا بذلك الرجل المجهول الذي كان يزورها في الساعة ذاتها التي نزورها فيها نحن، بكلمات قليلة لم أكن في ذلك الصباح كامِدةَ العينين وحسب بل وكنتُ متأثرة بشكل غير عقلاني. والآن حسن، ما حدث في ذلك الصباح، بعكسِ توقّعاتي، كان مختلفاً جدّاً.

وصلنا إلى باركِ هونديدو. هذا شيء واضح. دخلنا الحديقةَ وجلسنا على المقعد ذاته بحماية شجرة كبيرة ووارفة وإن افترضت

أنّها مريضة مثل كلّ أشجار العاصمة الفيدرالية. وعندها وبدل أن يتركني دون أوكتافيو وحدي على المقعد، كما فعل في المرّتين السابقتين، سألني عمّا إذا كنتُ قد فعلت ما كلّفني به البارحة وأنا قلتُ له بلى، يا دون أوكتافيو، وضعتُ لائحة بأسماء كثيرة جدّاً فابتسم وسألني عمّا إذا كنتُ حفظت تلك الأسماء عن ظهر قلب، وأنا نظرت إليه كما لو أنّني أسأله عمّا إذا كان يسخر منّي أم لا، وأخرجتُ اللائحة من حقيبتي وأريتُها له فقال: يا كلاريتا، تحقّقي من هويّة هذا الفتى. هذا ما قاله لي. وأنا نهضتُ مثل بلهاء ورحتُ أنتظر المجهولَ ولكي أتحايل على الانتظار رحتُ أسير حتى انتبهت إلى أنّني أُكرّر خط سير دون أوكتافيو في اليومين السابقين، وعندها تجمّدتُ دون أن أجرؤ على النظر إليه، ونظري مغروز في المكان الذي كان يجب أن يظهر فيه المجهول، الذي كان عليّ أن أتحقّقَ من هويته. وظهر المجهولُ في ذاتِ ساعةِ المرتين السابقتين وراح يمشي، وهنا لم أبغِ أن أماطل بالقضية أكثر وأوقفته وسألته من يكون. وهو قال لي عوليس ليما، شاعر واقعي أحشائي، الشاعر الواقعي الأحشائيّ ما قبل الأخير الموجود في المكسيك، هكذا تماماً، على الرغم من أنّني بقيتُ ليلة البارحة أُراجعُ فهارسَ أكثر من عشرة مختارات شعرية جديدة وغير جديدة كثيراً، بينها مختارات ثاركو الشهيرة حيث أُحصيَ أكثر من خمسمائة شاعر شاب. لكنّني لا أتذكّر اسمه أبداً. وعندها سألتُه: هل تعرف من يكون السيّد الجالس هناك؟ فقال لي: بلى أعرفه. وأنا سألته (كان عليّ أن أتأكّد) من؟ فقال هو: أوكتافيو باث. وأنا سألته هل تريد أن تأتي لتجلس معه برهة؟ وهو هزّ كتفيه وقام بحركة مشابهة فسّرتُها كموافقة وسرنا باتجاه المقعد من حيث بقي دون أوكتافيو مهتمّاً جدّاً بحركاتنا. حين وصلنا إلى قربه لم يَبدُ لي تقديمُهما لبعضهما بعضاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شيئاً فائضاً عن الحاجة، وهكذا قلت: دون أوكتافيو باث، الشاعر الواقعي الأحشائيّ عوليس ليما. وعندها قال دون أوكتافيو في الوقت الذي دعا فيه المدعوَّ ليما للجلوس: واقعي أحشائي، واقعي أحشائيّ (كما لو أنَّ الاسم يُذَكِّرُهُ بشيء)، ألم تكن هذه جماعة ثِساريا تيناخِرو الشعريّة؟ وجلس المدعوُّ ليما بجانب دون أوكتافيو وتنهّد أو أحدث صوتاً غريباً برئتيه وقال بلى، هكذا كانت تُدعى جماعة ثِساريا تيناخِرو. مكثا دقيقةً أو ما يقاربها ساكِتَيْن ينظرُ الواحدُ منهُما إلى الآخر. دقيقة غير محتملة أبداً، إذا كان عليّ أن أكون صريحة. رأيتُ في البعيدِ تحت بعض الشُّجَيرات صعلوكَيْن يظهران. أظنّ أنّني توتّرتُ قليلاً وهذا ما دفعني لأن يخطر ببالي الخاطرَ السيّءَ بأن أسألَ دون أوكتافيو ما هذه الجماعة وما إذا كان يعرفها. في الوقت الذي كان باستطاعتي أنّ أُعَلّق على الطقس. عندها نظر إليّ دون أوكتافيو بتلكما العينين الجميلتين اللتين له، وقال لي، يا كلاريتا، حين ظهرت الواقعية الأحشائيّة بالكاد كنتُ في العاشرة من عمري، حدث هذا في حدود ١٩٢٤، أليس صحيحاً، قال متوجّها إلى المدعو ليما. وهذا قال بلى، تقريباً، في العشرينات، لكنّه قال هذا بكثير من الألم في صوته، بكثير من.... التأثّر أو الحزن بحيث أنّني فكّرتُ أنّني لن أسمع بعدها صوتاً أكثر حزناً. بل أعتقدُ أنّني دختُ. عينا دون أوكتافيو وصوتُ المجهول والصباحُ وبارك هونديدو، المكان السوقيّ جدّاً، أليس صحيحاً، المُدَمر جدّاً، جرحتني، لا أدري بأيّ طريقة، في أعمق أعماقي. وهكذا تركتُهما يتحدّثان بهدوءٍ وابتعدتُ بضعةَ أمتار إلى أقرب مقعد بذريعة أنّ عليّ أن أدرسَ مفكّرة اليوم وحملت معي في طريقي اللائحة التي وضعتها بأسماء آخر أجيال الشعراء المكسيكيين وراجعتها من أوّلها إلى آخرها. ولم يكن عوليس ليما في أيّ منها، أستطيع أن أؤكّد. كم

من الوقت تحدّثا؟ ليس كثيراً. يُحزر من المكان الذي كنتُ فيه، هذا صحيح، أنّه كان حديثاً لطيفاً، رزيناً ومُتسامِحاً. نهض بعدها الشاعرُ عوليس ليما، شدّ على يد دون أوكتافيو وغادر. رأيتُهُ يبتعد باتجاهِ أحد مخارج الحديقة. الصعلوكان اللذان رأيتهما بين الشجيرات وصارا الآن ثلاثة راحوا يقتربون منّا. هيّا بنا، يا كلاريتا سمعتُ دون أوكتافيو يقول لي.

في اليوم التالي تماماً كما توقّعت لم نذهب إلى بارك هونديدو. نهض دون أوكتافيو في العاشرة صباحاً وكان يُحَضّر مقالاً كان عليه أن ينشره في العددِ القادم من مجلتِهِ. خطر لي في لحظةٍ ما أن أسألَهُ أشياء أكثر عن مغامرة أيامنا الثلاثة، الصغيرة، لكنّ شيئاً في داخلي (ربّما شعوري العام) جعلني أتراجع عن الفكرة. جرت الأمور تماماً كما جرت، وإذا لم أكن أعرفُ، أنا الشاهدة الوحيدة، ما جرى، فالأفضل لي أن أستمرّ في جهلي. بعد أسبوع تقريباً، ذهب هو مع زوجته ليقدّم سلسلة من المحاضرات في جامعة أمريكية شمالية. طبعاً لم أرافقهما. وذات صباح ولم يكن قد عاد بعد، ذهبتُ إلى باركِ هونديدو آملة أو خائفة مِن أن أرى عوليس ليما يظهر من جديد، مع فارق أنّني لم أكن مكشوفة لأحدٍ بل متخفَيْة خلف بعض الشُّجَيرات، سمحت لي، هذا صحيح، برؤيةِ الفسحة التي التقى فيها دون أوكتافيو والمجهول تماماً. في الدقائق الأولى من انتظاري كان قلبي يمضي بسرعة مائة. كنتُ مُتجَمِّدة من البرد، ومع ذلك حين كنت ألمس خدّي كان ينتابني إحساس بأنّ وجهي سوف ينفجر بين لحظة وأخرى. جاءت بعدها الخيبة وحين غادرت الحديقة عند العاشرة صباحاً، وأكثر من ذلك يمكن أن أؤكّد أنني كنتُ سعيدةً، لكن لا تسألوني لماذا، لأنّني لن أعرف كيف أقوله.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ماريّا تِرِسا سولْسونا ريبوت، صالة جورديز جيم الرياضة، شارع جوسِب تارّادِيَّاس، مالْغراتْ، كتلونيا، كانون الأوّل ١٩٩٥.

القصّة محزنة، لكنّني أضحكُ حين أتذكّرُها. كنتُ بحاجة لأن أؤجّر إحدى غرفِ شقّتي وكان هو أوّل من وصل، وبدا لي أقرب إلى الشخص الطيّبِ فقبِلْتُهُ، على الرغم من أنني أرتابُ قليلاً من الأمريكيين الجنوبيين. دفع لي شهرين مُقدّماً وأغلق على نفسه غرفتَهُ. كنتُ أحضرُ في ذلك الوقت كلَّ بطولاتِ ومعارض كتلونيا وأعمل أيضاً نادلةً في مشربِ لاسيرِنا، الموجود في منطقة مالغراتْ السياحية بجانب البحر. حين سألتُهُ ماذا يعمل أجابني إنّه كاتب ولا أدري لماذا خطر لي أنّه يعمل في إحدى الصحف، أنا التي كانت عندها لِنَقُلْ نقطةَ ضعفٍ خاصّة تجاهَ الصحفيين. هكذا قرّرتُ أن أتصرّفَ بشكلٍ جيدٍ وذهبتُ في الليلةِ الأولى التي أمضاها في بيتي إلى غرفته، قرعتُ البابَ ودعوتُهُ ليتناول العشاء معنا أنا وبّبٍّ في مطعم باكستاني. طبعاً لم نأكل أنا وبِّبٍّ في ذلك البار شيئاً، فقط سلطة أو ما شابهها، لكنّنا كنّا صديقين لصاحبه، السيّد جون، وهذا ما يمنحنا بعض الامتياز. عرفتُ في تلك الليلة أنّه لا يعملُ في أيِّ صحيفة، بل يكتب روايات. وهذا ما أثار حماس بِبٍّ، لأنَّ بّبٍّ متعصّب لروايات الألغاز وبقيا يتكلمان وقتاً كافياً. في هذه الأثناء كنتُ أتذوّق سلطتي وأنظرُ إليه وهو يتكلّمُ ويُصغي إلى بّبٍّ وأشكّل شخصيتَهُ. كان يأكل بشهيّة وكان مهذّباً، هذا في المرّة الأولى. راحت بعدها كلّما راقبتهُ أكثر، تظهرُ أشياءُ أخرى، أشياءٌ تملصُ مثل تلك الأسماك التي تقترب من ضفّة البحر حين لا يغمرك الماء وترى أشياء داكنة (أكثر دَكَناً من الماء) تمرّ سريعة جدّاً بجانبِ رجليك.

غادر بّبٍّ في اليوم التالي إلى برشلونة ليُنافس في ميستِر أوليمبيا

كتلان[1] ولم يعد بعدها. في ذلك الصباح ذاته التقينا أنا وهو في الصالون بينما كنتُ أمارس تماريني. أنا أمارسُها كلَّ يوم. في أيام الذروة، أمارسُها في الساعةِ الأولى من الصباح، لأنّ وقتي أضيق وعليّ أن أستغلَّ اليومَ إلى أقصاه إذن هكذا كنتُ هناك في الصالون، أمارسُ تماريني على الأرض ويظهرُ هو ويقولُ لي صباح الخير، يا تِرِسا ويدخلُ بعدها إلى الحمّام، أظنّ أنّني لم أردّ عليه أو أنّني رددتُ بغمزةٍ، فأنا لستُ معتادة على أن يقاطعوني، سمعتُ بعدها خطواته من جديدٍ وبابَ الحمّامِ أو المطبخِ يُغلَقُ وسمعتُهُ بعدها يسألُني عمّا إذا كنتُ أريدُ أن أشربَ شاياً. قلتُ له بلى، وبقينا برهة ينظرُ الواحد منّا إلى الآخر. بدا لي أنّه لم يرَ قط امرأةً مثلي. هل تريد أن تقوم ببعض التمارين؟ سألتُهُ، طبعاً قلتُ له هذا لمجرّد القول. كان وجهُهُ مُقَطّباً ويُدخّن. قال لي تماماً كما توقّعتُ، لا. الناس لا تهتمّ بصحّتها إلا حين تدخل المشفى. ترك فنجانَ شايٍ على الطاولة وأغلقَ على نفسه غرفته، بعدها سمعتُ الضربَ على الآلة الكاتبة.

في ذلك اليوم لم نرَ بعضنا بعدها. ومع ذلك ظهرَ صباحَ اليوم التالي في الصالون قرابةَ السادسة صباحاً وعرضَ أن يحضّر الفطور. في تلك الساعة أنا لا آكلُ ولا أشربُ شيئاً، لكنّه أحزنني، لا أعرفُ، أن أقولَ له لا، هكذا تركته يُحضر لي فنجانَ شاي آخر ويُخرجُ في طريقه حنجورَيّ الأمينو أولترا والبورنر، اللذين كان عليّ أن أتناولهما ليلة أمس ونسيتُ أن أفعل. ماذا، قلتُ له، ألم ترَ قط امرأةً مثلي؟ لا، قال هو، أبداً. كان صريحاً كفايةً، لكنَّ صراحته كانت من النوع الذي لا تعرفين ما إذا كنتِ ستشعرين معها بالإهانة أم بالإطراء.

في ذلك المساء عندما انتهيتُ من نوبتي، ذهبتُ لأبحثَ عنه

---

(١) بطولة كمال الأجسام الكتلانية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقلتُ له أن نخرج لنقوم بجولة. قال إنّه يُفضّل أن يبقى يعمل في البيت. أدعوكَ لتناول كأس، قلتُ له. شكرني وقال لا. في صباح اليوم التالي تناولنا الفطور معاً. كنتُ أمارس تماريني وأسأل نفسي أين حشرَ نفسه، لأنّ الساعةَ كانت السابعة وخمساً وأربعين دقيقة ولم يخرج بعد. أنا عندما أبدأ أُمارس تماريني عامة ما أترك عقلي يتجوّل بكامل حرّيته. في البداية أُفكّر بشيء مُحَدّد، مثل عملي، أو منافساتي، لكنّ رأسي يبدأ بعدها يعملُ بطريقةٍ مستقلّة، يمكن أن يُفكّر سواءً بطفولتي أو بما سأقوم به من الآن وحتى سنة. في ذلك الصباح بينما كنتُ أُفكِّر بمانولي سالابِرت، التي أينما تحلُّ تفوزُ بكلّ ما يجب الفوز به، وكنتُ أسأل نفسي كيف تتدبّر مانولي أمرَها حتى يحدث ذلك، سمعتُ فجأةً بابَهُ يُفتح ثمّ بعدها بقليل صوتَهُ يسألُني عمّا إذا كنتُ أريد شاياً. طبعاً أريدُ شاياً، قلت له. وحين جاء به، نهضتُ وجلستُ إلى الطاولة معه. مكثنا في تلك المرّة قرابةَ الساعتين نتكلّم. حتى التاسعة والنصف حيث كان عليّ أن أخرجَ بسرعة في طريقي إلى مشرب لا سيرِنا لأنّ المُشرفَ، وهو صديق، كان قد طلب منّي أن أُسوّي قضية مع السيدات، عاملاتِ النظافة. تكلّمنا قليلاً عن كلّ شيء. سألتُهُ ما الذي كان يعمله. قال كتاباً. سألتّه عمّا إذا كان يتعلّق بكتاب حبّ. لم يعرف بماذا يجيبني. عدتُ وسألتُهُ وقال إنّه لا يعرف. إذا كنتَ أنت لا تعرف، يا حلو، قلتُ له، فمن هو البائس الذي سيعرف. أو ربّما قلتُ له هذا ليلاً حين صارت الثقةُ بيننا أكبر. على كلّ الأحوال كان موضوع الحبّ واحداً من الموضوعاتِ التي أحبُّها وبقينا نتكلّم حتى اضطررت لأن أذهب. قلتُ له إنّ باستطاعتي أن أحكي له بعض الأشياء عن الحبّ. وإنّني كنت متورّطة مع الناني، بطل كمال الأجسام في مقاطعة خيرونا، وإنّني كنتُ أشعرُ بعدَ تلك التجربة بأنني قادرة على أن أَمْنَحَ كرسيَّ

أستاذية. سألني منذ متى لا أخرج معه. منذ قرابة الأربعة أشهر، قلتُ له. هل هو من تركك؟ نعم، اعترفتُ، هو من تركني. لكنّك الآن تخرجين مع بِّبّ. وضّحتُ له أنّ بِّبّ شخصٌ طيّب، شبه ملاك، غير قادر على أن يؤذي ذبابة. لكنَّ الأمر مختلف، قلتُ. كان عند أرتورو عادة لا أدري هل أعتبرها حسنة أم سيّئة. كان يسمع ولا يُشارِكُ. أنا أحبُّ أن يُعبّر الناسُ عن آرائهم حتى ولو كانت هذه ضدّي. دعوته ذات مساء ليأتي إلى لا سيرِنا. قال إنّه لا يشربُ، وبالتالي فإنّ الدخولَ إلى مشربٍ فيه شيء من البلاهة. سأُحَضّر لكَ زهورات، قلتُ له. لم يذهب ولم أدعه بعدها. أنا مضيافة ولطيفة لكنّني لا أحبُّ أن أُصْبِحَ ثقيلة.

ومع ذلك ظهرَ بعد قليل في المشرب وحضّرتُ له بنفسي الزهورات. صار منذ ذلك الوقت يذهبُ يوميّاً. فكّرتْ روسيتا، النادلةُ الأخرى أنّ بيني وبينه شيئاً. حين قالت لي ذلك ضحكتُ. فكّرتُ برهة ثمّ ضحكتُ كيف يمكن أن يكون هناك شيء بيني وبين أرتورو! لكنّني عدتُ دون مناسبة لأُفكّرَ بالأمر وعَرَفْتُ أنّني كنتُ أريدُ أن أكون صديقته. حتى ذلك الوقت كنتُ قد تعاملتُ مع أمريكيَّيْن جنوبيَّيْن اثنين فقط، مزعجين كفاية، وبالتالي لم أكن أرغبُ بتكرار التجربة. ولا مع أيّ روائي. كان هذا أمريكياً جنوبيّاً وكاتباً وأنا اكتشفتُ أنّني أُريدُ أن أصبح صديقته. ثم إنَّ من الأفضل أن أتقاسم الشقّة مع صديق وليس مع مجهول. لكنّ رغبتي بأن أصيرَ صديقة له لم تكن لأسبابٍ عملّية. ببساطة هكذا كنتُ أشعرُ ولم أكن أسأل نفسي لماذا. هو أيضاً كان يحتاج لأحدٍ، هذا ما انتبهتُ إليه فوراً. طلبتُ منه ذات صباح أن يحكي لي شيئاً عن نفسه. كنتُ دائماً من تحكي. في تلك المرّة لم يحكِ لي شيئاً، لكنّه قال لي أن أسأله ما أريد. عَرَفتُ أنّه عاش بالقرب من مالغراتْ وأنّه ترك بيته منذ وقت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قصير. لم يقل لي لماذا. عرفتُ أنّه كان مُطَلّقاً وأن عنده ابناً. كان ابنه يعيش في أرِنيس دِ مار. كان يذهبُ مرّةً في الأسبوع، أيّامَ السبت، ليراه. كنّا نأخذُ أحياناً القطار معاً، أنا أذهبُ إلى برشلونة لأرى بَبِّ أو صديقاتِ وأصدقاءَ الرياضة وهو إلى أرِنيس ليرى ابنه. وذات ليلة بينما كان يشرب الزهورات في لاسيرِنا سألتُه كم عمره، أكثر من أربعين، قال، على الرغم من أنّه لم يكن يظهر عليه كنتُ سأعطيه خمساً وثلاثين كحدّ أقصى، هذا ما قلتُهُ له. بعدها ودون أن يسألني هو، قلتُ له عمري. خمس وثلاثون سنة. عندها ابتسم لي ابتسامة لم تعجبني إطلاقاً. ابتسامة مُعَقّدٍ أو مستهتر. حسن ابتسامة لم تعجبني. أنا أساساً مُصارعة. أُحاول أن أرى الجانبَ الإيجابيَّ في الحياة. الأشياء ليست بالضرورة سيّئة أو حتمية. في تلك الليلة بعد ابتسامته، قلتُ له، لا أدري لماذا، إنّه ليس لي أولاد، على الرغم من أنّه كان يسحرني ذلك ولم أتزوّج وليس عندي مال كثير، كان هذا ظاهراً، لكنّني أعتقدُ أنّ الحياةَ يمكن أن تكون شيئاً جميلاً، حلوة. وأن على الإنسان أن يُحاول أن يكون سعيداً في الحياة. لا أدري لماذا قلتُ له كلّ تلك الترهات. ندمتُ على الفور. هو بالطبع قال فقط، طَبْعاً، طبْعاً، كما لو أنّه يتكلّم مع غبيّة. على أيِّ حال: كنّا نتكلّم. وفي كلِّ مرّة أكثر: في الصباحاتِ أثناءَ الفطور، وفي الليالي حين كان يأتي إلى لاسيرِنا، بعد أن يكونَ قد انتهى من عمله اليوميّ، أو أثناء استراحة من عملِهِ اليوميّ، لأنّه يبدو أنّ الكتّابَ دائماً يعملون: أتذكّرُ أنّني كنتُ أسمعُ في نومي الضربَ على آلته الكاتبة في الرابعة صباحاً. وكنّا نتكلّم عن كلّ شيء. سألني مرّة، بينما كان يراقبني وأنا أرفع أثقالاً، لماذا كرّستُ نفسي لكمال الأجسام. لأنّني أحبُّه، أجبتُهُ. منذُ متى؟ سألني هو. منذ كنتُ في الخامسة عشرة من عمري، قلتُ له. هل ترى أنّه غير أنثويّ؟ هل

يبدو لك شاذّاً. لا، قال، لكنّه لا يكثر بين البنات. تبّاً، فعلاً إنّه يخرجني عن صوابي أحياناً. كان عليّ أن أُجيبه بأنّني لستُ بنتاً بل امرأة، وبدلَ هذا قلتُ له، إنّه في كلّ مرّة هناك نساء أكثر يكرّسن أنفسهنّ لذلك. بعدها لا أدري لماذا حكيتُ له عن تلك المرّةِ التي اقترح عليّ فيها بِّبّ، قبل صيفين، أن ألعب بعض الأدوار في غرامانِت في مرقصٍ في غرامانِت. منذ صيفين وضعوا لنا جميعاً أسماء فنّية. أنا سموني شمشومة. كان عليّ أن أمثل في حلبة عرض الفتيات أوّلاً بأوّل[1] وأن أرفع أثقالاً. كان هذا كلّ شيء. لكّني لم أحبّ الاسمَ. فأنا لستُ أيّ شمشومة، أنا تِرِسا سولسونا ريبوت، نقطة وانتهى. لكنّها كانت فرصة، ولم يكونوا يدفعون أجراً سيّئاً وقال بِّبّ إنّه يمكن أن يظهر في أيّ ليلة شخصٌ يعمل باحثاً عن موديلات للمجلات المتخصِّصة. في النهاية لم يظهر أحدٌ وإذا كان قد ظهر فأنا لم أعلم به. ومع ذلك كان عملاً وعملته. ما الذي لا يُعجبكِ في هذا العمل؟ سألني. حسن، أجبته بعد أن فكّرتُ برهةً، الذي لم يعجبني هو الاسم الفنّي الذي أطلقوه عليّ. ليست المسألةُ أنّني ضدَّ الأسماء الفنيّة، لكنّني أُفكّر أنّه إذا فكّر أحد أن يتخذ اسماً آخرَ فمن حقّه أيضاً أن يختاره. أنا لا أرى نفسي شمشومة. الاسمُ سوقيّ ومبتذل، يعني أنا ما كنتُ لأختاره. وما الاسم الذي كنت ستختارينه؟ كيم، قلتُ له، لأجل كيم تشيزيفيسكي. ومن تكون كيم تشيزيفيسكي؟ بطلة من بطلات هذه الرياضة، قلتُ له.

في تلك الليلة أريتُهُ بعدها ألبومَ صور كان عندي تظهر فيه كيم تشيزيفيسكي، وليندا موراي الرائعة، وسوي برايس ولاورا غريفل وديبي موجلي وميتشل ارابات ونتاليا مورنيكوفين وخرجنا بعد ذلك

(١) En el estrado de las go-go girles

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لنتمشى في مالغراتْ، من المؤسف أنّه لم يكن عندنا سيّارة، إذ لو كانت عندنا لكنّا ذهبنا إلى مكان آخر، إلى أحدِ مراقص لوريت مثلاً ففي لوريت أعرف ناساً كثيرين. سبق وقلت: أنا اجتماعية وعندي استعدادٌ للسعادة، وأين السعادة إن لم تكن في الناس؟ أخيراً، هكذا رحنا نصبح أصدقاء. هذه هي الكلمة. كنّا نحترم بعضنا بعضاً وكان كلّ واحدٍ يُمارس حياته، لكنّنا صرنا نتكلّم كلّ يوم أكثر. أي راح الكلامُ يصبحُ عادةً عندنا. عامّةً ما كنت أنا من تبدأ، لا أعرف لماذا، ربّما لأنّه كاتب. وبعدها، يتابع هو ديمقراطيّاً. عرفت أشياء كثيرة عن حياته. كانت زوجتُهُ قد هجرته، وكان يعبدُ ابنه، في مرحلة من حياته كان لديه أصدقاء كثر، لكن الآن لا يكاد يكون عنده أحد. قال لي ذات ليلة إنّه وقع في مشكلة مع امرأة في الأندلس. أصغيتُ إليه بصبرٍ وقلت له بعدها إنّ الحياةَ طويلة وهناك نساء كثيرات في العالم. وهنا وقع أوّل خلافٍ مهمّ بيننا. هو قال لا: بالنسبة إليه لا توجد كثيرات ثمّ ذكر قصيدةً رجوته أن يكتبها لي كي أحفظها عن ظهر قلب. كانت القصيدةُ لِفرنسيّ. تقول على وجه التقريب إنّ اللحم حزين وإنّه، أي الشاعر الذي كتب القصيدة، قد قرأ كلّ الكتب. لا أعرفُ ماذا أقول، قلتُ له، أنا قرأت قليلاً جدّاً، لكن على كلّ الأحوال يبدو لي محالاً أن يستطيعَ أحدٌ، مهما قرأ، أن يقرأ كلّ كتب العالم، التي أتصوّر أنّها كثيرة جدّاً. لا أقول كلّ الكتب، الجيّدة والسيّئة، بل فقط الجيّدة. لا بدّ أنّها كثيرة جدّاً، كما لو كي يقضي المرء أربعاً وعشرين ساعة يومياً في القراءة! ولا نقول السيّئة، التي يجب أن تكون، ككلّ شيء في الحياة، أكثر بكثير من الجيّدة، لا بدّ أن يكون هناك كِتابٌ جيّد ويستحقُّ أن يُقرَأ. بعدها رحنا نتكلّم عن «اللحم الحزين»، ماذا يريد أن يقول من هذا؟ هل يعني أنّه ضاجع كلّ نساء العالم؟ وأنّه طالما قرأ كلَّ كتب العالم فإنّه ضاجع

كلّ نساء العالم؟ اعذرني، يا أرتورو، قلتُ له، لكن هذه القصيدةُ حقيقةٌ تافهة. لا هذا ولا ذاك ممكن. وراح هو يضحك، يبدو أنّه يستظرف الكلام معي، وقال بلى ممكن. لا، قلتُ له، ليس ممكناً. الذي كتب هذا شبحٌ. وبالتأكيد لم يُضاجع إلا القليل جدّاً من النساء، هذا أكيد. وأكيد أيضاً أنّه لم يقرأ هذا الكمَّ من الكتب كما يتبجَّح. كان بودّي أن أقول له بضعَ حقائق أخرى، لكن كان من الصعب الحفاظ على خيط الحديث، فقد كان عليّ أن أخرجَ من وراء طاولةِ العرض كلَّ برهة كي أخدمَ الجمهور. كان أرتورو جالساً على تابوريه وحين كنتُ أخرجُ أنظرُ إلى ظهره وعنقه، مسكين، أو أبحث عن وجهه في مرآة رفوفِ الزجاجات. بعدها انتهت ورديّتي، في ذلك اليوم خرجت في الثالثة صباحاً ورحنا نمشي إلى البيت وفي لحظةٍ معينة اقترحتُ عليه أن ندخل إلى ملهى على طريق الشاطئ، لكنّه قال إنّهُ نعس، وهكذا ذهبنا إلى البيت، وبينما نحن نسيرُ سألته، كما لو أنّني أسايره، ماذا يجب أن يفعل المرءُ بعد أن يقرأ كلَّ الكتب ويضاجعَ كلَّ النساء، طبعاً بحسبِ الشاعرِ الفرنسي، وهو قال يُسافرُ، يذهب، وأنا قلتُ أنت ولأنّك لا تُسافرُ ولا حتى إلى بينِدا[1]، وهو لم يجبني بشيء.

يا للأشياء، بدءاً من تلك الليلة لم أستطعْ أن أنسى تلك القصيدة، صرتُ أُفكّر بها، لا أقول باستمرار، بل كثيراً فعلاً. كانت ما تزال تبدو لي مُبتذلة، لكنّي لم أكن أستطيع أن أنزَعَها من رأسي. وذات ليلة لم يأتِ فيها أرتورو إلى لاسيرِنا ذهبتُ إلى برشلونة. يحدث معي أحياناً: لا أعرفُ ماذا أفعل. عدتُ في اليوم التالي في العاشرة صباحاً، في وضع مأساويّ. حين وصلتُ إلى البيت، كان

---

(١) بلدة في كتلونيا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في غرفته. دخلتُ في فراشي ورحتُ أنام وأنا أشعر بضربهِ على الآلة الكاتبة. عند منتصف النهار طرقَ بابي، وبما أنّني لم أجب دخل وسألني ما إذا كنتُ بخير. ألن تذهبي اليوم إلى العمل؟ سألني. ليذهبوا بالعمل إلى الجحيم. سأعدُّ لكِ فنجانَ شاي، قال هو. نهضتُ قبل أن يأتيني به وارتديت ملابسي ووضعت نظارة سوداء وذهبت لأجلس في الصالون. ظننتُ أنّني سأتقيّأ، لكنّني لم أفعل. كان هناك كدمة على خدي لا أستطيع أن أخفيها بأيّ شيء فانتظرتُ أسئلته. لكنّه لم يوجّه إليّ أيّ سؤال. معجزة أنّهم لم يطردوني في تلك المرّة من لاسيرِنا. في الليل أردتُ أن أخرج لأتناول بعض الكؤوس مع بعض الأصدقاء ورافقني أرتورو. كنّا في مشربٍ في باسيو ماريتيمو[١] ثم وجدتُ أصدقاء آخرين وتابعنا لهونا في بلانِس وفي يورِت. في لحظة من الليل قلتُ لأرتورو إنّ عليه أن يكفَّ عن الترهات ويتفرّغ لابنه ورواياته. إذا كان هذا هو أكثر ما تُحب، فَتَفَرّغْ له. هو كان يُحبّ ولا يحبُّ أن نتكلّم عن ابنه. أراني صورةً للطفل، لا بدّ أنّه في الخامسة من عمره وكان مثل والده، كم أنت محظوظ، يا وغد! قلتُ له. بلى أنا محظوظ جدّاً، قال هو. إذن لماذا تريد أن تذهب، يا صعلوك. . . لماذا تُحب أن تُقامر بصحّتك، إذا كنتَ تعرف أنّها ليست على ما يرام، هه؟ لماذا لا تتفرّغ للعمل والسعادة مع ابنك وتبحث عن امرأة تُحبُّكَ حقيقةً؟ غريب: هو لم يكن سكراناً، لكنّه كان يتصرّف كما لو أنّه كذلك. كان يقول إنّه يتمثّلُ سَكَرَ الآخرين. أو ربّما أنا من كنتُ سكرانة ولا أعرف أنّ أميّز شخصاً سكراناً من آخر غير سكران.

هل كنتُ تسكرُ في السابق؟ سألتُهُ ذات صباح. طبعاً، قال هو،

(١) الكورنيش البحري.

مثل الجميع، على الرغم من أنّني كنتُ أُفضّل أن أُحافِظ على وقاري. كنتُ أتصوّر ذلك، قلتُ له.

اضطُرِرْتُ ذاتَ ليلة لأن أتشاجر مع شخص حاول أن يتمادى. حدث هذا في لاسيرِنا. الرجل شتمني فقلتُ له أن يخرج ويكرِّر لي ما قاله. لم أنتبه إلى أنّ الرجل كان مُرافَقاً. هذه الفورات هي التي سوف تهلكني ذات يوم. خرجَ الرجلُ خلفي فعملت له مفتاحاً ورميتُ به على الأرض. حاول أصدقاؤه أن يُدافعوا عنه، لكنّ المسؤول عن لاسيرِنا وأرتورو ردعاهم. حتى تلك اللحظة لم أكن قد انتبهتُ إلى أيّ شيء، لكنّني حين رأيتُ أرتورو والمشرف على لاسيرِنا، لا أدري ماذا أصابني، شعرتُ بنفسي حرّةً، هذا فوق كلّ شيء، وأيضاً شعرت بنفسي محبوبة، مغطاةً ومحميّة، شعرتُ بأنني أستحق ذلك وهذا ما أسعدني. يا للأشياء، في تلك الليلة ذاتها بعدها بقليل ظهر بِّبّ وفي الخامسة صباحاً رحنا نمارس الحبّ، وكان هذا هو الذروة، السعادة التامّة، بينما أنا في السرير كنتُ أغمض عينيَّ وأُفكِّر بكلّ الذي جرى في تلك الليلة، بكلّ الأشياء العنيفة، ثمَّ بكلّ الأشياء اللطيفة وكيف أنّ الأشياء اللطيفة فرضت نفسها على الأشياء العنيفة، وهذا دون أن أتحوّل إلى عنيفة أكثر من اللازم، أقول، الأشياء اللطيفة، أنا أفهم نفسي، وكنتُ أفكّر بهذه الأشياء وأهمسُ بأخرى في أذن بِّبّ وفجأة، تراك رحتُ أفكّر بأرتورو، سمعتُ الضربَ على آلته الكاتبة، وبدل أن أتمثّل هذه الصورة، بدل أن أقولَ لنفسي «أرتورو أيضاً بخير» بدل أن أقول لنفسي «كلّنا بخير، الكوكبُ يتابع مسيره في محيطات الزمن» بدل أن أفعل ذلك، كما أقول، رحتُ أُفكّر برفيقي في الشقّة ورحتُ أُفكّرُ بحالتهِ النفسية وصمّمت أن أُساعده. وفي صباح اليوم التالي، بينما كنّا أنا وبِّبّ نمطُّ عضلاتنا وأرتورو ينظرُ إلينا جالساً في المكان ذاته، بدأت مهاجمته. لا أدري ماذا قلتُ له في ذلك اليوم. ربّما أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يستريح بما أنّه ربّ عملِ نفسهِ وأن يذهب ليقضي يومَهُ مع ابنه. وإذا كان هذا هو ما قلتُه له، لا بدّ أنّني أصررتُ إلى حدٍّ أنّه أذعن وقال بِبِّ له أن يذهبَ معه فهو يأخذه إلى أرِنيس.

في تلك الليلة لم يظهر أرتورو في لاسيرِنا.

عدتُ إلى البيت في الثالثة صباحاً ووجدته في غرفة هاتف عمومي في باسيو ماريتيمو. رأيتُهُ من بعيد. مجموعة سيّاحٍ سكرانين كانت تحوم حول الهاتف القريب ويبدو أنّه لا يعمل. سيارة كانت متوقّفة عند حافة الرصيف، مفتوحة الأبواب والموسيقى بأعلى صوتها. وكلّما اقتربتُ أكثر (كنت مع كريستينا) كانت صورة أرتورو تصبح أكثر صفاء. قبل أن أرى وجهه بكثير (كان يقف وظهره إليّ، محصوراً في غرفة الهاتف) عرفتُ أنّه كان يبكي، أو على وشكِ أن يبكي. هل من الممكن أن يكون قد سكر؟ هل هو مُخَدَّر؟ كلّ هذه الأسئلة طرحتها بينما أنا أُسرّع خطوي وأترك كريستينا خلفي وأصل إلى جانبه. تماماً وقتها، بينما السياحُ راحوا ينظرون إليَّ باستغراب، فكّرتُ قد لا يكون هو. كان يرتدي قميصاً من هاواي لم أرهُ من قبل قط. لمستُ كتفته. أرتورو، قلتُ له، ظننتُ أنّك كنتُ ستنام الليلة في أرِنيس. التفتَ هو وقال لي أهلاً. ثم أغلق الهاتف وراح يتكلّم معي ومع كريستينا، التي كانت قد أدركتني. انتبهتُ إلى أنّه نسي أن يخرج النقود من الحصّالة. كان هناك أكثر من ألف وخمسمئة بيزيتا. سألتُهُ في تلك الليلة حين أصبحنا لوحدنا كيف سارت الأمور في أرِنيس. قال جيداً. كانت زوجته تعيش مع شخصٍ، باسكيّ يبدو أنّها سعيدة معه وكان ابنه بخير. وماذا أكثر؟ سألته. هذا كلّ شيء، قال هو. إلى من كنتَ تهتفُ؟ نظرَ أرتورو إليّ وابتسم. إلى الأندلسية الفاجرة؟ قلتُ، إلى بلاّعة الأيور التي امتصّت دماغك؟ نعم، قال. وتكلّمتَ معها؟ لحظة فقط، قال، الإنكليز لم يَكفّوا عن الزعيق وكان

هذا مزعجاً. وإذا لم تعد تتكلّم معها فأي هراء كنتُ تفعل هناك مُعَلَّقاً إلى الهاتف؟ قلتُ له. هو هزّ كتفيه وقال بعد أن فكّر، إنّه كان يستعد ليتكلم ثانية. احكِ معها من هنا، قلتُ له. لا، مكالماتي طويلة وفاتورة الهاتف سترتفع كثيراً. أنت تدفع ما عليك وأنا أدفع ما عليّ، همستُ. لا، قال هو. حين تأتي الفاتورة آمل أن أكون في أفريقيا. ما أغباكَ، بالله عليك، أرجوك اهتفْ لها بهدوء، فأنا سأذهب وأستحم، أعلمني عندما تنتهي.

وأتذكّر أنّني استحممتُ، ووضعت بعدها مرهماً على كامل جسمي بل وكان عندي من الوقت ما سمح لي بأن أقوم ببعض التمارين أمام مرآة الحمّام المُغبشة. عندما خرجتُ كان أرتورو جالساً إلى الطاولةِ وأمامه فنجان زهورات وفنجان شاي بالحليب لي مُغَطّى بصحنِ الفنجان كيلا يبرد. هل هتفت؟ بلى، قال. وماذا حدث؟ أغلقت في وجهي، قال. هي الخاسرة، قلتُ. أطلقَ نفخةً. سألتُهُ كي أغيّر الموضوعَ كيف يسير كتابُهُ. جيداً، قال. هل تسمح لي برؤيته؟ هل تسمح لي بأن أدخل إلى غرفتك وأراه؟ نظر إليّ وقال بلى. لم تكن غرفته نظيفة، لكنّها أيضاً لم تكن وسخة. السرير دون ترتيب والملابس على الأرض وكتب قليلة مبعثرة في كلّ مكان. تقريباً مثل غرفتي. بالقرب من النافذةِ وعلى طاولةٍ صغيرة جدّاً كان قد وضع آلته الكاتبة. جلستُ ورحتُ أنظرُ إلى أوراقه. طبعاً لم أفهم شيئاً، لكنّني أيضاً لم أكن أنتظر أن أفهم شيئاً. أعرفُ أنَّ سرَّ الحياة ليس في الكتب، لكنّني أيضاً أعرفُ أنّ القراءةَ جيدة، كنّا متّفِقَيْن على هذا، إنّها تُثَقّف أو تريح. هو كان يقرأُ كتباً، وأنا أقرأُ مجلاتٍ مثل *موسكل ماج أو موسكل أند فيتنِس بُدي فيتنِس*[1]. بعدها رحنا نتكلّم

---

(١) مجلة العضلات والعضلات اللياقة البدنية ولياقة الجسد، هي أسماء مجلات تعنى بكمال الأجسام.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن ذلك الحبّ العظيم. هكذا كنتُ أسمّيه أنا لكي أسخر منه، حبّكَ العظيم، امرأة عرفها منذُ زمنٍ طويل، عندما كان في الثامنة عشرة من عمره وعاد والتقى بها منذ وقت قصير. رحلات العودة إلى كتلونيا كانت مدمّرة، في المرّة الأولى، قال لي، كادَ القطار يخرج عن سكّته، في الثانية عاد مريضاً، وكانت حرارته أربعين درجة، غائصاً في السرير النقّال، يتصبب عرقاً، ملفوفاً بالبطانيات ومن دون أن يخلع معطفه. وتركتكَ هذه المرأة تصعدُ إلى القطار وأنتَ في هذا الحال من المرض؟ سألتُهُ بينما أنا أنظر إلى أشيائه، القليلة جدّاً في الحقيقة. هذه المرأة لا تُحبّك، يا أرتورو، فكّرتُ. انْسها، يا أرتورو، قلتُ له. كان عليّ أن أرحل، قال هو، كان عليّ أن آتي لأرى ابني. بودّي لو أعرفه، قلتُ. أريتُكِ صورته، قال هو. المسألة هي أنّني لا أفهم. ما الذي لا تفهمينه؟ سأل هو. أنا ما كنتُ لأسمح لصديقٍ مريضٍ، حتى ولو لم أعد أُحِبّه، حتى ولو لم أعد عاشقة له، أن يصعد إلى قطار ودرجة حرارته أربعون، قلتُ. أولاً كنتُ سأعتني به، وأهتمّ بأن يستعيد صحته، على الأقل جزءاً من صحّته وبعدها أصرفه. أحياناً أندمُ كثيراً، فكّرتُ، لكن أغربَ ما في الأمر أنّني لا أعرف لماذا، ما السيئ الذي ارتكبتُهُ كي أندم. أنت امرأة طيّبة، قال هو. في المرّة الأولى خفتُ أن آتي لأعيش معك، قال هو، فقط كنتُ في الثامنة عشرة من عمري. لا تتابع، قلتُ له، سأغضبُ منك. هذه المرأة جبانةٌ وأنتَ أحمق، فكّرتُ. لم يعد عندي ما أفعلُهُ هنا، قال هو. لماذا أنت مأساويّاً إلى هذا الحد؟ كنتُ أحبُّها، قال هو. كفى! لا أريدُ أن أستمرَّ بسماعِ حماقات. عدنا في تلك الليلة لنتكلّم عن الأندلسية اللعينة وعن ابنهِ. هل أنت بحاجة لنقود؟ سألتُهُ. هل أنت ذاهبٌ لأنّك لا تملك مالاً. ألا تكسب ما يكفي؟ أنا أقرضك مالاً. لا تدفعْ لي إيجارَ هذا الشهر. ولا الشهر القادم. لا تدفعْ لي

حتى يصير معك فائض من المال. هل معك نقود كي تشتري أدويتك؟ هل تذهبُ إلى الطبيب؟ هل معك نقود لتشتري ألعاباً لابنك؟ أنا أستطيعُ أن أقرضك. عندي صديق يعمل في حانوت ألعاب. عندي صديق ممرض في الإسعاف. كلّ شيء له حلّ.

عاد في صباح اليوم التالي وحكى لي قصّةَ الأندلسية. أظنّ أنّه لم يَنَمْ. إنّها قصّتي الأخيرة، قال. لماذا ستكون قصّتكَ الأخيرة؟ سألتُه. تراك ميت؟ أنت أحياناً تستفزّ أعصابي، يا أرتورو.

كانت قصّةُ الأندلسية بسيطة جدّاً. تعرّفَ عليها عندما كانت في الثامنة عشرة من عمرها. كنتُ أعرفُ هذا. بعدها قطعتْ هي علاقتَها به، لكن من خلال الرسائل بقي عنده إحساس غريب، كما لو أنّه في الواقع لم ينهِ قط علاقته بها. كان يهتفُ لها كلَّ فترة. هكذا مرّت السنون. كلٌّ منهما يمارس حياته، كلٌّ منهما يتدبّر أمره كيفما استطاع. تعرّفَ أرتورو على امرأة أخرى، عشقَها، تزوّجا، أنجبا ولداً، انفصلا. بعدها مرضَ أرتورو. كان على حافّة الموت: التهابات بنكرياس متعددة، كبد مهروس، قولون متقرّح. هتف ذات يوم للأندلسية. ولم يكن قد هتف لها منذ زمن طويل، وفي ذلك اليوم، ربّما لأنّه كان في وضعٍ سيّئ للغاية ويشعرُ بالحزن هتفَ لها. لم تعد المرأة صاحبة ذلك الهاتف، فقد مرّت سنوات كثيرة وكان عليه أن يبحث عنها. لم يتأخّر في العثور على رقم هاتفها الجديد والتكلّم معها. والمرأة الخنزيرة كانت إلى هذا الحدّ أو ذاك في أحسن الحالات. عاد الحوار ليبدأ. بدا كما لو أنّ الزمن لم يَمرّ. سافر أرتورو إلى الجنوب. كان يتماثل للشفاء. لكنّه قرّر أن يُسافر ويراها. كانت هي في حالة مماثلة إلى هذا الحدّ أو ذاك لحالته. لم يكن عندها أي ألم جسدي، لكنّها حين وصل أرتورو كانت في إجازة مرضية تعاني من مشاكل عصبية. كانت، بحسب المرأة، في طور

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجنون، كانت ترى جرذاناً، تسمعُ خطواتِ الجرذانِ على جدران شقّتها، ترى أحلاماً مريعةً أو لا تستطيع أن تنام، تكرهُ الخروجَ إلى الشارع. هي أيضاً كانت مُنفصلة. هي أيضاً عاشت زواجاً مدمِّراً وملكت عشاقاً مُريعين. تحمّلا بعضهما أسبوعاً. في تلك المرّة عندما عاد أرتورو إلى كتلونيا كاد القطار يخرج عن سكّته. بحسب أرتورو، أوقفَ السائقُ القطارَ وسط البرّية ونزل المراقبون الفنّيون وراحوا يجوبون السكّة حتى عثروا على عارضةٍ منفصلةٍ وجزءٍ من أرضيةِ القطار متداعية. أنا بصراحة لا أعرف كيف لم ينتبهوا من قبل. أو أنّ أرتورو شرحه لي بشكل سيّئ جدّاً أو أنّ كلَّ عمال ذلك القطار كانوا سكرانين. المسافر الوحيد الذي نزل وراحَ يجوب السكّةَ، بحسب ما وضّح أرتورو، كان هو. ربّما في تلك اللحظةِ بينما كان المراقبون يبحثون عن العارضة أو اللوح المنفصل في جوف القطار، راح يُجنّ ويُفكّر في الهرب. لكن الأسوأ يأتي لاحقاً. بعد خمسة أيّام من وجوده في كتلونيا، بدأ أرتورو يُفكّر بالعودةِ أو بدأ ينتبه إلى أنَّه لم يبقَ أمامه غير أن يعود. كان خلال تلك الأيّام يتكلّم مع الأندلسيةِ مرّةً في اليوم على الأقل. عامّة ما كانا يتناقشان. وأحياناً أخرى يقول الواحد منهما للآخر كم هو مشتاق إليه. أنفق ثروة على الهاتف. أخيراً عندما لم يكن قد مضى بعد أسبوعٌ ركب قطاراً آخر وعاد. كانت نتيجةُ هذه الرحلة الأخيرة، مهما حلاّها أرتورو، مُدَمِّرة مثل الرحلة الأولى، أو أسوأ منها بكثير. الشيء الوحيد الذي كان واثقاً منه هو حبّه لتلك الأندلسية اللعينة. وقتها مرضَ وعاد إلى كتلونيا، أو أنّ الأندلسية طردتْهُ أو أنّه هو نفسه لم يعد يتحمّلها وقرّر العودة أو أيّ شيء آخر، لكن المسألة هي أنّه كان مريضاً جدّاً والمرأة تركتْهُ يركبُ القطارَ وحرارته تتجاوز الأربعين درجة، الشيء الذي ما كنتُ أنا لأفعله، يا أرتورو، قلتُ له، ولا حتى مع عدوٍّ، على الرغم من أنّه

ليس لي أعداء. وقال لي هو: كان علينا أن ننفصل، كنّا نلتهم بعضَنا. هوِّنْ عليك، أجبتُهُ. هذه المرأة لم تُحبّك قط. هذه المرأة ينقصها برغي وهذا ما يبدو لك حلواً، لكنّ الحبّ بمعنى الحبّ، هي لم تُحبّك قطّ. وفي يومٍ آخر حين عدتُ والتقيت به على طاولة عرض بارِ لاسيرِنا، قلتُ له: موضوعكَ هو ابنك وصحّتُكَ، يا رجل، دَعْكَ من كلِّ هذه القصص. يبدو من الصعب تصديق أنّ يكون شخص بذكائك غبيّاً في الوقت ذاته إلى هذا الحد.

شاركتُ بعدها في بطولةٍ لكمال الأجسام، بطولة مصغرة في لا بيسبال، حيث حللتُ في المرتبة الثانية وهو ما سرّني كثيراً ودخلتُ في علاقةٍ مع شخص يُدعى خوانما باتِشكو، وهو إشبيليّ كان يعمل بوّاباً في المرقصِ الذي تمّت فيه البطولة وكان لزمن يلعبُ كمالَ أجسام. حين عدتُ إلى مالغراتْ لم يكن أرتورو موجوداً. وجدتُ ملاحظةً مثبتةً على بابه يعلمني فيها بأنّه سيبقى ثلاثة أيّام في الخارج. لم يقل أين، لكنّني تصوّرتُ أنّه ذهب ليرى ابنَهُ. انتبهتُ بعدها، وأنا أُفكّر بالأمر بشكل أفضل، أنه لا يحتاجُ أن يبقى ثلاثة أيّام في الخارج كي يرى ابنه. عندما عاد بعد أربعة أيّام بدا أكثرَ سعادةً من أيّ وقت مضى. لم أبغِ أن أسألَه أين كان ولا هو حكى لي. فقط ظهرَ ذات ليلة في لاسيرِنا وبدأ يتكلّم كُما لو أنّنا التقينا توّاً. بقي في المشرب حتى أغلقنا وذهبنا بعدها سيراً على الأقدام إلى البيت. كانت بي رغبة بالكلام فاقترحتُ عليه أن نذهب لنتناول بضع كؤوسٍ في بارِ بعضِ الأصدقاء، لكنّه قال إنّه يُفضِّل الذهابَ إلى البيت. على كلّ الأحوال لم نستعجل في الوصول وفي تلك الساعة لم يكن قد بقي ناسٌ في الباسيو ماريتيمو وكان الليل لطيفاً بنسيمه القادمِ من البحر وموسيقاه الخارجة من المحلاتِ القليلة التي كانت ما تزال مفتوحة. كانت بي رغبةٌ بالكلام فحكيت له عن خوانما باتشِكو. ما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رأيك؟ سألتُهُ حين انتهيتُ. اسمه ظريف، قال. في الحقيقة اسمه خوان مانوِل، قلتُ أنا. أفترضُ ذلك، قال. أظنّ أنّني عاشقة، قلتُ. أشعلَ هو سيجارة وجلس على مقعدٍ في الباسيو. وأنا جلستُ بجانبِهِ وتابعتُ كلامي، في تلك اللحظة فهمتُ أو بدا لي أنّني فهمتُ كلّ جنون أرتورو، تلك التي ارتكبها وتلك التي هو على وشك أن يرتكبها. أنا أيضاً كان بودّي لو أذهبَ إلى أفريقيا في تلك الليلة بينما نحن نتأمّل البحرَ والأضواءَ القادمة من بعيد، زوارقَ الغطّاسين؛ كنتُ أشعرُ بنفسي قادرةً على فعل كلِّ شيء، وكنتُ أشعرُ على وجهِ الخصوص بأنّني قادرة على الهرب بعيدا جدّاً. بودّي لو تهبّ عاصفة، قلتُ. لا تلحّي، قال هو، إذ يمكن أن تُمطر في أيِّ لحظة. ضحكتُ. ماذا فعلتَ في هذه الأيّام؟ سألتُهُ. لا شيء، فكّرتُ وشاهدتُ أفلاماً. ما الفيلم الذي شاهدته؟ *البريق (شاينينغ)*، قال هو. يا له من فيلم مرعب، قلتُ، رأيتُهُ منذ سنوات وعانيتُ كثيراً حتى نمتُ. أنا أيضاً شاهدته قبل سنوات كثيرة، قال أرتورو، وقضيت الليل دون نوم. إنّه فيلم رائع. قلتُ. فيلم ممتاز، قال هو. بقينا برهةً صامتَيْن، ننظرُ إلى البحر. لم يكن هناك قمرٌ وزوارقُ الصيدِ اختفت. هل تتذكّرين الروايةَ التي كان يكتبها تورّانث. أي تورّانث؟ سألتُ أنا. شرّير الفيلم، شرّير *البريق*، جاك نيكولسون. بلى، ابن العاهرة كان يكتبُ رواية، قلتُ، مع أنّني في الحقيقة كنتُ لا أكادُ أتذكّرُهُ. أكثر من خمسمئة صفحة، قال أرتورو وبصق باتجاه البحر. لم يسبق أن رأيته يبصق. اعذريني معدتي تؤلمني، قال. لا تهتمّ، قلت. كان قد كتب أكثرَ من خمسمئةِ صفحة مُكَرّراً جملة وحيدة حتى النهاية بكلّ الطرقِ الممكنة، بحرفٍ كبير، بحرفٍ صغير في عمودَيْن، مُعَلَّمة ودائماً الجملة ذاتها، لا أكثر. وما هي هذه الجملة؟ ألا تتذكرها؟ لا، لا أتذكّر، عندي ذاكرة سيّئة جدّاً، فقط

أتذكّر الفأسَ وأنّ الطفلَ وأمَّهُ ينجوان في نهاية الفيلم. ليس لأنّك تستيقظ باكراً ستطلع الشمس سريعاً. كان مجنوناً، قلتُ له وفي اللحظة ذاتها ما عدتُ أنظر إلى البحر وبحثتُ عن وجه أرتورو بجانبي، وبدا أنّه على وشك أن ينهار. ربّما كانت رواية جيّدة، قال. لا تُخِفني، قلتُ، كيف يمكن لشيءٍ تتردّ فيه جملة وحيدة أن يكون رواية جيدة؟ إنها شيءٌ أقربُ إلى الاستخفاف بالقارئ، فالحياة فيها بحدِّ ذاتها ما يكفي من الخراء كيلا تشتري فوق ذلك كتاباً فقط يقال فيه: «لأنّك تستيقظ باكراً ستطلع الشمس سريعاً»، إنه كما لو قدّمت لك شاياً بدل الويسكي، إنّه نصبٌ وقلّةُ احترام، ألا ترى ذلك؟ شعورك العام يُفحمني، يا تِرِسا، قال هو. هل ألقيتِ نظرة على ما أكتبُ؟ سأل. أنا لا أدخل غرفتكَ إلا حين تدعوني، كذبتُ عليه. حكى لي بعدها حلماً أو ربّما حكاه لي في صباح اليوم التالي، بينما أنا أمارس تماريني اليوميةَ وهو يراقبني جالساً إلى الطاولة مع زهوراته، بوجهه، وجهِ من لم ينم أسبوعاً كاملاً.

بدا لي الحلم جميلاً ولذلك أتذكّره. كان أرتورو طفلاً عربياً يذهبُ آخذاً بيدِ أخيهِ الصغير إلى وكيلٍ إندونيسي حصريّ ليرسل كبلَ اتصالاتٍ عابراً للمحيطات. يهتمّ به عسكريان إندونيسيان. كانت ثيابُ أرتورو ثيابَ عربيّ. يبدو أنّ عمره في الحلم كان اثني عشر عاماً وعمر أخيه ستّة أو سبعة أعوام. تتأمّلهما الأمُّ عن بعدٍ، لكنّ وجودها يتلاشى بعد ذلك. يبقى أرتورو وأخوه وحدهما، كلاهما يحمل على خصره خنجراً عربية سميكاً، قصيراً ومعقوفاً جدّاً. معاً يحملان الكبلَ، الذي يبدو أنّه مصنوع يدويّاً أو منزليّاً. كذلك يحملان برميلاً فيه سائلٌ كثيف، بنّيٌ ضاربٌ للخضرة، هو النقود التي سيدفعانها للإندونيسيين. بينما هما ينتظران يسألُ الأخُ أرتورو كم متراً طول الكبل. متراً؟ يتساءل أرتورو، كيلومترات! بيت العسكريين من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خشبٍ ويقعُ بجانب البحر. بينما هما ينتظران أن يأتي عربيٌّ آخر ويأخذ دورهما وعلى الرغم من أن اندفاعَ أرتورو الأوّلي كان أن يُوَبِّخَهُ، أو على الأقل يواجهَهُ بقلّةِ احترامه، ويتأكّد من أجل ذلك أنَّ خنجره حيث يجب أن يكون، إلا أنّه لم يتأخّر في التراجعِ أمام القصّة التي راح العربيُّ الكبيرُ يحكيها للعسكريّيْن الإندونيسيين ولمن يريد أن يسمعها. تدور القصّةُ حول عيدٍ في صقلية. قال لي أرتورو إنّه عندما سمعها هو وأخوه الصغير، شعرا بأنهما سعيدين وهفهافين، كما لو أنّ الآخر كان يُلقي قصيدة. في صقلية كتلةٌ جليدية رملية. مجموعةٌ متنوّعة من المشاهدين تتأمّله من مسافة آمنة، باستثناء اثنين: الأوّل يصعد إلى أعلى التلّ حيث تستقرّ الكتلةُ الجليدية، والآخرُ يقف في أسفلِهِ وينتظر. عندئذ يبدأ الذي في الأعلى يتحرّكُ أو يرقصُ أو يرفسُ الأرض وتبدأُ الكتلةُ الجليديةُ في أعلى قشرة لها تتفكّكُ وتجرف كميات كبيرة من الرمل الذي يسقط باتجاه الموجودِ في الأسفل. وهذا لا يتحرّك. يبدو للحظة أنّ الرملَ سيطمره، لكنّه يقفزُ في اللحظة الأخيرة وينجو. هذا هو الحلم. كانت السماءُ في إندونيسيا شبه خضراء. السماء في صقلية شبه بيضاء. منذ زمن لم يرَ أرتورو حلماً بمثل هذه السعادة. ربّما كانت إندونيسيا تلك وصقلّية تلك في كوكب آخر. برأيي، قلتُ له، هذا المنام يعني تغيّراً في حظّك. بدءاً من هذه الساعة كلّ شيء سيسير على ما يرام. هل تعرف من هو أخوك الصغير في الحلم؟ أظنّ، قال هو. هو ابنك! حين قلتُ له هذا ابتسمَ أرتورو. ومع ذلك عاد بعد أيّام ليُكلّمني عن الأندلسيّة. لم أكن على ما يُرام فأرسلته إلى الخراء. الآن أعرف أنّه ما كان عليّ أن أفعل ذلك، على الرغم من أنّ فعلي ليس يهمُّ كثيراً. أظنّ أنّني كلّمتُهُ عن مسؤولياتِ الحياة، عن الأشياء التي كنتُ أؤمنُ بها وأتمسّكُ بها كي أستمرّ بالتنفّس. كنتُ أبدو منزعجة منه، على الرغم

من أنّني في الحقيقة لم أكن كذلك. هو لم ينزعج منّي. في تلك الليلة لم يأتِ لينامَ في البيت. أتذكّرُ ذلك لأنّها كانت المرّة الأولى التي يزورني فيها خوانما باتِشكو، الذي كان يُعَطّل مرّةً واحدةً كلَّ خمسة عشر يوماً ووصل إلى مالغراتْ برغبة أن يكسب الوقت. دخلنا الغرفة وحاولنا أن نمارس الحبّ. أنا لم أستطع، ربّما كان الذنبُ ذنبَ عضلاتِ خوانما المرتخية بعد زمن طويل من عدم ذهابه إلى الصالة الرياضية. في النهاية قد يكون الذنب ذنبي. كنتُ أنهض كلَّ برهةٍ وأذهبُ إلى المطبخ لأشرب ماء. في واحدة منها لا أعرف لماذا دخلتُ إلى غرفةِ أرتورو. على الطاولة كانت آلتُهُ الكاتبة وكومةٌ من الأوراق المرتّبة بشكل تام. قبل أن أتصفحّها فكّرتُ بفيلم *البريق* (*شايننغ*) فشعرت بقشعريرة. لكنّ أرتورو لم يكن مجنوناً، هذا ما كنتُ أعرفه. بعدها جلتُ في الغرفة، فتحتُ النافذة، جلستُ على السرير. سمعتُ خطواتٍ في الغرفة. أطلّ وجهُ خوانما باتشِكو من الباب، سألَ عمّا إذا كان بي شيء. لا شيء، اطمئنّ، قلتُ له، إنّني أُفكِّرُ، وعندها رأيتُ الحقائبَ مرتبة وعَرَفت أنّه سيغادر.

أهداني أربعةَ كتب لم أقرأها بعد. بعد أسبوعٍ قلت له وداعاً وقال لي وداعاً، رافقتُهُ إلى محطّة مالغراتْ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢٥

جاكوبو إورِندا، رو دو شيرش ميدي، باريس، حزيران ١٩٩٦.

من الصعب سرد هذه القصّة. تبدو سهلة، لكن إذا حككتَ رأسكَ وفكّرتَ قليلاً ستنتبِهُ على الفور إلى أنّها صعبة. كلّ القصص هناك صعبة. أنا أسافر إلى أفريقيا ثلاث مرّات في السنة على الأقل، وعامّة ما يكون إلى المناطق الساخنة. وحين أعودُ إلى باريس يبدو لي أنّني ما أزال أحلمُ ويصعب عليّ الاستيقاظ، على الرغم من أنّه يُفْتَرَضُ على الأقلّ نظرياً، أنّ الرعبَ لا يصدمنا، نحن الأمريكيين اللاتينيين، كما يصدم الآخرين.

هناك تعرّفتُ على أرتورو بِلانو، في مكتب بريد لواندا، في مساءٍ قائظاً لم يكن عندي فيه ما أفعله غير أن أنفق ثروةً على مكالمات هاتفية إلى باريس. كان في نافذة الفاكس يُصارِعُ بعنفٍ نائبَ المسؤولِ الذي كان يُريد أن يقبض منه زيادة وساعدته. من مصادفات الحياة كنّا نحن الاثنين من المخروط الجنوبي، هو تشيلي وأنا أرجنتيني، قرّرنا أن نمضي ما تبقى من نهار معاً، من المحتمل أنّني أنا من اقترح ذلك، فأنا دائماً كنتُ شخصاً اجتماعيّاً، وأحب أُلحديثَ والتعرفَ على أشخاص آخرين، لا أنزعج من الإصغاء، بالرغم من أنّه يبدو أحياناً أنّني أصغي إلا أنّني أكون في الحقيقة أُفكّر بأشيائي.

سرعان ما اكتشفنا أن بيننا من المشتركِ أكثر مما اعتقدنا، على الأقل أنا انتبهتُ إلى ذلك، وأفترضُ أن بِلانو أيضاً، مع أنّنا لم نقلْ شيئاً، لم نتبادل التهنئة، كلانا وُلِدَ تقريباً في التاريخ ذاته، كلانا انشقّ عن جمهوريّته حين حدث ما حدث، كلانا كان معجباً بِكورتاثار، ومعجباً ببورخِس، ما من أحدٍ منا معه مال كثير، وكلانا كان يتكلّم البرتغاليةَ بما يسمح لنا أن نتدبّر أمرنا. على كلٍّ كنّا فتَيَيْن أمريكيين لاتينيين نموذجيين في الأربعين ونيف من عمرنا في بلد أفريقيّ على حافّة الهاوية أو الانهيار. الاختلافُ الوحيدُ بيننا كان يكمن في أنّني حين سأُنهي عملي، أنا مصوّر في وكالة لا لونا، سأعود إلى باريس والمسكين بِلانو سيبقى حين ينتهي عمله في أفريقيا.

لكن لماذا، يا أخي؟ قلتُ له في لحظةٍ من لحظات الليل. لماذا لا تأتي معي إلى أوروبّا. بل أغويتُهُ قائلاً إذا لم يكن معه مال لبطاقة السفر فأنا أُقرِضُهُ لك، هذه الأشياء التي يقولها المرءُ حين يكون سكراناً جدّاً. والليل ليس غريباً وحسب بل وكبيراً، كبيراً جدّاً، كبيراً إلى حدّ أنّك إذا غفلت قليلاً ابتلعك، أنت وكلّ الذين حولك، لكن أنتم لا تعرفون عن هذا شيئاً، أنتم لم تكونوا في أفريقيا، وأنا بلى. وبِلانو أيضاً. كلانا كان حُرّاً. أنا كما قلتُ، من وكالة لا لونا، بِلانو من صحيفة مدريديّة، تدفع له شيئاً بائساً عن كلّ مقال. وعلى الرغم من أنّه لم يقل لي وقتها لماذا لا يذهب، بقينا معا ومنسجمَيْن وليلُ أو بالأحرى عطالةُ ليلِ لواندا (هي طريقة بالكلام: العطالة في لواندا فقط تقود إلى أن يدخلَ المرء تحت السرير) قادنا إلى شقةِ المدعو جواو ألفِس، وهو زنجيّ يزنُ مئة وعشرين كيلوغراماً، حيث وجدنا بعض المعارف من الصحفيين والمصوّرين والشرطة والمتطفلين وحيث تابعنا حديثنا. أو ربّما لا. ربّما انفصلنا هناك، دخان السجائر جعلني أضيّعه عن نظري مثل الكثير من الأشخاص الذين يعرفهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المرء حين يخرجُ إلى العمل ويتكلّمُ معهم ثم يضيعون عن ناظره. في باريس الأمرُ مختلف. الناس يبتعدون، الناس يصغرون تدريجياً والمرءُ عنده وقتٌ حتى ولو كان لا يُريد، ليقول وداعاً. في أفريقيا لا، الناس هناك يتكلّمون، يحكون لك مشاكلهم، تأتي بعدها سحابةُ دخانٍ فتبتلعهم ويختفون، كما اختفى بِلانو في تلك الليلة فجأةً. والمرء لا يطرحُ على نفسه ولا حتى إمكانية أن يعود ويلتقي بفلانٍ أو علاّن في المطار. هناك احتمال، لا أقول لا، لكنّك لا تطرحُهُ على نفسك. وهكذا حين اختفى بِلانو في تلك الليلة، انقطعتُ عن التفكير به، انقطعت عن التفكير بإقراضه مالاً، وشربتُ ورقصتُ ثم بقيت نائماً على كرسيٍّ وحين استيقظتُ (برعشة هي ثمرةُ الخوفِ أكثر مما هي ثمرة الخمار، فقد خفتُ أن يكونوا قد سرقوني، فأنا لم أكن أتردّد على محلاّتٍ مثل محل جواو ألفِسن) كان الفجر قد طلع وخرجتُ إلى الشارع كي أُحَرّك رجليّ ووجدته هناك، في الفناء، يُدخّن سيجارة وينتظرني.

- لفتة عظيمة منك!

منذ تلك اللحظة صرنا نلتقي يوميّاً وكنتُ أدعوهُ أحياناً إلى الغداء ويدعوني هو إلى العشاء، كان رخيصاً، لم يكن رجلاً أكولاً، كان يتناول في الصباح زهوراتِهِ وحين لا يكون هناك زهورات يطلب مغلي زهر الزيزفون أو النعناع أو العشبة التي في متناول يده، لم يكن يذوق القهوة ولا الشاي ولا يأكلُ أيَّ شيء مقليّ، كان يبدو مُسلماً، لا يذوق الخنزير ولا الكحول ويحمل معه دائماً كومةً من أقراص الدواء. هيهْ، يا بِلانو، قلتُ له ذات يوم، تبدو صيدليةً مُتَنَقّلة، وهو ضحك كما لو من دون رغبة، كما لو أنّه يقول دعكَ من السخرية، يا أورِندا، فأنا لستُ ممن يتحمَّلون هذا المزاح. فيما يتعلّق بالنساء، كان، بحسب علمي، يتدبّر أمره وحده. ذات ليلة دعا جو ريدماتشر،

الصحفيُّ الأمريكيّ الشمالي عدداً منّا للرقص في حي بارا كي يحتفل بنهايةِ مهمّتِهِ في أنغولا. تمّ الرقص في الجزءِ الخلفيّ من بيتٍ خاص، في فناءٍ أرضه من التراب المرصوص، وكانت النساء متوفرات بشكل مفرح. جميعنا، كرجالٍ حديثين، كنّا نحملُ معنا احتياطيّنا من الواقيات المتنوّعة، باستثناء بِلانو، الذي انضمَّ إلى المجموعة في الساعة الأخيرة بسبب إصراري أكثر من أيّ شيء آخر. لن أقولَ لكم إنّه لم يرقص، لأنّه في الحقيقة رقص، لكنّني حين سألته عمّا إذا كان يحمل معه واقياتٍ، أو إذا أراد أن أُعطيه واحداً منّي، رفض رفضاً قاطعاً وقال لي: يا أورِندا، أنا لا أحتاج لهذه الأدوات، أو شيئاً وقعُهُ مُشابه، ولذلك أفترضُ أنه اقتصر على الرقص.

عندما عدتُ إلى باريس بقي هو في لواندا. كان يُفكّر أن يذهب إلى الداخل، حيث كانت ما تزال المجموعاتُ المسلحةُ الخارجةُ عن السيطرة تتكاثر. قصّته كان فيها الكثير من عدم الانسجام. وبالتالي استنتجتُ أنّ الحياةَ لا تهمّه أبداً، وأنّه حصل على العملِ كي يحظى بموتٍ جميل، موتٍ بعيد عن الطبيعيّ، حماقة من هذا النوع، معروف أنّ جيلي قرأ ماركس ورامبو حتى انفجرت أحشاؤه (ليس تبريراً، ليس تبريراً بالمعنى الذي تظنونه، فالأمر لا يتعلق بالحكم على القراءات). ومن ناحية أخرى وهذا بالنتيجة تناقض، كان يعتني بنفسه، يتناولُ أدويته كلَّ يومٍ في مواعيدها الدقيقة، رافقتُهُ ذات مرّة إلى صيدلية في لواندا يبحثُ عن شيء يُشبه الأورسوكول، الذي هو أسيد أورسوديوكسيكوليك، وهو الشيء الوحيد الذي كان يحافظ على قناته الصفراوية مفتوحة، أو شيء من هذا القبيل، وكان بِلانو من هذا الناحية يتصرّفُ كما لو أنّ صحّته تهمّه جدّاً، وأنا رأيتُه يدخلُ الصيدلية ويتكلّم برتغاليّةَ الجحيم، رأيتُهُ يُفَتِّشُ في الرفوف، في البداية بحسب الترتيب الأبجدي، ثم اعتباطياً وحين خرجنا من دون أسيد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أورسوديوكسيكوليك اللعين، قلتُ له، هيه، يا بِلانو لا تنشغل (فقد رأيتُ في وجهه ظلَّ الشيطان)، أنا سأُرسلُهُ إليك ما إن أصل إلى باريس، وهنا قال لي: لا يُمْنَحُ إلا بوصفةٍ طبّية، وأنا رحت أضحك وفكّرت هذا الرجلُ عنده رغبة بالحياة، كيف سيريد أن يموت.

لكن على كلّ الأحوال لم تكن المسألة واضحة. كان بحاجة للأدوية. هذه حقيقة. ليس فقط للأورسوكول، بل وأيضاً للميسالازين والأوميبرازول، الدواءان الأولان كان يتناولهما يومياً، أربع حباتٍ من الميسالازين لقولونه المتقرّح وستّ حبات من أسيد أورسوديوكسيكوليك للقناة الصفراية. كان باستطاعتهِ أن يستغني عن الأوميبرازول، فهذا كان يتناوله، لا أدري ما إذا كان لقرحةٍ اثني عشرية أو معديّة أو لالتهاب مريء ارتجاعي، على كلّ الأحوال لم يكن يتناوله يومياً. الغريبُ في الحالة، لنرَ ما إذا كنتم تتابعوني، هو أنّه يهتمّ بأن تكونَ أدويته متوفّرة عنده، يهتمّ بألاّ يأكل شيئاً قد يسبب له التهاب بنكرياس، فقد أُصيب به ثلاث مرّات، ليس في أنغولا، بل في أوروبا، إذا ما أصيب به في أنغولا بالتأكيد سيموت، كان يهتمّ بصحّته، ومع ذلك عندما تكلّمنا، لِنَقُلْ إنّه عندما تكلّمنا رجلاً لرجل، وَقْعُ هذا رهيب، لكن هذا هو اسم هذا النوع من الحديث المسائي، أَفْهَمَني أنّه موجود هناك كي يجعلهم يقتلونه، وهو ما أفترض أنّه مختلف عن أن تكون هناك وتقتل نفسك أو تنتحر، الاختلاف هو في أنّك لا تزعج نفسك بأن تفعل ذلك بنفسك وإن كان في الجوهر ببشاعته.

عندما عدت إلى باريس حكيتُ ذلك لزوجتي، سيمون، الفرنسية، سألتني ما شكل هذا المدعو بِلانو وطلبتْ منّي أن أصفه لها جسديّاً دون أن أُوَفِّر تفصيلاً، قالت لي بعدها إنّها فَهِمَتْهُ. لكن كيف تستطيعين أن تفهميه؟ أنا لم أفهمه. كان ذلك في الليلة الثانية

لوصولي، كنّا في السرير، والأضواء مطفأة وعند ذلك حكيتها لها. والأدوية، هل فهمْتَها؟ سألتْ سمون. لا، حتى الآن لا. إذن اشترِها غداً دون تلكؤ وأرسِلْها له على الفور. سأفعلُ، قلتُ لها، وبقيت أُفكّر أنّ القصّة فيها عيب ما، في أفريقيا دائماً هناك قصص غريبة. هل تعتقدين أنّ من الممكن أن يُسافر أحدٌ إلى مكان بمثل هذا البعد باحثاً عن الموت؟ سألتُ زوجتي. ممكن تماماً، قالت هي. حتى من قبل شخص في الأربعين من عمره؟ سألتُ أنا. ممكن تماماً، إذا كان يملك روح المغامر، قالت زوجتي التي كانت دائماً تتمتع بمسحة رومانسية قليلاً، وهذا شيء غريب عند الباريسيات، اللواتي يملنَ أكثرَ للذرائعيّة والتوفير. وهكذا اشتريتُ له الأدوية، أرسلتُها إليه إلى لواندا وتلقيتُ بعدها بطاقة بريدية يشكرني فيها.

قدّرت أنّ ما أرسلته إليه يكفيه عشرين يوماً. ماذا سيفعل بعدها؟ افترضتُ أنّه سيعود إلى أوروبا أو سيموت في أنغولا. ونسيت المسألة.

عدتُ بعد أشهرٍ لألقاهُ في فندق غراند هوتيل في كيغالي، حيث كنتُ أنزلُ وحيثُ كان يتردّدُ هو بين فترة وأخرى كي يستخدم الفاكس. سلمنا بحرارة. سألتُهُ عمّا إذا كان ما يزال يعمل للصحيفة المدريديّة ذاتها، فقال بلى، وإن كان يتعاون في الوقت ذاته الآن مع مجلّتين أمريكيتين جنوبيّتين، وهو ما زاد دخله قليلاً. ما عاد يُريد أن يموت، لكنّه أيضاً لا يملك نقوداً كي يعود إلى كتلونيا. في تلك الليلية تعشينا معاً في البيت الذي كان يعيش فيه (بِلانو لم يكن ينزل أبداً في الفنادق، كما يفعل بقيّة الصحفيين الأجانب، بل في بيوتٍ خاصة، حيث كان يستأجر عادة بقليلٍ من النقود غرفةً أو سريراً أو زاوية ينام فيها) وتحدّثنا عن أنغولا. حكى لي أنّه كان في هوامبو، وأنّه جابَ نهرَ كوانزا، وأنّه كان في كويتو كوانافال وفي أويج، وأنّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مقالاته تلاقي بعضَ النجاح وأنّه وصل إلى رواندا برّاً (الأمر الذي يكادُ يكون من حيث المبدأ مستحيلاً، سواء بسبب الحوادث الجغرافية أو الوضع السياسي) أولاً من لواندا إلى كينشاسا ومن هناك أحياناً عَبْرَ نهرِ الكونغو وأخرى عبر طرق الغابات الموحشة حتى كيسانغاني وبعدها حتى كيغالي، بالإجمال ثلاثون يوماً من السفرِ المتواصل. حين انتهى من الكلام لم أعرف ما إذا كنتُ سأصدّقه أم لا. من حيثُ المبدأ غير معقول. ثمّ إنّه كان يحكيها مبتسماً نصفَ ابتسامة تدفعُكَ لأن لا تصدقه.

سألته عن صحّته. قال إنّه أُصيب لبعضِ الوقت بإسهال، لكنّه تحسّن. قلتُ له إنّ صوري تُباعُ في كلّ مرّة بشكل أفضل، وإنّه إذا أراد، وأعتقدُ أنّني قلته له هذه المرّة بجدّية، أستطيعُ أن أُقرضه نقوداً لكنه لم يقبل حتى أن يسمع ذلك. بعدها سألته، كمن لا يريد، عن الموت العظيم الذي كان يبحث عنه فقال لي إنّ التفكير بذلك يضحكه الآن، وإنّ الموتَ العظيم، الأعظم أو الأصغر سأراه في اليوم التالي شخصيّاً. كان، كيف سأقول ذلك، مُتَغَيّراً. صار باستطاعته أن يمضي أيّاماً دون أن يتناول حبوبَ دوائه ولا يبدو عصبياً. على الرغم من أنّه كان مسروراً حين التقيت به، لأنّه استلم أدوية من برشلونة. من أرسلها إليك؟ سألتُه، امرأة؟ لا، صديق، قال لي، يُدعى إنياكي إتشابارنِ قامت ذات مرّة بيني وبينه مبارزة. شجار؟ لا، قال بِلانو، بل مبارزة. ومن الذي فاز؟ سألتُه. لا أعرف ما إذا أنا قتلته أم هو قتلني، قال بِلانو. رائع! قلتُ له. بلى، رائع، قال هو.

فيما عدا ذلك كان يُلاحَظ أنّه يُسيطر أو بدأ يسيطر على الجوّ، الشيء الذي لم أُحقّقه أنا قط، والذي هو موضوعياً هدفاً في متناول يدِ مراسلي وسائلِ الإعلام الكبيرة، الناس المدعومين جدّاً والقليلِ

من المستقلين الذين يَسدّون النقصَ في المال بالصداقات المتعدّدة وبحكمة خاصّة كي يتحرّكوا في الفضاء الأفريقي.

جسديّاً كان أنحلَ مما كان في أنغولا، عملياً كان جلداً وعظماً، لكنَّ مظهرَهُ لم يكن مَرَضِيّاً بل صحّياً أو هذا ما بدا لي وسطَ كلِّ ذلك الموت. كان شعرُهُ أطولَ، ربّما كان يقصّه بنفسه، وملابسُهُ ملابسَ أنغولية، فقط كانت أكثر اتساخاً واستنفاداً. لم أتأخّر في معرفة أنّه تعلَّم اللغةَ المحلية، لغة تلك الأرض التي لا قيمة للحياة فيها وأنها في الجوهر المفتاح الوحيد - إلى جانب المال-الذي يفيد في كلّ شيء.

غادرتُ في اليوم التالي إلى مخيمات اللاجئين وحين عدتُ لم يكن موجوداً وجدتُ في الفندق ملاحظةً يتمنى لي فيها حظّاً سعيداً ويطلب إن لم يكن فيه إزعاج كثير، أن أرسلَ إليه الأدويةَ حين أعودَ إلى باريس. إلى جانب الملاحظة وضع عنوانه، ذهبتُ لأراه فلم أجده.

حين حكيت ذلك لزوجتي، لم تُفاجأ إطلاقاً. لكن، يا سيمون، قلتُ لها، هناك احتمال واحد من مليونِ احتمالٍ بأن أعود وأراه. هذه الأشياء تحدثُ، كان جوابها الغامض. سألتني في اليوم التالي عمّا إذا كنتُ أُفكّر بأن أرسل إليه الأدوية... لقد أرسلتها، قلت لها.

لم أمكث هذه المرّة طويلاً في باريس. عدتُ إلى أفريقيا وعدتُ مقتنعاً بأنّني سألتقي مرّة أخرى بِبِلانو، لكنّ طرقنا لم تتقاطع وعلى الرغم من أنّني سألتُ عنه أقدمَ الصحفيين في المكان، إلاّ أنّه ما من أحدٍ كان يعرفه والقليلون الذين كانوا يتذكّرونَهُ لم يكن عندهم أدنى فكرة عن المكان الذي ذهبَ إليه. وحدث الشيء ذاته في الرحلة التالية. هل رأيته؟ سألتني زوجتي حين عدتُ. لا، لم أره، أجبتُها،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ربّما عادَ إلى برشلونة أو بلده. أو ربّما هو في مكانٍ آخر، قالت لزوجتي. ربّما، قلتُ لها، هذا ما لن نعرفه أبداً.

إلى أن صادف وسافرتُ إلى ليبِريا. هل تعرفون أين تقع ليبِريا؟ بلى، على شاطئ أفريقيا الغربي بين سيراليون وساحل العاج تقريباً. حسن، لكن هل تعرفون من يحكم في ليبريا؟ اليمين أم اليسار؟ هذا بالتأكيد لا تعرفونه.

وصلتُ إلى مونروفيا في نيسان ١٩٩٦، قادماً من فريتاون، سيراليون في سفينةٍ استأجرتْها جمعيةٌ إنسانيّة، ما عدتُ أعرف من هي، كانت مهمّتها إجلاءَ مئات الأوروبيين، الذين كانوا ينتظرون في السفارة الأمريكية الشمالية - المكان الوحيد الآمن بشكل معقول في مونروفيا، بحسب رأي من كانوا هناك، أو من سمعوا شهاداتٍ مباشرةً على ما كان يحدث هناك-والذين عند الحقيقة كانوا باكستانيين وهنوداً ومغاربة وهذا الإنكليزيّ أو ذاك من العرق الزنجي. الأوروبيون الآخرون، اسمحوا لي بالتعبير، كان قد مرّ وقت طويل على فرارهم من ذلك الثقب ولم يبقَ غير سكرتيريّيهم. التفكير بأن ٱلسفارة الأمريكية مكانٌ آمِن بالنسبة لأمريكي لاتينيّ مُفارقة يصعب هضمها، ومع ذلك فالأزمنةُ تغيّرت، و، لماذا لا؟ ربّما أنا أيضاً كنتُ سألجأ إلى السفارة الأمريكية، فكّرتُ، لكنّ على كلِّ الأحوال بدت لي المعلومة طالع شؤم، علامة لا تخطئ على أنّ كلَّ شيء سيكون سيّئاً.

مجموعة من الجنود الليبريين، ما من واحد منهم بلغ العشرين من عمره، رافقتنا للحماية حتى البيت ذي الطوابق الثلاثة، في جادة أفريقيا الجديدة، الذي كان فندقَ ريتز القديم أو فندقَ كريلون القديم بنسخته الليبرية والذي تُديره الآن منظمة دولية لم يكن عندي معلومات عنها حتى ذلك الوقت. البيت المسمى اليوم مركز

المراسلين الصحفيين، كان أحدَ الأشياء القليلة التي تعمل في العاصمة، ولم يكن غريباً وجود مجموعةٍ من خمسة بحَارة أمريكيين، كانوا أحياناً يراقبون، لكنّهم كانوا يقضون غالبيةَ الوقت في الصالون الرئيسي، يشربون مع الصحافةِ المرئية لبلدهم ويتوسطّون بين الصحفيين ومجموعة من الجنود الشباب المندينغيين الذين يعملون كأدلاءَ وحرّاسٍ أثناء الخروج نحو الأحياء الساخنة في مونروفيا، أو، وهذا نادر أو مزاجي، نحوَ المناطق خارج العاصمة، القرى غير المسماة (على الرغم من أنّها جميعها كانت تحمل اسماً وكان فيها سابقاً ناس وأطفال لهم نشاطاتهم العملية)، وكانت، بحسب ما كان يحكيه آخرون أو بحسبِ التقارير الصحفية التي كنّا نشاهدها كلَّ ليلةٍ على السي إن إن، نسخةً طبقَ الأصل عن نهاية العالم، عن جنون البشر، عن الشر المعشّشِ في كلّ القلوب.

فيما عدا ذلك كان مركز المراسلين الصحفيين يعمل كفندق ولذلك اضطُرِرْنا لأنّ نُسجّل أسماءنا في سجّل النزلاء في اليوم الأوّل. حين جاء دوري بالتسجيل، كنتُ قد شربتُ ويسكي وأتحدّث مع بعضِ الأصدقاء الفرنسيين، لا أدري لماذا خطر لي أن أقلبَ صفحةً من صفحاتِ السجل وأبحث عن اسم. دون مفاجأة وجدتُ اسم أرتورو بِلانو.

كان هناك منذ أسبوعين. كان قد دخل مع مجموعةٍ من الألمان، رجلين وامرأة من صحيفة فرانكفورت. حاولت أن أتواصل معه فوراً ولم أجده. قال لي صحفيٌّ مكسيكيّ إنّه لم يظهر في المركز منذ أسبوع، وإنّ عليّ أن أذهب، إذا أردتُ أن أعرف عنه شيئاً، إلى سفارةِ الولايات المتحدة الأمريكية وأسألَ عنه. فكّرتُ بحديثنا في أنغولا، الذي صار بعيداً، برغبتِهِ بأن يتركهم يقتلونه، ومرَّ في رأسي أنّه في هذه المرّة فعلاً سينجح في ذلك. الألمان قالوا لي إنّه رحل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مُكرهاً، لكنّني في قرارة نفسي كنتُ أعرفُ أنّه لا يمكنني فعل شيءٍ آخر، ذهبتُ لأبحث عنه في السفارة. لا أحد كان يعرفُ عنه شيئاً، لكنّ الرحلة أفادتني في التقاط بضعِ صور: شوارع مونروفيا، فناءات السفارة وبعض الوجوه. عند العودة التقيتُ في المركز بنمساويّ كان يعرف ألمانيّاً رآه قبل أن يُغادر. ومع ذلك كان ذلك الألمانيّ يقضي ساعات النهار كلّها في الشوارع، مستغلاً نورَ الشمس، فطال انتظاري. أتذكّرُ أنّنا رتّبنا قرابةَ السابعة مساءً لعبة بوكر مع بعضِ الزملاء الفرنسيين وأنّنا تزوّدنا بالشمع تحسّباً لانقطاعِ الكهرباء الذي يحدث عامة، كما كان يقول بعضُهم، عند هبوطِ المساء. لكنَّ الكهرباء لم تنقطع واللعبة سرعان ما غرقت في التراخي. أتذكّرُ أنّنا كنّا نشربُ ونتكلّمُ عن رواندا وزائير وعن آخرِ الأفلام التي شاهدناها في باريس. في الثانية عشرة ليلاً حين بقيتُ وحدي في الصالة الرئيسية من فندق أشباح ريتز ذاك، وصل الألماني وجيمي، أخبرني شابٌّ مرتزق (لكن مرتزق لمن؟)، يقوم بدور البوّابِ ونادلِ البار أنَّ هير لينك، المصوّر في طريقه إلى غرفته الآن.

أدركته على الدرج؟

بالكاد كان لينك يتكلّم إنكليزية أوّلية، ولم يكن يعرف كلمةً فرنسية واحدة ويبدو رجلاً طيّباً. حين استطعتُ أن أجعله يفهم أنّ ما كنتُ أريدُه هي أخبارٌ عن مكان صديقي أرتورو بِلانو، طلب منّي بتهذيب (لكن من خلال لمصات ربّما سحبت التهذيب عن طلبه) أن أنتظره في الصالة أو البار وقال إنّه بحاجة لأن يستحمّ وسيهبط بعدها فوراً. تأخّرَ أكثر من عشرين دقيقة وحين صار بجانبي، كانت تفوحُ منه رائحة كولونيا ومعقّم. تكلّمنا متعثّريْن برهةً طويلة. لم يكن لينك يشرب كحولاً، قال لي إنّ هذه الميّزة هي التي جعلته يتوقّفُ عند أرتورو بِلانو، في تلك الأيّام التي كان فيها مركز المراسلين

الصحفيين مرجلاً يغلي بالصحفيين، أكثر من الآن بكثير، وكان الجميع يسكرون قصداً كلّ ليلة بما في ذلك بعض وجوه التلفزيون المشهورة، الناس الذين يجب أن يعطوا مثلاً يُحتذى بالمسؤولية، والجدّيّة، بحسب لينك، وينتهون بالتقيّؤ من الشرفات. أرتورو بِلانو لم يكن يشرب وهذا ما حمله على أن يُقيم معه حديثاً. بالإجمال يتذكّرُ أنّه قضى ثلاثة أيّام في المركز يخرج فيها صباحاً ويعود ظهراً أو مع المغيب. مرّة واحدة فقط، قضى الليلةَ خارج المركز لكنّه كان برفقة أمريكيَّيْن شماليَّيْن محاولاً أن يُجري مقابلة مع جورج كينسي، أفتى الجنرالات وأكثر دمويّة من روزفيلت جونسون، من قومية كراهن، لكنّ الدليل الذي كان يحملهم كان ماندينغياً، طبعاً شعر بالخوف وتركهم مهجورين في أحياء غرب مونروفيا واستغرقوا الليل كلّه حتى عادوا إلى الفندق. في اليوم التالي نام أرتورو بِلانو حتى وقت متأخّر جدّاً، بحسب لينك، ثم ذهب بعد يومين مع الأمريكيَّين الشماليَّين نفسيهما، اللذين حاولا أن يجريا باعتزاز مقابلةً مع كينسي، خارج مونروفيا، نحو الشمال. أهداه لينك قبلَ أن يُغادر علبةَ سكاكر للسعال، مصنوعة في مخابر بِرنا الطبيعية، أو هذا ما ظننتُ أنّني سمعته، ولم يره بعدها أبداً.

سألته عن اسم الأمريكيين. كان يعرف اسم واحد: راي باستور. اعتقدتُ أنّ لينك كان يمزح وطلبتُ منه أن يكرّره، ربّما ضحكتُ، لكنّ الألماني كان يتكلّم بجدّية، ثمّ إنّه كان متعباً أكثر مما يسمح له بالمزاح. قبل أن يذهبَ إلى النوم أخرج ورقةً صغيرة من جيب بنطلون الجينز الخلفي وكتبه لي: راي باستور. أظنّ أنّه من نيويورك، قال. انتقل لينك في اليوم التالي إلى سفارة أمريكا الشمالية، كي يحاولَ أن يخرج من ليبِريا فرافقتُهُ، كي أرى ما إذا كان هناك من يعرفُ شيئاً عن المدعو باستور، لكن الفوضى كانت مطلقة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبدا لي من غير المجدي أن أصرّ. عندما غادرتُ تركتُ لينك في حديقةِ السفارة يلتقط صوراً. التقطتُ واحدة له والتقطَ هو واحدة لي. يظهر لينك في الصورة التي التقطتُها له والكاميرا في يده وهو ينظر إلى الأرض كما لو أنّ شيئاً لامعاً مختبئاً بين الأعشابِ لفت بقوّةٍ انتباهه فحرف عينيه عن عدستي. تعبير وجهه هادئ، حزين وهادئ. في الصورة التي التقطها هو لي أظهرُ (أعتقدُ) ومعي كاميراتي متدلّية من عنقي وأنظر بثبات إلى العدسة. من المحتمل أنّني أبتسم وأرسم بإصبعيّ علامة النصر.

بعد ثلاثة أيّامٍ حاولتُ بدوري أن أُغادر، لكنّني لم أستطع أن أخرج. كان الوضعُ، أعلمني موظّف في السفارة يتحسّن بشكل ملحوظ، لكنَّ الفوضى في النقل كانت تسير بشكل عكسي مع التصنيف السياسي للبلد. لم أخرج مقتنعاً من السفارة. بحثت عن لينك بين مئات المُقيمين الذين كانوا يرتعون على هواهم في الحدائق ولم أجده. صادفت مجموعة جديدة من الصحفيين الذين وصلوا توّاً من فريتاون، وبعضهم، يعلم الله كيف، كانوا قد وصلوا إلى مونروفيا في مروحية قادمة من مكان ما من ساحلِ العاج. لكنّ الغالبيةَ، مثلي، كانوا يفكّرون بالمغادرة ويأتون يومياً إلى السفارة ليعرفوا ما إذا كان هناك وسيلة من وسائل النقل تخرج إلى سيراليون.

إذن في تلك الأيّام، التي لم يكن يوجدُ فيها ما نعمله، حين كتبنا وصوّرنا كلّ ما يمكن تصوُّره، كان أنّهم اقترحوا عليّ وعلى عدد آخر القيامَ بجولة نحو الداخل. طبعاً الغالبية رفضت العرض. قبلناها أنا وفرنسي من *باريس-ماتش* وإيطاليّ من وكالة رويتر. نظّم الرحلة أحدُ العناصر الذين كانوا يعملون في مطبخ المركز، الذي بالإضافة إلى أنّه سيكسبَ بعضَ النقود كان يرغب بأن يلقي نظرة على قريته، التي تبعد عن مونروفيا فقط عشرين كيلومتراً، وربّما ثلاثين، لكّنه لم

يذهب لزيارتها منذ أكثر من نصف سنة. خلال الرحلة (كنا في سيارة شيفي مُتَداعِية يقودُها صديقٌ للطباخ، مسلحٌ ببندقية هجوم وقنبلتين) قال لنا هذا إنّه كان ينتمي إلى عرق مانو وإنّ زوجته من عرق جيو، أصدقاء الماندينغيين (كان السائق ماندينغياً) وعدوّاً للكراهنيين، الذين اتهمهم بأنهم أكلةُ لحوم بشر، وإنّه لا يعرف ما إذا كانت عائلته ميتةً أو ما زالت حيّة. خراء، قال الفرنسي، الأفضل هو أن نعود، لكنّنا كنّا قد قطعنا نصفَ الطريق وكنّا سواءً أنا أو الإيطالي سعيدَيْن ونحن نُصوّر آخر الأفلام المتبقّية معنا.

بهذه الطريقة ودون أن نصادف ولا مرّة واحدة دوريةً من دورياتِ مراقبة الطريق، مررنا بقرية سومِّرس وبضيعة توماس كريك وكان يظهر لنا من حين لآخر نهر سانت بول على يسارنا ونضيعه أحياناً أخرى وكان الطريق من الطرق السيئة، ويمرّ أحياناً وسطَ الغابة، ربّما كانت مزارع مطاطٍ قديمة وأحياناً أخرى وسطَ السهل، من حيث كنّا نخمّن وجودَ تلال المنحدرات الناعمة التي ترتفع في الجنوب أكثر مما رأيناها. مرّة واحدة عبرنا نهراً، رافداً من روافد سانت بول، عبر جسرٍ خشبيّ في حالة سليمة والشيء الوحيد الذي كان يُقدِّمُ لعينِ كاميراتنا هي الطبيعة، لن أقول طبيعةً غنّاء ولا عجيبة، بالنسبة إليّ لا أدري لماذا ذكرتني برحلةٍ قمت بها في طفولتي عبر كورّيينتِس، بل وقلتُ هذا، قلتُه للويجي: هذه تُشبه الأرجنتين، قلته له بالفرنسية، التي كانت اللغة التي نتفاهم بها ثلاثتنا، فنظر إليّ رجل *باريس-ماتش* وقال يا حبذا لو فقط تشبه الأرجنتين، وهو في الحقيقة ما أربكني، فأنا فوق ذلك لم أكن أتكلّم معه، أليس صحيحاً؟ وماذا أرادَ أن يقول بهذا؟ أنّ الأرجنتين أكثر وحشيّة وخطراً من ليبريا؟ لو أنّ الليبريين كانوا أرجنتين لكنّا ميتين؟ لا أعرفُ. على كلّ الأحوال كسرت ملاحظتُهُ كلَّ السحرِ وكان بودّي أن أطلبَ منه توضيحات، هناك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالذات، لكنّني أعرفُ بالتجربة أن لا شيء يُكسَبُ من الدخول في نقاشات من هذا النوع، إضافة إلى أنّ الفرنسيّ السخيفَ كان منزعجاً من رفضنا الغالب للعودة، وكان عليه أن يُنفّس عن نفسه من مكان ما، إضافة إلى أنّه كان يصبّ لعناتهِ في كلّ لحظة على الزنجيين المسكينين اللذين فقط كانا يريدان أن يكسبا بعض البيزوات ويعودا ليريا أسرتيهما، وهكذا تظاهرتُ بأنّني لم أفهم، على الرغم من أنّني عقلياً رغبتُ لو أن قرداً يلِجه، وتابعتُ كلامي مع لويجي، أوضّح له أشياء ظننت حتى تلك اللحظة أنّها منسية، لا أدري، أسماء الأشجار، مثلاً، تلك التي كانت تبدو في نظري أشجار كورّيينتِ[1] القديمة ولها أسماء أشجار كورّيينتِ على الرغم من أنها لم تكن بالطبع أشجار كورّيينتِس. حسن، والحماس الذي كنتُ أشعر به أعتقدُ أنّه جعلني أظهرُ متألّقاً، على كلّ حال أكثر تألقاً مما أنا، بل وظريفاً بحسبِ ما يُحكم من ضحكاتِ لويجي وقهقهاتِ مرافقينا العرضية وهكذا مضينا نُخلّف وراءنا الأشجارَ الكوريينتيّة جدّاً في جوّ من الرفاقية المريحة، طبعاً باستثناء الفرنسي، جان-بيير، الذي كان في كلّ مرّةٍ أكثرَ تبرّماً، ودخلنا في منطقة بلا أشجار، فقط أعشابٌ طويلة وشجيراتٌ كأنّها مريضة وصمتٌ تجرحُهُ من حين لآخر صرخة عصفور متوحّد، عصفور ينادي وينادي ويُنادي وما من أحدٍ يجيب، وهنا بدأنا نتوتّر، لويجي وأنا، لكنّنا كنّا قد أصبحنا أكثر قرباً من اللازم من غايتنا وتابعنا تقدّمنا.

بعد قليل من ظهور القرية بدأ إطلاق النار. كان كلُّ شيء سريعاً ولم نرَ في أي لحظة الرماةَ وإطلاقُ النار لم يدم أكثر من دقيقة، لكن حين درنا حول المنعطف ودخلنا في ما كان يشكل بلاك كريك

(١) نهر صغير في حوض بارانا المائي، الأرجنتين.

حقيقة، كان صديقي لويجي قد ماتَ والعنصر الذي يعمل في المركز ينزفُ من ذراعه ويئنّ بشكلٍ مخنوق مطأطئاً تحت المقعد الأمامي.

نحن أيضاً استلقينا بشكل آلي على أرضيةِ التشيفي.

أتذكّرُ تماماً ما فعلتُ. حاولت أنّ أُشجّع لويجي، قمتُ بعملية التنفس فماً لفم ثم بتدليك قلبه، إلى أن لمس الفرنسيُّ كتفي ودلّني بسبابة مرتجفة ووسخة إلى الصدغ الأيسر للإيطالي، حيث كان يوجدُ ثقب بحجم حبّة زيتون. حين أدركتُ أن لويجي كان ميتاً، كانت الطلقات قد توقّفت وما عادت تُسمع والصمت لا يقطعه غيرُ هواء حركةِ السيارة وضجيج العجلات وهي تسحق حجارة وحصى الطريق الذي كان يقود إلى القرية.

توقّفنا فيما كان يبدو أنّه الساحة الكبيرة في بلاك كريك. التفتَ دليلنا وقال لنا إنّه سيذهب ليبحث عن عائلته. ضماد من مزق مصنوعة من قميصه نفسه كانت تسدُّ الجرح في ذراعه. افترضتُ أنّه هو نفسه عمل ذلك أو السائق، لكنّني لا أستطيع حتى أن أتصوّر في أيّ لحظة حدث ذلك، ما لم يكن الزمن قد تحوّل بالنسبة إليهما إلى ظاهرة مختلفة، غريبة على إحساسنا ذاته بالزمن. بعد قليل من ذهابِ الدليل ظهر أربعةُ عجائز دون شكّ شدّهم صوتُ التشيفي. بقوا محميين تحت رفّ بيتٍ خربٍ ينظرون إلينا دون أن يقولوا شيئاً. كانوا هزيلين ويتحرّكون باعتدال المرضى، كان واحد منهم عارياً، مثل بعض مقاتلي كراهن كينسي وروزفلت جونسون، على الرغمِ من أنّه كان واضحاً أنّ ذلك العجوز لم يكن مقاتلاً إطلاقاً. كان يبدو أنّهم استيقظوا توّاً، مثلنا. رآهم السائق وبقي جالساً وراء مقوده، وهو يتصبّب عرقاً ويُدخّن، بينما هو يلقي من حين لآخر نظرة على ساعته. بعد برهة فتحَ الباب وأشار إشارة إلى العجائز الذين ردّوا عليها دون أن يتحرّكوا من تحت الحماية التي يمنحها لهم الشفّ، نزل بعدها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وراح يفحص المُحرّك. وحين عاد استفاض في توضيحات غير مفهومة، كما لو أنّ السيارة سيارتنا. باختصارٍ ما أراد أن يقوله هو أنّ القسمَ الأمامي كان مثقّباً أكثر من مصفاة. هزّ الفرنسيُّ كتفيه وبدّل وضعية لويجي، بحيث تسمحُ له بالجلوس جانبيّاً. بدا لي أنّ نوبة ربو أصابته، لكن فيما عدا ذلك بدا هادئاً. شكرته ذهنيّاً، إذ إذا كان هناك من شيءٍ أكرهه فهو فرنسيٌّ مسعور. ظهرت بعدها مراهقةٌ نظرت إلينا دون أن تتوقّف عن السير ورأيناها تختفي في واحد من أزقّةٍ كثيرةٍ ضيقة تصبّ في الساحة. حين اختفت صار الصمت مطلقاً ولا نستطيع أن نسمع شيئاً شبيهاً بغليان الشمس فوق سطح سيارتنا ما لم نسترق السمع جيداً. لم يكن هناك نسمة واحدة تجري.

سوف ندفع الثمن غالياً، قال الفرنسيُّ. قال ذلك بظرافة جعلتني ألفتُ انتباهه إلى أنّ النيران توقّفت منذ وقتٍ طويل وأن الذين نصبوا لنا الكمينَ كانوا قليلين، ربّما لصّين مذعورين مثلنا. خراء، قال الفرنسيُّ، هذه الضيعة فارغة. عندها فقط انتبهتُ إلى أنّه لم يكن يوجدُ أحد آخر في الساحة وأدركتُ أنّ هذا لم يكن أمراً طبيعياً. وأنّ الفرنسي لا ينقصه حقّ. لم أخف بل غضبت.

نزلتُ من السيارة وبلتُ مطولاً على أقرب جدار. اقتربتُ بعدها من التشيفي، ألقيتُ نظرةً على المحرّك ولم أرَ شيئاً يمنعنا من الخروج من هناك كما دخلنا. التقطتُ عدداً من الصور للمسكين لويجي. كان الفرنسيُّ والسائقُ ينظران إليّ دون أن يقولا كلمة واحدة. طلب مني بعدها جان-بيير، كما لو أنّه فكّر بها كثيراً، أن ألتقط له صورة. نفَّذتُ أمرَهُ دون أن أجعله يتوسّل إليّ، صورّتُهُ وصوّرتُ السائقَ ثم طلبتُ من السائق أن يُصوِّرنا أنا وجان بيير ثمّ قلت لجان-بيير أن يُصورني أنا ولويجي، لكنّه رفض، مضيفاً أنّ ذلك قمّة الوحشية وهكذا عادت الصداقة التي كانت قد بدأت تنمو بيننا،

لتتصدّع. أعتقدُ أنّني شتمته. أعتقد أنّه شتمني. عدنا بعدها لندخل إلى التشيفي جان-بيير بجانب السائق وأنا بجانب لويجي. يبدو أنّنا بقينا هناك أكثر من ساعة. اقترحنا أنا وجان-بيير خلال هذا الوقت مراتٍ عديدة أنّ من المناسب لنا أن ننسى الطباخ ونولي الأدبار من الضيعة حاملين خيبتنا، لكنّ السائق أظهر تصلّباً أمام حججنا.

أعتقد أنّني في لحظةٍ من لحظاتِ الانتظار أخذني نومٌ قصير ومضطرب لكنّه على كلّ الأحوال كان نوماً وربّما حلمت بلويجي وبألم أضراس هائل. كان الألم أسوأ من يقين موتِ الإيطالي. حين استيقظتُ، مغطىً بالعرق، رأيتُ جان-بيير نائماً ورأسه منحن فوق كتف السائق بينما كان هذا يُدخّن سيجارةً أخرى ونظره مغروزاً أمامه في الصفرة الجنائزيّة للساحة المقفرة والبندقية فوق ركبتيه.

أخيراً ظهر دليلنا.

إلى جانبه كانت تسير امرأةٌ نحيلة اعتقدنا في البداية أنّها أمُّهُ، لكنّها كانت بالنتيجة زوجته ومعها طفل يُقاربُ الثامنة من عمره، يرتدي قميصاً أحمر وبنطلوناً أزرقَ قصيراً. سُنضْطَرّ لأنّ نترك لويجي، قال جان-بيير، لا يوجد مكان للجميع. بقينا بضع دقائق نتجادل. كان الدليل والسائق إلى جانبِ بيير واضطررت أخيراً إلى أن أتساهل، علّقت كاميرات لويجي في عنقي وأفرغتُ جيوبه وأنزلناه أنا والسائق من التشيفي ووضعناه في ظلِّ نوعٍ من مظلة القشّ. قالت زوجة الدليل شيئاً بلغتها وكانت المرّة الأولى التي تتكلّم فيها وبقي جان-بيير ينظر إليها وطلب من الطباخ أن يترجم. فأظهر هذا في البداية عدم رضا، لكنّه قال بعدها إنّ زوجته تقولُ إنّ من الأفضل أن تُدخَل الجثّة إلى داخل أيّ من تلك البيوت التي تحيط بالساحة. لماذا؟ سألْنا أنا وجان-بيير بصوت واحد. المرأة على الرغم من أنّها متأذّية إلا أنّه كان لها حضور ملكة، هكذا كانت أو هكذا بدتْ لنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سكينتُها ورزانتها في تلك اللحظة. لأنّ الكلابَ ستأكلُهُ هناك، قالت مشيرةً إلى مكان الجثّة بإصبعها. تبادلنا أنا وجان-بيير النظر وضحكنا، طبعاً، قال الفرنسيُّ، كيف لم يخطر لنا هذا، طبيعيّ. وهكذا عدنا ورفعنا جثّةَ لويجي وبينما كان السائق يفتح بالرفسِ البابَ الذي بدا له أكثر هشاشة مما هو، أدخلنا نحن الجثّة إلى غرفة ترابية الأرضية، حيث تتكوّم الحصرُ وصناديقُ الكرتون الفارغة وتبلغ درجة رائحتها من عدم التحمّل ما جعلنا نترك الإيطاليَّ مرمياً ونخرج بأسرع ما استطعنا.

عندما أقلع السائق بالتشيفي نططنا كلّنا باستثناء العجائز الذين بقوا ينظرون إلينا من تحت إفريز السطح. من أين سنذهب؟ سأل جان-بيير. قام السائق بحركة كانت تعني لا تزعجوني أو لا أَعلم. عَبْرَ طريقٍ آخر، قال الدليل. عندها فقط أمعنتُ في الطفل: كان قد ضمَّ إليه ساقَيّ أبيهِ ونام. سنذهب من حيث يقولان لنا، قلتُ لجان-بيير.

تهنا برهةً في شوارع الضيعة المقفرة. حين خرجنا من الساحة دخلنا في شارعٍ مستقيم، انعطفنا بعدها يساراً وتقدّمت التشيفي ببطء شديد، تكادُ تُلامسُ جدرانَ البيوت وأفاريزَ أسطح القشّ إلى أن خرجنا إلى فسحةٍ يظهر فيها عنبر كبير من التوتياء من طابق واحد كبير مثل مخزنٍ صناعيٍّ واستطِعنا أن نقرأ على واجهته "CE-RE-PA, Ltd." بأحرف حمراء كبيرة، وفي القسم الأسفل: «معمل ألعاب، بلاك كريك و براونسفيل». قرية الخراء هذه تدعى براونسفيّ، وليس بلاك كريك، سمعت جان-بيير يقول. عارضناه أنا والسائق والدليل دون أن نرفع نظرنا عن العنبر. كانت القرية هي بلاك كريك، وبراونسفيل لا بدّ أنّها تقعُ إلى الغرب قليلاً، لكنّ جان-بيير تابع قوله بشكلٍ غير مفهوم بأنّنا في براونسفيل وليس في بلاك كريك

كما كان يقول العَقْدُ؟ عبرتْ التشيفي الفسحةَ المكشوفة ودخلت في طريق كان يمضي عبر غابة مُطْبِقَة. الآن فعلاً نحن في أفريقيا، قلتُ لجان-بيير، محاولاً عبثاً أن أنفخ فيه الشجاعة، لكنّه فقط أجابني بشيء غير لائق يتعلّق بمعمل الألعاب الذي خَلّفناهُ وراءنا.

لم تطل الرحلة إلا خمس عشرة دقيقة. توقّفت التشيفي ثلاثَ مرّاتٍ وقال السائق إنَّ المحرّكَ إذا ما حالفنا الحظ سوف يوصلنا فقط إلى براونسفيل. وبروانسفيل كما لن نتأخّر في أن نعرف كانت قرابة الثلاثين بيتاً في منطقة مكشوفة. وصلناها بعد أن عبرنا أربعةَ تلالٍ جرداء. كانت القريةُ مثل بلاك كريك شبهَ مُقفرة. لفتتْ سيارةُ التشيفي بكلمة صحافة المُعَلَّقة على البلور الأمامي نظرَ السكانِ الوحيدين الذين كانوا يلوحون لنا بأيديهم من باب بيت خشبيّ، متطاول مثل ورشة، أكبر بيوت القرية. ظهر عنصران مسلحان في العتبة وراحا يصرخان لنا. توقّفتْ السيارةْ على بعد خمسين متراً ونزل السائقُ والدليلُ ليتكلما معهما. أتذكّر أنّ جان-بيير قال لي، بينما كانا يتقدّمان باتجاه البيت، إذا أردنا أن ننجو علينا أن نجري باتجاه الغابة. سألتُ المرأةَ من هذان الرجلان. قالت هي ماندينغيان. كان الطفل ينامُ برأسه في حضنها وخيط لعاب يسيل من بين شفتيه. قلتُ لجان-بيير إنّنا على الأقل نظرياً بين أصدقاء. جاء ردّ الفرنسيّ تهكّمياً، لكنّني لاحظتُ جسدياً كيف راحت الطمأنينةُ (طمأنينةٌ سائلةٌ) تنتشر في كلّ تجعيدٍ من تجاعيدِ وجهه. أتذكّر ذلك وأشعر بالانزعاج، لكنّني شعرتُ وقتها بالرضا. كان الدليلُ والسائقُ يضحكان مع المجهولين. خرجَ بعدها ثلاثةُ عناصر أخرى من البيت المستطيل، كانوا أيضاً مسلحين حتى أسنانهم، بقوا بعدها ينظرون إلينا بينما الدليلُ والسائقُ يعودان إلى السيارة يرافقهم الاثنان الأوّلان. سمعتُ بعض الطلقات البعيدة فخفضنا أنا وجان-بيير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رأسينا. نهضتُ بعدها، خرجتُ من السيارة وسلّمت عليهما وسلّم عليّ أحد الزنجيين بينما لم يكد الآخرُ ينظرُ إليّ، مشغولاً برفع غطاء التشيفي الأمامي وتفتيش المحرّك المتهالك بشكلٍ لا إصلاح له وعندها فكّرتُ أنّهم لن يقتلونا ونظرتُ باتجاه البيت المتطاول ورأيتُ ستّةَ أو سبعةَ رجال مُسلّحين كان بينهم عنصران أبيضان يسيران باتجاهنا. كان واحد منهما يحمل آلتي تصوير بحزامين، أحدهما من أبناء المهنة، كما كان يَسهلُ الاستنتاج، على الرغم من أنّه كان ما يزال بعيداً عني، كنتُ أجهلُ الشهرةَ التي تسبق هذا الزميل إلى كلّ مكان، أي أنّني كنتُ أعرفُ مثل كلّ زملاء المهنةِ اسمَهُ، وأعمالَهُ، لكن لم يسبق لي أن رأيتُهُ شخصيّاً، ولا حتى في صورة. الآخر كان أرتورو بِلانو.

أنا خاكوبو أورِندا، قلتُ له وأنا أرتجف، العالم ماا إذا كنتَ تتذكّرني.

كان يتذكّرني. كيف لن يتذكّر. لكنّني رأيتُهُ وقتذاك من البعدِ عن هذا العالم ما جعلني أشكّ في أنّه سيتذكّرُ شيئاً وخاصّة أنا. لا أعني بذلك بالضبط أنّه كان متغيّراً جدّاً، عملياً لم يكن متغيّراً، كان الشخص نفسه الذي رأيته في لواندا وكيغالي، ربّما من تغيّر هو أنا، لا أدري، الصحيحُ هو أنّني فكّرت أن لا شيء يمكن أن يكونَ كما كان من قبل وكان هذا يشملُ بِلانو وذاكرته. للحظة كادت أعصابي تخونني. أظنّ أنّ بِلانو انتبهَ إلى ذلك فربتَ على ظهري وقال بعدها اسمي. بعدها شددنا على أيدينا، لاحظت مرعوباً أنّ يديَّ متسختان بالدم، ويدي بِلانو، وهذا ما أدركتُهُ بإحساس شبيهٍ بالرعب، كانتا دون أيّ شائبة.

قدّمتُهُ لِجان-بيير وهو قدّمني للمُصَوّر. كان هذا إميليو لوبِّث لوبو، المصوّر المدريديّ من وكالة ماغنوم، أحد أساطير المهنة

الأحياء. لا أدري ما إذا كان جان-بيير سمعهم يتكلمون عنه (جان-بيير بواسون، من *باريس-ماتش*، قال بيير دون أن يتبدّل، وهو ما يُستشف منه أنّه لم يكن يعرفُهُ أو أنّه ضمنَ الظروف التي كنّا فيها لا يهمّه قشرةَ بصلة أن يعرف شخصيّة بمثل تلك الشهرة)، أنا بلى، أنا مُصوّر ولوبِّث لوبو كان بالنسبة إلينا مثل دون ديليو بالنسبة للكتّاب، مصوّراً رائعاً، صيّادَ اللحظات للصفحات الأولى، مغامراً، رجلاً فاز بكلِّ الجوائز الممكنة في أوروبا وصوّرَ كلّ أشكال الحماقةِ والهوانِ البشريين. عندما جاء دوري كي أصافحه، قلتُ: جاكوبو أورِندا، من وكالة لا لونا، فابتسم لوبِّث لوبو. كان نحيلاً جدّاً، لا بدّ أنّه في الأربعين ونيّفٍ من عمره، مثلنا جميعاً ويبدو مخموراً أو منهكاً أو على وشك أن يُجنّ أو الثلاثة معاً.

كان يجتمعُ داخلَ البيت جنودٌ ومدنيون. كان من الصعب التمييز بينهم من النظرة الأولى. كانت الرائحة هناك حلوةً وحامضةً ورطبةً، رائحةَ تَرَقُّبٍ وتعب. اندفاعي الأوّل كان أن أخرجَ وأتنفّسَ هواءً أقلّ فساداً، لكنّ بِلانو أعلمني أنّ من الأفضل ألّا أظهر أكثر من اللازم فعلى التلالِ يوجدُ قناصةُ كراهن متمركزون يمكنُ أن يُطيحوا برؤوسنا. من حسن الحظّ بالنسبة إلينا، وهذا ما علمتُ به فيما بعد، أنّهم لم يكونوا يتحمّلون البقاء رابضين طوالَ النهار ثم إنّهم لم يكونوا جيّدي التسديد.

كانَ البيتُ، المكوّن من غرفتين طوليتين، يعرضُ كأثاثٍ وحيدٍ ثلاثةَ صفوفٍ من الرفوف غير المتساوية، بعضها من معدنٍ وأخرى من خشب، وجميعها فارغة. كانت الأرضيّةُ من تراب مرصوص. وضَّحَ لي بِلانو الوضعَ الذي كنّا فيه. بحسب الجنود كان الكراهن الذين يحاصرون براونسفيل والذين هاجمونا في بلاك كريك يُشَكِّلونَ القوة المتقدّمة لقواتِ الجنرال كينسي الذي وزّع جماعته كي يهاجم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كاكاتا وهاربيل ليتابعَ زحفَهُ بعد ذلك باتجاه أحياء مونروفيا التي كان ما يزال يسيطر عليها روزفلت جونسون. كان الجنودُ يُفكّرون أن يخرجوا صباحَ اليوم التالي باتجاهِ توماس كريك حيث، بحسب ما كانوا يقولون، توجد مجموعةٌ من رجال تيم إيرلي، أحد جنرالات تايلور. كانت خطّةُ العساكر، كما لن نتأخّر في الاتفاق عليه أنا وبِلانو، رعناء ويائسة. إذا كان صحيحاً أنّ كيسي يُجمّع أتباعَهُ في المنطقة، فإنّ الجنود الماندينغيين لن يكون أمامهم فرصة واحدة للعودة مع أتباعهم. خطّة المدنيين، الذين يبدو أنّ امرأة كانت تقودهم، الأمر غير المعهود في أفريقيا، كانت أفضل بشكل معتبر. بعضهم كان يُفضّل أن يبقى في براونسفيل وينتظر الأحداث. آخرون، الغالبية، كانوا يُفَكّرون بأن يرحلوا إلى الشمال الغربي مع المرأة الماندينغية، يعبروا نهرَ سانت بول ويصلوا إلى طريق بريويرفيل. الخطة فيما يتعلّق بالمدنيّين، لم تكن سيّئة، على الرغم من أنّني سمعتهم في مونروفيا يتكلّمون عن مذابحَ على الطريق الذي يربط بريورفيل ببوبولو. ومع ذلك فالمنطقة القاتلة كانت إلى الشرقِ قليلاً وأقرب إلى بوبولو منها إلى بريويرفيل. بعد أن استمعنا إليهم أنا وبِلانو وجان-بيير، قرَّرنا أن نذهبَ معهم. إذا نجحنا في الوصول إلى بريويرفيل، بحسب بِلانو، سنكونُ قد نجونا. كانت تنتظرنا مسيرة عشرين كيلومتراً عبر مزارعِ مطاطٍ قديمة وأدغالٍ استوائيّة، كما كان علينا أن نعبر نهراً، لكن عندما نصل إلى الطريق سنصير على بعد عشرة كيلومترات فقط من بريورفيل وما إن نصبح هناك حتى نكون على بعد ٢٥ كيلومتراً عن مونروفيا عبر طريق، بالتأكيد كان ما يزال في أيدي جنود تايلور. ننطلق في صباح اليوم التالي، بعد قليلٍ من خروج الجنود الماندينغيين بالاتجاه المعاكس ليواجهوا موتاً مؤكّداً.

في تلك الليلة لم أنم.

أولاً تكلّمتُ مع بِلانو، بقيت بعدها برهة أتكلّمُ مع دليلنا وبعدها عدتُ لأتكلّم مع أرتورو ولوبِّتْ لوبو. يجب أن يكون هذا قد حدث بين العاشرة والحادية عشرة، وكان قد صار صعباً التحرّكُ في ذلك البيت الغارقِ في أكثرِ الظلماتِ حلكة، الظلمة التي لا يقطعُها غير جمرِ السجائر التي كان يُدخّنها بعضهم كي يخفّفوا من الخوفِ والأرق. في الباب المفتوح رأيتُ خيال جنديين يقومانِ بالحراسة مقرفِصَيْن ولم يلتفتا حين اقتربتُ منهما. أيضاً رأيتُ النجومَ وطيفَ التلال فعدتُ لأتذكّر طفولتي. لا بدَّ أنّ هذا يعودُ إلى أنّني أربط بين طفولتي والريف. عدتُ بعدها إلى عمقِ البيت، مُتَلمِّساً الرفوفَ، لكنّني لم أعثر على مكاني. لا بدّ كانت الساعةُ الثانية عشرة حين أشعلتُ سيجارةً واستعددتُ لأنّ أبقى نائماً. أعرف أنّني كنتُ راضياً) لأنّنا سنشرع في اليوم التالي بالعودة إلى مونروفيا. أعرف أنّني كنتُ راضياً لأنّني كنتُ وسطَ مغامرةٍ وأشعرُ بنفسي حيّاً. هكذا رحتُ أُفكّرُ بزوجتي، ببيتي، وبعدها رحتُ أُفكِّرُ ببِلانو، بالحالةِ الجيّدة التي وجدته فيها والمظهرِ الجيّد الذي كان له، فهو أفضل مما كان أنغولا، حين كان يُريد أن يموت، وأفضل مما كان في كيغالي، حين لم يعد يُريد أن يموت، لكنّه أيضاً لم يكن باستطاعته أن يولي الأدبارَ من تلك القارة التي تخلّى الله عنها، وحين أنهيتُ السيجارة أخرجتُ أخرى، هذه فعلاً ستكون الأخيرة ورحتُ لكي أُشجع نفسي أدندنُ بصوتٍ خافتٍ جداً، أم ذهنياً! أغنيةً لأتاهوالبا يوبانكي، يا إلهي، أتاهوالبا يوبانكي، وعندها فقط أدركتُ أنّني كنتُ متوتّراً جدّاً وأنّ ما أحتاج إليه، هذا إذا كنتُ أُريدُ أن أنام، هو أن أتكلّم مع أحدٍ، وعندئذٍ نهضتُ وخطوتُ عدّةَ خطواتٍ على غير هدى، أولاً صمت قاتل (فكّرتُ خلال جزء من ثانية، أنّنا جميعاً كنّا موتى، وأنّ الأملَ الذي يبقي علينا مجرّدُ وهمٍ فانتابني دافع لأن أخرج هارباً بلا تعقّل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من ذلك البيت المنتن)، سمعتُ بعدها صوتَ الشخير، همسَ من لم يناموا بعد، الذي لا يكاد يُسمَعُ، ويتحدّثون في الظلمة بلغة الجيو أو المانو، باللغة الماندينغية أو الكراهن أو الإنكليزية، أو الإسبانية.

كلّ اللغات بدت لي وقتها مقيتة.

أن أقول هذا الآن، أعرفُ، سخفٌ. كلّ اللغات، كلّ الهمس ليس غير شكلٍ بديلٍ للمحافظة عن هويتنا في زمن مضطرب. على كلٍّ الحقيقة أنّني لا أعرف لماذا بدت لي مقيتة. ربّما لأنّني كنتُ ضائعاً بطريقة اعتباطية في مكان ما من تلكما الغرفتين الطويلتين جدّاً، لأنّني كنتُ ضائعاً في منطقةٍ لم أكن أعرفها، في قارّةٍ لم أكن أعرفها، في كوكبٍ متطاول وغريبٍ أو ربّما لأنّني كنتُ أعرفُ أنّ عليّ أن أنامَ ولا أستطيع. وعندها تلَمَّست طريقي بحثاً عن الجدارِ وجلستُ على الأرض وفتحت عينيّ بشكل مفرط، محاولاً أن أرى شيئاً، دون أن أنجح، بعدها تكوّمتُ على الأرض وأغمضتُ عينيَّ ورجوتُ الله (الذي لا أؤمن به) ألاّ يُمرِّضني، فغداً ينتظرني مسيرٌ طويل، وبعدها أخذني النوم.

بالتأكيد كانت الساعةُ، حين استيقظتُ، تقاربُ الرابعة صباحاً.

على بعد أمتار من حيث كنتُ كان بِلانو ولوبِّث لوبو يتكلّمان. رأيتُ جمرَ سيجارتيهما، اندفاعي الأوّل كان أن أنهضَ وأقتربَ منهما كي أشاطرهما غموضَ ما كان سيأتينا به اليومُ التالي، وأن أُطلَّ حتى ولو زاحفاً أو على ركبتيَّ على الظلين اللذين كنتُ ألمحهما خلفَ السيجارتين. لكنّني لم أفعل. منعني شيءٌ ما في نبرةِ صوتيهما، شيءٌ ما في وضعيةِ الظلّين الكثيفَيْن الرَّبِعَيْن والحربيَّيْن والمُتشظيين والمُتفكّكين أحياناً، كما لو أنّ الجسمين اللذين يعكسانهما قد اختفيا.

هكذا انكمشتُ وتظاهرت بالنوم وأصغيتُ.

تكلّم لوبِّثْ لوبو وبِلانو حتى ما قبلِ الفجر بقليل. ونقلُ ما قاله الواحدُ منهما للآخر هو بطريقةٍ ما إنقاصٌ من قيمة ما شعرتُ به بينما كنتُ أسمعهما.

أولاً تَكَلّما عن أسماءِ الناس وقالا أشياء غير مفهومة، بدا صوتاهما صوتَيّ مُتآمرَيْن أو مُجَالِدَيْن، كانا يتكلمان بصوتٍ خفيض وكان متفقين على كلّ شيء تقريباً، على الرغم من أنّ الصوتَ الآمرَ كان صوت بِلانو وحججه (التي سمعتها متقطّعةً، كما لو أنّ في داخل ذلك البيت المتطاول يوجد تيارٌ صوتيّ أو ستائرٌ معترضة اعتباطاً كانت تحرمني من نصف ما كانا يقولانه)كانت ذات طبيعةٍ تحريضيّة، بلا صقلٍ، لا يغتفر أن أدعى لوبِّثْ لوبو، لا يغتفر أن أُدعى بِلانو، أشياء من هذا النوع، على الرغم من أنّني يمكن أن أخطئ ويمكن لموضوع الحديث أن يكون النقيض. بعدها تحدّثا عن أشياء كثيرة، عن أسماء مدنٍ، أسماء نساء، عناوين كتبٍ. قال بِلانو جميعنا نخاف أن نغرق. بقي بعدها صامتاً وعندئذٍ فقط انتبهت إلى أنّ لوبِّثْ لوبو، بالكاد تَكَلّم وإلى أنّ بِلانو تكلّم أكثر من اللازم وفكَّرتُ للحظة أنّهما سيناممان واستعددتُ لأن أفعل الشيء ذاته، كانت تؤلمني عظامي، كان اليوم ماحقاً. تماماً في هذه اللحظة عدت لأشعر بأصواتهما.

في البداية لم أفهم شيئاً، ربّما لأنّني غيّرتُ وضعيّتي، أو لأنّهما كانا يتكلّمان بصوت أكثر خفوتاً. استدرتُ. كان واحد منهما يُدخِّن. ميّزتُ صوتَ بِلانو مرّةً أخرى. كان يقول إنّه عندما وصل إلى أفريقيا *أيضاً* كان يُريدهم أن يقتلوه. حكى قصصاً من أنغولا ورواندا. كنتُ أعرفها، ونعرفها جميعنا نحن الموجودون هنا تقريباً. عندئذ قاطعه صوت لوبِّثْ لوبو. سأله. (سمعته بوضوح تام) لماذا كان يريد أن يموت وقتذاك. لم أسمع جواب بِلانو لكنّني حدستُهُ، وليس في هذا تميّز لأنّني بطريقة ما كنتُ أعرفه. كان قد فقد شيئاً وكان يريدُ أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يموت، هذا كلّ شيء. سمعتُ بعدها ضحكةَ من بِلانو وافترضت أنّه يضحك من ذاك الشيء الذي خسره، خسارته العظمى، ومن نفسِهِ ومن أشياء أخرى لا أعرفها ولا أريد أن أعرفها. لوبِّثْ لوبو لم يضحك. أظنّ أنّه قال، بالله عليك، أو علّق تعليقاً من هذا القبيل. كلاهما لزم الصمت بعدها.

بعدها، لكن بعدها بِكَمْ، لا أستطيع أن أحدّد بدقة، سمعتُ صوتَ لوبِّثْ لوبو يقول شيئاً، ربّما كان يسأل عن الساعة. كم الساعة؟ أحدٌ ما تقلّب بجانبي وسطَ نومه ولوبِّث لوبو لفظ بعضَ الكلمات الحلقيّة، كما لو أنّه عاد ليسأل كم الساعة، لكنّه سأل هذه المرّة، أنا واثقٌ، عن شيءٍ آخر.

قال بِلانو إنّها الرابعة صباحاً. عرفتُ في تلك اللحظة أنّني لن أستطيع أن أنام. عندها راح لوبِّث لوبو يتكلّم واستمرّ حتى الفجرِ كلامُهُ الذي كانت لا تقاطعه من حين لآخر بعيد إلا أسئلة غير مفهومةٍ من بِلانو.

قال إنّه أنجب ولدين وعنده مثل بِلانو ومثل الجميع زوجة وبيت وكتب. قال بعدها شيئاً لم أفهمه. ربّما تحدّث عن السعادة. ذكر شوارعَ، محطاتِ مترو، أرقامَ هواتف، كما لو أنّه يبحث عن أحدٍ. تلاه صمتٌ. أحدٌ سعل. كرّرَ لوبِّث لوبو أنّه كان عنده زوجة وولدان، وحياته أقرب إلى الرضا، كرّرَ شيئاً من هذا القبيل. معاداة الفرانكوية الناشطة وشباب السبعينات، حيث لم يندر الجنسُ ولا الصداقة. صار مصوّراً بالمُصادفة تقريباً. لم يكن يعطي أهمّية إلى شهرتهِ أو مكانتهِ أو لكائن ما كان. كان قد تزوّج عاشقاً. كانت حياته، ما تُسمى عادةً حياة، سعيدةً. وذات يوم اكتشفا بالمصادفة أنَّ ابنَهُما البكرَ مريض. كان طفلاً ذكيّاً جدّاً، قال لوبِّث لوبو. كان مرضُ الطفل خطيراً، مرضاً من أصلٍ استوائيّ وبالطبع فكّر لوبِّثْ

لوبو أنه كان هو من أصابَ الطفلَ بعدوى المرض. ومع ذلك وبعد القيام بالفحوصات ذات الصلة لم يعثر الأطباء على أثر للمرض في الدم. بقي لوبِّثْ لوبو زمناً يُلاحق ناقلي المرض المحتملين في محيط الطفل الصغير ولم يعثر على شيء. بعدها جنَّ لوبِّث لوبو.

باع هو وزوجتُهُ البيتَ الذي كانا يملكانه في مدريد. وذهبا ليعيشا في الولايات المتحدة الأمريكية. سافرا مع الطفل المريض والطفل السليم. المشفى الذي أدخلا فيه الطفلَ المريض كان غالياً والمعالجة طويلةَ الأمدِ فاضطُرّ لوبِّث لوبو أن يعود إلى العمل، وهكذا بقيت زوجته مع الولدين وراح هو يلتقطُ صوراً ويبيعها مُتفرّقة. تواجدَ في أماكن كثيرة، قال، لكنّه دائماً كان يعود إلى نيويورك. كان أحياناً يجدُ الطفلَ في وضعٍ جيّد كما لو أنّه يهزمُ المرضَ، وأحياناً أخرى تستقر صحّتُهُ أو تتراجع. أحياناً كان لوبِّثْ لوبو يبقى جالساً على كرسيٍّ في غرفة الطفلِ المريض ويحلمُ بولديه: يرى وجهيهما متلاصقين، مبتسمين ومهجورين، وعندئذٍ ودون أن يعرف لماذا، كان يعرفُ أنّ من الضروريّ عليه، هو لوبِّث لوبو، أن يموت. كانت زوجته قد استأجرت شقّة في الشارع ٨١ غرباً والابن السليم يدرسُ في مدرسة قريبة. وذات يوم بينما كان ينتظر في باريس تأشيرة إلى بلد عربيّ، هتفوا وقالوا له إنّ صحّةَ الولد المريضِ قد ساءت. ترك أعماله العالقة وأخذ أوّلَ طائرة إلى نيويورك. حين وصل إلى المشفى بدا له كلُّ شيء غارقاً في نوعٍ من الهدوء المريع وعندها عرف أنّ النهاية قد أزفت. بعد ثلاثة أيامٍ توفّي الصغيرُ. قام بإجراءاتِ حرقِ الجثّة بنفسه، فزوجته كانت منهارة. إلى هنا كان حديث لوبِّثْ لوبو مفهوماً إلى هذا الحدّ أو ذاك. البقية كانت تتالي جملٍ ومشاهد حاولتُ أن أُرتِّبها.

يوم وفاةِ الطفل أو في اليوم التالي وصل والدا زوجة لوبِّثْ لوبو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى نيويورك. كانوا جميعاً في بار فندق في برودواي، بالقرب من الشارع ٨١، الحموان، الابن الأصغر والزوجة وراح لوبِّثْ لوبو يبكي وقال إنّه كان يُحبّ وَلَدَيه وإنّه المسؤول عن موت الابن البكر. وإن كان من المحتمل أنّه لم يقل شيئاً وأنه لم يدْرْ أيُّ نقاش، وأنّ كلَّ شيء حدث فقط في ذهن لوبِّثْ لوبو. سكر بعدها لوبِّث لوبو ونسيَ رمادَ الطفلِ في عربة مترو نيويورك وعاد إلى باريس دون أن يقول لأحدٍ شيئاً. بعد شهر علم أنّ زوجته عادت إلى مدريد وتريد الطلاق. وقّعَ لوبِّثْ لوبو الأوراقَ وفكّر أنّ كلّ شيء كان حلماً.

بعد ذلك بكثير سمعتُ صوتَ بِلانو يسألُ متى وقعت «الفاجعة». بدا لي صوتَ فلاّح تشيليّ. منذ شهرين، أجاب لوبِّثْ لوبو. وبعدها سألَ بِلانو ماذا حلّ بالابنِ الآخر، الطفلِ السليم. يعيش مع أمّه، أجاب لوبِّث لوبو.

في تلك الساعة صار باستطاعتي أن أميّز طيفَيْهما المستندين إلى الجدار الخشبيّ. كلاهما كان يُدَخِّن وكلاهما بدا متعباً، لكن ربّما كان هذا الانطباعُ الأخيرُ ناتجاً عن تعبي أنا. وقتها لم يعد لوبِّثْ لوبو يتكلّم، وحده كان بِلانو يتكلّم، كما في البداية، والمدهشُ أنّه كان يحكي قصّته، القصّة التي ليس لها قدم ولا رأس، مرّة بعد أخرى، مع خصوصية أنّه في كلّ إعادة كان يختصر القصّةَ أكثر قليلاً، إلى أن يقول أخيراً: أردتُ أن أموت، لكنّني أدركتُ أنّ من الأفضل ألا أفعل. عند ذلك فقط انتبهتُ إلى أنّ لوبِّثْ لوبو كان سيُرافق الجنودَ في اليوم التالي وليس المدنيين وأنّ بِلانو لن ليتركه يموت وحيداً.

أظنّ أنّني نمتُ.

على الأقل، أظنّ أنّني نمتُ بضعَ دقائق. حين استيقظتُ كان ضياءُ النهار الجديد قد بدأ يتسرّبُ إلى داخل البيت. سمعت شخيراً، تنهيداً، ناساً يتكلّمون في أحلامهم. رأيتُ بعدها الجنودَ الذين كانوا

يستعدّون للخروج. إلى جانبهم رأيت لوبِّثْ لوبو وبِلانو. نهضتُ وقلتُ لِبِلانو ألاّ يذهب. هزّ بِلانو كتفيه. كان وجه لوبِّثْ لوبو قاسياً. كان يعرف أنّه سيموتُ الآن وهو هادئ، فكّرتُ. كان وجه بِلانو على العكس منه، يبدو وجهَ مجنون: خلال ثوان كان ممكناً أن ترى فيه الخوفَ المريع، أو الفرح الضاري. أخذته من ذراعه وخرجت معه دون تروٍّ لأتمشى في الخارج.

كان صباحاً جميلاً جدّاً بمسحةٍ زرقاء تُجَعِّدُ الشعر. رآنا لوبِّثْ لوبو والجنودُ نخرجُ ولم يقولوا شيئاً. كان بِلانو يبتسم. أتذكّرُ أنّنا سرنا باتجاه سيارتنا التشيفي التي لم تعد تنفع وأنّني قلتُ له عدّةَ مرّاتٍ إنّ ما يُفكّر القيامَ به خطأ فظيع. سمعتُ حديثَ الليل، اعترفتُ له، وكلُّ شيء يُجبرني على أن أتصوّر أنّ صديقكَ مجنون. لم يُقاطِعني بِلانو: كان ينظر نحو الغابات والتلال التي كانت تُحيط براونسفيل ويهزّ من حين إلى آخر رأسَهُ بالموافقة. حين وصلنا إلى التشيفي تذكّرتُ القنّاصةَ وأصبتُ ببدايةِ ذعر. بدا لي غير معقول. فتحتُ أحدَ الأبواب وجلسنا داخلَ السيارة. أمعن بِلانو النظرَ بدمِ لويجي الملتصق بفرش المقعد، لكنّه لم يقلْ شيئاً ولا أنا اعتبرتُ مناسباً أن أُوَضّحَ له الأمرَ في تلك اللحظة. لزمنا الصمتَ برهة. كنتُ أُخفي وجهي بين يديّ. سألني بِلانو بعدها عما إذا انتبهتُ كم كان الجنود يافعين. جميعهم شباب أكثر من اللازم، أجبته ويقتلون بعضهم بعضاً كما لو أنّهم يلعبون. ومع ذلك يبقى جميلاً، قال بِلانو، وهو ينظرُ عبر النافذة إلى الغابةِ العالقة بين الضباب والنور. سألتُه لماذا كان سيرافق لوبِّثْ لوبو. كي لا يكون وحيداً، أجابَ. كنتُ أعرف هذا، وأنتظر جواباً آخر، شيئاً يكون حاسماً، لكنّني لم أقلْ له شيئاً. شعرتُ بنفسي حزيناً جداً. أردتُ أن أقولَ شيئاً ولم أعثرْ على الكلمات. نزلنا بعدها من التشيفي وعدنا إلى البيتِ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الطويل. أخذ بِلانو أشياءَه وخرج مع الجنودِ والمصوّرِ الإسبانيّ. رافقتُهُ حتى الباب. كان جان-بيير إلى جانبي وينظر إلى بِلانو دون أن يفهم شيئاً. كان الجنودُ قد بدأوا يبتعدون وهناك بالذات قلنا له وداعاً. شدّ جان-بيير على يده وأنا عانقته. كان لوبِّتْ لوبو قد سبقه فأدركنا أنا وجان-بيير أنّه لا يريد أن يودّعنا. بعدها راح بِلانو يركض، كما لو أنّه ظنّ أنّ الطابورَ سيذهبُ ويتركه، أدرك لوبِّتْ لوبو، بدا لي أنّهما يتكلّمان، بدا لي أنّهما يضحكان، كما لو أنّهما ذاهبان في نزهة، وهكذا اجتازوا المنطقة المكشوفةَ ثم راحوا يضيعون في كثافة الغابة.

من ناحيتنا، مرّت رحلةُ العودةِ إلى مونروفيا من دون حوادث تقريباً. كانت رحلةً طويلةً ومزعجة، لكنّنا لم نمرّ بجنودٍ من أيّ مجموعة. وصلنا إلى برويرفيل مع هبوط الليل. هناك ودّعنا الغالبيةَ وفي صباح اليوم التالي نقلنا فان تابعٌ لمنظّمة إنسانية إلى مونروفيا. لم يتأخر جان-بيير أكثر من يوم مع الرحيل عن ليبريا. أنا بقيت أسبوعين آخرين. أقام الطبّاخ وزوجته وابنه الذين صرت صديقاً لهم في مركزِ الصحافة. كانت الزوجة تعملُ في ترتيب الأسرّة وكنس الأرض وكنتُ أحياناً أطلّ من نافذة غرفتي وأرى الطفلَ يلعب مع أطفال آخرين أو مع الجنود الذين كانوا يحرسون الفندق. لم أرَ السائقَ بعدها، لكنّه وصل إلى مونروفيا حيّاً، وهذا بطريقة ما نوع من العزاء. طبعاً، حاولتُ خلال الأيام التي بقيتُها هناك أن أعرف مكان بِلانو، أتحقّقَ ماذا جرى في منطقة براونسفيل-بلاك كريك-توماس كريك، لكنّني بالكاد خرجت بشيءٍ واضح. بحسب بعضهم كانت تلك الأرض وقتذاك تحت سيطرة عصابات كينسي المسلحة، وبحسب آخرين، نجح طابور تابع للجنرال ليبون، أظنّ أنّ هذا هو اسمه، جنرال في التاسعة عشرة من عمره، نجح في أن يعيد سلطة

تايلور إلى جميع الأراضي الممتدة ما بين كاكاتا ومونروفيا، وهو ما يشمل براونسفيل وبلاك كريك. لكنّني لم أعرف قط ما إذا كان هذا صحيحاً أم كذباً. حضرتُ ذات يوم محاضرة في مكان قريب من سفارة أمريكا الشمالية. قدّمها جنرالٌ يُدعى ويلمان وحاول أن يشرح على طريقته الوضعَ في البلد. استطاع الجميع في النهاية أن يسألوه ما شاءوا. عندما ذهب الجميع أو تعب الجميع من طرح الأسئلة، التي كنّا نعرف بطريقة ما أنّها غير مجدية، سألتُه أنا عن الجنرال كينسي، عن الجنرال ليبون، عن الوضع في ضيعة براونسفيل وبلاك كريك وعن مصير المصوّر إميليو لوبِّتْ لوبو. الإسبانيّ الجنسية وعن الصحفي أرتورو بِلانو، التشيلي الجنسية. نظر إليّ الجنرال ويلمان بإمعان قبل أن يجيب (لكنّه كان يفعل هذا مع الجميع، ربّما كان يُعاني من ضعف النظر ولا يعرف أين يستطيع أن يحصل على نظارة). قال بهدوء إنّ الجنرال كينسي، بحسب معلوماته، ميت منذ أسبوع. قتلته قوات ليبون، الجنرال ليبون، بدوره، أيضاً قُتِلَ، هذه المرّة على أيدي عصابة من قطّاع الطرق، في أحد أحياء شرق مونروفيا. عن بلاك كريك قالَ: «في بلاك كريك يسود الهدوء» حرفياً. أما قرية براونسفيل، على الرغم من أنّه تظاهر بالعكس، فهو لم يسمع بها قط.

بعد يومين غادرتُ ليبريا ولم أعد إليها أبداً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢٦

إرنِستو غارثيّا غراخالِس، جامعة باتشوكا، باتشوكا، المكسيك، كانون الأوّل ١٩٩٦.

بتواضعٍ سأقول لك، يا سيّد، إنّني الدارسُ الوحيدُ للواقعيين الأحشائيّين، الموجودُ في المكسيك وإذا ما استنفدت صبري، سأقول في العالم. أُفكّرُ، إن شاء الله، بنشر كتاب عنهم. قال لي الأستاذ رِيِّس أرِبالو إنّ من المحتمل أن تستطيعَ دارُ نشرِ جامعتِنا نشره. بالطبع الأستاذ رِيِّس أرِبالو لم يسمع قط أحداً يتكلّم عن الواقعيين الأحشائيّين، وهو في قرارة نفسه يُفَضّل أفرودةً عن الحداثيّين المكسيكيين أو طبعة مُحقّقة عن مانوِلْ بِرِث غارابيتو، الشاعر الباتشوكي بامتياز. لكنَّ إصراري أقنعَهُ شيئاً فشيئاً بأنّه ليس سيّئاً أن يُدرَسَ بعضُ أكثر جوانبِ شعرِنا الحديث حنقاً. وهكذا حملنا في طريقنا باتشوكا إلى عتبات القرن الحادي والعشرين. بلى، يمكن أن يُقال إنّني الدارسُ الرئيس، المصدرُ الأكثر أهليّةً، لكنّ ليس لهذا له أيّ ميّزة. ربّما كنتُ *الوحيدَ* المهتمَّ بهذا الموضوع. ما عاد أحدٌ يتذكّرهم تقريباً. كثيرون منهم ماتوا. هناك آخرون لا يُعْرَفُ عنهم شيء، اختفوا. لكنَّ بعضهم ما زال ناشطاً، خاثينتو رِكِنا، مثلاً، يمارس في الوقت الحالي النقدَ السينمائيَّ ويُدير نادي باتشوكا السينمائي. له الفضلُ باهتمامي بهذه المجموعة. ماريّا فونت تعيش

في العاصمة الفيدرالية. لم تتزوّج. تكتبُ، لكنّها لا تنشر. إرنستو سان إبيفانيو مات. خوتشيتل غارثيّا يعملُ في مجلاتِ وملحقاتِ صحفِ العاصمةِ الأسبوعية. أعتقد أنّه ما عادَ يكتبُ شعراً. رافائيل بارّيوس اختفى في الولايات المتحدة. لا أعرفُ ما إذا كان حيّاً أم ميتاً. أنخِليكا فُونتْ نشرت منذ مدة قصيرة ديوانها الثاني، كتاباً لا يتجاوز الثلاثين صفحة، الكتاب لا بأس به، الطبعةُ أنيقة جدّاً. البَشَرَة الإلهيّة مات. بانتشو رودريغِثْ مات. إيمّا مِنْدِثْ انتحرت. موكتِزوما رودريغِثْ زجّ نفسه في السياسة. يقولون إنّ فِليبّ مولِّر ما زال في برشلونة. متزوجٌ وعنده ولد، يبدو سعيداً، ومن حين لآخرَ ينشر له أصدقاؤه هنا بعضَ القصائد. عوليس ليما ما زال يعيشُ في العاصمة الفيدرالية. في الإجازة الماضية ذهبتُ لزيارته. كان فرجةً. وأكثر من ذلك أعترفُ لك أنّني في البداية خفتُ قليلاً منه. عاملني طيلة الوقت الذي قضيتُهُ معه بالسيّدِ الأُستاذ. لكن، يا أخي، أنا أصغرُ منك سنّاً، لذلك لماذا لا نتخاطب بأنا وأنتَ. كما تريد أنت، أيها السيد الأستاذ، أجابني. آهٍ، يا له من عوليس. عن أرتورو بِلانو لا أعرف شيئاً. بِلانو، لم أتعرف عليه. عددٌ منهم لم أعرفهم. لم أعرف مولِّر ولا بانتشو رودريغِث ولا البَشَرَة الإلهية. أيضاً لم أعرف رافائيل بارّيوس. خوان غارثيّا مادِرو؟ لا، هذا لم أسمع به. بالتأكيد لم ينتمِ قط إلى المجموعة. يا رجل، إذا كنتُ أنا، السلطة العليا في هذه المادّة من يقول ذلك، فَلِأمْرٍ ما. جميعهم كانوا في مقتبل أعمارهم. عندي مجلاتهم، منشوراتهم، وثائقهم التي لا يمكن العثور عليها اليوم. كان هناك صبيّ في السابعة عشرة من عمره، لكنّه لم يكن يُدعى غارثيّا مادِرو. لنرَ. . . كان يُدعى بوستامَنتِ. نشر قصيدة وحيدة في مجلةٍ منسوخة على آلة النسخ، صدر العددُ الأوّلُ منها في العاصمة الفيدرالية، لم تتجاوز

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العشرين نسخة، ثمّ إنّه لم يصدر غيرُ هذا العدد الأوّل. ولم يكن بوستامَنتِ مكسيكيّاً، بل تشيليّاً، مثل بِلانو ومولِّر، كان ابنَ بعضِ المنفيين. بحسب معرفتي، لا، لم يعد المدعو بوستامَنتِ يكتبُ شعراً. لكنّهُ انتمى للمجموعة. طبعاً أقصدُ واقعييّ العاصمة الفيدرالية الأحشائيّين. لأنّه وجدت مجموعة أخرى من الواقعيين الأحشائيّين، منذ زمن بعيد، في العشرينات، واقعيو الشمال الأحشائيّون. ألم تكن تعرف هذا؟ بلى. على الرغم من أنّه بالفعل لا يوجد وثائق كثيرة عن هؤلاء. لا، لم تكن مصادفة. بل كانت أقرب إلى التكريم. إلى الإشارة. إلى الردّ. من يدري. على كلِّ الأحوال أنا أُفضِّلُ ألا أُضيِّعَ نفسي في هذه المتاهات. وأقتصرُ على مادةِ بحثي وليستخلص القارئُ والدارسُ استنتاجاتهما. أعتقدُ أنّ كتابي الصغير سيكون جيّداً. في أسوأ الحالات سوف آتي بالحداثة إلى باتشوكا.

أماديو سالباتييرّا، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر التفتيش، مكسيكو، العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦.

جميعهم نسوها، إلاّ أنا، أيّها الفَتَيان، قلتُ لهما، الآن وقد شخنا ولم يعد أمامنا من حيلة، ربّما هناك أحد ما يتذكّرها. لكن وقتذاك نسيها الجميع وبعدها راحوا ينسون أنفسَهُم، وهذا ما يحدث عندما ينسى المرء أصدقاءه. إلاّ أنا، أو هذا ما يبدو الآن. أنا احتفظتُ بمجلّتِها واحتفظتُ بذِكْراها. ربّما كانت حياتي تسمحُ بذلك. أنا أيضاً، مثل الكثيرين من المكسيكيين، هجرتُ الشعر. أنا أيضاً مثل آلاف المكسيكيين أدرتُ ظهري للشِّعرِ. أنا أيضاً هجرتُ، مثل مئات الآلاف من المكسيكيين، حين أَزِفَت اللحظةُ، كتابةَ الشعر وقراءتَهُ. ومنذ تلك اللحظة سارت حياتي في أكثر المجاري، التي

يمكن للمرء أن يتصوّرها، رمادية. عملتُ كلّ شيء، عملت ما استطعتُ. ذات يوم وجدتُ نفسي أكتبُ رسائلَ، أوراقاً غير مفهومةٍ تحت بوّاباتِ ساحة سانتو دومينغو. كان عملاً مثلَ أيّ عملٍ آخر، على الأقل ليس أسوأ من كثير من الأعمال التي زاولتها، لكنّني لم أتأخّر كثيراً حتى انتبهتُ إلى أنّني سأبقى هنا زمناً طويلاً مشدوداً إلى آلتي الكاتبة، إلى ريشتي وأوراقي البيضاء. ليس عملاً سيّئاً. حتى أنّني أضحكُ أحياناً. أكتبُ رسائلَ حبٍّ كما أكتبُ رسائلَ التماسٍ، طلباتٍ للمحاكم، مطالباتٍ مالية، توسّلاتٍ يرسلها اليائسون إلى سجون الجمهورية. ويبقى عندي وقت كي أتكلّمَ مع زملائي، الكتبةِ المثابرين مثلي، النوع الذي ينقرض، أو كي أقرأ آخرَ عجائب أدبنا. الشعر المكسيكي ليس له مخرج: منذُ أيّام قرأتُ أنّ شاعراً من أرقِّ الشعراء كان يعتقدُ أنّ بِّنسيل فلوريدو كان قلم تلوين وليس حديقة أو بستاناً، بل وحتى واحة، مليئة بالأزهار. بِّنسيل تعني أيضاً متدلّياً، وعالقاً وراسباً، قلت لهما، هل كنتما تعرفان ذلك، أم أنّني تورّطت؟ ونظرَ الفتيان الواحد إلى الآخر وقالا بلى، لكن بحركةٍ كان يمكن أن تعني لا. لم أحصل على أيّ خبرٍ عن ثِساريا. ذات يومٍ صادقتُ في بارٍ عجوزاً من سونورا. كان العجوزُ يعرف تماماً هِرموسيّو وكانانيا ونوغالِس، وأنا سألتُهُ عما إذا سمع ذاتَ مرّة عن ثِساريا تيناخِرو. قال لي لا. لا أدري ماذا أقول له، لكنّ العجوزَ ظنَّ أنّني كنتُ أكلّمه عن زوجتي أو أختي أو ابنتي. حين قال لي ذلك فكّرتُ أنّني في الواقع لم أكد أعرفه. أعتقد أنّني بدأتُ مُذّاك أنساها. والآن تقولان لي، أيّها الفتَيان، إنّ مابْلِس أرثِ كلّمكما عن ثِساريا. أو لِيْسْتْ أو أركِلِسْ، ما هَمّ. من أعطاكما عنواني، سألتُهما. لِيْسْت، أركِلِسْ أم مانوِلْ، ما هَمّ. ونظرَ إليّ الفتَيان أو ربّما لم ينظرا إليّ، كان الفجرُ قد بدأ يبزغ منذُ برهة طويلة. كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ضجيج شارع فنزويلا يدخل أمواجاً أمواجاً إلى بيتي وفي تلك اللحظةِ رأيتُ أنّ أحدَ الفتيين قد نام جالساً على الأريكة، لكن بظهرٍ مستقيم جدّاً، كما لو أنّه كان مستيقظاً والآخر راحَ يتصفّحُ مجلّةَ ثِساريا، لكنّه أيضاً يبدو نائماً. وعندها قلتُ لهما، أيّها الفَتَيان، يبدو أنّ النهار قد طلع، يبدو أن الفجرَ قد طلع. وفتح الذي كان نائماً فمَهُ الهائل وقال بلى، يا أماديو. على العكس من الذي كان مستيقظاً، لم يبالِ بي، تابع تصفّحَهُ للمجلةِ بنصفِ ابتسامة على شفتيه، كما لو أنّه يحلم بفتاة لا تُدْرَك بينما عيناه تجوبان القصيدة الوحيدة التي كانت موجودة في المكسيك لِثساريا تيناخِرو. وفجأةً فكّرتُ، بذهني المضطربِ من التعبِ والكحولِ الذي شربته، أنّ الذي تكلّم هو الذي كان مستيقظاً. وأنا قلتُ له: هل أنت مُقامِق[1]، يا ولدي؟ فقال الذي كان نائماً لا، يا أماديو، أو ربّما قال كوّة، يا أماديو، أو ربّما قال نِلْ أو نِلسون أو نِلاثو، أو ربّما قال ولا أي هراء، أو برغوث أو لا شيء، أو ربّما فقط قال لا، لا. والذي كان مستيقظاً نظرَ إليَّ، كان يمسك جيّداً بالمجلّة، كما لو أنّهم سينتزعونها منه، وبعدها تخلى عن النظر إليّ وتابع القراءةَ، كما لو أنّ هناك ما يُقْرَأ، فكّرتُ عندئذ، بمجلة ثِساريا تيناخِرو اللعينة، خفضتُ نظري وهززتُ رأسي. لا عليكَ، يا أماديو، قال واحد منهما. لم أبغ ولا حتى أن أنظر إليهما. لكنّني نظرتُ. ورأيتُ فتَيَيْن، واحداً مستيقظاً والآخر نائماً، والنائمُ قال لي لا تنشغل، يا أماديو، نحن سنعثر على ثِساريا حتى ولو اضطررنا لأن نرفعَ كلّ حجارة الشمال. وفتحتُ عينيَّ أكثرَ ما استطعتُ وتفحّصتهما وقلتُ: أنا لا أنشغل، أيّها الفَتَيان، لا تزعجا نفسيكما

---

(١) المتكلّم من أقصى حلقه أو من بطنه.

لأجلي. والذي كان نائماً قال: ليس أيّ إزعاج، يا أماديو، إنّها سعادة. وأنا ألححتُ: لا تفعلا هذا لأجلي. والذي كان نائماً ضحكَ وأحدث صوتاً بحنجرتهِ كان من الممكن أن يُعتبر ضحكةً، غرغرة أو خرخرَة أو ربّما أصابته بداية اختناق، وقال: نحن لا نفعل هذا لأجلكَ، يا أماديو، نحن نفعله لأجلِ المكسيك، لأجل أمريكا اللاتينية، لأجلِ العالمِ الثالث، لأجلِ خطيباتنا، لأنّنا نرغب بأن نفعله، هل كانا يمزحان؟ ألم يكونا يمزحان؟ وعندئذ تنفّسَ الذي كان نائماً بطريقة غريبة جدّاً، كما لو أنّه تنفّس من عظامه، وقال: سوف نعثرُ على ثِساريا تيناخِرو وسنعثرُ أيضاً على الأعمالِ الكاملةِ لِثساريا تيناخِرو وقلت له: يبدو لي أنّ شيئاً يحدث لصديقك. والذي كان يقرأ رفعَ نظره ونظرَ إليَّ كما لو أنّني كنتُ خلف نافذة، كما لو أنّه كان على الجانبِ الآخر من نافذةٍ وقال: اطمئن، لا يحدث شيء. اللعنة عليهما من ذُهانِيَّين! كما لو أنّ الكلامَ في النومِ ليس شيئاً! وعندئذٍ نظرتُ إلى جدران صالوني، كتبي، صوري، بقعِ السقف ثمّ نظرتُ إليهما، ورأيتُهما كما لو أنّهما على الجانب الآخر من نافذة، واحد مفتوح العينين والآخر مغمض العينين، لكنّ الاثنين ينظران، هل ينظران نحو الخارج؟ تراهما ينظران نحو الداخل؟ لا أعرفُ، فقط أعرفُ أنّ وجهيهما شحُبا كما لو أنّهما في القطب الشمالي. وهكذا قلته لهما، والذي كان نائماً تنفّس بصوتٍ عال وقال: بالأحرى كما لو أنّ القطبَ الشمالي هبطَ فوق العاصمة الفيدرالية، يا أماديو، قال هذا، وأنا سألتُ: أيّها الفتَيان، هل أنتما مقروران؟ سؤال بليغ، أو سؤال عمليّ، لأنّه في حال جاء الجواب تأكيدياً كنتُ مستعداً لأنّ أُحَضّر لهما على الفور قهوة، لكنّه في الجوهر كان سؤالاً بليغاً، لو كانا مقرورين، لكفاهما أن يبتعدا عن النافذة، وعندئذٍ قلتُ لهما، أيّها الفتَيان، هل يستحقّ هذا المعاناة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هل يستحقَّ المعاناة؟ هل حقيقة يستحقّ المعاناة؟ وقال الذي كان نائماً: سيمونِل. وعندئذٍ نهضتُ (طقطقتْ كلُّ عظامي) وذهبتُ بعدها إلى النافذة الموجودة بجانب طاولةِ غرفةِ الطعام وفتحتُها ثمّ ذهبتُ إلى نافذة الصالون المذكورة وفتحتُها، ثمّ جررتُ نفسي إلى قاطع الكهرباء وأطفأت النور.

III

صحارى سونورا

(١٩٧٦)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١ كانون الثاني

انتبهتُ اليومَ إلى أنّ ما كتبتُه البارحةَ كتبتُهُ في الحقيقة اليوم: كل ما يتعلّق بالحادي والثلاثين من كانون الأوّل كتبتُهُ في الأوّل من كانون الثاني، أي اليوم، وما كتبته في الثلاثين من كانون الأوّل كتبْتُهُ في الحادي والثلاثين، أي البارحة. ما أكتبُهُ اليوم، أكتبه في الحقيقة غداً، الذي سيكون بالنسبةِ لي اليومَ والبارحة، وأيضاً بطريقة ما غداً: يوماً لا مرئيّاً. لكن من دون مبالغة.

٢ كانون الثاني

خرجنا من العاصمة الفيدرالية. كي أُسلّي أصدقائي طرحتُ عليهم بعضَ الأسئلةِ الدقيقة، وهي أيضاً مشاكل، ألغازٌ (خاصّة في مكسيكِ أدبِ اليوم) بل وحتى أحاجٍ. بدأتُ بسؤال سهل: ما هو بيت الشعر الحرّ؟ سألتُ. دوّى صوتي داخل السيارة كما لو أنّني تكلمت بمكبّر صوت.

– ما ليس له تفعيلات ثابتة – قال بِلانو.

– وماذا أكثر؟

– ما ليس له قافية قال ليما.

– وماذا أكثر؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ما ليس للنبرات فيه مكانٌ دقيق - أصرّ ليما.

- حسن، الآن سؤال أسهل. ما هو الرباعيّ؟

- ماذا؟ - قال لوبٌ بجانبي.

- نظامُ وزنٍ من أربعة أبيات - قال بِلانو.

- والحذف؟

- أه، يا أولاد! قال ليما

- لا أعرف - قال بِلانو -. شيء مختزل؟

- واحد، اثنان. هل استسلمتم؟

أمعن ليما نظره في المرآة الأمامية. بِلانو نظر إليَّ لثانيةٍ، لكنّه نظرَ بعدها إلى الخلف، أنا فضّلتُ ألا أفعل ذلك.

- الحذف - قلتُ -، هو حذف حرفٍ أو عدّةِ أحرفٍ داخل كلمة. مثال: navidad بدل natividad. Lar بدل Lugar. حسن. لنتابع والآن سؤال سهل. ما هو السداسي[1]؟

- مقطع شعري من ستّة أبيات - قال ليما.

- وماذا أكثر؟

قال ليما وبِلانو شيئاً لم أفهمه. بدا أن صوتَيْهما كانا يطفوان داخل سيارة الإيمبالا. هناك شيء أكثر، قلتُ. وقلته لهم. سألتهم بعدها عمّا إذا كانوا يعرفون ما هو الغليكونيو (بيت من الشعر الكلاسيكي يمكن تعريفه بأنّه مقطع رباعيّ، بيت ناقص في آخر تفعيلة) والهميبي (الذي هو في الأوزان اليونانية العنصر الأوّل من الداكتيلي) أو الرمزية الصوتيّة (التي هي المعنى المستقل الذي يمكن للعناصر الصوتية لكلمةٍ ما، أو بيتِ شعرٍ ما أن يتخذه). وبِلانو وليما لم يعرفا أيَّ جواب، ولا نقول لوبٌ. هكذا كان أن سألتهم ما إذا

---

(١) سِكستينا.

كانوا يعرفون الإبانورتوسيس[1]، الذي هو الصورة المنطقية التي تقوم على العودة إلى ما سبق قوله لتأكيد المؤكّد أو تخفيفه بل وحتى مناقضته، أيضاً سألتُهم عما إذا كانوا يعرفون ما هو البيتيامبيكو (لم يعرفوا) وعن الميميامبيكو (لم يعرفوا) وعن الهوميوتِلِتون (لم يعرفوا) وعن المدّ (بلى عرفوا)، ثمّ إنّهم كانوا يُفكّرون أنَّ كلَّ الشعراء المكسيكيين وغالبية الأمريكيين اللاتينيين كانوا يمدّون كلماتهم وعندها سألتهم عما إذا كانوا يعرفون ما هو الهاباكس أو الهاباكس لِغومِنون وبما أنّهم لم يكونوا يعرفون فقد قلته لهم. الهاباكس مصطلح مُستخدم في علم المفردات أو في أعمالِ النقدِ النصي ليدلّ على أنّ المفردة سُجِّلَتْ مرّةً واحدة فقط في لغة واحدة أو عند مؤلّفٍ واحدٍ أو في نصٍّ واحد. وهذا ما أفسح لنا المجال كي نُفَكِّرَ برهة.

- أعطنا الآن سؤالاً أسهل - قال بِلانو.
- حسن. ما هو الزجل؟
- ويحك. لا أعرف، كم أنا جاهل - قال بِلانو.
- وأنت، يا عوليس؟
- له وقع عربي.
- وأنتِ، يا لوبِّ؟

نظرتْ لوبِّ إليّ ولم تقل شيئاً. أخذتني نوبةُ ضحك، أظنّها بسبب أعصابي، لكنّني مع ذلك شرحتُ لهم ما هو الزجل. وحين انتهيت من الضحكِ قلتُ لِلوبِّ إنّني لم أكن أضحك منها ولا من سذاجتها بل منّا جميعاً.

- لنرَ، ما هو الساتورنيو؟
- ليس عندي أدنى فكرة - قال بِلانو.

---

(١) التوسّع في المعنى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ساتورنيو؟ - قالت لوبِّ

- والكياسمو؟ - قلتُ.

- ماذا؟ - سألت لوبِّ

دون أن أغمض عينيَّ، وفي الوقت الذي كنتُ أراهم فيه رأيتُ السيارة التي كانت تتقدّم مثل الرمح في جاداتِ مخرجِ العاصمةِ الفيدرالية. شعرتُ أنّنا كنّا نطفو.

- ما هو الساتورنيو؟ - سأل ليما.

- سهل. في الشعر اللاتيني القديم، بيتٌ من الشعر مُلْتَبِس التفسير. بعضُهم يعتقدُ أنّ له طبيعة كمّية وبعضهم نبريّة. إذا قبلنا بالفرضية الأولى، فإنّ الساتورنيو يمكن أن يُحَلّل إلى بيتٍ شعري مزدوج يامبي ناقص أو إيتيفاليكو، مع أنّه يُقَدِّم تنويعاتٍ أخرى. إذا ما قبلنا بالفرضيّة النبرية سيكون من شطرين، الأوّل فيه ثلاث نبرات خفيفة والثاني نبرتان.

- ما الشعراء الذين استخدموا الساتورنيو - سأل بِلانو.

- ليفيوس أنرونيكوس ونرفيوس. الشعر الديني والتذكاري.

- تعرفُ كثيراً - قالت لوبِّ.

- الحقيقة نعم - قال بِلانو.

عادت نوبة الضحك إليّ. خرجت الضحكةُ من السيارة مقذوفة مُباشرةً. يتيم، فكَّرتُ.

- هي فقط مسألة ذاكرة. أحفظ التعريفات عن ظهر قلب وينتهي الأمر.

- لم تقل لنا ما هو الكياسمو؟

- الكياسمو، الكياسمو، الكياسمو.. . حسن الكياسمو يقوم على تقديمِ عناصر متتاليَتَيْن بترتيب معكوس.

كان الوقت ليلاً. ليلة الأوّل من كانون الثاني. نظرتُ إلى الخلف وبدا لي أنّه ما من أحد يُلاحقنا.

- لنرَ، هذا - قلتُ - ما هو البروثِلِوْسماتيكو؟

- هذا أنت اخترعته، يا غارثيّا مادِرو - قال بِلانو.

- لا. هو تفعيلة عروضية كلاسيكيّة تتكون من أربع حركات قصيرة. ليس لها إيقاع مُحَدّد وبالتالي يمكن اعتبارها شكلاً عروضياً بسيطاً. ومولوسو؟

- هذا فعلاً اخترعته الآن - قال بِلانو.

- لا، أُقْسِمُ لك لا. مولوسو، في العروض الكلاسيكية، هو تفعيلة مكوّنة من ثلاث حركات طويلة في ستّة أزمنة. والارتكاز الإيقاعي يمكن أن يقع على الحركة الأولى والثالثة أو على الثانية فقط. ويجب أن يجتمع مع تفعيلات أخرى كي يشكّل بحراً شعرياً.

- ما هو الإيكْتوس[1]؟ سأل بِلانو؟

فتح ليما فمه ثمّ أغلقه.

- الإيكْتوس - قلتُ - هو النبض، الإيقاعُ الزمني. الآن عليّ أن أتكلّمَ عن الأرسيس، الذي هو في العروض الرومية، زمنُ التفعيلةِ القوي، أي المقطع الذي يقع عليه الإيكْتوس، لكن من الأفضل أن نبقى في الأسئلة. ها هو سؤال سهل، في متناول أيٍّ شخص. ما هو ثنائي المقطع؟

- بيت شعر من مقطعين - قال بِلانو.

- أحسنت، حان الوقت - قلتُ أنا - بيت من مقطعين. نادر

---

(١) Ictus

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جدّاً ثم إنّه أقصر الأوزان العروضية الإسبانية الممكنة. الآن سؤال صعب. ما هو الأَسْكليبيادي[١]؟

- ليس عندي أدنى فكرة - قال بِلانو.

- الأَسْكليبيادي؟ - سأل ليما.

- مصدره أسكليبياديس ساموس، الذي كان أكثر من استخدمه، على الرغم من أنّ سافو وألزيو استخدماه. له شكلان: الأسكليبيادي الأصغر وهو مُكون من مَقطعَيْن موزّعين على *ذيلين* (عضوين) إيوليين[٢]، *الذيل* الأوّل مُكوّن من مقطع اسبوندي ومقطع داكتيلي ومقطع طويل الثاني مؤلّف من مقطعٍ داكتيلي ومقطعٍ ديبوني تروكايكي كاتالِتيكي، الأسكليبيادي الأكبر بيتٌ من ستّة عشر مقطعاً نظراً لإدراجِ مقطع من تفعيلتين داكتيليتين كاتاليكيتين.

بدأنا نخرجُ من العاصمة الفيدرالية بسرعة تجاوزت المئة وعشرين كيلومتراً في الساعة.

- ما هو الإباناليبسيس؟

- ليس عندنا أدنى فكرة - سمعت أصدقائي يقولون.

مرّت السيارةُ في جادات مظلمة، أحياء بلا كهرباء، شوارع ليس فيها غير الأطفال والنساء. طرنا بعدها في أحياء كانوا ما يزالون يحتفلون فيها بعيد رأس السنة. كان بِلانو وليما ينظران إلى الأمام، إلى الطريق. كانت لوبِّ ملتصقة برأسها بزجاج النافذة. بدا لي أنّها نائمة.

- ما هو الإلاناليبسيس[٣]؟

---

(١) Asclepiadeo

(٢) Eólico

(٣) Epanadiplosis

لا أحد أجابني-. إنّها صورة نحوية تتكون من تكرار كلمة في بداية جملة، بيتٍ من الشعرِ أو سلسلة من الأبيات ونهايتها. مثلاً: *خضراء أُحبُّكِ خضراء*، لغارثيا لوركا.

بقيت برهةً صامتاً ورحت أنظرُ عبر النافذة. توَلَّد عندي انطباع بأنّ ليما قد ضاع، لكن على الأقل لا أحد كان يُلاحقنا.

- تابعْ - قال بِلانو -، لا بدّ أن نعرف أحدها.

- ما هو الكاتاكريسيس؟ - سألتُ.

- هذا أعرفه لكنّني نسيته - قال ليما.

- صورة مجازية دخلت في الاستخدام العادي واليومي للغة ولم تعد تستقبل على هذا الأساس. مثل: عين الإبرة، عنق الزجاجة. وما هو الأركيلوكي؟

- هذا بلى أعرفه - قال بِلانو -. إنه شكل عروضي استخدمه أركيلوكوس، أكيد.

- شاعر عظيم - قال ليما.

- لكن ممَّ يتكوّن - قلتُ أنا؟

- لا أعرف، أستطيع أن أنشدكَ قصيدةً لأركيلوكوس عن ظهر قلب، لكن لا أعرف مما يتكون الأركيلوكي - قال بِلانو.

وهكذا قلتُ لهم إنّ الأركيلوكي هو مقطوعة شعريّة مكونة من بيتين (ثنائي) ويمكن أن يُقدِّمَ عدداً من البنى. كانت الأُلى مُكوّنةً من هِكسامِترو(١) داكتيلي يليها مقطوعة ثلاثية الأبيات مكونة من مقطع طويل ومقطعين قصيرين ناقص النهاية... الثانية... لكن وقتذاك بدأ يُداخلني النعاس وسمعتهم يتكلمون أو سمعتُ صوتي يرنّ داخلَ

---

(١) Hexámetro

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سيارةَ الإيمبالا يقولُ ثنائي الوزن يامبيّ ناقص. وعندها سمعتُ بِلانو يُنشدُ:

يا قلبُ، يا قلبُ، إذا ما كدّرتكَ الأحزانُ
العصيّةُ، فانْهَضْ! قاومْ عدَّوك
بصدرك، وصدَّ عدوّك المراوغ بعزمك.
وإذا ما خرجتَ فائزاً، فتستّرْ، يا قلبُ ولا تتبختر،
وإذا ما انهزمتَ لا تَهُنْ باكياً في بيتك.

وعندها فتحتُ عينيَّ بجهدٍ كبير وسأل ليما عمّا إذا كانت تلك الأبيات لأركيلوكوس؟ قال بِلانو نعم وليما قال يا له من شاعر عظيم، أو يا له من شاعر خارق. استدار بِلانو بعدها وشرح للوبِّ (كما لو أنّه يهمّها ذلك) من كان أركيلوكوس، شاعر ومرتزق، عاش في اليونان حوالي العام ٦٥٠ قبل الميلاد، ولوبِّ لم تقل شيئاً، وهو ما بدا لي تعليقاً مناسباً جدّاً. بعدها بقيتُ نصفَ نائم، مستنداً برأسي إلى النافذة، وسمعتُ بِلانو وليما يتكلّمان عن شاعر كان يهرب من أرض المعركة، دون أن يهمّه العار وفقدان الشرف الذي يسوقه معه هذا العمل، على العكس، كان يتفاخر به. عندها بدأت أحلمُ بشخصٍ يعبرُ حقلاً من عظام والشخصُ المذكور ليس له وجه أو على الأقل لم يكن باستطاعتي أن أرى وجهه، لأنّني كنتُ أراقبه من بعيد. كنتُ في أسفل تلٍّ ولا يكادُ يوجدُ هواء في ذلك الوادي. كان الشخصُ يمضي عارياً وكان شعره طويلاً، فكّرتُ في البداية أنّ الأمر يتعلّق بأركيلوكوس، لكنّه كان من المُمكن في الحقيقة أن يكون أيَّ شخص آخر. حين فتحت عينيّ كان الليلُ ما يزال مُطبقاً وكنّا قد خرجنا من العاصمة الفيدرالية.

- أين نحن؟ - سألتُ.

- على طريق كِرِتارو - قال ليما.

لوبِّ كانت مستيقظة أيضاً وتنظر بعينين تبدوان حشرتين إلى منظر الريف المظلم.

- إلامَ تنظرين؟ - سألتُها.

- إلى سيارة ألبِرتو - قالت هي.

- لا أحد يتبعنا - قال بِلانو.

- ألبِرتو مثل كلب. عنده رائحتي وسيعثر عليّ - قالت لوبِّ.

ضحك بِلانو وليما.

- كيف سيعثر عليكِ إذا كنتُ لم أخفّض، منذ أن خرجنا من العاصمة الفيدرالية، السرعةَ عن المائة وخمسين كيلومتراً - قال ليما.

- قبل أن تُشرق - قالت لوبِّ.

- لنرَ - قلتُ -، ما هي الألبادا؟

لا بِلانو ولا ليما فتحا فمهما. افترضتُ أنّهما يُفكّران بألبِرتو، وهكذا رحتُ أنا أيضاً أُفكّر به. ضحكتْ لوبِّ. بحثت عيناها، عينا الحشرة، عنّي:

- لنر، يا العارفُ بكلّ شيء، هل تعرف ما هي الشحطة؟

- أثر ماريجوانا - قال بِلانو دون أن يلتفت.

- وما معنى الهرم جدّاً؟

- شخص عجوز - قال بِلانو.

- ومفقوع؟

- دعني أجيب - قلتُ - فكلّ هذه الأسئلة موجّهة في الحقيقة إليَّ، أنا نفسي.

- حسن - قال بِلانو.

- لا أعرف - قلتُ بعد أن فكّرت برهةً.

- هل تعرفه أنت؟ - سأل ليما.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- لا - قال بِلانو.

- مجنون، تماماً. وخينتشو؟

ما من أحد منّا، نحن الثلاثة، كان يعرف.

- سهل جدّاً خينتشو تعني هندي - قالت لوبِّ ضاحكة -. وما هو بيت الخالة؟

- السجن - قال ليما.

- ومن هو خابيير؟

مرَّت قافلة من خمس حافلات في مسرب اليسار باتجاه العاصمة الفيدرالية، وكانت كلُّ حافلة منها تبدو ذراعاً محروقة. للحظة لم نسمع غير ضجيج الحافلات ونشمّ رائحة اللحم المحروق. غرق الطريق بعدها في الظلام.

- من هو خابيير؟ - سأل بِلانو.

- الشرطة - قالت لوبِّ - وماتشا تشاكا؟

- الماريجوانا - قال بِلانو.

- هذه لغارثيّا مادِرو قالت لوبِّ. ما هو فرخ المردقوش؟

نظر بِلانو وليما كلّ إلى الآخر. عينا لوبِّ الحشريتان لم تنظرا إليّ بل إلى الظلمة التي كانت تنتشر متوهّدة عبر النافذة الخلفية. في البعيد رأيتُ أنوارَ سيارة، ثم أخرى.

- لا أعرفُ - قلتُ، بينما أنا أتصوّر وجهَ ألبِرتو: أنفاً هائلاً يأتي خلفنا.

- ساعة ذهبية - قالت لوبِّ.

- وكركمان؟ - قلتُ.

- عربة - قالت لوبِّ.

- أغمضتُ عينيّ: لم أبغِ أن أرى عينيّ لوبِّ وأسندتُ رأسي على نافذتي. رأيتُ في أحلامي عربةَ سوداء يُسافر فيه أنفُ ألبِرتو

وشرطيّ أو شرطيان في إجازة مستعدون لأنّ يسحقونا. ما هي المركبة؟ - قالت لوبٍّ.

لم نجبها.

- عربة - قالت لوبّ وضحكت.

- لنرَ، يا لوبّ. أجيبيني على هذا السؤال، ما هو المارستان؟
- قال بِلانو.

- سهل، مشفى المجانين - قالت لوبّ.

بدا لي لبرهة أنّ من المستحيل أن أكونَ قد مارست الحبّ مع هذه المرأة.

- وماذا يعني سَفَعَوا عنقه؟ - سألت لوبّ.

- لا أعرف، أَسْتَسْلِمُ - قال بِلانو دون أن ينظر إليها.

- تعني كالوا له - قالت لوبّ - لكنه مختلف. عندما يسفعون عنق فلان يعني أنّهم يُصَفّونه، عندما يكيلون لفلان، يمكن أن يُصفّوه، لكن أيضاً يمكن أن تعني يلجونه - رنّ صوتها كما لو أنّها تقول فعولٌ أو مفاعيل.

- وماذا تعني منحه فُرْجَةً، يا لوبّ؟ - سأل ليما.

فكّرت بشيء جنسي، بعضوِ لوبّ، الذي كنتُ قد لمسته فقط ولم أرَهُ، فكّرتُ بعضوِ ماريّا وبعضوِ روساريو. أعتقدُ أنّنا كنّا نسيرُ بسرعة أكثر من مئة وثمانين كيلومتراً في الساعة.

- أعطاه فرصة - قالت لوبّ ونظرت إليَّ كما لو أنّها قرأت أفكاري-: ماذا كنتَ تظنّ، يا غارثيّا مادِرو؟ - قالت.

- ماذا تعني وصلة؟ - سأل بِلانو.

- شيء ظريف، لكنه مناسب للحالة - قالت لوبّ بقسوة.

- وصبي دوّار؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- شخص يُدخّن ماريجوانا - قالت لوبِّ.

- نَشّاق؟

- شخص مدمن على الكوكايين - قالت لوبِّ.

- والمجون - سأل بِلانو.

نظرت لوبِّ إليه ثم نظرت إليّ. شعرت كيف كانت الحشرتان تقفزان من عينيها وترتاحان على ركبتيّ، وحداة على كلّ ركبة. سيارة إيمبالا مماثلة لسيارتنا مرّت مثل نيزكٍ باتجاه العاصمة الفيدرالية. حين اختفت من النافذة الخلفية زمّرت عدداً من المرات راغبة لنا بالتوفيق.

- المجون؟ - قال ليما -. لا أعرف.

- عندما يتمادى عدد من الرجال مع امرأة واحدة - قالت لوبِّ.

- اغتصاب متعدّد، بلى، يا سيّدة، أنت تعرفين كلّ شيء، يا لوبِّ - قال بِلانو.

- وهل تعرف أنت ما معنى دَخَلَ في اللعبة؟ - سألت لوبِّ.

- طبعاً أعرف، يعني أنّك دخلت في المشكلة، أنك متورّطة شئت أم أبيت. أيضاً يمكن أن تُفْهَمَ على أنّها تهديد مُبَطّن.

- أو غير مُبطّن كثيراً - قالت لوبِّ.

- وما قولك أنت - سأل بِلانو -. نحن هل دخلنا في اللعبة أم لا؟

- نحن نملك كلّ الأرقام، يا ولد - قالت لوبِّ.

فجأةً اختفت أنوارُ السيارتين اللتين كانتا تُلاحقاننا. تولّد عندي انطباع بأنّنا الوحيدون الذين يجوبون في تلك الساعة طرقَ المكسيك. لكنّني عدتُ بعد دقائق ورأيتُهما في البعيد. كانتا سيارتين والمسافة التي تفصلنا عنهما بدا أنّها تقلّصت. نظرتُ إلى الأمام،

على البلور الأمامي كان هناك عدد من الحشرات المسحوقة. كان ليما يقود بيديه الاثنتين والسيارة تهتزّ كما لو أنّها دخلت في طريق غير معبّد.

ما هي مرثية الحضور - سألتُ.

لم يجبني أحد.

بقينا برهة صامتين بينما الإيمبالا تشقّ طريقها في الظلام.

- قُلْ لنا ماذا تعني مرثية الحضور - قال بِلانو دون أن يلتفت.

- قصيدة تُنْشَدُ أمام الجثمان - قلتُ - يجب عدم الخلط بينها وبين الرثاء، مرثية الحضور كان لها شكل الكورال الحواري، والعروض المستخدم فيها هو الداكتيلي الإبيتريتي ثمّ لاحقاً بيت الرثاء.

لا تعليق.

- يا إلهي، ما أجمل هذا الطريق - قال بِلانو بعد برهة.

- اسألنا أكثر - قال ليما - كيف تُعَرِّف لنا الندب، أنتَ، يا غارثيّا مادِرو. هي ذاتها مرثية الحضور، مع فارق وحيد هي أنّها لا تُلقى أمام الجثّة.

- أسئلة أخرى - قال بِلانو.

- ماذا تعني ألكيوسية[١]؟ - سألتُ.

كان وقع صوتي غريباً، كما لو أنّني لم أكن من كان يتكلّم.

- - مقطوعة شعرية مكونة من أربعة أبيات ألكيوسية - قال ليما-: اثنان من أحد عشر مقطعاً، واحد من تسعة مقاطع وآخر من عشرة مقاطع إنديكاسلابية. استخدمها الشاعر اليوناني ألكيوس، من هنا جاء اسمها.

---

(١) نسبة إلى الشاعر اليوناني ألكيوس.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ليست أحد عشرية المقاطع - قلتُ - بيت من تسعة مقاطع وآخر من عشرة مقاطع يامبية

- يمكن ذلك - قال ليما - بعد كلّ حساب ماذا يهمّ.

رأيت أنّ بِلانو يُشعلُ سيجارة بولاعة السيارة.

- من الذي أدخل المقطوعة الألكيوسية في الشعر اللاتيني؟ - سألتُ.

- يا رجل، هذا يعرفه كلّ الناس - قال ليما - هل تعرف أنت، يا أرتورو؟

كان بِلانو يحمل الولاعة في يده وينظر إليها بإمعان، على الرغم من أنّ السيجارة كانت مشتعلة.

- طبعاً - قال.

- من؟ - قلتُ أنا.

- هوراسيوس - قال بِلانو وأدخل الولاّعة في ثقبها ثمّ أنزلَ زجاج النافذة. الهواء الذي دخل خرّب شعري وشعرَ لوبِّ.

٣ كانون الثاني

تناولنا فطورنا في محطّةٍ للمحروقات خارج كولياكان، بيض على الطريقة الريفية، بيض مقلي مع الجامبو، بيض مع البيكون وبيض مسلوق. شرب كلٌّ منّا فنجاني قهوة وشربت لوبِّ كأساً كبيراً مع عصير البرتقال. طلبنا أربع قطع عجّة بالجامبو والجبن للطريق. دخلت لوبِّ إلى حمام النساء ودخلنا أنا وبِلانو وليما إلى حمّامِ الرجال، حيث قمنا بغسلِ وجوهنا وأيدينا وشعرنا وقضاء حاجاتنا. حين خرجنا كانت زرقة السماء غامقة، كما لم أرها كثيراً، والسياراتُ التي كانت تصعدُ باتجاه الشمال لم تكن نادرة. لم نجد لوبِّ في أيّ مكان، ولذلك ذهبنا بعد انتظار معقول للبحث عنها في

حمّام النساء. وجدناها تغسل أسنانها. نظرت إلينا فخرجنا دون أن نقول شيئاً. إلى جانب لوبِّ كان هناك امرأة تقارب الخمسين من عمرها منحنيةً فوق المغسلة الأخرى تسرّحُ شعرها الأسود الذي يصل إلى خصرها.

قال بِلانو إنّ علينا أن نصل إلى كولياكان كي نشتري فراشي أسنان. هزّ ليما كتفيه وقال إنّه سيّان بالنسبة إليه. وأنا ارتأيتُ أن لا وقتَ لدينا نُضَيّعهُ، على الرغم من أنّ الشيء الوحيد الذي كان يفيض عنّا هو الوقتُ. في النهاية غلب قرارُ بِلانو. اشترينا من سوبر ماركت في ضواحي كولياكان فراشي أسنان وأدوات نظافة شخصيّة أخرى كنّا نحتاجها ثم استدرنا نصف استدارة دون أن ندخل إلى المدينة وذهبنا.

٤ كانون الثاني

مررنا كالشبح في نابوخُوَا، وثيوداد أبورِغون وهِرموسيّو. كنّا في سونورا مع أنّه كان لديّ انطباع بأنّنا في سونورا منذ كنّا في سينالوَا. كنّا نُشاهدُ أحياناً على جانبَيّ الطريق شجرةَ تنين وأخرى، وأشجارَ صبّار وصبّار عمودي وسط غليان الظهيرة. بحثنا أنا وبِلانو في مكتبة بلدية هِرموسيّو عن أثر ثِساريا تيناخِرو. لم نعثر على شيء. حين عدنا إلى السيارة وجدنا لوبِّ نائمة في المقعد الخلفي ورجلين واقفين بلا حراك على الرصيف يتأملانها. اعتقدَ بِلانو أنّ من الممكن أن يكونا ألبرتو وأحد أصدقائه وانفصلنا كي نحاصرهما. كان فستان لوبِّ مرفوعاً حتى وركيها والرجلان كانا يستمنيان بأيديهما داخلَ جيوبهما. انقلِعا من هنا، صاح أرتورو، فذهب الرجلان وهما يلتفتان لينظرا إلينا بينما هما يتراجعان. بعدها كنّا في كابوركا. إذا كانت مجلة ثِساريا تُسمّى هكذا فلسبب ما، قال بِلانو. كابوركا بلدة صغيرة، تقعُ إلى الشمال الغربي من هِرموسيّو. ولكي نصل إلى هناك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أخذنا الطريقَ الفيدرالي حتى سانتا آنا ومن سانتا آنا انحرفنا باتجاه الغرب عبر طريق مرصوص. مررنا في بوِبْلو نوِبو وألتار. رأينا قبل أن نصل إلى كابوركا انعطافاً وآرمة تحمل اسمَ بلدة أخرى: بيتيكيتو. لكنّنا تابعنا طريقنا ووصلنا إلى كابوركا وبقينا ندور في منطقة البلدية والكنيسة نتكلّم مع كلّ الناس باحثين بصعوبةٍ عمّن يمكن أن يعطينا خبراً عن ثِساريا تيناخِرو إلى أن بدأ الليل يهبط وصعدنا إلى السيارة، لأنّه ليس في كابوركا نزلٌ أو فندقٌ صغير نستطيع أن ننزل فيه. (وإذا كان موجوداً فإنّنا لم نعثر عليه). وهكذا نمنا تلك الليلة في السيارة وحين استيقظنا عدنا إلى كابوركا، عبّأنا بنزيناً وذهبنا إلى بيتيكيتو. قلبّي يحدّثني، قال بِلانو. أكلنا في بيتيكيتو جيّداً وذهبنا لنرى من الخارجِ كنيسةَ سان دييغو دِلْ بيتيكيتو، لأنّ لوبِّ قالت إنّها لا تريدُ أن تدخلَ ونحن أيضاً لم تكن عندنا رغبة كبيرة بذلك.

٥ كانون الثاني

نمضي باتجاه الشمال الشرقي، في طريق جيّد، حتى كانانيا، ثمّ باتجاه الجنوب في طريق ترابيّ مرصوص حتى باكانوتشي ومنها إلى السادس عشر من أيلول ثمّ إلى أريثبِّ. ما عدتُ أرافق بِلانو وليما للقيام بأسئلتهما. أبقى في السيارة إلى جانب لوبِّ أو أنّنا نذهب لنتناول بيرة. في أريثبِّ يعود الطريق ليتحسّن وننزل إلى باناميتشي وهوِبّاك. من هوِبّاك نعود لنصعد إلى باناميتشي، دون أن نتوقّفَ هذه المرّة. ومن جديد إلى أريثبِّ من حيث نخرج باتجاه الشرق، عبر طريق جهنّمي حتى لوس هويبوس، ومن لوس هويبوس عبر طريق أفضل بشكل ملحوظ حتى ناكوثاري دِ غارثيّا.

في مخرج ناكوثاري تُوقِفُنا دوريّةٌ وتطلب منّا أوراقَ السيارة. هل أنتَ من ناكوثاري، أيّها الشرطيّ؟ تسأله لوبِّ. ينظرُ إليها رجلُ

الدوريّة ويقول لا، كيف يخطر لها هذا، هو من هِرموسيّو، يضحك بِلانو وليما. ينزلان ليمطّا أرجلهما. تنزل بعدهما لوبِّ وتهمس ببعض الكلمات في أذن أرتورو. ينزل رجلُ الدوريّة الآخر بدوره من سيارتهِ ويتقدّم ليتكلّم مع رفيقه، المشغول في فك رمز أوراق سيارة كيم وشهادة سوق ليما. ينظرُ رجلا الدورية إلى لوبِّ، التي تتوغّلُ عدّةَ أمتار خارجَ الطريق في مشهدٍ صخري وأصفر حيث تبرز من حين لآخر بقعٌ أكثرُ دكنةً، نباتات دقيقة، بنّيّة، خضراء وليلكيّة يجعل المعدة تنقبض. بنية، وخضراء، وليلكيّة معرّضة دائماً للاختفاء.

وأنتم، من أين؟ يسأل رجلُ الدوريّة الثاني. من العاصمة الفيدرالية، أسمع بِلانو يجيب. مكسيكيون؟ يسأل رجلُ الدورية. تقريباً، يقول بِلانو بابتسامة تُخيفني. من هذا الأبله؟ أُفكّر، لكنّني لا أفكّر بالشرطيّ بل بِبِلانو وبِليما أيضاً، الذي يستند إلى غطاء المحرّك وينظر إلى نقطة في الأفق بين الغيوم وأشجار الكِبراتشو.

يعيد لنا الشرطي بعدها الأوراق فيسأله ليما وبِلانو عن أقصرِ الطرق إلى سانتا تِرِسا. يعودُ شرطيُّ الدورية إلى سيارته ويُخرج خريطة. حين نذهب يلوّح لنا الشرطيان بأيديهم المرفوعة مودّعيْن. سرعان ما يعودُ الطريق اُلمعبّد بالإسفلت ليصيرَ ترابياً مرصوصاً. لا توجد سيارات، فقط شاحنات محملة بالأكياس أو بالرجال. نمرُّ ببلدات تسمى أريبابي، هواتشينِرا، باثِراك وبابيسبِّ قبل أن ننتبه إلى أنّنا ضعنا. قبل أن يحلَّ الليلُ بقليل تظهر فجأة بلدةٌ في البعيد، ربّما تكون بيّابثيوسا وربما لا، لكن لم يعد عندنا همّة كي نبحث عن طريق الدخول، وأرى بِلانو وليما لأوّل مرّة عَصَبِيَّيْن، ولوبِّ لا تتأثر بظهور البلدة. أمّا بالنسبة إليّ فأنا لا أعرف بماذا أفكّر، يمكن أنّني أشعرُ بأشياء غريبة ويمكن أنّني أرغب بالنوم، بل ويمكن أنّني أحلم. عدنا بعدها لندخلَ في طريقٍ في حالة سيّئة جدّاً ويبدو لانهائياً. يطلبُ منّي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بِلانو أن أسألهم أسئلة صعبة. أفترض أنّهم يقصدون أسئلة عن العروض والبلاغة والأسلوب. أسألهم سؤالاً ثمّ أنام. لوبِّ نائمة أيضاً. في الفترة ما قبل نومي أسمع بِلانو وليما يتكلّمان. يتكلّمان عن العاصمة الفيدرالية، يتكلّمان عن لاورا داميان ولاورا خاورِغي، يتكلّمان عن شاعرٍ لم أسمعْ بذكرهِ حتى الآن، ويضحكان، يبدو أنّ هذا الشاعر ظريف، يبدو شخصاً طيّباً، يتكلّمان عن ناس يصدرون مجلاتٍ وأستنتج ممّا يقولان أنّهم ناس سُذَّجٌ أو بسطاء أو محض يائسين. أحبّ أن أسمعهما يتكلّمان. بِلانو يتكلّم أكثرَ من ليما، لكنّ الاثنين يضحكان كفاية. أيضاً يتكلّمان عن إيمبالا كيم، أحياناً حين تكون الحفرُ في الطريق كثيرةً تقفزُ السيارةُ قفزات لا تبدو لبِلانو طبيعية، ما لا يبدو طبيعياً بالنسبة إلى ليما هو صوتُ المحرّك. أنتبهُ قبل أن أدخل في نوم عميق إلى أنّه ما من أحدٍ منهما يعرف شيئاً عن السيارات. بِلانو وليما يُدخّنان والإيمبالا تدور في شوارع مركز المدينة.

ننزل في فندق، فندق خوارِث، في شارع خوارِث، لوبِّ في غرفة ونحن الثلاثة في أخرى. النافذة الوحيدة في غرفتنا تُطلّ على شارع مغلق. في نهايةِ الشارعِ المُغلق الذي يؤدي إلى شارع خوارِث تجتمع أشباح تتكلّمُ بصوتٍ منخفض، وإن كان هناك من يصرخُ دون ما سببٍ بل ومن يرفعُ، بعد فترة مراقبةٍ مطوّلة، ذراعَهُ ويشير إلى نافذةِ فندق خوارِث التي أراقبُ أنا منها. على الطرفِ الآخر تتراكمُ القمامةُ، والظلمةُ، إن أمكن القولُ، أشدُّ، وإن برز بين الأبنية بناءٌ مُضاءٌ بشكلٍ خفيف، واجهة فندق سانتا إلِنا ببابه الصغير الذي لا يستخدمه أحدٌ، باستثناء عاملِ المطبخ الذي يخرج مصادفةً حاملاً سطل القمامةِ والذي عندما يعودُ يتوقّفُ بجانبِ الباب ويمط عنقه كي يتأمّل حركةَ السيرِ في شارع خوارِث.

٦ كانون الثاني

أمضى بِلانو وليما الصباحَ كلّه في السجلِّ البلديّ، في مكتبِ الإحصاء، في بعضِ الكنائسِ، في مكتبة سانتا تِرِسا، في أرشيفاتِ الجامعةِ والصحيفةِ الوحيدة ثِنتِنِلا *سانتا تِرِسا*. اجتمعنا كي نأكل في الساحة الرئيسية، بجانبِ تمثالٍ غريب يُخلد ذكرى انتصارِ أبناءِ المنطقةِ على الفرنسيين. عاودَ بِلانو وليما في المساء بحوثهما، وقد أخذا موعداً، كما يقولان، مع المسؤول الأوّل في كليّة الفلسفة والآداب، وغدٌ يُدعى هوراسيو غِرّا،، الذي وللدهشة هو نسخة، لكن مصغّرة، عن أوكتافيو باث، بما في ذلك الاسم، انظر جيّداً، يا غارثيّا مادِرو، قال بِلانو، هل عاش الشاعرُ هوراسيو في عصر أوكتافيو أغسطس قيصر؟ قلتُ له إنّني لم أكن أعرف. اتركني أُفكِّر، قلتُ له. لكّنهما لم يكونا يملكان وقتاً وحين ذهبا عدتُ لأبقى وحدي مع لوبِّ وفكّرتُ بدعوتها إلى السينما، لكن بما أنَّ من كان يحملُ النقود هما بِلانو وليما ونسيتُ أن أطلبه منهما لم أستطع أن أدعو لوبِّ إلى السينما، كما كنتُ أنوي، واضطُرِرْنا لأن نرضى بالمشي في سانتا تِرِسا والنظرِ إلى واجهاتِ محلاتِ مركزِ المدينة والعودةِ بعدها إلى الفندق لنجلس ونشاهد التلفزيون في قاعةٍ بجانبِ قاعة الاستقبال. هناك وجدنا عجوزين سألتانا بعد أن نظرتا إلينا برهةً عمّا إذا كنّا زوجاً وزوجة. قالت لوبِّ نعم. وأنا لم يبقَ أمامي سوى أن أسايرها. بالرغم من أنّني بقيتُ طوال الوقتِ أفكّر بما سألني إيّاه بِلانو وليما حول ما إذا كان هوراسيو قد عاش في عصر أوكتافيو، وبدا لي أن ذلك صحيح، من حيث المبدأ كنتُ سأقولُ بلى، لكنّني أيضاً كنتُ أتصوّر أنّ هوراسيو لم يكن من أنصار أوكتافيو المتحمسين، وكانت لوبِّ تتكلّم مع العجوزين، العجوزين النمامتين جدّاً، الحقيقة، وأنا لا أدري لماذا، بقيتُ أُفكّر بأوكتافيو وهوراسيو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأُصغي بالأذنِ اليسرى إلى المسلسلِ الذي كانوا يقدمونه في التلفزيون وبالأذن اليمنى إلى ثرثرة لوبِّ والعجوزين. وفجأةً أحدثت ذاكرتي طرقةً، مثل جدار ليّن ينهار ورأيتُ هوراسيو يُصارع أوكتافيو أو أوكتافيانوس ولصالح بروتوس وكاسيوس، اللذين اغتالا قيصر وأرادا أن يُجدّدا الجمهورية، غريب ولا حتى لو تناولتُ مهلوِساتٍ، رأيتُ هوراسيو في فيليبوس، بعمر الرابعة والعشرين، فقط أكبر قليلاً من بِلانو وليما، فقط أكبر مني بسبعِ سنين والديوث هوراسيو الذي كان ينظرُ إلى البعيد يستديرُ دون إخطارٍ وينظرُ إليّ! مرحباً، يا غارثيّا مادِرو، قال باللاتينية، على الرغم من أنّني لم أكن أفهم اللاتينية، أنا هوراسيو، مولود في فينوسيا في العام ٦٦ قبل الميلاد، ابن معتوقٍ، أحنُّ أبٍ يمكن أن يرغب به أحد، مجنّد كخطيب بليغ في جيوش بروتوس، مستعدٌ لأن أسير إلى المعركة، معركة فيليبوس، التي سنخسرها، ويدفعني قدري لأن أخوضها، معركة فيليبوس التي سيُقَامَرُ فيها بمصير الرجال، وعندها لمستْ إحدى العجوزين ذراعي وسألتني ما الذي جاء بي إلى مدينة سانتا تِرِسا، ورأيت عيني لوبِّ المبتسمتين وعيني العجوز الأخرى اللتين كانتا تنظران إلى لوبِّ وإليَّ تقدحان شرراً وأجبت بأنّنا عروسان في رحلة شهر العسل، يا سيّدة، ثمّ نهضتُ وقلتُ للوبِّ أن تتبعني وذهبنا إلى غرفتها وانهمكنا في ممارسة الحب كمجنونَيْن، كما لو أنّنا سنموت غداً، إلى أن حلَّ الليل وسمعنا أصوات ليما وبِلانو، اللذين عادا إلى غرفتهما، وكانا يتكلّمان، يتَكَلّمان ويتكلّمان.

٧ كانون الثاني

استنتاجات: كانت ثِساريا تيناخِرو هنا. لم نعثر على أثر منها ولا حتى في السجل ولا في الجامعة، ولا في أرشيفات الكنيسة،

ولا في المكتبة، التي تخزن، لا أدري لماذا، أرشيفات مشفى سانتا تِرِسا القديم الذي صار الآن مشفى الجنرال سِبّولبِدا، أحد أبطال الثورة. ومع ذلك سمحوا لِبِلانو وليما في صحيفة ثِنتينِلا سانتا تِرِسا أن يُفَلِّيا قسمَ الصحف والمجلات العائدة للمرحلة، وقد ذُكِر في أخبار العام ١٩٢٨، يوم ٦ حزيران، مصارعُ ثيرانٍ اسمه بِّبِّ أبيّانِدا، صارع في ساحة سانتا تِرِسا ثورَيّن من مزرعة دون خوسِهْ فوركات بنجاح جيد (أذنان) ويضعون ترجمة عنه ومُقابَلة معه في العدد العائد للحادي عشر من حزيران ١٩٢٨، حيث يقولون بين أشياء أخرى إنّ بِّبِّ أبيّانِدا المذكورَ يُسافرُ بِرفقةِ امرأة تُدعى ثِساريا تيناخا (هكذا ورد) وهي من مدينة مكسيكو. لا توجد صورٌ توضيحية للخبر، لكنّ الصحفيَّ المحلّيَّ يقول عنها «طويلة، جذّابة ورصينة»، وهو ما لا أعرف ماذا يعني، إلا إذا كان يُريد أن يُبرز التناقضَ بين المرأة التي تُرافق المصارعَ وهذا، الذي يصفه، بطريقة بذيئة قليلاً، كرجلٍ قصيرٍ لا يزيد طولُهُ عن مترٍ ونصف، نحيل جدّاً، جمجمته كبيرة وبيضوية، الوصف الذي ذَكَّرَ بِلانو وليما بصورةِ مصارعِ ثيرانِ همنغوايِ (المؤلف الذي من المؤسف أنّني لم أقرأه بعد) مصارع ثيران همنغواي التقليدي، عاثر الحظّ، الشجاع أو بالأحرى الحزين، أو بالأحرى الحزين بشكل قاتل، يقولون، على الرغم من أنّني لا أجرؤ على قول كلّ هذا بالقليل الذي أرتكز عليه، ثمّ إنّ ثِساريا تيناخِرو شيء وثِساريا تيناخا شيءٌ آخر، الأمر الذي يغضّ صديقاي الطرف عنه عازيين إيّاه إلى خطأ مطبعيَ، إلى نقلٍ خاطئٍ أو سمعٍ خاطئ من قبل الصحفي، بل وإلى خطأ مقصود من قبل ثِساريا تيناخِرو، أن تقول له كنيتَها بشكل سيئٍ، مزحة، طريقة متواضعة لتغطّي على نسب متواضع.

بقيةُ الخبر غير ذات أهمية، يتكلّم بِّبِّ أبيّانِدا عن الثيران: يقول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أشياء غير مفهومة أو متناقضة، لكنّه يقول ذلك بصوتٍ كان من الانخفاض بحيث أنّه لا يبدو متحذلقاً أبداً. أثر أخير، تُعلن صحيفة *ثِنتينِلا سانتا تِرِسا* في عدد يوم العاشرِ من حزيران، مغادرةَ مصارع الثيران البلدة (وبافتخار مغادرة رفيقته) في طريقهما إلى سونويتا حيث سيشاطر خِسوس أورتيث باتشِكو، وهو مصارع ثيران من مونتِرّي، اليافطةَ. هكذا فإنّ ثِساريا وأبيّانِدا بقيا في سانتا تِرِسا شهراً تقريباً، طبعاً دون أن يعملا شيئاً مَن السياحة، يطوفان في محيطها أو يبقيان محبوسين في فندقهما. على كلٍّ حالٍ صارَ عندنا، بحسب ليما وبِلانو، مَنْ عَرَفَ ثِساريا تيناخِرو، عرفَها جيّداً، وهو حقيقةً ما يزال يعيش في سونورا، على الرغم من أنّه لا يمكن أن يعرف المرء شيئاً من مصارِعَي الثيران. رَدًّا على حجّتي القائلة بأنّ من المحتمل أن يكون أبيّانِدا قد مات، وأبْدَيَا أنّه يبقى أمامنا أقرباؤه وأصدقاؤه. وهكذا نحن نبحثُ الآن عن ثِساريا ومصارع الثيران. حكيا عن هوراسيو غِرًّا نوادرَ غير معقولة. يؤكّدان على أنّ الأمرَ يتعلّق بنسخة طبق الأصل عن أوكتافيو باث. عمليّاً، يقولان، على الرغم من أنّني لا أعرف كيف يمكنهما في هذا الوقت القصير الذي تعاملا فيه معه أن يعرفا عنه كلّ تلك المعلومات، إنّ أتباعه في هذه الزاوية الضائعة من ولاية سونورا هم نسخة دقيقة عن أتباعِ باث. كما لو أنّ بعضَ الشعراءِ وكتابِ الدراساتِ والأساتذةِ المنسيين بدورهم يعيدون إنتاجَ الأساليب التي تنشرها وسائل الإعلام عن معبوديها.

يؤكّدان في البداية أنّ غِرّا أظهر اهتماماً شديداً بمعرفة من تكون ثِساريا تيناخِرو، لكنّ اهتمامه انهار حين أكّد له بِلانو وليما الطبيعةَ الطليعية لعملها وندرة هذا العمل.

٨ كانون الثاني

لم نعثر على شيء في سونويتا. عند العودة توقّفنا مرّةً أخرى في كابوركا. أصرّ بِلانو على أنّه لا يمكن أن تكون تسمية ثِساريا لمجلّتِها بهذا الاسم محض مصادفة. لكنّنا من جديد لم نعثر على شيء يشي بوجود الشاعرة في البلدة.

بالمقابل سقطنا في قسم الصحافة والمجلات في هِرموسيّو على وجوهنا، في اليوم الأوّل ومع خبر وفاة بِّبِّ أبيّانِدا. قرأنا في أوراق قديمة تشبهُ الرقّ أنّه كان قد مات في ساحة مصارعة ثيران أغوا برييتا بنطحة من الثور بينما هو يطعنه طعنة الموت، وهو ما لم يتقنه أبِيّانِدا بداً بشكل جيّد، نظراً لقصرِ قامته: كي يقتل، كان عليه، بحسب الثورِ، أن يقفز وخلال هذه القفزة يبقى جسمه عرضة لأدنى نطحة من الحيوان.

الاحتضار لم يدم طويلاً. انتهى نزفُ أبِيّانِدا في غرفته في الفندق، إكسِلسيور أغوا برييتا، وَوُريَ الترابَ بعد يومين في مقبرة البلدةِ ذاتها. لم تُقَم صلاة عليه. حضرَ الجنازةَ العمدةُ والسلطاتُ الرئيسية، مصارع مونتِرّي خِسوس أورتيث باتشِكو، إضافة إلى هواةِ مصارعة الثيران الذين حضروا مقتلَهُ وأرادوا أن يلقوا عليه نظرة الوداع الأخيرة. جعلنا الخبرُ نُفكّر ملياً بمسألتين أو ثلاث مسائل ما زالت عالقة إضافة إلى قرارنا بأن نزورَ أغوا برييتا.

أولاً، وبحسب بِلانو، الاحتمال الأكبر هو أنّ الصحفيَّ يتكلّم سماعاً، بالفعل هناك احتمال أن يكون للصحيفة الرئيسية في هِرموسيّو مراسلٌ في أغوا برييتا وأن يكون هذا قد أرسل برقيةً إلى مكتبِ تحريرها بالحادث المأساوي، لكن ما صار واضحاً (من ناحية أخرى لا أدري لماذا) هو أنّ القصّةَ جُمِّلَتْ هنا في هِرموسيّو، طولوها وصقلوها وجعلوها أكثر أدبية. سؤال: من سهر على جثمان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أبِيّانِدا؟ فضول: من هو مصارع الثيران أورتيثْ باتشِكو، الذي يبدو أنّ ظلّه لا ينفصل عن ظلِّ أبِيّانِدا؟ هل قام معه بالجولة في سونورا أم أنّ وجودَهُ في أغوا بريِيتا كان محض مصادفة؟ تماماً كما تخوّفنا لم نعثر على أخبارٍ أكثر عن أبِيّانِدا في قسم الصحافة في هِرموسيّو، كما لو أنّ النسيانَ المطلقَ هبط عليه بعد شهد على موت مصارع الثيران، وبذلك فإنّ إغلاقَ ملف المعلومات من ناحية أخرى كان الأمر الأكثر طبيعية. وهكذا توجّهنا إلى بّنيا تاورينا بيلو يانِيث، الواقعة في القسم القديم من المدينة، في الحقيقة هو بار عائلي فيه لمسة إسبانية خفيفة، حيثُ كان يجتمع المتعصبون لمصارعة الثيران في هِرموسيّو. ما من أحدٍ كان عنده أخبار عن مصارع ثيران قصير اسمه بّبّ أبِيّانِدا، لكن حين قلنا لهم المرحلة التي كان فيها ناشطاً، سنوات العشرينات والساحة التي قُتِلَ فيها أرسلونا إلى عجوزٍ كان يعرف كلَّ شيء عن مصارع الثيران أورتيث باتشِكو، مرّة أخرى! على الرغم من أنّ المفضلَ بالنسبة إليه كان بّيلو يانِيثْ، سلطان كابوركا (كابوركا من جديد) اللقب الذي بدا بالنسبة إلينا نحن غير العارفين بالمتاهات التي تجري فيها مصارعة الثيران المكسيكيّة، أكثر مُلاءَمَة لِمُلاكم.

كان العجوز يُدعى خِسوس بينتادو ويتذكّر بّبِّ أبِيّانِدا، قال بّبِّ أبِيّانِدا مصارعُ ثيران عاثرُ الحظّ، لكن لا مثيل له في الشجاعة، يمكن أن يكون من سونورا، ويمكن أن يكون من سينالوَا، أو تشيهواهوَا، على الرغم من أن قضى حياته في سونورا، أو على الأقل كان من سونورا اختياراً، مات في أغوا بريِيتا، في مصارعة شاركَهُ فيها أورتيث باتشِكو وإفرِن سالاثار، في عيد أغوا بريِيتا الكبير، في أيار ١٩٣٠. هل تعرف، يا سيّد بينتادو ما إذا كان له عائلة؟ سأله بِلانو. العجوز لم يكن يعرف. هل تعرف ما إذا كان يُسافر مع امرأة؟ ضحكَ العجوزُ ونظرَ إلى لوبّ. جميعهم كانوا يُسافرون مع نساء أو كانوا

يحصلون عليهنّ حيث يكونون، قال، كان الرجالُ في ذلك العصر مجانين، وكذلك بعضُ النساء. لكن ألا تعرف أنت؟ سأله بِلانو. العجوز لم يكن يعرف. هل أورتيث باتشِكو حي. قال العجوز نعم. هل تعرف أين نستطيع أن نجده، يا سيد بينتادو؟ قال لنا العجوز إنّ له بيتاً خشبياً في ضواحي إل كواترو. وما هذا، سأل بِلانو، بلدة؟ طريق؟ مطعم؟ نظر إلينا العجوز فجأة وكأنّه عرفنا من شيء ما، قال بعدها إنّها بلدة.

٩ كانون الثاني

كي أتسلى في السفر رحتُ أرسمُ رسومات هي ألغاز علّموني إيّاها في المدرسة منذ قرون. على الرغم من أنّه لا يوجد هنا قبعات تشارو، لا أحد يستخدم قبعات التشارّو. هنا لا يوجد غير الصحراء والقرى، التي تبدو سراباً، وجبال درداء.

ما هذا؟ - سألتُ.

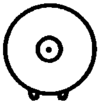

نظرت لوبِّ إلى الرسم كما لو أنّه ليس لديها رغبة باللعب وبقيت صامتة. أيضاً بِلانو وليما لم يعرفاه.

- بيت شعر مديح؟ - سأل ليما.

- لا. مكسيكي منظور إليه من أعلى - قلتُ -. وهذا؟

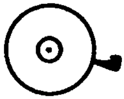

- مكسيكي يُدخّن غليوناً - قالت لوبِّ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- وهذا؟

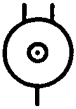

- مكسيكي على دراجة ثلاثية العجلات - قالت لوبِّ-. طفل مكسيكي على دراجة ثلاثية العجلات.

- وهذا؟

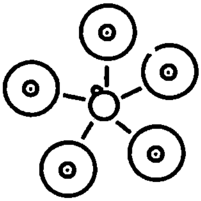

- خمسة مكسيكيين يبولون في مبولة - قال ليما.

- وهذا؟

- مكسيكي على درّاجة - قالت لوبِّ.

- أو مكسيكي على الحبل المرتخي - قال ليما.

- وهذا؟

- مكسيكيّ يمرّ فوق جسر - قال ليما

- وهذا؟

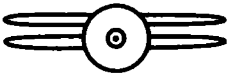

- مكسيكيّ يتزلّج - قالت لوبٍّ
- وهذا؟

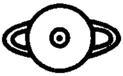

- مكسيكي على وشك أن يخرج مسدّسيه - قالت لوبٍّ.
- يا إلهي، تعرفينها كلّها، يا لوبٍّ - قال بِلانو.
- وأنت لا شيء - قالت لوبٍّ.
- المسألة أنّني لستُ مكسيكياً - قال بِلانو؟
- وهذا؟ - قلتُ بينما أنا أُري الرسم إلى ليما أولاً ثم للآخرين.

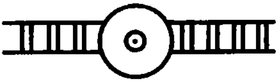

- مكسيكي يصعد سلّماً - قالت لوبٍّ.
- وهذا؟

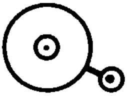

- لا! هذا صعب - قالت لوبٍّ.

توقّف أصدقائي برهة عن الضحك ونظروا إلى الرسم، رأيتُ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شيئاً بدا لي من بعيد شجرة، عندما مررنا بجانبه وجدت أنّها نبتة، نبتة هائلة وميتة.

- استسلمنا - قالت لوبِّ.

- مكسيكي يقلي بيضة - قلتُ أنا - وهذا؟

- مكسيكيان على درّاجة لاثنين - قالت لوبِّ.

- أو مكسيكيان على الحبل الرخو - قال ليما.

- إليكم بواحد صعب - قلت.

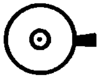

- سهل، نسر أمريكي أسود يضع قبعة تشارّو - قالت لوبِّ

- وهذا؟

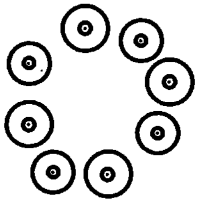

- ثمانية مكسيكيين يتكلمون - قال ليما.

- ثمانية مكسيكيين نائمون - قالت لوبِّ.

- بل وحتى ثمانية مكسيكيين يشاهدون مصارعة ديكة غير مرئية

- قلتُ أنا -. وهذا؟

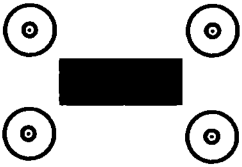

- أربعة مكسيكيين يسهرون على ميت - قال بِلانو.

١٠ كانون الثاني

كانت الرحلة إلى إلْ كواترو شاقّةً. أمضينا النهارَ كلَّه تقريباً في الطريق، أولاً في البحث عن إل كواترو، التي كانت، بحسب ما قالوه لنا، على بعدِ مئة وخمسين كيلومتراً إلى الشمال من هِرموسيّو، على الطريق الفيدرالي، ثم وحين وصلنا إلى بنخامين هيل، انعطفنا إلى اليسار باتجاهِ الشرق عبر طريق مرصوصٍ ضعنا فيه وعدنا لنخرج إلى الطريق الفيدرالي، لكن هذه المرّة على بعد قرابة العشرة كيلومترات إلى الجنوب من بنخامين هيل، وهو ما جعلنا نُفَكّر بأنّ إل كواترو غير موجودة، إلى أن دخلنا من جديد في مفرق بنخامين هيل (في الواقع كان الأفضل للوصول إلى إلْ كواترو هو أن نأخذ المفرقَ الأوّلَ، الموجود على بعد عشرة كيلومترات عن بنخامين هيل) درنا ودرنا في أماكن تبدو من القمر، تظهرُ أحياناً بقع صغيرة خضراء، لكنّها دائماً قاحلة، وصلنا بعدها إلى بلدة تدعى فِليكس غومِث وهناك وقفَ شخصٌ أمام سيّارتنا مفتوحَ الساقين واضعاً يديه على خصريه وشتمنا، ثم رأينا أشخاصاً آخرين قالوا لنا إنّه كي نصل إلى إلْ كواترو علينا أن نذهب من هناك، ننعطف بعدها هنالك ونصل إلى بلدة تُدعى إل أواسيس (الواحة) التي لم تكن بأي شكلٍ واحةً بل كانت تختصر في واجهاتها كلَّ خصائصِ الصحراء، عدنا بعدها لنخرج إلى الطريق الفيدرالي وعندها قال ليما إنّ صحاري سونورا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خراء وقالت لوبّ لو أنّهما تركاها تقودُ لكنّا وصلنا منذ زمن، وهو ما ردَّ عليه ليما كابحاً السيارة فجأة ونازلاً من مقعده قائلاً للوبِّ أن تسوق هي. لا أعرف ماذا جرى وقتها، الأكيد هو أنّنا نزلنا جميعاً من سيارة الإيمبالا ومططنا أرجلنا كنا نرى في البعيد الطريق الفيدرالي وبعض السيارات التي تمضي نحو الشمال، ربّما نحو تيخوانا والولايات المتحدة وأخرى نحو الجنوب، نحو هِرموسيّو أو وادي الحجارة أو نحو العاصمة الفيدرالية، وعندها رحنا نتحدّث عن العاصمة الفيدرالية ونتشمّس (نُقارن بين سواعِدنا المحمّصة) ونُدخّن ونتكلّم عن العاصمة الفيدرالية وقالت لوبِّ إنّها ما عادت تشتاق لأحدٍ. عندما قالت ذلك فكّرتُ، يا للغرابة، فأنا أيضاً لم أكن أشتاقُ لأحدٍ، على الرغم من أنّني امتنعتُ عن قوله. عاد الجميع بعدها وصعدوا إلى السيارة باستثنائي، أنا الذي رحتُ أرمي قطع أتربةٍ دون اتجاه محدّد وإلى أبعد ما استطعتُ وعلى الرغم من أنّني كنتُ أشعر بأنّهم ينادونني لم ألتفت ولم أقم بأدنى حركة للعودة معهم، إلى أن قال بِلانو: يا غارثيّا مادِرو، إمّا أن تصعد أو أن تبقى، وعندها استدرتُ وبدأتُ أسير باتجاه الإيمبالا، كنت قد ابتعدت كثيراً دون إرادة مني، وبينما أنا عائد تأمّلتُ سيارة كيم وفكّرتُ بأنّها متسخة جدّاً وتصوّرتُ كيم ينظر إلى سيارته بعينيَّ أو ماريّا تنظرُ إلى سيارةِ إيمبالا والدِها بعينيَّ وبالفعل لم تكن حسنة الشكل، فلونها راح يختفي تقريباً تحت طبقة غبار الصحراء.

عدنا بعدها إلى أواسيس وفِليكس غومِثْ ووصلنا أخيراً إلى إل كواترو، في منطقة ترينتشِراس وهناك أكلنا وسألنا النادلَ ومن كانوا على الطاولة المجاورة عمّا إذا كانوا يعرفون أين يقع كوخ مصارع الثيران السابق أورتيث باتشِكو، لكنّ هؤلاء لم يسمعوا باسمه قط، وهكذا رحنا نهيم في البلدة، أنا ولوبِّ دون أن نفتح فمنا وبِلانو

وليما يتكلّمان بلا توقّفٍ ليس عن أورتيث باتشِكو، ولا عن أبيّانِدا ولا عن الشاعرة ثِساريا تيناخِرو بل عن نمائم العاصمة الفيدرالية أو عن الكتبِ أو المجلات الأمريكية اللاتينية التي قرآها قبل الشروع برحلة التيهِ هذه، أو عن أفلام، على كلّ حال كانا يتكلّمان عن أشياء بدت لي طائشة وربّما بدت للوبِّ أيضاً طائشة، لأنّنا بقينا أنا وهي صامتين، ثم وبعد الكثير من السؤال وجدنا في السوق (الذي كان في تلك الساعة مقفراً) شخصاً معه ثلاثة صناديق كرتون مليئة بالصيصان وعرف كيف يدلنا كي نصل إلى كوخ أورتيث باتشِكو. وهكذا عدنا وصعدنا إلى الإيمبالا وشرعنا من جديد في السير.

في منتصف الطريق الذي يربط إل كواترو بترينتشِراس كان علينا أن ننعطف نحو اليسار في طريق كان يمرّ بسفوح تلّ على شكل سمّانى لكنّنا ما إن أخذنا الطريقَ الجانبيّ حتى بدت لنا كلُّ التلال، كلُّ المرتفعات، بل وحتى الصحراء على شكل سمّانى، سمّانى في وضعياتٍ عديدة، حيث تهنا في دروب لا تصل لأن تكون طرقاً مرصوصة، تؤذي السيارة وتؤذينا نحن أيضاً حتى انتهى الدرب إلى بيت، بدا منزلاً من القرن السابع عشر انبثق فجأة من بين الغبار وخرج عجوز ليستقبلنا، وقال لنا إنّ ذلك بالفعل كوخ مصارع الثيران أورتيث باتشِكو، كوخ الحياة الطيّبة، وإنّه هو (لكنّه قال هذا بعد أن أمعن فينا النظر برهةً) مصارع الثيران أورتيث باتشِكو شخصياً.

في تلك الليلة استمتعنا بضيافة الماتادور القديم. كان أورتيث باتشِكو في التاسعة والسبعين من عمره وله ذاكرة قوّاها الريفُ بحسب رأيه وقوّتها الصحراء بحسب رأينا. كان يتذكّر بُبِّ أبيّانِدا تماماً (ببّين أبيّانِدا، الرَّبع الأكثر حزناً الذي رأيته في حياتي، قال) والمساءَ الذي قتله فيه ثورٌ في ساحة أغوا برييتا. حضر هو السهر على جثمانه، الذي تمّ في قاعة الفندق، حيث مرّت لتُلقي عليه نظرة الوداع الأخيرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كلُّ القوى الحيّة عملياً في أغوَا بريبتا، وحضر الجنازة، التي كانت حاشدة، مِشبك أسود لاحتفالات هوميروسية، قال. طبعاً كان يتذكّر المرأةَ التي كانت مع أبِيّانِدا. امرأة طويلة، كما يُحبُّ القصار، صموتة، لكن ليس خوفاً بل حشمة، كما لو أنّها كانت مريضة ولا تستطيع أن تتكلّم، امرأة لها شعر أسود وتقاسيم هندية، نحيلة وقويّة. تسألون عمّا إذا كانت عشيقة أبِيّانِدا؟ هذا ما لا شكّ فيه. طبعاً لم تكن قدّيسته، لأنّ أبِيّانِدا كان متزوّجاً، وزوجته التي هجرها كانت تعيش في لوس موتشيس، سينالوَا، وكان مصارع الثيران يُرسل إليها نقوداً كلَّ شهر أو شهرين (أو في كلّ مرّة يستطيع، بلى!). لم يكن مصارعو الثيران، كما هم الآن، حيث أنّ المبتدئين يثرون. الصحيح هو أنّ أبِيّانِدا كان يعيش وقتذاك مع تلك المرأة. لم يكن يتذكّر اسمها، لكنّه كان يعرف أنّها جاءت من العاصمة الفيدرالية وأنّها كانت امرأة مثقّفة، ضاربة أو كاتبة على آلة كاتبة. حين ذكر بِلانو ثِساريا قال أورتيث بلى، هذا هو اسمها. هل كانت امرأة مهتمّة بالثيران؟ سألت لوبِّ. لا أعرفُ، قال أورتيث باتشِكو، ربّما كانت وربّما لم تكن، لكن إذا ما تبع أحدٌ مصارعَ ثيران ينتهي مع الزمن إلى أن يحبّ هذا العالم. على كلّ حال لم يرَ أورتيث باتشِكو ثِساريا إلا مرّتين، الأخيرة كانت في أغوا بريبتا، وهو ما يُستنتج منه أنّه لم يكن قد مضى عليهما وقت طويل كعشيقين، ومع ذلك فإنّ التأثير الذي مارسته على بِبّين أبِيّانِدا كان، بحسب أورتيث باتشِكو، واضحاً.

في الليلة السابقة على موته، مثلاً وبينما كان المصارعان يشربان في بارٍ في أغوَا بريبتا وقبل أن يذهبا إلى الفندق، راح أبِيّانِدا يتكلّم عن أزتلان. في البداية كان أبِيّانِدا يتكلم كما لو أنّه يحكي سرّاً، كما لو أنّه في الحقيقة ليس عنده رغبة بالكلام، لكن ومع مرور الدقائق راح يتحمّس في كلّ مرّة أكثر. لم يكن عند أورتيث باتشِكو أدنى

فكرة ولا ماذا كانت تعني «أزتلان»، الكلمة التي لم يسمعها في حياته. وهكذا كان أن شرح له أبِيّانِدا كلَّ شيء منذ البداية، حدّثه عن المدينة المقدّسة للمكسيكيين الأوائل، المدينة-الأسطورة، المدينة المجهولة أتلانتيد أفلاطون الحقيقيّة، وحين عادا إلى الفندق نصفَ سكرانين اعتقد أورتيث باتشِكو أنّ تلك الأفكار المجنونة لا يمكن إلا أن تكون أفكار ثِساريا. خلال السهر على الجثمان بقيت وحدها معظم الوقت، مُغْلِقَةً على نفسها غرفَتها أو في زاوية من القاعة الرئيسية من إكسِلسيور، المُعدّة كقاعة جنائزية. ما من امرأة عزّتها. وحدهم الرجال، إذا عزّوها، فقد عزّوها على انفراد، إذ لم يكن ليفوت أحداً أنّها كانت عشيقته. في الجنازة لم تنطق بكلمة، الذي تكلّم هو محاسب البلدية، الذي كان إضافة إلى ذلك شاعرَ أغوَا بريبتا الرسمي، ورئيسَ جمعية مصارعة الثيران، لكن ليس هي. أيضاً بحسب أورتيث باتشِكو، لم يرها أحد تذرفُ دمعة واحدة. لكن نعم أخذت على عاتقها أن يَنقش صانعُ الرخامِ بعضَ الكلمات على شاهدة قبر أبِيّانِدا، لم يكن أورتيث باتشِكو يتذكّر ما هي، على كلّ حال كانت كلمات غريبة، من نوع أزتلان، بدا أنّه يتذكّر، بالتأكيد ابتدعتها هي للمناسبة. لم يقلْ أملَتْها بل ابتدعَتْها. سأله بِلانو وليما، ما هي تلك الكلمات. بدأ أورتيث باتشِكو يُفَكّر برهة، لكنّه قال في النهاية إنّه نسيها.

نمنا في تلك الليلة في المزرعة. نام بِلانو وليما في الصالون (كان هناك غرف كثيرة، لكنّها جميعها غير قابلة للسكن) ولوبٌ وأنا في السيارة. وما ذلك إذالفجر حتى استيقظتُ وبلتُ في الفناء وأنا أتأمّل الأنوار الأولى الصفراءَ الشاحبة (والزرقاء أيضاً) التي كانت تنزلق بحذرٍ على الصحراء. أشعلتُ سيجارة، اعتقدتُ أنّني رأيتُ في البعيد سحابة غبار، لكنّني سرعان ما انتبهت إلى أنّها كانت مجرّد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سحابة منخفضة. منخفضة وساكنة. فكّرت أنّ من الغريب ألا أسمعَ صخب الحيوانات. ومع ذلك إذا ما أصاخ المرءُ السمعَ يسمعُ من حين لآخر زقزقة عصفور. حين استدرتُ رأيتُ لوبِّ تنظر إليّ مُطِلّة من إحدى نوافذ الإيمبالا. كان شعرها الأسود القصير مخُرباً وتبدو أنحلَ من قبل، كما لو أنّها تتحوّل إلى لامرئية، كما لو أنّ الصباح يُفكّكها دون ألم، لكنّها كانت تبدو في الوقت ذاته أجمل من ذي قبل.

دخلنا معاً إلى البيت. في الصالون وجدنا ليما وبِلانو وأورتيث باتشِكو جالسين كلّ في كرسيّ جلديّ. كان مصارع الثيران العجوز متدثراً ببطانية ونائماً وقد ارتسم على وجهه تعبير الدهشة. بينما كانت لوبِّ تُعدّ القهوة أيقظتُ أنا صديقيَّ. لم أجرؤ على إيقاظ أورتيث باتشِكو. أظنّ أنّه ميت، همستُ. تمطّى بِلانو وسمعت طقطقة عظامه، قال إنّه منذ زمن طويل لم ينم بمثل ذلك العمق وأخذ بعدها على عاتقه أن يُوقظ مضيفنا. قال لنا أورتيث باتشِكو بينما نحن نتناول فطورنا إنّه رأى حلماً غريباً جدّاً. هل حلمت بصديقك أبيّانِدا؟ سأله بِلانو. لا، إطلاقاً، قال أورتيث باتشِكو، حلمتُ بأنّني في العاشرة من عمري وبأنّ عائلتي تنتقل من مونتِرّي إلى هِرموسيّو. لا بدّ أنّها كانت في ذلك الوقت رحلة طويلة جدّاً، قال ليما. بلى، طويلة جدّاً، قال أورتيث باتشِكو، لكنّها سعيدة.

١١ كانون الثاني

ذهبنا إلى أغوَا بريبتا، إلى مقبرة أغوَا بريبتا. أولاً من مزرعة الحياة الطيّبة إلى ترينتشِراس ثم من ترينتشِراس إلى بوبلو نوِبو، سانتا آنا، سان إغناثيو، إيموريس، كانانيا وأغوَا بريبتا، بالضبط على الحدود مع أريزونا

على الجانب الآخر توجد دوغلاس، البلدة الأمريكية الشمالية

وفي الوسط الجمارك وشرطة الحدود. فيما وراء دوغلاس، على بعد سبعين كيلومتراً إلى الشمال الغربي تقع تومبستون، حيث كان يجتمع أفضلُ رماة المسدساتِ الأمريكيين الشماليين. سمعناهم، بينما نحن نتناول غداءنا في مقهى، يحكون قصّتين، واحدة تُوَضِّح شجاعةَ المكسيكي وأخرى شجاعةَ الأمريكي الشمالي. في واحدة كان البطل من أبناء أغوا برييتا وفي الأخرى كان من تومبستون.

حين غادر المقهى من كان يحكي القصّة، وهو شخص طويل وأشيب الشعر يتكلّم كما لو أنّ رأسه يؤلمه، راح الذي كان يسمعه يضحك دون سبب ظاهر، أو كما لو أنّه فقط بعد أن مرّت بضع دقائق استطاع أن يلتقط معنىً للقصّةِ التي سمعها توّاً. في الحقيقة كانتا مجرّد نكتتين. في الأولى يُخرج الشريفُ ومساعدوه سجيناً من زنزانته ويحملونه إلى مكان منعزل من الريف كي يقتلوه. السجينُ يعرف ذلك وهو مُستسلِم إلى هذا الحدِّ أو ذاك للمصير الذي ينتظره. الوقت شتاء قاسٍ، والفجر يبزغ، ويتذمّر السجينُ كما جلادوه من البرد الذي يرتفع في الصحراء. ومع ذلك يبدأ السجين في لحظة ما بالضحك والشريف يسأله ما الشيطان الذي يثير عنده تلك الضحكة المدوّية، تراه نسي أنّهم سيقتلونه ويقبرونه حيث لن يستطيع أحدٌ أن يعثر عليه، هل جُنّ تماماً. يردّ السجينُ وفي هذا تُخْتَصَرُ النكتة كلها، بأنّ ما يضحكه هو أنه يعرف أنّه بعد دقائق قليلة لن يعاني من البرد وأنّ رجال القانون سيُضطرون لأن يعودوا أدراجهم.

القصة الثانية تتحدَّث عن إعدام الكولونيل غوادالوب سانتشِث، الابن المدلّل لأغوَا برييتا، الذي طلب حين واجهَ جدار الرمي بالرصاص، كرغبة أخيرة، أن يُدخّن سيجاراً. استجاب الضابطُ الذي كان يقود فصيلة الإعدام لرغبته. أعطوه آخر سيجار هافاني. أشعله غوادالوب سانتشِث بهدوء وبدأ يُدخّنه دون عجلة مستمتعاً به،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومتأمّلاً الفجرَ (لأنّ هذه القصّة تجري مثل قصّة تومبستون في الفجر، من المحتمل أن تكونا قد جرتا في الفجر ذاته، يوم ١٥ أيار ١٩١٢)، وكان الكولونيل سانتشِث الملفوف بالدخان من الهدوء ورباطةِ الجأشِ إلى حدّ أنَّ الرماد بقي ملتصقاً بالسيجار، وربّما هذا بالضبط ما أراده الكولونيل، أن يرى بأمِّ عينه ما إذا كان نبضه سيهُن، ما إذا كانت رجفة ستكشفُ في آخر زفرة له عن جبنٍ عنده، لكنّه أنهى سيجاره الهافاني ولم يسقط رماده على الأرض. عندها رمى الكولونيل سانتشِث العقبَ وقال متى تشاءون.

هذه هي القصة.

عندما لم يعد المقصوصُ عليهم يضحكون، طرح بِلانو بعضَ الأسئلة بصوت عالٍ: هل كان السجين الذي سيموت في ضواحي تومبستون من تومبستون؟ هل الشريف ومساعده هما من أبناء تومبستون؟ هل كان الكولونيل غوادالوب سانتشِث من أغوا برييتا؟ هل كان ضابط فصيلة الإعدام من أغوا بريبتا؟ لماذا قتلوا سجين تومبستون مثل كلبٍ؟ لماذا قتلوا عزيزيَ الكولونيل غوادالوبِّ سانتشِث مثل كلب (هكذا حرفياً) ؟ نظر إليه الجميع في المقهى لكن ما من أحد أجابه. أمسكه ليما من كتفه وقال: هيا بنا، يا أخي. نظر إليه بِلانو بابتسامة ووضع عدداً من الأوراق النقدية على طاولة العرض. ذهبنا بعدها إلى المقبرة ورحنا نبحث عن قبر بِّبّ أبِيّانِدا، الذي مات بنطحةِ ثورٍ أو لأنّه كان أقصرَ من اللازم ومرتبكاً في استخدام السيف، قبر بشاهدة كتبتها ثِساريا تيناخِرو، وعلى الرغم من كلّ البحث الذي قمنا به لم نعثر عليه. كانت مقبرة أغوا بريبتا من أكثر المقابر التي رأيناها شبهاً بالمتاهة وحفّار القبور الأكثر تمرّساً في المقبرة، الوحيد الذي كان يعرف أين قبر كلّ ميت، كان قد ذهب في إجازة أو كان مريضاً.

١٢ كانون الثاني

هل إذا ما تبعت امرأةٌ مصارعَ ثيران تنتهي على المدى الطويل بأن تُحبّ عالَمَهُ؟ سألت لوبِّ، هكذا يبدو، قال بِلانو. وماذا إذا خرجتْ مع شرطيّ، هل تنتهي بأن تُحبَّ عالَم الشرطة؟ هكذا يبدو، قال بِلانو، وماذا إذا خرجتْ مع قوّادٍ هل تنتهي بأن يعجبها عالمه. لم يجبها بِلانو. غريب، لأنّه كان يُحبُّ دائماً أن يجيب على كلِّ الأسئلة، حتى ولو لم تكن تحتاج إلى جواب أو ليست في مكانها. بعكس ليما، الذي كان في كلّ مرّة أقلّ كلاماً، يقتصر على قيادةِ السيارة وتعلوه ملامح الشرود. أعتقد أنّنا ونظراً للعمى الذي كنّا فيه لم ننتبه للتغيّر الذي بدأت لوبِّ تعيشه.

١٣ كانون الثاني

اليوم هتفنا إلى العاصمة الفيدرالية لأوّلِ مرّة. تكلّم بِلانو مع كيم فونت. قال له كيم إنّ قوّاد لوبِّ كان يعرفُ أين نحن وإنّه خرج في طلبنا. قال له بِلانو إنّ ذلك مستحيل. بقي ألبِرتو يلاحقنا حتى خرجنا من العاصمة الفيدرالية ونجحنا هناك في تضليله. بلى، قال كيم، لكنّه عادَ بعد ذلك إلى بيتي وهدّدني إن لم أقلْ له إلى أين كنّا نَتَّجِه. أخذتُ الهاتفَ وقلتُ له أريد أن أُكَلّمَ ماريّا. سمعتُ صوتَ كيم. كان يبكي. ما هذا؟ قلتُ. أريدُ أن أُكَلّم ماريّا. هل أنت غارثيّا مادِرو؟ أجهش كيم. فكّرتُ أنّك في بيتك. أنا هنا، قلتُ. بدا لي أنّ كيم يستنشقُ مخاطَهُ. كان بِلانو وليما يتكلّمان بصوت منخفض. ابتعدا عن الهاتف وبدا عليهما القلقُ. بقيت لوبِّ بجانبي، بجانبِ الهاتف، كما لو أنّها تشعر بالبرد، وظهرها إليّ تنظر إلى محطّةِ المحروقات حيث كانت سيارتنا. خذ أوّلَ حافلةٍ وعُدْ إلى العاصمة الفيدرالية، سمعتُ كيم يقول. إذا لم يكن معك نقود أُرسلها إليك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

معنا منها ما يفيض عنّا، قلتُ. هل ماريّا موجودة؟ لا يوجدُ أحد، أنا وحدي، أجهش كيم. كلانا لزم الصمت برهةً. كيف هي سيّارتي؟ فجأةً قال صوتُهُ الذي كان يصلُ من عالَمٍ آخر. جيّدة، قلتُ، كلّ شيء جيّد. نحن نقترب من ثِساريا تيناخِرو، كذبتُ. من هي ثِساريا تيناخِرو؟ سأل كيم.

١٤ كانون الثاني

اشترينا ملابس في هِرموسيّو وثياباً للسباحة لكلّ واحد منّا. ذهبنا بعدها لنأخذَ بِلانو من المكتبة (حيث قضى الصباحَ كلّه، مقتنعاً بأنّ الشاعرَ دائماً يترك آثاراً مكتوبة، على الرغم من أنّ كلّ شيء كان حتى الساعة يدّلُ على العكس) وذهبنا إلى الشاطئ. استأجرنا غرفتين في نزلٍ في باهيّا كينو. البحر أزرق داكن. لوبِّ لم ترهُ من قبل.

١٥ كانون الثاني

نزهة: سارت سيارتُنا في الطريق المعلق بجانب خليج كاليفورنيا، حتى بُونْتا تشوِكا، أمام جزيرة تيبورن. بعدها ذهبنا إلى إلْ دولار، أمام جزيرة بّاتوس. يسميها ليما جزيرة البطة دونالد. بقينا ساعات مستلقين على شاطئٍ مُقفرٍ نُدَخّن ماريجوانا. بُونْتا تشوِكا- تيبورن، دولار-باتوس، طبعاً هي مجرّد أسماء، لكّنها تملأ روحي بالنذرِ المشؤومة، كما قد يقول زميلٌ لأمادو نِربو. لكن ما هذا الذي ينجحُ في هذه الأسماء في جَعْلي أضطرب، أحزنُ، أصيرُ جبريّاً، وأنظرُ إلى لوبِّ كما لو أنّها آخرُ امرأة على وجه الأرض؟ تابعنا قبل حلول الليل صاعدين باتجاه الشمال. هناك تقعُ دِسِمبوكِ. روحي مُطْلَقَةُ السواد. وأظنُّ أنّني كنتُ أرتجف أيضاً. عدنا بعدها إلى خليج

كينو عبرَ طريقٍ مظلم كنّا نمرُّ خلالها بين فتة وأخرى بسياراتٍ مليئة بالصيادين يُغنون أغاني سِريّة[1].

١٦ كانون الثاني

اشترى بِلانو سكيناً.

١٧ كانون الثاني

مرّة أخرى نحن في أغوَا بريبتا. خرجنا في الثامنة صباحاً من خليج كينو. الطريق الذي سلكناه كان من خليج كينو إلى بُوْنْتا تشوكا، من بُوْنْتا تشوِكا إلى إلْ الدولار، من إل دولار إلى دِسِمبوكِ، من دِسِمبوكِ إلى لاس إستريّاس ومن لاس إستريّاس إلى ترينتشِراس. مئتان وخمسون كيلومتراً تقريباً عبرَ طرقٍ في غاية السوء. لو أنّنا أخذنا طريق خليج كينو-إل تريونفو-هِرموسيّو ومن هِرموسيّو أخذنا الطريق الفيدرالي حتى سان إغناثيو ومن هناك أخذنا الطريق المؤدّي إلى كانانيا وأغوَا بريبتا لكنّنا دون شكّ قمنا برحلة أكثرَ راحة ولوصلنا في وقتٍ أبكر. قرّرنا جميعاً أنّ من الأفضل لنا أن نسلكَ طرقاً غير مطروقة كثيراً أو غير مطروقة أبداً، ثمّ إنّ المرورَ مرّة أخرى بمزرعة بونا بيدا (الحياة الطيّبة) كان يُغرينا. لكنّنا ضعنا في المثلّث الذي يُشكّله إل كواترو، ترينتشِراس ولا ثييناغا وقرّرنا أخيراً أن نتابعَ إلى الأمام باتجاه ترينتشِراس ونؤجّل زيارتنا لمصارع الثيران العجوز.

حين صففنا الإيمبالا عند بوابات مقبرة أغوَا بريبتا كان الليل قد بدأ يحل. قرع بِلانو وليما جرس الحارس. أطلَّ بعد برهةٍ رجلٌ محروق بالشمس يبدو زنجيّاً. يضع نظارة وفي الجانب الأيسر من

---

(١) نسبة إلى قبيلة Seri التي تعيشُ في ولاية سونورا في المكسيك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وجهه ندبة كبيرة. سألَنا ماذا نُريد. قال بِلانو إنّنا نبحثُ عن حفّار القبور أندرِسْ غونثالِث أهومادو. نظر إلينا الرجل وسألنا من نحن ولماذا نريده، قال بِلانو من أجل قبرِ مصارعِ الثيران بّبّ أبِيّانِدا. نريدُ أن نراه، قلنا. أنا أندرِس غونثالِث أهومادو، قال حفّار القبور، وهذه ليست ساعة لزيارة مقبرة. حُلَّها، كنْ متفهّماً، قالت لوبِّ. ولماذا هذا الفضول، إذا كان من الممكن أن أعرف؟ قال حفّارُ القبور. اقترب بِلانو من السياج وتكلّم مع الرجل بصوت خفيض بضع دقائق. هزَّ حفّارُ القبور رأسه بالموافقة عدّة مرّات ودخل بعدها إلى المحرس وعادَ بمفتاحٍ هائلٍ فتح لنا به الباب. تبغناه في الشارع الرئيسي للمقبرة، وهو ممر محاط بأشجار السرو والبلوط القديمة، بينما رأيتُ حين دخلنا في الشوارعِ الجانبية بعضَ شجيراتِ صبّارِ المنطقة، تشويا صبار الرجل العجوز، والسجوار أيضاً وبعض التين الشوكي كما لو كي لا ينسى الموتى أنّهم في سونورا وليس في مكان آخر.

هذا هو قبر بّبّ أبِيّانِدا، مصارعِ الثيران، قال لنا مشيراً إلى كوّةٍ في زاويةٍ مهجورة. اقتربَ بِلانو وليما وحاولا أن يقرأا النقشَ، لكنَّ الكوةَ كانت في الطابقِ الرابع والليلُ راح يهبطُ على شوارع المقبرة. ما من قبرٍ عليه أزهار، باستثناء واحدٍ عُلِّقَت عليه أربعُ زهرات بلاستيكية ومعظم النقوش علاها الغبار. جمع بِلانو يدَيْهِ على شكل سرجٍ أو رِكاب وصعد عليهما ليما حتى لصق وجهَهُ بالزجاج الذي كان يحمي صورة أبِيّانِدا. ما قام به بعدها هو أنّه نظّفَ بيده الشاهدةَ وقرأ بصوتٍ عالٍ النقشَ: «خوسِهْ أبِيّانِدا تيناخِرو، ماتادور، نوغالِس ١٩٠٣-أغوا بريبتا ١٩٣٠». هل هذا هو كلّ شيء؟ سمعتُ بِلانو يقول. هذا هو كلّ شيء، أجابه صوتُ ليما، الأجش أكثرَ من أيّ وقت مضى. ثم ارتمى بقفزة واحدةٍ وعمل ما عمله بِلانو قبله. شكّل من يَدَيْهِ مرقاةً تسلق عليها بِلانو. أعطني قدّاحة، يا لوبِّ، سمعته

يقول. اقتربت لوبِّ من تلك الصورة المحزنة التي كان يُشكّلها صديقاي وناولته علبةَ كبريتٍ دون أن تقول شيئاً. وقدّاحتي؟ سأل بِلانو، ليست معي، يا أخي، قالت لوبِّ بصوتٍ شديد العذوبة لم أعتده بعدُ. أشعل بِلانو عودَ ثقابٍ وقرّبه من الكوّة، وحين انطفأ أشعل آخر ثمّ آخر. كانت لوبِّ مستندة إلى الجدار المقابل وقد صالبت رجليها. كانت تنظرُ إلى الأرض وتبدّو مُتَفَكّرة. ليما أيضاً كان ينظر إلى الأرض، لكنّ وجهَهُ كان يُعَبّرُ فقط عن جهدِهِ في تحمُّلِ ثقلِ بِلانو. تراجع بِلانو عن إصراره ونزل بعد أن أشعل قرابة السبعة أعواد وحرق مرّتين رؤوسَ أنامله. عدنا دون أن نتكلّم حتى وصلنا إلى مخرجِ مقبرةِ أغوَا بريبيتا. هناك بجانب السياج أعطى بِلانو حفّارَ القبور بضعَ أوراق نقدية وغادرنا.

١٨ كانون الثاني

في سانتا تِرِسا حين دخلنا مقهى فيه مرآة كبيرة خلف طاولةِ العرض، استطعتُ أن أُقَدّرَ كم تغيَّرنا. بِلانو لم يحلق ذقنه منذ عدّة أيام. ليما أمرد لكنّني أستطيع أن أقول إنّه لم يمشط شعره منذ التاريخ الذي لم يحلق فيه بِلانو ذقنه. أنا هيكلٌ عظميّ محض (في كلّ ليلة أجامع ثلاثَ مرّات وسطيّاً) وحدها لوبِّ في وضع جيّد، أعني: أفضل مما كانت حين غادرنا العاصمة الفيدرالية.

١٩ كانون الثاني

هل كانت ثِساريا تيناخِرو ابنة عمّ مصارع الثيران الميت؟ هل كانت قريبة بعيدة؟ هل جعلتْهُم ينقشون على الشاهدة كنيتَها، ومنحت كنيتها لأبيّانِدا، كطريقة للقول بأنّ ذلك الرجل كان لها؟ هل كان ضمّ كنيتها إلى كنيةِ مصارع الثيران مزحةً؟ هل هي طريقة لتقول من هنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مرّت *ثِساريا تيناخِرو*؟ لا يهمّ كثيراً. عدنا اليومَ وهتفنا إلى العاصمة الفيدرالية. كلّ شيءٍ في بيت كيم هادئ. تكلّم بِلانو مع كيم، ليما تكلّم مع كيم وحين أردتُ أن أتكّلم أنا انقطع الخطُّ على الرغم من أنّه كان هناك فائض من النقود في الحصالة. تولّد لدي انطباعٌ بأنّ كيم لم يكن يريد أن يتكلّم معي فأغلق الهاتف. بعدها هتف بِلانو إلى أبيه وليما إلى أمّه، ثمّ هتف بِلانو بعدها إلى لاورا خاورِغي. كانت المكالمتان الأوليتان طويلتين نسبيّاً ورسميّتين والأخيرة قصيرة جدّاً. وحدنا أنا ولوبِّ لم نهتف إلى أحد في العاصمة الفيدرالية، كما لو أنّه لم يكن لدينا رغبة أو لم يكن لدينا من نتكلّم معه.

٢٠ كانون الثاني

بينما كنّا نتناول فطورنا هذا الصباح في مقهى في نوغالِس رأينا ألبِرتو وراءَ مقودِ سيارته الكامارو. كان يرتدي قميصاً من لون السيارة، أصفرَ برّاقاً، وإلى جانبه شخص يرتدي سترةً جلدية له شكل الشرطيّ. عرفته لوبِّ على الفور: شحب لونها وقالت هو ذا ألبِرتو هناك. لم تترك الخوف يظهر عليها، لكنّني عرفت أنّها كانت خائفة. نظرَ ليما إلى الجهة التي كانت عينا لوبِّ تدلان عليها وقال بالفعل إنّ ألبِرتو هناك مع أحدِ أصدقاء روحه. رأى بِلانو السيارة تمرّ أمام نوافذِ المقهى وقال إنّنا مهلوسون. أنا رأيت ألبِرتو بكلّ وضوح. لنذهب من هنا فوراً، قلتُ. نظر إلينا بِلانو وقال لا تحلموا. أولاً سنذهب إلى مكتبة نوغالِس وبعدها سنعود كما كنّا قد خطّطنا إلى هِرموسيّو لنتابع بحثنا. كان ليما موافقاً. أحبُّ عنادك، يا ولد، قال. وهكذا انتهينا من تناول فطورنا (لا أنا ولا لوبِّ استطعنا أن نأكل أكثر) وخرجنا بعدها من المقهى ركبنا في الإيمبالا وتركنا بِلانو في باب المكتبة. لنكُن شجعاناً، ويحكم، لا تتوهّموا أشباحاً، قال قبل أن يختفي.

تأمّلَ ليما بابَ المكتبة برهةً طويلة، كما لو أنّه يُفكّر بالجوابِ الذي كان سيرّد به على بِلانو، ثمّ انطلق بالسيارة. صففنا السيارة في شارعٍ مقفرٍ، في حيٍّ من أحياء الطبقة الوسطى، لا بارات ولا محلات تجارية ظاهرة، باستثناء حانوت فواكه، وراحت لوبٍّ تحكي لنا مشاهد من طفولتها ورحتُ أنا بعدها أحكي أيضاً قصصاً من طفولتي، كي نقتل الوقت، لا أكثر، ومع أنّ عوليس لم ينبسْ ببنت شفة في أيّ لحظة وراح يقرأ في كتاب، دون أن يغادر مقعده وراء المقود، كان يُلاحَظ أنّه يصغي، لأنّه كان يرفع بصره من حين لآخر، ينظرُ إلينا ويبتسم. ذهبنا بعد الثانية عشرة لنبحث عن بِلانو. صفّ ليما السيارة في ساحةٍ قريبةٍ وطلب منّي أن أذهب إلى المكتبة ليبقى هو مع لوبٍّ والسيارة، تحسّباً لظهورِ ألبِرتو ولكي يخرجَ هارباً مثل الطير. قطعتُ الشوارعَ الأربعةَ التي كانت تفصلنا عن المكتبة بسرعة دون أن أنظر إلى جانبيَّ. وجدتُ بِلانو جالساً إلى طاولةٍ خشبيّةٍ كبيرةٍ، داكنةٍ بفعل الزمن وأمامه عدد من مجلدات صحيفة نوغالِس المحليّة. حين وصلتُ رفع رأسه، كان المُستَخْدِمَ الوحيدَ للمكتبة وأشار إليّ بحركة من رأسه أن أقتربَ وأجلسَ بجانبه.

٢١ كانون الثاني

من خبر الوفاةِ التي أوردته صحيفةُ نوغالِس يوم ذاك عن بِّبين أبِيّانِدا لم يبقَ عندي غير صورة ثِساريا تيناخِرو وهي تسير في طريقٍ من الصحراءِ كئيب، آخذةً بيدِ مصارع ثيرانها القصير، مصارع ثيران قصير، كان يُصارع كيلا يستمر طولُهُ بالتناقص، يُصارع كي يكبر، وبالفعل راح يكبر شيئاً فشيئاً حتى أدرك المئة وستين سنتيمتراً، لنفترض ذلك، ويختفي بعدها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢٢ كانون الثاني

في إلْ كُوبو. كي نذهب من نوغالِس إلى إل كُوبو يجب أن نهبط عبرَ الطريق الفيدرالي حتى سانتا آنا ومن هناك نحو الغرب ومن سانتا آنا إلى بوبلو نوبو، ومن بوبلو نوبو إلى ألتار ومن ألتار إلى كابوركا، ومن كابوركا إلى سان إيسيدرو، من سان إيسيدرو يجب أن تابعَ عبر الطريق الذي يذهب إلى سنويتا، على الحدود مع أريزونا، لكن علينا أن ننعطف قبلها ونأخذَ طريقاً ترابيّاً ونقطعَ خمسة وعشرين أو ثلاثين كيلومتراً. كانت صحيفة نوغالِس تتحدّثُ عن «صديقته المخلصة، والمعلّمة المتفانية في إل كُوبو» نذهب في القرية إلى المدرسة وتكفينا نظرةٌ واحدة كي ننتبه إلى أنّ البناء لاحق على العام ١٩٤٠. هنا لا يمكن أن تكون ثِساريا تيناخِرو قد عَلَّمَت، ومع ذلك إذا ما فتشنا تحت المدرسة قد نعثر على المدرسة القديمة.

تكلّمنا مع المعلّمة. كانت تُعَلّمُ الأطفالَ الإسبانيةَ والباباغوية. كان البابغويون يعيشون بين أريزونا وسونورا. سألنا المعلّمةَ عمّا إذا كانت باباغوية. لا، لم تكن. أنا غوايمية، تقول لنا، وكان جدّي هندياً من المايا. سألناها لماذا تُعَلِّمُ الباباغوية. كيلا تضيعَ هذه اللغة، تقولُ لنا. في المكسيك هناك فقط قرابة المئتي بابغوي. بالفعل هم قليلون جدّاً، اعترفنا. في أريزونا هناك قرابة الستة عشر ألفاً، لكن في المكسيك هناك فقط مئتان. وفي إل كوبو كم بقي منهم؟ قرابة العشرين، تقول المعلّمة، لكن لا همّ، سوف أستمرّ. . تشرح لنا بعدها قائلة إنّ الباباغويين لا يسمون أنفسهم بهذا الاسم بل بالأوتهاميين والبيمويين يسمون أنفسهم بالأووبيين والسِريين بِالكونكاكيين. نقول لها إنّنا كنّا في باهيا (خليج) كينو، في بوْنْتا تشوِكا وإل دولار وسمعنا الصيادين يغنون أغانٍ سِرية. الكونكاكيون، تقول، لا يكادون يبلغون السبعمئة نسمة، هذا إذا بلغوا، ولا يشتغلون

بالصيد. هؤلاء الصيادون، قلنا، تعلّموا أغنية سِريّة. يمكن ذلك، قالت المعلّمة، لكن الاحتمال الأكبر هو أنّهم خدعوكم. دعتنا بعد ذلك إلى الغداء في بيتها. تعيش لوحدها. سألناها عمّا إذا كانت لا تحبّ أن تذهب لتعيش في هِرموسيّو أو العاصمة الفيدرالية. تقول لنا لا. تحب هذا المكان. نذهب بعدها لنرى عجوزاً هندية باباغوية تعيش على بعد كيلومتر من إل كُوبو. بيت العجوز من الطوب، مكوّن من ثلاث غرف، اثنتان فارغتان، وتعيش في الثالثة مع حيواناتها. ومع ذلك فالرائحة لا يكاد يُحَسُّ بها، تكنسها ريح الصحراء التي تدخل من النوافذ التي بلا زجاج.

توضّحُ المعلّمةُ للعجوزِ بلغتِها أنّنا نُريد أن نعرف أخباراً عن ثِساريا تيناخِرو. تُصغي العجوز للمعلّمة وتنظر إلينا وتقول هْوِي. يتبادل بِلانو وليما النظرات لثانيةٍ وأنا أعرفُ أنّهما يُفكّران فيما إذا كانت هوي العجوز تعني شيئاً بالباباغوية أم أنّها للاستغراب الذي نفكّر به جميعاً. امرأة طيبة، تقول العجوز. عاشت مع رجلٍ طيّب. كلاهما كان طيّباً. تنظر المعلّمةُ إلينا وتبتسم. كيف كان الرجل؟ يسألُ بِلانو مشيراً بالحركاتِ إلى أطوالٍ مختلفة، متوسّط القامة، تقول العجوزُ، نحيلاً، متوسّط القامة، فاتحَ لون العينين. فاتح لون العينين هكذا؟ يسأل بِلانو آخذاً من على الجدار غصن لوزٍ. فاتحتان هكذا. تقول العجوز، متوسّط القامة هكذا؟ يسأل بِلانو مشيراً بسبّابته إلى قامة أقرب إلى القصر. بلى، متوسّط القامة، هكذا، تقولُ العجوز. وثِساريا تيناخِرو؟ يسأل بِلانو. وحدها، تقولُ العجوزُ، ذهبت مع رجلها وعادت وحدَها. كم من الزمن بقيت هنا؟ الفصل المدرسي، معلّمة جيّدة، تقولُ العجوز. سنة؟ يسأل بِلانو. تنظرُ العجوزُ إلى بِلانو وإلى ليما كما لو أنّها لا تراهما. تنظرُ إلى لوبِّ باستظرافٍ. تقولُ لها شيئاً بالباباغوية. تُتَرجِمُ المُعلّمَة: من منهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رجُلُك؟ تبتسمُ لوبّ، لا أراها فهي خلفي، لكنّني أعرفُ أنّها تبتسم وتقولُ: ما من أحدٍ منهم. هي أيضاً لم يكن عندها رجل، تقول العجوز. ذهبت يوماً مُرَافَقة وعادت في آخر وحدَها. هل ما زالت معلّمة؟ يسألُ بِلانو. تقول العجوز شيئاً بالباباغوية. كانت تعيش في المدرسة، تُترجمُ المعلّمةُ، لكنّها لم تعدْ تُعلّم. الأشياء الآن أفضل، تقولُ العجوز. لا تُصَدِّقي، تقولُ المعلمّة. وماذا جرى بعد ذلك؟ العجوز تتكلّم بالباباغوية، تحيكُ كلماتٍ وحدَها المعلّمة تفهمُها، لكنّها تنظر إلينا وفي النهاية تَبتسم. عاشت زمناً في المدرسة وغادرت بعدها، تقولُ المعلّمة. يبدو أنّها ضمرت كثيراً، صارت هيكلاً عظيماً، لكنّني لستُ متأكّدة، هي تخلط بين بعض الأشياء، تقولُ المعلّمة. من ناحية أخرى إذا أخذنا بالاعتبار أنّها لم تكن تعمل، لم يكن لها راتب، يبدو لي طبيعياً أن تَضْمُرَ، تقولُ المُعلمّة. يبدو أنّه لم يكن يفيض عنها المالُ كي تأكل. كانت تأكلُ، قالت العجوز فجأةً فقفزنا جميعاً. كنتُ أُعطيها طعاماً، أمّي كانت تُعطيها طعاماً، كانت هي هيكلاً عظميّاً خالصاً. العينان غائرتان. كانت تبدو كوراليّو[1]. كوراليّو؟ يتساءل بِلانو. ميكروروِيدِس إوريكسانتوس، تقول المُعلّمة، أفعى سامّة. يُلاحظ أنهما كانتا صديقتين جدّاً، يقولُ بِلانو. ومتى غادرت؟ بعد زمن، تقول العجوز دون أن تُحَدّد مدّةَ الزمن. بالنسبة للباباغويين، تقول المعلّمة، الزمن إلى هذه الحدّ أو ذاك يعني الأبدية. وكيف كانت حين غادرت، يسأل بِلانو. نحيلة مثل كوراليّو، قالت العجوز.

بعدها، رافقتنا العجوزُ، قبل أن يحلَّ الليل، إلى إلْ كُوبو لتُرينا

---

(١) Coralillo أفعى يتناوب فيها الأسود والأصفر والأحمر تكثر في ولاية سونورا.

البيتَ الذي عاشت فيه ثِساريا تيناخِرو. كان قريباً من بعض الزرائب، التي تتهاوى من قِدَمها، خشب رُتُج الأبوابِ متعفنة، إلى جانب كوخ من المحتمل أنّهم كانوا يخبئون فيه أدوات الزراعة وإن كان الآن فارغاً. كان البيت صغيراً، فيه فناء جانبيّ مشقّق الأرض من الجفاف وحين وصلنا رأينا نوراً عبر النافذةِ الأمامية والوحيدة. هل ننادي؟ سأل بِلانو. ليس لهذا أيُّ معنى، قال ليما. وهكذا عدنا ماشين من جديد بين الكثبان إلى بيت العجوز الباباغوية وشكرناها على كلّ الذي فعلته لأجلنا، بعدها تمنينا لها ليلة سعيدة وعدنا وحدنا إلى إل كوبو وإن لم يبقَ في الحقيقة غيرها.

نمنا تلك الليلة في بيت المُعَلّمة. بعد أن تناولنا العشاء راح ليما يقرأ وليمام بلاك، وذهب بِلانو والمعلمّة ليقوما بجولةٍ في الصحراء، وحين عادا دخلا إلى غرفتها، وخرجنا أنا ولوبِّ بعد أن غسلنا الأطباقَ لنُدَخّن سيجارة، نتأمّل النجومَ ومارسنا الحبّ داخلَ سيارة الإيمبالا. حين عدنا لندخل إلى البيت وجدنا ليما نائماً على الأرض والكتاب بين يديه، وهمساً حميماً يأتي من غرفة المُعلمة يدلّ على أنّها لا هي ولا بِلانو سيظهران فيما تبقى من الليل. هكذا غطّينا ليما ببطانية، جهزنا فراشنا على الأرض وأطفأنا النور. في الثامنة صباحاً دخلت المُعلّمةُ إلى غرفتها وأيقظت بِلانو. كان المرحاضُ في الفناء الخلفي، حين عدت كانت النوافذُ مفتوحة وعلى الطاولة قدرُ قهوةٍ فخّاري.

ودّعناها في الشارع. لم تقبل المعلّمة أن نأخذها في السيارة إلى المدرسة. حين عدنا إلى هِرموسيّو انتابني إحساس ليس بأنّني جبتُ تلكَ الأرض اللعينة وحسب، بل بأنّني ولدت فيها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢٣ كانون الثاني

زرنا معهد سونورا الثقافي، ومعهد السكان الأصليين القومي، الإدارة العامّة للثقافات الشعبية (وحدة سونورا الإقليمية) والمجلس الوطني للتربية، أرشيف أمانة التربية (منطقة سونورا)، معهد الإناسة والتاريخ الوطني (مركز سونورا الإقليمي)، عصبة أنصار مصارعةِ الثيران بيلو يانييثْ للمرة الثانية. فقط في هذين الأخيرين أُحسِنَ استقبالُنا. آثار ثِساريا تيناخِرو تظهر وتختفي. سماء هِرموسيّو بحمرة الدم. طلبوا من بِلانو الأوراقَ، أوراقَهُ الثبوتية، حين طلب الكتبَ القديمة للمعلمين الريفيين التي يجب أن يكون مكتوباً فيها المصير الذي كان من نصيب ثِساريا تيناخِرو بعد أن غادرت إل كوبو. كانت أوراق بِلانو الثبوتية منتهية الفعالية. قالت له سكرتيرة في الجامعة، أقل ما يمكن أن يفعلوه هو أن يُبعدوه عن البلد. إلى أين؟ صرخ بِلانو. إلى بلدك، أيّها الشاب، قالت السكرتيرة. هل أنتِ أمّية؟ ألم تقرئي هنا أنّني تشيلي؟ أُفَضِّلُ أن أُطلِقَ رصاصةً في فمي! استدعوا الشرطة فخرجنا راكضين. لم يكن عندي فكرة عن أنّ وجودَ بِلانو في البلد غير شرعيّ.

٢٤ كانون الثاني

بِلانو في كلّ يوم أكثر عصبيّة وليما أكثر انطوائيّة. اليومَ رأينا ألبِرتو وصديقَهُ الشرطيّ. لم يرَهُ بِلانو أو لم يبغِ أن يراه. ليما، بلى، رآه، لكنّ الأمر سيّان عنده. فقط يُقلقنا أنا ولوبِّ (وكثيراً) لقاء مريع مع قوّادها القديم. لا شيء خطير، قال بِلانو كي ينهي النقاش، أولاً وأخيراً نحن ضعفهما عدداً. رحتُ أنا أضحك من توتر أعصابي. لستُ جباناً، لكنّني أيضاً لستُ انتحاريّاً. هما مسلحان، قالت لوبِّ. وأنا أيضاً، قال بِلانو. في المساء أرسلوني إلى أرشيفاتِ التربية.

قلتُ إنّني أكتبُ مقالاً لمجلةٍ في العاصمة الفيدرالية عن التعليم الريفي في سونورا في عقدِ الثلاثينات. ما أصغرك من كاتب تحقيقات، قالت السكرتيرات اللواتي كنّ يطلين أظافرهنّ. وجدت الأثرَ التالي: كانت ثِساريا تيناخِرو معلمة ما بين ١٩٣٠ و١٩٣٦. تعيينها الأوّل كان في إل كوبو، ثمّ في هِرموسيّو، في بيتيكيتو، في باباكو وفي سانتا تِرِسا. ما عادت بعدها تنتمي إلى هيئة معلّمي ولاية سونورا.

٢٥ كانون الثاني

بحسب لوبِّ، صار ألبِرتو يعرفُ أين نحن، في أيّ نزلٍ نعيشُ في أيّ سيارةٍ نُسافر وهو فقط ينتظر اللحظة المواتية كي ينقضّ علينا فجأة. ذهبنا إلى مدرسةِ هِرموسيّو، حيث عَلّمت ثِساريا. سألنا عن المعلّمين القدامى في الثلاثينات. أعطونا عنوان المديرِ القديم. كان بيته قريباً من مركز إصلاحية الدولة السابق. البناء حجري. فيه ثلاثة طوابق وبرج يبرز فوق بقية أبراج المراقبة ويُولِّدُ عند من يراه إحساساً بالضيق. عمل معماري بني كي يدوم، قال المدير.

٢٦ كانون الثاني

سافرنا إلى بيتيكيتو. قال بِلانو اليومَ إنّه ربّما كان من الأفضل لنا أن نعود إلى العاصمة الفيدرالية. بالنسبة إلى ليما كان سيّان عنده. يقول إنّه في البداية كان يتعبُ من كثرة القيادة، لكنّه الآن يستمتعُ بالمقود. بل إنّه حتى في نومه يحلم بقيادة إيمبالا كيم في هذه الطرقات. لوبِّ لا تتكلّم عن العودة إلى العاصمة الفيدرالية، لكنّها تقول إنّ من الأفضل لنا أن نختبئ. أنا لا أُريدُ أن أنفصل عنها. لكن أيضاً ليس عندي خطط. تابعوا إذن، قال بِلانو. يداه ترتجفان، ألاحظُ هذا حين أنحني فوق المقعد الأمامي كي أطلب منه سيجارةً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢٧ كانون الثاني

في بيتيكيتو لم نعثر على شيء. بقينا برهة والسيارة واقفة على طريق كابوركا الذي يتفرّع بعدها نحو إل كوبو، نُفكّر بما إذا كنّا سنقوم بزيارةِ المعلّمة أم لا. الكلمةُ الأخيرة لِبلانو ونحن ننتظرُ دون أن نضطرب، ننظر إلى الطريق، إلى السياراتِ القليلة التي كانت تمرّ من حينٍ لآخر، إلى الغيومِ الناصعة التي كانت تجرفُها الريحُ من المحيط الهادي. حتى قال بِلانو هيّا بنا إلى باباكو وأشعلَ ليما المحرّك دون أن يقول أيّ كلمة وانعطف نحو اليمين وابتعدنا عن هناك.

كانت الرحلةُ طويلةً وعبر أماكنَ لم نزرها أبداً، على الرغم من أنّ الإحساسَ بأنّني رأيتها استمرَّ طوال الوقت. من بيتيكيتو ذهبنا إلى سانتا آنا ودخلنا الطريقِ الفيدراليّ. عبر الطريق الفيدرالي ذهبنا إلى هِرموسيّو. في هِرموسيّو أخذنا الطريق المؤدّي إلى ماثاتان باتجاه الشرق ومن ماثاتان إلى لا إستريّا. بدءاً من هناك انتهى الطريق المعبّدُ وتابعنا عبر طريق مرصوص حتى باكانورا، ساهواريبا وباباكو. من مدرسة باباكو أعادونا إلى ساهواريبا، التي كانت المركز البلديّ حيث نستطيع افتراضاً أن نجدَ السجلات. لكن كان كما لو أنّ مدرسةَ باباكو، مدرسةَ باباكو الثلاثينات اختفت مكنوسةً بإعصار. عدنا لننام كما في الأيّام الأولى في السيارة. أصواتٌ ليليّة: صوت الشبث، العقارب، أمّ أربع وأربعين، الرُّتيلاء والعناكب السوداء والضفادع البرية، وجميعها سامّة، جميعها قاتلة. إنّ وجود ألبِرتو (أو عليَّ بالأحرى أن أقول الخطر الجاثم) هو للحظات بواقعية الأصوات الليلية. رحنا وأضواءُ السيارة مشتعلة نتكلّم في ضواحي باباكو إلى حيث عدنا، عن كلِّ شيء إلا عن ألبِرتو. تكلّمنا عن العاصمة الفيدرالية، تكلّمنا عن الشعر الفرنسي. أطفأ ليما بعد ذلك الأضواء. أيضاً باباكو كانت في ظلمة.

٢٨ كانون الثاني

وماذا لو صادفنا ألبِرتو في سانتا تِرِسا؟

٢٩ كانون الثاني

وجدنا هذا: معلّمة ما زالت على رأس عملها تحكي لنا أنّها عرفت ثِساريا. حدث هذا عامَ ١٩٣٦ وكان عمر محدّثتنا إذ ذاك عشرين عاماً. هي حصلت على الشاغر بينما كان قد مضى أشهر على عمل ثِساريا في المدرسة، لذلك من الطبيعي أن تصبحا صديقتين. لم تكن تعرف قصّةَ مُصارعِ الثيران أبِيّانِدا ولا قصّة أيّ رجل آخر. حين تركت ثِساريا العملَ تأخّرت حتى فهمت الأمر، لكنّها قبلته كواحدة من الخاصيّات التي كانت تُميّز صديقتها.

اختفتْ لزمنٍ، أشهر، ربّما عام. لكنّها رأتها ذات صباحٍ في باب المدرسة فجدّدتا الصداقة. كانت ثِساريا وقتذاك في الخامسة والثلاثين من عمرها وكانت هي تعتبرها، وإن كانت الآن نادمة، عانساً. حصلت على عمل في أوّلِ معمل للمعلبات في سانتا تِرِسا. كانت تعيش في غرفة في شارع روبن داريّو، الموجود وقت ذاك في حيّ خارج المدينة كان يعتبر بالنسبة لامرأة وحيدة خطيراً ولا يُنصَحُ به. هل كانت تعرف أنّ ثِساريا شاعرة؟ لا، لم تكن تعرف. حينما كانتا تعملان في المدرسة رأتها في مرّاتٍ كثيرة تكتب جالسةً في قاعةِ صفٍّ فارغةٍ في دفترٍ أسودَ الجلدِ سميكٍ جدّاً كانت ثِساريا تحمله معها دائماً. كانت تعتقد أنّه دفتر يومياتِ حياتها. في الفترة التي عملت فيها ثِساريا في معملِ المُعلّبات، حين كانتا تتواعدان في مركز سانتا تِرِسا كي تذهبا إلى السينما أو كي ترافقها لتقوم بمشترياتها، وحين كانت تصل متأخّرة كانت تجدها تكتبُ في دفتر أسود الجلد، مثل السابق، لكنّه أصغرُ حجماً، دفترٍ يبدو كتابَ صلوات حيث

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ينسابُ خطُّ صديقتها، ذو الحروف الصغيرة مثل آثار حشرات. لم تقرأ لها قط شيئاً. سألتها ذات مرّة ماذا تكتب فأجابتها ثِساريا عن امرأة يونانية. اسم اليونانية هيباتيا. بحثتْ بعد فترة عن الاسم في موسوعة وعرفت أنّ هيباتيا كانت فيلسوفة من الإسكندرية قتلها المسيحيون عام ٤١٥. فكّرت باندفاع أنّ من المحتمل أن الثامنة صباحاً كانت مع هيباتيا. لم تسألها أكثر أو إذا سألتها فقد نسيت.

أردنا أن نعرف ما إذا كانت ثِساريا تقرأ وما إذا كانت تتذكّر بعض العناوين. بالفعل كانت تقرأ كثيراً لكنّ المعلّمة لم تكن تتذكّر أيَّ كتابٍ من الكتب التي كانت تأخذها ثِساريا من المكتبة والكتب التي كانت توصي عليها إلى كلّ مكان. كانت تعمل في معملِ المعلّبات من الثامنة صباحاً وحتى السابعة مساءً، ولذلك لم يكن لديها وقت طويل للقراءة، لكنّها كانت تعتقد أنّها كانت تسرق من نومها ساعاتٍ لتكرّسها للقراءة. بعدها اضطُرّ معملُ المعلبات لأن يُغلق ومكثت ثِساريا فترة من دون عمل. حدث هذا في حدود ١٩٤٥. رافقتها ذات ليلة بعد أن خرجتا من السينما إلى غرفتها. وقتذاك كانت المعلّمة قد تزوّجت وصارت تلتقي ثِساريا أقلَّ من السابق. مرّة واحدة فقط كانت في تلك الغرفة من شارع روبِن داريّو. زوجها على الرغم من أنّه كان قديساً، لم يكن ينظرُ بعين الرضا لصداقتها مع ثِساريا. كان شارع روبن داريّو في تلك المرحلة مثل بالوعة حيث كانت تذهب لتصبَّ كلّ نفايات سانتا تِرِسا. كان هناك خمّارتان، تحدثُ فيهما مشاجرة واحدة يجري فيها الدم مرّةً على الأقل في الأسبوع. كانت الغرف المجاورة مشغولة من قبل عمّال بلا عمل، أو فلاحين هاجروا توّاً إلى المدينة. غالبية الأطفال من دون مدارس. كانت المعلّمة تعرف هذا لأنّ ثِساريا حملت بنفسها عدداً منهم إلى مدرستها وسجّلتهم. كما كان يعيش هناك بعضُ العاهراتِ

والقوّادين. لم يكن شارعاً منصوحاً به لامرأة محتشمة (ربّما كان عيشها في ذلك المكان هو الذي جعل زوج المعلّمة يقف ضدّ ثِساريا)، وإذا كانت هذه لم تنتبه فلأنّ المرّة الأولى التي ذهبت فيها إلى هناك كانت قبل زواجها، حين كانت، بحسب كلماتها ذاتها، بريئة وشاردة الذهن.

لكن هذه الزيارة الثانية كانت مختلفة. الفقرُ والإهمال في شارع روبن داريّو انهارَ فوق رأسها كتهديد بالموت. كانت الغرفة التي تعيشُ فيها ثِساريا نظيفة ومرتّبة، تماماً كما يُنتَظَر من مُعلّمة سابقة، لكنّ شيئاً كان ينبعث منها ويُثقِل على قلبها. كانت الغرفةُ البرهانَ الشرس على المسافة الفاصلة بينها وبين صديقتها والتي لا يمكن تجاوزها. ليس لأنّ الغرفة كانت غير مُرَتّبة أو تفوح منها رائحة سيئة (كما سأل بِلانو) أو لأنّ فقرها تجاوز حدود الفقرِ المحتشم أو لأنّ الأوساخَ في شارع روبن داريّو لها متلازماتها في كلّ زاوية من زوايا غرفة ثِساريا، بل لشيءٍ أكثرَ خِفّة، كما لو أنّ الواقع في داخل تلك الغرفة الضائعة، كان ملتوياً أو حتى أسوأ من ذلك، كما لو أنّ أحداً، ثِساريا، وإلا من سيكون؟ جانبَ الواقعَ بشكل غير محسوسٍ مع مرور الأيّام البطيء. بل وهناك احتمال أسوأ: أن تكون ثِساريا لوت الواقع عن وعي.

ما الذي رأته المعلّمة؟ رأت سريراً حديدياً، طاولةً مليئةً بالأوراقِ حيث كان يتكدّسُ في عرمتين أكثرُ من عشرين دفتراً أسودَ الجلد، رأت ملابسَ ثِساريا القليلة معلّقة إلى حبلٍ يمتد من جانب إلى آخر من الغرفة، سجادة هندية، منضدة وفوقَ المنضدة، موقد بارافين صغير، ثلاثة كتب مستعارة من المكتبة لا تتذكّر عناوينها، زوجين من الأحذية بلا كعب، جواربَ سوداء تخرج من تحت السرير، حقيبةً جلدية، قبعةَ قشّ مصبوغة بالأسود معلقة إلى مشجبٍ صغيرٍ مثبّتٍ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خلف الباب، وأطعمة: رأت قطعةَ خبز، دورقَ قهوة ودورقَ سكّر، رأت لوح شوكولاتة أُكلَ نصفُهُ، قدّمته لها ثِساريا ورفضته، ورأت السلاح: سكين كبسٍ مقبضها من الجلدِ وكلمة كابوركا محفورة على شفرتها. وعندما سألت ثِساريا ما حاجتها للسكين، أجابتها هذه بأنّها مُهدَّدة بالقتل ثمَّ ضحكت ضحكة اخترقت جدران الغرفة وأدراجَ البيت حتى وصلت إلى الشارع، حيث ماتت. شعرت المُعلّمةُ في تلك اللحظة أن صمتاً مفاجئاً حيك بإتقان، سادَ شارعَ روبن داريّو، انخفّض حجمُ صوتِ المذياعات، انطفأ تهامسُ الناسِ وبقي صوت ثِساريا وحده. وعندها رأت المعلّمةُ أو بدا لها أنّها رأت مخطّطاً لمعملِ المعلباتِ ملصوقاً على الجدار. وبينما هي تُصغي إلى الكلماتِ التي كان على ثِساريا أن تقولها، الكلمات التي لم تكن تتردّد لكنّها أيضاً لم تكن تتعثّر، الكلمات التي تُفضّل المعلّمةُ أن تنساها، لكنّها تتذكّرها تماماً، بل وتفهما، الآن تفهمها، جابت عيناها مخطّط المعمل، المخطّط الذي رسمتهُ ثِساريا، بدقّة كبيرة في التفصيلِ في بعض المناطق وفي أخرى بطريقة ضبابية أو مُبهمة، مع ملاحظاتٍ على الهامش، مع أنّ الخطّ لم يكن أحياناً مقروءاً وكان في أخرى بحرف كبير، بل وبين علامات تعجّب، كما لو أنّ ثِساريا بخريطتها التي رسمتها بيدها كانت تتعرّف في عملها ذاته على مراحل كانت حتى تلك اللحظة تجهلها. وعندئذٍ اضطرّت المعلّمة لأن تجلس، وإن لم تكن ترغب، على حافّة السرير واضطرت لأن تُغمض عينيها وتصغي إلى كلماتِ ثِساريا. بل وملكت الشجاعة لأن تسألها، ما السبب الذي جعلها ترسمُ مخطّطَ المعمل. وقالت ثِساريا شيئاً عن الأزمنة التي تقترب، ومع أنّ المعلّمة افترضت أنّه إذا كانت ثِساريا تسلّت بتصميم ذلك المخطّط الذي لا معنى له فإن ذلك لم يكن لسببٍ آخر غير الوحشة التي كانت تعيشها. لكنّ ثِساريا تكلّمت عن

الأزمنة التي ستأتي والمعلّمة سألتها كي تغيّر الموضوع، ما تلك الأزمنة ومتى ستأتي. وحدّدت ثِساريا تاريخاً: هناك في العام ٢٦٠٠. في العام ألفين وستمائة ونيّف. وبعدها وأمام الضحكة الصغيرة المخنوقة التي لم تكد تُسمع وتسبّبَ لها بها تاريخٌ مُرَحَّل إلى هذا الحدّ، عادت ثِساريا لتضحك، على الرغم من أنّ دويّ ضحكتها هذه المرّة بقي في حدود غرفتها نفسها.

اعتباراً من تلك اللحظة، تَتَذَكّرُ المعلِّمةُ، راح ينخفض التوترُ الذي كان يطفو في غرفة ثِساريا حتى تلاشى كلّياً. ذهبت بعدها ولم ترَ ثِساريا إلا بعد خمسة عشر يوماً. في تلك الفرصة قالت لها ثِساريا إنّها ستُغادر سانتا تِرِسا. جاءت معها بهديةِ وداعٍ، دفترٍ أسود الجلد، ربّما أقل دفاترها سماكة. هل ما زلتِ تحتفظّين به؟ سأل بِلانو. زوجُها قرأهُ ورماهُ في القمامة، أو ببساطة ضاع. البيت الذي تعيش فيه الآن لم يكن بيتَ ذلك الوقت ذاته، وعادة ما تُفْقَدُ أشياءٌ صغيرة أثناء النقل. لكن هل قرأتِ الدفتر؟ بلى قرأته، يتكوّنُ أساساً من ملاحظاتٍ، بعضها حصيف جدّاً وبعضها الآخر ليس في مكانهِ إطلاقاً، تتعلّقُ بنظام التعلم المكسيكي. كانت ثِساريا تكرهُ باسكونثِلوس، وإن كانت هذه الكراهية تبدو أحياناً حُبّاً. كان هناك خطّة شاملة لمحو الأمية، لم تفهمها المعلّمةُ تقريباً، فالمسودة كانت فوضويةً، ولوائح متعاقبة لقراءات الأطفال واليافعين والشباب تتناقض فيما بينها حين لا تتنافر. مثلاً: في لائحة القراءة الأولى كانت توجدُ حكايات لافونتين وإيسوب. في الثانية يختفي لافونتين. في اللائحة الثالثة يظهر كتاب شعبي حول الجريمةِ المنظمة في الولايات المتحدة، القراءة الموجّهة ربما، فقط ربّما، للمُراهقين، لكنّها ليست ولا بحال من الأحوال للأطفال، وتختفي بدورها من اللائحة الرابعة لصالح استعادة وتجميع حكايات قروسطية. في كلِّ اللوائح يُحَافَظ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على جزيرة *الكنز* لستيفنسون و*العصر الذهبي* لمارتي، الكتابين اللذين يبدوان أكثر مُلاءَمة للمراهقين، بحسب المعلّمة.

مرّ زمن طويل بعد ذلك اللقاء دون أن تعلم عنها شيئاً. كم من الزمن؟ سأل بِلانو. سنوات، قالت المعلّمة. إلى أن عادت ورأتها ذات يوم. كان ذلك في أعياد سانتا تِرِسا حين كانت المدينةُ تمتلئ بالعارضين القادمين من كلّ أركان الولاية.

كانت ثِساريا وراء بسطة للأعشاب الطبية. مرّت المعلّمة بجانبها، لكن وبما أنّها كانت برفقة زوجها وزوجين صديقين فقد خجلت من أن تُسَلّم عليها. أو ربّما لم يكن خجلاً بل استحياءً. بل ويمكن ألا يكون خجلاً ولا استحياءً: بل ببساطة شَكَّت بأنَّ تلك المرأة التي كانت تبيعُ أعشاباً لم تكن صديقتها القديمة. ثِساريا بدورها لم تعرفها. كانت جالسة خلفَ طاولتها وهي لوح خشبي وُضِعَ فوق أربعةِ صناديق خشبيّة وكانت تتكلّمُ مع سيّدة حولَ البضاعة التي كانت عندها للبيع. كانت قد تغيّرت جسديّاً: هي الآن بدينة، مفرطةٌ ببدانتها، ومع أنّ المعلّمة لم ترَ شعرة واحدة شائبة تقبّحُ شعرها الأسود إلا أنّها رأت تجاعيدَ عميقةً وازرقاقاً حول عينيها، كما لو أنّ الطريقَ حتى وصلت إلى سانتا تِرِسا، حتى معرضِ سانتا تِرِسا، استطال أشهراً بل وربّما أعواماً.

عادت المعلّمة في اليوم التالي وحدَها ورأتها مرّةً أخرى. كانت ثِساريا واقفةً فبدت لها أضخم مما هي في ذاكرتها. لا بدّ أنّها تزن أكثر من مئة وخمسين كيلوغراماً وكانت ترتدي تنورةً رماديّة حتى رسغيها تُبرز بدانتها. ذراعاها العاريان كانا مثل جذعين، ورقبتها اختفت خلف لَغَدٍ هائلٍ، لكنّ رأسها كان ما يزال يحتفظ بنبلِ رأسِ ثِساريا تيناخِرو: رأس كبير، بارز العظام، جمجمة مقوّسة وجبين واسع وصاف. على عكس اليوم السابق اقتربت المعلّمةُ منها هذه

المرّة وألقت عليها تحيةَ الصباح. نظرت إليها ثِساريا ولم تعرفها. هذه أنا، قالت المعلّمة، صديقتُك فلورا كاستانييدا. حين سمعت ثِساريا الاسمَ قطّبت ما بين حاجبيها ونهضت. دارت حول بسطةِ الأعشاب واقتربت منها كما لو أنّها لا تستطيع أن تراها جيّداً من المسافة التي كانت فيها. وضعت يديها (مخلبيها، بحسب المعلّمة) على كتفَيْها وبقيت بضعَ ثوان تسبر وجهها، آخ، يا ثِساريا، ما أضعفَ ذاكرتك، قالت المعلّمةُ لمجرّد القول، عندها فقط ابتسمت ثِساريا (مثل بلهاء، بحسب المعلّمة) وقالت لها طبعاً، كيف ستنساها. مكثتا بعدها تتكلّمان برهة جالستين على الجانب الآخر من الطاولة، المُعلِّمة على كرسيٍّ خشبي قابلٍ للطي وثِساريا على صندوق، كما لو أنّهما معاً تديران بسطةَ الأعشاب الصغيرة، ومع أنّ المعلّمة انتبهت إلى أنّه لا يوجد الكثير مما تتكلمان به، إلا أنّها قالت لها أنّ عندها ثلاثة أولاد وأنّها ما زالت تعملُ في المدرسة، وحكت لِثِساريا وحدثتها عن حوادِث ليس لها أيّ اعتبار حدثت في سانتا تِرِسا. وفكّرت بعدها بأن تسألها عمّا إذا كانت قد تزوّجت وصار عندها أولاد، لكنّها لم تصل إلى صياغة أي سؤال فقد انتبهت من تلقاء نفسها إلى أنّها لم تتزوّج وليس عندها أولاد، وهكذا اكتفت بأن سألتها أين كانت تعيش، وقالت لها ثِساريا إنّها تعيش أحياناً في بيّابيثيوسا وأخرى في إل باليتو. كانت المعلّمة تعرف أين تقع بيّابيثيوسا، على الرغم من أنّها لم تذهب إليها قط، لكنّ إل باليتو كانت المرّة الأولى التي تسمع باسمها. سألتها أين تقع هذه البلدة وثِساريا قالت لها في أريزونا. عندها ضحكت المُعلّمة. قالت إنّها دائماً كانت تعتقدُ أنّ ثِساريا ستنتهي بالعيشِ في الولايات المتحدة. وكان هذا هو كلّ شيء. افترَقتا. في اليوم التالي لم تذهب المعلّمةُ إلى السوق وأمضت ساعاتِ الفراغِ بالتفكير بما إذا كان من المناسب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن تدعو ثِساريا إلى الغداء في بيتها. كلّمت زوجها بذلك، تناقشا، انتصرت هي. في اليوم التالي وفي الساعات الأولى عادت إلى السوق، لكنّها حين وصلت كانت بسطةُ ثِساريا مشغولةً من قبل بائعة مناديل. لم ترها بعد ذلك أبداً.

سألها بِلانو عمّا إذا كانت تعتقد أنّ ثِساريا ميتة. ممكن، قالت المُعَلّمة.

وكان هذا كلّ شيء. بقي بِلانو وليما بعد المقابلة متفكّرين لساعاتٍ طويلة. نزلنا في فندق خوارِث. وفي المساء اجتمعنا أربعتنا في غرفة ليما وبِلانو وتكلّمنا عمّا سنفعله. أوّل شيءٍ كان بالنسبة إلى بِلانو هو أن نذهب إلى بيّابيثيوسا، بعدها نرى ما إذا كنّا سنعود إلى العاصمة الفيدرالية أم نذهب إلى إل باليتو. مشكلة إل باليتو كانت في أنّ بِلانو لا يستطيع أن يدخل إلى الولايات المتحدة. لماذا؟ سألت لوبِّ. لأنّني تشيلي، قال. أنا أيضاً لن يتركوني أدخلُ قالت لوبِّ، علماً بأنّني لست تشيليّة، وكذلك غارثيّا مادِرو. أنا، لماذا؟ قلتُ. هل من أحدٍ معه جواز سفر؟ سألت لوبِّ. لا أحد كان معه، باستثناء بِلانو. في المساء ذهبت لوبِّ إلى السينما، حين عادت إلى الفندق قالت إنّها لا تُفكّر بالعودة إلى العاصمة الفيدرالية. وماذا ستفعلين؟ سألها بِلانو. سأعيش في سونورا أو سأذهب إلى الولايات المتحدة.

٣٠ كانون الثاني

البارحة ليلاً اكتشفانا. كنّا أنا ولوبِّ في غرفتنا، نُمارس الحبَّ حين فُتِحَ البابُ ودخل عوليس ليما، البسا بسرعة، قال، ألبِرتو في الاستقبال يتحدّث مع أرتورو. فَعْلنا ما أمرَنا به دون أن ننبس بكلمة. وضعنا أشياءنا في أكياس بلاستيكية وهبطنا إلى الطابق الأوّل مُحاوِلَيْن ألا نُثير ضجة، خرجنا من الباب الخلفي. كان الشارع

المغلقُ مظلماً، هيا بنا نبحثُ عن السيارة، قال ليما. في جادة خوارِث لم يكن هناك من روح. ابتعدنا ثلاثة شوارع عن الفندق. حتى المكان الذي كانت فيه الإيمبالا. كان ليما خائفاً من أن يكون هناك أحدٌ بجانب السيارة، لكنّ المكان كان مقفراً وانطلقنا. مررنا بجانبِ فندق خوارِث. من الشارع كان يُرى قسم من الاستقبال ونافذة بار الفندق المضاءة. هناك كان بِلانو وأمامه ألبِرتو. لم نرَ الشرطيّ المرافق لألبِرتو في أيّ مكان. أيضاً بِلانو لم يرنا واعتبر ليما أنّ من غير الحكمة أن نُزَمّر. درنا حول كتلة الأبنية. من المحتمل قالت لوبِّ، أن يكون الشرطيُّ قد صعد إلى غرفتينا. نفى ليما برأسه. نور أصفر سقط على رأسَيّ بِلانو وألبِرتو. كان بِلانو يتكلّم، لكن أيضاً يمكن أن يكون الآخر يتكلّم. لا يبدو أنّهما غاضبان. حين عدنا ومررنا كان الاثنان يُدخّنان. كانا يشربان بيرة ويُدَخّنان. بدوَا صديقين. كان بِلانو يتكلّم: يُحرّك يدَهُ اليسرى كما لو أنّه يرسم قلعةً أو جانبَ امرأة. ألبِرتو لم يكن يرفع نظره عنه وكان أحياناً يبتسم. زَمِّرْ، قلتُ له. قمنا بدورة أخرى. حين عاد وظهر فندقُ خوارِث كان بِلانو ينظر من النافذة وألبِرتو يرفعُ إلى شفتيه علبةَ بيرة تي كي تي. رجل وامرأة كانا يتناقشان في بابِ الفندقِ الرئيسي. كان الشرطي، صديق ألبِرتو، يتأمّلُهما مستنداً إلى غطاء محرك سيارةٍ على بعدِ عشرة أمتار. ضغط ليما على الزمور ثلاثَ مراتٍ وقلّصَ السرعة. بِلانو كان قد رآنا قبلها. دار واقترب من ألبِرتو وقال له شيئاً، أمسكه ألبِرتو من قميصه، دفعه بِلانو وراح يجري. حين ظهر في باب الفندق توجّهَ الشرطي نحوه وحمل يداً إلى داخل سترته. ضغط ليما ثلاثَ مرّات أخرى على الزمور وأوقف سيارتنا على بعد قرابة العشرين متراً من فندق خوارِثْ. أخرج الشرطيّ مسدّسه وتابع بِلانو ركضه. فتحتْ لوبِّ بابَ السيارة. ظهر ألبِرتو على رصيف الفندق والمسدّس في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يده. كنت أتوقّع أنه يحمل معه السكين. أقلع ليما في اللحظة التي دخل فيها بِلانو في السيارة وابتعدنا بأقصى سرعة في شوارع سانتا آنا سيّئة الإضاءة. خرجنا دون أن ندري كيف باتجاه بيّابيثيوسا، وهو ما بدا لنا علامة سعد. عند الساعة الثالثة صباحاً كنّا ضائعين تماماً. خرجنا من السيارة كي نمطّ أرجلنا. ما من نور كان يُشاهَدُ في أي مكان. ما رأيتُ قط هذا الكمّ الهائل من النجوم في السماء.

نمنا داخل سيّارة الإيمبالا. استيقظنا عند الساعة الثامنة صباحاً، مرتعدين من البرد. درنا ودرنا في الصحراء دون أن نعثر على قرية ولا على مزرعة بائسة. نضيع أحياناً بين كثبان مقشورة. يمرّ الطريق أحياناً بين فجاجٍ وصخورٍ ننزل بعدها مرّة أخرى إلى الصحراء. هنا كانت القوات الإمبراطورية في عامي ١٨٦٥ و١٨٦٦. مجرَّدُ ذكرِ جيشِ ماكسيميليانو جعلنا نموتُ ضحكاً. بِلانو وليما اللذان كانا يعرفان قبل السفر إلى سونورا شيئاً عن تاريخ الولاية، يقولان إنّه كان هناك كولونيلاً بلجيكيّاً حاولَ أن يستولي على سانتا تِرِسا. بلجيكي على رأس فوجٍ بلجيكيّ. متنا من الضحك. فوج بلجيكيّ-مكسيكيّ. طبعاً ضاعوا، على الرغم من أنّ مؤرّخي سانتا تِرِسا يفضّلون أن يعتقدوا أنَّ قوى الشعب الحيّة هي التي هزمتهم. يا لها من ضحكة. أيضاً هناك مناوشة في بيّابيثيوسا مُسجلة، من المحتمل أنّها تمت بين مؤخّرة الجيش البلجيكي وسكّانِ القرية. ليما وبِلانو يعرفان هذه القصّة جيّداً. يتكلّمان عن رامبو. آه، لو استجبنا لحدسِنا، يقولان. يا لها من ضحكة.

عند السادسة مساء عثرنا على بيتٍ على جانب الطريق. قدموا لنا عجّةً بالفاصوليا، دفعنا ثمنها بسخاء، وماءً طازجاً شربناه مباشرة من قصعة. ينظر إلينا الفلاحون ونحن نأكلُ دون أن يقوموا بأيّ حركة. أين تقع بيّابيثيوسا؟ على الجانب الآخر من هذه التلال، يقولون لنا.

٣١ كانون الثاني

عثرنا على ثِساريا تيناخِرو. ألبِرتو والشرطيُّ عثرا علينا بدورهما. كلُّ شيء كان أبسطَ مما من الممكنِ أن نتصوّر، لكنّني لم أتصوّر قط شيئاً كهذا. قرية بيّابيثيوسا قرية أشباحٍ. قرية القتلة الضائعين في شمال المكسيك، الانعكاس الأصدق لِأزتلان، قال ليما. ليس كذلك. هي أقرب إلى قرية ناسٍ مُتعبين أو سئمين.

البيوت من الطوب، وإن كانت بخلافِ قرى أخرى مررنا بها في هذا الشهر المجنون، جمعيها هنا تقريباً تحتوي على فناءٍ خلفيّ وفناءٍ أماميّ، وبعض الفناءات صُبَّت إسمنتاً، وهو ما يبدو غريباً. أشجار الضيعة تموت. هناك، بحسبِ ما استطعتُ أن أرى، باران وحانوتٌ للمواد الغذائية لا غير. والباقي بيوت. التجارة تتم في الشارع، على حوافِ الساحة، أو تحتَ أقواسِ أكبر بناءٍ في القرية، بيت رئيس البلدية، الذي لا يبدو أنّ أحداً يعيشُ فيه.

لم يكن الوصول إلى ثِساريا صعباً. سألنا عنها فأشاروا إلينا أن نذهب إلى المغاسلِ في الجزء الشرقي من القرية، الأحواض هناك حجرية وقد وُضِعَت بحيث أن خيطَ ماءٍ على مستوى الحوضِ الأوّل وينزل في قناة خشبية صغيرة، يكفي لغسيلِ عشرِ نساء. حين وصلنا كان هناك فقط ثلاث غاسلات. كانت ثِساريا في الوسط عرفناها فوراً. منظرها من خلفٍ منحنيةٌ فوق الحوض لم يكن فيه أيّ شاعرية. كانت تبدو صخرة أو فيلاً. كان وركاها هائلين ويتحرّكان على إيقاع ذراعيها، جذعَيّ بلوطٍ يضغطان لدعكِ وشطف الثياب. كان شعرها يصل إلى خصرها وكانت حافية. حين ناديناها التفتت وواجهتنا بشكل طبيعيّ، الغاسلتان الأخريان التفتتا أيضاً. نظرت إلينا ثِساريا ورفيقتاها لحظةً دون أن يقلنَ شيئاً: التي كانت على يمينها تبدو في الثلاثين، لكن أيضاً يمكن أن تكون في الأربعين أو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الخمسين، التي على يسارها لا يبدو أنّها تجاوزت العشرين. كانت عينا ثِساريا سوداوين ويبدو أنّهما تمتصان كلَّ شمس الفناء. نظرتُ إلى ليما، كان قد توقّف عن الابتسام. كان بِلانو يرمشُ بأهدابه كما لو أنّ حبّةَ رملٍ تُعَكّر الرؤية عنده. وفي لحظةً، لا أستطيع أن أحدّدها بدقّة، رحنا نسيرُ باتجاه بيت ثِساريا تيناخِرو. أتذكّر أن بِلانو حاول، بينما نحن نعبر الشوارع المقفرة تحتَ شمسٍ لا ترحم، أن يُقَدِّمَ تفسيراً أو تفسيرين، أتذكّر صمته اللاحق. بعدها أعرف أنّ أحداً قادني إلى غرفة مظلمة ورطبة وأنّني ارتميت على فراشٍ ونمتُ. حين استيقظتُ كانت لوبّ إلى جانبي، نائمةً وذراعاها وساقاها يلفانني. تأخّرتُ في فهم أين كنتُ. سمعتُ أصواتاً فنهضتُ. في الغرفة المجاورة كانت ثِساريا وصديقاي يتكلمون. حين ظهرتُ ما من أحدٍ نظر إليّ. أتذكّرُ أنّني جلستُ على الأرضِ وأشعلتُ سيجارة. كانت تُعَلّق على الجدران أعشاباً مربوطة بألياف صبار. كان بِلانو وليما يُدخّنان، لكنّ الرائحة التي أحسست بها لم تكن رائحة التبغ.

كانت ثِساريا جالسة بالقرب من النافذة الوحيدة وتنظرُ من حينٍ لآخر إلى الخارج، تنظر إلى السماء، وعندها لا أدري لماذا كان باستطاعتي أن أبكي، وإن لم أفعل. بقينا برهةً طويلة على هذه الحال. ظهرت لوبّ في الغرفة دون أن تقولَ شيئاً، جلست بجانبي. بعدها نهضنا نحن الخمسة عن مقاعدنا وخرجنا إلى الشارع الأصفر، الذي يكاد يكون أبيض. لا بدّ أن المساء قد حلَّ مع أنّ الحرَّ كان يصل على شكل موجات. سرنا إلى حيث تركنا السيارة. خلال مسيرنا التقينا فقط بشخصين: عجوز كان يحمل مذياعَ مدّخراتٍ وطفل في حدود العاشرة من عمره يُدَخّن. كان داخل الإيمبالا ملتهباً. صعد بِلانو وليما إلى المقعد الأمامي وبقيت أنا محصوراً بين

لوبِّ وإنسانيةِ ثِساريا تيناخِرو الهائلة. بعدها راحت السيارةُ تطلق أنيناً في شوارع بيّابيثيوسا الترابية حتى وصلتْ إلى الطريق.

كنّا خارج القرية حين رأينا سيارة تأتي بالاتجاه المعاكس. ربّما كانت تلك السيارة وسيارتنا الوحيدتين في دائرة قطرها كيلومترات كثيرة. فكّرتُ للحظة أنّنا سننفجر، لكنّ ليما تنحى جانباً وكبح السيارة. سحابة من غبار غطّت سيارتنا التي شاخت قبل أوانها. أحدٌ لعن. قد تكون ثِساريا. شعرتُ بأنّ جسم لوبِّ التصق بجسمي. حين تلاشت سحابة الغبار نزل من السيارة الأخرى ألبِرتو والشرطيّ وسدّدا علينا بمسدسيهما.

شعرت بنفسي مريضاً: لم يكن باستطاعتي أن أسمعَ ما يقولان، لكنّني رأيتهما يُحرّكان فميهما وعرفتُ أنّهما كانا يأمراننا بأن ننزل. إنّهما يشتماننا، سمعتُ بِلانو يقول غيرَ مُصَدِّق، يا أولاد العاهرة، قال ليما.

١ شباط

هذا ما حدث. فتح بِلانو البابَ الذي بجانبه ونزل. نظرت ثِساريا تيناخِرو إليَّ وإلى لوبِّ وقالت لنا ألاّ نتحرّك. ليحدث ما يحدث لن ننزل. لم تستخدم هذه الكلمات، لكن هذا ما أرادت أن تقوله. أعرف ذلك لأنّها كانت أوّل وآخر مرّة كلّمتني فيها. لا تتحرّك، قالت، ثمّ فتحت الباب الذي بجانبها ونزلت.

رأيتُ من النافذة بِلانو يتقدّم وهو يُدخّن ويده الأخرى في جيبه. إلى جانبه كان يسيرُ عوليس ليما وإلى الخلف منهما قليلاً. رأيت ظهرَ ثِساريا تيناخِرو المدرَّع يرتجّ مثلَ شبحِ سفينةٍ حربيّة. ما حدث بعدها مُلْتِبِس. أظنُّ أنّ ألبِرتو شتمهما وطلبَ منهما أن يُسلِّماه لوبِّ، أعتقد أنّ بِلانو قال لهما أن يذهب في طلبها، وإنّها كلّها له. ربّما في تلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اللحظة قالت ثِساريا إنّهم سيقتلوننا. ضحك الشرطيُّ وقال لا، فقط نريد العاهرة الصغيرة. هزّ بِلانو كتفيه. كان ليما ينظر إلى الأرض. عندها وجّه ألبِرتو نظرته، نظرة الصقر، إلى الإيمبالا، وبحث عنّا بصعوبة. أظنّ أنّ الشمسَ التي راحت تغيب، كانت تمنعه بانعكاساتها من أن يرانا بوضوح. أشار بِلانو بيده التي تحمل السيجارة إلينا. ارتعشت لوبِّ كما لو أنَّ جمرَ السيجارة كان شمساً مصغّرة. هم هناك، يا رجل، كلّهم لك. حسنٌ سوف أذهب لأرى كيف حال زوجتي، قال ألبِرتو. التصق جسم لوبِّ بجسمي وعلى الرغم من أنّ جسدي وجسدها لدنين راح كلّ شيء فينا يُطقطق. فقط استطاع قوّادُها القديم أن يخطو خطوتين. حين مرّ بجانب بِلانو انقضّ هذا عليه.

أوقف بيدٍ ذراع ألبِرتو التي تحمل المسدّس وأخرج من جيبهِ يدَهُ الأخرى التي تقبض على السكين التي سبقَ واشتراها في كابوركا. وقبل أن يتدحرجا على الأرض، كان بِلانو قد نجح في أن يقبر السكين في صدره. أتذكّر أنَّ الشرطيَّ فتح فمه بشكل كبير، كما لو أنّ كلَّ الأوكسجين قد اختفى من الصحراء، كما لو أنّه لا يُصدّق أنّ طالِبَيْن يُقاومانهما. بعدها رأيتُ عوليس ليما يرتمي فوقه. شعرت بطلقة فانحنيتُ. حين عدت ورفعت رأسي عن المقعد الخلفيّ رأيتُ الشرطيّ وليما يتدحرجان على الأرض حتى توقّفا على حافّة الطريق، الشرطيّ فوق عوليس، كان مسدس الشرطي يصوّب على رأس عوليس، ورأيتُ ثِساريا، رأيتُ جسمَ ثِساريا تيناخِرو الضخم، ومع أنّها كانت لا تكادُ تستطيع أن تجري، راحت تجري، هاويةً فوقهما. سمعت طلقتين فنزلت من السيارة. وجدتُ صعوبة في إزاحةِ جسمِ ثِساريا من فوق جسدَيّ الشرطيّ وصديقي.

كان الثلاثة مُلَطَّخِين بالدم، لكن وحدها ثِساريا ميتة. كان هناك ثقبُ رصاصة في صدرها، الشرطيّ ينزف من جرحٍ في بطنه وليما

مخدوش في ذراعه. أخذتُ المسدسَ الذي قتل ثِساريا وجرح الآخرَيْن وخبّأته تحت زناري، بينما رحتُ أُساعدُ عوليس على النهوض. رأيتُ لوبِّ تُجهِش باكيةً بجانب جسد ثِساريا. قال لي عوليس إنّه لا يستطيع أن يُحرّك ذراعه اليسرى. أعتقدُ أنّها مكسورة، قال. سألتُهُ عمّا إذا كانت تؤلمه. لا تؤلمني، قال. إذن ليست مكسورة. ويحنا، أين أرتورو؟ سأل ليما. توقّفت لوبِّ عن البكاء على الفور ونظرت إلى الوراء، على بعد قرابة العشرة أمتار منّا رأينا بِلانو ممتطياً جسمَ القوّاد الجامد. هل أنتَ بخير؟ أنَّ ليما. نهضَ بِلانو دون أن يُجيب. نفض عنه الغبار وخطى بضع خطوات مترنّحة. كان شعره ملتصقاً بوجههِ بفعلِ العرق، وكان يفركُ عينيه باستمرار فقطرات العرق التي راحت تسقط من جبينه وحاجبيه تدخل في عينيه. حين انحنى بجانبِ جثّة ثِساريا انتبهت إلى أنّه كان ينزف من أنفه وشفتيه. ماذا سنفعل الآن؟ فكّرتُ، لكنّني لم أقُلْ شيئاً. وبدلَ ذلك رحتُ أمشي كي أمطّ جسدي الذي كان مُثلجاً (لكن لماذا مثلجاً؟) وبقيتُ برهة أتأمّل جسم ألبِرتو والطريق الموحِش المؤدّي إلى بيّابيثيوسا. ومن حين لآخر كنتُ أسمع أنين الشرطيّ، وهو يطلب أن نأخذه إلى مشفى.

حين التفتُّ رأيتُ ليما وبِلانو، اللذين كانا يتكلّمان مستندين إلى الكامارو. سمعتُ بِلانو يقول إنّنا تورّطنا، إنّنا عثرنا على ثِساريا كي نأتيها بالموت. بعدها لم أسمع شيئاً حتى لمسَ أحدٌ كتفي وقال لي أنْ أصعد إلى السيارة. خرجت الإيمبالا والكامارو عن الطريق ودخلتا في الصحراء. ثمّ وقبل أن يهبط الليل عادتا لتتوقّفا ونزلنا. كانت السماء مغطاة بالنجوم ولا يُرى شيء. سمعتُ بِلانو وليما يتحادثان. سمعتُ أنين الشرطي، الذي كان يُحتَضَرُ. بعدها لم أسمع شيئاً. أعرفُ أنّني أغمضتُ عينيّ. بعدها ناداني بِلانو ووضعنا فيما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بيننا جثّتي ألبِرتو والشرطي في صندوقِ أمتعةِ الكامارو وجثّة ثِساريا في المقعد الخلفيّ. القيام بهذا العمل الأخير كلّفنا وقتاً هائلاً. بعدها رحنا ندخّن أو ننام داخل الإيمبالا ونُفكّر إلى أن طلع الفجرُ أخيراً.

عندئذٍ قال لنا بِلانو وليما إنّ من الأفضل لنا أن نفترق. يتركان لنا الإيمبالا ويأخذان هما الكامارو مع الجثث. ضحك بِلانو لأوّلِ مرّة: عقدٌة عادل، قال. هل ستعودين الآن إلى العاصمة الفيدرالية؟ سأل لوبِّ. لا أعرفُ، قالت لوبِّ. كل شُّيء كانت نتيجته سيّئة، معذرةً، قال بِلانو. أعتقد أنّه لم يقل هذا للوبِّ بل لي. لكنّنا سنحاول الآن إصلاحه، قال ليما. أيضاً هو كان يضحك. سألتُهما ماذا تفكّران أن تفعلا بِثِساريا. هزّ بِلانو كتفيه. لن يكون هناك من مجالٍ غير أن نقبرها مع ألبِرتو والشرطيّ، قال. إلا إذا أردنا أن نُمضي فترة في السجن. لا، لا، قالت لوبِّ، طبعاً لا. عانقناهما وصعدنا أنا ولوبِّ إلى الإيمبالا. رأيتُ أنّ ليما يُحاول أن يصعد من باب السائق، لكنَّ بِلانو يمنعه... رأيتهما يتكلمان برهة. رأيتُ ليما يجلسُ أخيراً في المقعد المجاور للسائق وبِلانو يمسِكُ بالمقود. مرّت برهة لا تنتهي لم يحدث فيها شيء. سيارتان متوقّفتان وسطَ الصحراء. هل تستطيع أن تعود إلى الطريق العام، يا غارثيّا مادِرو؟ سأل بِلانو. طبعاً، قلتُ. رأيتُ بعدها الكامارو تنطلق متردّدةٍ والسيارتين تدوران معاً في الصحراء. انفصلنا بعدها. رحتُ أنا أبحث عن الطريق بينما انعطف بِلانو نحو الغرب.

٢ شباط

لا أعرف ما إذا كان اليوم هو الثاني أو الثالث من شباط. يمكن أن يكون الرابع، بل وربّما الخامس أو السادس. لكنّ الأمر سيّان بالنسبة لغاياتي. هذه هي مرثيّتنا.

٣ شباط

قالت لي لوبِّ إنّنا آخر الواقعيين الأحشائيّين المتبقين في المكسيك. كنت مرمياً على الأرض، أُدَخّن وبقيت أنظر إليها وقلت لها لا تحزني.

٤ شباط

أشرعُ أحياناً بالتفكيرِ ببِلانو وليما وأتصوّرهما يحفران لساعاتٍ حفرةً في الصحراء. بعدها، حين يهبط الليل، أراهما يبتعدان من هناك ويضيعان في هِرموسيّو، حيث تكثرُ سياراتُ الكامارو في كلّ شارعٍ. بدءاً من هذه اللحظة لا يوجد صور. أعرفُ أنّهما كانا يُفكّران بمتابعة سفرهما إلى العاصمة الفيدرالية في الحافلات، أعرف أنّهما كانا يأملان أن يجتمعا بنا هناك. لكن لا أنا ولا لوبِّ عندنا رغبة بالعودة. سنلتقي في العاصمة الفيدرالية، قالا. سنلتقي في العاصمة الفيدرالية، قلتُ أنا قبل أن تنفصل السيارتان في الصحراء. أعطيانا نصفَ النقود الذي تبقّت معهما. بعدها حين بقينا لوحدنا، أعطيتُ النصفَ للوبِّ، تحسّباً. البارحة ليلاً عدنا إلى بيّابيثيوسا، ونمنا في بيت ثِساريا تيناخِرو. بحثتُ عن دفاترها. كانت في مكان ظاهرٍ جيداً، في الغرفة ذاتها التي نمتُ فيها في المرّة الأولى. ليس في البيت إضاءة كهربائية. اليوم تناولنا الفطور في أحد البارين. كان الناس ينظرون إلينا ولا يقولون شيئاً. بحسبِ لوبِّ، كان باستطاعتنا أن نبقى لنعيش هنا كلّ الوقت الذي نريد.

٥ شباط

حلمتُ هذه الليلة بأنَّ بِلانو وليما يتركان الكامارو على شاطئٍ من باهيّا كينو ثمّ يدخلان في البحر ويسبحان حتى كاليفورنيا السفلى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كنتُ أسألهم لماذا يريدان أن يذهبا إلى كاليفورنيا السفلى وكانا يجيبانني: كي نهرب، وعندها كانت تخفيهما موجة عن ناظري. حين حكيتُ الحلم للوبِّ قالت لي إنه غير ذي أهمّية وعليّ ألاّ أنشغل، وإنّ ليما وبِلانو هما بالتأكيد بخير. في المساء ذهبنا لنأكل في البار الآخر. الزبائن كانوا ذاتهم. لم يقل لنا أحدٌ شيئاً عن إشغالنا لبيتِ ثِساريا. لا يبدو أنّ وجودنا في القرية يشغل بالَ أحد.

٦ شباط

أُفَكّرُ أحياناً بالعراك كما لو أنّه حلمٌ. أعودُ وأرى ظهرَ ثِساريا تيناخِرو مثل كوثلٍ سفينةٍ تغرق قبل مئات السنين. أعودُ وأراها ترمي بنفسها فوق الشرطيّ وعوليس ليما. أراها تتلقى رصاصة في صدرها. وأراها أخيراً تُطلقُ النار على الشرطيّ أو تحوّلُ مسارَ الطلقة الأخيرة. أراها تموت وأشعر بثقل جسمها. ثمَّ أُفكِّرُ. أُفكّر أنّه ربّما لم يكن لِثِساريا أيّ علاقة بموت الشرطيّ. وعندها أُفكِّرُ بِبِلانو وليما، واحد يحفر قبراً لثلاثة أشخاص، والآخرُ يتأمّل العملَ مضمَّدَ الذراع اليمنى، وعندها أفكّر أن ليما هو الذي جرح الشرطيّ وأنّ ذهن الشرطيِّ غفل حين هاجمته ثِساريا وأنّ عوليس استغلّ تلك اللحظة كي يحوّل اتجاه السلاح ويوجّهه إلى صدر الشرطيّ. وأحاول أحياناً، كي أُنوِّعَ، أن أفكّرَ بموت ألبِرتو، لكنّني لا أستطيع. آمل أن يكونا قد قبراهما معاً مع المسدّسين. أو أن يكونا قد طمرا هذين في حفرة أخرى من الصحراء. لكن أن يكونا على أيّ حال قد تخلّصا منهما! أتذكّر أنّني حين وضعتُ جثة ألبِرتو في صندوق الأمتعة فتّشتُ جيوبه. كنتُ أبحثُ عن السكين التي كان يقيس بها عضوه. لم أجدها. وأحياناً أُفكِّر، كي أُنوِّعَ، بكيم، بالإيمبالا، التي ربّما لن يراها أبداً. أحياناً أضحك وأحياناً أخرى لا أضحك.

٧ شباط

الطعام رخيص. لكن لا يوجد عمل هنا.

٨ شباط

قرأتُ دفاترَ ثِساريا. حين عثرت عليها فكّرتُ أنّني آجلاً أو عاجلاً سأُرسلها بالبريد إلى العاصمة الفيدرالية إلى بيت ليما أو بِلانو. الآن أعرف أنّني لن أفعل. ليس لهذا أيّ معنى. لا بدّ أنّ كلّ شرطة سونورا تتبع آثار صديقيَّ.

٩ شباط

عدنا إلى الإيمبالا، عدنا إلى الصحراء. كنتُ سعيداً في هذه القرية. قالت لوبِّ قبل أن نغادر إنّ باستطاعتنا أن نعود إلى بيّابيثيوسا متى نشاء. لماذا؟ سألتها. لأنّ الناس يقبلوننا. هم قتلة مثلنا. نحنُ لسنا قتلة، قلتُ لها. أهلُ بيّابيثيوسا أيضاً ليسوا قتلة، لكنّها طريقة في الكلام، قالت لوبِّ. ستلقي الشرطةُ ذات يومِ القبضَ على بِلانو وليما، لكّنها لن تعثر علينا نحن. آه، يا لوبِّ، كم أحبُّكِ، لكن كم أنتِ مُخطئة.

١٠ شباط

كوكورْبِّ، توابِّ، مِرسيتشيك، أوبّودِبِّ.

١١ شباط

كاربو، إل أواسيس، فِليكس غومِثْ، إل كواترو، ترنتشِراس، لا ثِيينِغا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٢ شباط

باموري، بيتيكيتو، كابوركا، سان خوان، لاس ماراببّاس لاس كالِنتوراس.

١٣ شباط

ماذا يوجد خلف النافذة؟

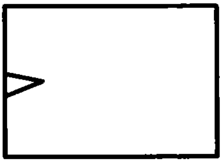

نجم.

١٤ شباط

ماذا يوجد خلف النافذة

ملحفة منشورة.

١٥ شباط

ماذا يوجد خلف النافذة؟

المحتويات

I. مكسيكيون ضائعون في المكسيك (١٩٧٥) ٩

II. رجال التحري المتوحشون (١٩٧٦-١٩٩٦) ١٨٧

١ . **أماديو سالباتييرّا**، شارع جمهورية فنزويلا قرب قصر التفتيش،
مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦ .... ١٨٩

بِرلا أبيلِسْ، شارع ليوناردو دافنشي، حي ميكسكوَاكْ،
مكسيكو العاصمة الفدرالية كانون الثاني ١٩٧٦ . ... ١٩١

لاورا خاورِغي، تْلالبان، مكسيكو العاصمة الفيدرالية،
كانون الثاني ١٩٧٦ . ... ١٩٥

فابيو إرنِستو لوخياكومو، تحرير مجلة لا *تشيسبا*، شارع
الاستقلال، زاوية لويس مويا، مكسيكو العاصمة الفيدرالية،
آذار ١٩٧٦ .... ٢٠٠

سان سِباستيان روسادو، مقهى لا راما دورادا، حيّ
كويواكان، مِكسيكو العاصمة الفدرالية، نيسان ١٩٧٦ .... ٢٠٥

ألبِرتو مور، شارع فيثاغورس، حي نارفارتِ،
مِكسيكو العاصمة الفيدرالية، نيسان ١٩٧٦ .... ٢١٣

كارلوس مونسيبايس، سائراً في شارع مادِرو قرب سانبورنْس،
مكسيكو العاصمة الفدرالية، أيار ١٩٧٦ .... ٢١٦

٢ . **أماديو سالباتييرّا**، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر
التفتيش، مكسيكو العاصمة الفدرالية كانون الثاني ١٩٧٦ ..... ٢١٧

https://telegram.me/maktabatbaghdad

برلا أبيلِسْ، شارع ليوناردو دافنشي، حي ميكسواك،
مكسيكو العاصمة الفيدرالية، أيّار عام **١٩٧٠** ٢١٨
البَشَرَة الإلهية في غرفةٍ على سطحٍ في شارعِ تِبِّخي،
مكسيكو العاصمة الفيدرالية، أيّار ١٩٧٦ .... ٢٢٤
لاورا خاورِغي، تْلالْبان، مكسيكو العاصمة الفيدرالية،
أيّار ١٩٧٦ .... ٢٢٦
لويس سِباستيان روسادو، حفلة في بيت آل مور، أكثر من
عشرين شخصاً، حديقة بأضواء على وجهِ العشب، حي
لاس لوماس، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، تموز ١٩٧٦ ..... ٢٢٧
أنخِليكا فونت، شارع كوليما، حي كوندِسا، مكسيكو
العاصمة الفيدرالية، تموز ١٩٧٦ .... ٢٣٢
٣. **مانولْ مابْلِسْ أرثِ**، متنزِّهاً في كالثادا دِل ثِرّو، غابة
تشابّولتِبِّك، مكسيكو العاصمة الفيدررالية، آب ١٩٧٦ .... ٢٣٥
باربارا باتِرسون، في غرفة من فندق لوس كلابِلِس،
جادّة نينيو بِرديدو زاوية خوان دِ ديوث بِثا، مكسيكو،
العاصمة الفيدرالية، أيلول ١٩٧٦ .... ٢٣٧
أماديو سالباتييرّا، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر
التفتيش، مكسيكو العاصمة الفدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦ .... ٢٤٠
خواكين فونت، شارع كوليما، حي كوندِسا، مكسيكو
العاصمة الفدرالية، تشرين الأوّل ١٩٧٦ .... ٢٤١
خاثينتو رِكِنا، مقهى كيتو، شارع بوكارِلي، مكسيكو
العاصمة الفيدرالية، تشرين الثاني ١٩٧٦. .... ٢٤٢
ماريا فونت، شارع كوليما، حي كوندِسا، مكسيكو العاصمة،
كانون الأوّل ١٩٧٦. .... ٢٥٠
٤. **أوكسيليو لاكوتور**، كلّية الفلسفة والآداب، الجامعة
الوطنية المكسيكية المستقلة، مكسيكو العاصمة الفدرالية،
كانون الأوّل ١٩٧٦. .... ٢٥٤

٥. **أماديو سالباتييرّا**، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر التفتيش، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الأوّل ١٩٧٦ ... ٢٦٨

خواكين فونت، مشفى إل رِبوسو للصحة العقلية، طريق صحراء الأُسود، ضواحي مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٧ .... ٢٧٠

خواكين باثكِث أمارال، ماشياً في حرم جامعة الوسط الغربي الأمريكي الشمالي، شباط ١٩٧٧ .... ٢٧٢

ليساندرو مورالِس، شارع كومِرثيو، مقابل حديقة مورِلوس، حيّ إسكاندون، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، آذار ١٩٧٧ .... ٢٧٥

لاورا خوارِغي، تْلالبّان، مكسيكو، العاصمة الفيدراليلة، آذار ١٩٧٧. .... ٢٨٢

٦. **رافائيل باريوس**، مقهى كيتو، شارع بوكارِلي، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، أيار ١٩٧٧. .... ٢٨٦

خواكين فونت، مشفى إل رِبوسو للصحة العقلية، طريق صحراء الأسود، في ضواحي مكسيكو العاصمة الفيدرالية، آذار ١٩٧٧ .... ٢٨٧

أماديو سالباتييرّا، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر التفتيش، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الأوّل ١٩٧٦ ... ٢٩٠

فِليبّ مولِر، بار ثِنتريكو، شارع تاليرز، برشلونة، أيار ١٩٧٧ ٢٩٥

٧. **سيمون درايوكس**، شارع دِس بتيت إكوري، باريس، تموز ١٩٧٧ .... ٣٠٠

هيبوليتو غارثِسْ، جادة مارسيل بروست، باريس، آب ١٩٧٧ .... ٣٠٦

روبِرتو روساس، شارع باسي، باريس، أيلول ١٩٧٧ ...... ٣١٠

سيمون داريو، شارع دِس بِتيتس إكوريس، باريس، أيلول ١٩٧٧. .... ٣١٤

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صوفيا بِلّغريني، جالسة في حدائق تروكادِرو، باريس،
أيلول ١٩٧٧ .... ٣١٦
سيمون داريو، شارع دِس بتيتس إكوربيس، باريس،
أيلول ١٩٧٧ .... ٣١٧
ميشيل بولتو، شارع طهران، باريس، كانون الثاني ١٩٧٨ ... ٣١٩
٨. **أماديو سالباتييرّا**، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر
التفتيش، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦ ... ٣٢٤
فِليبّ مولِر، بار سنتريكو، شارع تاليرز، برشلونة،
كانون الثاني ١٩٧٨ .... ٣٢٦
ماري واتسون، سوزرلاند بالاس، لندن، أيار ١٩٧٨ .... ٣٢٨
ألان ليبِرت، بار شيز رول، بورت فِندرِس، فرنسا،
كانون الأوّل ١٩٧٨ .... ٣٤٨
٩. **أماديو سالباتييرّا**، شارع جمهورية فنزيلا، قرب قصر
التفتيش، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦ ... ٣٦٢
خواكين فونت، طريق صحراء الأسود، في ضواحي
مكسيكو العاصمة الفيدرالية، آذار ١٩٧٩ .... ٣٦٨
خاثينتو رِكِنا، مقهى كيتو، شارع بوكارِلي، مكسيكو
العاصمة الفيدرالية، آذار ١٩٧٩. .... ٣٦٩
لويس سِباستيان روسادو، استوديو في ظلمة، حي
كويواكان، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، آذار ١٩٧٩. .... ٣٧٠
أنخِليكا فونت، شارع كوليما، حي كوندِسا، مكسيكو
العاصمة الفيدرالية، نيسان ١٩٧٩ .... ٣٧٥
١٠. **نورمان بولزمان**، جالساً على مقعد في حديقة إديث
وولفسون، تل أبيب، تشرين الأوّل ١٩٧٩ .... ٣٨٢
١١. **أماديو سالباتييرّا**، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر
التفتيش، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦ ... ٣٩٧

ليساندرو مورالِس، حانة لا سايتا مِخيكانا، في محيط
لا بيّا، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٨٠ ..... ٤٠٤
خواكين فونت، مشفى الصحّة العقلية، إل رِبّوسو، طريق
صحراء الأسود، في ضواحي مِكسيكو العاصمة الفيدرالية،
نيسان ١٩٨٠ .... ٤٠٦

١٢ . **هايميتو كونست**، نائماً في سقيفة لا ستونغاس، فيينا،
أيار ١٩٨٠ .... ٤٠٩
ماريّا فونت، شارع مونتِس، قرب نصب الثورة، مكسيكو
العاصمة الفيدرالية، شباط ١٩٨١ .... ٤٢٧

١٣ . **رافائيل باريّوس**، جالساً في غرفة معيشة بيته، جاكسون
ستريت، سان دييغو، كاليفورنيا، آذار ١٩٨١ .... ٤٣٤
باربارا باتِرسون، في مطبخ بيتها، جاكسون ستريت،
سان دييغو، كاليفورنيا، آذار ١٩٨١ .... ٤٣٥
خوسِهْ «ثوبّيلوتِ» كولينا، مقهى كيتو، جادة بوكارِلي،
مكسيكو العاصمة الفيدرالية، آذار ١٩٨١ .... ٤٣٩
فيرونيكا فولكوف، مع صديقة وصديقين، قاعة المغادرة
الدولية، مطار مكسيكو العاصمة الفيدرالية، نيسان ١٩٨١ ..... ٤٤١
ألفونسو بِرِث كامارغا، شارع طُليطِلة، مكسيكو
العاصمة الفيدرالية، حزيران ١٩٨١ .... ٤٤٣

١٤ . **هوغو مونتِرو**، وهو يتناول كأس بيرة في بار لا مالا سِندا،
شارع المُفكّر المكسيكي، مِكسيو العاصمة الفيدرالية،
أيّار ١٩٨٢ .... ٤٤٧

١٥ . **خاثينتو رِكنا**، مقهى كيتو، شارع بوكارِلي، مكسيكو
العاصمة الفيدرالية، تموز ١٩٨٢ .... ٤٦٢
خوتشيتل غارثيّا، شارع مونتس، قرب نصب الثورة،
مكسيكو العاصمة الفيدرالية، تموز ١٩٨٢ .... ٤٦٤

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رافائيل بارّيوس، في حمام بيته، جاكسون ستريت،
سان دييغو، كاليفورنيا، أيلول ١٩٨٢ .... ٤٦٦
باربارا باترسون، في مطبخ بيتها، جاكسون ستريت،
سان دييغو، كاليفورنيا، تشرين الأوّل ١٩٨٢ .... ٤٦٧
لويس سِباستيان روسادو، استوديو معتم، شارع كرابيوتو،
حي كويواكان، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، آذار ١٩٨٣ ..... ٤٦٩
١٦ . **أماديو سالباتييرّا**، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر
التفتيش، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦ ... ٤٧٩
جواكين فونت، طبيب نفسي، لا فورتالِثا، تلالنِبّانْتْلا،
مكسيكو العاصمة الفيدرالية، آذار ١٩٨٣ .... ٤٨٥
خوتشيتل غارثيّا، شارع مونتِسْ، قرب نصب الثورة،
مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانونِ الثاني ١٩٨٤ .... ٤٨٨
لويس سِباستيان روسادو، استوديو مُظلم، شارع كرابيوتو،
حي كويواكان، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، شباط ١٩٨٤ .... ٤٩٢
١٧ . **خاثينتو رِكِنا**، مقهى كيتو، شارع بوكارِلي، مكسيكو
العاصمة الفيدرالية، أيلول ١٩٨٥ .... ٤٩٥
خواكين فونت، مريض نفساني، لا فورتالِثا، تلالْنِبّانْتْلا،
مكسيكو العاصمة الفيدرالية، أيلول ١٩٨٥ .... ٤٩٦
خوتشيتل غارثيّا، شارع مونتِس، قرب نصب الثورة،
مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٨٦ .... ٤٩٩
أماديو سالباتييرّا، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر
التفتيش، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦ ... ٥٠٦
١٨ . **خواكين فُونْتْ**، شارع كوليما، حي كوندِسا، مكسيكو
العاصمة الفيدرالية، آب ١٩٨٧ .... ٥١٠
أندرِسْ راميرث، بار إل كورْنو دِ أورو، شارع أبِنير،
برشلونة، كانون الأوّل ١٩٨٨ .... ٥١٧

أبِل رومِرو، مقهى الألزاسي، شارع فوجيرارد، قرب
حديقة لوكسمبورغ، باريس، أيلول ١٩٨٩ .... ٥٣٦
١٩. **أماديو سالباتييرّا**، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر
التفتيش، مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦ ... ٥٣٨
إديت أوستِر، جالسة على مقعد في شارع ألامِدا،
مكسيكو العاصمة الفيدرالية، أيّار ١٩٩٠ .... ٥٤٢
فِليبّ مولّر، جالساً على مقعدٍ في ساحة مارتورِل،
برشلونة، تشرين الأوّل ١٩٩١ .... ٥٧٢
٢٠. **خوسِهْ لِندويرو**، تِيرمِه دي ترايانو، روما،
تشرين الأول ١٩٩٢ .... ٥٧٧
٢١. **دانيال غروسمان**، جالساً على مقعد في ألامِدا،
مكسيكو العاصمة الفيدرالية، شباط ١٩٩٣ .... ٦١١
أماديو سالباتييرّا، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر
التفتيش مكسيكو العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦ ..... ٦٢٤
٢٢. **سوزان بويغ**، شارع جوسيب تارادِيّاس، كالِيّا دِ مار،
كتلونيا، حزيران ١٩٩٤ .... ٦٣٠
غييم بّينيا، شارع غاسبار بوخول، أندراتكس، مَيورقة،
حزيران ١٩٩٤ .... ٦٣٩
خاوم بلانِلْز، بار سالامبو، شارع تورِّيخوس، بارثِل،
حزيران ١٩٩٤ .... ٦٤٩
٢٣. **إنياكي إتشابارن**، بار غياردينِتّو، شارع غراناد دِل بّنِدِس،
برشلونة، تموز ١٩٩٤ .... ٦٥٩
أورِليو باكا، معرض الكتاب، مدريد ١٩٩٤ .... ٦٥٩
بِرِ أوردونيوث، معرض الكتاب، مدريد ١٩٩٤ .... ٦٦٠
خوليو مارتينِث مورالِس، معرض الكتاب، مدريد،
تموز ١٩٩٤ .... ٦٦١

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بابلو دِل بايّه، معرض الكتاب، مدريد، تموز ١٩٩٤ .... ٦٦٣
ماركو أنطونيو بالاثيوس، معرض الكتاب، مدريد،
تموز ١٩٩٤ .... ٦٦٧
هِرناندو غارثيّا ليون، معرض الكتاب، مدريد، تموز ١٩٩٤ ٦٦٩
بّلايو بارِّندواين، معرض الكتاب، مدريد، تموز ١٩٩٤ ..... ٦٧٣
فِليبّ مولِر، بار ثِنْتريكو، شارع تايِّرس، برشلونة،
أيلول ١٩٩٥ .... ٦٧٥

٢٤. **كلارا كابِثا**، باركِ هونديدو، مكسيكو العاصمة الفيدرالية،
تشرين الأوّل ١٩٩٥ .... ٦٨٠
ماريّا تِرِسا سولْسونا ريبوت، صالة جورديز جيم الرياضة،
شارع جوسِب تارّادِيّاس، مالْغراتْ، كتلونيا،
كانون الأوّل ١٩٩٥ .... ٦٩٤

٢٥. **جاكوبو إورِندا**، رو دو شيرش ميدي، باريس،
حزيران ١٩٩٦ .... ٧١٤

٢٦. **إرنِستو غارثيّا غراخالِس**، جامعة باتشوكا، باتشوكا،
المكسيك، كانون الأوّل ١٩٩٦ .... ٧٤٦
أماديو سالباتييرّا، شارع جمهورية فنزويلا، قرب قصر
التفتيش، مكسيكو، العاصمة الفيدرالية، كانون الثاني ١٩٧٦ .. ٧٤٨

III. صحارى سونورا (١٩٧٦) ٧٥٣

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا الكتاب

أرتور بِلانو وعوليس ليما، رجلا التحري المتوحشان، يخرجان للبحث عن آثار ثِساريا تيناخيرو، الكاتبة الغامضة المختفية في مكسيك السنوات التالية مباشرةً على الثورة، وهذا البحث -الرحلة ونتائجها- يطول عشرين سنة، منذ عام ١٩٧٦ وحتى ١٩٩٦، الزمن القانوني للتيه، مفترقين من خلال شخصيات وقارات مختلفة في رواية فيها من كلّ شيء: الحبّ والموت، والقتل وتسللات سياحية، مشافٍ عقلية وجامعات، اختفاءات وظهورات.

مكتبة بغداد

ISBN 978-9933352707
9 789933 352707